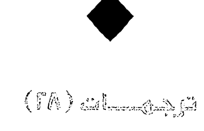

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
ترجمات (٢٨)
لماذا يهيمن الغرب اليوم؟
أنماط التاريخ وما تكشفه لنا عن المستقبل
إيان موريس
ترجمة
روان القصاص
مراجعة
محمد كمال



ترجمـــات (٢٨)

لماذا يهيمن الغرب اليوم؟

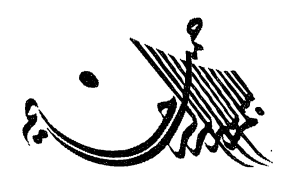
أنماط التاريخ وما تكشفه لنا عن المستقبل

إيــان موريــس

ترجمة
روان القصاص

مراجعة
محمد كمال

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies



لماذا يهيمن الغرب اليوم؟
(أنماط التاريخ وما تكشفه لنا عن المستقبل)
المؤلف: إيان موريس / ترجمة: روان القصاص / مراجعة: محمد كمال

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٨م

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مركز نماء».

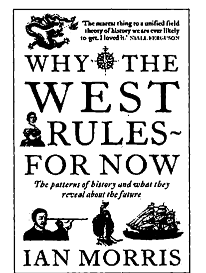


بيروت - لبنان
هاتف: ٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧

E-mail: info@nama-center.com

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز نماء للبحوث والدراسات
القصاص/ روان (مترجمة)
لماذا يهيمن الغرب اليوم؟ (أنماط التاريخ وما تكشفه لنا عن المستقبل)، إيان موريس (المؤلف)، روان القصاص (مترجمة)، محمد كمال (مراجع)
٨٣٢ ص، (ترجمات؛ ٢٨)
٢٤×١٧ سم
١. الفكر الغربي. ٢. التاريخ الغربي القديم والحديث. أ. العنوان. ب. السلسلة.

ISBN: 978-614-431-661-0



هذا الكتاب هو الترجمة العربية القانونية والحصرية لكتاب:

Why the West Rules for Now?

The Patterns of History, and What They Reveal About the Future

Author: Ian Morris

Publisher: Profile Books Ltd. 2010

إلى كاتي

المحتويات



«الكتاب أقرب ما يكون إلىٰ نظرية حقليَّة مُوحَّدة للتاريخ، من الممكن أن نحصل عليها علىٰ الإطلاق. يعرض إيان موريس، بكياسة وحكمة، أساليبَ التاريخ القديم والحديث وبصائرَه لمعالجة أكبر أسئلة التاريخ: لماذا يا تُرىٰ هَزم الغرب البقيَّة؟ لقد أحببت هذا الكتاب».

[نيال فيرغسون]

«هذا عملٌ عظيم من التوليف والمحاججة، يجمع بين مجموعة مبهرة من المواد والمراجع؛ ليقدم لنا قراءة ذكية وجديدة للعلاقات بين الشرق والغرب. في حين تنهض الصين، ويرتفع تعداد سكان العالم، ينسج موريس الدروس من آلاف السنين من تاريخ العالم تجاه خلاصة مفاجئة ومخيفة».

[آندرو مار]

«أعاد إيان موريس التاريخ إلىٰ الوضع الذي شغله من قبل، فلم يعد التاريخ سلسلة من الجدالات التي عفا عليها الزمن، أو قصصًا بسيطة -بالرغم من أنَّ لدىٰ إيان الكثير من القصص ليحكيها، وهو يفعل ذلك ببراعة- ولكن التاريخ بما هو «مدرسة الحياة». يشرح إيان كيف حدث الانقسام الغامض بين الشرق والغرب، ولماذا يهمّ هذا الأمر حقًّا، وكيف يمكن أن ينتهي هذا الانقسام يومًا ما. إنَّ رؤية إيان مبهرةٌ، ونثره لا يُقاوم. علىٰ الجميع من شفيلد إلىٰ شنغهاي ممَّن يريدون معرفة ليس فقط كيف صاروا إلىٰ مَن هم وإلىٰ حيث هم، ولكن أيضًا مصائر أبنائهم وأحفادهم - أن يقرؤوا هذا الكتاب».

[آنتوني باجدن، أستاذ العلوم السياسية والتاريخ البارز في جامعة كاليفورنيا،

لوس أنجلوس، مؤلف «العوالم والحرب: الصراع البالغ ٢٥٠٠ عام بين الشرق والغرب»]

«إنَّ تاريخ (موريس) عن الهيمنة العالمية يتلألأ بالأفكار المدهشة بنفس قدر تلألؤ الحكايات الرائعة فوق العادة. لماذا يُهيمن الغرب اليوم هو دراما تجذب الانتباه وخطوة رئيسة نحو نظرية متكاملة للتاريخ».

[ريتشارد رانغهام، روث مور أستاذ الأنثروبولوجيا البيولوجية بجامعة هارفارد، ومؤلف «النيران الآسِرة»]

«(إيان موريس) عالم آثار كلاسيكي، ومؤرخ للعصور القديمة، وكاتب صاحب رؤية واتساع أخَّاذيْن ممَّا يجعله يصلح لأنْ يُصنَّف إلىٰ جانب أمثال چاريد دياموند وداڤيد لانديز. إنَّ عمله العظيم ليس فقط مسحًا عامًا متسعًا، وإنَّما هو أيضًا إنجاز استثنائي، يأخذنا علىٰ متن رحلة رائعة من وإلىٰ المركزين العُقْديين للغرب الأمريكي الأوروبي والشرق الآسيوي، حيث يلقي الضوء ويتأمل في العام (١٠٨٠٠ ق. م) إيحائيًّا بنفس قدر إلقائه الضوء علىٰ العام (٢٠١٠م) وتأمله له. ربما لن يكون شكل العالم المتعوْلم هو نفسه مجددًا أبدًا».

[بول كارتلدج، ا. ج. أستاذ الثقافة اليونانية، جامعة كامبريدج]

«هذا العمل مذهل: مئات الصفحات عن أحدث المعلومات المتعلقة بكل جوانب التغيير. ثم أسئلة المستقبل: ما الذي سيجلبه توزيع ما جديد؟ وهل ستمر أوروبا بتغيُّر كبير؟ وهل سيفرض ملايين المهاجرين مجموعة جديدة من القواعد علىٰ البقية؟ لقد كان ثمة زمن حين كان بإمكان أوروبا استيعاب أيّ وكل الوافدين الجدد. ولكن ربما يُملي الوافدون الآن الشروط. وربما يستمر الغرب في الهيمنة، لكن الهيمنة قد تكون مختلفة تمامًا».

[دافيد س. لاندز، مؤلف «ثروة الأمم وفقرها»]

«مثير للفكر بعمق، وحيوي بشكل جذَّاب، متسع المجال، ودقيق في التفاصيل».

[جوناثان فينبي، مؤلف «تاريخ الصين الحديثة»، المحرر السابق لصحيفتي: «ذي أوبزيرفر» و«ساوث تشاينا مورنينج بوست»]

«مجهود هائل وجذاب بثراء لتحديد لماذا تهيمن المؤسسات الغربية علىٰ العالم ... سيستمتع القراء بنثر موريس الحيوي، والتضافر الرائع للعلم ... مع الاقتصاد والعلوم. الكتاب مساهمة ممتازة لنوع النظرية الكبرىٰ للتاريخ البشري».

[كيركس ريفيوز: (مراجعة مميَّزة)]

لماذا يُهيمن الغرب اليوم؟

مقدمة

ألبرت في بكين

لندن، ٣ أبريل ١٨٤٨م، أُصيب رأس الملكة ڤيكتوريا، فقد ظلت الملكة جاثية ووجهها مضغوط في العمود الخشبي منذ عشرين دقيقة. كانت الملكة غاضبةً وخائفةً ومُنهكةً من أثر مقاومة الدموع؛ وها هي السماء الآن قد بدأت تمطر، ابتلَّ رداء الملكة برذاذ الماء، وتمنَّت الملكة فقط ألَّا يظن أحدٌ أنَّ ارتجافاتها كانت بسبب الخوف.

كان زوجها بجوارها تمامًا، ولو مدَّت فقط ذراعها لاستطاعت أن تضع يدها علىٰ كتفه، أو تُملِّس شعره الرطب - أي شيء لمنحه قوة لِمَا هو آتٍ. ليت الزمن يتوقف أو يسرع، وليتها هي وألبرت كانا في أي مكانٍ عدا هنا.

وهكذا انتظر كل من فيكتوريا وألبرت (دوق ولنجتون)، ونصف أفراد البلاط وهم جاثون علىٰ ركبهم في المطر، فمن الواضح أنَّه كانت ثمة مشكلة ما في النهر. كانت سفينة قيادة الأسطول الصيني كبيرةً جدًّا لترسو في رصيف إيست إنديا؛ ولهذا قام الحاكم تشي ينغ بدخوله الكبير إلىٰ لندن علىٰ متن سفينة بخارية مُدرَّعة أصغر تحمل اسمَه نفسه، ولكن حتىٰ سفينة تشي ينغ كانت كبيرة بشكلٍ غير مريح بالنسبة إلىٰ الرصيف في بلاكوول. كانت ستة قوارب سَحْبٍ تسحب السفينة، مع اضطراب كبير في الأرجاء، إلىٰ كل مكان، ولم يكن الحاكم تشي ينغ مُستمتعًا.

استطاعت الملكة فيكتوريا بطرف عينها أن ترىٰ فرقةً موسيقية صينيةً صغيرة علىٰ الرصيف. لقد بدت أثوابهم الحريرية وقبعاتهم المضحكة زاهيةً منذ ساعة،

ولكنَّها الآن أصبحت رثَّة بالكامل تحت المطر الإنجليزي. وبدأت الفرقة بعزف بعض الموسيقىٰ الشرقية النشاز لأربع مرات، ظانِّين أنَّ هودج تشي ينغ علىٰ وشك أن يُحمل إلىٰ الشاطئ، فتوقفوا في المرات الأربع، لكنَّهم أكملوا العزف في المرة الخامسة. شعرت فيكتوريا بمعدتها تتحرك، لا بُدَّ أنَّ تشي ينغ قد نزل إلىٰ الشاطئ أخيرًا. لقد كان الأمر يحدث بالفعل.

ثم مثل مبعوث تشي ينغ أمامهم مباشرة، كان قريبًا جدًّا منهم لدرجة أن تمكنت فيكتوريا من رؤية الخياطة علىٰ نعله. كانت خياطة لتنانين، تنفث الدخان واللهب. لقد بدت الخياطة أكثر دقة ممَّا بدت وصيفتها قادرات علىٰ فعله.

أسهب المبعوث في قراءة الإعلان الرسمي من بكين، وأُخبرت فيكتوريا بما في الإعلان: أنَّ المثل الأعلىٰ -الإمبراطور الرفيع ديو غوانغ- قد عَلِم برغبة الملكة البريطانية بتقديم الاحترام للسلطة الإمبراطورية، وأنَّ فيكتوريا قد توسلت من أجل فرصة تقديم الإتاوة والضرائب، مع تقديم الطاعة القصوىٰ وطلب الأوامر، وأنَّ الإمبراطور قد وافق علىٰ معاملة مملكتها باعتبارها إحدىٰ ولاياته الدُنيا، وأن يسمح لبريطانيا باتباع الصين.

ولكن الجميع في بريطانيا كان يعرف ماذا حدث بالفعل. في البداية تم الترحيب بالصينيين، فقد ساعدوا في تمويل الحرب ضد نابليون، والذي أغلق موانئ القارة في وجوههم، ولكن منذ عام ١٨١٥م كان الصينيون يبيعون بضائعهم بأسعار منخفضة جدًّا في موانئ بريطانيا، إلىٰ أن أوقفوا النشاط التجاري لمصانع غزل القطن في لانكشاير، وعندما احتج البريطانيون ورفعوا التعريفات الجمركية، أحرق الصينيون البحرية الملكية الفاخرة، وقتلوا الأدميرال نيلسون، ونهبوا كل مدينة علىٰ طول الساحل الجنوبي. لثمانية قرون تقريبًا تحدت إنجلترا كل الغزاة، ولكن اسم الملكة فيكتوريا الآن سيسقط إلىٰ الأبد في سجلات العار! لقد كان مُلكها بمثابة طقوس عربدية للقتل والنهب والخطف، والهزيمة والعار والموت، وها قد جاء تشي ينغ بنفسه، وهو المُنفِّذ الشرير لإرادة الإمبراطور ديو جوانغ؛ ليقطر مزيدًا من الانحراف والنفاق.

وفي اللحظة المناسبة أطلق مترجم فيكتوريا، الراكع خلفها، سعالًا مثاليًّا لم يسمعه سوىٰ الملكة، وكان السعال هو الإشارة: فقد وصل تابع تشي ينغ إلىٰ الجزء الخاص بتفويضها باعتبارها حاكمة تابعة. رفعت فيكتوريا جبينها عن الرصيف ووقفت كي تتسلم القبّعة الهمجية والعباءة التي دلت علىٰ إهانة أمّتها. ورأت الملكة لأول مرة تشي ينغ بصورة جيدة، ولم تكن تتوقع أن ترىٰ مثل ذلك الشخص الذكي، والذي بدا قويًّا وفي منتصف العمر! هل يمكن أن يكون هو الوحش الذي لطالما ارتعبت منه؟ ورأىٰ تشي ينغ الملكة فيكتوريا لأول مرة. لقد سبق وأن رأىٰ صورةً لها في أثناء تتويجها، ولكنَّها كانت أكثر بدانة، وأبسط ممَّا توقع، وصغيرة - صغيرة جدًّا. كانت مبتلة جدًّا، وبدا أنَّ أجزاء صغيرة وقطعًا من الطين من الرصيف قد انتشرت في جميع أنحاء وجهها. إنَّها لم تعرف حتىٰ كيف تظهر التذلل علىٰ نحو صحيح. يا لوقاحة الناس!

والآن جاءت لحظة الرعب الأكثر سوادًا، والتي لا يمكن تصوُّرها. وبانحناءات كبيرة، خطَا اثنان من الماندرين (موظفون كبار في الصين القديمة، م) من وراء تشي ينغ، وساعدَا ألبرت علىٰ الوقوف، وعلمت فيكتوريا أنَّه ينبغي لها ألَّا تصدر صوتًا أو إيماءة - وفي الحقيقة، لقد كانت مُجمَّدةً في مكانها، ولم تكن لتتمكن من الاحتجاج لو حاولت.

لقد قادوا ألبرت بعيدًا. وتحرك ألبرت ببطء، وبوقار كبير، ثم توقَّف وتطلع وراءه إلىٰ فيكتوريا؛ لقد كان العالم كامنًا في تلك النظرة!

وأغمي علىٰ فيكتوريا، لكنَّ أحد الحضور الصينيين أمسك بها قبل سقوطها علىٰ الرصيف؛ فلم يكن الأمر لينفع لو كانت لديك ملكة، حتىٰ ولو كانت ملكة أجنبية شيطانية، وقد آذت نفسها في مثل تلك اللحظة. كان ألبرت يمشي هائمًا علىٰ وجهه، وقد تجمدت تعابيره وتقطعت أنفاسه، غادر ألبرت بلده المختارة. وعلىٰ معبر السفينة، إلىٰ المقصورة الفاخرة المغلقة، وإلىٰ الصين، إلىٰ هناك كي يُوظّف ألبرت باعتباره أحد التابعين في المدينة المُحرَّمة من قِبَل الإمبراطور نفسه.

وفي الوقت الذي أفاقت فيه فيكتوريا، كان ألبرت قد ذهب. والآن، وأخيرًا! أضنىٰ البكاء الحار جسدها. قد يستغرق ألبرت نصف عام للوصول إلىٰ

بكين، والوقت نفسه للعودة؛ وقد ينتظر شهورًا أو سنين أكثر من ذلك بين أولئك الهمج إلىٰ أن يراه الإمبراطور. ماذا ستفعل؟ وكيف يمكن لها أن تحمي شعبها، وحدها؟ وكيف يمكنها أن تواجه هذا التشي ينغ الشرير بعد ما فعله معهم.

ولم يرجع ألبرت أبدًا! لقد وصل ألبرت إلىٰ بكين، حيث فاجأ البلاط بطلاقة لغته الصينية، ومعرفته بالكلاسيكيات الكونفوشيوسية، ولكن عقب وصوله انتشرت الأنباء عن ثورة الفلاحين الذين لا يمتلكون أراضي، وتحطيمهم لآلات الدَرْس في جميع أنحاء جنوب إنجلترا؛ ثم تفشَّت معارك الشوارع الدامية والعنيفة في نصف عواصم أوروبا، وبعد بضعة أيام تلقىٰ الإمبراطور رسالة من تشي ينغ تقترح أنَّه قد يكون من الأفضل أن يبقىٰ أميرًا موهوبًا، مثل ألبرت خارج البلاد بطريق آمن. كان كل هذا العنف تجاه الانتقال المؤلم إلىٰ الحداثة بقدر ما كان تجاه الإمبراطورية الصينية، ولكن لم تكن ثمة جدوىٰ من المجازفة مع مثل هؤلاء الناس المتمردين.

وهكذا بقي ألبرت في المدينة المُحرَّمة، وتخلص من بذّاته الإنجليزية وربَّىٰ شعره علىٰ شكل ضفيرة المانشو، وبمرور السنين، ازدادت معرفته بالكلاسيكيات الصينية عُمقًا. لقد كبر ألبرت في السنِّ، وحيدًا بين المعابد، وبعد قضاء ثلاثة عشر عامًا في قفصٍ مُذهَّب، مات ألبرت. وفي الطرف الآخر من العالم حبست فيكتوريا نفسها في الغرف الخاصة الباردة في قصر باكنجهام، وتجاهلت قادتها الاستعماريين. فقد أدار تشي ينغ بريطانيا من دونها، وهناك وفرة من أولئك الذين يُدعون بالسياسيين ممَّن قد يزحفون علىٰ بطونهم لإقامة علاقاتٍ تجارية مع تشي ينغ. لم تكن هناك جنازة رسمية عندما تُوفِّيت فيكتوريا في عام ١٩٠١م؛ فقط لا مبالاة وابتسامات ممتعضة لهلاك آخر بقايا العصر أمام الإمبراطورية الصينية.

لوتي في بالمورال

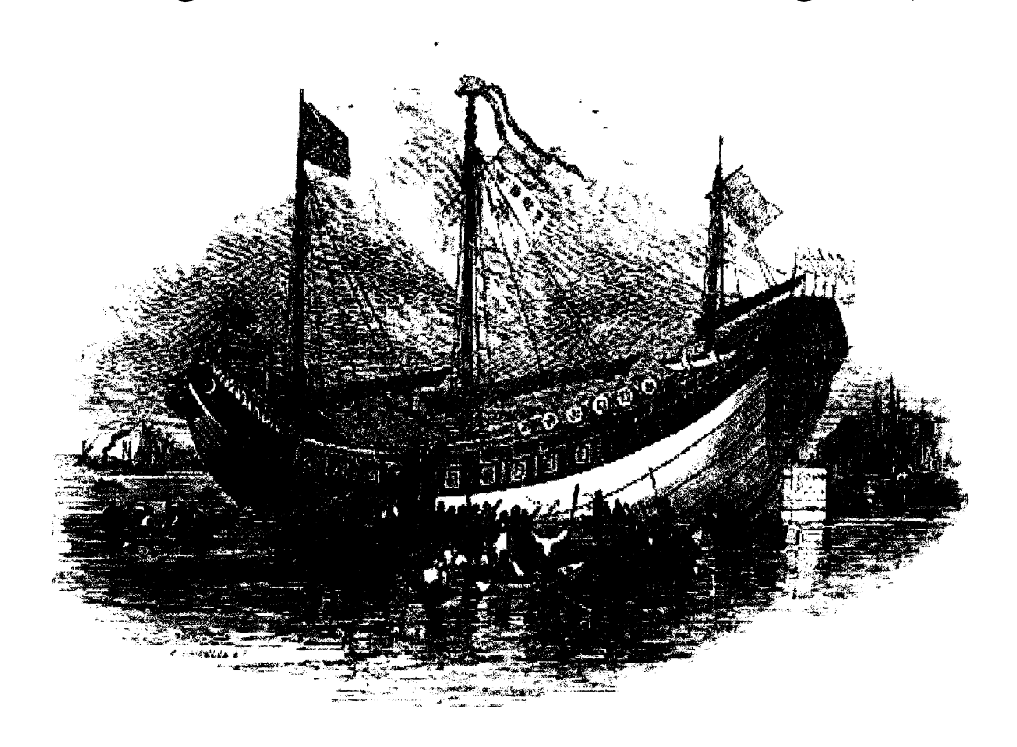
لم تحدث الأمور علىٰ ذلك النحو في الواقع بالطبع، أو علىٰ الأقل بعضها فقط حدث. لقد كانت هناك فعلًا سفينة صينية تسمىٰ تشي ينغ، وقد أبحرت فعلًا إلىٰ رصيف إيست إنديا في لندن في أبريل عام ١٨٤٨م، (الشكل ١)، ولكن هذه السفينة لم تكن سفينة حربية مُدرعة تحمل حاكمًا صينيًّا إلىٰ لندن: لقد كانت تشي ينغ الحقيقية مجرد سفينة شراعية خشبية طُلِيت ببهجة، فقد اشترىٰ رجال الأعمال البريطانيون في مستعمرة التاج هونغ كونغ السفينةَ الصغيرة قبل عامين، وقرروا أن الأمر سيكون مزحة لو قاموا بإرسالها مجددًا لبلدهم القديم.

وقد جاء كل من: الملكة فيكتوريا، والأمير ألبرت، ودوق ولنجتون إلىٰ النهر فعلًا، ولكن ليس من أجل التذلل أمام قائدهم الجديد. وبدلًا من ذلك، فقد جاؤوا بوصفهم سُيَّاحًا لمشاهدة أول سفينة صينية تظهر علىٰ الإطلاق في بريطانيا.

وقد سُمِّيت السفينة فعلًا علىٰ اسم حاكم مدينة جوان چو. ولكن لم يحدث أن تشي ينغ قبِل خضوع بريطانيا في عام ١٨٤٢م بعد تدمير البحرية الملكية. ففي الواقع، فاوض تشي ينغ علىٰ استسلام الصين في ذلك العام نفسه بعد أن قام أسطول بريطاني صغير بإغراق كل السفن الحربية التي تمكن من العثور عليها، وأسكت المدفعية الساحلية، وأغلق القناة الكبرىٰ التي تصل بكين بوادي يانجتسي الغني بالأرز، ممَّا هدد العاصمة بالمجاعة.

وقد كان الإمبراطور ديو غوانغ يحكم الصين فعلًا عام ١٨٤٨م، ولكنَّه لم يُفرِّق بين فيكتوريا وألبرت، في الحقيقة، لقد عاش الزوجان الملكيان في منتهىٰ

السعادة التي لم تتخللها سوىٰ أمزجة فيكتوريا، إلىٰ أن مات ألبرت في عام ١٨٦١م، والواقع أن فيكتوريا وألبرت هما اللذان قد مزَّقَا ديو جوانغ.



(موضع الشكل ١). سفينة تشي ينغ الحقيقية: اصطفت قوارب محملة باللندنيين في الخارج لرؤية السفينة في عام ١٨٤٨م، كما وثقها رسام من أخبار لندن المصورة.

غالبًا ما يكون التاريخ أغرب من الخيال، لقد حطم أبناء بلد فيكتوريا ديو جوانغ وفتتوا إمبراطوريته من أجل أكثر الخطايا البريطانية: فنجان شاي، (أو علىٰ نحوٍ أدق عدة مليارات من فناجين الشاي). في تسعينيات القرن الثامن عشر كانت شركة الهند الشرقية البريطانية (التي كانت تدير معظم جنوب آسيا بصفتها إقطاعية خاصة) تشحن (٢٣ مليون باوند) من الشاي الصيني الذي يغادر إلىٰ لندن سنويًا، وكانت الأرباح هائلةً، لكن كانت ثمة مشكلة واحدة: لم تكن الحكومة الصينية بدورها مهتمةً باستيراد السلع المصنَّعة في بريطانيا. كل ما أرادته الصين كان الفضة، وكان لدىٰ شركة الهند الشرقية مشاكلُ في جمع ما يكفي من الفضة للحفاظ علىٰ استمرار التجارة؛ لذلك كانت هناك الكثير من البهجة عندما أدرك

التجار أنَّه علىٰ الرغم ممَّا قد تريده الحكومة الصينية، فإن الشعب الصيني أراد شيئًا آخر: الأفيون. وكانت أفضل أنواع الأفيون تنمو في الهند، والتي كانت الشركة تسيطر عليها؛ ولذا في جوانغ چو (الميناء الصيني حيث يتاجر الأجانب) باع التجار الأفيونَ من أجل الفضة، واستخدموا الفضة لشراء الشاي، ثم باعوا الشاي بأرباح أكبر في لندن.

وكما يغلب في التجارة، فإنَّ حلَّ مشكلة ما يخلقُ لتوِّه مشكلة أخرىٰ! لقد كان الهنود يمضغون الأفيون، أما البريطانيون فقد أذابوه وشربوه، مستهلكين (من ١٠ إلىٰ ٢٠ طنًّا) سنويًا، (وذهب بعض الأفيون لتهدئة الرُضَّع)، ونتج عن كل من الطريقتين (المضع والشرب، م) تأثيرٌ مخدرٌ بشكلٍ طفيف، بشكل يكفي لإلهام الشاعر المتفرد، وتحفيز بضعة دوقات وإيرلات للانغماس في ملذات جديدة، ولكن لم يكن ثمة ما يمكن القلق بشأنه، لكنَّ الصينيين من ناحية أخرىٰ كانوا يدخنونه، ولم يكن الفرق بين الطريقتين مختلفًا عن الفرق بين مضغ أوراق الكوكا وإشعال البايب، وقد احتال تجار المخدرات لتجاهل هذا الاختلاف، ولكن ديو جوانغ لم يفعل، وفي عام ١٨٣٩م أعلن ديو جوانغ الحرب علىٰ المخدرات.

لقد كانت حربًا غريبة، سرعان ما تحَّولت إلىٰ مواجهة شخصية بين قيصر المخدرات التابع لديو جوانغ، وهو المفوَّض لين زاكسو، ورقيب التجارة البريطاني في جوان چو الكابتن تشارلز إليوت، وعندما أدرك إليوت أنَّه يخسر، أقنع التجار بالتخلي عن (١٧٠٠ طن) مذهلة من الأفيون لصالح لين؛ واستطاع أن يجعل التجار يوافقون علىٰ هذا بأن يضمن لهم أنَّ الحكومة البريطانية سوف تعوضهم عن خسائرهم، ولم يعرف التجار ما إذا كان إليوت بالفعل لديه السلطة للوفاء بوعده هذا، لكنَّهم تمسّكوا بالعرض رغم ذلك، وحصل لين علىٰ الأفيون، وحفظ إليوت ماء وجهه وأبقىٰ علىٰ استمرار تجارة الشاي، وحصل التجار علىٰ أعلىٰ سعر (بالإضافة إلىٰ الفائدة والشحن) في مقابل مخدراتهم. لقد فاز الجميع.

فاز الجميع، فيما عدا اللورد ملبورن، رئيس وزراء بريطانيا. لم يفز ملبورن، الذي كان مُتوقعًا منه أن يعثر علىٰ مليوني جنيه إسترليني لتعويض تجار المخدرات. لا بُدَّ أنه كان ضربًا من الجنون أن يضع قبطان بحري رئيسَ الوزراء

في وضعٍ كهذا، ولكن إليوت علم أنَّ بإمكانه الاعتماد علىٰ مجتمع التجارة ولوبي البرلمانً لتعويض المبلغ، وهكذا تكاثفت المصالح الشخصية والسياسية والمالية حول ملبورن، حتىٰ لم يعد لديه خيار سوىٰ الدفع، ثم إرسال حملة لجعل الحكومة الصينية تعوض بريطانيا عن الأفيون المُصادَر (الشكل ٢).

ولم تكن هذه أفضل أوقات الإمبراطورية البريطانية، ورغم أنَّ التشبيهات المعاصرة ليست دقيقة أبدًا، فإنَّ الأمر كان كما لو أنَّ ردًّا علىٰ قيام وكالة مكافحة المخدرات الأمريكية بحملة واسعة، انتشر «كارتل تيخوانا» في الحكومة المكسيكية لشق طريقه إلىٰ سان دييغو، مطالبًا البيت الأبيض بتعويض أباطرة المخدرات بالقيمة السوقية للكوكايين الذي صُودر، (بالإضافة إلىٰ الفائدة، ورسوم النقل)، وكذلك دفع تكاليف الحملة العسكرية. تخيَّل أيضًا أنَّ أسطولًا مكسيكيًا، بينما كان في الجوار، استولىٰ علىٰ جزيرة كاتالينا باعتبارها قاعدةً للعمليات المستقبلية، وهدَّد بحصار واشنطن حتىٰ يعطي الكونجرس أباطرة المخدرات في تيخوانا حقوقَ الاحتكار في لوس أنجلوس وشيكاغو ونيويورك.

والفرق بالطبع هو أنَّ المكسيك ليست في موضع يسمح لها بقصف سان دييغو، بينما في عام ١٨٣٩م كانت بريطانيا تستطيع أن تفعل ما تشاء أيًّا كان، وضربت السفن البريطانية بالدفاعات الصينية عرض الحائط، ووقَّع تشي ينغ معاهدة مُذِلَّة، تقتضي فتح الصين أمام التجارة والمُبشِّرين. ولم تُنقل زوجات ديو جوانغ إلىٰ لندن بالطريقة ذاتها التي ذهب بها ألبرت إلىٰ بكين في المشهد الذي تخيلته في بداية هذه المقدمة، ولكن (حرب الأفيون) قد حطمت ديو غوانغ رغم ذلك، لقد خذل (٣٠٠ مليون) من رعيَّته، وخان ألفي سنة من التقاليد، وكان محقًّا في الشعور بأنَّه فاشل، لقد كانت الصين تتمزق؛ حيث ازداد الإدمان، وفقدت الدولة السيطرة علىٰ الأمور، وانهارت الأعراف.



موضع (الصورة ١-٢) ليست أفضل أوقاتهم: السفن البريطانية تفجّر السفن الحربية الصينية في نهر يانغتسي في عام ١٨٤٢م. في أقصىٰ اليمين سفينة نيميسيس (إله الانتقام) أول سفينة حربية من الحديد بالكامل، وهي اسم علىٰ مسمًّىٰ.

وإلىٰ هذا العالم الغامض أتىٰ هونغ شيوكوين، أحد المرشحين الراسبين في امتحان الخدمة المدنية، نشأ خارج جوان چو، وسافر أربع مرات إليها لأداء امتحانات دخول الخدمة المدنية الشاقة؛ وقد رسب في المرات الأربع. وأخيرًا، في عام ١٨٤٣م، تدهورت صحة هونغ، وكان لا بُدَّ من نقله إلىٰ قريته. وفي أحلامه المحمومة أخذته الملائكة إلىٰ السماء، والتقىٰ هناك رجلًا قيل له إنَّه شقيقه الأكبر، وقد وقفا كتفًا بكتف يحاربان الشياطين تحت بصر أبيهما الملتحي. لم يبدُ هذا الحلم ذا معنىٰ لأحد في القرية، وبدا أنَّ هونغ قد نسي أمره لعدة سنوات، إلىٰ أن جاء يوم فتح فيه هونغ كتابًا أُعطي له في جوان چو في إحدىٰ سفرياته إلىٰ قاعة الامتحانات، وكان الكتاب يُلخِّص النصوص المقدسة المسيحية، وأدرك هونغ أنَّه يحتوي علىٰ مفتاح تحقيق حلمه. لقد كان الأخ في

حلمه -بوضوح- هو يسوع، ممَّا جعل من هونغ ابن الإله الصيني. لقد طارد هو ويسوع الشياطين من السماء، ولكن بدا أنَّ الحلم يعني أنَّ الإله أراد من هونغ أن يطردهم من الأرض أيضًا، وبتلفيق مزيج من المسيحية الإنجيلية والكونفوشيوسية أعلن هونغ المملكة السماوية ذات السلام الأعظم، واحتشد الفلاحون الغاضبون واللصوص تحت رايته. وبحلول عام ١٨٥٠م هزمت جماعته المتباينة الجيوشَ الإمبراطورية المضطربة التي أُرسلت ضده، واتبع هونغ إرادة الإله بإدخال إصلاحات اجتماعية جذرية؛ فقام بإعادة توزيع الأراضي، وشرَّع حقوقًا متساوية للمرأة، ومنع تقليد طيِّ الأقدام، أو القدم الذهبية (سيأتي شرحه لاحقًا، م).

وفي أوائل ستينيات القرن التاسع عشر، حين كان الأمريكيون يذبحون بعضهم بعضًا بالمدفعية والبنادق التكرارية في أول حرب حديثة في العالم، كان الصينيون يفعلون الشيء نفسه بسيوف البحَّارة والرماح في آخر حرب تقليدية في العالم. وقد تفوقت النسخة التقليدية علىٰ النسخة الحديثة من حيث الرعب المطلق. تُوفي ٢٠ مليون شخص، معظهم بسبب المجاعة والمرض، واستغل الدبلوماسيون والجنرالات الغربيون الفوضىٰ للاندفاع أبعد داخل شرق آسيا. وفي عام ١٨٥٤م، بحثًا عن محطات الفحم بين كاليفورنيا والصين، أجبر القائد البحري الأمريكي، ماثيو بيري، اليابان علىٰ فتح موانئها. وفي عام ١٨٥٨م، فازت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة بتنازلات جديدة من قِبَل الصين. وقد حاول الإمبراطور شيان فنغ، والذي كان -بشكل مفهوم- يكره الأجانب الشياطين الذين دمروا والده ديو جوانغ، والآن هم يستغلون حربه ضد هونغ - حاول التهرُّب من تلك المعاهدة الجديدة، ولكن عندما أصبح الأمر عسيرًا علىٰ شيان فنغ؛ قدَّمت له الحكومتان البريطانية والفرنسية عرضًا لم يستطع رفضه. لقد ساروا إلىٰ بكين، لكن شيان فنغ تراجع سريعًا تراجعًا مُهينًا إلىٰ منطقة قريبة للعطلات الصيفية. لكن الأوروبيين حينئذٍ أحرقوا قصره الصيفي الجميل، فدعوه يعرف أنَّ بإمكانهم فعل الشيء نفسه للمدينة المحرَّمة متىٰ حلا لهم الأمر، واستسلم شيان فنغ. ومع تحطمه علىٰ نحو أسوأ من والده، رفض شيان فنغ مغادرة المكان الذي يختبئ فيه، أو أن يلتقي مجددًا بمسؤوليه أبدًا، واعتزل الحياة إلىٰ المخدرات والجنس، وتُوفي شيان فنغ بعد عام لاحق، وتوفي الأمير ألبرت بعده بشهورٍ

قليلة. وبالرغم من قضاء سنوات في القيام بحملات لإقناع الحكومة البريطانية بأنَّ نظام الصرف الرديء ينشر الأمراض، فقد تُوفي ألبرت علىٰ الأرجح بالتيفود المنتقل عبر أنابيب المجاري البائسة لقلعة ويندسور. والأكثر حزنًا: أنَّ فيكتوريا -التي كانت مولعة بشدة بالمواسير الحديثة كما كان ألبرت- كانت في الحمام عندما تُوفي ألبرت.

وبعد أن حُرمت فيكتوريا من حُبِّ حياتها غرقت في التغيرات المزاجية والكآبة، لكنَّها لم تكن وحيدة تمامًا، فقد أهداها الضباط البريطانيون أحد النفائس التي سلبوها من القصر الصيفي في بكين: كلب بكيني، وقد أسمته فيكتوريا «لوتي».

الحتمية

لماذا اتبع التاريخ الطريق الذي أخذ لوتي إلىٰ قلعة بالمورال، حيث كبر لوتي في السن مع فيكتوريا، بدلًا من الطريق الذي أخذ ألبرت لدراسة كونفوشيوس في بكين؟ لماذا شقت السفن البريطانية طريقها في نهر يانغتسي في عام ١٨٤٢م، بدلًا من أن تفعل ذلك مثيلاتها الصينية في نهر التايمز؟

وبعبارة أكثر صراحة: لماذا يهيمن الغرب؟

قد يبدو القول بأنَّ الغرب «يهيمن» ثقيلًا بعض الشيء؛ فأيًّا كان في النهاية تعريفنا لـ «الغرب»، (وهو سؤال سأعود إليه بعد صفحات قليلة)، لم يُدِر الغربيون تمامًا حكومةً عالميةً منذ عام ١٨٤٠م، وهم يخفقون بانتظام في الوصول لمبتغاهم. وكثير منَّا كبار بما يكفي لتذكر تدافع أمريكا المخزي للخروج من سايغون (الآن تُسمىٰ مدينة هو تشي مِن) في عام ١٩٧٥م، والطريقة التي أجبرت بها المصانع اليابانية منافسيها الغربيين علىٰ مغادرة السوق في الثمانينيات. بل ولدىٰ أعداد متزايدة منَّا الآن الشعور بأنَّ كل ما نشتريه مصنوع في الصين. ومع ذلك، فمن الواضح أيضًا أنَّه في السنوات المائة الأخيرة أو ما يقرب من ذلك، قام الغربيون بشحن الجيوش إلىٰ آسيا، وليس العكس. لقد عانت حكومات شرق آسيا من الرأسمالية الغربية والنظريات الشيوعية، ولكن لم تحاول الحكومات الغربية أن تحكم علىٰ غرار الكونفوشية أو الطاوية. وغالبًا ما يتواصل الشرقيون عبر حواجز لغوية باللغة الإنجليزية، ونادرًا ما يتواصل الأوروبيون باللغة المندرية أو اليابانية. وكما أخبر مُحامٍ ماليزي بصراحة الصحافي البريطاني مارتن جاكز:

«أنا أرتدي ثيابك، وأتكلم لغتك، أشاهد أفلامك، وتاريخ اليوم هو أي تاريخ مهما يكن لأنكم تقولون ذلك».

والقائمة تطول. فمنذ خطف رجال فيكتوريا لوتي، احتفظ الغرب بهيمنةٍ عالمية لم يسبق لها مثيل في التاريخ.

وهدفي هو تفسير هذا.

قد لا يبدو للوهلة الأولىٰ، أنَّني قد خوَّلت نفسي مهمة صعبة جدًّا. فالجميع تقريبًا يتفقون علىٰ أنَّ الغرب يُهيمن؛ لأنَّ الثورة الصناعية قد حدثت هناك، وليس في الشرق. ففي القرن الثامن عشر أطلق رواد الأعمال البريطانيون طاقات البخار والفحم. ومنحت المصانع والسكك الحديدية والسفن أوروبيي القرن التاسع عشر وأمريكييه القدرةَ علىٰ بث القوة عالميًّا، وأتاحت الطائرات وأجهزة الكمبيوتر والأسلحة النووية في القرن العشرين لخلفائهم ترسيخَ هذه الهيمنة.

ولم يعنِ هذا أنَّه كان لا بُدَّ أن يؤول كل شيء لِمَا آلَ إليه تمامًا، فلو لم يلوِ الكابتن إليوت ذراع اللورد ملبورن في عام ١٨٣٩م؛ لكان من غير المحتمل أن تهاجم بريطانيا الصين ذلك العام، ولو أولىٰ المفوِّض لين اهتمامًا أكبر للدفاعات الساحلية؛ لكان من الممكن ألَّا ينجح البريطانيون بهذه السهولة. ولكن هذا يعني أنَّه بغضِّ النظر عن متىٰ بلغت الأمور ذروتها، ومن الذين جلسوا علىٰ العروش، أو الذين فازوا في الانتخابات، أو قادوا جيوش الغرب؛ فإنَّ الغرب -دائمًا- كان سيفوز في القرن التاسع عشر. لقد لخَّص ذلك الشاعر والسياسي البريطاني هايلاير بيلوك بشكل جميل في عام ١٨٩٨م قائلًا: «مهما يحدث، فلدينا مدفع مكسيم وهم لا يملكونه».

وهذه نهاية القصة.

بطبيعة الحال، وباستثناء أنَّ هذه ليست نهاية القصة، فإنَّها تُثير فقط سؤالًا جديدًا: لماذا امتلك الغرب مدفع مكسيم في حين لم يمتلكه البقية؟ هذا هو السؤال الأول الذي أطرحه؛ لأنَّ الإجابة عنه تخبرنا لماذا يهيمن الغرب اليوم، وتسلحًا بتلك الإجابة، يمكننا أن نطرح سؤالًا ثانيًا. إنَّ أحد أسباب اهتمام

الناس بسؤال لماذا يهيمن الغرب هو أنَّهم يريدون معرفة ما إذا كانت تلك الهيمنة ستستمر، ومدة استمرارها وكيفية استمرارها، أو بشكل آخر: ما الذي سيحدث بعد ذلك؟

ازداد هذا السؤال إلحاحًا بانقضاء القرن العشرين، وبزغت اليابان باعتبارها قوة رئيسة، وأصبحت أمرًا لا مفرَّ منه في بدايات القرن الحادي والعشرين. فاقتصاد الصين يتضاعف في الحجم كل ست سنوات، وربما سيصبح الأكبر في العالم قبل عام ٢٠٣٠م. وبينما أنا أكتب الآن في أوائل عام ٢٠١٠م، فإنَّ معظم الاقتصاديين يتطلعون إلىٰ الصين، وليس إلىٰ الولايات المتحدة أو أوروبا؛ لإعادة تشغيل المحرك الاقتصادي للعالم. لقد استضافت الصين دورة الألعاب الأولمبية في عام ٢٠٠٨م، وتمشَّىٰ رائدًا فضاءٍ صينيان في الفضاء. ولدىٰ الصين وكوريا الشمالية أسلحة نووية، والاستراتيجيون الغربيون قلقون بشأن كيف ستتكيف الولايات المتحدة مع تزايد نفوذ الصين.

ويُعدُّ سؤال: (إلىٰ متىٰ سيظل الغرب في القمة؟) سؤالًا مُلِحًّا!

يشتهر المؤرخون المحترفون بأنَّهم مُتنبِّئون سيئون لدرجة أنَّ معظمهم يرفض الحديث عن المستقبل علىٰ الإطلاق. وكلما فكرت في سبب هيمنة الغرب؛ أدركت أنَّ ونستون تشرشل الذي اشتغل بالتاريخ لبعض الوقت قد فهم الأمور بشكل أفضل من معظم المتخصصين. فقد أصرَّ تشرشل أنَّه «كلَّما نظرت أبعد إلىٰ الوراء أمكنك أن ترىٰ أبعد إلىٰ الأمام». ومن هذا المنطلق (حتىٰ ولو لم تكن إجاباتي لتروق لتشرشل)، فسأشير إلىٰ أنَّ معرفة: (لماذا يهيمن الغرب؟) تمنحنا معنىٰ جيدًا عن كيف ستؤول الأمور في القرن الحادي والعشرين.

ولست بالطبع أول شخص يتأمل في هذا الأمر؛ فإنَّ عُمْر السؤال هو ٢٥٠ سنة. وقلَّما برز السؤال قبل القرن الثامن عشر؛ لأنَّه -بصراحة- لم يكن له معنىٰ حينئذٍ. وعندما بدأ المفكرون الأوروبيون في التفكير جديًّا بشأن الصين في القرن السابع عشر؛ شعر معظمهم بالصغر إزاء عتاقة الشرق ورُقيِّه، وكانوا محقين، مثلما قال الشرقيون القلائل الذين أولوا الغرب الاهتمام. لقد أُعجب بعض المسؤولين الصينيين بساعات الغربيين العبقرية، ومدافعهم الشيطانية، وتقاويمهم

الدقيقة، لكنَّهم لم يروا قيمة كبيرة في محاكاة هؤلاء الأجانب العاديين. ولو علم أباطرة الصين في القرن الثامن عشر أنَّ الفلاسفة الفرنسيين -مثل فولتير- يكتبون قصائد في مدحهم، فلربما اعتقدوا أنَّ هذا بالضبط هو ما كان علىٰ الفلاسفة الفرنسيين أن يفعلوه.

ولكن من اللحظة الأولىٰ تقريبًا التي ملأت فيها المصانع سماء إنجلترا بالدخان، أدرك المفكرون الأوروبيون أنَّ ثمة مشكلة. ومقارنة بمشكلات أخرىٰ، لم تكن تلك المشكلة مستعصيةً: فهم -فيما يبدو- يسيطرون علىٰ العالم، ولكنَّهم لم يكونوا يعرفون السبب.

ودخل الثوريون والرجعيون والرومانتيكيون والواقعيون داخل أوروبا في نوبة تكهنات حول: لماذا كان الغرب مهيمنًا؟ وأنتجوا مجموعة محيِّرة من التنبؤات والنظريات. إنَّ أفضل طريقة للشروع في السؤال عن سبب هيمنة الغرب هي: فصل هذه النظريات إلىٰ مدرستين فكريتين إجماليتين، واللتيْن سأسميهما: (نظريات المدىٰ الطويل الحتمية)، و(نظريات المدىٰ القصير العَرَضية). وغني عن القول إنَّه ليست كل فكرة تتسق تمامًا مع هذا المعسكر أو ذاك، لكن هذا التقسيم لا يزال وسيلة مفيدة للتركيز علىٰ الأمور.

إنَّ الفكرة المُوحَّدة وراء نظريات المدىٰ الطويل الحتمية هي: أنَّه منذ زمن سحيق كان هناك عامل حاسم جعل الشرق والغرب مختلفين بشكلٍ ضخم وغير قابل للتغيير، وأوجب أنَّ الثورة الصناعية سوف تحدث في الغرب. ويختلف أنصار نظريات المدىٰ الطويل -بشدة- حول ماهية ذلك العامل، ومتىٰ بدأت فعَّاليته؟ يركز البعض علىٰ القوىٰ المادية، مثل: تغيُّر المناخ، أو التضاريس، أو الموارد الطبيعية؛ بينما يُشير آخرون إلىٰ أمور أقل مادية، مثل: الثقافة، والسياسة، والدين. ويميل أولئك الذين يُفضِّلون القوىٰ المادية إلىٰ اعتبار «المدىٰ الطويل» طويلًا جدًّا حقًّا. فالبعض يرجع إلىٰ الوراء بمقدار خمسة عشر ألف سنة إلىٰ نهاية العصر الجليدي، وبعضهم يرجع لأكثر من ذلك. أمَّا أولئك الذين يؤكدون علىٰ أهمية الثقافة، فعادة ما يعتبرون المدىٰ الطويل أقصر قليلًا، فيعودون فقط بمقدار ألف سنة إلىٰ العصور الوسطىٰ، أو بمقدار ألفين وخمسمائة سنة

لعصر الفيلسوف الإغريقي سقراط، والحكيم الصيني كونفوشيوس. ولكن الشيء الوحيد الذي يتفق عليه أنصار نظريات المدىٰ الطويل هو: أنَّ البريطانيين الذين شقُّوا طريقهم إلىٰ شانغهاي (عام ١٨٤٠م)، والأمريكيين الذين فتحوا موانئ اليابان عنوة بعد عقد لاحقًا كانوا مجرد وكلاء/فاعلين غير مدركين لسلسلة الأحداث التي انطلقت منذ قرن سبق! وسيقول أحد الذين يؤمنون بنظرية المدىٰ الطويل: إنني كنت سخيفًا في بدئي لهذا الكتاب بمقارنة سيناريوهات ألبرت في بكين ولوتي في بالْمورال؛ فالملكة فيكتوريا كانت ستفوز في جميع الأحوال: كانت النتيجة حتمية لأجيال لا تُعدُّ.

وفي الفترة ما بين عامي ١٧٥٠، و١٩٥٠م تقريبًا، كانت كل التعليلات لهيمنة الغرب تتفاوت في إطار نظرية (المدىٰ الطويل الحتمية). وكانت النسخة الأكثر شهرة هي أنَّ الأوروبيين ببساطة يتفوقون علىٰ الجميع حضاريًّا، فمنذ أيام احتضار الإمبراطورية الرومانية عرَّف معظم الأوروبيين أنفسهم بوصفهم مسيحيين أولًا وقبل كل شيء، مُتعقِّبين جذورهم إلىٰ العهد الجديد، ولكن في محاولةٍ لشرح السبب الذي من أجله يُهيمن الغرب الآن، تصورَ بعضُ المفكرين من القرن الثامن عشر أصلًا بديلًا للأوروبيين، ويجادلون بأنَّه منذ ألفين وخمسمائة عام مضت أنشأ الإغريق حضارةً فريدةً، ذات منطق وابتكار وحرية، وقد وضع ذلك أوروبا علىٰ مسارٍ مختلفٍ و(أفضل) من بقيَّة العالم. وقد أقرُّوا بأنَّ الشرق كان يملك معرفةً هو الآخر، لكنَّ التقاليد الشرقية كانت مضطربة ومحافظة وذات طبيعة هرمية إلىٰ حدٍّ كبيرٍ، وبشكلٍ لا يُمكِّنُها من منافسة الفكر الغربي. وقد خلص العديدُ من الأوروبيين إلىٰ أنَّهم (أي: الأوروبيين، م) كانوا يغزون الآخرين جميعًا؛ لأنَّ الحضارة هي التي فرضت عليهم ذلك.

وبحلول عام ١٩٠٠م اقتنع المفكرون الشرقيون بهذه النظرية، في ظلّ كفاحهم لتقبُّل تفوق الغرب الاقتصادي والعسكري، علىٰ الرغم من تحريفهم لها بعض الشيء. وفي غضون عشرين عامًا منذ وصول الكومودور بيري إلىٰ خليج طوكيو، بدأت حركة «التحضر والتنوير» بترجمة كلاسيكيات التنوير الفرنسي والليبرالية البريطانية إلىٰ اللغة اليابانية، ودافعت الحركة عن ضرورة اللحاق

بالغرب من خلال الديمقراطية، والثورة الصناعية، وتحرير المرأة. بل أراد البعض أن يجعل اللغة الإنجليزية هي اللغة الوطنية. فقد كانت المشكلة، كما أصرَّ بعض المفكرين في سبعينيات القرن التاسع عشر، مثل فوكوزاوا يوكيشي - طويلةَ المدىٰ؛ إذ كانت الصين مصدرًا لقدرٍ كبيرٍ من الحضارة اليابانية، لكن الصين اعترتها أخطاء فادحة في الماضي البعيد. ونتيجة لذلك، كانت اليابان «شبه متحضرة»، وجادل فوكوزاوا أنَّه بالرغم من كون تلك المشكلة طويلة الأمد فإنَّها لم تكن حتمية. فمن خلال نبذ الصين، تستطيع اليابان أن تصبح متحضرةً بالكامل.

بينما لم يكن لدىٰ المفكرين الصينيين -علىٰ العكس من ذلك- مَن ينبذون سوىٰ أنفسهم. وفي ستينيات القرن التاسع عشر جادلت حركة لتعزيز الهوية بأنَّ التقاليد الصينية ما زالت سليمة بالأساس، وأنَّ الصين يلزمها فقط صناعة بضع بواخر، وشراء بعض البنادق الأجنبية. واتضح أنَّ ذلك كان خاطئًا، ففي عام ١٨٩٥م فاجأ جيش ياباني حديث قلعةً صينية بزحفٍ جسور، واستولىٰ علىٰ بنادقها أجنبية الصنع، وفتح تلك البنادق في وجه البواخر الصينية. ولذا أصبحت المشكلة أعمق بكثير من امتلاك الأسلحة المناسبة. وبحلول عام ١٩٠٠م كان المفكرون الصينيون يتَّبعون الريادة اليابانية، فقاموا بترجمة الكتب الغربية عن التطور والاقتصاد. وقد خلصوا، مثل فوكوزاوا، إلىٰ أنَّ هيمنة الغرب طويلة المدىٰ، ولكنَّها لم تكن حتمية؛ وبنبذ ماضيها يمكن للصين اللحاق بالركب أيضًا.

ولكن بعض الغربيين المُتبنِّيين لنظرية المدىٰ الطويل ظنُّوا -ببساطة- أنَّه لا يوجد ما يمكن أن يفعله الشرق، وزعموا أنَّ الحضارة هي التي جعلت الغرب أفضل، لكنَّها لم تكن التفسير النهائي لهيمنة الغرب؛ لأنَّ الحضارة نفسها كانت لها أسباب مادية. واعتقد البعض أنَّ الشرق كان مضطربًا ومعتلًا لكي يطور الناس حضارة خلَّاقة مثل حضارة الغرب؛ أو ربما كانت هناك أجساد كثيرة، تستهلك جميع الفائض، وتبقي مستوىٰ المعيشة منخفضًا، وتمنع ظهور مجتمع علىٰ غرار المجتمع الغربي الليبرالي التطلعي.

تأتي نظريات المدىٰ الطويل الحتمية في كل لونٍ سياسي، ولكنَّ نسخة كارل ماركس ظلَّت هي الأهم والأكثر تأثيرًا. في الأيام نفسها التي كانت القوات البريطانية تحرّر فيها لوتي، أشار ماركس -الذي كان آنئذٍ يكتب عمودًا عن الصين في صحيفة نيويورك ديلي تريبيون- إلىٰ أنَّ السياسة كانت العامل الحقيقي الذي وطد الهيمنة الغربية. وزعم ماركس أنَّ الدول الشرقية ظلت لآلاف السنوات ذات مركزية وقوة كبيرتين، ممَّا أدىٰ بشكل أساسي إلىٰ توقف تدفق التاريخ. وقد نهضت أوروبا من العصور الوسطىٰ من خلال الإقطاع إلىٰ الرأسمالية، وكانت الثورات البروليتارية علىٰ وشك التبشير بالشيوعية، ولكنَّ الشرق كان منغلقًا في الاستبداد، ولم يكن بإمكانه أن يشارك في المسار التقدمي للغرب. ولمَّا لم يَؤُل الغرب تمامًا إلىٰ ما تنبأ به ماركس، قام الشيوعيون اللَّاحقون (خاصة لينين وأتباعه) بتطوير نظريات ماركس بزعمهم أنَّ طليعة ثورية قد تهز الشرق وتوقظه من سباته السحيق. وأصروا أنَّ هذا سيحدث، فقط إذا تمكَّنت تلك الطليعة من تحطيم المجتمع القديم المتحجر بأي ثمن. ولم تكن نظرية المدىٰ الطويل هي السبب الوحيد لارتكاب ماو تسي تونغ وپول پوت، وأتباع كيم في كوريا الشمالية تلك الفظائع في حق شعوبهم، ولكنَّها تتحمل عبئًا ثقيلًا من المسؤولية.

طوال القرن العشرين استمرت حركة معقدة في الغرب باكتشاف المؤرخين لحقائق لم تبدُ منسجمةً مع قصص نظريات المدىٰ الطويل الحتمية، وغيَّر أتباع تلك الظريات من نظرياتهم لاستيعابها. علىٰ سبيل المثال: لا ينازع أحد الآن أنَّه ببداية العصر الكبير للاكتشافات البحرية في أوروبا، كانت الملاحة الصينية أكثر تقدمًا بكثير، وكان البحَّارة الصينيون يعرفون بالفعل سواحل الهند والجزيرة العربية وشرق أفريقيا، وربما أستراليا. وعندما أبحر الأدميرال المخصيّ چين هي من نانچينج إلىٰ سريلانكا في عام ١٤٠٥م كان يقود نحو ثلاثمائة سفينة. وكانت هناك ناقلات تحمل مياه الشرب، و«سفن كنوز» ضخمة ذات دفَّات متطورة ومقصورات ضد الماء وأجهزة إرسال متطورة. ومن بين الـ «٢٧ ألفًا» من بحَّارته كان هناك ١٨٠ طبيبًا وصيدليًّا. وعلىٰ النقيض من ذلك، عندما أبحر كريستوفر كولومبوس من قادس في عام ١٤٩٢م، كان يقود ٩٠ رجلًا في ثلاث سفن. وكانت أكبر سفنه تزيح بالكاد قدرًا من الماء يبلغ واحدًا علىٰ الثلاثين ممَّا أزاحت سفينة چين؛

وبطول ٨٥ قدمًا، فقد كانت أقصر من صاري سفينة چين، وبالكاد أطول بمقدار مرتين من دفة سفينة چين. ولم يكن لدىٰ كولومبوس ناقلاتٌ للمياه العذبة أو أطباء حقيقيون. وكان لدىٰ چين بوصلات مغناطيسية، وكان يعرف عن المحيط الهندي ما يكفي لملء خريطة بطول واحد وعشرين قدمًا؛ أمَّا كولومبوس فنادرًا ما علم أين هو، فضلًا عن إلىٰ أين هو ذاهب.

وربما يجعل هذا الأمر أي شخص يعيد النظر في فرضية أنَّ الهيمنة الغربية كانت حتمية منذ الماضي البعيد، ولكنَّ العديد من الكتب المهمة جادلت بأنَّ چين هو -في النهاية- يتلاءم مع نظريات المدىٰ الطويل الحتمية: فنحن بحاجة فقط إلىٰ نُسخ أكثر تطورًا من چين. علىٰ سبيل المثال: في كتابه الرائع «ثراء الأمم وفقرها» (The Wealth and Poverty of Nations)، يجدد الاقتصادي ديفيد لانديز فكرة أنَّ الاعتلال والديموجرافيا منحا أوروبا تفوقًا مؤكدًا ودائمًا علىٰ الصين، ولكنَّه أضاف تحوُّلًا جديدًا، بالإشارة إلىٰ أنَّ الكثافة السكانية في الصين حبَّذت الحكومة المركزية، وقلَّلت من تحفيز الحكام علىٰ استغلال رحلات چين. وبسبب أنَّه لم يكن لديهم أي منافسين، انشغل الأباطرة الصينيون بكيف يمكن إثراء تجارة الجماعات غير المرغوب فيها مثل التجَّار أكثر من انشغالهم بالحصول علىٰ المزيد من الثروات لأنفسهم؛ ولأنَّ الدولة كانت قوية جدًّا، استطاع الأباطرة أن يستأصلوا هذه الممارسة المزعجة. وفي ثلاثينيات القرن الخامس عشر منعوا الرحلات المحيطية، وفي سبعينيات القرن الخامس عشر دمروا وثائق چين مُنهين بذلك العصر العظيم للاكتشافات الصينية.

ويقدم عالم الأحياء والجغرافي، جاريد دايموند، حالة مماثلة في كتابه «أسلحة وجراثيم وفولاذ» (Guns, Germs, and Steel)، وهدفه الرئيس هو بيان لماذا طوَّرت المجتمعات الواقعة ضمن خط العرض الذي يمتد من الصين إلىٰ البحر المتوسط الحضارات الأولىٰ، ولكنَّه يشير أيضًا إلىٰ أنَّ أوروبا بدلًا من الصين هيمنت علىٰ العالم الحديث؛ لأنَّ شبه جزر أوروبا جعلت الأمر سهلًا علىٰ الممالك الصغيرة أن تصمد ضد الغزاة، وجاء ذلك في صالح التشظي السياسي، بينما حبَّذ الساحل المستدير للصين الحكام المركزيين بدلًا من الأمراء

الصغار. وقد أتاحت الوحدة السياسية الناتجة عن ذلك لأباطرة الصين في القرن الخامس عشر حظر الرحلات مثل رحلات چين.

أمَّا في أوروبا المتشظية، فعلىٰ النقيض من ذلك، كان بإمكان الملك تلو الآخر رفض عرض كولومبوس المجنون، لكن كولومبس كان يجد -دائمًا- شخصًا آخر ليعرض عليه طلبه. ربما نتفكر في أنَّه إذا كانت لدىٰ چين خيارات كثيرة مثلما كان لدىٰ كولومبوس فلربما التقىٰ إيرنان كورتيه بحاكم صيني في المكسيك عام ١٥١٩م، بدلًا من مونتيزوما الذي قُضي عليه. ولكن -بحسب النظريات الحتمية طويلة المدىٰ- أدت قوىٰ موضوعية وضخمة، مثل: الاعتلال، والديموغرافيا، والجغرافيا - إلىٰ استبعاد هذا الاحتمال.

ولكن مؤخرًا، بدأت رحلات تشنغ بالإضافة إلىٰ الكثير من الحقائق الأخرىٰ في إدهاش البعض بكونها لا تتناسب علىٰ الإطلاق مع نماذج نظريات المدىٰ الطويل. فقد أظهرت اليابان بالفعل في عام ١٩٠٥م أنَّ بإمكان الأمم الشرقية أن تنافس الأوروبيين في ميدان القتال بهزيمتهم للإمبراطورية الروسية. وفي عام ١٩٤٢م كادت اليابان أن تزيل القُوَىٰ الغربية من المحيط الهادئ تمامًا، ثم غيَّرت اليابان توجهها لتصبح عملاقًا اقتصاديًّا، بنهوضها من الهزيمة المدمرة في عام ١٩٤٥م. ومنذ عام ١٩٧٨م، كما نعلم جميعًا، اتخذت الصين مسارًا مشابهًا. وفي عام ٢٠٠٦م، تفوقت الصين علىٰ الولايات المتحدة لتصبح أكبر مصدر لانبعاثات الكربون، وحتىٰ في أحلك أيام الأزمة المالية (٢٠٠٨ - ٢٠٠٩م) ظلَّ اقتصاد الصين ينمو بمعدلات كانت لتحسدها عليها الحكومات الغربية في أفضل الأوقات. وربما نحتاج إلىٰ التخلص من السؤال القديم وطرح سؤالٍ جديد: (هل يهيمن الغرب، أم لا؟)، وليس: لماذا يهيمن الغرب. وإذا كانت الإجابة: «لا»، فإنَّ النظريات الحتمية طويلة المدىٰ، والتي تتلمس التفسيرات القديمة للهيمنة الغربية، التي هي أصلًا غير موجودة فعليًّا، تبدو غير مُجدية.

تتمثل إحدىٰ نتائج هذه الشكوك (حول الهيمنة الفعلية للغرب، م) في أنَّ بعض المؤرخين الغربيين قد طوَّروا نظرية جديدة بالكلية في تفسير السبب الذي من أجله اعتاد الغرب أن يهيمن في السابق بينما توقف الآن عن ذلك. وأسمي

هذه النظرية: «النموذج العرضي قصير المدىٰ». وتميل جدليات النظرية العرضية قصيرة المدىٰ إلىٰ أنْ تكون أكثر تعقيدًا من جدليات النظريات طويلة المدىٰ، وهناك خلافات عنيفة داخل المعسكر المتبني لهذه النظرية، ولكن ثمة شيء واحد يتفقون عليه جميعًا، وهو: أنَّ كل ما يقوله مُتبنُّو النظرية طويلة المدىٰ خطأٌ. فالهيمنة الغربية لم تقتصر علىٰ الغرب منذ الماضي البعيد؛ فقد تقدم الغرب مؤقتًا فحسب بعد عام ١٨٠٠م عشية حرب الأفيون علىٰ الشرق، بل كان الأمر عرضيًّا إلىٰ حدٍّ كبير. لم يكن سيناريو ألبرت في بكين سخيفًا، وكان من الممكن أن يحدث بسهولة.

ارتفاع الحظ وسقوطه

تُعرف أورانچ كونتي بولاية كاليفورنيا بسياستها المحافظة، وأشجارها المقلّمة، وچون واين المقيم هناك منذ زمن طويل (وقد سُمِّي المطار المحلي باسمه، علىٰ الرغم من كرهه لتحليق الطائرات فوق ملعب الجولف). وتُعرف أورانچ كونتي بذلك أكثر من كونها تُعرف بعلومها المتزمتة، ولكن في التسعينيات تحولت أورانچ كونتي إلىٰ بؤرة للنظريات العرضية قصيرة المدىٰ عن التاريخ العالمي. فقد كتب مؤرخان هما بن وونغ وكينيث بوميرانز، وعالم اجتماع (وانغ فنغ) بحرم إيرڤن بجامعة بكاليفورنيا -كُتُبًا مرجعية جادلوا فيها بأنَّه أيًا كان ما نُنُظِّر إليه- الإيكولوچيا أو البنىٰ الأسرية، التكنولوجيا والصناعة أو الاقتصاد والمؤسسات، مستويات المعيشة أو أذواق المستهلكين - فإنَّ أوجه الشبه بين الشرق والغرب قد رجحت بدرجة كبيرة علىٰ الاختلافات بينهما في أواخر القرن التاسع عشر.

وإذا كانوا مُحقِّين؛ فمن الصعب تفسير سبب مجيء لوتي إلىٰ لندن بدلًا من اتجاه ألبرت إلىٰ الشرق. ويجادل بعض أنصار نظريات الحتمية قصيرة المدىٰ، مثل الاقتصادي المستقل أندريه جوندر فرانك، (الذي كتب أكثر من ٣٠ كتابًا عن كل شيء يتراوح من فترة ما قبل التاريخ إلىٰ اقتصاد أمريكا اللاتينية) - بأنَّ الشرق كان في وضع أفضل من الغرب كي يمتلك ثورة صناعية إلىٰ أن تدخلت الحوادث العارضة. واستنتج فرانك أنَّ أوروبا كانت ببساطة «شبه جزيرة هامشية بعيدة» في نظام عالمي مركزه الصين. ونتيجة ليأسهم من الوصول إلىٰ أسواق آسيا حيث توجد الثروة الحقيقية، حاول الأوروبيون قبل آلاف السنين أن يشقوا طريقهم عبر

الشرق الأوسط من خلال الحروب الصليبية، وعندما لم يفلح ذلك، حاول البعض، مثل كولومبوس، الإبحار غربًا للوصول إلىٰ كاثاي (الصين، م).

ولم يفلح ذلك أيضًا؛ لأنَّ أمريكا كانت في الطريق، ولكن في رأي فرانك فقد مثَّل خطأ كولومبس بداية التغيُّر لمكانة أوروبا في النظام العالمي. في القرن السادس عشر كان اقتصاد الصين يزدهر، ولكنَّه واجه نقصًا مستمرًا في الفضة. وكانت أمريكا مليئةً بالفضة؛ ولذا استجاب الأوروبيون لاحتياجات الصين بجعل الهنود الحمر يستخرجون ١٥٠ ألف طن من المعادن النفيسة من الجبال في بيرو والمكسيك. وانتهىٰ مطاف ثُلث تلك المعادن في الصين. وهكذا اشترت كل من الفضة والوحشية والعبودية للغرب «مقعدًا في عربة الدرجة الثالثة في قطار آسيا الاقتصادي»، كما عبَّر فرانك عن هذا الأمر، ولكن كان لا يزال هناك المزيد ممَّا وجب أن يحدث قبل أن يتمكن الغرب من «إزاحة الآسيويين من القاطرة».

لقد اعتقد فرانك أنَّ نهضة الغرب دانت للمبادرة الأوروبية بصورةٍ أقل من مديونتها لتراجع الشرق بعد عام ١٧٥٠م، واعتقد أن تراجع الشرق بدأ عندما بدأت إمدادات الفضة تتقلص، ممَّا أطلق أزمات سياسية في آسيا، ولكنَّه قدَّم حافزًا داعمًا في أوروبا، حيث إنَّهم حين لم يعد لديهم فضة للتصدير، قام الأوروبيون بميكنة صناعاتهم لصناعة سلع أخرىٰ غير الفضة قادرة علىٰ المنافسة في الأسواق الآسيوية. وقد جادل فرانك بأنَّ النمو السكاني بعد عام ١٧٥٠م كانت لديه نتائج مختلفة في كل طرف من أوروبا الآسيوية، حيث استقطاب الثروة، وتغذية الأزمات السياسية وتثبيط الابتكار في الصين، وفي المقابل توفير العمالة الرخيصة للمصانع الجديدة في بريطانيا. وبينما كان الشرق يتداعىٰ، حدثت في الغرب الثورة الصناعية التي كانت يجب أن تحدث في الصين؛ ولكن لأنَّها حدثت في بريطانيا ورث الغرب العالم.

وبالرغم من ذلك، يُخالف آخرون من مُتبنِّي نظريات المدىٰ القصير ذلك الطرح. يجادل عالم الاجتماع چاك غولدستون (الذي قام بالتدريس لعدة سنوات في حرم دافيز بجامعة كاليفورنيا واستحدث مصطلح «مدرسة كاليفورنيا» لوصف مُنظِّري نظريات المدىٰ القصير) بأنَّ مكانة الشرق والغرب كانت متساوية علىٰ نحوٍ

جيد أو سيئ حتىٰ عام ١٦٠٠م تقريبًا، حيث حكمت كل منهما إمبراطوريات زراعية عظمىٰ مع كهنوت مُحكم يحرس التقاليد القديمة. وفي كل مكان من إنجلترا إلىٰ الصين، جلبت الأوبئة والحروب والإطاحة بالأسر الحاكمة هذه المجتمعات إلىٰ حافة الانهيار في القرن السابع عشر، ولكن في حين تعافت معظم الإمبراطوريات وأعادت بصرامة فرض الفكر التقليدي، رفض بروتستانت شمال غرب أوروبا التقاليد الكاثوليكية.

ويشير غولدستون إلىٰ أنَّ فعل التحدي هذا هو الذي أرسل الغرب في مسار نحو الثورة الصناعية. وبتحررهم من أغلال الأيديولوجيات العتيقة، أماط العلماء الأوروبيون اللثام عن أعمال الطبيعة بفعالية جعلت رواد الأعمال البريطانيين، بمشاركتهم في هذه الحضارة البراجماتية، يتعلمون تسخير الفحم والبخار للعمل، وبحلول عام ١٨٠٠م تقدم الغرب بشكل حاسم علىٰ البقية.

لم يكن أي من ذلك حتميًا، كما يجادل غولدستون، وفي الحقيقة ربما استطاعت بضع حوادث أن تُغير العالم تمامًا. فعلىٰ سبيل المثال، في معركة بويون في عام ١٦٩٠م مزَّقت رصاصة كاثوليكية من بندقية «المسكيت» كتف المعطف الذي كان يرتديه وليام الثالث -من عائلة أوراني- البروتستانتي الطامح في عرش إنجلترا. ويقول غولدستون إنَّه كان من المفترض أن يقول ويليام: «من الجيد أنَّ الرصاصة لم تأتِ أقرب من ذلك»؛ متأملًا في أنَّ الطلقة لو أصابت موضعًا إلىٰ الأسفل من الموضع الذي أصابته بمقدار بضع بوصات لبقيت إنجلترا كاثوليكية، ولهيمنت فرنسا علىٰ أوروبا، ولمَا قامت الثورة الصناعية.

ويذهب كينيث بوميرانز من مدينة إيرڤن إلىٰ أبعد من ذلك؛ إذ يرىٰ أنَّ وجود ثورة صناعية كانت ضربة حظٍّ كبيرة. ويجادل بأنَّه في عام ١٧٥٠م تقريبًا، كان كلٌّ من الشرق والغرب متجهين نحو كارثةٍ بيئية، وكان معدل نمو السكان أسرع من معدل نمو التكنولوجيا، وبذل الناس كل ما في وسعهم في سبيل توسيع الزراعة وتكثيفها، ونقل البضائع، وإعادة تنظيم أنفسهم. وكانوا علىٰ وشك أن يبلغوا حدود الممكن بتكنولوجيتهم، وكان هناك من الأسباب ما يحمل علىٰ توقع

حدوث كساد عالمي وانخفاض في عدد السكان في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومع ذلك، شهدت آخر مائتي سنة نموًّا اقتصاديًّا يفوق كل التاريخ المنصرم بأكمله. والسبب، كما يشرح بوميرانز في كتابه المهمّ «**التباعد الكبير**»، (The Great Divergence)، هو أنَّ أوروبا الغربية -وقبل كل شيء بريطانيا- قد حالفها الحظ فحسب. ويرىٰ بوميرانز -مثل فرانك- أنَّ حظ الغرب قد بدأ بالاكتشاف العرضي للأمريكتين، الذي أدىٰ لإنشاء نظام تجاري أعطىٰ الدوافع لمصنعة الإنتاج. ولكن علىٰ عكس فرانك، يشير بوميرانز إلىٰ أنَّه حتىٰ وقت متأخر، في عام ١٨٠٠م تقريبًا، كان ما زال ممكنًا لحظ أوروبا أن يفشل. ويشير بوميرانز إلىٰ أنَّ الأمر كان سيتطلب مساحةً كبيرة لزراعة ما يكفي من الأشجار لتغذية المحركات البخارية البدائية المبكرة لبريطانيا بالخشب، مساحة أكبر في الواقع ممَّا كان لدىٰ أوروبا الغربية المزدحمة. ولكن هنا تدخلت ضربة الحظ الثانية عندما تمكنت بريطانيا، وحدها في العالم، من إيجاد حقول الفحم الحجري وميكنة الصناعات سريعًا. وبحلول عام ١٨٤٠م، كان البريطانيون يستخدمون الأجهزة المُدارة بالفحم في كل مناحي حياتهم، بما في ذلك السفن الحديدية التي استطاعت أن تشق طريقها في نهر يانغتسي. كانت بريطانيا تحتاج إلىٰ حرق ١٥ مليون فدان آخر من الغابات سنويًّا -وهي مساحة لم تتواجد فعليًّا- لإنتاج قدرٍ مساوٍ من الطاقة الناتجة من الفحم الآن. لقد بدأت ثورة الوقود الأحفوري، وتم تفادي الكارثة الإيكولوجية (أو علىٰ الأقل تأجيلها إلىٰ القرن الحادي والعشرين)، وساد الغرب العالم فجأة رغم كل الصعاب. لم تكن هناك حتمية طويلة المدىٰ، كان الأمر كله مجرد حادث غريب مستجد.

إنَّ تنوع تفسيرات نظريات المدىٰ القصير للثورة الصناعية الغربية، علىٰ امتدادها من مصادفة بوميرانز التي أدت إلىٰ تجنب كارثةٍ عالمية، وانتهاءً بانتقال فرانك المؤقت إلىٰ داخل اقتصاد عالمي مُتوسِّعٍ - تشبه تمامًا في اتساعها الفجوة ما بين جارِد دايموند -مثلًا- وكارل ماركس حول الجانب طويل المدىٰ. وبالرغم من كل ذلك الجدل داخل المدرستين، فإنَّ مسارات النزاع بينهما هي التي تنتج

أكثر النظريات المتضاربة بقوة حول كيف يسير العالم. ويدَّعي بعض متبني نظريات المدىٰ الطويل أنَّ المُحرِّفين فقط هم من ينشرون علمًا زائفًا رديئًا، يصح سياسيًّا، لكنَّه كاذب. ويرد بعض متبني نظريات المدىٰ القصير أنَّ أنصار نظريات المدىٰ الطويل هم اعتذاريون موالون للغرب أو حتىٰ عنصريون.

وتدل حقيقة أنَّ العديد من الخبراء استطاعوا التوصل إلىٰ مثل هذه الاستنتاجات المختلفة بشدة علىٰ أنَّ هناك خطأ في الطريقة التي عالجنا بها المشكلة. وفي هذا الكتاب سأجادل بأنَّ كلًّا من أنصار نظريات المدىٰ الطويل والمدىٰ القصير علىٰ السواء أساؤوا فهم نمط التاريخ؛ ولذلك توصَّلوا إلىٰ نتائج جزئية ومتضاربة. وأعتقد أنَّ ما نحتاجه هو وجود منظور مختلف.

شكل التاريخ

ما أعنيه بهذا هو أنَّ كلًّا من أنصار نظريات المدىٰ الطويل والمدىٰ القصير يتفقون علىٰ أنَّ الغرب قد ساد العالم منذ مائتي عام، ولكنَّهم يختلفون حول كيف كان العالـم قبل ذلك. وكل شيء يدور حول تقييماتهم المختلفة بشأن تاريخ ما قبل الحداثة. والطريقة الوحيدة التي نستطيع بها حل النزاع هي بالنظر في هذه الفترات السابقة لإنشاء نمط كليّ للتاريخ. وعندئذٍ فقط، مع تثبيت الأساس، يُمكننا أن نتجادل علىٰ نحوٍ فعَّال عن السبب الذي من أجله آلت الأشياء إلىٰ ما آلت إليه.

ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يبدو أنَّ أي شخص في الغالب يُريد القيام به. فمعظم الخبراء الذين يكتبون عن سبب هيمنة الغرب لديهم خلفيات في الاقتصاد وعلم الاجتماع والسياسة، أو التاريخ الحديث، فهم بالأساس من المتخصصين في الأحداث الراهنة أو المستجدة. ويميلون إلىٰ التركيز علىٰ الأجيال القليلة الماضية، حيث ينظرون إلىٰ الوراء، قبل خمسمائة عام علىٰ أكثر تقدير، ويتعاملون مع التاريخ السابق علىٰ تلك الأعوام بإيجاز شديد، إذا فعلوا بالأساس - علىٰ الرغم من أنَّ محل النزاع الرئيس هو هل كانت العوامل التي منحت الغرب الهيمنة موجودة أصلًا في وقت سابق، أم ظهرت فجأة في العصر الحديث.

ويتناول مجموعة من المفكرين المسألة بشكلٍ مختلف تمامًا؛ إذ يركزون علىٰ فترة ما قبل التاريخ البعيدة، ثم يقفزون إلىٰ الأمام إلىٰ العصر الحديث، متحدثين قليلًا عن آلاف السنين التي ما بين الفترتين. ويُشير الجغرافي والمؤرخ

ألفريد كروسبي صراحةً إلىٰ ما يعدُّه كثيرٌ من هؤلاء الباحثين من المُسلَّمات؛ وهو أن ابتكار الزراعة في عصور ما قبل التاريخ كان أمرًا بالغ الأهمية، ولكن «بين تلك الحقبة وحقبة تطور المجتمعات التي أرسلت كولومبوس وغيره من الرحَّالة عبر المحيطات، مرَّ حوالي ٤٠٠٠ عام، حصلت فيها أمور قليلة الأهمية بالنسبة إلىٰ ما حدث قبل ذلك».

وهذا يُعد خطأً، كما أعتقد، فنحن لن نجد إجابات إذا قيَّدنا بحثنا بفترة ما قبل التاريخ، أو الأزمنة الحديثة، (وأتسرع بإضافة أنَّنا لن نجد إجابات أيضًا إذا اقتصرنا فقط علىٰ الأربعة أو الخمسة آلاف سنة ما بينهما). إنَّ تلك المسألة تقتضي منا النظر إلىٰ النطاق الكُلِّي للتاريخ البشري، باعتباره قصة واحدة، تصوغ نمط التاريخ الكلي، قبل مناقشة أسباب امتلاك التاريخ لهذا النمط. وهذا ما أحاول فعله في هذا الكتاب، مستصحبًا مجموعة مختلفة من المهارات.

لقد تلقيت تعليمي بوصفي عالمًا ومؤرخًا للعصور القديمة، متخصصًا في منطقة البحر المتوسط القديمة في أثناء الألفية الأولىٰ قبل الميلاد. وعندما التحقتُ بالكلية في جامعة برمنغهام في إنجلترا في عام ١٩٧٨م، بدا معظم العلماء الكلاسيكيين الذين التقيتهم مطمئنين جدًّا للنظرية طويلة المدىٰ القائلة بأنَّ حضارة الإغريق القدامىٰ، التي أُنشئت قبل ألفي وخمسمائة عام، هي التي صاغت أسلوبًا غربيًا مميزًا للحياة. وبعضهم (معظمهم من كبار السن) يقولون صراحة: إنَّ هذا التقليد اليوناني هو الذي جعل الغرب أفضل من البقية.

وبقدر ما أتذكر، لم يستوقفني شيء من ذلك باعتباره مشكلة، إلىٰ أن بدأْتُ كتابة أبحاث الدراسات العُليا في جامعة كامبريدج في أوائل الثمانينيات، حول نشأة المدن الإغريقية. وقد أخذني ذلك ضمن علماء الآثار الأنتروبولوجيين الذين يشتغلون بعمليات مماثلة في مناطق أخرىٰ من العالم. وقد سخروا صراحة من الفكرة الطريفة القائلة بأن الثقافة اليونانية كانت فريدة من نوعها، وأنَّها هي التي أسست تقليدًا غربيًا مميزًا وديمقراطيًّا ومنطقيًّا. وكما يفعل الناس -غالبًا- فلقد تمكنْتُ لعدة سنواتٍ من حمل فكرتين متناقضتين في رأسي، فمن جهة: كان تطور

المجتمع اليوناني علىٰ غرار تطور المجتمعات القديمة الأخرىٰ؛ ومن جهة أخرىٰ: فإنَّ ذلك التطور للمجتمع اليوناني هو الذي استهل مسارًا غربيًا مميزًا.

وغدا تحقيق التوازن أكثر صعوبةً حين حصلت علىٰ أول منصبٍ لي في الكلية، في جامعة شيكاغو عام ١٩٨٧م. وهناك قمت بالتدريس في برنامج شيكاغو الشهير عن تاريخ الحضارة الغربية، الممتد من أثينا القديمة وحتىٰ سقوط الشيوعية (أخيرًا). وللبقاء متقدمًا عن طلابي ولو بيوم واحد كان عليَّ أن أقرأ التاريخ الأوروبي في العصور الوسطىٰ والحديثة بشكلٍ أكثر جدية ممَّا سبق، ولم أستطع أن أمنع نفسي من ملاحظة أنَّه لفترةٍ طويلة من الزمن كان يتم تجاهل قيم الحرية والعقلانية والابتكار أكثر من اتباعها، وهي القيم التي من المفترض أنَّ اليونان قد أورثتها للغرب. ولمحاولة فهم هذا؛ وجدت نفسي أنظر في شرائح أكثر اتساعًا من الماضي البشري. وفوجئت بمدىٰ قوة أوجه التشابه بين ما يفترض أنَّها التجربة الغربية الفريدة، وتاريخ أجزاء أخرىٰ من العالم، وخاصة الحضارات الكبرىٰ في الصين والهند وإيران.

عادة ما يشكو الأساتذة من أعبائهم الإدارية، ولكنني عندما انتقلت إلىٰ جامعة ستانفورد في عام ١٩٩٥م تعلمتُ سريعًا أنَّ المشاركة في الجمعيات قد تكون طريقة ممتازة لمعرفة ما يدور خارج مجالي الصغير. ومنذ ذلك الحين، توليتُ إدارة مؤسسة العلوم الاجتماعية والتاريخ بالجامعة ومركز علم الآثار، وتوليتُ رئاسة قسم الكلاسيكيات، ومنصب العميد المساعد الأكبر لكلية الإنسانيات والعلوم، كما توليتُ إدارة حملة تنقيب أثرية كبيرة، وكان كل ذلك يعني كثيرًا من الأعمال الورقية والصداع، لكنَّه سمح لي أيضًا بالتعرف إلىٰ متخصصين في كل مجال، من علم الجينات إلىٰ النقد الأدبي، قد يكون مرتبطًا بالتوصل لسبب هيمنة الغرب.

وقد تعلمت شيئًا مهمًا، وهو: أنَّه للإجابة عن هذا السؤال نحتاج إلىٰ نهجٍ منفتحٍ يجمع بين تركيز المؤرخين علىٰ السياق ووعي علماء الآثار بالماضي البعيد وطُرقٍ المقارنة الخاصة بعلماء الاجتماع. ويمكننا الحصول علىٰ هذا المزيج بجمع فريق متعدد التخصصات مُؤلَّف من اختصاصيين، ممَّا سيجمع خبرة عميقة

عبر طائفة من المجالات، وهذا هو في الواقع ما فعلته عندما بدأتُ في إدراة حملة تنقيب عن الآثار في صقلية. ولم أكن أعرف ما يكفي عن علم النبات لتحليل البذور المتفحمة التي عثرنا عليها، أو عن علم الحيوان لتمييز عظام الحيوانات، أو عن الكيمياء لفهم طبيعة المخلفات في أوعية التخزين، أو عن الجيولوجيا لإعادة بناء عمليات تكوين السطح، أو عن مجموعة من التخصصات الأخرىٰ التي لا غنىٰ عنها؛ لذلك بحثتُ عن متخصصين علىٰ معرفة ودراية. إنَّ مدير عملية تنقيب عن الآثار هو نوع من متعهد حفلات أكاديمي، الذي يجمع الفنانين الموهوبين الذين سيقدمون العرض.

وتُعدّ هذه الطريقة (طريقة جمع المختصين، م) طريقة جيِّدة لإصدار تقريرٍ بأعمال التنقيب، حيث يتمثل الهدف في مُراكمة البيانات للآخرين كي يستخدموها، ولكن كتب اللجان تميل لأن تكون أقل جودة في تطويرها لحلولٍ موحدة للأسئلة الكبيرة. ونتيجة لذلك -في الكتاب الذي تقرؤه الآن- فإنَّني أتخذ نهجًا متداخل التخصصات بدلًا من كونه متعدد التخصصات، فبدلًا من دعم حشدٍ من المتخصصين؛ فإنَّني أعتمد علىٰ تخصصاتي لتجميع نتائج الخبراء في ميادين عديدة وتفسيرها.

وهذه الطريقة تتعرض لجميع أنواع المخاطر (السطحية، التحيّز التخصصي، والخطأ العام). فلن أمتلك أبدًا الإدراك المُحكم نفسه للثقافة الصينية لشخص أنفق حياته في قراءة المخطوطات التي تعود إلىٰ القرون الوسطىٰ، ولن أكون مطلعًا علىٰ مستجدات النشوء البشري مثل عالم وراثة (وقد بلغني أنَّ مجلة «ساينس» تقوم بتحديث موقعها في المتوسط كل ١٣ ثانية؛ ومن المحتمل أنَّني -في أثناء كتابة هذه الجملة- تخلَّفت عن مواكبة تحديثاتها مجددًا). ولكن من ناحية أخرىٰ: لن يرىٰ أولئك الذين يبقون داخل حدود تخصصاتهم الصورة الكبيرة. إنَّ النموذجَ متداخل التخصصات ذا المؤلف الواحد هو أسوأ طريقة علىٰ الأرجح لكتابة مثل هذا الكتاب - باستثناء كل الطرق الأخرىٰ. ويبدو لي ذلك النموذج أنَّه بالتأكيد أقل النماذج سُوءًا للمُضيِّ قُدُمًا، ولكن سينبغي عليك أن تحكم من النتائج ما إذا كنتُ مُحقًّا.

فما هي النتائج إذن؟ إنَّني أجادل في هذا الكتاب بأنَّ سؤال لماذا يُهيمن الغرب هو حقًّا سؤال حول ما سأسمِّيه التطور الاجتماعي. وبهذا أنا أعني بالأساس قدرات المجتمعات علىٰ إنجاز الأشياء، أو صياغة بيئاتهم المادية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لأغراضهم الخاصة. وبالعودة إلىٰ القرنين التاسع عشر والعشرين، سلَّم المراقبون الغربيون بأنَّ التطور الاجتماعي أمرٌ جيدٌ بلا جدال. فالتطور يُعدُّ تقدُّمًا (أو نشوءًا أو تاريخًا)، كما ذكروا كثيرًا صراحةً وضمنًا، وهذا التقدم -سواء كان لوجه الله، أو من أجل الثراء أو من أجل الفردوس البشري- فهو هدف الحياة. ولكن في هذه الأيام يبدو ذلك المعنىٰ أقل وضوحًا. فالكثير من الناس يشعرون أنَّ التدهور البيئي والحروب وعدم المساواة وخيبة الأمل الناتجة عن التطور الاجتماعي تفوق كثيرًا أية فوائد يُولِّدها.

ولكن أيًّا كانت التهمة الأخلاقية التي نعلِّقها علىٰ التطور الاجتماعي، فإنَّ واقعيته أمرٌ لا يمكن إنكاره. فكل المجتمعات اليوم تقريبًا أكثر تطورًا (بالمعنىٰ الذي عرَّفْتُ به هذه الكلمة في الفقرة السابقة) ممَّا كانت عليه قبل مائة عام، وبعض المجتمعات اليوم أكثر تطورًا من غيرها. في عام ١٨٤٢م، كانت الحقيقة القاسية هي أنَّ بريطانيا أكثر تطورًا من الصين، وفي الواقع كانت متطورة جدًّا لدرجة أنَّ امتدادها قد أصبح عالميًّا. لقد كانت هناك الكثير من الإمبراطوريات في الماضي، ولكن امتدادها كان دومًا إقليميًّا. وبحلول عام ١٨٤٢م استطاع المُصنِّعون البريطانيون إغراق الصين بمنتجاتهم، واستطاع أصحاب المصانع البريطانيون بناء السفن الحديدية التي فاقت في التسليح كل مثيلاتها في العالم، واستطاع الساسة البريطانيون إرسال حملة إلىٰ النصف الآخر من العالم.

إنَّ التساؤل عن سبب هيمنة الغرب يعني حقيقةً أن نطرح سؤالين، إنَّنا بحاجة إلىٰ معرفة كلٍّ من: لماذا الغرب أكثر تطورًا -أي: أكثر قدرة علىٰ إنجاز الأمور- من أي منطقة أخرىٰ في العالم؟ والأمر الآخر: لماذا تصاعد تطور الغرب هكذا في المائتي سنة الأخيرة، لدرجة أن استطاعت دول قليلة لأول مرة في التاريخ أن تسيطر علىٰ الكوكب بأسره؟

والطريقة الوحيدة للإجابة عن هذه الأسئلة -كما أعتقد- هي من خلال قياس التطور الاجتماعي لإنتاج رسم بياني يُوضِّح -حرفيًا- نمط التاريخ. وبمجرد أن نفعل ذلك؛ فإنَّنا سنرىٰ أنَّ كلًّا من النظريات طويلة المدىٰ الحتمية والأخرىٰ قصيرة المدىٰ العرضية، لا تفسر نمط التاريخ بشكل جيِّد علىٰ الإطلاق. فالجواب عن السؤال الأول (لماذا التطور الاجتماعي الغربي أعلىٰ من أي جزء آخر من العالم؟) لا يكمن في أي حادث عرَضي وقع مؤخرًا، فالغرب كان المنطقة الأكثر تطورًا في العالم لأربعة عشر من الخمسة عشر ألف سنة الماضية. ولكن من ناحية أخرىٰ: لم تكن ريادة الغرب محتومة في الماضي البعيد؛ فلأكثر من ألف سنة، بدءًا من حوالي عام ٥٥٠م إلىٰ عام ١٧٧٥م، أحرزت المناطق الشرقية نتائج أعلىٰ. وهكذا لم تكن الهيمنة الغربية مُقررةً سلفًا منذ آلاف السنين الماضية، ولا كانت نتيجة لحوادث عرَضية متأخرة.

ولا يمكن أيضًا للنظريات طويلة المدىٰ أو قصيرة المدىٰ الإجابة عن السؤال الثاني، المتعلق بسبب تصاعد وتيرة التطور الاجتماعي الغربي مقارنةً بكل المجتمعات القديمة. وكما سنرىٰ، فقد بدأت إنجازات الغرب في الارتفاع فقط في عام ١٨٠٠م تقريبًا بمعدلات مذهلة، لكن تلك الطفرة كانت هي نفسها المثال الأخير علىٰ نمط طويل المدىٰ جدًّا للتطور الاجتماعي المتسارع باطراد. وهكذا، فإنَّ المدىٰ الطويل والقصير يعملان معًا.

وهذا هو السبب في أنَّنا لا نستطيع تفسير هيمنة الغرب بمجرد النظر في فترة ما قبل التاريخ أو بمجرد النظر في بضع مئات السنوات الأخيرة. وللإجابة عن السؤال علينا إدراك النطاق الكُلِّي للماضي. وبالرغم من أنَّ التمثيل البياني لصعود التطور الاجتماعي وهبوطه يكشف عن نمط التاريخ، ويظهر لنا ما يحتاج إلىٰ شرح؛ فإنَّه لا يشرح الأمر فعليًّا. ومن أجل ذلك، نحتاج إلىٰ أن نُنَقِّب في التفاصيل.

الكسل والخوف والطمع

التاريخ: هو سرد، معظمه غير صحيح، لأحداث، هي في الغالب غير مهمة، وتسبَّب فيها كل من الحكام الذين هم في الغالب أوغاد، والجنود الذين هم في الغالب مغفلون. من الصعب أحيانًا ألَّا تتفق مع تعريف أمبروز بيرس الكوميدي: فالتاريخ يمكن أن يبدو مجرد شيء لعين يحدث بعد شيء لعين آخر، أو خليط فوضوي من العباقرة والأغبياء، الطغاة والرومانتيكيين، الشعراء واللصوص، الذين ينجزون أشياء غير عادية أو لا يجدون خيارًا سوىٰ الرذيلة.

ومثل هؤلاء الناس يُزيِّنون الصفحات التالية، وهو ما يجب أن يكون عليه الأمر. ففي النهاية: هم أفراد من لحم ودم، وليسوا قوىٰ موضوعية شاسعة، يعيشون ويموتون ويُنشئون ويتقاتلون في هذا العالم. ولكن من وراء كل الضجيج والغضب، سوف أجادل بأنَّ الماضي رغم ذلك لديه أنماط قوية، وأنَّه باستخدام الأدوات المناسبة؛ فبإمكان المؤرخين أن يستشفُّوا ماهية تلك الأنماط، بل وأن يفسروها.

* **وسأستخدم الأدوات الثلاث التالية:**

- **الأولىٰ:** هي البيولوجيا، التي تخبرنا ما هي حقيقة البشر، وهي أنَّنا: حيوانات شمبانزي ماهرة. فنحن جزء من المملكة الحيوانية، التي هي في حد ذاتها جزء من إمبراطورية الحياة الأكبر، والتي تمتد من القردة العُليا نزولًا للأميبا. ولهذه الحقيقة الواضحة جدًّا ثلاث نتائج مهمة:

أولًا: شأننا شأن جميع أشكال الحياة، فنحن نحيا؛ لأنَّنا نستخرج الطاقة من بيئتنا ونُحوِّلها إلىٰ المزيد من أنفسنا.

وثانيًا: شأننا في ذلك شأن أكثر الحيوانات ذكاءً، فنحن كائنات فضولية. نحن نتلاعب بالأشياء باستمرار، ونتساءل عمَّا إذا كانت تلك الأشياء تُؤكل، وما إذا كان بوسعنا أن نمرح بها، أو أن نقوم بتطويرها. ونحن أفضل بكثير في التلاعب بالأشياء من الحيوانات الأخرىٰ؛ لأنَّ لدينا أدمغةً كبيرة وسريعة مع الكثير من الطَّيَّات لنفكر في الأشياء، وأحبالًا صوتية مرنة طوال الوقت للتحدث عن الأشياء، وإبهامَيْن عكسيين للتعامل مع الأشياء.

ورغم ذلك، فالبشر -مثل الحيوانات الأخرىٰ- ليسوا كلهم سواءً بوضوح، فبعضهم يستخرج طاقة من البيئة أكثر من الآخرين، وبعضهم أكثر إنتاجية من الآخرين، والبعض أكثر فضولية وإبداعًا ومهارة أو عمليّة من الآخرين.

وأما النتيجة الثالثة لسماتنا الحيوانية: فهي أنَّ المجموعات الكبيرة من البشر، علىٰ عكس الأفراد، تتشابه كثيرًا. فإذا التقطت شخصين عشوائيين من حشد ما، فمن الممكن أن يكونا مختلفَيْن إلىٰ أقصىٰ حدٍّ يُمكن تصوُّره، ولكنَّك إذا جمعت حشدين كاملين، فسيميلان لمطابقة بعضهما البعض إلىٰ حدٍّ بعيد. وإذا قمت بمقارنة المجموعات المليونية، كما أفعل في هذا الكتاب، فمن المحتمل أنَّها ستمتلك نسبًا متشابهة جدًّا من الناس النشطاء والمُنتجين والفضوليين والمبدعين والمهرة والثرثارين والعمليين.

هذه الملاحظات الثلاث المنطقية تشرح الكثير عن مسار التاريخ. لقد ظلَّ التطور الاجتماعي عبر آلاف السنين يزداد بصورة عامة، بفضل تلاعبنا، وقد حدثت تلك الزيادة بمعدل متسارع. فالأفكار الجيدة تولد المزيد من الأفكار الجيدة، وكوننا امتلكنا أفكارًا جيدة في الماضي؛ فإنَّنا نميل إلىٰ عدم نسيانها. ولكن كما سنرىٰ، فإنَّ علم الأحياء لا يشرح التاريخ الكُلِّي للتطور الاجتماعي. لقد كسدَ أحيانًا التطور الاجتماعي لفترات طويلة دون زيادة علىٰ الإطلاق، بل انعكس هبوطًا في بعض الأحيان؛ ولهذا فإنَّ معرفة أنَّنا حيوانات شمبانزي بارعة ليست كافية.

وهنا تأتي الأداة الثانية: علم الاجتماع. يخبرنا علم الاجتماع ما الذي يُسبب التغير الاجتماعي، وما الذي يُسبِّبه التغير الاجتماعي، في وقت واحد.

فجلوس حيوانات الشمبانزي الماهرة وهي تتلاعب هو أمر ما، ولكنَّ انتشار أفكارهم وتغييرها للمجتمع هو أمر مختلف تمامًا. وهو علىٰ ما يبدو أمر يتطلب نوعًا من التحفيز، وقد أشار كاتب الخيال العلمي روبرت هينلين مرة إلىٰ أنَّ «التقدم يُحرزه رجال كسالىٰ يبحثون عن طرق أسهل لإنجاز الأشياء». وسنرىٰ لاحقًا في هذا الكتاب أنَّ نظرية هينلين صحيحة جزئيًّا فقط؛ لأنَّ النساء الكسولات هن بنفس أهمية الرجال الكُسالىٰ، فالكسل ليس وحده أبا الاختراع، وأيضًا لأنَّ كلمة التقدم في كثير من الأحيان هي كلمة متفائلة إلىٰ حدٍّ ما بالنسبة إلىٰ ما يحدث فعلًا. ولكنَّنا إذا أوضحنا قليلًا؛ فإنَّني أعتقد أنَّ حكمة هينلين تُصبح جيدة بصفتها جملة واحدة موجزة عن أسباب التغير الاجتماعي يمكن أن نحصل عليها علىٰ الأرجح. وفي الحقيقة، كما يمضي الكتاب، سأبدأ باقتباس رؤية أقل بلاغية لكلمة هينلين باعتبارها نظرية موريس الخاصة بي، وهي: «إنَّ التغيير يُسببه أناس كُسالىٰ وجشعون وخائفون يبحثون عن طرق أسهل وأكثر ربحًا، وأكثر أمانًا لإنجاز الأشياء. وهم نادرًا ما يدركون ما يفعلون». إنَّ التاريخ يُعلِّمنا أنَّه عندما يعمل الضغط، يحدث التغيير.

يبحث الأشخاص الجشعون والكُسالىٰ والخائفون عن التوازن المُفضَّل لديهم في أن يكونوا مرتاحين، وأن يعملوا بأقل قدر ممكن، وأن يكونوا آمنين. ولكن تلك ليست نهاية القصة؛ لأنَّ نجاح الناس في زيادة أعدادهم واستخلاص الطاقة بشكل حتمي يضع ضغطًا علىٰ الموارد (الفكرية والاجتماعية فضلًا عن المادية) المتاحة لهم. فالتطور الاجتماعي المتزايد يُولِّد القوىٰ نفسها التي تقوِّض المزيد منه. وأسمي هذا الأمر بمفارقة التطور. فالنجاح يخلق مشاكل جديدة؛ وحلها يخلق مشاكل جديدة مع ذلك. إنَّ الحياة -كما يقولون- هي وادٍ من الدموع.

وتعمل مفارقة التطور باستمرار، وتواجه الناس بخياراتٍ صعبة. وغالبًا ما يفشل الناس في الارتقاء إلىٰ مستوىٰ تحدياتها، ومن ثَمَّ يركد التطور الاجتماعي أو يتدهور. ولكن في أوقات أخرىٰ، يتحد الكسل والخوف والجشع لدفع بعض الأفراد للمخاطرة والابتكار لتغيير قواعد اللعبة. وإذا حالف النجاح قلة من هؤلاء

وتبنىٰ الناس ابتكاراتهم الناجحة، فربما يندفع المجتمع من عنق زجاجة الموارد، ومن ثَمَّ يواصل التطور الاجتماعي الازدياد.

يواجه الناس هذه المشاكل ويحلونها كل يوم، وهذا هو السبب في استمرار تصاعد التطور الاجتماعي منذ نهاية العصر الجليدي الأخير. ولكن كما سنرىٰ، في بعض المراحل تخلق مفارقة التطور سُقُفًا صلبة تؤدي فقط إلىٰ تغييرات تحويلية حقًّا. ويلتصق التطور الاجتماعي بهذه السُقُف، ممَّا يبدأ سباقًا يائسًا. وفي الحالة تلو الأخرىٰ سوف نرىٰ أنَّ المجتمعات التي تفشل في حل المشاكل التي تواجهها؛ فإنَّ مجموعة رهيبة من العلل -المجاعات والأوبئة والهجرة غير المُقيَّدة وإخفاق الدولة- تبدأ في إصابتهم وتُحوِّل الركود إلىٰ تدهور؛ وعندما تجتمع المجاعات والأوبئة والهجرة وإخفاق الدولة مع قوىٰ معيقة أخرىٰ، مثل التغير المناخي (إجمالًا، أسمِّي هؤلاء: فرسان الهلاك الخمسة)، فيمكن أن يتحول التدهور إلىٰ انهيارات كارثية وعصور مظلمة لقرون.

وبين (صعود التطور الاجتماعي وهبوطه، م)، يفسر كل من علم الأحياء وعلم الاجتماع معظم أنماط التاريخ - لماذا ازداد التطور الاجتماعي عمومًا، ولماذا يزداد بشكل أسرع في بعض الأحيان وبشكل بطيء في أحيان أخرىٰ، ولماذا يتدهور أحيانًا. لكن هذه القوانين البيولوجية والاجتماعية ثابتة، تنطبق علىٰ كل الأمكنة وفي جميع الأوقات. فهي بالتحديد تخبرنا عن البشرية جمعاء، وليس عن لماذا أبلىٰ البشر في مكان ما بشكل مختلف جدًّا عن البشر في مكان آخر. ولتوضيح ذلك، سأجادل طوال هذا الكتاب أنَّنا بحاجة إلىٰ أداة ثالثة وهي: الجغرافيا.

الموقع، الموقع، الموقع

علَّق الكاتب الساخر إدموند بنتلي في عام ١٩٠٥م قائلًا: «فن التراجم يختلف عن الجغرافيا؛ فالتراجم تتحدث عن الرجال (chaps)، والجغرافيا تتحدث عن الخرائط (maps)». لسنوات عديدة، استحوذ الرجال -بالمعنىٰ البريطاني لرجال الطبقة العليا- علىٰ قصص المؤرخين، إلىٰ حدّ أنّه كان من الصعب تمييز التاريخ عن التراجم/السير الذاتية. وقد تغيَّر ذلك في القرن العشرين، حين أدخل المؤرخون النساء ورجال الطبقة الدنيا والأطفال أيضًا إلىٰ طبقة الرجال الشرفاء، مضيفين أصواتهم للخليط، ولكن في هذا الكتاب أريد أن أذهب لما هو أبعد من ذلك. فما إنْ ندرك أنَّ الرجال (بأعداد كبيرة وبالمعنىٰ الأحدث والأوسع لكلمة الرجال (chaps)، حيث تشمل الكلمة أيضًا المسنين والشباب، م) يتشابهون كثيرًا، سأجادل بأنَّ كل ما يهم هو الخرائط.

ينفعل مؤرخون عديدون تجاه هذا الادعاء انفعال ثور تجاه قماش أحمر. وقد أخبرني العديد بأن رفض الفكرة القديمة القائلة بأنَّ رجالًا عظماء قليلين هم الذين حددوا أنَّ التاريخ سوف يؤول بشكل مختلف في الشرق والغرب هو شيء؛ وأنَّ القول بأنَّ الثقافة والقيم والمعتقدات لم تكن مهمة، وأنَّه يجب البحث عن سبب هيمنة الغرب بشكل كليٍّ في القوىٰ المادية الوحشية، هو شيء آخر تمامًا؛ إلَّا أنَّني إلىٰ حدٍّ ما أعتزم القيام بهذين الشيئين.

وسأحاول أن أُظهر أنَّ الشرق والغرب قد مرَّا بمراحل التطور الاجتماعي نفسها في الخمسة عشر ألف سنة الأخيرة، بالترتيب نفسه؛ لأنَّ أنواع البشر نفسها سكنت في كل منهما، أولئك البشر الذين ينتجون أنواع التاريخ نفسها. ولكنَّني

سأحاول أيضًا أن أُظهر أنَّهما (أي الشرق والغرب، م) لم يقوما بذلك في الأزمنة نفسها أو بالسرعة نفسها. وسوف أخلُص إلىٰ أنَّ علم الأحياء وعلم الاجتماع يفسران أوجه التشابه العالمية بينما يفسر علم الجغرافيا الاختلافات الإقليمية. ومن هذا المنطلق، فإنَّ الجغرافيا هي التي تفسر لماذا يُهيمن الغرب.

ويبدو قولي ذلك صراحة مثل نظرية طويلة المدىٰ حتمية متعنِّتة بقدر ما يمكن تخيله، وقد كان هناك بالتأكيد مؤرخون نظروا إلىٰ الجغرافيا بتلك الطريقة. إنَّ الفكرة تعود علىٰ الأقل إلىٰ هيرودوت المؤرخ اليوناني الذي يُقدَّر بكونه أبا التاريخ، والذي أصرَّ علىٰ أنَّ: «البلدان الغضة تُنجب رجالًا غضاضًا»، والذي خلص -مثل سلسلة من الحتميين منذ وقته- إلىٰ أنَّ الجغرافيا قد حتَّمت علىٰ موطنه العظمة. ولعلَّ أبرز مثال علىٰ هؤلاء الحتميين: إلسويرث هنتينجتون، وهو جغرافي من جامعة ييل قام بتنسيق كمية كبيرة من الإحصاءات في سنوات العقد الأول من القرن العشرين؛ كي يبرهن أنَّ مسقط رأسه (نيو هيفن، كونيتيكت) يكاد يكون مناخه مثاليًّا لتحفيز الناس علىٰ العظمة. (والأفضل منه فقط هو مناخ إنجلترا). وعلىٰ العكس من ذلك، خلص إلسويرث إلىٰ أنَّ «المناخ المثير بانتظام» لكاليفورنيا -حيث أسكن- أنتج فقط معدلات مرتفعة من حالات الجنون. وأكد هانتينجتون للقراء أنَّ «سكان كاليفورنيا ربما يشبهون الخيول التي تُثار إلىٰ الحد الأقصىٰ بحيث يصبح بعضها متعبًا بإفراطٍ وينهار».

ومن السهل السخرية من هذه الأقوال، ولكنَّني عندما أقول إنَّ الجغرافيا تفسر لماذا يُهيمن الغرب، فلدي شيء مختلف في ذهني إلىٰ حدٍّ ما (عمَّا سبق من أمثلة، م). فالفوارق الجغرافية لديها آثار طويلة المدىٰ، ولكنَّها ليست حتمية أبدًا، وما يُعدُّ ميزة جغرافية في مرحلة ما من التطور الاجتماعي قد يكون غيرَ مرتبطٍ أو عيبًا إيجابيًا في مرحلة أخرىٰ. وبوسعنا القول إنَّه بينما تدفع الجغرافيا التطور الاجتماعي، فإنَّ التطور الاجتماعي يحدد ما الذي تعنيه الجغرافيا. إنَّه طريق ذو اتجاهين.

ولتوضيح هذا بطريقة أفضل قليلًا، ولإعطاء خارطة طريق سريعة لبقية الكتاب؛ أود أن أنظر إلىٰ الوراء بمقدار عشرين ألف سنة، إلىٰ أبرد مرحلة في

العصر الجليدي الأخير. لقد كانت الجغرافيا حينئذٍ مهمة بقدر كبير: كانت كتل جليدية بسُمك ميل تغطي كثيرًا من مساحة نصف الكرة الشمالي، وأحاطت بأطرافها التندرا الجافة التي بالكاد تصلح للسكن، وفقط قُرب خط الاستواء تمكَّنت جماعات صغيرة من البشر من العيش بجمع الثمار والصيد. وكانت التمايزات حادة بين الجنوب (حيث يستطيع الناس العيش)، والشمال (حيث لا يستطيعون)، ولكن في المنطقة الجنوبية كانت التمايزات بين الشرق والغرب طفيفة نسبيًّا.

لقد غيَّرت نهاية العصر الجليدي معنىٰ الجغرافيا. فقد ظل القطبان الشمالي والجنوبي باردين وظل خط الاستواء حارًا، بالطبع، ولكن في ستة أماكن بين هذين النقيضين -وهي التي سأسميها في الفصل (٢) بالمراكز الأصلية- اجتمع الطقس الدافئ مع الجغرافيا المحلية لصالح نشوء النباتات و/أو الحيوانات التي أمكن للإنسان تدجينها (أي: تعديلها وراثيًا لجعلها أكثر فائدة، وصولًا في النهاية إلىٰ المرحلة التي تمكَّنت فيها الكائنات المحورة وراثيًا من العيش فقط في علاقة تكافلية مع البشر). ومن ثَمَّ أصبحت الحيوانات والنباتات المدجنة تعني المزيد من الغذاء، ممَّا يعني المزيد من الناس، وممَّا يعني المزيد من الابتكار؛ لكن التدجين كان يعني أيضًا المزيد من الضغوط علىٰ الموارد نفسها التي دفعت هذه العملية. ومن ثَمَّ بدأت مفارقة التطور في العمل مباشرة.

كانت هذه المناطق المركزية مثالًا نموذجيًّا إلىٰ حدٍّ ما للمناطق الدافئة نسبيًّا والصالحة للسكن في أثناء العصر الجليدي، لكنَّها الآن أصبحت أكثر تميزًا عن بقية العالم وعن بعضها البعض. فقد فضلت الجغرافيا تلك المناطق كلها، لكنَّها أيضًا فضلت بعضها علىٰ بعض. وكان لدىٰ إحدىٰ المناطق المركزية المسماة بهيلي فلانكس (Hilly Flanks) (وتعني التخوم كثيرة التلال، وهي المنطقة التي تنحني حول وديان نهري دجلة والفرات ووادي الأردن، وتحوّط الهلال الخصيب، م) في غرب أوروبا الآسيوية - كان لديها تجمعات كثيفة بشكل فريد من النباتات والحيوانات القابلة للتدجين؛ وبما أنَّ المجموعات البشرية تتشابه كثيرًا، فقد كانت تلك المنطقة -ذات الموارد الأوفر والعمليات الأسهل- هي

التي بدأ فيها التحرك تجاه التدجين. وكان ذلك حوالي عام ٩٥٠٠ ق. م.

وبتتبع ما آمل أنَّه هو المنطق، فإنَّني -طيلة هذا الكتاب- أستخدم كلمة «الغرب» لوصف جميع المجتمعات التي انحدرت من هذا المركز الواقع في أقصىٰ الغرب (والأقدم) بين المراكز الأوروآسيوية. وقد توسع الغرب منذ فترة طويلة من المركز الأصلي في جنوب غرب آسيا؛ ليشمل حوض البحر الأبيض المتوسط وأوروبا، وخلال القرون القليلة الماضية شمل الأمريكتين وأستراليا أيضًا. وكما آمُلُ أن يكون واضحًا، فإنَّ تعريف «الغرب» علىٰ هذا النحو (بدلًا من التركيز علىٰ بعض القيم «الغربية» المتفردة افتراضيًّا، مثل الحرية أو العقلانية أو التسامح، ثم الجدال حول منشأ هذه القيم، وأي أجزاء من العالم تمتلكها)، هذا التعريف لديه تبعات جوهرية لفهم العالم الذي نعيش فيه. وهدفي هو تفسير لماذا تهيمن الآن علىٰ العالم مجموعة معيّنة من المجتمعات التي تنحدر من المركز الغربي الأصلي، ولا سيما مجتمعات أمريكا الشمالية، بدلًا من المجتمعات التي في جزء آخر من الغرب أو تلك التي تنحدر من أحد المراكز الأخرىٰ، أو في الواقع بدلًا من ألَّا تهيمن أية مجتمعات علىٰ الإطلاق.

واتباعًا للمنطق نفسه، فإنَّني أستخدم «الشرق» للإشارة إلىٰ جميع تلك المجتمعات التي تنحدر من (ثاني أقدم) المراكز الأوروآسيوية وأقصاها شرقًا. فقد توسع الشرق أيضًا منذ زمن طويل من مركزه الأصلي بين النهر الأصفر ونهر يانغتسي في الصين، حيث بدأ تدجين النباتات في حوالي عام ٧٥٠٠ ق. م، واليوم يمتد من اليابان في الشمال إلىٰ بلدان الهند الصينية في الجنوب.

أما المجتمعات التي تنحدر من مراكز أخرىٰ - مركز جنوب شرقي في ما يعرف الآن بغينيا الجديدة، ومركز جنوب آسيوي في باكستان الحديثة وشمال الهند، ومركز أفريقي في الصحراء الكبرىٰ الشرقية، ومركزين للعالم الجديد في المكسيك وبيرو - فلديها جميعًا تاريخها الخاص الرائع. وأنا أتناول هذه المراكز مرارًا فيما يلي، ولكنَّني أركز باستمرار علىٰ المقارنات بين الشرق والغرب. وتعليلي لذلك: أنَّه منذ نهاية العصر الجليدي، فإنَّ أكثر المجتمعات تطورًا ظلت دومًا هي تلك التي انحدرت إمَّا من المركز الغربي وإمَّا من المركز الشرقي

الأصليين. وبينما يُعد سيناريو ألبرت في بكين بديلًا مقبولًا لسيناريو لوتي في بالمورال، فإنَّ سيناريو ألبرت في كوسكو أو دلهي أو غينيا الجديدة ليس كذلك؛ ولهذا فإنَّ أنجع طريقة لشرح (لماذا يهيمن الغرب) هي التركيز علىٰ المقارنات بين الشرق والغرب، وهذا هو ما فعلته.

إنَّ كتابة هذا الكتاب بهذه الطريقة لها تكاليفها، وسيكون السرد العالمي الأكثر ملاءمة والذي ينظر إلىٰ كل منطقة في العالم أغنىٰ وأدقَّ، وسيمنح مثل هذا السرد حضارات جنوب آسيا والأمريكتين ومناطق أخرىٰ التقديرَ الكامل لجميع إسهاماتها في الحضارة. ولكن مثل هذه الرؤية العالمية، ستكون لها مثالب لا سيما فقدان التركيز، وسوف تتطلب مزيدًا من الصفحات عن صفحات الكتاب الذي كتبت. وقد لاحظ صمويل جونسون، الأشد ذكاء في إنجلترا في القرن الثامن عشر في إحدىٰ المرات أنَّه في حين كان الجميع مُعجبًا بملحمة ميلتون الشعرية (الفردوس المفقود)، فإنَّه «لم يتمنَّ أحد أن تكون الملحمة أطول من ذلك»، وما ينطبق علىٰ ميلتون كما أظن ينطبق بشكل أكبر علىٰ أي شيء قد آتي به.

إذا كانت الجغرافيا قد قدمت بالفعل تفسيرًا طويل المدىٰ وحتميًا علىٰ طراز هيرودوت، فيمكنني أن أطوي هذا الكتاب بسرعة كبيرة فقط بعد أن أشير إلىٰ أن التدجين بدأ في المركز الغربي في حوالي ٩٥٠ ق.م، وفي المركز الشرقي في حوالي ٧٥٠٠ ق. م. كان التطور الاجتماعي الغربي ليبقىٰ ببساطة متقدمًا عن مثيله الشرقي بألفي سنة، ولمر الغرب بثورة صناعية في الوقت الذي لا يزال فيه الشرق يكتشف الكتابة. لكن من الواضح أنَّ ذلك لم يحدث. وكما سنرىٰ في الفصول التالية، فالجغرافيا لم تجعل التاريخ حتميًّا؛ لأنَّ المزايا الجغرافية انهزامية علىٰ الدوام. إنها تزيد من وتيرة التطور الاجتماعي، ولكن في أثناء العملية؛ فإنَّ التطور الاجتماعي يغيِّر ما تعنيه الجغرافيا.

وبارتفاع وتيرة التطور الاجتماعي تتسع المراكز، أحيانًا من خلال الهجرة وأحيانًا عن طريق التقليد أو الابتكار المستقل لجيرانها. وتنتشر الأساليب والطرق التي نجحت بشكلٍ جيد في مركز قديم -سواء كانت تلك الأساليب هي الزراعة

وحياة القرىٰ أو المدن والدول أو الإمبراطوريات العظمىٰ أو الصناعة الثقيلة- إلىٰ مجتمعات جديدة وبيئات جديدة. وفي بعض الأحيان ازدهرت هذه الأساليب في الأماكن الجديدة، وأحيانًا استمرت دون هدف، وأحيانًا تطلبت تعديلات كبيرة؛ لتنجح بأية حال من الأحوال.

قد يبدو هذا الأمر غريبًا، ولكن أكبر الإنجازات في التطور الاجتماعي أتت غالبًا في الأماكن حيث لم تنجح الأساليب المستوردة أو المنسوخة من مركز أكثر تقدمًا بشكل جيد. ويرجع ذلك أحيانًا إلىٰ أنَّ النضال من أجل تكييف الأساليب القديمة علىٰ البيئات الجديدة يُجبر الناس علىٰ تحقيق تقدم مفاجئ، وأحيانًا يكون ذلك بسبب أنَّ العوامل الجغرافية التي لا تهم كثيرًا في مرحلة ما من التطور الاجتماعي تهم أكثر بكثير في مرحلة أخرىٰ.

قبل خمسة آلاف سنة -علىٰ سبيل المثال- كانت حقيقة أنَّ كلًا من البرتغال وأسبانيا وفرنسا وبريطانيا تتوسع خارج أوروبا إلىٰ المحيط الأطلسي بمثابة عائق جغرافي ضخم، ممَّا يعني أنَّ هذه المناطق كانت بعيدة جدًّا عن الحراك الفعلي في بلاد الرافدين ومصر. ولكن منذ خمسمائة سنة، ارتفع التطور الاجتماعي كثيرًا لدرجة أن غيَّرت الجغرافيا معانيها. فقد أصبحت هناك أنواع جديدة من السفن بإمكانها عبور ما ظلَ يُعدُّ -دائمًا- محيطات لا يمكن اجتيازها، وقد جعل ذلك فجأة من التوسع داخل المحيط الأطلنطي فائدة كبيرة. لقد كانت السفن البرتغالية والأسبانية والفرنسية والإنجليزية هي التي بدأت الإبحار للأمريكتين والصين واليابان عوضًا عن السفن المصرية أو العراقية. كان الأوروبيون الغربيون هم الذين بدؤوا ربط العالم بالتجارة البحرية، ومن ثَمَّ ارتفع التطور الاجتماعي الغرب أوروبي عاليًا متفوقًا علىٰ المركز الأقدم في منطقة شرق البحر المتوسط.

وأسمي هذا النمط: «مزايا التخلف»، وهو قديم قدم التطور الاجتماعي نفسه. فعلىٰ سبيل المثال: حينما بدأت القرىٰ الزراعية في التحول إلىٰ مدن سريعًا (بعد عام ٤٠٠٠ ق. م في الغرب، وعام ٢٠٠٠ ق. م في الشرق)، أصبح الوصول إلىٰ تُرَب ومناخات معينة حبّذت الظهور الأول للزراعة، أقل أهمية من الوصول إلىٰ الأنهار الكبيرة التي يمكن استغلالها في ري الحقول أو باعتبارها

طرقًا تجارية. وحين ظلت الدول تتوسع، أصبح الوصول إلىٰ الأنهار الكبيرة أقل أهمية من الوصول إلىٰ المعادن، أو إلىٰ الطرق التجارية الأطول أو إلىٰ مصادر القوىٰ العاملة. فبتغيّر التطور الاجتماعي تتغيَّر الموارد التي يتطلبها أيضًا، وقد تكتشف المناطق التي لم تكن ذات أهمية مزايا في تخلّفها.

ومن الصعب دومًا أن نتنبأ كيف ستنتهي مزايا التخلف: فليست كل أشكال التخلف متساوية. فعلىٰ سبيل المثال: منذ أربعمائة عام مضت، بدا للعديد من الأوروبيين أنَّ مزارع منطقة البحر الكاريبي المزدهرة كانت تمتلك مستقبلًا أكثر إشراقًا من مزارع أمريكا الشمالية. وبالاستدراك المتأخر يمكننا أن نرىٰ لماذا تحولت هايتي إلىٰ أفقر بلد في نصف الكرة الغربي، والولايات المتحدة إلىٰ أغناها، ولكن التنبؤ بهذه النتائج أصعب بكثير.

كانت إحدىٰ أوضح تبعات مزايا التخلف هي أنَّ المنطقة الأكثر تقدمًا في كل مركز تحرَّكت عبر الزمن؛ ففي الغرب نزحت من هيلي فلانكس (في عصر المزارعين الأوائل) جنوبًا إلىٰ وديان النهر في بلاد الرافدين ومصر حين نشأت الدول، ثم غربًا إلىٰ حوض البحر المتوسط عندما أصبحت التجارة والإمبراطوريات أكثر أهمية. وفي الشرق، نزحت شمالًا من المنطقة الواقعة بين النهر الأصفر ونهر يانغتسي إلىٰ حوض النهر الأصفر ذاته، ثم غربًا إلىٰ نهر وي ومنطقة تشين.

وكانت إحدىٰ التبعات الثانية لمزايا التخلف هي تذبذب ريادة الغرب في التطور الاجتماعي، جزئيًّا بسبب أنَّ الموارد الحيوية -النباتات والحيوانات البريّتين والأنهار والطرق التجارية والقوىٰ العاملة- كانت موزعة بطرق مختلفة عبر كل مركز، وجزئيًّا بسبب أنَّ في كلا المركزين كانت عمليات التوسع وإدماج موارد جديدة عملية عنيفة وغير مستقرة، ممَّا دفع إلىٰ تسارع مفارقة التطور. فقد جعل نمو الدول الغربية في الألفية الثانية قبل الميلاد، علىٰ سبيل المثال، البحر الأبيض المتوسط ليس فقط طريقًا رئيسًا للتجارة ولكن أيضًا طريقًا رئيسًا للقوىٰ المُعيقة. ففي حوالي عام ١٢٠٠ ق. م، فقدت الدول الغربية السيطرة، وأطلقت كل من الهجرات وإخفاقات الدول والمجاعات والأوبئة انهيارًا علىٰ امتداد

المركز، لكن لم يمر الشرق الذي لا يمتلك بحارًا داخلية بانهيار مماثل، وبحلول عام ١٠٠٠ ق. م، تقلصت ريادة الغرب في التطور الاجتماعي بشكلٍ حاد.

وعلىٰ مدار أكثر من الثلاثة آلاف سنة التي تلت، استمر النمط نفسه مرارًا مع عواقب دائمة التغيُّر. فقد حددت الجغرافيا مواقع ارتفاع وتيرة التطور الاجتماعي بشكل أسرع في العالم، لكن التطور الاجتماعي المرتفع غيّر معنىٰ الجغرافيا. وفي المراحل المختلفة كانت كل من السهوب العظمىٰ التي تربط أوروبا الآسيوية الشرقية والغربية، وأراضي الأرز الغنيَّة في جنوب الصين، والمحيط الهندي، والمحيط الأطلسي -كانت جميعها في غاية الأهمية؛ وعندما بزغ الأطلسي في القرن السابع عشر أنشأ أولئك الذين كانوا في أفضل وضع لاستغلاله- في البداية بريطانيا في الأساس، ثم مستعمروهم السابقون في أمريكا - أنواعًا جديدة من الإمبراطوريات والاقتصادات، وحرروا الطاقة المأسورة في الوقود الأحفوري. وهذا -كما سأجادل- هو سبب هيمنة الغرب.

الخطة

*** قسمت الفصول التالية إلىٰ ثلاثة أجزاء:**

*** الجزء الأول (الفصول ١ - ٣)**: يتعرض لأكثر المشكلات الأساسية: ما هو الغرب؟ من أين نبدأ قصتنا؟ ماذا نعني «بالهيمنة»؟ كيف يمكننا القول: من الذي يقود أو يهيمن؟

في الفصل الأول: أستعرض الأساس البيولوجي للقصة في نشوء الإنسان الحديث وانتشاره علىٰ كوكب الأرض.

وفي الفصل الثاني: أتتبع تشكل المراكز الشرقية والغربية الأصلية ونموها بعد العصر الجليدي.

وفي الفصل الثالث: أكسر السرد لتعريف التطور الاجتماعي، وشرح كيف سأستخدمه لقياس الاختلافات بين الشرق والغرب.

*** في الجزء الثاني (الفصول ٤ - ١٠)**: أتتبع قصص الشرق والغرب بالتفصيل، متسائلًا باستمرار عمَّا يفسر أوجه الشبه والاختلاف بينهما.

وفي الفصل الرابع: أفحص قيام أولىٰ الدول والمُعيقات الكبرىٰ التي حطمت المركز الغربي في القرون إلىٰ ١٢٠٠ ق. م.

وفي الفصل الخامس: آخذ بعين الاعتبار الإمبراطوريات الشرقية والغربية العظمىٰ الأولىٰ، وكيف ازداد تطورها الاجتماعي إلىٰ حدود ما كان ممكنًا في الاقتصادات الزراعية.

ثم في الفصل السادس: أناقش الانهيار الكبير الذي اجتاح أوروبا الآسيوية بعد حوالي عام ١٥٠ ق. م.

وفي الفصل السابع: نصل إلىٰ نقطة تحول، حيث يفتتح الشرق جبهة جديدة ويتخذ الصدارة في التطور الاجتماعي. وبحلول عام ١١٠٠ ق. م تقريبًا كان الشرق يندفع عبر حدود الممكن في عالم زراعي.

ولكن في الفصل الثامن: سنرىٰ كيف أدىٰ ذلك لانهيار ثانٍ كبير.

وفي الفصل التاسع: أصف الجبهات الجديدة التي أنشأتها الإمبراطوريات الشرقية والغربية علىٰ السهوب وعبر المحيطات بينما كانت تلك الإمبراطوريات تتعافىٰ، وأتفحَّص كيف أغلق الغرب فجوة التطور في وجه الشرق.

وأخيرًا، في الفصل العاشر: سنرىٰ كيف حولت الثورة الصناعية صدارة الغرب إلىٰ هيمنة والنتائج الهائلة لذلك.

*** وفي الجزء الثالث (الفصلان ١١، ١٢)**: أنتقل إلىٰ السؤال الأهم بالنسبة إلىٰ أي مؤرخ: ماذا بعد؟

أولًا، في الفصل الحادي عشر: أستجمع جدالي بأنَّ وراء كل تفاصيل ما حدث خلال الخمسة عشر ألف سنة الأخيرة، حددت مجموعتان من القوانين (قوانين البيولوجيا، وعلم الاجتماع) نمط التاريخ علىٰ نطاق عالمي، في حين أنَّ مجموعة ثالثة من القوانين (قوانين الجغرافيا) حددت الاختلافات بين التطور الشرقي والغربي. لقد كان استمرار التفاعل بين هذه القوانين، وليس النظريات طويلة المدىٰ الحتمية أو العوارض قصيرة المدىٰ، هي التي أرسلت لوتي إلىٰ بالمورال بدلًا من ألبرت إلىٰ بكين.

هكذا يتحدث المؤرخون عادة عن الماضي، فمعظم العلماء يبحثون عن التفسيرات في الثقافة والمعتقدات والقيم والمؤسسات أو الصُدف العمياء بدلًا من الأسطح الصلبة للواقع المادي، وقليل منهم يفضل الموت علىٰ التحدث عن القوانين.

ولكن بعد دراسة بعض هذه البدائل (ورفضها)، أود الذهاب لخطوة أبعد من ذلك، **مُشيرًا في الفصل الثاني عشر**: إلىٰ أن قوانين التاريخ -في الحقيقة-

تعطينا انطباعًا جيدًا جدًّا عمَّا سيحدث بعد ذلك على الأرجح. فالتاريخ لم ينتهِ بهيمنة الغرب؛ فما زالت كل من مفارقة التطور ومزايا التخلف تعملان، وما زال السباق بين الابتكارات التي تقود التطور الاجتماعي إلى أعلى والمُعيقات التي تجذبه لأسفل دائرًا. وفي الحقيقة، سأشير إلى أن السباق أصبح أكثر سخونة من أي وقت مضى. فالأنواع الجديدة للتطور والإعاقة تَعِد -أو تهدد- بتحويل ليس فقط الجغرافيا، ولكن علم الأحياء وعلم الاجتماع أيضًا. وليس السؤال الكبير في عصرنا ما إذا كان الغرب سيواصل الهيمنة أم لا، وإنَّما ما إذا كانت البشرية ككل سوف تحرز تقدمًا مفاجئًا إلى نوع جديد تمامًا من الوجود قبل أن تضربنا الكارثة بشكل دائم.

الجزء الأول

(١)

قبل الشرق والغرب

ما هو الغرب؟

يقول صمويل جونسون: «حين يَسأم الإنسان من لندن؛ فإنَّه يسأم من الحياة؛ لأنَّ هناك في لندن كل ما يمكن أن تقدمه الحياة». كان ذلك عام ١٧٧٧م، وكان كل تيار فكري، وكل اختراع ذكي جديد يُنشِّط مسقط رأس الدكتور جونسون. وكان في لندن كاتدرائيات وقصور وحدائق وأنهار وبيوت كبيرة وأحياء فقيرة. وفوق كل شيء، كان في لندن أشياء تشتريها - أشياء تفوق أجمح تخيلات الأجيال السابقة. استطاعت السيدات الراقيات والسادة الفضلاء الترجل من العربات في القناطر الجديدة لشارع أكسفورد، للبحث عن اختراعات مثل المظلة، وهي اختراع من ستينيات القرن الثامن عشر سرعان ما اعتبرها الغرب بأنَّها لا غنىٰ عنها؛ أو حقيبة اليد أو معجون الأسنان، وكلاهما منتج للعقد نفسه. ولم يكن الأغنياء فحسب هم الذين انغمسوا في هذه الثقافة الجديدة للاستهلاك، وإنَّما -ولفزع المحافظين- كان رجال التجارة أيضًا يقضون ساعات في المقاهي، وكان الفقراء يَعُدّون الشاي ضرورة، وكانت زوجات المزارعين يشترين البيانوهات.

بدأ البريطانيون يشعرون بأنَّهم ليسوا مثل بقية الناس، ففي عام ١٧٧٦م سمَّاهم الحكيم الأسكتلندي آدم سميث: «أمة أصحاب المتاجر»، في أشهر أعماله «بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها»، ولكنَّه قصد المجاملة بما قال؛ فقد أصرَّ علىٰ أنَّ اهتمام البريطانيين برفاههم جعل الجميع أكثر ثراءً، ودعا إلىٰ التأمل في التناقض بين بريطانيا والصين. فالصين «لم تزل من أغنىٰ البلدان، وأخصبها، وأكثرها زراعة وصناعة وسكانًا في العالم. لكنَّها اكتسبت بالفعل تلك المجموعة

الكاملة من الثروات التي تسمح لها قوانينها ومؤسساتها باكتسابها». لقد كان الصينيون باختصار عالقين! وتنبأ سميث بأنَّ «التنافس بين كل من العمال ومصالح الأسياد سرعان ما سيختزلهم في الحد الأدنىٰ المُتلائم مع المشترك الإنساني»، مما يترتب علىٰ ذلك أنَّ «الفقر الذي تعاني منه طبقات الشعب الدنيا في الصين يتجاوز بكثير فقر ومعاناة أكثر أمم أوروبا تسولًا ... فأية جثة، أو جيفة كلب أو قط نافق وإن كانت شبه عفنة أو نتنة، تكون موضع ترحيب منهم، وهي بالنسبة إليهم كما هو الطعام الصحي لدىٰ غيرهم من سكان بلدان أخرىٰ».

وكان لدىٰ جونسون وسميث حقٌّ. فالبرغم من أنَّ الثورة الصناعية بالكاد بدأت في سبعينيات القرن الثامن عشر، فقد كان متوسط الدخول بالفعل أعلىٰ وموزعًا بالتساوي في إنجلترا أكثر ممَّا كان كذلك في الصين. وفي الغالب، تنطلق النظريات طويلة المدىٰ من هذه الحقيقة: فقد كانت صدارة الغرب -كما يجادلون- سببًا وليس نتيجة للثورة الصناعية، لكنَّنا نحتاج إلىٰ أن ننظر إلىٰ الوراء في الزمن -ربما أبعد كثيرًا- لتفسير تلك الصدارة.

لكن هل نحن بحاجة إلىٰ ذلك بالفعل؟ يصر المؤرخ كينيث بوميرانز الذي أشرت إلىٰ كتابه "The Great Divergence" أو «**التباعد الكبير**» في المقدمة، علىٰ أنَّ آدم سميث وكل المطبلين والمزمرين للغرب الذين اتبعوه كانوا في الحقيقة يُقارنون الأشياء الخطأ. ويشير بوميرانز إلىٰ أنَّ الصين بلد كبير ومتنوع مثل قارة أوروبا بأسرها. ولذا لا يجب أن نتفاجأ كثيرًا بأنَّنا إذا ركزنا علىٰ إنجلترا، والتي كانت أكثر مناطق أوروبا تطورًا في المنطقة أيام سميث، وقمنا بمقارنتها بمتوسط مستوىٰ التطور في الصين بأكملها؛ ستتفوق إنجلترا. وعلىٰ المنوال نفسه، إذا قمنا بعكس مسار الأمور وقارنَّا بين دلتا نهر يانغتسي (الجزء الأكثر تطورًا في الصين في سبعينيات القرن الثامن عشر)، ومتوسط مستوىٰ التطور في جميع أنحاء أوروبا؛ ستتفوق دلتا نهر يانغتسي. ويجادل بوميرانز بأنَّ كلًّا من إنجلترا في القرن الثامن عشر ودلتا نهر يانغتسي، كانا لديهما قواسم مشتركة مع بعضهما البعض (الصناعة الوليدة، والأسواق المزدهرة، وقطاعات العمل المعقدة) أكثر من تلك التي كانت بين إنجلترا والأجزاء المتخلفة من أوروبا، أو بين دلتا نهر يانغتسي

والأجزاء المتخلفة من مناطق الصين، وكل ذلك جعله يستنتج أن مُنظِّري المدىٰ الطويل يفهمون الأمور علىٰ عكس حقيقتها؛ لأنَّ طريقة تفكيرهم كانت سطحية وتافهة. ويلاحظ بوميرانز أنَّه إذا كان كل من إنجلترا ودلتا نهر يانغتسي متماثلين جدًّا في القرن الثامن عشر، فإنَّ تفسير الهيمنة الغربية لا بُدَّ وأنَّه يكمن في ما بعد هذا التاريخ، وليس قبله.

وثمَّة تضمين واضح وهو: أنَّنا إذا أردنا معرفة لماذا يهيمن الغرب؛ فإنَّنا بحاجة أولًا إلىٰ معرفة ما هو «الغرب». فبمجرد أن نطرح ذلك السؤال، تصبح الأمور فوضوية. إنَّ لدىٰ كل منَّا شعورًا داخليًا حول ما الذي يُشكّل «الغرب». فالبعض يعدل الغرب بالديمقراطية والحرية، وآخرون يعدلونه بالمسيحية، وآخرون يعدلونه بالعقلانية العلمانية. وفي الحقيقة، لقد وجد المؤرخ نورمان ديفيز ما لا يقل عن ١٢ طريقة يُعرِّف بها الأكاديميون الغربَ، تتحد فقط فيما يسميه نوررمان: «الجغرافيا المرنة». وكل تعريف يمنح الغرب شكلًا مختلفًا، ممَّا يخلق نوعًا من الالتباس الذي يشكو منه بوميرانز. فالغرب، كما يقول ديفيز: «يمكن تعريفه من قِبَل مناصريه بأية طريقة يعتقدون أنَّها مناسبة»، بمعنىٰ أنَّه في حقيقة الأمر فإنَّ «الحضارة الغربية هي بالأساس مزيج من البِنىٰ الفكرية التي صُمِّمَت بهدف تعزيز مصالح واضعيها».

وإذا كان ديفيز مُحقًّا؛ فإنَّ سؤال لماذا يهيمن الغرب لا يعني أي شيء أكثر من انتقاء اعتباطيّ/عشوائيّ لقيمة ما لتعريف الغرب، بدعوىٰ أنَّ مجموعة معينة من البلدان تُجسّد هذه القيمة، ثم مقارنة تلك المجموعة مع مجموعة أخرىٰ من البلدان «غير الغربية» اختيرت اعتباطيًا بالمثل، للتوصل إلىٰ أية استنتاجات نريدها تخدم أغراضنا الذاتية، وبوسع أي شخص لا يتفق مع استنتاجاتنا أن يختار قيمة مختلفة ليمثل بها التغريب (westernness)، وأن يختار مجموعة مختلفة من البلدان تجسّد هذه القيمة، ومجموعة مقارنة مختلفة، ليصل بصورة طبيعية إلىٰ استنتاج مختلف لكنَّه خادم لأغراض ذاتية بالمثل.

لن يكون لذلك معنىٰ؛ لهذا أريد أن أتخذ نهجًا مختلفًا. فبدلًا من البدء من نهاية العملية، بصُنع افتراضات بشأن ما يُعدّ قيمًا غربية ثم النظر إلىٰ الوراء عبر

الزمن لإيجاد جذورها، سوف أبدأ من البداية. سوف أنتقل إلىٰ الأمام عبر الزمان، من البداية حتىٰ نصل إلىٰ النقطة التي يمكننا فيها أن نرىٰ بزوغ أساليب العيش المميزة في أجزاء مختلفة من العالم. وعندها سأُسمِّي هذه المناطق المميزة الواقعة في أقصىٰ الغرب بـ «الغرب»، وتلك الواقعة في أقصىٰ الشرق بـ «الشرق»، بمعاملة الغرب والشرق بما هما عليه - تسميات جغرافية، بلا أحكام قيمية.

إنَّ القول بأنَّه يجب علينا أن نبدأ من البداية هو شيء، وإيجاد البداية نفسها هو شيء آخر تمامًا. وكما سنرىٰ، فهناك عدة مراحل في الماضي البعيد أُغري فيها العلماء بتعريف الشرق والغرب من جهة البيولوجيا، رافضين الحجج التي سُقتها في المقدمة بأنَّ البشر (في مجموعات كبيرة منهم) متشابهون كثيرًا، وبدلًا من ذلك هم يروْن أنَّ البشر في جزء واحد من العالم متفوقون علىٰ جميع الآخرين وراثيًّا. وهناك أيضًا مراحل يكون عندها من السهل جدًّا استنتاج أن منطقة واحدة كانت -منذ زمن سحيق- متفوقة حضاريًا علىٰ جميع المناطق الأخرىٰ. ينبغي علينا أن ننظر في هذه الأفكار بعناية؛ لأنَّنا إذا زللنا هنا في البداية أيضًا فإننا سنفهم كل ما يتعلق بشكل الماضي، وبالتالي بشكل المستقبل - بشكل خاطئ.

في البداية

كل ثقافة لديها قصتها الخاصة عن بداية الأشياء، ولكن في السنوات القليلة الماضية منحنا علماء الفيزياء الفلكية بعضَ الرؤىٰ العلمية الجديدة. فمعظم الخبراء الآن يعتقدون أن الزمان والمكان بدآ منذ ١٣ بليون سنة مضت، علىٰ الرغم من أنَّهم لا يتفقون حول كيفية حدوث ذلك. فالنظرية «التضخميَّة» السائدة تتضمن أنَّ الكون في البداية توسع بسرعة أكبر من الضوء، نشأة من نقطة صغيرة متناهية الكثافة والصغر، بينما تُجادل النظرية «الدورية» المُنافسة بأنَّ الكون قد أتىٰ إلىٰ الوجود عندما انهار كون سابق، لكن كلتا المدرستين تتفق علىٰ أنَّ عالمنا لا يزال يتمدد، ولكن بينما يقول التضخميون بأنَّ الكون سيواصل النمو، وإنَّ النجوم

ستنطفئ، وفي نهاية المطاف سيحل ظلام وبرودة تامَّان؛ فإنَّ الدوريين يزعمون بأنَّ الكون سينكمش علىٰ نفسه، وينفجر ثانية، ويُنشئ كونًا آخر جديدًا.

ومن الصعب إدراك معنىٰ هذه النظريات ما لم تكن مرت بسنوات من التدريب في الرياضيات المتقدمة، ولكن لحسن الحظ لا يتطلب منَّا سؤالنا أن نبدأ من وقت مبكر جدًّا، فلم يكن ممكنًا أن يوجد الشرق أو الغرب عندما لم تكن هناك اتجاهات مطلقًا، وعندما كانت قوانين الطبيعة غير موجودة. ولم يكن ممكنًا علىٰ السواء أن يكون كل من الشرق والغرب مفهوميْن مفيديْن قبل أن تتشكل شمسنا ويتشكل كوكبنا منذ ٤,٥ مليارات عام مضت. وربما يمكننا أن نتكلم عن الشرق والغرب بعد أن تكونت القشرة الأرضية، أو علىٰ الأقل بعد أن وصلت القارات إلىٰ شيء مماثل لمواقعها الحالية، وفي تلك المرحلة فنحن بالفعل نرجع إلىٰ بضعة ملايين سنة الأخيرة. ولكن في الحقيقة، فإنَّ هذه المناقشات كافَّةً تُعدُّ خارج الموضوع: فالشرق والغرب لا يمكنهما أن يعنيا شيئًا بالنسبة إلىٰ السؤال في هذا الكتاب حتىٰ نضيف مكوّنًا جديدًا إلىٰ الخليط - البشر.

يُحبُّ علماء مستحاثات أسلاف البشر (Paleoanthropologists)، الذين يدرسون البشر القدماء، الجدلَ أكثر من المؤرخين، ويُعدُّ مجالهم حديثًا وسريع التطور، وتقلب الاكتشافات الجديدة في مجالهم باستمرار الحقائق الثابتة رأسًا علىٰ عقب. فلو أدخلت اثنين من علماء مستحاثات أسلاف البشر إلىٰ غرفة ما، فمن المحتمل أن يخرجا منها بثلاث نظريات عن التطور البشري، وفي الوقت الذي يغلق الباب وراءهم، ستغدو تلك النظريات قد عفا عليها الزمن.

إنَّ الحدود بين البشر وما قبل البشر ضبابيةٌ بالضرورة. ويعتقد بعض علماء مستحاثات أسلاف البشر أنَّنا ما إن نرىٰ القرود تسير بشكل قائم؛ فعلينا أن نبدأ في الحديث عن البشر. وبالحُكْم من عظام الفخذ وإصبع القدم، فقد بدأ بعض القرود في شرق أفريقيا في السيْر بشكل قائم منذ ٦ أو ٧ ملايين سنة مضت. ومع ذلك، فإنَّ معظم الخبراء يعتقدون أنَّ معيار السيْر هذا لا يفي بالتطلعات؛ ولهذا فإنَّ التقسيمات البيولوجية المعيارية -في الحقيقة- تُعرِّف الجنس هومو [باللاتينية،

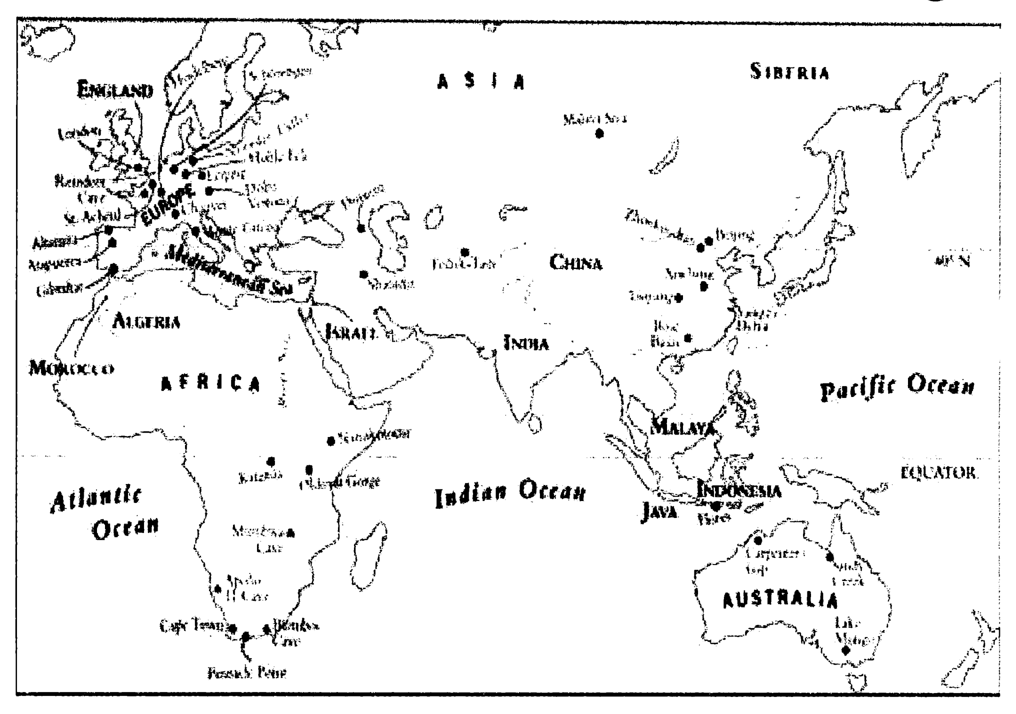
وتعني «الجنس البشري»] بالجمع بين كل من زيادة في حجم المخ من ٤٠٠ - ٥٠٠ سنتيمتر مكعب إلىٰ حوالي ٦٣٠ سنتيمترًا مكعبًا، (مساحة أمخاخنا نحن تساوي ضعف ذلك تقريبًا)، بالإضافة إلىٰ أول دليل علىٰ وجود بشر بدائيين مُنتصبين يُحطمون معًا الحجارة لصنع أدوات بدائية. وقد بدأت هاتان العمليتان بين ظهراني البدائيين ذوي القدميْن في شرق أفريقيا منذ حوالي ٢,٥ مليون سنة مضت. وقد أطلق لويس وماري ليكي، الحفاران الشهيران في منطقة أولدفاي جورج في تنزانيا (الشكل ١,١)، علىٰ هذه المخلوقات ذات الأدمغة الكبيرة نسبيًا اسمَ هومو هابيليس، وهي الكلمة اللاتينية التي يُقابلها «الإنسان الماهر» (Handy man). وحتىٰ وقت قريب، لم يقلق علماء مستحاثات أسلاف البشر مثل معظم الناس، بشأن إطلاق كلمة «رجل» علىٰ الأفراد من كلا الجنسين، لكن ذلك تغيّر؛ إلَّا أنَّه بالاتفاق، لا يزال العلماء يستخدمون الأسماء التي تعبر عن جنس واحد مثل الإنسان الماهر (Handy man).

كان كل من الشرق والغرب يعنيان القليل عندما مشىٰ «الإنسان الماهر» (هومو هابيليس) علىٰ الأرض:

أولًا: لأنَّ هذه المخلوقات كانت تعيش بالكامل داخل غابات شرق أفريقيا، ولم تكن الاختلافات الإقليمية قد تطورت بعد.

وثانيًا: لأنَّ تعبير «مشىٰ علىٰ الأرض» هو في الواقع بالغ السخاء. فقد كان لدىٰ الإنسان الماهر أصابع أقدام وكواحل مثل التي نملكها نحن، وبالتأكيد كانوا يمشون، ولكن أذرعهم الطويلة تُشير إلىٰ أنَّهم قد قضوا الكثير من الوقت علىٰ الأشجار. وكان أولئك البدائيون خياليين قبل ذلك، لكنَّهم لم يعودوا كذلك إلىٰ حد كبير. حيث تُظهر الآثار التي تركتها أدواتهم الحجرية علىٰ عظام الحيوانات أن الهومو هابيليس قد أكلوا اللحوم فضلًا عن النباتات، لكن يبدو أنهم كانوا لا يزالون في مستوىٰ متدنٍ جدًّا في السلسلة الغذائية. ويدافع بعض علماء مستحاثات أسلاف البشر عن نظرية الإنسان الصياد، ويرون أن الهومو هابيليس كانوا أذكياء وشجعانًا بما يكفي للقتل وهم مسلحون، لا بشيء سوىٰ بالعصا والحجارة المكسورة، وكأنَّهم في لعبة، لكن آخرين يرون في هومو هابيليس (وهذا أكثر

إقناعًا إلىٰ حد ما) الرجل القتّات، الذي يتبع القتلة الحقيقيين (مثل الأُسُود)، ويتناول الأجزاء التي زهدوا فيها. لكن الدراسات المجهرية تُظهر أن آثار أدوات الإنسان الماهر قد ظهرت علىٰ الأقل علىٰ عظام الحيوانات قبل آثار أسنان الضباع.



(موضع الشكل ١-١). قبل أن يعني «الشرق» و«الغرب» الكثير: المواقع في العالم القديم المذكورة في هذا الفصل.

وعلىٰ مدىٰ ٢٥ ألف جيل ظلَّ البشر المهرة يلهون ويتأرجحون خلال الأشجار في هذا الركن الصغير من العالم، وينحتون الأدوات الحجرية، وينظفون بعضهم البعض، ويتزاوجون. ثم تقريبًا منذ ١,٨ مليون سنة مضت، اختفوا. وبقدر ما يمكننا القول حتىٰ الآن، فقد حدث ذلك فجأة إلىٰ حد ما، علىٰ الرغم من أنَّ إحدىٰ المشاكل في دراسة تطور الإنسان هي صعوبة تأريخ الاكتشافات بدقة. فمعظم الوقت نحن نعتمد علىٰ حقيقة أنَّ طبقات الصخور التي تحتوي علىٰ العظام أو الأدوات المستحاثة قد تحتوي أيضًا علىٰ نظائر مشعة غير مستقرة ذات معدل تحلل معروف، بحيث يعطي قياس النسب بين النظائر تواريخ الاكتشافات،

ولكن هذه التواريخ يمكن أن تبلغ هوامش الخطأ فيها عشرات الآلاف من السنين؛ ولذا فعندما نقول: إنَّ عالم هومو هابيليس قد انتهىٰ فجأة، فإنَّ «فجأة» قد تعني أعمارًا قليلة أو بضعة آلاف من الأعمار.

عندما كان تشارلز داروين يُفكِّر في الانتقاء الطبيعي في أربعينيات القرن التاسع عشر وخمسينياته، افترض أنَّ الانتقاء يجري من خلال التراكم البطيء للتغيرات الصغيرة، ولكن في سبعينيات القرن العشرين أشار العالم البيولوجي ستيفن جاي جولد إلىٰ أنَّه -بدلًا من ذلك- لا يحدث الكثير لفترات طويلة، ثم تثير بعض الأحداث تتاليًا من التغييرات. وينقسم علماء التطور هذه الأيام بشأن ما إذا كان التطور المتدرج (التطور البطيء "evolution by creeps"، كما يسميه ناقدوه)، أم (التوازن النقطي) لجولد (التطور السريع - evolution by jerks) هو الأفضل باعتباره نموذجًا عامًا، ولكن يبدو بالتأكيد أنَّ الأخير هو الذي يُعطي معنىٰ لاختفاء الهومو هابيليس. وقبل حوالي ١,٨ مليون سنة أصبح مناخ شرق أفريقيا أكثر جفافًا، وحلت الساڤانا المفتوحة محل الغابات التي كان هومو هابيليس يعيش فيها؛ وفي تلك المرحلة، حلت أنواع جديدة من البدائيين محل الإنسان الماهر.

وأريد تأجيل طرح اسم علىٰ أولئك البدائيين الجُدد، وسأشير حاليًا فقط إلىٰ أنَّهم امتلكوا أدمغة أكبر من أدمغة هومو هابيليس، ذات حجم يبلغ إجمالًا حوالي ٨٠٠ سم مكعب. وكانوا يفتقرون إلىٰ الأذرع الطويلة التي كانت لدىٰ الهومو هابيليس، ممَّا يعني علىٰ الأرجح أنَّهم قضوا تقريبًا كل وقتهم علىٰ الأرض، كما كانوا أطول. وينتمي هيكل عظمي عمره مليون ونصف سنة من ناريوكوتوم في كينيا، المعروف بصبي توركانا، إلىٰ طفل طوله خمسة أقدام كان ليصل إلىٰ ستة أقدام لو عاش حتىٰ سن البلوغ. وفضلًا عن كونه أطول، فقد كانت عظام صبي توركانا أقل قوة من عظام هومو هابيليس، ممَّا يشير إلىٰ أنَّه وأقرانه اعتمدوا علىٰ الذكاء والأدوات أكثر من اعتمادهم علىٰ القوة الوحشية.

يعتقد معظمنا أن الذكاء أمر جيد بشكل بديهي. فلماذا إذن، إذا كانت هناك إمكانية لهومو هابيليس أن يتطوروا في هذا الاتجاه، ظلوا يتسكعون لمدة نصف

مليون سنة قبل أن يتحوروا (فجأة) إلىٰ كائنات أطول، وذات أدمغة أكبر؟ تكمن أرجح التفسيرات في حقيقة أنَّه لا يوجد شيء اسمه غداء مجاني. فعمل مخ كبير يُعدّ باهظ التكلفة. وتشكل أدمغتنا ٢٪ من وزن أجسامنا، ولكنَّها تستخدم ٢٠٪ من الطاقة التي نستهلكها. وتخلق الأدمغة الكبيرة مشاكل أخرىٰ أيضًا؛ إذ إنَّ دماغًا كبيرًا يتطلب جمجمة كبيرة لتحتويه، كبيرة جدًّا في الواقع لدرجة أنَّ النساء المعاصرات يعانين في أثناء دفع الأطفال ذوي مثل هذه الرؤوس الكبيرة خلال قنوات الولادة. وتتعامل النساء مع ذلك الأمر بالولادة المبكرة، فإذا بقي أطفالنا في الرحم حتىٰ يصبحوا تقريبًا مكتفين ذاتيًا (مثل الثدييات الأخرىٰ)، فستكون رؤوسهم كبيرة جدًّا ليخرجوا.

لكن الولادة المحفوفة بالمخاطر، وسنوات الرعاية، والأدمغة الضخمة التي تحرق خُمس المواد الغذائية التي نستهلكها كلها لا بأس بها بالنسبة إلينا - فهي أفضل، بأي حال من الأحوال، من استهلاك نفس كمِّيات الطاقة لإنماء مخالب، أو عضلات أكثر، أو أسنان كبيرة. فالذكاء ميزة أكبر من أي من هذه البدائل، ولكن ليس من الواضح رغم ذلك: لماذا منحت طفرة جينية، أنتجت أدمغة أكبر، البشر القرود مزايا كافية لجعل تكاليف الطاقة المزيدة مستحقة العناء المبذول في سبيلها منذ مليوني سنة مضت. إذا لم يكن كونهم أكثر ذكاء مفيدًا بما يكفي لسداد تكاليف دعم هذه الخلايا الرمادية؛ لكانت القرود الذكية أقل نجاحًا من أسلافها الأكثر غباء، ولاختفت چيناتهم الذكية بسرعة من الكتلة السكانية.

وربما ينبغي لنا أن نلقي باللوم علىٰ الطقس، فعندما شحَّت الأمطار وبدأت الأشجار التي عاش عليها البشر القرود تموت، تفوق المتحورون الأكثر ذكاء، وربما الأكثر اجتماعية علىٰ أسلافهم الأكثر شبهًا بالقرود. وبدلًا من التراجع في مواجهة المراعي، وجد البدائيون الأذكياء طرقًا للبقاء علىٰ قيد الحياة علىٰ تلك المراعي، وفي لمح البصر (علىٰ الجدول الزمني للتطور) نشرت حفنة من المتحورين چيناتهم في البركة الچينية كلها وحلَّت بالكامل محل الهومو هابيليس الأصغر حجمًا والأقل ذكاء والمُحبين للغابات.

بدايات الشرق والغرب؟

كان أشباه القرود "pe-men"هم أول الكائنات التي رحلت عن شرق أفريقيا، سواء بسبب ازدحام حيّزهم الحيوي أو تصارع جماعاتهم، أو بسبب أنَّهم فضوليون فحسب. وقد عُثر علىٰ عظامهم في كل مكان من الطرف الجنوبي للقارة، وحتىٰ شواطئ المحيط الهادئ في آسيا. ولا ينبغي لنا أن نتخيل موجات كبيرة من المهاجرين، مثل أفلام رعاة البقر، فأشباه القرود كانوا بالكاد علىٰ وعي بما يفعلونه بالتأكيد، وقد تطلب عبور هذه المسافات الشاسعة امتدادًا أكبر للوقت. فالمسافة بين منطقة أولدفاي جورج وكيب تاون في جنوب أفريقيا مسافة طويلة -ألفَا ميل- ولكن لقطع هذه المسافة في مائة ألف سنة (الوقت الذي استغرقه الأمر فيما يبدو) احتاج أشباه القرود فقط -في المتوسط- إلىٰ توسيع نطاق رعيهم بمقدار (٣٥ ياردة) سنويًّا. وقد أخذهم النزوح شمالًا بالمعدل نفسه إلىٰ عتبة آسيا، وفي عام ٢٠٠٢م عثر المنقِّبون في دمانيسي في جمهورية چورچيا علىٰ جمجمة عمرها ١,٧ مليون سنة تجمع سِمَات الهومو هابيليس وأشباه القرود الأحدث منهم. وقد تكون الأدوات الحجرية من الصين والعظام المستحاثة من چافا (التي كانت حتىٰ ذلك الحين متصلة بالأراضي الآسيوية) بالقِدَم نفسه، ممَّا يعني أنَّه بعد مغادرتهم لأفريقيا، تحسنت سرعة أشباه القرود؛ إذ بلغ متوسط سرعتهم ١٤٠ ياردة سنويًّا.

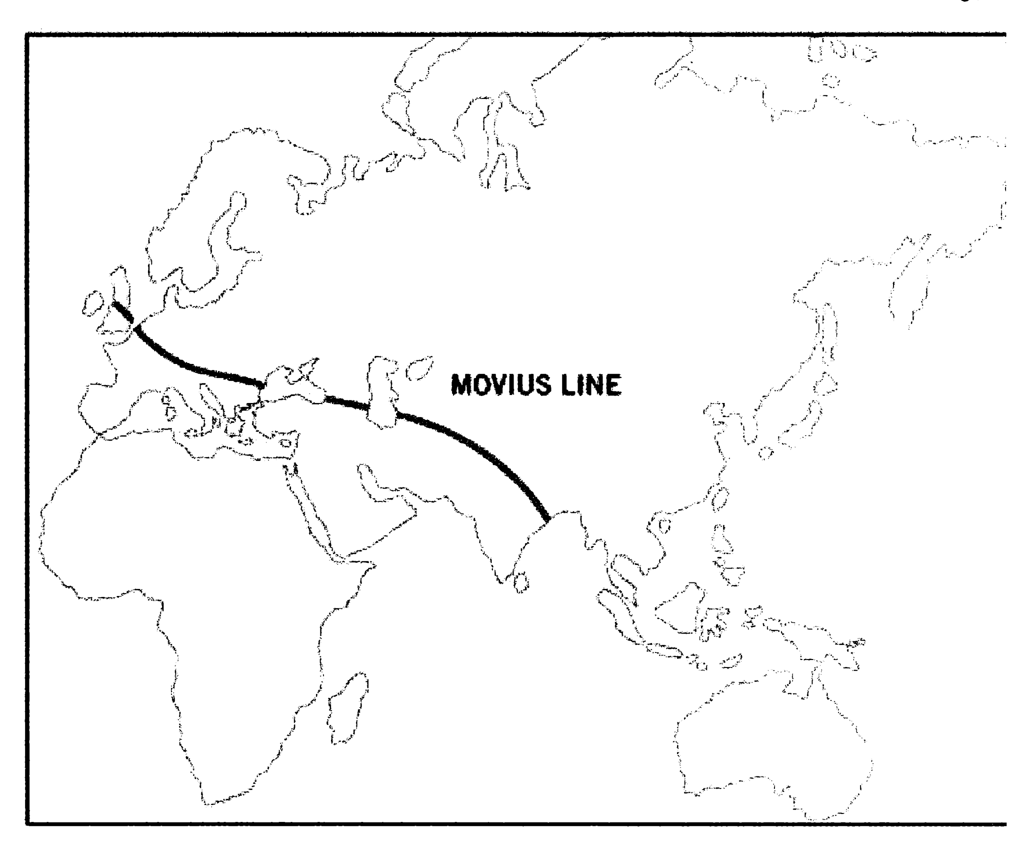
ولا يسعنا إلا أن نتوقع تمييز سبل الحياة الشرقية والغربية، علىٰ نحو واقعي، بعد ترك أشباه القرود لشرق أفريقيا، وانتشارهم في المناطق شبه المدارية

الدافئة في مناطق بعيدة كالصين؛ ومن ثَمَّ نجد تميزًا بين الشرق والغرب. منذ ١,٦ مليون سنة مضت، كانت ثمة أنماط شرقية وغربية واضحة في السجل الأثري. ولكنَّ السؤال هنا هو: ما إذا كانت هذه التباينات مهمة بما يكفي، بحيث يجب علينا أن نتصور سبل حياة مميزة كامنة وراءها.

لقد عرف علماء الآثار عن هذه الاختلافات بين الشرق والغرب منذ أربعينيات القرن العشرين، عندما لاحظ هَلَّام موڤياس (Hallam Movius)، عالم الآثار من جامعة هارفارد، أنَّ عظام أشباه القرود الأذكياء كثيرًا ما عُثر عليها مقرونة بأنواع جديدة من الأدوات الحجرية الرُقاقية (Flaked stone tools)، وأطلق علماء الآثار علىٰ أكثر هذه الأدوات تميّزًا «الفؤوس اليدوية الأشولية» (Acheulean hand axes): فأس (axe) لأنَّها تشبه رؤوس الفؤوس، رغم أنَّها كانت تستخدم بوضوح في القطع والطعن والسحق وكذلك التقطيع؛ ويد (hand) لأنَّها كانت تُحمل باليد، بدلًا من أن تكون ممسوكة بعصا؛ وأشولية (Acheulean) علىٰ اسم المدينة الفرنسية الصغيرة سانت أشول، حيث تم العثور علىٰ الفؤوس لأول مرة بأعداد كبيرة. وربما يُعدُّ اعتبار هذه الأدوات عملًا فنيًّا أمرًا مبالغًا فيه، ولكن تناسقها البسيط غالبًا ما يكون أكثر جمالًا من أدوات القطع والأحجار الرقاقية للإنسان الماهر والتي تُعد أكثر بدائية. وقد لاحظ موڤياس أنَّه بينما كانت الفؤوس الحجرية أكثر شيوعًا في أفريقيا، وأوروبا، وجنوب غرب آسيا، فلم يوجد أي منها في شرق أو جنوب شرق آسيا. وبدلًا من ذلك، أنتجت المواقع الشرقية أدوات أكثر وُعُورة تُشبه كثيرًا المكتشفات ما قبل الأشولية المرتبطة بهومو هابيليس في أفريقيا.

وإذا كان ما يسمىٰ بخط موفياس (الشكل ١ - ٢) يحدد فعليًّا بداية أساليب الحياة الشرقية والغربية المنفصلة، فمن الممكن أيضًا أن يقدم نظرية طويلة المدىٰ حتمية علىٰ نحو مدهش - والتي تتضمن أنَّ فور انتقال أشباه القرود أو البشر القردة خارج أفريقيا، انقسموا بين حضارات غربية متقدمة تكنولوجيًا ذات فؤوس حجرية في أفريقيا وجنوب غرب آسيا، وثقافات شرقية أقل تقدُّمًا من الناحية التكنولوجية ذات أدوات قاطعة ورقاقية في شرق آسيا. فلا عجب أنَّ الغرب

يهيمن اليوم، كما يمكن أن تستنتج: فلقد تصدر الغرب العالم تكنولوجيًّا منذ مليون سنة ونصف.



(موضع الشكل ١ - ٢). بدايات الشرق والغرب: تظهر هذه الخريطة خط موڤياس، والذي فصل لمدة حوالي مليون سنة بين الحضارات الغربية التي تستخدم الفؤوس الحجرية والحضارات الشرقية التي تستخدم الأدوات القاطعة والرقاقية.

لكن تعريف خط موڤياس أسهل من تفسيره. فعُمر أقدم الفؤوس الحجرية، التي عُثر عليها في أفريقيا، هو تقريبًا ١,٦ مليون سنة، ولكن لقد كان هناك بالفعل أشباه قرود في دمانيسي في چورچيا منذ مائة ألف سنة قبل ذلك؛ ولذا فقد غادر أشباه القرود الأوائل أفريقيا قبل أن يُصبح الفأس الحجري قطعة معتادة في مجموعة أدواتهم، وحملوا معهم التقانات الما قبل أشولية عبر آسيا، بينما شرعت المنطقة الغربية/الأفريقية في تطوير الأدوات الأشولية.

وبإلقاء نظرة سريعة علىٰ (الشكل ١ - ٢)؛ يتبيَّن رغم ذلك أنَّ خط موڤياس لا يُفرِّق أفريقيا عن آسيا؛ فهو يمر فعليًّا عبر شمال الهند. وهذه تفصيلة مهمة. فالمهاجرون الأوائل غادروا أفريقيا قبل اختراع الفؤوس الحجرية الأشولية؛ ولذا لا بُدَّ من أنَّه كانت هناك موجات لاحقة للهجرة خارج أفريقيا كي تصل الفؤوس الحجرية إلىٰ جنوب غرب آسيا والهند؛ لذلك نحتاج إلىٰ طرح سؤال جديد: لماذا لم تأخذ هذه الموجات المهاجرة اللاحقة من أشباه القرود التكنولوچيا الأشولية معها لأماكن أبعد في الشرق؟

الإجابة الأكثر احتمالًا هي أنَّه بدلًا من رسم الحدود بين الغرب المتقدم تكنولوجيًّا والشرق الأقل تطورًا؛ فإن خط موڤياس يفصل فقط بين المناطق الغربية، حيث يُعدُّ الوصول إلىٰ ذلك النوع من الأحجار اللازم لصناعة الفؤوس الحجرية أكثر سهولة، عن المناطق الشرقية حيث تشح هذه الأحجار بينما يسهل الوصول للبدائل الجيدة، مثل الخيرزان الذي يُعد قويًّا، ولكنَّه لا يبقىٰ لنا كي نُنقِّب عنه. ووفقًا لهذا التفسير، بينما انتقل مستخدمو الفأس الحجري عبر خط موڤياس، تخلَّوا تدريجيًّا عن الأدوات الأشولية؛ لأنَّهم لم يتمكنوا من استبدال المكسورة منها. واستمروا في صناعة القواطع والرقاقات الحجرية، والتي يمكن صناعتها بسهولة باستخدام أية حصاة، ولكن ربما بدؤوا استخدام الخيرزان للمهمات التي كانت تُنجز سابقًا بالفؤوس الحجرية.

ويعتقد بعض علماء الآثار أنَّ الاكتشافات في حوض بوس في جنوب الصين تدعم هذه الفكرة. فمنذ ٨٠٠ ألف عام تحطم نيزك ضخم في ذلك المكان. وكان الأمر كارثة علىٰ نطاق مذهل، وأحرقت النيران الكثيفة ملايين الأفدنة من الغابات. وقبل ذلك الارتطام، كان أشباه القرود في حوض بوس يستخدمون القواطع، والرقاقات، والخيرزان (علىٰ سبيل الافتراض)، مثل غيرهم من سكان شرق آسيا؛ ولكنَّهم عندما عادوا بعد الحرائق بدؤوا في صناعة فؤوس حجرية تشبه الفؤوس الأشولية. ربما -كما تقول النظرية- لأنَّ الحرائق قد أحرقت جميع الخيرزان في أثناء الحدث ممَّا كشف عن حجارة مدورة صالحة للاستعمال

لصناعة القواطع والرقاقات. وبعد بضعة قرون، عندما نمت النباتات مجددًا، تخلىٰ السكان عن الفؤوس وعادوا إلىٰ الخيزران.

إذا كان هذا الحدس صحيحًا؛ فقد كانت لدىٰ أشباه القرود في شرق آسيا القدرة بامتياز علىٰ صناعة الفؤوس عندما حبَّذت الظروف هذه الأدوات، ولكنَّهم لم يكترثوا عادة؛ لأنَّ البدائل كانت متاحة بسهولة أكبر. فلقد كان كل من الفؤوس الحجرية وأدوات الخيرزان فقط أداتين مختلفتين لأداء المهمات نفسه، وقد عاش أشباه القرود جميعًا بالأساليب نفسها، سواء كانوا في المغرب أو ماليزيا.

ويبدو ذلك منطقيًّا، ولكن بما أنَّ هذا الأمر جزء من علم آثار ما قبل التاريخ، فهناك طرق أخرىٰ للنظر إلىٰ خط موڤياس أيضًا. ولقد تجنبت حتىٰ الآن إعطاء اسم لأشباه القرود الذين استخدموا الفؤوس الحجرية الأشولية، ولكن في هذه المرحلة فالاسم الذي سنمنحهم إيَّاه سيصبح مهمًا.

منذ ستينيات القرن العشرين أطلق معظم علماء مستحاثات أسلاف البشر علىٰ الأنواع الجديدة التي نشأت في أفريقيا قبل حوالي ١,٨ مليون سنة اسمَ هومو إركتس (الإنسان المنتصب)، وافترضوا أنَّ هذه المخلوقات جابت خلال المناطق شبه المدارية إلىٰ شواطئ المحيط الهادئ. وفي ثمانينيات القرن العشرين، بدأ بعض الخبراء في التركيز علىٰ الفروق الدقيقة بين جماجم الإنسان المنتصب التي عُثر عليها في أفريقيا، وتلك التي عُثر عليها في شرق آسيا. وقد ظنُّوا أنَّهم في الواقع يبحثون عن نوعين مختلفين من أشباه القرود. وقد أطلقوا اسمًا جديدًا، هومو إرجاستر (الإنسان العامل) علىٰ أولئك الذين نشؤوا في أفريقيا منذ ١,٨ مليون سنة ثم انتشروا علىٰ طول الطريق المؤدي إلىٰ الصين. وأشاروا إلىٰ أنَّه فقط عندما وصل الإنسان العامل «هومو إرجاستر» إلىٰ شرق آسيا، نشأ الإنسان المنتصب منه؛ ولذلك فإنَّ الإنسان المنتصب «هومو إركتس» هو نوع شرق آسيوي بحت، مميز عن الإنسان العامل «هومو إرجاستر» الذي ملأ أفريقيا وجنوب غرب آسيا، والهند.

وإذا صحَّت هذه النظرية؛ فإنَّ خط موڤياس لم يكن فقط مجرد فصل بسيط لأنواع الأدوات: وإنَّما كان نقطة تحول قسمت أشباه القرود الأوائل إلىٰ قسمين. وفي الحقيقة، فهي تُثير احتمالًا ما يمكن أن نسميه بالأم لجميع نظريات المدىٰ الطويل الحتمية: والتي تتضمن أنَّ الشرق والغرب مختلفان؛ لأنَّ الشرقيين والغربيين هما نوعان مختلفان من البشر، وقد كانوا كذلك منذ أكثر من مليون سنة.

الشرقيون الأوائل: إنسان بكين

إنَّ الجدال الاصطلاحي حول تصنيف الهياكل العظمية التي تعود إلىٰ عصور ما قبل التاريخ، لديه تبعات تنذر بالخطر. وغالبًا ما يكون العنصريون حريصين علىٰ الانقضاض علىٰ مثل هذه التفاصيل لتبرير التعصب والعنف، بل وحتىٰ عمليات الإبادة، وقد تشعر بأنَّ الوقت الذي يُقضىٰ في الحديث عن نظرية من هذا النوع من شأنه فقط أن يزيد التعصب، وربما ينبغي علينا فقط أن نتجاهلها، لكن ذلك كما أعتقد سيكون من الخطأ. فنعت النظريات العنصرية بأنَّها تافهة لا يُعدُّ أمرًا كافيًا. وإذا كنا نريد حقًّا أن نرفضها، وأن نخلُص إلىٰ أن الناس (في مجموعات كبيرة) هم حقًّا متشابهون إلىٰ حدٍّ كبير، فلا بُدَّ أن يكون ذلك؛ لأنَّ النظريات العنصرية مخطئة، لا لمجرد أن معظمنا اليوم لا يحبها.

وفي الأساس، نحن لا نعرف ما إذا كان هناك نوع واحد فقط من أشباه القرود علىٰ الأرض قبل حوالي ١,٥ مليون سنة -ممَّا يعني أن أشباه القرود (في مجموعات كبيرة) كانوا جميعًا متشابهين كثيرًا من أفريقيا إلىٰ إندونيسيا- أم كان هناك نوع واحد مميز من الإنسان العامل (هومو إرجاستر) قد تحرك إلىٰ غرب خط موفياس، وإنسان منتصب (هومو إركتس) قد تحرك إلىٰ شرق الخط. وإجراء المزيد من الأبحاث المعنية هو فقط الذي سيزيل الشكوك حول هذا السؤال. لكننا نعرف -دون شك- أنَّ خلال آخر مليون سنة نشأت أنواع مميزة من البشر البدائيين في الشرق والغرب.

وربما للجغرافيا علاقة كبيرة بذلك. فقد كان أشباه القرود الذين نزحوا من أفريقيا منذ حوالي ١,٧ مليون سنة - مُهيَّئين للمناخ شبه المداري، ولكن بينما

جابوا شمالًا وبشكل أعمق في أوروبا وآسيا، كان عليهم أن يواجهوا شتاء أطول وأقسىٰ. وأصبح العيش في العراء مثل أسلافهم الأفريقيين أمرًا غير عملي عندما تقدموا تجاه خط ٤٠ درجة شمال خط الاستواء تقريبًا (وهو خط يجري من قمة البرتغال إلىٰ بكين؛ انظر الشكل ١,١). وبقدر ما يمكننا القول، كان كل من بناء الأكواخ وصناعة الملابس فوق قدراتهم الجسدية والعقلية، ولكنَّهم تمكنوا من الوصول إلىٰ استجابة واحدة: الاحتماء في الكهوف. وهكذا نشأ أناس الكهف الذين سمعنا جميعًا عنهم ونحن أطفال.

كان سكن الكهوف نعمة ونقمة علىٰ أشباه القرود، الذين كان عليهم مشاركة الحيّز نفسه مع دببة وضباع بحجم الأسود، والتي تستطيع أسنانها طحن العظام. كان الأمر مصادفة سعيدة للأثريين؛ لأنَّ الكهوف تحفظ الرواسب الأرضية التي تعود لما قبل التاريخ بشكل جيد، الأمر الذي يتيح لنا معرفة كيف بدأ تطور أشباه القرود في الأجزاء الشرقية والغربية من العالم القديم في الوقت الذي حدثت فيه عمليات التكيُّف المختلفة مع المناخ الأكثر برودة.

ولفهم أشباه القرود الشرقيين؛ فإنَّ أهم موقع هو چوكوديان بالقرب من بكين علىٰ خط ٤٠ درجة، والذي سُكن أحيانًا منذ حوالي ٦٧٠ ألف سنة إلىٰ ٤١٠ آلاف سنة. وتُعدّ قصة استكشافه ملحمة في ذاتها، وتُشكِّل هذه القصة الخلفية لجزء من رواية إيمي تان المميزة (The Bonesetter's Daughter) أو «ابنة مُجبّر العظام». وبينما كان علماء الآثار الأوروبيون والأمريكيون والصينيون يحفرون في هذا الموقع بين عامي ١٩٢١، و١٩٣٧م، أصبحت التلال المحيطة بالموقع خطَّ الجبهة في حرب أهلية وحشية بين القوميين والشيوعيين ومختلف أمراء الحرب المحليين. وكثيرًا ما كان المُنقّبون يعملون وهم يستمعون إلىٰ صوت إطلاق النار، وكان عليهم تجنب اللصوص ونقاط التفتيش كي يأخذوا اكتشافاتهم ويعودوا بها إلىٰ بكين. وقد انهار المشروع أخيرًا عندما غزت اليابان الصين، وأصبحت چوكوديان قاعدة شيوعية، وعذَّبت الجيوش اليابانية وقتلت ثلاثة أعضاء من الفريق.

ثمَّ سارت الأمور من سيئ إلىٰ أسوأ. ففي نوفمبر عام ١٩٤١م، عندما بدت الحرب بين اليابان والولايات المتحدة مؤكدة، اتُخذ قرار بشحن الاكتشافات من الموقع إلىٰ نيويورك لحفظها في أمان. وقام الفنِّيون بحزمها في صناديق كبيرة في انتظار تسليمها في سيارة من السفارة الأمريكية في بكين. ولا يعرف أحد علىٰ وجه التأكيد ما إذا جاءت السيارة، أو إلىٰ أين -إذا كانت قد جاءت بالفعل- أخذت هذه الصناديق. وتقول إحدىٰ الروايات إنَّ الجنود اليابانيين أعاقوا قوات المارينز الأمريكية المُرافقة للاكتشافات في اللحظة نفسها التي بدأت فيها القنابل بالسقوط علىٰ ميناء بيرل، وقبضوا عليهم ثم تركوا الاكتشافات التي لا تقدر بثمن. كانت الحياة رخيصة في تلك الأيام المظلمة، ولم يهتم أحد كثيرًا ببضعة صناديق تحوي صخورًا وعظامًا.

ولكن لم يُفقد كل شيء، فقد نشر فريق چوكوديان اكتشافاتهم بدقة، وأرسلوا قوالب مصبوبة من الجبس للعظام إلىٰ نيويورك، وهو مثال مبكر علىٰ أهمية النسخ الاحتياطي للبيانات. وأظهرت القوالب أنَّه منذ حوالي ٦٠٠ ألف سنة، نشأ إنسان بكين (وهو الاسم الذي أطلقه المُنقِّبون علىٰ أشباه القرود في چوكوديان) مختلفًا عن أفارقة طوال نحاف مثل صبي توركانا نحو شكل أكثر ضخامة وملاءمة للبرد. وقد بلغ طول بشر بكين إجمالًا حوالي خمسة أقدام وثلاث بوصات، وكانوا أقل شعرًا من البدائيين الحديثين، علىٰ الرغم من أنَّك لو اصطدمت بأحدهم في شارع رئيس، فسيبعث ذلك بالتأكيد علىٰ الانزعاج. وقد كانت لهم وجوه قصيرة وعريضة، ذات جباه منخفضة ومسطحة، وحاجبان ثقيلَيْن متصليْن، وفك واحد كبير بلا ذقن تقريبًا.

كانت المحادثة مع إنسان بكين لتُمثِّل تحديًا، وبقدر ما يمكننا القول؛ فإنَّ «العُقد القاعدية» (basal ganglia) (وهي أجزاء الدماغ التي تسمح للبشر الحديثين بالدمج بين عدد صغير من حركات الفم لتكوين عدد لا يُحصىٰ من الأقوال) للإنسان المنتصب (هومو إركتس) كانت ضعيفة التطور. وقد كانت أيضًا القناة العصبية (التي تحتوي علىٰ الحبل الشوكي) في الهيكل العظمي المحفوظ جيدًا لصبي توركانا، ذات سعة تبلغ ثلاثة أرباع سعة قناة الإنسان الحديث، ممَّا يشير

إلىٰ أنَّ صبي توركانا لم يكن يستطيع التحكم في تنفسه بدقة كافية كي يتحدث مثلنا.

وعلىٰ الرغم من ذلك، تشير اكتشافات أخرىٰ -علىٰ نحو غير مباشر- إلىٰ أنَّ الإنسان البدائي في العالم الشرقي القديم استطاع أن يتواصل إلىٰ حدٍّ ما، وفي عام ١٩٩٤م اكتشف علماء الآثار في جزيرة فلوريس الصغيرة بالقرب من چاوا ما تبدو أنَّها أدوات حجرية بعمر ٨٠٠,٠٠٠ سنة، فمنذ ثمانمائة ألف سنة كانت فلوريس جزيرة، يفصلها عن الأراضي الرئيسة اثنا عشر ميلًا من المحيط؛ وكل ذلك يعني فيما يبدو أنَّ الإنسان المنتصب لا بُدَّ وأنَّه كان قادرًا علىٰ التواصل بشكل جيِّد بما يكفي لصناعة قوارب والإبحار في الأفق واستعمار فلوريس. بيد أنَّ علماء آثار آخرين ترددوا إزاء فكرة صناعة هومو إركتس للمراكب، وعلَّقوا بأنَّ هذه «الأدوات» ربما لم تكن أدوات علىٰ الإطلاق؛ ربما كانت ببساطة صخورًا قد هُشِّمَت إلىٰ أشكال مُضلّلة بفعل العوامل الطبيعية.

وكان من الممكن بسهولة أن يصل الجدال إلىٰ طريق مسدود، كما يحدث -غالبًا- في الجدالات الأثرية، ولكن في عام ٢٠٠٣م أسفرت فلوريس عن اكتشافات أكثر إذهالًا؛ فقد كشف السبر العميق عن ثمانية هياكل عظمية، يرجع تاريخها جميعًا إلىٰ ١٦٠٠٠ ق. م تقريبًا، وينتمي جميعها إلىٰ أناس بالغين، وطولها جميعًا أقل من أربعة أقدام. وبالتزامن، كان أول فيلم لبيتر جاكسون بعنوان (ملك الخواتم) يُعرض لتوِّه، وسرعان ما أطلق الصحافيون علىٰ هؤلاء البشر الصغار الذين يعودون إلىٰ عصور ما قبل التاريخ اسم «هوبيت»، الذي يشير إلىٰ الأقزام (halflings) ذوي الأرجل المغطاة بالفرو في روايات جون رونالد *رويل تولكين*. عندما يتم عزل قطعان الحيوانات في جزر لا توجد فيها حيوانات مفترسة، فغالبًا ما تتطور إلىٰ هيئات قزمية، ومن المفترض أنَّ هذه هي الطريقة التي أصبح بها الـ «هوبيت» صغيرين جدًّا. وكي يتقلصوا إلىٰ حجم الهوبيت بحلول ١٦,٠٠٠ ق. م، فلا بُدَّ أن البدائيين قد استعمروا فلوريس منذ عدة آلاف من الأجيال، وربما ما قد يصل إلىٰ ٨٠٠ ألف سنة، كما تدلُّ الأدوات الحجرية التي عُثر عليها في عام ١٩٩٤م علىٰ ذلك. والشاهد -مرة أخرىٰ- هو أنَّ الإنسان

المنتصب «هومو إركتس» استطاع التواصل بشكل جيِّد بما يكفي ليعبر البحر.

واستطاع أشباه القرود في چوكوديان أن يُعبِّروا عن أنفسهم بشكل أفضل بكثير من الشمبانزي والغوريلا، وتشير ترسبات الكهوف إلىٰ أنَّهم تمكَّنوا أيضًا من إشعال النار متىٰ شاؤوا. وفي مناسبة واحدة علىٰ الأقل قام بشر بكين بشَيّ رأس حصان بري. وتُظهر علامات القطع في الجمجمة أنَّهم كانوا يسعون وراء لسانه ودماغه، وكلاهما غني بالدهون. وربما كانوا مُتيَّمين بأدمغة بعضهم البعض أيضًا: ففي ثلاثينيات القرن العشرين، استنبط المنقِّبون وجود نشاط أكل لحوم البشر، بل وقنص الرؤوس من أنماط كسر العظام. وقد أظهرت دراسة في ثمانينيات القرن العشرين لقوالب مصبوبة من الجبس أنَّ معظم العلامات علىٰ الجماجم هي بالفعل بسبب أسنان الضباع العملاقة التي تعود لما قبل التاريخ، وليس إنسان بكين، ولكن إحدىٰ الجماجم -وهي شظية إضافية تم اكتشافها في عام ١٩٦٦م- تظهر بلا شكٍّ آثار أداة حجرية.

لو تمكَّنت -بدلًا من الارتطام بإنسان بكين في شارع رئيس حديث- أن تركب آلة الزمن وتعود إلىٰ چوكوديان منذ نصف مليون سنة مضت، فستمر بتجربة مشوشة ومخيفة. حيث سترىٰ أناس الكهف يتواصلون، ربما بغمغمات وإشارات، ولكنَّك لن تتمكن من التحدث إليهم، ولن تتمكن من التواصل معهم عن طريق رسم الصور، فلا يُوجد أي دليل علىٰ أنَّ الفن كان يعني أي شيء بالنسبة إلىٰ الإنسان المنتصب أكثر ممَّا يعنيه بالنسبة إلىٰ الشمبانزي. لقد كان بشر بكين الذين ظهروا في شرق العالم القديم مختلفين تمامًا عنَّا.

الغربيون الأوائل: النياندرتال

ولكن هل كان بشر بكين مختلفين عن أشباه القرود الذين كانوا يتطورون في العالم الغربي القديم؟ تعود أقدم الاكتشافات في أوروبا، والتي تمت في عام ١٩٩٤م في سلسلة من الكهوف في أتابويركا في أسبانيا - إلىٰ حوالي ٨٠٠ ألف سنة (أي: تعود تقريبًا إلىٰ الوقت الذي أجاد فيه الإنسان المنتصب صناعة القوارب واستعمر فلوريس). وبطريقة ما، كانت الاكتشافات من أتابويركا تشبه إلىٰ حد ما تلك التي من چوكوديان، فالعديد من العظام كانت مُعلّمة بعلامات قطع من أدوات حجرية تمامًا مثل تلك التي يصنعها الجزار.

لقد لفتت الإشارات عن أكل لحم البشر الانتباه بشدة، ولكنَّ علماء مستحاثات أسلاف البشر كانوا أكثر تحمسًا بشأن الطرق التي اختلفت بها أتابويركا عن چوكوديان. فجماجم أتابويركا كانت تجاويفها المُخّية أكبر من التجاويف المُخيّة للإنسان المنتصب «هومو إركتس»، وكانت أُنوفها وعظام الوجنتين فيها ذات مظهر حديث. وخلص علماء مستحاثات أسلاف البشر إلىٰ أنَّ نوعًا جديدًا كان آخذًا في الظهور، وهو ما أسموه بـ هومو آنسيستور «إنسان الأسلاف» (Ancestral Man).

وقد ساعد الهومو آنسيستور في خلق معنىٰ لسلسلة من الاكتشافات تعود إلىٰ عام ١٩٠٧م، وذلك عندما عثر العمال علىٰ فك غريب في حفرة رملية في ألمانيا. وقد بدا هذا النوع (صاحب الفك، م) المسمىٰ بإنسان هايدلبيرج علىٰ اسم مدينة جامعية قريبة - شبيهًا بالإنسان المنتصب كثيرًا، ولكن رؤوس ذلك النوع كانت أشبه برؤوسنا، وذات جماجم مدورة ومرتفعة، وأدمغة يبلغ حجمها

١٠٠٠ سم مكعب تقريبًا، أي أكبر بكثير من متوسط حجم أدمغة الإنسان المنتصب البالغة ٨٠٠ سم مكعب. ويبدو كما لو أنَّ وتيرة التطور قد تسارعت في جميع أنحاء العالم القديم بعد ٨٠٠ ألف عام عندما واجه البدائيون الذين دخلوا إلىٰ الشمال البارد أجواءً مختلفة بشراسة، حيث يمكن أن تزدهر الطفرات الجينية العشوائية.

وهنا -أخيرًا- أصبح لدينا بعض الحقائق الدامغة. فقبل ٦٠٠ ألف عام عندما ظهر إنسان هايدلبيرج في المشهد، وكان إنسان بكين هو الأقوىٰ في چوكوديان، كانت هناك بالتأكيد أنواع مختلفة من «الهومو» في الأجزاء الشرقية والغربية من العالم القديم: في الشرق الإنسان المنتصب «هومو إركتس» ذو الدماغ الصغير، وفي الغرب كل من إنسان الأسلاف «هومو آنسيستور» ذو الدماغ الأكبر وإنسان هايدلبيرج.

عندما يتعلق الأمر بالأدمغة، فالحجم ليس كل شيء. لقد فاز أناتول فرانس بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٢١م، ولم يكن دماغه أكبر من دماغ إنسان هايدلبيرج، لكن يبدو أن إنسان هايدلبيرج كان أذكىٰ بكثير من البدائيين الأقدم منه، أو إنسان بكين المعاصر له. وقبل أن يظهر إنسان هايدلبيرج تغيَّرت بالكاد الأدوات الحجرية لمدة مليون سنة، لكن عند حوالي ٥٠٠ ألف سنة قبل الميلاد كان إنسان هايدلبيرج يصنع أدوات أقل سُمكًا وأخف وزنًا، ويدقّ رقاقات أكثر نعومة باستخدام مطارق ناعمة (علىٰ الأرجح من الخشب) بالإضافة إلىٰ قرع الصخور معًا. ويدل هذا علىٰ توافق حركي بصري أفضل. لقد صنع رجال ونساء هايدلبيرج أيضًا المزيد من الأدوات المتخصصة، وبدؤوا في إعداد أنوية حجرية متخصصة يمكن أن يدقوا بها المزيد من الصخور لصنع الأدوات متىٰ شاؤوا، ممَّا يعني ولا بُدَّ أنَّهم كانوا أفضل كثيرًا من الإنسان المنتصب «هومو إركتس» في التفكير فيما أرادوه من العالم وكيفية الحصول عليه. بل إنَّ حقيقة أنَّ إنسان هايدلبيرج استطاع البقاء في هايدلبيرج شمال خط ٤٠ درجة، يعدُّ في حد ذاته دليلًا علىٰ أنَّه إنسان بدائي أذكىٰ.

لم يطرأ تغيير كبير علىٰ سكان چوكوديان بين ٦٧٠ ألفًا، و٤١٠ آلاف سنة، ولكنَّ البدائيين الغربيين ظلّوا يتطورون خلال هذه الفترة. إذا حبوت عدة مئات من الياردات داخل الكهوف الأسبانية الرطبة في أتابويركا، غالبًا علىٰ بطنك وأحيانًا باستخدام الحبال؛ فستصل إلىٰ منخفض بعمق ٤٠ قدمًا يؤدي إلىٰ حفرة العظام، وهو اسم علىٰ مسمىٰ - فهي أكثف تجمُّع لبقايا الإنسان البدائي وُجدت علىٰ الإطلاق. وقد تمَّ إنقاذ أكثر من أربعة آلاف قطعة هنا منذ التسعينيات، يرجع تاريخها إلىٰ الفترة ما بين ٥٦٤ ألف سنة و٦٠٠ ألف سنة مضت. وينتمي معظمها إلىٰ مراهقين أو شباب. ويظل ما كانوا يفعلونه تحت الأرض غامضًا حتىٰ الآن، ولكن مثل البقايا الأقدم في أتابويركا، فحفرة العظام أيضًا فيها بقايا بشرية متنوعة بشكل ملحوظ. ويُصنِّف المنقِّبون الأسبان معظم هذه العظام باعتبارها تنتمي لإنسان هايدلبيرج؛ إلَّا أنَّ الكثير من الباحثين الأجانب يعتقدون أنَّهم يشبهون نوعًا آخر، النياندرتال.

وعُرف هؤلاء النياندرتال -وهم أناس الكهف الأشهر- لأول مرة في عام ١٨٥٦م، عندما عرض عمَّال المحاجر في وادي نياندر (تال أو ثال باللغة الألمانية) علىٰ مدرسٍ محليٍّ قلنسوةَ جمجمة وخمس عشرة عظمة عثروا عليها، (وقد استعادت الحفريات في التسعينيات ٦٢ قطعة إضافية من مخلفات العمَّال). وأراها المدرس لعالم تشريح، والذي أعلن في قلة تقدير مذهلة أن هذه العظام «ما قبل چرمانية».

وتُشير اكتشافات أتابويركا إلىٰ أنَّ النياندرتال قد ظهروا تدريجيًّا علىٰ مدىٰ ربع مليون سنة، وبدلًا من أن يكون ظهورهم نتيجة تغيُّر المناخ أو التوسُّع في مساحات جديدة ممَّا يوفر الظروف لبضعة أنواع متغيِّرة أن تتوالد وتحلّ محلّ إنسان هايدلبيرج، فقد كانت هذه حالة من الانحراف الوراثي، حيث العديد من مختلف أنواع البدائيين يتطورون جنبًا إلىٰ جنب. فالنياندرتال (الكلاسيكيون) ظهروا منذ ٢٠٠ ألف سنة، وخلال مائة ألف سنة أخرىٰ انتشروا في معظم أنحاء أوروبا وشرقًا إلىٰ سيبيريا، وبقدر ما نعرف؛ فإنَّهم لم يصلوا إلىٰ الصين أو إندونيسيا.

ولكن إلىٰ أي مدىٰ اختلف النياندرتال عن إنسان بكين؟ كان النياندرتال عادة بنفس طول أشباه القرود الشرقيين، وكانوا يبدون أكثر بدائية، مع جِباه منحدرة وذقون صغيرة. وكانت أسنانهم الأمامية كبيرة وغالبًا بالية من أثر استخدامها باعتبارها أدوات، مُثبتة في أوجه مُضبَّبة ذات أنوف كبيرة، وربما كانت هذه الأخيرة كبيرة باعتبار ذلك تكيُّفًا مع الهواء البارد للعصر الجليدي في أوروبا. وكان النياندرتال أغلظ بِنْية من إنسان بكين، مع فخوذ وأكتاف أعرض، وكانوا أقوياء مثل المصارعين، ويمتلكون صمود عدَّائي الماراثون، ويبدوا أنَّهم كانوا مقاتلين شرسين.

وعلىٰ الرغم من امتلاكهم لعظام أثقل بكثير من معظم أشباه القرود، فقد أُصيب النياندرتال كثيرًا؛ ويُعد أقرب شبه حديث لأنماط تكسر عظامهم، في الحقيقة هم رعاة البقر في رياضة الروديو. وبما أنَّه لم توجد أحصنة برونكو (حصان وحشي لم يتم ترويضه، م) كي يسقطوا من عليها قبل مائة ألف سنة، (فالخيول الحديثة لم تنشأ حتىٰ ٤٠٠٠ ق. م)؛ فإنَّ علماء مستحاثات أسلاف البشر واثقون بأنَّ النياندرتال قد أُصيبوا في أثناء القتال، مع بعضهم البعض ومع الحيوانات البرية، فقد كانوا صيادين مُتفانين. ويُظهر تحليل نظائر النيتروجين من عظامهم أنَّهم كانوا لاحمين بشكل هائل، حيث يحصلون علىٰ نسبة مذهلة من البروتين الذي يستهلكوه من اللحوم. وقد ظنَّ علماء الآثار طويلًا أنَّ النياندرتال قد حصلوا علىٰ بعض لحومهم بأكل بعضهم البعض، تمامًا مثل إنسان بكين، وفي التسعينيات أثبتت الاكتشافات في فرنسا ذلك بما لا يدع مجالًا للشك. فقد عُثر علىٰ عظام ستة من النياندرتال مختلطة بعظام خمسة أيائل حُمْر. لقد تمت معاملة أشباه القرود والغزلان بالطريقة نفسها تمامًا: أولًا، كان يتم تقطيعهم بالأدوات الحجرية ثم سلخ اللحم عن العظام، وأخيرًا تهشيم جماجمهم وعظامهم الطويلة للوصول إلىٰ أدمغتهم ونخاعهم الشوكي.

تجعل التفاصيل التي أكَّدتُ عليها حتىٰ الآن النياندرتال يبدون غير مختلفين كثيرًا عن إنسان بكين، ولكن هناك المزيد في القصة. فمن ناحية، كان للنياندرتال أدمغة كبيرة - أكبر حتىٰ من أدمغتنا، في الحقيقة، يبلغ متوسطها ١٥٢٠ سنتيمترًا

مكعبًا بالنسبة إلىٰ أدمغتنا التي يبلغ متوسطها ١٣٥٠ سنتيمترًا مكعبًا. كما كان لديهم قنوات عصبية أوسع من قناة صبي توركانا، وقد منحتهم هذه الحبال الشوكية السميكة المزيد من المهارة اليدوية، وكانت أدواتهم الحجرية أفضل صُنعًا وأكثر تنوعًا من أدوات بشر بكين، مع كاشطات متخصصة وشفرات وأدوات مدبّبة. وتشير آثار للبقار علىٰ جسم حجري مدبب عُثر عليه مغروسًا في رقبة حمار بري في سورية إلىٰ أنَّه كان رمحًا مربوطًا بعصا. وتشير أنماط التآكل علىٰ الأدوات إلىٰ أنَّ النياندرتال كانوا يستخدمونها -غالبًا- لقطع الأخشاب التي قلما تبقىٰ لزمن طويل، ولكن في الموقع الألماني المغمور «شونينجن» ظهرت أربعة رماح منحوتة بشكل جميل بالقرب من أكوام عظام خيول بريّة، وكانت أهمية الرماح في الطعن وليس الرمي؛ لأنَّه مع كل ذكائهم، لم يكن النياندرتال متوافقين بما يكفي لاستخدام الأسلحة القاذفة.

وقد تكون الحاجة للاقتراب من الحيوانات المرعبة هي المسؤولة عن إصابات النياندرتال الشبيهة بإصابات رعاة البقر في رياضة الروديو. ولكن تشير بعض الاكتشافات خاصة من كهف «شانِدَر» في العراق إلىٰ صفات مختلفة تمامًا. فقد أظهر هيكل عظمي أنَّ رجلًا قد نجا بذراع ذاوية وأرجل مشوهة لمدة سنوات، علىٰ الرغم من فقده لساعده الأيمن وعينه اليسرىٰ، (وفي روايتها الأعلىٰ مبيعًا (The Clan of the Cave Bear) أو «**عشيرة دب الكهف**» أسَّست چين أويل شخصيتها (كريب) -الزعيم الروحي المُعاق لجماعة من النياندرتال تعيش في القرم- بناء علىٰ هذا الهيكل العظمي). وكان لدىٰ رجل آخر في شانِدَر التهاب مفاصل مسبب للعجز في كاحله الأيمن، لكنَّه استطاع أن يتدبر الأمر، علىٰ الأقل حتىٰ أردته طعنة ما قتيلًا. وقد ساعدت الأدمغة الأكبر بلا شكٍّ الضعفاء والمصابين علىٰ أن يساعدوا أنفسهم، وتمكَّن النياندرتال بلا ريب من إشعال النار متىٰ شاؤوا، وتمكَّنوا من تحويل جلود الحيوانات إلىٰ ملابس. ومع ذلك، فمن الصعب تصور كيف تمكن أناس شانِدَر من مواجهة كل ذلك دون مساعدة من العائلة أو الأصدقاء الأقوياء. حتىٰ أكثر العلماء تزمُّتًا يتفقون علىٰ أنَّ النياندرتال -بالمقارنة مع جميع أنواع الهومو السابقة ومعاصريهم في چوكوديان- قد أظهروا شيئًا لا يسعنا إلَّا أن نسميه (الإنسانية).

بل ويظن بعض علماء مستحاثات أسلاف البشر أنَّ أدمغة النياندرتال الكبيرة وقنواتهم العصبية الواسعة قد أتاحت لهم الحديث مثلنا إلىٰ حد ما، ومثل البشر الحديثين كان لديهم عظام لامية (hyoid bones) التي تثبّت اللسان وتتيح للحنجرة صنع الحركات المعقدة اللازمة للحديث. ويختلف مع ذلك علماء آخرون، ملاحظين أنَّ أدمغة النياندرتال وإن كانت أكبر فهي أطول ومسطّحة أكثر من أدمغتنا، وأنَّ مناطق الحديث ربما كانت أقل تطورًا. ويشيرون أيضًا إلىٰ أنَّه علىٰ الرغم من أنَّ المناطق المرتبطة بالتكلم في الدماغ بقيت موجودة علىٰ قواعد ثلاث جماجم فقط، فيبدو كما لو أنَّ حناجر النياندرتال كانت في موضع عالٍ جدًّا في أعناقهم، بمعنىٰ أنَّه علىٰ الرغم من العظام اللامية لديهم فقد تمكَّنوا فقط من النطق بعدد قليل من الأصوات، وربما استطاعوا الغمغمة بمقاطع أحادية ما يمكن ربما أن نسميه نموذج (أنا طرزان، وأنتِ چين)، أو ربما تمكنوا من التعبير عن المفاهيم المهمة - (تعال هنا)، (لنذهب إلىٰ الصيد) هيا لنقوم بصنع أدوات حجرية/ العشاء/ ممارسة الحب - بالجمع بين الإشارات والأصوات (نموذج عشيرة دب الكهف، حيث للنياندرتال لغة إشارية متطورة).

وفي عام ٢٠٠١م، بدا وكأنَّ علم الوراثة قد يحسم الجدل في هذه المسألة. ووجد العلماء أنَّ عائلة بريطانية تشاركت لثلاثة أجيال خللًا في التخاطب يسمَّىٰ (verbal dyspraxia) أو (خلل الأداء الكلامي)، وقد تشاركت أيضًا طفرة جين يسمَّىٰ (FOXP2)، واتضح أنَّ هذا الچين يعبر عن بروتين يُؤثِّر في كيفية معالجة الدماغ للتخاطب واللغة. وهذا لا يعني أنَّ (FOXP2) هو «چين اللغة»: فالتخاطب هو عملية معقدة بطريقة مذهلة تشمل چينات لا تحصىٰ تعمل معًا بطرق لا نستطيع فهمها بعد. وقد أسر جين (FOXP2) اهتمام العلماء؛ لأنَّ الأمر في بعض الأحيان يتطلب فقط خطأ شيء واحد لتعطل نظام بأكمله. يكفي أن يقرض فأر ما سلكًا بقيمة سنتين في سيارتي التي تبلغ قيمتها عشرين ألف دولار كي تتوقف عن العمل؛ أو أن تختل وظيفة جين (FOXP2) كي تتجمد شبكات التخاطب المعقدة للمخ. ورغم ذلك، أشار بعض علماء الآثار إلىٰ أنَّه ربما

منحت الطفرات العشوائية التي أنتجت جين (FOXP2)، والچينات المرتبطة به البشر الحديثين المهارات اللغوية التي افتقدتها الأنواع السابقة، بما في ذلك النياندير تال.

ولكن بعد ذلك أصبحت الأمور معقدة وأكثر إثارة للاهتمام؛ فكما يعلم الجميع الآن فإنَّ الحمض النووي (DNA) هو اللبنة الأساسية للحياة، وفي عام ٢٠٠٠م قام علماء الچينات بترتيب الچينوم البشري الحديث. لكن الأمر الأقل شهرة هو أنَّه في عام ١٩٩٧م، في مشهد يُذكِّر بفيلم حديقة الديناصورات (Jurassic Park)، استخرج العلماء في لايبزيش بألمانيا حمضًا نوويًّا قديمًا من ذراع الهيكل العظمي الأصلي للنياندير تال الذي عُثر عليه في وادي نياندرتال في عام ١٨٥٦م. وكان هذا إنجازًا استثنائيًّا؛ نظرًا لأنَّ الحمض النووي يبدأ في التكسر سريعًا بعد الموت، وتبقىٰ فقط أجزاء صغيرة جدًّا في مثل تلك الهياكل القديمة. ولم يكن فريق ليبزيج علىٰ وشك استنساخ أناس الكهف وافتتاح حديقة للنياندير تال، (مثل فيلم حديقة الديناصورات، م)، حتىٰ الآن علىٰ حد علمي، ولكن في عام ٢٠٠٧م أدت عملية ترتيب مسوّدة لچينوم النياندير تال (التي تمت في عام ٢٠٠٩م)، إلىٰ اكتشاف رائع، وهو أنَّ النياندير تال كان لديهم أيضًا چين (FOXP2).

وربما هذا يعني أنَّ النياندير تال كانوا ثرثارين مثلنا، أو أنَّ جين (FOXP2) لم يكن هو مفتاح التخاطب. وفي أحد الأيام سنعرف بالتأكيد، لكن الآن كل ما نستطيع أن نفعله هو ملاحظة نتائج تفاعلات النياندير تال، فقد عاشوا في مجموعات أكبر من مجموعات الأنواع السابقة للبدائيين، واصطادوا بفعالية أكثر، وسكنوا الأراضي لفترات أطول، واهتموا ببعضهم البعض بطرق لم يستطع فعلها البدائيون الأقدم.

كما عمدوا إلىٰ دفن بعض موتاهم، وربما مارسوا بعض الطقوس، وهو ما يُعد أقدم آثار للحياة الروحية، وهي أكثر صفة إنسانية، وذلك إذا كان تفسيرنا للأدلة صحيحًا. في شانِدَر -علىٰ سبيل المثال- دُفنت عدة جثث بلا ريب، واحتوت التربة في أحد المقابر علىٰ تجمّعات عالية من اللقاح، والذي قد يعني

أنَّ بعض النياندرتال قد وضعوا جثث أحبائهم علىٰ سرير من زهور الربيع. (وبطريقة أقل رومانسية، يُشير بعض علماء الآثار إلىٰ أنَّ المقبرة قد امتلأت بجحور الفئران، وأنَّ الفئرانِ غالبًا ما كانت تحمل الزهور إلىٰ جحورها).

وفي حالة ثانية في مونت سيرسيو بالقرب من روما، اكتشف عمَّال البناء في عام ١٩٣٩م كهفًا تمَّ إغلاقه إثر تساقط صخري منذ خمسين ألف سنة، وأخبر العمَّال علماء الآثار أنَّ جمجمة لأحد النياندرتال كانت مستقرة علىٰ الأرض وسط دائرة من الصخور، ولكن لأنَّ العمَّال قد نقلوا الجمجمة قبل أن يراها الخبراء، فالعديد من علماء الآثار تراودهم الشكوك بشأن ذلك.

وأخيرًا، هناك موقع تيشيك - تاش في أوزبكستان، وهناك عثر هَلَّام موڤياس (صاحب خط موڤياس) علىٰ هيكل عظمي لصبي مُحاط بخمسة أو ستة أزواج من قرون ماعز بري. بيد أنَّ الترسبات في تيشيك - تاش مليئة بقرون الماعز، ولم ينشر موڤياس أيّة رسومات أو صور للاكتشافات لإقناع المشككين بأنَّ هذه الاكتشافات علىٰ وجه الخصوص كانت في نمط له مغزىٰ.

ونحن نحتاج لدليل أوضح لحسم هذه المسألة. شخصيًا، أظنُّ أنَّه لا يوجد دخان بغير نار، وأنَّ النياندرتال كان لديهم نوع من الحياة الروحية. وربما كان لديهم نساء مداويات، وشامانات مثل إيزا وكريبِ في رواية (عشيرة دب الكهف). وسواء كان ذلك صحيحًا أم لا، فإذا استطاعت آلة الزمن التي استشهدتُ بها في وقت سابق أن تنقلك إلىٰ شانِدر بالإضافة إلىٰ چوكوديان، فسترىٰ اختلافات سلوكية حقيقية بين إنسان بكين الشرقي والنياندرتال الغربيين. وقد تتعرض لضغط شديد لتجنب استنتاج أنَّ الغرب كان أكثر تطورًا من الشرق. وربما كان ذلك صحيحًا منذ ١,٦ مليون سنة، عندما تشكّل خط موڤياس، ولكنَّه كان بالتأكيد صحيحًا منذ مائة ألف سنة. ومرة أخرىٰ يُطلُّ شبح نظرية مدىٰ طويل حتمية وعنصرية برأسه: فهل الغرب يسود اليوم لأنَّ الأوروبيين الحديثين هم ورثة سلالة النياندرتال الأفضل جينيًا، بينما ينحدر الآسيويون من الإنسان المنتصب «هومو إركتس» الأكثر بدائية؟

خطوات أوليّة بسيطة

الإجابة: لا.

يُحبُّ المؤرخون إعطاء إجابات طويلة ومعقدة عن الأسئلة البسيطة، ولكن هذه المرة تبدو الأشياء حقًّا واضحة. فالأوروبيون لا ينحدرون من النياندرتال الأفضل، والآسيويون لا ينحدرون من الإنسان المنتصب «هومو إركتس» الأدنىٰ. فبدءًا من حوالي سبعين ألف سنة، انتقل نوع جديد من الهومو (نحن) خارج أفريقيا وحلَّ محل جميع الأشكال الأخرىٰ بالكامل. وقد تناسل نوعنا، الهومو سابينس (الإنسان الحكيم)، مع النياندرتال في أثناء العملية. ويتشارك الأوروآسيويون الحديثون من ١% إلىٰ ٤٪ من چيناتهم مع النياندرتال، وفي كل مكان من فرنسا إلىٰ الصين، فهي النسبة نفسها من ١ إلىٰ ٤%. لقد أزال انتشار البشر الحديثين جميع مخلفات الماضي. إنَّ التطور مستمر بالطبع، وقد ظهرت الاختلافات المحلية في لون البشرة، وشكل الوجه، والطول، وتحمّل اللاكتوز، وعدد لا يحصىٰ من الأشياء الأخرىٰ في ألفَيْ جيل منذ بدأنا الانتشار في جميع أنحاء العالم. ولكن في حقيقة الأمر، فإن هذه الاختلافات ضئيلة. فأينما ذهبت، وأيًّا كان ما تفعله؛ فإنَّ البشر (في مجموعات كبيرة منهم) متشابهون كثيرًا.

لقد أسست نشأة نوعنا وغزوه للكوكب الوحدةَ البيولوجية للنوع الإنساني؛ وبالتالي الأساس لأي تفسير لهيمنة الغرب. إنَّ الوحدة البيولوجية للبشرية تستبعد النظريات العنصرية. وعلىٰ الرغم من الأهمية القصوىٰ لهذه العمليات، فإنَّ الكثير عن أصول الإنسان الحديث لا يزال غامضًا. في ثمانينيات القرن العشرين عرف علماء الآثار أنَّ الهياكل العظمية التي تشبه هياكلنا إلىٰ حد ما ظهرت لأول مرة

منذ حوالي ١٥٠٠٠٠ سنة في مواقع في شرق أفريقيا وجنوبها. وكان للأنواع الجديدة أوجه مسطحة، مسحوبة نحو جباههم أكثر من البدائيين الأقدم. وقد قلَّ استخدامهم لأسنانهم باعتبارها أدوات، وكان لديهم أطراف أطول وكانت ذات عضلات أقل، وكان لديهم قنوات عصبية أوسع وحناجر في وضع أفضل للكلام. وكانت تجاويفهم المُخيَّة أصغر قليلًا من تجاويف النياندرتال، لكنَّ قلنسوات جماجمهم كانت أعلىٰ ومقببة أكثر، كي تتيح حيِّزًا لمراكز الكلام واللغة الأكبر والطبقات المكدسة من الخلايا العصبية التي تمكَّنت من القيام بأعداد ضخمة من الحسابات في الوقت نفسه.

ودلّت الهياكل العظمية علىٰ أنَّ أقدم «هومو سابينس» تمكَّن من السيِّر مثلنا تمامًا، لكنَّ علم الآثار يشير -بغرابة- إلىٰ أنَّه لمدة مائة ألف سنة كانوا يرفضون بإصرار التخاطب بثقة. وقد تشابه كثيرًا كل من أدوات «الهومو سابينس» وسلوكهم مع أدوات البدائيين الأقدم «أشباه القرود» وسلوكهم، ومجددًا مثل البدائيين الآخرين، ولكن علىٰ عكسنا تمامًا بدا «للهومو سابينس» الأوائل طريقة واحدة لإنجاز الأشياء. وبصرف النظر عن المكان الذي حفر فيه علماء الآثار في أفريقيا، فقد ظلوا يحصلون علىٰ نفس أنواع الاكتشافات غير المثيرة علىٰ وجه الخصوص. وكان هذا يحدث إذا لم يقوموا بالتنقيب في مواقع «هومو سابينيس» التي يرجع تاريخها لأقل من خمسين ألف سنة، ففي هذه المواقع الأحدث بدأ «الهومو سابينس» في القيام بجميع أنواع الأشياء الممتعة، وبالكثير من الطرق المختلفة. فعلىٰ سبيل المثال: يُعرِّف علماء الآثار ما لا يقل عن ستة طرز مختلفة من الأدوات الحجرية كانت مستخدمة في وادي النيل في مصر ما بين ٥٠ إلىٰ ٢٥ ألف سنة قبل الميلاد، في حين أنَّه قبل ذلك ساد طراز واحد للأدوات من جنوب أفريقيا إلىٰ شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

لقد اخترع البشر الطُرُز، فقد جعل نحت الأدوات الحجرية بهذه الطريقة - بدلًا من تلك الطريقة- منهم مجموعة تختلف عن جيرانهم، وميَّز نحت الأدوات بطريقة ثالثة جيلًا جديدًا باعتباره مختلفًا عن الأقدم منه. وقد ظل التغيُّر بطيئًا وفقًا للمعايير التي تعودنا عليها، والتي تتضمن أنني عندما أُخرج هاتفًا خلويًّا عمره

أربع سنوات لا يمكنه التصوير، أو تحديد مكاني علىٰ الخريطة أو تفقد البريد الإلكتروني؛ فإنني أُشْبِه مستحاثة، لكن هذا التغيُّر وإن كان بطيئًا وفق معاييرنا، فقد كان سريعًا جدًّا مقارنة بكل ما سبق.

وكما سيخبرك أي مراهق عائد للمنزل وقد صبغ شعره باللون الأخضر أو أحدث ثقبًا جديدًا في جسده؛ فإنَّ أفضل طريقة للتعبير عن نفسك هي أنَّ تُزيّن نفسك، ولكن قبل الخمسين ألف سنة الماضية، بدا أنَّ أي شخص في الغالب لم يعتقد ذلك. ثم -علىٰ ما يبدو- أصبح الجميع يعتقدون ذلك، ففي الموقع تلو الموقع عبر أفريقيا بعد ٥٠٠٠٠ ق. م عثر علماء الآثار علىٰ زينة من العظم الحيواني، وأسنان الحيوانات، والعاج؛ وهذه هي الأنشطة التي تترك لنا بقايا كي نُنقّب عنها. وقد ظهرت علىٰ الأرجح كافة أشكال الزينة الشخصية الأخرىٰ التي نعرفها جيدًا -تسريحات الشعر والمكياچ والوشم والملابس- في ذلك الوقت نفسه تقريبًا. وتشير دراسة چينية غير سارّة إلىٰ أن قمل جسم الإنسان الذي يشرب دماءنا ويعيش في ملابسنا قد نشأ منذ حوالي خمسين ألف سنة باعتباره مكافأة صغيرة لمُحبِّي الموضة الأوائل.

«ما أعجب الإنسان من كائن!». هكذا قال هاملت لاهثًا عندما أتىٰ أصدقاؤه روزنكرانتز وجيلدنستيرن للتجسس عليه. «ما أسمىٰ ذكاءه! وما أبرع عقله وحصافته! ما أشبهه بالملك في عمله الطيب، وما أشبهه في إدراكه ببعض الآلهة!» وفي جميع هذه النواحي، ما أبعده عن الإنسان البدائي. بحلول عام ٥٠,٠٠٠ ق. م كان البشر الحديثون يفكرون ويعملون علىٰ مستوىٰ مختلف تمامًا عن أسلافهم. ويبدو أنَّ شيئًا غير عادي قد حدث - شيئًا عميقًا جدًّا، وساحرًا جدًّا لدرجة أنَّه دفع بعض العلماء الذين يتسمون بالحصافة في تسعينيات القرن العشرين إلىٰ استخدام لغة منمقة، فقد تحدث بعضهم عن قفزة كبرىٰ إلىٰ الأمام، بينما تحدث آخرون عن فجر الحضارة البشرية، أو حتىٰ عن الانفجار الكبير للوعي الإنساني.

ولكن مع كل ما فيها من الدراما، كانت نظريات القفزة الكبرىٰ إلىٰ الأمام تلك -دائمًا- غير مُرضية، فقد تطلبت منَّا أن نتصور ليس تحولًا واحدًا، بل

اثنين، حيث أدىٰ التحوُّل الأول (قبل حوالي ١٥٠ ألف سنة) إلىٰ نشأة الأجسام البشرية الحديثة، وليس السلوك الإنساني الحديث، وأدىٰ التحول الثاني (قبل حوالي ٥٠ ألف سنة) إلىٰ نشأة السلوك البشري الحديث دون أن يصيب أجسامنا أي تغيير. وكانت أشهر التفسيرات أن التحول الثاني -القفزة الكبرىٰ- قد بدأ بتغيُّرات عصبية بحتة أعادت توصيل الخلايا العصبية للمخ لجعل أنواع الخطاب الحديث ممكنةً، ممَّا أدىٰ بدوره إلىٰ ثورة في السلوك؛ ولكن يظل ما تألفت منه عملية إعادة التوصيل هذه، (ولماذا لم تكن هناك تغييرات مصاحبة للجماجم) لغزًا.

إذا كان ثمة أي موضع قد ترك له علم التطور مجالًا للتدخل الخارق، بواسطة قوىٰ عليا تنفخ شرارة إلهية في الصلصال الممل للبدائيين، فهو يكمن هنا بالتأكيد. عندما كنتُ أصغر سنًا (بكثير) أحببتُ علىٰ وجه الخصوص القصة التي تفتتح رواية الخيال العلمي لآرثر كلارك (٢٠٠١: A Space Odyssey) أو «٢٠٠١: أوديسا الفضاء»، (وأحببت إصدار الفيلم للرواية الذي لا يُنسىٰ، لستانلي كوبريك، والذي يصعب أن يعقبه ما هو أفضل منه). حيث تهبط أعمدة كريستالية غامضة من الفضاء الخارجي إلىٰ الأرض، أتت لترقية البدائيين علىٰ كوكبنا قبل أن ينقرضوا من الموت جوعًا. وليلة بعد ليلة يشعر مُراقب القمر، وهو زعيم بدائي لإحدىٰ الجماعات الأرضية، بما يُسمّيه كلارك (محاليق فضولية تتسلل إلىٰ الطرق الجانبية غير المستخدمة في عقله)، حيث ترسل إليه صخرة علىٰ شكل عمود رؤىٰ وتُعلّمه إلقاء الحجارة. يقول كلارك: «كانت ذرات دماغه البسيطة يجري تحويلها إلىٰ أنماط جديدة»، ثم انتهت مهمة تلك الصخرة: يلتقط مُراقب القمر عظمة مُلقاة ويقتل بها خنزيرًا صغيرًا. وعلىٰ نحو كئيب، تتكون رؤية كلارك للانفجار الكبير للوعي الإنساني كليًا من قتل الكائنات، مُتوّجًا ذلك بقتل مُراقب القمر لذي الأُذُن الواحدة، وهو رأس جماعة منافسة من البدائيين. والشيء التالي الذي يعرفه القارئ هو أنّنا أصبحنا في عصر الفضاء.

حدَّد كلارك زمن روايته «٢٠٠١» منذ ثلاثة ملايين سنة؛ ليُبيِّن علىٰ ما يبدو سبب اختراع «الهومو هابيليس» للأدوات، ولكني كنت أشعر -دائمًا- أنَّ المكان

الذي ستؤدي فيه الصخرة عملًا ما هو عندما ظهر الإنسان الحديث بالكامل (أي: أن تكون الصخرة مسؤولة عن ظهور الإنسان الحديث، م). وفي الوقت الذي بدأت فيه دراسة علم الآثار في الكلية تعلمت ألَّا أقول مثل تلك الأشياء، لكنني لم أتمكن من زعزعة الشعور بأن تفسيرات المتخصصين أقل جاذبية من تفسيرات كلارك.

كانت المشكلة الكبرىٰ لعلماء الآثار في تلك الأيام السحيقة عندما كنت في المرحلة الجامعية، هي أنَّهم ببساطة لم يحفروا في مواقع كثيرة جدًّا تعود إلىٰ ما بين ٢٠٠ و٥٠٠ ألف سنة. وبينما تراكمت الاكتشافات الجديدة خلال فترة التسعينيات، بدا واضحًا أنَّنا لم نكن بحاجة إلىٰ صخور علىٰ شكل أعمدة في النهاية؛ ففي الحقيقة، بدأت القفزة الكبرىٰ للأمام في الذوبان إلىٰ سلسلة من خطوات طفل يحبو إلىٰ الأمام انتشرت عبر عشرات الآلاف من السنين.

ونحن نعرف الآن عدة مواقع يرجع تاريخها إلىٰ ما قبل ٥٠,٠٠٠ ق. م ذات آثار لسلوك يبدو حديثًا بشكل مفاجئ، ولنأخذ علىٰ سبيل المثال: «بيناكل بوينت»، وهو كهف تم تنقيبه في عام ٢٠٠٧م علىٰ الساحل الجنوب أفريقي. انتقل «الهومو سابينس» إلىٰ هنا منذ ١٦٠ ألف سنة تقريبًا. وهذا أمر جدير بالاهتمام في حد ذاته: فقد تجاهل البدائيون الأقدم بوجه عام المواقع الساحلية، ربما لأنَّهم لم يستطيعوا التوصل إلىٰ كيفية العثور علىٰ الكثير من الغذاء هناك. لكنَّ «الهومو سابينس» لم يتوجهوا فحسب إلىٰ الشاطئ -وهو سلوك حديث بشكل مميَّز- لكنَّهم عندما ذهبوا إلىٰ هناك كانوا أذكياء بما يكفي لجمع الأسماك الصدفية وفتحها وطهيها. كما قاموا بنحت الأحجار إلىٰ أدوات حادة صغيرة وخفيفة يُسمّيها الأثريون شفرات صوانية أو نُصيْلات (bladelets)، وهي تُعدُّ مثالية باعتبارها سنونًا للرماح والأسهم - وهو أمر لم يفعله إنسان بكين ولا النياندرتال في أوروبا علىٰ الإطلاق.

وفي حفنة من المواقع الأفريقية الأخرىٰ مارسَ الناس نشاطات مختلفة، لكنَّها ذات مظهر حديث بالقدر نفسه. فمنذ نحو مائة ألف سنة في كهف مومبوا في زامبيا، وضع الناس مجموعة من المواقد في صفوف مع بلاطات حجرية

لصنع ركن صغير، حيث يسهل تصورهم وهم يجلسون ويحكون الحكايات، وفي عشرات المواقع حول السواحل الأفريقية من حافتها الجنوبية وحتىٰ المغرب والجزائر في الشمال (وحتىٰ خارج أفريقيا، في إسرائيل) كان الناس يجلسون وبصبر يكسرون ويطحنون قشر بيض النعام إلىٰ حبيبات مستديرة بعضها ذات عرض يبلغ ربع بوصة. وقبل ٩٠ ألف سنة، تحوَّل الناس في الكونغو إلىٰ صيادين متميزين ينحتون الحِراب من العظام. أمَّا الموقع الأكثر إثارة، رغم ذلك، فهو كهف بلومبوس علىٰ الساحل الجنوبي لأفريقيا، حيث عثر المُنقِّبون بالإضافة إلىٰ الحبيبات الصدفية، علىٰ عصا من المَغْرَة (نوع من الحديد الخام)، ويمكن استخدام المغرة في لصق الأشياء ببعضها، وتصميد الأشرعة ضد الماء، وكل أنواع المهام الأخرىٰ؛ ولكن في الآونة الأخيرة حظيت المغرة بشعبية خاصة في الرسم، حيث تنتج بشكل مُرضٍ خطوطًا حمراء قوية علىٰ لحاء الشجر وجدران الكهف وأجسام البشر. وقد ظهرت ٥٧ قطعة من المغرة في كهف «بيناكل بوينت»، وفي عام ١٠٠ ألف ق. م ظهرت المغرة في معظم المواقع الأفريقية، ما يعني علىٰ الأرجح أنَّ البشر الأوائل قد أحبوا الرسم. والأمر الجدير بالملاحظة حقًّا بشأن عصا بلومبوس هو أنَّ أحدهم قام بنقش تصميم هندسي عليها، ممَّا جعلها أقدم عمل فني لا جدال فيه، وجعلها أيضًا شيئًا يُستخدم لإنتاج المزيد من الأعمال الفنية.

في كل موقع من هذه المواقع نجد آثارًا لنوع أو اثنين من السلوك الحديث، ولكن ليس علىٰ الإطلاق مجموعة الأنشطة بكاملها التي أصبحت مألوفة بعد ٥٠٠٠٠ قبل الميلاد، كما أنَّه لا توجد مؤشرات علىٰ أنَّ الأنشطة التي تبدو حديثة كانت تراكمية، تنبني تدريجيًّا حتىٰ تسود. ولكن علماء الآثار قد بدؤوا بالفعل يتحسسون طريقهم نحو تفسير لخطوات الطفل الواضحة نحو الإنسانية الحديثة بالكامل، مدفوعين بتغيُّر المناخ بشكل كبير.

أدرك الجيولوجيون في ثلاثينيات القرن التاسع عشر أنَّ الخطوط المُنحنية من الأنقاض التي يبلغ طولها أميالًا في أجزاء من أوروبا وأمريكا الشمالية لا بُدَّ أنَّ ألواح الجليد قد أوجدتها وهي تدفع الحطام أمامها، (وليس كما كان يُعتقد

سابقًا، بواسطة الفيضان الإنجيلي). وقد وُلد مفهوم «العصر الجليدي»، رغم مرور خمسين عامًا أخرىٰ قبل أن يفهم العلماء تمامًا لماذا تحدث العصور الجليدية.

إنَّ مدار الأرض حول الشمس ليس دائريًا تمامًا؛ لأنَّ جاذبية الكواكب الأخرىٰ تسحبنا أيضًا، وخلال مائة ألف سنة يتحول مدارنا من كونه دائريًا تقريبًا (كما هو الآن) ليكون بيضاويًا أكثر بكثير، ثم يعود دائريًّا تقريبًا مرة أخرىٰ. كما يتغيَّر ميلان الأرض بالنسبة إلىٰ محورها أيضًا كل ٢٢ ألف سنة، وتتغيَّر الطريقة التي يلف بها الكوكب حول هذا المحور، هذه المرة علىٰ مقياس ٤١ ألف سنة. ويسمي العلماء هذه الدورات بآلية ميلانكوفيتش علىٰ اسم عالم الرياضيات الصربي الذي توصل إليها، وكتبها بخط يده المتصل، عندما اعتُقل خلال الحرب العالمية الأولىٰ (وكان هذا اعتقالًا نبيلًا جدًّا، تاركًا ميلانكوفيتش حرًا لقضاء اليوم كله في مكتبة أكاديمية العلوم الهنغارية). وتندمج هذه الأنماط وتعيد اندماجها بطرق معقدة علىٰ نحو مذهل؛ ولكن علىٰ جدول زمني يبلغ مائة ألف عام تقريبًا، تأخذنا هذه الأنماط من استقبال إشعاع شمسي يزيد قليلًا عن المتوسط، ومُوزّع بغير تساوٍ علىٰ مدار السنة، إلىٰ استقبال إشعاع شمسي أقل بقليل ومُوّزع بتساوٍ أكثر بقليل.

لن يهم أي من هذا كثيرًا فيما عدا الطريقة التي تتفاعل بها آلية ميلانكوفيتش مع نزعتين چيولوچيتيْن. أول هاتين النزعتين، أنَّه علىٰ مدىٰ الخمسين مليون سنة الماضية دفع الانجراف القارِّي معظم الأراضي شمال خط الاستواء، وأدىٰ كون نصف الكرة الأرضية معظمه من الأراضي والنصف الآخر معظمه من الماء إلىٰ تضخيم آثار التغيّرات الموسمية في الإشعاع الشمسي. وثاني هاتين النزعتين، هي تضاؤل النشاط البركاني خلال الفترة نفسها. هناك (في الوقت الحاضر) ثاني أكسيد كربون أقل في الغلاف الجوي ممَّا كان عليه في عصر الديناصورات، وبسبب هذا فقد برد الكوكب -علىٰ المدىٰ الطويل جدًّا وحتىٰ وقت قريب جدًّا- باطراد.

وطوال معظم تاريخ الأرض كان الشتاء باردًا بما يكفي لدرجة أن تساقطت الثلوج في القطبين وتجمد هذا الجليد، ولكن عادة كانت الشمس تُذيب هذا الجليد كل صيف. ومنذ ١٤ مليون سنة، أدىٰ انخفاض النشاط البركاني إلىٰ أن تبرد الأرض كثيرًا، لدرجة لم تعد معها شمس الصيف تُذيب الجليد في القطب الجنوبي، حيث توجد كمية كبيرة من اليابسة، وفي القطب الشمالي، حيث لا توجد يابسة يذوب الثلج بسهولة أكبر، ولكن قبل ٢,٧٥ مليون سنة انخفضت درجات الحرارة بما يكفي كي يبقىٰ الجليد علىٰ مدار السنة أيضًا. وقد كان لذلك آثار هائلة؛ لأنَّه متىٰ منحت آلية ميلانكوفيتش الأرض إشعاعًا شمسيًا أقل، وموزعًا بالتساوي عبر السنة - امتد غطاء الجليد في القطب الشمالي إلىٰ أوروبا الشمالية وآسيا وأمريكا، واحتجز المزيد من المياه، ممَّا جعل الأرض أكثر جفافًا ومستوىٰ البحر أقل، ممَّا عكس المزيد من الإشعاع الشمسي وقلَّل درجات الحرارة بدرجة أكبر. وسقطت الأرض عندئذٍ في العصر الجليدي - إلىٰ أن اهتزت الأرض، ومالت، والتفت عائدة إلىٰ مكان أكثر دفئًا، وتراجع الجليد.

ووفقًا لكيفية قيامك بالعد؛ فقد كان هناك بين أربعين وخمسين عصرًا جليديًا، اثنان منها - وهما اللذان امتدا من ١٩٠٠٠٠ ق. م، وحتىٰ ٩٠٠٠٠ ق. م، وهي ألفية حاسمة في تطور البشر - كانا قاسيين بصفة خاصة. وقد احتوت بحيرة ملاوي في (١٣٥٠٠٠ ق. م)، علىٰ سبيل المثال: علىٰ واحد علىٰ عشرين من قدر المياه التي تحويها اليوم. ولا بُدَّ أنَّ البيئة الأكثر قسوة قد غيَّرت قواعد البقاء علىٰ قيد الحياة، وهو ما قد يفسر لماذا بدأت الطفرات التي تحبذ الذكاء في الازدهار. وقد يفسر أيضًا لماذا عثرنا علىٰ القليل جدًّا من هذه المواقع التي تعود لهذه الفترة؛ فقد انقرض معظم البشر البدائيين علىٰ الأرجح. ويُقدِّر بعض الأثريين وعلماء الجينات في الحقيقة أنَّ في عام ١٠٠ ألف قبل الميلاد تقريبًا كان هناك بالكاد عشرون ألف «هومو سابينس» باقون علىٰ قيد الحياة.

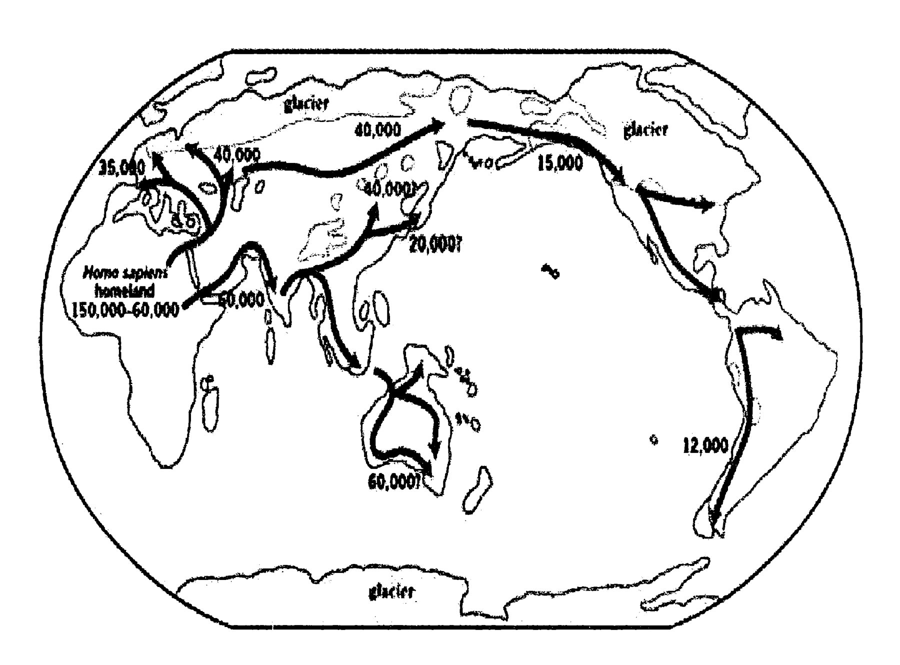
وإذا صحَّت هذه النظرية، لفعلت الأزمة السكانية أشياء عديدة في وقت واحد، فمن جهة: بتقليصها لتجميعة الجينات، كانت ستجعل ازدهار الطفرات أسهل؛ ولكن من جهة أخرىٰ: إذا أصبحت مجموعات «الهومو سابينس» أصغر

فسينقرضون بسهولة أكبر، آخذين معهم أي طفرات مفيدة. وإذا كان هناك جماعات أقل (كما يبدو محتملًا بكثرة من العدد القليل للمواقع المعروفة من هذه الفترة)، فستلتقي المجموعات بتردد أقل وستكون فرصتها أقل في تجميع جيناتها ومعارفها. ربما ينبغي علينا أن نتصور أنه لمدة مائة ألف سنة كدحت الجماعات الصغيرة من البشر البدائيين معايشها في أفريقيا في بيئات معادية، ولا يمكن التنبؤ بها. ولم تكن تلك الجماعات تلتقي أو تتناسل، أو تتبادل البضائع والمعلومات كثيرًا. وقد ازدهرت الطفرات الجينية في هذه الجيوب المعزولة من الناس، حيث أنتج بعضها بشرًا مثلنا تمامًا، لكنَّ البعض الآخر لم يفعل. وقد توصلت بعض المجموعات إلىٰ الحِراب، وصنعت العديد منها الحبيبات، لكن معظمها لم يفعل ذلك، ولاحقها جميعًا شبح الانقراض.

كانت هذه أيامًا مظلمة للهومو سابينس، ولكن منذ سبعين ألف سنة تغيّر حظهم. أصبح كل من شرق أفريقيا وجنوبها أكثر دفئًا ورطوبة، ما جعل الصيد وجمع الثمار أسهل، وتكاثر البشر بنفس سرعة تكاثر مصادر غذائهم. ظل الهومو سابينس الحديثون يتطورون لمدة مائة ألف سنة، مع الكثير من المحاولة والخطأ، والانقراضات، ولكن عندما تحسن المناخ انطلق هؤلاء السكان ذوو الطفرات الأفيد، وتوالدوا بمعدل أكبر من البشر الأقل ذكاء. لم تكن هناك أية صخور علىٰ شكل أعمدة، ولا قفزة كبرىٰ إلىٰ الأمام؛ فقط الكثير من الجنس والمواليد.

وفي غضون بضعة آلاف سنة وصل البشر الأوائل لنقطة تحول ديموغرافية بقدر كونها بيولوچية. فبدلًا من انقراضهم في أحيان كثيرة، نمت جماعات لتصبح كبيرة بما فيه الكفاية وعديدة بما يكفي كي تبقىٰ علىٰ اتصال منتظم، جامعين چيناتهم ومعارفهم. وأصبح التغيير تراكميًا، وتباعد بسرعة سلوك الهومو سابينس عن سلوك الإنسان البدائي. وما إن حدث ذلك، غدت أيام الفروق البيولوچية بين الشرق والغرب معدودةً.

خارج أفريقيا - مجددًا



(موضع الشكل ١ - ٣). استعادة وحدة الجنس البشري: انتشار البشر الحديثين بالكامل، خارج أفريقيا بين حوالي ١٢ إلىٰ ٦٠ ألف سنة. وتظهر الأرقام عدد السنوات منذ وصل البشر في كل جزء من أجزاء العالم وتُمثِّل الخطوط الساحلية عدد سنوات آخر عصر جليدي منذ حوالي ٢٠ ألف سنة.

نادرًا ما يكون تغيُّر المناخ بسيطًا، وبينما كانت مواطن «الهومو سابينس» في شرق أفريقيا وجنوبها أكثر رطوبة منذ ٧٠ ألف سنة، كانت منطقة شمال أفريقيا تعاني من الجفاف. واختار أسلافنا الذين كانوا يتضاعفون بسرعة في حيِّزهم الحيوي، ألَّا ينتشروا في ذلك الاتجاه؛ وبدلًا من ذلك جالت جماعات قليلة ممَّا يُعرف الآن بالصومال عبر جسر بريٍّ إلىٰ جنوب الجزيرة العربية، ثم إلىٰ إيران

(الشكل ١ - ٣). وهذا علىٰ الأقل ما نعتقد أنَّهم فعلوه. لقد ظل الاستكشاف الأثري في جنوب آسيا ضعيفًا نسبيًّا، ولكن علينا أن نفترض أنَّ جماعات من البشر الحديثين قد انتقلوا في هذا الطريق؛ لأنَّهم بحلول ٦٠,٠٠٠ ق. م قد وصلوا إلىٰ إندونيسيا واستولوا علىٰ قوراب وعبروا خمسين ميلًا من المياه المفتوحة، وجالوا في أماكن بعيدة كبحيرة مونغو في جنوب أستراليا. وانتقل المستعمرون بما يعدل ٥٠ مرة أسرع من هومو إركتس/إرجاستر عندما غادروا أفريقيا، بمتوسط يبلغ أكثر من ميل سنويًّا بالنسبة إلىٰ سرعة البدائيين الأقدم البالغة ٣٥ ياردة سنويًّا.

وبين خمسين ألف وأربعين ألف سنة مضت تحركت موجة ثانية من المهاجرين عبر مصر إلىٰ جنوب غرب ووسط آسيا، وانتشروا من هناك إلىٰ أوروبا. وكان هؤلاء البشر الحديثون مَهَرةً بما يكفي كي يصنعوا شفرات ناعمة وإبرًا من العظام، فقد كانوا يقطعون ويخيطون ملابس ذات مقاس مناسب، ويبنون منازل من أنياب حيوان الماموث وجلوده، بل ويُحوِّلون الأراضي القفراء الباردة في سيبيريا إلىٰ موطن لهم. وفي ١٥٠٠٠ ق. م تقريبًا عبر البشر الجسر الأرضي الذي يربط بين سيبيريا وألاسكا، و/أو أبحروا في قفزاتٍ قصيرة علىٰ طول حافته. وبحلول ١٢ ٠٠٠ ق. م خلَّفوا برازًا مُتحجِّرًا (coprolites) (الاسم العلمي للروث) في كهوف في أوريجون وطحالب بحرية في جبال شيلي. (يعتقد بعض علماء الآثار أنَّ البشر أيضًا عبروا الأطلسي علىٰ طول حافة الغطاءات الجليدية التي كانت تربط حينئذٍ بين أوروبا وأمريكا، علىٰ الرغم من أنَّ ذلك يبقىٰ مجرد تخمينات).

أمَّا الوضع في شرق آسيا، فهو أقل وضوحًا. ربما تبلغ جمجمة بشرية حديثة تمامًا من ليوچيانج في الصين ٦٨ ألف سنة، لكن هناك بعض المشاكل التقنية في هذا التاريخ، وتعود الآثار الأقدم غير المثيرة للجدل فقط إلىٰ ٤٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبًا. وسيحسم المزيد من الحفر ما إذا وصل البشر الحديثون إلىٰ الصين في وقت مبكر نِسبيًّا، أو في وقت مُتأخِّر نِسبيًّا، ولكنَّهم بالتأكيد وصلوا إلىٰ اليابان قبل عشرين ألف سنة.

وأينما ذهب البشر الحديثون، فيبدو أنَّهم أثاروا الفوضىٰ. لقد كانت القارات التي لم تطأها أقدام البدائيين الأقدم تَعجّ بالحيوانات البرية الكبيرة "ig game" عندما وصل الهومو سابينس إليها. قابلَ أول بشريين يصلون إلىٰ غينيا الجديدة وأستراليا طيورًا لا تطير ذات وزن يصل إلىٰ٤٠٠ رطل، وسحالىٰ بوزن طن؛ وبحلول ٣٥٠٠٠ قبل الميلاد انقرضت تلك الحيوانات. وتدل الاكتشافات من بحيرة مونغو وبضعة مواقع أخرىٰ علىٰ أنَّ البشر قد وصلوا في عام ٦٠ ألف ق. م تقريبًا، ممَّا يعني أنَّ البشر والحيوانات الضخمة قد تعايشوا طوال خمسة وعشرين ألف سنة، ولكنَّ بعض علماء الآثار يتنازعون في التواريخ، ويحددون وصول الإنسانية فقط منذ أربعين ألف سنة. وإذا كانوا مُحقِّين، فقد اختفت الوحوش الكبيرة بشكل مريب وبسرعة بعد وصول البشر. وفي الأمريكتين، قابل المستعمرون البشريون الأوائل منذ ١٥ ألف سنة الإبل، والفيلة، والكسلانيات الضخمة، "loths" وخلال أربعة آلاف سنة انقرضت هذه الحيوانات أيضًا. إنَّ التزامن بين قدوم «الهومو سابينس» واختفاء الحيوانات العملاقة أقل ما يُقال عنه إنَّه أمر صادم.

ليس هناك دليل مباشر علىٰ أنَّ البشر اصطادوا هذه الحيوانات حتىٰ انقرضت أو دفعوهم خارج حيِّزهم، وتكثُر التفسيرات البديلة لانقراضها (كتغيُّر المناخ أو انفجارات المذنَّبات)، ولكن ثمة جدل أقل حول حقيقة أنَّ البشر الحديثين عندما دخلوا بيئات كانت مشغولة بالفعل بالبدائيين، انقرض البدائيون أنفسهم. دخل الإنسان الحديث أوروبا بحلول ٣٥٠٠٠ قبل الميلاد، وخلال عشرة آلاف سنة اختفىٰ النياندرتال في كل مكان باستثناء الأطراف الجبلية للقارة. ويعود تاريخ آخر بقايا النياندرتال المعروفة لنا من جبل طارق جنوبي أسبانيا والتي يعود تاريخها إلىٰ حوالي ٢٥,٠٠٠ قبل الميلاد، فبعد أن هيمنوا علىٰ أوروبا لمدة ١٥٠ ألف سنة اختفىٰ النياندرتال ببساطة.

وتُعدُّ تفاصيل كيف حل البشر الحديثون محل البدائيين جوهريةً للبت فيما إذا كانت التفسيرات العنصرية للهيمنة الغربية ذات معنىٰ. ولا ندري بعد ما إذا

قتل أجدادنا بفاعلية الأنواع الأقل ذكاء أو أنَّهم تنافسوا معهم فقط علىٰ الغذاء. في معظم المواقع تحل بقايا الإنسان الحديث ببساطة محل البقايا المرتبطة بالنياندرتال، ممَّا يوحي بأنَّ التغيير كان مُفاجئًا. والاستثناء الأساسي هو كهف الرنة في فرنسا، حيث تعاقبت علىٰ ما يبدو مراحل شَغْل النياندرتال والإنسان الحديث للأرض بين ٣٣ و٣٥ ألف سنة، وتحتوي طبقات النياندرتال علىٰ أسس حجرية للأكواخ، وأدوات عظمية وسلاسل مصنوعة من أسنان الحيوانات. وأشار المُنقِّبون إلىٰ أنَّ النياندرتال قد تعلموا من البشر الحديثين، وكانوا يتجهون إلىٰ فجر وعي النياندرتال. وقد تشير عدة اكتشافات للمَغْرة في مواقع للنياندرتال في فرنسا (٢٠ رطلًا منها في كهف واحد) إلىٰ الاتجاه نفسه.

ومن السهل تصور النياندرتال الأقوياء ذوي الحواجب المنخفضة وهم يشاهدون القادمين الجدد الأسرع، والثرثارين، وهم يطْلون أجسادهم ويبنون الأكواخ، ثم يناضل النياندرتال من أجل تكرار تلك الأفعال بأصابعهم الطائشة، أو ربما يُقايضون المجوهرات بلحم طازج لحيوان مقتول لتوه. في رواية "The Clan of the Cave Bear"أو «عشيرة دب الكهف» تصوَّرت جين أويل البشر الحديثين وهم يطاردون بشكل محتقر النياندرتال «ذوي الرؤوس المُفلطحة» بينما حاول النياندرتال الابتعاد عن طريق (الآخرين) - باستثناء آيلا، وهي طفلة بشرية يتيمة، تبلغ من العمر خمسة أعوام، حيث تتبنَّاها عشيرة دب الكهف، ويكون لذلك نتائج تحوّلية. الأمر كله خيالي بالطبع، إلَّا أنَّه معقول باعتباره تخمين أي شخص آخر؛ (إلَّا إذا اتبعنا علماء الآثار غير الرومانسيين هؤلاء الذين يشيرون إلىٰ أنَّ أعمال الحفر غير المتقنة هي أكثر تفسير حريص لاجتماع بقايا النياندرتال والبشر في كهف الرنة، ممَّا يعني أنَّه لا وجود لأدلة مباشرة علىٰ تعلُّم ذوي الرؤوس المُفلطحة من الآخرين).

والمحصلة النهائية هي الجنس. إذا حلَّ الإنسان الحديث محلَّ النياندرتال في العالم الغربي القديم، ومحلَّ الإنسان المنتصب في المناطق الشرقية دون التناسل معهم؛ فلا بُدَّ أنَّ النظريات العنصرية التي تتتبع الهيمنة الغربية المعاصرة وصولًا إلىٰ الفروق البيولوجية الما قبل تاريخية، علىٰ خطأ. ولكن هل كان ذلك هو ما حدث؟

في أوج ما يُعرف بالعنصرية العلمية في ثلاثينيات القرن العشرين، أصرَّ بعض علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية علىٰ أنَّ الصينيين الحديثين كانوا أكثر بدائية من الأوروبيين؛ لأنَّ جماجمهم كانت تشبه جماجم إنسان بكين (نتوءات صغيرة في القمة، أوجه علوية مفلطحة نسبيًّا، فكوك غير بارزة، وقواطع علىٰ شكل مجارف). لذلك -كما أشار علماء الأنثروبولوجيا هؤلاء أيضًا- فإنَّ جماجم الأشخاص الأصليين من أستراليا -نتوءات حول الجزء الخلفي للإمساك بعضلات الرقبة، حواجب تشبه الرفوف، جباه متراجعة، أسنان كبيرة- كانت تشبه جماجم الإنسان المنتصب هومو إركتس الإندونيسي الذي تواجد منذ مليون سنة. وخلص هؤلاء العلماء «الغربيون» إلىٰ أنَّ الشرقيين الحديثين لا بُدَّ أنَّهم قد انحدروا من هؤلاء البدائيين الأكثر بدائية بينما انحدر الغربيون من سلالة النياندرتال الأكثر تقدمًا؛ وقد يفسر هذا لماذا يُهيمن الغرب.

لا أحد ينظر للأمور بمثل تلك الطريقة البدائية جدًّا اليوم، ولكنَّنا إذا كنا جادِّين بشأن سؤالنا لماذا يُهيمن الغرب؛ فلا بُدَّ لنا من مواجهة احتمال أنَّ «الهومو سابينس» قد تناسل مع الأفراد ما قبل الحديثين، وأنَّ الشعوب الشرقية أقل تقدمًا من الناحية البيولوجية من الشعوب الغربية. لن نكون قادرين أبدًا علىٰ التنقيب عن أناس الكهوف المتضاجعين لمعرفة ما إذا دمج الهومو سابينس چيناته بچينات النياندرتال في الغرب، وبچينات إنسان بكين في الشرق، ولكن لحسن الحظ نحن لا نحتاج لذلك؛ لأنَّنا نستطيع أن نلاحظ نتائج التقائهم في أجسادنا.

فكل منَّا قد ورث الحمض النووي من جميع أسلافنا، ممَّا يعني من الناحية النظرية أنَّ علماء الوراثة يستطيعون مقارنة الحمض النووي لجميع الأحياء ورسم شجرة عائلة تعود إلىٰ أحدث سلف مشترك للإنسانية. ومع ذلك، علىٰ صعيد الممارسة العملية، فإنَّ حقيقة أنَّ نصف الحمض النووي يأتي من سلالة والدتك والنصف الآخر من سلالة والدك، تجعل تفكيك المعلومات بنفس صعوبة إعادة بيضة إلىٰ ما كانت عليه قبل خلطها.

وقد عثر علماء الوراثة علىٰ طريقة ماهرة للتغلب علىٰ هذه المشكلة بالتركيز علىٰ الحمض النووي الميتوكوندري. وبدلًا من أن يُستنسخ جنسيًا، شأنَّه في ذلك

شأن معظم الحامض النووي، فإنَّ الحمض النووي الميتوكوندري يُنقل حصرًا بواسطة النساء (يرث الرجال الحمض النووي الميتوكوندري من أمهاتهم، لكنَّهم لا يُورِّثونه). وفي وقت ما كان لدينا جميعًا الحمض النووي الميتوكوندري نفسه؛ ولذلك فأي فرق بين الحمض النووي الميتوكوندري في جسدي وذلك الذي في جسدك لا بُدَّ أنَّه وليد طفرات عشوائية، وليس اختلاطًا جنسيًّا.

في عام ١٩٨٧م نشر فريق بقيادة عالمة الوراثة ريبيكا كان (Rebecca Cann) دراسة عن الحمض النووي الميتوكوندري في بشر أحياء من جميع أنحاء العالم. وميَّزوا حوالي ١٥٠ نوعًا منه داخل بياناتهم وأدركوا أنَّهم مهما خلطوا الإحصاءات، **فقد ظلوا يحصلون علىٰ ثلاث نتائج رئيسة:**

أولًا: هناك تنوع چيني في أفريقيا أكثر من أي مكان آخر.

وثانيًا: التنوع في بقية العالم هو مجموعة فرعية من التنوع في أفريقيا.

وثالثًا: أعمق -وبالتالي أقدم- سلالات الحمض النووي الميتوكوندري تأتي من أفريقيا. لقد كانت النتيجة حتمية: أنَّ آخر أنثىٰ من الأسلاف يتشارك جميع من في العالم چيناتها لا بُدَّ أنَّها عاشت في أفريقيا - حواء الأفريقية، كما سُمِّيت علىٰ الفور. وكما لاحظت كان وزملاؤها، كانت حواء الأفريقية «أُمًّا محظوظة». وباستخدام التقديرات القياسية لمعدلات الطفرات في الحمض النووي الميتوكوندري، فقد خلصوا إلىٰ أنَّ حواء الأفريقية قد عاشت منذ ٢٠٠ ألف عام.

وفي فترة التسعينيات تجادل علماء مستحاثات أسلاف البشر حول استنتاجات فريق كان. وقد شكَّ البعض في أساليب الفريق (فهناك آلاف الطرق لترتيب النتائج، ونظريًّا تتساوىٰ جميعها في صلاحيتها)، بينما شكَّ آخرون في أدلتهم (فقد كان معظم «الأفارقة» في الدراسة الأصلية أفارقة أمريكيين في الواقع)، ولكن بغض النظر عمَّن راجع العينات أو الأعداد، فقد خرجت النتائج مماثلة إلىٰ حدٍّ كبيرٍ. وكان التغيُّر الوحيد هو الدفع بالزمن الذي عاشت فيه حواء إلىٰ حوالي ١٥٠ ألف سنة مضت. ولحسم الأمور، فقد حصلت حواء الأفريقية علىٰ رُفقة في نهاية تسعينيات القرن العشرين عندما أتاح التقدم التقني لعلماء الوراثة دراسة الحمض النووي للنواة علىٰ كروموزوم (Y)، ومثل الحمض النووي

الميتوكوندري فإن الحمض النووي للنواة علىٰ كروموزوم (Y) يُستنسخ بلا تزاوج، ولكنَّه يُنقل عن طريق الذكور فقط. ووجدت الدراسات أنَّ الحمض النووي للكروموزوم (Y) كان لديه أيضًا أكبر تنوع وأعمق أصول في أفريقيا، مشيرة إلىٰ أنَّ آدم الأفريقي قد عاش بين ستين ألف وتسعين ألف سنة مضت، وأن أصل الأشكال غير الأفريقية يعود إلىٰ حوالي خمسين ألف سنة. في عام ٢٠١٠م أضاف علماء الوراثة تفصيلة أخرىٰ: فور خروجهم من أفريقيا تضاجع الهومو سابينس مع النياندرتال بما يكفي لالتقاط أثر من حمضهم النووي، ثم نشروا هذا المزيج عبر باقي أنحاء الكوكب.

ولكن يظل بعض علماء مستحاثات أسلاف البشر غير مقتنعين، مُصرِّين علىٰ أنَّ علم الوراثة أقل أهمية من أوجه التشابه التي يرونها بين هياكل الهومو سابينس والنياندرتال، وبين هياكل الهومو سابينس الشرقيين والهومو إركتس. وبدلًا من نموذج «خارج أفريقيا»، يقترحون نموذج «تعدد الأقاليم». فهم يُقرون بحدوث أولىٰ الخطوات البسيطة إلىٰ الأمام في أفريقيا، ولكن التحركات السكانية بين أفريقيا وأوروبا وآسيا قد شجَّعت علىٰ تدفقات سريعة للچينات لدرجة أن انتشرت الطفرات النافعة التي حدثت في مكان واحد إلىٰ كل مكان في غضون بضعة آلاف من السنين. ونتيجة لذلك، نشأت أنواع مختلفة قليلًا بالتوازي في عدة أجزاء من العالم. وقد يفسر ذلك كلًا من الأدلة العظمية والچينية، كما يعني أيضًا أنَّ الشرقيين والغربيين مختلفون بيولوجيًا حقًا.

ومثل العديد من النظريات، فإنَّ نظرية «تعدد الأقاليم» لها سلبيات وإيجابيات، وقد أصرَّ بعض العلماء الصينيين علىٰ أن الصين استثنائية؛ لأنَّ -كما ذكرت صحيفة تشاينا ديلي- الإنسان الصيني الحديث نشأ فيما يُعدُّ في الوقت الحاضر أراضي صينية وليست أفريقية. لكن منذ أواخر التسعينيات، مالت الأدلة باطراد ضد هذه الفكرة. كان هناك تحليل ضعيف نسبيًا للحمض النووي القديم في شرق آسيا، وتحليل أقل يقدم البهجة لأصحاب نظرية تعدد الأقاليم. بل وخلص مُصنِّفو إحدىٰ الدراسات عن الكروموزوم (Y) إلىٰ أنه «لا تدعم البيانات حتىٰ أدنىٰ قدر من مساهمة الجنس البشري، في الموقع الأصلي، في نشأة البشر

الحديثين من الناحية التشريحية في شرق آسيا. وفي أوروبا، لم تعثر الدراسات الأولية للحمض النووي الميتوكوندري للنياندرتال علىٰ أي تداخل مع الحمض النووي الميتوكوندري البشري، (سواء وُجدَ في عظام تبلغ ٢٤ ألف سنة، أو في أوروبيين أحياء يتنفسون)، وهو ما يدل علىٰ أنَّ النياندرتال والهومو سابينس لم - وربما لم يستطيعوا أن- يتناسلوا علىٰ الإطلاق. وقد أظهر تفكيك الجينوم الكامل للنياندرتال الآن أن عدم تناسل النياندرتال والهومو سابينس هو مجاوز الحد، وأنَّ النياندرتال قد أثاروا عاطفة الهومو سابينس بما يكفي ليترك النياندرتال علامة صغيرة علىٰ حمضنا النووي؛ ولكنَّه أظهر أيضًا أن تلك العلامة هي نفسها بالضبط من فرنسا إلىٰ الصين. ففي كل مكان في أوروبا الآسيوية، الناس (في مجموعات كبيرة) يتشابهون كثيرًا.

ويتواصل الجدل حول النشأة متعددة الأقاليم، وفي وقت حديث مثل عام ٢٠٠٧م تمَّ الإعلان عن اكتشافات جديدة في چوكوديان وفي شو تشانغ تُظهر حتمية تطور البشر الحديثين من الإنسان المنتصب هومو إركتس في الصين. وعلىٰ الرغم من أن النشرة التي أعلنت عن هذه الاكتشافات كانت لا تزال تُطبع، دقَّ علماء آخرون ما يبدو أنَّه المسمار الأخير في نعش نظرية تعدد الأقاليم. وأظهر تحليل الانحدار المتعدد المتطور الخاص بهم لقياسات أكثر من ستة آلاف جمجمة أنَّه عندما نثبت المناخ؛ فإنَّ التفاوت في أنواع الجماجم حول العالم يتفق في الحقيقة مع أدلة الحمض النووي. وقد أزال انتشارنا خارج أفريقيا خلال الستين ألف سنة السابقة جميع مخلفات الماضي من جميع الاختلافات الجينية التي برزت خلال النصف مليون سنة السابقة.

إنَّ النظريات العنصرية التي تؤسس للهيمنة الغربية في علم الأحياء ليس لديها أساس في الحقيقة. فالبشر في مجموعات كبيرة متشابهون كثيرًا حيثما نجدهم، وقد ورثنا جميعًا العقول المتململة المبتكرة نفسها من أسلافنا الأفارقة. ولا يمكن لعلم الأحياء وحده أن يفسر لماذا يهيمن الغرب.

لوحات بيكاسو في عصور ما قبل التاريخ

إذا كانت النظريات العنصرية ليست صحيحة -إذن- فأين بدأ الشرق والغرب؟ بدت الإجابة عن هذا السؤال واضحة للعديد من الأوروبيين منذ أكثر من مائة عام: حتىٰ ولو لم تكن لعلم الأحياء مدخلية، فقد أكَّدوا أنَّ الأوروبيين ظلوا متفوقين حضاريًّا علىٰ الشرقيين منذ نشأة الإنسان الحديث. وبدأت الأدلة التي أقنعتهم بذلك في الظهور في عام ١٨٧٩م. فقد جعل كتاب "n the Origin of Species" أو «عن أصل الأنواع» لتشارلز داروين، الذي نُشر قبل عقدين من ذلك العام - اصطياد الأحفوريات هواية مهمَّة للسادة النبلاء، ومثل الكثيرين من طبقته اعتاد دون مارسيلينو سانز دي ساوتولا البحث عن أناس الكهف في ممتلكاته في شمال أسبانيا. وفي أحد الأيام زار برفقة ابنته كهف التاميرا. وليس علم الآثار شيئًا مسليًا كثيرًا لذوي الثماني سنوات؛ لذا فبينما ثبَّت ساوتولا عينيه علىٰ الأرض، راحت ماريا تجري وتلعب في الأنحاء. «فجأة! لاحظت أشكالًا في سقف الكهف»، هكذا قالت ماريا في إحدىٰ المقابلات بعد سنوات كثيرة، كانت تلهث «انظر بابا، ثيران»!

يحلم جميع علماء الآثار بلحظة ذهول -لحظة عدم تصديق مطلق- عندما يقف الزمن ساكنًا، وكل شيء يسقط في وجه اكتشاف باعث علىٰ الذهول ولا يصدق. ولا يحظىٰ الكثير من علماء الآثار في الواقع بذلك، وربما لم يحظَ أي عالم آثار علىٰ الإطلاق بمثل ذلك. رأىٰ ساوتولا ثورًا أمريكيا، وأيلًا، وطبقة فوق طبقة من حيوانات ملونة بألوان عديدة تغطي ٢٠ قدمًا من سقف الكهف، بعضها منطوٍ علىٰ نفسه، وبعضها يجري، وبعضها يقفز بفرحة (الشكل ١ - ٤).

تم تصوير كل منها بجمال وبشكل مؤثر. عندما زار بيكاسو الموقع بعد سنوات، كان مندهشًا. وقال: «ما من أحد منا يمكنه أن يرسم مثل ذلك. بعد التاميرا كل شيء منحط».



(موضع الشكل ١ - ٤). «بعد التاميرا كل شيء منحط ...» مجرد جزء من السقف المذهل من الثيران الذي اكتشفته ماريا سانز دي ساوتولا البالغة من العمر ثماني سنوات في عام ١٨٧٩م، والذي أفسد حياة والدها وأذهل بيكاسو.

وكان رد الفعل الأول لساوتولا هو الضحك، لكنَّه سرعان ما أصبح «متحمسًا جدًّا»، كما ذكرت ماريا، «لدرجة أنَّه بالكاد استطاع أن يتكلم»، وأقنع نفسه تدريجيًّا أنَّ اللوحات كانت فعلًا قديمة (تشير آخر الدراسات إلىٰ أنَّ بعضها عمره أكثر من ٢٥ ألف سنة). لكن في عام ١٨٧٩م، لم يكن أحد يعرف ذلك. وفي الحقيقة عندما قدَّم ساوتولا الموقع في المؤتمر الدولي للأنثروبولوجيا وعلم آثار ما قبل التاريخ في لشبونة في عام ١٨٨٠م، سخر المختصون منه ممَّا دفعه للنزول من علىٰ المنصة. فقد كان الجميع يعرف أنَّه لم يكن بإمكان أناس الكهوف أن ينتجوا مثل هذا الفن، واتفقوا أنَّ ساوتولا إمَّا كاذب وإمَّا أبله. واعتبر ساوتولا ذلك اعتداءً علىٰ شرفه. ثم توفي وهو رجل محطم بعد ثماني سنوات. لقد دمرت لحظة ذهول حياته.

ولم يزُر ناقدو ساوتولا الرئيسون كهف ألتمارا ويتراجعوا في رأيهم علنًا حتىٰ عام ١٩٠٢م، ومنذ ذلك الحين عُثر علىٰ عدة مئات من الكهوف ذات الرسومات. اكتُشف كهف شوفيت في فرنسا، وهو أحد أروع الكهوف مؤخرًا في عام ١٩٩٤م، وكان محفوظًا جيدًا جدًّا لدرجة بدا معها أنَّ الفنانين قد خرجوا لتوهم من أجل قضمة سريعة من الرنة، وأنَّهم سيعودون في أية لحظة. ويبلغ عمر إحدىٰ اللوحات في كهف شوفيه ثلاثين ألف سنة ممَّا يجعلها واحدة من أقدم آثار البشر الحديثين في أوروبا الغربية.

لم يُعثر علىٰ شيء مشابه لهذه الرسوم الكهفية في أي مكان آخر في العالم. لقد أزالت الهجرة البشرية الحديثة خارج أفريقيا جميع التمايزات الناشئة عن خط موڤياس البيولوجية وجميع التباينات البيولوجية بين أنواع البدائيين الأقدم؛ ولكن هل يجب علينا تحديد البداية الحقيقية لتقليد غربي مميز «ومتفوق» قبل ثلاثين ألف سنة في ثقافة مبدعة علىٰ نحو متفرِّد ملأت شمال أسبانيا وجنوب فرنسا بلوحات لبيكاسو في عصور ما قبل التاريخ؟

ربما يكمن الجواب، علىٰ نحو مدهش، في الأراضي القفراء المجمدة في أنتاركتيكا. كل عام، تتساقط الثلوج هناك، وتدفن الثلوج التي سبقتها، وتضغطها إلىٰ طبقات رقيقة من الجليد. تُعدُّ هذه الطبقات بمثابة سجل زمني للطقس القديم. وبفصلها عن بعضها البعض، يمكن لعلماء المناخ قياس سُمكها، ثمَّ إخبارنا بمعدل تساقط الثلوج، ويمكنهم إقامة التوازن بين نظائر الأكسجين، والكشف عن درجات الحرارة، ومقارنة كميات ثاني أكسيد الكربون وغاز الميثان، والكشف عن آثار الاحتباس الحراري. ولكن الحفر لاستخراج عينات من طبقات الجليد هو إحدىٰ أصعب المهام في مجال العلوم. وفي عام ٢٠٠٤م أنهىٰ فريق أوروبي استخراج عينة جوفية أنتاركتيكية بعمق ميلين تقريبًا، تعود إلىٰ ٧٤٠٠٠ عام، إلىٰ الأيام التي كان النياندرتال أملًا لم يتحقق بعد للبدائيين. وفعل العلماء ذلك رغم درجات الحرارة التي انخفضت إلىٰ ٥٨ فهرنهايت تحت الصفر في الشتاء، ولم تزد عن ١٣ درجة مئوية تحت الصفر، وكانوا مُجبرين علىٰ البدء من جديد عندما تعطل المثقاب في عام ١٩٩٩م، وكان عليهم استخدام

حقيبة بلاستيكية مليئة بالإيثانول باعتبارها مثقابًا بديلًا من أجل مئات الياردات الأخيرة.

إنَّ النتائج التي استخرجها رجال ونساء العلم الخارقون هؤلاء من الجليد تجعل أمرًا واحدًا واضحًا جدًّا: إنَّ العالم الذي عاش فيه فنانو التاميرا كان باردًا. بدأت درجات الحرارة في الانخفاض من جديد بعدما غادر الإنسان الحديث أفريقيا، ومنذ نحو عشرين ألف سنة مضت -عندما كان المزيد من الفنانين يُلوِّنون بالمغرة والفحم جدران الكهوف أكثر من أي وقت مضىٰ- بلغ آخر عصر جليدي ذروته الباردة. وظل متوسط درجات الحرارة أقل بمقدار ١٤ درجة مئوية من الأزمنة الحديثة. وأدىٰ ذلك إلىٰ فرق مذهل؛ فقد كانت الأنهار الجليدية بعمق ميل تغطي شمال آسيا وأوروبا وأمريكا، حاجزة الكثير من المياه لدرجة أن مستوىٰ سطح البحر كان أقل بمقدار أكثر من ثلاثمائة قدم من مستواه اليوم. كان بإمكانك السير من أفريقيا إلىٰ إنجلترا أو أستراليا أو أمريكا دون أن تقع عيناك أبدًا علىٰ البحر. وليس ذلك لأنَّك قد ترغب في زيارة العديد من هذه الأماكن؛ فعند حواف الأنهار الجليدية عوت الرياح وثارت العواصف الترابية عبر السهوب القاحلة الشاسعة، التي كانت باردة في الشتاء وقاحلة في الصيف. وحتىٰ في أقل المناطق وعورة، عند ٤٠ درجة من خط الاستواء، حدَّ كل من الصيف القصير والأمطار الضئيلة وانخفاض مستويات ثاني أكسيد الكربون في الجو من نمو النبات، وأبقىٰ تعداد الحيوانات (بما في ذلك الإنسان) مُنخفضًا. كانت الأمور سيئة مثل أسوأ الأيام التي مرَّت قبل أن يغادر الإنسان الحديث أفريقيا.

كانت الحياة أسهل فيما يُعرف الآن باسم المناطق المدارية أكثر منها في سيبيريا، ولكن أينما بحث علماء الآثار وجدوا أنَّ الناس قد تكيَّفوا مع العصر الجليدي بطرق متشابهة كثيرًا. لقد كانوا يعيشون في جماعات صغيرة، وفي البيئات الباردة كان اثنا عشر شخصًا يُشكِّلون مجموعة كبيرة، وفي المناطق الأكثر اعتدالًا ربما ظلَّ ضعف ذلك العدد مع بعضهم البعض. وقد تعلموا متىٰ تنضج النباتات المختلفة وأين يمكنهم إيجادها، ومتىٰ تهاجر الحيوانات قبل المواسم

وأين يمكنهم اعتراضها، وتعقبوا كليهما في الطبيعة، وقد مات جوعًا أولئك الذين لم يتعلموا هذه الأشياء.

كانت هذه الجماعات الصغيرة تعاني كي تتكاثر، فمثل الصائدين جامعي الثمار في البيئات الهامشية لا بُدَّ أنَّهم اجتمعوا من وقت لآخر لتبادل الأزواج، وتجارة السلع، ورواية الحكايات، وربما التحدث إلىٰ آلهتهم وأرواح أجدادهم. كانت هذه اللقاءات أكثر المناسبات الاجتماعية إثارة علىٰ مدار العام. ونحن نخمن بالطبع، ولكن العديد من علماء الآثار يعتقدون أنَّ هذه الأيام الاحتفالية تكمن وراء رسومات الكهوف الرائعة في أوروبا الغربية: كان الجميع يرتدي أفضل الجلود والخرز، وكانوا يطْلون وجوههم، ويفعلون ما بوسعهم لتزيين أماكن اجتماعاتهم المقدسة ممَّا جعلها استثنائية حقًّا.

لكن السؤال الواضح هو: لماذا إذا انطبقت حقائق الحياة الصعبة هذه في جميع أنحاء أفريقيا وآسيا وأوروبا- نجد هذه الرسوم الكهفية الرائعة فقط في أوروبا الغربية؟ تبدو الإجابة التقليدية -وهي أنَّ الأوروبيين كانوا أكثر إبداعًا ثقافيًّا من أي أحد آخر- معقولة جدًّا، ولكنَّنا قد نفعل ما هو أفضل إذا قلبنا السؤال. لا يُعدُّ تاريخ الفن الأوروبي دليلًا مُستمِّرًا لروائع الفن التي تمتد من شوفيه إلىٰ شاجال؛ لقد اختفت رسومات الكهف تدريجيًّا بعد ١١٥٠٠ قبل الميلاد، ومرت قرون كثيرة قبل أن نشهد أي مثيل لها.

إنَّ البحث عن جذور الهيمنة الغربية في تقليد عمره ثلاثون ألف سنة من الإبداع الأوروبي، هو أمر خاطئ بوضوح إذا كان هذا التقليد في الحقيقة قد تلاشىٰ منذ آلاف السنين. وربما يجب علينا أن نسأل بدلًا من ذلك: لماذا توقفت رسومات الكهف؛ لأنَّه بمجرد أن نفعل ذلك فسيبدو الأمر كما لو أنَّ الاكتشافات المذهلة منذ عصور ما قبل التاريخ في أوروبا مرتبطة بالجغرافيا والمناخ بقدر ارتباطها نفسه بأي ثقافة غربية مميزة.

خلال معظم العصر الجليدي، كانت كل من شمال أسبانيا وجنوب فرنسا أراضي صيد ممتازة، حيث تهاجر قطعان الرنة من المراعي الصيفية إلىٰ المراعي الشتوية ثم تعود مجددًا. ولكن عندما بدأت درجات الحرارة في الارتفاع منذ

حوالي ١٥ ألف سنة (المزيد عن هذا في الفصل الثاني)، لم تعد الرنة تهاجر لهذه المسافة البعيدة جنوبًا في الشتاء، وتبعها الصيادون شمالًا.

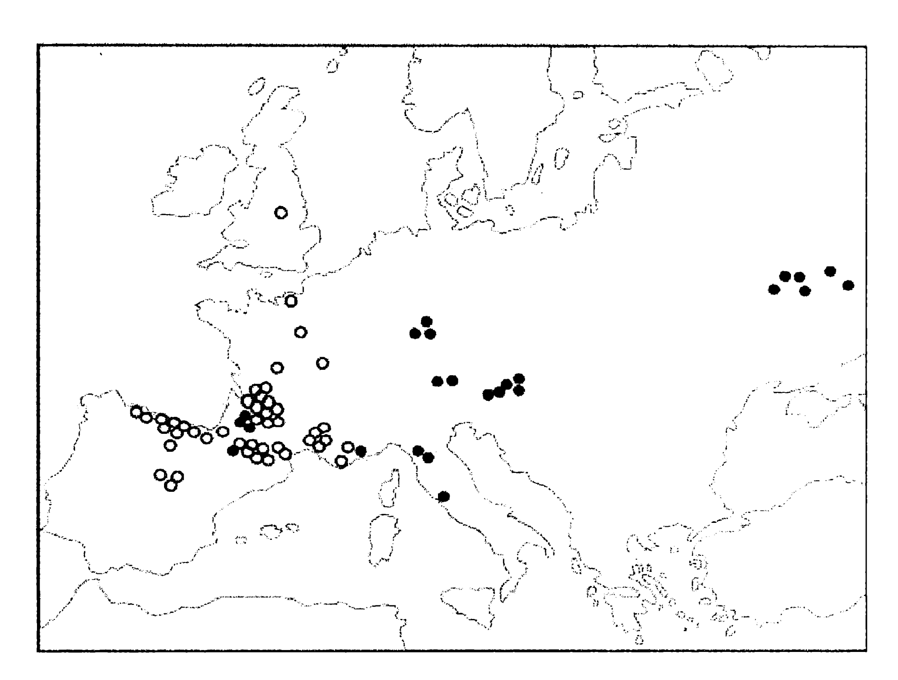
لا يمكن أن يكون من قبيل المصادفة أنَّ رسومات الكهف الأوروبية الغربية قد قلَّت في الوقت نفسه. قلَّ الفنانون الذين كانوا يزحفون تحت الأرض مع مصابيحهم ذات الدهن الحيواني وعصيهم من المغرة. وفي وقت ما منذ حوالي ١٣٥٠٠ ألف عام غادر آخر الفنانين. ربما لم يدرك أو لم تدرك الأمر، ولكن في هذا اليوم انقرض التقليد القديم. خيَّم الظلام في الكهوف، ولآلاف السنين لم يزعج صمتها الشبيه بصمت المقابر سوىٰ الخفافيش والمياه المتساقطة.

لماذا لم تنتقل رسومات الكهف الجميلة بشكل منتظم شمالًا عبر أوروبا بعد ١١٥٠٠ قبل الميلاد، في الوقت الذي تتبع فيه الصيادون الرنة؟ ربما للسبب الوجيه جدًّا بأنَّ صيادي شمال أوروبا لم يكن لديهم كهوف مناسبة ليرسموا فيها. فشمال أسبانيا وجنوب فرنسا لديهما عدد هائل من الكهوف الكلسية العميقة، بينما هي أقل بكثير في شمال أوروبا. ونادرًا ما استمر وجود جهود الشعوب التي كانت تعود إلىٰ عصور ما قبل التاريخ لتزيين أماكن اجتماعها كي نعثر عليها ما لم تتطابق الأراضي التي كانوا يصطادون فيها مع أراضي الكهوف العميقة. وكلما أخفقت هذه المصادفة السعيدة في الظهور، فلا بُدَّ أنَّ الناس قد تجمَّعُوا بالقرب من أو حتىٰ علىٰ السطح. وبتعرضهم للرياح والشمس والأمطار لمدة عشرين ألف سنة، يبقىٰ القليل من آثار أعمالهم الفنية.

لكن «القليل من الآثار» يختلف عن «عدم وجود آثار»، وأحيانًا نصبح محظوظين. ففي الكهف الرائع الذي يُدعىٰ «أبولو ١١» في ناميبيا، توجد بلاطات حجرية ذات رسوم لحيوان وحيد القرن والحمار الوحشي عن الحائط، سقطت علىٰ الأرض، وحُفظت تحت الرواسب التي تكونت بين ١٩٠٠٠ و٢٦٠٠٠ عام، وهناك بعض الأمثلة الأسترالية التي تُعدُّ أقدم من ذلك. وفي «ساندي كريك»، ربما يرجع تاريخ الرواسب المعدنية التي تراكمت علىٰ جزء من النحت الموجود علىٰ جدار كهف إلىٰ حوالي ٢٥ ألف سنة، ويبلغ عمر أجزاء الطلاء من ٢٦٠٠٠ إلىٰ ٣٢٠٠٠ سنة، بينما في كهف «كاربنتر جاب» (Carpenter's Gap) سقط جزء

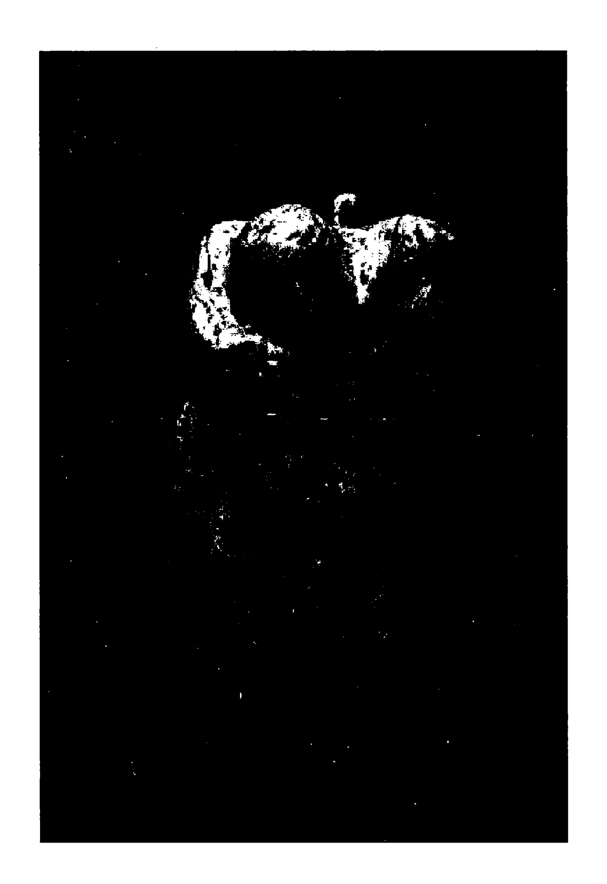
من جدار كهف مطلي داخل حطام يبلغ ٤٠٠٠٠ سنة، ممَّا يجعله أقدم حتىٰ من كهف شوفيه.

لا يمكن مقارنة الأمثلة الأفريقية أو الأسترالية من الناحية الجمالية بالأعمال الفرنسية والأسبانية التي تُعدُّ الأفضل، وهناك عدد قليل من الكهوف العميقة خارج أوروبا الغربية لا يحتوي علىٰ لوحات (مثل چوكوديان، التي شُغلت مجددًا قبل عشرين ألف سنة). وسيكون من السخافة الادعاء بأن جميع البشر قد بذلوا جهدًا متساويًا في فن الكهوف، فضلًا عن أنَّ جميع التقاليد الفنية ناجحة علىٰ حد سواء. ولكن نظرًا لمسائل المحافظة والوقاية، وحقيقة أنَّ علماء الآثار ظلوا يبحثون لوقت أطول وبجهد أكبر في أوروبا أكثر من أي مكان آخر؛ فإنَّ بقاء أي شيء علىٰ الإطلاق في القارات الأخرىٰ يدل علىٰ أنَّ كل البشر الحديثين -في كل مكان- تشاطروا الحافز لخلق الفن. وحيث لم تكن الظروف للرسم في الكهوف جيدة جدًّا مثلما كانت في أوروبا الغربية، ربما وضع الناس طاقتهم في أوساط أخرىٰ.



(موضع الشكل ١-٥). بدايات الثقافة الغربية: تظهر الدوائر المفتوحة رسومات كهفية تبلغ ١٢ ألف سنة أو أكثر، وتظهر الدوائر المصمتة اكتشافات من الفن المحمول لها العُمر نفسه.

يُبيِّن (الشكل ١ - ٥) بشكل جيد أنَّه بينما يجتمع فن الكهف في أوروبا الغربية، فإنَّ نماذج من الحجر والفخار والعظام للبشر والحيوانات هي أكثر شيوعًا بعيدًا في الشرق. لو سمحت اقتصاديات النشر بذلك، لعرضت صورًا لعشرات التماثيل الرائعة، والتي عُثر عليها في كل مكان من ألمانيا إلىٰ سيبيريا. لكن بما أنَّها لا تسمح فسأقتصر علىٰ أحدث اكتشاف في عام ٢٠٠٨م في ألمانيا، في كهف الصخرة المجوَّفة (الشكل ١ - ٦)، تمثال مصغَّر بطول بوصتين لامرأة دون رأس ذات صدر عملاق، نُحت منذ ٣٥٠٠٠ سنة من عاج الماموث. وفي التاريخ نفسه استغرق الصيادون في مالايا سايا بالقرب من بحيرة بايكال في سيبيريا -وهو بالتأكيد أحد المواقع التي لا تصلح للمعيشة علىٰ الأرض- وقتًا طويلًا لنقش صور الحيوانات علىٰ العظام؛ وبحلول ٢٥٠٠٠ ق. م تجمعت مجموعات يصل قوامها إلىٰ ١٢٠ شخصًا في أكواخ من عظام الماموث وجلده في دولني فيستونيس في الجمهورية التشيكية، حيث صنعوا آلاف التماثيل الطينية للحيوانات، ومرة أخرىٰ، نساء ذات صدور كبيرة. يظل التوثيق الفني في شرق آسيا ضئيلًا، ولكن أقدم اكتشاف -وهو نموذج صغير لطائر نُحت ربما منذ حوالي خمسة عشر ألف سنة باستخدام قرن غزال، واكتُشف في شوتشانغ عام ٢٠٠٩م- يبدو متطورًا جدًّا لدرجة أنَّنا نستطيع أن نكون علىٰ ثقة من أن حملات التنقيب المستقبلية ستكشف عن تقليد فنِّي مزدهر في العصر الجليدي في الصين أيضًا.



(موضع الشكل ١ - ٦). (الحاجة إلىٰ الإبداع: تمثال مصغر بطول بوصتين، يبلغ عمره ٣٥ ألف عام، بلا رأس لـ (فينوس) ذات صدر ضخم، منحوت من عاج الماموث، عُثر عليه في عام ٢٠٠٨م في كهف «هوهل فيلس» في ألمانيا).

وقد عثر البشر في العصر الجليدي خارج أوروبا الغربية علىٰ ما يبدو، مع افتقارهم إلىٰ الظروف التي جعلت شوفيه وألتاميرا علىٰ ما هي عليه - علىٰ منافذ أخرىٰ لإبداعهم. هناك القليل من الأدلة القيِّمة علىٰ أنَّ البدائيين الأقدم قد شعروا بأي حاجات إبداعية علىٰ الإطلاق، ولكن الخيال يبدو متأصلًا في الهومو سابينس. منذ ألف سنة كان لدىٰ البشر الملكة العقلية للبحث عن معنىٰ للعالم، والمهارات لتمثيل هذه المعاني في الفن و(ربما، علىٰ الرغم من أنَّنا لا نستطيع ملاحظة هذا) الشعر والموسيقىٰ والرقص. ومرة أخرىٰ، يبدو البشر (في مجموعات كبيرة) متشابهين جدًّا، حيثما نجدهم. وعلىٰ الرغم من فخامته، لم يجعل كهف ألتاميرا الغرب مختلفًا عن البقية.

تراكمت الاختلافات التكنولوجية والفكرية والبيولوجية منذ أكثر من مليون ونصف المليون سنة بعد أن غادر أول بدائي أفريقيا، ممَّا قسَّم العالم القديم إلىٰ: غرب فيه النياندرتال/الهومو سابينس، وشرق فيه الإنسان المنتصب «هومو إركتس». ومنذ حوالي مائة ألف سنة، تميَّز الغرب بتكنولوجيا متقدمة نسبيًّا، وحتىٰ بشيء من الإنسانية، بينما بدا الشرق متخلفًا علىٰ نحو متزايد؛ ولكن عندما انتقل البشر الحديثون بالكامل خارج أفريقيا منذ ستين ألف سنة تخلصوا من كل ذلك. وفي الوقت الذي بلغ فيه العصر الجليدي الأخير ذروته منذ عشرين ألف سنة، كان كل من «الشرق» و«الغرب» مجرد اتجاهات تشرق الشمس فيها وتغرب. لكنَّ الشيء الذي وحدَّهما أكثر مما فرَّقهما؛ كانت الجماعات البشرية الصغيرة المتناثرة من بريطانيا إلىٰ سيبريا - والتي سرعان ما عبرت (نسبيًا) إلىٰ أمريكا. قامت كل مجموعة بالرعي والصيد والتجول، يطوفون عبر مساحات واسعة بينما تنضج النباتات وتسير الحيوانات ذهابًا وإيابًا. ولا بُدَّ أنَّ كلًا منهم قد عرف منطقته بألفة، وأنَّه قد حكىٰ قصصًا عن كل صخرة وكل شجرة، وكان لكل منهم فنُّه الخاص وتقاليده الخاصة، وأدواته وأسلحته، وأرواحه وشياطينه. وكل قد علم بالتأكيد أنَّ آلهتهم كانت تحبهم لأنَّهم -رغم كل شيء- كانوا لا يزالون علىٰ قيد الحياة.

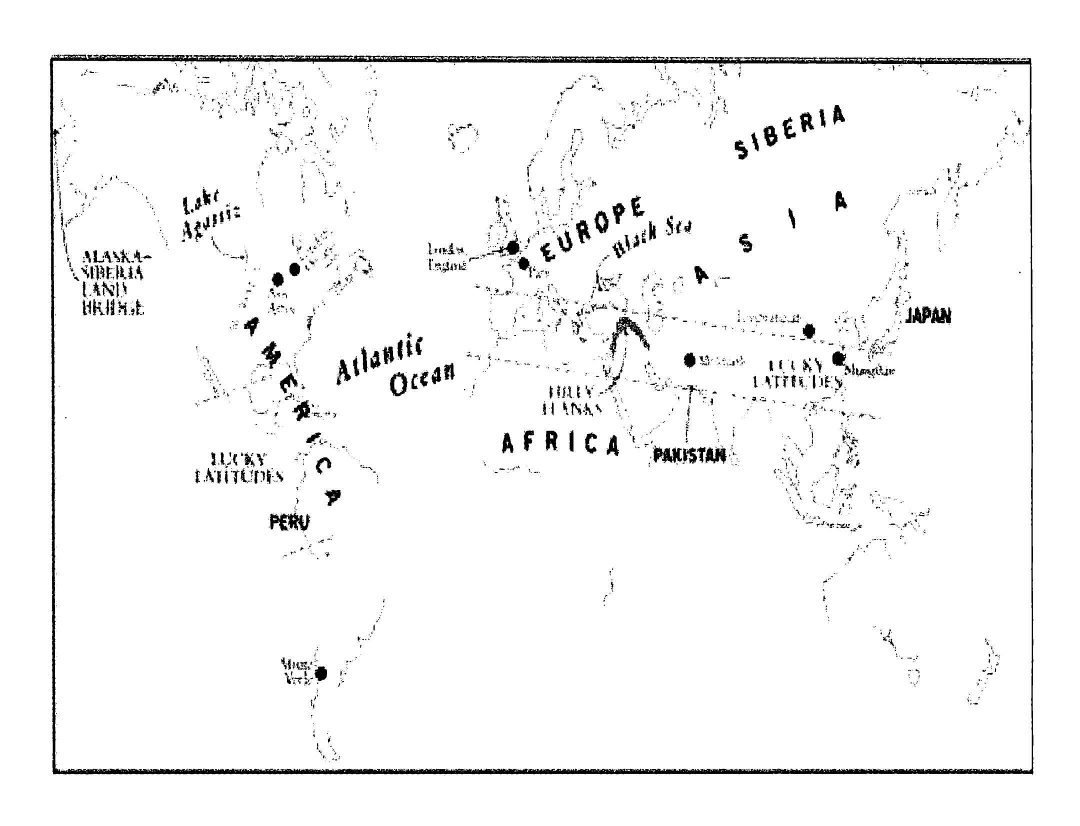
لقد وصل البشر إلىٰ القدر البعيد نفسه الذي كان متوقعًا لهم في مثل ذلك العالم البارد والجاف، وكانت الأشياء لتبقىٰ علىٰ ما هي عليه ما لم تهتز الأرض تحت أقدامهم.

(٢)

الغرب يتصدر الاحتباس الحراري

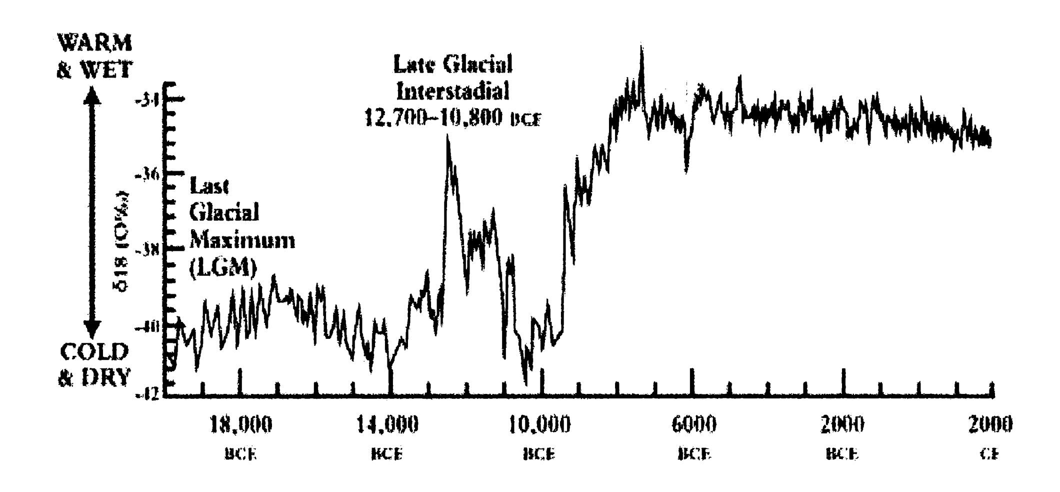
علىٰ الرغم من أنَّ أناس الكهف الذين كانوا يرتجفون حول نيران مخيماتهم منذ عشرين ألف سنة لم يعرفوا ذلك، فقد بدأ عالمهم في العودة إلىٰ الدفء. وعلىٰ مدىٰ العشرة آلاف عام التالية أدىٰ الجمع بين كل من تغيُّر المناخ وعقولهم فائقة السرعة إلىٰ تغيير الجغرافيا، ممَّا أنتج أساليب إقليمية مميزة للحياة ظلت مستمرة حتىٰ يومنا هذا. لقد بدأ كل من الشرق والغرب يعنيان شيئًا ما.

كانت آثار الاحتباس الحراري مُربكة للعقل، فعلىٰ مدىٰ قرنين أو ثلاثة قرون في ١٧٠٠٠ قبل الميلاد تقريبًا ارتفع مستوىٰ البحر بمقدار ٤٠ قدمًا عندما ذاب الجليد الذي كان يغطي أمريكا الشمالية وأوروبا وآسيا. وقد ظلت المنطقة بين تركيا والقرم، حيث تتدحرج أمواج البحر الأسود الآن (الشكل ٢ - ١) - حوضًا منخفضًا قليلًا عن مستوىٰ البحر خلال العصر الجليدي، ولكن ذوبان الجليد قد حوَّل تلك المنطقة حينئذٍ إلىٰ أكبر بحيرة مياه عذبة في العالم. لقد كان فيضانًا جديرًا بسفينة نوح، حيث ارتفعت المياه إلىٰ ست بوصات يوميًا في بعض المراحل. وكلما طلعت الشمس امتد شاطئ البحيرة ميلًا آخر. ليس هناك في العصر الحديث ما يمكن مقارنته بذلك.



(موضع الشكل ٢ – ١). (الصورة الكبيرة: قصة هذا الفصل بالنظر إليها وفق نطاق عالمي).

أطلق مدار الأرض المتغيِّر تقلبات وتأرجحات شديدة في التدفئة والبرودة، ووفرة الطعام والمجاعات. يبيِّن (الشكل ٢ – ٢) كيف تعرجت النسب بين نظيرين للأكسجين في الألباب الجليدية في أنتاراكتيكا المذكورة في الفصل الأول ذهابًا وإيابًا مع تغيُّر المناخ. فقط بعد ١٤٠٠٠ ق. م تقريبًا، عندما توقف الجليد الذائب عن إلقاء الماء البارد في المحيطات، بدأ العالم بوضوح في اتخاذ خطوتين نحو الدفء لكل خطوة للخلف نحو التجمد. وفي ١٢٧٠٠ ق. م تقريبًا، تحولت هذه الخطوات إلىٰ عدْوٍ، وخلال دورة عمر واحدة سخنت الكرة الأرضية بمقدار حوالي ٥ درجات فهرنهايت ممَّا جلبها بمقدار درجة أو درجتين ضمن ما نعتاده في أوقاتنا الحديثة.



(موضع الشكل ٢ – ٢). قصة مكتوبة بالثلج: النسبة بين نظائر الأكسجين في الفقاعات الهوائية المحاصرة في الكتل الجليدية لأنتاركتيكا، ممَّا يكشف التأرجح بين الجو الدافئ/ الرطب والجو البارد/ الجاف علىٰ مدار العشرين ألف سنة الماضية.

لقد أحب مسيحيو العصور الوسطىٰ الاعتقاد بأنَّ الكون سلسلة عظمىٰ من الوجود، تمتد من الإله وصولًا إلىٰ أبسط دودة أرض. فالرجل الثري في قصره، والرجل الفقير عند بوابته – كلٌ لديه أماكنه المخصصة في نظام سرمدىٰ. ولكن من الأفضل أن نتخيَّل أي شيء سوىٰ سلسلة عظمىٰ خالدة من الطاقة تُشكّل طاقة جاذبية الكون. وقد حوَّلت طاقة الجاذبية الحساء الكوني البدائي إلىٰ هيدروجين وهيليوم، ثم حوَّلت هذه العناصر البسيطة إلىٰ نجوم. تعمل شمسنا باعتبارها مفاعلًا نوويًا كبيرًا يقوم بتحويل طاقة الجاذبية إلىٰ طاقة كهرومغناطيسية، وتقوم النباتات علىٰ الأرض بالتمثيل الضوئي لقدر ضئيل من هذه الطاقة وتحويلها إلىٰ طاقة كيميائية. ثم تستهلك الحيوانات النباتات، وتؤيض الطاقة الكيميائية إلىٰ طاقة حركية. ويُشكّل التفاعل بين الجاذبية الشمسية وجاذبية الكواكب الأخرىٰ مدار الأرض، ممَّا يحدد مقدار الطاقة الكهرومغناطيسية التي نحصل عليها، ومقدار

الطاقة الكيميائية التي تنتجها النباتات، ومقدار الطاقة الحركية التي تنتجها الحيوانات منها؛ وهذا يحدِّد كل شيء آخر.

في عام ١٢٧٠٠ ق. م تقريبًا، قفزت الأرض لأعلىٰ في السلسلة العظمىٰ للطاقة. كان المزيد من أشعة الشمس يعني المزيد من النباتات، والمزيد من الحيوانات، والمزيد من الخيارات بالنسبة إلىٰ البشر، عن الكمية التي يجب أكلها، ومقدار العمل والتكاثر. ربما جمع كل فرد وكل جماعة صغيرة بين الخيارات بطرقهم الخاصة، ولكن بشكل عام، استجاب البشر لانتقال الأرض لموضع أعلىٰ في السلسلة العظمىٰ للطاقة بالطرق نفسها التي تفاعلت بها النباتات والحيوانات التي كانوا يعيشون عليها: لقد تكاثروا. فمقابل كل كائن بشري في عام ١٨٠٠٠ ق. م تقريبًا (ربما كان عددهم نصف مليون) كان هناك حوالي عشرة أشخاص في ١٠٠٠٠ ق. م.

اعتمدت الطريقة التي عايش بها البشر الاحتباس الحراري علىٰ مكان عيشهم. ففي النصف الجنوبي من الكرة الأرضية خففت المحيطات الكبيرة من أثر تغيُّر المناخ، ولكن الشمال شهد تباينات درامية. فبالنسبة إلىٰ الرعاة في حوض البحر الأسود (قبل تكوّن البحر)، كان الاحتباس كارثةً، وكانت الأمور أفضل قليلًا بالنسبة إلىٰ من يعيشون في السهول الساحلية، حيث استمتعوا ببعضٍ من أغنىٰ ثمار العصر الجليدي، ولكنَّ عالـمًا دافئًا كان يعني ارتفاع مستويات سطح البحر. وفي كل عام، كانوا يتراجعون عندما يغمر الموج المزيد من أراضي الصيد المتوارثة، حتىٰ ضاع كل شيء في النهاية. ولكن بالنسبة إلىٰ معظم الناس في نصف الكرة الشمالي كان التحرك لأعلىٰ في السلسلة العظمىٰ للطاقة خيرًا بحتًا، حيث تمكَّن البشر من تتبع النباتات والحيوانات شمالًا في المناطق التي كانت باردة جدًّا في السابق لتوفر لمثل هذه النباتات والحيوانات الدعمَ، وبحلول ١٣٠٠٠ ق. م (ثمة خلاف حول التاريخ الدقيق) انتشر البشر في كل أنحاء أمريكا، حيث لم يخطُ بدائي من قبل. وبحلول ١١٥٠٠ ق. م، وصل البشر إلىٰ الطرف الجنوبي للقارة، وتسلّقوا جبالها واندفعوا في غاباتها المطيرة، وورث البشر الأرض.

جنة عدن

عاش أكبر المستفيدين من الاحتباس الحراري في نطاق «خطوط العرض المحظوظة» الموجودة تقريبًا بين ٢٠ - ٣٥ درجة شمالًا في العالم القديم، وبين ١٥ درجة جنوبًا إلىٰ ٢٠ درجة شمالًا في العالم الجديد (انظر الشكل ٢ - ١). وقد تضاعفت النباتات والحيوانات التي تجمَّعت في هذه المنطقة المعتدلة خلال العصر الجليدي بشدة بعد عام ١٢٧٠٠ ق. م، خصوصًا علىٰ ما يبدو في كل طرف من أطراف آسيا، حيث تطورت الحبوب البريّة - التي أسلفت الشعير والقمح والجاودار (Rye: نوع نباتي يتبع جنس الشيلم من الفصيلة القبئية. له أسماء عدة منها الشيلم وجاودار وجويدار. تستخدم حبوبه لإنتاج الطحين (خبز الشيلم) وبعض أنواع المشروبات الكحولية بالإضافة لاستخدامه كعلفٍ للحيوانات، م) في جنوب غرب آسيا، والأرز والدخن في شرق آسيا - تطورت إلىٰ بذور كبيرة استطاع الرعاة غليها إلىٰ عصيدة أو طحنها وخبزها لصنع الخبز. وكان كل ما احتاجوا إلىٰ فعله هو الانتظار حتىٰ تنضج النباتات، وحينئذٍ يهزونها ويجمعون البذور. وتشير التجارب علىٰ الحبوب البرية الحديثة من جنوب غرب آسيا إلىٰ أنه كان ممكنًا استخراج طن من الحبوب الصالحة للأكل من فدّانين ونصف الفدان فقط؛ فكل سُعر حراري من الطاقة أُنفق علىٰ جمع المحصول كان يجني في المقابل خمسين سُعرًا حراريًا من الغذاء. لقد كان ذلك العصر الذهبي للأعلاف.

في العصر الجليدي كان الصيادون جامعو الثمار يجوبون الأراضي في جماعات صغيرة؛ لأنَّ الطعام كان شحيحًا، لكن أحفادهم الآن بدؤوا بتغيير

أساليبهم. فعلىٰ غرار أنواع الحيوانات المتعددة ذات الأدمغة الأكبر (سواء كنا نتحدث عن النحل، أو الدلافين، أو الببغاوات أو أقرب أقاربنا القرود)، يبدو أنَّ البشر يتكتلون معًا غريزيًّا. فنحن كائنات اجتماعية.

وربما أصبحت الحيوانات ذات الأدمغة الكبيرة كذلك؛ لأنَّها كانت ذكية بالقدر الكافي لتدرك أنَّ المجموعات لديها عيون وآذان أكثر من الأفراد، وأنَّها تُبلي بشكل أفضل في رصد الأعداء. أو ربما كما يشير بعض التطوريين، ظهر العيش في جماعات قبل الأدمغة الكبيرة، ممَّا بدأ ما يُسمّيه عالم الدماغ ستيفن بينكر: «سباق التسلح المعرفي»، حيث تكاثرت تلك الحيوانات التي توصلت إلىٰ ما تفكر فيه الحيوانات الأخرىٰ -بالحفاظ علىٰ إدراك الأصدقاء والأعداء، الذين شاركوا والذين لم يشاركوا- بما يفوق تكاثر تلك التي لم ترقَ أدمغتها إلىٰ مستوىٰ المهمة.

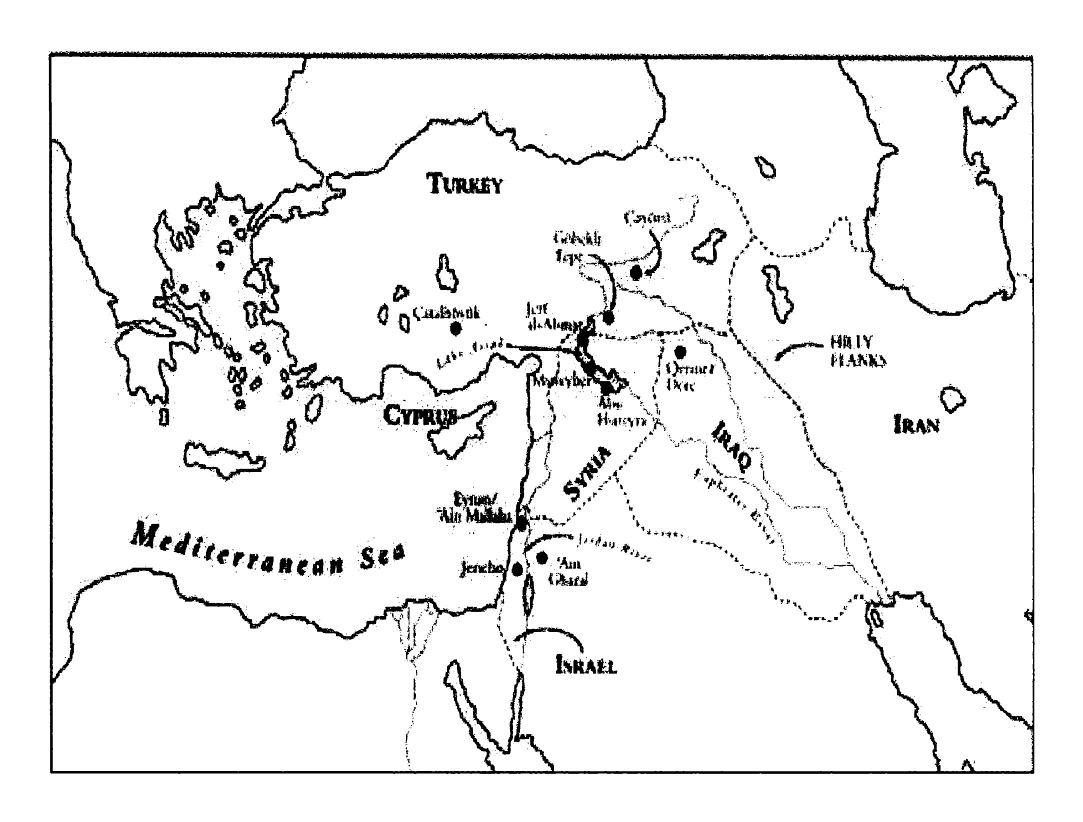
وفي أي من الحالتين، فقد نشأنا كي نحب بعضنا بعضًا، واختار أسلافنا أن يستغلُّوا انتقال الأرض لأعلىٰ في السلسلة العظمىٰ للطاقة عن طريق تشكيل مجموعات دائمة أكبر. وبحلول عام ١٢٥٠٠ ق. م لم يعد من الغريب رؤية أربعين أو خمسين شخصًا يعيشون معًا في خطوط العرض المحظوظة، وتخطت بعض المجموعات حاجز المائة.

في العصر الجليدي، كان البشر يميلون إلىٰ إقامة مخيمات، وأكل ما يمكنهم إيجاده من النباتات وقتل ما يمكنهم إيجاده من الحيوانات، ثمَّ الانتقال إلىٰ مكان آخر، ثم إلىٰ غيره. ونحن ما زلنا نتغنىٰ عن كوننا رجل الرحالة، الذي يتجول حرًّا مثل طير، وما إلىٰ ذلك، ولكن عندما جعلت السلسلة العظمىٰ للطاقة الاستقرار إمكانية جادة، كان خطاب العائلة والمنزل أقوىٰ بالنسبة إلينا. بدأ الناس في الصين في صنع الخزف (وهي فكرة سيئة إذا كنت تخطط لنقل قاعدة إقامتك كل بضعة أسابيع) في وقت مبكر مثل ١٦٠٠٠ ق. م، وفي الأراضي المرتفعة لبيرو كان الصيادون جامعو الثمار يبنون الجدران ويحافظون علىٰ نظافتها في حوالي ١١٠٠٠ ق. م، وهو سلوك غير مُجدٍ لبشر يتنقلون بكثرة، لكنَّه منطقي بالنسبة إلىٰ أي شخص عاقل يعيش في مكان واحد لأشهر متصلة.

ويأتي أوضح دليل علىٰ حدوث تكتل واستقرار ممَّا يطلق عليه علماء الآثار منطقة «هيلي فلانكس» (Hilly Flanks)، وهو قوس من منطقة منحنية حول أودية أنهار دجلة والفرات والأردن في جنوب غرب آسيا. وسأقضي معظم هذا الفصل متحدثًا عن هذه المنطقة التي شهدت الحركة الكبيرة الأولىٰ للإنسانية بعيدًا عن أنماط حياة الصيد وجني الثمار، وقد رافق ذلك ولادة الغرب.

يوفِّر موقع عين ملاحة في إسرائيل الحديثة (الشكل ٢ - ٣، المعروف أيضًا باسم: عينان) أفضل مثال علىٰ ما حدث. ففي حوالي عام ١٢٥٠٠ ق. م، بنىٰ شعب مغمور منازل دائرية مدفونة جزئيًا تحت سطح الأرض في هذا المكان، بلغ عرضها أحيانًا ٣٠ قدمًا، باستخدام أحجار للجدران، وبتشذيب جذوع الأشجار إلىٰ أعمدة لدعم الأسقف. وتظهر فضلات الطعام المحترقة أنَّهم كانوا يجمعون تشكيلة مذهلة من المكسرات والنباتات التي كانت تنضج في أوقات مختلفة من السنة، ويقومون بتخزينها في حُفر مبطنة بالجبس ومضادة للماء، وكانوا يطحنونها بهاونات حجرية. وقد خلّفوا عظام الأيائل والثعالب والطيور (وقبل كل شيء) الغزلان متناثرة حول القرية. يحب علماء الآثار أسنان الغزلان، والتي تمتلك ميزة إنتاج المينا (الطبقة الخارجية للأسنان، م) بألوان مختلفة في الصيف والشتاء، ممَّا يجعل من السهل معرفة الوقت من العام الذي مات فيه الحيوان. وفي عين ملاحة توجد أسنان باللونين، ما يعني علىٰ الأرجح أنَّ البشر عاشوا هناك علىٰ مدار السنة. ونحن لا نعرف أية مواقع معاصرة مثل ذلك الموقع في أي مكان في العالم خارج منطقة «هيلي فلانكس».

لا بُدَّ وأنَّ الاستقرار في مجموعات أكبر قد غيّر الطريقة التي يفهم الأشخاص بها بعضهم بعضًا والعالم من حولهم. ففي الماضي كان علىٰ البشر اتباع الغذاء، ومن ثمَّ التنقل باستمرار. ولا شكَّ أنَّهم حكوا قصصًا عن كل مكان توقفوا فيه: هذا هو الكهف الذي توفي فيه والدي، وهناك هو المكان الذي حرق فيه ابننا الكوخ، وذلك هو النبع حيث تتحدث الأرواح، وهكذا. لكن عين ملاحة لم تكن مكانًا واحدًا في دورة ما؛ فبالنسبة إلىٰ القرويين الذين كانوا يعيشون هنا، كانت عين ملاحة هي الموطن. فهنا ولدوا وكبروا وماتوا. وبدلًا من ترك موتاهم



(موضع الشكل ٢ - ٣). بداية الغرب: المواقع داخل منطقة هيلي فلانكس وحولها، أو التخوم ذات التلال شديدة التحدّر، التي تتم مناقشتها في هذا الفصل.

كما بدؤوا في القلق بشأن القذارة. كان رعاة العصر الجليدي فوضويين، يتركون أماكن تخييمهم مليئة بفضلات الطعام. ولمَ لا؟ ففي الوقت الذي سيدخل فيه الدود وتظهر فيه الحيوانات الكنّاسة، ستكون المجموعة قد رحلت بعيدًا، تبحث عن مصدرها التالي للغذاء. لكن القصة اختلفت في عين ملاحة، فلم يكن البشر يذهبون لأي مكان، وكان عليهم العيش مع قمامتهم. وقد عثر المنقّبون علىٰ الآلاف من عظام الفئران والجرذان في عين ملاحة - وهي حيوانات لم تكن موجودة بأشكالها التي نعرفها خلال العصر الجليدي. وقد كان علىٰ الحيوانات الكنّاسة أن تلائم فضلات البشر مع استراتيجية أوسع للتغذية. فقد كان ترك البشر للعظام والمكسرات علىٰ معظم أرضية الكهف بمثابة مكافأة لطيفة لها، لكن إذا حاولت أي جرذان بدائية الاعتماد علىٰ هذا المصدر الغذائي كليًا كانت ستموت جوعًا قبل أن يعود البشر بوقت طويل لملئها مجددًا.

لقد غيّرت القرىٰ الدائمة القواعد للقوارض. فأصبحت تلال القمامة الفوّاحة اللذيذة متاحة علىٰ مدار ٢٤ ساعة طوال أيام الأسبوع، وأصبحت الفئران والجرذان المتسللة التي أمكنها العيش في حضور البشر أفضل حالًا في هذا الوضع من مثيلاتها الكبيرة العنيفة التي كانت تجذب الانتباه. وفي غضون بضعة أجيال (سيُعدّ قرن بمثابة الكثير من الوقت، فالفئران في النهاية تتكاثر مثل الفئران) عدّلت القوارض من أنفسها چينيًا بالفعل لتعيش مع البشر. وحلّت الهوام المتسللة (المستأنسة) محل أسلافها الكبيرة (المتوحشة) بالكامل مثلما حل هومو سابينس محل النياندرتال.

وقد ردَّت القوارض المستأنسة هدايا القمامة اللانهائية بإفراغ أمعائها في الأغذية المخزنة والمياه، ممَّا أدىٰ إلىٰ تسريع انتشار المرض. وتعلّم البشر أن يكرهوا الجرذان فقط لهذا السبب، بل ويعتبر بعضنا الفئران مخيفة. لكنَّ الحيوانات الكنّاسة الأكثر رعبًا كانت الذئاب، الذين اعتبروا القمامة لا تقاوم. يرىٰ أغلب البشر عيوبًا في وجود وحوش مرعبة من نوع الوحوش في رواية (Call of the Wild) أو «نداء البرية» تجول في الأنحاء، وكذلك الأمر مع القوارض، الأصغر حجمًا والأقل تهديدًا والأكثر نجاحًا.

لقد افترض علماء الآثار لمدة طويلة أنَّ البشر قاموا بفاعلية بتدجين الكلاب، بجعل جراء الذئاب المروضة حيوانات أليفة، وتكثيرها لإنتاج جراء أكثر ترويضًا أحبوا البشر بالقدر الكبير نفسه غالبًا الذي أحب البشر به أنفسهم، ولكنَّ الدراسات الحديثة تشير إلىٰ أنَّ الانتقاء الطبيعي كان يعمل مجددًا دون تدخل من وعينا. وفي كلتا الحالتين، فإنَّ التفاعل بين الذئاب، والقمامة، والإنسان هو الذي أدىٰ لنشأة الحيوانات التي نسميها بالكلاب، والتي استطاعت أن تقتل القوارض التي تنافست معها علىٰ الفضلات واستطاعت حتىٰ القتال مع ذئاب حقيقية، ممَّا أكسبها مكانتها بوصفها أفضل صديق للرجل. والمرأة أيضًا: ففي حوالي عام ١١٠٠٠ ق. م، دُفنت امرأة مُسنَّة في عين ملاحة وإحدىٰ يديها متكئة علىٰ كلب، وقد ركن أحدهما إلىٰ الآخر كما لو كانا نائمين.

الخبز اليومي

في مقدمة هذا الكتاب قمتُ بإطالة عبارة كاتب الخيال العلمي روبرت هينلين المصاغة في جملة واحدة والقائلة بأنَّ «التقدم يحرزه أناس كُسالىٰ يبحثون عن سبل أسهل للقيام بالأشياء» إلىٰ نظرية اجتماعية تقول بأنَّ التاريخ يصنعه أناس كُسالىٰ وجشعون وخائفون يبحثون عن طرق أسهل وأكثر ربحًا، وأكثر أمانًا لإنجاز الأشياء، وهم نادرًا ما يدركون ما يفعلون. وقد دخل هذا المبدأ حيِّز التنفيذ بشكل انتقامي في منطقة «هيلي فلانكس» في نهاية العصر الجليدي، ممَّا أوجد أسلوبَ حياةٍ غربيًا مميَّزًا، مع تطور اجتماعي أكثر من أي جزء آخر من العالم.

يمكننا أن نمدح (أو أن نلقي باللوم) علىٰ النساء في ذلك الشأن، ففي مجتمعات الصيد وجمع الثمار الحديثة تقوم النساء بمعظم أعمال جمع المحصول، بينما يقوم الرجال أكثر بالصيد. وعن طريق الاستدلال من ميل قبور الرجال لأن تحتوي علىٰ أسنّة ورماح بشكل أكبر، بينما تحتوي قبور النساء علىٰ أدوات طحن بشكل أكبر، فقد كانت الأشياء مشابهة أيضًا في عصور ما قبل التاريخ، ممَّا يشير إلىٰ أن الإجابة علىٰ السؤال الذي هيمن علىٰ هذا الكتاب حتىٰ الآن -متىٰ وأين ينبغي أن نبدأ الحديث عن أسلوب حياة غربي متميِّز عن غيره من الأساليب- قد نشأت من إبداع النساء اللاتي عشن في منطقة «هيلي فلانكس» منذ حوالي ١٥ ألف سنة.

الحبوب البرية هي نباتات سنوية؛ بمعنىٰ أنَّها تنمو، وتنتج بذورًا وتموت في موسمٍ واحد، ثم تنمو بذورها إلىٰ نباتات جديدة في العام المقبل. وعندما ينضج

نبات ما، تضعف العروق (وهي الأعناق التي تربط البذور بالنبات)، وتسقط البذور علىٰ الأرض الواحدة تلو الأخرىٰ، حيث تتهشم قشرتها الحامية وتتبرعم البذور. وبالنسبة إلىٰ الرعاة منذ حوالي ١٥ ألف سنة، فقد كانت أبسط طريقة لجني تلك البذور هي أخذ سلة النباتات وهزّها بحيث تقع البذور شبه الناضجة في تلك السلّة. وكانت المشكلة الوحيدة هي أنَّ كل البذور في كل نبات بري في كل حامل كانت تنضج في أوقات مختلفة. فإذا أتىٰ جامعو الثمار إلىٰ الحامل في أواخر الموسم، فإنَّ معظم البذور ستكون قد سقطت وأنبتت بالفعل أو أكلتها الطيور. أما إذا جاؤوا في وقت مبكر جدًّا، فسيظل العنق قويًا وستكون معظم البذور ممسوكة بإحكام يستعصي علىٰ إيقاعها بالهز. وفي كلتا الحالتين كانوا يفقدون معظم المحصول. وكان يمكن بالطبع زيارة الحامل مرارًا، ولكن هذا كان سيجعل لديهم وقتًا أقل لزيارة الحوامل الأخرىٰ.

نحن لا نعرف ما إذا كان الكسل (عدم الرغبة في السير من حامل إلىٰ حامل)، أم الجشع (الرغبة فقط في المزيد من الغذاء)، أم الخوف (من الجوع أو من أن يصل شخص آخر إلىٰ الحامل أولًا) كان هو الملهم، ولكن شخصًا ما - علىٰ الأرجح امرأة- أتته فكرة ألمعية: لماذا لا يتم أخذ بعض أفضل البذور وإعادة زرعها في بقعة خصبة بشكل خاص؟ حينئذٍ اعتقدت مثل تلك المرأة فرضيًا أننا إذا اعتنينا بتلك البذور -بتقليب التربة واجتثاث الأعشاب الضارة وربما حتىٰ بريّ النباتات- فربما يمكننا أن نعتمد عليها في أن تظل موجودة كل سنة، وأن تعطينا غلات أفضل. الحياة جميلة.

ومرة أخرىٰ، فإنَّ أقدم الشواهد المباشرة علىٰ هذا يأتي من منطقة «هيلي فلانكس»، ونحن نشكر -بشكل غير مباشر- حزب البعث علىٰ ذلك. ويشتهر البعثيون بأنهم الحركة السياسية الدموية لصدام حسين في العراق، لكنَّهم استولوا علىٰ السلطة لأول مرة في سورية المجاورة في عام ١٩٦٣م. وبعد التخلص من منافسيهم باشروا بتحديث سورية، فأنشؤوا سدًا علىٰ نهر الفرات لإنشاء بحيرة الأسد بطول خمسين ميلًا والتي تولد الآن معظم كهرباء سورية، وكان إنشاء السد جزءًا كبيرًا من عملية التحديث. تُوقع أن السد سيؤدي إلىٰ إغراق قلب منطقة

«هيلي فلانكس»، فأطلقت المديرية العامة السورية للآثار حملة عالمية لدراسة المواقع التي سوف تُدمَّر جراء بناء السد. وفي عام ١٩٧١م استكشف فريق بريطاني منطقة تل أبي هريرة، ودلّت الاكتشافات علىٰ السطح علىٰ وجود قرية هناك منذ حوالي ٧٠٠٠ عام ق. م، ووثَّق الأثريون ذلك في تفصيل ثريّ؛ ولكن أحد الخنادق الحفرية أظهر أن هذه القرية بُنيت علىٰ أنقاض مستوطنةٍ قديمة تعود إلىٰ ١٢٧٠٠ سنة قبل الميلاد.

وكانت تلك مكافأة كبرىٰ. لقد سابق الحفارون الزمن في ظل ارتفاع مياه الفيضانات، وتسابقوا ضد الحرب أيضًا، حيث جنّد الجيش السوري العمّال السوريين إلزاميًا لقتال إسرائيل في حرب ١٩٧٣م. وفي الوقت الذي غرق فيه الموقع، كان الفريق قد حفر ما يزيد قليلًا علىٰ ٥٠٠ قدم مربع من القرية الأقدم التي احتلت مساحة صغيرة، ولكنَّها كانت الأهم في علم الآثار. وقد وجدوا أكواخًا دائرية شبه مدفونة تحت الأرض وأحجارًا للطحن، ومواقد، وآلاف البذور المتفحمة. جاء معظمها من الأعشاب البرية، باستثناء حفنة من بذور الجودار المنتفخة والثقيلة.

وتدل هذه البذور علىٰ أنَّ الناس في تل أبي هريرة كانوا يستخدمون مجارف لحرث الحقول. لقد كانوا يزرعون البذور تحت السطح بدلًا من إسقاطها فقط عليه، وحبَّذ هذا الفعل شتلات أكبر يسهل عليها أن تشق طريقها صعودًا إلىٰ الهواء، مقابل البذور الأصغر التي تجد صعوبة في ذلك. وإذا كان مُزارعو ما قبل التاريخ يأكلون ببساطة كل شيء يزرعونه، لما كان ذلك الأمر سيهم، ولكن إذا كانوا يخزّنون بعض البذور لزراعتها مجددًا في السنة القادمة، فسوف تكون البذور الكبيرة أكثر في الموقع. في البداية لن يكون الفرق ملحوظًا، ولكن إذا كرر المزارعون ذلك بشكل كافٍ، فسوف يغيِّرون تدريجيًّا معنىٰ «المعتاد»، بينما يزيد متوسط حجم البذور شيئًا فشيئًا. يطلق علماء الآثار النباتية (الأشخاص الذين يدرسون بقايا النباتات القديمة) علىٰ هذه البذور الأكبر اسم: «البذور المزروعة» (cultivated)؛ لتمييزها عن الحبوب البرية وتلك المدجنة بالكامل التي نأكلها اليوم.

وفي الوقت الذي دفن فيه سكان عين الملاحة المرأة العجوز وكلبها الصغير عام ١١,٠٠٠ ق. م تقريبًا، كان سكان تل أبي هريرة يعيدون زراعة الجاودار بكثرة بحيث منحهم ذلك بذورًا أكبر حجمًا. لا بُدَّ وأن هذا الأمر بدا شيئًا هينًا في ذلك الوقت، ولكنَّه دلَّ علىٰ (وسأستخدام إحدىٰ أسوأ التوريات التي يمكن أن يستخدمها عالم آثار) البذرة التي سينمو منها الغرب.

علىٰ بُعد نصف الكوكب، ظلَّت الكتل الجليدية تذوب، غير مبالية بالكلاب وحبوب الجاودار. منذ مائة ألف سنة أدىٰ تقدم تلك الكتل إلىٰ صقل أمريكا الشمالية، ممَّا أنشأ التسطيح الواسع للغرب الأوسط؛ وقد أدىٰ انحسارها الآن إلىٰ تحويل هذه السهول المشجَّرة إلىٰ فوضىٰ مُستنقعية موبوءة بالناموس، يُسميها علماء البيئة بالغابات السكّيرة - تصبح الأرض مُبتلَّة جدًّا لدرجة لا تتمكن معها الأشجار أن تقف قائمة بلا ميل. وقد حبست نتوءات الصخور والجليد التي لم تذب بعد، الجريان السطحي الناتج عن ذوبان الكتل الجليدية في البحيرات الضخمة. وأطلق الجيولوجيون اسم (أجاسي) علىٰ أكبر هذه البحيرات (الشكل ٢ - ١) علىٰ اسم العالم السويسري الذي كان أول من أدرك في ثلاثينيات القرن التاسع عشر أنه لا بُدَّ وأن كانت هناك عصور جليدية عالمية. وبحلول عام ١٠٨٠٠ ق. م كانت بحيرة أجاسي تغطي ربع مليون ميل مربع من السهول الغربية، أي: ما يُعادل أربع مرات مساحة بحيرة سوبيريور الحديثة. ثم حدث الأمر الحتمي: أدىٰ ارتفاع درجات الحرارة وارتفاع مستوىٰ المياه إلىٰ تقويض الكتل الجليدية التي كانت تُبقىٰ علىٰ وضع البحيرة.

وكان انهيارها بمثابة فاجعة امتدت لفترة طويلة، في تباين صارخ مع العديد من قصص الكوارث الحديثة. في فيلم "he Day After Tomorrow" أو (بعد غد) الذي لا يُصدَّق بشكل مثير للإعجاب -علىٰ سبيل المثال- يقوم دينيس كوايد بدور العالم چاك هول، الذي لاحظ (وكان الوحيد الذي فعل علىٰ ما يبدو) أنَّ الاحتباس الحراري سوف يتسبب في انهيار الغطاءات الجليدية في اليوم التالي.

وباستدعائه إلىٰ البيت الأبيض، فإنَّه يخبر الرئيس بأنَّ عاصفة عظيمة علىٰ وشك أن تخلق درجات حرارة تبلغ ١٥٠ درجة فهرنهايت، مُحوِّلة تيار الخليج الذي يغمر سواحل أوروبا الشمالية بالمياه الاستوائية، ويمنع أن تحصل لندن في إنجلترا علىٰ شتاء مثل لندن في أونتاريو. ويصرّ هول علىٰ أنَّ تلك العاصفة سوف تُفضي إلىٰ عصر جليدي جديد، ممَّا سيجعل معظم أمريكا الشمالية غير قابلة للسكن. وليس من المستغرب أن يكون الرئيس شاكًّا في الأمر، ومن ثمَّ لا تُتخذ أية إجراءات. وبعد ساعات قليلة تندلع العاصفة، ويحتجز ابن هول في نيويورك، ومن ثَمَّ تبدأ الأعمال البطولية في الظهور.

لن أفسد عليكم الفيلم بإخباركم بنهايته؛ إلَّا أنَّني سأقول إنَّه عندما حوَّلت بحيرة أجاسي حقًّا اتجاه تيار الخليج حوالي عام ١٠٨٠٠ ق. م، تطورت الأمور بشكل مختلف إلىٰ حدٍّ ما، فلم تكن هناك عاصفة شديدة، ولكن لمدة اثني عشر عامًا، بينما كانت البحيرة تصرف في المحيط الأطلنطي، تردّىٰ العالم إلىٰ ظروف العصر الجليدي. (يسمي علماء الجيولوجيا الفترة من ١٠٨٠٠ ق. م، و٩٦٠٠ ق. م بـ «ينجر درياس» (Younger Dryas) علىٰ اسم الأوراق التويجية المشبعة بالمياه لزهرة صغيرة تسمىٰ بـ «درياس القطبية» الشائعة في مستنقعات الخث الآن). وجعلت الحبوب البرية التي ظلت تغذي القرىٰ الدائمة في منطقة «هيلي فلانكس»، أكوام القمامة ممكنة، ومنحتنا الفئران والكلاب؛ وأصبحت الآن تنمو بشكلٍ أقل كثافة وأسفرت عن بذور أقل في الحجم والعدد.

لقد طُردت البشرية من جنة عدن. وبتخلِّيهم عن القرىٰ علىٰ مدار السنة، انقسم معظم الناس إلىٰ مجموعات أصغر، وعادوا إلىٰ التجوال في سفوح التلال بحثًا عن وجبتهم التالية، مثل أسلافهم إلىٰ حدٍّ كبير في أبرد مرحلة من العصر الجليدي. وتُظهر عظام الحيوانات من منطقة «هيلي فلانكس» أنَّ الغزلان أصبحت أصغر بحلول ١٠٥٠٠ ق. م قبل الميلاد؛ لأنَّ الناس كانوا يصطادونها بزيادة، وأنَّ طبقة المينا علىٰ الأسنان البشرية كانت بها نتوءات دالة بشكل منتظم، تشير إلىٰ سوء تغذية مزمن لدىٰ الأطفال.

لم تكن هناك أبدًا كارثة أخرىٰ بهذا الحجم، ولإيجاد واحدة مشابهة فيجب علينا -في الحقيقة- أن نلجأ إلىٰ الخيال العلمي. في عام ١٩٤١م، نشر إسحاق أسيموف (Isaac Asimov) في بدء حياته المهنية، قصة تُسمَّىٰ «الغسق» (Nightfall) في مجلة الخيال العلمي المدهش (Astounding Science Fiction)، وبدأ قصته في «لاجاش»، وهو كوكب لديه ست شموس. أينما ذهب سكان الكوكب توجد علىٰ الأقل شمس مشرقة، والنهار دائم، باستثناء مرة واحدة كل ٢٠٤٩ عامًا، حين تتعامد الشموس الست تمامًا مع قمر يمر؛ ليحدث كسوف، وحينئذٍ تظلم السماء، وتظهر النجوم، ويُصاب الناس المذعورون بالجنون. وفي الوقت الذي ينتهي فيه الكسوف يكون السكان قد دمروا حضارتهم وغرقوا في الوحشية. وعلىٰ مدىٰ الـ ٢٠٤٩ سنة التالية يعيد سكان الكوكب بناء حضارتهم ببطء إلىٰ أن يهبط الظلام مجددًا، وتبدأ العملية برمتها من جديد.

تبدو فترة «ينجر درياس» مثل «الغسق» مع تعديل: يُولِّد مدار الأرض تأرجحًا مُفْرطًا بين التجمد والذوبان، والذي ينتج عنه -كل بضعة آلاف من السنين- كوارث مثل تجفيف بحيرة أجاسي، ممَّا يمحو صفحة التاريخ. وعلىٰ الرغم من أن «الغسق» قصة رائعة (صوَّت كُتَّاب الخيال العلمي في أمريكا علىٰ كونها أفضل قصة خيال علمي في كل الأزمنة، ولقيمتها حازت علىٰ صوتي أيضًا)، فهي ليست نموذجًا جيدًا للتفكير التاريخي، ففي العالم الواقعي لا يمكن أن تمحو فترة «ينجر درياس» كل شيء مثلما حدث في «الغسق». ويجدر بنا -في الحقيقة- اتباع المفكر الإغريقي هرقليطس، الذي نبّه قبل ٢٥٠٠ سنة من وقت جلوس أسيموف للكتابة، إلىٰ أنَّه «لا يمكنك أن تخطو في النهر نفسه مرتين». إنَّها مفارقة شهيرة: فالمرة الثانية التي تضع فيها قدمك في مجرىٰ المياه، فإنَّ المياه التي جعلتها تضطرب ابتداء قد تدفقت إلىٰ البحر، ولم يعد النهر هو نفسه بعد ذلك.

وبالطريقة نفسها، لا يمكن أن تحصل علىٰ العصر الجليدي نفسه مرتين. لم تعد المجتمعات في منطقة «هيلي فلانكس»، عندما انهارت بحيرة أجاسي في ١٠٨٠٠ ق. م، المجتمعات نفسها التي تواجدت هناك خلال العصر الجليدي

السابق. وخلافًا لسكان كوكب لاجاشيا، لم يفقد الأرضيون صوابهم عندما قلبت الطبيعة العالم رأسًا علىٰ عقب. وبدلًا من ذلك، طبَّقوا مهارة بشرية هي الابتكار، وبنوا علىٰ أساسها ما قاموا بفعله بالفعل؛ لذلك لم تعد فترة «ينجر دریاس» عقارب الساعة إلىٰ الوراء، ولا شيء أبدًا يفعل ذلك.

ويُشير بعض علماء الآثار إلىٰ أنَّ فترة «ينجر درياس» -بعيدًا عن كونها لحظة غسق- سرَّعت بالفعل سيرورة الابتكار. ومثل جميع التقانات العلمية، فإنَّ تلك التي استُخدمت لتأريخ أول بذور جاودار مزروعة من تل أبي هريرة لديها هوامش للخطأ بالضرورة. ويشير مُنقِّبو الموقع إلىٰ أنَّه في حين تقع متوسطات المدىٰ التاريخي لبذور الجاودر الكبيرة المذكورة آنفًا عند حوالي ١١٠٠٠ ق. م، قبل فترة «ينجر درياس»، فمن الممكن أنَّه قد تم حصادها بعد ٥٠٠ عام لاحقة، بعد بدء فترة «ينجر درياس». وربما لم يكن الكسل أو الطمع هما اللذان دفعا نساء تل أبي هريرة للتعهد ببذور الجاودار؛ ربما كان الخوف. فبينما انخفضت درجات الحرارة وتضاءلت الأغذية، ربما أجرىٰ سكان تل أبي هريرة تجارب في تلك الفترة، واكتشفوا أنَّ تعهُّد البذور بالرعاية أنتج بذورًا أكثر وأكبر حجمًا. فمن ناحية، أدىٰ البرد والطقس الجاف إلىٰ صعوبة زراعة الحبوب؛ ومن ناحية أخرىٰ، زاد الطقس من الحوافز علىٰ فعل ذلك. ويتخيَّل بعض علماء الآثار الرعاة في عصر «ينجر درياس» وهم يحملون أكياسًا من البذور، وينثرونها في أماكن تبدو واعدة باعتبار ذلك تأمينًا ضد خذلان الطبيعة لهم.

وسيُبيّن مزيد من الحفر ما إذا كان هذا صحيحًا أم لا، غير أنَّنا نعرف بالفعل أنْ ليس جميع من في منطقة «هيلي فلانكس» استجاب للكوارث المناخية بالعودة للتنقل بحثًا عن الغذاء. في تل المريبط الواقع أعلىٰ النهر من تل أبي هريرة، عثر المنقِّبون الفرنسيون علىٰ قرية جديدة أُنشئت في عام ١٠٠٠٠ ق. م. وكشفوا فقط خمسة وعشرين قدمًا مربعًا من المستويات الأولية قبل أن تبتلع بحيرة الأسد هذا الموقع أيضًا، لكنَّه كان كافيًا لإظهار أنَّ القرويين قد جمعوا بصعوبة نباتات بريّة وغزلانًا كي يصمدوا علىٰ مدار العام. وفي بيت يعود تاريخه إلىٰ ١٠٠٠٠ ق. م - ٩٥٠٠ ق. م توصَّل علماء الآثار إلىٰ اكتشاف مفاجئ وغير

متوقع: قرون حيوان أُرخص بري مغروسة في مقعد طيني، وحيوان الأُرخص هو السلف البري للثور الحديث، بالإضافة إلىٰ عظمتي كتف لحيواني أُرخص آخريْن.

لم يُسفر أي موقع قبل فترة «ينجر درياسْ» عن شيء غريب كهذا، ولكن بعد ١٠٠٠٠ ق. م امتلأت القرىٰ بجميع أنواع الأشياء المدهشة. علىٰ سبيل المثال: منطقة كيرميز دير (Qermez Dere) في شمال العراق التي تم كشفها بواسطة أعمال الحفر باستخدام جرَّافات في عام ١٩٨٦م. وكان ممكنًا حفر خندقين فقط، أحدهما: كشف عن منطقة لإعداد الأغذية البرية مثل تلك المعروفة من عين ملاحة أو تل أبي هريرة. والخندق الآخر: لم يُظهر أي دليل علىٰ أنشطة تدجينية. وبدلًا من ذلك، فقد احتوىٰ علىٰ تسلسل من ثلاث حجرات دائرية، عرض كل منها يتراوح من ١٢ إلىٰ ١٥ قدمًا، وتمتد لخمسة أقدام تحت مستوىٰ الأرض القديمة. كانت الحجرة الأولىٰ مُجصصة، وتم تثبيت أربعة أعمدة في صف في الأرض، وكانت الأعمدة قريبة جدًّا من بعضها البعض، حتىٰ إنَّه كان من الصعب السير داخل الحَجرة. وقد عُثر علىٰ أحد الأعمدة في حالة سليمة: فكان مُقولبًا بالطين والجص، ويقع علىٰ جسم حجري، وقرب القمة استدق العمود وكانت به بروزات غريبة، ممَّا جعله يبدو نسقًا بشريًا ذا جسم وأكتاف وبطن. وقد مُلئت الحجرة -عن عمد واضح- بعدة أطنان من التراب، احتوىٰ علىٰ عدة مجموعات من عظام الحيوانات الكبيرة والأجسام الغريبة التي تشبه حبّاتٍ حجرية. وحُفرت حجرة جديدة، تمامًا مثل الغرفة الأولىٰ، وفي الموقع نفسه؛ وكانت أيضًا مجصصة ومملوءة بالتراب. ثم حفرت حجرة ثالثة في المكان نفسه، وجصصت، ثم مُلئت بالتراب. وبعد إلقاء سلال قليلة من التربة في تلك الحجرة الأخيرة، وضع الأفراد الذين بنوا تلك الحجرات ست جماجم بشرية، تنقصها عظام الفك، فوق الأرض بقليل. كانت الجماجم في حالة سيئة، ممَّا يشير إلىٰ أنَّها كانت متداولة لفترة طويلة قبل أن يواريها الثرىٰ هنا.

تُرىٰ ما الذي كان يفعله هؤلاء البشر؟ ثمة مزحة قائمة بين علماء الآثار بأنَّنا عندما لا نستطيع أن نحدد ما استخرجناه من الحفر، نقول حينئذٍ: إنَّه عمل ديني، (وكوني لتوي قد انتهيت من حفر موقع في صقلية أعتقد أنه عمل ديني؛ فإنني

يجب أن أعترف بأنني لم أعد أعتبر هذه المزحة مضحكة جدًّا بعد الآن). فالمشكلة -بالطبع- هي أنَّنا لا نستطيع أن ننبش معتقدات الماضي مثل الآثار. ومع ذلك، فهذا لا يعني أنَّ الأثريين يختلقون الأمور عندما يتحدثون عن الدين في فترة ما قبل التاريخ.

وإذا أخذنا في الاعتبار تعريفًا عمليًا ومعقولًا جدًّا للدين، وهو أنَّه الإيمان بكينونات قوية، وخارقة وعادة ما تكون غيبية، تهتم لأمر البشر وتتوقع منهم الاهتمام بها (ويبدو أنَّ التعريف ينطبق علىٰ مجتمعات كثيرة حتىٰ إنَّ بعض علماء النفس التطوري يعتقدون أنَّ الدين راسخ في المخ البشري)؛ فينبغي لنا أن نتمكن من التعرُّف إلىٰ -إن لم يكن بالضرورة فهم- آثار الطقوس التي اتصل من خلالها البشر بعالم إلهي.

من المعروف أنَّ الطقوس ذات خصوصية ثقافية، فتبعًا لزمانك ومكانك ربما يستجيب لك الأقوياء فقط إذا قمت بسكب دماء ماعز أبيض حيّ علىٰ الجانب الأيمن من تلك الصخرة علىٰ وجه الخصوص؛ أو إذا خلعت حذاءك، وركعت وصليت في هذا الاتجاه؛ أو إذا أخبرت رجلًا في لباس أسود لا يمارس الجنس عن آثامك، وهكذا. هذه قائمة لا نهاية لها. وبالرغم من التنوع العجيب للطقوس فإنَّ لديها أشياء معينة مشتركة. فالعديد منها يتطلب أماكن خاصة (قمم الجبال والكهوف والمباني غير التقليدية)، وأجسامًا (صورًا وتماثيل وسلعًا قيّمة أو أجنبية)، وحركات (مواكب وحجًّا)، وملابس (رسمية بشكل كبير ومتواضعة بالكلية)، ويذكي كل ما سبق الإحساس بالخطو خارج الحياة اليومية. وتُعد الولائم، التي كثيرًا ما تنطوي علىٰ الأطعمة الغريبة، شائعة في الدين، وكذلك الصيام الذي يؤدي إلىٰ تغيُّر في حالات الدماغ. يقوم كل من الحرمان من النوم والألم والترانيم المتكررة والرقص أو العقاقير (المفضلة) كلها بالشيء نفسه، وقد تُدخل الأناس المقدسين حقًّا في انتشاءات روحية ونوبات ورؤىٰ.

تحتوي هذه المواقع علىٰ كل شيء: حجرات غريبة تحت الأرض، وأعمدة تشبه البشر، وجماجم من دون عظام الفك، وبينما يُعدّ كل شيء في علم الآثار المتعلق بالدين تخمينيًّا؛ فإنَّه يصعب عليَّ ألَّا أعتبر تلك الأشياء استجابات دينية

لفترة «الينجر درياس». فقد كان العالم يتجمد والنباتات تموت والغزلان تختفي؛ فما الذي كان سيبدو أكثر طبيعية من دعاء الآلهة والأرواح والأجداد طلبًا للمساعدة؟ وما الذي قد يكون أكثر منطقية من تحديد أناس مميزين وإنشاء أماكن خاصة لتسهيل الاتصال؟ يبدو الضريح في «كيرمز دير» مثل مكبر للصوت، يرفع الصوت عند طلبات المساعدة.

لذلك عندما ارتفعت درجات الحرارة في العالم في نهاية فترة «ينجر درياس» حوالي ٩٦٠٠ ق. م، لم تعد منطقة «هيلي فلانكس» كما كانت عندما ارتفعت درجة الحرارة في العالم في نهاية العصر الجليدي الرئيس، قبل ذلك بثلاثة آلاف سنة. ولم يدخل الاحتباس الحراري المجتمع نفسه مرتين. وتعطي المواقع من الفترة السابقة للاحتباس الحراري، مثل «عين ملاحة»، الانطباعَ بأنَّ الناس كانوا ينتفعون بسعادة بخيرات الطبيعة، ولكن في القرىٰ التي ظهرت حول هيلي فلانكس بعد ٩٦٠٠ ق. م أدخل البشر موارد مهمة في الدين. فهناك مواقع كثيرة تعود إلىٰ بعد عام ٩٦٠٠ ق. م بها أدلة علىٰ المعالجة الدقيقة لجماجم البشر وحيوان الأرخص، ولدىٰ العديد من تلك المواقع حجرات كبيرة تحت الأرض تشبه أماكن العبادة الجماعية. وفي الجرف الأحمر في سورية، الذي يهجع الآن إلىٰ جانب العديد من المواقع الأخرىٰ تحت مياه بحيرة الأسد، عثر الأثريون الفرنسيون علىٰ عشرة بيوت متعددة الحجرات حول حجرة كبيرة تحت الأرض. واستقرت جمجمة بشرية علىٰ مقعد، وفي وسط الغرفة كان ثمة هيكل عظمي بلا رأس. وبدا ذلك بشكل مزعج وكأنَّه قربان بشري.

كان أروع شيء هو موقع (كوبيكلي تبه) (Göbekli Tepe)، المتمركز علىٰ قمة تل مع مناظر رائعة عبر جنوب شرق تركيا. منذ عام ١٩٩٥م كشف المنقبون الألمان والأتراك عن أربع حجرات مغمورة يصل عمقها إلىٰ ١٠ أقدام، وعرضها إلىٰ ٣٠ قدمًا، ويعود تاريخها إلىٰ عام ٩٠٠٠ ق. م، أو حتىٰ قبل ذلك. وعلىٰ غرار أصغر الحجرات وأقدمها في كيرمز دير، مُلئت كل حجرة عن عمد. واحتوت كل منها علىٰ أعمدة حجرية علىٰ شكل (حرف T)، وصل طول بعض هذه الأعمدة إلىٰ حوالي سبعة أقدام، وزُيّنت بحيوانات منقوشة. وقد أظهر

المسح الچيومغناطيسي أنَّ هناك ١٥ حجرة أخرىٰ لم يتم الكشف عنها، وربما كان هناك مائتان من الأعمدة الحجرية في الموقع بالكلية، يزن الكثير منها ما يزيد عن ثمانية أطنان. وقد عُثر علىٰ عمود يبلغ طوله عشرين قدمًا وغير مكتمل في محجر، وقد بلغ وزنه خمسين طنًا.

لم يبنِ البشر كل هذا بشيء أكثر تعقيدًا من أدوات من الجرانيت. وعلىٰ الرغم من أنَّنا لن نعرف أبدًا لماذا كان هذا التل مقدسًا جدًّا، فمن المؤكد أنَّه يشبه معبدًا محليًا، وربما مكان لإقامة المهرجانات حيث تجمع مئات الأشخاص لعدة أسابيع في وقت ما، ينحتون الأعمدة، ويسحبونها إلىٰ الحجرات، ويضعونها في وضع عمودي. لكن ثمة حقيقة أكيدة: لم يحدث من قبل في التاريخ أن عملت مثل هذه المجموعات الكبيرة معًا.

لم يكن البشر ضحايا سلبيين لتغيُّر المناخ، فقد استخدموا إبداعهم، وعملوا لجعل الآلهة والأجداد مستعدين لمكافحة الشدائد. وفي الوقت الذي يشك فيه معظمنا أنَّ هذه الألهة والأجداد كانت موجودة بالفعل، فربما قامت الطقوس بعمل جيد بأي حال من الأحوال باعتبارها نوعًا من الغراء الاجتماعي. كان البشر الذين اعتقدوا اعتقادًا صادقًا أنَّ الطقوس الكبيرة في الأضرحة المُنعمة ستفوز بعون الآلهة، كانوا بالأحرىٰ يخرجون من تلك المواقف الصعبة ويتآزرون مع بعضهم البعض مهما كانت الأوقات عصيبة.

وبحلول عام ١٠٠٠٠ ق. م تميَّزت منطقة «هيلي فلانكس» عن بقية العالم. وظل معظم البشر في معظم الأماكن يتنقلون بين الكهوف والمخيمات، مثل تلك التي نُقِّب عنها منذ عام ٢٠٠٤ في لونجوانكان في الصين، حيث كانت الآثار الوحيدة الباقية لنشاطهم هي دوائر صغيرة من التربة المحترقة من المخيمات. وربما تكون قطعة محطمة من الطَفل الصفحي (shale: هو صخر رسوبي فتاتي دقيق الحبيبات صفائحي، يتركب أساسًا من الصلصال الممزوج ببعض أجزاء المعادن أهمها معادن الطفل، ومعدن المرو والكالسيت، م) من هذا الموقع مجرفة حجرية بسيطة، وربما تشير إلىٰ أنَّ زراعة المحاصيل قد بدأت، ولكن لا يوجد مثيل لبذور الجاودار الممتلئة في تل أبي هريرة، فضلًا عن آثار مريبط أو

كيرمز دير. وإن أكبر بناء معروف في الأمريكتين هو كوخ صغير من شجيرات منحنية مغطاة بالجلود، تم الكشف عنه بواسطة منقّبين يتسمون بالدقة في مونتي ڤيردي في تشيلي؛ بينما في الهند كلها لم يتمكن علماء الآثار من العثور علىٰ القدر الكبير، وتُعدّ شذرات من الأدوات الحجرية هي الآثار الوحيدة للنشاط البشري هناك. لقد كان هناك عالم غربي مميز آخذ في التشكل.

الفردوس المتحوِّل

بحلول عام ٩٦٠٠ ق. م ارتفعت درجات الحرارة علىٰ الأرض مرة أخرىٰ، وفي هذه المرة كان سكان «هيلي فلانكس» يعرفون بالفعل كيفية الاستفادة من الأعشاب إلىٰ أقصىٰ درجة. وسرعان ما استأنفوا الزراعة (علىٰ أية حال، وفق معايير الأزمنة السابقة). وبحلول عام ٩٣٠٠ ق. م كانت بذور القمح والشعير من مواقع في وادي الأردن أكبر حجمًا بشكلٍ ملحوظ من أمثالها البريّة، وكان الناس يعالجون أشجار التين لتحسين محاصيلها. لقد ظهرت أكبر صوامع الغلال المعروفة، وحجرات التخزين الطينية التي يبلغ عرضها عشرة أقدام، وطولها عشرة أقدام أيضًا، في وادي الأردن في عام ٩٠٠٠ ق. م، وعندئذٍ كانت الزراعة تتطور في ما لا يقل عن سبعة جيوب في منطقة «هيلي فلانكس»، من إسرائيل الحديثة حتىٰ جنوب شرق تركيا، وبحلول عام ٨٥٠٠ ق. م غدت الحبوب كبيرة الحجم اعتيادية في جميع أنحاء المنطقة.

كانت التغييرات بطيئة جدًّا بالفعل وفق المعايير الحديثة، ولكن علىٰ مدىٰ السنوات الألف التي تلت، جعلت تلك التغييرات من منطقة «هيلي فلانكس» منطقة متميِّزة علىٰ نحو متزايد عن أي جزء آخر في العالم. كان الناس في هذه المنطقة -بغير إدراك منهم- يحوّرون النباتات جينيًا، لإنشاء محاصيل مدجنة بالكامل لا يمكنها التكاثر دون مساعدة إنسانية. ومثل الكلاب، فإنَّ هذه النباتات قد احتاجت إلينا بقدر ما احتجنا إليها.

تتطور النباتات -مثل الحيوانات- بسبب الطفرات العشوائية التي تحدث عند نسخ الحمض النووي من جيل إلىٰ الجيل التالي. وبين الفينة والفينة تزيد الطفرة

من فرصة النبات في التكاثر. ويُعدُّ ذلك شائعًا بوجه خاص إذا كانت البيئة تتغيَّر أيضًا، كما حدث عندما أنشأت القرىٰ المستقرة الدائمة جيوبًا تفوقت فيها الذئاب الصغيرة الداجنة علىٰ تلك الكبيرة الشرسة، أو عندما جعلت الزراعة الشتلات الكبيرة مميَّزة عن تلك الصغيرة. وسبق أن ذكرت أنَّ الحبوب البريَّة تتكاثر بجعل كل بذرة تنضج وتسقط علىٰ الأرض في وقت مختلف عن البذور الأخرىٰ، وعندئذٍ تتهشَّم القشرة تاركة البذرة حرة للنمو. ولكن بعض النباتات (فقط نوع أو اثنين من كل مليون أو مليوني نبات عادي) تمتلك طفرة عشوائية علىٰ چين واحد تعزز العنق الذي يصل البذرة بالنبات، وكذلك القشرة التي تحمي البذرة، وعندما تنضج هذه البذور؛ فإنَّها لا تسقط علىٰ الأرض ولا تتهشم القشرة، وتنتظر تلك البذور حرفيًّا أن يأتي مزارع ويحصل عليها. وقبل أن يكون هناك أية مزارعين كانت النباتات المتحوِّرة تموت سنويًّا؛ لأنَّ بذورها لم تتمكن من الوصول للتربة، ممَّا جعل تلك الطفرة الأكثر ضررًا. وكان يحدث الشيء نفسه عندما كان الإنسان يهز النباتات ويلتقط الحبوب التي سقطت؛ حيث لم تسقط البذور المتحوّرة، ومرة أخرىٰ ماتت تلك البذور.

يجادل علماء الآثار النباتية بحماس شديد حول ما حدث لتغيير هذا الوضع، ولكن علىٰ الأرجح كان الجشع الجيد المتأصل متورطًا في الأمر. فبعد استثمار طاقتهم في عزق أراضيهم وإزالة الأعشاب منها وريّ أفضل حوامل الزرع، فإنَّ النساء (بافتراض -مرة أخرىٰ- أنَّ النساء هن من قمن بذلك) ربما أردن اعتصار كل جزء من نباتاتهن. وكان ذلك يعني أن عليهن زيارة كل حامل لهز الشجيرات عدة مرات، وقد لاحظن بالتأكيد أنَّهن مهما قمن بالهز، فإنَّ بعض البذور العنيدة (المتحوّرة ذوات الأعناق القوية) لا تسقط. فما الذي كان يمكن أن يكون أكثر فطرية من أن يقمن بتمزيق الأعواد المستعصية من الأرض وأن يأخذن النبات بكامله إلىٰ المنزل؟ في النهاية لا تزن أعواد القمح والشعير كثيرًا، وأنا متأكد تمامًا من أن تلك هي الطريقة التي كنت سأتصرف بها إذا واجهتني حبوب لا تستسلم.

ولو قامت النساء بإعادة زرع اختيارات عشوائية من بذورهن، فلربما أخذن البذور المتحوّرة مع تلك العادية، وفي الحقيقة سوف تكون البذور المتحوّرة أكثر تمثيلًا؛ لأنَّ بعض البذور العادية علىٰ الأقل قد سقطت وفُقدت. وفي كل عام أعدن فيه الزرع، فإنَّهن كن يزدن قليلًا نسبة البذور المتحوّرة في الحوامل المزروعة. ولقد كانت تلك عملية بطيئة جدًّا بشكل مؤلم، لم يشعر بها المتورطون فيها، لكنَّها أطلقت دوامة تطورية علىٰ القدر نفسه من الدرامية التي صاحبت ما حدث للفئران في مكبات القمامة. وفي غضون ألفي سنة، بدلًا من أن تنتظر المُزارع نبتة واحدة في الحقل من بين مليون أو مليونيّ نبتة؛ فإنَّهم قد عدّلوا النباتات المدجنة وراثيًّا. وتدل الاكتشافات التي نُقّب عنها علىٰ أنَّه حتىٰ في عام ٨٥٠٠ ق. م لم يكن أحد قد سمع عن القمح والشعير المدجنين بالكامل. وبحلول عام ٨٠٠٠ ق. م كانت حوالي نصف البذور التي نجدها في منطقة «هيلي فلانكس» لديها الأعناق القوية التي كان عليها أن تنتظر جاني المحصول؛ وبحلول عام ٧٥٠٠ ق. م كانت كل البذور كذلك تقريبًا.

أضاف كل من الكسل، والجشع، والخوف بعض التحسينات باستمرار. لقد اكتشف البشر أنَّهم إذا زرعوا الحبوب في حديقة ما في إحدىٰ السنين، ثم زرعوا فيها الحبوب الغنية بالبروتين في السنة التي تليها؛ فإنَّ ذلك يؤدي إلىٰ تغذية التربة بالإضافة إلىٰ تنويع غذائهم؛ وفي أثناء تلك العملية، فقد قاموا بتدجين العدس والبسلة. وقد ملأ طحن القمح والشعير علىٰ المطاحن الخشنة الخبزَ بالحبيبات الخشنة، التي أدت إلىٰ تآكل أسنان البشر إلىٰ أن أضحت قصيرة؛ لذلك قاموا بنخالة الشوائب. وقد وجدوا طرقًا جديدة لإعداد الحبوب وذلك من خلال تسخين الطمي في الأفران كي يصنعوا منه أوعية للطهي مضادة للماء. وإذا كنا علىٰ صواب في عقدنا لمقارنات بينهم وبين المزارعين الحديثين، فستكون النساء هن المسؤولات عن معظم أو كل هذه الابتكارات، فضلًا عن تعلم نسج الكتان لصنع الملابس. كما ظهرت كذلك الجلود والفراء.

وفي حين قامت النساء بتدجين النباتات، فإنَّ الرجال (علىٰ الأرجح) تولوا مسؤولية الحيوانات. وبحلول عام ٨٠٠٠ ق. م كان الرعاة فيما يُعدُّ الآن غرب

إيران يروضون الماعز بفعالية كبيرة ممَّا أدىٰ إلىٰ تطور سلالات أكبر وأكثر استكانة. وقبل عام ٧٠٠٠ ق. م قام الرعاة بتحويل حيوان الأرخص البري إلىٰ شيء يشبه الأبقار الأليفة التي نعرفها اليوم، وقاموا بتدجين الخنازير البرية إلىٰ خنازير مستأنسة. وخلال آلاف السنوات القليلة التالية تعلموا ألَّا يقتلوا جميع الحيوانات من أجل لحومها عندما لا تزال تكون صغيرة، ولكن أن يحتفظوا ببعضها من أجل الأصواف والألبان، وأن يقوموا بتسخيرها (وهو الأمر الأكثر فائدة) لجر العربات ذات العجلات. كان نقل أي شيء من قبل يعني التقاطه ثم حمله، ولكنَّ خنزيرًا مسخَّرًا كان يمكنه نقل الأشياء بقوة يبلغ مقدارها ثلاث مرات قوة دفع رجل. وبحلول عام ٤٠٠٠ ق. م أدىٰ تدجين النباتات والحيوانات إلىٰ اقتراب زمن المحراث المجرور بواسطة ثور. وظل البشر يتلاعبون بالأشياء، ولكن كان ما يقرب من ٦ آلاف سنة لا تزال لتمر قبل أن يضيف البشر مصادر طاقة مهمة جديدة إلىٰ هذه المجموعة من خلال تسخير قوة الفحم والبخار في الثورة الصناعية.

لقد حوَّل المزارعون الأوائل في منطقة «هيلي فلانكس» طريقة عيش البشر. ويجب علىٰ الذين يرتجفون منا إزاء توقع الجلوس في طائرة بجوار طفلٍ يصرخ في رحلة طويلة بالطائرة ألَّا يغيب عن بالهم التفكير في الرعاة من الإناث، اللاتي كن يحملن بانتظام أطفالهن الرضّع معهن بينما كنَّ يسرن سنويًا آلاف الأميال وهنَّ يجمعن النباتات. وليس من المستغرب أنَّهن لم يردن إنجاب الكثير من الأطفال، بوعي أو من دون وعي، فكن يباعدن بين كل ولادة وأخرىٰ عن طريق مد فترة الرضاعة الطبيعية إلىٰ السنة الثالثة أو الرابعة (إنتاج حليب الثدي يمنع التبويض). ولعل رعاة العصر الجليدي من النساء قد اتبعن استراتيجيات مشابهة، ولكن كلما زاد استقرارهن؛ قلَّتْ حاجتهنَّ لفعل ذلك. وفي الحقيقة لقد أصبح إنجاب المزيد من الأطفال بمثابة نعمة، فلقد أدىٰ إلىٰ مزيد من العمالة، وتشير الدراسات العظمية إلىٰ أنَّ المرأة المتوسطة في قرية زراعية قديمة، التي تقيم في مكان واحد مع مخازن للطعام، كانت تنجب سبعة أو ثمانية أطفال (يبقىٰ منهم ربما أربعة حتىٰ عامهم الأول، وربما ثلاثة حتىٰ سن الإنجاب) بالمقارنة مع خمس أو ست ولادات فقط لأسلافها المتجولين. وكلما أنتج البشر مزيدًا من الغذاء، كان

بإمكانهم إطعام المزيد من الأطفال؛ علىٰ الرغم من أن تغذية المزيد من الأطفال، جعلت من الواجب عليهم زراعة المزيد من الطعام.

ونتيجة لذلك، ارتفع عدد السكان إلىٰ حدٍّ كبير. وبحلول عام ٨٠٠٠ ق. م كان تعداد سكان بعض القرىٰ يبلغ علىٰ الأرجح خمسمائة نسمة، أي عشرة أضعاف حجم قرىٰ فترة «الينجر درياس» مثل عين ملاحة. وبحلول ٦٥٠٠ ق. م كان في «شاتال هويوك» (atalhöyük) في تركيا الحديثة ربما ثلاثة آلاف نسمة. وكانت هذه القرىٰ أكبر وأقوىٰ، وكان لديها كل المشاكل التي يتضمنها ذلك. ويظهر التحليل المجهري للترسبات من شاتال هويوك أنَّ البشر كانوا ببساطة يلقون بالقمامة والمواد البرازية في أكوام نتنة بين المنازل، كي تُداس بالأقدام إلىٰ أن تصير غبارًا ووحلًا. ولا بُدَّ أن القذارة قد أفزعت الصيادين جامعي الثمار، ولكنَّها بالتأكيد أسرَّت الفئران والذباب والبراغيث. ويمكننا أن نرىٰ من قطع الفضلات الصغيرة المداسة في التراب أنَّ القرويين أبقوا الحيوانات الأليفة أيضًا داخل بيوتهم، وتظهر الهياكل العظمية البشرية في موقع «عين غزال» في الأردن أن بحلول عام ٧٠٠٠ ق. م انتقل مرض السُلُّ من الماشية إلىٰ البشر. وقد أدىٰ الاستقرار وزراعة المزيد من المواد الغذائية إلىٰ زيادة الخصوبة، لكنَّه كان يعني أيضًا المزيد من الأفواه لإطعامها والمزيد من الجراثيم لمشاركتها، وقد أدَّىٰ كِلَا الأمرين لزيادة الوفيات. ومن المحتمل أنَّ كل قرية زراعية جديدة نمت بسرعة خلال بضعة أجيال إلىٰ أن حدث توازن بين الخصوبة والوفيات.

ومع كل هذا البؤس، كان ذلك هو ما أراده البشر بوضوح. كان لدىٰ جماعات الصيادين وجامعي الثمار آفاقٌ جغرافية واسعة ولكنَّهم امتلكوا آفاقًا اجتماعية ضيقة: فقد تغيَّر المشهد، ولكن الوجوه لم تتغيَّر. كان عالم المزارعين الأوائل علىٰ العكس من ذلك. ربما تقضي حياتك كلها خلال مسيرة يوم حول القرية التي وُلدتَ فيها، ولكن يا له من مكان - مليء بالأضرحة حيث كشف الآلهة عن أنفسهم، وبالأعياد والمهرجانات لإمتاع الحواس، وبالجيران الفضوليين في منازل قوية ذات أرضيات مجصصة وأسقف مضادة للماء. وهذه المباني سوف تصدم معظم الناس اليوم بكونها أكواخًا ضيقة رائحتها دخان

ومنتنة، لكنَّها كانت خطوة كبيرة من مشاركة كهوف رطبة مع الدببة أو الاحتشاد احتماءً من المطر تحت جلود ممتدة علىٰ فروع الأشجار.

لقد روَّض المزارعون الأوائل صفحة الأرض، مقسمين إيَّاها إلىٰ دوائر متحدة المركز، كان البيت في المركز، ثم يأتي بعد ذلك الجيران، ثم الحقول المزروعة، ثم المراعي، حيث ارتحل الرعاة والقطعان بين مراعي الشتاء والصيف، ووراء ذلك كان هناك عالم غير منظم وبريٍّ للحيوانات المرعبة والشرسة التي كانوا يصطادونها، والتي عرفوا من خلالها الوحوش. وقد عُثِرت علىٰ حفريات قليلة علىٰ بلاطات حجرية منقوشة بخطوط تبدو -علىٰ الأقل لعين الرائي- مثل خرائط لحقول مقسمة بمسارات صغيرة؛ بيدَ أنَّ القرويين في «الجرف الأحمر» وبعض المواقع المجاورة التي تقبع الآن تحت بحيرة الأسد، في حوالي عام ٩٠٠٠ ق. م، كانوا يجربون نوعًا من الكتابة البدائية، بخدشهم صورًا لثعابين وطيور وحيوانات المزرعة، وإشارات تجريدية علىٰ القطع الحجرية الصغيرة.

وبفرض مثل تلك التراكيب العقلية علىٰ عالمهم، يمكننا القول إنَّ سكان منطقة «هيلي فلانكس» كانوا يقومون بتدجين أو تأهيل أنفسهم. لقد أعادوا صناعة معنىٰ الحب، فالحب بين الزوج والزوجة، أو بين الوالد والطفل يُعدُّ طبيعيًّا، رُبِّي فينا علىٰ مدىٰ ملايين السنين، لكن الزراعة ضخت قوىٰ جديدة في هذه العلاقات. ولطالما شارك الرعاة معارفهم مع صغارهم، فعلموهم البحث عن النباتات الناضجة والحيوانات البريّة والكهوف الآمنة، ولكن المزارعين كان لديهم شيء أكثر واقعية وملموسًا ليورثوه. ولكي يكونوا علىٰ ما يرام، احتاج الناس الآن إلىٰ ملكية: بيت، وحقول، وقطعان، فضلًا عن الاستثمارات مثل الآبار، والجدران، والأدوات. ويبدو أنَّ المزارعين الأوائل كانوا اشتراكيين تمامًا، يقتسمون الغذاء وربما يطهون جماعيًّا، ولكن بحلول عام ٨٠٠٠ ق. م كانوا يبنون منازل أكبر وأكثر تعقيدًا، لكل منها مخازنها الخاصة ومطابخها، وربما كانوا يقسمون الأراضي إلىٰ حقول ذات ملكية خاصة. وركزت الحياة بصورة متزايدة علىٰ المجموعات الأسرية الصغيرة، التي هي علىٰ الأرجح الوحدة الأساسية لنقل الملكية بين الأجيال. وقد كان الأطفال بحاجة إلىٰ هذا الميراث المادي؛ لأنَّ البديل كان الفقر. وقد أضحىٰ نقل الملكية مسألة حياة أو موتٍ.

وهناك آثار علىٰ ما يمكن تسميته الهوس بالأسلاف، ونحن نراه في وقت مبكر مثل عام ١٠٠٠٠ ق. م، في جماجم كيرمز دير التي بلا فكوك، ولكن بينما تطورت الزراعة، تسارع ذلك الهوس. فقد أصبح دفن أجيال متعددة من الموتىٰ تحت أرضيات البيوت شائعًا، حيث يتم الخلط بين الجثث بطرق يبدو أنَّها تعبِّر بشكل مادي جدًّا عن الصلة بين الممتلكات والنسب. وقد ذهب البعض إلىٰ ما هو أبعد من ذلك، بنبش الجثث بعد تحلل اللحم، وإزالة الجماجم، وإعادة دفن الجثث بلا رؤوس. وباستخدام الجبس، قاموا بتصميم أوجه علىٰ تلك الجماجم ولصق صدفيات في تجويفات الأعين ورسم تفاصيل مثل الشعر.

كانت السيدة كاثلين كينيون، وهي المرأة البارزة في علم الآثار الذي كان حِكرًا علىٰ الرجال في خمسينيات القرن العشرين، أولَ مَن كتب عن تلك العادة الشبيهة بفيلم الرعب في حفرياتها في الموقع الشهير في أريحا بالضفة الغربية، أمَّا الآن فقد عُثر علىٰ الجماجم المجصصة في عشرات المستوطنات. ويُعدّ ما فعله الناس بالجماجم أقل وضوحًا؛ لأنَّنا نجد فقط تلك الجماجم التي أُعيد دفنها. كان أغلبها قد وُضع في حفر، علىٰ الرغم من أنَّه في شاتال هويوك دُفنت امراة شابة في حوالي عام ٧٠٠٠ ق. م وهي تضم إلىٰ صدرها جمجمة تم إعادة تجصيصها ودهنها باللون الأحمر ما لا يقل عن ثلاث مرات.

تجعلنا مثل تلك العلاقة الحميمة مع الجثث سريعي الغثيان، ولكن من الواضح أنَّها كانت مهمة جدًّا للمزارعين الأوائل في منطقة «هيلي فلانكس». يعتقد معظم علماء الآثار أنَّ تلك العلاقات تُظهر أنَّ الأجداد كانوا أهمَّ الكائنات الخارقة للطبيعة. لقد ورَّث الأجداد الملكية، والتي من دونها كان ليلقىٰ الأحياء حتفهم، وفي المقابل قام الأحياء بتكريمهم. ومن المحتمل أنَّ طقوس الأجداد ألبست انتقال الملكية ثوبًا مقدسًا، بما يعلِّل امتلاك البعض أكثر من غيرهم، وربما استخدم البشر الجماجم أيضًا في استحضار الأرواح، واستدعاء الأجداد لسؤالهم عن موعد الزرع، وأماكن الصيد، وهل يهاجمون الجيران أم لا.

لقد ازدهر معتقد الأجداد في جميع أنحاء «هيلي فلانكس»، وفي «شاتال هويوك» كان في كل منزل تقريبًا جثث تحت الأرض وجماجم للأجداد مجصصة

داخل الأسطح والجدران، وفي «عين غزال» عُثر علىٰ حفرتين تحتويان علىٰ تمثالين بالحجم الطبيعي وتماثيل نصفية مصنوعة من حزم القصب ومُغطاة بالجبس. وكان لبعضها رأس مزدوج، ومعظمها قد طُليت عليه أعين عملاقة شاخصة، وكان الأمر الأكثر إدهاشًا أنَّه في عام ٨٠٠٠ ق. م قام سكان شايونو (ayönü) في جنوب شرق تركيا ببناء ما أسماه المُنقّبون بـ «بيت الموتىٰ» مع ٦٦ جمجمة، وأكثر من أربعمائة هيكل عظمي مخبأة وراء مذبح. وقد حدَّد الكيميائيون الترسبات علىٰ المذبح بأنَّها بلورات هيموجلوبين من دماء آدمية وحيوانية. وكانت المزيد من الدماء مغطاة في أوعية من الطمي، وكان لدىٰ مبنيين آخرين أيضًا مذابح ملطخة بالدماء، أحدهما منقوش عليها صورة رأس آدمي. إنَّ العقل يحارُ في ذلك نوعًا ما! إنَّ الأمر يبدو وكأنَّه فيلم رعب، ضحايا يناضلون مقيَّدون في المذابح وكهنة يمزقون أعناقهم بأنصال حادة مصنوعة من حجر صوّان ويقطعون رؤوسهم لتخزينها، بيما يشرب العُبَّاد دماءهم . . .

وربما ليس ذلك صحيحًا. لا يوجد شيء مما نقَّب عنه علماء الآثار يمكن أن يثبت، أو يفند تلك الرحلات الخيالية، لكن لا تزال التماثيل وبيوت الموتىٰ تبدو أنَّها تُشير إلىٰ بزوغ متخصصين دينيين قاموا بطريقة أو بأخرىٰ بإقناع الجميع بأن لديهم امتياز الوصول إلىٰ القوىٰ الخارقة للطبيعة، وربما كان بإمكانهم السقوط في نوبات أو انتشاءات روحية، وربما كان بإمكانهم وصف رؤاهم بشكل أفضل. أيًّا كان السبب، فقد كان الكهنة هم أول بشر يتمتعون بسلطة مُمأسسة، وهنا نرىٰ بدايات تراتبيّة راسخة.

وسواء كان ذلك صحيحًا أم لا، فقد تطورت التراتبيّة بأسرع وتيرة داخل الأُسر. سبق وأن ذكرتُ بأنَّ للرجل والمرأة دورين مختلفين في مجتمعات الرعاة، فالرجل أكثر نشاطًا في الصيد بينما المرأة أكثر نشاطًا في الحصاد، لكنَّ دراسات المجموعات المعاصرة تُشير إلىٰ أنَّ التدجين يزيد بشدة من تقسيم العمل علىٰ أساس الجنس، مما يربط النساء بالمنازل. لقد تطلب النظام ذو معدلات الوفيات والخصوبة المرتفع أن تقضي النساء معظم حياتهن وهن حوامل و/أو يرعين الأطفال الصغار، وقد دعمت ذلك التغيُّرات في الزراعة (وهي التغيرات التي

بادرت بها النساء أنفسهن). تتطلب الحبوب المدجنة مزيدًا من المعالجة أكثر من معظم الأغذية البرية، وبما أنَّ الدرس والطحن والخبز يمكن القيام بها في المنزل بينما يشرفن علىٰ الرضع، فقد أصبحت هذه الأمور أعمالًا منطقية للمرأة.

عندما تكون الأرض وفيرة، ولكن العمالة نادرة (كما في الأيام الأولىٰ للزراعة)؛ فإنَّ البشر عادة ما يزرعون مناطق شاسعة بشكل خفيف، حيث الرجال والنساء يعزقون أراضيهم ويتخلصون من الأعشاب معًا. وإذا زاد عدد السكان بينما ظلت إمدادات الأراضي الزراعية كما هي بلا زيادة، كما حدث في منطقة «هيلي فلانكس» بعد عام ٨٠٠٠ ق. م، فمن المنطقي تقليب الأرض بشكل أكثر كثافة، واعتصار المزيد من كل فدان عن طريق التسميد والحرث وحتىٰ الريّ. وكل هذه المهام تفتقر إلىٰ القوة الجسمانية. وتُعدُّ الكثير من النساء في نفس قوة الرجال، ولكن الرجال يسيطرون بشكل متزايد علىٰ العمل الخارجي والنساء يعملن داخليًّا في ظلِّ كثافة الأعمال الزراعية. ويقلِّب الرجال البالغون الحقول، ويرعىٰ الأولاد القطعان؛ بينما النساء والفتيات يدرن المجال المنزلي المحدد بوضوح. وقد كشفت دراسة أُجريت علىٰ ١٦٢ هيكلًا عظميًا من تل أبي هريرة يرجع تاريخها إلىٰ حوالي عام ٧٠٠٠ ق. م عن فروق جندريّة مذهلة؛ فلدىٰ كل من الرجال والنساء فقرات متضخمة في أعلىٰ الظهر ربما من حمل الأحمال الثقيلة فوق رؤوسهم، لكن النساء فقط كان لديهنَّ حالة مرضية في مفاصل أصابع القدم تسبب فيها قضاء فترات زمنية طويلة وهن يركعن، مستخدمات أصابع أقدامهن باعتبارها قاعدة لتحميل القوة في أثناء طحن الحبوب.

لقد أدَّىٰ كل من إزالة الأعشاب، وتهذيب الحجارة، والتسميد، والريّ، والحرث إلىٰ زيادة المحاصيل، كما أدىٰ وراثة حقول اعتُني بها جيدًا، بدلًا من أي قطعة أرض أخرىٰ، إلىٰ إحداث كل الفرق في ثروات الأُسر. وتُشير الطريقة التي تطوَّر بها الدين بعد عام ٩٦٠٠ ق. م إلىٰ أنَّ الناس كانوا يهتمون بأجدادهم وميراثهم، وربما ينبغي علينا أن نفترض أنَّهم بدؤوا في هذه المرحلة في تعضيد شعائرهم بمؤسسات أخرىٰ. فمع وجود الكثير من الأمور علىٰ المحك، أراد الرجال في ثقافات الفلاَحين الحديثة التأكد بالفعل من أنَّهم هم حقًّا آباء الأطفال

الذين سيرثون ممتلكاتهم. أما مواقف الرعاة العرضية حول الجندر، فقد أدَّت إلىٰ قلق مفرط بعذرية البنات قبل الزواج وأنشطة الزوجات بعد الزواج. لكنَّ الرجال في المجتمعات الزراعية التقليدية كانوا عادة ما يتزوجون في حوالي سن الثلاثين، بعد أن يرثوا ميراثهم، بينما تتزوج النساء عمومًا في حوالي سن الخامسة عشرة قبل أن يكون لديهن الكثير من الوقت للانحراف. وفي حين أنَّنا لا يمكن أن نكون متأكدين من أنَّ هذه الأنماط قد نشأت عند فجر الزراعة، فإنَّ الأمر يبدو كذلك علىٰ الأرجح. بحلول ٧٥٠٠ ق. م كانت الفتاة عادة ما تكبر تحت سلطة أبيها، وفي سن المراهقة تستبدل تلك السلطة بسلطة الزوج الكبير في السن بما يكفي ليكون والدها. لقد أصبح الزواج مصدرًا للثروة، حيث يتزوج أولئك الذين يمتلكون أراضي جيدة وقطعانًا من الحيوانات بآخرين في الحالة السعيدة نفسها، وبذلك يضمون أملاك كل منهم لتصبح ملكًا واحدًا، ويصبح الثريُّ أكثر ثراءً.

لقد كان امتلاك أشياء تستحق الوراثة يعني امتلاك أشياء تستحق السرقة، ومن المؤكد أنَّه ليس من قبيل الصدفة أنَّ الأدلة علىٰ التحصينات والقتال المنظم قد انتشرت سريعًا في منطقة «هيلي فلانكس» بعد ٩٦٠٠ ق. م. أمَّا حياة الصيادين جامعي الثمار الحديثة، فكانت عنيفة بشكل معروف، مع عدم وجود تراتبيّة لكبح جماح حماسهم، فكثيرًا ما يتعامل الشباب مع القتل باعتباره وسيلة منطقية لتسوية الخلافات. وفي جماعات عديدة، يُعدُّ القتل السبب الرئيس للوفاة. ولكن للعيش معًا في القرىٰ، كان علىٰ الناس أن يتعلموا التحكم في العنف بين الأفراد. والقرىٰ التي فعلت ذلك ازدهرت، وتمكَّنت من تسخير العنف للاستيلاء علىٰ أشياء من الطوائف أخرىٰ.

ويأتي الدليل الأبرز من أريحا، التي تشتهر بالقصة الإنجيلية عن الجدران التي تهاوت عندما نفخ جوشوا (يوشع) في بوقه. عندما نقَّبت كاثلين كينيون هناك منذ خمسين سنة، وجدت جدرانًا لكنَّها لم تكن لجوشوا. لقد عاش جوشوا في حوالي عام ١٢٠٠ ق. م، لكن كينيون اكتشفت ما يشبه تحصينات أقدم بثمانية آلاف سنة. وقد فسَّرتها باعتبارها حصنًا دفاعيًا يبلغ طوله ١٢ قدمًا، وسمكه خمسة أقدام، ويعود تاريخه إلىٰ حوالي عام ٩٣٠٠ ق. م. وقد أظهرت دراسات

حديثة في ثمانينيات القرن العشرين أنَّ كينيون كانت علىٰ الأرجح مخطئة، وأنَّ (حصنها) كان يتكون فعليًّا من العديد من الجدران الصغيرة المبنية في أوقات مختلفة، ربما لكبح سيل ما؛ إلَّا أنَّ اكتشافها الكبير الثاني، وهو عبارة عن برج حجري يبلغ طوله ٢٥ قدمًا، ربما كان دفاعيًّا حقًّا. ففي عالم كانت فيه الأسلحة الأكثر تقدمًا هي عصا رُبط في نهايتها حجر مدبب، كان مثل هذا الاكتشاف يُعدُّ حصنًا عظيمًا حقًّا.

لم يكن هناك أيُّ مكان خارج «منطقة هيلي فلانكس» يمتلك فيه البشر الكثير ليدافعوا عنه. وحتىٰ في عام ٧٠٠٠ ق. م، كان تقريبًا جميع مَن هم خارج هذه المنطقة من الرعاة الذين يتنقلون موسميًّا، وحتىٰ الأماكن التي بدؤوا يستقرون فيها باعتبارها قرىٰ، مثل مهر غاره في باكستان الحديثة أو شانغ شان في دلتا نهر اليانغتسي - كانت بسيطة وفقًا لمعايير أريحا. وإذا نُقل الصيادون جامعو الثمار الذين يعيشون في أي مكان آخر علىٰ الأرض جوّيًا إلىٰ شايونو أو شاتال هويوك، فلم يكونوا ليعرفوا ما الذي أصابهم (من الدهشة، م) علىٰ ما أظن. فسوف تختفي كهوفهم أو مجموعاتهم الصغيرة من الأكواخ، وتحل محلها المدن الصاخبة، ذات المنازل المتينة، ومخازن المواد الغذائية الكبيرة، والفنون المؤثرة، والآثار الدينية. وسيجدون أنفسهم يعملون بجد ويموتون في سنٍ صغيرة ويستضيفون مجموعة غير سارة من الميكروبات. كانوا سيتعاملون مع الأغنياء والفقراء، وينزعجون أو يبتهجون بسلطة الرجال علىٰ النساء وسلطة الآباء علىٰ الأبناء. ولربما اكتشفوا أنَّ لبعض الناس الحق في قتلهم أثناء ممارسة الطقوس. وقد يتساءلون لماذا أنزل البشر كل هذا بأنفسهم.

المُضي قُدمًا والتضاعف

نحن تقدمنا سريعًا بمقدار عشرة آلاف عام منذ نشأة التراتبيّة، والكد في عصور ما قبل التاريخ في منطقة «هيلي فلانكس»، إلىٰ باريس في عام ١٩٦٧م.

بالنسبة إلىٰ الرجال متوسطي العمر الذين كانوا يديرون حرم جامعة باريس في ضاحية نانتير المملة -وهم ورثة التقاليد الأبويّة التي ترجع إلىٰ شاتال هويوك- بدا واضحًا أنَّ السيدات اللاتي كنَّ تحت مسؤوليتهم كان لا ينبغي لهنَّ أن يُمتعن السادة الصغار من الرجال في مهاجعهم (أو العكس). وربما لم تبدُ مثل هذه القواعد مفهومة أبدًا بالنسبة إلىٰ الشباب، ولكن لمدة ثلاثمائة جيل، كان علىٰ المراهقين التعايش معها. ولكن الأمر لم يعد كذلك. مع اقتراب الشتاء، احتجَّ الطلاب علىٰ امتلاك الكبار لحق إملاء حياتهم العاطفية عليهم. وفي يناير عام ١٩٦٨م، قام دانيال كوهن بينديت (Daniel Cohn-Bendit)، وهو الآن عضو موقر في الحزب الأخضر في البرلمان الأوروبي، لكنَّه كان عندئذٍ طالبًا ناشطًا معروفًا باسم (داني الأحمر) - قام بتشبيه مواقف وزير الشباب بمواقف هتلر في شبابه. وفي مايو من العام نفسه، اشتبك الطلاب مع الشرطة المسلَّحة في قتال شوارع متواصل، ممَّا شلَّ وسط باريس بالحواجز والسيارات المحترقة. والتقىٰ الرئيس شارل ديغول سرًّا مع جنرالاته لمعرفة ما إذا كان الجيش -في حالة إذا آل الأمر إلىٰ يوم باستيل جديد- سوف يقف معه.

في هذه الفترة ظهر مارشال سالينز (Marshall Sahlins) وهو أستاذ شاب في علم الأنثروبولوجيا من جامعة ميشيغان. وقد صنع سالينز اسمه من خلال سلسلة مقالات رائعة عن النشوء والتطور الاجتماعي وانتقاده لحرب ڤيتنام، وترك الآن

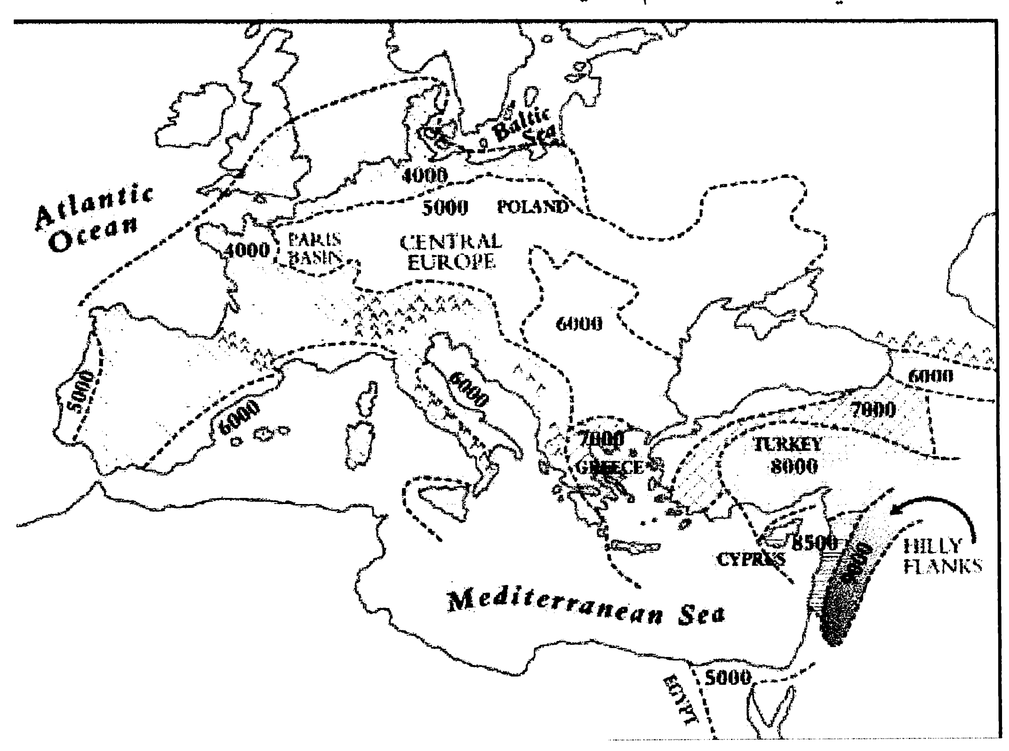
آن أربور (وهي مدينة جامعية صغيرة تتألف حصريًا من الشوارع الجانبية، كما أسماها بقسوة، ولكن ليس بظلم)؛ ليقضي سنتين في «كوليچ دىٰ فرانس»، وهي قِبلة كل من النظرية الأنثروبولوجية والراديكالية الطُلَّابية. ومع اشتداد حدة الأزمة، بعث سالينز بمخطوطة لمجلة الأوقات الحديثة (Les temps moderns)، تطلبت القراءة من قِبَل كل من كان في المشهد الثقافي الفرنسي. وكانت ستصبح واحدة من أكثر المقالات الأنثروبولوجية تأثيرًا التي كُتِبت علىٰ الإطلاق.

«افتحوا بوابات دور الحضانة والجامعات والسجون الأخرىٰ»، هكذا كتب الطلاب الراديكاليون بالطباشير علىٰ أحد الجدران في نانتير. «بفضل المعلّمين والامتحانات يبدأ التنافس في سن السادسة». لقد قدمت مخطوطة سالينز شيئًا للطلاب: ليست إجابة، الأمر الذي ربما لم يرغب فيه الأناركيون «(كن واقعيًّا، اطلب المستحيل» هكذا كان أحد شعاراتهم)، ولكن علىٰ الأقل بعض التشجيع. لقد جادل سالينز بأنَّ القضية المركزية، هي أنَّ المجتمع البرجوازي أقام صرحًا من خيال، يتمثل في: «الاحتياجات اللامتناهية». إنَّنا نخضع لنظام رأسمالي ونتنافس لكسب المال حتىٰ نتمكن من ملاحقة الاحتياجات اللامتناهية بشراء أشياء لا نريدها فعلًا. نحن يمكننا أن نتعلم شيئًا، كما أشار سالينز، من الصيادين جامعي الثمار. وأوضح أنَّه «كان لدىٰ البشر الأكثر بدائية في العالم ممتلكات قليلة، ولكنَّهم لم يكونوا فقراء». وقد بدا ذلك باعتباره مفارقة فحسب: فلقد جادل سالينز بأنَّ الرعاة كانوا يعملون عادة من واحدة وعشرين إلىٰ خمس وثلاثين ساعة أسبوعيًا، أي: أقل من العمال الصناعيين في باريس، أو حتىٰ - كما أظنُّ- طلاب باريس. لم يمتلك الصيادون جامعو الثمار سيارات أو أجهزة تلفاز، لكنَّهم لم يعرفوا أنَّه من المفترض عليهم أن يرغبوا في تلك الأشياء. كانت وسائلهم قليلة، ولكن احتياجاتهم كانت أقل، ممَّا جعلهم، كما خلص سالينز «المجتمع الأصلي رغيد الحياة».

كانت لسالينز وجهة نظر: لقد تساءل لماذا لم تحلّ الزراعة محلّ الرعي إذا كانت مكافأة ذلك هي العمل وعدم المساواة والحرب؟ ولكنَّ الزراعة حلَّت محل الرعي بوضوح. في عام ٧٠٠٠ ق. م سيطرت الزراعة بشكل تام في منطقة «هيلي

فلانكس». وبحلول عام ٨٥٠٠ ق. م انتشرت زراعة الحبوب في قبرص، وفي عام ٨٠٠٠ ق. م وصلت إلىٰ وسط تركيا. وبحلول ٧٠٠٠ ق. م وصلت النباتات المدجنة بالكامل إلىٰ كل تلك المناطق وانتشرت شرقًا إلىٰ باكستان (أو -ربما- تطورت هناك بشكل مستقل). ووصلت إلىٰ اليونان وجنوب العراق وآسيا الوسطىٰ بحلول ٦٠٠٠ ق. م، وإلىٰ مصر وأوروبا الوسطىٰ بحلول ٥٠٠٠ ق. م، وإلىٰ شواطئ المحيط الأطلسي بحلول ٤٠٠٠ ق. م. (الشكل ٢ - ٤).

لقد تجادل علماء الآثار لعقود حول لماذا حدث هذا دونما اتفاق. وعلىٰ سبيل المثال: في نهاية ورقة بحثية مهمّة، كان أقوىٰ تعميم شعر جرايم باركر من جامعة كامبريدج أن بإمكانه الوصول إليه هو أنَّ المزارعين قد حلُّوا محل الرعاة «بطرق مختلفة وبمعدلات مختلفة ولأسباب مختلفة، ولكن في ظروف مماثلة من التحديات التي واجهت العالم الذي قد عرفوه».



(موضع الشكل ٢ - ٤). المضي قدمًا والتضاعف، النسخة الأولىٰ: انتشار النباتات المدجنة غربًا من منطقة هيلي فلانكس إلىٰ المحيط الأطلسي (٩٠٠٠ - ٤٠٠٠ قبل الميلاد).

وبالرغم من أنَّ العملية كانت فوضوية -تحدث عبر آلاف السنين وعلىٰ مستوىٰ قارات بأكملها، كيف لا يمكنها أن تكون فوضوية؟- فبوسعنا أن نفهمها بشكل أفضل إذا تذكرنا أنَّ الأمر في نهاية المطاف متعلق بانتقال الأرض لأعلىٰ في السلسلة العظمىٰ للطاقة. لقد كان تغيير المسار يعني أنَّ الأرض حصلت علىٰ قدر أكبر من طاقة الشمس الكهرومغناطيسية، وأنَّ التمثيل الضوئي قام بتحويل بعض تلك الحصة إلىٰ طاقة كيميائية (أي: مزيد من النباتات)، وأنَّ الأيض قام بتحويل جزء من ذلك المخزون الأكبر للطاقة الكيميائية إلىٰ طاقة حركية (أي: مزيد من الحيوانات)، وأنَّ الزراعة سمحت للبشر باستخلاص المزيد من الطاقة علىٰ نحو واسع من النباتات والحيوانات الأخرىٰ من أجل استخدامهم الخاص. وفي المقابل، قامت الحشرات والحيوانات المفترسة والطفيليات بامتصاص أكبر قدر من هذه الطاقة المستحدثة من المزارعين، ولكن كان لا يزال هناك الكثير من الفائض منها.

وقد وجد البشر -مثل النباتات والحيوانات الأخرىٰ- متنفسًا رئيسًا لطاقتهم الإضافية في التناسل الجنسي. وكان ارتفاع معدلات المواليد يعني أنَّ قرىٰ جديدة يمكن أن تنمو سريعًا حتىٰ تتم زراعة كل بوصة مربعة من الأرض، وعندئذٍ ازداد كل من الجوع والمرض حتىٰ قضيا علىٰ الخصوبة. ووصل كل من أسر الطاقة واستهلاكها حينئذٍ إلىٰ توازن تقريبي. واستقرت بعض القرىٰ في هذا الوضع، وهي تحلِّق دومًا علىٰ حافة البؤس؛ وفي حالات أخرىٰ قررت نفوس قليلة جريئة البدء من جديد. وربما كانوا يمشون علىٰ أقدامهم مدة ساعة حتىٰ يصلوا بقعة فضاء، (وربما أقل جاذبية) في الوادي نفسه، أو في أرض منبسطة (أو كانوا يعودون مئات الأميال بحثًا عن المراعي الخضراء التي سمعوا عنها). وربما عبروا البحار. ولا بُدَّ أنَّ مغامرين كثيرين أخفقوا، وزحف الناجون المهترئون الجائعون منهم نحو مواطنهم في خزي. وقد نجح آخرون رغم ذلك. وازدهر السكان حتىٰ لحق معدل الوفيات بمعدل المواليد مجددًا، أو حتىٰ أنتجت المستعمرات مستعمراتٍ خاصة بها.

وقد وجد معظم المزارعين الذين توسّعوا في الأراضي الجديدة الرعاة فعليًّا يعيشون هناك. ومن المغري تصور مشاهد من أفلام رعاة البقر القديمة، حيث الغارات علىٰ الماشية، وسلخ فروة الرأس، وتبادل إطلاق النار (مع استخدم كلا الجانبين للأقواس والسهام)، ولكن من المحتمل أنَّ الواقع كان أقل درامية. وتُشير المسوحات الأثرية إلىٰ أنَّ المزارعين الأوائل في كل منطقة كانوا يميلون إلىٰ الاستقرار في مناطق مختلفة عن تلك التي تواجد فيها الرعاة؛ لأنَّه نادرًا ما تداخلت أفضل الأراضي الزراعية وأفضل المراعي معًا. وفي البداية -علىٰ الأقل- من المحتمل أنَّ المزارعين والرعاة قد تجاهل بعضهم بعضًا بشكل كبير.

وفي النهاية -بالطبع- اختفىٰ الرعي. وستجد اليوم القليل من الصيادين أو جامعي الثمار يطوفون المساحات الأرضية المشذبة في توسكانا أو ضواحي طوكيو. لقد نما سكان الزراعة بسرعة واحتاجوا فقط إلىٰ بضعة قرون لملء أفضل الأراضي، حتىٰ لم يعد لديهم خيار -برأيهم- سوىٰ التوجه نحو الأراضي الطرفية للرعاة.

وهناك نظريتان أساسيتان حول ما حدث بعد ذلك. تقترح النظرية الأولىٰ أنَّ المزارعين دمَّروا المجتمع الأصلي رغيد الحياة. وربما لعب المرض دورًا في ذلك؛ إذ بالتأكيد جعلت الفئران والقطعان والقرىٰ الدائمة المزارعين أقل صحة من الصيادين جامعي الثمار. ولا ينبغي لنا -علىٰ الرغم من ذلك- أن نتخيل أوبئة مثل تلك التي جرفت الهنود الحمر بالملايين بعد عام ١٤٩٢م. لقد كان الفرق بين بِرَك أمراض المزارعين والرعاة أميالًا قليلة من الغابات، وليس محيطات لا يمكن عبورها؛ ولذلك فإنَّهم لم يتباعدوا كثيرًا.

ولكن حتىٰ دون الإبادة الجماعية، فقد كان لثقل الأرقام دورٌ حاسم. فلو قرر الرعاة أن يحاربوا، مثلما حدث في كثير من الجبهات الاستعمارية في العصر الحديث، فلربما استطاعوا تدمير القرية الزراعية القديمة، ولكن مزيدًا من المستعمرين كانوا ليواصلوا المجيء ومن ثمَّ إخماد المقاومة. وكحلٍّ بديل: قد يختار الرعاة الهروب، ولكن لا يهم مدىٰ تراجعهم، فسيصل مزارعون جدد في نهاية المطاف وهم يقطعون مزيدًا من الأشجار، وينشرون الجراثيم في كل مكان،

حتىٰ ينتهي الأمر بالرعاة إلىٰ أماكن لا يمكن للمزارعين ببساطة استخدامها مثل سيبريا أو الصحراء.

أمَّا النظرية الثانية، فتقول بأنَّ أيًّا من هذه الأشياء لم يحدث؛ لأنَّ المزارعين الأوائل في معظم أنحاء المناطق الموضحة في (الشكل ٢ - ٤) لم يكونوا أحفادًا للمهاجرين من منطقة «هيلي فلانكس» علىٰ الإطلاق، بل كانوا صيادين وجامعي ثمار محليين استقروا، وأصبحوا هم المزارعين أنفسهم. وقد جعل سالينز الزراعة تبدو غير جذابة بشكل عميق مقارنة بالمجتمع الأصلي رغيد الحياة، ولكن علىٰ الأرجح نادرًا ما واجه الرعاة خيارًا بسيطًا بين نمطين من الحياة. فالمزارع الذي ترك محراثه، وبدأ بالسير لم يكن يعبر خطًّا واضحًا إلىٰ داخل أراضي الرعاة. ولكن بدلًا من ذلك، فقد أتىٰ إلىٰ قرىٰ حيث يزرع الناس بشكل أقل كثافة منه (ربما بعزق أراضيهم بدلًا من الحرث والتسميد)، ثم إلىٰ قرىٰ حيث أناس ما زالوا يزرعون بشكل أقل كثافة أيضًا (وربما كانوا يحرقون رقعًا من الغابات ويزرعونها إلىٰ أن تنمو الأعشاب مجددًا، ثم ينتقلون لمكان آخر)، وأخيرًا إلىٰ قرىٰ حيث أناس اعتمدوا بالكامل علىٰ الصيد وجمع الثمار. لقد انجرف كل من الأفكار والبشر والجراثيم ذهابًا وإيابًا عبر منطقة الاتصال العريضة.

وعندما أدرك الناس أنَّ الجيران كانوا -بممارسات أكثر كثافة- يقتلون النباتات البرية ويطاردون الحيوانات التي توقفت عليها أساليب حيوات الرعي الخاصة بهم، فبدلًا من مهاجمة هؤلاء المخربين أو الفرار كان لديهم أيضًا خيار الانضمام إلىٰ الحشود وتكثيف زراعتهم الخاصة. وبدلًا من تفضيل الزراعة علىٰ الرعي، قرر البشر فقط قضاء وقت أقل بقليل في جني الثمار، ووقت أكبر بقليل في البستنة. وربما كان عليهم لاحقًا أن يقرروا ما إذا كانوا سيبدؤون بإزالة الأعشاب، ثم الحرث ثم التسميد، ولكن ذلك كان (وبتكرار صورة من الفصل السابق) سلسلة من الخطوات الأوليّة بدلًا من كونه قفزة كبيرة بشكل نهائي بواسطة المجتمع الأصلي رغيد الحياة نحو الكدح قاصم الظهر والأمراض المزمنة. وإجمالًا، عبر مئات السنين وآلاف الأميال، فقد تضاعف أولئك الذين تكاثفوا،

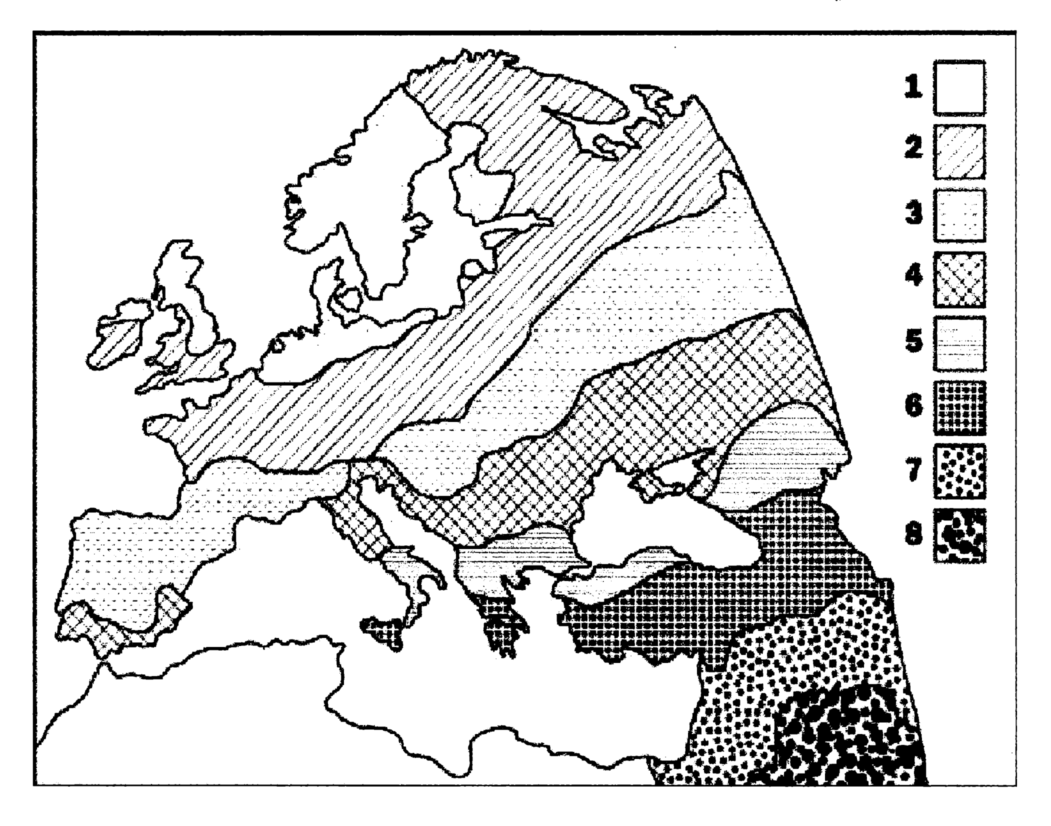
أمَّا الذين تشبثوا بطرقهم القديمة فقد تلاشوا. وخلال هذه السيرورة، زحفت «الجبهة» الزراعية إلىٰ الأمام. لم يختر أحد التراتبيّة أو العمل لساعات أطول، ولم تتقبل النساء أصابع أقدامهن المصابة بالتهاب المفاصل؛ لكن تلك الأشياء تسللت إليهم.

ولا يهم كم عدد الأدوات الحجرية، والبذور المحترقة، أو أساسات البيوت التي حفرها علماء الآثار، فهم لن يتمكنوا من إثبات أيّ من النظريتين، ولكن مجددًا جاء علم الوراثة (جزئيًا) للإنقاذ. ففي سبعينيات القرن العشرين، بدأ لوكا كافالي سفورزا (Luca Cavalli-Sforza) من جامعة ستانفورد استطلاعًا ضخمًا لفصائل الدم والحمض النووي الأوروبيين. وقد وجد فريقه معاملًا ثابتًا لترددات الجينات من الجنوب الشرقي للشمال الغربي (الشكل ٢ - ٥)، والذي -كما أشاروا- توافق تمامًا مع الأدلة الأثرية علىٰ انتشار الزراعة كما هو موضح في (الشكل ٢ - ٤). وكانت نتيجتهم كالتالي: بعد أن جلب المهاجرون الزراعة من غرب آسيا إلىٰ أوروبا، حلَّت سلالاتهم محلّ الرعاة الأصليين، دافعين بمن تبقىٰ منهم إلىٰ أقصىٰ الشمال والغرب.

وقد جادل عالم الآثار كولن رينفرو (Colin Renfrew) بأنَّ علم اللغويات يؤيد أيضًا سيناريو كافاللي سفورزا: فلقد استبدل المزارعون الأوائل -كما ظنَّ- ليس فقط الجينات الأوروبية بالجينات الغرب آسيوية، ولكنَّهم استبدلوا أيضًا لغات أوروبا الأصلية بتلك اللغات الإندوأوروبية من منطقة «هيلي فلانكس»، تاركين فقط جيوبًا منعزلة من اللغات الأقدم مثل الباسك. وقد نُقشت دراما انتزاع الملكية التي أنهت المجتمع الأصلي رغيد الحياة في أجساد الأوروبيين الحديثين، ويتم استحضارها في كل مرة يفتحون فيها أفواههم.

في البداية، أدت الأدلة الجديدة إلىٰ زيادة المحاججات العلمية. وتحدىٰ اللغويون علىٰ الفور رينفرو، مجادلين بأنَّ اللغات الأوروبية الحديثة كانت ستختلف عن بعضها البعض كثيرًا لو أنَّها قد انحدرت فعلًا من لسان الأجداد منذ ستة أو سبعة آلاف سنة، وفي عام ١٩٩٦م تحدىٰ فريق من أكسفورد بقيادة بريان سايكس (Bryan Sykes) آراء كافاللي سفورزا في علم الوراثة. وتفحَّص سايكس

الحمض النووي المايتوكوندري بدلًا من الحمض النووي الذي فحصه كافاللي سفروزا، وبدلًا من التقدم جهة الجنوب الشرقي - الشمال الغربي، مثل (الشكل ٢ - ٥)، وحدَّد نمطًا فوضويًّا يصعب تمثيله علىٰ الخريطة بسهولة، وعثر علىٰ ست مجموعات من تسلسل الچينات، واحدة منها فقط يُمكن ربطها بالمهاجرين الزراعيين من غرب آسيا. وأشار سايكس إلىٰ أنَّ المجموعات الخمس الأخرىٰ أقدم بكثير، وتعود في معظمها إلىٰ مُعمِّري أوروبا من خارج أفريقيا منذ ٢٥ إلىٰ ٥٠ ألف سنة، واستنتج أن جميع المجموعات أظهرت أن المزارعين الأوائل في أوروبا هم أساسًا الرعاة الأصليون الذين قرروا الاستقرار وليس أحفاد المهاجرين من منطقة «هيلي فلانكس».



(موضع الشكل ٢ - ٥). قصة مكتوبة بالدم: تفسير لوكا كافالي سفورزا لتركيب أوروبا الوراثي، استنادًا إلىٰ عينة كبيرة من الحمض النووي. وخلُصَ إلىٰ أنَّ هذه الخريطة الجينية التي تظهر درجات من التشابه الوراثي للسكان الحديثين مع المستعمرين

المفترضين من منطقة «هيلي فلانكس»، حيث يمثل الرقم (٨) تشابهًا كاملًا ويمثل الرقم (١) أدنىٰ مستوىٰ للتطابق، (بقياس أول عنصر رئيس في تلاعبه الإحصائي بالنتائج، وهو ما يعد مسؤولًا عن ٩٥٪ من التنوع في العينة) - تبيِّن هذه الخريطة الجينية أنَّ المستعمرين انحدروا من الزراعة المنتشرة من منطقة «هيلي فلانكس» عبر أوروبا. ولكن العديد من علماء الآثار وبعض علماء الچينات الجزيئية يختلفون في ذلك.

واحتدَّ الجدال بين فريق كافالي سفورزا وفريق سايكس علىٰ صفحات المجلة الأمريكية لعلم الوراثة البشري (American Journal of Human Genetics) في عام ١٩٩٧م، ولكن منذ ذلك الحين تقاربت مواقفهم باطراد. ويقدِّر كافاللي سفورزا الآن أنَّ المزارعين المهاجرين من غرب آسيا مسؤولون عن ٢٦ - ٢٨٪ من الحمض النووي الأوروبي؛ بينما يضع سايكس العدد قريبًا من ٢٠%. ويُعدُّ القول بأنَّ واحدًا من مزارعي أوروبا الأوائل قد انحدر من مهاجري جنوب غرب آسيا من بين كل ثلاثة أو أربعة انحدروا من السكان المحليين مبالغةً في التبسيط، ولكنَّه ليس خطأ بليغًا.

القدر

لم تكن ادعاءات رينفرو، ولا ادعاءات كافالي سفورزا، ولا البديل الذي طرحه سايكس -ولا حتىٰ التوافق الناشئ بينهما- لتجعل الطلاب في نانتير أكثر سعادة؛ لأنَّ جميع النظريات تعامل انتصار الزراعة باعتباره أمرًا حتميًا. المنافسة، بحسب ما يعني علم الوراثة وعلم الآثار، لا ترتبط كثيرًا بالامتحانات أو المعلمين؛ لأنَّ الأمر كان منوطًا بنا علىٰ الدوام. ويعني منطق المنافسة أنَّ الأمور كان عليها أن تصير -إلىٰ حدٍّ ما- إلىٰ ما صارت إليه.

ولكن هل هذا صحيح؟ ففي النهاية البشر لديهم إرادة حرة. قد يكون كل من الكسل والجشع والخوف محركات للتاريخ، ولكن يحصل أن كلًا منَّا يختار من بينها. إذا كان ثلاثة أرباع أو أكثر من مزارعي أوروبا الأوائل ينحدرون من الرعاة الأصليين، فبالتأكيد أنَّ أوروبيي عصور ما قبل التاريخ كان يمكنهم أن يوقفوا الزراعة فجأة إذا قرر عدد كافٍ منهم عدم تكثيف الزراعة. فلماذا لم يحدث ذلك؟

لقد حدث ذلك في بعض الأحيان! فبعد النزوح ممَّا يُعرف الآن ببولندا إلىٰ حوض باريس (Paris Basin) في بضع مئات من السنين قبل ٥٢٠٠ ق. م، توقفت موجة التقدم الزراعي (الشكل ٢ - ٤). ولمدة ألف سنة لا يكاد يوجد أي فلاحين غزوا الخمسين أو الستين ميلًا الأخيرة التي تفصلهم عن بحر البلطيق، وشرع عدد قليل من الرعاة في بحر البلطيق بتكثيف الزراعة. وهنا، حارب الرعاة من أجل نمط حياتهم. وعلىٰ طول الحدود التي تفصل المزارعين والرعاة، فإنَّنا نجد أعدادًا كبيرة من المستوطنات المحصنة، وهياكل عظمية لشباب قُتلوا

بإصابات من أدواتٍ غير حادة علىٰ المقدمة والجانب الأيسر من جماجمهم، وهو تمامًا ما نتوقعه إذا ماتوا وهم يتقاتلون وجهًا لوجه مع أعداء أيامن اليد يستخدمون الفؤوس الحجرية. وقد تكون العديد من المقابر الجماعية آثارًا بشعة لتلك المجازر.

ولن نعرف أبدًا ما هي الأفعال البطولية، وتلك الوحشية التي جرت علىٰ طول حافة سهل شمال أوروبا منذ سبعة آلاف سنة، لكنَّ الجغرافيا والاقتصاد فعلا قدر ما فعلته كل من الثقافة والعنف لتثبيت الحدود بين المزراعين والرعاة. لقد عاش رعاة البلطيق في جنة عدن الباردة، حيث دعمت الموارد البحرية الغنية تعداد السكان الكثيف في القرىٰ علىٰ مدار السنة. واكتشف الأثريون أكوامًا من الصدفيات الرائعة، المتبقية من الولائم والتي تراكمت حول القرىٰ. ويبدو أنَّ سخاء الطبيعة قد سمح للرعاة بالحصول علىٰ كعكاتهم (أو قشريات البحر) وتناولها: لقد كان هناك ما يكفي من الرعاة لمواجهة المزارعين، إلَّا أنَّهم لم يكونوا بالكثرة التي تسمح بتحولهم إلىٰ الزراعة لإطعام أنفسهم. وفي الوقت نفسه، فقد وجد المزارعون أنَّ النباتات والحيوانات التي دُجنت أصلًا في منطقة «هيلي فلانكس» كانت أقل فائدة في أقصىٰ الشمال هذا.

نحن لا نعرف بصراحة لماذا تحركت الزراعة في النهاية نحو الشمال بعد ٤٢٠٠ ق. م، فبعض علماء الآثار يرجحون عوامل الضغط، مقترحين أنَّ المزارعين قد تضاعفوا لدرجة أنَّهم سحقوا كل مقاومة؛ بينما يشدد آخرون علىٰ عوامل الجذب، مقترحين أنَّ أزمة ما داخل مجتمع الرعاة مهدت الطريق نحو غزو الشمال. ولكن كيفما انتهىٰ الأمر، فيبدو أنَّ استثناء بحر البلطيق يثبت القاعدة أنَّه ما إن ظهرت الزراعة في منطقة هيلي فلانكس حتىٰ لم يستطع المجتمع رغيد الحياة الأصلي أن يبقىٰ.

وبقولي ذلك، فأنا لا أنكر حقيقة حرية الإرادة. سيكون ذلك من الغباء، بالرغم من أن الكثير من الأشخاص قد استسلموا لهذا الإغراء. فقد اختتم العظيم ليو تولستوي -علىٰ سبيل المثال- روايته «**الحرب والسلم**» باستطرادٍ غريب، نافيًا الإرادة الحرة في التاريخ - وهذا غريب؛ لأنَّ الكتاب مرصع بالقرارات المؤلمة

(والترددات)، والتغيُّرات المفاجئة في الرأي، وعدد ليس بالقليل من الأخطاء الحمقاء ذات التبعات اللحظية في كثير من الأحيان. ومع ذلك، قال تولستوىٰ: «وليست الحرية، بالنسبة إلىٰ التاريخ، سوىٰ التعبير عن الأثر الباقي غير المعروف لِمَا نعرفه من قوانين الحياة البشرية». وتابع:

«إنَّ الاعتراف بالحرية الإنسانية كقوة علىٰ قدر كافٍ من الكِبر بحيث يكون لها تأثيرها في الحوادث . . . ليعادل بالنسبة إلىٰ التاريخ الاعتراف بقوة تحرك الأجرام السماوية بالنسبة إلىٰ علم الفلك . . . فإذا كان في مكنة جسم واحد أن يتحرك بحرية، فقوانين كيبلر ونيوتن لم يعد لها وجود إذن، وما عاد في الإمكان تصور حركة الأجرام السماوية. وكذلك إذا كان ثمة فعل إنساني واحد حر، فليس ثمة -إذن- أي قانون تاريخي، ويصير من المستحيل تصور وقائع التاريخ».

وهذا محض هراء. هراء علىٰ مستوىٰ رفيع بالتأكيد، لكنَّه هراء رغم كل شيء. فقد كان بإمكان أي راعٍ من رعاة ما قبل التاريخ أن يقرر في يوم ما عدم تكثيف الزراعة، وكان بإمكانٍ أي مزارع أن يسير مبتعدًا عن حقوله، أو تسير مبتعدة عن مطحنتها ليجمعا البندق واللوز أو يصيدا الغزلان. وقد فعل ذلك بعضهم بالتأكيد، مع ما كان في ذلك من تبعات جسيمة علىٰ حيواتهم. ولكن علىٰ المدىٰ البعيد لم يهم ذلك؛ لأنَّ التنافس علىٰ الموارد كان يعني أنَّ الأشخاص الذين ظلُّوا يزرعون، أو زرعوا بشكلٍ أقوىٰ، استخلصوا قدرًا من الطاقة أكبر من القدر الذي استخلصه أولئك الذين لم يفعلوا. لقد استمر المزارعون في تغذية مزيد من الأطفال ومزيد من الثروة الحيوانية، واستهلاك مزيد من الحقول، وفي تقليل احتمالات فوز الرعاة. وفي الظروف المناسبة، مثل تلك التي كانت سائدة حول بحر البلطيق في حوالي عام ٥٢٠٠ ق. م، تباطأ توسُّع الزراعة جدًّا. ولكن لم يكن من الممكن استمرار هذه الظروف إلىٰ الأبد.

لقد عانت الزراعة بالتأكيد من انتكاسات محلية (بيدَ أنَّ الرعي الجائر -علىٰ سبيل المثال- قد حوَّل وادي الأردن إلىٰ صحراء في الفترة بين ٦٥٠٠، و٦٠٠٠ ق. م)، ولكن لمنع حدوث كارثة مناخيّة، مثل «ينغر درياس» جديدة، لم تستطع كل الحرية في العالم أن توقف الأنماط الحياتية الزراعية من التمدد لتملأ

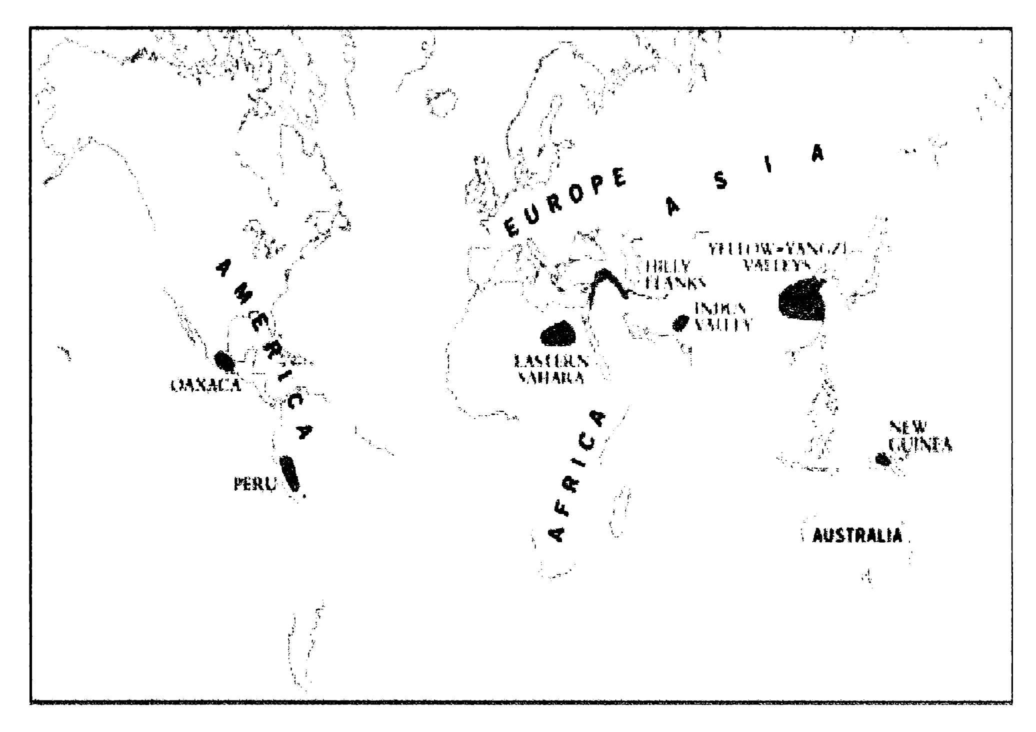
جميع الأماكن المناسبة. لقد أدَّىٰ الجمع بين الهومو سابينز الأذكياء مع المناخ الدافئ والرطب والمستقر بالإضافة إلىٰ النباتات والحيوانات التي يمكن أن تتطور إلىٰ الأشكال المدجنة، كل هذا أدَّىٰ إلىٰ جعل تمدُّد الزراعة بمثابة أمر حتمي أكثر من أي شيء في هذا العالم.

وبحلول عام ٧٠٠٠ ق. م لم تكن المجتمعات الزراعية الدينامية المتمددة في الطرف الغربي من أوروبا الآسيوية مثل أي شيء آخر علىٰ الأرض، وفي هذه المرحلة فمن المنطقي تمييز «الغرب» عن البقية. ولكن بينما كان الغرب يختلف عن البقية، لم تكن تلك الاختلافات دائمة، وخلال آلاف السنين القليلة التي تلت بدأ البشر بشكل مستقل اختراع الزراعة ربما في ستة أماكن عبر خطوط العرض المحظوظة (الشكل ٢ - ٦).

وكانت أقدم وأوضح حالة تمثل ذلك خارج منطقة هيلي فلانكس هي الصين. فقد بدأت زراعة الأرز في وادي نهر يانجتسي بين عامي (٨٠٠٠ و٧٥٠٠ ق. م)، وبدأت زراعة الدخن في شمال الصين في عام (٦٥٠٠ ق. م). وتم تدجين الدخن بالكامل في حوالي عام (٥٥٠٠ ق. م)، والأرز بحلول (عام ٤٥٠٠ ق. م)، وتم تدجين الخنازير بين عامي (٦٠٠٠ و٥٥٠٠ ق. م). وتُشير الاكتشافات الأخيرة إلىٰ أنَّ الزراعة بدأت في الوقت نفسه تقريبًا في العالم الجديد أيضًا. وكان القرع المزروع يتطور تجاه الأشكال المدجنة بحلول عام (٨٢٠٠ ق. م) في وادي نانشوك شمالي بيرو، وبحلول (٧٥٠٠ - ٦٠٠٠ ق. م) في وادي أوكاسا في المكسيك. وظهر الفول السوداني في نانشوك بحلول (٦٥٠٠ ق. م)، وبينما تعود الأدلة الأثرية علىٰ أنَّ نبات «التيوسنت» (teosinte) أو «الذرة البرية» كان آخذًا في التطور إلىٰ الذرة الداجنة في أواكساكا إلىٰ (٥٣٠٠ ق. م)، فإنَّ علماء الوراثة يشتبهون أنَّ العملية قد بدأت بالفعل في وقت مبكر مثل (٧٠٠٠ ق. م).

لقد كانت تدجينات الصينيين، وسكان العالم الجديد مستقلة بالتأكيد عن الأحداث في منطقة هيلي فلانكس، لكن الأمور تُعدُّ أقل وضوحًا في وادي الأندوس في باكستان. فقد ظهر الشعير والقمح والأغنام والماعز الداجنة فجأة

في مهرغارة في حوالي ٧٠٠٠ ق. م، وكان ذلك علىٰ نحو مفاجئ جدًّا لدرجة أنَّ العديد من علماء الآثار يعتقدون أنَّ المهاجرين من منطقة هيلي فلانكس قد حملوها معهم إلىٰ هناك. ويبدو أنَّ وجود القمح له دلالة خاصة؛ لأنَّه لم يُعرِّف أحد حتىٰ الآن قمحًا بريًّا محلِّيًا كان من الممكن أن يتطور منه القمح الداجن في أي مكان بالقرب من مهرغارة. ولم يستكشف علماء النبات المنطقة بدقة (لم يكن للجيش الباكستاني حتىٰ القدرة علىٰ التجول في أنحاء هذه الأراضي القبلية البرية)؛ ولهذا فقد يكون هناك الكثير من المفاجآت في انتظارنا. وبينما تشير الأدلة الراهنة إلىٰ أنَّ الزراعة في وادي الأندوس كانت منبثقة عن تلك التي نشأت في منطقة هيلي فلانكس، فإنَّه ينبغي أن نشير إلىٰ أنَّها مضت في طريقها بسرعة؛ إذ تم تدجين مواشي زيبو (zebu) المحلية بحلول ٥٥٠٠ ق. م، وبزغ مجتمع مدني راقٍ متعلم في ٢٥٠٠ ق. م.



(موضع الشكل ٢ - ٦). الأراضي الموعودة: سبع مناطق في العالم من المحتمل أن يكون قد بدأ فيها تدجين النباتات، أو الحيوانات بشكل مستقل بين (١١٠٠٠ و٥٠٠٠ ق. م).

كانت الصحراء الكبرىٰ أكثر تعرضًا للأمطار حوالي ٧٠٠٠ ق. م ممَّا هي عليه الآن، مع أمطار موسمية تملأ البحيرات كل صيف، ولكنَّها لا تزال مكانًا وحشيًّا للعيش. ومن الظاهر أنَّ المحنة كانت أمَّ الاختراع هنا: فالماشية والأغنام لم تتمكن من البقاء في البريّة، ولكنَّ الرعاة كان بمقدورهم تدبر معيشتهم برعي الحيوانات من بحيرة إلىٰ بحيرة. وبين عامي ٧٠٠٠ و٥٠٠٠ ق. م، حوَّل الرعاة أنفسهم إلىٰ رعويين وحوَّلوا ماشيتهم وأغنامهم البريّة إلىٰ حيوانات أكبر وأكثر ترويضًا.

وبحلول عام ٥٠٠٠ ق. م، كانت الزراعة تظهر في منطقتين مرتفعتين؛ واحدة في بيرو، حيث تُرعىٰ حيوانات اللاما والألبكة وتتحوَّر بذور الكينوا في انتظار من يحصدها، والأخرىٰ في غينيا الجديدة. وقد كانت كانت أدلة غينيا الجديدة مثيرة للجدل مثل تلك التي من وادي الإندوس، لكن يبدو واضحًا الآن أنَّه بحلول ٥٠٠٠ ق. م كان سكان المرتفعات يحرقون الغابات، ويجففون المستنقعات، ويقومون بتدجين الموز والقلقاس.

امتلكت هذه المناطق تاريخًا مختلفًا تمامًا، ولكن مثل منطقة «هيلي فلانكس»، كان كل منها يمثل نقطة البدء لتقليد اقتصادي واجتماعي وثقافي مميَّز، استمر حتىٰ يومنا هذا. وهنا يمكن أخيرًا أن نُجيب عن السؤال الذي تابعنا منذ الفصل الأول، عن كيفية تعريف الغرب. لقد رأينا انتقادات المؤرخ ديفيس نورمان لِمَا أسماه «الجغرافيا المطاطة» عن تعاريف الغرب، «المصممة» علىٰ حدِّ قوله؛ «لتعزيز مصالح واضعيها». لكنَّ دافيز أخذ الصالح بالطالح، رافضًا التحدث عن الغرب تمامًا. وبفضل العمق الزمني الذي يوفره علم الآثار، يمكننا الآن أن نفعل ما هو أفضل.

ترجع حضارات العالم الحديث إلىٰ هذه الوقائع الأصلية للتدجين في نهاية العصر الجليدي. وليست هناك حاجة لجعل الخلافات الفكرية التي يصفها ديفيز تسلب منا «الغرب» باعتباره مقولة تحليلية: إنَّه ببساطة مصطلح جغرافي، يرمز إلىٰ تلك المجتمعات التي انحدرت من أقصىٰ غرب مركز التدجين الأوروبي الآسيوي، في منطقة هيلي فلانكس. فلا معنىٰ للحديث عن «الغرب» بوصفه

منطقة مميزة قبل حوالي ١١ ٠٠٠ ق. م، وذلك عندما بدأت الزراعة في جعل منطقة «هيلي فلانكس» منطقة استثنائية؛ وأصبح المفهوم أداة تحليلية مهمّة فقط بعد ٨٠٠٠ ق. م، وذلك عندما بدأت مراكز زراعية أخرىٰ في الظهور. وبحلول ٤٥٠٠ ق. م توسَّع الغرب، ليشمل معظم أوروبا، وفي الخمسمائة سنة الأخيرة أخذه المستعمرون إلىٰ الأمريكتين، والأجزاء الواقعة في الجهة المقابلة من الكرة الأرضية، وسيبيريا. أما «الشرق» فيعني ببساطة -اعتياديًّا بما يكفي- تلك المجتمعات التي انحدرت من مركز التدجين في أقصىٰ الشرق، والذي بدأ في التطور في الصين في ٧٥٠٠ ق. م. ويُمكننا أيضًا الحديث عن عالم جديد مشابه في جنوب آسيا وغينيا الجديدة، والتقاليد الأفريقية. ويعني سؤال «لماذا يهيمن الغرب؟» حقًّا السؤال عن سبب هيمنة المجتمعات التي انحدرت من المركز الزراعي في منطقة «هيلي فلانكس»، بدلًا من تلك المناطق التي انحدرت من الصين أو المكسيك أو وادي الإندوس أو الصحراء الشرقية أو بيرو أو غينيا الجديدة.

وتقفز هنا إحدىٰ نظريات المدىٰ الطويل إلىٰ الذهن فورًا: وهو أنَّ الناس في هيلي فلانكس -الغربيين الأوائل- قاموا بتطوير الزراعة قبل أي شخص آخر في العالم بآلاف السنين؛ لأنَّهم كانوا الأكثر ذكاء. وقد ورَّثوا ذلك الذكاء في جيناتهم ولغاتهم عندما انتشروا عبر أوروبا؛ وقد أخذ الأوروبيون ذلك معهم عندما استعمروا أجزاءً أخرىٰ من العالم بعد ١٥٠٠ ق. م؛ ولهذا يهيمن الغرب.

ومثل النظريات العِرقيّة التي نُوقشت في الفصل الأول، فإنَّ هذه النظرية بالتأكيد خاطئة لأسباب شرحها بقوة چاريد دياموند (Jared Diamond) في كتابه الكلاسيكي «البنادق والجراثيم والفولاذ» (Guns, Germs, and Steel). فالطبيعة -كما لاحظ چاريد- ليست عادلة؛ فقد ظهرت الزراعة في منطقة هيلي فلانكس قبل آلاف السنين من ظهورها في أي مكان آخر، ليس لأنَّ الناس الذين كانوا يعيشون هنا كانوا أذكياء علىٰ نحو فريد؛ ولكن لأنَّ الجغرافيا منحتهم بداية مبكرة.

هناك ٢٠٠ ألف نوع من النباتات في العالم اليوم، كما علَّق دياموند، ولكن ألفين منها فقط قابلة للأكل، وفقط بضع مئات منها لديها القابلية للتدجين. وفي الحقيقة: تأتي أكثر من نصف السعرات الحرارية التي تُستهلك اليوم من الحبوب، وقبل كل شيء من القمح والذرة والأرز والشعير والذرة البيضاء. كما أنَّ الأعشاب البريّة التي تطوَّرت منها هذه الحبوب ليست منتشرة بالتساوي في أنحاء العالم. ومن بين ستة وخمسين عشبًا يمتلك بذورًا أكبر وأكثر تغذية، فهناك اثنان وثلاثون منها تنمو بريًّا في جنوب غرب آسيا وحوض البحر الأبيض المتوسط. ولدىٰ شرق آسيا ستة أنواع بريّة، وخمسة في أمريكا الوسطىٰ، وأربعة في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرىٰ، وأربعة أيضًا في أمريكا الشمالية، واثنان في كل من أستراليا وأمريكا الجنوبية، وواحد في أوروبا الغربية. فإذا كان البشر (في مجموعات كبيرة) متشابهين كثيرًا، وكان الرعاة في جميع أنحاء العالم متساوين تقريبًا في الكسل والجشع والخوف؛ فمن المرجح بشدة الاعتقاد بأنَّ البشر في منطقة هيلي فلانكس كانوا سيقومون بتدجين النباتات والحيوانات قبل غيرهم؛ لأنَّهم كانوا يملكون موادَّ خامًا واعدة أكثر ليستخدموها.

وكان لدىٰ منطقة هيلي فلانكس مزايا أخرىٰ أيضًا، فقد تطلب الأمر تحولًا جينيًا واحدًا فقط لتدجين الشعير والقمح البريين، لكنَّ تحويل «التيوسينت» (الذرة البريّة) إلىٰ شيء متعارف عليه كالذرة تطلب العشرات من التحولات الجينية. ولم يكن الذين دخلوا أمريكا الشمالية في حوالي عام ١٤٠٠٠ ق. م أقل كسلًا، أو أشد غباءً من أي شخص آخر، ولم يخطئوا علىٰ السواء بمحاولتهم تدجين «التيوسينت» بدلًا من القمح. فلم يكن هناك قمح بريٌّ في العالم الجديد. ولم يكن ممكنًا للمهاجرين أن يجلبوا المحاصيل الداجنة معهم من العالم القديم؛ لأنَّهم كانوا يستطيعون الدخول إلىٰ الأمريكتين فقط عندما كان هناك جسر بريٌّ من آسيا. وعندما عبروا قبل أن أغرقت المحيطات المرتفعة الجسر البريَّ في حوالي ١٢٠٠٠ ق. م، لم تكن هناك محاصيل غذائية لإحضارها، وفي الوقت الذي كان يوجد فيه محاصيل غذائية داجنة، كان الجسر البريُّ قد غرق.

وبالتحوُّل من زراعة المحاصيل للحيوانات، فقد فضَّلت الاحتمالات منطقة هيلي فلانكس تقريبًا بالقوة نفسها. يوجد (١٤٨) نوعًا من الثدييات الكبيرة (التي يزيد وزنها عن مائة رطل) في العالم. وبحلول ١٩٠٠ ق. م تم تدجين (١٤ منهم) فحسب. وكان (٧) من بين الـ (١٤) من أصل جنوب غرب آسيوي؛ ومن بين أهم (٥) حيوانات داجنة في العالم (الأغنام والماعز والبقر والخنازير والخيل)، كان لكل منها سلف في منطقة هيلي فلانكس عدا الحصان. وكان لدىٰ شرق آسيا (٥) من الـ (١٤) نوعًا القابلة للتدجين، بينما كان لدىٰ أمريكا الجنوبية نوع واحد فقط. ولم يكن لدىٰ أمريكا الشمالية وأستراليا وأفريقيا إلىٰ جنوب الصحراء أي منها علىٰ الإطلاق. تعجّ أفريقيا -بطبيعة الحال- بالحيوانات الكبيرة، ولكن هناك تحديات واضحة في تدجين أنواع مثل الأسود الذين سيأكلونك، أو الزرافات التي يمكنها التغلب حتىٰ علىٰ الأسود.

لا ينبغي لنا -إذن- أن نفترض أنَّ البشر في منطقة هيلي فلانكس اخترعوا الزراعة؛ لأنَّهم أعلىٰ عرقيًّا أو ثقافيًّا. لقد أتقنوها قبل غيرهم؛ لأنهم عاشوا بين عدد أكبر وأكثر سهولة في الترويض من النباتات والحيوانات أكثر من أي شخص آخر. لقد كانت تجمُّعات الحيوانات والنباتات البريّة في الصين أقل مواتاة، ولكنها كانت جيدة؛ وربما أتىٰ التدجين بعد ألفي عام لاحقة هناك. واحتاج الرعاة في الصحراء، الذين كان لديهم غنم وماشية للعمل معها، إلىٰ خمسمائة سنة أخرىٰ، وفي ظل أنَّ الصحراء لم يكن ممكنًا أن تدعم المحاصيل، فلم يصبحوا مزارعين أبدًا. وكان لدىٰ أهالي غينيا الجديدة مشكلة معاكسة، حيث كان لديهم مدىٰ ضيق من النباتات، ولا توجد حيوانات كبيرة قابلة للتدجين. وقد احتاجوا إلىٰ ألفي عام أكثر، لكنهم لم يصبحوا رعاة أبدًا. لم تتطور المراكز الزراعية في الصحراء وفي غينيا الجديدة علىٰ عكس منطقة هيلي فلانكس، والصين، ووادي الإندوس، وأوكساكا، وبيرو، ولم تتطور مدنها ولم تتطور حضارات علمية - ليس لأنَّها أدنىٰ؛ ولكن بسبب افتقارها إلىٰ الموارد الطبيعية.

وكان لدىٰ الهنود الحمر عمل أكثر من الأفارقة وسكان غينيا الجديدة، ولكنَّه أقل من سكان منطقة هيلي فلانكس وسكان الصين. وتحرك سكان أواكاسا

والإنديز سريعًا، حيث زرعوا النباتات (لكنهم لم يدجنوا الحيوانات) خلال خمسة وعشرين قرنًا من نهاية فترة «ينجر درياس». وتطلب الأمر خمسة قرون إضافية لتدجين الديوك الرومية وحيوان اللاما، وهي حيواناتهم المدجنة الوحيدة بخلاف الكلاب.

أمَّا الأستراليون، فقد امتلكوا أقل الموارد من بين الجميع، وتظهر الحفريات الأخيرة أنَّهم جرَّبوا زراعة الأنقليس، وربما لأنشأت بضعة آلاف أخرىٰ من السنين أنماط حياة داجنة. لكن بدلًا من ذلك، غلبهم المستعمرون الأوروبيون في القرن الثامن عشر، باستيراد القمح والأغنام، المنحدرين من الثورة الزراعية الأصلية في منطقة هيلي فلانكس.

وبقدر ما يمكننا قوله حتىٰ الآن، فقد كان البشر متشابهين كثيرًا في كل مكان. وقد منح الاحتباس الحراري العالمي الجميع خيارات جديدة، تراوحت بين العمل بقدر أقل أو بالمقدار نفسه، وأكل المزيد، أو إنجاب المزيد من الأطفال، حتىٰ ولو كان ذلك يعني العمل الشاق. وقد منحهم نظام المناخ الجديد أيضًا خيارَ العيش في مجموعات أكبر والتجوال بقدر أقل. وفي كل مكان في العالم، حلَّ أولئك الذين اختاروا البقاء والتوالد والعمل أكثر محلَّ أولئك الذين اختاروا خيارات مختلفة. لقد أدت الطبيعة إلىٰ بدء السيرورة بأكملها مبكرًا في الغرب.

وربما كان الأمر كذلك، ربما سيوافق المدافعون عن نظريات المدىٰ الطويل، أي: ربما فعلًا البشر هم أنفسهم في كل مكان، وربما جعلت الجغرافيا مهمة الغربيين أسهل. ومع ذلك، فإنَّ هناك من الأمور في التاريخ ما هو أكثر من مجرد المناخ وحجم البذور. ومن المؤكد أنَّ تفاصيل خيارات البشر الخاصة ما بين العمل بقدر أقل أو الإكثار من الأكل، وتنشئة عائلات أكبر مهمّة أيضًا. فنهاية القصة غالبًا ما تكون مكتوبة في بدايتها، وربما يهيمن الغرب اليوم؛ لأنَّ الحضارة التي نشأت في منطقة هيلي فلانكس منذ أكثر من عشرة آلاف سنة، التي هي بمثابة الحضارة الأم التي انحدرت منها جميع المجتمعات الغربية اللاحقة، كان لديها قابلية وقدرة أكبر من الحضارات التي نشأت في المراكز الرئيسة الأخرىٰ حول العالم.

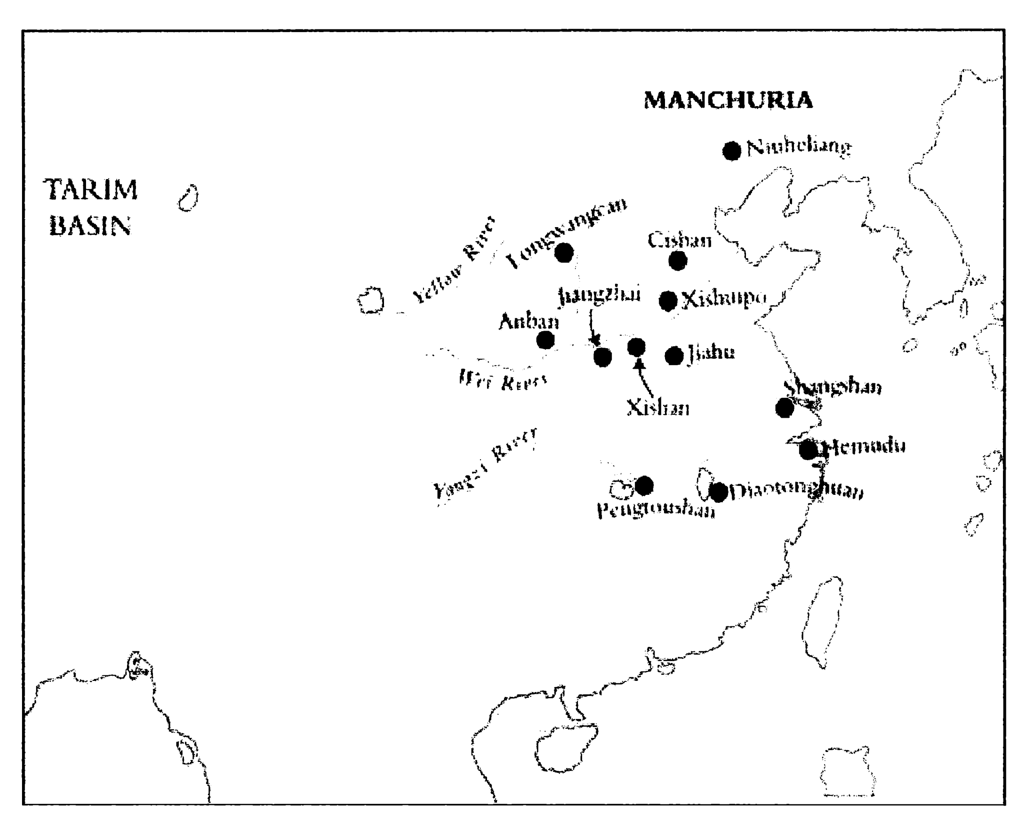
لكن لنلقِ نظرة -إذن- علىٰ أقدم حضارة (في وقتنا الراهن) وأقواها، والأفضل توثيقًا خارج الغرب، تلك التي بدأت في الصين. إنَّنا بحاجة لمعرفة قدر الاختلاف بين أقدم حضارتها الزراعية، وأقدم الحضارات الزراعية التي في الغرب، وما إذا وضعت هذه الاختلافات الشرق والغرب علىٰ مسارين مختلفين، الأمر الذي يفسر لماذا غدت المجتمعات الغربية تهيمن علىٰ العالم.

حتىٰ عهد قريب كان علماء الآثار يعرفون القليل جدًّا عن بدايات الزراعة في الصين. بل ظنَّ كثير من العلماء أنَّ الأرز -وهو رمز المطبخ الصيني في يومنا هذا- بدأ تاريخه في تايلاند وليس الصين. وقد أظهر اكتشاف زراعة الأرز البري في وادي نهر يانجتسي في عام ١٩٨٤م أنَّه من المحتمل أنَّ الأرز قد تم تدجينه

هنا في نهاية المطاف، ولكن التأكيد الأثري المباشر ظل صعب المنال. وكانت المشكلة هي أنَّه بينما أحرق الخبازون بعض خبزهم بلا رجعة، ممَّا أدىٰ للحفاظ علىٰ القمح المتفحم، أو بذور الشعير للأثريين كي يتمكنوا من العثور عليها؛ فإن الغلي -وهو الطريقة المعقولة لطهي الأرز- نادرًا ما كان يؤدي لمثل هذا المصير؛ وبالتالي: من الأصعب بكثير بالنسبة إلىٰ الأثريين استرداد الأرز القديم.

بيدَ أنَّ قليلًا من العبقرية قد ساعد علماء الآثار لاجتياز هذه العقبة. فقد لاحظ المنقبون في عام ١٩٨٨م في بنجتوشان في وادي يانجتسي (الشكل ٢-٧) أنَّه في حوالي ٧٠٠٠ ق. م بدأ صانعو الفخار بخلط قشور الأرز وعيدانه مع طميهم لمنع قدورهم من التشقق في الأفران، وقد كشفت دراسة دقيقة عن علامات مؤكدة تشير إلىٰ أنَّ هذه النباتات كانت تتم زراعتها.

لكن الإنجازات العلمية الحقيقية بدأت في عام ١٩٩٥م عندما انضم يان ون مينج (Yan Wenming) من جامعة بكين إلىٰ عالم الآثار الأمريكي ريتشارد ماكنيش (Richard MacNeish) باعتبارهما باحثين ميدانيين تميَّزا بالالتزام أكثر من أي فريق في العالم. (وقد سجَّل ماكنيش، الذي بدأ الحفر في المكسيك في أربعينيات القرن العشرين، رقمًا مذهلًا استمر إلىٰ ٥٦٨٣ يومًا في الخنادق - قرابة عشرة أضعاف ما تمنكتُ من فعله، وعندما توفي في عام ٢٠٠١م، في سن الثانية والثمانين في حادث أثناء عمل ميداني في بليز، كان لا يزال يرتدي حذاءه الطويل. ويُقال إنّه تحدث عن علم الآثار مع سائق سيارة الإسعاف طوال الطريق إلىٰ المستشفىٰ). ولم يجلب ماكنيش إلىٰ الصين عقودًا من الخبرة في دراسة الزراعة المبكرة فحسب، لكنَّه جلب أيضًا عالمة الآثار النباتية ديبورا بيرسال (Deborah Pearsall)، والتي جلبت بدورها تقنية علمية جديدة. وعلىٰ الرغم من أنَّ الأرز نادرًا ما يبقىٰ في الترسبات الأثرية، فإنَّ كل النباتات تمتص كميات صغيرة من السيليكا من المياه الجوفية. وتملأ السليكا بعض خلايا النباتات، وعندما يتحلَّل النبات؛ فإنَّه يترك خلفه حجارة مجهرية شبيهة بالخلية، تسمىٰ فايتوليث (phytoliths) في التربة. وتكشف الدراسة المتأنية للفايتوليث ليس فقط ما إذا كان الأرز قد أُكل، ولكن أيضًا ما إذا كان قد تمَّ تدجينه.



(موضع الشكل ٢ - ٧). بداية الشرق: المواقع التي تمت مناقشتها في هذا الفصل فيما يُعرف الآن بالصين.

قام كل من يان وماكنيش بحفر خندق بعمق ١٦ قدمًا في كهف دياو تونج هوان بالقرب من وادي يانجتسي، واستطاعت بيرسال أن تُبيِّن بعد فحص الفايتوليث أنَّه بحلول ١٢٠٠٠ ق. م كان البشر يقتلعون جذور الأرز البري ويرجعونها إلىٰ الكهف. ومثل منطقة هيلي فلانكس، حيث ازدهر القمح والشعير والجاودار في ظل ارتفاع درجة الحرارة في العالم، كان هذا هو العصر الذهبي للصيد وجني الثمار. ولا توجد إشارة في الفايتوليثس علىٰ أنَّ الأرز كان يتطوَّر نحو الأشكال المدجنة بالطريقة نفسها التي تطوَّر بها الجاودار في منطقة تل أبي هريرة، ولكن من الواضح أنَّ فترة «الينجر درياس» كانت مدمِّرة في وادي يانجتسي مثلما كانت في الغرب. وقد اختفىٰ تقريبًا الأرز البري من دياو تونج هوان في عام ١٠٥٠٠ ق. م، فقط ليعود عندما تحسن الطقس بعد ٦٩٠٠ ق.م. وقد غدت الأواني الفخارية الخشنة والتي ربما كانت أوعية لغلي الحبوب أكثر

انتشارًا في ذلك الوقت (٢٥٠٠ سنة قبل أول ظهور لصناعة الفخار في منطقة هيلي فلانكس). وفي حوالي ٨٠٠٠ ق. م، بدأ الفايتوليث يصبح أكبر، فيما يُعدُّ علامة أكيدة علىٰ أنَّ البشر كانوا يزرعون الأرز البري. وفي ٧٥٠٠ ق. م كان كل من الحبوب البرية والمزروعة شائعة بالقدر نفسه في دياو تونج هوان، وبحلول ٦٥٠٠ ق. م كانت الحبوب البرية قد اختفت، تمامًا.

وتدعم مجموعة من الحفريات في دلتا يانجتسي هذا الإطار الزمني منذ عام ٢٠٠١م، وفي ٧٠٠٠ ق. م بدأ البشر بوضوح في زراعة الدخن في وادي النهر الأصفر. وقد زُرع في موقع چياهو -وهو موقع استثنائي بين نهر يانجتسي والنهر الأصفر- الأرز والدخن وربما أيضًا حدث فيه تدجين الخنازير في ٧٠٠٠ ق. م، وقد أدىٰ حريق في كيشان في حوالي ٦٠٠٠ ق. م إلىٰ حرق ما يقرب من ربع مليون رطل من حبوب الدخن الكبيرة في ثمانين حفرة للتخزين وحفظها. وفي قاع بعض الحفر -تحت الدخن- كانت هناك هياكل عظمية كاملة لكلاب وخنازير، وهي تمثِّل بعض الأدلة الصينية المبكرة علىٰ تدجين الحيوانات.

وكما هو الأمر في الغرب، شمل التدجين تغييرات صغيرة لا حصر لها عبر قرون عديدة في مجموعة من المحاصيل والحيوانات والتقانات. وقد منح ارتفاع منسوب المياه في هيمودو في دلتا نهر يانجتسي علماء الآثار طفرة كبيرة، وذلك بالحفاظ علىٰ كميات كبيرة من الأرز المغمور بالمياه بالإضافة إلىٰ أدوات من الخشب والخيزران، يعود تاريخها جميعًا إلىٰ ٥٠٠٠ ق. م. وبحلول ٤٠٠٠ ق. م تم تدجين الأرز بالكامل، معتمدًا علىٰ جامعي المحاصيل بالقدر نفسه الذي اعتمد به القمح والشعير عليهم في الغرب. كما تسنَّىٰ أيضًا لمجموعة "emudans" الاستفادة من الجاموس المائي الداجن وكانوا يستخدمون عظم لوح كتف الجاموس باعتباره مجرفة. وفي وادي «وي» في شمال الصين وثَّق علماء الآثار التغيير المستمر من الصيد نحو الزراعة الشاملة بعد عام ٥٠٠٠ ق. م. وكان هذا جليًا في الأدوات المستخدمة: حلَّت المجارف الحجرية والمعازق محل الفؤوس في الوقت الذي انتقل فيه البشر من مجرد إزالة رقع في الغابة إلىٰ زراعة حقول مستدامة، وأصبحت المجارف أكبر في الوقت الذي جعل فيه المزارعون التربة

أكثر عمقًا. وفي وادي يانجتسي ربما تعود حقول الأرز القابلة للتمييز ذات الضفاف المرتفعة من أجل الفيضان إلىٰ ٥٧٠٠ ق. م.

وقد بدت القرىٰ الصينية المبكرة، مثل چياهو في ٧٠٠٠ ق. م تقريبًا، تمامًا مثل القرىٰ الأولىٰ في منطقة هيلي فلانكس؛ حيث الأكواخ الصغيرة والدائرية تقريبًا وشبه الجوفية، وأحجار الرحىٰ والمدافن بين المنازل. وقد عاش ما بين خمسين إلىٰ مائة شخص في چايهو. وكان أحد الأكواخ أكبر قليلًا من الأكواخ الأخرىٰ، ولكنَّ التوزيع المنسجم جدًّا للاكتشافات يشير إلىٰ أن الفروق بين الجنسين، وفي الثروة كانت لا تزال ضعيفة، وأن الطبخ والتخزين كانا أمرين شائعين. تغيَّر ذلك بحلول ٥٠٠٠ ق. م، عندما كان لدىٰ بعض القرىٰ (١٥٠ مقيمًا) وتحميها الخنادق. في چيانجزهاي -أفضل موقع موثَّق لهذا التاريخ- كانت الأكوخ تواجه منطقة مفتوحة تتضمن كومتين كبيرتين من الرماد، الذي قد يكون بقايا شعائر اجتماعية.

تبدو قرابين چيانجزهاي -إذا كانت كذلك- عادية مقارنة بأماكن العبادة التي ظل الغربيون يبنونها لعدة آلاف من السنين، ولكن تشير مجموعتان بارزتان من الاكتشافات في المقابر في چايهو إلىٰ أنَّ الدين والأجداد كانوا بالقدر نفسه من الأهمية الذي كانوا عليه في منطقة هيلي فلانكس. وتتضمن المجموعة الأولىٰ أكثر من ثلاثين مزمارًا منحوتًا من عظام الجناح لطائر الكركي الياباني، وجميعها عُثر عليها في مدافن الذكور الأكثر ثراءً من المتوسط. ويمكن حتىٰ الآن العزف علىٰ خمسة من تلك المزامير. كان لأقدمها، الذي يعود لحوالي (٧٠٠٠ ق. م)، خمسة أو ستة ثقوب، وبينما لم تكن المزامير دقيقة للغاية، فلا يزال ممكنًا عزف الأغاني الصينية الشعبية الحديثة عليها. وبحلول ٦٥٠٠ ق. م كانت سبعة ثقوب هي الشكل المعتاد، وكان لصانعي المزامير درجة الصوت نفسها، ممَّا يعني علىٰ الأرجح أن مجموعات من الزمّارين كانوا يعزفون معًا. وقد احتوىٰ قبر يعود إلىٰ ٦٠٠٠ عام ق. م تقريبًا علىٰ مزمار ذي ثمانية ثقوب، يمكن أن تعزف عليه أي نغمة حديثة.

كل ذلك مثير جدًّا؛ ولكن أهمية المزامير تتجلىٰ في أربع وعشرين مقبرة لذكور أغنياء تحتوي علىٰ صدفات سلاحف، تحتوي (١٤) منها علىٰ علامات بسيطة منحوتة عليها. في إحدىٰ المقابر التي يعود تاريخها إلىٰ نحو (٦٢٥٠ ق. م)، أُزيل رأس المتوفي (ظلال شاتالهويوك!)، وتم استبدالها بـ (١٦ صدفة سلحفاة)، اثنتان منها منقوشتان. بعض هذه العلامات -في نظر بعض الباحثين علىٰ الأقل- تبدو علىٰ نحو مدهش، مثل المخططات المصوّرة في النظام الكتابي الصيني الكامل، والذي استخدمه ملوك سلالة شانغ في الصين بعد خمسة آلاف سنة.

وسأعود إلىٰ نقوش شانغ في الفصل الرابع، ولكن هنا أريد التنبيه علىٰ أنَّه بينما تبلغ الفجوة بين علامات چياهو (حوالي ٦٢٥٠ ق. م)، وأول نظام للكتابة السليمة في الصين (حوالي ١٢٥٠ ق. م) تقريبًا طول الفجوة نفسها بين الرموز الغريبة من الجرف الأحمر في سورية (نحو ٩٠٠٠ ق. م)، وأول كتابة سليمة في هيلي فلانكس (حوالي ٣٣٠٠ ق. م)؛ فإنَّ الصين لديها المزيد من الأدلة علىٰ الاستمرارية. لقد أفرزت عشرات المواقع الجرّة الغريبة ذات العلامة المنقوشة خاصة بعد (٥٠٠٠ ق. م). ومع ذلك: يختلف المتخصصون بشدة حول ما إذا كانت الخدوش البدائية في چياهو هي أسلافًا مباشرة لنظام كتابة شانغ الذي يتكون من خمسة آلاف رمز.

وليست حقيقة أنَّ الكثير جدًّا من نقوش شانغ قد نُقشت أيضًا علىٰ أصداف السلاحف، بأقل الحجج المؤيدة لتلك الارتباطات. لقد استخدم ملوك شانغ هذه الأصداف في الطقوس للتنبؤ بالمستقبل، وتعود آثار هذه الممارسة بالتأكيد إلىٰ ٣٥٠٠ ق. م؛ فهل من الممكن -كما يتساءل الآن منقبو چياهو- أن ارتباط أصداف السلاحف والكتابة والأسلاف والتنجيم والقوة الاجتماعية قد بدأ قبل (٦٠٠٠ ق. م)؟ كما يعلم أي شخص قرأ لكونفوشيوس، فإنَّ الموسيقىٰ والطقوس قد توافقا في القرن الأول قبل الميلاد في الصين؛ فهل من الممكن أن تكون المزامير وأصداف السلاحف والكتابات في مقابر چياهو دلائل علىٰ أنَّ متخصصين في الطقوس كانوا قادرين علىٰ التحدث مع الأسلاف قد ظهروا منذ أكثر من خمسة آلاف سنة؟

ستكون تلك استمرارية مميزة، لكن هناك أوجه تشابه بينها وبين الطقوس التي سبق ذكرها. ففي وقت سابق ذكرتُ في الفصل الأول التماثيل الغريبة ثنائية الرأس ذات العيون العملاقة الشاخصة والتي يرجع تاريخها إلىٰ نحو (٦٦٠٠ ق. م)، عُثر عليها في «عين غزال» في الأردن؛ وأشار دينيس شميت بيسيرات (Denise Schmandt-Besserat) -وهو مؤرخ للفن- إلىٰ أنَّ أوصاف الآلهة المكتوبة في هيلي فلانكس في حوالي (٢٠٠٠ ق. م)، تشبه هذه التماثيل علىٰ نحو مدهش. في الشرق والغرب، علىٰ السواء، بقيت بعض عناصر أديان المزارعين الأوائل لفترة طويلة للغاية.

وحتىٰ قبل الاكتشافات في چياهو، أشار كوانغ تشيه تشانغ (Kwang-chih Chang) من جامعة هارفرد -عراب علم الآثار الصيني في أمريكا منذ ستينيات القرن العشرين حتىٰ وفاته في عام (٢٠٠١م)- إلىٰ أنَّ أول بشر أقوياء بالفعل في الصين كانوا هم الشامان (shamans)، الذين أقنعوا الآخرين بأنَّهم يستطيعون التحدث إلىٰ الحيوانات والأسلاف، وأنَّهم يستطيعون الطيران بين العالمين واحتكار الاتصال بالسماء. عندما قدَّم تشانغ هذه النظرية في ثمانينيات القرن المنصرم، أتاحت له الأدلة المتوفرة تتبع أثر هؤلاء المتخصصين إلىٰ عام ٤٠٠٠ ق. م فقط، وهو وقت كانت المجتمعات الصينية تشهد فيه تغيُّرًا سريعًا، وكانت فيه بعض القرىٰ تتحول إلىٰ مدن. وبحلول ٣٥٠٠ ق. م كان لدىٰ بعض المجتمعات اثنان أو ثلاثة آلاف ساكن، مثلما كان لدىٰ شاتال هويوك أو عين غزال منذ ثلاثة آلاف سنة قبل ذلك، واستطاعت حفنة من المجتمعات نقل آلاف العمَّال لبناء تحصينات من طبقات فوق بعضها البعض من التربة المدكوكة (فالمباني الحجرية الجيدة نادرة في الصين)، فالسور الأكثر إثارة للإعجاب في شيشان، كان بسُمك (١٠ إلىٰ ١٥ قدمًا)، وامتد بطول أكثر من ميل. وحتىٰ اليوم، لا يزال قائمًا بطول ثمانية أقدام في بعض المناطق. وربما كانت أجزاء من الهياكل العظمية للأطفال في الأواني الفخارية تحت الأساسات هي قرابين، وقد احتوت العديد من الحفر المليئة بالرماد داخل المستوطنات علىٰ بالغين في أوضاع تدل علىٰ المعاناة، اختلطت عظامهم -أحيانًا- بعظام الحيوانات. وربما كانت تلك أعمال قتل طقوسية مثل تلك الموجودة في شايونو في تركيا، وهناك بعض

الأدلة التي تشير إلىٰ أنَّ هذه الطقوس البشعة تعود إلىٰ عام ٥٠٠٠ ق. م في الصين.

إذا كان تشانغ محقًّا بأنَّ الشامان كانوا يتولون أدوار القيادة بحلول ٣٥٠٠ ق. م، فربما كانوا يعيشون في بيوت كبيرة، تغطي ما يصل إلىٰ أربعة آلاف قدم مربع، والتي ظهرت الآن في بعض المدن (غالبًا ما يطلق علماء الآثار عليها (قصورًا) رغم أنَّ ذلك مبالغ فيه قليلًا). كان لدىٰ هذه البيوت أرضيات من الجبس، ومواقد كبيرة في الوسط، وحفر رماد تحوي عظام حيوانات (هل هي قرابين؟). واحتوت إحدىٰ الحفر علىٰ جسم أبيض من الرخام يشبه الصولجان. أمَّا أهم «قصر» في منطقة أنبان، فقد كان مُشيدًا علىٰ أرض مرتفعة في وسط المدينة. وكان لديه قواعد لأعمدة حجرية، وكان مُحاطًا بحفر مليئة بالرماد بعضها يحتوي علىٰ فكوك خنازير مطلية باللون الأحمر وجماجم خنازير أخرىٰ ملفوفة في قماش وتماثيل أخرىٰ ذات أنوف كبيرة ولِحًىٰ وقبعات غريبة مدببة (مثل قبعات ساحرات الهالويين).

وثمة شيئان في هذه التماثيل يثيران علماء الآثار:

أولًا: أنَّ تقليد صناعتها قد بقي لآلاف السنين، وثمة نموذج شبيه جدًّا عُثر عليه في أحد القصور ويرجع تاريخه إلىٰ حوالي (١٠٠٠ ق. م) طُلي الرمز الصيني «وو» علىٰ قبعته. ومعنىٰ «وو»: «الوسيط الديني»، ويخلص بعض علماء الآثار إلىٰ أنَّ كل هذه التماثيل، بما في ذلك تلك التي من أنبان، لا بُدَّ وأنَّها تمثل الشامان.

وثانيًا: فإنَّ الكثير من التماثيل يبدو قوقازيًا بوضوح، وليس صينيًّا. وقد تم العثور علىٰ نماذج مشابهة علىٰ طول الطريق من أنبان إلىٰ تركمانستان في وسط آسيا، علىٰ طول الطريق الذي أصبح فيما بعد طريق الحرير الذي يربط بين الصين وروما. وما زالت الشامانية قوية في سيبيريا حتىٰ يومنا هذا؛ وفي مقابل المال، سيظل المُنجِّمون يستحضرون الأرواح، ويتنبؤون بالمستقبل للسيَّاح المغامرين. وربما تدل تماثيل أنبان علىٰ أنَّ الشامان من براري آسيا الوسطىٰ قد اندمجوا في التقاليد الصينية للسلطة الدينية حوالي ٤٠٠٠ ق. م؛ وقد تعني التماثيل -كما

يعتقد بعض علماء الآثار- أنَّ الشامان في منطقة هيلي فلانكس، الذين يعودون إلىٰ ١٠٠٠٠ سنة ق. م، كان لهم تأثيرات بعيدة جدًّا في الشرق.

وتشير أجزاء أخرىٰ من الأدلة أنَّ هذا ممكن تمامًا. أمَّا أكثر الأدلة استثنائية، فهي مجموعة من المومياوات من حوض تاريم (Tarim Basin)، ظلَّت غير معروفة بالكامل تقريبًا للغربيين إلىٰ أن منحتها مجلات ديسكوفر، وناشيونال جيوجرافيك، وآركيولوجي، وساينتيفيك أمريكان حملة دعائية في منتصف التسعينيات. وتثبت سمات المومياويات القوقازية بما لا يدع مجالًا للشكِّ أنَّ ثمة بشرًا قد تحركوا من وسط بل وحتىٰ غرب آسيا إلىٰ أطراف الصين الشمالية الغربية بحلول عام ٢٠٠٠ ق. م. وفي مصادفة تفوق حدَّ التصديق، لم يكن لدىٰ المدفونين في حوض تاريم لِحًىٰ وأنوف كبيرة فقط، مثل تماثيل أنبان، ولكنَّهم كانوا أيضًا مولعين بالقبعات المدببة (احتوىٰ أحد القبور علىٰ عشر قبعات صوفية).

من السهل أن يصبح المرء شديد الحماسة تجاه بضعة اكتشافات غير معتادة، ولكن حتىٰ مع وضع النظريات الأكثر جموحًا جانبًا، يبدو أنَّ السلطة الدينية في الصين القديمة كانت بالأهمية نفسها في منطقة هيلي فلانكس. وإذا بقيت أي شكوك، فيجب أن يبددها اكتشافان بارزان في الثمانينيات. لقد ذُهل علماء الآثار لعثورهم علىٰ مقبرة تعود إلىٰ حوالي ٣٦٠٠ عام ق. م تحتوي علىٰ رجل بالغ مُحاط بصور لتنين ونمر معروض علىٰ أصداف محار. وقد أحاطت المزيد من تصميمات أصداف المحار بالمقبرة. وأظهرت إحدىٰ الأصداف نمرًا برأس تنين علىٰ ظهره غزال وعلىٰ رأسه عنكبوت؛ وعلىٰ صدف آخر رجل يركب تنينًا. واقترح تشانغ أنَّ المتوفَّىٰ كان من الشامان، وأظهرت الترصيعات أرواح حيوانات ساعدته في التنقل بين السماء والأرض.

وقد فاجأ اكتشاف في منشوريا (Manchuria) في أقصىٰ الشمال الشرقي، علماء الآثار إلىٰ حد أبعد. وبين (٣٥٠٠، و٣٠٠٠ ق. م) ظهرت مجموعة من المواقع الدينية تغطي مساحتها ميلين مربعين في نَيوهليانج. وفي قلبها ما أسماه المنقبون بـ «معبد الآلهة»، وهو عبارة عن ممر غريب يبلغ طوله ستين قدمًا شبه

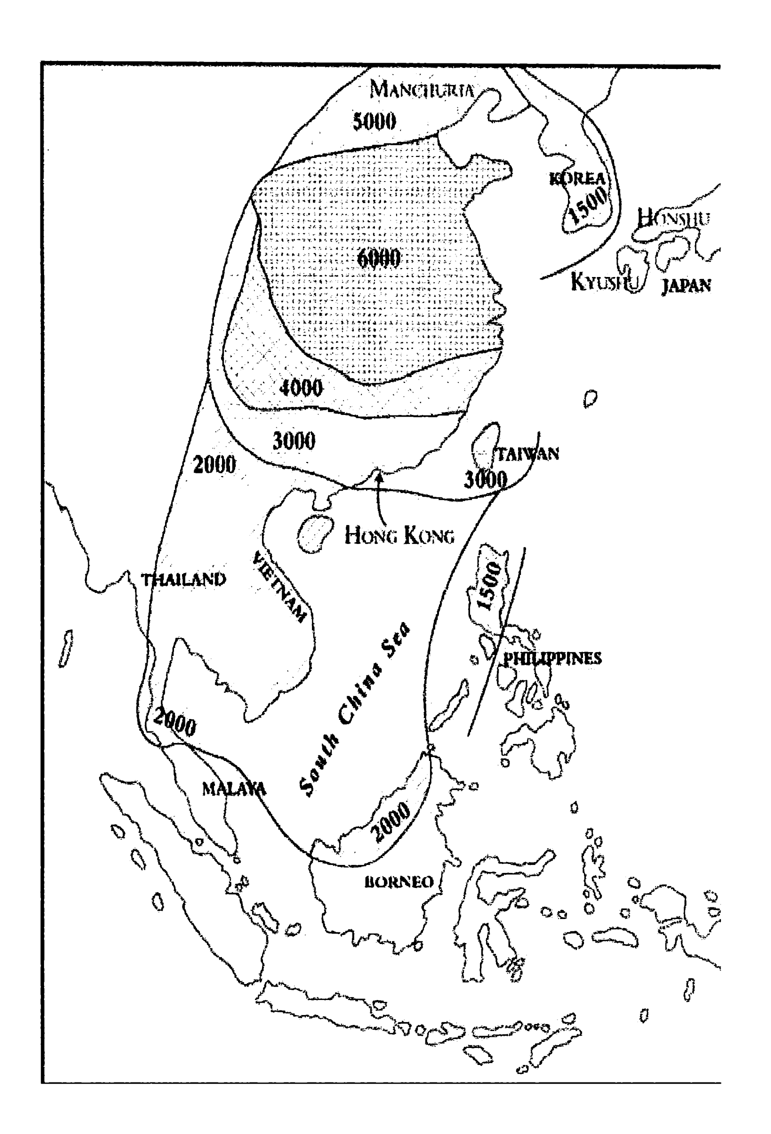
جوفي مع غرف تحتوي علىٰ تماثيل طينية لبشر وهجين من الخنزير والتنين وحيوانات أخرىٰ. وهناك ما لا يقل عن ستة تماثيل لنساء عاريات، بالحجم الطبيعي أو أكبر، وهن يجلسن متربعات؛ وأكثرهن احتفاظًا بحالتها كانت شفتاها مطلية بالأحمر وعيناها زرقاء باهتة من الأحجار الكريمة، وهو تمثال نادر ويصعب نحته وقد أصبح التمثال الترفيهي المفضل في أنحاء الصين كافَّةً. ومع كون العيون الزرقاء غير معتادة في الصين فمن المغري ربطها بالتماثيل ذات المظهر القوقازي من أنبان ومومياوات حوض تاريم.

وعلىٰ الرغم من عزلة نيوهليانغ، فإنَّ نصف دزينة من تجمعات المقابر متناثرة عبر التلال المحيطة بالمعبد. وهناك تلال صغيرة بعرض مائة قدم تحدِّد بعض المقابر، وتشمل بضائع المقابر زينة من الأحجار الكريمة، أحدها منحوت علىٰ هجين آخر لخنزير- تنين. وقد جادل علماء الآثار، بكل العبقرية التي تُظهرها فينا عدم كفاية الأدلة، حول ما إذا كان الرجال والنساء المدفونون هنا هم كهنة أم رؤساء؟! من المحتمل أنَّهم كانوا كليهما في الوقت نفسه. وأيًّا كان هؤلاء، فإنَّ فكرة دفن أقلية من الموتىٰ -عادة من الرجال- مع قرابين من الأحجار الكريمة اشتهرت في جميع أنحاء الصين، وبحلول ٤٠٠٠ ق. م بدأت العبادة الفعلية للموتىٰ في بعض المقابر. يبدو كما لو أنَّ البشر في المركز الشرقي كانوا مهتمين بالأسلاف بنفس قدر اهتمام مَن هم في منطقة هيلي فلانكس، ولكنَّهم عبّروا عن اهتمامهم بطرق مختلفة - بإزالة الجماجم من الموتىٰ وإبقائها بين الأحياء في الغرب، وبتعظيم الموتىٰ في المقابر في الشرق. ولكن في كلا طرفي أوروبا الآسيوية كانت أعظم الاستثمارات للطاقة تكمن في الطقوس المتعلقة بالآلهة والأجداد، بيد أنَّ الأفراد الأوائل الأقوياء حقًّا هم أولئك الذين تواصلوا مع العوالم الخفية للأجداد والأرواح.

وبحلول ٣٥٠٠ ق. م، فإنَّ أنماط الحياة الزراعية التي تشبه كثيرًا تلك التي أنشئت في الغرب قبل عدة آلاف من السنين -والتي تشمل العمل الشاق، وتخزين الأغذية، والتحصينات، وطقوس الأجداد وتبعية المرأة والشباب للرجال الكبار- قد ترسَّخت بشدة في المركز الشرقي وكانت تتوسّع من هناك. وعلىٰ الرغم من أنَّ

انتشار الزراعة الشرقية قد نجح مثل الذي في الغرب، أو علىٰ الأقل، فإنَّ الجدل الدائر بين الخبراء يتخذ أشكالًا مماثلة في كلا الجزأين من العالم. ويعتقد بعض علماء الآثار أنَّ البشر من منطقة المركز بين النهر الأصفر ونهر يانجتسي قد هاجروا عبر شرق آسيا يحملون معهم الزراعة، ويعتقد آخرون أنَّ مجموعات الرعاة المحليين استقروا، وقاموا بتدجين النباتات والحيوانات، وتاجروا مع بعضهم البعض، وطوَّروا بشكل متزايد حضارات متشابهة علىٰ نطاق مناطق كبيرة. وتُعدّ الأدلة اللغوية مثيرة للجدل كما في أوروبا، وحتىٰ الآن؛ فليس هناك ما يكفي من البيانات الچينية لحسم أي شيء. كل ما نستطيع قوله بثقة هو أنَّ رعاة مانشوريا كانوا يعيشون في قرىٰ كبيرة ويزرعون الدخن بحلول ٥٠٠٠ ق. م علىٰ الأقل. وكان الأرز يُزرع حتىٰ وادي يانجتسي بحلول ٤٠٠٠ ق. م، وفي تايوان وحول هونغ كونغ بحلول ٣٠٠٠ ق. م، وفي تايلاند وفيتنام بحلول عام ٢٠٠٠ق. م. وفي ذلك الوقت كانت زراعة الأرز أيضًا منتشرة في شبه جزيرة الملايو وعبر بحر الصين الجنوبي إلىٰ الفلبين وبورنيو. (الشكل ٢ - ٨).

وعلىٰ غرار التوسُّع الزراعي الغربي تمامًا، واجهت النسخة الشرقية أيضًا بعض العقبات. فالفايتولث تظهر أنَّ الأرز كان معروفًا في كوريا بحلول ٤٤٠٠ق.م، والدخن بحلول ٣٦٠٠ ق. م، ووصل الأخير إلىٰ اليابان بحلول ٢٦٠٠ ق. م، ولكن كوريّ ما قبل التاريخ ويابانيّيه قد تجاهلوا بشدة هذه الابتكارات علىٰ مدىٰ الألفي سنة التي تلت ذلك. ومثل شمال أوروبا: فقد كان لدىٰ كوريا واليابان الساحلتين موارد بحرية غنية دعمت القرىٰ الكبيرة الدائمة التي تحوطها أكوام ضخمة من القواقع الملقاة. وقد طوّر هؤلاء الرعاة الموسرون حضارات متطورة، ولم يشعروا -علىٰ ما يبدو- بحاجة لتقبّل الزراعة. ومجددًا مثل الصيادين وجامعي الثمار في البلطيق خلال آلاف السنين بين ٥٢٠٠ ق. م و٤٢٠٠ ق. م، فقد كان هؤلاء الرعاة كثيرين لا حصر لهم، (وعازمين) بما يكفي لإقصاء المستعمرين الذين حاولوا أخذ أرضهم، ولكنَّهم لم يكونوا من الكثرة لدرجة أن أجبرهم الجوع علىٰ تقبل الزراعة لكسب قوتهم.



(موضع الشكل ٢ - ٨). المضي قدمًا والتضاعف، النسخة الثانية: توسُّع نطاق الزراعة من وديان النهر الأصفر ونهر يانغتسي (٦٠٠٠ - ١٥٠٠ ق. م).

في كل من كوريا واليابان، يرتبط التحول إلىٰ الزراعة بظهور أسلحة معدنية - برونزية في كوريا في حوالي عام (١٥٠٠ ق. م)، وحديدية في اليابان في حوالي (٦٠٠ ق. م). وعلىٰ غرار علماء الآثار الأوروبيين الذين يتجادلون حول ما إذا كانت عوامل الدفع أو الجذب هي التي قد أنهت مجتمعات رعي البلطيق الغنية؛ فإنَّ بعض الآسيويين يعتقدون أنَّ هذه الأسلحة تنتمي إلىٰ الغزاة الذين جلبوا الزراعة بمجيئهم، بينما يُشير آخرون إلىٰ أنَّ التغييرات الداخلية حوَّلت

مجتمعات الرعي بشدة لدرجة أن أصبحت الزراعة والأسلحة المعدنية جذابة فجأة.

وبحلول (٥٠٠ ق. م) أصبحت حقول الأرز شائعة في كيوشو، وهي الجزيرة الجنوبية لليابان، لكن توسُّع الزراعة واجه عقبة أخرىٰ علىٰ جزيرة هونشو اليابانية الرئيسة. فقد استغرق الأمر (١٢٠٠ سنة) أخرىٰ للحصول علىٰ موطئ قدم في هوكايدو في الشمال، حيث كانت فرص جمع الأغذية وفيرة بشكل خاص. ولكن في النهاية، حلّت الزراعة محلّ الرعي تمامًا في الشرق كما في الغرب.

الغَلي والخَبز، الجماجم والمقابر

كيف يمكننا أن نفهم كل ذلك؟ لقد كان الشرق والغرب بالتأكيد مختلفين، بدءًا من الطعام الذي كان البشر يأكلونه، وحتىٰ الآلهة التي كانوا يعبدونها. ولا يمكن لأحد أن يخلط بين چياهو وأريحا، ولكن هل كانت التباينات الثقافية قوية جدًّا لدرجة أنَّها تفسر لماذا يهيمن الغرب؟ أم هل كانت هذه التقاليد الثقافية مجرد طرق مختلفة لفعل الأشياء نفسها؟

(الجدول ٢ – ١) يلخص الأدلة. وهنا تبرز –برأيي– ثلاث نقاط:

أولًا: إذا كان لدىٰ الحضارة التي نشأت في منطقة هيلي فلانكس منذ عشرة آلاف سنة، والتي انحدرت منها المجتمعات الغربية المتعاقبة، حقًّا قابلية للتطور الاجتماعي أكبر من الحضارة التي نشأت في الشرق، فقد نتوقع أن نرىٰ بعض الاختلافات الشديدة بين عمودي (الجدول ٢ – ١)، ولكنَّنا لا نرىٰ ذلك. في الحقيقة، لقد حدثت الأشياء نفسها تقريبًا في الشرق والغرب علىٰ حد سواء. فقد شهدت المنطقتان تدجين الكلاب وزراعة النباتات وتدجين الحيوانات الكبيرة (والتي أعني بها تلك التي يزيد وزنها عن مائة رطل). وشهد كلاهما التطوير التدريجي للزراعة (الكاملة) (والتي أعني بها الأنظمة عالية الإنتاج، وكثيفة العمالة ذات النباتات الداجنة بالكامل والتراتبيّة في الثروة والجندر)، وكلاهما شهد تأسيس القرىٰ الكبيرة (والتي أعني بها تلك التي قوامها أكثر من مائة شخص)، وبعد ألفي أو ثلاثة آلاف سنة أخرىٰ، شهد كلاهما المدن (والتي أعني بها تلك التي قوامها أكثر من ألف شخص). وفي كلتا المنطقتين بنىٰ البشر مباني

وتحصينات متطورة، وجربوا الكتابة البدائية، ورسموا تصاميم جميلة علىٰ الآنية، واستخدموا مقابر باذخة، وكانوا مفتونين بالأجداد، وكانوا يضحون بالبشر، وقاموا تدريجيًّا بتوسعة أنماط الحياة الزراعية، ببطء في البداية، متسارعين بعد حوالي ألفي سنة، وأخيرًا تفوقوا علىٰ الرعاة ذوي الحياة الرغيدة.

DATE BCE
WEST
EAST
14,000
Simple pottery
13,000
END OF ICE AGE
12,000
Dogs
11,000
?Cultivated plants
YOUNGER DRYAS BEGINS
10,000
Big shrines
YOUNGER DRYAS ENDS
Cultivated plants
?Fortification
9000
Protowriting
Big villages
Dogs
Expansion begins (Cyprus)
8000
Domesticated animals
?Human sacrifice
Cultivated plants
Full farming
?Fortification
Towns, big buildings
Protowriting
7000
Simple pottery
Big villages
Expansion accelerates
Domesticated animals
6000
Elaborate ceramics
Expansion begins (Manchuria)
Full farming
5000
?Human sacrifice
Rich grave goods
Towns, big buildings
4000
Elaborate ceramics
Big shrines
Rich grave goods
Expansion accelerates
3000

موضع (الجدول ٢ - ١). المقارنة بين بدايات الشرق والغرب.

وثانيًا: لم تحدث فقط أشياء مماثلة في كل من الشرق والغرب، ولكنَّها قد حدثت أيضًا بالترتيب نفسه. وقد شرحتُ هذا في (الجدول ٢ - ١) بالخطوط التي تربط بين التطورات المتوازية في كل منطقة. ولدىٰ معظم الخطوط تقريبًا الميل نفسه، مع مجيء التطورات في الغرب أولًا، ثمَّ يتبعه الشرق بعد حوالي ألفي سنة لاحقة. ويُشير هذا بقوة إلىٰ أنَّ التطورات في الشرق والغرب تشاركت منطقًا حضاريًّا؛ فالأسباب ذاتها أدَّت إلىٰ العواقب ذاتها في كلا الطرفين في أوروبا الآسيوية. وكان الفرق الحقيقي الوحيد هو أنَّ السيرورة قد بدأت مبكرًا في الغرب قبل ألف عام.

ثالثًا: ومع ذلك، فإن النقطتين الأولىٰ والثانية اللتين ذكرتهما لتوي ليستا صحيحتين تمامًا؛ فهناك استثناءات للقواعد! فقد ظهرت صناعة الفخار البدائية في الشرق قبل الغرب بسبعة آلاف سنة علىٰ الأقل، وظهرت المقابر الباذخة في الشرق قبل الغرب بألف سنة. وعلىٰ الجانب الآخر، فقد بنىٰ الغربيون أضرحة تذكارية قبل الشرقيين بأكثر من ستة آلاف سنة؛ ولذا فعلىٰ أي شخص يعتقد أنَّ هذه الاختلافات التي أطلقت الشرق والغرب في مسارات حضارية متباينة هي التي تفسر السبب في هيمنة الغرب، عليه أن يشرح لماذا كان كل من صناعة الفخار والمقابر والأضرحة مهمّة جدًّا، في حين ينبغي علىٰ أي شخص (أنا، مثلًا) يعتقد أنَّ تلك الأشياء لم تهمّ حقًّا أن يشرح لماذا هي مختلفة عن النمط العام.

يتفق علماء الآثار في الغالب علىٰ سبب ظهور صناعة الفخار في مرحلة مبكرة جدًّا في الشرق؛ وذلك لأنَّ الأطعمة المتاحة هناك جعلت الغلي علىٰ قدر كبير من الأهمية. فقد احتاج الشرقيون إلىٰ أوعية يمكنهم وضعها علىٰ النار؛ وبالتالي فقد أتقنوا صناعة الفخار في وقت مبكر جدًّا. وإذا صحَّ ذلك؛ فبدلًا من التركيز علىٰ صناعة الفخار ذاتها، ربما ينبغي علينا التساؤل عمَّا إذا كانت الاختلافات في إعداد الطعام هي التي حتمت علىٰ الشرق والغرب مسارات مختلفة للتطور. فربما -علىٰ سبيل المثال- قدَّم المطبخ الغربي موادَّ غذائية أكثر، ممَّا جعل البشر أقوىٰ. لكن ذلك ليس مقنعًا للغاية. فالدراسات العظميّة تعطي

صورة كئيبة -إلىٰ حدٍّ ما- عن الحياة في كلا المركزين الزراعيين الشرقي والغربي: لقد كان الأمر -كما صاغه الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز في القرن السابع عشر- مثيرًا للشفقة وبغيضًا ومخيبًا للآمال، (ولكن ليس بالضرورة وحشيًّا). ففي الشرق والغرب -علىٰ حدٍّ سواء- كان المزارعون الأوائل يعانون من سوء التغذية، وعدم اكتمال النمو، وكانوا يحملون أحمالًا ثقيلة من الطفيليات، وكانت أسنانهم سيئة، وكانوا يموتون مبكرًا؛ وفي كلتا المنطقتين، حسَّنت التطورات في الزراعة من النظام الغذائي تدريجيًّا؛ وفي كلتا المنطقتين أيضًا، ظهرت أساليب الطهي المتطورة. كان الاعتماد علىٰ الغلي في الشرق واحدًا من بين العديد من الاختلافات في الطبخ، ولكن بشكل عام؛ فإنَّ أوجه التشابه بين التغذية الشرقية والغربية تتفوق بدرجة هائلة علىٰ الاختلافات.

أو ربما أدَّت الطرق المختلفة لإعداد الطعام إلىٰ أنماط مختلفة من الأكل وبنىٰ عائلية مختلفة، مع عواقب طويلة الأجل. ومرة أخرىٰ -رغم ذلك- ليس من الواضح أنَّ هذا قد حدث فعلًا. ويبدو أنَّ المزارعين الأوائل، في كل من الشرق والغرب، قد قاموا بتخزين الأغذية، وإعدادها، وربما تناولها بشكل جماعيٍّ، ليحدث التحوّل في آلاف السنين القليلة القادمة نحو القيام بهذه الأمور علىٰ مستوىٰ الأسرة. كما تفوقت أوجه التشابه بين الشرق والغرب علىٰ الاختلافات مرة أخرىٰ. إنَّ اختراع الشرق المبكر للفخَّار هو بالتأكيد اختلاف مثير للاهتمام، لكنَّه لا يبدو وثيق الصلة بتفسير لماذا يهيمن الغرب.

وماذا عن الظهور المبكر للمقابر المتطورة في الشرق، وحتىٰ الظهور السابق علىٰ ذلك للأضرحة في الغرب؟ في الواقع، أعتقد أنَّ هذه التطورات كانت صورة طبق الأصل تعكس بعضها بعضًا. وارتبط كل منها، كما رأينا ارتباطًا وثيقًا بهوس ناشئ بالأجداد في وقت جعلت فيه الزراعة من إرث الأموات أهمَّ حقائق الحياة الاقتصادية. ولأسباب ربما لن نفهمها أبدًا، ابتكر الغربيون والشرقيون طرقًا مختلفة لتقديم الشكر والاتصال بالأجداد. ويبدو أنَّ بعض الغربيين اعتقدوا أنَّ تناقل جماجم ذويهم، وملء المباني برؤوس الثيران والأعمدة والتضحية بالأشخاص فيها سوف يفي بالغرض. علىٰ الجانب الآخر، شَعَر الشرقيون عمومًا

بحال أفضل تجاه دفن الحيوانات المنحوتة ذات الأحجار الكريمة مع أقاربهم، وعبادة قبورهم، وفي النهاية قطع رؤوس بعض البشر، وإلقائها في القبور أيضًا. إنَّ الأشخاص المختلفين يعيشون بطرق مختلفة، ولكن النتائج تكون مماثلة.

أعتقد أنَّنا يُمكن أن نخلص إلىٰ استنتاجين من (الجدول ٢ - ١):

أولًا: أنَّ التطورات المبكرة في المركزين الغربي والشرقي قد تشابهت في معظمها. ولا أريد طمس الاختلافات الحقيقية في كل شيء التي تتراوح من أنماط الأدوات الحجرية وحتىٰ النباتات والحيوانات التي أكلها البشر، لكنَّ أيًّا من هذه الاختلافات لا يضفي قدرًا كبيرًا من الدعم لنظرية المدىٰ الطويل الحتمية التي ظللنا نناقشها، وهي أنَّ شيئًا ما متعلقًا بالطريقة التي تطوَّرت بها الحضارة الغربية بعد العصر الجليدي منحها قابلية وقدرة أكبر من الحضارة الشرقية، وأنَّ هذا الشيء يسفر لماذا يهيمن الغرب. وهذا يبدو غير صحيح.

وإذا كان باستطاعة أي نظرية طويلة المدىٰ أن تصمد في مواجهة الأدلة في (الجدول ٢ - ١)، فستكون تلك هي أبسط نظرية بين النظريات، والتي تقول إنَّه بفضل الجغرافيا حصل الغرب علىٰ بداية مبكرة بألفي عام في التطور، وأنَّه احتفظ بتلك الريادة لوقت طويل بما يكفي للوصول أولًا إلىٰ التصنيع، وبالتالي فهو يهيمن علىٰ العالم. ولاختبار هذه النظرية؛ فنحن بحاجة إلىٰ تمديد مقارنتنا بين الشرق والغرب إلىٰ الفترات الأحدث لمعرفة ما إذا كان ذلك هو ما حدث بالفعل.

ويبدو هذا بسيطًا بما فيه الكفاية، ولكن الدرس الثاني في (الجدول ٢ - ١) هو أنَّ المقارنة بين الحضارات أمر مخادع. فقد كان سرد التطورات المهمة في عمودَي جدول مجرد بداية؛ لأنَّ فهم حالات الشذوذ في (الجدول ٢ - ١) تطلب منَّا وضع الغلي، والخَبز، والجماجم والمقابر في السياق لمعرفة ما كانت تعنيه هذه الأشياء داخل مجتمعات ما قبل التاريخ. وهذا يزج بنا في إحدىٰ الإشكاليات الرئيسة للأنثروبولوجيا، وهي الدراسة المقارنة للمجتمعات.

عندما بدأ المبشرون والمسؤولون الأوروبيون في القرن التاسع عشر بجمع معلومات عن الشعوب في إمبراطورياتهم الاستعمارية، أذهلت تقاريرهم عن

العادات الغريبة العلماء والباحثين. فقد فهرس علماء الأنثروبولوجيا هذه الأنشطة، متفكرين في أسباب انتشارها في جميع أنحاء العالم، وما يمكن أن تخبرنا عن نشوء السلوك الأكثر تحضرًا (والذي يعنون به السلوك الأكثر أوروبية). وقد بعثوا طلابًا إلىٰ مناطق غريبة لجمع المزيد من الأمثلة. وكان أحد هؤلاء الشبان الأذكياء هو برونسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski)، أحد الطلاب البولنديين الذين يدرسون في لندن، وقد وجد نفسه في جُزُر تروبرياند (Trobriand) عام ١٩١٤م عندما اندلعت الحرب العالمية الأولىٰ. ومع تعذُّر حصوله علىٰ سفينة تقله إلىٰ الوطن، فعل مالينوفسكي شيئًا منطقيًّا؛ فبعد العبوس لمدة قصيرة في خيمته، حصل لنفسه علىٰ حبيبة. ونتيجة لذلك وبحلول عام ١٩١٨م كان يفهم ثقافة تروبرياند بالتفصيل. وأدرك ما افتقده أساتذته في دراساتهم التي لا تُضاهىٰ: وهو أنَّ الأنثروبولوجيا هي في الحقيقة معنيّة بتناول تفسير كيفية توافق العادات مع بعضها. يجب أن تكون المقارنات بين الثقافات الفعَّالة علىٰ نحو شامل، وليس ممارسات فردية منفصلة عن السياق؛ لأنَّ السلوك نفسه قد تكون له معانٍ مختلفة في سياقات مختلفة. فوشم وجهك مثلًا قد يجعلك متمردًا في كانساس، لكنَّه يجعلك ممتثلًا للأعراف والتقاليد في غينيا الجديدة. وبالمثل: فإنَّ الفكرة نفسها قد تتخذ أشكالًا مختلفة في ثقافات مختلفة، مثل الجماجم المتنقلة والأحجار الكريمة المدفونة في الغرب والشرق ما قبل التاريخ، وكلاهما يمثل تبجيل الأجداد.

كان مالينوفسكي سيكره (الجدول ٢ - ١). ووسيصرّ أيضًا أنَّه لا يمكننا تشكيل مجموعة من العادات من ثقافتين فاعلتين وإصدار أحكام عن أيّ منها كانت تُؤدِّي بشكل أفضل. وبالتأكيد لا يمكننا كتابة كتب ذات فصول بعناوين مثل «الغرب يتخذ دور الريادة»، وكان ليسأل ما الذي نقصده بالريادة؟ كيف نبرِّر حقًا فصل ممارسات معيّنة من شبكة الحياة المتواصلة وقياسها في مقابل بعضها البعض؟ وحتىٰ لو أمكننا فصل الواقع وتفكيكه، فكيف يمكننا أن نعرف أي الأجزاء التي نقيسها؟

كل هذه أسئلة جيدة، ونحن بحاجة إلىٰ الإجابة عنها إذا أردنا أن نشرح لماذا يهيمن الغرب - بالرغم من أنَّ البحث عن إجابات قد مزق الأنثروبولوجيا علىٰ مدىٰ الخمسين سنة الماضية. وبشيء من الارتياب: سأخوض الآن في هذه المياه العكرة.

(٣)
الحكم على الماضي
نشوء علم الآثار

كان التطور الاجتماعي لا يزال فكرة جديدة عندما ثار علماء الأنثروبولوجيا الثقافية ضدها كما وُصِف في نهاية الفصل الثاني. ويعود معنىٰ الكلمة الحديث إلىٰ عام ١٨٥٧م، عندما نشر هربرت سبنسر (Herbert Spencer) -وهو مثقف إنجليزي تلقَّىٰ تعليمًا منزليًّا- مقالًا بعنوان: «**التقدم: قوانينه وأسبابه**». كان سبنسر شخصية غريبة الأطوار، وسبق وأن عمل كمهندسٍ للسكة الحديدية، ومحررٍ في مجلة «الإيكونومست»، والتي كانت جديدة حينئذٍ، وكان رفيقًا رومانسيًّا للسيدة الروائية چورچ إليوت (ولم يُلائمه أي من ذلك، فهو لم يحتفظ أبدًا بعمل ثابت ولم يتزوج)، لكن هذا المقال اشتُهر بين عشية وضُحاها. وأوضح فيه سبنسر: «من الماضي السحيق الذي يمكن للعلم سبر أغواره، إلىٰ مستجدات الأمس، التي يتوقف عليها التقدم بالأساس - يكمن تحوُّل المتجانس إلىٰ المتغاير». وأصرَّ سبنسر علىٰ أنَّ التطور هو العملية التي تبدأ بواسطتها الأشياء ببساطة، ثم تغدو أكثر تعقيدًا، وهي تشرح كل شيء عن كل شيء.

«إنَّ التطور من البسيط إلىٰ المعقّد، خلال عملية من التمايزات المتتابعة، يُمكن رؤيته علىٰ السواء في أقدم تغيّرات الكون التي يمكننا أن نرجع السبب في وجودنا إليها، وفي أقدم التغيّرات التي أنشأناها نحن حديثًا؛ ويُمكن رؤيته في التطور الجغرافي والمناخي للأرض، وفي تفتُّح كل كائن علىٰ سطحها، وفي تكاثر أنواع الكائنات الحية، وفي تطور الإنسانية، سواء كان ذلك مُتأمَّلًا في الفرد

المتحضر، أو في تكتُّلات الأعراق، ويمكن رؤيته في تطور المجتمع فيما يتعلق بتنظيمه السياسي والديني والاقتصادي علىٰ حدٍّ سواء، وفي تطور كل تلك المنتجات المادية والمعنوية التي لا تنتهي للنشاط البشري، والتي تُشكِّل بيئة حياتنا اليومية».

قضىٰ سبنسر الأربعين سنة التالية يجمع بين الجيولوجيا والأحياء وعلم النفس وعلم الاجتماع والسياسة والأخلاق في نظرية تطوُّرية واحدة. وقد نجح بشكل جيد جدًّا لدرجة أنَّه أصبح بحلول عام ١٨٧٠م أكثر الفلاسفة الذين يكتبون باللغة الإنجليزية تأثيرًا، وعندما قرَّر المفكرون اليابانيون والصينيون أنَّهم بحاجة لفهم إنجازات الغرب، كان سبنسر هو أول كاتب ترجموا له. وانحنت العقول العظيمة في عصره تقديرًا لأفكاره. ولم تكن الطبعة الأولىٰ لكتاب «**أصل الأنواع**» (On the Origin of Species) لتشارلز داروين الذي نُشر في عام ١٨٥٩م - تتضمن كلمة «التطور»، ولا ثاني طبعة أو ثالث طبعة، ولا حتىٰ الرابعة أو الخامسة. ولكن في الطبعة السادسة في عام ١٨٧٢م، وجد داروين نفسه مضطرًا إلىٰ اقتراض المصطلح الذي اشتُهر حينئذٍ علىٰ يد سبنسر.

لقد رأىٰ سبنسر أنَّ المجتمعات قد تطورت عبر أربعة مستويات من التمايز، بدءًا من المجتمع البسيط (جماعات متجوِّلة دون قادة)، مرورًا بالمجتمع المُركَّب (قرىٰ مستقرة ذات قادة سياسيين)، والمجتمع المركَّب تركيبًا ثنائيًا (مجموعات ذات كنائس، ودول، وتقسيمات معقدة للعمل، وعلم)، والمجتمع المركَّب تركيبًا ثلاثيًا (الحضارات العظيمة، مثل روما وبريطانيا الڤيكتورية). واشتُهر هذا المخطط، رغم عدم اتفاق أي مُنظِّرين تمامًا علىٰ كيفية تسمية هذه المراحل. فتحدث بعضهم عن التطور من الوحشية عبر الهمجية البربرية وإلىٰ الحضارة، وفضَّل آخرون التطور من السحر عبر الدين وإلىٰ العلم. وبحلول عام ١٩٠٦م أصبحت غابة المصطلحات هذه مزعجة للغاية لدرجة أنَّ ماكس فيبر (Max Weber) -الأب المؤسس لعلم الاجتماع- اشتكىٰ من «غطرسة المؤلفين المعاصرين الذين يتصرفون تجاه المصطلحات المستخدمة من قِبَل شخص آخر، كما لو كانت فرشاة أسنانه».

وأيًّا كانت التسميات التي استخدمها التطوريون، فقد واجهوا جميعًا المشكلة نفسها. لقد كان لديهم شعورٌ دفينٌ بأنَّهم محقون، ولكن كان لديهم أيضًا القليل من الأدلة القوية التي تثبت ذلك. ولذلك انطلق الفرع المعرفي المُتشكّل حديثًا، أي الأنثروبولوجيا، لتوفير البيانات. كان ثمة اعتقاد بأنَّ بعض المجتمعات أقل تطورًا من غيرها: فالشعوب المُستعمرة في أفريقيا أو في جزر تروبرياند بأدواتهم الحجرية وأزيائهم المُلوَّنة هم كأسلاف أحياء، يعكسون كيف كان حال الشعوب المتحضرة في المجتمعات المركَّبة تركيبًا ثلاثيًا في فترة ما قبل التاريخ. وكان كل ما يتوجب علىٰ عالم الأنثروبولوجا فعله (بغض النظر عن تحمّل الملاريا والطفيليات الداخلية والسكان الأصليين البغيضين) هو كتابة ملاحظات جيدة، وحينئذٍ سيرجع هذا العالِم (وليست العالمة كما كان يغلب في تلك الأيام) للوطن ويسد الثغرات في قصة التطور.

وكان هذا هو البرنامج الفكري الذي رفضه مالينوفسكي. فبطريقة ما -رغم ذلك- كان من الغريب ظهور هذا الأمر علىٰ الإطلاق. فإذا كان الأنثروبولوچيون يريدون توثيق التقدم؛ فلماذا لا يفعلون ذلك مباشرة، باستخدام البيانات الأثرية؛ أي الآثار المادية التي خلفتها مجتمعات ما قبل التاريخ الحقيقية، وليس بصورة غير مباشرة باستخدام الملاحظة الأنثروبولوجية للمجموعات المعاصرة وافتراض أنَّهم (تلك المجموعات، م) من الناجين؟ والإجابة هي: أنَّ علماء الآثار منذ قرن مضىٰ، لم يكونوا يعرفون الكثير من الأمور، وكانت حملات التنقيب الجادة بالكاد قد بدأت؛ ولذا كان علىٰ الأنثروبولوچيين الجمع بين المعلومات الهزيلة الواردة في التقارير الأثرية وبين التفاصيل العارضة في الأدبيات القديمة والروايات الإثنوغرافية العشوائية - الأمر الذي جعل من السهل علىٰ مالينوفسكي والأنثروبولوچيين المشابهين له في الميول والأفكار أن يظهروا عمليات الإحياء من جانب التطوّريين باعتبارها قصصًا تخمينية مُعدّة ببراعة.

يُعدُّ علم الآثار علمًا حديثًا، فمنذ ثلاثة قرون فقط، كانت أقدم أدلّتنا عن التاريخ - الكلاسيكيات الخمس الصينية، والڤيدا الهندية (الكتاب المُقدَّس للديانة الهندوسية، م) والكتاب المقدس العبري، والشاعر اليوناني هومر - تعود إلىٰ عام

١٠٠٠ ق. م تقريبًا. وقبل هذه الروائع، كان الظلام هو كل ما هنالك. لكنَّ مجرد البحث البسيط غيَّر كل شيء؛ إلَّا أنَّ هذا التغيير استغرق بعض الوقت. فعندما غزا نابليون مصر في عام ١٧٩٩م جلب معه فريقًا من العلماء قاموا بنسخ عشرات الكتابات المنقوشة، وحملو بعضها معهم. وفي عشرينيات القرن التاسع عشر، فكَّ علماء اللسانيات الفرنسيون أسرار هذه النصوص الهيروغليفية، فأضافوا فجأة ألفي سنة علىٰ التاريخ الموثَّق. وكي لا يتفوق عليهم أحد، قام المستكشفون البريطانيون في أربعينيات القرن التاسع عشر بالحفر في أطلال المدن في الأراضي التي تشكِّل الآن العراق، أو نسخوا الكتابات المَلَكية المنقوشة في جبال إيران، وهم مُتدلِّون من الحبال؛ وقبل أن ينتهي ذلك العقْد استطاع العلماء قراءة اللغة الفارسية القديمة، والآشورية وقصة بابل.

عندما بدأ سبنسر الكتابة عن التقدم في خمسينيات القرن التاسع عشر، كان علم الآثار مجرد مغامرة أكثر من كونه علمًا، وكان يمتلئ بأمثال واقعيين لإنديانا جونز (شخصية خيالية لعالم آثار، هي الشخصية الأساسية في أفلام إنديانا جونز، م). وفي سبعينيات القرن التاسع عشر بدأ علماء الآثار في تطبيق مبدأ الاستراتيجرافية (أو علم وصف طبقات الأرض، م) الچيولوجي، (وهو الإدراك المنطقي بأنَّه بما أنَّ الطبقات العُليا من الأرض لا بُدَّ وأنَّها تكونت بعد الطبقات الأدنىٰ؛ فيمكننا استخدام تسلسل هذه التراكمات في إعادة ترتيب الأحداث الزمنية) - في حفرياتهم، وأصبح التحليل الاستراتيجرافي هو الاتجاه العام في عشرينيات القرن المنصرم. وظلَّ علماء الآثار يعتمدون علىٰ ربط مواقعهم بالأحداث المذكورة في الأدبيات القديمة لتأريخ ما نقَّبوا عنه؛ ولذا ظلَّت الاكتشافات حتىٰ أربعينيات القرن العشرين تطفو في ضباب من الافتراضات والحدس. لكنَّ ذلك انتهىٰ عندما اكتشف علماء الفيزياء النووية التأريخ باستخدام الكربون المُشعِّ، باستخدام النشاط الإشعاعي لنظائر الكربون غير المستقرة الموجودة في العظم والفحم والاكتشافات العضوية الأخرىٰ؛ لمعرفة مدىٰ قِدَم المواد. وبدأ علماء الآثار بفرض النظام علىٰ فترة ما قبل التاريخ، وبحلول سبعينيات القرن العشرين كان هناك إطار عالمي في طور التشكُّل.

عندما كنت طالبًا بالدراسات العليا في الثمانينيات ظلَّ واحد أو اثنان من الأساتذة الكبار يدَّعيان أنَّهما عندما كانا طالبين نصحهما أساتذتهما بأنَّ الأدوات الضرورية للعمل الميْداني هي البدلة الرسمية والمُسدَّس. وما زلت غير متأكد ما إذا كان يجب عليَّ أن أُصدِّقهم، ولكن مهما كانت حقيقة الأمر؛ فقد كان عهد چيمس بوند يحتضر بالتأكيد بحلول خمسينيات القرن العشرين. وأصبحت الإنجازات الحقيقية تأتي بصورة متزايدة من العمل الروتيني اليومي لجيش من المتخصصين الذين يُفتّشون عن الحقائق، ويندفعون إلىٰ ما هو أبعد في فترة ما قبل التاريخ، وينتشرون في جميع أنحاء العالم.

كانت مخازن المتاحف تفيض بالأدوات ورفوف المكتبات تئن تحت ثِقل الدراسات المتخصصة، ولكنَّ بعض علماء الآثار قلقوا من أنَّ السؤال الأساسي -ماذا يعني كل ذلك؟- لم تكن له أجوبة. لقد كان الوضع في خمسينيات القرن العشرين نسخة طبق الأصل من الوضع في خمسينيات القرن التاسع عشر: فحيث بحثت النظرية الكبرىٰ عن البيانات، أضحت البيانات الآن بحاجة ماسة إلىٰ النظرية. ومع تسلّحهم بالنتائج التي حققوها بشق الأنفس، شعر علماء الاجتماع في منتصف القرن العشرين، ولا سيما في الولايات المتحدة، بجاهزيتهم لمحاولة أخرىٰ في التنظير.

وبتسمية أنفسهم بـ «التطوُّريين الجُدد» (neo - evolutionists) لإظهار كونهم أكثر تطورًا من التطوّريين «الكلاسيكيين» مثل سبنسر، بدأ بعض علماء الاجتماع الإشارة إلىٰ أنَّه بينما كان من الرائع امتلاكهم لحقائق كثيرة للعمل من خلالها، فقد أصبحت كثرة الأدلة ذاتها جزءًا من المشكلة. فالمعلومات المهمة دُفنت في روايات سردية فوضوية لعلماء الأنثروبولوجيا أو علماء الآثار أو تلك الموجودة في الوثائق التاريخية. وباختصار: لم يكن الأمر علميًّا بما يكفي. وللخروج من غابة دراسات الرموز في القرن التاسع عشر وتأسيس نظرية مُوحِّدة للمجتمع، شعر التطوّريون الجُدد أنَّهم في حاجة إلىٰ تحويل هذه الروايات إلىٰ أرقام. فمن خلال قياس التمايز وتحديد الدرجات يُمكنهم تصنيف المجتمعات، ثمَّ البحث عن الترابطات بين تلك الدرجات والتفسيرات المُحتملة. وأخيرًا، يُمكنهم التحوُّل إلىٰ

الأسئلة التي قد تجعل كل الوقت والمال المبذولَيْن في علم الآثار أشياءَ ذات قيمة - ومن هذه الأسئلة ما إذا كان هناك طريق واحد للمجتمعات كي تتطور، أم طرق متعددة؛ وما إذا كانت المجتمعات تحتشد في مراحل تطورية منفصلة (وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تنتقل من مرحلة إلىٰ أخرىٰ)، وما إذا كانت سمة واحدة مثل السكان أو التكنولوجيا (أو الجغرافيا، في السياق نفسه) هي التي تُفسّر كل شيء.

في عام ١٩٥٥م، قام راؤول نارول (Raoul Naroll)، وهو عالم أنثروبولوچيا يعمل علىٰ مشروع واسع مشترك بين عدة جامعات لتجميع البيانات يُسمَّىٰ «ملفات منطقة العلاقات الإنسانية» (Human Relations Area Files) - بأول محاولة جادة في ما وصفه بمؤشر التطور الاجتماعي. وبالاختيار العشوائي لثلاثين مجتمعًا من مجتمعات ما قبل الصناعة من جميع أنحاء العالم (بعضها مجتمعات معاصرة، والأخرىٰ تاريخية)، بحث راؤول في الملفات لمعرفة مدىٰ تمايزها، والذي يتجلىٰ -بحسب راؤول- في مدىٰ اتساع مستوطناتها، ومدىٰ تخصص حرفييها، وكم كان لديهم من المجموعات الفرعية (subgroups)، وبتحويل النتائج إلىٰ قياس معياري، قدَّم نارول النتائج أو الدرجات. وفي أسفل قائمة الدرجات كان الياهغان، وهم شعب تييرا ديل فويغو، الذين تأثر بهم داروين في عام ١٨٣٢م باعتبارهم «يتواجدون في حالة أقل من التقدم مقارنة [بأولئك] الموجودين في أي جزء آخر من العالم». وقد أحرزوا فقط (١٢) نقطة من (٦٣) نقطة محتملة. أمَّا في قمة الترتيب فكان هناك الآزتيك قبل الغزو الأسباني بـ (٥٨ نقطة).

وعلىٰ مدىٰ العشرين سنة التي تلت ذلك قام علماء أنثروبولوجيا آخرون بمحاولات لأول مرة في تلك اللعبة. وعلىٰ الرغم من حقيقة أنَّ كلًا منهم قد استخدم فئات مختلفة، ومجموعات من البيانات، ونماذج رياضية، وأساليب حساب النقاط، فقد اتفق علماء الأنثروبولوچيا علىٰ النتائج بين ٨٧، و٩٤٪ في معظم الحالات، وهو أمر رائع في العلوم الاجتماعية. وبعد مرور خمسين عامًا علىٰ وفاة سبنسر، ومائة عام علىٰ مقاله عن التقدم، بدا التطوّريون الجُدد مستعدين لإثبات قوانين التطور الاجتماعي.

*** فما الذي حصل إذن؟**

إذا كان التطوُّريون الجُدد قد أدَّوا ما عليهم، وشرحوا كل شيء عن التطور الاجتماعي، لكنَّا سمعنا جميعًا عن ذلك. والأهم من ذلك حاليًا، لكانوا بالفعل قد أجابوا عن سؤال لماذا يُهيمن الغرب. فالسؤال هو -قبل كل شيء- عن المستويات النسبية لتطور المجتمعات الشرقية والغربية: ما إذا كان الغرب -كما يدَّعي مُنظِّرو النظريات الحتمية طويلة المدىٰ- قد تَقدّم منذ فترة طويلة، أو أن صدارة الغرب حديثة جدًّا، كما سيكون الأمر لدىٰ مُنظِّري النظريات العرضية قصيرة المدىٰ. إذا تمكن التطوّريون الجُدد من قياس التطور الاجتماعي، لن يكون علينا أن نُضيِّع الوقت في المخططات المعقدة مثل (الجدول ٢ - ١). وسيكون الأمر فقط هو مسألة حساب الإحرازات الشرقية والغربية في عدة مراحل منذ نهاية العصر الجليدي، والمقارنة بينها، ومعرفة أية نظرية تتطابق مع الواقع بشكل أفضل. فلماذا -إذن- لم يفعل ذلك أحد؟

أظنُّ -إلىٰ حدٍّ كبير- أنَّ السبب هو تداعي التطوريّة الجديدة: وحتىٰ عندما بدأ نارول استخدام المسطرة الحسابية في خمسينيات القرن العشرين، كانت الرغبة في قياس المجتمعات تجعل من علماء الأنثروبولوجيا مجموعة من السُذج. لقد بدا أن «جماعة القانون والنظام» -كما أطلق النقَّاد علىٰ نارول وأمثاله- مع بطاقاتهم المثقوبة ذات البيانات المشفرة (هي بطاقات تُستعمل لتخزين المعلومات في شكل يمكن قراءته بطريقة ميكانيكية، ضمن نظام بطاقات مثقبة شكّل منعطفًا

مهمًا في معالجة المعلومات بشكل آلي خلال النصف الثاني من القرن العشرين، م)، ومناقشاتهم المُبهمة عن الإحصاء، وحواسيبهم التي يبلغ حجمها حجم المخازن - منفصلة بغرابة عن واقع علماء الآثار الذين يحفرون الخنادق، أو الأنثروبولوچيين الذين يحققون في مجتمعات الصيد وجمع الثمار؛ وبينما بدأت الأزمنة تتغير في ستينيات القرن العشرين، لم تعُد التطوّرية الجديدة تبدو سخيفة جدًّا باعتبارها مشؤومة بالكلية. فقد بدأ عالم الأنثروبولجيا مارشال ساهلينز -علىٰ سبيل المثال- والذي سأذكر مقاله: «**المجتمع الأصلي رغيد الحياة**» في الفصل الثاني، مسيرتَه المهنية في خمسينيات القرن العشرين بوصفه تطوُّريًا، ولكن في ستينيات القرن العشرين قرر ساهلينز أن: «التعاطف، بل والإعجاب بالنضال الڤيتنامي مقرونًا بالنفور من الحرب الأمريكية، قد يؤدي إلىٰ تقويض أنثروبولوچيا الحتمية الاقتصادية والتنمية التطوريّة».

وبحّلول عام ١٩٦٧م، عندما كان ساهلينز في باريس يجادل بأنَّ الصائدين والجامعين لم يكونوا حقًّا فقراء، اتخذ جيل جديد من علماء الأنثروبولوجيا - الذين اختبروا لأول مرة الحقوق المدنية الأمريكية، ومناهضة الحروب، والحركات النسائية، وكثيرًا ما كانوا غارقين في الثقافة المضادة- موقفًا أكثر صرامة. وقد أشاروا إلىٰ أنَّ الشيء الوحيد الذي كان يفعله التطوّريون هو ترتيب المجتمعات غير الغربية وفق مدىٰ تشابهها مع الغربيين الذين هم أنفسهم مَن يقوم بالقياس، والذين أيضًا يُعطون أنفسهم -بشكل مذهل- دائمًا أعلىٰ الدرجات.

وكتب عالِمَا الآثار مايكل شانكس وكريستوفر تيلي في ثمانينيات القرن العشرين: «تتسلل النظريات التطوّرية بسهولة في أيديولوجيات التبرير الذاتي، أو تؤكد علىٰ أولويات الغرب فيما يتعلق بالحضارات الأخرىٰ، التي تُعدُّ أهميتها الأساسية أن تُمثِّل الموازنات لحضارتنا المعاصرة»، ولم تكن هذه الثقة في الأرقام (كما شعر النُقَّاد) مجرد لعبة غير مؤذية لعبها الغربيون كي يمنحوا أنفسهم شعورًا جيِّدًا؛ ولكنَّها كانت جزءًا لا يتجزأ من الكبرياء الذي منحنا القصف البساطي (Carpet bombing: هي عملية قصف كبيرة في منطقة كبيرة عادة عن طريق إسقاط كثير من القنابل غير الموجهة كالقنابل الجاذبية. القصف البساطي

هو تكتيك عسكري يهدف للتدمير الكامل للمنطقة المستهدفة، أو لتدمير الأفراد والعتاد، أو كوسيلة لإضعاف الروح المعنوية للعدو، م)، وحرب ڤيتنام، والمجمع العسكري الصناعي. «يسقط يسقط ليندون چونسون»؛ فليسقط كذلك أساتذة العنصرية بغطرستهم ورياضياتهم.

لقد حوّلت الاعتصامات والشتائم نقاشًا أكاديميًا إلىٰ مواجهة مانويّة *(Manichean)*. وبالنسبة إلىٰ بعض التطوّريين، فإنَّ منتقديهم كانوا بمثابة نسبيين مُفْلسين أخلاقيًّا، وبالنسبة إلىٰ بعض النقّاد، كان التطوّريون أذنابًا للإمبريالية الأمريكية. وفي الثمانينيات والتسعينيات، استمر الصراع بين علماء الأنثروبولوجيا حول هذه المسألة في التوظيف، والتثبيت الوظيفي ومدة تولي المنصب، ولجان القبول بالدراسات العليا؛ مما أدىٰ إلىٰ تدمير المسارات المهنية واستقطاب المنح الدراسية. وتحولت أقسام الأنثروبولوجيا في الجامعات الأشهر في أمريكا إلىٰ ما يشبه الزيجات السيئة، إلىٰ أن بدأ الزوجان -بعد انهيارهما إثر سنوات من الاتهامات المتبادلة- عيش حياتين منفصلتين. وقال أحد الأنثروبولوچيين البارزين في عام ١٩٨٤م آسفًا: «لم نعد [حتىٰ] نطلق الشتائم علىٰ بعضنا البعض». وفي الحالات المتطرفة - في جامعة ستانفورد، التي هي جامعتي - انفصل الأنثروبولوچيون في عام ١٩٩٨م، فانقسموا رسميًّا إلىٰ: قسم العلوم الأنثروبولوچية، والذي أحب التطوُّر؛ وقسم الأنثروبولوچيا الثقافية والاجتماعية، والذي لم يحب التطوُّر. وقام كل قسم بالتعيين والإقالة، وقبول طلابهما وتدريبهم علىٰ نحو خاص؛ ولم يكن علىٰ أعضاء إحدىٰ المجموعتين أن يُقرّوا أعضاء المجموعة الأخرىٰ. بل واستحدثوا فعلًا جديدًا (في اللغة الإنجليزية، م)، وهو (stanfordize)، أي: جعله -أي القسم- ستانفورديًا أو مُنتميًا إلىٰ جامعة ستانفورد.

وقد أبقت كوارث -أو مباهج، حسب المتحدث- الستانفوردية (stanfordization) علىٰ تسلية الأنثروبولوچيين في الحانات في المؤتمرات المتخصصة لعدة سنوات، لكن التحول الستانفورديّ (stanfordizing) ليس حلًّا

لإحدىٰ أكبر المشاكل الفكرية في العلوم الاجتماعية. فإذا أردنا تفسير سبب هيمنة الغرب؛ فعلينا أن نواجه حجج الجانبين معًا في هذه المسألة.

لقد كان نُقّاد التطور الاجتماعي بالتأكيد مُحقّين في أنَّ جماعة القانون والنظام كانت مُدانة بالكبرياء. ففي محاولة لشرح كل شيء عن كل شيء، مثل هربرت سبنسر نفسه، انتهىٰ بهم المطاف إلىٰ شرح القليل جدًّا عن أي شيء. كان هناك الكثير من الغموض حول ما الذي يقيسه التطوّريون الجُدد بالفعل، وحتىٰ عندما اتفقوا علىٰ ما يُفترض أنه يتطور داخل المجتمعات (وهو ما حدث -غالبًا- عندما تمسكوا بفكرة سبنسر المفضلة عن التمايز) لم يكن واضحًا -دائمًا- ما الذي سيُحققه بالفعل ترتيب مجتمعات العالم في جداول دورية.

فأوراق النتائج -كما يُصرُّ النُقّاد- تُخفي أكثر ممَّا تُبدي، فهي تحجب ميزات الثقافات الخصوصية. وقد وجدتُ ذلك صحيحًا بالتأكيد عندما كنت أدرس أصول الديمقراطية، في التسعينيات. فقد كانت المدن اليونانية القديمة التي اخترعت هذا الشكل من الحكومة متميزةً فعلًا، واعتقد كثير من سكانها بصدق أنَّه بدلًا من سؤال الكهنة عمَّا تصوّره الآلهة؛ فإنَّ الطريقة الأفضل للعثور علىٰ الحقيقة هي الإتيان بجميع الرجال معًا في جانب أحد التلال، حيث يتناقشون ويقومون بإجراء تصويت. ولذا، فإنَّ منح اليونان القديمة نقاطًا للتمايز لا يُفسّر من أين أتت الديمقراطية، ويمكن أن يؤدي دفن تميُّز اليونانيين في مكان ما في مؤشرٍ للتطور الاجتماعي إلىٰ جعل المهمة أصعب عن طريق لفت الأنظار عن إنجازاتهم الفريدة.

ومع ذلك، فانَّ هذا لا يعني أنَّ مؤشرًا للتطور الاجتماعي هو مضيعة للوقت، وإنَّما فقط يعني كونه أداة خاطئة للإجابة عن هذا السؤال المحدد. فالسؤال عن سبب هيمنة الغرب هو سؤال من نوع مختلف، سؤال كبير ومبني علىٰ المقارنة ويقتضي منَّا أن نرتحل عبر آلاف السنين من التاريخ، وأن ننظر إلىٰ ملايين الأميال المربعة من الأراضي، وأن نجمع معًا بلايين من البشر. ومن أجل هذه المهمة؛ فإنَّ مؤشر التطور الاجتماعي هو بالضبط الأداة التي نحتاج إليها. فالخلاف بين النظريات طويلة المدىٰ الحتمية وقصيرة المدىٰ العرضية هو -قبل

كل شيء- خلافٌ عن الشكل الكلِّي للتطور الاجتماعي في الشرق والغرب عبر عشرة آلاف سنة تقريبًا، التي كان فيها كل من «الشرق» و«الغرب» مفاهيم دلالية. وبدلًا من التركيز علىٰ هذا الخلاف ومواجهة حجج بعضهم البعض مباشرة، فإنَّ أنصار النظرية طويلة المدىٰ وقصيرة المدىٰ يميلون إلىٰ النظر إلىٰ أجزاء مختلفة من القصة، واستخدام مجموعات أدلة مختلفة، وتعريف مصطلحاتهم بطرق مختلفة. إنَّ اتباع ريادة جماعة القانون والنظام، واختزال محيط من الحقائق إلىٰ نقاط عددية بسيطة له مثالبه، ولكن له أيضًا الفضل الكبير في إجبار الجميع لمواجهة الأدلة ذاتها مع نتائج مدهشة.

ما الذي ينبغي قياسه؟

الخطوة الأولىٰ هي التوصل إلىٰ ما نحتاج إلىٰ قياسه بالضبط. وليس هناك أفضل من الاستماع إلىٰ اللورد روبرت چوسلين، الذي حارب في حرب الأفيون التي جعلت الهيمنة الغربية واضحة للجميع. في أُمسية يوم أحد قائظة في يوليو من عام ١٨٤٠م كان اللورد يراقب السفن البريطانية وهي تقترب من تينغهاي، حيث أعاق حصنٌ تقدمها تجاه مصب نهر اليانغتسي. وكتب چوسلين: «فتحت السفن المدافع في جوانبها علىٰ المدينة، ودوَّىٰ صوت تحطم الخشب، والبيوت المتداعية، وأنين الرجال من الشاطئ. واستمر إطلاق النار من جانِبنا لمدة تسع دقائق ... ونزلنا علىٰ شاطئ مهجور، حيث بضع جثث، وأقواس وسهام، ورماح مكسورة، ومدافع - هي الشاغل الوحيد المتبقي للميدان».

ويكمن السبب المباشر في هيمنة الغرب هنا: أنَّه بحلول عام ١٨٤٠م كان بإمكان السفن والمدافع الأوروبية سحق أي شيء يمكن لقوة شرقية وضعه في الميدان. ولكن -بالطبع- كانت ثمة أسباب أخرىٰ لهيمنة الغرب غير القوة العسكرية فحسب. فلقد شبَّه آرمين ماونتاين (Armine Mountain) -وهو ضابط آخر في الأسطول البريطاني في عام ١٨٤٠م- القوة العسكرية الصينية في تينغهاي بشيء من صفحات السجلات التاريخية في العصور الوسطىٰ: لقد بدا أنَّ «أفراد تلك الطبعات القديمة قد اكتسبوا حياة وجوهرًا ولونًا»، كما تفكَّر آرمين، «وكانوا يتحركون ويتصرفون أمامي غير واعين بمسيرة العالم عبر القرون، وبجميع الأعراف والابتكارات والتطورات الحديثة».

وأدرك آرمين أنَّ نسف السفن والحصون كان مجرد السبب التقريبي للهيمنة الغربية، وهي الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة من المزايا. وثمة سبب أعمق، وهو أنَّ المصانع البريطانية كانت تستطيع إنتاج قذائف متفجرة، ومدافع ذات ثقوب مُتقنة، وسفن حربية عابرة للمحيطات، وكانت الحكومات البريطانية تستطيع القيام بحملات وتمويلها وتوجيهها، فكانت تسير إلىٰ ما يبلغ نصف المسافة حول العالم؛ وأما السبب الأساسي الذي أدىٰ لاجتياح البريطانيين لتينغهاي في مساء ذلك اليوم، فهو نجاحهم في استخلاص الطاقة من البيئة الطبيعية، واستخدامها لتحقيق أهدافهم. لقد اختُزل كل ذلك في حقيقة أنَّ الغربيين لم ينطلقوا فحسب لموضع أعلىٰ في السلسلة العظمىٰ للطاقة، لكنَّهم أيضًا انطلقوا لأعلىٰ بكثير - بخلاف أي مجتمعات أقدم في التاريخ- لدرجة مكنتهم من إسقاط قوتهم عبر العالم بأسره.

وتُعد عملية الانطلاق لأعلىٰ في السلسلة العظمىٰ للطاقة، هي أساس ما سأسميه: «التطور الاجتماعي»، تأسيًا بتقليد الأنثروبولوجيين التطوريين منذ نارول في الخمسينيات، والتطور الاجتماعي هو في الأساس قدرة مجموعة ما علىٰ إخضاع بيئتها المادية والفكرية لإنجاز الأشياء. وبشكل رسمي أكثر، فإنَّ التطور الاجتماعي هو حزمة الإنجازات التكنولوجية، والإعاشية، والتنظيمية، والحضارية، والتي من خلالها يتغذىٰ البشر، ويلبسون، ويسكنون، ويتكاثرون، ويُفسّرون العالم من حولهم، ويُسوّون الخلافات داخل مجتمعاتهم، ويبسطون سلطتهم علىٰ حساب المجتمعات الأخرىٰ، ويدافعون عن أنفسهم ضد محاولات الآخرين لبسط سلطتهم. ويمكننا القول: إنَّ التطور الاجتماعي، يقيس قدرة المجتمع علىٰ إنجاز الأشياء، والتي -من حيث المبدأ- يمكن مقارنتها عبر المكان والزمان.

وقبل أن نمضي أكثر من ذلك في هذا النقاش، هناك نقطة أودُّ توضيحها بأقوىٰ العبارات الممكنة: إنَّ قياس التطور الاجتماعي ومقارنته ليس وسيلة لتمرير الأحكام الأخلاقية علىٰ مختلف المجتمعات. علىٰ سبيل المثال: فإنَّ يابان القرن الحادي والعشرين هي أرض المكيِّفات، والمصانع المحوسبة، والمدن الصاخبة.

ولديها السيارات، والطائرات، والمكتبات، والمتاحف، والرعاية الصحية عالية التقنية، والسكان المتعلمون. فقد أجاد اليابانيون المعاصرون استخدام بيئتهم المادية والفكرية بشكل كُليٍّ أكثر من أسلافهم قبل ألف عام، والذين لم يكن لديهم أي من هذه الأمور. لذلك من المنطقي القول إنَّ اليابان الحديثة أكثر تطورًا من يابان العصور الوسطىٰ. ولكن هذا لا يشير إلىٰ أي شيء حول كون شعب اليابان الحديثة أذكىٰ، وأغنىٰ، وأوفر حظًّا من يابانيِّ العصور الوسطىٰ. ولا يشير كذلك إلىٰ التكاليف الأخلاقية والبيئية وغيرها من تكاليف التطور الاجتماعي. فالتطور الاجتماعي هو مقولة تحليلية محايدة. وقياسه هو شيء، أما مدحه أو لومه فهو شيء آخر بالكليّة.

وسأجادل لاحقًا في هذا الفصل بأنَّ قياس التطور الاجتماعي يُظهر لنا ما يجب أن نفسّره إذا أردنا الإجابة عن سؤال: (لماذا يهيمن الغرب؟)، وفي الحقيقة: سأقترح أنَّنا ما لم نتوصل إلىٰ طريقة لقياس التطور الاجتماعي؛ فلن نكون قادرين علىٰ الإجابة عن هذا السؤال. ونحن -أولًا- بحاجة إلىٰ تثبيت بعض المبادئ لترشدنا في صناعة مؤشر التطور.

ولا يسعني أن أفكر في موضع للبدء أفضل من ألبرت أينشتاين، العالم الأكثر توقيرًا في العصر الحديث. يُفترض أن أينشتاين قال: «يجب تبسيط الأشياء في العلوم قدر الإمكان، ولكن ليس أبسط من ذلك». وبعبارة أخرىٰ: يتعيَّن علىٰ العلماء غلي أفكارهم وصولًا إلىٰ النقطة الجوهرية التي يمكن عندها اختبار الأفكار في الواقع، ويتعيَّن عليهم التوصل إلىٰ أبسط الطرق الممكنة لإجراء هذا الاختبار، عليهم فعل هذا فحسب - لا أكثر، ولا أقل علىٰ السواء.

وتقدم النظرية النسبية لأينشتاين مثالًا شهيرًا علىٰ ذلك، فالنسبية تشير إلىٰ أنَّ الجاذبية تكسر أشعة الضوء، بمعنىٰ -إذا صحّت النظرية- أنَّه في كل مرة تمر فيها الشمس بين الأرض ونجم آخر، فإنَّ جاذبية الشمس ستكسر الضوء الآتي من ذلك النجم، ممَّا سيجعل النجم يبدو في وضع مختلف قليلًا. فهذا المثال يوفر اختبارًا سهلًا للنظرية، باستثناء حقيقة أنَّ الشمس ساطعة جدًّا، لدرجة أنَّنا لا نستطيع رؤية النجوم بالقرب منها. ولكن في عام ١٩١٩م ابتكر الفلكي البريطاني آرثر إدينجتون

(Arthur Eddington) حلًّا ذكيًّا، علىٰ غرار مقولة أينشتاين، وهو: أنَّه بالنظر إلىٰ النجوم القريبة من الشمس في أثناء كسوف شمسي، كما أدرك إدينجتون، فإنَّه يستطيع قياس ما إذا كانت النجوم قد انزاحت عن موضعها بالقدر الذي تنبأ به أينشتاين.

وانطلق إيدينجتون إلىٰ جنوب المحيط الهادئ، وقام بملاحظاته، وأعلن صدق أينشتاين. ونتج عن ذلك جدالات تهكمية؛ لأنَّ الفرق بين النتائج التي دعمت أينشتاين والنتائج التي عارضته كانت ضئيلة، وقد دفع إدينجتون بالأدوات المتاحة في عام ١٩١٩م إلىٰ أقصىٰ حدود ما تحتمل، وبالرغم من تعقيد النظرية النسبية؛ فقد تمكَّن علماء الفلك من الاتفاق علىٰ ما كانوا يحتاجون لقياسه، وكيفية قياسه. ثم باتت المسألة هي مجرد ما إذا فهم إدينجتون تلك القياسات أم لا. وبالعودة من الحركة العظيمة للنجوم إلىٰ القصف الوحشي لتينغهاي، سرعان ما ندرك أنَّ الأشياء تكون أكثر فوضوية عندما نتعامل مع المجتمعات البشرية. فما الذي ينبغي علينا قياسه لتحديد نتائج التطور الاجتماعي؟

إذا كان آيشتاين قد قدَّم لنا النموذج النظري، فربما نأخذ نموذجًا عمليًّا من مؤشر الأمم المتحدة للتنمية البشرية (HDI)؛ علىٰ الأقل لأنَّ لديه الكثير من النقاط المشتركة مع نوع المؤشر الذي سيساعد في الإجابة عن سؤالنا. لقد ابتكر برنامج الأمم المتحدة الإنمائي هذا المؤشر لقياس مدىٰ تحسن أداء كل أمة، حال منحها لمواطنيها فرص إدراك إمكاناتهم الفطرية. وقد بدأ الاقتصاديون البرنامج بسؤال أنفسهم: ماذا تعني حقًّا التنمية البشرية؟ وقاموا بغلي أفكارهم وصولًا إلىٰ ثلاث سِمَات أساسية: متوسط العمر المتوقع، ومتوسط التعليم (الذي يُعبّر عنه بمستويات الإلمام بالقراءة والكتابة والالتحاق بالمدارس)، ومتوسط الدخل. ثم ابتكروا نظام قياس معقد للجمع بين هذه السمات لإعطاء كل بلد درجة تتراوح بين الصفر، ممَّا يعني أنَّه لا توجد تنمية بشرية علىٰ الإطلاق (وفي هذه الحالة يكون الكل ميتًا)، والواحد أي الكمال، مع اعتبار احتمالات الحالة الراهنة للأشياء في العام الذي أُجري فيه المسح. (في حالة ما كنت تتساءل، ففي أحدث مؤشر متاح بينما أكتب -أي في عام ٢٠٠٩- جاءت النرويج في المرتبة الأولىٰ

مسجلة (٠,٩٧١)، وسيراليون في المرتبة الأخيرة مسجلة (٠,٣٤٠).

وهذا المؤشر يُلبِّي قاعدة أينشتاين، حيث إنَّ ثلاث سمات هي علىٰ الأرجح أبسط ما يمكن للأمم المتحدة أن تجعل الأشياء عليه، مع كونها لا تزال تُبقي علىٰ معنىٰ التنمية البشرية. وبالرغم من ذلك، فما زال الاقتصاديون يجدون الكثير ممَّا لا يروق لهم في تلك السمات؛ فمن الواضح للغاية أن العمر المتوقع والتعليم والدخل ليست الأشياء الوحيدة التي يمكننا قياسها. وهي تتميز بأنَّها من السهل نسبيًا تحديدها وتوثيقها (فبعض السمات المحتملة مثل السعادة تكون أصعب بكثير)، ولكن من المؤكد أنَّ هناك أشياء أخرىٰ يمكننا اعتبارها (مثل معدلات التوظيف، والتغذية، أو المسكن)، والتي قد تنتج نتائج مختلفة. وحتىٰ الاقتصاديون الذين يوافقون علىٰ أنَّ سمات الأمم المتحدة هي أفضل سمات، يتقاعسون أحيانًا عن دمجها إلىٰ إحراز واحد أو نتيجة واحدة للتنمية البشرية؛ ويقولون بأنَّ هذه السمات تشبه التفاح والبرتقال، وسيكون من السخافة دمجها معًا. وبعض الاقتصاديين الآخرين مطمئنون تجاه المتغيِّرات المُختارة، وتجاه دمجها، ولكنَّهم لا يحبّون الطريقة التي يقيس أو يقيِّم بها إحصائيو الأمم المتحدة كل سمة. فقد تبدو النتائج موضوعية، كما يشيرون، لكنَّها في الحقيقة متحيزة إلىٰ حدٍّ بعيد. ولا يزال نُقَّاد آخرون يرفضون فكرة تسجيل نتائج التنمية البشرية. ويقولون بأنَّ ذلك يخلق انطباعًا بأنَّ النرويجيين قد أحرزوا (٩٧,١٪) نحو النعيم المطلق، وهم في نعيم يعدل (٢,٩) ضعف السكان في سيراليون، ويبدو كل من الأمرين مستبعدًا.

ولكن علىٰ الرغم من جميع الانتقادات، فقد أثبت مؤشر التنمية البشرية أنَّه مفيد بشكل هائل. لقد ساعد وكالات الإغاثة في توجيه تمويلها للبلدان التي يمكنها فيها تحقيق أقصىٰ فائدة ممكنة، وحتىٰ النقَّاد يميلون إلىٰ الاتفاق علىٰ أنَّ الحقيقة البسيطة لوجود مؤشر تحرك الجدالات إلىٰ الأمام بجعل كل شيء أكثر وضوحًا. ويواجه مؤشر التطور الاجتماعي عبر ما يزيد علىٰ خمسة عشر ألف سنة جميع المشاكل ذاتها التي يواجهها مؤشر الأمم المتحدة، ولكنَّه أيضًا -كما أعتقد- يوفر بعض المزايا المشابهة.

وعلىٰ غرار اقتصاديِّ الأمم المتحدة، يجب علينا أن نسعىٰ إلىٰ اتباع قاعدة أينشتاين. ينبغي أن يقيس المؤشر أقل ما يمكن من أبعاد المجتمع (الحفاظ علىٰ البساطة) التي لا تزال تحتفظ بالملامح الأساسية للتطور الاجتماعي علىٰ النحو المُعرّف أعلاه، (وليس أبسط من ذلك). **ويجب أن يُلبِّي كل بُعْدٍ للمجتمع ستة معايير واضحة:**

أولًا: يجب أن يكون ذا صلة؛ أي إنه يجب أن يُخبرنا شيئًا عن التطور الاجتماعي.

ثانيًا: يجب أن يكون غير معتمد علىٰ الثقافة، فعلىٰ سبيل المثال: قد نعتقد أنَّ جودة الأدب والفن هي قياسات مفيدة للتطور الاجتماعي، ولكن الأحكام الصادرة في تلك الأمور هي مسائل ذات صلة بالثقافة.

ثالثًا: يجب أن تكون هذه السِمات مستقلة عن بعضها البعض، علىٰ سبيل المثال: إذا استخدمنا عدد السكان في دولة ما، ومقدار الثروة في هذه الدولة باعتبارهما سمتيْن؛ فلا يجب أن نستخدم ثروة الفرد باعتبارها سِمة ثالثة؛ لأنَّها ليست إلَّا نتاجًا للسمتين الأوليين.

رابعًا: يجب توثيق السِمات علىٰ نحو ملائم. وتُعدُّ هذه مشكلة حقيقية عندما ننظر إلىٰ الوراء بمقدار آلاف السنين؛ لأنَّ الأدلة المتوفرة تتنوع كثيرًا، ولا سيما في الماضي البعيد، حيث إننا ببساطة لا نعرف الكثير عن بعض السِمات التي يحتمل أن تكون مفيدة.

خامسًا: يجب أن تكون السمات موثوقًا فيها، بمعنىٰ أن يتفق الخبراء إلىٰ حدٍّ ما علىٰ ما يقوله الدليل.

وسادسًا: يجب أن تكون السمات ملائمة. وقد يكون هذا أقل المعايير أهمية، ولكن كلما كان الحصول علىٰ أدلة علىٰ شيء ما أصعب أو يتطلب وقتًا أطول، تكون تلك السمة أقل فائدة.

لا يوجد شيء اسمه السِمة المثالية. فكل سِمة قد نختارها يكون أداؤها في بعض المعايير أفضل من أدائها في المعايير الأخرىٰ، ولكن بعد أن أمضيت عدة أشهر حتىٰ الآن أتفحص الخيارات، استقررت علىٰ أربع سمات أعتقد أنَّ أداءها

جيد جدًّا في المعايير الستة. وهي لا تزيد في قدر مساهمتها لصورة شاملة عن المجتمعين الشرقي والغربي، عما تُخبرنا السمات الأساسية للأمم المتحدة، المتمثلة في العمر المتوقع والتعليم والدخل، كل شيء يمكن معرفته عن النرويج أو سيراليون. ولكنَّها تعطينا لمحة جيدة عن التطور الاجتماعي؛ فتبيِّن لنا الأنماط طويلة المدىٰ التي تحتاج إلىٰ تفسير إذا أردنا أن نعرف لماذا يهيمن الغرب.

السِمة الأولىٰ هي: «امتلاك الطاقة»، فمن دون القدرة علىٰ استخلاص الطاقة من النباتات والحيوانات لتغذية الجنود والبحارة الذين لم يكونوا يزرعون بأنفسهم، ومن الرياح والفحم لحمل السفن إلىٰ الصين، ومن المتفجرات لقذف القنابل علىٰ الحامية الصينية؛ لم يكن البريطانيون ليصلوا أبدًا إلىٰ تينغهاي في عام ١٨٤٠م، ويفجروها إلىٰ أشلاء. إنَّ امتلاك الطاقة أساسي للتطور الاجتماعي - لدرجة أنه في أربعينيات القرن العشرين، اقترح الأنثروبولوجي ليزلي وايت (Leslie White) اختزال كل التاريخ البشري في معادلة واحدة: (E x T → C)، حيث (E) هي الطاقة، و(T) هي التكنولوجيا، و(C) هي للثقافة.

والأمر ليس مادي النزعة كما يبدو. لم يكن وايت يقترح حقًّا أنَّ حاصل ضرب الطاقة في التكنولوجيا يخبرنا كل ما قد نرغب في معرفته عن كونفوشيوس وأفلاطون، أو عن الفنانين مثل الرسام الهولندي رامبرانت، ورسام المناظر الطبيعية الصيني فان كوان. فعندما تحدث وايت عن «الثقافة» كان يعني في الحقيقة شيئًا يشبه -إلىٰ حدٍّ ما- ما أُطلق عليه التطور الاجتماعي. لكن رغم ذلك، فإنَّ معادلته بسيطة للغاية لتحقق أغراضنا. ولتفسير ما حدث في تينغهاي نحتاج لمعرفة المزيد.

لم يكن الاستيلاء علىٰ كل الطاقة في العالم ليأخذ الأسطول البريطاني إلىٰ تينغهاي ما لم يكونوا قادرين علىٰ تنظيمها. كان علىٰ أتباع الملكة ڤيكتوريا أن يكونوا قادرين علىٰ حشد الجيوش، والدفع لهم وتزويدهم بالإمدادات، وجعلهم يتبعون القادة، بالإضافة إلىٰ أن يكونوا قادرين علىٰ القيام بمجموعة من الأعمال المخادعة الأخرىٰ. ونحن بحاجة إلىٰ قياس هذه القدرة التنظيمية. وإلىٰ حدٍّ ما تتداخل القدرة التنظيمية مع فكرة سبنسر القديمة عن التمايز، لكن التطوريين

الجُدد علموا في الستينيات أنَّه يكاد يكون من المستحيل قياس التمايز مباشرة، أو حتىٰ تعريفه بطريقة ترضي النقَّاد. نحن بحاجة إلىٰ وكيل، شيء مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالقدرة التنظيمية، ولكنَّه أسهل في القياس.

والسمة التي اخترتها هي التمدُّن. ربما يبدو هذا غريبًا؛ ففي النهاية، لا تعكس حقيقة أنَّ لندن كانت مكانًا كبيرًا مباشرة تدفق إيرادات اللورد ملبورن، أو هيكل قيادة البحرية الملكية. لكن بإمعان النظر، آمل أن يغدو اختياري أقل غرابة. لقد تطلب دعم مدينة من ٣ ملايين نسمة تنظيمًا مذهلًا. كان علىٰ أحدهم إدخال الغذاء والماء وإخراج النفايات، وتوفير فرص العمل، والحفاظ علىٰ القانون والنظام، وإخماد النيران، وأداء كل المهام الأخرىٰ التي تستمر يومًا بعد يوم في كل مدينة كبيرة.

ومن المؤكد أنَّ بعض أكبر المدن اليوم هي كوابيس مختلة وظيفيًّا، مليئة بالجريمة والقذارة والمرض؛ إلَّا أنَّ ذلك يصدق علىٰ معظم المدن الكبيرة علىٰ مرّ التاريخ. فقد كان لدىٰ روما مليون ساكن في القرن الأول قبل الميلاد، لكن كانت فيها أيضًا عصابات الشوارع التي أوقفت في بعض الأحيان عمل الحكومة، وأدت لارتفاع معدلات الوفيات عاليًا جدًّا لدرجة أنَّه كان علىٰ أكثر من ألف شخص من الريف الهجرة إلىٰ روما كل شهر لتعويض النقص في عدد السكان. ومع كل الانحلال والجنون في روما (والتي أُثيرت بشكل رائع في عام (٢٠٠٦) في المسلسل التلفزيوني «روما» علىٰ شبكة HBO)، فقد كان التنظيم المطلوب لإدراة المدينة يفوق بشكل واسع أي شيء تمكَّن منه أي مجتمع أقدم، مثلما تتفوق إدراة لاجوس (تعداد السكان ١١ مليونًا)، أو مومباي (تعداد السكان ١٩ مليونًا) فضلًا عن طوكيو (٣٥ مليونًا) كثيرًا علىٰ قدرات الإمبراطورية الرومانية.

وهذا هو السبب في استخدام علماء الاجتماع بانتظام للتمدن باعتباره مؤشرًا عامًا علىٰ القدرة التنظيمية، وهو ليس قياسًا مثاليًّا، لكنَّه بالتأكيد مؤشر تقريبي مفيد. وفي حالتنا، فلدىٰ حجم أكبر للمدن في المجتمع ميزة إضافية، وهي أنَّنا بوسعنا تتبع هذه الأحجام ليس فقط في الإحصاءات الرسمية الصادرة في السنوات

البضع مائة السابقة، ولكن أيضًا في السجل الأثري، ممَّا يسمح لنا بالحصول علىٰ تصور تقريبي لمستويات التنظيم وصولًا إلىٰ العصر الجليدي.

وبالإضافة إلىٰ توليد الطاقة المادية وتنظيمها، كان علىٰ البريطانيين أيضًا معالجة كميات ضخمة من المعلومات ونقلها. وكان علىٰ العلماء ورجال الصناعة نقل المعارف بدقة؛ وازداد احتياج صانعي المدافع وبنائي السفن والجنود والبحّارة لقراءة التعليمات المكتوبة والخطط والخرائط، وكانت الرسائل بحاجة إلىٰ الانتقال بين آسيا وأوروبا. لقد كانت تكنولوجيا المعلومات البريطانية في القرن التاسع عشر بدائية مقارنة بما نعُدُّه الآن من البديهيات (تطلبت الرسائل الخاصة ثلاثة أشهر لتصل من جوانزو إلىٰ لندن؛ أمَّا الإرساليات الحكومية، فلسبب أو لآخر، تطلبت أربعة أشهر)، لكنَّها كانت متقدمة بالفعل إلىٰ حدٍّ كبير عن مستويات القرن الثامن عشر، والتي كانت -بدورها- متقدمة عن مستويات القرن السابع عشر. إنَّ معالجة المعلومات أمر حيوي للتطور الاجتماعي، وسأستخدمها باعتبارها السِمة الثالثة.

وأخيرًا، وليس آخرًا للأسف، القدرة علىٰ صناعة الحرب. فمهما كان أسر البريطانيين للطاقة وتنظيمها ونقلها جيدًا، فقد كانت قدرتهم علىٰ توجيه تلك السمات الثلاث نحو الدمار هي التي حسمت الأمور في عام ١٨٤٠م، وقد تذمّرت في الفصل الأول عن مساواة آرثر كلارك للتطور بالمهارة في القتل، في كلاسيكية الخيال العلمي (٢٠٠١: A Space Odyssey) أو «٢٠٠١م: أوديسا الفضاء»، ولكن مؤشرًا للتطور الاجتماعي لا يتضمن استخدام القوة العسكرية لن تكون هناك فائدة منه علىٰ الإطلاق. وكما لخّص ذلك ماو تسي تونغ ببراعة، «لا بُدَّ أن يدرك كل شيوعي هذه الحقيقة: إنَّ السلطة السياسية تنبع من فوهة البندقية». قبل أربعينيات القرن التاسع عشر، لم يتمكن أي مجتمع من تسليط القوة العسكرية عبر الكوكب بأسره، وكان التساؤل عن من الذي «يهيمن» ليس له معنىٰ. ولكن بعد أربعينيات القرن التاسع عشر، أصبح هذا السؤال ربما أهم سؤال في العالم.

وكما هو الحال مع مؤشر التنمية البشرية للأمم المتحدة، فليس هناك فصل للقول بأنَّ هذه السمات، بدلًا من مجموعة أخرىٰ من السمات، هي الطريقة النهائية لقياس التطور الاجتماعي، ومرة أخرىٰ مثل مؤشر الأمم المتحدة؛ فإنَّ أي تغيُّر في السمات سيُغيِّر النتائج. لكن الأخبار الجيدة -رغم ذلك- هي أنَّ أيًّا من السمات البديلة التي فحصتها في السنوات القليلة الماضية لم تغيِّر النتائج كثيرًا، ولم يُغيِّر أي منها النمط العام علىٰ الإطلاق.

لو كان إدنجنتون فنانًا؛ فلربما أصبح مُعلمًا قديمًا، (المعلم القديم: (Old master): هو أي رسام ذي موهبة ومهارة عالية عَمِل في أوروبا في (١٨٠٠م)، م)، يُعبِّر عن العالم علىٰ مستوىٰ من التفصيل من المؤلم رؤيته. لكن صناعة مؤشر للتطور الاجتماعي يُشبه فن نحت الخشب بالمنشار، حيث تُنحَت الدببة الشهابية من جذوع الأشجار. هذا المستوىٰ من التقريب والبساطة كان بلا شك سيفاجئ أينشتاين، لكن المسائل المختلفة تستدعي هوامش مختلفة للخطأ. فبالنسبة إلىٰ فنان نحت الخشب سيكون السؤال الوحيد المُهم هو: هل يشبه جذع الشجرة دُبًّا؛ وبالنسبة إلىٰ المُشتغل بالتاريخ المقارن فهو: ما إذا كان المؤشر يُظهر النمط الإجمالي لتاريخ التطور الاجتماعي. وهذا بالطبع هو شيء سيحكم فيه المؤرخون بأنفسهم، بمقارنة النمط الذي يُظهره المؤشر بالتفاصيل من السجل التاريخي.

إنَّ إثارة المؤرخين لفعل ذلك قد تكون أكبر خدمة يمكن أن يؤديها مؤشر ما. وهناك مجال كبير للمناقشة: فسمات مختلفة وأساليب مختلفة لتحديد النتائج قد تكون ناجعة بشكل أفضل. لكن وضع الأرقام في الجداول يدفعنا للتركيز علىٰ المواضع التي ربما تسللت إليها الأخطاء، وكيف يمكن تصحيحها. وقد لا يكون هذا الأمر كالفيزياء الفلكية، ولكنَّه بداية علىٰ أية حال.

كيفية القياس

حان الوقت الآن لتقديم بعض الأرقام. من السهل بما يكفي العثور علىٰ أرقام عن حالة العالم في عام ٢٠٠٠ ق. م (نظرًا لأنَّ هذا رقم لطيف؛ فأنا أستخدمه باعتباره نقطة النهاية للمؤشر). تنشر البرامج المتنوعة للأمم المتحدة مُلخَّصات إحصائية سنوية تخبرنا -علىٰ سبيل المثال- أن متوسط استهلاك الفرد الأمريكي للطاقة يبلغ ٨٣,٢ مليون كيلو من السعرات الحرارية سنويًا، مقارنة بنحو ٣٨ مليون كيلو للفرد المتوسط في اليابان؛ وأنَّ ٧٩,١٪ من الأمريكيين يعيشون في المدن، مقابل ٦٦٪ من اليابانيين؛ وأنَّ هناك ٣٧٥ موفِّر خدمة إنترنت لكل ألف أمريكي، ولكن هناك فقط ٧٣ لكل ألف من اليابانيين؛ وهلم جرًّا. ويخبرنا التقييم السنوي للتوازن العسكري الصادر عن المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، بقدر ما يُمكن معرفته حتىٰ الآن، كم تملك كل دولة من الجيوش والأسلحة، وما هي قدراتها، وتكلفتها. نحن غارقون في الأرقام، لكنَّ الأرقام لا تضيف شيئًا إلىٰ مؤشر ما، إلىٰ أن نقرر كيفية تنظيمها.

وبالتمسك بالبساطة بقدر الإمكان، فإنَّني عيَّنت ١٠٠٠ نقطة باعتبارها أعلىٰ درجات التطور الاجتماعي، القابل للتحقيق في عام ٢٠٠٠م، وقسّمْتُ هذه النقاط بالتساوي بين السمات الأربع التي حدَّدتها. عندما نشر راؤول نارول أول مؤشر حديث للتطور الاجتماعي في عام ١٩٥٦م، أعطىٰ نقاطًا متساوية لسِماته الثلاث، فعلىٰ حدِّ قوله: «لأنَّه لم يظهر سبب واضح لإعطاء إحداها وزنًا أكبر من الأخرىٰ». يبدو هذا كحلٍّ وحيد بعد حلول فاشلة، ولكن هناك سبب وجيه في الواقع لوزن السمات بالتساوي: أنَّه حتىٰ لو فكرت في أسباب لإعطاء إحدىٰ

السمات وزنًا أكبر من الأخرىٰ في حساب التطور الاجتماعي، فلن يكون هناك أساس لافتراض أنَّ الأوزان نفسها قد ظلت صالحة عبر ما يزيد عن الخمسة عشر ألف عام قيد البحث، أو أنَّها انطبقت بالتساوي علىٰ الشرق والغرب.

وبعد تحديد أقصىٰ درجة ممكنة لكل سمة في عام ٢٠٠٠م عند ٢٥٠ نقطة، نأتي إلىٰ الجزء الأكثر خداعًا، وهو تقرير كيفية منح نقاط للشرق والغرب في كل مرحلة من تاريخهما. ولن أخوض خطوة فخطوة عبر كل عملية حسابية مُتضمنة (قمت بتلخيص البيانات وبعض التعقيدات الرئيسة في التذييل في نهاية هذا الكتاب، ونشرت علىٰ الإنترنت شروحًا أكثر تفصيلًا)؛ إلَّا أنَّه قد يكون من المفيد إلقاء نظرة خاطفة علىٰ الإعدادات، وشرح الإجراء بشكل أكثر تفصيلًا. (إذا كنت لا تعتقد ذلك، يمكنك بالطبع الانتقال إلىٰ القسم التالي).

يُعدُّ التمدن علىٰ الأرجح السمة الأكثر وضوحًا، علىٰ الرغم من أنَّ لديها تحدياتها، وأول هذه التحديات هو التعريف: ما الذي نعنيه بالتمدن؟ يُعرِّف بعض علماء الاجتماع التمدن بأنَّه نسبة السكان الذين يعيشون في مستوطنات يفوق حجمها حدًّا معينًا (فلنقل -مثلًا-: عشرة آلاف شخص)؛ ويُعرِّفه آخرون بأنَّه توزيع السكان عبر عدة مراتب من المستوطنات، تتراوح من المدن وصولًا إلىٰ القرىٰ الصغيرة؛ بينما يُعرِّفه آخرون بأنَّه متوسط حجم مجتمع ما داخل بلد ما. وكلها مقاربات مفيدة، ولكن يصعب علينا تطبيقها عبر كل الفترة التي نفحصها هنا؛ لأنَّ طبيعة الأدلة تتغيَّر باستمرار؛ ولهذا فقد قررت استخدام قياس أكثر بساطة: حجم أكبر مستوطنة عُرفت في الشرق والغرب في الفترة الزمنية نفسها.

إنَّ التركيز علىٰ أكبر حجم لمدينة لا يزيل مشاكل التعريف؛ إذ لا يزال يجب علينا أن نقرر كيفية تحديد حدود المدن وكيفية الجمع بين مختلف فئات الأدلة من أجل الأرقام بداخلها. ومع ذلك، فهو لا يُقلل من حالات عدم اليقين إلىٰ أقصىٰ حد. فعندما اختبرت الأرقام، وجدت أنَّ الجمع بين أكبر حجم لمدينة مع معايير أخرىٰ، مثل أفضل التقديرات لتوزيع السكان بين المدن والقرىٰ، أو متوسط حجم المدن - أدىٰ إلىٰ زيادة ضخمة في صعوبات المهمة، لكنَّه لم يغيِّر علىٰ الإطلاق من النتائج الكلية إلَّا قليلًا؛ ولذا فنظرًا إلىٰ أنَّ أساليب القياس

الأكثر تعقيدًا أنتجت النتائج نفسها تقريبًا، ولكن مع تقديرات أكثر بكثير؛ قررتُ الالتزام ببساطة بأحجام المدن فحسب.

في عام ٢٠٠٠م، صنَّف معظم الجغرافيين طوكيو باعتبارها أكبر مدينة في العالم، مع حوالي ٢٦,٧ مليون نسمة. فقد أحرزت طوكيو حينئذٍ الـ (٢٥٠ نقطة) المخصصة للتنظيم/التمدن كاملة، بمعنىٰ أنَّه وفق جميع الحسابات الأخرىٰ، فسيتطلب الأمر (١٠٦,٨٠٠ شخص)، (أي: ٢٦,٧ مليونًا مقسومين علىٰ ٢٥٠) لإحراز نقطة واحدة. كانت نيويورك هي أكبر مدينة غربية في عام ٢٠٠٠م، مع ١٦,٧ مليون نسمة (مسجلةً ١٥٦,٣٧ نقطة). لكنَّ البيانات منذ مائة سنة مضت ليست بالجودة نفسها، بيد أنَّ جميع المؤرخين يتفقون علىٰ أنَّ المدن كانت أصغر بكثير. ففي الغرب، كان يعيش في لندن حوالي ٦,٦ ملايين نسمة (مُسجلةً ٦١,٨٠ نقطة) في عام ١٩٠٠م، بينما كانت طوكيو في الشرق لا تزال أكبر مدينة، ولكن مع ١,٧٥ مليون نسمة فحسب (مسجلةً ١٦,٣٩ نقطة). وفي الوقت الذي نرجع فيه إلىٰ عام ١٨٠٠م، كان يتوجب علىٰ المؤرخين أن يجمعوا بين عدة أنواع مختلفة من الأدلة، بما في ذلك سجلات الإمدادات الغذائية والمدفوعات الضريبية، والمساحة المادية التي تغطيها المدن، وكثافة المساكن داخلها، والسرديات القصصية، ولكن معظم هذه الأدلة تستنتج أن بكين كانت أكبر مدينة في العالم، ربما مع ١,١ مليون نسمة (مسجلةً ١٠,٣٠ نقاط). أمَّا أكبر مدينة غربية فكانت مرة أخرىٰ لندن مع حوالي ٨٦١ ألف نسمة (مسجلةً ٨,٠٦ نقاط).

كلما اندفعنا أكثر إلىٰ الوراء، ازداد هامش الخطأ، ولكن علىٰ مدىٰ آلاف السنوات التي تقود إلىٰ عام ١٧٠٠م كانت أكبر المدن هي المدن الصينية بوضوح (تليها المدن اليابانية بفرق قليل) أولًا، تشانغهان، ثم كايفنغ، ثم لاحقًا اقتربت هانجزو أو تخطت مليون نسمة (حوالي ٩ نقاط) بين عامي ٨٠٠ و١٢٠٠م. وعلىٰ العكس من ذلك، لم تصل المدن الغربية إلىٰ نصف ذلك الحجم. وقبل ذلك بقرون قليلة كان الوضع منقلبًا: ففي القرن الأول قبل الميلاد، فإنَّ المليون ساكن في روما جعل منها بلا شكٍّ حاضرة العالم، بينما كان لدىٰ تشانغهان في الصين (٥٠٠ ألف مواطن) تقريبًا.

بينما نعود إلىٰ ما قبل التاريخ تزداد الأدلة غموضًا وتصبح الأرقام أقل، ولكن لا يزال الجمع بين المسوحات الأثرية المنهجية والتنقيب التفصيلي لمساحات أصغر يمنحنا إدراكًا معقولًا لأحجام المدن. وكما أسلفت، فهذا الأمر يُشبه للغاية فن نحت الخشب بالمنشار. وقد تصل نسبة الخطأ في التقديرات الأكثر قبولًا إلىٰ (١٠٪)، ولكن ليس محتملًا أن تتخطىٰ أكثر من ذلك؛ وبما أنَّنا نُطبّق أساليب التقدير نفسها علىٰ المواقع الشرقية والغربية، فيجب أن تكون الاتجاهات الأوسع موثوقًا فيها إلىٰ حد ما. يتطلب إحراز نقطة واحدة علىٰ هذا النظام ١٠٦,٨٠٠ شخص؛ ولذا فإنَّ ما يزيد قليلًا عن ألف شخص سيحرز (٠,٠١ نقطة)، وهو أقل رقم شعرت أنه يستحق الدخول في المؤشر. وكما رأينا في الفصل الثاني، وصلت أكبر القرىٰ الغربية إلىٰ هذا المستوىٰ في حوالي عام ٧٥٠٠ ق. م، ووصلت إليه أكبر القرىٰ الشرقية في حوالي ٣٥٠٠ ق. م. وقبل هذين التاريخين، كان إحراز الشرق والغرب صفرًا (يمكنك مطالعة جداول الإحرازات في التذييل).

وقد يكون من المفيد أن نمضي لحظة هنا للحديث عن امتلاك الطاقة أو تمثيلها أيضًا، حيث إنَّها تمثِّل مشاكل مختلفة تمامًا. وأبسط طريقة للتفكير في امتلاك الطاقة أو تمثيلها هي من حيث استهلاك الفرد، مقاسة بكيلو سعر حراري يوميًا. وباتباع الإجراءات نفسها مع التمدن، سأبدأ في عام ٢٠٠٠م، حين بلغ حرق الفرد الأمريكي المتوسط ٢٢٨,٠٠٠ كيلو سعر حراري يوميًا. ومن المؤكد أنَّ هذا الرقم هو الأعلىٰ في التاريخ، وهو ما يمنح الغرب العلامة الكاملة لإحرازه الـ (٢٥٠ نقطة)، (وكما قلت سابقًا في هذا الفصل، فلست مهتمًا بإصدار الأحكام علىٰ قدراتنا علىٰ امتلاك الطاقة، وبناء المدن، وتبادل المعلومات، وشن الحرب، أنا مهتم فقط بقياس هذه الأشياء). أما أعلىٰ استهلاك شرقي للفرد في عام (٢٠٠٠م)، فهو الاستهلاك الياباني الذي بلغ (١٠٤,٠٠٠ كيلو سعر حراري) يوميًا، مسجلًا (١١٣,٨٩ نقطة).

أمَّا الإحصاءات الرسمية للطاقة فتعود إلىٰ (١٩٠٠م) في الشرق و(١٨٠٠م) في الغرب، ولكن لحسن الحظ هناك طرق أسهل للتغلب علىٰ ذلك. لدىٰ جسم

الإنسان بعض الاحتياجات الفيسيولوجية الأساسية. ولن يعمل الجسم بشكل صحيح ما لم يحصل علىٰ حوالي (٢٠٠٠ سعر حراري) من الغذاء يوميًا، (وأكثر من ذلك إلىٰ حد ما إذا كنت طويلًا و/أو نشيطًا بدنيًا، وأقل من ذلك إذا لم تكن كذلك؛ ويُعد متوسط الفرد الأمريكي الحالي الذي يبلغ (٣٤٦٥ سعرًا حراريًا) من الغذاء يوميًا، كما تكشف عن ذلك أحزمة الملابس بقوة - زائدًا عما نحتاج إليه). إذا تناولت أقل بكثير من ألفي كيلو سعر حراري يوميًا فسيتوقف جسمك تدريجيًّا عن القيام بوظائفه -القوة، والبصر، والسمع وغير ذلك- حتىٰ تموت. لا يمكن أن يظل متوسط استهلاك الغذاء أقل من (٢٠٠٠ كيلو سعر حراري) للفرد يوميًا لفترات طويلة، وهو يقابل أقل درجة ممكنة وهي ما يبلغ تقريبًا نقطتين.

ولكن في الواقع، ظلّت أدنىٰ الدرجات دومًا فوق النقطتين؛ لأنَّ معظم الطاقة التي يستهلكها البشر لا تكون في شكل غذاء فحسب. فقد رأينا في الفصل الأول أنَّ الإنسان المنتصب كان بالفعل يحرق الحطب لأغراض الطبخ في چوكوديان منذ نصف مليون سنة مضت، وكان النياندرتال يفعلون ذلك بالتأكيد منذ ١٠٠,٠٠٠ عام مضىٰ، بالإضافة إلىٰ ارتداء جلود الحيوانات. وبما أننا نعرف القليل جدًّا عن أنماط حياة النياندرتال، فلا يمكن لتقديراتنا أن تكون دقيقة للغاية، ولكن بالوصول إلىٰ مصادر الطاقة اللاغذائية، فلا بُدَّ أنَّ النياندرتال قد حصلوا في المتوسط علىٰ ما يزيد علىٰ الألف كيلو سعر حراري يوميًا فوق غذائهم، ممَّا أكسبهم حوالي ٣,٢٥ نقاط إجمالًا. وقد مارس البشر الحديثون الطهي أكثر من النياندرتال، وارتدوا ملابس أكثر، وبنوا أيضًا البيوت من الخشب، وأوراق الشجر، وعظام الماموث، والجلود، وقد كانوا جميعًا -مرة أخرىٰ- طفيليين علىٰ الطاقة الكيميائية التي كوّنتها النباتات من الطاقة الكهرومغناطيسية للشمس. وحتىٰ مجتمعات الصيد وجمع الثمار في القرن العشرين الأبسط تكنولوجيًا كانوا يستخلصون ما لا يقل عن ٣٥٠٠ سعر حراري يوميًا من المصادر الغذائية واللاغذائية مجتمعة. وبالنظر إلىٰ المناخ الأبرد، فلا بُدَّ أنَّ أسلافهم البعيدين في نهاية العصر الجليدي قد بلغ متوسط استهلاكهم نحو ٤ آلاف كيلو سعر حراري يوميًّا، أو علىٰ الأقل (٤,٢٥ نقاط).

وأشكُّ في أن يعترض أي عالم آثار علىٰ هذه التقديرات، ولكن هناك فجوة ضخمة بين درجات صيَّادي العصر الجليدي التي تبلغ (٤,٢٥ نقاط)، ودرجات الغرب المعاصر المسرف في المأكل والمشرب والمعتمد علىٰ البنزين والكهرباء التي تبلغ (٢٥٠ نقطة). ما الذي حدث بين الفترتين؟ عن طريق تجميع معارفهم، يستطيع علماء الآثار والمؤرخون وعلماء الأنثروبولوجيا والبيئيون أن يعطونا فكرة جيدة إلىٰ حد ما.

في عام ١٩٧١م، دعا محررو مجلة ساينتيفيك أمريكان (Scientific American) عالم الچيولوچيا إيرل كوك للمساهمة بمقال أسماه: «تدفق الطاقة في مجتمع صناعي»، واشتمل المقال علىٰ رسم تخطيطي، أُعيد طبعه كثيرًا منذ ذلك الحين، يُظهر أفضل التقديرات لاستهلاك الفرد للطاقة في مجتمعات الصيد وجمع الثمار، وللمزارعين الأوائل (والذين كان يعني بهم مزارعي جنوب غرب آسيا في حوالي ٥٠٠٠ ق. م، الذين قابلناهم في الفصل الثاني)، والمزارعين المتقدمين (أولئك المزارعين في شمال غرب أوروبا في حوالي ١٤٠٠م)، وطبقة الصناعيين (الأوروبيين الغربيين في عام ١٨٦٠م تقريبًا)، والمجتمعات التكنولوجية أواخر القرن العشرين. وقسَّم كوك النتائج إلىٰ أربع فئات، وهي: الغذاء (بما في ذلك الغذاء الذي تستهلكه الحيوانات التي تؤكل لحومها)، السكن والتجارة، الصناعة والزراعة، والنقل (الشكل ٣ - ١).

وقد صمدت تقديرات كوك جيدًا بصورة ملحوظة لمدة أربعين عامًا تقريبًا من مقارنتها بالنتائج التي جمعها المؤرخون وعلماء الأنثروبولوچيا، وعلماء الآثار والاقتصاديون. وتوفر هذه التقديرات نقطة البداية فقط -بالطبع- ولكن يمكننا استخدام الأدلة المُفصّلة المتبقيّة من كل فترة من التاريخ الشرقي والغربي لتخبرنا إلىٰ أي مدىٰ ابتعدت المجتمعات الفعلية عن هذه المعالم والمقاييس. وفي بعض الأحيان يمكننا أن ننتفع بالأدلة النصية، ولكن في معظم الفترات وصولًا إلىٰ بضع مائة سنة تكون الاكتشافات الأثرية أهمَّ، مثل: عظام البشر وعظام الحيوانات، والبيوت، والأدوات الزراعية، وآثار الزراعة والري، وبقايا ورش الحرفيين وبضائعهم، والعربات، والسفن، والطرق التي حملتهم.

وأحيانًا تأتي المساعدة من جهات مدهشة، فالمراكز الجليدية التي ظهرت بوضوح في الفصلين الأول والثاني تُظهر أيضًا أن تلوث الهواء ازداد بمقدار (٧ أضعاف) في القرون القليلة الماضية قبل الميلاد، غالبًا بسبب التعدين الروماني في أسبانيا، وفي السنوات العشر الماضية أكدت الدراسات عن ترسبات المستنقعات والبحيرات هذه الصورة. وقد أنتج الأوروبيون -علىٰ ما يبدو- من النحاس والفضة في القرن الأول تسعة أو عشرة أضعاف ما أنتجوه في القرن الثالث عشر، بكل ما ينطوي عليه ذلك من الطاقة - البشر لحفر المناجم، والحيوانات لجرّ عربات ركام المعادن بعيدًا، والمزيد من البشر والحيوانات لتشييد الطرق والموانئ، ولشحن السفن وتفريغها وحمل المعادن إلىٰ المدن، والطواحين المائية لسحق المعادن الخام؛ وفوق كل شيء الخشب، لدعم المناجم وباعتباره وقودًا لورش الحدادة. هذا المصدر المستقل للأدلة يسمح لنا أيضًا بمقارنة مستويات النشاط الصناعي في فترات مختلفة. ولم يعُد التلوث في الجليد إلىٰ مستوياته في العصر الجليدي حتىٰ القرن القرن الحادي عشر - حين تخبرنا الوثائق الصينية بأنَّ متطلبات عمَّال الحديد التي لا هوادة فيها جرَّدت الجبال المحيطة بمنطقة كايفنغ من الأشجار، لدرجة أن أصبح الفحم لأول مرة في التاريخ مصدرًا مهمًا للطاقة، وتخطىٰ التلوث مستويات العهد الروماني علىٰ نحو خطير فقط مع وجود المداخن التي تنفث الدخان في بريطانيا القرن العشرين.

(موضع الشكل ٣ - ١). سلسلة الطاقة الكبرىٰ معبرًا عنها بأرقام: تقديرات عالم الچيولوچيا إيرل كوك لاستهلاك الطاقة لكل فرد يوميًا منذ زمن هومو هابيليس وحتىٰ أمريكا في سبعينيات القرن العشرين.

أودُّ أن أؤكد مرة أخرىٰ أنَّنا نقوم بفن نحت الخشب بالمنشار. فعلىٰ سبيل المثال: أنا أُقدِّر استهلاك الطاقة للفرد في أوج الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول الميلادي، بحوالي (٣١,٠٠٠ كيلو سعر حراري) لليوم الواحد. ويزيد هذا عن تقدير كوك البالغ (٢٦,٠٠٠ سعر حراري) للمجتمعات الزراعية المتقدمة، ولكن علم الآثار يوضح أنَّ الرومان كانوا يأكلون المزيد من اللحوم، ويبنون المزيد من المدن، ويستخدمون سفنًا تجارية أكثر وأكبر (وما إلىٰ ذلك)، بشكل أكبر ممَّا سيفعله الأوروبيون مجددًا حتىٰ القرن الثامن عشر. ومع ذلك، فمن المؤكد أن استهلاك الطاقة في روما كان أكثر أو أقل من تقديري بمقدار (٥%). ولأسباب سأتعرض لها في التذييل، فلم يكن محتملًا أن يزيد أو ينقص استهلاك الطاقة عن (١٠%)، وبالتأكيد ليس (٢٠%). ويُقيّد كل من إطار كوك والأدلة المفصلة التقديرات بإحكام، ومع نتائج التمدن؛ فإنَّ حقيقة كون الشخص نفسه هو الذي يقوم بالتقديرات في جميع الحالات، ويطبق المبادئ نفسها، يجب أن تعني أنَّ الأخطاء علىٰ الأقل متسقة.

تثير كل من تكنولوجيا المعلومات وصناعة الحرب صعوباتهما الخاصة، التي نوقشت بإيجاز في التذييل وبشكل أكثر تفصيلًا علىٰ موقعي الخاص علىٰ الإنترنت، لكن هذه المبادئ نفسها تُطبّق مثل التمدن وامتلاك الطاقة، وربما لديها هوامش الخطأ نفسها أيضًا. ولأسباب سأناقشها في التذييل، فسيلزم أن تكون النتائج خاطئة بانتظام بمقدار (١٥، أو ٢٠٪) لإحداث تغيير حقيقي في النمط الأساسي للتطور الاجتماعي، لكن هوامش الخطأ الكبيرة هذه تبدو متعارضة مع الشواهد التاريخية. لكن في النهاية، فإنَّ السبيل الوحيد لمعرفة ذلك، بالنسبة إلىٰ المؤرخين، الذين ربما يُفضّلون سِمات أخرىٰ ويحدِّدون النتائج بطرق أخرىٰ - هو اقتراح أرقامهم الخاصة.

قبل خمسين عامًا، جادل الفيلسوف كارل بوبر بأنَ التقدُّم في العلم هو مسألة «افتراضات وتفنيدات»، فالعلم يتبع طريقًا متعرجًا، حيث يقترح عالم فكرة ما، ويندفع آخرون لرفضها، في عملية للخروج بأفكار أفضل. وأعتقد أن الأمر نفسه ينطبق علىٰ التاريخ. وإنَّني علىٰ ثقة بأنَّ أي مؤشر سيبقىٰ قريبًا من الأدلة سينتج إلىٰ حد ما النمط الخاص بي نفسه، ولكن إذا كنت مُخطِئًا، ووجد البعض أنَّ هذا المخطط ناقص، فآمل أن يشجعهم إخفاقي للكشف عن إجابات أفضل. وباقتباس أينشتاين مرة أخرىٰ، «لا يمكن أن يكون هناك مصير أكثر إنصافًا لأية نظرية . . . من أن تشير إلىٰ السبيل نحو نظرية أكثر شمولًا تستند إليها».

متى وأين نقيس؟

ثمة مسألتان تقنيتان أخيرتان. المسألة الأولىٰ: كم مرة يجب علينا حساب الدرجات؟ إذا أردنا ذلك، فيمكننا تتبع التغييرات في مجال التطور الاجتماعي من سنة إلىٰ أخرىٰ، أو من شهر إلىٰ شهر منذ خمسينيات القرن العشرين. وأشكُّ في أن يكون هناك فائدة في ذلك. ففي النهاية، نحن نريد أن نرىٰ النمط العام للتاريخ عبر فترات طويلة جدًّا، ومن أجل ذلك -كما أرجو أن أبيّن فيما يلي- فإنَّ الحصول علىٰ نبض التطور الاجتماعي مرة كل قرن يبدو أنه يمنحنا التفاصيل الكافية.

ومع العودة إلىٰ الوراء نحو نهاية العصر الجليدي، فإنَّ رصد التطور الاجتماعي علىٰ أساس قرني ليس ممكنًا وليس مرغوبًا فيه علىٰ وجه الخصوص. فنحن لا ندري عن مدىٰ الفارق الكبير بين ما كان يحدث في (١٤٠٠٠ ق. م)، والوضع في (١٣٩٠٠ ق. م)، (أو ١٣ ٨٠٠ ق. م) بالمثل)؛ وذلك جزئيًّا بسبب أنَّنا لا نملك ما يكفي من الأدلة الجيدة، وأنَّ التغيير حدث ببطء شديد. ولذلك، فأنا أستخدم مقياسًا متغيِّرًا. فمن (١٤٠٠٠ ق. م)، وحتىٰ (٤٠٠٠ ق. م) أقيسُ التطور الاجتماعي كل ألف عام. ومن (٤٠٠٠ ق. م)، حتىٰ (٢٥٠٠ ق. م) تتحسن نوعية الأدلة ويتسارع التغيير؛ ولهذا أقيسُ كل خمسمائة عام. وأخفِّض هذا إلىٰ كل (٢٥٠ عامًا) بين عامي (٢٥٠٠ ق. م)، و(١٥٠٠ ق. م)، وأخيرًا أقيسُ كل قرن من (١٤٠٠ ق. م)، وحتىٰ عام (٢٠٠٠م).

وهذا له مخاطره، أهمها بكل وضوح أنَّنا كلما رجعنا بالزمن أبعد إلىٰ الوراء، سيبدو التغيُّر أكثر سلاسة وتدرجًا. وبحساب الدرجات كل ألف أو كل

خمسمائة سنة، فقد يفوتنا شيء مثير للاهتمام. لكن الحقيقة القاسية هي أنَّنا نستطيع تأريخ معلوماتنا بدقة أكبر بكثير من النطاقات التي اقترحتها، فقط من حين لآخر. ولا أريد أن أتجاهل معالجة هذه المشكلة، وسأحاول في السرد الوارد في الفصول من (٤ إلىٰ ١٠) سدَّ أكبر عدد ممكن من الثغرات، لكنَّ الإطار الذي أستخدمه هنا يبدو لي أنَّه يُقدِّم أفضل توازن بين التطبيق العملي والدقة.

أمَّا المسألة الأخرىٰ، فهي أين نقيس. ربما قد أصابك الذهول في أثناء قراءتك للقسم الأخير من تحفُّظي بشأن جزء من العالم كنت أتحدث عنه عندما أنتجْتُ أرقامًا لـ «الغرب» و«الشرق». وقد تحدثتُ في بعض الأحيان عن الولايات المتحدة، وأحيانًا أخرىٰ عن بريطانيا، وعن الصين، وأحيانًا عن اليابان. وفي الفصل الأول وصفتُ شكوىٰ المؤرخ كينيث بوميرانز (Kenneth Pomeranz) من كيفية تشويه أساتذة التاريخ المقارن لتحليل سبب هيمنة الغرب، عن طريق المقارنة بإهمال بين إنجلترا الصغيرة والصين الضخمة واستنتاج أنَّ الغرب كان يقود الشرق بالفعل بحلول عام (١٧٥٠م). فقد أصرَّ بوميرانز علىٰ أننا يجب أن نقارن وحدات متماثلة الحجم. وقد استخدمتُ الفصليْن الأول والثاني في الرد علىٰ ذلك بتعريف الغرب والشرق بوضوح بأنَّهما المجتمعات التي انحدرت من الثورات الزراعية الأصلية الغربية والشرقية في هيلي فلانكس وأودية نهر يانغتسي والنهر الأصفر، والآن حان الوقت للاعتراف بأنَّ هذا لا يحل سوىٰ جزء من مسألة بوميرانز. في الفصل الثاني، وصفْتُ التوسُّع المذهل للمناطق الغربية والشرقية خلال الخمسة آلاف سنة تقريبًا التي أعقبت بدء الزراعة، والاختلافات في التطور الاجتماعي التي غالبًا ما وُجدت بين المناطق المركزية مثل هيلي فلانكس، أو وادي اليانغتسي، وبين المناطق الطرفية مثل أوروبا الشمالية أو كوريا؛ لذا فما هي المناطق من الشرق والغرب التي ينبغي لنا أن نركِّز عليها عند حساب درجات مؤشر التطور الاجتماعي؟

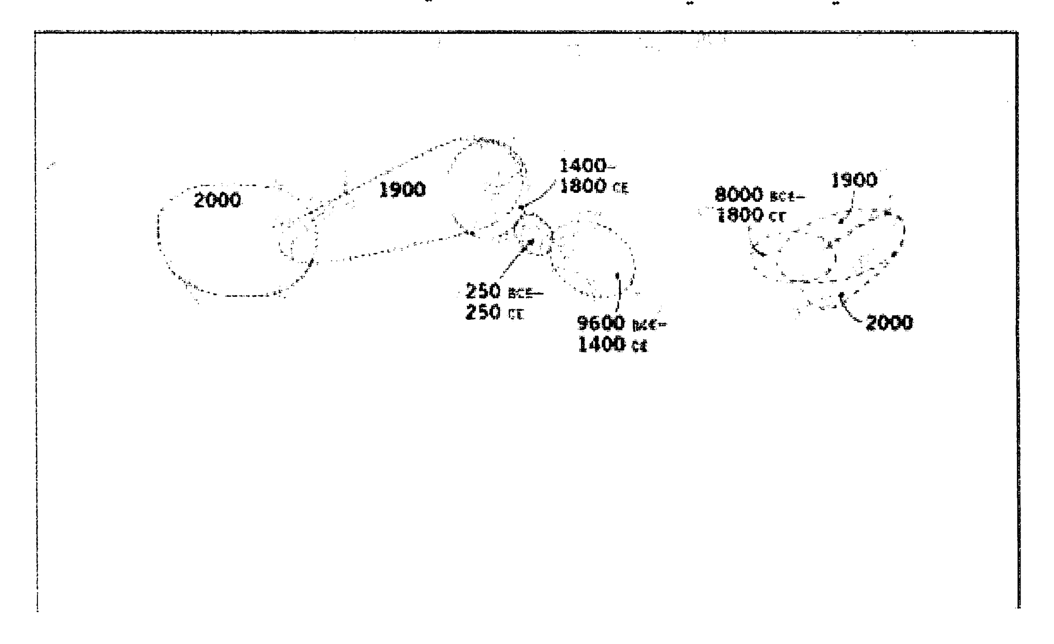
يمكننا أن نُحاول النظر إلىٰ كل المناطق الشرقية والغربية، علىٰ الرغم من أن ذلك قد يعني أنَّ درجات عام ١٩٠٠م -علىٰ سبيل المثال- قد تجمع معًا بين المصانع ذات الدخان والمدافع الرشاشة المقعقعة في بريطانيا الصناعية، وبين

العبيد في روسيا، والعمَّال بأجر يومي في المكسيك، وأصحاب المزارع في أستراليا، وكل مجموعة أخرىٰ في كل ركن من أركان المنطقة الغربية الشاسعة. وسيصبح علينا عندئذٍ اختلاق متوسط درجات للتطور في المنطقة الغربية بأكملها، ثم فعل الشيء نفسه مجددًا مع الشرق، وتكرار العملية لكل مرحلة سابقة في التاريخ. ومن شأن ذلك أن يصبح مُعقَّدًا جدًّا بحيث يصبح غير عملي، وأظنُّ أيضًا أنَّ ذلك سيكون دون جدوىٰ علىٰ أية حال. عندما يتعلق الأمر بتفسير لماذا يهيمن الغرب، فإنَّ أهم المعلومات تأتي عادة من مقارنة الأجزاء الأكثر تطورًا في كل منطقة، أي المراكز التي ارتبطت معًا بواسطة أكثف التفاعلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ويحتاج مؤشر التطور الاجتماعي لقياس التغييرات داخل هذه المراكز ومقارنتها.

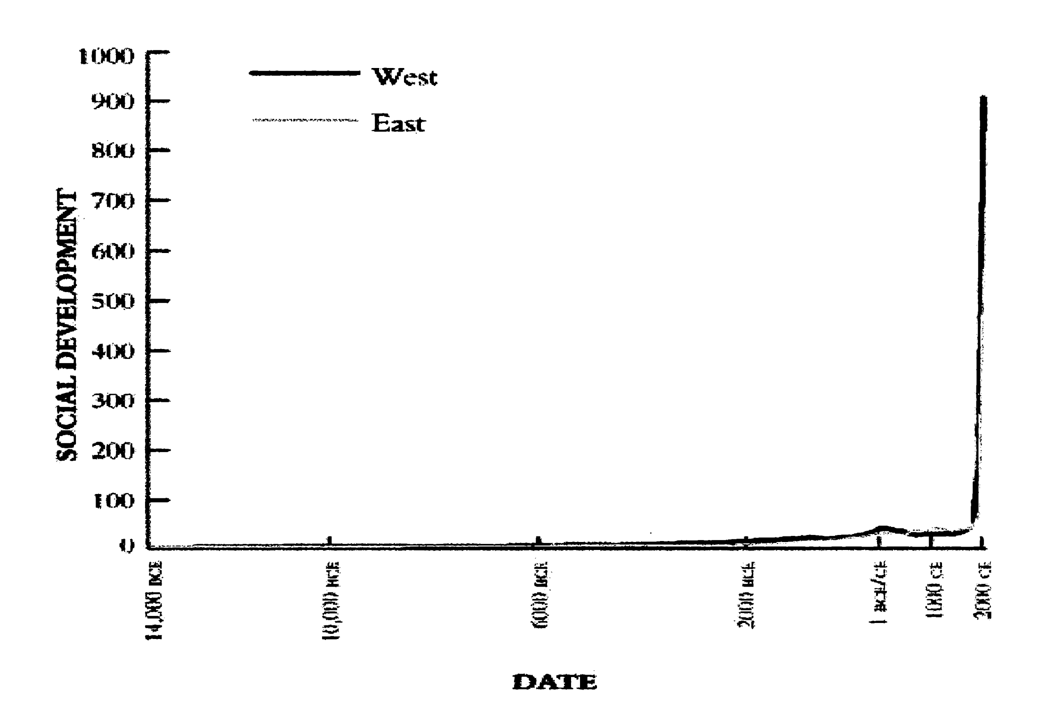
وكما سنرىٰ في الفصول (٤ - ١٠)، فإنَّ المناطق المركزية ذاتها قد تحوَّلت وتغيَّرت عبر الزمن. في الواقع، لقد ظلَّ المركز الغربي مستقرًا جغرافيًا من (١١٠٠٠ ق. م) حتىٰ (١٤٠٠م) تقريبًا، حيث ظل بثبات في الطرف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط باستثناء الخمسمائة سنة ما بين حوالي (٢٥٠ ق. م) و(٢٥٠م) عندما سحبت الإمبراطورية الرومانية المركز غربًا ليشمل إيطاليا. وفيما عدا ذلك، فقد وقع المركز الغربي دومًا داخل مثلث يكونه ما يُعد الآن العراق ومصر واليونان. ومنذ ١٤٠٠م انتقل المركز بلا هوادة شمالًا وغربًا، أولًا إلىٰ شمال إيطاليا، ثمَّ إلىٰ أسبانيا وفرنسا، ثمَّ توسَّع ليشمل بريطانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا. وبحلول عام ١٩٠٠م امتد عبر المحيط الأطلسي، وبحلول عام ٢٠٠٠م ترسَّخ بقوة في أمريكا الشمالية. وفي الشرق ظلَّ المركز في المنطقة الأصلية للنهر الأصفر ونهر يانغتسي حتىٰ عام (١٨٠٠م)، علىٰ الرغم من أنَّ مركز ثقله نزح شمالًا باتجاه السهل المركزي للنهر الأصفر بعد حوالي (٤٠٠٠ ق. م)، وعاد جنوبًا إلىٰ وادي نهر اليانغتسي بعد عام (٥٠٠م)، ثم تدريجيًّا إلىٰ الشمال من جديد بعد (١٤٠٠). ثمَّ توسَّع ليشمل اليابان بحلول عام (١٩٠٠م)، وجنوب شرق الصين بحلول عام (٢٠٠٠م)، (الشكل ٣ - ٢). والآن أريد فقط الإشارة إلىٰ أن كل درجات التطور الاجتماعي تعكس المجتمعات في هذه المناطق المركزية، أما لماذا تغيَّرت المراكز فسيكون شاغلنا الرئيس في الفصول من (٤ إلىٰ ١٠).

نمط الماضي

بعدما تحدثنا عن قواعد اللعبة، حان الوقت الآن لنتحدث عن بعض النتائج. ويبيِّن (الشكل ٣ - ٣) النتائج علىٰ مدار ستة عشر ألف سنة، منذ أن بدأت الأمور في التحسُّن في نهاية العصر الجليدي.



(موضع الشكل ٣ - ٢). تحول مراكز القوىٰ: إعادة التموضع البطيء أحيانًا، والسريع أحيانًا للمراكز الأكثر تطورًا داخل التقاليد الغربية والشرقية منذ نهاية العصر الجليدي.



(الشكل ٣ - ٣). الحفاظ علىٰ سجل النتائج: التطور الاجتماعي الشرقي والغربي منذ (١٤٠٠٠ ق.م).

وبعد كل هذا الإعداد والتمهيد، ماذا نرىٰ؟ بصراحة، لا نرىٰ الكثير؛ إلَّا إذا كان بصرك أفضل كثيرًا من بصري. فالخطان الشرقي والغربي متقاربان جدًّا بحيث يصعب حتىٰ تمييزهما، وبالكاد ما يتزحزحان عن الجزء السفلي من الرسم البياني حتىٰ عام (٣٠٠٠ ق. م). وحتىٰ عندئذٍ، لا يبدو أنَّ الكثير قد حدث حتىٰ بضعة قرون مضت، عندما اتخذ كلا الخطين فجأة انعطافًا يبلغ ٩٠ درجة تقريبًا وانطلقا باستقامة لأعلىٰ.

لكن هذا الرسم البياني المحبط في مظهره يُخبرنا في الواقع بأمرين مهمَّين للغاية:

أولهما: أنَّ التطور الاجتماعي في الشرق والغرب لم يختلفا كثيرًا، وعلىٰ المقياس الذي ننظر إليه، فمن الصعب التفريق بينهما خلال معظم التاريخ.

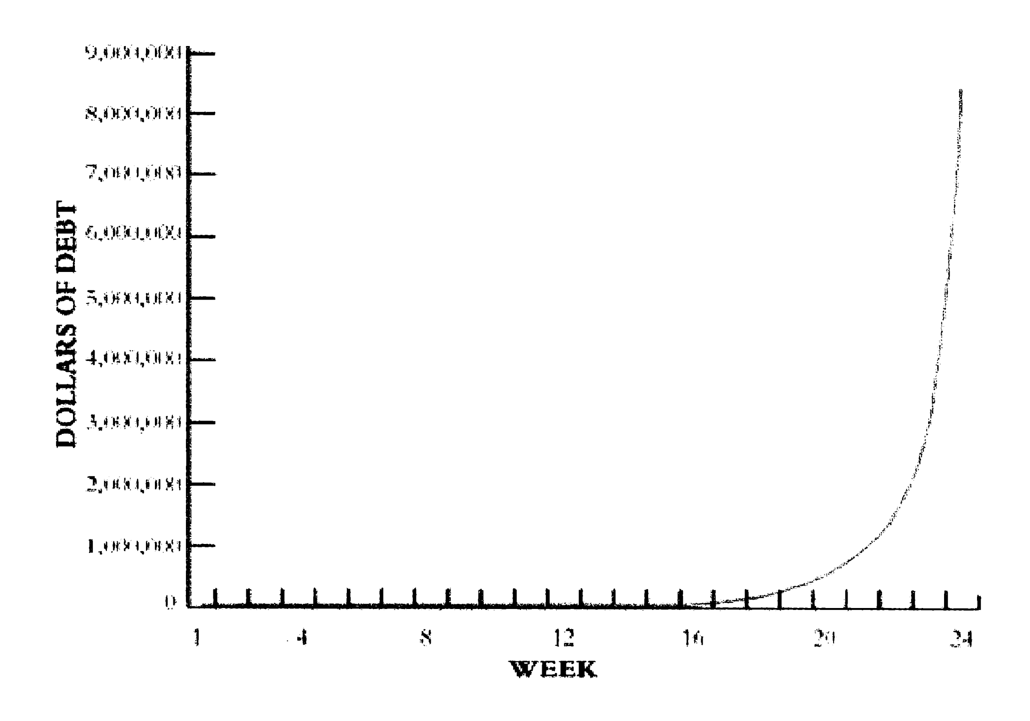
وثانيهما: أنَّ شيئًا عميقًا قد حدث في القرون القليلة الماضية، وهو ما يُعدّ حتىٰ الآن أسرع وأكبر تحوُّل في التاريخ.

وللحصول علىٰ مزيد من المعلومات، نحتاج لأن ننظر إلىٰ النتائج بطريقة مختلفة. فمشكلة (الشكل ٣ - ٣) هي أنَّ الارتفاع الكبير في الخطّيْن الشرقي والغربي في القرن العشرين كان دراماتيكيًا، لدرجة أنَّنا كي نجعل القياس علىٰ المحور العمودي يرتفع بما يكفي ليشمل النتائج في عام (٢٠٠٠م)، (٩٠٦,٣٨ للغرب، و٥٦٥,٤٤ للشرق) كان علينا أن نضغط نتائج الفترات السابقة الأقل بكثير إلىٰ الدرجة التي جعلتها بالكاد يمكن رؤيتها بالعين المجردة. وهذه المشكلة تعاني منها كل الرسومات البيانية التي تحاول إظهار الأنماط التي يتسارع فيها النمو، مُضاعفةً ما قد سبق، بدلًا من زيادته ببساطه. ولحسن الحظ هناك طريقة ملائمة لحل هذه المشكلة.

تخيَّل أنني أريد فنجانًا من القهوة، ولكن ليس لدي مال. فأستعير دولارًا من النسخة المحلية لطوني سوبرانو (شخصية مسلسلية خيالية لزعيم عصابة، م)، (تخيَّل أيضًا أنَّ هذه القصة حدثت في الماضي أيام كان الدولار لا يزال يشتري فنجانًا من القهوة). وطوني بالطبع صديقي، وبالتالي فإنَّه لن يُحمِّلني فائدة طالما أنَّني سأرد إليه الدولار خلال أسبوع. ولكنني إذا فوَّتُّ الموعد النهائي، فسوف يتضاعف الدين كل سبعة أيام. وغني عن القول، إنَّني لا أظهر عند استحقاق الدفع، إذن فأنا الآن أدين له بدولارين. وكون الفطنة في الشؤون المالية ليست من قدراتي؛ فإنَّني أدع أسبوعًا آخر يمضي؛ ولذا أدين إليه بأربعة دولارات، ثم أسبوعًا آخر. أصبح المجموع الآن يساوي ٨ دولارات. وهنا أهرب من المدينة وأنسىٰ اتفاقنا بسهولة.

يبيِّن (الشكل ٣ - ٤) ما سيحصل لدَيْني. تمامًا مثل (الشكل ٣ - ٣)، لا يوجد الكثير لتُشاهِده لفترة طويلة. ثمَّ يصبح الخط الذي يُمثّل الفائدة مرئيًا في (الأسبوع ١٤) تقريبًا، حيث أدين في هذا الوقت بمبلغ ٨,١٩٢ دولارًا علىٰ نحو مدهش. وفي الأسبوع ١٦، عندما ارتفع الدَّيْن بشكل حاد إلىٰ ٣٢,٧٦٨ دولارًا، ينفصل الخط أخيرًا بعيدًا عن الجزء السفلي من الرسم البياني. وبحلول الأسبوع ٢٤ عندما يجدني أفراد العصابة، فسأكون مدينًا بنحو ٨,٢٦٠,٦٠٨ دولارات. لقد كان فنجان قهوة باهظ الثمن.

ووفقًا لهذا المعيار -بالطبع- فقد كان نمو دَيْني خلال الأسابيع الأولىٰ -من دولار واحد إلىٰ دولارين إلىٰ أربعة إلىٰ ثمانية دولارات- ضئيلًا حقًّا. ولكن تخيَّل أنَّني قد ارتطمت بأحد رجال ذلك المُرابي بعد شهر تقريبًا من قهوتي المشؤومة، عندما بلغ ديني (١٦ دولارًا). ودعونا أيضًا نقول إنَّني لم أكن أملك (١٦ دولارًا)، ولكنني أعطيته خمسة دولارات. وقلقًا علىٰ حالي؛ فإنني أقوم بسداد أربعة أقساط أسبوعية يبلغ كل منها خمسة دولارات، ولكنني أنسىٰ كل شيء مجددًا وأتوقف عن الدفع. يُظهر الخط الأسود في (الشكل ٣ - ٥) ما حدث عندما لم أدفع شيئًا، في حين أنَّ الخط الرمادي يُظهر نمو دَيْني بعد سداد الأقساط. لا تزال قهوتي تُكلّف أكثر من ٣ ملايين دولار، لكن ذلك أقل من نصف ما دِنت به دون سداد الأقساط التي كانت في غاية الأهمية، ولكنَّها رغم ذلك غير مرئية في الرسم البياني. في (الشكل ٣,٥)، ليست هناك طريقة لمعرفة لماذا نهاية الخط الرمادي أقل بكثير من الخط الأسود.



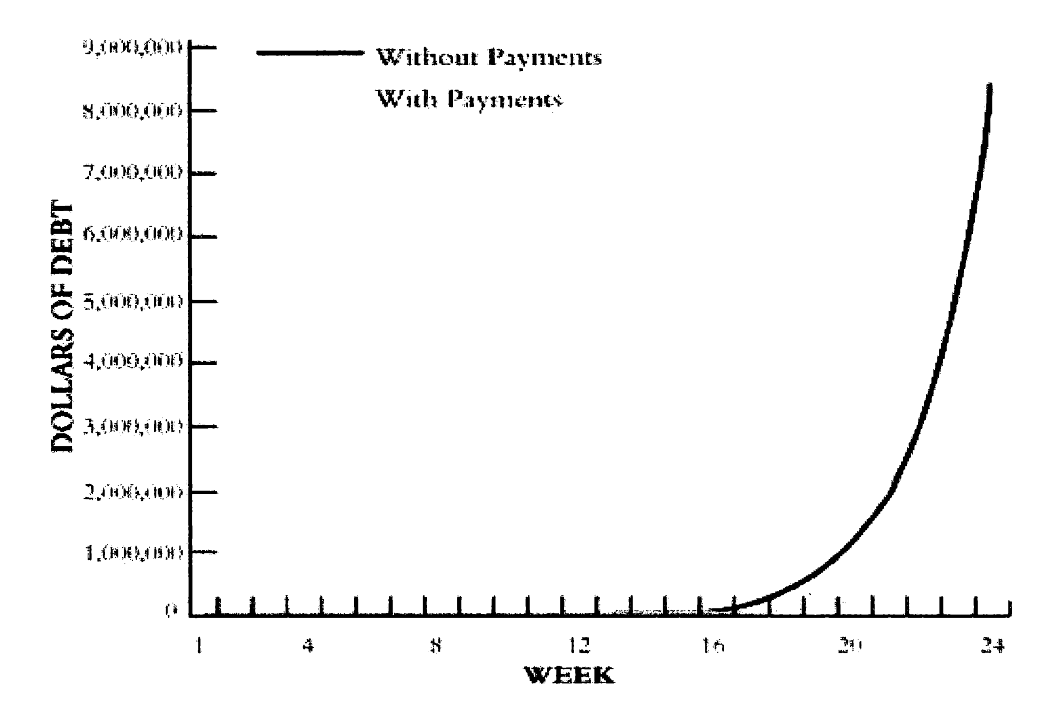
(موضع الشكل ٣ - ٤). فنجان القهوة الذي يساوي ٨ ملايين دولار: الفائدة المركبة موضوعة علىٰ رسم بياني تقليدي. وعلىٰ الرغم من أنَّ تكلفة فنجان من القهوة ترتفع

بشكل حاد من دولار إلىٰ (٨,١٩٢ دولارًا) خلال أربعة عشر أسبوعًا، فإنَّ السباق نحو الكارثة المالية يظل خفيًّا علىٰ الرسم البياني حتىٰ (الأسبوع ١٧).

يحكي (الشكل ٣ - ٦) قصة تدميري بطريقة مختلفة. يُسمِّي الإحصائيون (الشكلين ٣ - ٤، و٣ - ٥) رسومًا بيانية خطيّة - خطيّة؛ لأنَّ القياسات علىٰ كل محور تزداد زيادات خطية؛ بمعنىٰ: أنَّ كل أسبوع يَمر يشغل نفس مساحة الفراغ علىٰ طول المحور الأفقي، وكل دولار من الدَيْن يشغل المساحة نفسها علىٰ المحور العمودي. لكنَّ (الشكل ٣,٦)، علىٰ العكس من ذلك، هو ما يُسمّيه الإحصائيون رسمًا بيانيًا لوغاريثميًا - خطيًا. لا يزال الوقت مُقسّمًا علىٰ القياس الأفقي في وحدات خطّية، ولكنَّ القياس العمودي يُسجّل دَيْني لوغاريثميًا، بمعنىٰ أنَّ المسافة بين المحور السفلي للرسم البياني وأول نقطة علىٰ المحور العمودي تغطي نمو دَيْني بمقدار عشرة أضعاف من دولار واحد إلىٰ (١٠ دولارات)؛ وفي المسافة بين النقطتين الأولىٰ والثانية، يتوسَّع من جديد بمقدار عشرة أضعاف، وأيضًا من (١٠ إلىٰ مائة دولار)؛ ثمَّ عشرة أضعاف أخرىٰ من مائة إلىٰ ألف؛ وهكذا حتىٰ عشرة ملايين في القمة.

لقد جعل السياسيون والمُعلنون من تضليلنا بالإحصاءات فنًا راقيًا. منذ قرن ونصف القرن، شعر رئيس الوزراء البريطاني بنيامين دزرائيلي بكونه مدفوعًا لأن يُصرّح بأنَّ «هناك ثلاثة أنواع من الأكاذيب: الأكاذيب، الأكاذيب الملعونة، والإحصاءات»، وقد يُصدمك (الشكل ٣,٦) بكونه يثبت وجهة نظره. ولكن كل ما يفعله الشكل حقًا هو إبراز جانب مختلف من دَيْني عن (الشكلين ٣-٤، و٣-٥). فالرسم البياني الخطي -الخطي يقوم بعمل جيد في إظهار مدىٰ سوء دَيْني؛ أما القياس اللوغاريثمي- الخطي فيقوم بعمل جيد في توضيح كيف أصبحت الأمور بهذا السوء الشديد. في (الشكل ٣,٦) يسير الخط الأسود بسلاسة وبشكل مستقيم، مبينًا أنَّه من دون سداد الأقساط يتسارع حجم ديوني باطراد، متضاعفًا كل أسبوع. ويبيِّن الخط الرمادي كيف أنَّه بعد أربعة أسابيع من التضاعف، يتباطأ تسلسل أقساط الخمسة دولارات، لكنَّه لا يبطل معدل نمو دَيْني. وعندما أتوقف

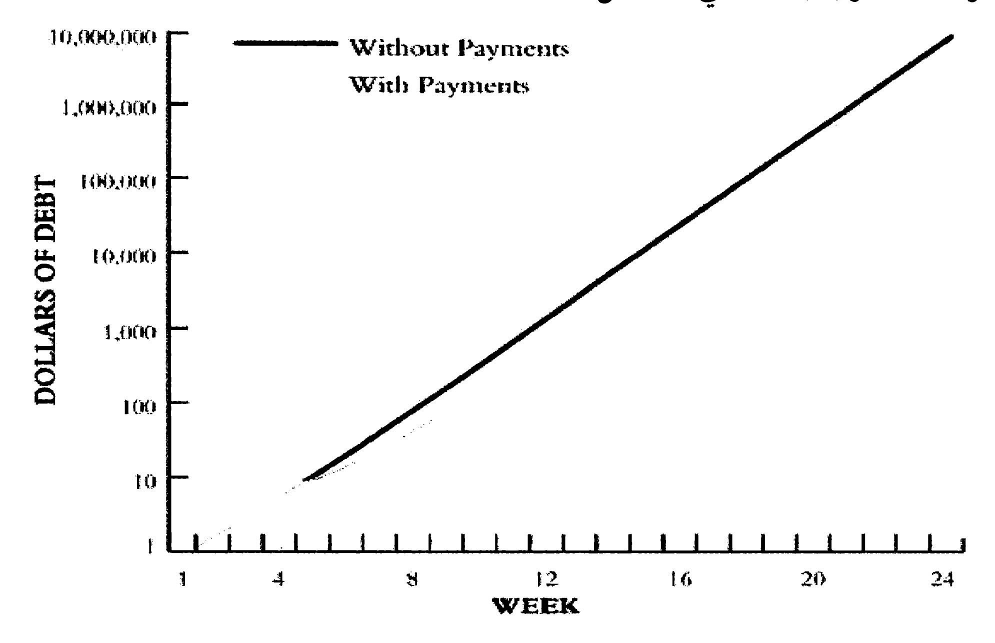
عن الدفع، يرتفع الخط الرمادي مجددًا موازيًا للخط الأسود، حيث إنَّ دَيْني يتضاعف مجددًا كل أسبوع، ولكنَّه لا ينتهي عند مثل هذا الارتفاع المذهل.



(موضع الشكل ٣ - ٥). طريقة متواضعة تُمثّل تخطيطًا متواضعًا: يُبيِّن الخط الأسود الارتفاع الحاد نفسه للدَيْن كما يُظهره (الشكل ٣ - ٤)، في حين يُبيِّن الخط الرمادي ما الذي يحدث بعد سداد الأقساط الصغيرة مقابل الدَيْن في الأسابيع من (٥ إلىٰ ٩). وعلىٰ هذا الرسم البياني (الخطي - الخطي) التقليدي، فإنَّ هذه المدفوعات الجوهرية غير مرئية.

لا يكذب السياسيون وعلم الإحصاء دومًا، كل ما في الأمر أنَّه لا يوجد شيء اسمه طريقة مُحايدة تمامًا لعرض السياسات أو الأرقام؛ فكل بيان صحفي وكل رسم بياني يؤكد علىٰ بعض جوانب الحقيقة ويقلِّل من شأن جوانب أخرىٰ. ولهذا فإنَّ (الشكل ٣ - ٧) الذي يبيِّن نتائج التطور الاجتماعي من عام (١٤٠٠٠ ق. م)، وحتىٰ عام (٢٠٠٠م) علىٰ مقياس لوغاريثمي - خطي، ينتج انطباعًا مختلفًا بشدة عن النسخة الخطية - الخطية للنتائج نفسها في (الشكل ٣ - ٣).

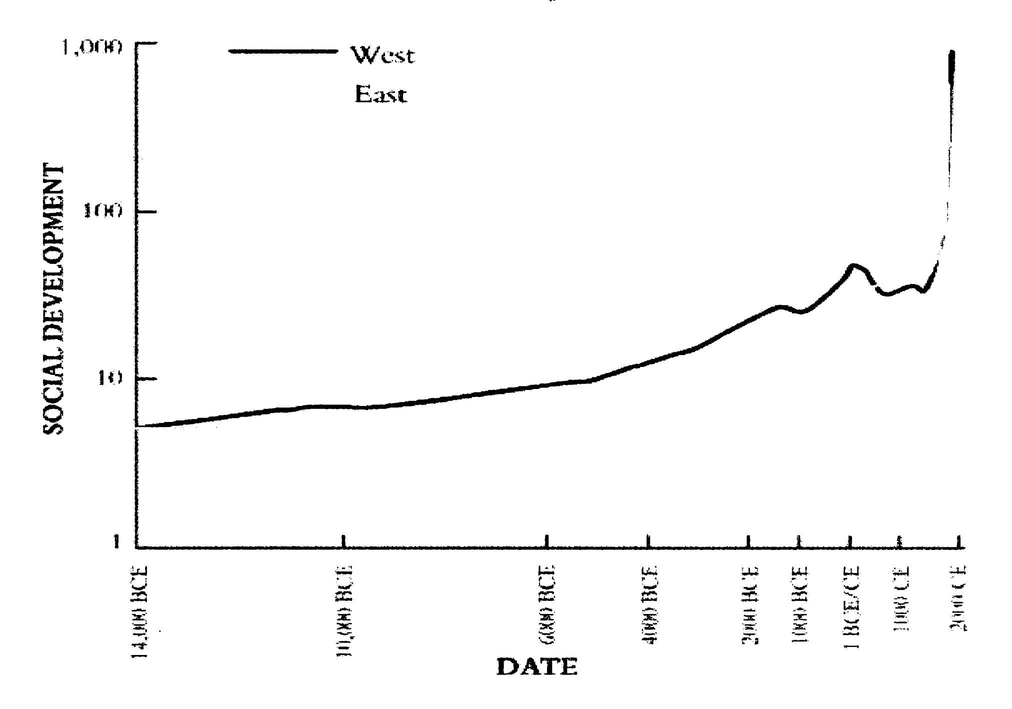
وهناك الكثير ممَّا يحدث هنا أكثر ممَّا يبدو للوهلة الأولىٰ في (الشكل ٣ - ٣). إنَّ القفزة في التطور الاجتماعي في القرون الأخيرة حقيقية للغاية ولا تزال واضحة، ولن تختفي مع أي استراتيچية إحصائية ذكية. ولكن (الشكل ٣ - ٧) يبيِّن أنَّ هذه القفزة لم تأتِ من فراغ، كما يبدو في (الشكل ٣ - ٣). وفي الوقت الذي تبدأ فيه الخطوط في الانطلاق لأعلىٰ (حوالي عام ١٧٠٠م في الغرب، وعام ١٨٠٠م في الشرق)؛ فإن النتائج في كلتا المنطقتين كانت أعلىٰ بالفعل بعشرة أضعاف تقريبًا ممَّا كانت عليه في الجانب الأيسر من الرسم البياني - وهو فرق كان مرئيًا بالكاد في (الشكل ٣ - ٣).



(موضع الشكل ٣ - ٦). الطرق المباشرة للدمار: ارتفاع الدَّيْن علىٰ قياس لوغاريثمي - خطي. يُظهر الخط الأسود التضاعف المنتظم للدَّيْن ما لم تكن هناك مدفوعات، بينما يُظهر الخط الرمادي أثر المدفوعات الصغيرة في الأسابيع من (٥ إلىٰ ٩) قبل أن يعود إلىٰ التضاعف عند توقف المدفوعات.

يبيِّن (الشكل ٣ - ٧) أنَّ تفسير سبب هيمنة الغرب سوف يعني الإجابة عن عدة أسئلة في وقت واحد. نحن بحاجة إلىٰ معرفة لماذا قفز التطور الاجتماعي فجأة بعد عام (١٨٠٠م) ليصل إلىٰ المستوىٰ (ما يقرب من ١٠٠ نقطة) الذي

تمكنت عنده الدول من فرض سلطتها عالميًا. فقبل أن يصل التطور إلىٰ هذه المستويات المرتفعة، كانت أقوىٰ المجتمعات تسيطر فقط علىٰ منطقتها الخاصة، لكن التكنولوجيات والمؤسسات الجديدة في القرن التاسع عشر سمحت لها بتحويل الهيمنة المحلية إلىٰ سيطرة عالمية. كما أنَّنا بحاجة -بالطبع- إلىٰ أن نعرف لماذا كان الغرب هو الجزء الأول من العالم الذي وصل إلىٰ هذه المرحلة. ولكن للإجابة عن أي من هذيْن السؤاليْن، يجب علينا أيضًا أن نفهم لماذا ازداد التطور بالفعل بقدر كبير في الأربعة عشر ألف سنة السابقة.



(الشكل ٣ - ٧). نمو التطور الاجتماعي من (١٤٠٠٠ ق. م) إلىٰ (٢٠٠٠م)، مُمثلًا بيانيًا علىٰ مقياس لوغاريثمي - خطي. قد تكون هذه أنجع طريقة لعرض النتائج، بتسليط الضوء علىٰ كل من المعدّلات النسبية للنمو في الشرق والغرب، وأهمية التغييرات طيلة آلاف السنين قبل عام ١٨٠٠م.

ليس ما سبق هو آخر ما يكشفه لنا (الشكل ٣ - ٧)، فهو يُبيّن أيضًا أنَّ النتائج الشرقية والغربية لم يكن من غير الممكن تمييزها حتىٰ بضع مئات من السنين الماضية فحسب: لقد ظلت النتائج الغربية أعلىٰ من مثيلاتها الشرقية لما

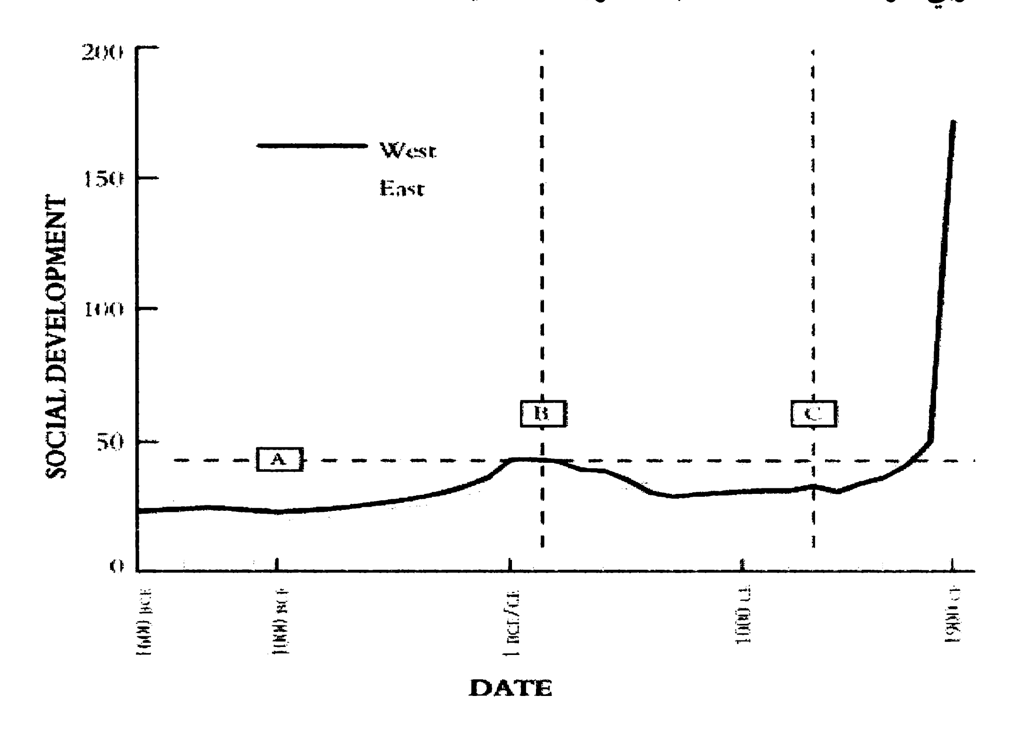
يزيد عن ٩٠٪ من الزمن منذ عام (١٤٠٠٠ ق. م). وهذا يبدو إشكالية حقيقية بالنسبة إلىٰ النظريات قصيرة المدىٰ العَرَضية. فصدارة الغرب منذ عام ١٨٠٠م هي بمثابة عودة للقاعدة الطويلة المدىٰ، وليست شذوذًا غريبًا عنها.

ولكن لا يدحض (الشكل ٣ - ٧) بالضرورة النظريات قصيرة المدىٰ، لكنَّه يعني أنَّ أيَّة نظرية قصيرة المدىٰ ستحتاج لأن تكون أكثر تعقيدًا، بتفسيرها للنمط طويل المدىٰ الذي يعود إلىٰ نهاية العصر الجليدي، بالإضافة إلىٰ الأحداث التي وقعت منذ عام ١٧٠٠م. ولكنَّ هذه الأنماط تُظهر أيضًا أن مُنظِّري نظريات المدىٰ الطويل لا يجب أن يفرحوا سريعًا. يُبيِّن (الشكل ٣ - ٧) بوضوح أنَّ نتائج التطور الاجتماعي الغربي لم تكن دومًا أعلىٰ من النتائج الشرقية. فبعد تقارب النتائج الشرقية والغربية خلال الألفية الأولىٰ قبل الميلاد، ينعكس الخطّان بدءًا من عام (٥٤١م)، ومن ثمَّ يبقىٰ الشرق في المقدمة حتىٰ عام (١٧٧٣م). (تعتمد هذه التواريخ الدقيقة بشكل لا يُصدّق -بالطبع- علىٰ الافتراض المستبعد بأنَّ نتائج التطور الاجتماعي التي قمت بحسابها دقيقة تمامًا، إنَّ الطريقة الأكثر منطقية للتعبير عن الأمر قد تكون بالقول إنَّ نتائج الشرق قد ارتفعت فوق نتائج الغرب في منتصف القرن السادس، وإنَّ الغرب استعاد صدارته في أواخر القرن الثامن عشر). إنَّ حقائق تقارب النتائج الشرقية والغربية في العصور القديمة وأنَّ الشرق تصدر العالم في التطور الاجتماعي لاثني عشر ألف سنة، لا تدحض نظريات المدىٰ الطويل الحتمية، أكثر ممَّا تدحض حقيقة أنَّ الغرب قد تصدر لمعظم الوقت تقريبًا منذ نهاية العصر الجليدي نظريات المدىٰ القصير العرضية. ولكن مجددًا، فهذه الحقائق تعني أنَّ أيَّة نظرية ناجحة تحتاج إلىٰ أن تكون أكثر تعقيدًا، وأن تأخذ في الحسبان نطاقًا من الأدلة أوسع ممَّا هو مُقدَّم حتىٰ الآن.

وقبل الانتهاء من الرسوم البيانية، فثمة نموذجان إضافيان تجدر الإشارة لهما. وهما يظهران في (الشكل ٣ - ٧)، لكنَّ (الشكل ٣ - ٨) يجعلهما أكثر وضوحًا. (الشكل ٣ - ٨) هو رسم بياني خطيّ - خطيّ تقليدي، لكنَّه يُغطّي ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة من عام (١٦٠٠ ق. م)، وحتىٰ عام (١٩٠٠م). وبفصل النتائج الضخمة لسنة (٢٠٠٠م) دعونا نُمدّ المحور الطولي بما يكفي

بحيث نستطيع فعليًا رؤية النتائج في فترات سابقة، بينما يسمح لنا تقصير الفترة الزمنية بمدّ المحور الأفقي بحيث تصبح التغييرات عبر الزمن أوضح كذلك.

ثمة شيئان علىٰ وجه الخصوص يصدمانني في هذا الرسم البياني. الأول: هو وصول النتائج الغربية في القرن الأول إلىٰ الذروة عند حوالي (٤٣ نقطة)، أعقبها تدهور بطيء بعد عام ١٠٠م. وإذا نظرنا قليلًا إلىٰ اليمين، سنرىٰ ذروة شرقية تزيد قليلًا عن (٤٢ نقطة) في عام ١١٠٠م، في أثناء أوج سلطة سلالة سونغ في الصين، ثم انخفاضًا مُماثلًا. وإلىٰ المزيد قليلًا نحو اليمين، في حوالي عام ١٧٠٠م، تعود النتائج في الشرق والغرب إلىٰ بداية درجات الأربعينيات، لكن هذه المرة تتسارع النتائج بدلًا من التباطؤ؛ وبعد مرور مائة سنة يصبح الخط الغربي مرتفعًا جدًّا عندما تبدأ الثورة الصناعية.



(موضع الشكل ٣ - ٨). خطوط الزمان والمكان: التطور الاجتماعي عبر ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة بين عامي ١٦٠٠ ق. م، و١٩٠٠م، مُمثّلًا علىٰ رسم بياني خطيّ - خطيّ. يُظهر الخط (أ) حدًّا محتملًا عند (٤٣ نقطة)، والذي ربما عرقل استمرار التطور الاجتماعي لكل من الإمبراطورية الرومانية في الغرب في

القرون الأولىٰ بعد الميلاد، والصين في عهد سلالة سونغ عند حوالي (١١٠٠م)، وذلك قبل أن يتغلب الشرق والغرب علىٰ ذلك عند حوالي عام (١٧٠٠م). ويُظهر الخط (ب) وجود صلة محتملة بين النتائج المنخفضة في كل من الشرق والغرب في القرون الأولىٰ الميلادية. ويُظهر الخط (ج) صلة أخرىٰ محتملة بين الشرق والغرب تبدأ في حوالي عام (١٣٠٠م).

هل كان ثمة نوع ما من حدّ «بداية درجات الأربعينيات» قام بهزيمة روما وسلالة السونغ الصينية؟ ذكرتُ في المقدمة أنَّ كينيث بوميرانز جادل في كتابه «التباعد الكبير» بأنَّ الشرق والغرب مرَّا بمرحلة عنق زجاجة إيكولوجية في القرن الثامن عشر، الأمر الذي كان ينبغي حقًّا أن يتسبب في حالة ركود وتدهور تطورهما الاجتماعي؛ إلَّا أنَّ ذلك لم يحدث، والسبب كما أشار بوميرانز هو أنَّ البريطانيين -من خلال الحظ أكثر من الحكمة- دمجوا ثمار نهب العالم الجديد مع طاقة الوقود الأحفوري، ممَّا عصف بالقيود الإيكولوجية التقليدية. هل كان من الممكن أنَّ الرومان والسونغ قد مروا بمرحلة عنق زجاجة مماثلة عندما وصل التطور الاجتماعي إلىٰ بداية درجات الأربعينيات، لكنَّهما لم ينجحا في تخطي الأمر؟ إذا كان الأمر كذلك، فربما كان النمط السائد في الألفي سنة الأخيرة ذا موجات طويلة المدىٰ، حيث شقَّت الإمبراطوريات العظمىٰ طريقها بصعوبة نحو سقف بداية درجات الأربعينيات ثم تراجعت، إلىٰ أن حدث شيء خاص في القرن الثامن عشر.

الأمر الثاني الذي يصدمني بشأن (الشكل ٣ - ٨): هو أنَّنا يمكننا أن نرسم خطوطًا رأسية عليه بالإضافة إلىٰ الخطوط الأفقية. والمكان الواضح لوضع خط عمودي هو في القرن الأول الميلادي، عندما بلغت النتائج الغربية والشرقية ذروتها، علىٰ الرغم من أنَّ النتائج الشرقية كانت أقل بكثير من النتائج الغربية (٣٤,١٣ نقطة مقابل ٤٣,٢ نقطة). وبدلًا من (أو بالإضافة إلىٰ) التركيز علىٰ الغرب، وهو يبلغ سقف درجات بداية الأربعينيات، ربما يجب علينا أن نبحث عن بعض الأحداث التي أثَّرت في طرفي العالم القديم، والتي أدَّت إلىٰ انخفاض

نتائج التطور الاجتماعي للرومان والهان الصينية بصرف النظر عن المستويات التي وصلا إليها.

ويمكننا وضع خط عمودي آخر عند عام ١٣٠٠م، عندما اتبعت النتائج الشرقية والغربية مجددًا أنماطًا مشابهة، علىٰ الرغم من أنَّ هذه المرة كانت النتائج الغربية أقل بكثير (٣٠,٧٣ نقطة مقابل ٤٢,٦٦ نقطة). وقد ظلَّت النتائج الشرقية تنحدر لمائة سنة، لكنَّ النتائج الغربية انضمت إليها الآن، فقط كي يتحسن الاثنان بعد عام ١٤٠٠م، ويتسارعا بحدة أكثر في حوالي ١٧٠٠م. ومرة أخرىٰ، بدلًا من التركيز علىٰ النتائج وهي تبلغ سقف بداية درجات الأربعينيات في أوائل القرن الثامن عشر، ربما ينبغي علينا أن نبحث عن بعض الأحداث العالمية التي بدأت في دفع التطور الشرقي والغربي في مسار مشترك في القرن الرابع عشر. ولعلَّ الثورة الصناعية أتت أولًا إلىٰ الغرب ليس بسبب ضربة حظ غير عادية، كما خلص بوميرانز؛ ولكن لأنَّ الشرق والغرب كانا علىٰ المسار المؤدي إلىٰ مثل هذه الثورة، ثم ظهر شيء متعلق بطريقة تفاعل الغرب مع أحداث القرن الرابع عشر منح الغرب صدارة نسبية لكن حاسمة في الوصول إلىٰ نقطة الانطلاق في القرن الثامن عشر.

يبدو لي أنَّ (الأشكال ٣ - ٣، و٣ - ٧، و٣ - ٨) تلقي الضوء علىٰ ضعف حقيقي في كل من نظريات المدىٰ الطويل ونظريات المدىٰ القصير. فقليل من المُنظّرين يُركّز علىٰ بداية القصة باعتبارها في الثورة الزراعية، بينما ينظر معظمهم إلىٰ نهاية القصة، في الخمسمائة عام الأخيرة. ولأنَّهم يتجاهلون بشكل كبير آلاف السنين فيما بين البداية والنهاية؛ فإنَّهم نادرًا ما يحاولون تفسير كل تدفقات النمو والتباطؤات والانهيارات والتقاربات والتغيُّرات في الصدارة أو الأسقف الأفقية والصلات العمودية التي تقفز أمامنا عندما نتمكن من رؤية النمط الكُلِّي للتاريخ. وهذا يعني بصراحة أنَّ أيًّا من النهجين لا يخبرنا لماذا يهيمن الغرب؛ وفي هذه الحالة، لا يمكن لأي منهما أن يأمل في الإجابة عن السؤال الكامن وراء ذلك - ماذا سيحدث بعد ذلك.

سؤال سكروج

في ذروة رواية تشارلز ديكنز «ترنيمة عيد الميلاد»، تقود روح عيد الميلاد إبنزر سكروج إلىٰ باحة الكنيسة. وبصمتٍ تشير الروح إلىٰ أحد القبور غير المعتنىٰ بها، ويعلم سكروج أن اسمه سيكون علىٰ هذا القبر، ويعلم أنَّه سيبقىٰ هنا وحيدًا ولن يزوره أحد إلىٰ الأبد. هتف سكروج: «هل هذه ظلال الأشياء التي ستكون، أم هي مجرد ظلال الأشياء التي قد تكون؟».

وقد نسأل السؤال نفسه عن (الشكل ٣ - ٩)، والذي يأخذ معدلات الزيادة في التطور الاجتماعي للشرق والغرب في القرن العشرين ويمدها للأمام. يتقاطع الخط الشرقي مع الخط الغربي في (٢١٠٣م). وبحلول عام (٢١٥٠م) تنتهي الهيمنة الغربية، وتصبح عظمة الغرب مثل عظمة الأمم الغابرة.

يبدو أنَّ النقش علىٰ قبر الغرب كان واضحًا كما هو الحال علىٰ قبر سكروج:

الهيمنة الغربية

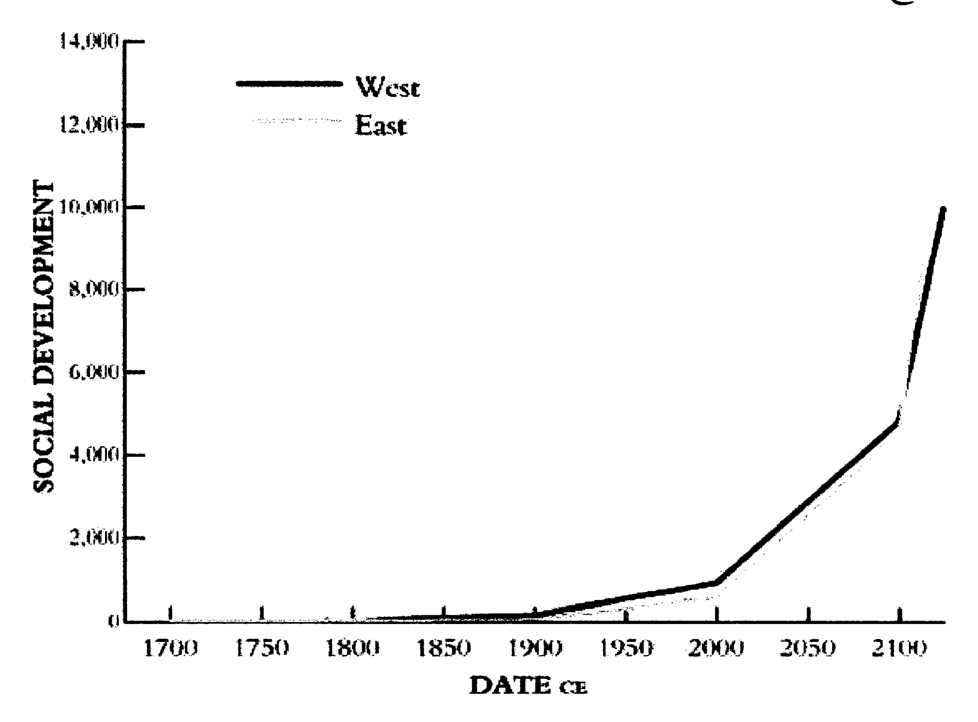
١٧٧٣ - ٢١٠٣

فلترقد في سلام

ولكن هل هذه حقًّا ظلال الأشياء التي ستكون؟

في مواجهة قبره الخاص، يجثو سكروج علىٰ ركبتيه، ويقول متوسلًا: «أيتها الروح الطيبة»، ويمسك بيد الشبح، «طمئنيني بأنني سأغيِّر هذه الظلال التي أريتني

إياها، بحياة مختلفة!»، ولم تقل أعياد الميلاد التي تلت شيئًا، لكن سكروج توصّل للإجابة بنفسه. لقد اضطر لقضاء مساء غير مريح مع روح عيد الميلاد الماضي وروح عيد الميلاد الحاضر؛ لأنَّه كان في حاجة إلىٰ التعلّم من كليهما. «لن أتجاهل الدروس التي علموني إيَّاها»، هكذا وعد سكروج. «أخبروني بأنني قد أمسح الكتابة من علىٰ هذا الحجر بأسفنجة»!



(موضع الشكل ٣ - ٩) شكل الأشياء التي ستأتي: إذا قمنا بمدّ معدلات نمو التطور الاجتماعي الشرقي والغربي في القرن العشرين إلىٰ القرن الثاني والعشرين، سنرىٰ استعادة الشرق للصدارة في عام (٢١٠٣م). (علىٰ رسم بياني خطي - لوغاريثمي، سيكون الخطان الشرقي والغربي مستقيمين منذ عام (١٩٠٠م) فصاعدًا، ممَّا يعكس معدلات نمو ثابت؛ ولأنَّ هذا رسم بياني خطي - خطي، فكلا الخطين ينحني بشكل حاد لأعلىٰ).

علَّقتُ في المقدمة أنَّني ضمن أقلية ممَّن يكتبون عن سبب هيمنة الغرب، وخاصة عمَّا سيحدث بعد ذلك، من ناحية عدم كوني اقتصاديًا أو مؤرخًا للتاريخ الحديث أو خبيرًا في مجال السياسة. وسأخاطر بالمبالغة بجعل سكروج نموذجًا

مشابهًا، وسأقول إنَّ غياب مؤرخي ما قبل الحداثة عن المناقشة أدىٰ بنا إلىٰ خطأ الحديث حصرًا إلىٰ شبح أو روح عيد الميلاد الحاضر. نحن بحاجة إلىٰ إحضار شبح عيد الميلاد الماضي.

وللقيام بذلك، سأقضي الجزء الثاني من هذا الكتاب (الفصول ٤ - ١٠) بأن أكون مؤرخًا، أروي حكايات الشرق والغرب عبر آلاف السنين الماضية، في محاولة لشرح سبب تغيُّر التطور الاجتماعي علىٰ هذا النحو، وفي الجزء الثالث (الفصلان ١١، و١٢) سوف أجمع هذه القصص معًا. وأعتقد أنَّ هذا لن يخبرنا فقط لماذا يهيمن الغرب، ولكن ما الذي سيحدث بعد ذلك.

الجزء الثاني

(٤)

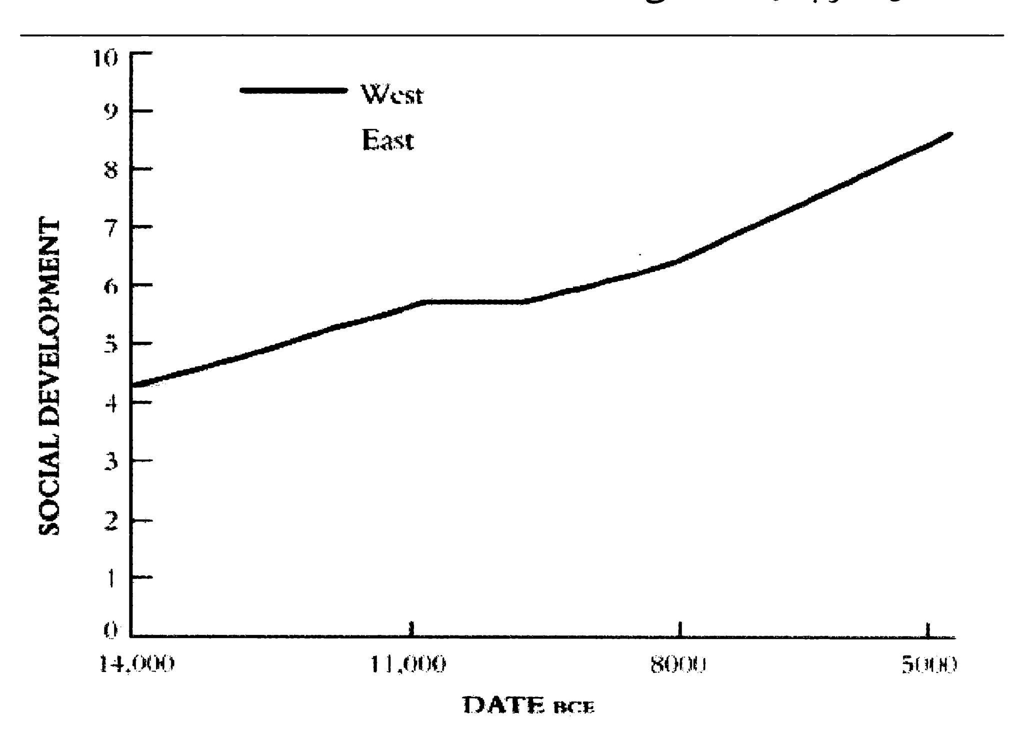
الشرق يلحق بالركب

الفيل في الغرفة

ثمة قصة جنوب آسيوية قديمة تحكي عن ستة رجال ضريرين يقابلون فيلًا. أحدهم يلمس خرطومه ويقول إنَّه ثعبان، وآخر يتحسس ذيله ويعتقد أنه حبل، وثالث يستند إلىٰ إحدىٰ أرجله ويستنتج أنها شجرة، وهكذا. من الصعب تجنب التفكير في هذه القصة عند قراءة النظريات طويلة المدىٰ والنظريات قصيرة المدىٰ عن الهيمنة الغربية: فمثل الرجال الضريرين، يميل كل من أنصار النظرية طويلة المدىٰ والنظرية قصيرة المدىٰ علىٰ حد سواء إلىٰ الإمساك بجزء واحد من الحيوان، ويُخطئون باعتباره الكل. وفي المقابل يجعل مؤشر التطور الاجتماعي النتائج تتكشف حقيقتها أمامنا. ولا يمكن أن يكون هناك مزيد من الهراء عن الأفاعي والحبال والأشجار. يجب علىٰ الجميع أن يدرك أنَّه/أنها يُمسك/تُمسك بجزء واحد من الفيل.

ويلخِّص (الشكل ٤ - ١) ما رأيناه بشكل انطباعي في الفصل الثاني. ففي نهاية العصر الجليدي الأخير، تآمر كل من المناخ والبيئة لجعل التطور الاجتماعي يرتفع في الغرب مبكرًا عن الشرق، وبالرغم من الكارثة المناخية في «ينغر درياس»، احتفظ الغرب بريادة واضحة. ومن المسلَّم به أنَّ في هذه الأوقات المبكرة قبل (١٠٠٠٠ ق. م)، كان فن نحت الخشب بالمنشار في الغرب بدائيًا غير مصقول لكنه يفي بالغرض. ومن الصعب اكتشاف أي تغيير قابل للقياس في التطور الاجتماعي في الشرق لأكثر من أربعة آلاف سنة، وحتىٰ في الغرب، حيث كان التطور أعلىٰ بوضوح بحلول (١١٠٠٠ ق. م) أكثر ممَّا كان في (١٤ ٠٠٠ ق. م)، كانت دقة التغييرات مفقودة بالنسبة إلينا. ومع ذلك، فبالرغم من أنَّ

الضوء الذي يشعه المؤشر مرتعش وخافت، فإنَّ ضوءًا قليلًا أفضل من لا شيء، وهو يكشف عن حقيقة مهمة جدًّا: تمامًا مثلما تنبأت النظريات طويلة المدىٰ، فقد انطلق الغرب وحافظ علىٰ تقدمه.

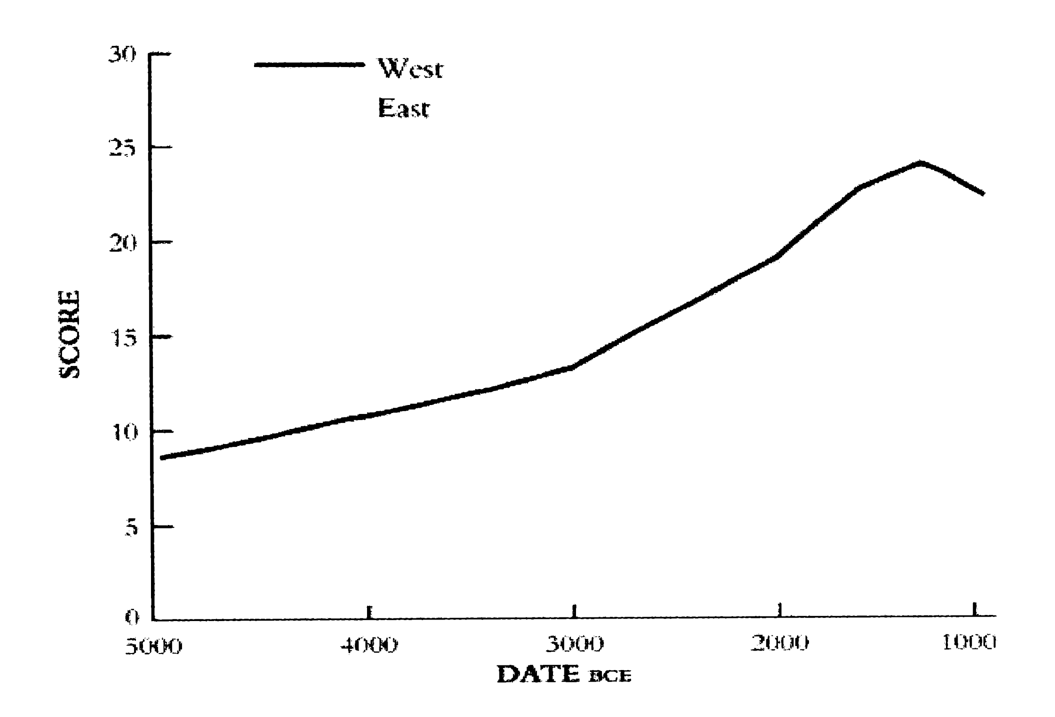


(موضع الشكل ٤ - ١). شكل الأشياء حتىٰ الآن: ريادة الغرب المبكرة في التطور الاجتماعي بين (١٤٠٠٠ و٥٠٠٠ ق. م)، علىٰ النحو الوارد وصفه في الفصل الثاني.

ولكن (الشكل ٤ - ٢) الذي يُكمل القصة من (٥٠٠٠ ق. م)، وحتىٰ (١٠٠٠ ق. م)، أقل بساطة. فهو يختلف كثيرًا عن (الشكل ٤ - ١)، مثل اختلاف الحبل عن الثعبان. ولكن مثل الحبال والثعابين، ثمة أوجه تشابه بين الرسمين البيانيين: ففي كلا الرسمين البيانيين تنتهي النتائج الشرقية والغربية أعلىٰ ممَّا بدأت، وفي كليهما نتائج ودرجات الغرب دائمًا أعلىٰ من الشرق. لكنَّ الاختلافات صادمة بالقدر نفسه. ففي البداية يرتفع الخط في (الشكل ٤ - ٢) بشكل أسرع من (الشكل ٤ - ١). وفي التسعة آلاف سنة بين (١٤٠٠٠، و٥٠٠٠ ق. م) تضاعفت نتائج الغرب وزادت نتائج الشرق بنسبة الثُلثين، ولكن خلال

الأربعة آلاف سنة التي تلت -أي: أقل من نصف الفترة التي يغطيها (الشكل ٤ - ١)- وصلت نتائج الغرب إلىٰ ثلاثة أضعاف وزادت نتائج الشرق بمقدار مرتين ونصف. والاختلاف الثاني هو أنَّنا للمرة الأولىٰ في التاريخ نرىٰ بالفعل التطور الاجتماعي يهبط في الغرب بعد (١٣٠٠ ق. م).

في هذا الفصل أحاول إيضاح هذه الحقائق. وأشير إلىٰ أنَّ التسارع وتدهور الغرب بعد (١٣٠٠ ق. م) كانا في الحقيقة وجهين لعملية واحدة، والتي أسميها بمفارقة التطور. وفي الفصول التالية سنرىٰ أنَّ هذه المفارقة تلعب دورًا رئيسًا في تفسير لماذا يهيمن الغرب وفي إخبارنا ماذا سيحدث بعد ذلك. ولكن قبل أن نصل إلىٰ ذلك نحتاج إلىٰ أن ننظر إلىٰ ما حدث بالضبط في الفترة بين (٥٠٠٠ و١٠٠٠ ق. م).

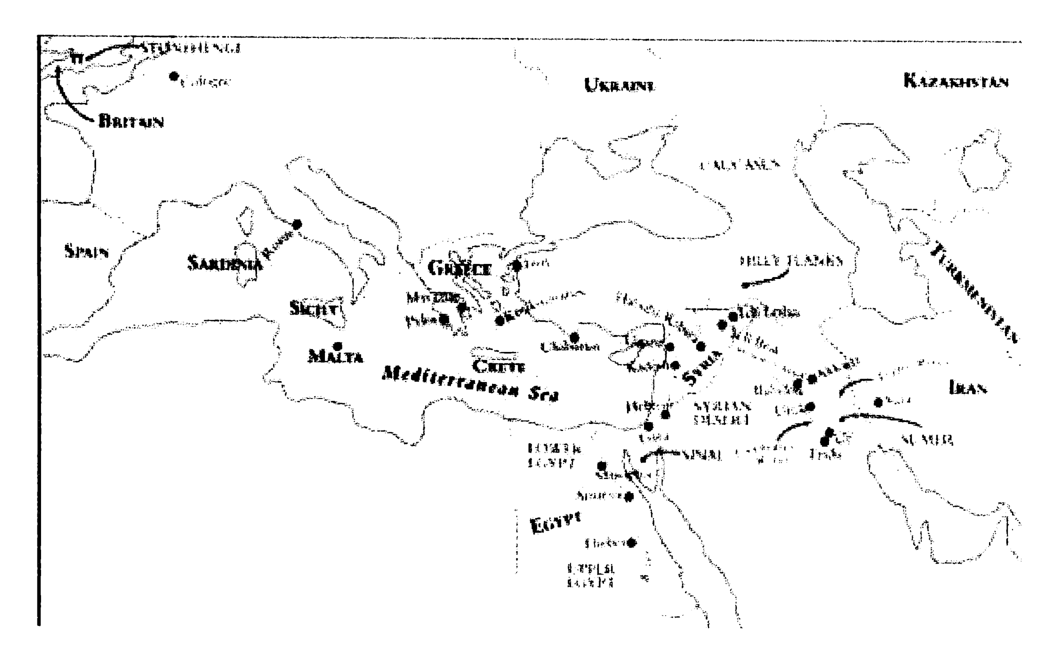


(موضع الشكل ٤ - ٢). التقدُّم، والتصاعد، والتباعد، والتقارب: تسارع وتباعد وتقارب التطور الاجتماعي الشرقي والغربي، من (٥٠٠٠ إلىٰ ١٠٠٠ ق. م).

الاتصال مع الآلهة

بين ١٤٠٠٠ و٥٠٠٠ ق. م تضاعفت نتائج التطور الاجتماعي الغربي، وانتشرت القرىٰ الزراعية من منشئها في منطقة هيلي فلانكس في عمق آسيا الوسطىٰ، وإلىٰ شواطئ المحيط الأطلسي. ولكن بعد ٥٠٠٠ ق. م وصلت الزراعة بلاد الرافدين، «الأرض بين النهرين»، والتي نسميها الآن العراق، بالرغم من أنَّها كانت مسيرة أيام قليلة من منطقة هيلي فلانكس (الشكل ٤ - ٣).

وبطريقة لا تثير تلك الدهشة، فمنذ عام ٢٠٠٣م، جعلت وسائل الإعلام العالم يألف البيئة القاسية في العراق؛ حيث ترتفع درجات الحرارة في الصيف إلىٰ ما فوق ١٢٠ درجة فهرنهايت، ونادرًا ما تمطر والصحاري تحيطها من كل جانب. ومن الصعب تصوّر أنَّ المزارعين قد اختاروا العيش هناك، وبالعودة إلىٰ ٥٠٠٠ سنة ق. م كانت بلاد الرافدين أكثر سخونة. وكانت أيضًا أكثر رطوبة، ولم تكن المشكلة الرئيسة التي يواجهها المزارعون هي كيفية إيجاد الماء ولكن كيفية إدارته. وقد جلبت الرياح الموسمية من المحيط الهندي بعض الأمطار، علىٰ الرغم من أنَّها كانت تكفي بالكاد لدعم الزراعة، ولكن لو تمكن المزارعون من السيطرة علىٰ الفيضانات الصيفية لنهري دجلة والفرات الكبيرين، وجلب المياه لحقولهم في الوقت المناسب لتخصيب محاصيلهم، لكانت الإمكانيات لا حصر لها.



(موضع الشكل ٤ - ٣). توسُّع المركز الغربي (٥٠٠٠ - ١٠٠٠ ق. م): المواقع الأثرية والمناطق المذكورة في هذا الفصل.

كان البشر الذين حملوا أنماط الحياة الزراعية في الآفاق عبر أوروبا، أو الذين تبنَّوا الزراعة من الجيران المزارعين، كانوا باستمرار يغيِّرون التقاليد لجعل الزراعة تعمل في بيئات جديدة. ورغم ذلك، فقد تطلب نجاح الأساليب التي طُوّرت للزراعة بالأمطار في هيلي فلانكس مع الزراعة بالري في بلاد الرافدين ما هو أكثر من تغيير التقاليد. فقد كان علىٰ المزارعين البدء من الصفر تقريبًا. وعلىٰ مدىٰ ٢٠ جيلًا قاموا بتحسين قنواتهم ومصارفهم وأحواض تخزينهم، وتدريجيًّا جعلوا الأراضي الحدودية لبلاد الرافدين ليست قابلة للعيش فحسب، ولكن فعليًّا أكثر إنتاجية ممَّا كانت عليه منطقة هيلي فلانكس في أي وقت مضىٰ. لقد كانوا يغيِّرون معنىٰ الجغرافيا.

يطلق الاقتصاديون أحيانًا علىٰ هذه العملية: اكتشاف مزايا التخلف. فحينما يكيِّف الناس الأساليب التي كانت ناجعة في مركز متقدم لتعمل في منطقة طرفية أقل تطورًا؛ فإنَّ التغييرات التي يدخلونها تجعل تلك الأساليب أحيانًا تنجح بشكل جيد لدرجة أن تصبح المنطقة الطرفية مركزًا جديدًا في حد ذاتها. وبحلول ٥٠٠٠ ق. م، كان هذا يحدث في جنوب بلاد الرافدين، حيث دعمت القنوات المتطورة

بعض أكبر المدن في العالم، التي كان يعيش فيها أربعة آلاف نسمة تقريبًا. وقد كان ممكنًا لتلك الحشود أن تبني معابد أكثر تطورًا، وفي بلدة واحدة اسمها «إريدو»، يمكننا رصد معابد مبنيّة علىٰ موضع منصات حجرية من (٥٠٠٠ ق. م)، حتىٰ (٣٠٠٠ ق. م)، دائمًا باستخدام الخطة المعمارية الأساسية نفسها، ولكنَّها تغدو أكبر وأكثر زخارفَ بمرور الوقت.

لقد اجتمعت الكثير من المزايا في بلاد الرافدين لدرجة أن بدأ الناس في المركز القديم في منطقة هيلي فلانكس بمحاكاة المجتمعات الجديدة الدينامية في السهول الفيضية. وفي حوالي٤٠٠٠ ق. م، تفوق سكان سوسا، في سهل يقع في هيلي فلانكس جنوب غرب إيران، علىٰ إيريدو ببناء رصيف حجري يبلغ طوله (٢٥٠ قدمًا)، وارتفاعه (٣٠ قدمًا). وربما كان يدعم معبدًا كبيرًا، وعلىٰ الرغم من أنَّ المنقبين عن ذلك المعبد في القرن التاسع عشر اكتنفهم بعض الغموض إزاء النقاط الدقيقة للأساليب الأثرية، فإنهم اخترقوا الموقع ودمروا الأدلة. ولكن حتىٰ هم لم يستطيعوا عدم ملاحظة كل علامات التنظيم المعقَّد علىٰ نحو متزايد، بما في ذلك بعض أقدم الزخارف النحاسية في العالم بالإضافة إلىٰ المطبوعات والقوالب الطينية التي قد تدل علىٰ السيطرة الإدارية للسلع، والصور التي يفسرها بعض العلماء بأنَّها تمثل «الملوك الكهنة»، وغالبًا ما يتصوَّر علماء الآثار أنَّ طباخًا محليًا كان يقيم في سوسا، التي كانت أكبر بكثير من القرىٰ المحيطة بها. وربما أتىٰ القرويون الناؤون إلىٰ سوسا لعبادة الآلهة، ومعرفة ربهم، وتبادل الحلي والأسلحة بالغذاء.

أو ربما لم يأتوا بطبيعة الحال - من الصعب معرفة ذلك من مثل هذا الموقع سيئ التنقيب. ولكنَّ علماء الآثار مضطرون إلىٰ الاعتماد علىٰ «سوسا» لفهم هذه الفترة؛ لأنَّ المدن البابلية المعاصرة مدفونة عميقًا تحت الطمي الذي أتىٰ من فيضانات نهري دجلة والفرات علىٰ مدىٰ ستة آلاف سنة، ممَّا جعل من الصعب دراستها (بالإضافة إلىٰ -ولأسباب واضحة- قلة الأبحاث الجديدة في إيران منذ الثورة الإسلامية في عام ١٩٧٩م، أو في العراق منذ قيام صدام حسين بغزو الكويت عام ١٩٩٠م). وربما كانت هناك تغييرات مشابهة آتية في الطريق

علىٰ طول نهري دجلة والفرات بعد ٤٥٠٠ ق. م، ولكن بعد سنة ٣٨٠٠ ق. م أصبحت تلك التغييرات مرئية بوضوح لعلماء الآثار.

وما زال سبب أنَّ المدن صارت أكبر وأكثر تعقيدًا موضع خلاف. لقد شهدت الألفية السادسة قبل الميلاد، عندما انتقل المزارعون لأول مرة إلىٰ بلاد الرافدين، الأرض وهي تصل إلىٰ أدفأ نقطة والأكثر رطوبة في مدارها المتغيِّر بلا نهاية حول الشمس ودورانها المتذبذب حول نفسها، ولكن بحلول سنة ٣٨٠٠ ق. م كان العالم يتجه إلىٰ البرودة مجددًا. وقد تظن أن تلك كانت أنباءً سارة للمزارعين البابليين، ولكنك ستكون مخطئًا. فقد كان الصيف البارد يعني أنَّ الأمطار الموسمية التي تهب من المحيط الهندي أصبحت أضعف. كما تضاءل سقوط الأمطار في كثير من الأحيان وبشكل أقل ممَّا كان متوقعًا، وبدأت بلاد الرافدين تبدو أشبه بالمكان الجاف الذي نراه علىٰ قناة سي إن إن. وتفاقمت المشاكل: فقد كان انخفاض أمطار الربيع يعني موسم زراعة أقصر، ممَّا يعني أنَّ المحاصيل كانت تنضج قبل فيضان نهري دجلة والفرات كل صيف. ولم تعد هناك جدوىٰ من الأنظمة التي أنشأها المزارعون في بلاد الرافدين بجهد جهيد عبر ألفي سنة.

لقد فرض تغيُّر المناخ علىٰ سكان بلاد الرافدين خيارات صعبة. وكان بإمكانهم أن يدفنوا رؤوسهم في الرمال بينما يجتاح تغيُّر المناخ حقولهم وأن يواصلوا حياتهم كالمعتاد، ولكن ثمن عدم فعل شيء سيكون الجوع والفقر وربما الموت جوعًا. أو ربما كان بإمكانهم الهجرة إلىٰ مناطق أقل اعتمادًا علىٰ الأمطار الموسمية، ولكن لم يكن شيئًا هيّنًا علىٰ المزارعين أن يتخلوا عن حقولهم المعتنىٰ بها جيدًا. وعلىٰ أي حال، فقد كانت منطقة هيلي فلانكس -المكان الواضح للذهاب إليه- تعجّ بالقرىٰ بالفعل. في عام ٢٠٠٦م اكتشف الأثريون في «تل براك» في شمال شرق سورية مقبرتين جماعيتين لشباب يعود تاريخها إلىٰ حوالي سنة ٣٨٠٠ ق. م، وهم فيما يبدو ضحايا المذابح. وربما لم تكن العودة إلىٰ منطقة هيلي فلانكس المزدحمة والعنيفة خيارًا جذابًا للغاية.

ولو لم يفعل عدد كافٍ من سكان بلاد الرافدين شيئًا أو هربوا، لانهار ذلك المركز الجديد. ومع ذلك، طرحت احتمالية ثالثة نفسها. لقد كان بإمكان الناس التخلي عن قراهم لكن مع الإقامة في بلاد الرافدين متجمعين في عدد قليل من المواقع الكبيرة. ويبدو ذلك غير بديهي: فإذا كانت المحاصيل تتناقص، فإنَّ احتشاد أناس أكثر في مساحات صغيرة لا بُدَّ أن يزيد الأمور سوءًا. ولكن يبدو أن بعض سكان بلاد الرافدين قد توصلوا إلىٰ أنَّه إذا عمل عدد أكثر منهم معًا فبإمكانهم إدارة أنظمة الري الكبيرة وتخزين مياه الفيضانات إلىٰ أن تصبح المحاصيل جاهزة. كان بإمكانهم إطعام عمال مناجم أكثر ليقوموا باستخراج النحاس من الأرض، وحدَّادين أكثر لصنع الزينة والأسلحة والأدوات، وعدد أكبر من التجَّار لنقل هذه البضائع إلىٰ المناطق المجاورة. وقد كانوا ناجحين جدًّا لدرجة أنه بحلول سنة ٣٠٠٠ ق. م حلَّ البرونز (خليط من النحاس والقليل من القصدير) إلىٰ حدٍّ كبير محلّ الحجر في صناعة الأسلحة ومعظم الأدوات، ممَّا أدىٰ إلىٰ زيادة فعالية المحاربين والعمَّال.

تطلب الوصول إلىٰ تلك المرحلة بعض التنظيم. وكانت الإدارة المركزية هي الإجابة. وبحلول سنة ٣٣٠٠ ق. م، كان الناس ينقشون علىٰ ألواح طينية صغيرة توثيقًا دقيقًا لأنشطتهم، والتي أسماها معظم علماء الآثار الكتابة الرمزية (حتىٰ ولو لم يستطع قراءتها سوىٰ نخبة صغيرة). ودُمّرت القرىٰ الصغيرة التي لم تتمكن من القيام بمثل هذه الأنشطة المتطورة، بينما تحول موقع واحد -وهو «أرووك»- إلىٰ مدينة حقيقية تحتوي ربما علىٰ عشرين ألف نسمة.

كان سكان بلاد الرافدين يخترعون الإدارة والاجتماعات والمذكرات - وهي لعنات الحياة لكثيرين منَّا اليوم، وأدوات السرديات المتصاعدة عن الإنجاز البشري. ومع ذلك سيتضح خلال الفصول القليلة القادمة أنَّ هذه الأشياء كانت في أحيان كثيرة أهمَّ محركات التطور الاجتماعي. لقد حوَّل التنظيم القرىٰ في منطقة هيلي فلانكس وعلىٰ طول ضفاف النهر الأصفر إلىٰ مدن وولايات وإمبراطوريات، وتسببت إخفاقات التنظيم في سقوطها. فالقائمون علىٰ أمور تلك القرىٰ هم أبطال القصة الأخيار والأشرار في الوقت نفسه.

ربما كان من الصادم والمؤلم ميلاد الإدارة في الوقت الذي جفت فيه أمطار الرياح الموسمية. وربما ينبغي علينا أن نتصوَّر طوابير رثة ومهزومة من الجياع يتدلون نحو «أوروك» تحت سماء مغبرة، مثل الأوكيز (المهاجرين من أوكلاهوما، وسيأتي الحديث عنهم لاحقًا، م) ولكن من دون سيارات خردة متهالكة تستخدم وقودًا ملوثًا، فضلًا عن الصفقة الجديدة التي حصل عليها الأوكيز. وربما ينبغي علينا أيضًا أن نتصوَّر القرويين الغاضبين وهم يرفضون التنازل عن سلطة الحكم الذاتي لصالح البيروقراطيين المتغطرسين الذين حاولوا الاستيلاء علىٰ حقولهم أو محاصيلهم. لا بُدَّ أنَّ العنف كان هو النتيجة. كان يمكن لأوروك أن تتمزق، وربما تمزقت بالفعل الكثير من المدن المنافسة.

إنَّنا لن نعرف أبدًا قصص «المديرين القدماء» الذين جعلوا أوروك تجتاز الأزمة، ولكن علماء الآثار يظنون أنَّ هؤلاء كانوا مرتبطين بالمعابد. وتشير العديد من الأدلة لهذا الاتجاه، وهي تدعم بعضها بعضًا مثل الأعمدة الخشبية في التيبة (خيمة مخروطية من جلد، م). فعلىٰ سبيل المثال: كشفت الحفريات في المعابد عن أكوام من الأطباق ذات الحجم الموحَّد المعروفة باسم «الأوعية مشذبة الحد»، التي ربما كانت تُستعمل لتوزيع الغذاء. وقد أتت أقدم الألواح الطينية المنقوشة برموز بدائية من المعابد، ويمثِّل رمز «المؤنة» عليها رسمًا تخطيطيًا للأوعية مشذبة الأطراف. وعندما تطورت نظم الكتابة إلىٰ المرحلة التي كان يمكن فيها تسجيل مثل هذه المعلومات، أخبرتنا أنَّ المعابد كانت تسيطر علىٰ أفدنة واسعة من الأراضي المرويّة وعلىٰ العمَّال الذين يزرعونها.

وقد ازدهرت المعابد نفسها وتحولت إلىٰ آثار هائلة، ممَّا قزّم المجتمعات التي شيدتها من الأساس. وكانت ثمة سلالم طويلة تؤدي إلىٰ مرافق مسيّجة بلغ ارتفاعها مئات الأقدام، حيث يستشير المتخصصون الآلهة. وإذا كانت أضرحة الألفية العاشرة التي شهدناها في الفصل الثاني مكبرات صوت للرسائل المرسلة إلىٰ الأرواح، فإنَّ معبد الألفية الرابعة الضخم في «أوروك» كان بمثابة نظام خطاب عموميّ يليق بفرقة ليد زيبلين (ليد زبلين: فرقة روك إنجليزية تشكلت في عام (١٩٦٨م)، وكتب أكثر كلمات أغاني الفرقة بلانت الذي كان متأثرًا

بالأساطير والملاحم الجرمانية والكلتية. وتعد أشهر أغاني الفرقة: سلم إلىٰ السماء، م). كان الآلهة سيكونون صمًّا لو أنَّهم لم يسمعوا تلك الأصوات العالية.

لقد كانت تلك الصرخات الموجهة للآلهة هي التي جذبتني لمجال علم الآثار. ففي عام ١٩٧٠م، أخذني والداي أنا وأختي لمشاهدة فيلم إديث نيسبت الكلاسيكي من العصر الإدواردي "The Railway Children" أو «أطفال السكة الحديد». وأعتقد أنني أحببته، ولكن الإعلان القصير الذي تم تشغيله قبل الفيلم قد أذهلني (كما كان الناس يقولون في تلك الأيام). فحتىٰ ذلك المساء كنت مهووسًا بمهمة «أبولو ١١»، وكنت أريد أن أكون رائد فضاء، لكن «فيلم ب» (B movie)، وهو وثائقي (نوعًا ما) مأخوذ من كتاب إريك فون دانيكن (Chariots of the Gods) أو «عجلات الآلهة الحربية»، جعلني أدرك أنَّ علم الآثار هو الطريق الذي يجب أن أسلكه.

ومثل آرثر كلارك في رواية «٢٠٠١: أوديسا الفضاء»، التي نُشرت في عام ١٩٦٨م، والتي مثل رواية «عجلات الآلهة الحربية»، زعم ڤون دانيكن أنَّ الفضائيين قد زاروا الأرض في العصور القديمة وعلَّموا البشر أسرارًا عظيمة. واختلف ڤون دانيكن عن كلارك في أنه يصرّ علىٰ أمرين: (١) أنَّه لم يكن يخترع ذلك من دماغه. (٢) وأنَّ الفضائيين ظلوا يعودون للأرض. وهم الذين منحوا الإلهام لنصب ستونهنج الحجري وأهرامات مصر، وأنَّ الكتاب المقدس العبري والملاحم الهندية وصفت سفنهم الفضائية وأسلحتهم النووية. وأصرَّ دانيكن علىٰ أنَّ السبب وراء ادّعاء الملوك التحدث إلىٰ كائنات خارقة في السماء، هو أنَّ الملوك القدماء كانوا يتحدثون بالفعل لكائنات خارقة في السماء.

وبينما تُعدّ الأدلة ضعيفة (تلطفًا في التعبير)، فالجدال هنا اقتصادي بالتأكيد. يؤمن الكثير من الناس بذلك، وقد باع فون دانيكن ٦٠ مليون نسخة من الكتاب. وما زال لديه الكثير من المعجبين. ومنذ سنوات قليلة فحسب، حين كنت أهتم بأموري الخاصة وأقوم بالشواء، أُتهمتُ -بكل جدية- بالانتماء إلىٰ عصابة سريّة من علماء الآثار تخفي هذه الحقائق.

وكثيرًا ما يُنتقد العلماء علىٰ نبذ الأعاجيب خارج العالم، ولكنَّهم يفعلون ذلك أملًا في وضع الحقيقة في موضعها. وفي هذه الحالة، تُعدّ الحقيقة المهمّة هي أنَّنا لسنا بحاجة إلىٰ أناس من الفضاء لتفسير ملوك بلاد الرافدين الشبيهين بالآلهة أكثر من حاجتنا للحظة من رواية «٢٠٠١: أوديسا الفضاء» لتفسير نشأة الهومو سابينز. وقد كان المتخصصون في العلوم الدينية مهمِّين منذ بدء الزراعة، وكل الدلائل هي أنَّ شعب بلاد الرافدين تطلع بشكل غريزي إلىٰ الكهنة الذين يدّعون تواصلًا خاصًا مع الآلهة حتىٰ يخبروهم بما يجب القيام به، عندما بدا أَنَّ الأقوياء قد خذلوا البشرية بحرمانهم من المطر. لقد كان التنظيم هو مفتاح البقاء في تلك الأوقات العصيبة؛ ولهذا كلما فعل الناس ما قاله الكهنة كانت الأمور تسير علىٰ نحو أفضل (بشرط أن يقدم الكهنة مشورة صائبة بشكل معقول).

وثمة عمليتان أثرتا في بعضهما البعض ارتجاعيًا، يعد منطقهما دائريًا مثل منطق ڤون، لكنهما أكثر إقناعًا. فقد قال رجال طموحون يدَّعون تواصلًا خاصًا مع الآلهة إنَّهم بحاجة إلىٰ معابد رائعة، ومراسم مستفيضة، وثروة كبيرة لجعل الآلهة يسمعونهم. وما إن حصلوا علىٰ هذه الأشياء، كان بإمكانهم أن يديروا ظهورهم ويشيروا إلىٰ معابدهم الرائعة، ومراسمهم المستفيضة وثروتهم الكبيرة لإثبات أنهم كانوا في الواقع بالقرب من الآلهة - ففي نهاية المطاف، مَن كان سيملك مثل هذه الأشياء إلَّا شخص تحبه الآلهة؟ وفي الوقت الذي كان فيه النسَّاخ يسجلون هذه الأمور، في حوالي سنة ٢٧٠٠ ق. م، ادَّعىٰ ملوك البابلية أنَّ الآلهة هم أجدادهم. أحيانًا (كما أظن) مثلما كان الأمر في أوروك، أدىٰ إسناد السلطة إلىٰ الرجال الذين كانوا علىٰ اتصال مع الآلهة إلىٰ صنع العجائب، وعندما لم ينجح ذلك، بطبيعة الحال في كثير من الأحيان، لم يبق الكثير للأثريين للتنقيب عنه.

لم تصبح «أوروك» مدينة فحسب ولكنَّها أصبحت دولة أيضًا، بمؤسسات مركزية تفرض الضرائب، وتصنع قرارات مُلزِمة للمجتمع بأكمله، وتدعم هذه القرارات بالقوة. وشغل رجال قليلون (وليس النساء في الظاهر) أعلىٰ المناصب، وساعدتهم مجموعة أكبر من المقاتلين وأصحاب الأراضي والتجَّار والبيروقراطيين

الذين يعرفون القراءة والكتابة. وكان صعود الدولة يعني بالنسبة إلىٰ الجميع تقريبًا التخلي عن الحريات، لكن ذلك كان هو ثمن النجاح في الأوقات العصيبة. واستطاعت المجتمعات التي دفعت الثمن أن تحشد أناسًا أكثر وثروة أكبر وقوة أكبر من مجتمعات ما قبل الدولة.

وقد أدت المدن والدول إلىٰ ارتفاع التطور الاجتماعي في بلاد الرافدين بعد ٣٥٠٠ ق. م، ثم انتشرت المدن والدول في الخارج، مثلما فعلت القرىٰ الزراعية من قبل في منطقة هيلي فلانكس. وامتدت الثقافة المادية علىٰ غرار أوروك (الأوعية مشذبة الأطراف، والألواح الكتابية والمعابد البازخة) إلىٰ سورية وإيران. وتشبه الجدالات حول كيفية حدوث هذا تلك التي كانت بشأن الانتشار الأول للزراعة. فقد كان هناك علىٰ الأرجح استعمار من قِبَل جنوب منطقة هيلي فلانكس ذات الكثافة السكانية والتنظيم العاليين للشمال الأقل تمركزًا واستيطانًا: فمنطقة «حبوبة كبيرة» في وسط سورية -علىٰ سبيل المثال- تبدو وكأنَّ شخصًا قد استنسخ حيًّا في أوروك وأسقطه علىٰ بعد آلاف الأميال. وعلىٰ عكس ذلك، كانت تل براك -وهي مدينة كبيرة وُجدت قبل وقت طويل من ابتكار الأوعية المشذبة الأطراف- تبدو أكثر مثل مجتمع محلي يختار ويفضِّل من بين الأعراف والتقاليد المستحدثة في أوروك. وربما سمح القرويون الذين كافحوا لكسب ما يكفي لدفع غائلة الجوع وتوفير احتياجاتهم الأساسية ومن أجل رؤية نجاح مدن بلاد الرافدين، ربما سمحوا للكهنة المحليين بتحويل أنفسهم إلىٰ ملوك، وربما قام الكهنة الطموحون وهم يشهدون ازدهار قادة أوروك الدينيين بالتحدث أو خداع أو مضايقة القرويين لإعطائهم سلطات مماثلة. وعلىٰ أية حال، لا بُدَّ وأنَّ الناس الذين فضَّلوا حياة القرية وجدوا أنَّ تشكيل الدولة من الصعب مقاومته بالطريقة نفسها التي وجد بها الرعاة الزراعة قبل آلاف السنين.

تجسُّد الآلهة

حين كان المزارعون الأوائل يتعرقون لجعل المحاصيل تنمو علىٰ سهول بلاد الرافدين في حوالي سنة ٥٠٠٠ ق. م، كان ثمة أناس أكثر شجاعة يخرجون من وادي الأردن عبر صحراء سيناء ليجربوا حظهم علىٰ ضفاف نهر النيل. كان لدىٰ مصر القليل من النباتات المحلية القابلة للتدجين، وقد تخلفت عن منطقة هيلي فلانكس في تبنِّي الزراعة، ولكن بمجرد استيراد البذور والحيوانات المناسبة، ازدهر أسلوب الحياة الجديد. وكان النيل يفيض في الوقت المناسب سنويًا للمحاصيل، كما دعمت الواحات الكبيرة المروية بالأمطار الزراعةَ في أماكن بعيدة فيما يُعدّ صحراء الآن.

وكانت تلك المزايا تعني أن تراجع الأمطار الموسمية في حوالي سنة ٣٨٠٠ ق. م قد أصاب مصر بشكل أقوىٰ من بلاد الرافدين. وقد ترك الكثير من المصريين الواحات وتكدسوا داخل وادي النيل، حيث كانت المياه وفيرة لكن الأراضي شحيحة، ولا سيما حيث يضيق الوادي في صعيد مصر. وكما في بلاد الرافدين، كانت الإدارة هي الإجابة. وتشير المقابر المكتشفة إلىٰ أنَّ حُكَّام القرية المصرية كان لهم دور عسكري وديني. وقد غدا الزعماء الناجحون أغنياء كلما استولت قُراهم علىٰ المزيد من الأراضي، واختفىٰ الزعماء الفاشلون، وبحلول سنة ٣٣٠٠ ق. م تشكّلت ثلاث دويلات. لكل منها مقبرة غنية حيث يدفن الملوك الأوائل -إذا لم يكن ذلك لقبًا ضخمًا عليهم- ليستريحوا في مقابر تحاكي العمارة في بلاد الرافدين، يرافقهم ذهب وأسلحة وواردات من بلاد الرافدين.

وقد تقاتلت الممالك الثلاث حتىٰ سنة ٣١٠٠ ق. م، وصمدت منها واحدة

فقط. وفي تلك المرحلة، انفجرت كمية كبيرة من الآثار الملكية وظهرت فجأة النصوص الهيروغليفية المصرية المتميزة. وكانت الكتابة علىٰ الأرجح مقتصرة علىٰ مجموعة ضيقة من النسَّاخ والكَتَبة، كما في بلاد الرافدين، ولكن منذ البداية تضمنت النصوص المصرية قصصًا بالإضافة للروايات البيروقراطية. ويحكي نقش مميَّز عن ملك اسمه «نارمر» احتل صعيد مصر في حوالي سنة ٣١٠٠ ق. م، بينما يشير نقش آخر إلىٰ تورط شخص يُدعىٰ الملك العقرب. وتذكر النصوص اللاحقة كذلك أحد الغزاة واسمه مينا (ربما هو نفسه نارمر). ولكن علىٰ الرغم من أنَّ التفاصيل ملتبسة، فإنَّ القصة الأساسية واضحة: في حوالي سنة ٣١٠٠ ق. م تمَّ توحيد وادي النيل ليشكل أكبر مملكة لم يرَ العالم مثلها، يعيش فيها حوالي مليون نسمة.

وانتشرت حضارة صعيد مصر المادية سريعًا في وادي النيل بعد سنة ٣١٠٠ ق. م. ومثلما توسَّعت الزراعة قبل آلاف السنين وانتشرت ثقافة الأوروك في بلاد الرافدين المعاصرة، فقد قام المصريون في الدلتا (عن وعي، أو بسبب الحاجة إلىٰ التنافس) بمحاكاة أنماط الحياة في صعيد مصر. ولكن هذه المرة هناك أيضًا دلائل واضحة أنَّ سكَّان صعيد مصر قد نظَّموا أنفسهم في دولة ونموا بمعدل أسرع من السكَّان القرويين في الدلتا، وأنَّ التوحيد السياسي تألف جزئيًّا من مستعمرة تمتد من الشمال إلىٰ الجنوب.

وعلىٰ الرغم من التشابه الكبير، فإنَّ كلًا من توسُّع الأوروك في بلاد الرافدين بعد سنة ٣٥٠٠ ق. م، وتوسُّع صعيد مصر بعد سنة ٣٣٠٠ ق. م كان له تبعات مختلفة. أولها: أنه في الوقت الذي أخضع فيه نارمر/الملك العقرب/مينا دلتا مصر في حوالي سنة ٣١٠٠ ق. م، كان توسُّع أوروك ينتهي بشكل مفاجئ. لقد احترقت أوروك نفسها، وهُجرت معظم المواقع الجديدة ذات الثقافة المادية علىٰ نفس طراز أوروك. والسبب يُعدّ لغزًا حتىٰ الآن. عندما بدأت النصوص في تسجيل مزيد من المعلومات في حوالي سنة ٢٧٠٠ ق. م، انقسم شعب جنوب بلاد الرافدين، الذين أطلقوا علىٰ أنفسهم عندئذٍ السومريين، إلىٰ خمس وثلاثين

مدينة مستقلة ذاتيًا لكل منها ملك يشبه الإله. وقد ترك تفكُّك أوروك مصر باعتبارها المركز الغربي الرئيس.

أما سبب تباعد كل من مصر وبلاد الرافدين فقد ظل غير مفسَّر. ربما كانت مصر بوادي نهرها الوحيد وواحاتها القليلة وصحرائها المنتشرة في كل مكان أسهل للغزو من بلاد الرافدين، بنهريها وروافدهما المتعددة حيث يمكن للمقاومة أن تستفحل، وتلالها المحيطة المليئة بالأعداء القادرين علىٰ البقاء. أو ربما اتخذ نارمر والبقية قرارات أفضل من ملوك أوروك الذين لا نعرف أسماءهم. أو ربما كان عامل مختلف تمامًا هو الفاصل. (وسأعود إلىٰ هذا السؤال فيما يلي).

ثمة اختلاف كبير بين بلاد الرافدين ومصر. فبينما ادَّعىٰ الملوك السومريون كونهم يشبهون الآلهة، فقد ادَّعىٰ الملوك المصريون كونهم هم الآلهة. ويقدِّم الفيلم والمسلسل التليفزيوني ستار جيت (Stargate)، المأخوذ عن كتب ڤون دانيكن، تفسيرًا بسيطًا لذلك: لقد كان نارمر ورفاقه فضائيين حقًا، بينما كان ملوك أوروك مجرد أصدقاء للفضائيين. ولكن بقدر ما يبدو هذا التفسير بسيطًا بشكل جذاب، فليس هناك أي دليل عليه، بينما هناك الكثير من الأدلة التي تشير إلىٰ أنَّ الفراعنة (كما أُطلق علىٰ الملوك في مصر) كانوا في الحقيقة يعملون بجد لتعزيز صورة ألوهيتهم.

يصدمنا التأليه الذاتي باعتباره اضطرابًا نفسيًا، ولم يكن التأليه الذاتي أمرًا هينًا قبل خمسة آلاف سنة. إذن، فكيف حدث ذلك؟ لم يترك لنا نارمر وأصدقاؤه سرديات أو حكايات معينة (الآلهة لا تحتاج إلىٰ تفسير ذواتها)، وأفضل أدلتنا يأتي من قصص لاحقة بعد ذلك بكثير عن الإسكندر الأكبر ملك مقدونيا. حيث احتل الإسكندر مصر سنة ٣٣٢ ق. م، ونصَّب نفسه فرعونًا عليها. وبتورطه في صراع القوىٰ مع چنرالاته، رأىٰ أنه من المفيد نشر الشائعات بأنه -مثل الفراعنة السابقين- كان إلهًا حقًّا. ولم يأخذ ذلك علىٰ محمل الجدّ سوىٰ القليل من المقدونيين، فقام الإسكندر بتصعيد الأمور. فعندما وصل جيشه إلىٰ ما يعرف الآن بباكستان اعتقل عشرة حكماء محليين وأمرهم -مهددًا إياهم بالقتل- بالجواب عن أعمق أسئلته، وعندما وصل إلىٰ الحكيم السابع، سأله الإسكندر

«كيف يصبح المرء إلهًا؟»، فأجاب الفيلسوف ببساطة: «بفعل شيء يستحيل علىٰ الإنسان فعله». ومن السهل تصوُّر الإسكندر وهو يحك رأسه متسائلًا: هل أعرف أي شخص قام مؤخرًا بفعل شيء لا يستطيع الإنسان فعله؟ وربما أخبر نفسه أنَّ الجواب كان واضحًا: «نعم. أنا. لقد أطحت لتوي بالإمبراطورية الفارسية. ليس بإمكان أي بشري أن يفعل ذلك. أنا إله وينبغي أن أتوقف عن الشعور بالسوء عندما أقتل أصدقائي حين يعارضونني».

وبدلًا من ذلك، ربما اختلق الإسكندر أو أنصاره القصة برمتها، ولكن بطريقة ما لا تهمّ واقعية القصة بقدر ما تهمّ حقيقة أنه في عشرينيات القرن الثالث قبل الميلاد كانت أفضل وسيلة لملك ما لترويج فكرة ألوهيته هي من خلال البسالة العسكرية الخارقة. ويسعنا فقط أن نخمن أنَّ هذه كانت أفضل طريقة أيضًا منذ ثلاثة آلاف سنة، ولكن بتوحيد وادي النيل قام الملك العقرب، نارمر و/أو مينا بفعل أشياء لا يمكن التوقع بأن يفعلها بشر. ولعل دمج ملك يشبه الإلهه مع فاتح عظيم قد جعل التأليه الذاتي ممكنًا.

ولم يكن هذا هو الإنجاز غير المتوقع الوحيد الذي حققه الفراعنة. فلا بُدَّ وأنَّ الملوك الأوائل لصعيد مصر قد طوَّروا مهارات إدارية مثل تلك التي كانت في أوروك، جاعلين الشعب يمنحونهم الموارد ويقبلون بالإدارة المركزية، لكنَّ الفراعنة عندئذٍ كانوا قد اختاروا النخبة المحلية من وادي النيل كله ليكونوا المسؤولين عنهم والقائمين علىٰ أمورهم. وبنىٰ الفراعنة عاصمة جديدة في ممفيس، في موقع استراتيجي بين مصر العليا والدلتا، وجلبوا إليها النبلاء الإقليميين. وفي ممفيس قدَّم الفراعنة الدعم والرعاية، فأعطوا الحوافز للأرستقراطيين القليلين الذين آمنوا بالنظام للحفاظ علىٰ استمراره. وانتزع الأعيان المحليون العائدات من الفلاحين، محاولين أخذ أكثر ما يمكنهم أخذه دون جعل حياة الفلاحين مستحيلة، ثمَّ رفعوا هذا الريع لأعلىٰ السلسلة، في مقابل التأييد الملكي الذي ينزل عبر السلسلة إليهم مجددًا.

لقد اعتمد نجاح الفراعنة في جزء منه علىٰ التسييس والخدمات المتبادلة، وفي جزء آخر علىٰ العظمة والأبهة؛ ولهذا فإنَّ كونهم آلهة وليسوا مجرد أصدقاء

للآلهة جعل الأمور أسهل بالتأكيد. فلماذا قد لا يريد أن يعمل شخص محلي عظيم الشأن من أجل الإله؟ ورغم ذلك، من أجل السلامة، أنشأ الفراعنة أيضًا لغة رمزية قوية. وسريعًا بعد سنة ٢٧٠٠ ق. م صمم فنانو الملك زوسر أساليب لنحت الهيروغليفية وتمثيل الملوك الآلهة الذي عاشوا لخمسمائة سنة. وقد تفهم زوسر الحساسية الدينية لرؤية شخص خالد يموت، وقام بتصميم الرمز الأعظم للملك في مصر -الهرم- كي يحتفظ بالجثة المقدسة. وقد ظل هرم الملك خوفو الذي بلغ ارتفاعه ٤٥٠ قدمًا، والذي بُني في سنة ٢٥٥٠ ق. م، أطول مبنىٰ في العالم حتىٰ فاقته كاتدرائية كولونيا في ألمانيا في عام ١٨٨٠م. ولا يزال هو الأثقل حيث يزن حوالي مليون طن. لقد عمل آلاف العمَّال في بنائه لعقود، يقتلعون الأحجار، وينقلونها عبر النيل ويسحبونها إلىٰ مكانها. وكانت ما يسمىٰ بقرية العمَّال عند سفح الأهرام من بين أكبر المدن وقتئذ. وقد تطلب تغذية العمَّال ونقلهم قفزة كبيرة في حجم البيروقراطية وتأثيرها، ولا بُدَّ وأنَّ الانضمام إلىٰ الجماعات كان تجربة تحولية للقرويين الذين ربما لم يغادروا منازلهم قبل ذلك قطّ. وإذا شكَّ أي شخص في ألوهية الفرعون أمام الأهرامات، فبالتأكيد لم يفعل ذلك فيما بعد.

وقد اتجهت المدن السومرية المستقلة ذاتيًّا في بلاد الرافدين إلىٰ اتجاهات مماثلة ولكن ببطء وبحذر أكثر. فكانت كل مدينة -بحسب ما تقول النصوص- مقسمة إلىٰ «أسر معيشية» تضمنت العديد من الأُسر أحادية الزوج. وكان لكل أسرة معيشية عائلة واحدة تدير أمورها، تنظِّم أرضها وعمّالها، والأسر الأخرىٰ مصنّفة في رُتب، فبعضها يعمل في الحقول، والبعض الآخر في الحرف، حيث يؤدون حصصهم في مقابل الحصول علىٰ الطعام وحصص الإعاشة. وكانت الآلهة ترأس أكبر وأغنىٰ الأسر المعيشية نظريًا، وتتولىٰ مسؤولية آلاف الأفدنة ومئات من العمَّال. وقد كان الرجال الذين أداروا هذه الأسر المعيشية للآلهة هم قادة المدينة عادة، حيث كان الملك يرأس الأسر المعيشية للإله الراعي للمدينة. وكان من عمل الملك دعم مصالح الإله الراعي. وإذا أبلىٰ الملك بلاء حسنًا، يزدهر الإله أيضًا، وإذا كان أداؤه سيئًا فسينخفض رصيد الإله.

وقد غدا ذلك مشكلة بعد سنة ٢٥٠٠ ق. م. فقد سمح تحسين الزراعة بتكوين عائلات كبيرة، وقد أدىٰ النمو السكاني إلىٰ التنافس علىٰ الأرض الخصبة وإلىٰ الطرق الأكثر فعالية للصراع من أجلها. وتغلبت بعض المدن علىٰ مدن أخرىٰ وسيطرت عليها. وكانت النتائج الدينية شائكة مثل موت الملوك الآلهة المصريين: فإذا كان ملك ما يرعىٰ مصالح الإله الراعي فماذا تعني سيطرة ملك آخر، يوالي إلهًا مختلفًا؟ واقترح بعض الكهنة نظرية «مدينة المعبد»، حيث جعلوا التراتبيّة الدينية ومصالح الآلهة كلًا منهما مستقلًا عن الملوك. وقد ردَّ الملوك الناجحون علىٰ ذلك مدَّعين أنَّهم أكثر من مجرد ممثلي الآلهة. ففي حوالي سنة ٢٤٤٠ ق. م، ادَّعىٰ أحد الملوك أنَّه كان ابن الإله الراعي، وانتشرت القصائد عن كيف سافر الملك جلجامش من أوروك خارج هذا العالم بحثًا عن الخلود. واندمجت هذه القصائد في ملحمة جلجامش، التي تُعدّ أقدم تحفة أدبية في العالم علىٰ قيد الحياة.

وبحث الحكَّام عن سُبل جديدة لاستعراض فخامتهم، وقد كانت المقبرة الملكية في أور -وهي أكبر اكتشاف أثري تم العثور عليه في بلاد الرافدين- أحد هذه السُبل. تشير ثروات مقابرها الذهبية والفضية، التي تشبه أهرامات الفراعنة إلىٰ أكثر من المكانة الخالدة للميت، ويدل تسميم أربعة وسبعين شخصًا لمرافقة الملكة «بوابي» إلىٰ العالم الآخر أنَّ الصراعات علىٰ علاقات الحكَّام بالآلهة كان من الممكن أن تكون بمثابة أخبار سيئة بالنسبة إلىٰ المواطنين السومريين العاديين.

وقد وصل النزاع لطريق مسدود في حوالي سنة ٢٣٥٠ ق. م. فقد كان هناك انقلابات عنيفة وفتوحات مسلَّحة وإعادة توزيع ثورية للممتلكات وللحقوق المقدسة. وفي سنة ٢٣٣٤ ق. م أسَّس رجل يسمىٰ سارجون، (يعني اسمه بصورة مريبة «الحاكم الشرعي»، وربما اتخذ ذلك الاسم بعد أن استولىٰ علىٰ السلطة) مدينة جديدة تسمىٰ «أكاد». وربما تقع تلك المدينة تحت بغداد، وعلىٰ نحو غير مفاجئ، فهي لا تزال غير مستكشفة، ولكن ثمة ألواح من الصلصال من مواقع أخرىٰ تخبرنا بأنَّ بدلًا من محاربة الملوك السومريين الآخريين، قام سارجون بنهب كل من سورية ولبنان حتىٰ يتمكن من الدفع لجيش متفرغ من

خمسة آلاف رجل. ثمَّ انقلب علىٰ السومريين الآخرين، مخضعًا مُدنهم من خلال الدبلوماسية والعنف.

غالبًا ما تطلق المراجع علىٰ سارجون أول مؤسس لإمبراطورية في العالم، ولكن لا يختلف ما قام به هو وخلفاؤه كثيرًا عما فعله موحدو مصر قبل ثمانية قرون. ولم يصبح سارجون نفسه إلهًا، ولكن بعد هزيمته لتمرد في حوالي سنة ٢٢٤٠ ق. م أعلن حفيده نارام -سين أنَّ ثمانية من آلهة السومر أرادوه أن ينضم إلىٰ صفوفهم. وبدأ الرسامون السومريون في تمثيل نارام- سين بوصفه شخصًا خارقًا لديه العديد من القرون؛ وهي السمات التقليدية للألوهية.

وبحلول عام ٢٢٣٠ ق. م تفوق المركزان الغربيان في سومر ومصر بكثافة علىٰ المركز الأصلي في منطقة هيلي فلانكس. واستجابة للمشاكل الإيكولوجية، أنشأ الناس المدن، وكرد فعلٍ للمنافسة بين المدن أنشؤوا الدول المليونية القوية التي يحكمها الآلهة أو ملوك يشبهون الآلهة ويديرها بيروقراطيون. وبينما قادت الصراعات في المركز التنمية الاجتماعية لأعلىٰ، انتشرت شبكة من المدن علىٰ طول القرىٰ الزراعية البسيطة في سورية وبلاد الشام وعبر إيران إلىٰ حدود تركمانستان الحديثة. وسرعان ما بدأ الناس في كريت في بناء القصور والمعابد الحجرية أيضًا، وارتفعت المعابد الحجرية المهيبة لأعلىٰ في مالطة، وبدأت المدن المحصنة في تحديد ساحل أسبانيا الجنوبي. لقد ملأ مزراعو أقصىٰ الشمال والغرب كل منطقة قابلة للبقاء إيكولوجيًا، وفي أقصىٰ حافة للعالم الغربي حيث يضرب المحيط الأطلسي شواطئ بريطانيا الباردة، استثمر الناس ما يقدر بنحو ٣٠ مليون ساعة عمل في الأثر الأكثر غموضًا علىٰ الإطلاق، صرح ستونهينج. وربما كان ليستنتج أحد فضائيي ڤون دانيكن لو زار الأرض في عام ٢٢٣٠ ق. م، أنَّ هناك حاجة أكبر لتدخلات الفضائيين: لقد كانت حيوانات الشمبانزي الماهرة تلك تدفع بالتطور الاجتماعي بصورة مطردة إلىٰ الأعلىٰ.

الغرب البري

ربما صدمت الرجل الفضائي رحلة العودة بعد مرور خمسين عامًا، فمن طرف إلىٰ آخر في المركز الغربي كانت الدول الأخرىٰ تتداعىٰ، والناس يتقاتلون ويتركون بيوتهم. وعلىٰ مدىٰ السنوات الألف التي تلت، أرسلت سلسلة من الاضطرابات (وهي كلمة تبدو محايدة، لكنَّها تشمل مجموعة بشعة من المجازر والبؤس والهروب والحاجة) الغرب في رحلة جامحة. وعندما نسأل مَن أو ما الذي عطَّل التطور الاجتماعي، فإنَّنا نحصل علىٰ جواب مذهل: كان التطور الاجتماعي نفسه هو الذي يستحق اللوم.

تُعدُّ إحدىٰ الوسائل الرئيسة التي يحاول بها الناس تحسين قدرهم دائمًا هي نقل المعلومات والبضائع وأنفسهم. فالشيء الوفير هنا قد يكون شحيحًا وقيِّمًا هناك. وكانت النتيجة هي شبكات أكثر تعقيدًا تربط المجتمعات ببعضها البعض، وتعمل علىٰ جميع مستويات المجتمع. ومنذ أربعة آلاف عام، امتلكت المعابد والقصور أفضل الأراضي، وبدلًا من تقسيمها علىٰ أسر الفلاحين بحيث تزرع كل منها كل ما تحتاجه، فقد احتفظت البيروقراطيات المركزية بهذه الأرض، وأملت علىٰ الناس ما يزرعون. وربما زرعت قرية ذات أراض زراعية خصبة القمح فقط، بينما قد ترعىٰ قرية علىٰ جانب التل نبات الكروم، وثالثة تتخصص في الصناعات المعدنية، ويستطيع البيروقراطيون إعادة توزيع المنتجات، حيث يغتنمون ما يحتاجون إليه ويخزنون بعضها لحالات الطوارئ، ويحزمون البقية كمؤن للمعيشة. وقد بدأ ذلك في أوروك بحلول سنة ٣٥٠٠ ق. م، وبعد ألف سنة أصبح ذلك هو القاعدة.

وقد أعطىٰ الملوك أيضًا بعضهم بعضًا هدايا للمصلحة الذاتية، وأعطىٰ فراعنة مصر الأغنياء بالذهب والحبوب هذه الثروات لحكَّام المدن اللبنانية الصغار الذين بادلوهم الهدايا بخشب الأرز الزكي الرائحة، حيث افتقرت مصر إلىٰ الخشب الجيد. وكان الإخفاق في تقديم هدية مناسبة بمثابة زلة كبيرة؛ إذ كان تبادل الهدايا متأصلًا في الحالة النفسية وحالة القلق مثلما كان في الاقتصاد، لكنَّه أدىٰ لانتقال السلع والناس والأفكار بفعالية كبيرة. وقد أصبح الملوك عند كل طرف من هذه السلاسل والكثير من التجَّار من الأغنياء.

وفي أوقاتنا هذه أصبحنا نميل إلىٰ الافتراض بعدم فعالية «الاقتصادات الموجَّهة» مع ملك أو ديكتاتور أو مكتب سياسي يخبر الجميع ما الذي يجب عليهم فعله، ولكن معظم الحضارات الأولىٰ كانت تعتمد عليها. وربما في عالم يفتقر إلىٰ الثقة والقوانين التي تجعل الأسواق تعمل، يمكن أن تكون أفضل خيار متاح، ولكنَّها لم تكن الخيار الوحيد، فقد ازدهر تجَّار متواضعون مستقلون إلىٰ جانب المؤسسات الملكية والكهنوتية، وقد تقايض الجيران مستبدلين الخبز بالجبن أو بالمساعدة في حفر مرحاض مقابل مجالسة طفل، وقد تاجر رجال المدن والدول في المعارض، وقام العمَّال المتجولون بتحميل القدور والطاسات علىٰ الحمير وكانوا يجوبون الطرق. وفي أطراف المملكة، حيث تلاشت الحقول المزروعة متحولة إلىٰ صحارٍ أو جبال، قايض القرويون الماشية بالخبز والأسلحة البرونزية، أو الرعاة بالحليب والجبن والصوف والحيوانات.

وأشهر حكاية علىٰ هذا تأتي من الكتاب المقدس العبري. فقد كان يعقوب راعيًا ناجحًا في التلال بالقرب من الخليل فيما يعرف الآن بالضفة الغربية، وكان له اثنا عشر ابنًا، ولكنَّه أعطىٰ الابن الحادي عشر علىٰ سبيل التفضيل -يوسف- معطفًا متعدد الألوان. وفي نوبة غلٍّ باع إخوة يوسف العشرة قرة عين أبيهم ذا الزي المبهرج لسيارة من تجَّار الرقيق المتجهة نحو مصر. وبعد بضع سنوات، عندما كان الطعام شحيحًا في الخليل، أرسل يعقوب أكبر عشرة من أبنائه لمصر لتجارة الحبوب. وقد كان الحاكمُ الذي قابلوه هناك هو أخاهم يوسف دون أن يعلموا، الذي علىٰ الرغم من أنَّه كان عبدًا، ارتفع شأنه في دائرة خدمة الفرعون

(بعد فترة في السجن بتهمة محاولة الاغتصاب، الذي كان مدبرًا بالطبع). وفي دليل ساطع علىٰ صعوبة معرفة متىٰ تثق في التجَّار، لم يُبدِ إخوته أية دهشة حين تظاهر يوسف المتنكر بالاعتقاد بأنَّهم كانوا جواسيس، وألقىٰ بهم في السجن. وتنتهي القصة بسعادة رغم ذلك؛ إذ ينتقل يعقوب وأبناؤه وجميع ماشيته إلىٰ مصر. «وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جدًا»، كما جاء في الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح ٤٧,٢٧.

من المحتمل أنَّ قصة يوسف كانت في القرن السادس عشر قبل الميلاد، في الوقت الذي كان الناس الذين لا نعرفهم الآن يتبعون النص نفسه لمدة ألفي عام. وكانت وجوه العموريين (Amorites) من أطراف الصحراء السورية والكوتيين (Gutians) من جبال إيران الذين يأتون كتجَّار وعمَّال - مألوفةً في مدن بلاد الرافدين، وكذلك الحال بالنسبة إلىٰ «الآسيوين» باستخدام مصطلح المصريين المتهكم الجامع، حيث كانوا مألوفين أيضًا في وادي النيل. وقد أدىٰ ارتفاع التطور الاجتماعي إلىٰ تشابك اقتصادات المراكز ومجتمعاتها وثقافاتها مع تلك التابعة للمناطق المجاورة، ممَّا أدىٰ إلىٰ توسيع المراكز وزيادة هيمنتهم علىٰ بيئاتهم، وزيادة التطور الاجتماعي. ولكن كان ثمن التعقيد المتزايد هو الهشاشة المتزايدة. كان ذلك وما يزال جزءًا أساسيًّا من مفارقة التطور الاجتماعي.

وفي حوالي عام ٢٢٠٠ ق. م، عندما حكم ابن الملك الإله نارام - سين وهو شاركاليشاري المتأله بالقدر نفسه معظم بلاد الرافدين من حجرة عرشه في أكاد، بدأ شيء ما يسير في الاتجاه الخاطئ، ويعتقد هارفي ويس (Harvey Weiss) -عالم الآثار من جامعة ييل، والذي قام بالتنقيب في موقع تيل ليليان في سورية- أنَّه يعلم ما هو ذلك الشيء. كانت تل ليليان مدينة يعيش فيها عشرون ألف شخص في زمن سارجون في سنة ٢٣٠٠ ق. م، ولكنَّها صارت مدينة أشباح بعد قرن من ذلك الزمان. وبحثًا عن تفسيرات، اكتشف علماء الجيولوجيا في فريق ويس من الدراسات المجهرية للرواسب أنَّ مقدار الأتربة في التربة في تل ليليان والمواقع المجاورة ارتفع بشكل حاد قبل سنة ٢٢٠٠ ق. م. وامتلأت قنوات الري بالطمي، علىٰ الأرجح بسبب انخفاض هطول الأمطار، ورحل الناس بعيدًا عنها.

وعلىٰ بُعد ألف ميل، في وادي النيل، حدث شيء خطأ أيضًا. في قصة يوسف اعتمد الفرعون علىٰ مفسري الأحلام للتنبؤ بالمحاصيل الزراعية، ولكنَّ الفراعنة الحقيقيين كان لديهم آلة تسمىٰ نيلوميتر أو «مقياس النيل»، والتي كانت تقيس فيضانات النهر وتعطي إنذارًا مسبقًا عن موسم الحصاد الجيد والسيئ. وتظهر النقوش التي سجلت بعض قراءاتها أنَّ الفيضانات انخفضت انخفاضًا حادًا في سنة ٢٢٠٠ ق. م تقريبًا. فقد كانت مصر أيضًا تجف.

بالعودة إلىٰ حوالي سنة ٣٨٠٠ ق. م دفع الطقس الجاف أوروك إلىٰ العظمة وأشعل الحروب التي وحدت مصر، ولكن في العالم الأكثر تعقيدًا واتصالًا في أواخر الألفية الثالثة قبل الميلاد، كانت هجرة مواقع مثل تل ليليان تعني أيضًا هجرة الأعمال التي اعتمد عليها العموريون والآسيويون. يبدو كما لو أنَّ إخوة يوسف قد أتوا إلىٰ مصر لشراء الحبوب فلم يلقوا أحدًا. وكان بإمكانهم العودة إلىٰ الخليل وإخبار أبيهم أنَّ عليه أن يموت جوعًا أو الاندفاع إلىٰ مناطق أبعد داخل أرض الفرعون حيث يتاجرون أو يعملون مقابل الغذاء عندما يتمكنون من ذلك، ويحاربون من أجل الغذاء أو يسرقونه عندما لا يتمكنون من فعل شيء.

وفي ظل ظروف أخرىٰ ربما قام الأكاديون والمصريون بذبح مصادر الإزعاج تلك (المهاجرين الاقتصاديين، اعتمادًا علىٰ وجهة نظرك)؛ ولكن بحلول سنة ٢٢٠٠ ق. م، كانت هذه القوات المسلحة نفسها تتفكك. واعتبر بعض سكان بلاد الرافدين ملوكهم الأكاديين غزاة قاسين، وعندما فشل شاركاليشاري المتأله افتراضيًا في مواجهة المشاكل التي قابلها في تسعينيات القرن الأول للألفية الثانية قبل الميلاد، توقفت العديد من أسر الكهنة عن التعاون معه. وتلاشت جيوشه، وأعلن جنرالاته أنفسهم ملوكًا بجهدهم الخاص، واستولت العصابات العمورية علىٰ مدنٍ بأكملها. وفي أقل من عقد من الزمان تفكَّكت الإمبراطورية. كانت كل مدينة قائمة بذاتها، كما عبَّر عنها مؤرخ سومري، «مَن كان الملك حينئذٍ؟ ومن لم يكن الملك؟».

في مصر كانت التوترات بين البلاط والطبقة الأرستقراطية تتصاعد، وأثبت الملك بيبي الثاني (Pepy II)، الذي اعتلىٰ العرش لمدة ٦٠ سنة، عدم كفاءته في

مواجهة التحديات. وبينما تآمر المقربون ضده وضد بعضهم البعض، تولَّت النخبة المحلية الشؤون في أيديهم. وبينما نصَّب الانقلاب أسرة حاكمة جديدة في صعيد مصر في حوالي سنة ٢١٦٠ ق. م، كان هناك العشرات من الأمراء المستقلين والجماعات الآسيوية يثورون حول الريف. والأسوأ من ذلك، أنَّ كبار الكهنة في معبد آمون في طيبة في صعيد مصر كانوا يتخذون ألقابًا أعلىٰ تدريجيًّا، منزلقين في النهاية داخل وخارج حرب أهلية مع فرعون الدلتا المصري.

وبحلول سنة ٢١٥٠ ق. م تقريبًا تفككت مصر وأكاد إلىٰ دويلات متناحرة، كل منها يحارب المجرمين وبعضها بعضًا من أجل حصص إنتاج الفلاحين المتقلصة. وازدهر بعض أمراء الحرب، ولكن النبرة العامة للنصوص القليلة التي ما زالت باقية حتىٰ الآن تبعث علىٰ اليأس. وهناك أيضًا مؤشرات علىٰ أنَّ الأزمة كان لها صدىٰ خارج المركز. من الصعب علىٰ الأثريين معرفة متىٰ ترتبط الأحداث في إحدىٰ المناطق بمنطقة أخرىٰ، وعلينا ألَّا نقلل قطُّ من قدر المصادفة، ولكن من الصعب عدم اكتشاف نمط أوسع في التدمير الناري لأكبر المباني في اليونان، ونهاية المعابد المالطية، والتخلي عن الحصون الساحلية في أسبانيا، والتي حدثت جميعًا بين سنة ٢٢٠٠ و٢١٥٠ ق. م.

لقد كانت الأنظمة الأكبر والأكثر تعقيدًا في المركز الغربي تعتمد علىٰ التدفقات المنتظمة للأفراد والسلع والمعلومات، وقد أفسدت التغيُّرات المفاجئة هذه الأشياء - مثل الطقس الأكثر جفافًا في تل ليليان أو شيخوخة بيبي. لم يكن علىٰ اضطرابات مثل الجفاف والهجرة بعد سنة ٢٢٠٠ ق. م أن تنتج الفوضىٰ، ولكنَّها خاطرت بالتاريخ علىٰ نحو فعَّال. وعلىٰ المدىٰ القصير علىٰ الأقل، فقد كان يمكن لأي شيء أن يحدث. ولو كان لبيبي مستشار مثل يوسف، فلربما استطاع تحويل الأوقات العصيبة لصالحه؛ ولو أبرم شاركاليشاري صفقات أفضل مع جنرالاته وكهنته ربما استمرت إمبراطوريته. وبدلًا من ذلك، كانت النتيجة الرئيسة في بلاد الرافدين هي أن مدينة أور استغلت انهيار أكاد لتؤسس إمبراطورية جديدة، وهي أصغر من أكاد لكنَّها معروفة لنا جيدًا؛ لأنَّ بيروقراطييها المُجبرين قد خلفوا الكثير من إيصالات الضرائب. وقد نُشرت منها ٤٠ ألفًا، والآلاف الأخرىٰ تنتظر الدراسة.

وقد أعلن شولجي، الذي اعتلىٰ عرش أور في سنة ٢٠٩٤ ق. م، نفسه إلهًا، وأسَّس لعبادة شخصيته. بل إنَّه أعطىٰ أور شكلًا موسيقيًّا جديدًا «ترنيمة شولجي»، مشيدًا بمهارته في كل شيء بدءًا بالغناء وانتهاءً بالتنبؤ؛ ممَّا جعله يبدو أشبه بشكل مقلق بديكتاتور كوريا الشمالية كيم چونغ الثاني، والذي كان مخرجًا للأفلام (قبل أن يرث الحكم، م). وعلىٰ الرغم من مواهب شولجي، فقد انهارت إمبراطوريته أيضًا في غضون بضع سنوات مَن وفاته في سنة ٢٠٤٧ ق. م. وفي ثلاثينيات القرن الأول للألفية الثانية قبل الميلاد أصبحت الإغارة مشكلة كبيرة لدرجة أن بنت مدينة أور سورًا طوله مائة ميل للإبقاء علىٰ العموريين خارجًا، ولكن في سنة ٢٠٢٨ ق. م بدأت المدن في الانسحاب من نظام أور الضريبي، وانهارت اقتصاديات الدولة في حوالي سنة ٢٠٢٠ ق. م. وفي تكرار لسقوط أكاد، شاعت المجاعات بينما حاول بعض الچنرالات مصادرة الحبوب لصالح أور، وأعلن آخرون أنفسهم مستقلين عنها. «لقد ملأ الجوع المدينة مثل الماء»، كما تخبرنا القصيدة السومرية «رثاء أور». «كان شعبها كما لو أنَّهم محاطون بالمياه، ويشهقون للتنفس. وكان الملك في قصره يتنفس بثقل، وحيدًا، وألقىٰ شعب أور بأسلحتهم . . .»، وفي سنة ٢٠٠٤ ق. م، نهب المغيرون أور ووضعوا آخر ملوكها في الأَسر.

وبينما تفكَّكت بلاد الرافدين، اتحدت مصر مرة أخرىٰ. فقد هزم كهنة طيبة في صعيد مصر، بوصفهم ملوكًا، منافسيهم الرئيسين في سنة ٢٠٥٦ ق. م، وهيمنوا علىٰ وادي النيل كله في سنة ٢٠٤٠ ق. م. وبحلول عام ٢٠٠٠ ق. م كان المركز الغربي يشبه كثيرًا ما فعله منذ ألف سنة حيث كانت مصر موحَّدة تحت حكم ملك إله، بينما انقسمت بلاد ما بين النهرين إلىٰ مدن مستقلة ذاتيًا تحت حكم ملوك هم في أفضل الأحوال مجرد أشباه آلهة.

وفي هذه المرحلة، منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، كشفت الرحلة الجامحة المشوشة للذهن التي قام بها المركز الغربي عن بعض القوىٰ الأساسية التي تقود التطور الاجتماعي. فليس التطور الاجتماعي هدية أو لعنة علىٰ البشرية تعطيها لنا صخرة كلارك أو يعطينا إياها فضائيو ڤون؛ إنَّه شيء نصنعه بأنفسنا، وليس

بأساليب من اختيارنا. وكما ذكرت في المقدمة، فإنَّ الخلاصة هي أنَّنا كسالىٰ وجشعون وجبناء، ودائمًا ما نبحث عن أسهل الطرق وأكثرها ربحًا أو أكثرها أمانًا لإنجاز الأشياء. فمن صعود أوروك إلىٰ توحيد طيبة لمصر قاد الكسل والجشع و/أو الخوف كل دفعة تصاعدية للتطور الاجتماعي. لكن لا يمكن بأي حال من الأحوال للناس أن يدفعوا بالأشياء علىٰ النحو الذي يحبونه؛ فكل دفعة تستند إلىٰ الدفعات التي سبقتها. فالتطور الاجتماعي تراكمي، وهو مسألة خطوات إضافية يتعيَّن اتخاذها بالترتيب الصحيح. لم يكن زعماء أوروك في حوالي سنة ٣١٠٠ ق. م ليستطيعوا أن ينظِّموا ذلك النوع من البيروقراطية التي تباهت بها أور تحت حكم شولجي في الألفية التي تلت أكثر من استطاعة ويليام الغازي من بناء الحواسيب في إنجلترا العصور الوسطىٰ. وكما يقول المثل اليانكي (مُنْتَمٍ إلىٰ شمال الولايات المتحدة الأمريكية، م) «أنت لا يمكنك الوصول إلىٰ هناك من هنا». فهذا النمط التراكمي يفسِّر أيضًا سبب بقاء تسارع الزيادة في التطور الاجتماعي: فكل ابتكار ينبني علىٰ سابقيه، ويساهم في بناء لاحقيه، بمعنىٰ أنَّه كلما ارتفع التطور الاجتماعي ازداد تسارع مواصلة ارتفاعه.

غير أنَّ الابتكار لم يحدث بسلاسة. فالابتكار يعني التغيير ممَّا يجلب الفرح والألم بمقادير متساوية. يخلق التطور الاجتماعي رابحين وخاسرين، وطبقات جديدة من الأغنياء والفقراء، وعلاقات جديدة بين الرجال والنساء والكبار والصغار؛ بل إنَّه يخلق مراكز جديدة بالكلية حين تمنح مزايا التخلف القوة لهؤلاء الذين كانوا مهمَّشين في السابق. ويتوقف نمو التطور الاجتماعي علىٰ ازدياد حجم المجتمعات، وازدياد تعقيدها واستعصائها علىٰ الإدارة، وكلما ازداد يخلق تهديدات أكبر لنفسه. ومن ثمَّ كانت المفارقة: يخلق التطور الاجتماعي القوىٰ نفسها التي تقوضه. وعندما تخرج تلك القوىٰ عن السيطرة - ولا سيما عندما تضاعف البيئة المتغيِّرة حالة عدم اليقين- فقد يتبع ذلك الفوضىٰ والخراب والانهيار، كما حدث في سنة ٢٢٠٠ ق. م. وكما سنرىٰ في الفصول التالية، تفسر مفارقة التطور الاجتماعي إلىٰ حدٍّ كبير لماذا لا يمكن أن تكون نظريات المدىٰ الطويل الحتمية صحيحةً.

عُصبة الإخوة

بالرغم من الفوضىٰ التي عمَّت المركز الغربي بعد سنة ٢٢٠٠ ق. م، فلم تكن تلك لحظة أفول نجم الغرب. فالانهيارات التي حدثت بعد سنة ٢٢٠٠ ق. م غير مُسجَّلة في الشكل رقم (٤ - ٢). وقد يقلِّل ذلك من حجم العراقيل، ومع ذلك، فهناك شيء واحد واضح للغاية: بحلول عام ٢٠٠٠ ق. م كان التطور الاجتماعي الغربي أعلىٰ بنحو (٥٠%) ممَّا كان عليه في سنة ٣٠٠٠ ق. م. وظلَّ التطور الاجتماعي في ارتفاع وصارت المجتمعات الغربية أكبر وأكثر تطورًا.

وتغيَّرت المراكز بطرائق أخرىٰ أيضًا. فلم يدَّعِ أي حاكم لبلاد ما بين النهرين بعد عام ٢٠٠٠ ق. م أنَّه إله، وحتىٰ في مصر فَقَد الفراعنة بعض بريقهم. وتصور تماثيل الألفية الثانية قبل الميلاد وأشعارها الفراعنةَ باعتبارهم محاربين منهكين ومصابين بخيبة الأمل أكثر من أولئك الذين في الألفية الثالثة. وفي عملية ذات صلة بالضرورة، تقلَّصت سلطة الدولة: فبالرغم من أنَّ القصور والمعابد ظلَّت مهمَّة، فقد غدت المزيد من الأراضي والتجارة الآن في أيدي القطاع الخاص.

ويُعدّ السبب الأهم في أن العراقيل لم تُرجع عقارب الساعة إلىٰ الوراء هو أنَّ المركز استمر في التوسُّع خلال الأزمة، جاذبًا إليه الأطراف التي وجدت مزايا جديدة في تخلفها وشقت طريقها إلىٰ المركز. ومن إيران إلىٰ كريت تبنَّىٰ الناس الطراز المصري والبابلي في القصور واقتصاديات إعادة التوزيع، نحو تخوم سائلة عنيفة في كثير من الأحيان وذات زراعة بعلية أو مطرية. وبصفة عامة، اعتمد ملوك تلك التخوم علىٰ القوة العسكرية أكثر من أولئك الذين في المراكز ذات

الزراعة المروية وكان ادِّعاؤهم الألوهية أقلَّ. وربما كان من الصعب أن تبدو إلهًا في حين أنَّ حكَّام مصر وسومر كانوا يبدون أكثر عظمة وفخامة.

ومرة أخرىٰ، أدىٰ ارتفاع التطور الاجتماعي إلىٰ تغيير معاني الجغرافيا. فقد كان الوصول إلىٰ حوض نهر كبير يعتبر حيويًا للتطور في الألفية الثالثة قبل الميلاد، ولكن في الألفية الثانية أصبح العيش علىٰ الطرف الشمالي للمركز القديم أكبر فائدة. قام الرعاة فيما يعرف الآن بأوكرانيا بتدجين الخيول في حوالي سنة ٤٠٠٠ ق. م، وبعد ألفي سنة بدأ مروضو الخيول علىٰ سهوب كازاخستان الحديثة في ربط هذه الحيوانات في عجلات حربية لكل منها عجلتان. ولم يشُكِّل رعاة قليلون يقودون عرباتهم في السهول مصدر قلق للمركز، ولكن إذا سيطر شخص ما لديه الموارد اللازمة للدفع مقابل آلاف العجلات الحربية علىٰ تلك العجلات، حينها تختلف القصة. لم تكن العجلات الحربية دبابات مُحطمة خلال صفوف العدو (بالطريقة التي يحب مخرجو ما يُعرف بأفلام «السيوف والصنادل» أن يصوروها)، ولكن الجيوش التي امتلكت قدرًا كبيرًا من العجلات سريعة الحركة التي يعتليها رماة استطاعت أن تجعل مباريات الدفع قديمة الطراز بين الجنود المشاة شيئًا من الماضي.

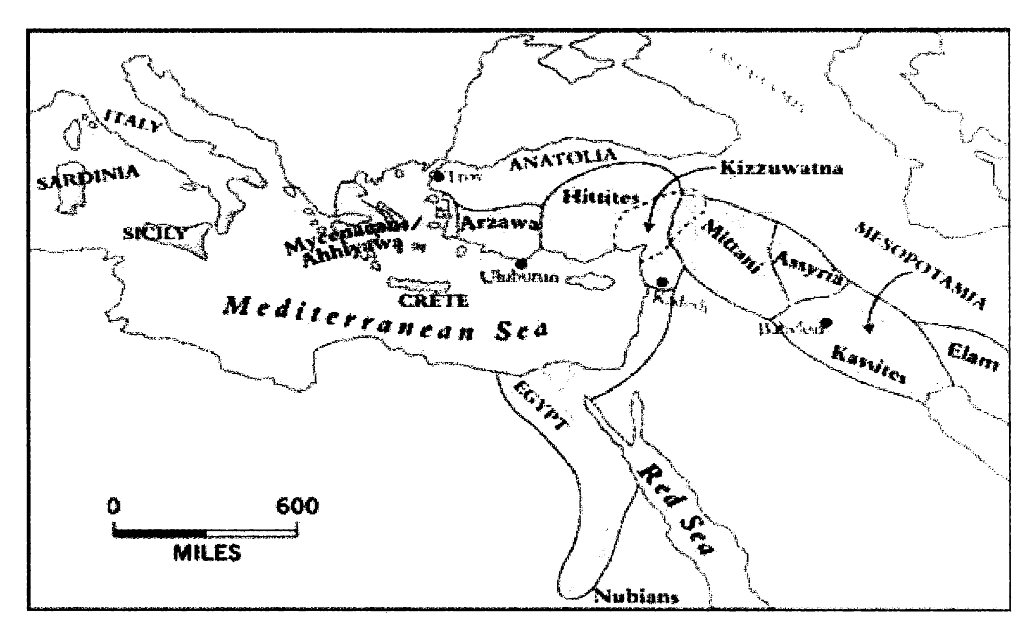
وتبدو مزايا العجلات الحربية واضحة، ولكن الجيوش التي أبلت بلاءً حسنًا مع نظام تكتيكي معيَّن غالبًا ما تكون بطيئة في تبنِّي نظام تكتيكي آخر. فإنشاء هيئة مُدرَّبة من قائدي العجلات الحربية كان سيلقي بالتراتبيّة الاجتماعية لجميع جيوش المشاة في فوضىٰ، ممَّا يمنح السلطة لنخبة جديدة تمامًا، وعلىٰ الرغم من أنَّ الأدلة غير متجانسة، فيبدو أنَّ المصريين والرافديين بتراتبيتهم الراسخة قد تبنّوا أنظمة المعارك الجديدة بتباطؤ شديد. وقد كانت الدول الشمالية الجديدة مثل «الحوريين» الغامضين الذين يبدو أنَّهم هاجروا إلىٰ شمال بلاد الرافدين وسورية من القوقاز بعد سنة ٢٢٠٠ ق. م، كانت أكثر مرونة. وقد أدت روابط الحوريين بالسهول إلىٰ سهولة الوصول إلىٰ الأسلحة الجديدة، وأدىٰ تراخي هيكلهم الاجتماعي إلىٰ وجود عوائق أقل أمام ذلك التبنِّي. ولم يكونوا هم ولا «الكيشيون» في غرب إيران، ولا « الحيثيون» في الأناضول ولا هكسوس إسرائيل

الحديثة والأردن ولا « الموكيانيون» في اليونان - منظَّمين مثلما كانت مصر أو مدينة بابل، ولكن لفترة معينة ظلَّ ذلك غير مهمّ؛ لأنَّ العجلات الحربية أعطت هذه الشعوب الطرفية سابقًا أفضلية في صناعة الحرب لدرجة تمكينهم من نهب أو حتىٰ السيطرة علىٰ جيرانهم الأغنياء والأكبر منهم. وتحرك الهكسوس بشكلٍ مطرد إلىٰ مصر مشيدين مدينتهم عام ١٧٢٠ ق. م، ومستولين علىٰ العرش في سنة ١٦٧٤ ق. م. وفي سنة ١٥٩٥م، اجتاح الحيثيون بابل وسرعان ما استولىٰ الكيشيون علىٰ مدن بلاد الرافدين. وبحلول سنة ١٥٠٠ ق. م، أسَّس الحوريون مملكة تدعىٰ «ميتاني»، وغزا الموكيانيون كريت (الشكل ٤ - ٤).

وكانت تلك أوقاتًا مضطربة، ولكن علىٰ المدىٰ البعيد، أدَّت الاضطرابات إلىٰ توسيع المركز، لا إلىٰ خفض التطور. وفي بلاد الرافدين كانت النتيجة الرئيسة للاستعباد والترحيل والمجازر وانتزاع الملكيات هي أنَّ المهاجرين الشماليين قد حلَّوا محلّ الحكَّام المحليين. وفي مصر، حيث طرد ثوار طيبة الهكسوس في عام ١٥٥٢ ق. م، لم يتغيَّر الكثير. ولكن بحلول عام ١٥٠٠ ق. م تبلورت الممالك الحديثة حول حافة المركز القديم، وارتفع تطورها الاجتماعي بسرعة لدرجة أنهم شقوا طريقهم إلىٰ تأسيس نسخة مكبَّرة من ذلك المركز. وغدت الدول العظمىٰ مترابطة بإحكام، لدرجة أنَّ المؤرخين يطلقون علىٰ الثلاثمائة سنة التي تلت ذلك: «العصر الأممي».

وانتعشت التجارة. وتمتلئ النصوص الملكية بذلك، وتُظهر رسائل القرن الرابع عشر في تل العمارنة في مصر ملوك بابل ومصر والدول القوية الحديثة لمملكة آشور، وميتاني والحيثيين يتصارعون علىٰ المناصب، ويطالبون بالهدايا، ويتزوجون الأميرات. وقد أوجدوا لغة دبلوماسية مشتركة وخاطب كل منهم الآخر باعتبارهم «إخوة» كما أطلقوا علىٰ حكَّام الدرجة الثانية المستبعدين من نادي القوىٰ العظمىٰ اسم «الحاشية»، ولكن كان من الممكن إعادة التفاوض بشأن الرتبة. فقد كانت بلاد الآخيين أو اليونان الميسينية التي عرفت في النصوص الحيثية باسم أهياوا "hhiyawa" (علىٰ الأرجح اليونان) -علىٰ سبيل المثال- قوةً عظمىٰ حدوديّة. ولا توجد رسائل أخيونية في أرشيف تل العمارنة، لكن عندما

أنشأ ملك حيثي قائمة تسمىٰ «الملوك المساوون لي في الرتبة» في معاهدة في القرن الثالث عشر، سمَّىٰ «ملك مصر: ملك بابيلونيا، وملك أهياوا»، ثمَّ أعاد التفكير فيها بشكل أفضل وحذف أهياوا من القائمة.



(موضع الشكل ٤ - ٤). عُصبة الإخوة: قيام ممالك العصر الأممي للمركز الغربي في سنة ١٣٥٠ ق. م، بعد أن التهم الحيثيون وميتاني كيزواتنا، ولكن قبل أن يدمر الحيثيون والآشوريون ميتاني. تبيِّن المناطق الرمادية في صقلية وسردينيا وإيطاليا أين عُثر علىٰ الآنية الفخارية الموكيانية اليونانية.

كلما كان علىٰ «الإخوة» العمل معًا، صارت المنافسة أقوىٰ. لقد سبَّب غزو الهكسوس في القرن الثامن عشر قبل الميلاد صدمة للنخبة المصرية، ممَّا أدىٰ إلىٰ تبديد شعورهم بأنَّ الصحاري الوعرة كانت تحميهم من الهجوم، وعزموا علىٰ منع تكرار ذلك، فقاموا بتحديث ميليشياتهم المتداعية إلىٰ جيش دائم مع ضباط محترفين وكتيبة عجلات حربية حديثة. وبحلول سنة ١٥٠٠ ق. م مدّوا ساحل البحر الأبيض المتوسط إلىٰ داخل سورية، مشيدين الحصون في طريقهم.

واندلع سباق تسليحٍ قديم بحلول سنة ١٤٠٠ ق. م. وبين عامي ١٣٥٠ و١٣٢٠ ق. م، سيطر الحيثيون والآشوريون علىٰ ميتاني. ودخلت آشور في حرب

أهلية بابلية، وبحلول سنة ١٣٠٠ دمَّر الحيثيون أرزاوا، وهي جارة أخرىٰ. وشنَّ ملوك الحيثيين ومصر حربًا باردة قاتلة، مليئة بالجواسيس والعمليات السريّة، للسيطرة علىٰ مدن سورية التي كانت تشبه الدولة. وفي سنة ١٢٧٤ ق. م اشتعل الأمر، واشتبكت أكبر الجيوش التي رآها العالم -ربما ثلاثون ألفًا من المشاة وخمسة آلاف عجلة حربية علىٰ كل جانب- في قادش. ووقع رمسيس الثاني الفرعون المصري في مصيدة. وفي ظلّ أنَّه إله، لم يمثل ذلك أي مشكلة بطبيعة الحال، وفي رواية سُردت علىٰ جدران ما لا يقل عن سبعة معابد، يخبرنا رمسيس أنه استمر علىٰ طريقة ثورة رامبو: التف صاحب الجلالة [رمسيس] حول قوة العدو الحيثي بأسرها [اسم آخر للحيثيين]، مع قادته وجميع أشقائه، وكذلك زعماء جميع الدول التي أتت معه، وتساقطت مشاتهم وعجلاتهم الحربية علىٰ وجوههم الواحد تلو الآخر. وقام جلالته بذبحهم في أماكنهم، وتبعثروا أمام خيوله، وكان صاحب الجلالة وحده، لا أحد معه».

وتوسَّل «القائد الحيثي الحقير»، كما قال رمسيس، طلبًا للسلام (ولا عجب أَّنه فعل ذلك).

إنَّ استخراج التاريخ العسكري من الكلمات الطنانة لملك متألهٍ أمرٌ خادع، ولكن كل دلائلنا الأخرىٰ تشير إلىٰ أنَّ رمسيس، علىٰ العكس من تباهيه، قد نجا بالكاد من كمين الإمبراطورية الحيثية في ذلك اليوم. وواصل الحيثيون تقدُّمهم علىٰ طول الساحل حتىٰ عام ١٢٥٨ ق. م، متوقفين فقط عند تجدد القتال مع كل من آشور في جبال جنوب شرق الأناضول ومع المغامرين اليونانيين علىٰ الساحل الغربي للأناضول. ويعتقد بعض المؤرخين أنَّ إلياذة هومر اليونانية -وهي الملحمة الشعرية التي كُتبت بعد خمسة قرون من ذلك الوقت- تعكس بخفوت حربًا في عشرينيات القرن الثالث للألفية الأولىٰ قبل الميلاد والتي حاصر فيها تحالف يوناني المدينة التابعة للحيثيين (طروادة)، وبعيدًا نحو الجنوب الشرقي، كان ثمة حصار آخر أكثر فظاعة، انتهىٰ في سنة ١٢٢٥ ق. م باجتياح آشور لبابل.

كانت تلك صراعات وحشية. وكانت الهزيمة تعني الهلاك - ذبح الرجال واستحياء النساء والأطفال للرق وتحويل المدن إلىٰ أنقاض والحكم عليها بأن

تصبح طي النسيان. ولذلك، فإن كل شيء كان يُضحىٰ به من أجل النصر. وظهر مزيد من النخب العسكرية، الذين كانوا أغنىٰ من أسلافهم بكثير، واتخذت نعراتهم الداخلية نماذج جديدة. وقام الملوك بتحصين قصورهم وشيَّدوا بأنفسهم مدنًا جديدة بالكامل، حيث لن تستطيع الرتب الأقل أن تزعج هدوءهم وسكينتهم. وارتفعت الضرائب والمطالبات بالسُخرة وتصاعدت الديون بينما استدان الأرستقراطيون لتمويل أنماط حيواتهم الرغدة، ورهن الفلاحون محاصيلهم للبقاء علىٰ قيد الحياة. لقد وصف الملوك أنفسهم بأنَّهم رعاة شعوبهم؛ إلَّا أنَّهم قضوا وقتًا أكثر في سلب قطعانهم أكثر من حمايتها، متصارعين للسيطرة علىٰ العمَّال وحمل الشعوب بأكملها علىٰ العمل في مشاريع البناء الخاصة بهم. ويُعدّ العبرانيون الكادحون في مدن الفرعون والذين هم أحفاد يعقوب الذين هاجروا إلىٰ مصر مع آمال كبيرة، هم أشهر تلك الشعوب المستعبدة.

نمت سلطة الدولة بعد سنة ١٥٠٠ ق. م، وتوسَّع معها المركز الغربي. وتدل صناعة الفخار التي صُنعت في اليونان والتي تم العثور عليها بالقرب من شواطئ صقلية وساردينيا وشمال إيطاليا، علىٰ أنَّ بضاعة أخرىٰ أعلىٰ قيمة (ولكن أقل قيمة أثريًا) كانت تقطع مسافات طويلة أيضًا. وقد استرجع الأثريون الذين غطسوا قبالة سواحل الأناضول لقطات مدهشة لآليات التجارة. فقد كان حطام سفينة في ألوبورون في حوالي سنة ١٣١٦ ق. م -علىٰ سبيل المثال- يحمل ما يكفي من النحاس والقصدير لصناعة عشرة أطنان من البرونز، وكذلك من خشب الأبنوس والعاج من أفريقيا الاستوائية والأرز من غابات لبنان والزجاج من سورية والأسلحة من اليونان وما يعرف الآن بإسرائيل؛ وباختصار، تم جمع القليل من كل شيء قد يجلب ربحًا، بضعة أشياء في كل مرة، في كل ميناء علىٰ طول مسار السفينة بواسطة طاقم سفينة غير متجانس مثل حمولة السفينة نفسها.

كما تم سحب شواطئ البحر الأبيض المتوسط إلىٰ المركز. وتدل المقابر الثرية التي تضم الأسلحة البرونزية علىٰ أنَّ رؤساء القرىٰ كانوا يتحوَّلون إلىٰ ملوك في جزيرتي ساردينيا وصقلية، وتُظهر النصوص أنَّ الشباب قد غادروا قُراهم في

هذه الجزر للبحث عن ثروات باعتبارهم مرتزقة في حروب المركز. وانتهىٰ الأمر بالمغادرين من ساردينيا في بابل وحتىٰ فيما يعرف الآن بالسودان، حيث اندفعت الجيوش المصرية نحو الجنوب للبحث عن الذهب، محطمةً الدول الأصلية ومشيِّدةً المعابد في طريقها. وفي مناطق أبعد من ذلك، كان الرؤساء في السويد يجري دفنهم مع عجلاتهم الحربية، أي رمز المكانة المطلق من المركز، وكانوا يستخدمون المعدات العسكرية المستوردة خصوصًا السيوف البرونزية الحادة في استخدامات مميتة.

وفي ظلّ تحوُّل البحر الأبيض المتوسط إلىٰ جبهة جديدة، أدىٰ ارتفاع التطور الاجتماعي مرة أخرىٰ إلىٰ تغيير معنىٰ الجغرافيا. وفي الألفية الرابعة قبل الميلاد أدىٰ ازدياد المدن والري إلىٰ تحويل أودية النهر الكبير في مصر وبلاد الرافدين إلىٰ أراضٍ ذات قيمة أعلىٰ من المركز القديم في منطقة هيلي فلانكس، وفي الألفية الثانية أدىٰ ازدياد نشاط حركة تجارة المسافات الطويلة إلىٰ الوصول إلىٰ الممرات المائية للبحر المتوسط الأكثر قيمة. وبعد سنة ١٥٠٠ ق. م، دخل المركز الغربي المضطرب عصرًا جديدًا تمامًا من التوسُّع.

كثيرًا ما يعاني علماء الآثار من داء أحب أن أسميه «حسد مصر». بغض النظر عن المكان الذي نحفر فيه أو ما نبحث عنه، فنحن نظن دومًا أننا سنجد أشياء أفضل لو كنا نحفر في مصر. لذا فمن المريح أن نعرف أنَّ «حسد مصر» يؤثر في الناس في جميع مناحي الحياة الأخرىٰ أيضًا. في عام ١٩٩٥م قام مستشار الدولة سونغ جيان -أحد أبرز المسؤولين العلميين الصينيين- بزيارة رسمية إلىٰ مصر. ولم يكن سعيدًا عندما أخبره علماء الآثار أنَّ أثرياتها أقدم من أثريات الصين؛ لذا في أثناء العودة إلىٰ بكين قام بإطلاق «مشروع كرونولوجيا السلالات الثلاث» لبحث المسألة. وبعد قضاء أربع سنوات وإنفاق ٢ مليون دولار تم إعلان النتائج: الآثار المصرية فعلًا أقدم من آثار الصين. ولكننا الآن علىٰ الأقل نعرف بالضبط مقدار الفرق.

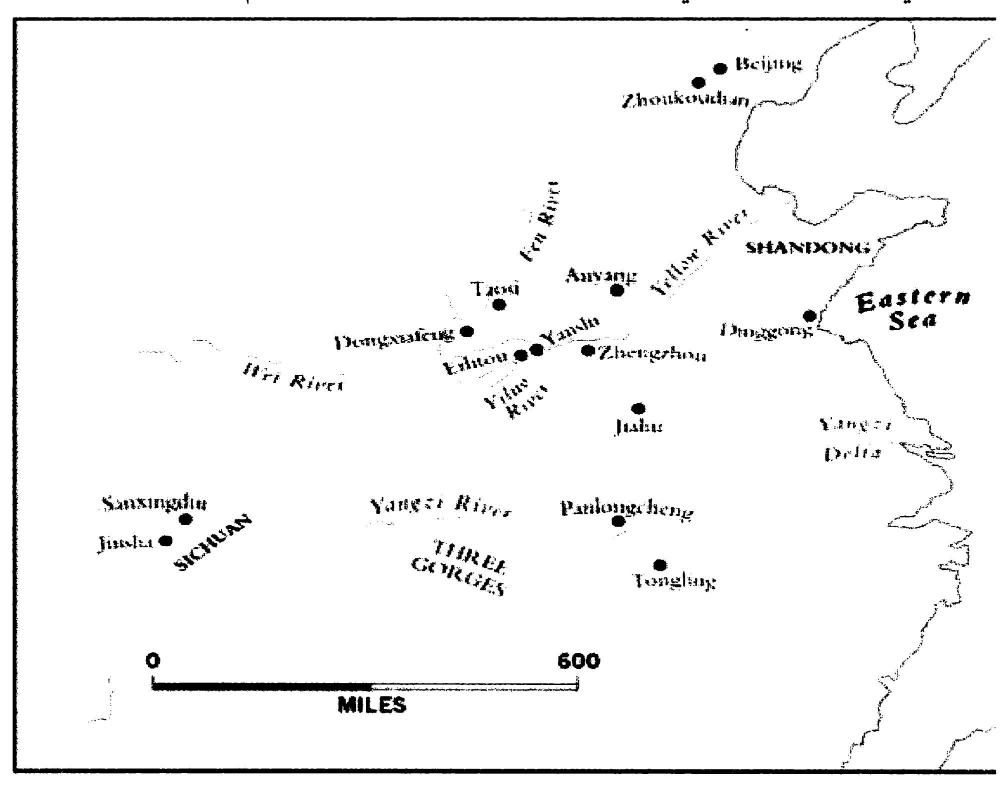
وكما رأينا في الفصل الثاني، بدأت أساليب الحياة الزراعية في التطور في الغرب في حوالي سنة ٩٥٠٠ ق. م، أي قبل ألفي سنة من الصين. وبحلول سنة ٤٠٠٠ ق. م انتشرت الزراعة في المناطق الطرفية مثل مصر وبلاد الرافدين، وعندما تحوَّلت الرياح الموسمية جنوبًا بعد سنة ٣٨٠٠ ق. م، أنشأ هؤلاء المزارعون الجُدد هذه المدن والولايات من أجل المحافظة علىٰ النفس. كان لدىٰ الشرق الكثير من المناطق الطرفية الجافة أيضًا، ولكن لم تصلها الزراعة حتىٰ سنة ٣٨٠٠ ق. م؛ ولذا لم يؤدِ وصول الطقس البارد والجاف إلىٰ قيام المدن والدول. بل ربما جعل الحياة أيسر بالنسبة إلىٰ القرويين بجعل أودية نهر يانجتسي الدافئة والرطبة وأودية النهر الأصفر أكثر جفافًا وأكثر طواعية. وكما هو صعب

التصور اليوم، فقد كان وادي النهر الأصفر في الغالب غابة شبه مدارية في حوالي سنة ٤٠٠٠ ق.م؛ حيث تنهم الفيلة فيما يُعدّ الآن شوراع بكين المختنقة بالسيارات.

وبدلًا من الانتقال إلىٰ مدن ودول مثل مصر وبلاد الرافدين، شهدت الصين في القرن الرابع قبل الميلاد نموًا سكانيًا عاديًا وبشكل مطرد. حيث أزيلت الغابات وأُنشئت قرىٰ جديدة، وازدهرت القرىٰ القديمة لتصبح مدنًا. وبقدر ما أبلىٰ الناس بشكل أفضل في امتلاك الطاقة وتسخيرها بقدر ما تضاعفوا ووضعوا ضغطًا أكبر علىٰ أنفسهم. وبالتالي مثل الغربيين، فقد غيَّروا وجربوا، موجدين سُبلًا جديدة لاعتصار المزيد من التربة، وتنظيم أنفسهم علىٰ نحو أكثر فعالية، وللحصول علىٰ ما يريدونه من الآخرين. ونشأت التحصينات الكثيفة من الأرض المدقوقة حول المواقع الأكبر ممَّا يشير إلىٰ الصراع، وشُيِّدت بعض المستوطنات بطرق أكثر تنظيمًا ممَّا يشير إلىٰ التخطيط علىٰ صعيد المجتمع المحلي. أصبحت المنازل أكبر، وصرنا نجد أشياءَ أكثر فيها، في إشارة إلىٰ المستوىٰ المعيشي المرتفع ببطء؛ لكن الاختلافات بين المنازل زادت أيضًا، ربما يعني ذلك أنَّ الفلاحين الأكثر ثراءً كانوا يميِّزون أنفسهم عن جيرانهم. ويعتقد بعض علماء الآثار أن توزيع الأدوات داخل المنازل يكشف عن التمييزات الجندرية الناشئة أيضًا. وفي أماكن قليلة، ولا سيما شاندونغ (الشكل ٤,٥)، وجدَ بعض الناس -وأغلبهم من الرجال- مثواهم الأخير في مقابر كبيرة مع قرابين وهبات أكثر من غيرهم، كما أنَّ بعضهم كان لديه زينة من الأحجار الكريمة منقوشة ومتطورة.

وبقدر كون تلك الأحجار جميلة، فإنَّه لا بُدَّ أن الأمر ما زال صعبًا علىٰ الأثريين المنقبين في المواقع الصينية التي يعود تاريخها إلىٰ حوالي سنة ٢٥٠٠ ق. م أن يتجنبوا الشعور المفاجئ الغريب بحسد مصر. وهم لا يجدوا أهرامات كبيرة أو نقوشًا ملكية. والواقع أن اكتشافاتهم هذه تبدو مثل ما يعثر عليه علماء الآثار في المواقع في المركز الغربي التي يعود تاريخها إلىٰ سنة ٤٠٠٠ ق. م، قبيل ظهور أولىٰ المدن والدول. لقد كان الشرق يسير علىٰ درب الغرب نفسه، ولكنَّه كان متأخرًا عن الغرب علىٰ الأقل بخمس عشرة سنة. ومن خلال الالتزام

بجدول زمني محدد، الفترة ما بين ٢٥٠٠ و٢٠٠٠ ق. م، مرَّ الشرق بتحولات مثل التي اعترت الغرب في الفترة ما بين ٤٠٠٠ و٣٥٠٠ ق. م.



(موضع الشكل ٤ – ٥). توسُّع المركز الشرقي (٣٥٠٠ - ١٠٠٠ ق. م): المواقع المذكورة في هذا الفصل.

وعلىٰ طول وديان النهر العظيم تسارعت وتيرة التغيير، ولكن ظهر نمط مثير. فلم تنشأ أسرع التغييرات في أوسع السهول ذات التربة الأغنىٰ ولكن في مساحات ضيقة، حيث كان من الصعب علىٰ الناس أن يهربوا ويجدوا مساكن جديدة في حالة ما إذا خسروا الصراعات علىٰ الموارد داخل القرىٰ أو خسروا الحروب بين بعضهم البعض. فعلىٰ أحد السهول الصغيرة في شاندونغ -علىٰ سبيل المثال- عثر الأثريون علىٰ نمط استيطان جديد تشكل بين (٢٥٠٠ و٢٠٠٠ ق. م). ونشأت مدينة واحدة كبيرة، يعيش فيها خمسة آلاف مواطن تقريبًا ومحاطة ببلدات أصغر تابعة لها. وقد عثرت الاستطلاعات حول «سوسا» بجنوب

غرب إيران علىٰ نمط مماثل هناك منذ حوالي خمسمائة سنة، ولعل هذا يكون الحال دائمًا عند فوز طائفة بالسيطرة السياسية.

وبالحكم من منظور الوداع الفخم الذي حصل عليه بعض الرجال في جنائزهم، فإنَّ الملوك الحقيقين قد كانوا يكدحون لتحسين مكانتهم في شاندونغ بعد سنة ٢٥٠٠ ق. م. فقليل من القبور يتضمن أحجارًا كريمة مدهشة حقًا، وإحدىٰ المقابر فيها غطاء تركوازي للرأس يشبه التاج إلىٰ حد كبير. أما أبرز المكتشفات فهي كِسرة متواضعة من إناء خزفي من دينجونج. وعندما خرجت هذه الشظية الخزفية الرمادية لأول مرة من الأرض، ألقىٰ بها الحفارون في دلو مع المكتشفات الأخرىٰ، ولكن عندما كانوا يقومون بتنظيفها مرة أخرىٰ في المعمل وجدوا عليها ١١ رمزًا منقوشًا علىٰ سطحها يرتبط بالمخطوطات الصينية اللاحقة؛ إلَّا أنَّها تختلف عنها. وتساءل المنقبون: هل هذه الرموز رأس صغير ظاهر لجبل جليدي مختبئ من الكتابة المنتشرة علىٰ المواد القابلة للهلاك؟ وهل كان لملوك شاندونغ بيروقراطيون يديرون شؤونهم، مثل حكَّام أوروك في بلاد الرافدين قبل ألف عام؟ ربما، ولكن يتساءل علماء آثار آخرون -يشيرون إلىٰ الطريقة غير الاعتيادية في تعريف النقش- عمَّا إذا كان النقش مؤرخًا بشكل خاطئ أو كان حتىٰ مزيفًا. المزيد من الاكتشافات هي التي ستوضح الأمر. وسواء تمَّت كتابة ذلك أم لا، فقد كانت مجتمعات شاندونغ قوية بكل تأكيد. وبحلول عام ٢٢٠٠ ق. م، كانت القرابين البشرية شائعة، وحظيت بعض القبور بعبادة الأسلاف.

مَن كان أولئك الناس العظماء؟ ربما يوفر «تاوسي» -وهو موقع علىٰ بُعد أربعمائة ميل في وادي نهر فين- بعض الأدلة. فهو يُعدّ بمثابة أكبر مستوطنة معروفة تعود لتلك الأزمنة، ربما يعيش بها عشرة آلاف نسمْة. وربما كان يدعم أحد أوائل القصور في الصين رصيف من التربة المدكوكة، علىٰ الرغم من أنَّ الدليل المباشر الوحيد علىٰ ذلك هو جزء مزيَّن من حائط مهدم عُثر عليه في حفرة (وسأعود إلىٰ هذه المسألة سريعًا).

تمَّ التنقيب عن الآلاف من أماكن الدفن في «تاوسي» وهي تشير إلىٰ تراتبيّة اجتماعية حادة. فحوالي تسعة من بين كل عشرة قبور كانت صغيرة مع قرابين

قليلة. وحوالي واحد من كل عشرة كان أكبر، ولكن واحدًا من بين مائة تقريبًا (دائمًا من الذكور) كان ضخمًا. وضمت بعض القبور الضخمة مائتي قربان، تشمل زهريات مطلية بتنانين، وحُليًّا من الأحجار الكريمة، وخنازير كاملة، تم التضحية بها ولم تؤكل. وفي تشابه لافت مع چياهو، وهي المقبرة التي تعود إلىٰ ما قبل التاريخ والتي نوقشت في الفصل الثاني، فإنَّ أغنىٰ المقابر نفسها احتوت علىٰ آلات موسيقية: طبول من الطين أو الخشب وعليها جلود تماسيح وأجراس حجرية كبيرة، وجرس غريب الشكل من النحاس.

عندما تحدثتُ عن چياهو في الفصل الثاني، ذكرتُ نظرية العالِم الأثري كوانغ تشي تشانغ عن أنَّ الملوك الشرقيين تطوروا من كهنة ما قبل التاريخ الذين استخدموا الكحول والموسيقىٰ والطقوس المتكررة لإقناع أنفسهم (وغيرهم) أنَّهم كانوا يسافرون إلىٰ عوالم الأرواح ويتحدثون إلىٰ الأجداد والآلهة. لم تكن چياهو قد أُستكشفت بعد عندما كشف تشانغ عن هذه الفكرة، وكان بإمكانه تتبع الأدلة بالعودة فقط إلىٰ حوالي سنة ٣٥٠٠ ق. م، ولكن بالإشارة إلىٰ تاوسي ومواقع مماثلة، أشار تشانغ إلىٰ أنَّه في الفترة ما بين (٢٥٠٠ و٢٠٠٠ ق. م) تبلورت رموز الصين الدينية والملكية. وبعد حوالي ألفي سنة كان كتاب (Rites of Zhou) أو «طقوس چو» -وهو دليل كونفوشيوسي عن الطقوس والشعائر الدينية- لا يزال يعدِّد جميع أنواع الآلات الموجودة في مقابر تاوسي باعتبارها مناسبة لطقوس النخبة.

واعتقد تشانغ أنَّ الكتابات الأخرىٰ التي صدرت في نفس وقت صدور كتاب «طقوس چو» تكشف أيضًا عن ذكريات فترة ما قبل عام ٢٠٠٠ ق. م. ولعلَّ أحد أهم المقاطع والأكثر غموضًا يأتي من كتاب (Springs and Autumns of Mr. Lü) أو «ربيع مستر لو وخريفه»، وهو دراسة معرفية مفيدة جُمعت في سنة ٢٣٩ ق. م بواسطة لو بويي رئيس وزراء دولة تشين. أعلن لو قائلًا: **«إنَّ طريق الجنة دائري، بينما طريق الأرض مربع**. وقد اتخذ الملوك الحكماء ذلك باعتباره نموذجًا لهم». وقيل إنَّ الملوك الحكماء هم سليلو الإله الأعلىٰ (دي)، مع وجود افتراض بأنَّ آخر هؤلاء الملوك الحكماء (يو)، قد أنقذ البشرية من خلال حفر قنوات صرف

عندما فاض النهر الأصفر. وجاء في نص آخر: «ولكن بحسب يو، كان يجب أن نكون أسماكًا». وتستمر القصة حيث تحكي بأنَّ الشعب الممتن قد نصب «يو» ملكًا، وهو الذي أسَّس أول السلالات البشرية بالكامل في الصين، سلالة شيا.

وآمن «لو بويي» بدقة كتابه، وحسبما ذُكر فقد قام بتعليق ألف قطعة ذهبية فوق الكتاب خارج السوق الرئيسة في المدينة، وعرض تلك الأموال علىٰ أي شخص يمكن أن يوضح أنَّ الكتاب بحاجة إلىٰ إضافة، أو إزالة كلمة واحدة. (ولحسن الحظ أنَّ الناشرين لا يطلبون ذلك من المؤلفين الآن)، ولكن رغم إيمان لو المؤثر، يبدو أنَّ الملك «يو» كان ذا مصداقية مثل نوح، النسخة الغربية من الرجل الصالح الذي أنقذ البشرية من الفيضانات. ويعتقد معظم المؤرخين أنَّ الملوك الحكماء هم محض خيال. ولكن كوانغ تشي تشانغ أشار إلىٰ أنَّ كتاب «لو» قد احتوىٰ علىٰ معلومات حقيقية وإن كانت محرَّفة، عن نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد، وهو العصر الذي تشكَّلت فيه ما يشبه الملكية في الشرق.

ورأىٰ تشانغ وجود رابط بين كل من قصة «لو» عن اتخاذ الملوك الحكماء دوارنيّة السماء ومربعيّة الأرض باعتبار ذلك نموذجًا، وبين الكونج، وهو نوع من الأوعية المصنوعة من الأحجار الكريمة التي ظهرت في مقابر الأثرياء في منطقة دلتا نهر اليانجتسي في حوالي سنة ٢٥٠٠ ق. م، ثمَّ انتشرت إلىٰ تاوسي ومواقع أخرىٰ. والكونج هي عبارة عن قالب مربع من الأحجار الكريمة مع فتحة أسطوانية مثقوبة بداخله، حيث يمثِّل كل من الدائرة والمربع اتحاد السماء والأرض. وظلَّ رمز المربع والدائرة شعارًا فعَّالًا للسلطة الملكية حتىٰ سقوط آخر سلالة حاكمة في الصين في عام ١٩١٢م. وإذا تعاملت مع حشود الناس في المدينة المحرمة في بكين ودققتَ النظر في الأثاثات الداخلية للقصور، سترىٰ الرموز نفسها -قاعدة مربعة للعرش وسقفًا دائريًا- بشكل مكرر.

وقد أشار تشانغ إلىٰ أنه ربما بقيت ذكريات الملوك الكهنة القدامىٰ إلىٰ عهد «لو»، وهم الرجال الذين ادَّعوا الانتقال بين هذا العالم وعالم الأرواح واستخدموا كونج ليرمزوا إلىٰ سلطتهم. وأطلق تشانغ علىٰ السنوات من ٢٥٠٠ إلىٰ ٢٠٠٠ ق. م: «عصر حجر كونج الكريم»، وهي الفترة التي انضمت فيها

قوىٰ الشامانية إلىٰ قوىٰ السياسة وعندما بزغت للوجود طبقة نخبوية مستندة إلىٰ احتكارها الشاماني. لقد كان أروع أحجار كونج بالتأكيد هي الكنوز الملكية، وأطلق علماء الآثار (الذين لا تمثِّل دعاباتهم إلَّا شيئًا متوقعًا) علىٰ أكبر مثال عليها والتي نُقش عليها صور لأرواح وحيوانات - اسم كينج كونج.

ولو كان تشانغ محقًا، فقد حوَّل المتخصصون الدينيون أنفسهم إلىٰ نخبة حاكمة بين عامي (٢٥٠٠ و٢٠٠٠ ق. م)، كما فعلوا في بلاد الرافدين منذ ألف سنة ونيف، مع استعمالهم لأحجار كريمة وموسيقىٰ ومعابد علىٰ منصات من التربة المدكوكة باعتبارها مكبرات صوت لرسائلهم إلىٰ الآلهة. وضمَّ أحد المواقع ضريحًا صغيرًا (عرضه ٢٠ قدمًا فقط، وعلىٰ منصة منخفضة) علىٰ شكل حجر كونج.

وبحلول سنة ٢٣٠٠ ق. م، كانت تاوسي تبدو وكأنها أوروك في مرحلة البناء، مكتملة بالقصور والمنصات وزعماء في طريقهم لأن يصبحوا متألهين. ثمَّ فجأة لم تصبح كذلك. فقد دُمر هذا المُجمَّع السكني النخبوي، وهذا هو السبب وراء كون الأثر الوحيد لأحد القصور جزءًا من جدار مطلي عُثر عليه في مقلب للقمامة، وهو الذي أشرت إليه آنفًا. وقد أُلقىٰ بنحو ٤٠ هيكلًا عظميًا، بعضها ممزق أو بأسلحة عالقة فيها، في حفرة حيث شُيِّد القصر، كما نُهبت بعض أكبر القبور في المدافن. وانكمشت تاوسي إلىٰ نصف حجمها السابق، ونشأت مدينة جديدة علىٰ بُعد بضعة أميال قليلة.

أحد الأشياء المحبطة في علم الآثار هو أننا نرىٰ نتائج ما قام به الناس وليس دوافعهم. وبإمكاننا أن نؤلف قصصًا (لقد أحرق البربريون تاوسي! دمرت الحرب الأهلية تاوسي! أدَّت النزاعات الداخلية إلىٰ انقسام تاوسي لجزأين! سيطر جار جديد علىٰ تاوسي! وهلم جرًّا)، ولكن من النادر معرفة أي منها هو الصحيح. وفي حالتنا هذه، فإنَّ أفضل ما يمكننا عمله هو أن نلاحظ أن سقوط تاوسي كان جزءًا من عملية أوسع نطاقًا. بحلول عام ٢٠٠٠ ق. م، هُجر أكبر المواقع في شاندونغ أيضًا، وتدنىٰ عدد السكان عبر شمال الصين، وفي الوقت نفسه كان كل من الجفاف والمجاعة والانهيار السياسي قد أنهك مصر وبلاد

الرافدين. هل كان يمكن لتغيُّر المناخ أن يجلب أزمة علىٰ مستوىٰ العالم القديم؟

لو سجَّلت تاوسي مستويات الفيضان بمقياس نهري مثل النيلوميتر في مصر، أو قام الأثريون الصينيون بدراسات كتلك التي في تل ليلان في سورية؛ فلربما أمكننا حينئذٍ البت في الأمر، ولكنَّ هذه الأنواع من الأدلة غير موجودة. ربما يمكن أن نبحث في السرديات الأدبية المكتوبة بعد ألفي سنة من هذه الأحداث للحصول علىٰ معلومات، ومع ذلك كما حدث مع قصص الملوك الحكماء، فلا يمكننا أن نعرف قدر علم مؤلفيها بهذه العصور القديمة.

ويحكي كتاب «ربيع مستر لو وخريفه»: «في عهد يو، كانت هناك عشرة آلاف زعامة (guo) تحت السماء». وبترجمة "uo"لتصبح «زعامة» -وهي وحدة سياسية صغيرة تقوم علىٰ مدينة مسوَّرة- يعتقد العديد من علماء الآثار أنَّ هذا الوصف يُعدّ وصفًا جيِّدًا لوادي النهر الأصفر في الفترة ما بين (٢٥٠٠ و٢٠٠٠ ق. م). ويستمر بعض العلماء في المجادلة بأنَّه كان هناك فعلًا ملكٌ يُدعىٰ «يو» أنهىٰ عصر العشرة آلاف زعامة وفرض حُكم سلالة شيا. وتوفر المصادر الأدبية أيضًا سببًا مناخيًا، وبدلًا من الحديث عن الجفاف نتيجة الرياح الترابية علىٰ طراز بلاد الرافدين؛ فإنَّهم يتحدثون عن أمطار غزيرة في تسع من بين كل عشر سنوات، وهذا هو السبب الذي احتاج من أجله «يو» إلىٰ تجفيف وادي النهر الأصفر. ومن المؤكد أن شيئًا مثل ذلك كان من الممكن أن يحدث؛ فمنذ عقدين مَضَيَا، عندما بدأ النهر الأصفر يجف في بعض الأماكن، أطلق الناس علىٰ النهر اسم «حزن الصين»؛ لأنَّه كان يفيض معظم السنوات ويغيِّر مساره في المتوسط مرة كل قرن، مدمرًا أو قاتلًا الآلاف من الفلاحين.

ربما قصة يو مبنيّة علىٰ كارثة حقيقية حدثت في حوالي سنة ٢٠٠٠ ق. م. أو ربما هي مجرد حكاية شعبية. نحن ببساطة لا نعرف. ومرة أخرىٰ، في حين أنَّ أسباب التغيير غامضة، فإن آثاره واضحة. فبينما تعافت مدن شاندونغ ووادي فين بحلول عام ٢٠٠٠ ق. م (أصبح لدىٰ تاوسي منصة ضخمة يبلغ طولها ٢٠ قدمًا ويبلغ عرضها مائتي قدم)، بدأ مفعول مزايا التخلف -المهمَّة في التاريخ

الغربي- يظهر الآن، وبدأت آثار أكثر إدهاشًا تملأ وادي ييلو (Yiluo Valley) الذي كان كاسدًا من قبل.

نحن ليس لدينا ما يكفي من الأدلة لمعرفة السبب، لكن سكَّان وادي ييلو لم يقلدوا تاوسي ببساطة. وبدلًا من ذلك، فقد أنشؤوا طرازًا معماريًا جديدًا، فاستبدلوا المباني الكبيرة التي كانت تسهل رؤيتها والتقرب منها من جميع الزوايا، والتي كانت معتادة منذ آلاف السنين في شمال الصين، بقصور صغيرة المساحة باحاتها مُحاطة بممرات مسقوفة مع أماكن دخول قليلة. ثمَّ قاموا بتحصين القصور خلف أسوار عالية من التربة المدكوكة. ويُعدّ تفسير الفن المعماري أمرًا محيرًا، ولكن طراز وادي ييلو قد يعني أنَّ العلاقات بين الحكَّام والمحكومين قد تحوَّلت في اتجاهات جديدة وربما أكثر تراتبيّة، بينما انتشرت القيادة الكهنوتية إلىٰ الحدود السائلة في وادي ييلو.

وربما نفكر في ذلك باعتباره لحظة تميُّز أوروك الشرقية، عندما ترك مجتمع واحد كل المنافسين وراءه، وتحوَّل إلىٰ دولة ذات حكَّام بإمكانهم استخدام القوة لفرض قراراتهم ورفع الضرائب علىٰ رعاياهم. وكان ذلك المجتمع هو «إيرلتو» (Erlitou)، الذي انفجر إلىٰ مدينة حقيقية يعيش فيها ٢٥ ألف نسمة بين عامي (١٩٠٠ و١٧٠٠ ق. م). ويعتقد كثير من الأثريين الصينيين أن إيرلتو كانت عاصمة سلالة شيا التي أسَّسها الملك الحكيم يو. ويختلف العلماء غير الصينين بالكلية مع ذلك، مشيرين إلىٰ أنَّ المراجع الأدبية التي تتحدث عن سلالة شيا بدأت بعد ألف سنة من هجر إيرلتو. ويشيرون إلىٰ أنَّه ربما تمَّ اختلاق كل من سلالة شيا والملك يو. ويتهم هؤلاء المنتقدون الباحثين الصينيين بأنَّهم في أفضل الأحوال ساذجون حيال الأساطير، وفي أسوأ الأحوال، بأنَّهم يروجون لبروباجندا خاصة من أجل تعزيز الهوية الوطنية للصين الحديثة بإرجاع أصولها إلىٰ العصور القديمة قدر الإمكان. وليس من الغريب أن تصبح تلك الجدالات بذيئةً.

هذا الجدال في الغالب هامشي بالنسبة إلىٰ المسائل التي نناقشها هنا، ولكننا لا نستطيع أن نتجنبه تمامًا. وبرأيي، فأنا أميل إلىٰ الشكّ في وجود سلالة شيا، وأنَّ عاصمتهم كانت إيرلتو، وحتىٰ لو كانت القصص عن الملك «يو»

قصصًا شعبية إلىٰ حد كبير. وكما سنرىٰ في القسم التالي، كلما أمكن التحقق من صحة ذلك، فمن الواضح أنَّ المؤرخين الصينيين اللاحقين قد أبلوا بلاءً حسنًا في نقل الأسماء، فأنا لا يمكنني أن أتخيَّل أنَّ أسماءً مثل يو وشيا قد تمَّ اختلاقها بالكلية.

وأيًا كانت الحقيقة، فقد استطاع يو أو سلالة شيا أو أيًا مَن حَكَم إيرلتو أن يقود العمَّال علىٰ نطاق جديد كليًا، فبنىٰ سلسلة من القصور وربما معبدًا مرتبطًا بالأجداد علىٰ منصات من التربة المدكوكة علىٰ الطراز الجديد صغير المساحة. وربما استغرق إكمال منصة واحدة تدعم القصر الأول مائة ألف يوم من العمل. وعلىٰ بُعد ربع ميل منها اكتشف الأثريون ركامًا معدنيًا وبوتقات وقوالب من البرونز عبر فدانيْن. لقد كان النحاس معروفًا منذ سنة ٣٠٠٠ ق. م، ولكنَّه ظلَّ لأمد طويل شيئًا مبتكرًا يُستخدم غالبًا في الحليّ. عندما تأسست إيرلتو في سنة ١٩٠٠ ق. م تقريبًا، كانت الأسلحة البرونزية لا تزال نادرة، وظلَّ كل من الحجارة والعظام والصدفيات اعتياديًا بالنسبة إلىٰ الأدوات الزراعية في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد. ولذا فإنَّ تأسيس إيرلتو قد مثّل قفزة كميّة في النشاط الحِرَفي المبكر. فقد أنتج ذلك أسلحة وأدوات الحرفيين التي لا بُدَّ وأنها ساعدت في نجاح المدينة، بل أنتج أيضًا أغراضًا شعائرية مميزة - أجراسًا مثل المثال السابق في تاوسي، ولوحات ذات عيون من الفيروز وحيوانات وأبواقًا وآنية يبلغ قطرها قدمًا أو أكثر. وأصبحت الأشكال المخترعة في إيرلتو (الأوعية ذات الثلاثة قوائم، ومراجل دينج والأكواب ذات الثلاثة قوائم والأباريق لتدفئة النبيذ) أضخم مكبرات للرسائل الدينية، ممَّا أدىٰ إلىٰ استبدال الكونج الحجري والهيمنة علىٰ الطقوس الدينية علىٰ مدىٰ السنوات الألف التالية.

وقد وُجدت هذه الآنية العظيمة في إيرلتو فقط، ولو كان تشانغ محقًا في أنَّ السلطة الملكية قد انبثقت من ادِّعاء الملك الوقوف عند الفاصل بين هذا العالم والعوالم الخارقة للطبيعة، فإنَّ أوعية الطقوس البرونزية كانت علىٰ الأرجح مهمة لقوة إيرلتو بقدر ما كانت السيوف البرونزية مهمَّة. وكان لملك إيرلتو أعلىٰ مكبر،

ولا بُدَّ أن لوردات الزعامات القبلية (guo) الأقل قد خلصوا إلىٰ أنَّه من المنطقي التعاون مع الرجل الذي تسمعه الأرواح بشكل أفضل.

وبالنسبة إلىٰ الملك، لا بُدَّ أن الآنية البرونزية كانت مصدرًا للإزعاج فضلًا عن كونها أداةً. فقد كانت مكلِّفة للغاية وتتطلب جيوشًا من الحرفيين وأطنانًا من النحاس والقصدير، والوقود - باختصار كانت كل الإمدادات في وادي ييلو. وبالإضافة إلىٰ تأسيس مملكة صغيرة (بالتخمين من نمط المستوطنات يقدِّر بعض علماء الآثار أنَّها كانت تغطي حوالي ألفي ميل مربع)، فربما أرسلت إيرلتو المستعمرين لنهب المواد الخام. منطقة دونجشيافنج -علىٰ سبيل المثال- وهي الواقعة علىٰ التلال الغنية بالنحاس المتواجدة علىٰ بُعد مائة ميل غرب إيرلتو، تمتلك الخزف من ذلك النوع الموجود في إيرلتو وتمتلك تلالًا عظيمة من بقايا صهر النحاس، دون أن يكون لديها قصور أو مقابر ثرية أو قوالب لصبِّ الآنية، فضلًا عن الآنية نفسها. وربما حفر علماء الآثار في أماكن خاطئة فحسب، ولكنَّهم كانوا يبحثون هناك لفترة طويلة؛ ولذا ربما تم استخراج النحاس علىٰ الأرجح وتم صقله في دونجشيافنج، ثمَّ أُعيد إلىٰ إيرلتو - أول نظام استعماري في الشرق.

الأسلاف يتحملون المسؤولية

قد يكون للتخلف مزايا ولكنَّه أيضًا له عيوب، وليس أقلها أنه بمجرد أن تشق منطقة طرفية طريقها نحو أحد المراكز القديمة؛ فإنَّها تجد نفسها تواجه مناطق طرفية جديدة عازمة بالقدر نفسه علىٰ أن تشق طريقها إلىٰ هناك. لقد كانت إيرلتو أكثر مدينة مبهرة في الشرق عام ١٦٥٠ ق. م، تتألق معابدها بالمراجل البرونزية وتردد أصوات قرع الأجراس، لكن مسيرة يوم واحد إلىٰ ما وراء النهر الأصفر كان بإمكانها أن تأخذ مغامرًا حضريًا إلىٰ عالم عنيف من الحصون والزعماء المتخاصمين. ويظهر هيكلان عظميان في حفرة علىٰ بُعد ٤٠ ميلًا من المدينة الكبيرة علامات واضحة علىٰ سلخ فروة الرأس.

وربما أصبحت العلاقات بين إيرلتو وتلك الأطراف المتوحشة تشبه إلىٰ حد ما تلك التي بين إمبراطورية أكاد في بلاد الرافدين والعموريين، حيث تُعدّ كل من المتاجرة والهجوم مربحًا لكلا الطرفين - إلىٰ أن يخل شيء ما بالتوازن. ويظهر الخلل في الشرق في شكل حصن يسمىٰ يانشي، بُني في حوالي عام ١٦٠٠ ق. م علىٰ بُعد خمسة أميال فقط من إيرلتو. وتقول مصادر أدبية لاحقة إنَّه في ذلك الوقت أطاحت مجموعة جديدة تُسمىٰ «شانغ» بسلالة شيا الحاكمة. وتجمع أقدم الاكتشافات من يانشي طراز إيرلتو في المواد مع تقاليد شمال النهر الأصفر، ويعتقد معظم الأثريين الصينيين (وفي هذه المرة أيضًا العديد من غير الصينيين) أنَّ الشانغ قد عبروا النهر الأصفر في حوالي سنة ١٦٠٠ ق. م، وهزموا إيرلتو وبنوا حصن يانشي للهيمنة علىٰ عدوهم المهزوم ولكنه الأكثر تطورًا. وازدهر حصن يانشي وتحول إلىٰ مدينة عظيمة بينما تدهورت إيرلتو حتىٰ حوالي عام ١٥٠٠ ق.

م عندما نزح ملوك شانغ بمقدار خمسين ميلًا جهة الشرق إلىٰ مدينة جديدة في تشنغتشو؛ ربما لأنَّهم قرروا أنَّه لا داعي لمراقبة أعدائهم السابقين عن كثب.

وأصبح أي شيء كان يمكن لإيرلتو فعله، يمكن لمدينة تشنغتشو أن تفعل أفضل منه، أو علىٰ الأقل ما هو أكبر. وكان لدىٰ تشنغتشو مدينة داخلية تقريبًا في نفس حجم إيرلتو بالإضافة إلىٰ ميل مربع كامل من الضواحي بأسوارها الخاصة الضخمة من التربة المدكوكة. وحسب أحد التقديرات ربما تطلب ذلك عشرة آلاف من العمَّال وثماني سنوات من العمل لبنائها. وتتحدث قصيدة لاحقة عن بناء ذلك السور: «كانوا يدكّون التربة بصوت مجلجل، دكوها بارتطام باهت/ وضربوا الجدران بضجة مرتفعة، لقد نحتوها وحفروها بصوت خفيف منخسف»، لا بُدَّ أن تشنغتشو قد امتلأت بأصداء الجلجلة والارتطام والضجة وأصوات الدق المنخسف والمتأرجح. وقد كانت المدينة بحاجة إلىٰ عدة مسابك من البرونز، خلفت الواحدة منها ثمانية أفدنة من النفايات. لقد واصلت آنية تشنغتشو الطقوسية تقاليد إيرلتو لكنَّها كانت أكبر بطبيعة الحال. فقد بلغ طول أحد القدور البرونزية التي دُفنت علىٰ عجل في حوالي سنة ١٣٠٠ ق. م (ربما خلال هجوم) ثلاثة أقدام وبلغ وزنها ٢٠٠ رطل.

كما قامت تشنغتشو بتوسيع نطاق استعمار إيرلتو. فعلىٰ بُعد أربعمائة كيلو متر فيما وراء نهر اليانجتسي حطَّم عمَّال المناجم وديان تونجلينج بحثًا عن النحاس، حيث حفروا مائة دعامة تصطف علىٰ جانبيها الألواح في الصخر ممَّا شوَّه المنظر الطبيعي بنحو ٣٠٠ ألف طن من النفايات. وتشبه الأشياء التي تركوها خلفهم (التي حفظت لدرجة أن علماء الآثار وجدوا أدوات الأخشاب والخيزران وفرش النوم من نبات القصب) تلك التي وُجدت في شانغ. وعندما توسَّعت الحضارة المادية علىٰ طراز أوروك في بلاد الرافدين بعد ٣٥٠٠ ق. م، بدت بعض المواقع وكأنها مستنسخة من أوروك نفسها، حتىٰ تخطيط الشوارع؛ وبالمثل، فقد بنىٰ مستعمرو شانغ نوعًا من تشنغتشو مصغرة، مكتملة بالقصور والمدافن الثرية، والآنية البرونزية الطقوسية علىٰ طراز شانغ الناضج في بانلونغ تشنغ، ممتطين أسهل الطرق من تونجلينج إلىٰ قلب شانغ.

وفي حوالي عام ١٢٥٠ ق. م، انبعثت الحياة في شانغ. تقول الأسطورة، في عام ١٨٩٩م، إنَّه أصيب أحد أقارب وانج كيرونج، وهو مدير الأكاديمية الإمبراطورية في بكين بالملاريا، وأرسل خادمًا لشراء أصداف السلاحف المتحلِّلة، وهو علاج صيني تقليدي. وكان قريب وانج المريض شخصًا مثقفًا، وعندما رأىٰ صفًا من الرموز التي نُقشت علىٰ الصدفة التي أحضرها خادمه إلىٰ البيت أدرك أنها شكل قديم من اللغة الصينية. وأرسل الصدفة إلىٰ وانغ للاطلاع علىٰ رأيه، وخمَّن وانغ أنَّ النقوش يعود تاريخها إلىٰ عهد سلالة شانغ.

وبشراء مزيد من الأصداف، أحرز وانغ تقدمًا سريعًا في فك الشفرة ولكن ليس سريعًا بدرجة كافية. ففي صيف عام ١٩٠٠م اندلع غضب شعبي ضد الغربيين في ثورة الملاكمين. قامت الإمبراطورة الأرملة بمساندة المتمردين، وكلَّفت مسؤولين إمبراطوريين من بينهم وانغ بتولي فرق الميليشيا. وقد حاصر الملاكمون مجمع السفارات الأجنبية لكنَّ عشرين ألف جندي -يابانيين وروسيين وبريطانيين وأمريكيين وفرنسيين- نزلوا في بكين. وعندما اجتاحته الكارثة وصارت حياته خرابًا، قام وانغ وزوجته وزوجة ابنه بتسميم أنفسهم وقفزوا في بئر.

ووصلت عظام وانغ المنقوشة إلىٰ أيدي صديق قديم. وفي غضون عقد من الزمان توفي هو أيضًا بعد تعرضه للخزي والنفي إلىٰ غرب الصين المهجور، ولكن في عام ١٩٠٣م نجح وانغ في نشر النقوش في كتاب. وانطلق الهوس بالعظام؛ إذ تدافع الباحثون المحليون والأجانب لشراء أصداف السلاحف، فكان أحدهم يعرض ثلاث أوقيات من الفضة لكل كلمة منقوشة، في وقت كان فيه العمَّال في بكين يتقاضون فقط سدس أوقية يوميًا. لكنَّ الأخبار السيئة كانت انطلاق سلسلة من أعمال الحفر غير المشروعة، حيث كانت هناك عصابات مسلَّحة تتبادل إطلاق النار من أجل شظايا أصداف السلاحف القديمة الموجودة تحت حقول البطاطس. ولكن الأنباء السارة كانت استثنائية رغم ذلك. فلم يكن وانغ محقًا فقط بشأن كون تلك الأصداف والعظام تمثل أقدم نصوص الصين، ولكن تبيَّن أيضًا أنها تذكر أسماء ملوك مطابقين تمامًا لأولئك الذين ذكرهم مؤرخ القرن الأول قبل الميلاد «سيما كيان» باعتبارهم آخر حكام سلالة شانغ.

لقد حاول تجّار الآثار الاحتفاظ بمصدر العظام باعتباره سرًّا، ولكن سرعان ما عرف الجميع أنها تأتي من قرية آنيانغ، وفي عام ١٩٢٨م أطلقت الحكومة الصينية أول أعمال التنقيب الأثري هناك. ولسوء الحظ، فقد اصطدمت أعمال الحفر بالمشاكل نفسها التي واجهتها حفريات إنسان بكين في چوكوديان. فقد تحارب أمراء الحرب والعصابات عبر المنطقة، وتبادل كل من لصوص المقابر والشرطة إطلاق النيران، وكان الجيش الياباني يقترب مضيقًا الخناق عليهم. وحدث أكبر اكتشاف للنقوش، وهو عبارة عن حفرة تحتوي علىٰ ١٧ ألف عظمة، قبل ساعة فقط من انتهاء موسم حفريات عام ١٩٣٦م. وقد كافح الأثريون من أجل أربعة أيام إضافية للحصول علىٰ القطع من الأرض، مع معرفتهم بأنهم قد لا يكونون قادرين علىٰ العودة مطلقًا. واختفت معظم اكتشافاتهم خلال عقْد الحرب الذي أعقب ذلك، لكنَّ الآنية البرونزية والنقوش وصلت إلىٰ تايوان بعد الهيمنة الشيوعية عام ١٩٤٩م. لقد كان الأمر يستحق العناء؛ فقد حوّلت حفريات آنيانج التاريخ الصيني القديم.

أظهرت الحفريات أنَّ آنيانج كانت آخر عاصمة لشانغ، حيث تأسَّست في عام ١٣٠٠ ق. م تقريبًا. وغطت مستوطنتها المُسوّرة، التي عُثر عليها عام ١٩٩٧م، حوالي ثلاثة أميال مربعة، ولكن مثل تشنغتشو، فقد جعلتها ضواحيها تبدو صغيرة. وقد انبثقت المعابد والمقابر ومسابك البرونز عبر حوالي عشرة أميال مربعة أخرىٰ، وهي مساحة تبلغ ثُلث حجم مانهاتن. كان هناك مَسبَك اكتُشف في عام ٢٠٠٤م، يغطي مساحة عشرة أفدنة، ولكن في لب هذه المساحة الأرضية الطقوسية، تواجد نشاط مختلف يهيمن علىٰ ما كان مُسجلًا في النقوش: وهو جهود الملوك لتملق أجدادهم كي يساعدوهم.

تبدأ النقوش التي تم استكشافها في عهد الملك وودونج الطويل الممتد من (١١٩٢ ق. م) إلىٰ (١٢٥٠ ق. م)، ومن المعلومات التي تحتويها النقوش يمكننا تجميع الطقوس التي أنتجتها. كان الملك يطرح الأسئلة علىٰ أجداده، مستدعيًا أرواحهم من مقابرهم العظيمة الموجودة علىٰ الجانب الآخر من النهر الذي كان يمر بمدينة آنيانغ. ومن خلال ضغط عصا ساخنة علىٰ صدفة أو قطعة عظم، كان

يُفسِّر الشقوق التي ينتجها ذلك، وينقش المتخصصون النتائج علىٰ «عظام أوراكل» أو «عظام التنين».

وجعلت تلك الشعائر من وودونغ المسؤول عن الأجداد، حيث يقيم الحفلات علىٰ أرواح موتىٰ الملوك الذين ماتوا مؤخرًا، ويجمعهم لاستضافة أجدادهم، الذين بدورهم -في المسائل الخطيرة- يستضيفون جميع الأرواح حتىٰ «دي»، الإله العظيم. وربما تعود فكرة كون السلحفاة الصامتة تستطيع أن تجعل أصوات الأجداد مسموعة بمقدار ستة آلاف سنة إلىٰ مواقع مثل چياهو، التي نوقشت في الفصل الثاني، ولكن شانغ بالطبع جعلها أكبر وأفضل. وقد عثر الأثريون علىٰ أكثر من (٢٠٠,٠٠٠) من عظام أوراكل في آنيانغ، ويُقدّر ديفيد كيتلي -أحد الرواد الغربيين في النقوش- أنَّ حوالي (٢ إلىٰ ٤ ملايين) منها قد صُنعت في الأصل، باستهلاك مائة ألف من السلاحف والثيران. وقد اشتملت الطقوس أيضًا علىٰ شرب الخمر، ربما من أجل وضع الملوك والمشعوذين في المزاج المناسب للحديث مع الأرواح.

وقد حاول ملوك شانغ نيل رضا الأرواح بالقيام بجنائز رائعة لتُمثّل انتقال أسلافهم لأن يكونوا أسلافًا، وقد عُثر علىٰ ثماني مقابر ملكية، واحدة لكل ملك من سنة ١٣٠٠ ق. م وحتىٰ سنة ١٠٧٦ ق. م، مع مقبرة تاسعة غير مكتملة تعود إلىٰ «دي شين»، الذي كان لا يزال علىٰ العرش عندما سقطت السلالة في سنة ١٠٤٦. لقد نُهب كل شيء، ولكن كانتِ الغالبية الساحقة من المقابر لا تزال مبهرة - ليس كثيرًا بالنسبة إلىٰ بضعة آلاف طن من التربة التي أُزيلت لكل مقبرة، والتي تُعدّ تافهة بالمواصفات المصرية، ولكنَّها بالنسبة إلىٰ تخصص سلالة شانغ في الجنائز: العنف والقوة.

يتحدث الأدب الصيني القديم عن أناس «لاحقين في الموت» في الجنازات النخبوية، لكن لم يوجد شيء جعل منقبي أنيانغ مستعدين لما وجدوه. فقد احتوىٰ القبر (١٠٠١) -وهو علىٰ الأرجح مكان راحة وودينغ- علىٰ حوالي مائتي جثة: تسع منها في أسفل عمود، كل منها في حفرته الخاصة مع كلب ميت وشفرة برونزية مكسورة عن عمد، و(١١) منها علىٰ إفريز حول عمود، ويتناثر ما

بين (٧٣ و١٣٦) منها (من الصعب تحديد أجزاء الأجساد المقطعة) علىٰ المنحدرات إلىٰ داخل المقبرة، و(٨٠) أخرىٰ علىٰ السطح بجوارِ القبر. وقد تم التعرف إلىٰ نحو خمسة آلاف حفرة قرابين حول المقابر، تحوي عدَّة بشر مقتولين (معظمهم من الرجال، بعضهم أنهك مفاصلهم العمل الشاق)، وحيوانات (من الطيور إلىٰ الأفيال). حتىٰ المحكوم عليهم بالموت لا يموتون بهدوء، فبعضهم قطع رأسه، وآخرون قُطعت أطرافهم أو قطعوا عند منطقة الخصر، وعُثر علىٰ آخرين مقيّدين وملتوين، فمن المؤكد أنَّهم قد دفنوا أحياء.

إنَّ الأرقام مذهلة؛ إذ تذكر مخطوطة عظام أوراكل عدد (١٣,٠٥٢) حالة قتل شعائرية، وإذا كان كيتلي مُحقًّا في أنَّنا وجدنا فقط (٥ -١٠٪) من النقوش، فربما هلك ربع مليون شخص. وبأخذ المتوسط، فإنَّ ذلك يعادل أربعة أو خمسة أشخاص يوميًا، وكل يوم لمدة (١٥٠ عامًا). أما في الواقع، فقد كانوا يجتمعون حول الجنائز الكبيرة في عربدة من التقطيع والصراخ والموت، في حين كانت الدماء تجري فيها. وبعد حوالي ثلاثة آلاف سنة، شنَّ ملوك الآزتيك في المكسيك حروبًا من أجل أخذ الأسرىٰ لإطعام إلههم المتعطش للدماء كيتزالكوتل (Quetzalcoatl)، وربما فعل الشانغ الشيء نفسه لأسلافهم، ولا سيما ضد الناس الذين أطلقوا عليهم اسم تشيانغ، والذين ذُكر أكثر من سبعة آلاف منهم في مخطوطة عظام أوراكل.

وقد تحدث وودنغ وأقرانه -مثل الملوك العظام في الغرب- إلىٰ الأرواح في العالم الآخر بينما يواجهون الموت في هذا العالم. لقد كان مزيج من العبادة والحرب هو الذي جعلهم ملوكًا، وكانت الجنائز التي حوّلت الملوك إلىٰ أسلاف مليئة بالرمزية العسكرية. وحتىٰ بعد أن نُهبت، كانت المقبرة (١٠٠٤) (ربما للملك لين شين، الذي مات في حوالي ١١٦٠ ق. م)، لا تزال تحتوي علىٰ (٧٣١ رأس حربة)، و(٦٩ فأسًا)، و(١٤١ خوذة)، وعندما تحدث وودونغ مباشرة إلىٰ الإله الأعظم «دي»، كان ذلك في الغالب حول القتال. وقد جاء في إحدىٰ مخطوطات عظام أوراكل: «تنبأ تشنغ في اليوم الحادي والأربعين، أنَّنا إذا هاجمنا مافانغ؛ فإن «دي» سيمنحنا المساعدة».

وبحسب المعايير الغربية، فقد كانت جيوش شانغ صغيرة، وكان أكبرها وهو المذكور في مخطوطات عظام أوراكل يبلغ قوامه عشرة آلاف رجل، وهو مجرد ثُلث جيش رمسيس الثاني في قادش. وتشير أسماء الأماكن في النقوش أيضًا إلىٰ أن وودينغ كان يحكم امتدادًا بسيطًا من النهر الأصفر، بالإضافة إلىٰ بعض المستعمرات القصيّة مثل بانلونجشينغ. ويبدو أنَّه لم يكن يحكم دولة متكاملة تدفع الضرائب ومنظَّمة بيروقراطيًا مثل مصر، ولكن مجموعة أكثر تفككًا من الحلفاء الذين كانوا يرسلون الإتاوات إلىٰ أنيانغ، مثل المواشي والخيول البيضاء والعظام والصدف من أجل التنبؤ، وحتىٰ البشر من أجل القرابين.

جعل سيما تشيان -وهو مؤرخ في القرن الأول وضع قائمة بأسماء ملوك شانغ- التاريخ الصيني القديم يبدو بسيطًا. فبعد الملوك الحكماء، الذين انتهوا بـ «يو» حافر الخندق، أتت سلالة شيا، ثم سلالة شانغ، ثم سلالة تشو (وهي السلالات الثلاث لمشروع التسلسل الزمني للسلالات الثلاث). ومنهم تطورت الصين، ولم يكن ثمة شيء آخر جدير بالذكر. ولكن في حين أظهر علم الآثار أن إيرلتوا وأنيانغ كانتا حقًّا فريدتين في عصرهما، فقد أظهر أيضًا أن سردية سيما تشيان قد زادت في تبسيط الأمور. فمثل المصريين والبابليين، كان علىٰ شيا وشانغ التعامل مع عشرات الدول المجاورة.

وقد بدأ علماء الآثار يكتشفون آثار هذه الدول الأخرىٰ المثيرة، وخاصة في جنوب الصين وشرقها. وفي عام ١٩٨٦م كانت لدينا فكرة بسيطة عن أنَّ مملكة غنية قد ازدهرت في حوالي سنة ١٢٠٠ ق. م بعيدًا حتىٰ نهر يانجتسي في سيتشوان، ولكن الأثريين عثروا عندئذٍ علىٰ حفرتين ممتلئتين بالكنوز في سانشينجدو. كان هناك العشرات من الأجراس البرونزية، وعدّة تماثيل يبلغ طولها ستة أقدام لرجال بتيجان وأعين ضخمة محدقة، و«أشجار أرواح» برونزية ذات تفاصيل كثيرة، يبلغ طولها ضعف طول التماثيل السابقة، وتمتلئ بفاكهة وأوراق شجر وطيور معدنية ملساء. وقد تعثر المنقبون بمملكة مفقودة، وفي عام ٢٠٠١م ظهرت مدينة رئيسة في چينشا القريبة. وتشير بعض التقديرات إلىٰ أن نصف عمليات بناء البيوت والطرق السريعة في العالم في العقديْن الأول والثاني من

الألفية الحالية سيحدث في الصين، ولا يوجد ما يدل علىٰ ما سيجده علماء آثار الإنقاذ، الذين يتسابقون للبقاء متقدّمين بخطوة علىٰ أدوات الحفر، بعد ذلك.

من السهل علينا أن نفكر في الحيثيين والآشوريين والمصريين باعتبارهم شعوبًا متميزة؛ لأنَّ النصوص القديمة حفظت لغاتهم المختلفة، ونحن معتادون علىٰ الغرب كونه مقسّمًا إلىٰ عدة دول قومية. أما في الشرق، فقصة سيما تشيان عن أنَّ الهوية الصينية (Chineseness) بدأت بسلالة شيا وانتشرت إلىٰ الخارج، تجعل من المغري جدًّا تخيّل هذه الدول القديمة، التي تقع هذه الأيام داخل أمة حديثة واحدة، أنها صينية «دومًا». في الواقع، كان لدىٰ الشرق والغرب القديميْن شبكات متشابهة من الدول المتدافعة، متشاركين بعض المعتقدات والممارسات والأنماط الثقافية بينما يختلفون في أشياء أخرىٰ. لقد تاجروا وحاربوا وتنافسوا وتوسَّعوا. ومع تراكم أدلتنا، فإنَّ السيرورات التي ارتفع من خلالها التطور الاجتماعي في كل من الشرق والغرب القديميْن تبدو متشابهة أكثر وأكثر. وربما كان هناك في يوم من الأيام قاعة خشبية في أنيانغ تحتوي علىٰ حروف من الحرير والخيزران مثل ألواح الصلصال المنقوشة في تل العمارنة في مصر توثّق المراسلات الدبلوماسية مع الحكَّام الأجانب الذين تكلموا بلغات أجنبية. وربما دعا ملك چينشا وودونغ بأنه «أخوه» عندما كانا يتبادلان الأفكار حول ما إذا كانا يعاملان حكَّام شاندونغ باعتبارهم متساوين، وربما حتىٰ رتَّب وودونغ لإرسال أميرة من شانغ باعتبارها عروسًا إلىٰ أحد القصور الصغيرة علىٰ نهر اليانغتسي، لتقاسي هناك الحر الشديد وتحمل الأطفال بعيدًا عن أسرتها وأحبائها. إننا لن نعرف حقيقة الأمر أبدًا.

الأشياء تتداعى

أودُّ أن أحضر فضائيي ڤون دانيكن إلىٰ القصة مجددًا. فحتىٰ ولو فاجأ انهيار كل من مصر وبلاد الرافدين بعد عام ٢٢٠٠ ق. م الفضائيين، كما أشرت في وقت سابق، فلم يكونوا ليشعروا بشيء سوىٰ الارتياح ما إن يجلبوا طبقهم الطائر ليدور حول عالم وودينغ ورمسيس الثاني في حوالي سنة ١٢٥٠ ق. م. وهذه المرة يبدو عملهم قد أُنجز حقًّا. فقد بلغ التطور الاجتماعي الغربي أربعًا وعشرين نقطة علىٰ المؤشر، وهو ما يقرب من ثلاثة أضعاف ما كان عليه في سنة ٥٠٠٠ ق. م.

كان المصري المتوسط أو الشخص المتوسط من بلاد ما وراء النهريْن يُسخّر علىٰ الأرجح (٢٠٠٠٠ كيلو سعر حراري) في اليوم، مقارنة بـ (٨٠٠٠) في حوالي عام (٥٠٠٠ ق. م)، وامتلكت أكبر المدن مثل طيبة في مصر أو بابل، ربما ثمانين ألف نسمة. كان هناك الآلاف من الكَتَبة المتعلمين والمكتبات المزدهرة. وتمكَّنت أكبر الجيوش من حشد خمسة آلاف عجلة حربية، وكان الأمر ليكون تخمينًا صائبًا بأن دولة واحدة (ربما مصر وربما الحيثيين) ستُنشئ عما قريب إمبراطورية باتساع المركز. وأنَّ دولًا جديدة بقصورها ومعابدها وملوكها الخارقين سوف تنشأ في إيطاليا وأسبانيا وما وراء ذلك، ثمَّ ستبتلع الإمبراطورية في المركز تلك أيضًا، إلىٰ أن تملأ مملكة عظيمة الخريطة في (الشكل ٤ -٣). وسيواصل الشرق تتبع التطورات الغربية، مع كونه متأخرًا بمقدار ألفية أو اثنتين. وسيمر علىٰ الأرجح بمُعيقات مثل مُعيقات الغرب، وسيواجه الغرب المزيد من الانتكاسات أيضًا؛ لكن مثل الأحداث السابقة، فإنَّ هذه الانتكاسات ستُبطئ

بالكاد المد الصاعد للتطور الاجتماعي. وسيحتفظ الغرب بصدارته، ويكتشف الوقود الأحفوري في غضون عدة آلاف سنة، ثم يشرع في هيمنة عالمية.

ولذا فعندما اشتعلت النيران في كل مدينة رئيسة في المركز الغربي، من اليونان وحتىٰ ما نسمّيه الآن بقطاع غزة في حوالي عام (١٢٠٠ ق. م)، كان الفضائيون ليفترضوا أنَّ ذلك الحدث هو أحد المُعيقات الكبيرة مثل تلك التي حدثت في عام (٢٢٠٠ أو ١٧٥٠ ق. م)، ولكن ليس ثمة شيء يدعو للقلق بشأنه علىٰ المدىٰ الطويل. وحتىٰ عندما غمرت الكارثة القصور بطريقة مفاجئة جدًّا لدرجة أن الكَتَبَة بالكاد امتلكوا الوقت لتوثيقها، لم يكن الفضائيون ليقلقوا حيال هذا الأمر.

تفتتح لوحة استثنائية من الطمي تعود إلىٰ عام (١٢٠٠ ق. م) تقريبًا، عُثر عليها في القصر المحطم في بايلوس في اليونان - بالسطر المشؤوم: «المراقبون يحرسون السواحل»، وثمة لوحة أخرىٰ من الموقع نفسه، مكتوبة بتسرع واضح، تصف القرابين البشرية التي تهدف للتصدي لحالة الطوارئ، لكنها تلاشت دون أن تكتمل. وفي أوجاريت (Ugarit)، وهي مدينة تجارية غنية علىٰ الساحل السوري، عثر علماء الآثار علىٰ مجموعة من الحروف الطينية في فرن حيث عزم الكَتَبَة علىٰ تركها لتجف قبل تصنيفها. لكن أوجاريت تم احتلالها قبل أن يكون من الممكن لأي شخص أن يعود ويحصل علىٰ النصوص. وترسم هذه الرسائل عن أيام احتضار المدينة صورة بائسة. في رسالة من ملك الحيثيين، يتسول الطعام: «إنَّها مسألة حياة أو موت!»؛ وفي رسالة أخرىٰ، يكتب ملك أوجاريت أنه بينما قواته وسفنه تدعم الحيثيين في الخارج «أتت سفن العدو هنا، واحترقت مُدني، وفعلوا أشياء شريرة في بلدي».

لقد خيَّم الظلام في جميع الأنحاء، ولكن ما دامت مصر قائمة فقد بقي الأمل. ففي معبد أقامه علىٰ شرفه الشخصي، أعدَّ الفرعون رمسيس الثالث نقشًا يبدو أنَّه يشير إلىٰ القصة التي حدثت في أوجاريت: «لقد دبّرت البلدان الأجنبية مؤامرة في جُزُرهم. ولم تتمكن أي دولة من الصمود أمام أسلحتها». وقد اجتاح هؤلاء الأجانب -وهم شعوب البحر كما أسماهم رمسيس- الحيثيين وقبرص

وسورية. والآن، في عام ١١٧٦ ق. م، جاؤوا إلىٰ مصر، ولكنَّهم لم يحسبوا حساب الملك الخارق:

«أولئك الذين أتوا إلىٰ حدودي، لقد هلكت قلوبهم وأرواحهم إلىٰ الأبد . . . لقد سُحبوا وحُوصروا وركعوا علىٰ الشاطئ، وقُتلوا وتحولوا إلىٰ أكوام من رؤوسهم إلىٰ أخمص أقدامهم . . . لقد جعلْتُ البلاد تنصرف [حتىٰ] عن ذكر مصر؛ لأنَّهم عندما ينطقون باسمي في أرضهم، فإنَّهم يُحرقون».

كانت شعوب البحر، كما أسماها رمسيس الثالث، هم الأشرار في قصص بايلوس وأوجاريت. فقد تضمنت هذه الشعوب، كما قال رمسيس، شردن وشكرش ودنين وبرست. لم تكن الهيروغليفية المصرية تسجل حروف الأصوات المتحركة (vowels)، ويُعدّ تحديد إلىٰ أي شخص تُشير هذه الأسماء بمثابة صناعة حِرَفية بين المؤرخين. فقد اعتقدت الأغلبية أن شردن تُنطق «شيردين»، وهو اسم قديم للسردينيين، وأن «شكرش» كانت «شيكليش» وهي الترجمة المصرية لكلمة (Sikel) الصقليين. أما «دنين» فأقل وضوحًا، ولكنَّها يمكن أن تعني «دانان»، وهو اسم سيُطلقه هوميروس في وقت لاحق علىٰ الإغريق. ونحن علىٰ أرضية صلبة فيما يخص كلمة «برست»: فهي تعني بيليست، الاسم المصري للبليستيين ذائع الصيت في الإنجيل.

هذا مزيج من شعوب منطقة البحر الأبيض المتوسط، ويتجادل المؤرخون بلا نهاية حول ما الذي دفعهم للمجيء إلىٰ دلتا النيل. وتتفاوت الأدلة، ولكن بعض علماء الآثار يشيرون إلىٰ علامات مثل ارتفاع درجات الحرارة وقلة الأمطار في كل جزء من المركز الغربي بعد سنة ١٣٠٠ ق. م. ويشيرون إلىٰ أنَّ الجفاف أدىٰ إلىٰ تكرار سيناريو عام (٢٢٠٠ ق. م)، ممَّا أدىٰ إلىٰ عمليات الهجرة وإخفاق الدولة. ويعتقد آخرون أنَّ الزلازل قد ألقت بالمركز في الاضطرابات، ممَّا أدىٰ لتوفير الفرص للنهب وجذب المعتدين من الحدود. وكانت هناك أيضًا تغييرات في كيفية قتال البشر، فقد منحت كل من السيوف القاطعة الجديدة والرماح الأكثر فتكًا أسراب المُشاة غير المنظَّمة والمسلَّحة تسليحًا خفيفًا الذين جاؤوا من الأطراف، منحتهم الأسلحة التي احتاجوها لهزيمة جيوش العجلات

الحربية في المركز والتي كانت متلألئة ولكنَّها غير مرنة. وربما لعب المرض دورًا أيضًا، فقد انتشر طاعون رهيب من مصر إلىٰ الحيثيين في عشرينيات القرن الرابع للألفية الأولىٰ قبل الميلاد. كانت إحدىٰ الصلوات تقول: «إنَّ أرض هاتي كلها تحتضر». وعلىٰ الرغم من أنَّ النصوص الباقية لا تذكر الوباء مجددًا، فإذا كان يشبه الأوبئة في الفترات الأفضل توثيقًا فكان سيواصل العودة. وبحلول سنة ١٢٠٠ ق. م كان تعداد السكان ينخفض في المركز.

والحقيقة القاسية هي أنَّنا لا نعرف الأسباب المحددة للكارثة، علىٰ الرغم من أن الدينامية الأساسية تبدو واضحة بدرجة كافية: وهي تحول مفاجئ في العلاقات بين المركز وحدوده المتوسِّعة. وكما كان الحال كثيرًا من قبل، فقد كان التوسُّع سلاحًا ذا حدين. فمن ناحية، كانت الجبهة الجديدة في منطقة البحر الأبيض تغذي ارتفاع التطور الاجتماعي، ولكن من ناحية أخرىٰ، كشفت الجبهة الجديدة عن مزايا جديدة للتخلف، وأطلقت المعيقات -الهجرات والمرتزقة وتكتيكات جديدة متعنّتة- التي تحدَّت النظام القائم. وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بدأت القوىٰ العظمىٰ في المركز تفقد السيطرة علىٰ الحدود التي أنشأتها.

وسواء تم دفعهم أو سحبهم، وسواء كان المحرك هو تغيُّر المناخ أو الزلازل، أو التغييرات في ميدان القتال، أو الأوبئة؛ فقد بدأ الناس يتحركون إلىٰ داخل المركز بأعداد غامرة. وفي عشرينيات القرن الثالث في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد، حصَّن رمسيس الثاني الحدود المصرية، وقام بتوطين المهاجرين في مدن مُسيطر عليها بإحكام أو ضمَّهم إلىٰ جيشه، ولكن ذلك لم يكن كافيًا. ففي عام ١٢٠٩ ق. م كان علىٰ الفرعون ميرنبتاح (Merneptah) أن يقاتل ليس فقط شردن وشكلش، الذين سيواجههم رمسيس الثالث مرة أخرىٰ في سبعينيات القرن الثاني للألفية الأولىٰ قبل الميلاد، ولكن أن يقاتل أيضًا الليبيين وأشخاصًا يُسمّوْن أكيواشا (Akaiwasha) - ربما هم شعب أهياوا من اليونان؟ الذين ضموا قواتهم للإغارة علىٰ مصر من الغرب.

وقد وثّق ببهجة المنتصر ميرنبتاح أنَّه قطع (٦٢٣٩ قضيبًا ذكريًّا) غير مختون

لإحصاء عدد قتلىٰ الأعداء، ولكن حتىٰ وهو يحصيها كانت العاصفة تجتاح الشمال. واحترقت المدن اليونانية والحيثية والسورية. وتتحدث الأساطير اللاحقة عن الهجرات إلىٰ اليونان في ذلك الوقت تقريبًا، ويشير علم الآثار إلىٰ الهجرة الخارجية أيضًا. ويكاد الفخار الذي عُثر عليه حول غزة، حيث استقر الفلستيون (Philistines) في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، يكون مطابقًا للمزهريات من اليونان، ممَّا يشير إلىٰ أنَّ الفلستيين بدؤوا باعتبارهم لاجئين يونانيين، كما استقر يونانيون أكثر في قبرص.

وربما ازدادت الهجرة سريعًا عندما انضم لاجئون من مناطق منكوبة إلىٰ صفوفها. وبدا كما لو كانت الهجرة هي حركة بلا شكل، حيث يحدث النهب والقتل المنفصلان في كل مكان وفي الوقت نفسه. وقد دفع الانهيار السوري الشعوب التي يُطلق عليها الآراميون (Arameans) إلىٰ بلاد الرافدين، ورغم ادَّعاءات رمسيس النصر، فقد استقرت شعوب البحر السابقة في مصر. ومثل اليونان شهدت مصر الهجرة الخارجية - بالإضافة إلىٰ الهجرة الداخلية. وتعكس القصة التوراتية عن هروب موسىٰ وبني إسرائيل من مصر واستقرارهم فيما يُعدّ الآن الضفة الغربية، هذه السنوات المضطربة. وقد لا يكون من قبيل الصدفة أن أول إشارة غير إنجيلية لإسرائيل هي إعلان ميرنبتاح في نقشه عام (١٢٠٩ ق. م) بأنَّه غادر تلك الأرض «الخراب، الجدباء».

وقد قزّم النطاق الواسع للهجرات الذي بدأ في عشرينيات القرن الثالث للألفية الأولىٰ قبل الميلاد المُعيقات السابقة، ولكن في وقت متأخر مثل سبعينيات القرن الثاني للألفية الأولىٰ قبل الميلاد كان بإمكان الفضائيين الذين يراقبون من أطباقهم الطائرة أن يأملوا بشكل معقول أن ينتهي هذا الحدث مثل سوابقه. ففي النهاية لم تُنهب مصر، وفي بلاد الرافدين قام الآشوريون بتوسيع مملكتهم بينما انسحبت الدول المعادية. ومع انتهاء القرن الثاني عشر، واستمرار الاضطرابات، أصبح واضحًا ببطء أنَّ هذه العراقيل كانت شيئًا جديدًا تمامًا.

في اليونان لم تتم إعادة احتلال القصور المُدمّرة بعد سنة ١٢٠٠ ق. م، واختفت البيروقراطية القديمة. وقد حافظ الأرستقراطيون علىٰ شيء يشبه الطرق

القديمة، حيث كانوا في كثير من الأحيان يتنقلون إلىٰ مواقع يسهل الدفاع عنها موجودة علىٰ الجبال أو في الجزر الصغيرة، ولكن موجة جديدة من التدمير ضربتهم في حوالي سنة ١١٢٥ ق. م. عندما كنت طالب دراسات عليا، كنتُ محظوظًا للغاية (فلم يكن علم الآثار رائعًا فحسب، ولكني أيضًا قابلت زوجتي المستقبلية هناك) بالتنقيب في أحد هذه المواقع، وهي قمة تل مُحصّنة في كوكوناريز في جزيرة باروس. وكان زعيمها يتمتع بأسلوب حياة راقٍ حيث المناظر الجميلة والشواطئ الرائعة، وعرش مُزيَّن بترصيعات من العاج، ولكن في سنة ١١٠٠ ق. م تقريبًا أصابته الكارثة. كان قرويوه يخزّنون الحجارة لقذف المهاجمين، وقد أحضروا حيواناتهم خلف الأسوار (فقد عثرنا علىٰ هياكل عظمية لحمير وسط الأنقاض)، لكنَّهم هربوا قبل اندلاع النيران عندما اقتحم أحدهم -لم نعرفه أبدًا- القلعة. وقد دارت مشاهد مماثلة في جميع أنحاء اليونان، وفي القرن الحادي عشر قبل الميلاد بنىٰ الناجون أكواخًا بسيطة من الطين. وقد تدهور كل من السكان والحرفيين، ولم يعد بوسعنا معرفة متوسط العمر المتوقع؛ لقد بدأ عصر مظلم.

لقد كانت اليونان هي الحالة القصوىٰ ولكن الإمبراطورية الحيثية أفلست أيضًا، وعانت كل من مصر وبابل للسيطرة علىٰ المهاجرين والمُغيرين. وتفشت المجاعات في حين تخلىٰ القرويون عن حقولهم. ولأنَّ المزارعين لم يتمكنوا من دفع الضرائب؛ فلم تستطع الدول حشد الجيوش، ولأنَّه لم تكن هناك جيوش؛ لم تُمنع الغارات وأسَّس الرجال الأقوياء من المحليين دوقيات صغيرة. وبحلول سنة ١١٤٠ ق. م، تلاشت إمبراطورية مصر في ما يعرف الآن بإسرائيل. وبتخلِّي دافعي رواتبهم عنهم، تحوَّلت جيوش الحاميات إلىٰ فلاحين أو لصوص. «في تلك الأيام لم يكن هناك ملك في إسرائيل. كل واحد عمل ما حسن في عينيه»، هكذا يقول سفر القضاة، وهو يمثل سردية بني إسرائيل عن دورهم الخاص في هذا التفتت.

وبحلول سنة ١١٠٠ ق. م، كانت مصر نفسها تتفكَّك. فقد انفصلت طيبة، وأنشأ المهاجرون إمارات في دلتا النيل، وسرعان ما عَلِمَ رمسيس الحادي عشر -

وهو الملك الإله الرسمي- ما يتوجب عليه القيام به من قِبَل وزيره، الذي استولىٰ علىٰ العرش في سنة ١٠٦٩. وطيلة عدة قرون، حشد قليل من فراعنة مصر الغامضين جيوشًا ضخمة في الميدان، أو شيّدوا آثارًا أو حتىٰ سجَّلوا الكثير من الوقائع.

وفقدت آشور -التي كانت تبدو الرابح الأكبر في وقت سابق- السيطرة علىٰ الريف في حين ازدادت تنقلات الشعوب الآرامية. وبحلول سنة ١١٠٠ ق. م بارت الحقول، وأصبحت الخزانة خاوية، وطارد الجوع الأراضي. وتزداد صعوبة قراءة الوضع عندما التزم البيروقراطيون بشكل أقل، وتوقفوا فجأة تمامًا بعد عام (١٠٥٠). وبحلول ذلك الوقت كانت مدن آشور خاوية وإمبراطوريتها مجرد ذكرىٰ.

انكمش المركز الغربي بحلول سنة ١٠٠٠ ق. م. وفقدت كل من ساردينيا وصقلية واليونان الاتصال مع العالم الأوسع إلىٰ حد كبير، وقسّم الزعماء المحاربون أشلاء الإمبراطوريتين الحيثية والآشورية. وقد نجت المدن في سورية وبابيلونيا، لكنَّها كانت بمثابة انهيار مؤسف من المراكز الحضرية في الألفية الثانية قبل الميلاد مثل أوجاريت. ونجت مجموعة من الدويلات الصغيرة في مصر، لكنَّها كانت الأضعف والأفقر في الإمبراطورية المجيدة لرمسيس الثاني. ولأول مرة، انخفض التطور الاجتماعي فعليًا. وانخفضت الأعداد لكل سِمة (من السِمات الأربع، م): وفي عام ١٠٠٠ ق. م امتلك الناس طاقة بشكل أقل، وعاشوا في مدن أصغر، وكانوا يضعون جيوشًا أضعف في الميدان، ويستخدمون الكتابة أقل ممَّا فعل أسلافهم في عام ١٢٥٠ ق. م. وانخفضت النتائج وعادت إلىٰ حيث كانت منذ ستمائة سنة قبل ذلك.

العجلات الحربية التي ليست للآلهة

في حوالي عام ١٢٠٠ ق. م، في حين كان الملك وودينغ لا يزال معتليًا العرش، عثرت نخبة شانغ علىٰ شيء جديد ليُدمّروه في جنائزهم: العجلات الحربية. وتظهر هذه العجلات في عشرات من المقابر في القرنين الثاني عشر والحادي عشر في آنيانغ، (وغني عن القول إنَّها مكتملة بالخيول المذبوحة والجنود المسلَّحين). تشبه العجلات الحربية في شانغ تلك التي ظهرت في المركز الغربي قبل خمسمائة سنة، لدرجة أنَّ معظم علماء الآثار يتفقون علىٰ حتمية اشتراكها في الأصل مع العجلات المُخترعة في كازاخستان في حوالي سنة ٢٠٠٠ ق. م. وقد استغرقت العجلات الحربية قرنين أو ثلاثة للوصول إلىٰ الحوريين ولتغيير ميزان القُوَىٰ في الغرب، واحتاجت إلىٰ ثمانية قرون لعبور المسافة الأكبر إلىٰ وادي النهر الأصفر.

ومثل المصريين والبابليين، كان الشانغ بطيئين في تبنّيهم لهذا السلاح الجديد. ولا بُدَّ أنهم قد تعلّموا عن العجلات الحربية من الشعوب التي سمّوها «جوي» و«تشيانغ» الذين كانوا يعيشون هناك في الشمال والغرب، وتذكر مخطوطات عظام أوراكل استخدام هؤلاء الجيران للعجلات الحربية في المعارك. وفي عصر وودونغ كان الشانغ أنفسهم يستخدمون العجلات الحربية للصيد فقط، وحتىٰ عندئذٍ لم يكن استخدامهم بشكل جيِّد، وتصف سردية كاملة تحطّم وودينغ في أثناء مطاردته لوحيد القرن. لقد مشىٰ بعيدًا، لكن أميرًا معينًا يُدعىٰ يانغ قد أُصيب بشكل سيئ جدًّا لدرجة أنَّ مجموعة كاملة من مخطوطات عظام أوراكل توثّق الجهود المبذولة لطرد الأرواح الشريرة التي تسبّب ألمه. وبعد مرور مائة

سنة كان الشانغ يستخدمون القليل من العجلات الحربية في المعركة، ولكن بدلًا من حشدها مثل الحيثيين والمصريين، نشروها بين المشاة، ربما كي يتجول بها الضباط.

تبدو علاقات شانغ مع جيرانها في الشمال الغربي مثل علاقات بلاد ما بين النهرين مع الحوريين والحيثيين منذ خمسمائة سنة قبل ذلك. ومثل سكان بلاد ما بين النهرين، تاجرت الشانغ مع جيرانها وحاربتهم وحرضتهم ضد بعضهم البعض. وذُكرت إحدىٰ هذه الجماعات، وهي جماعة «چو»، لأول مرة في مخطوطات عظام أوراكل باعتبارها عدوًا في حوالي عام ١٢٠٠ ق. م. ثمَّ ظهروا باعتبارهم حلفاء، ولكن بحلول سنة ١١٥٠ ق. م أصبحوا أعداءً مرة أخرىٰ، والآن يعيشون كما يبدو في وادي «وِیٰ» (Wei). وفي حالات الصداقة والعداء مع شانغ، فقد بدا أنَّ شعب چو يتبنّىٰ ويتكيَّف مع العناصر التي تناسبه في ثقافة شانغ. وبحلول سنة ١١٠٠ ق. م كان شعب چو يُشكِّل دولته، المكتملة بالقصور والأواني البرونزية وأعمال الكهانة والمقابر الباذخة. وفي جنازة أحد نبلاء چو تمَّ ذبح فريق من العجلات الحربية، علىٰ طراز شانغ، بل وتزوج ملوك چو من أميرات شانغ. ولكن مجددًا، مثل سكان بلاد ما بين النهرين في تعاملهم مع جيرانهم الحوريين والحيثيين راكبي العجلات الحربية - فَقَد الشانغ السيطرة علىٰ الوضع. ويبدو أن شعب چو حشد تحالفًا من شعوب الشمال الغربي، وبحلول سنة ١٠٥٠ ق. م كان شعب چو يهدد عاصمة شانغ الكبيرة نفسها، أنيانغ.

ومثل الدول الغربية القديمة، سرعان ما تفكَّكت دولة شانغ عندما ساءت الأمور. وتشير مخطوطات عظام أوراكل إلىٰ أنَّ الديناميات الداخلية لنخبة شانغ ظلَّت في اضطراب منذ حوالي سنة ١١٥٠ ق. م، ممَّا ترك الملك أكثر قوة ولكن مع أنصار أرستقراطيين أقل. وبحلول سنة ١١٠٠ ق. م، ربما انفصلت مستعمرات شانغ في الجنوب، وارتدَّ الكثير من الحلفاء الأقرب من الوطن (مثل شعب چو).

وفي عام ١٠٤٨ ق. م كان لا يزال بإمكان ملك شانغ، دي شين، أن يستجمع ثمانمائة لورد لصد هجوم من جماعة چو، ولكن بعد سنتين كانت القصة

مختلفة. فقد جمع ملك چو (وو) ثلاثمائة عجلة حربية، وتحّول ليسيطر علىٰ أنيانغ من الخلف. وتجعل قصيدة معاصرة علىٰ الأرجح الأمر يبدو كما لو أنَّ عجلاتِ چو الحربية كانت حاسمة:

«لمعت العجلات الحربية، وكان فريق الأشرعة البيضاء قويًا . . . آه، ذلك الملك «وو»، لقد انقضَّ بسرعة علىٰ الشانغ العظيم، الذي -قبل الفجر- توسل من أجل هُدنة».

في النهاية، انتحر دي شين. واستمال «وو» بعض قادة شانغ، وأعدم قادة آخرين، وترك ابن دي شين باعتباره ملكًا مواليًا له. ولكن سرعان ما تعرضت ترتيبات «وو» السياسية للمشاكل، كما سنرىٰ في الفصل الخامس، ولكن في ذلك الوقت كانت الفجوة في التطور الاجتماعي بين الشرق والغرب قد تقلصت بشكل حاد. وقد حصل الغرب علىٰ بداية مبكرة بألفي عام علىٰ الشرق في الزراعة والقرىٰ والمدن والدول، ولكن عبر الألفيتيْن الثالثة والثانية قبل الميلاد تقلَّصت صدارة الغرب باطراد إلىٰ ألف سنة فقط.

ومنذ وقت طويل يعود إلىٰ عشرينيات القرن المنصرم، اعتقد معظم علماء الآثار الغربيين أنَّهم يعرفون لماذا بدأت الصين باللحاق بركب التقدم: كان ذلك لأنَّ الصينيين قد قلَّدوا كل شيء تقريبًا -الزراعة وصناعة الفخار وأعمال البناء واستخراج المعادن والعجلات الحربية- من الغرب. وكان السير جرافتون إليوت سميث، وهو عالم تشريح بريطاني يعيش في القاهرة، متحمسًا جدًّا لدرجة أنَّه تمكَّن من تشويه سمعة «حسد مصر». فأينما نظر في أي مكان في العالم -الأهرامات والوشم والحكايات عن الأقزام والعمالقة- رأىٰ إليوت سميث تقليدًا للنماذج المصرية؛ لأنَّ -كما أقنع نفسه- المصريين «أبناء الشمس» قد حملوا حضارة «هيليوليتية» (heliolithic)، أي «الشمس والحجر»، حول العالم. وعندما نصل إلىٰ حقيقة الأمر، كما خلُص إليوت سميث، فنحن مصريون جميعًا.

لقد بدت بعض تلك الأمور غريبة حتىٰ في وقتها، ومنذ خمسينيات القرن العشرين دحض علم الآثار باطراد ادَّعاءات إليوت سميث كلها تقريبًا. فقد نشأت الزراعة الشرقية مستقلة، واستخدم الشرقيون المنتجات الفخارية منذ آلاف السنين

قبل الغربيين، وكان للشرق تقاليده الخاصة للبناء الأثري، وحتىٰ القرابين البشرية كانت اختراعًا شرقيًا مستقلًا. وبالرغم من كل هذه النتائج، فإنَّ بعض الأفكار المهمَّة انتقلت بوضوح من الغرب إلىٰ الشرق، وقبل كل شيء صناعة البرونز. فقد ظهر ذلك المعدن -المهم جدًّا في إيرلتو- في الصين أولًا، وليس في وادي «ييلو» المتطور، بل في شيانچيانغ القاحلة التي تذروها الرياح بعيدًا إلىٰ الشمال الغربي، علىٰ الأرجح بعد أن جُلب عبر السهوب بواسطة الشعوب ذات المظهر الغربي، والذين ذكرت دفنهم في حوض تاريم آنفًا. وقد دخلت العجلات الحربية -كما رأينا- بالطريقة نفسها علىٰ الأرجح، بعد خمسمائة سنة من وصولها للمركز الغربي من السهوب.

ولكن بينما يُفسّر هذا التسرب من الغرب إلىٰ الشرق بعضًا من لحاق الصين بالركب، فإنَّ أهم عامل حتىٰ الآن لم يكن التقليد الشرقي ولكن الانهيار الغربي. وكان التطور الاجتماعي الشرقي لا يزال متأخرًا عن التطور الاجتماعي الغربي بألف سنة في عام (١٢٠٠ ق. م)، لكنَّ انفجار المركز الغربي من الداخل استأصل ستة قرون من المكتسبات. وبحلول سنة ١٠٠٠ ق. م، كانت نتائج التطور الشرقي متأخرة عن النتائج الغربية ببضع مئات من السنين فقط. وبدأ الانهيار الغربي العظيم في الفترة ما بين (١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق. م) أول نقطة تحول في قصتنا.

فرسان الهلاك

يظل سبب انهيار المركز الغربي واحدًا من أعظم الأسرار في التاريخ. وإذا كان لديّ إجابة ثابتة، كنت بالطبع سأذكرها، ولكن الحقيقة المحزنة هي أنَّه إذا لم تقدم ضربة حظٍ نوعًا جديدًا تمامًا من الأدلة، فنحن علىٰ الأرجح لن نعرف الإجابة أبدًا.

ومع ذلك، فإنَّ النظر المنهجي في عراقيل التطور الاجتماعي الموضحة في هذا الفصل هو كاشف للأمر إلىٰ حد ما. ويلخص الجدول (٤ - ١) ما تدهشني باعتبارها المميزات الأكثر أهمية.

إنَّنا نعرف القليل جدًّا عن الاضطرابات التي أوقفت توسُّع أوروك في الغرب في حوالي سنة ٣١٠٠ ق. م، وتاوسي في الشرق في حوالي سنة ٢٣٠٠ ق. م، لدرجة أنَّنا ينبغي علينا علىٰ الأرجح طرحهما خارج النقاش، لكن الأربع حالات من الاضطرابات المتبقية تنقسم إلىٰ ثنائيتين. أما الثنائية الأولىٰ -الأزمة الغربية بعد سنة ١٧٥٠ ق. م والأزمة الشرقية في سنة ١٠٥٠ ق. م- فكانت كما يمكننا أن نقول من صُنع الإنسان. فقد حوَّلت حرب العجلات الحربية ميزان القوىٰ، واندفع القادمون الجدد داخل المراكز، ونتج كل من العنف والهجرة وتغيير النظام. وكانت النتيجة الرئيسة -في كلتا الحالتين- تحولًا للقوة تجاه مجموعات كانت طرفية في السابق، مع تواصل ارتفاع التطور.

أمَّا الثنائية الأخرىٰ - الأزمات الغربية في الفترة ما بين (٢٢٠٠ - ٢٠٠٠ ق. م)، والفترة ما بين (١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق. م) فمختلفة تمامًا؛ لأنَّ الطبيعة بوضوح زادت من حماقة الإنسان. وكان تغيُّر المناخ خارج نطاق سيطرة الإنسان

إلىٰ حد كبير، وكان علىٰ الأقل مسؤولًا، ولو جزئيًا، عن المجاعات في هذه الفترات (ورغم أنَّه إذا اهتدينا بقصة يوسف الإنجيلية، فقد ساهم ضعف التخطيط أيضًا). وقد كان هذا الثنائي الثاني من العراقيل أكثر خطورة من الأول، وربما نستخلص نتيجة مبدئية مفادها: أنه عندما يمتطي فرسان الهلاك الأربعة - تغيُّر المناخ، والمجاعة، وإخفاق الدولة، والهجرة - خيولهم معًا، ولا سيما عندما يشاركهم فارس خامس وهو المرض؛ فإنَّ العراقيل يمكن أن تتحوَّل إلىٰ انهيارات، وأحيانًا تؤدي إلىٰ انخفاض التطور الاجتماعي.

DATE BCE	MIGRATION	STATE FAILURE	FAMINE	DISEASE	CLIMATE CHANGE
West:					
3100		X			
2200	X	X	X		X
1750	X	X			
1200	X	X	X	?X	X
East:					
2300		X			
1050	X	X			

(موضع الجدول ٤ - ١). فرسان الهلاك: الأبعاد الموثّقة للكوارث (٣١٠٠ - ١٠٥٠ ق.م).

لكننا لا يمكننا أن نستنتج أنَّ الانحرافات والتأرجحات المدارية وراء تغيُّر المناخ هي التي تسببت ببساطة في الانهيار. ويبدو أنَّ الجفاف الذي اجتاح المركز الغربي في حوالي عام (٢٢٠٠ ق. م) كان أقسىٰ من ذلك الذي حدث في حوالي عام (١٢٠٠ ق. م)؛ إلَّا أنَّ المركز واصل التقدم بلا خطة واضحة بين عامي (٢٢٠٠ و٢٠٠٠م) في حين تداعىٰ بين عامي (١٢٠٠ و١٠٠٠ ق. م). وربما كان الجفاف الذي بدأ في عام (٣٨٠٠ ق. م) أسوأ من جفاف عامي (٢٢٠٠ أو ١٢٠٠ ق. م)، ولكن كان له أثر ضئيل نسبيًا في الشرق ودفع بالتطور الاجتماعي لأعلىٰ في الغرب.

وهذا يشير إلىٰ احتمال ثانٍ: وهو أنَّ الانهيار يأتي من التفاعلات بين القوىٰ الطبيعية والبشرية. وأعتقد أنَّنا بوسعنا أن نكون أكثر تحديدًا بشأن ذلك، فالمراكز الأكبر والأكثر تعقيدًا تولّد اضطرابات أكبر وأكثر تهديدًا، ممَّا يزيد من احتمال إطلاق القوىٰ المُعيقة مثل تغيُّر المناخ والهجرة لانهيارات شاملة. في حوالي عام ٢٢٠٠ ق. م كان المركز الغربي كبيرًا بالفعل، مع قصور وملوك متألهين واقتصاديات إعادة توزيع، يغطي المنطقة بأكملها من مصر إلىٰ بلاد الرافدين. وعندما أدىٰ كل من الجفاف والهجرة من الصحراء السورية وجبال زاجروس إلىٰ اهتزاز العلاقات الداخلية والخارجية لهذه المنطقة، كانت النتائج مرعبة، ولكن لأن مناطق المركز الثنائية لمصر وبلاد الرافدين لم تكن مرتبطة ارتباطًا وثيقًا؛ فقد صمد أو سقط كل منهما بشكل مستقل. وبحلول عام ٢١٠٠ ق. م انهارت مصر جزئيًا، ولكن بلاد الرافدين انتعشت، وعندما انهارت بلاد الرافدين جزئيًا في حوالي عام ٢٠٠٠ ق. م، انتعشت مصر.

وفي عام ١٢٠٠ ق. م، علىٰ العكس من ذلك، توسَّع المركز إلىٰ الأناضول واليونان، ووصل إلىٰ واحات آسيا الوسطىٰ، بل وصل إلىٰ السودان أيضًا. وعلىٰ الرغم من أن الهجرات بدأت علىٰ منطقة جديدة غير مستقرة في البحر الأبيض المتوسط، فإن الشعوب في القرن الثاني عشر قبل الميلاد كانت تتنقل في كل مكان من إيران إلىٰ إيطاليا. وكانت كرة الثلج التي أنشأوها أكبر بكثير من أي شيء سبق رؤيته من قبل، وتدحرجت تلك الكرة عبر مركز أكثر ترابطًا كان لديه الكثير كي تزداد الأمور سوءًا. وأحرق المُغيرون المحاصيل في أوجاريت؛ لأنَّ الملك قد أرسل جيشه لمساعدة الحيثيين، وأدت الكوارث في مكان واحد إلىٰ تفاقم الكوارث في أماكن أخرىٰ بطرق لم تحدث قبل ألف عام. وعندما سقطت إحدىٰ الممالك، كانت تؤثر في الممالك الأخرىٰ. وامتدت الفوضىٰ عبر القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وفي النهاية أعاقت تقدم الجميع.

تعني مفارقة التطور الاجتماعي -وهي ميل التطور لتوليد القوىٰ نفسها التي تقوّضه- أنَّ المراكز الأكبر تخلق مشكلات أكبر لنفسها. وكل هذا مألوف تمامًا في زماننا. فقد ربطت زيادة التمويل الدولي في القرن التاسع عشر (الميلادي)

الأمم الرأسمالية في أوروبا وأمريكا معًا، وساعدت علىٰ دفع التطور الاجتماعي لأعلىٰ بسرعة أكبر من أي وقت مضىٰ، لكنَّها أيضًا جعلت من الممكن لفقاعة سوق البورصة الأمريكية في عام (١٩٢٩م) أن تعيق من تقدم جميع هذه البلدان، كما أنَّ الزيادة المذهلة في التطور المالي التي ساعدت علىٰ دفع التطور الاجتماعي لأعلىٰ في السنوات الخمسين الأخيرة، جعلت من الممكن لفقاعة أمريكية جديدة في عام (٢٠٠٨م) أن تزعزع العالم كله تقريبًا.

وهذا استنتاج منذر بالخطر، ولكن يمكننا أيضًا أن نشتق نقطة ثالثة أكثر تفاؤلًا من التاريخ المضطرب لهذه الدول المبكرة. فالمراكز الأكبر والأكثر تعقيدًا تولِّد مُعيقات أكبر وأكثر تهديدًا، لكنَّها أيضًا تقدِّم سبلًا أكبر وأكثر تعقيدًا للاستجابة لها. فقد استغل الزعماء الماليون أزمة (٢٠٠٨م) بطرق لم يكن ممكنًا تصورها في عام (١٩٢٩م)، وبينما أنا أكتب (في أوائل عام ٢٠١٠م) أدَّت هذه الطرق إلىٰ تجنب انهيار مثل ذلك الذي حدث في ثلاثينيات القرن العشرين.

وفي ظل تصاعد التطور الاجتماعي، فإنَّه يبدأ سباق بين العراقيل الأكثر تهديدًا والدفاعات الأكثر تعقيدًا ممَّا مضىٰ. وأحيانًا -كما حدث في الغرب في حوالي عامي (٢٢٠٠ و١٢٠٠ ق. م)- تطغىٰ التحديات علىٰ الاستجابات المتوفرة. وتخرج المشاكل عن نطاق السيطرة، وتتحول العراقيل إلىٰ انهيار، ويتخلف التطور الاجتماعي، سواء كان ذلك لأن القادة يخطئون أو المؤسسات تُخفق، أو بسبب غياب التنظيم والتكنولوجيا.

وقبل الانهيار الذي حدث في الفترة (١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق. م)، كان التطور الاجتماعي الغربي يسير متقدمًا علىٰ التطور الاجتماعي الشرقي بنحو ١٣ ألف سنة. وكان هناك كل سبب يدعو إلىٰ الاعتقاد بأنَّ صدارة الغرب كانت دائمة. أما بعد الانهيار، فقد كانت صدارة الغرب ضئيلة، وكان بمقدور نكسة مماثلة أن تستأصلها بالكلّية. وقد أظهرت مفارقة التطور الاجتماعي التي استمرت بقوة ولمدة طويلة في الفترة ما بين (٥٠٠٠ و١٠٠٠ ق. م)، أن لا شيء يدوم للأبد. وليس بإمكان نظرية مدىٰ طويل حتمية بسيطة أن تخبرنا لماذا يهيمن الغرب.

(٥)

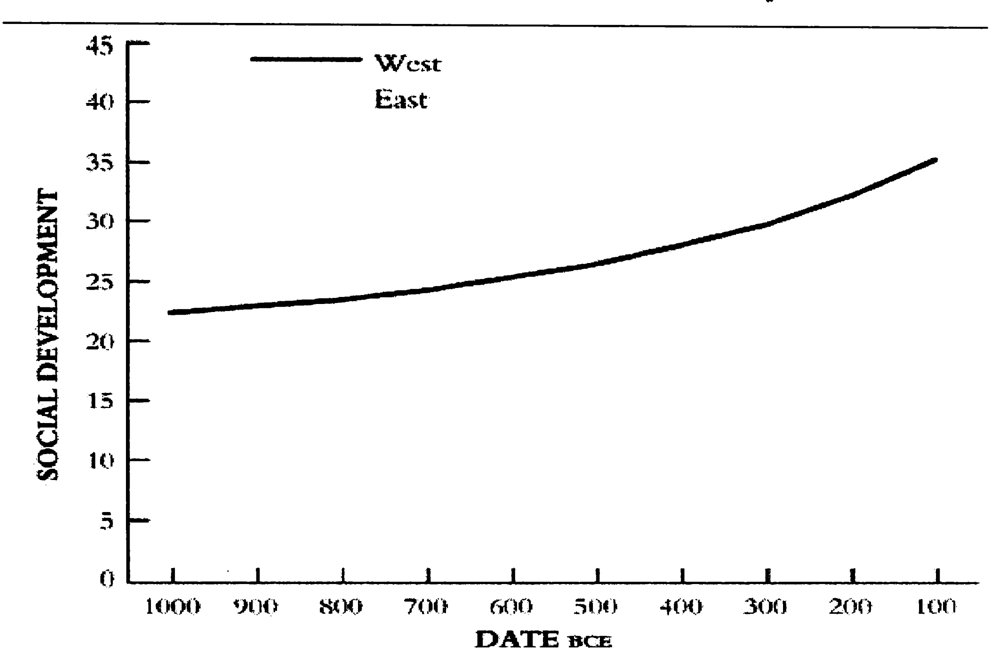
التـقـارب

مزايا الجمود

قد يكون (الشكل ٥ - ١) الأكثر جمودًا علىٰ الإطلاق. وعلىٰ عكس (الشكل ٤ - ٢)، فلا يوجد به تباعدات أو مُعيقات أو تقاربات كبيرة - فقط خطّان يمشيان معًا بالتوازي لما يقرب من ألف سنة.

وبالرغم من أنَّ (الشكل ٥ - ١) يبدو بسيطًا، فإنَّ الأشياء التي لا تحدث فيه بالغة الأهمية لقصتنا. لقد رأينا في الفصل الرابع أنَّه عندما انهار المركز الغربي في عام ١٢٠٠ ق. م، تدنت صدارته إلىٰ حد كبير في التطور الاجتماعي. واستغرق التطور الاجتماعي خمسة قرون لشق طريقه ليعود إلىٰ أربع وعشرين نقطة، أي: حيث بلغ من قبل في حوالي عام ١٣٠٠ ق.م، ولو أنَّه انهار مجددًا عند الوصول لهذا المستوىٰ، لتلاشت الفجوة بين الشرق والغرب تمامًا. ومن ناحية أخرىٰ، لو انهار التطور الاجتماعي الشرقي عندما بلغ أربعًا وعشرين نقطة، لأعاد ذلك صدارة الغرب كما كانت قبل سنة ١٢٠٠ ق. م. وفي الواقع، كما يوضح (الشكل ٥ - ١)، لم يحدث أي من هذه الأشياء. لقد استمر التطور الاجتماعي الشرقي والغربي في الارتفاع بالتوازي في سباق متقارب. وكان منتصف الألفية الأولىٰ قبل الميلاد أحد المنعطفات المهمة في التاريخ؛ لأن التاريخ لم ينجح في التحول.

ولكن ما يحدث في (الشكل ٥ - ١) يُعدّ مهمًا أيضًا. فقد تضاعف التطور الاجتماعي تقريبًا في كل من الشرق والغرب في الفترة ما بين عامي (١٠٠٠ و١٠٠ ق. م). وتخطىٰ التطور الغربي (٣٥ نقطة)، وكان أعلىٰ عندما عبر يوليوس قيصر نهر روبيكوني أكثر ممَّا كان عندما عبر كولومبوس الأطلسي.



(موضع الشكل ٥ - ١). المخطط الأكثر جمودًا في التاريخ: التطور الاجتماعي من (١٠٠٠ - ١٠٠ ق. م).

لماذا لم ينهَر المركز الغربي في حوالي سنة ٧٠٠ ق. م، أو المركز الشرقي في حوالي سنة ٥٠٠ ق. م، عندما بلغ كل منهما أربعًا وعشرين نقطة؟ ولماذا ارتفع التطور الاجتماعي إلىٰ حد كبير بحلول سنة ١٠٠ ق. م؟ ولماذا تشابه المركز الشرقي والغربي كثيرًا في تلك اللحظة؟ هذه هي الأسئلة التي أحاول الإجابة عنها في هذا الفصل، علىٰ الرغم من أنَّ الأسئلة التالية الواضحة -لماذا إذا كان التطور الاجتماعي مرتفعًا جدًّا في سنة ١٠٠ ق. م، لم تحتل روما القديمة أو الصين العالم الجديد؟ أو تقوم بثورة صناعية؟- يجب أن ننتظر حتىٰ الفصلين التاسع والعاشر، عندما يمكننا مقارنة ما حدث بعد عام ١٥٠٠م بما لم يحدث في العصور القديمة. ومع ذلك، نحن بحاجة إلىٰ معرفة ما حدث.

المَلَكيّة بتكلفة زهيدة

باختصار، تفادىٰ المركزان الشرقي والغربي الانهيار في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد عن طريق إعادة هيكلة أنفسهم، وابتكار مؤسسات جديدة جعلتهم متقدمين بخطوة عن المُعيقات التي ولَّدها توسُّعهم المستمر.

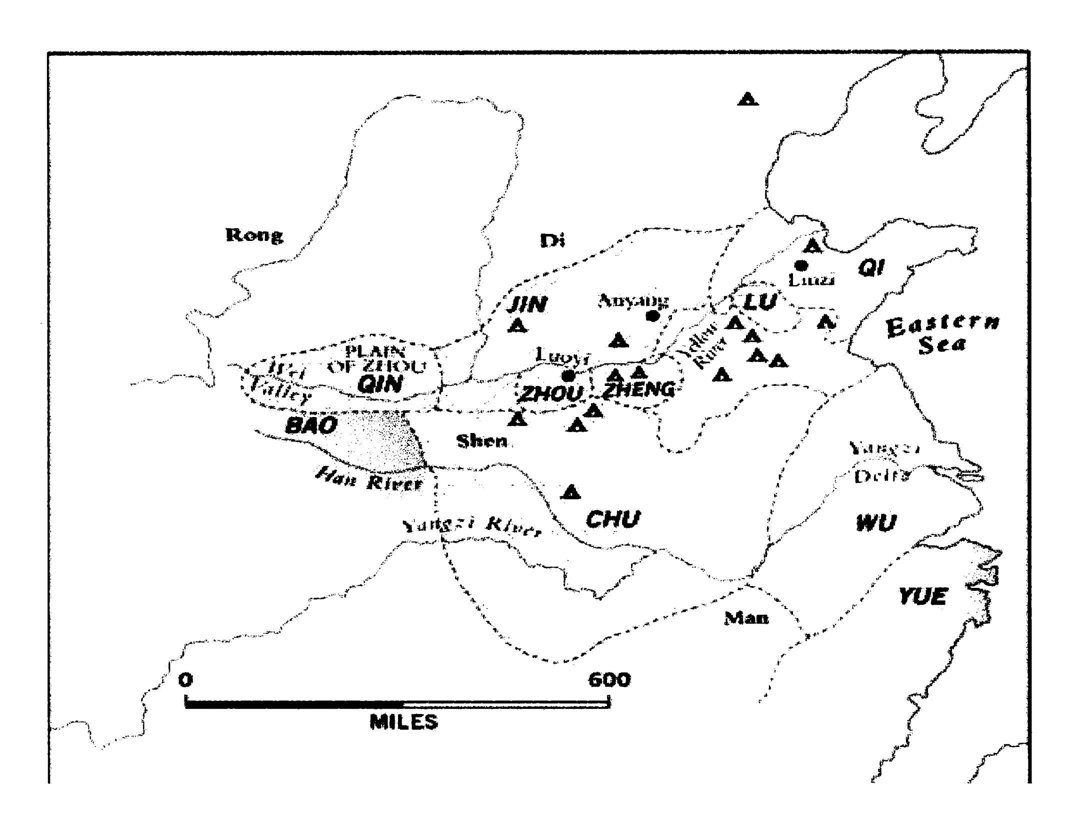
ثمة طريقتان لإدارة الدولة، يمكن أن نسميهما: بالاستراجيات عالية التكلفة، والاستراتيجيات منخفضة التكلفة. فالاستراتيجيات عالية التكلفة، كما يوحي اسمها، تعدّ مكلفة. وتتضمن القادة الذين يُمركزون السلطة، أي يوظفون أو يقيلون المرؤوسين الذين يخدمونهم مقابل أجور في منظومة بيروقراطية أو في الجيش. ويتطلب دفع رواتب كبيرة دخلًا كبيرًا، لكنَّ وظيفة البيروقراطيين الرئيسة هي توليد الدخل عن طريق الضرائب، ومهمَّة الجيش هي فرض جمع هذه الضرائب بالقوة. والهدف من ذلك كله هو تحقيق التوازن: فالكثير من الإيرادات تخرج ولكن المزيد منها يدخل، ويعيش الحكَّام وموظفوهم علىٰ الفرق بينهما.

أما النموذج منخفض التكلفة فهو رخيص. فالقادة لا يحتاجون لعائدات ضرائب ضخمة؛ لأنَّهم لا ينفقون الكثير، فهم يجعلون أشخاصًا آخرين يقومون بهذا العمل. وبدلًا من الدفع للجيش، يعتمد الحكَّام علىٰ النخب المحلية - والذين قد يكونون أقرباءهم- لحشد الجيوش من إقطاعياتهم. ويكافئ الحكَّام هؤلاء اللوردات بمشاركة الغنائم معهم. ويؤسِّس الحكَّام الذين يواصلون الفوز توازنًا منخفض التكلفة: فليس هناك الكثير من العائدات التي تدخل، ولكن الذي يخرج أقل منها أيضًا، ويعيش القادة وأقاربهم علىٰ الفرق.

وقد كان أكبر حدث في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد في كل من الشرق والغرب، هو التحوُّل من الدول منخفضة التكلفة تجاه الدول عالية التكلفة. وقد ظلَّت الدول تتحرك في هذا الاتجاه منذ أيام أوروك، وفي منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد. كان لدىٰ فراعنة مصر بالفعل الكثير من القوىٰ البيروقراطية لبناء الأهرامات، وبعد ألف سنة لاحقًا نظَّم خلفاؤهم جيوشًا معقدة من العجلات الحربية. ولكنَّ حجم دول الألفية الأولىٰ قبل الميلاد ونطاقها قزّم جميع الجهود السابقة؛ لذا تسيطر علىٰ هذا الفصل أنشطة الدول المتمثلة في الإدارة والقتال.

لقد سلكت الدول الشرقية والغربية طرقًا مختلفة تجاه التكلفة العالية خلال الألفية الأولىٰ قبل الميلاد، إلَّا أنَّ كلا الطريقين كانا وعريْن للغاية. ظلَّت الدول الشرقية التي تأسَّست بعد وقت طويل من الدول الغربية بالقرب من التكلفة المنخفضة لسلسلة الأنشطة في حوالي سنة ١٠٠٠ ق. م. وكانت دولة شانغ عبارة عن مجموعة غير مترابطة من الحلفاء الذين كانوا يرسلون السلاحف والخيول إلىٰ أنيانج ويظهرون أحيانًا في الحروب؛ وحين أطاح الملك «وو» بالشانغ في عام ١٠٤٦ ق. م كانت دولة چو أكثر تفككًا. فلم يضم «وو» مملكة شانغ؛ لأنَّه لم يجد من يديرها. لقد نصَّب ببساطة ملكًا دمية علىٰ شانغ ثمَّ عاد إلىٰ وطنه في وادي وي (الشكل ٥ - ٢).

وهذه طريقة منخفضة التكلفة للسيطرة علىٰ الأعداء السابقين عندما تنجح، لكن في هذه الحالة سرعان ما أبطل ذلك تناحر الإخوة الذي كان مشكلة مستدامة في منظمات التكلفة المنخفضة. فلم يستطع «وو» الاعتماد علىٰ أسرته لفعل ما أراده، ومات في عام ١٠٤٣ ق. م، تاركًا وراءه ثلاثة أشقاء وابنًا. وحسب الرواية الرسمية لأسرة چو، المكتوبة بالطبع من قِبَل المنتصرين، فقد كان تشنج - وهو ابن «وو»- صغيرًا جدًّا علىٰ الحُكم؛ ولذا فقد وافق دوق چو -وهو شقيق «وو» الأصغر- بإخلاص علىٰ تولي الوصاية (يعتقد الكثير من المؤرخين أنَّ الدوق قد قام فعلًا بانقلاب). وكان رد فعل شقيقي الملك الأكبرين هو ضم قواتهم إلىٰ فلول نظام شانغ لمقاومة الدوق.



(موضع الشكل ٥ - ٢). الملكية منخفضة التكلفة في الشرق: مواقع من النصف الأول للألفية الأولىٰ قبل الميلاد المذكورة في النص. وتمثل المثلثات مستعمرات چو الرئيسة.

وفي عام ١٠٤١ ق. م، انتصر دوق چو في هذه الحرب الأهلية وقتل أشقاءه الأكبر منه، لكنَّه أدرك أنَّه لا يستطيع حكم الشانغ بالتكلفة المنخفضة نفسها التي تمناها «وو» ولا أن يتركهم ليتآمروا ضده. وقد توصل إلىٰ حل رائع منخفض التكلفة: إرسال أفراد من عشيرة چو الملكية لإقامة مدن مستقلة ذاتيًا تقريبًا علىٰ طول وادي النهر الأصفر (يتروواح عددها بين ٢٦ و٧٣، بحسب مَن نصدقه من المؤلفين القدامىٰ). ولم تدفع تلك المدن الضرائب لدوق چو، ولكنَّه لم يكن عليه أن يدفع لها لتكون موجودة علىٰ السواء.

لقد كانت مملكة چو فعلًا شأنًا عائليًا، تشترك في الكثير من الأمور مع أشهر المؤسسات العائلية؛ المافيا. عاش الملك -عرَّاب أسرة چو- علىٰ إقطاعياته الضخمة في سهل چو، يديرها ببيروقراطية بدائية، بينما عاش الحكَّام المساعدون -«رجال العصابة» بمصطلحات العصابات- في مدنهم المُحصَّنة.

وعندما كان الملك يدعوهم، وفَّر له هؤلاء اللوردات القوة؛ إذ كانوا يظهرون مع عجلات حربية وجيوش بحيث يستطيع الملك زعزعة استقرار أعدائه. ومع انتهاء الصراع كانت العصابات تتشارك الغنائم وتعود إلىٰ البيت. وكان الجميع سعداء (باستثناء الأعداء المنهوبين).

ومثل الأعداء في مافيا صقلية، فقد قدَّم ملوك چو حوافز عاطفية وكذلك مادية للإبقاء علىٰ ولاء رجالهم. والواقع أنهم استثمروا مبالغ كبيرة في الشرعية التي هي في كثير من الأحيان الشيء الوحيد الذي يفصل بين الملوك وأفراد العصابات. وقد أقنعوا الحكَّام التابعين بأنَّ الملك - باعتباره ربَّ الأسرة، وزعيم الكهانة ومعتقد السلف، ونقطة الاتصال بين هذا العالم والعالم الإلهي - له الحق في استدعائهم.

وكلما استطاع الملك أن يعوّل علىٰ ولاء رجال عشيرته، كان يضطر بالطبع بشكل أقل إلىٰ الاعتماد علىٰ تقاسم الغنائم. وقد طوّر ملوك چو بنشاط نظريةً جديدة للملكية: وهي أن «دي» -الإله العليّ في السماء- يختار حكامًا أرضيين، وأنَّه أنعم بتفويضه علىٰ چو الفاضلة؛ لأنَّ الإله كان مشمئزًا من أخطاء شانغ الأخلاقية. وقد ازدادت قصص الملك «وو» تعقيدًا لدرجة أنه بحلول القرن الرابع قبل الميلاد كان الفيلسوف منسيوس (Mencius) يدَّعي أنه بدلًا من محاربة الشانغ، صرَّح «وو» ببساطة، «لقد أتيت جالبًا السلام، لا لشنِّ الحرب علىٰ الناس». وسرعان ما أصبح «صوت الناس وهم يطرقون رؤوسهم علىٰ الأرض [في خضوع] مثل صوت سقوط الجبل».

ولم يصدق تلك السخافات سوىٰ قليل من لوردات چو (هذا إن صدقها أي منهم)، ولكن نظرية تفويض السماء شجعتهم علىٰ مجاراة الملوك. وكان من الممكن أيضًا أن تنقلب النظرية: إذا توقفت چو عن التصرف وفقًا للفضيلة، فإن بإمكان السماء أن تسحب تفويضها وتمنحه لشخص آخر. ومَن سوىٰ اللوردات كان سيحكم ما إذا كان سلوك الملوك قد رقي إلىٰ مستوىٰ السماء أم لا؟

لقد أحب أرستقراطيو چو نقش قوائم بالأوسمة التي نالوها علىٰ الآنية البرونزية المستخدمة في طقوس تكريم أسلافهم، ممَّا يكشف بلطف عن الجمع

بين المكافآت المادية والنفسية. فأحد هذه النقوش -مثلًا- يصف كيف «منح» الملك تشنغ (الذي حكم في الفترة ما بين ١٠٣٥ - ١٠٠٦ ق. م) رتبة لأحد التابعين في حفل بهيج، ومَنَحه سيادته وأراضيه. ويقول النقش: «في المساء مُنح اللورد بعض الفلاحين، ومائتي عائلة، ومُنح حق استخدام فريق من العجلات الحربية الذي كان يستخدمه الملك، وحدوات فرس برونزية، ومعطفًا ضد الأتربة وروبًا وقماشًا ونعالًا».

وفي حين نجح ابتزاز چو، فقد كان علىٰ درجة عالية من الفعالية. لقد حشد الملوك جيوشًا كبيرة جدًّا (مئات العجلات الحربية بحلول القرن التاسع قبل الميلاد)، وتوصلوا إلىٰ اتفاق عام بأنَّ الأسلاف أرادوهم أن ينتزعوا أموال حماية من (الأعداء البربريين) الذين كانوا يحيطون بعالم چو. وكان المزارعون في مملكة چو، بعد أن أصبحوا أكثر أمانًا من الهجوم، يزرعون حقولهم ويغذون المدن المتنامية. وبدلًا من أن يفرض اللوردات ضرائب علىٰ المزارعين، انتزعوا رسوم العمل. فمن الناحية النظرية، كانت الحقول تُقسّم علىٰ شكل شبكات من تسعة مربّعات مثل لعبة (تيك تاك تو)، حيث تزرع ثماني أسر الحقول الخارجية لأنفسها، ويتبادلون الأدوار لزراعة الحقل التاسع، الذي في الوسط، من أجل صاحب الأرض. لكن الواقع بلا شك كان أكثر فوضوية، فالجمع بين عمالة الفلاحين والغنائم والابتزاز أدىٰ إلىٰ ثراء النخبة. فكانوا يدفنون بعضهم بعضًا في مقابر رائعة، وفي حين كانوا يقدمون قرابين أقل من تلك التي كان يقدِّمها أرستقراطيو شانغ، كانوا يدفنون عجلات حربية أكثر. وقد صبوا ونقشوا أعدادًا مذهلة من الآنية البرونزية (استُخرج منها ونُشر ما يقرب من ١٣ ألف مثال)، وعلىٰ الرغم من أنَّ الكتابة ظلَّت أداة نخبوية، فقد تخطت استخداماتها الضيقة في عهد شانغ.

لكن النظام امتلك نقطة ضعف؛ وهي أنه كان يعتمد علىٰ طريقة ثابتة من الانتصارات. فقد كان الحكَّام يتناقلون الملكية لما يقرب من قرن من الزمان، ولكن في عام ٩٥٧ ق. م أخفق الملك چو. ولم يكن الإخفاق شيئًا يود أي أحد تدوينه؛ لذا فكل ما نعلمه عن ذلك الإخفاق يأتي من تعليق كان مُعدًّا للتخلص

منه في «حوليات الخيزران» (Bamboo Annals)، وهي سجلات تأريخية دُفنت في مقبرة في عام ٢٩٦ ق. م وأُعيد اكتشافها عندما نُهبت المقبرة بعد ما يقرب من ستة قرون لاحقة. وقد جاء فيها أنَّ اثنين من اللوردات العظام كانا يتبعان الملك چو ضد تشو، وهي منطقة توجد جنوب مملكة چو. وتقول حوليات الخيزران: «كانت السماء مظلمة وعاصفة. كانت الطيور والأرانب البرية مرعوبة. فقد هلكت جيوش الملك الستة في نهر هان. ومات الملك».

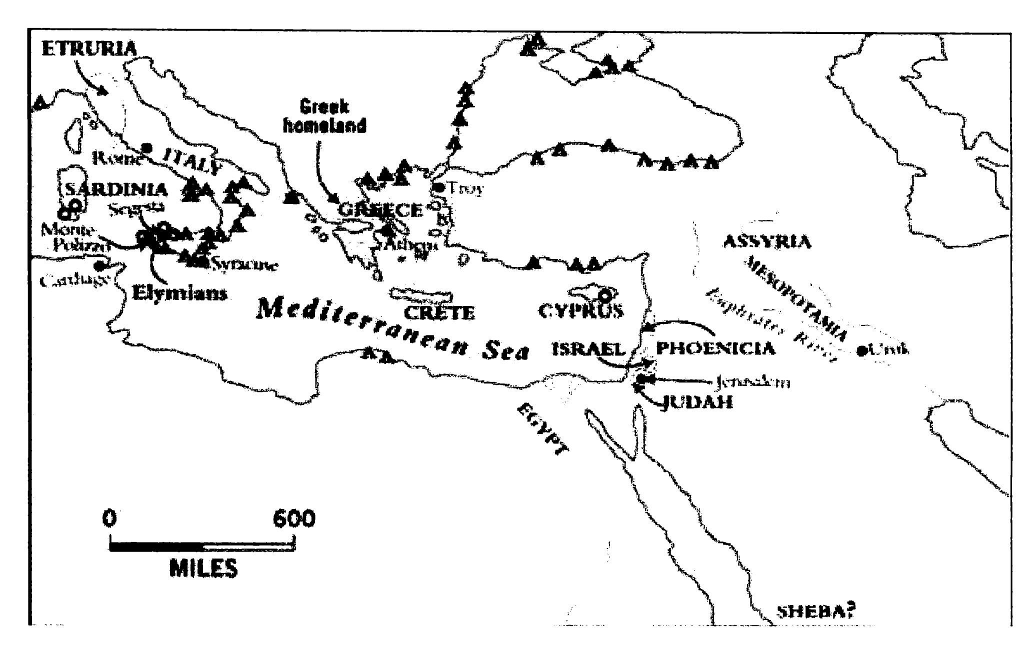
وفجأة فقَدَ الچو جيشهم وملكهم ومقام تفويض السماء. فربما -كما خلص اللوردات في الظاهر- لم يكن الچو علىٰ ذلك القدر من الفضيلة في نهاية الأمر. وتفاقمت مشاكلهم، فبعد عام ٩٥٠ ق. م توقفت النقوش علىٰ الآنية البرونزية التي عُثر عليها في الطرف الشرقي من النهر الأصفر عن ادّعاء الولاء لچو، وفي حين جاهد الملوك لإبقاء حاشيتهم تحت أيديهم، فقدوا السيطرة علىٰ «الأعداء البربريين» في الغرب، الذين بدؤوا يهددون مدن چو.

ومع قرب نفاد إمدادات الأراضي التي احتلت مؤخرًا، تزايد نزاع النخبة علىٰ الأراضي. وبعد أن أصبح في مواجهة انهيار دولته ذات التكلفة المنخفضة، اتجه الملك «مو» إلىٰ حلول أعلىٰ تكلفة عن طريق بناء بيروقراطية جديدة بعد عام ٩٥٠ ق. م. واستخدم بعض ملوك چو (لسنا متأكدين مَن هم) الحكَّام التابعين لهم لتوزيع الأراضي بين العائلات، ربما للمكافأة علىٰ الوفاء ومعاقبة الخيانة، لكنَّ الأرستقراطيين تصدوا لذلك. وبالجمع بين أجزاء القصة من القصص الموجزة علىٰ الآنية البرونزية، يبدو وكأن أحدهم قد خلع الملك «ييه» في عام (٨٨٥ ق. م)، فقط كي يجعل «الكثير من اللوردات» يستعيدونه مرة أخرىٰ، ثم ذهب «ييه» إلىٰ الحرب مع أكبر هؤلاء اللوردات، وهو ماركيز أي من تشي، وقام بغليه حيًا في مرجل برونزي في عام ٨٦٣ ق. م. وفي عام ٨٤٢ ق. م، ردَّ «الكثير من اللوردات» الضربة وهرب الملك «لي» إلىٰ المنفىٰ مثل رئيس عصابة يذهب إلىٰ السرير بينما يحاول رجال خونة إخراجه منه.

وفي الطرف الآخر من أوروبا الآسيوية، كان الملوك الغربيون أيضًا يبنون دولًا منخفضة التكلفة في القرنين التاسع والعاشر قبل الميلاد. وتُعدّ كيفية

انسحاب المركز الغربي من تدهوره عقب عام ١٢٠٠ ق. م غير واضحة بنفس كيفية عدم وضوح بدء ذلك التدهور، ولكن ربما لعب الابتكار الناتج عن اليأس دورًا في ذلك. لقد أجبر انهيار التجارة بعيدة المدىٰ السكَّان علىٰ اللجوء إلىٰ الموارد المحلية، ولكن بعض السلع الحيوية -وخاصة القصدير، الضروري لصناعة البرونز- لم تكن متوفرة في كثير من الأماكن. ولذا تعلّم الغربيون استخدام الحديد عوضًا عن ذلك. وتوصل الحدادون في قبرص -التي طالما كانت موطنًا لصناعة التعدين الأكثر تقدمًا في العالم- إلىٰ كيفية استخراج معادن قابلة للاستخدام قبل عام ١٢٠٠ ق. م من خام الحديد الأحمر والأسود الذي برز في الوقت نفسه في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط، ولكن مع توافر البرونز ظلَّ الحديد مجرد عنصر مستحدث. وقد غيّر تلاشي إمدادت القصدير كل ذلك، فأصبح الأمر إما حديدًا وإما لا شيء. وبحلول عام ١٠٠٠ ق. م، كان المعدن الرخيص متداولًا، امتدادًا من اليونان وحتىٰ ما يعرف الآن بإسرائيل (الشكل ٥ - ٣).

وفي أربعينيات القرن العشرين أشار جوردون تشايلد -وهو أحد عمالقة علم الآثار الأوروبي- إلىٰ أنَّ «وجود الحديد الرخيص أدّىٰ إلىٰ دمقرطة الزراعة والصناعة والحرب أيضًا». وقد تركتنا ٦٠ عامًا من الحفريات أكثر استبصارًا حول كيف حدث ذلك بالضبط. ولكن تشايلد كان محقًّا بالتأكيد في أنَّ سهولة توفر الحديد قد جعلت الأسلحة والأدوات المعدنية أكثر شيوعًا في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد ممَّا كانت عليه في الألفية الثانية، وعندما انتعشت طرق التجارة، لم يعد أحد إلىٰ الأسلحة أو الأدوات البرونزية.



(موضع الشكل ٥ - ٣). الملكية منخفضة التكلفة في الغرب: مواقع النصف الأول من الألفية الأولىٰ قبل الميلاد المذكورة في النص. تمثّل المثلثات المستعمرات اليونانية الرئيسة، وتمثّل الدوائر المفتوحة المستعمرات الفينيقية الرئيسة، أما الموطن اليوناني فهو مظلَّل.

كانت إسرائيل هي أول جزء ينتعش من المركز الغربي بعد العصور المظلمة؛ إذ يذكر الكتاب المقدس العبري أنَّ في القرن العاشر قبل الميلاد أنشأ الملكان داود وسليمان «ملكية متحدة» تمتد من حدود مصر إلىٰ نهر الفرات. وازدهرت عاصمتها القدس، وأقام سليمان مأدبة لملكة سبأ البعيدة (ربما في اليمن) وأرسل بعثات تجارية عبر البحر الأبيض المتوسط. وبينما تُعدّ هذه الملكية أصغر وأضعف من ممالك العصر الأممي، فإن الملكية المتحدة تبدو أكثر مركزية من الشأن العائلي المعاصر لچو، حيث كانت تنتزع الضرائب والإتاوات من جميع المناطق المجاورة. وربما كانت أقوىٰ دولة في العالم إلىٰ أن انفصلت مكوناتها وهم شعبا إسرائيل ويهوذا فجأة بوفاة سليمان في حوالي ٩٣١ ق. م.

إلَّا إذا -بعبارة أخرىٰ- لم يحدث بالفعل أي من هذه الأشياء. يعتقد كثير من العلماء الإنجيليين بأنَّه لم تكن هنالك ملكية متحدة. ويجادلون بأنَّ الأمر كله كان محض خيال، اخترعه الإسرائيليون بعد قرون لاحقة لتعزية أنفسهم علىٰ

الوضع المتردي في زمنهم. وبالتأكيد كان علماء الآثار يواجهون مشكلات في العثور علىٰ المشاريع البنائية الكبرىٰ التي يفيد الإنجيل العبري ببناء داود وسليمان لها، وأصبحت الجدليات تنذر بالخطر. وفي ظلّ الظروف العادية، عُرف عن علماء الآثار حتىٰ الأكثر إخلاصًا منهم أنهم يغفون في الندوات التي تدور حول تاريخ آنية التخزين، ولكن عندما أشار أحد علماء الآثار في تسعينيات القرن العشرين إلىٰ أنَّ القدور التي كانت عادة تعود إلىٰ القرن العاشر قبل الميلاد هي في الواقع تعود إلىٰ القرن التاسع -وهو ما سيعني أنَّ المباني الأثرية التي ارتبطت بسليمان سابقًا في القرن العاشر، لا بُدَّ أنها تعود أيضًا إلىٰ مائة سنة لاحقة، ممَّا يعني بدوره أنَّ مملكة سليمان كانت مكانًا فقيرًا وغير مميَّز وأنَّ قصة الكتاب المقدس العبري خاطئة- أثار بذلك ضجة جعلته يتخذ حارسًا شخصيًا.

هذه مياه عكرة، ومع عدم امتلاكي لحارس شخصي، فسوف أخرج منها سريعًا. يبدو لي أنَّ القصة الإنجيلية مثل التقاليد الصينية عن شيا وشانغ التي نوقشت في الفصل الرابع، قد تكون مبالغًا فيها ولكن من غير المحتمل أن تكون خيالية بالكلية، وتشير الأدلة من الأجزاء الأخرىٰ في المركز الأوروبي إلىٰ أنَّ الانتعاش كان جاريًا بحلول أواخر القرن العاشر قبل الميلاد. وفي عام ٩٢٦ ق. م، قاد شيشونغ الأول -وهو أمير حرب ليبي استولىٰ علىٰ عرش مصر- جيشًا عبر مملكة يهوذا (الجزء الجنوبي من إسرائيل الحديثة والضفة الغربية) في ما يشبه محاولة لاستعادة الإمبراطورية المصرية القديمة. وقد أخفق في ذلك، ولكن في الشمال بدأت قوة أكبر ساكنة في الحركة. وبعد فجوة بلغت ١٠٠ عام في أثناء العصور المظلمة، نهضت السجلات الآشورية الملكية ثانية في ٩٣٤ ق. م، في عهد الملك آشور دان الثاني، ممَّا منحنا نظرة خاطفة عن دولة عصابية تبدو چو بجانبها ملائكية.

كان آشور دان مدركًا تمامًا أنَّ مملكة آشور كانت لا تزال تتعافىٰ من حقبة مظلمة. وكتب: «لقد أعدْتُ شعوب آشور المنهكة الذين هجروا مدنهم ومنازلهم في مواجهة العوز والجوع والمجاعة، ورحلوا إلىٰ أراضٍ أخرىٰ، وأسكنْتهم في مدن وبيوت. . .وقد سكنوا في سلام». في بعض النواحي، كان آشور دان ملكًا

قديم الطراز، يرىٰ نفسه الممثل الأرضي للإله الراعي آشور، علىٰ نحو شبيه جدًّا بما كان يفعله ملوك بلاد الرافدين لألفي عام. لكن آشور تغيّر بالكلية خلال الحقبة المظلمة. فقد أصبح إلهًا غاضبًا، غاضبًا جدًّا في الحقيقة؛ لأنَّه علىٰ الرغم من معرفته بأنه كان إلهًا فوقيًا، فلم يتمكن معظم البشر من إدراك ذلك. وكان عمل آشور هو جعلهم يدركون ذلك من خلال تحويل العالم إلىٰ أرض صيد تابعة له. وإذا أدىٰ الصيد من أجل آشور إلىٰ ثراء آشور دان، فقد كان ذلك جيدًا أيضًا.

وفي قلب آشور، كان الملك يسيطر علىٰ بيروقراطية صغيرة ويعيِّن حكامًا يُسمّون أبناء السماء، ويمنحهم إقطاعيات ضخمة وأيدي عاملة. وكانت تلك ممارسات عالية التكلفة، وكانت لتكون مألوفة لأي حاكم في العصر العالمي، لكنَّ قوة ملك الآشوريين الحقيقية كانت مصادرها منخفضة التكلفة. وبدلًا من فرض ضرائب علىٰ آشور لدفع رواتب جيش يقوم بالصيد من أجل آشور، اعتمد الملك علىٰ أبناء السماء لتوفير الجنود، وكافأهم -مثلما فعل ملوك چو مع لورداتهم- بالغنائم والهدايا المثيرة ومكان في الطقوس الملكية. وقد سيطر أبناء السماء علىٰ ذلك المنصب للفوز بثلاثين عامًا من الحُكم، وقاموا بتحويل أراضيهم بكفاءة إلىٰ إقطاعات تورّث وحولوا عمّالهم إلىٰ عبيد.

كان الملوك الآشوريون -مثل حكَّام چو- رهن إرادة الآلهة، ولكنَّهم طالما أنهم ينتصرون في الحروب فلم يكن ذلك مهمًا. وقد وفّر أبناء السماء جيوشًا أكبر بكثير من ملوك چو التابعين (فبحسب القصص الملكية، بلغوا خمسين ألفًا من المشاة في عام ٨٧٠ ق. م، وأكثر من مائة ألف في عام ٨٤٥ ق. م، بالإضافة إلىٰ آلاف العجلات الحربية)، وقد وفّرت بيروقراطية الملوك منخفضة التكلفة نسبيًا الدعم اللوچيستي لإطعام هذه الحشود وتحريكها.

وليس من الغريب أنَّ حكام البلدان المجاورة لآشور، التي كانت بلدانًا أصغر وأضعف، كانوا يفضّلون شراء الحماية عن خوزقتهم بعصيّ مدببة عندما تحترق مدنهم. لم يكن من الممكن رفض عروض الآشوريين، وخاصة في ظلّ أنَّ آشور كانت تترك دومًا ملوكًا محليين خانعين في السلطة المحلية بدلًا من استخدام

استراتيجية چو التي تتضمّن استبدالهم بمستعمرين. وكان من الممكن حتىٰ أن ينتهي أمر الملوك المهزومين بالربح، فإذا أقرضوا قواتهم لآشور في حربه القادمة، لاستطاعوا الحصول علىٰ سهم من الغنيمة.

ولكن ربما تم إغراء الملوك العملاء بالتراجع عن صفقاتهم؛ لذلك ملأ آشور عقولهم بالإرهاب المقدس. لم يكن علىٰ أولئك الذين استسلموا أن يعبدوا آشور، ولكن كان عليهم أن يعترفوا بأن آشور كان يحكم السماء وأنَّه كان يُخبر آلهتهم ما عليهم فعله - وهو ما جعل التمرد بمثابة خطيئة ضد آشور وإهانة سياسية كذلك، ممَّا لا يجعل للآشوريين أي خيار سوىٰ المعاقبة بأقصىٰ وحشية ممكنة. وقد زيّن الملوك الآشوريون قصورهم بمشاهد منحوتة تمثل وحشية مروعة، وسرعان ما تصبح سعادتهم بفهرسة المجازر أمرًا مذهلًا للعقل. ولنأخذ علىٰ سبيل المثال، قصة آشورناسيربال الثاني عن العقوبات الصادرة بحق المتمردين في حوالي سنة ٨٧٠ ق. م:

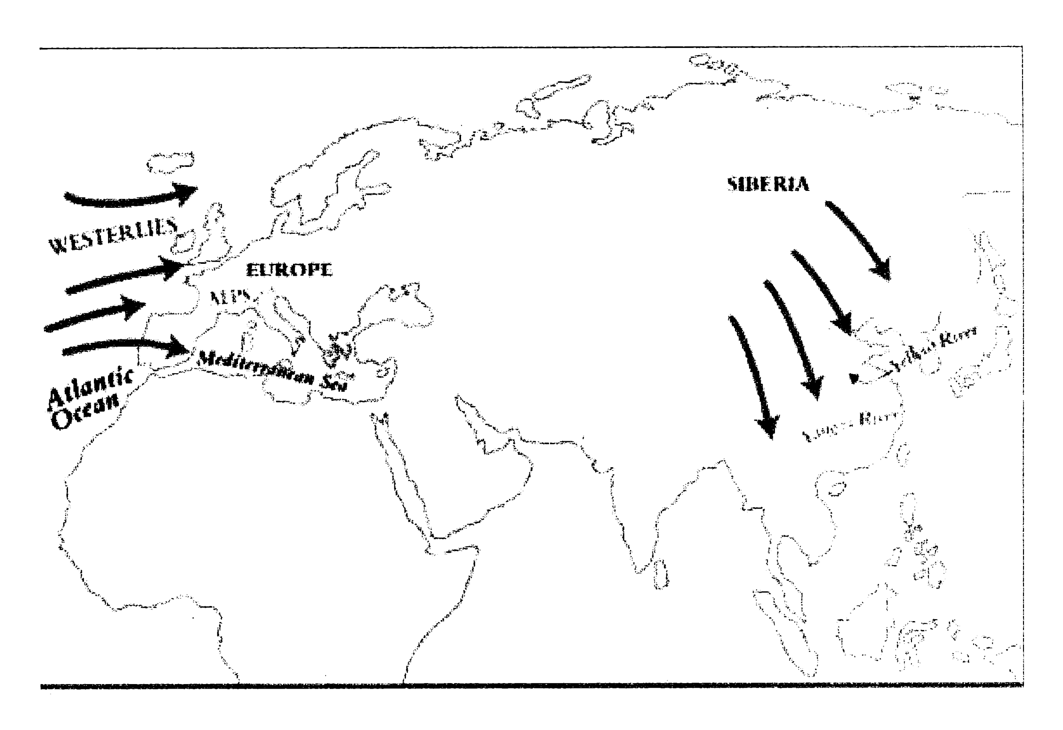
«لقد بنيْتُ برجًا أمام بوابة مدينته، وقمتُ بسلخ جميع الزعماء الذين تمرّدوا، وغطيْتُ البرج بجلودهم، وعلَّقتُ بعضها داخل البرج، والبعض الآخر علىٰ عصيّ، وربطت البعض بعصيّ حول البرج . . . وحرقتُ أسرىٰ كثيرين منهم بالنيران، واتخذتُ كثيرين كأسرىٰ أحياء. وقطعتُ أنوف بعضهم وآذانهم وأصابعهم، واقتلعتُ عيون الكثير منهم. وصنعتُ كومة من الأحياء وأخرىٰ من الرؤوس، وعلَّقتُ رؤوسهم علىٰ جذوع الأشجار حول المدينة. وحرقتُ الشباب والعذارىٰ في النيران. وأمسكتُ بعشرين رجلًا وجعلتهم يصطفون في قصره . . . وقد أنهكت بقية المقاتلين بالعطش في الصحراء».

لقد كانت المصائر السياسية الشرقية والغربية تسير في اتجاهات مختلفة في القرن التاسع قبل الميلاد مع انطلاق حُكم چو، بينما كانت آشور تتعافىٰ بعد حقبة مظلمة، ولكن كلا المركزين عايشا كلًا من الحرب المستمرة والمدن المتنامية والمزيد من التجارة ووسائل منخفضة التكلفة لإدارة الدول. وفي القرن الثامن قبل الميلاد وجدوا شيئًا آخر مشتركًا: اكتشف كلاهما محدوديّة الملكية بتكلفة زهيدة.

رياح التغيير

كما يقول المثل: مصائب قوم عند قوم فوائد. ربما لم يصدق ذلك المثل مثلما صدق في عام ٨٠٠ ق. م، عندما ولّدت تذبذبات طفيفة في محور الأرض رياحًا شتوية أقوىٰ في جميع أنحاء نصف الكرة الشمالي (الشكل ٥ - ٤). ففي غرب أوروبا الآسيوية، حيث تعد الرياح الشتوية الرئيسة هي «الغربيات العلوية»، وهي تهب من المحيط الأطلسي، وهذا يعني المزيد من الأمطار الشتوية. وقد كان ذلك جيدًا للشعوب التي تسكن حوض البحر المتوسط، حيث ظلَّ السبب الأكثر شيوعًا للوفاة هو الفيروسات المعوية المستشرية في الطقس الحار والجاف، وكانت المشكلة الرئيسة للمزارعين هي أنَّ الرياح الشتوية قد لا تجلب ما يكفي من الأمطار من أجل حصاد جيِّد. لكنَّ البرد والمطر كانا أفضل من المرض والجوع.

كان نظام المناخ الجديد سيئًا للشعوب في شمال جبال الألب، حيث كانت القاتلات الرئيسة هي أمراض الجهاز التنفسي التي كانت تزداد في البرد والرطوبة، وكانت المشكلة الزراعية الرئيسة هي الموسم القصير للزراعة الصيفية. وفي ظلّ تغيُّر المناخ بين عامي (٨٠٠ و٥٠٠ ق. م) انخفض عدد السكان في شمال أوروبا وغربها، ولكنَّه ارتفع في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط.



(موضع الشكل ٥ - ٤). رياح الشتاء الباردة: تغيُّر المناخ في أوائل الألفية الأولىٰ قبل الميلاد.

وفي الصين كانت الرياح الشتوية تهب من سيبريا بالأساس؛ ولذا عندما أصبحت أقوىٰ بعد عام ٨٠٠ ق. م، جعلت الطقس أكثر جفافًا وبرودة. وقد جعل هذا الزراعة أسهل حول نهر اليانجتسي والنهر الأصفر بتقليل الفيضانات، واستمر النمو السكاني في كلا الواديين، ولكنَّه جعل الحياة أصعب علىٰ الشعوب في الهضبة القاحلة شمال النهر الأصفر.

وفي إطار هذه الأنماط العريضة، كان هناك عدد لا يحصىٰ من الاختلافات المحلية، ولكن النتيجة الرئيسة كانت تشبه أحداث تغيُّر المناخ التي رأيناها في الفصل الرابع؛ إذ تغيَّرت التوازنات داخل وبين المناطق ممَّا أجبر الناس علىٰ الاستجابة. ويقول مؤلف كتاب مرجعي عن علم المناخ القديم عن تلك السنوات: «لو حدثت مثل تلك المُعيقات المناخية اليوم، فلن تكون العواقب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المترتبة أقل من كارثية».

ففي الشرق والغرب علىٰ السواء، كان علىٰ نفس حجم الأرض إطعام المزيد من الأفواه بينما تزايد عدد السكان. وقد ولَّدت هذه المسألة صراعات

وابتكارات، وكان بإمكان كل منهما أن يكون في صالح الحكَّام؛ فالمزيد من الصراعات يعني المزيد من الفرص لمساعدة الأصدقاء ومعاقبة الأعداء، والمزيد من الابتكارات كانت تعني توليد المزيد من الثروة، وقد كان المحرك وراء كل منهما -المزيد من الأفراد- يعني مزيدًا من العمَّال والمحاربين والغنائم.

وكان من الممكن أن تأتي كل هذه الأشياء الجيدة للملوك الذين أحكموا سيطرتهم، ولكنَّ ملوك القرن الثامن قبل الميلاد وجدوا ذلك صعبًا. فقد كان المنتصرون الكبار، وهم أفضل من يستثمر الفرص الجديدة في كثير من الأحيان، حكامًا محليين - حكَّامًا وإقطاعيين وقادة حاميات عسكرية اعتمد عليهم ملوك الدول ذات التكلفة المنخفضة لإنجاز الأعمال. وكانت تلك أنباء سيئة للملوك.

وفي سبعينيات القرن الثامن قبل الميلاد، فقَدَ الملوك الشرقيون والغربيون علىٰ حد سواء السيطرة علىٰ أفراد حاشيتهم. وانقسمت الدولة المصرية التي كانت تقريبًا موحدة منذ عام ٩٤٥ ق. م إلىٰ ثلاث إمارات في عام ٨٠٤ ق. م، وآلت في عام ٧٧٠ ق. م إلىٰ اثنتي عشرة مملكة مستقلة عمليًّا. وفي مملكة آشور، كان علىٰ أشامشي - أداد الخامس أن يحارب لتأمين وراثته للعرش في عام ٨٢٣ ق. م، لكنَّه فقَدَ السيطرة علىٰ ملوكه العملاء وحكَّامه. بل إنَّ بعض أبناء السماء شنّوا حروبًا باسمهم. ويطلق علماء الآشوريات علىٰ السنوات من (٧٨٣ ق. م) وحتىٰ (٧٤٤ ق. م)، اسم «الفترة الفاصلة»، وهي فترة لم يُعتد فيها بالملوك وكثرت فيها الانقلابات وفعل الحكام ما يحلو لهم.

لقد كان ذلك عصرًا ذهبيًّا بالنسبة إلىٰ الأرستقراطيين المحليين، وصغار الأمراء، والمدن الصغيرة المستقلة ذاتيًا. وتُعدّ الحالة الأكثر إثارة هي فينيقيا، وهي سلسلة من المدن علىٰ طول الساحل اللبناني الحديث والتي ازدهر سكانها بصفتهم وسطاء منذ تعافىٰ المركز الغربي في القرن العاشر قبل الميلاد، حيث كانوا ينقلون البضائع بين مصر وآشور. واجتذبت ثروتهم اهتمامًا آشوريًا، وبحلول عام ٨٥٠ ق. م كان الفينيقيون يدفعون الأموال من أجل الحماية. ويعتقد بعض المؤرخين أنَّ ذلك قد دفع بعض الفينيقيين إلىٰ المغامرة في البحر المتوسط بحثًا عن الأرباح لشراء السلام، بينما يظن آخرون أنَّ النمو السكاني وجاذبية السوق

الجديدة كانا أكثر أهمية. وفي كلتا الحالتين، كان الفينيقيون بحلول عام ٨٠٠ ق. م يرحلون إلىٰ بلدان بعيدة، فأقاموا جيوبًا تجارية في قبرص، بل وبنوا مقامًا صغيرًا في كريت. وبحلول عام ٧٥٠ ق.م أمكن للشاعر اليوناني هوميروس التسليم بأنَّ جمهوره قد علموا (ولم يثقوا) في «الرجال الفينيقيين» الذين يشتهرون بسفنهم، ونهمهم للأرباح وجلب عدد لا يحصىٰ من الأشياء الجميلة في كل هيكل سفينة مظلم.

وكان نمو السكان اليوناني هو الأسرع بين الجميع، وربما سحب المستكشفون والتجار الفينيقيون معهم اليونانيين الجوعىٰ في صحوتهم. وبحلول عام ٨٠٠ ق. م، كان هناك مَن يحمل الفخارية اليونانية إلىٰ جنوب إيطاليا، وبحلول عام ٧٥٠ ق. م كان اليونانيون بالإضافة إلىٰ الفينيقيين يستقرون بشكل دائم في غرب البحر الأبيض المتوسط (انظر الشكل ٥ - ٣). وقد أحب كلا الفريقين الموانئ الجيدة مع إمكانية الوصول إلىٰ الأسواق الداخلية، ولكن اليونانيين الذين جاؤوا بعدد أكبر بكثير من الفينيقيين قد استقروا أيضًا بصفتهم مزارعين وانتزعوا بعضًا من أفضل الأراضي الساحلية.

وقد قاومت الجماعات الأصلية في بعض الأحيان. وكان لدىٰ البعض مثل رجال القبائل في إتروريا وساردينيا في إيطاليا بالفعل مدن وتجارة خارجية قبل أن يأتي المستعمرون، والآن بنوا مدنًا وآثارًا، ونظّموا دولًا منخفضة التكلفة وقاموا بتكثيف الزراعة. وقد خلقوا أبجدية استنادًا إلىٰ النموذج اليوناني (الذي طوَّره اليونانيون بدورهم من الفينيقية في الفترة بين عامي ٨٠٠ و٧٥٠ ق.م). وكانت هذه الأبجدية أسهل في التعلّم والاستخدام أكثر من معظم النصوص التي سبقتها والتي تطلبت مئات الرموز، ويمثّل كل منها مقطعًا مكونًا من ساكن ومتحرك، وكانت أسهل بكثير من الهيروغليفية المصرية أو المخطوطات الصينية التي احتاجت إلىٰ آلاف الرموز، كل منها يمثّل كلمة مستقلة. وفي اعتقادي، أنَّه في القرن الخامس قبل الميلاد استطاع ١٠٪ من رجال أثينا قراءة جمل بسيطة أو كتابة أسمائهم أكثر بكثير من أي مكان في الشرق أو الغرب في أي وقت سابق.

ونحن نعرف الكثير عن انتشار المدن والولايات والتجارة والكتابة في أوروبا في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد أكثر من معرفتنا عن انتشار الزراعة قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة مضت (ناقشنا ذلك في الفصل الثاني)، ولكن الجدل حول ما حدث في كل حالة من الحالات متشابه بغرابة. يدّعي بعض علماء الآثار أنَّ الاستعمار من منطقة شرق البحر المتوسط في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد أدىٰ إلىٰ قيام مدن وولايات في أماكن أبعد في الغرب، ويردّ آخرون بأنَّ الشعوب الأصلية قد حوَّلت مجتمعاتها إلىٰ مقاومة الاستعمار. ويتهم أعضاء المجموعة الثانية، وأغلبهم من الدارسين الشباب، المجموعة الأولىٰ بإسقاط النوستالجيا علىٰ ما يسمىٰ بالمهمات الممدنة للأنظمة الاستعمارية الحديثة، بينما يردّ بعض من المجموعة الأولىٰ، معظمهم من جيل أقدم، بأنَّ ناقديهم يهتمون بالادِّعاء بأنهم مناصرون للمظلومين أكثر من اهتمامهم باكتشاف حقيقة ما حدث.

وبالتأكيد تُعدَّ الشتائم أمرًا عاديًا مقارنة بالغضب الذي يثيره علم الآثار الإسرائيلي (علىٰ حد علمي لم يكن أحد بحاجة لحارس بعد)، ولكن وفقًا للمستويات الأرستقراطية للعلم الكلاسيكي، فذلك الجدال جدال مرير. لقد كان كافيًا لإثارة اهتمامي، علىٰ أية حال، وفي جهد لفهم تلك الإشكاليات قضيتُ الصيف بين عامي (٢٠٠٠ و٢٠٠٦م) في الحفر في موقعٍ صقليّ يسمىٰ مونتي بوليزو. وكانت هذه مدينة أصلية أُحتلت في الفترة ما بين (٦٥٠ و٥٢٥ ق. م) من قِبَل أناس يُسمّوْن بالإيليميين (Elymians). وقد كانت قريبة جدًّا من المستعمرات اليونانية والفينيقية، لدرجة أننا كنا نستطيع أن نراها من قمة التل الذي كنا نقف عليه، ممَّا جعله مكانًا مثاليًا لاختبار النظريات المتضاربة عما إذا كان الاستعمار، أو التطور المحلي هو الذي سبّب النجاح الغربي في منطقة البحر المتوسط. وبعد سبعة مواسم من الجمع والتجريف والغربلة والعدّ والوزن وأكل الكثير جدًّا من المكرونة خلصنا إلىٰ: أن النجاح كان جزءًا منهما معًا.

وهذه بطبيعة الحال هي تقريبًا النتيجة نفسها التي توصل لها الأثريون حول توسُّع نطاق الزراعة قبل آلاف السنين. وفي كل حالة ارتفع التطور الاجتماعي في كل من المركز والأطراف حوله. وقد غادر التجّار والمستعمرون المركز، سواء

مدفوعين من قِبَل المنافسين أو مجذوبين بالفرص المغرية، وقلَّد بعض الأشخاص في الأطراف بنشاط ممارسات المركز أو أنشؤوا رؤاهم الخاصة بهم بصورة مستقلة. وكانت النتيجة هي انتشار مستويات أعلىٰ من التطور الاجتماعي خارج المركز ممَّا غمر الأنظمة السابقة وتحوَّلت في أثناء تلك السيرورة، في حين أضاف الناس في الأطراف تطوراتهم الخاصة واكتشفوا مزايا تخلفهم.

في مونتي بوليزو كانت المبادرات المحلية ذات أهمية علىٰ نحو واضح. فمن ناحية، نحن نشكّ في أنَّ موقعنا تمَّ تدميره من قِبل الإليميين من منطقة سيجستا، والذين أنشؤوا مدينتهم المستقلة ذاتيًا في القرن السادس قبل الميلاد. لكنَّ وصول المستعمرين اليونانيين أيضًا كان عاملًا جوهريًا، فقد كان تشكيل الدولة السجستانية في جزء منه استجابة للتنافس اليوناني علىٰ الأرض، وتمَّت صياغته بضخامة من قِبَل الثقافة اليونانية. وقد ناضل أرستقراطيو سيجستان كي يظهروا باعتبارهم منافسين خطيرين للإغريق، مقترضين الممارسات اليونانية للقيام بذلك. وفي الحقيقة، لقد شيدوا نموذجًا ممتازًا لمعبد علىٰ الطراز اليوناني في ثلاثينيات القرن الخامس قبل الميلاد، لدرجة أنَّ الكثير من مؤرخي الفنون يعتقدون أنهم لا بُدَّ وأنهم قد استأجروا المعماريين الذين صمَّموا البارثينون من أثينا. كما أدخل السيجستانيون أنفسهم في الميثولوجيا اليونانية، مُدّعين (كما فعل الرومان كذلك) أنهم أحفاد إينياس (Aeneas)، وهو أحد اللاجئين بعد سقوط طروادة. وبحلول القرن الخامس قبل الميلاد كانت المدن الاستعمارية في غرب البحر الأبيض المتوسط مثل قرطاج (مستوطنة فينيقية)، وسيراكوز (مستوطنة يونانية) تفوق الكل في المركز القديم. ولم يكن التطور الاجتماعي الإتروسكانيّ متخلّفًا كثيرًا، ولم تتخلف عنهم كثيرًا أيضًا عشرات المجموعات مثل الإليميين.

وقد اندمجت عملية مماثلة من انهيار الدولة في المركز مجتمعة مع التوسُّع علىٰ الأطراف في الشرق في الوقت الذي زاد فيه تعداد السكان. وفي حوالي عام ٨١٠ ق. م فقَدَ ملك چو، «شوان»، السيطرة علىٰ لورداته، الذين رأوا أسبابًا أقل للاتحاد معه بعد أن أصبحوا أكثر ثراءً وقوة. وانزلقت عاصمة شوان في سهل چو إلىٰ صراعات طائفية، واستباح المغيرون من الشمال الغربي عمق مملكته. وعندما

ورث ابن شوان، «يون»، العرش في عام ٧٨١ ق. م حاول إيقاف الفساد، مدبرًا علىٰ ما يبدو مواجهة مع أفراد حاشيته ووزراء أبيه الأقوياء، الذين ربما قد تآمروا مع الابن الأول لابن «يو» الأكبر، ووالدة الصبي.

وفي هذه المرحلة، تنحدر القصة إلىٰ نوع من الحكايات الشعبية التي تملأ العديد من مصادرنا القديمة. ويروي سينا تشيان -عالم التاريخ العظيم في القرن الأول قبل الميلاد- قصةً غريبة؛ وهي أنَّ أحد ملوك چو القدامىٰ قد فتح يومًا صندوقًا عمره ألف سنة من لعاب التنين، والذي ظهر منه أحد الزواحف السوداء. ولأسباب تركها سيما تشيان غير واضحة، كان رد فعل الملك أن جعل عدة نساء من القصر يتجردن من ملابسهن ويصرخن في وجه الوحش. وبدلًا من الهروب، فقد أخصب الوحش واحدة منهن، والتي أنجبت ابنة زاحفة ثم تخلّت عنها. وحمل زوج آخر -هربًا من عاصمة چو خوفًا من غضب الملك حول مسألة أخرىٰ لا صلة لها بالموضوع- هذه الطفلة الأفعىٰ إلىٰ باو، إحدىٰ الدول التابعة المتمردة في مملكة چو.

المغزىٰ من هذه القصة هو أنه في عام ٧٨٠ ق. م قرر شعب باو أن يحاولوا التوسط للتوصل إلىٰ اتفاق مع الملك يو من خلال إرسال ابنة التنين -التي أصبحت الآن امرأة شابة تسمىٰ باو سي- بصفتها عشيقة. وكان يو سعيدًا للغاية بهذا، وفي العام الذي تلا أنجبت باو منه ابنًا. ويبدو أن هذا هو سبب قرار يو بالتخلص من مولوده الأول وزوجته الأولىٰ.

وسارت الأمور علىٰ ما يرام بالنسبة إلىٰ «يو» حتىٰ عام ٧٧٧ ق. م، عندما فرَّ ابنه المنفيّ إلىٰ دولة أخرىٰ متمردة من الدول التابعة لمملكة چو، وتحالف معه كبير وزراء يو هناك. وفي هذه المرحلة تحالفت مجموعة من أفراد الحاشية مع شعوب الشمال الغربي الذين أسمتهم چو بالرونج (الاسم يعني ببساطة: الأجانب الأعداء).

وقد ركّز الملك يو -غير عابئ بكل ذلك- انتباهه علىٰ مشكلة أخرىٰ أكثر إلحاحًا، وهي: كيف يُضحك باو سي (وليس من المستغرب، بناءً علىٰ خلفيتها، أنها كانت لا تعرف الفكاهة). وقد نجح شيء واحد فقط. فقد أقام أسلاف يو

أبراج مراقبة بحيث إذا هاجم الرونج أمكن للطبول والحرائق أن تحذر الكثير من اللوردات الذين سيهبون للإنقاذ مع بطانتهم. ويقول سيما شيان:

«أشعل الملك يو المنارات وقرع الطبول الكبرىٰ. وحيث كانت المنارات تشعل فقط عند اقتراب الغزاة، فقد جاء العديد من اللوردات. وعند وصولهم لم يكن هناك دخلاء، فضحكت السيدة باو سي بصوت عالٍ. وسُرّ الملك، فأشعل المنارات عدة مرات. وبعد ذلك، حيث لم تعد تلك إشارة موثوقًا فيها، أصبح اللوردات يحجمون عن المجيء».

كان الملك «يو» هو الصبي الحقيقي الذي استغاث كذبًا، وعندما هاجم الرونج والشين المتمردون فعليًا في عام (٧٧١ ق. م)، تجاهل العديد من اللوردات المنارات. وقتل المتمردون يو، وأحرقوا عاصمته، ووضعوا ابنه المُستبعد علىٰ العرش مع لقب الملك بينغ.

من الصعب أن نأخذ هذه القصة علىٰ محمل الجد، لكن الكثير من المؤرخين يعتقدون أنها تحفظ ذكريات وقائع حقيقية. وفي سبعينيات القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهو العقْد نفسه الذي فقَدَ فيه الحكّام المصريون والآشوريون السيطرة، بدا أنَّ كلًا من النمو السكاني، وصحوة السلطة المحلية، والسياسة الأسرية والضغوط الخارجية في الصين قد اتحدت معًا لإنتاج نكسة أكثر حدة للملكية.

وربما أراد أفراد حاشية الملك يو الذين تركوه ليلاقي مصيره في ٧٧١ ق. م إظهار قوتهم وتنصيب بينغ بوصفه رئيسًا صوريًا، ومواصلة تجاهل الملكية. ويشير قرارهم بدفن أوعية الطقوس البرونزية في جميع أنحاء وادي ويي -حيث اكتشفها الأثريون بأعداد ضخمة منذ السبعينيات- إلىٰ أنهم كانوا يُخططون للعودة بمجرد رحيل الرونج لوطنهم مُحمّلين بالغنائم التي أخذوها من قصر يو. ولكن إذا كان هذا هو تفكيرهم فهم قد أخطؤوا بشدة، فقد جاء الرونج ليبقوا، واضطر العديد من اللوردات إلىٰ تثبيت الملك بوصفه رئيسًا للحكومة في المنفىٰ في لويي (Luoyi) في وادي النهر الأصفر. وسرعان ما أصبح واضحًا أنَّ الملك چو ابن السماء غدا عاجزًا؛ إذ فَقَد الآن ولاياته في وادي وي، وبدأ إيرلات چنج، وهم أقوىٰ «أفراد

الحاشية» في اختبار ملوكهم السابقين. وفي عام ٧١٩ ق. م، أخذ أحد الإيرلات وريث العرش بصفته رهينة، وفي عام ٧٠٧ ق. م قتل إيرل آخر الملك بسهم.

وبحلول عام ٧٠٠ ق. م، كانت محكمة چو لا صلة لها بدوقات، وإيرلات، وفيكونتات وماركيزات المستعمرات السابقة (يشير أحد المصادر القديمة إلىٰ أنَّ هناك الآن ١٤٨ منهم). وما زالت طليعة «أفراد الحاشية» تدَّعي أنها تتصرف بالنيابة عن ملك چو، ولكنَّها في الواقع كانت تتصارع مع بعضها البعض من أجل السيادة دون استشارة الحاكم المفترض، فتُنشئ المعاهدات وتفسخها كما تشاء. وفي عام ٦٦٧ ق. م استدعىٰ الماركيز هوان -الحاكم المؤقت لچو- منافسيه في مؤتمر حيث اعترفوا به باعتباره قائدهم (رغم أنهم واصلوا قتاله وقتال الجميع). وفي العام التالي أكره هوان ملك چو علىٰ تسميته باسم «با» (ba) أو «السيد الأعلىٰ»، والذي يمثل (نظريًا) مصلحة چو.

وقد حصل هوان علىٰ هذه المنزلة إلىٰ حد كبير عن طريق حماية الدول الأضعف من هجمات الشعوب الذين اعتبروها أجنبية - في الشمال وهم الرونج وشعوب «دي»، وفي الجنوب وهي الجماعات المعروفة باسم «مان». ولكن كانت التبعات الرئيسة (وغير المقصودة بالتأكيد) لهذه الحروب مشابهة للاستعمار الفينيقىٰ واليوناني لغرب البحر الأبيض المتوسط، حيث جذب كلًا من الرونج وشعوب دي وشعوب مان إلىٰ المركز وتوسَّع بشكل ضخم في أثناء العملية.

في القرن السابع قبل الميلاد قامت الدول علىٰ الحافة الشمالية للمركز باستخدام الرونج وشعوب دي باعتبارهم حلفاء، مقوين هذه الروابط بالتزاوج. أصبح العديد من قادة الرونج وشعوب دي ضليعين في أدب چو وربطوا أنفسهم عمدًا بالدول الحدودية مثل شي وچين وشين، والتي صارت أكبر بكثير. وفي الجنوب أنشأ بعض جماعة «مان» دولتهم الخاصة الكبيرة «تشو»، حيث تحاربوا مع كل من چين وشي في القرن السابع الميلادي. وبحلول عام ٦٥٠ ق. م، كانت تشو عضوة كاملة العضوية في المجتمع الدولي، حيث تحضر مؤتمراته، وعلىٰ غرار السجستانيين والرومان في الغرب الذين ادَّعوا أنهم ينحدرون من إينياس، بدأ قادة تشو -شأنهم في ذلك شأن الدول الأخرىٰ في المنطقة الشرقية-

باعتبارهم مستعمرة لچو. وقد بزغت حضارة مادية متميزة لتشو بحلول عام ٦٠٠ ق. م، جمعت بين المركز والعناصر الجنوبية.

أصبحت «تشو» قوة هائلة لدرجة أنَّه في عام ٥٨٣ ق. م قررت دولة چين إقامة تحالفات مع شعوب المان الأخرىٰ لتقوية الأعداء في الخلف من چو. وفي عام ٥٠٦ ق. م كان أحد هؤلاء الحلفاء، وهي دولة «وو» قوية بما يكفي لتدمير جيش «تشو». لقد كانت قوية للغاية في الواقع لدرجة أنَّه في عام ٤٨٢ ق. م تنازل ماركيز چين عن مكانته باعتباره «با» لصالح الفيكونت فوشاي، وهو فيكونت «وو» والذي ادَّعىٰ أنَّ أسلافه من چو مثلما فعل ملوك تشو. وعندئذٍ أصبحت دولة جنوبية أخرىٰ أيضًا قوة كبرىٰ، وهي «يو». وحاول فيكونتاتها أن يتفوقوا علىٰ «وو» أيديولوجيًا بادَّعاء النسب لأول أسرة علىٰ الإطلاق، أسرة شيا. وفي عام ٤٧٣ ق. م، بعد أن شنق الفيكونت «وو» نفسه في أثناء محاصرة جيوش يو عاصمته، أخذ فيكونت يو مكانه باعتباره «با». وعلىٰ الرغم من انهياره سياسيًا، فقد اتسع المركز الشرقي بشكل كبير مثل نظيره الغربي.

صوب التكلفة العالية

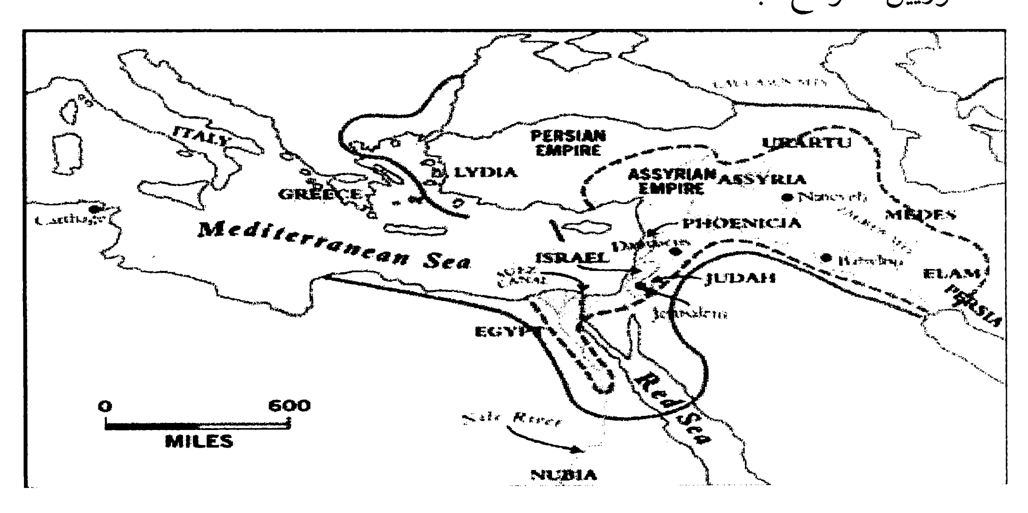
كانت الأعوام من (٧٥٠ إلىٰ ٥٠٠ ق. م) هي نقطة التحول التي لم يتحول معها التاريخ. ففي عام ٧٥٠ ق. م، وصل التطور الاجتماعي الغربي إلىٰ أربع وعشرين نقطة، وهو تمامًا ما كان عليه عشية الانهيار الكبير في عام ١٢٠٠ ق.م، مثلما كان التطور الشرقي سنة ٥٠٠ ق.م أيضًا. ومثلما حدث في عام ١٢٠٠ ق.م، كان المناخ يتغيَّر، وكانت الشعوب تهاجر، والصراع يتصاعد، والدول الحديثة تندفع إلىٰ داخل المراكز، بينما الدول القديمة تتفكَّك. وقد بدت الانهيارات الجديدة ممكنة الحدوث كُلّيًا، ولكن بدلًا من ذلك أعاد كل من المركزين هيكلة نفسيهما، فقاما بتطوير الموارد الاقتصادية والسياسية والفكرية لإدارة التحديات التي واجهتهم. وهذا ما يجعل (الشكل ٥ - ١) رتيبًا للغاية ومثيرًا للاهتمام في الوقت نفسه .

نحن نرىٰ التغييرات لأول مرة في آشور. لقد بدا حديث النعمة الذي انتزع العرش في عام ٧٤٤ ق. م تحت اسم تغلث فلاسر الثالث -في البداية- مشابهًا كثيرًا لكل المدَّعين الآخرين الذين كانوا يقومون بالخدع والألاعيب منذ ثمانينيات القرن الثامن قبل الميلاد، ولكن في أقل من عشرين سنة حوَّل تغلث فلاسر الثالث آشور من دولة محطمة ذات تكلفة منخفضة إلىٰ أخرىٰ دينامية ذات تكلفة عالية. وعلىٰ طول الطريق حوَّل نفسه، علىٰ غرار المافيوزات الذين يشرعنون أنفسهم، من رئيس عصابة إلىٰ ملك عظيم (ولكنَّه وحشي).

وكان سر نجاحه هو إقصاء أبناء السماء الأرستقراطيين خارج الاتفاقية، وفعل تغلث فلاسر ذلك بإنشاء جيش دائم، هو فقط الذي يدفع لهم رواتبهم وهم

يوالونه وحده فحسب، بدلًا من أن يجعل لورداته يُوفِّرون القوات. ولا توضح النصوص الباقية كيف فعل ذلك، ولكنَّه بطريقة ما أكره سجناء الحرب علىٰ تكوين جيش شخصي. وعندما كسب الجيش المعارك، استخدم تغلث فلاسر الثالث الغنائم لدفع رواتب جيوشه مباشرة بدلًا من تقاسمها مع لورداته. وبدعم من الجيش، قام بتحطيم سلطة النبلاء، مُقسّمًا الدوائر العليا وشغلها بالمخصيين المأسورين، وكان للمخصيين ميزتان: لم يكن بإمكانهم إنجاب أبناء لتمرير مناصبهم إليهم، وكانوا محتقرين من قِبَل الأرستقراطية التقليدية لدرجة أنه كان من غير المحتمل أن يقودوا عمليات التمرد. وفوق كل ذلك، قام تغلث فلاسر الثالث بتوسعة البيروقراطية لإدارة دولته، متخطيًا نخبته القديمة لإنشاء مسؤولين موالين له تمامًا.

وكل هذا كان عالي التكلفة؛ ولذا نظَّم تغلث فلاسر الثالث موارده. فبدلًا من زعزعة استقرار الأجانب بالظهور الدوري ومطالبتهم بالدفع، فقد أصرَّ علىٰ المساهمات المنتظمة - الضرائب بالأساس. ولو جادل في ذلك ملك تابع، كان تغلث فلاسر يستبدله بحاكم آشوري. وفي عام ٧٣٥ ق. م -علىٰ سبيل المثال- انضم الملك فقح ملك إسرائيل إلىٰ دمشق ومدن سورية أخرىٰ في ثورة علىٰ الضرائب (الشكل ٥ - ٥). وقد عاقبهم تغلث فلاسر مثل ذئب يهاجم قطيعًا. فدمّر دمشق في عام ٧٣٢ ق. م، وولّىٰ حاكمًا عليها، وضم وديان إسرائيل الشمالية الخصبة. واغتال شعب فقح التعيس ملكهم وتوّجوا الملك المؤيد للآشوريين «هوشع» بدلًا منه.



(موضع الشكل ٥ - ٥). أول الإمبراطوريات عالية التكلفة: يمثِّل الخط المتكسر أقصىٰ امتداد للإمبراطورية الآشورية في حوالي عام (٦٦٠ ق. م)، ويمثّل الخط المصمت أقصىٰ حدود الإمبراطورية الفارسية في حوالي عام (٤٩٠ ق. م).

سارت الأمور علىٰ ما يرام إلىٰ أن مات تغلث فلاثر في عام ٧٢٧ ق. م. وتوقف هوشع عن الدفع علىٰ افتراض أنَّ النظام الآشوري الجديد سيموت مع الملك، ولكنَّ مؤسسات تغلث كانت قوية بما يكفي للنجاة من فخ التغيير والحفاظ علىٰ مراكز الصدارة. وفي عام ٧٢٢ ق. م، اجتاح ملك آشور الجديد «شلمنصر» إسرائيل وقتل هوشع وولَّىٰ عليها حاكمًا آخر وقام بترحيل عشرات الآلاف من الإسرائيليين. وفي الفترة ما بين عامي (٩٣٤ و٦١٢ ق. م) قامت مملكة آشور عنوة بترحيل حوالي ٤,٥ ملايين شخص من مكان إلىٰ مكان آخر. وقد ملأ المُرحّلون جيوش آشور، وشيَّدوا مدنها، وعملوا علىٰ مشاريع لرفع إنتاجية الإمبراطورية - فأقاموا السدود علىٰ الأنهار، وغرسوا الأشجار واعتنوا بزراعة الزيتون وبحفر القنوات. ووفرت عمالة المطرودين الغذاء لكل من نينوىٰ وبابل، واللتين زاد عدد سكان كل منهما إلىٰ مائة ألف، ممَّا أدىٰ إلىٰ تقزّم المدن الأقدم وامتصاص الموارد من جميع الجهات. كما ارتفع التطور الاجتماعي؛ وبحلول عام ٧٠٠ ق. م كانت آشور أقوىٰ من أي دولة سابقة في التاريخ.

هل غيّر تغلث فلاسر مجرىٰ التاريخ عن طريق تغيير اتجاه الانهيار في القرن الثامن؟ في إحدىٰ الفترات أجاب المؤرخون دون تردد بنعم، ولكن حاليًا ينأىٰ معظمهم عن أن ينسب الكثير إلىٰ إرادة الرجال العظماء الأفذاذ. وفي هذه الحالة، فإنَّهم علىٰ الأرجح محقون في ذلك. ربما كان تغلث فلاسر العظيم -إذا كانت هذه هي التسمية التي نريد استخدامها مقابل انعدام الرحمة- عظيمًا، لكنَّه لم يكن فذًا ولا استثنائيًا. ففي جميع أنحاء المركز الغربي غازل حكّام أواخر القرن الثامن قبل الميلاد المركزيّة باعتبارها الحل لمعاناتهم. في مصر قام النوبيون مما يُعرف بالسودان حاليًا بتوحيد البلاد حتىٰ قبل استيلاء تغلث فلاسر علىٰ عرش آشور، وعلىٰ مدار الثلاثين عامًا التي تلت ذلك أسَّسوا إصلاحات كان

ليعترف بها تغلث فلاسر. وبحلول العقْد الأول للقرن الثامن قبل الميلاد كان ملك يهوذا الصغير يفعل الشيء نفسه.

وبدلًا من عبقري واحد يغيِّر التاريخ، يبدو الأمر أشبه برجال يائسين يقومون بتجربة كل فكرة تخطر علىٰ بالهم، حيث يفوز أفضل الحلول. كان الأمر إما التمركز وإما الهلاك، والحكَّام الذين فشلوا في وضع الزعماء المحليين تحت السيطرة تحطموا علىٰ أيدي أولئك الذين نجحوا في ذلك. وشعر «حزقيا» الذي كان قلقًا بشأن آشور بأنه مضطر إلىٰ تعزيز يهوذا، وقد قلق ملك آشور الجديد «سنحاريب» من قوة «حزقيا» وشعر بأنه مضطر إلىٰ إيقافه. وفي عام ٧٠١ ق. م احتل سنحاريب يهوذا وهاجم شعبها. وقد حافظ علىٰ القدس، إما بسبب (كما يقول الكتاب المقدس العبري) أنَّ «ملاك الرب» ضرب الآشوريين، وإما بسبب (كما تروي قصة سنحاريب) أنَّ حزقيا قد وافق علىٰ دفع المزيد من الإتاوة.

وفي كلتا الحالتين، أدىٰ فوز سنحاريب إلىٰ جعله في مواجهة مع واقع قاسٍ جديد: كل حرب جديدة فازت فيها مملكة آشور قد ولّدت أعداء جددًا. فعندما ضم تغلث فلاسر شمال سورية في أوائل ثلاثينيات القرن الثامن قبل الميلاد، اصطفت ضده دمشق وإسرائيل، وعندما غزا «شلمنصر» دمشق وإسرائيل في الفترة ما بين عامي (٧٣٢ و٧٢٢ ق. م)، أصبحت يهوذا هي الخط الأمامي، وقد أدىٰ إخضاع يهوذا في عام ٧٠١ ق. م إلىٰ جعل مصر تمثل تهديدًا؛ لذا في عام ٦٧٠ ق. م غزت مملكة آشور وادي النيل. ولكن اتضح أنَّ مصر كانت بلدًا بعيدًا جدًا، وفي الوقت الذي انسحب فيه الآشوريون بعد ذلك بعشر سنوات، كانت المشاكل تغزو جميع حدودهم. وقد جعلهم تدمير أورارتو -عدوهم الرئيس في الشمال- مكشوفين للغارات المدمرة من قِبَل القوقاز، ولم يؤدِ غزو بابل -عدوهم الرئيس في الجنوب- إلَّا إلىٰ الحروب مع إيلام في الجنوب الشرقي البعيد، ولم يؤدِ تدمير إيلام في أربعينيات القرن السابع قبل الميلاد إلَّا إلىٰ تحرير الميديين (Medes) من جبال زاجروس ليشكلوا تهديدًا كذلك، ويسمحوا لبابل أن تستعيد قوتها.

في كتابه المؤثر «صعود القوىٰ العظمىٰ وسقوطها» أو (The Rise and Fall of the Great Powers)، جادل المؤرخ بجامعة ييل بول كيندي بأنَّه في الخمسمائة عام الأخيرة دائمًا ما أجبرت الحاجة للحروب الكبرىٰ الدول الأوروبية علىٰ المضي بعيدًا، ممَّا كان يقوِّض قوتها كثيرًا لدرجة أنها كانت تنهار. وعلىٰ الرغم من القفز إلىٰ نموذج عالي التكلفة مع تدفقات ضخمة للإيرادات وجيش محترف وبيروقراطية، وبالرغم من انتصاره علىٰ كل المنافسين، انتهىٰ الأمر بآشور إلىٰ أن يصبح طفلًا مدللًا لمثل هذا التجاوز والدهاء الإمبريالي. وبحلول عام ٦٣٠ ق. م كان التراجع في كل مكان، وفي عام ٦١٢ ق. م اجتاح تحالف من الميديين والبابليين نينوىٰ وقسَّموا إمبراطوريتها.

وقد كرَّر سقوط آشور المفاجئ النمط الذي رأيناه في الفصل الرابع؛ إذ تؤدي الثورات العسكرية إلىٰ توسيع مركز من خلال إعطاء الفرصة للشعوب الطرفية لتشق طريقها. وقد تبنَّت مملكة ميديا (Media) الكثير من مؤسسات مملكة آشور وسياساتها، وأصبحت بابل مرة أخرىٰ قوة عظمىٰ، وحاولت مصر إعادة إنشاء إمبراطوريتها المفقودة منذ فترة طويلة في بلاد الشام. وقد أبقىٰ الصراع حول جثة آشور علىٰ استمرار الدينامية التوسُّعية. وقد حوَّلت المركزيّة الميدينية (نسبة إلىٰ مملكة ميديا) شعبًا طرفيًا آخر، وهم الفرس بجنوب غرب إيران، إلىٰ قوة هائلة. وفي عام ٥٥٠ ق. م، أطاح أمير الحرب «كورش» بالميديين، وسهَّل طريقه القتال بين الفصائل الميدينية. (فقد وضع الملك الميديّ بحماقة الجيش الذي أرسله ضد «كورش» تحت قيادة جنرال أجبره في السابق علىٰ أكل لحم ابنه المقتول. وقد انشق الجنرال علىٰ الفور، وانهار الجيش وسيطر «كورش»).

اعتقد حكَّام فارس، مثل ملوك آشور الذين سبقوهم، أنهم كانوا في مهمة إلهية. وقد اعتقدوا أنَّ أسرتهم (الأخمينيين) كانوا يمثلون المصالح الدنيوية لأهورامازدا، إله الضوء والحقيقة، في صراعه الأزلي مع الظلام والشر. وقد رأىٰ آلهة الشعوب الأخرىٰ، كما أقنعوا أنفسهم، عدالة قضيتهم، وأرادوهم أن ينتصروا. ولذلك عندما سيطر «كورش» علىٰ بابل في عام ٥٣٩ ق. م ادَّعىٰ (بإخلاص ظاهري) أنَّه قد فعل ذلك من أجل تحرير آلهة بابل من الحكَّام

الفاسدين الذين كانوا يتجاهلونهم. وعندما أتبع «كورش» ذلك بإرسال اليهود إلىٰ القدس، حيث وضعهم البابليون في الأَسْر في عام ٥٨٦ ق. م، أكَّد مؤلفو الكتاب المقدس العبري علىٰ تقدير «كورش» لنفسه. فقد اعتقد إلههم -كما أصرّوا- أنَّ «كورش» هو (راعِيّ . . . ومباركي . . . الذي أمسكت بيمينه لأُخضع الأمم أمامه وأجرِّد الملوك من عباءاتهم).

قاد «كورش» جيوشه نحو بحر إيجه وحدود ما يعرف الآن بكازاخستان وأفغانستان وباكستان. وقد غزا ابنه قمبيز وسيطر علىٰ مصر في قصة غريبة تمامًا مثل قصة سيما تشيان، حيث اعتلىٰ أحد أقاربه من بعيد وهو داريوس العرش في عام ٥٢١ ق. م. وبحسب المؤرخ اليوناني هيرودت، فقد فسَّر قمبيز حلمًا بشكل خاطئ بأنَّه يعني أنَّ شقيقه سميردس كان يتآمر ضده، فقتله سرًّا. ولرعب قمبيز، استولىٰ كاهن كان من القدر أنَّه يدعىٰ أيضًا سميردس، ويشبه تمامًا سميردس الميّت - علىٰ العرش، مدعيًا أنه سمرديس الحقيقي. فقفز قمبيز علىٰ حصانه من أجل الإسراع للعودة وكشف المزوّر (وحقيقة أنه قد قتل شقيقه)، ولكنَّه دون قصد طعن نفسه في فخذه ومات. وفي هذه الأثناء كُشف أمر سمرديس المزيف عندما اكتشفت إحدىٰ زوجاته أنه لم يكن لديه أذنان (فقد قُطعت أذنا سمرديس المزيف باعتبار ذلك عقابًا في وقت سابق). ثمَّ قتل سبعة نبلاء سمرديس المزيف وعقدوا مسابقة لاعتلاء العرش: فقد جلب كل متآمر حصانه لمكان مختار، وكانت الخطة أنه من يصهل حصانه أولًا عند بزوغ الشمس سيصبح الملك. وقد فاز داريوس (رغم أنه قد غشَّ).

واتضح أنَّ هذه الطريقة أصبحت جيدة لاختيار أي ملك، وسرعان ما أثبت داريوس نفسه باعتباره تغلث فلاسر جديدًا. وقد سجل هيرودوت أنه وصل للحد الأقصىٰ بإيرادات مملكته التي عاش فيها ٣٠ مليون نسمة لدرجة أنَّ «الفرس كانوا يحبون القول بأنَّ داريوس كان صاحب دكان . . . فهو يحقق ربحًا في كل شيء».

لقد تتبع داريوس المال، الأمر الذي جذبه غربًا إلىٰ حيث أنعش التطور الاجتماعي المتزايد حدود البحر الأبيض المتوسط. وبحلول عام ٥٠٠ ق. م كان

التجّار الذين يعملون لصالح أنفسهم وليس لصالح القصور والمعابد قد أنشؤوا اقتصادا مزدهرًا، ممّا خفض تكاليف النقل البحري كثيرًا لدرجة أنّهم تمكّنوا من تحقيق أرباح من خلال شحن البضائع السائبة مثل الأغذية فضلًا عن الكماليات. وفي حوالي عام ٦٠٠ ق. م بدأ الناس في ليديا (Lydia) غربي الأناضول في سك الكتل المعدنية لضمان وزنها، وفي أيام داريوس أصبح هذا الابتكار -سك العملة- مستخدمًا علىٰ نطاق واسع ممّا أدىٰ إلىٰ تسريع التجارة إلىٰ مدىٰ أبعد. وارتفعت مستويات المعيشة: فبحلول عام ٤٠٠ ق. م، كان متوسط استهلاك الفرد اليوناني ربما ٢٥ - ٥٠٪ أكثر من سلفه قبل ثلاثة قرون مضت. وصارت المنازل أكبر والنظم الغذائية أكثر تنوعًا، وازدادت أعمار الناس.

وقد استغل داريوس هذا الاقتصاد المتوسطي من خلال استئجار فينيقيين ليزودوا أول أسطول فارسي بالجنود، حيث قطع الأسطول قناة السويس التي تربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، وسيطر علىٰ المدن اليونانية. وبحسب هيرودوت، فقد أرسل داريوس جواسيس لاستكشاف إيطاليا بل وفكّر في مهاجمة قرطاج.

وفي الوقت الذي توفي فيه داريوس في عام ٤٨٦ ق. م، كان التطور الاجتماعي الغربي أكثر بـ (١٠٪) من الأربع وعشرين نقطة التي بلغها في حوالي (١٢٠٠ ق. م). وقد زادت الزراعة بالري في مصر وبلاد الرافدين من المحاصيل بانتظام، وربما كان في بابل ١٥٠ ألف ساكن، (يقول هيرودوت: كانت المدينة كبيرة جدًّا، عندما استولىٰ عليها «كورش»، لدرجة أنَّ الأخبار تطلبت أيامًا لتصل لبعض الأحياء)، وكانت الجيوش الفارسية كبيرة جدًّا (من جديد، طبقًا لما ذكره هيرودوت) لدرجة أنهم شربوا كل الأنهار حتىٰ جفت، وكما شاهدنا قبلًا، فربما كان رجل أثيني واحد من بين عشرة رجال يستطيع أن يكتب اسمه.

وقد وصلت الإحرازات الشرقية أيضًا إلىٰ أربع وعشرين نقطة، وكانت عمليات إعادة هيكلة الدولة والمركزيّة تشبه كثيرًا تلك التي عرفها الغرب منذ القرن الثامن قبل الميلاد. وقد كان انهيار سلطة مملكة چو منذ عام ٧٧١ ق. م بمثابة نعمة ونقمة لحكّام الدول التابعة السابقة. فقد أطلقت حريتهم لمحاربة

بعضهم البعض، وقد فعلوا ذلك بانتقام، لكنَّ الانهيار لم يتوقف عند هذا الحد. فقد وجد الدوقات والفيكونتات الذين كانوا في السابق تابعين متمردين خاضعين تحت حكم ملك چو، لكنَّهم استغلوا حقيقة أنه كان يعتمد عليهم من أجل الجيوش - وجدوا أنَّ أرستقراطييهم الخاصين كانوا متمردين مثلما كانوا هم أنفسهم. فكان أحد الحلول يتمثل في إزاحة الأرستقراطيين من خلال جلب الغرباء إلىٰ الدولة، كما فعل تغلث فلاسر حين ملأ جيشه بأسرىٰ الحرب. وقد بدأت أربع دول كبرىٰ علىٰ أطراف عالم چو (چين، تشي، تشو وتشين؛ انظر: الشكل ٥ - ٢) في فعل ذلك في القرن السابع الميلادي وصارت قوية.

ومنذ عام ٦٩٠ ق. م أنشأت تشو مناطق إدارية جديدة مع محافظين ينقلون تقاريرهم مباشرة إلىٰ القصر، وذلك بعد أن أصبحت أقل تقيّدًا بقواعد أرستقراطيي عهد چو من الدول التي توجد في وادي النهر الأصفر. وقلّدت ذلك دول أخرىٰ. وفي عام ٦٦٠ ق. م جرب الماركيز شيان -حاكم چين- حلًا أكثر تطرفًا؛ إذ ذبح رؤوس الأُسر الرائدة في دولته وعيَّن وزراء علىٰ أمل أن يكونوا أكثر طاعة. وقلّدت ذلك دول أخرىٰ أيضًا. وفي عام ٥٩٤ ق. م، وجد ماركيز لو -واسمه «شوان»- مسارًا آخر حول أقرانه من خلال إحالة سداد المستحقات العمَّالية للفلاحين إلىٰ لورداته المحليين وقد أعطاهم ملكية الأرض التي عملوا فيها مقابل الخدمة العسكرية والضرائب المدفوعة إليه مباشرة. ولستُ بحاجة إلىٰ إضافة أنَّ دولًا أخرىٰ قد اندفعت لتقليد هذه السياسة أيضًا.

وقد أنشأ الحكام المُحدِثون جيوشًا أضخم، وخاضوا حروبًا أكثر قسوة، ورسملوا النمو الاقتصادي مثل ذلك الذي كان في الغرب. وقام الفلاحون الأكثر رغبة في العمل علىٰ تحسين الأرض عندما أصبحت ملكًا لهم، بزيادة المحاصيل من خلال تطوير محاصيل أفضل والاستثمار في المحاريث التي تجرها الثيران. كما انتشرت أدوات الزراعة الحديدية، وتعلَّم حدادو القرن الخامس قبل الميلاد استخدام المنفاخ لتسخين خام الحديد إلىٰ ٢٨٠٠ درجة مئوية، بحيث يمكن عندئذٍ صبُّه. بل وتلاعب الحرفيون في «وو» بمحتوىٰ الكربون والحديد لإنتاج الصلب.

لقد ازدهرت المدن -ربما كان في مدينة لينتسي في مملكة «لو» خمسين ألف نسمة في عام ٥٠٠ ق. م- وكما في الغرب، شجَّعت مطالبهم التجَّار من القطاع الخاص علىٰ تزويدهم بالطعام. وفي عام ٦٢٥ ق. م، ألغىٰ أحد الوزراء في «لو» نقاط التفتيش الحدودية لجعل التجارة أكثر سهولة. وقد ازدهرت التجارة المعتمدة علىٰ النقل المائي، وطرح بلاط الملك بمملكة چين ومملكة چو في «لويي» النقود البرونزية مستقلةً عن اختراعها في الغرب. وفي مشابهة أخرىٰ مع الغرب، أدىٰ النمو الاقتصادي إلىٰ رفع مستويات المعيشة لكنَّه زاد أيضًا من عدم المساواة. فقد ازدادت المعدلات الضريبية من (١٠٪) في أوائل القرن السادس إلىٰ (٢٠٪) بعد مرور مائة سنة. وكان اللوردات يبنون مستودعات لتخزين الجليد في قصورهم؛ بينما سقط الفلاحون في الديون.

عندما انطلق التوسُّع الاقتصادي الغربي في القرن السادس قبل الميلاد، كان الملوك بالفعل قد أعادوا تأمين قوتهم، ولكن في الشرق أدىٰ النمو إلىٰ مفاقمة مشاكل الحكَّام؛ إذ كان الوزراء الذين حلّوا محل اللوردات المشاكسين ينحدرون من سلالات قوية. فكان الوزراء في كثير من الأحيان أفضل من أسيادهم لجني ثمار النمو، فتحوَّلوا بصورة منتظمة إلىٰ منافسين. وفي عام ٥٦٢ ق. م، قامت ثلاث سلالات وزارية في «لو» باستبعاد الماركيز، وفي ثمانينيات القرن الخامس قبل الميلاد استولىٰ أحدهم علىٰ الدولة. وشنَّ وزراء مملكة «چين» حربًا أهلية ثلاثية امتدت خمسين عامًا، فقسّموا الدولة في عام ٤٥٣ ق. م.

وفي ذلك الوقت، وجد الحكَّام (وأولئك الوزراء الذين استولوا علىٰ السلطة منهم) حلًّا. فلو كان الوزراء الأرستقراطيون يمثلون معضلة مثل النبلاء الذين حلوا محلهم، فلماذا لا يخرجون خارج الدولة كليًا ويُعيّنون مسؤولين من الدول الأخرىٰ؟ لقد افتقرت هذه الأيدي المأجورة المعروفة باسم «شي» وعادة تترجم إلىٰ «السادة»، إلىٰ الروابط السياسية ليصبحوا منافسين. والواقع أنَّ كثيرين منهم قد أتوا من خلفيات متواضعة جدًّا، وهو السبب الذي كانوا يبحثون من أجله عن عمل في المقام الأول. ويبرهن تكاثر «شي» علىٰ مركزية السلطة وانتشار الإلمام بالقراءة والكتابة. فرز «شي» الوثائق وأحصوا الحبوب في إدارات الريف الهادئة، متنقلين بالآلاف من دولة إلىٰ أخرىٰ بينما تتكشف أعمالهم.

وأثار قلة من الـ «شي» السعداء انتباه الإيرلات والماركيزات وارتقوا إلىٰ أعلىٰ المناصب. وفي مقارنة مثيرة مع البيروقراطيات الغربية كان هؤلاء الرجال، بدلًا من الحكَّام الذين استأجروهم، هم الذين أصبحوا الشخصيات الرئيسة في أدب عصرهم، يمثلون دور المستشارين ذوي النزاهة والاستقامة الذين يُساعدون الحكَّام علىٰ الازدهار بإبقائهم علىٰ الطريق القويم. ويمتلئ «تسو چوهان» (Zuozhuan) وهي حاشية علىٰ الوثائق التاريخية التي جُمعت في حوالي (٣٠٠ ق. م)، بمثل هذه الرموز. ويعدّ «چاودون» هو المفضل لديّ، وهو وزير بارز لدوق چين الذي يُدعىٰ «لينج». وقد جاء في نصوص تسو چوهان ببعض الاستهانة: «لم يكن الدوق لينج حاكمًا حقيقيًا. لقد كان يطلق السهام علىٰ الناس من تراسه بالقوس ويراقبهم وهم يفرون من الأغلال الحديدية. وعندما قام طباخه بإعداد طبق من مخالب الدببة لم يكن ناضجًا بما يكفي، قام بقتله، ووضع جسده في تابوت، وجعل نساءه يحملنه عبر حجرة الجمهور».

لقد احتج چاودون كثيرًا ضد الدوق لينج حتىٰ أرسل الحاكم في النهاية قاتلًا لإسكات هذا المستشار المُتعب. ولكن عندما وصل القاتل إلىٰ منزل چاودون في الفجر، كان الـ «شي» الثريّ بالفعل مرتديًا لأردية البلاط ومنشغلًا بعمله. وكونه محاصرًا بين الرعب من قتل مثل هذا الرجل الطيب والعار في حال عصيان حاكمه، اتخذ القاتل المخرج اللائق الوحيد، بالانتحار من خلال تحطيم رأسه بضربها في شجرة.

وقد تلىٰ ذلك المزيد من المغامرات. فقد نصب الدوق لينج كمينًا، ولكن چاودونج هرب عندما قتل خادمه كلبًا هاجمه بلكمة واحدة، وتبيَّن أنَّ أحد جنود الدوق هو رجل أنقذه چاودون من الجوع قبل سنوات. وفي النهاية، كما هو الحال في جميع قصص تسو چوهان، يحصل الدوق لينج علىٰ عقوبته، كما يحدث غالبًا في هذا النص الأخلاقي، علىٰ الرغم من أن چاودون يُلام بسبب عدم منع ذلك.

وقد ازدهر رغم ذلك حكَّام آخرون (وهم أفضل أخلاقًا، افتراضيًا) وهناك طرز معمارية جديدة تتحدث عن تنامي قوتهم في القرن الخامس قبل الميلاد. وفي

حين كان ملوك «چو» يشيِّدون قصورًا مبنيّة علىٰ منصات من التربة المدكوكة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أو أربعة أقدام فقط، ارتفع اللوردات رأسيًا الآن، متجهين نحو التكلفة العالية بالمعنىٰ الحرفي للكلمة. فقد قيل -حسبما ذُكر- إنَّ قصرًا واحدًا في تشو كان يستقر علىٰ منصة بارتفاع ٥٠٠ قدم، وكان يلامس السماء. وسُمِّي قصر آخر في شمال الصين بـ «المنصة التي تبلغ منتصف الطريق إلىٰ الجنة». وكان الحكام يحصّنون قصورهم، وذلك فيما يبدو خوفًا من شعبهم بقدر خوفهم من «الدول المعادية».

وبحلول عام ٤٥٠ ق. م كان الحكَّام الشرقيون (مثل الحكَّام الغربيين) يتحركون نحو النماذج عالية التكلفة؛ فزودوا الضرائب والجيوش الدائمة، وتمكَّنوا من إدارة هذه الاتفاقيات المعقدة بواسطة البيروقراطيات الموالية لهم وحدهم، ولكنَّها أيضًا مستقلة بشكل كافٍ للبقاء عند موتهم. ازدهرت اقتصاداتهم وتخطىٰ التطور الاجتماعي أربعًا وعشرين نقطة. وفي الغرب اتسع المركز ووحّدت الإمبراطورية الفارسية معظمه، وفي الشرق كانت عمليات مماثلة تجري كذلك. ومن بين الدول الـ (١٤٨) التي انبثقت عن سقوط مملكة «چو» في عام ٧٧١ ق. م، ظلَّت (١٤) منها فقط قائمة في عام ٤٥٠ ق. م، وسيطرت أربع دول منها - چين وتشي وتشو وتشين- علىٰ المشهد.

في الفصل الرابع، تخيّلتُ رجال فضاء فون دانيكن يتنبؤون أنه في حوالي عام ١٢٥٠ ق. م ستواصل المراكز التوسُّع وأنَّ إمبراطورية واحدة ستظهر في كل منها. وإذا عادوا إلىٰ حوالي عام ٤٥٠ ق. م ربما كانوا سيشعرون بالراحة؛ فتوقعهم لم يكن خطأً بالنهاية. التوقيت هو ما أخطؤوا فيه فحسب.

الكلاسيكيات

ربما اهتم الفضائيون برؤية الكائنات الأرضية تفقد ذائقتها بادَّعائها الاتصال بالبشر الخارقين. طيلة آلاف السنين أرسىٰ الملوك المتألهون قواعد النظام الأخلاقي في سلاسل من الطقوس، ممَّا ربط أبسط قروي بالحكَّام الذين كانوا يلامسون السماء بالتضحية علىٰ الزقّورات، أو بذبح الأسرىٰ في المقابر. ولكن الآن، في ظل إعادة الملوك المتألهين تحديد أدوارهم باعتبارهم رؤساء تنفيذيين، كان السحر ينفد من العالم. وقد اشتكىٰ الشاعر الإغريقي هسيودوس في القرن السابع من عصر الحديد قائلًا: «ليتني مت قبله أو ولدت بعده، فأخيرًا جاء عصر الحديد . . . لقد غادرت كل من الفضيلة والسخط، اللذين يلتف بهاؤهما في أثواب بيضاء، الأرض ذات الدرب الواسع. فهما يهجران الإنسانية للانضمام إلىٰ الآلهة الخالدة في الأوليمب، وستبقىٰ الهموم المُرّة للرجال الخالدين، ولن يكون هناك المزيد من العون علىٰ الشر».

ولكن ذلك كان اتجاهًا واحدًا فقط لرؤية الأشياء. فمن شواطئ بحر إيجه إلىٰ حوض النهر الأصفر، بدأ مفكرون آخرون في تطوير رؤىٰ جديدة راديكالية حول كيفية سير العالم. وكانوا يتكلمون من الهوامش - من الناحية الاجتماعية؛ لأنَّ معظمهم كان يقف علىٰ درجات السلم السفلي للنخبة، ومن الناحية الجغرافية؛ لأنَّ معظمهم كان يأتي من دول صغيرة علىٰ أطراف السلطة. لا لليأس، كما قالوا (إلىٰ حد ما)؛ فنحن لسنا بحاجة إلىٰ حكام متألهين لنستعلي فوق هذا العالم القذر. فالخلاص كامنٌ فينا، وليس في أيدي حكام فاسدين عنيفين.

أطلق كارل چاسبرز، وهو الفيلسوف الألماني الذي كافح في نهاية الحرب العالمية الثانية لإعطاء معنىٰ للأزمة الأخلاقية في أيامه - علىٰ القرون التي تحيط بعام ٥٠٠ ق. م: «العصر المحوري»، بمعنىٰ أنها شكَّلت المحور الذي يدور حوله التاريخ. وفي العصر المحوري، كما أعلن چاسبرز علىٰ نحو تهديدي: «أتىٰ الإنسان كما نعلمه اليوم إلىٰ حيز الوجود». وأصبحت كتابات العصر المحوري - النصوص الكونفوشيوسية والطاوية في الشرق، والوثائق البوذية والجاينية في جنوب آسيا، والفلسفة اليونانية والكتاب المقدس العبري (وسلالته: العهد الجديد والقرآن) في الغرب- هي الكلاسيكيات والروائع الخالدة التي مثَّلت معنىٰ الحياة لملايين لا حصر لها منذ ذلك الحين.

وكان هذا إنجازًا كبيرًا بالنسبة إلىٰ رجال مثل بوذا وسقراط الذين كتبوا القليل أو لم يكتبوا شيئًا. لقد كان خلفاؤهم، وأحيانًا الغريبون عنهم، هم مَن يسجل ويُنمّق أو يرتِّب أقوالهم. وعادة لا يعرف أحد حقًّا فكر المؤسسين أنفسهم، وقد عقد ورثتهم المتنازعون بمرارة مجالس وأطلقوا اللعنات وطردوا بعضهم بعضًا إلىٰ الظلام الخارجي بسبب تلك المشكلة. لقد كان أكبر انتصار لعلم فقه اللغة أو علم الفيلولوچيا الحديث هو اكتشاف أنه في الوقت ما بين الانقسام والقتال واللعن واضطهاد بعضهم البعض، وجد هؤلاء الخلفاء الوقت الكافي لكتابة كتبهم المقدسة وإعادة كتابتها مرات عديدة جدًّا، لدرجة أنَّ فرز النصوص من أجل معرفة معانيها الأصلية يكاد يكون أمرًا مستحيلًا بالتأكيد.

كانت النصوص المحورية أيضًا متنوعة جدًّا؛ فبعضها يُعدُّ تجميعات من الأقوال المأثورة الغامضة، وتُعدّ أخرىٰ حوارات طريفة، والبعض الآخر عبارة عن قصائد أو تاريخ أو جدليات. وتجمع بعض النصوص بين كل هذه الأنواع. وبوصفه تحديًا نهائيًا، تتفق الكلاسيكيات جميعًا علىٰ أنَّ هدفها النهائي -وهو مملكة متجاوزة تتخطىٰ عالمنا الدنيء- ليس محددًا. وقد قال بوذا: لا يمكن وصف النيرفانا -تعني حرفيًا «الإطفاء»، وهي حالة ذهنية تنطفئ فيها العواطف مثل انطفاء لهب شمعة- وحتىٰ المحاولة تعد غير ملائمة. وبحسب كونفوشيوس كانت رين (ren) -وعادة ما تُترجم بـ (الإنسانية - humanness)- متجاوزة اللغة

كذلك. «كلما ازداد تطلعي إليها، بدت أكثر علوًا، وكلما نفذت إلىٰ عمقها أكثر، أصبحت أصلب؛ أراها أمامي وفجاة تصبح ورائي . . . في أثناء الكلام عنها، هل يمكن تجنب التردد؟». وبالمثل، عندما ضُغط علىٰ سقراط لتعريف كالون (kalon) -أي: «الخير»- رفع سقراط يديه قائلًا: «هذا أمر يتخطىٰ حدود فهمي، ولو جربت ذلك سأكون خادعًا لنفسي». وكل ما تمكن من فعله هو ضرب الأمثال: الخير يشبه نارًا تلقي بظلال نتوهم أنها الواقع. وكان يسوع إيحائيًا بالمثل في حديثه عن مملكة السماء، كما أحب ضرب الأمثال بالقدر نفسه.

أما طاو فقد كان الأكثر غموضًا بين الجميع، فـ «السبيل» الذي يتبعه الطاويون:

السبيل الذي يمكن أن نتحدث عنه ليس هو السبيل الحقيقي؛
والاسم الذي يمكن إطلاقه ليس اسمًا حقيقيًا . . .
فكلاهما يمكن تسميته بالغامض.
الغامض والأكثر غموضًا،
وهذا هو مدخل كل اللطائف!

والشيء الثاني الذي اتفقت الكلاسيكيات عليه هو كيفية تحقيق السمو والرِفعة. فهناك ما هو أكثر في الكنفوشية والبوذية والمسيحية من الشعارات الملصقة علىٰ مصدات السيارت، لكنني شاهدت واحدة منها علىٰ سيارة خارج المقهىٰ المفضل لديّ بينما كنتُ أكتبُ هذا الفصل تلخص الأمور بلطف: «التعاطف هو الثورة». عِشْ بأخلاقية، انبذ الشهوة، وعامل الآخرين بما تحب أن يعاملوك به؛ وسوف تغيّر العالم. تحثّنا كل الكلاسيكيات علىٰ مسامحة مَن أساء إلينا، وأن نوفر أساليب للتدريب علىٰ هذا الانضباط الذاتي. فقد استعملت البوذية التأمل، بينما حبّذ سقراط المحادثة. وحثَّ الحاخامات اليهود علىٰ التعلم، واتفق معهم كونفوشيوس، وأضاف المراقبة الدقيقة للطقوس والموسيقىٰ. وداخل كل تقليد مال بعض الأتباع ناحية التصوف بينما اتخذ آخرون طريقًا واقعيًا وبسيطًا.

لقد كانت العملية دومًا متعلقة بالصياغة الذاتية، وهي إعادة تهيئة شخصية نحو السمو لا تكون مرهونة بالملوك المتألهين - ولا حتىٰ بالآلهة. فالقوىٰ الخارقة كثيرًا ما تبدو أمرًا جانبيًا في فكر العصر المحوري. لقد رفض كونفوشيوس وبوذا الحديث عن الإلهيات، واتُّهِم سقراط جزئيًا رغم تدينه المعلن بعدم إيمانه بآلهة أثينا، وحذَّر الحاخامات اليهود بأن الله يعلو علىٰ الوصف لدرجة أنهم لا يجب أن يذكروا اسمه أو يثنوا عليه كثيرًا.

وقد كان الملوك أسوأ حالًا من الآلهة في فكر العصر المحوري؛ فقد تجاهلهم الطاويون وبوذا بشدة، ولكنَّ كونفوشيوس وسقراط ويسوع وبَّخوا الحكَّام صراحةً علىٰ مثالبهم الأخلاقية. وهكذا عكَّرت انتقادات العصر المحوري مزاج العظماء، وتمكَّنت الأسئلة الجديدة التي أُثيرت حولِ الولادة والثروة والجندر والعِرق والطبقة من أن تكون معادية للثقافة بشكل إيجابي.

أنا لا أحاول طمس الاختلافات الحقيقية المساوية للتشابهات بين الكلاسيكيات الشرقية والغربية والجنوب آسيوية في اختياري لها. ولا يمكن لأحد أن يخطئ في التفريق بين المعبد (الترييتاكا)، و(السلال الثلاث للكانون البوذي)، وجمهورية أفلاطون أو مختارات كونفوشيوس، ولكن علىٰ حد سواء لا يمكن ألَّا يُفرّق أي أحد بين مختارات كونفوشيوس والكلاسيكيات الصينية المنافسة مثل الچوانجزي الطاوية أو «كتاب اللورد شانغ» التشريعي. كانت السنوات (من ٥٠٠ إلىٰ ٣٠٠ ق. م) في التقاليد الصينية تمثّل «العصر الذي حدثت فيه سجالات فيها مئات المدارس الفكرية»، وأريد أن نأخذ بعض الوقت لننظر إلىٰ المدىٰ غير التقليدي للأفكار في هذا التقليد الإقليمي المنفرد.

لقد اتخذ كونفوشيوس دوق چو في القرن الحادي عشر قبل الميلاد باعتباره نموذجه للفضيلة وحدَّد هدفه بأنه استعادة التفوق الأخلاقي الذي كان في زمن الدوق من خلال إرجاع نظام الطقوس. وقال كونفوشيوس: «إنَّني أنقل ولا أبتدع، أنا من المعجبين بالتراث». ومع ذلك، يشير علم الآثار إلىٰ أنَّ كونفوشيوس قد عرف القليل عن عهد الدوق البعيد. فلم يكن الدوق وإنما «الثورة الطقوسية» في عام ٨٥٠ ق. م تقريبًا هي التي منحت مجتمع چو الشعائر

المتحفظة المرتّبة بعناية، حيث كلّفت جميع أعضاء النخبة الواسعة بمناصب في نظام تراتبيّ. ثمَّ في عام ٦٠٠ ق. م تقريبًا، تغيَّرت الشعائر مرة أخرىٰ؛ إذ بدأ دفن بضعة رجال مع ثروة ضخمة، مستعلين بأنفسهم علىٰ باقي النخبة.

وقاوم كونفوشيوس -وهو أحد المثقفين ولكن ليس من الـ «شي» الأثرياء علىٰ وجه الخصوص- هذا التغيير الثاني، ونمذج النظام الطقوسي المستقر، وهو النظام الذي ازدهر في الفترة ما بين عامي (٨٥٠ و٦٠٠ ق. م) وأسقطه في الماضي علىٰ دوق چو. وأصرَّ كونفوشيوس أنَّ «إخضاع النفس والعودة إلىٰ الطقوس يكونان بممارسة الإنسانية (رين)»، وهذا يعني الاهتمام بالأسرة الحيّة أكثر من الأسلاف، ورفع الإخلاص الصادق فوق النفاق المزيف، وتثمين الفضيلة لا الانحطاط، وأداء الشعائر بدقة بأدوات بسيطة، واتباع الأسلاف. وأكَّد كونفوشيوس أنَّه إذا استطاع إقناع حاكم واحد فقط بممارسة الإنسانية، فسيقلّده الجميع، وسيجد العالم السلام.

لكن مفكّر القرن الخامس قبل الميلاد «موزي» كان يختلف مع ذلك تمامًا؛ فقد رأىٰ أنَّ كونفوشيوس أساء فهم الإنسانية. كانت الإنسانية تعني فعل الخير وليس تمثيله، وكانت متعلقة بالجميع، وليس بالأسرة فحسب. ورفض موزي الشعائر والموسيقىٰ ودوق چو، وقال: «رغم أنَّ الناس جوعىٰ ويعانون من العنف، فإنَّ الكونفوشيوسيين يتصرفون وكأنهم متسولون، ويأكلون بشراهة مثل الهامستر، ويحدقون بشهوة مثل الماعز، ويترنحون مثل الخنازير المخصية»، وهكذا مضىٰ موزي بين الفقراء مرتديًا ملابس خشنة ونائمًا في العراء، وآكلًا الثريد، وهو يعظ بـ «چيان آي» (jian ai)، وهي مزيج من التعاطف العالمي والمساواتية الصلبة. وقال موزي: «اعتبر بلد الآخر بلدك، وعائلة الآخر عائلتك، والآخر ذاتك»، «فالسبب وراء الكوارث في العالم، والحرمان، والسخط والكراهية هو انعدام چيان آي». ولجأ موزي إلىٰ الدبلوماسية لتجنب الحروب، ومشىٰ حتىٰ بلي نعله، حتىٰ إنه أرسل جماعته الدينية المكونة من ١٨٠ شابًا للقتال حتىٰ الموت دفاعًا عن دولة هوجمت ظلمًا.

ولم يتأثر عادة المفكرون المندرجون تحت الطاوية بموزي مثلما لم يتأثروا بكونفوشيوس. وجادلوا بأنَّ طريق الكون هو التغيير، وقالوا: يصير الليل إلىٰ نهار، والفرح إلىٰ حزن، والحياة إلىٰ الموت؛ لا شيء ثابت، لا شيء يمكن تحديده. يأكل البشر لحم البقر، وتأكل الغزلان العشب، تأكل أم أربعة وأربعين الثعابين، ويأكل البوم الفئران؛ مَن بإمكانه أن يحدد ما هو أفضل نظام غذائي؟ ولاحظ الطاويون أنَّ ما عدّه الكونفوشيوسيون صحيحًا عدّه أتباع موزي خاطئًا، ولكن في الواقع كل شيء مرتبط بكل الأشياء الأخرىٰ. ولا أحد يعرف إلىٰ أين يفضي الطريق. فيجب أن نتحد مع الطريق، لكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك من خلال فاعلية جامحة.

حكىٰ زوانجزي -وهو أحد أساتذة الطاوية- قصة عن طاويّ كبير آخر يُدعىٰ «ليزي». فبعد البحث عن «السبيل» لسنوات، أدرك ليزي أنه لم يتعلم شيئًا، وعاد إلىٰ دياره. ويقول زوانجزي:

«لمدة ثلاث سنوات لم يخرج ليزي. فكان يطبخ لزوجته ويرعىٰ الخنازير كأنهم بشر. ولم يبدِ أي اهتمام بدراسته. ووضع رغباته جانبًا، ناشدًا الحقيقة. وأصبح في جسده مثل الأرض نفسها. وفي خضم كل شيء بقي مقيدًا بالواحد، وهذه هو ما بقي عليه حتىٰ النهاية».

ظن زوانجزي أنَّ فاعلية كونفوشيوس وموزي تبدو سخيفة - وخطيرة. وتخيَّل زوانجزي شخصًا يخبر كونفوشيوس: «لم يمكنك تحمل معاناة هذا الجيل، فمضيت تسبّب المشاكل لعشرة آلاف جيل قادم. هل عزمت علىٰ أن تكون بائسًا هكذا، أم أنك لا تدرك ماذا تفعل؟ ... ما هو الخطأ الذي لا يمكنه إلا أن يضر، وما هو الفعّال الذي لا يسعه إلا أن يخطئ». وعلىٰ نحو متباين، صدم موزي زوانجزي باعتباره «أحد الأخيار في هذا العالم»، ولكنَّه أحد الذين أفرغوا الحياة من المتعة. ويرتدي الموهيون "ohists" جلودًا وأقمشة خشنة وأحذية خشبية ونعالًا من القنب، ولا يتوقفون ليلًا أو نهارًا، ويرون هذه الأنشطة الانفعالية باعتبارها أعظم إنجازاتهم. لكن ذلك «أنتج حياة مجهدة وموتًا دون جدوىٰ ...»، وتساءل زوانجزي: «حتىٰ لو تمكَّن موزي نفسه من تحمُّل ذلك فكيف يمكن لبقية العالم أن يعيشوا بهذه الطريقة؟».

لقد رفض موزي كونفوشيوس ورفض زوانجزي كلًا من كونفوشيوس وموزي؛ لكن ما يسمىٰ بالتقليد الشرعي رفضهم جميعًا. فقد كانت الشرعوية (Legalism) هي الخيار المعادي للمحورية، وكانت أكثر ميكيافيللية من مكيافيللي. فقد شعر الشرعيون بأنَّ كلًا من «رين» و«چيان أي» و«طاو» قد أخطؤوا الهدف. فمحاولة تجاوز الواقع كانت محض غباء: حيث أصبح الملوك المتألهون ملوكًا إداريين، وباحثين عن الكفاءة، وعلىٰ البقية منّا قبول الوضع الراهن. فلم يكن الهدف هو الإنسانية بالنسبة إلىٰ اللورد شانغ، وهو رئيس وزراء تشين في القرن الرابع قبل الميلاد والنور المرشد للشرعوية، ولكن الهدف كان «إثراء الدولة وتعزيز قدرتها العسكرية». وفي هذا الصدد، قال شانغ: «لا تعامل الآخرين بما تحب أن يعاملوك به؛ لأنَّك إذا لجأت في المؤسسات إلىٰ ما سيخجل العدو من فعله، فهذا يعني أنَّ لديك ميزة عنهم». «لا تكن خيّرًا ولا تفعل الخير؛ لأنَّ الدولة التي تستخدم الشر لكي تحكم الأخيار تتمتع دائمًا بالنظام وتصبح قوية». ولا تضيّع الوقت في الشعائر، أو الفعاليات أو الإيمان بالقدر. وبدلًا من ذلك، ضَعْ قوانين شاملة مع عقوبات قاسية (قطع الرأس، الدفن حيًا، العمل الشاق) وطبْقها علىٰ الجميع بصرامة. ومثل منقلة النجارين، أحب الشرعيون القول بأنَّ القوانين ترغم المواد الفوضوية علىٰ التكيّف.

وتراوح الفكر الصيني في العصر المحوري من الصوفية إلىٰ السلطوية، وكان يتطور باستمرار. فعلىٰ سبيل المثال: دمج العالم زونزي في القرن الثالث قبل الميلاد بين الكونفوشية وأفكار موزي والطاوية، وسعىٰ نحو أرضية مشتركة مع الشرعوية. وقد رحَّب الكثير من الشرعيين بعمل موزي الأخلاقي، وتقبّل الأشياء عند الطاوية. وعبر قرون عديدة، دُمجت الأفكار وأعيد دمجها في تعقيد مُشكل.

وينطبق الشيء نفسه علىٰ الفكر المحوري في جنوب آسيا والغرب. ولن أخوض في هذه التقاليد بالتفصيل، ولكن نظرة سريعة علىٰ أرض اليونان الصغيرة تجعلنا ندرك غليان القدر بالأفكار. وربما كانت الملكية المتألهة أضعف في اليونان قبل عام (١٢٠٠ ق. م) من الملكية المتألهة في الدول القديمة في جنوب

غرب آسيا، وبحلول عام (٧٠٠) رفضها اليونانيون بشكل قاطع. وربما كان ذلك هو سبب استمرارهم في المواجهة، علىٰ نحو أكبر من الآخرين في العصر المحوري، لمسألة كيف علىٰ المجتمع الصالح أن يبدو في غياب حكَّام استغلوا عالمًا آخر.

كانت إحدىٰ الإجابات اليونانية هي التماس الخير من خلال السياسة الجماعية. وتساءل بعض الإغريق: إذا لم يكن الحصول علىٰ حكمة خارقة متاحًا لأي أحد، فلماذا لا نجمع المعارف المحدودة التي يملكها كل رجل لإنشاء ديمقراطية (ذكورية)؟ وكانت تلك فكرة متميزة -لم يفكر فيها حتىٰ موزي- ويشير منظرو نظريات المدىٰ الطويل في كثير من الأحيان إلىٰ أنَّ اختراع اليونانية للديمقراطية الذكورية يمثل انفصالًا حاسمًا بين الغرب والبقية.

وفي هذه المرحلة من الكتاب لن يكون الأمر مفاجئًا أن تسمع أنني لست مقتنعًا بذلك. لقد كان التطور الاجتماعي الغربي أعلىٰ من نظيره الشرقي لمدة ١٤ ألف سنة قبل أن يبدأ اليونانيون في التصويت علىٰ كل شيء، وبالكاد تغيَّرت صدارة الغرب خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وهو العصر الذهبي للديمقراطية في اليونان. وفي القرن الأول قبل الميلاد، عندما جعلت الإمبراطورية الرومانية الديمقراطية مفرطة، ارتفعت صدارة الغرب بشكل حاد فوق الشرق. وثمة مشكلة أكبر في نظرية التصدع اليونانية (كما سيتضح في الفصول من السادس إلىٰ التاسع)، وهي أنَّ الديمقراطية اختفت من الغرب بالكامل تقريبًا في الألفي سنة التي تفصل اليونان الكلاسيكية عن الثورات الفرنسية والأمريكية. وقد عثر راديكاليو القرن التاسع عشر في أثينا القديمة علىٰ غطاء مفيد في مناقشاتهم حول كيف يمكن أن تعمل الديمقراطيات الحديثة، إلَّا أنَّ الأمر قد يتطلب قراءة انتقائية للتاريخ لرؤية روح متواصلة من الحرية الديمقراطية تمتد من اليونان الكلاسيكية حتىٰ الآباء المؤسسين (الذين -بالمناسبة- كانوا يميلون إلىٰ استخدام كلمة «الديمقراطية» باعتبارها مصطلح إساءة، فهو يعلو بمجرد خطوة واحدة فوق حكم الرعاع).

وعلىٰ أية حال، فقد أتت المساهمة الحقيقية لليونان في الفكر المحوري لا من الديمقراطيين ولكن من قِبَل نُقّاد الديمقراطية بقيادة سقراط. فقد احتج سقراط بأنَّ اليونان لا تحتاج إلىٰ ديمقراطيات، وهي التي أدت إلىٰ جمع جهل الرجال الذين يحكمون علىٰ كل شيء من المظاهر؛ وأن ما تحتاجه اليونان هو رجال مثله، يعرفون أنه عندما يتعلق الأمر بطبيعة الخير، وهو الشيء الوحيد المهم؛ فإنَّهم لا يعرفون شيئًا. فقط هؤلاء الرجال بإمكانهم فهم الخير جيدًا (إذا كان ذلك ممكنًا حقًّا؛ لم يكن سقراط متأكدًا) عن طريق العقل، الذي تشحذه الجدالات الفلسفية.

وأنتج أحد أتباع سقراط، وهو أفلاطون، رؤيتين من نموذج أستاذه عن المجتمع الصالح: كتاب «الجمهورية»، وهو مثالي بشكل كافٍ لأي كونفوشيوسي؛ وكتاب «القوانين»، وهو استبدادي بشكل كافٍ لتدفئة قلب اللورد شانغ. وقد غطىٰ أرسطو (أحد تلاميذ أفلاطون) نطاقًا مماثلًا يمتد من الأخلاق الإنسانية إلىٰ السياسة التحليلية الباردة. واستطاع بعض المفكرين من القرن الخامس قبل الميلاد الذين عُرفوا بالصوفية أن يجاروا الطاوية في النسبية، تمامًا مثلما وافقهم المثاليون بارامينيدس وإمبيدوكليس في التصوف؛ وكان بروثاغوراس بطلًا شعبيًا مثل موزري.

في مقدمة هذا الكتاب تحدثتُ عن نظرية مدىٰ طويل أخرىٰ، تتضمن أنَّ الغرب لا يهيمن اليوم بسبب ابتكار الإغريق للديمقراطية ذاتها، ولكن لأنَّهم أنشؤوا حضارة عقلانية وديناميية علىٰ نحو فريد، بينما كانت الحضارة الصينية القديمة ظلامية ومحافظة. أعتقد أنَّ هذه النظرية خاطئة أيضًا؛ فهي ترسم الفكر الشرقي والغربي والجنوب آسيوي وتتجاهل تنوعه الداخلي؛ فالفكر الشرقي قد يكون عقلانيًا وليبراليًا وواقعيًا ونقديًا بنفس قدر الفكر الغربي؛ كما يمكن للفكر الغربي أن يكون روحانيًا واستبداديًا ونسبيًا وغامضًا بنفس قدر الفكر الشرقي. فالوحدة الحقيقية للفكر المحوري هي وحدة في التنوع. فمع كل الخلافات بين الفكر الشرقي والغربي والجنوب آسيوي، كان مدىٰ الأفكار والجدالات والصراعات متشابهًا بشكل ملحوظ في كل منطقة. وفي العصر المحوري كان

المفكرون يحددون الأرضية نفسها من أجل الجدال، بغض النظر عما إذا كانوا يعيشون في وادي النهر الأصفر، أو سهل الجانج أو مدن شرق البحر المتوسط.

كان الانفصال الحقيقي عن الماضي هو شكل هذه الأرضية الفكرية باعتبارها كلية وليست أية خاصية أحادية (مثل الفلسفة الإغريقية) ضمنها. لم يكن أحد يخوض جدالات محورية في عام (١٣٠٠ ق. م)، عندما اقترب إحراز التطور الاجتماعي الغربي من أربع وعشرين نقطة لأول مرة. وكان أقرب مرشح هو أخناتون، فرعون مصر في الفترة ما بين (١٣٦٤ و١٣٤٧ ق. م)، والذي نحىٰ جانبًا الآلهة التقليدية ونصَّب ثالوثًا يتكون منه وزوجته نفرتيتي وقرص الشمس، آتون. وقد بنىٰ مدينة جديدة مليئة بالمعابد لعبادة آتون، وألَّف ترانيم آسرة، وطوَّر طرازًا غريبًا من الفن.

وطيلة مائة سنة كان علماء المصريات يتجادلون بشأن ما كان يفعله أخناتون. لقد ظنَّ البعض أنه كان يحاول ابتكار التوحيد، ولم يجادل من يقل شهرة عن سيغموند فرويد بأنَّ موسىٰ قد سرق هذا المفهوم من أخناتون خلال تواجد العبرانيين في مصر. وهناك بالتأكيد ضربٌ من التشابه المذهل بين «ترنيمة آتون العظمىٰ»، و«ترنيمة الإله الخالق» في العهد القديم (مزمور ١٠٤). إلَّا أنَّ ثورة أخناتون الدينية لم تكن محورية علىٰ الإطلاق، ولم تتسع للسمو الذاتي؛ في الحقيقة لقد منع أخناتون البشر من عبادة آتون، ممَّا جعل من الفرعون جسرًا بين هذا العالم والعالم الإلهي أكثر ممَّا كان من قبل.

وإذا كان الأمر كذلك، فالآتونية توضح صعوبة صناعة تحولات فكرية جذرية في المجتمعات التي تكون فيها فكرة الملوك الآلهة راسخةً بقوة. لم يحظَ دين أخناتون الجديد بأتباع، وبمجرد وفاته عادت الآلهة القديمة، وتم تدمير معابد أخناتون ونُسيت ثورته إلىٰ أن اكتشف علماء الآثار مدينته في عام (١٨٩١م).

فهل الفكر المحوري هو ما يجعل (الشكل ٥ - ١) رتيبًا للغاية؟ هل أرشد كل من كونفوشيوس وسقراط وبوذا المجتمعات من خلال حاجز فكري عندما وصل التطور الاجتماعي إلىٰ أربع وعشرين نقطة في منتصف الألفية الأولىٰ قبل

الميلاد، في حين أن غياب هؤلاء العباقرة قد حجب التطور الاجتماعي في الألفية الثانية؟

علىٰ الأرجح لا. فمن ناحية، تُعدّ الكرونولوجيا ضد ذلك. ففي الغرب، أصبحت آشور دولة عالية التكلفة وتخطت الأربع والعشرين نقطة في القرن الثامن قبل الميلاد، ولكن من الصعب أن نرىٰ الكثير من المحورية في الفكر الغربي قبل سقراط، بعد ثلاثمائة سنة لاحقة. إنها دعوة أقرب في الشرق؛ فهناك بلغت كل من تشين تشو تشي وچين أربعًا وعشرين نقطة في (٥٠٠ ق. م) تقريبًا، عندما كان كونفوشيوس في أوج فاعليته، ولكن الموجة الرئيسة للفكر المحوري الشرقي تقع في وقت لاحق؛ في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. وإذا كان الجنوب شرقيون علىٰ حق في إعادة تأريخهم لبوذا ليرجع تاريخه إلىٰ أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، فسيبدو أنَّ تشكيل الدولة عالية التكلفة قد سبق الفكر المحوري أيضًا.

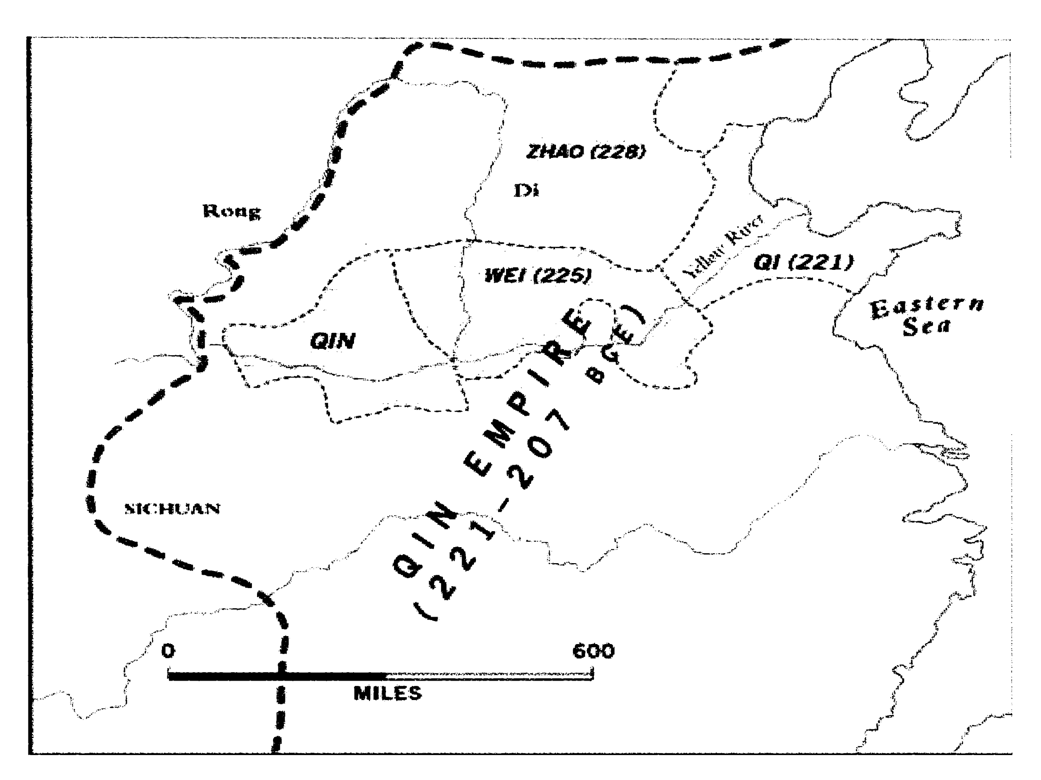
وتُعدّ الجغرافيا ضد ذلك أيضًا. فلقد جاء أهم المفكرين المحوريين من مجتمعات صغيرة وهامشية مثل اليونان وإسرائيل وموطن بوذا (ساكيا)، أو موطن كونفوشيوس (لو)، ومن الصعب أن ندرك كيف أثرت التقدّمات المتعالية في أثناء حالات الركود السياسي في التطور الاجتماعي في القوىٰ العظمىٰ.

وأخيرًا، المنطق ضد ذلك أيضًا؛ فالفكر المحوري كان ردة فعل ضد الدولة عالية التكلفة وفي أحسن الأحوال لم يكن مباليًا بالملوك العظام وبيروقراطييهم، وكان مُعاديًا في أغلب الأحيان لسلطتهم. لقد أتت المساهمة الحقيقية للفكر المحوري علىٰ ما أعتقد لاحقًا في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد، عندما تعلَّمت جميع الدول كيفية ترويضها وجعلها مفيدة لهم. ففي الشرق، أضعفت أسرة هان الكونفوشية إلىٰ درجة أنها أصبحت أيديولوجية رسمية، ترشد طبقة مخلصة من البيروقراطيين. وفي الهند، اعتنق الملك أشوكا البوذية في عام (٢٥٧ ق. م) فزعًا علىٰ ما يبدو من غزواته العنيفة، لكنَّه تمكَّن بطريقة ما من عدم إعلان الحرب. وفي الغرب قام الرومان بتحييد الفلسفة الإغريقية، ثم حوّلوا المسيحية إلىٰ دعامة لدعم إمبراطوريتهم.

وقد شجعت العناصر الأكثر عقلانية في الفكر المحوري علىٰ القانون، والرياضيات، والعلوم، والتاريخ، والمنطق، والخطابة وكل ما أدىٰ إلىٰ ريادة البشر الفكرية علىٰ العالم، ولكن المحرك الحقيقي وراء (الشكل ٥ - ١) هو نفسه منذ نهاية العصر الجليدي. لقد وجدت الشعوب الكسولة، والجشعة، والخائفة سبلًا أسهل وأكثر ربحًا وأمانًا لإنجاز الأشياء، وفي عملية بناء دول أقوىٰ، والتجارة في مناطق أبعد، والاسقرار في المدن الكبرىٰ. وفي نمط سنراه مرارًا خلال الفصول الخمسة التالية، مع ارتفاع التطور الاجتماعي، فإنَّ العصر الجديد حصل علىٰ الثقافة التي يحتاج إليها. لقد كان الفكر المحوري أحد الأشياء التي حدثت عند إنشاء الشعوب للدول عالية التكلفة وتحريرهم للعالم من الوهم.

إذا كان ثمة دليل إضافي علىٰ أنَّ الفكر المحوري كان نتيجة بشكل أكبر من كونه سببًا في إعادة بناء الدولة، يكفينا فقط النظر في تشين، وهي الدولة الشرسة في الحافة الغربية للمركز الشرقي (الشكل ٥ - ٦). «لدىٰ تشين نفس عادات [البربر] والرونج ومملكة دي، كما قال المؤلف المجهول للنص الصيني (The Stratagems of the Warring States) أو «أساليب الخداع من الدول المتحاربة»، وهو نوع من الكتب الإرشادية عن الخدع الدبلوماسية. «فلديها قلب النمر أو الذئب؛ وهي جشعة، ومحبة للربح وغير جديرة بالثقة ولا تعرف شيئًا عن الطقوس، أو الواجب، أو السلوك الفاضل». وعلىٰ الرغم من كونها علىٰ النقيض من كل شيء، تمسك بها السادة الكونفوشيوسيون، وتفجرت تشين من حافة المركز الشرقي لتغزو معظمه في القرن الثالث قبل الميلاد.

وقد حدث شيء مماثل في الطرف الآخر من أوروبا الآسيوية، حيث أتىٰ الرومان -المشابهون للذئاب- من حافة المركز الغربي للإطاحة به واستعباد الفلاسفة الذين أطلقوا عليهم اسم البرابرة. وكتب بوليبيس (Polybius) وهو سيد يوناني أُخذ إلىٰ روما باعتباره رهينة في عام ١٦٧ ق. م، نصًا بعنوان «تاريخ عالمي»، (Universal History) في أربعين مجلدًا لشرح كل هذا إلىٰ رفاقه في الوطن. وقد تساءل بوليبيس: «مَن يمكن أن يكون ضيق الأفق أو كسولًا إلىٰ حد أنَّه لا يريد أن يعرف كيف . . . في أقل من ٥٣ عامًا [٢٢٠ - ١٦٧ ق. م] وضع الرومان معظم العالم المسكون تحت حكمهم تقريبًا، وهو شيء ليس له مثيل في التاريخ؟».



(موضع الشكل ٥ – ٦)، انتصار تشين: الشرق في عهد الممالك المتناحرة (٣٠٠ – ٢٢١ ق. م)، «تظهر التواريخ الواردة بين قوسين متىٰ سقطت الدول الرئيسة تحت سيطرة تشين».

وهناك الكثير من الأمور المشتركة بين روما وتشين. لقد كان كل منهما مثالًا رائعًا علىٰ مزايا التخلف؛ إذ جمعت كل منهما بين الأساليب التنظيمية الرائدة التي كانت بدايتها في مركز أقدم، والوسائل العسكرية التي تمَّ صقلها علىٰ الجبهات الشرسة، وكل منهما ذبح واستعبد وانتزعوا الأراضي والممتلكات من الملايين، وكل منهما قاد التطور الاجتماعي لأعلىٰ بصورة أسرع من أي وقت مضىٰ. وتمثِّل كل من روما وتشين أيضًا ما يمكن أن نسميه مفارقة العنف: فعندما جفت أنهار الدماء، تركت إمبيريالي, اتهم معظم الناس في كل من الشرق والغرب، في حال أفضل.

كان سر نجاح كل من تشين وروما شيئًا بسيطًا – الأرقام. فقد بلغت كل من تشين وروما تلك المكانة عبر مسارات مختلفة، ولكن كلًا منهما كان أفضل في زيادة الجيوش وتسليحها وإطعامها وإحلالها من أي منافس.

ففي الشرق، ظلَّت تشين لقرون عديدة الأضعف بين الدول الست الكبرىٰ المتحاربة. وبدأت تتحرك نحو التنظيم عالي التكلفة متأخرًا، فلم تقم بإدخال ضرائب الأرض إلَّا في عام ٤٠٨ ق. م. وعندئذٍ أجبر القتال المتواصل الدول الأخرىٰ علىٰ تجنيد رعاياها، وفرض الضرائب عليهم، واستخدام الأساليب القانونية لفرض الانضباط عليهم. وبذل الحكَّام كل ما في وسعهم لزيادة الإيرادات؛ ولذلك انتشرت أفضل الممارسات بسرعة، حيث كان البديل للتقليد هو التدمير. وفي عام ٤٣٠ ق. م تقريبًا، بدأت دولة «وي» بجمع العمَّال وحفر قنوات الريِّ الكبيرة لرفع الإنتاج الزراعي، وحذت الدول الأخرىٰ -بما في ذلك تشين (في النهاية)- حذوها. وشيَّدت كل من «چاو» و«وي» أسوارًا لحماية أراضيها المرويّة القيّمة، وكذلك فعل الآخرون.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد لحقت تشين بالركب. وخلّد اللورد شانج اسمه هناك في أربعينيات القرن الرابع قبل الميلاد، بإسداء النصح لحاكم تشين حول كيفية تحويل دولته إلىٰ كابوس من المراقبة والانضباط:

«أمر [اللورد شانج] بأن يُقسَّم الشعب إلىٰ مجموعات من عشرة أفراد وأخرىٰ من خمسة أفراد وأن تشرف علىٰ بعضها البعض وتكون مسؤولة عن بعضها البعض. وإذا لم يبلّغ أي شخص عن وجود نشاط إجرامي سيتم قطعه لنصفين عند منطقة الخصر، في حين أنَّ الذين سيبلّغون سينالون المكافأة نفسها التي ينالها مَن يحصل علىٰ رأس العدو...».

لم يكن ذلك مجرد خيال استبدادي؛ إذ تظهر النقوش علىٰ قشور الخيزران المستخرجة من مقابر قضاة شين أنَّ القوانين قد طُبقت بكل ما فيها من وحشيّة.

وإذا كان في ذلك عزاء، فإنَّ اللورد شانج في نهاية المطاف قد قُذف بمنجنيقه الخاص، وحُكم عليه بتمزيقه إربًا بعد ربط كاحليه ومعصميه بالعجلات الحربية. وعندئذٍ انتصرت الدولة الشرعية عالية التكلفة وأصبح المركز الشرقي معسكرًا مسلحًا. وكان ثلاثون ألف رجل يُعدّون جيشًا كبيرًا في عام ٥٠٠ ق. م، ولكن بحلول عام ٢٥٠ ق. م كان مائة ألف رقمًا عاديًا. ولم يكن مائتا ألف بالشيء المميز، فقد كانت الجيوش القوية ضعفَي هذا الحجم. وبالمقابل كانت

الخسائر هائلة. وقد جاء في أحد النصوص أن جيشًا لتشين قتل جيشًا قوامه ٦٠ ألفًا من وي في عام ٣٦٤ ق. م. قد تكون الأرقام مبالغًا فيها، ولكن في ظل أنَّ جنود تشين كان يُدفع لهم من قِبل الرئيس (حرفيًا: كانوا يقدمون آذانًا مقطوعة للمطالبة بالمكافآت)، فإنها من غير الممكن أن تكون بعيدة عن الحقيقة.

لقد كان إطلاق العنان للقوات منذرًا بالخطر لدرجة أنه في عام ٣٦١ ق. م أقامت القوىٰ العظمىٰ مؤتمرات دورية للتفاوض بشأن خلافاتهم، وظهر دبلوماسيون للإيجار، وهم المعروفون باسم «المُقْنِعون» في خمسينيات القرن الرابع قبل الميلاد. وقد يتحرك رجل واحد بين العديد من الممالك العظمىٰ بصفته رئيسًا للوزراء لهم جميعًا في وقت واحد، وهو يحيك خيوط مؤامرة جديرة بهنري كيسنجر.

قال ونستون تشرشل: «إن الحوار دائمًا أفضل من الحرب»، ولكن القوة الغاشمة كانت لا تزال تتغلب علىٰ المساومة في القرن الرابع قبل الميلاد. لقد كانت المشكلة هي تشين نفسها. فقد اندفعت جيوش تشين باستمرار وهي مُؤمَّنة خلف حدود جبلية جعلت من الصعب الهجوم عليها، ومنحتها حرية استعمال موقعها في حافة المركز لدعم القوىٰ العاملة بجذب أناس من مجتمعات بلا دول توجد في مناطق أبعد من الغرب. «تشين هي العدوِ اللدود لـ (كل مَن تحت السماء»)، كما جاء في كتاب «أساليب الخداع من الدول المتحاربة»، وهي تريد «ابتلاع العالم أجمع».

وقد أدركت الدول الأخرىٰ أنها بحاجة إلىٰ الاتحاد ضد تشين، ولكن أربعة قرون من الحرب قد خلقت الكثير من انعدام الثقة لدرجة تمنعهم من مقاومة طعن بعضهم البعض في الظهر. وفي الفترة ما بين أعوام (٣٥٣ و٣٢٢ ق. م) قاد «وي» سلسلة من التحالفات، ولكن بمجرد تحقيق الحلفاء لانتصارات قليلة انقلبوا علىٰ وي، خائفين من أن تتفوق عليهم. وقد استجابت وي مثل محب أو زعيم مقاوم، محولةً عواطفها للعدو القديم. وقادت تشين في الفترة ما بين أعوام (٣١٠ و٢٨٤ ق. م) مجموعة تحالفات جديدة، فقط لتتم الإطاحة بها كما حدث مع وي. ثم تولىٰ چاو القيادة وفاز في عام ٢٦٩ ق. م بانتصارين كبيرين علىٰ تشين

وتوهج الأمل في كل قلب، ولكن الأمر كان بسيطًا جدًّا، ومتأخرًا جدًّا. فقد اكتشف ملك تشين، «چنج»، استراتيجية جديدة سيئة للغاية: ببساطة، اقتل أناسًا كثيرين جدًّا لدرجة ألَّا تتمكن الدول الأخرىٰ من إعادة بناء جيوشها. وبذلك كان تشين هو أولَ من اخترع عدد القتلىٰ.

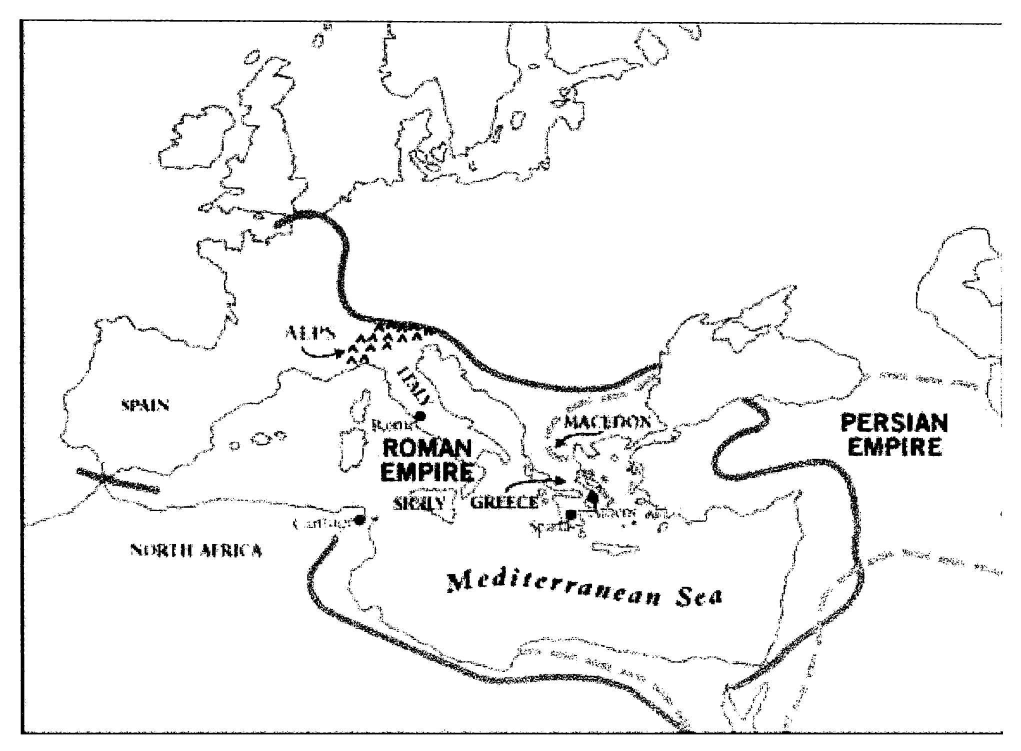
وأودىٰ چنرالات تشين بحياة حوالي مليون فرد من جنود العدو خلال الثلاثين عامًا التالية. وتملأ المذابح الكئيبة السجلات السنوية، لكنَّها تنتهي فجاة في عام ٢٣٤ ق. م، عندما يتم إخبارنا بأنَّ تشين قد ذبح ١٠٠ ألف رجل من چاو. وبعد ذلك لم يتبق أي أعداء يمكن الاعتداد بهم وحلَّ استسلام الدول محلَّ المذابح في السجلات السنوية.

ومع عدم وجود الكلام أو الحرب، علّق أعداء تشين آمالهم علىٰ الاغتيال. ففي عام ٢٢٧ ق. م، استعمل أحد السفاحين الإقناع لتجنب حرَّاس الملك چنج، وأمسك بذراع تشنج وصوب نحوه خنجرًا مسمومًا فقط كي تتمزق ذراع چنج في يده. وطأطأ چنج رأسه خلف أحد الأعمده واندفع متخبطًا كي يخرج سيفه الطويل الخاص بالمناسبات من غمده ويمزّق القاتل إربًا إربًا.

لم تكن هناك فرص أخرىٰ، وسقطت تشي باعتبارها آخر دولة مستقلة في عام ٢٢١ ق. م. واتخذ الملك چنج ذلك الوقت اسم شيهوانجدي، أو الإمبراطور الأول أغسطس. وقال بصوت مدوٍ: «نحن الإمبراطور الأول، وسيُعرف مَن بعدنا باسم الإمبراطور الثاني والإمبراطور الثالث، وهكذا دواليك، لما سيأتي من أجيال لا حصر لها». ولم يعترض أحد.

لكنَّ طريق روما نحو الإمبراطورية كان مختلفًا (الشكل ٥ – ٧). فقد قامت فارس بالفعل بتوحيد معظم ما أُعتبر وقتها المركز الغربي في الوقت الذي فاز فيه داريوس بالعرش في عام ٥٢١ ق. م، ولكنَّ رغبته لاستغلال ثروات جبهة البحر الأبيض المتوسط قد أطلقت موجات من التشكيل الدفاعي للدولة، وخلقت قوىٰ تمكَّنت في نهاية المطاف من تدمير الإمبراطورية الفارسية. كما كانت المدن اليونانية والإيطالية متطورة بالفعل، وذات درجات مرتفعة في امتلاك الطاقة وتكنولوجيا المعلومات ولكن أقل في التنظيم والقوة العسكرية. وطالما أنَّ

داريوس هاجمها الواحدة تلو الأخرىٰ، فقد كان بإمكانه التنمر عليهم حتىٰ يخضعهم، لكن التنمر نفسه قد جعل المدن تتحد، ممَّا رفع من قواها التنظيمية والعسكرية.



(موضع الشكل ٥ - ٧). الإمبراطوريات القديمة في الغرب: من بلاد الفرس إلىٰ روما (٥٠٠ - ١ ق. م). يبيِّن الخط المتقطع الحد الأقصىٰ للطرف الغربي للإمبراطورية الفارسية، حوالي سنة ٤٩٠ ق. م، بينما يظهر الخط المتصل امتداد الإمبراطورية الرومانية في (١ ق. م).

ولذلك، فعندما قاد خشايارشا ابن داريوس قوة ضخمة إلىٰ اليونان في عام ٤٨٠ ق. م، نحَّت كل من أثينا وأسبرطة خلافاتها جانبًا لمقاومته. وقد خلَّد المؤرخ هيرودت (وبشكل مختلف إلىٰ حد ما، فيلم «٣٠٠») نصرهم الاستثنائي الذي خلَّف أثينا باعتبارها قوة عظمىٰ علىٰ رأس مجموعة من المدن. وفي تشابه بما حدث عندما حاولت الولايات الشرقية التحالف ضد تشين، فقد أخافت السلطة الأثينية أسبرطة أكثر حتىٰ من إخافة الفرس لها، وفي عام ٤٣١ ق. م

اندلع الصراع بين أثينا وأسبرطة المعروف بحرب البيلوبونيز (التي خلدها ثوكيديدس، ولكن حتىٰ الآن لم يخلدها أي فيلم). وفي الوقت الذي سلّم فيه الأثينيون المهزومون والجوعىٰ أساطيلهم وحطّموا أسوارهم في عام ٤٠٤ ق. م، كانت الحرب قد اقتربت في كل من صقلية وقرطاج، وحوّلت مخالبها أجزاءً من منطقة البحر الأبيض المتوسط، وخاصة مقدونيا، إلىٰ التبعية الاقتصادية لليونان.

كانت مقدونيا نوعًا من جمهورية موز قديمة، غنيّة بالموارد (ولا سيما الأخشاب والفضة) ولكنَّها كانت فوضوية. وعلىٰ مدىٰ خمسين عامًا كانت المدن اليونانية تهددها، وتدعم أدعياء المنافسة كي يعتلوا عرشها وتحوّل السياسة إلىٰ مسلسل من الزنا وزنا المحارم والقتل، ولكن في عام ٣٥٩ ق. م استولىٰ فيليب الثاني وهو النسخة المقدونية من تغلث فلاسر، علىٰ عرش المملكة. ولم يكن فيليب بحاجة إلىٰ علماء اجتماع لشرح مزايا التخلف له: فمن خلال فهمه الفطري، قام بتكييف المؤسسات اليونانية علىٰ مملكته الكبيرة والغنية، ولكن الفوضوية كذلك. ونقّب عن الفضة واستأجر المرتزقة، وجعل الأرستقراطيين الفوضويين يعملون معه، ثمَّ تجاهل المدن اليونانية. وكان بالتأكيد سيفعل الشيء نفسه مع فارس لو لم يقتله قاتل مأجور - مدفوع، كما تقول الشائعات، بواسطة حالات الهياج لفيليب عندما يكثر الشرب و/أو عداوة غرامية انتهت باغتصاب جماعي شاذ - في عام ٣٣٦ ق. م. ومع عدم التوقف، وفىٰ ابن فيليب (الإسكندر) بخطط فيليب خلال أربع سنوات فقط (٣٣٤ - ٣٣٠ ق.م)، فطارد ملك فارس حتىٰ الموت، وأحرق مدينته المُقدّسة، وسار حتىٰ الحدود الهندية. وكان رفض قواته للسير أبعد من ذلك هو الذي تمكن من إيقاف غزواته.

كان الإسكندر طفل العالم الجديد الخالي من الوهم (كان أرسطو أحد معلميه)، ولم يدرك علىٰ الأرجح مدىٰ صعوبة أن يكون في مكانة ملك متأله. وقد اعتقد الفرس الأتقياء أنَّ ملوكهم كانوا الممثلين الأرضيين لـ (أهورا مزدا) في صراعه الأزلي مع الظلام؛ ولذا فلا بُدَّ وأنَّ الإسكندر هو عميل للشر. ومما لا شك فيه أنَّ هذه المشكلة الصورية تكمن وراء جهود الإسكندر المضنية (المشار إليها في الفصل الرابع) لإقناع الفرس بأنه ملك إله. وربما إذا مُنح المزيد من

الوقت كان سينجح، رغم أنه كلما حاول إبهار الفرس بألوهيته، بدا أكثر جنونًا في أعين الإغريق والمقدونيين. وقد كان الوقت قصيرًا: وسقط الإسكندر ميتًا، ربما بالسُم، في عام ٣٢٣ ق. م، وحارب چنرالاته حروبًا أهلية، وفكَّكوا الإمبراطورية وأصبحوا تدريجيًا ملوكًا مستقلين (يزحفون نحو الألوهية).

وفي النهاية ربما غزت إحدىٰ الممالك ممالك أخرىٰ، باتباع مسار تشين، ولكن خلفاء الإسكندر افتقروا للوقت مثلما كان ملكهم الكبير. وفي القرن الرابع قبل الميلاد سُحبت مقدونيا إلىٰ الصراعات اليونانية، وقامت بتكييف المؤسسات اليونانية وفقًا لاحتياجاتها، وهزمت الإغريق ثم دمّرت إمبراطورية العصر، وفي القرن الثاني كرَّرت روما السيناريو نفسه تقريبًا.

تُعدّ روما مثالًا علىٰ كيف يجتمع كل من الاستعمار والتطورات علىٰ الأطراف لتوسعة المراكز. لقد تأثرت المدينة بشدة باليونان منذ القرن الثامن قبل الميلاد، لكنَّها زادت قوة في صراعاتها المحلية مع جيرانها، وأسَّست مزيجًا غريبًا من تنظيم عالٍ ومنخفض التكلفة. وكان مجلس شيوخ أرستقراطي هو الذي يتخذ معظم القرارات الكبيرة، بينما كانت المجالس المُهيمن عليها من قِبَل المزارعين المتوسطين تصوِّت علىٰ مسائل السلم والحرب. ومثل تشين، كانت روما متأخرة في التحرك نحو التكلفة العالية؛ فقد بدأت في دفع رواتب جنودها في عام ٤٠٦ ق. م، وفرضت أول الضرائب علىٰ الأرجح في الوقت نفسه. وطيلة قرون عديدة، اعتمدت ميزانية روما في الغالب علىٰ الغنائم، وبدلًا من فرض الضرائب علىٰ الأعداء المهزومين قامت بإبرام صفقات معهم، مستخرجة الجيوش لمحاربة المزيد من الحروب.

كان الرومان كارهين للملوك المتألهين مثل الإغريق، ولكنَّهم أدركوا جيدًا الارتباط بين الغزو والألوهية. فقد كان الچنرالات الناجحون حقًا يُمنحون الانتصارات، ومواكب في شوارع روما تُلقىٰ فيها الأشرطة عليهم، في عجلات حربية تجرها خيول بيضاء مُزيَّنة بصور مقدّسة، ولكنَّها تكون مصحوبة بالعبيد الذين يهمسون في آذانهم «تذكر أنك بشر». لقد سيطر الانتصار بفعالية علىٰ الملكية الإلهية، جاعلًا الفاتح العظيم إلهًا لمدة يوم - ولكن ليس لأكثر من ذلك.

وبالرغم من أنَّ هذا النظام بدا رجعيًا للإغريق في القرن الثالث قبل الميلاد، فإنَّ جمعه بين ممارسات التكلفة العالية والتكلفة المنخفضة أنتج قوة بشرية علىٰ نطاق يطابق مملكة تشين. وقد حشدت فارس ربما ٢٠٠ ألف جندي لغزو اليونان في عام ٤٨٠ ق. م، ولكن بعد خسارتهم احتاجت لعقود لإعادة ملء خزائنها. ولم تواجه روما أيَّة قيود مماثلة. فقد منحها قرن من الحرب كل القوة البشرية في إيطاليا، وفي عام ٢٦٤ ق. م بدأ مجلس الشيوخ كفاحًا مريرًا مع قرطاج للسيطرة علىٰ غرب البحر الأبيض المتوسط.

وقد استدرج القرطاجيون أول أسطول لروما إلىٰ عاصفة، وأرسلوه -مع مائة ألف بحَّار- إلىٰ القاع. لكنَّ روما ببساطة شيَّدت أسطولًا أكبر. وقد غرق هذا الأسطول في عاصفة أخرىٰ بعد سنتين؛ ولذا أرسلت روما أسطولًا بحريًا ثالثًا، فقط لتخسره أيضًا. وفاز أخيرًا أسطول رابع بالحرب في عام ٢٤١ ق. م؛ لأنَّ قرطاج لم تتمكن من أن تستبدل خسائرها الفادحة. لقد احتاجت قرطاج إلىٰ ثلاثة وعشرين عامًا للتعافي، وعندئذٍ سيّر چنرالها هانيبال أفياله فوق جبال الألب لمهاجمة إيطاليا من الخلف. وفي الفترة ما بين أعوام (٢١٨ و٢١٦ ق. م) قتل هانيبال أو أَسر مائة ألف من الروم، لكن روما جمعت رجالًا آخرين وسحقته في حرب استنزاف. ومثل تشين، أعادت روما تعريف الوحشية. وفي هذا الصدد، قال بوليبيس: «كانت العادة الرومانية هي إبادة كل شكل من أشكال الحياة يلاقونه . . . ولذا عندما يأخذ الرومان المدن غالبًا ما ترىٰ ليس فقط جثث البشر وإنما أيضًا كلابًا ممزقة إلىٰ نصفين، وأطرافًا مبتورة لحيوانات أخرىٰ». وفي النهاية، استسلمت قرطاج في عام ٢٠١ ق. م.

لقد صدمت الحرب مجلس الشيوخ باعتبارها أفضل بكثير من الحوار. فبعد استراحة واحدة في الصيف، انقلبت روما علىٰ ممالك خلفاء الإسكندر في شرق البحر المتوسط، وبحلول عام ١٦٧ ق. م حطمتهم جميعًا. وقد أخذ جيل آخر من الحروب الشاقة ضد العصابات جيوش روما إلىٰ عمق أسبانيا وشمال أفريقيا وشمال إيطاليا. لقد أصبحت روما القوة العظمىٰ الوحيدة في الغرب.

أول اتصال

بحلول عام ٢٠٠ ق. م كانت هناك الكثير من القواسم المشتركة بين الشرق والغرب أكثر من أي وقت مضىٰ منذ العصر الجليدي. فكان كل منهما تهيمن عليه إمبراطورية واحدة عظمىٰ يعيش فيها عشرات الملايين من الرعايا. وكان لكل منهما نخبة متعلمة ومتطورة تعلَّمت الفكر المحوري تعيش في المدن الكبرىٰ التي يغذيها المزارعون ذوو الإنتاجية العالية وتمدّها شبكات تجارة معقّدة. وفي كل مركز كان التطور الاجتماعي أعلىٰ بنسبة ٥٠٪ عمّا كان عليه في عام ١٠٠٠ ق.م.

وقد شرح هذا الفصل بدقة مبدأ أنَّ البشر (في المجموعات الكبيرة) يتشابهون كثيرًا. وعبر انقسامهم من خلال التمددات الشاسعة لآسيا الوسطىٰ والمحيط الهندي، اتبع كل من الشرق والغرب تواريخ منفصلة ولكنَّها متشابهة في عزلة افتراضية عن بعضها البعض، حيث اختلفا في الأساس في حقيقة أنَّ الغرب كان لا يزال بالكاد محتفظًا بالصدارة في التطور الاجتماعي الذي منحته إياه جغرافيا النباتات والحيوانات القابلة للتدجين في نهاية العصر الجليدي.

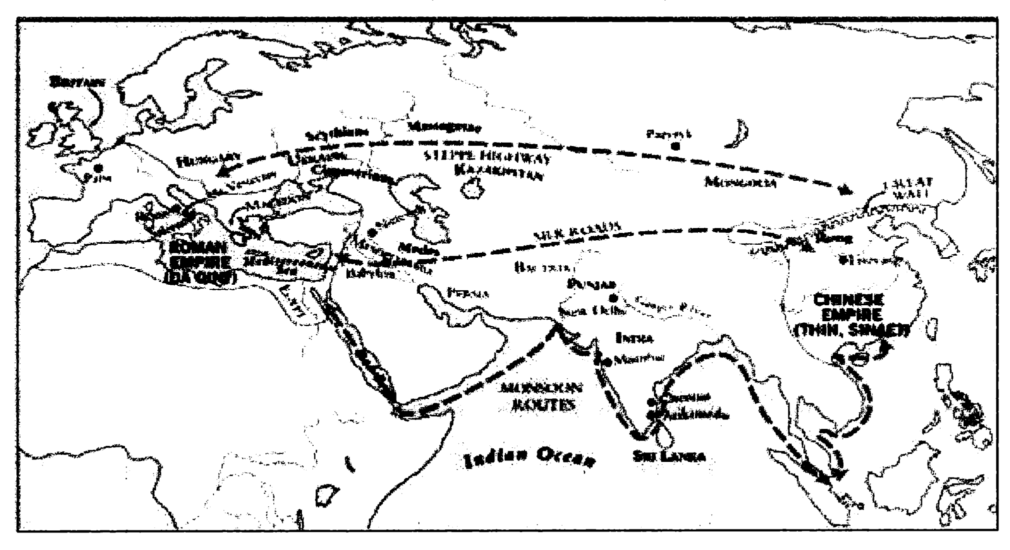
ويوضح هذا الفصل أيضًا مبدأ رئيسًا ثانيًا، وهو أنَّه بينما تحدِّد الجغرافيا مسار التطور الاجتماعي، فإنَّ التطور الاجتماعي يغيِّر أيضًا معاني الجغرافيا. لقد كان توسُّع المراكز يأكل المسافة بينهما، طاويًا الشرق والغرب في قصة أوروبية آسيوية واحدة. وكان لهذا آثار هائلة.

ففي وقت متأخر مثل عام ٣٢٦ ق. م، عندما قاد الإسكندر المقدوني جيوشه إلىٰ البنجاب (الشكل ٥ - ٨)، لم يعلم أفضل الشرقيين والغربيين ثقافةً

شيئًا عن وجود كل منهما. وقد أكّد الإسكندر علىٰ رجاله أنهم قريبًا سيستحمّون في مياه المحيط، والنهر العظيم الذي كان يطوّق العالم (وعندما انكشف أمامهم بدلًا من المحيط سهل الجانج، الذي يعجّ بالمدن الحصينة؛ تمردوا).

عاود الإسكند أدراجه وعاد إلىٰ الوطن، ولكنَّه ترك عدة ساخطين خلفه باعتبارهم مستوطنين. وفيما يُعدّ الآن أفغانستان أسَّست إحدىٰ المجموعات مملكة تُدعىٰ «باكتريا»، التي بحلول عام ١٥٠ ق. م غزت أجزاء من سهل الجانج وبدأت اندماجًا رائعًا بين الثقافة اليونانية والهندية. فأحد النصوص الهندية يدعي توثيق محادثة ملك إغريقي باكتري مع راهب بوذي، والتي بعدها اعتنق الملك مع الكثير من رعاياه البوذيةَ.

تمتلك باكتريا الكثير من الأمور التي جعلتها تستحق الشهرة: تفكّكها في حوالي عام ١٣٠ ق. م هو أقدم حدث تاريخي مذكور في الوثائق الشرقية والغربية. وقد أخذ سفير من البلاط الصيني كان قد جاب داخل حطام المملكة خلال عامين فقط، قصصًا رائعة وعاد بها إلىٰ الإمبراطور، وهي قصص عن خيول آسيا بشكل خاص، وفي عام ١٠١ ق. م شقَّت بعثة صينية طريقها حربًا إلىٰ داخل المنطقة. ويعتقد بعض المؤرخين أنَّ القوات المحلية التي تصدَّت لها قد شملت الرومان، وأسرىٰ حرب أُخذوا بعيدًا عن بلاد الرافدين عبر عدد لا يحصىٰ من الأيادي حتىٰ وجدوا أنفسهم يحاربون الصين في جبال آسيا الوسطىٰ.



(موضع الشكل ٥ – ٨). بين الشرق والغرب: نسيج التجارة في أواخر القرن الأول قبل الميلاد الذي يربط الشرق بالغرب عبر المحيط الهندي، وطريق الحرير، وطريق سهول الاستبس الرئيس.

ويعتقد مؤرخون أقل رومانسية أنَّ قرنين آخرين قد مرَّا قبل أن يتقابل الصينيون والرومان فعليًا. وبحسب تأريخ صيني رسمي، قام چنرال صيني في عام ٩٧م «بإرسال ضابطه المساعد جان يينج علىٰ طول الطريق المؤدي إلىٰ ساحل البحر الغربي ذهابًا وعودة». وعلىٰ هذا الشاطئ البعيد أيًا كان مكانه، زار جان مملكة دا تشين – التي تعني حرفيًا: «تشين العظيمة»، وتسمَّىٰ كذلك لأنَّها صدمت الصينيين باعتبارها انعكاسًا كبيرًا وبعيدًا لإمبراطوريتهم الخاصة. وسواء كان البحر الغربي هو البحر الأبيض المتوسط وكانت دا تشين هي روما أم لا، فتلك تظل أسئلة مفتوحة ليس لها إجابات محددة. أما أقل المؤرخين رومانسية بين الجميع فيعتبرون أنَّه في عام ١٦٦م عندما وصل سفراء ملك دا تشين الذي يُدعىٰ «أندون» (وهو بالتأكيد الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس أنطونيوس) إلىٰ العاصمة الصينية في لويانغ، وقفت أخيرًا كل من الصين والرومان في الغرفة نفسها.

ومع ذلك، ربما كانت هناك اجتماعات أكثر إنتاجية، تشمل أنواع البشر الذين صدموا السادة المتعلمين الذين كتبوا معظم النصوص الباقية باعتبارهم حقيرين جدًّا كي يُلاحظوا – العبيد، علىٰ سبيل المثال. في عام ٢٠١٠م، أعلن علماء الوراثة أن الحمض النووي المايتوكوندري من عظام رجل مدفون في فاجناري في جنوب إيطاليا في القرن الثاني أشار إلىٰ أنَّ أسلافه من جهة أمه قد أتوا من أصل شرق آسيوي، وأضاف علماء الآثار أنَّ ظروف دفنه أوحت بأنه كان عبدًا يعمل بالزراعة. ويعتبر ما حمله أو حمل أسلافه بعيدًا عن بيوتهم مجهولًا.

وقد تكونت مجموعة ثانية من المتجولين يحتقرهم التجَّار -وكل ما نعرفه هو أنهم التجَّار الذين جلبوا عبدًا شرق آسيوي إلىٰ إيطاليا. وقد تحدث بلينيوس الأكبر- وهو أرستقراطي روماني كتب وصفًا ثريًا للعالم وغرائبه (قُتل في عام ٧٩م أيضًا، وكان شديد الانبهار بثوران بركان جبل فيزوفيس لدرجة أنَّه لم يتمكن من الهرب بعيدًا عن الحمم) – عن المغادرة السنوية لأسطول تجاري من ساحل

البحر الأحمر في مصر إلىٰ سريلانكا، وقد بقي نصٌ تجاري فعلي، وهو نصٌ إغريقي معاصر بالكاد يُسمّىٰ «الرحلة علىٰ البحر الأحمر» أو (The Voyage on the Red Sea). وكان هذا نوعًا من دليل التجَّار الذي يشرح موانئ المحيط الهندي ورياحه.

وقد ترك التجَّار الرومان بالتأكيد بصماتهم علىٰ الهند. فبمجرد استقرار المستعمرين البريطانيين والفرنسيين هناك في القرن الثامن عشر، في الحقيقة، بدأ الناس في إحضار نقود رومانية قديمة لهم، ولكن لم يتضح حجم هذا الاتصال قبل عام ١٩٤٣م. ففي ذلك الصيف، بعد عقود من إهمال تراث الهند الثقافي - في ذروة الحرب العالمية الثانية ومع كون نهاية الراج علىٰ مرمىٰ البصر- قرَّر المكتب الاستعماري البريطاني أنَّ الوقت قد حان لإصلاح علم الآثار الهندي. وعلىٰ الفور، سحب العميد مورتيمر ويلر من الشاطئ في ساليرنو، حيث اجتاحت قوة أنجلوأمريكية إيطاليا وأنزلته في نيودلهي لإدارة مليون ونصف المليون ميل مربع من الأراضي كانت غالبًا غنية في آثارها مثل مصر.

كان ويلر شخصية استثنائية. فقد قاتل في الحربين العالميتين الأولىٰ والثانية، وخلّف وراءه مسارًا من قلوب محطمة عبر الثلاث قارات، وقام بتثوير علم الآثار البريطاني بحفرياته الدقيقة للمواقع الرومانية. ومع ذلك، كان ثمة اندهاش من هذا التعيين. لقد كانت الإمبراطورية البريطانية بوضوح في آخر مراحلها، فلماذا -كما تساءل القوميون الهنود- تفرض علينا كولونيلًا متقاعدًا شديد القومية، يشعر بكونه في الوطن علىٰ الأراضي الرومانية الموحلة في بريطانيا أكثر ممَّا يشعر بذلك علىٰ أرض بوذا؟

لقد كان لدىٰ ويلر الكثير ليثبته، وحالما نزل في مومباي (المعروفة باسم بومباي للبريطانيين) انطلق في جولة أثرية خاطفة. وبوصوله إلىٰ تشيناي (مدراس الكولونيالية) عندما كانت تعاني من حر الرياح الموسمية الوشيكة، وجد ويلر أنَّ مكاتب الحكومة مُغلقة، وقرَّر قتل الوقت في المتحف المحلي. وكتب في مذكراته في خزانة ورشة عمل:

«اقتربت يدي من عنقي والمقبض الطويل لآنية فخارية تعدّ أجنبية بغرابة علىٰ البيئة الاستوائية. وبينما تطلعت إليها، تذكرتُ سؤالًا مثيرًا في الجمعية التشريعية في نيودلهي: «ما علاقة بريطانيا الرومانية بالهند؟»، وهنا كانت الإجابة الكاملة».

لقد كان ويلر يحمل شظية من دورق نبيذ روماني استُخرج في أريكاميدو (بونديشيري)، علىٰ بُعد ٨٠ ميلًا من الساحل. وأخذ ويلر القطار الليلي، وبعد إفطار طويل وشرب الكحول في المفوضية الفرنسية للمدينة، ذهب باحثًا عن الرومان.

«احتوت حجرة داخلية من المكتبة العامة علىٰ ثلاثة أو أربعة صناديق متحفية، وقد خطوت في أمل للأمام، حيث أزلت التراب باستخدام ذراع مفرطة التعرق، وأمعنت النظر فيها. وللمرة الثانية في غضون شهر، جفلت عيناي في محجريهما. فقد كانت هناك شظايا العشرات من الأباريق اليونانية القديمة ذات المقبضين (وهي جِرار خمر) وجزء من مصباح روماني، ونقش غائر، وكتلة من المواد الهندية (شظايا من الفخار، وسِبح، والطين النضيج) وعدة شظايا من زجاج أحمر لامع لا يمكن أن يُخطئه أي مُدرّب في مدرسة علم الآثار الكلاسيكي».

وكمكافأة صغيرة، عندما عاد ويلر إلىٰ نيودلهي مع إحدىٰ الشظايا الفخارية الحمراء في جيبه اصطدم بعملاقين آخرين لعلم الآثار البريطاني يقومون بعمل حربي علىٰ الصور الجوية. ويقول: «عرضت بالمصادفة شظية فخارية حمراء» في إشارة لتلك التي من متحف أريكاميدو، «وكان أثر ذلك مرضيًا للغاية - كم هو مُجزٍ بشكل طفولي الجمهور الذي يفهم!».

وسرعان ما أظهرت الحفريات أنَّ بضائع البحر المتوسط كانت تصل إلىٰ أريكاميدو (وعدد من الموانئ الأخرىٰ) بحلول عام ٢٠٠ ق. م. وقد ازدادت في كميتها علىٰ مدىٰ القرون الثلاثة التالية، وقد عثرت الحفريات المؤخرة علىٰ ساحل البحر الأحمر في مصر علىٰ جوز هند مجفف وأرز وفلفل أسود لا يمكن أن يكون قد أتىٰ إلَّا من الهند. وبحلول القرن الأول كانت البضائع تنتقل أيضًا

بين الصين والهند، ومن كلا الموقعين إلىٰ جنوب شرق آسيا.

قد يكون من قبيل المبالغة القول بأنَّ الشرق والغرب قد تحالفا عبر المحيطات. فقد كانت هذه شبكة اتصالات أقل من كونها مجموعة من الخيوط الرقيقة الممدودة من طرف للطرف الآخر. فقد يشحن أحد التجَّار النبيذ من إيطاليا إلىٰ مصر، وقد يأخذها آخر برًا إلىٰ البحر الأحمر، وقد ينقلها ثالث إلىٰ الجزيرة العربية، ورابع قد يعبر المحيط الهندي إلىٰ أريكاميدو. وهناك قد يجلس مع تاجر محلي يبيع الحرير الذي مرَّ خلال أيادي أكثر في رحلته من وادي النهر الأصفر.

وكانت تلك البداية، علىٰ الرغم من ذلك. ويذكر كتاب «رحلة علىٰ البحر الأحمر» مكانًا يسمىٰ «ثين» ربما تحوير لتشين "in" (تُنطق تشين)، والذي منه يأتي الاسم الغربي (China) أي الصين، وبعد جيل لاحق ادّعىٰ يوناني يُدعىٰ ألكسندر أنَّه زار سيناي (Sinae)، وهي مرة أخرىٰ علىٰ الأرجح الصين. وبحلول عام ١٠٠ ق. م تقريبًا، كانت كل من المصنوعات الحريرية والتوابل تنتقل غربًا، بينما ينتقل كل من الفضة والذهب شرقًا علىٰ طول طريق الحرير المشهور، والفضل في ذلك يرجع جزئيًا إلىٰ تقدم الصين العسكري إلىٰ بكتريا. لكنَّ البضائع خفيفة الوزن وعالية التكلفة فقط -مثل الحرير، بالطبع- كان من الممكن أن تظل مُربحة بعد حملها لمدة ستة أشهر عبر خمسة آلاف ميل، ولكن في غضون قرن أو اثنين كانت أي امرأة رومانية نبيلة تحترم نفسها تفضل الموت علىٰ أن تكون من دون شالها الحريري، وقد أسَّس تجَّار آسيا الوسطىٰ مكاتب فرعية في جميع المدن الصينية الكبرىٰ.

وكان هناك الكثير من أجل الأرستقراطيين الأثرياء الذين كانوا يديرون المراكز الشرقية والغربية كي يحتفلوا به في هذه الاتصالات الأولىٰ، ولكن كانت هناك الكثير من الأمور التي تستدعي القلق بشأنها أيضًا، حيث صدمهم بعض الأشخاص الذين يتنقلون باعتبارهم أعنف من التجَّار. «كانت أجسامهم قصيرة وثخينة، وكانوا يمتلكون أطرافًا قوية وأعناقًا سميكة، وكانوا بشعين ومشوهين لدرجة أنهم قد يكونون وحوشًا يمشون علىٰ قدمين»، هكذا كتب المؤرخ الروماني

أميانوس عن هؤلاء الناس في حوالي عام ٣٩٠ ق. م. وتابع: «ويظل شكلهم - رغم كونه مروعًا- إنسانيًا، لكنَّ حيواتهم قاسية جدًّا لدرجة أنهم لا يستعملون النار أو الطعام المطهو، ولكنَّهم يعيشون علىٰ الجذور البريّة وأي نوع من اللحم نصف النيئ، الذي يسخنونه قليلًا بين أفخاذهم وظهور خيولهم».

كان هؤلاء الاشخاص هم البدو، وكانوا غريبين تمامًا علىٰ ملّاك الأراضي من أمثال أميانوس. وقد سبق لنا أن التقينا أجدادهم، وهم رعاة آسيا الوسطىٰ الذين قاموا بتدجين الخيول في حوالي عام ٣٥٠٠ ق. م، وربطوهم بالعربات في حوالي عام ٢٠٠٠ ق. م، ممَّا أنتج العجلات التي تجرها الخيول وقذف بالمركز الغربي في الفوضىٰ بعد عام ١٧٥٠ ق. م، ووصلت إلىٰ الشرق بعد خمسمائة لاحقة. إنَّ امتطاء ظهور الخيول وتوجيهها يبدو أسهل من ربطها بمركبات، ولكن لم يتحد كل من اختراع الأقواس الصغيرة القوية التي يُمكن إطلاقها من السرج قبل حوالي عام ١٠٠٠ ق. م لتخلق أسلوبًا جديدًا للحياة البدوية الرعوية التي تعتمد علىٰ الخيول. لقد حوّل التحكم في ظهور الخيل الجغرافيا مجددًا، ممَّا حوّل تدريجيًا النطاق المتصل من السهول القاحلة التي تمتد من منغوليا حتىٰ هنغاريا (وكلاهما علىٰ اسم شعوب البدو) إلىٰ «طريق سهوب رئيس» يربط الشرق بالغرب.

وفي بعض النواحي لم يكن بدو السهوب مختلفين عن أي شعوب أخرىٰ متنقلة وأقل تطورًا نسبيًا تعيش علىٰ أطراف الإمبراطوريات العظمىٰ، وترجع إلىٰ يعقوب وأبنائه في الكتاب المقدس العبري. فقد كانوا يتبادلون بالحيوانات والجلود منتجات المجتمع المستقر. وكان من الممكن أن تكون هناك أرباح في جميع الأنحاء: ويزيِّن الحرير الصيني والسجاد الفارسي مقابر القرن الخامس في بازيريك في سيبيريا، بينما في القرن التاسع قبل الميلاد استورد الآشوريون الخيول والأقواس من السهوب واستبدلوها بعجلات الفرسان.

ولكن كان من الممكن أن يكون هناك أيضًا مشاكل في كل مكان. بالإضافة للحرير والسجاد، تحتوي مقابر بازيريك علىٰ أكوام من الأسلحة الحديدية والأكواب المصنوعة من جماجم الأعداء التي أزيلت عنها فروة الرأس والمطلية

بالذهب، ممَّا يشير إلىٰ أنَّ الخط الفاصل بين التجارة والقتال كان رفيعًا للغاية. وبعد عام ٨٠٠ ق. م، عندما خفض الطقس الأكثر برودة وجفافًا من المراعي علىٰ السهول، امتلك الرعاة الذين أمكنهم نقل قطعانهم بسرعة عبر المسافات الطويلة والمحاربة عندما وصلوا - مزايا ضخمة. وتحكمت قبائل بالكامل في ركوب الخيل، فكانوا يركبونها لمئات الأميال بين المراعي الشتوية والصيفية.

وخلقت هذه الهجرات تأثير الدومينو. ففي القرن الثامن قبل الميلاد هاجرت مجموعة تسمىٰ ماساجيتاي (Massagetae) إلىٰ الغرب عبر ما يُعرف الآن بكازاخستان، فواجهت السكوثيين (Scythian) في طريقها مع وجود الاختيار نفسه الذي كان علىٰ الصيادين الجامعين القيام به عندما نزل المستعمرون اليونانيون علىٰ سواحلهم: كان بوسعهم التصدي وتنظيم أنفسهم للمقاومة وحتىٰ انتخاب الملوك، أو كان بمقدورهم الهرب. وقد هرب أولئك الذين استسلموا عبر نهر الفولجا، فقدموا للكيميريين (Cimmerians) الذين يعيشون هناك نفس خيار القتال أو الهرب.

وفي العقد الأول من القرن الثامن بدأت جماعات من الكيميريين يتحركون تجاه المركز الغربي. ولم يكن هناك الكثير منهم، ولكن كان بإمكانهم فعل الكثير من الأضرار. وفي الولايات الزراعية كان علىٰ العديد من الفلاحين أن يكدحوا في الحقول لدعم عدد قليل من الجنود. وفي ذروة حروبهم نقلت كل من روما وتشين ربما شخصًا من بين كل ستة أشخاص، ولكن في زمن السلم كانوا يستجمعون بالكاد واحدًا من بين كل عشرين. وبين البدو، علىٰ العكس من ذلك، كان من الممكن لكل رجل (وكل امرأة أيضًا) أن يكون محاربًا، حيث يولد ويتربىٰ مع حصان وقوس. وكان هذا هو المثال الأصلي للحرب غير المتناسقة. فالإمبراطوريات العظمىٰ امتلكت المال، وضُبّاط إمدادات، وأسحلة حصار، بيدَ أنَّ البدو امتلكوا السرعة والإرهاب وحقيقة أنَّ ضحاياهم قليلي الحركة كانوا - غالبًا- منشغلين بقتال بعضهم البعض.

في هذه السنوات اتحد معًا كل من تغيُّر المناخ والتطور الاجتماعي المرتفع لخرق حدود المركز الغربي، وكان كل من العنف والاضطراب مجددًا هو

النتيجة. فقد دعت الإمبراطورية الآشورية التي كانت لا تزال القوة الكبرىٰ في الغرب في حوالي ٧٠٠ ق. م، الكيميريين إلىٰ داخل المركز لمساعدته علىٰ محاربة منافسيه. وفي بادئ الأمر نجح ذلك، وفي عام ٦٩٥ ق. م انتحر الملك ميداس، وهو ملك فريجيا في وسط تركيا، وكان غنيًّا جدًّا لدرجة أنَّ الأساطير اليونانية تقول إنَّه كان بإمكانه تحويل الأشياء إلىٰ الذهب بمجرد لمسها - انتحر عندما اقترب الكيميريون من العاصمة.

وبإزالة الدول الحيادية العازلة، عرَّض الآشوريون منطقتهم المركزية للغارات البدوية، وبحلول ٦٥٠ ق. كان السكوثيون يسيطرون تقريبًا علىٰ شمال بلاد الرافدين. وكتب المؤرخ اليوناني هيرودوت: «لقد أدىٰ عنفهم وإهمالهم للقانون إلىٰ فوضىٰ عارمة، فقد كانوا يتصرفون وكأنهم مجرد لصوص، يتجولون في الأراضي علىٰ خيولهم، يسرقون ممتلكات الجميع». لقد زعزع البدو الإمبراطورية الآشورية، وساعدوا الميديين والبابليين في اجتياحهم لنينوىٰ عام ٦١٢ ق. م، ثمَّ سرعان ما انقلبوا علىٰ الميديين أيضًا. ولم يتوصل الميديون حتىٰ عام ٥٩٠ ق. م تقريبًا إلىٰ طريقة لمحاربة مثل هؤلاء الأعداء المراوغين سريعي الحركة - بحسب هيرودوت، بجعل قادتهم يشربون حتىٰ يصيروا مخمورين في مأدبة ثم قتلهم.

وجرَّب ملوك كل من ميديا وبابل وبلاد فارس كيفية التعامل مع البدو. فكان أحد الخيارات هو عدم فعل أي شيء، ولكن عندئذ دمَّرت غارات البدو المقاطعات الحدودية، ومنعت أخذ الضرائب منها. وكان شراء البدو احتمالية أخرىٰ، ولكنَّ الدفع من أجل الحماية يمكن أن يكلف ثمنًا غاليًا مثل ثمن غزوهم. وكانت الحرب الاستباقية ردًا ثالثًا، حيث يهجمون علىٰ السهوب ويحتلون المراعي اللازمة للبدو للبقاء علىٰ قيد الحياة، لكن ذلك كان أكبر تكلفة وأخطر. ومع وجود القليل للدفاع عنه، كان بإمكان البدو التراجع إلىٰ الأراضي البور فيجرّون الغزاة إلىٰ الدمار عندما تنفد إمدادتهم.

وقد حاول كورش، مؤسس الإمبراطورية الفارسية، شن حرب وقائية ضد الماساجيتان في عام ٥٣٠ ق. م. وعلىٰ غرار الميديين من قبله، كان كورش

يحارب بالعنب (في إشارة إلىٰ الخمر، م): فقد سمح لطليعة الماساجيتان بنهب معسكره وعندما أصبحوا سكارىٰ، ذبحوهم وأسروا ابن ملكتهم. وكتبت الملكة توميريس إلىٰ كورش: «أنت شره للدم، أعد إليّ ابني وأقسم بالشمس قائدتنا أن أمنحك من الدم أكثر ممَّا تستطيع شربه»، وصدقت فيما قالته، فهزمت الملكة توميريس الفرس، وقطعت رأس كورش، وحشته داخل حقيبة من القماش.

لقد كانت بداية سيئة لشن ضربات وقائية، ولكن في عام ٥١٩ ق. م أظهر داريوس ملك فارس أنها من الممكن أن تنجح، حيث هزم كونفدرالية أسماها الفرس «السكيثيين ذوي القبعات المدببة» وفرض إتاوة ونصّب عليهم ملكًا صوريًا. وبعد ذلك بخمس سنوات حاول الأمر نفسه مرة أخرىٰ، فعبرَ الدانوب ولاحق سكيثيين آخرين في عمق أوكرانيا، ولكن مثل الكثير من الحروب غير المتكافئة في عصرنا، من الصعب القول من هو الفائز. واعتقد هيرودوت أنها كارثة، فقد كان داريوس محظوظًا لنجاته منها حيًا، ولكن لم يهدد السكيثيون فارس مجددًا، ومن الواضح جدًّا أنَّ شيئًا ما مضىٰ بشكل صحيح.

لقد استغرق الفرسان من السهوب وقتًا أطول ليصبحوا حقيقة من حقائق الحياة في الشرق، تمامًا كما استغرقت العجلات الحربية وقتًا حتىٰ تصل إلىٰ الصين أطول من الغرب، ولكن عندما وصل تأثير الدومينو للبدو، نجح بالقدر نفسه من الشراسة. لقد كان انتشار البداوة شرقًا علىٰ الأرجح وراء هجمات شعب الرونج علىٰ مملكة چو، في القرن الثامن قبل الميلاد، ولا بُدَّ أنَّ الشعوب الشمالية التي استوعبتها دول تشين وچين في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد كانت تفضل الاستيعاب علىٰ محاربة البدو القادمين. وعندما فعلوا ذلك، أزال الضغط المزدوج من غارات البدو وتوسُّع الدول الصينية المجتمعاتِ المحايدة، مثلما حدث في الغرب.

وأصبحت دولة چاو الآن هي الحدود. وعلىٰ غرار الآشوريين عندما واجهوا السكيثيين، جنّدت چاو فرسان البدو لمحاربة جيرانها ودرّبت رعاياها باعتبارهم فرسانًا. وطوَّرت چاو أيضًا استراتيجية ضد البدو مستخدمة بشكل قليل في الغرب، وهي حرب الاستنزاف، حيث شيّدت الأسوار لإبقاء البدو في

الخارج (أو علىٰ الأقل لتوجيه أماكن غزوهم وتجارتهم). وبدا أنَّ هذا الأسلوب ينجح بشكل أقل خطورة من القتال أو الدفع من أجل الحماية، وفي القرن الثالث قبل الميلاد زادت الأسوار. وقد امتد أول سور للإمبراطور الأول لتشين إلىٰ ألفي ميل، بتكلفة (حسب الأسطورة، علىٰ أية حال) حياة عامل واحد لكل ياردة تُبنىٰ.

وبكونه الرجل الذي كان عليه، لم يقلق الإمبراطور الأول بشأن ذلك. وفي الحقيقة، لقد كان يُقدّر كثيرًا بناء الأسوار لدرجة أنه حوّل هذه الاستراتيجية الدفاعية إلىٰ سلاح؛ إذ مدّ سوره العظيم ليحيط بمساحات واسعة من المراعي حيث يرعىٰ البدو عادة. ثمَّ في عام ٢١٥ ق.م، تابع بحرب استباقية.

وقد أرسل سور الصين العظيم إشارة واضحة: كانت معاني الجغرافيا تتغيَّر مجددًا. فالقوىٰ التي دفعت بمسيرة صعود التطور الاجتماعي الرتيبة في (الشكل ٥ - ١) -امتلاك الطاقة وأسرها المرتفع، وزيادة التنظيم الفعّال، وانتشار القراءة والكتابة، والمزيد من الجيوش الفتاكة- كانت تغيِّر العالم. وبحلول عام ٢٠٠ ق. م، كانت إمبراطورية عظمىٰ وحيدة تهيمن علىٰ كل مركز؛ إذ وصل محاربوها وتجَّارها إلىٰ المساحات بين المراكز. وتحوّلت السهول من كونها حاجزًا شاسعًا بين الشرق والغرب إلىٰ طريق سريع يربط بينهما، وبدلًا من وجود تاريخين منفصلين لكن متشابهين، كان المركزان الشرقي والغربي قد بدآ يرتبطان ارتباطًا وثيقًا. وكان عدد قليل جدًّا من البضائع أو الأشخاص أو الأفكار يسافر الطريق كله من أحد أطراف أوروبا الآسيوية إلىٰ الطرف الآخر، ولكن حقائق جغرافية جديدة كانت آخذة في التشكُّل. وعلىٰ مدىٰ القرون القليلة التالية، سوف تكتسح هذه الحقائق الإمبراطوريات العظمىٰ التي سيطرت علىٰ المراكز في عام ٢٠٠ ق. م، وسترمي بالاتجاهات التصاعدية للتطور الاجتماعي إلىٰ ترس الرجوع إلىٰ الخلف، مُنهيةً صدارة الغرب. لقد كانت مفارقة التطور تدخل مرحلة جديدة تمامًا.

(٦)

التدهور والسقوط

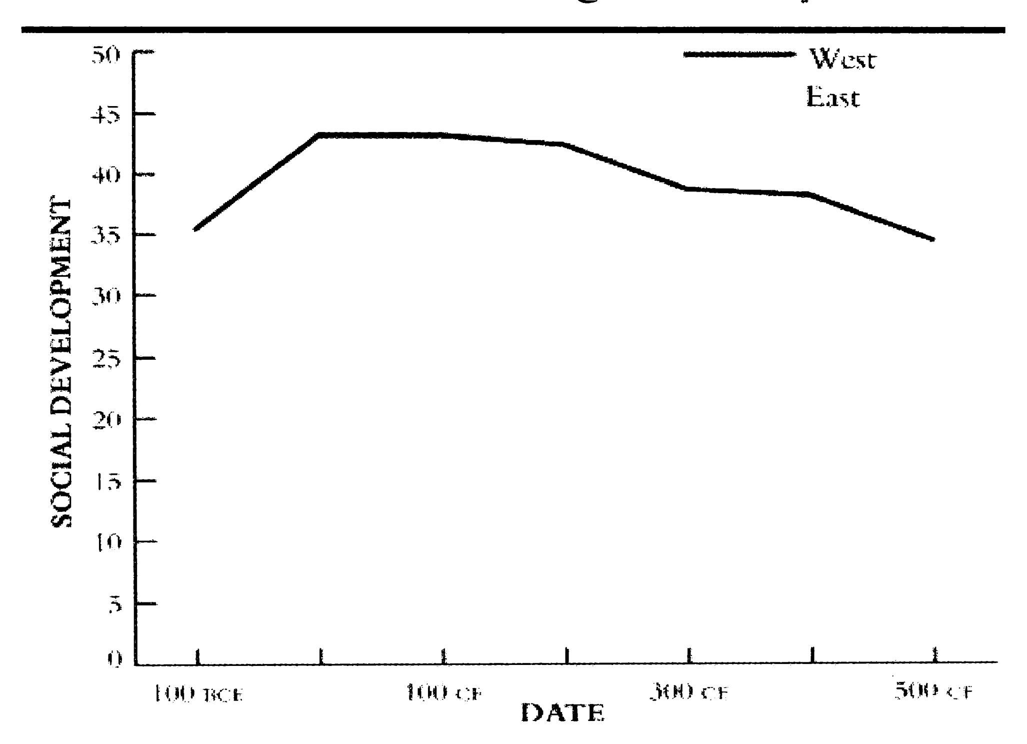
كل شيء يسير إلى الأفضل

يقول الدكتور بانجلوس: «كل شيء يسير إلىٰ الأفضل في أفضل العوالم الممكنة»، يرددها مرارًا وتكرارًا في رواية فولتير الكوميدية الكلاسيكية «كانديد». وعلىٰ الرغم من الإصابة بمرض الزهري، وفقدان إحدىٰ عينيه وإحدىٰ أذنيه، واسترقاقه، وشنقه وتواجده ليس فقط في زلزال واحد بل زلزالين، فإن بانجلوس لا يزال متمسكًا بمقولته.

كان بانجلوس هو مزحة فولتير الصغيرة التي تتهكم من سخف الفلسفة المعاصرة، ولكن التاريخ قد أفرز الكثير من الأمثلة الواقعية. فالإمبراطوريات العظيمة التي سيطرت علىٰ المراكز الشرقية والغربية في القرون القليلة الأولىٰ قبل الميلاد تبدو غنية بتلك الأمثلة. كتب شاعر صيني: «عندما يقوم الإمبراطور بجولته الإمبريالية، فإنَّ كل شيء يصبح برَّاقًا، ويسود فرح بلا حدود لعشرة آلاف عام». وفي الإمبراطورية الرومانية بات الخطيب اليوناني أريستايدز أكثر تحمسًا، وقال: «من أجل البقاء الأبديِّ للإمبراطورية، فإنَّ العالم المتحضر يصلي بأسره معًا، لتمنح الآلهة هذه الإمبراطورية وهذه المدينة الازدهار الأبديَّ، وألَّا يتوقف ذلك حتىٰ تطفو الحجارة علىٰ البحر وتتوقف الأشجار عن طرح الثمار».

فماذا فعل هؤلاء البانجلوسيون في (الشكل ٦ - ١)؟ بعد أن وصل إلىٰ ذروته في حوالي العام الأول قبل الميلاد، انخفض التطور الاجتماعي في كل من

الشرق والغرب. وكان هذا الانهيار علىٰ نطاق جديد كليًا. فلم يكن التطور أكثر اتساعًا من أي وقت مضىٰ فحسب، ممَّا أثَّر في كلا طرفي أوروبا الآسيوية، ولكنَّه كان أيضًا أطول وأعمق، حيث تواصل قرنًا بعد قرن، مقتطعًا أكثر من (١٠٪) من إحراز التطور في الشرق في عام ٤٠٠م، و(٢٠٪) من إحراز الغرب في عام ٥٠٠م. فكيف حدث هذا، معلنًا صدارة الغرب لمدة ١٤٠٠٠ عام في التطور الاجتماعي، هذا هو موضوع هذا الفصل.



(موضع الشكل ٦ - ١). انهيار قديم علىٰ نطاق العالـم: ذروة، وانحدار، وسقوط الإمبراطوريات القديمة في الفترة ما بين (١٠٠ إلىٰ ٥٠٠ ق. م).

النظام العالـمي الجديد

لـم تكن الإمبراطوريات القديمة مليئة دومًا بأمثال بانجلوس. لقد تطلب الأمر مئات السنين من الحروب وملايين الوفيات قبل أن تغدو مفارقة العنف التي ذكرتها في الفصل الخامس واضحة -وهي حقيقة أنَّ الحرب في النهاية أدت إلىٰ السلم والرخاء- ولـم تكد حروب التوحيد تنتهي حتىٰ اشتعلت حروب أهلية مروعة بين مملكة تشين والدول الرومانية العظمىٰ. انحدرت تشين إلىٰ هذه الحال فجأه؛ أمَّا روما فبشكل تدريجي.

كانت مؤسسات تشين المركزية والقمعية بارعة في الغزو، ولكن اتضح أنها أقل جودة في الحُكم. بعد هزيمة عدوه الأخير في عام ٢٢١ ق. م، استمر أول إمبراطور في تجنيد جميع المواطنين الذكور من أجل البناء الآن بدلًا من القتال. وكانوا في بعض الأحيان مفيدين، كما هو الحال عندما شيَّدوا الطرق والقنوات التي امتدت لآلاف الأميال، وأحيانًا أقل. يقول سيما تشيان إنَّه رغم إقناع نفسه بألوهيته وإنفاق الثروات علىٰ الدجالين الذين وعدوه بأن يعيش إلىٰ الأبد، فقد كان لدىٰ الإمبراطور الأول -ربما علىٰ سبيل التأمين- ٧٠٠ ألف رجل عملوا لمدة ستة وثلاثين عامًا في بناء قبره. (وقد تم التنقيب عن المقابر الجماعية للمئات الذين توفوا في الموقع).

وتُعدُّ مساحة الـ (٢٠ ميلًا مربعًا) لتلك المقابر هي رد فعل الصين علىٰ مقولة حسد مصر. وتشتهر اليوم باسم «جيش تيراكوتا»، وهو جيش مكون من أكثر من ستة آلاف جندي من الطين بالحجم الطبيعي يحمي المقبرة، تمَّ اكتشافه مصادفة بواسطة فريق عمل لحفر الآبار في عام ١٩٧٤م. ويُعد أحد عجائب الدنيا

الأثرية، والأمر الأكثر إدهاشًا هو أنه عندما وصف سيما تشيان مقبرة الإمبراطور الأول، لم يذكر جيش تيراكوتا الذي أدهش زوار المتاحف حول العالم. وقد وفّر سيما تشيان كلماته للقصر البرونزي تحت الأرض، الذي يبلغ عرضه أربعمائة متر، وتحيط به نسخ مطابقة من أنهار المملكة ولكنَّها من الزئبق. (وقد أكَّدت الدراسات الجيوكيميائية في أعوام (١٩٨١ و٢٠٠٣م) أنَّ التربة فوق القبر قد زادت بشكل كبير من مستويات الزئبق). ويذكر سيما تشيان أنَّه قد دفن أيضًا مع الإمبراطور كل المحظيات الملكيات ممَّن لم ينجبن أطفالًا للملك بالإضافة إلىٰ الحرفيين الذين عرفوا أسرار المقبرة وربما أكبر مائة مسؤول، وذلك في عام ٢١٠ ق. م.

وقد أنتجت سياسات الإمبراطور التي تتميَّز بجنون العظمة مقاومةً علىٰ جميع المستويات. وعندما اشتكىٰ النبلاء، نقلهم عنوة إلىٰ عاصمته، وعندما اشتكىٰ المفكرون، قام بدفن ٤٦٠ منهم أحياء، وعندما اشتكىٰ الفلاحون، قام بشقهم نصفين. وانفجرت سلطة الإرهاب تقريبًا في اللحظة التي مات فيها الإمبراطور الأول. وفي أحد أيام عام ٢٠٩ ق. م، كما تجري القصة، منعت الأمطار الغزيرة اثنين من المسؤولين من تسليم المجندين إلىٰ موقع عسكري في الوقت المناسب. وكانت عقوبة التأخير هي الموت بالطبع. ورصد سيما تشيان أحدهم يقول: «كما تبدو الأمور الآن فنحن في مواجهة الموت سواء بقينا أو هربنا، بينما إذا قمنا بثورة فسنواجه الموت بالمثل. وبما أننا سنموت علىٰ أي حال، أليس من الأفضل أن نموت محاربين من أجل بلدنا [بالتمرد؟]».

وكما توقعوا، فقد قتل كلا المتمردين سريعًا، لكن تمردهم انتشر. وفي غضون أشهر، كانت الدول المتحاربة قد أعادت تكوين نفسها. وبحلول عام ٢٠٦ ق. م، كانت تشين قد انتهت وتحوَّلت الثورة إلىٰ حرب أهلية مروِّعة. وبعد أربعة أعوام أخرىٰ من المذابح ظلَّ ليو بانج -الذي تحوَّل من فلاح إلىٰ أمير حرب- هو الناجي الوحيد. وقد نصَّب أسرة هان مقاليد الحُكم، وضرب عنق ٨٠ ألف أسير حرب، وأعلن السلم العالمي، ثم اتخذ في النهاية الاسم الجديد جاودي والذي يعني: (الإمبراطور العظيم).

وقد كانت مشكلة روما علىٰ العكس من تشين؛ فبدلًا من كونها شديدة المركزية لتحكم في سلام، كانت مؤسساتها منتشرة للغاية. فقد تطور مجلس شيوخها المكوَّن من رجال عجزة وأثرياء وجمعيات المواطنين الفقراء لإدارة دولة مدنية، لا إمبراطورية، ولم تتمكن من أن تواكب جبال النهب وجيوش العبيد ومجموعات الجنرالات فاحشي الثراء التي أنشأها النصر. وفي أحد النزاعات السياسية في عام (١٣٣ ق. م) حطَّم نواب أغسطس في مجلس الشيوخ المقاعد الخشبية التي كانوا يجلسون عليها واستخدموا أرجلها باعتبارها هراوات لضرب بعضهم البعض حتىٰ الموت، وحتىٰ الثمانينيات قبل الميلاد لم يكن أحد يعلم علىٰ وجه التحديد من الذي كان فعليًا يدير الإمبراطورية.

وبدلًا من الانهيار فجأة مثل تشين، انزلقت روما داخل وخارج الحرب الأهلية طوال خمسين عامًا. وزاد عدد الجيوش الموالية لچنرالاتها بدلًا من الدولة، وكانت الطريقة الوحيدة التي استطاع مجلس الشيوخ أن يتعامل بها مع الچنرالات المنتصرين هي عبر إرسالهم للهجوم علىٰ الأجانب الأضعف (وهو ما جعل الچنرالات أقوىٰ) أو عن طريق تمكين الچنرالات الجدد لمهاجمة القدماء (وهو ما خلق تحديات جديدة). وفي عام ٤٥ ق. م، تمكَّن يوليوس قيصر من هزيمة جميع القادمين، فقط ليكون ضحية مغتاليه في السنة التالية، وعندئذ دارت العجلة مرة ثانية، حتىٰ اصطاد أوكتافيوس في عام ٣٠ ق. م أنطونيوس وكليوباترا في مصر حيث انتحرا. وكونها منهكة من الحرب المتواصلة، اتفقت النخبة الرومانية أنها ستفعل ما سيقوله أوكتافيوس أيًا كان الذي أعاد تسميته نفسه بـ (أغسطس، بمعنىٰ الأكثر أوغسطية) في الوقت الذي تظاهروا فيه بأنَّه مجرد مواطن عادي. وبحفظ ماء وجوه الجميع من خلال تلك الخطة الغريبة، أعلن أغسطس استعادة الجمهورية وشرع في الحكم باعتباره إمبراطورًا.

وبحلول العام الأول قبل الميلاد كان المركزان الشرقي والغربي تحت حكم إمبراطورية واحدة، لكن هذا لم يكن أمرًا حتميًا. فقد أبرم جاودي، مؤسس أسرة هان، اتفاقية لتقاسم المركز الشرقي مع عدوه الأخير في عام ٢٠٣ ق. م، لكنَّه أخلف وعده وقتل خصمه وأخذ كل شيء لنفسه. وفي ثلاثينيات القرن الأول قبل

الميلاد بدا الأمر كما لو أنَّ البحر الأبيض المتوسط سينقسم بين غرب متحدث باللاتينية، يحكمه أوكتافيوس من روما، وشرق متحدث باليونانية، يحكمه كل من أنطونيوس وكليوباترا من مصر. ولو كان جاودي أكثر استقامة وأنطونيوس أقل فسادًا وهوسًا بالخمر والجنس، لبدأ هذا الفصل بشكل مختلف. وفي جنوب آسيا، جرت الأمور بشكل مختلف؛ إذ تطورت المدن الصغيرة والدول في وادي نهر الجانج بين (١٠٠٠ و٦٠٠ ق. م)، ثمَّ انتقلت إلىٰ دول متطورة مثل تلك التي توجد في المركزين الشرقي والغربي. وفي القرن الثالث قبل الميلاد التُهمت هذه الدول في إمبراطورية موريان الضخمة، التي ربما كانت أكبر دولة في عصرها (رغم أنَّ تشين ستتجاوزها قريبًا). ولكن بدلًا من التحول من قوة إلىٰ قوة مثل روما والصين تفتَّت هذه الإمبراطورية تدريجيًا علىٰ مدىٰ مائة عام. وبمجيء زمن أغسطس عادت منطقة جنوب آسيا مرة أخرىٰ موطنًا لكتلة من الممالك الصغيرة المتهورة.

قال تولستوي في جملته الشهيرة: «كل العائلات السعيدة تشبه بعضها البعض، لكن كل عائلة تعيسة لها طريقتها في التعاسة». الأمر نفسه ينطبق علىٰ الإمبراطوريات أيضًا؛ فهناك عدد لا يحصىٰ من سُبل تفكيك الإمبراطوريات - الهزيمة في المعارك، والحكَّام الساخطين والنبلاء الخارجين عن السيطرة والفلاحين اليائسين والبيروقراطيين غير الأكفاء- ولكن ثمة سبيل واحد للبقاء معًا دون تفكك: التسوية. وقد أظهر هان والحكَّام الرومانيون عبقرية إيجابية في ذلك.

انتصر جاودي في الحرب الأهلية في عام ٢٠٢ ق. م، فقط لأنَّه عقد صفقات مع أمراء حرب آخرين، مكافئًا عشرة منهم بترك ثُلثي «إمبراطوريته» باعتبارها ممالك شبه مستقلة تحت سيطرتهم. ولمنع قيام حروب أهلية جديدة احتاجت الإمبراطورية لسحق هؤلاء الملوك التابعين، لكنَّ التحرك سريعًا وإخافتهم قد يثير الحروب نفسها التي احتاجت الإمبراطورية لمنعها - وهو الشيء نفسه الذي سيثيره التحرك ببطء وترك هؤلاء الملوك أقوياء. إلَّا أنَّ أباطرة هان قد

تحركوا بالسرعة المناسبة، فقاموا بتفكيك الممالك بحلول عام ١٠٠ ق. م مع حدوث تمردات قليلة بشكل غير متوقع.

لم يكن أباطرة هان بالقدر نفسه من جنون العظمة الذي كان عليه أول إمبراطور لتشين، رغم أنهم كانوا ناجحين أحيانًا؛ فعلىٰ سبيل المثال: دفن جينجدي في عام ١٤١ ق. م مع جيش تيراكوتا (الذي يبلغ قوامه ستة أضعاف جيش الإمبراطور الأول، رغم أنه يبلغ ثلث طوله). وبالاستثناء الجزئي للفاتح الكبير «وودي»، تراجع أباطرة هان عن ادِّعاء الألوهية والخلود، رغم أنَّهم تعلقوا بدور ملوك كل من مملكة شانغ ومملكة چو في كونهم وسطاء بين هذا العالم والعوالم الخارقة. وقد حسبوا ذلك بعناية.

وقد تطلَّب التوافق مع الأسر العظيمة التراجع عن الإذعان الملكي (علىٰ الرغم من أنَّ الخطوة العملية لربط ثروات الأرستقراطيين بنجاح البلاط كانت مفيدة أيضًا). وتطلَّب استرضاء الأساتذة العلماء إدخال العرش في نموذج كونفوشيوسي مثالي لكون تراتبيّ (بالإضافة إلىٰ حركة برجماتية أخرىٰ، جاعلة معرفة الكلاسيكيات الكونفوشيوسية بدلًا من العلاقات الأرستقراطية هي السبيل إلىٰ مؤسسة الحُكم). وتطلَّب الحفاظ علىٰ السلطة الملكية في الريف الشاسع شيئًا آخر مجددًا، وهو الجمع بين بعض من حالة الملكية قبل الحقبة المحورية باعتبارها الجسر إلىٰ الأسلاف والآلهة، وإجراءات أكثر واقعية مثل خفض الخدمة العسكرية، أو تخفيف قوانين تشين القاسية، والقيام بتخفيضات ضريبية.

وقد أدت التسوية إلىٰ إنشاء السلام والوحدة اللذين أحكما تدريجيًا المركز الشرقي في كيان واحد، أسماه حكامه: تشونغو "zhongguo" (المملكة المتوسطة في مركز العالم)، أو تيانزيا "tianxia" (الجميع تحت السماء؛ لأنَّه لم يكن يهم ما هو خارج حدودها). وفي هذه المرحلة، فمن المنطق أن نفكر في المركز الشرقي باعتباره كيانًا واحدًا والذي يسميه الغربيون المعاصرون، في تحريف لـ (تشين)، بالصين. وقد ظلت هناك اختلافات ثقافية ضخمة في جميع أنحاء (الكل تحت السماء)، ولكن المركز الشرقي بدأ يصبح صينيًا.

وقد اتبعت روما تسويات مماثلة. فعندما انتهت الحرب الأهلية في عام ٣٠ ق. م، قام أغسطس المنتصر بتسريح المجنَّدين وحصَّن الجبهات بجنود محترفين. ومثل أباطرة هان، فقد علم أنَّ الجيش يمكن أن يهدِّد نظامه، لكن في حين كان رد فعل حكَّام الصين هو تزويد جيوشهم بالمساجين والأجانب إلىٰ حد دفعهم خارج التيار الرئيس للمجتمع، قرَّر أغسطس وخلفاؤه الإبقاء علىٰ أعدائهم أقرب من أصدقائهم. فجعلوا الجيش مؤسسة اجتماعية مركزية، ولكن تحت سيطرتهم مباشرة.

وأصبحت الحرب حكرًا علىٰ المتخصصين، والتفت الآخرون جميعًا نحو فنون السلام. وقد استوعبت روما، مثل الصين، الملوك الموالين وربطت ازدهار الأرستقراطيين بالإمبراطورية. وسار الأباطرة علىٰ الحبل مدَّعين كونهم الأوائل علىٰ نظرائهم في تعاملهم مع الطبقة الأرستقراطية، والقائد الأعلىٰ في تعاملهم مع الجيش، والمتألهين في تعاملهم مع أجزاء الإمبراطورية التي توقعوا كون حكامها مبجلين. وقد استبدلوا استراتيجية «الصيرورة إلىٰ الألوهية بعد الموت» مقابل تسوية «إله لمدة يوم»: كان الأباطرة مجرد رجال بارزين حتىٰ يموتوا، كما تضمنت النظرية، وعندئذٍ يتشبثون بثديَي الألوهية. وقد وجد البعض الآخر، مثل الإمبراطور فسبازيان الأمر سخيفًا، حيث مازح القريبين منه عندما كان يحتضر قائلًا: «أعتقد أنَّني أصبحت إلهًا».

بحلول القرن الأول الميلادي كان ثمة مزيج من الثقافة اليونانية - الرومانية قيد التطور. تمكَّن الأثرياء من السفر من الأردن إلىٰ الراين، حيث كانوا يتوقفون للراحة في مدن متشابهة، ويأكلون من الأطباق الذهبية نفسها، ويشاهدون التراجيديات اليونانية المألوفة، ويصنعون إيحاءات ذكية عن هومر وفرجيل ويجدون رجالًا مشابهين يقدرون حنكتهم. واعترف مجلس الشيوخ بوجهاء المقاطعات بشكل أكبر، وشيَّدت الشخصيات البارزة المحلية نقوشًا لاتينية ويونانية، وحتىٰ المزارعون في الحقول بدؤوا يظنوا أنفسهم من الرومان.

وقد نشرت التسوية المقاومة. وسيكون لطيفًا اقتباس نص قديم حول هذه المسألة، ولكن لا شيء يلخص الأمر تمامًا مثل كوميديا عام (١٩٧٩م) «حياة

بريان» (Life of Brian) لمونتي بايثون. عندما يحاول ريج (الذي يلعب دوره جون كليز) رئيس الجبهة الشعبية ليهوذا (الرسمية) أن يثير كبار أتباعه غير المتحمسين ضد الرومان، ليجد أنهم يفضلون الحديث عن مزايا الإمبراطورية (وخصوصًا النبيذ). فيلقي ريج إليهم بسؤال قد أصبح بالتأكيد أشهر سؤال قد سُئل عن الإمبراطورية الرومانية: «حسنًا إذن. بعيدًا عن المرافق الصحية، الطب والتعليم والنبيذ والنظام العام والري وشبكة المياه العذبه والصحة العامة - ماذا فعل الرومان لنا؟». وحينئذ فكر مناضلو الحرية لبرهة، ثم رفع أحدهم يده مبدئيًا: «جلبت السلام؟»، أصاب ريج الذهول من هذه الحماقة وأجاب: «السلام . . . صه!».

لم يفهم ريج الأمر: لقد غيَّر السلام كل شيء، جالبًا الازدهار لكلا طرفي أوروبا الآسيوية. وارتفع عدد السكان في كلتا الإمبراطوريتين ونمت اقتصاداتهما بشكل أسرع. وفي أبسط مستوىٰ، بأي طريقة نحصي بها - مجموع الناتج الإجمالي، أو الناتج لكل وحدة من الأرض، أو الناتج المخصص لكل وحدة عمالية - فقد ازداد الناتج الزراعي. لقد أعطت قوانين كل من هان والرومان المزيد من الأمن لممتلكات ملاك الأراضي والفلاحين علىٰ حد سواء. أخذ المزارعون علىٰ جميع المستويات أراضي جديدة للزراعة، ومدوا نظم الري والصرف، واشتروا عبيدًا أو أجروا عمَّالًا، واستخدموا مزيدًا من الأسمدة وأدوات أفضل. وتبيِّن السجلات المصرية أنَّ مزارعي الحقبة الرومانية تمكَّنوا من حصاد عشرة أرطال من القمح لكل رطل مزروع باعتباره بذورًا وهو ما يُعدّ مستوىٰ رائعًا من الزراعة قبل الحديثة. ولا تتوفر إحصاءات من الصين، ولكنَّ الاكتشافات الأثرية والروايات في الكتيبات الزراعية تشير إلىٰ أنَّ الإنتاجية كانت مرتفعة هناك أيضًا، ولا سيما في حوض النهر الأصفر.

تمَّ كل ذلك بهدوء لدرجة أنَّ الشرفاء الذين كتبوا الأعمال الأدبية الباقية بالكاد يشيرون إليه، لقد دفع المزارعون والحرفيون بامتلاك الطاقة نحو القمة. كل الطاقة التي أُستخدمت من قبل في تاريخ البشرية أتت من العضلات أو من وقود

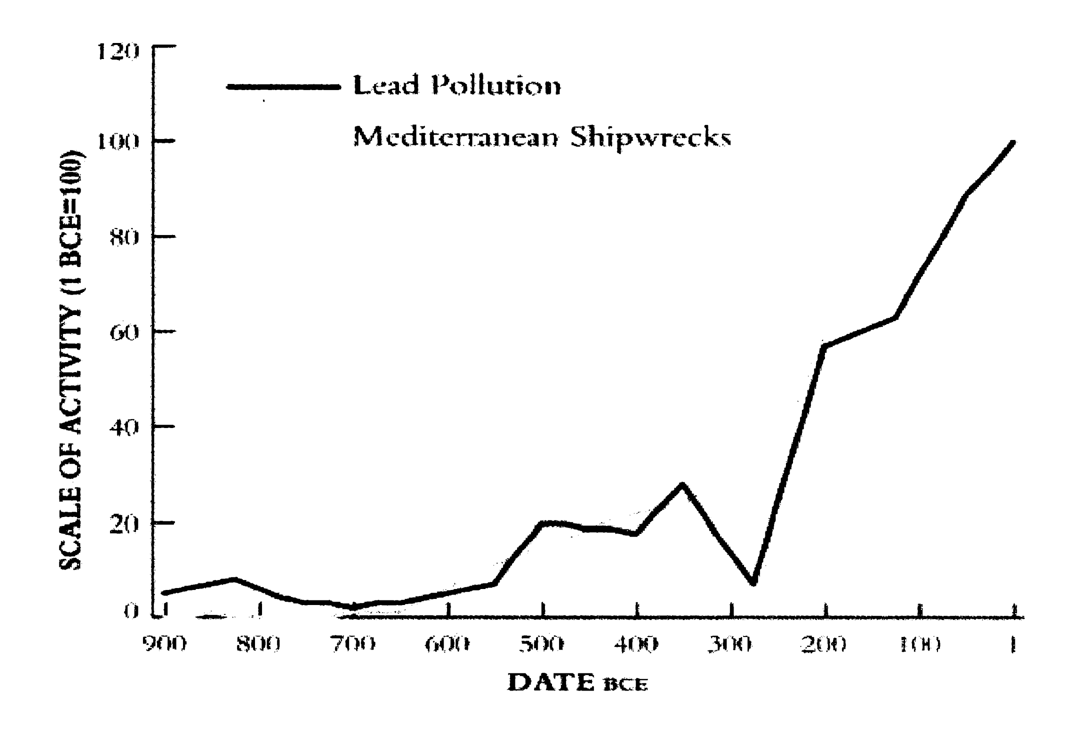
الكتلة الحيوية، ولكن الناس الآن قد وصلوا إلىٰ أربعة مصادر جذرية للطاقة: الفحم، الغاز الطبيعي، المياه، والرياح.

وظلَّ أول مصدرين هامشيين للغاية، حيث استخدم قليل من الحدادين الصينيين الفحم في مسابك الحديد، وضخ صانعو الملح في سيشوان الغاز الطبيعي عبر أنابيب الخيزران وأحرقوه لتبخير المياه المالحة، ولم يستخدموا المصدر الثالث والرابع. وفي القرن الأول قبل الميلاد ابتكر الرومان والصينيون السواقي، واستخدموها لإمداد الطواحين بالطاقة لطحن الحبوب والمنافخ لتسخين الأفران. ويُعدّ المثال الأكثر إثارة للإعجاب هو ذلك الذي تم بناؤه في باربيجال في فرنسا بعد عام ١٠٠م، وربط (١٦ عجلة) لتوليد (٣٠ كيلو واط) من الطاقة، بما يناهز تقريبًا قوة مائة ثور (أو سيارتي فورد موديل تي تجريان بسرعتيهما القصوىٰ). كانت معظم العجلات أصغر كثيرًا، ولكن حتىٰ طاحونة رومانية متوسطة ولَّدت كمية طاقة تعادل عشرة رجال أقوياء يديرون عجلات بأقدامهم.

لم يأتِ أهم استخدام لطاقة الرياح والماء من السواقي الجديدة علىٰ الرغم من ذلك، لكنَّه أتىٰ من التحسينات التي تمَّ إدخالها علىٰ التقنيات الأقدم للإبحار. ولا أحد يهتم بإنتاج آلاف الأطنان من القمح أو ملايين الجالونات من النبيذ، أو بلايين المسامير الحديدية ما لم يتمكنوا من نقلها من المزرعة أو المسبك إلىٰ المشترين المحتملين. كانت السفن الأكبر والأفضل والأرخص (وكذلك الموانئ والقنوات) تهم بنفس قدر أهمية المحاريث والسواقي. وقد نمت التجارة والصناعة معًا.

ويبيِّن (الشكل ٦ – ٢) ذلك بعناية بالنسبة إلىٰ الغرب، برسم العدد المتزايد من حطام السفن نظير مستويات التلوث بالرصاص المسجَّلة في دراسة في عام ٢٠٠٥م للترسبات البحرية في بينيدو فيلهو في أسبانيا. (أبيِّن حطام السفن بسبب عدم بقاء سجلات للسفن القديمة؛ لذلك فحطام السفن هو أفضل ممثل لعدد الرحلات - ما لم يصبح القباطنة أكثر غلظة بشكل غير قابل للتوضيح وأصبحوا يصطدمون بالصخور أكثر بمرور الوقت، فإنني أوضح التلوث بالرصاص وهو ناتج ثانوي لمعالجة الفضة؛ لأنَّ الرصاص هو أسهل النظائر للدراسة بالنسبة إلىٰ

الجيوكيميائيين). ترتفع المنعطفات معًا لقمم متوائمة في القرن الأول قبل الميلاد، ممَّا يوضح مدىٰ قوة ترابط التجارة والصناعة (وأنَّ روما القديمة لم تكن العصر الذهبي للبيئة).



(موضع الشكل ٦ - ٢). السلع والخدمات: حدوث زيادة مماثلة في حطام سفن البحر الأبيض وفي التلوث بالرصاص في البحيرة الأسبانية بينيدو فيهلو. تم تنميط عدد حطام السفن وكميات الرصاص حتىٰ يمكن مقارنتها علىٰ المقياس الرأسي نفسه، مع إحصاء كميات كل منطقة في عام ١ قبل الميلاد باعتبارها تساوي ١٠٠.

لا يمكننا مقارنة (الشكل ٦ - ٢) مع رسم بياني مساوٍ للشرق؛ لأنَّ الأثريين الصينيين لم يجمعوا بيانات كمية كبيرة. وما هو موجود يشير إلىٰ أنَّ التجارة ازدهرت في المركز الشرقي بعد عام (٣٠٠ ق. م)، ولكن ليس بالقدر نفسه في الغرب. وتخلص إحدىٰ الدراسات التي أجريت مؤخرًا -علىٰ سبيل المثال- إلىٰ أنَّ الإمبراطورية الرومانية كانت تملك تقريبًا عملة متداولة ضعف هان، وأنَّ أثرياء الرومان كانوا أغنىٰ مرتين من أثرياء الصينيين.

ربما كانت الجغرافيا مرتبطة إلىٰ حد كبير بالفرق في نمو التجارة. ففي إمبراطورية روما، عاش (٩٠٪) من السكان في (١٠ أميال) من البحر الأبيض المتوسط. وفي الألفية الثانية قبل الميلاد جلب اتساع المركز الغربي في حوض البحر الأبيض المتوسط ارتفاعًا في التطور واضطرابًا متزايدًا بالقدر نفسه، ولكن بمجرد أن غزت الساحل بأكمله في القرن الأول قبل الميلاد وضعت نهاية لتلك الاضطرابات. وقد سمح البحر الآن بالنقل المائي الرخيص لربط الجميع تقريبًا، وانطلق التطور لأعلىٰ.

وفي إمبراطورية هان، عاش قدر أقل بكثير من نسبة السكان بالقرب من البحر أو الأنهار الكبيرة، ولم تكن الأنهار علىٰ أية حال قابلة للملاحة. وقد ضمن توسُّع روما العسكري جبهة اقتصادية جديدة، حيث استطاع المزارعون الذين قاموا بتطبيق أحدث التقنيات علىٰ الأراضي التي احتلت مؤخرًا أن يبيعوا محاصيلهم لتوفير الغذاء لمدن إيطاليا واليونان، ولكن في غياب المجاري المائية مثل تلك التي في البحر المتوسط، قامت غزوات تشين وهان بذلك علىٰ نطاق أضيق بكثير. وقد عمل بعض أباطرة هان بقوة علىٰ تحسين شبكات النقل من خلال تجريف الطمي من النهر الأصفر ونهر «وي» وتجاوز أسوأ الامتدادات بالقنوات، ولكن قرونًا قد تمر قبل أن تحل الصين مشكلة عدم امتلاك البحر الأبيض المتوسط الخاص بها.

وتكمن قوتان متشابهتان وراء النمو الاقتصادي في كل من الشرق والغرب، إحداهما ساحبة والأخرىٰ دافعة الاقتصاد إلىٰ الأعلىٰ. تمثَّلت العوامل الساحبة في نمو الدولة. فقد فرض الغزاة الرومان والهان ضرائب علىٰ مساحات شاسعة، منفقين معظم دخلهم علىٰ الجيوش علىٰ الحدود (حوالي ٣٥٠ ألف جندي في روما وما لا يقل عن ٢٠٠ ألف شخص في الصين)، وعلىٰ العواصم العملاقة (ربما مليون شخص في روما ونصف هذا العدد في تشانغان، عاصمة هان). واحتاج كلاهما إلىٰ نقل المواد الغذائية والسلع والأموال من المقاطعات الغنية التي تسدد الضرائب إلىٰ التركيزات البشرية المستهلكة للدخول.

ويوضح مونتي تستاشيو (جبل بوتشيرد) -وهو موقع في ضواحي روما- حجم عامل الجذب هذا في الغرب. ويُعدّ ذلك التل الصغير الذي يبلغ ارتفاعه (١٥٠ قدمًا) والمغطىٰ بالحشائش والمكوَّن من الفخاريات المكسورة أقل إثارة من مقبرة الإمبراطور تشين الأول، ولكن بالنسبة إلىٰ علماء الآثار المتشددين؛ فإنه يمثِّل رد فعل إيطاليا تجاه مقولة حسد مصر. تمَّ الإلقاء بخمسة وعشرين مليون قدر تخزين، وهو ما يُعدّ عددًا مذهلًا، في ذلك المكان علىٰ مدىٰ ثلاثة قرون. وكان معظمها يُستخدم لشحن زيت الزيتون -(٢٠٠ مليون غالون)- من جنوب أسبانيا إلىٰ روما حيث يضعه سكان الحضر علىٰ طعامهم، ويغتسلون به ويحرقونه في مصابيحهم. الوقوف علىٰ جبل تيستاسيو يعني أن تشعر بانبهار حيال ما يمكن أن يفعله البشر الجياع. ولقد كان ذلك التل بمثابة أحد تلال روما الصناعية من القمامة.

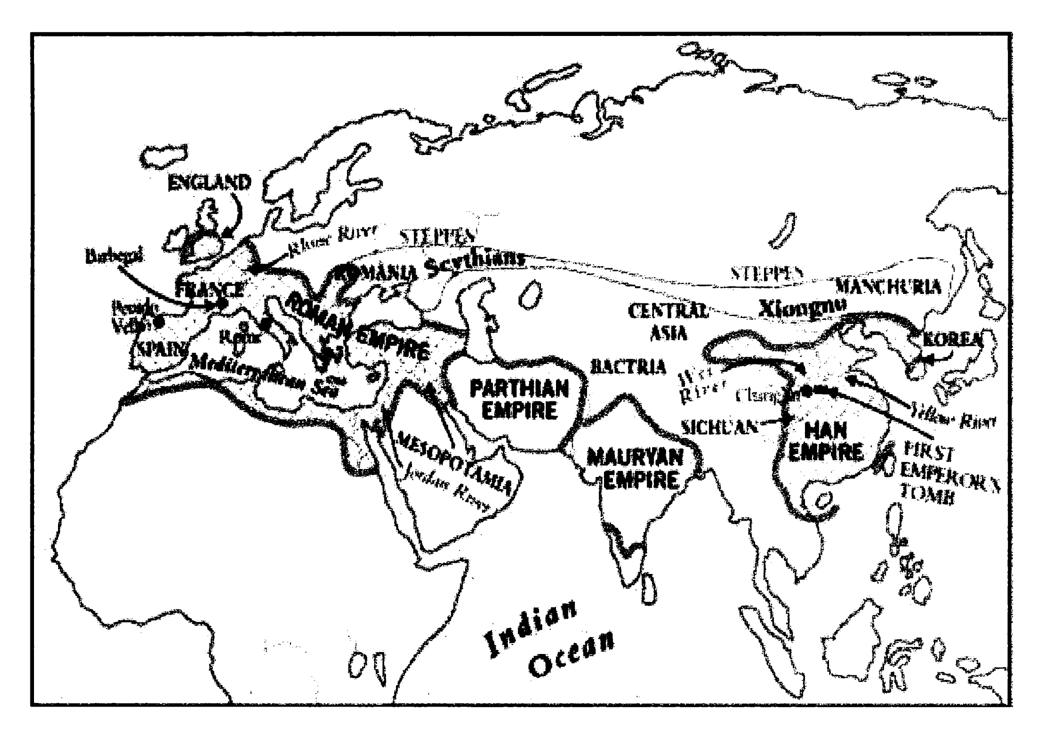
أما القوة الثانية، التي دفعت بالاقتصاد إلىٰ أعلىٰ، فقد كانت تغيُّر المناخ المألوف لدينا. وقد ألقت البرودة العالمية بعد عام (٨٠٠ ق. م) بالدول المتأخرة في الفوضىٰ، وأطلقت قرونًا من التوسُّع. وبحلول عام (٢٠٠ ق. م) أنذرت التغييرات المدارية المستمرة بما يسميه علماء المناخ بالفترة الرومانية الدافئة، ممَّا أضعف من الرياح الشتوية وهو ما مثَّل أخبارًا سيئة للمزارعين في حوض البحر المتوسط ووديان الأنهار العظمىٰ في الصين، لكنَّ الإمبراطوريات المتطورة التي نشأت جزئيًا في رد فعل علىٰ البرودة العالمية قد منحت كلا المجتمعين الغربي والشرقي المرونة، لا لمجرد البقاء علىٰ قيد الحياة في ظل المناخ المتغيِّر؛ ولكن أيضًا استغلال ذلك التغيير. لقد زادت الأوقات العصيبة من محفزات التنويع والابتكار. قام البشر بتعديل السواقي والفحم واستغلوا المزايا الإقليمية لشحن البضائع حول العالم، وقدَّمت الدول عالية التكلفة الطرق والموانئ لجعلها مربحة والجيوش والقوانين لتأمين الربح، علىٰ افتراض منطقي للغاية بأنَّ السكان الأكثر ثراءً سيكونون قادرين علىٰ دفع المزيد من الضرائب.

وقد اندفعت الإمبراطوريات عالية التكلفة أيضًا إلىٰ ما وراء المناطق المركزية القديمة إلىٰ مناطق جعلت الفترة الدافئة من الزراعة فيها أكثر إنتاجية -

مثل فرنسا ورومانيا وإنجلترا المطيرة في الغرب، ومنشوريا وكوريا وآسيا الوسطىٰ في الشرق (الشكل ٦ - ٣). ودون أن يدروا أنهم يفعلون ذلك، قامت الإمبراطوريات بالفعل بتأمين ممتلكاتها حيث قامت التحولات المناخية التي آذتهم في المناطق الدافئة بمساعدتهم في المناطق الباردة. وفي روما حيث جعل البحر المتوسط من السهل علىٰ التجَّار نقل بضائعهم بين المناطق، كانت الفوائد بالتأكيد ضخمة، وفي الصين حيث كانت الأنهار الكبيرة أقل ملائمة، كانت الفوائد أصغر ولكن في الوقت نفسه مشابهة.

لقد كانت ثمرة جميع الحروب والاستعباد والمذابح في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد هي عصر الوفرة الذي ألهم حماس بانجلوس والذي افتتحتُ به هذا الفصل. لقد كانت فواكه ذلك العصر موزعة بغير مساواة -كان هناك فلاحون أكثر بكثير من الفلاسفة أو الملوك- ولكنَّ عدد الأشخاص علىٰ قيد الحياة كان أكبر مقارنة بأي عهد مضىٰ، وفي مدن كبيرة، وبصفة عامة عاشوا لمدة أطول، وأكلوا بشكل أفضل، وكان لديهم أشياء أكثر من أي وقت مضىٰ.

عندما بدأت الذهاب في رحلات الحفريات الأثرية في فترة السبعينيات في إنجلترا، حفرتُ في العديد من المواقع الرومانية. وربما كان عملًا مرهقًا، حيث تنظيف أساسات ضخمة من الأسمنت المصبوب (اختراع روماني آخر) بالمعاول والتسابق للإبقاء علىٰ السجلات متقدمة بخطوة علىٰ طوفان الاستكشافات. ثمَّ بدأت في عمل الدكتوراه عن المجتمع اليوناني في الفترة التي ترجع إلىٰ عام (٧٠٠ ق. م)، وفي عام (١٩٨٣م) عملت لأول مرة في موقع حفر يعود لذلك التاريخ. لقد كانت صدمة. فلم يمتلك هؤلاء الناس شيئًا. حتىٰ إنَّ العثور علىٰ زوج من كومات من حديد صدئة اعتبر أمرًا عظيمًا. وبالمقارنة مع الشعوب السابقة، فقد عاش الرومان في جنة المستهلك. فقد ارتفع استهلاك الفرد في ما أصبح مقاطعات الإمبراطورية الرومانية من مستوىٰ الكفاف في حوالي عام (٥٠٠ ق. م) إلىٰ (٥٠٪) زيادة علىٰ ذلك بعد ستمائة أو سبعمائة عام لاحق.



(موضع الشكل ٦ - ٣). الاستفادة إلىٰ أقصىٰ حد من المناخ: أقصىٰ امتداد لمملكة هان (تقريبًا ١٠٠م)، والإمبراطوريات الرومانية (١١٧م) دامجة المناطق التي استفادت من الاحتباس الحراري.

كانت هناك عمليات مشابهة تجري علىٰ قدم وساق بوضوح في الشرق أيضًا، حتىٰ لو تكن محدَّدة ومُقاصة بشكل جيِّد كما أسلفت. لقد ظلَّ البشر في كلا المركزين في فقر مدقع حسب المعايير الحديثة - لقي نصف عدد الأطفال مصرعهم قبل بلوغهم سن الخامسة، وعاش عدد قليل من الناس بعد سن الخمسين، وتركت الوجباتِ الغذائية الفقيرة البالغين أقصر منَّا بست بوصات - ولكن بالمقارنة مع جميع ما قد سبق، فقد كان ذلك عصرًا ذهبيًا. فلا عجب أنَّ الإمبراطوريات القديمة كانت تزحف مع الدكتور بانجلوس.

ما لم يستطع بانجلوس أن يراه، هو كيف كانت زيادة التطور الاجتماعي داخل المراكز تقوم أيضًا بتحويل العوالم التي تتجاوز حدود الإمبراطوريات. عندما كانت الإمبراطوريات قوية قامت بفرض إراداتها علىٰ الشعوب علىٰ طول حدودها، كما هو الحال مع داريوس إمبراطور فارس في القرن السادس قبل الميلاد والإمبراطور الأول لتشين في القرن الثالث عندما أخضعا المساحات العظيمة لسهول آسيا الوسطىٰ تحت سيطرتهما؛ ولكن عندما كانت الإمبراطوريات ضعيفة تراجع البدو. وفي الغرب لم تستطع الدول المستخلفة التي بناها جنرالات الإسكندر الأكبر علىٰ أنقاض الإمبراطورية الفارسية بعد عام ٣٠٠ ق. م أن تتوافق مع مجد أسلافها، وسرعان ما كان المغيرون ينهبون باكتريا وشمال الهند. وبدأت مجموعة أخرىٰ من آسيا الوسطىٰ، وهم الفرس، في التغلغل في إيران، وعندما سقطت الممالك المقدونية تحت وطأة الهجمات الرومانية بعد عام ٢٠٠ ق. م، استغل الفرس هذا الوضع.

اختلف الفرس عن البدو الأوائل الذين شقّوا طريقهم إلىٰ المركز الغربي. وأصبح البدو، مثل السكيثيين، أغنياء عن طريق السرقة أو ابتزاز أموال الحماية من الإمبراطوريات الزراعية، وكانوا في الأساس لصوصًا لا مصلحة لهم في غزو الدول عالية التكلفة وإدارة بيروقراطياتها المحيرة. وقد كان الخيالة الفارسيون - علىٰ النقيض- أشباه بدو. جاؤوا من حواف سهل آسيا الوسطىٰ بدلًا من قلبها القاحل، وعاشوا جنبًا إلىٰ جنب مع المزارعين عبر الأجيال. وعرف حكَّامهم كيفية انتزاع الضرائب من الفلاحين المضطهدين مع الحفاظ علىٰ تقاليد ركوب

الخيل التي اعتمدت عليها قوتهم العسكرية، وبحلول عام ١٤٠ ق. م كانوا قد حوَّلوا الإمبراطورية الفارسية القديمة إلىٰ مملكة عريضة وفضفاضة خاصة بهم.

وأحب الملوك الفارسيون تسمية أنفسهم بورثة كورش وداريوس وقاموا باستيعاب أنفسهم بنشاط في الثقافة الغربية العالية، ولكن في الواقع كانت دولتهم دائمًا منخفضة التكلفة، ولا يمكن لها أبدًا أن تهدِّد وجود روما، علىٰ الرغم من أنها مثَّلت صدمة حادة لأي روماني قد نسي قوة الفرسان الرُحَّل. وقد اشتهر فرسان مملكة فارس بـ «الطلقة الفارسية»، حيث كان الراكب يتظاهر بالفرار، ثم ينحرف من فوق السِرج ليطلق السهام علىٰ ملاحقيه. وقد سمحت مثل هذه التكتيكات لفارس برؤية الچنرال الروماني كراسوس، الذي خسر جيشه وحياته في هجوم متهور في عام ٥٣ ق. م. كان الملك الفارسي شديد الإعجاب بالثقافة الغربية، يشاهد التراجيديا اليونانية عندما وصله رأس كراكوس، وكانت ثقافته جيدة بما يسمح له بفهم النكتة عندما خلَّد الممثل البطل تلك اللحظة البشعة في دوره.

كانت مشاكل روما مع فارس في الطرف الغربي من السهول لا تُقاس بالمقارنة مع مشاكل الصين مع شيونجنو (كيونغنو) في الطرف الشرقي. أسفرت حرب الإمبراطور الأول لتشين الوقائية في عام ٢١٥ ق. م عن نتائج مأساوية: فبدلًا من تخويف البدو، أدت إلىٰ ثورة سياسية علىٰ السهول ممَّا أدىٰ بدوره إلىٰ دمج قبائل شيونجنو المتنازعة في أول إمبراطورية حقيقية للبدو في العالم. وبدلًا من فرض ضرائب علىٰ الفلاحين للدفع مقابل أرستقراطية راسخة مثلما فعل الفرس، موَّل حاكم شيونجنو دولته المتخلفة بالكامل عن طريق نهب الصين وشراء ولاء رؤساء البدو بالحرير والنبيذ المستولىٰ عليهم.

وكان توقيت ماودون (Maodun) ممتازًا. فاستولىٰ علىٰ شيونجنو في عام ٢٠٩ ق. م، بعد وفاة إمبراطور الصين الأول، ولمدة تسع سنوات قام باستغلال الحروب الأهلية واستمتع بأعمال السلب والنهب. وفي عام ٢٠٠ ق. م، قرَّر الإمبراطور الأول لهان، «جاوديو»، أن الكيل قد طفح، وقاد جيشًا ضخمًا إلىٰ السهوب، فقط ليعلم أنَّ قتال البدو يختلف عن قتال المنافسين علىٰ عرش

الصين. وقد تراجعت شيونجنو، جاعلةً الصينيين يموتون جوعًا في البرية، وفي الوقت الذي عاد فيه ماودون لينصب كمينًا كان ثُلث رجال جاوديو قد فقدوا أصابعهم من أثر الصقيع. وخرج الإمبراطور الصيني بالكاد قطعة واحدة، وكما يحدث عمومًا في الحرب، فإنَّ ما جرىٰ لمعظم رجاله كان أسوأ.

وعندما أدرك أن الإنهاك والتقاعس والإجراءات الاستباقية الوقائية كلها تبوء بالفشل في مواجهة شيونجنو، ابتكر جاوديو استراتيجية رابعة: إنشاء أسرة ماودون. وبنزع ابنته الكبرىٰ من حجرات تشانجهان اللامعة وأغطية الفراش المصقولة بالجواهر، فقد أرسلها جاوديو لتكون زوجة ماودون، لتعدّ أيامها في خيمة من اللباد علىٰ السهوب. ولا يزال شعراء الصين بعد ألف سنة يتغنون بلوعة جارية هان بين الفرسان الشرسين.

وقد بدأ هذا الزواج الملكي ما أسماه العلماء الصينيون بسياسة القرابة المتناغمة، وفي حالة أنَّ الحب كان لا يكفي، فقد اشترىٰ جاوديو ماودون بالهدايا السنوية من الذهب والحرير. ولسوء الحظ فلم تنجح الهدايا علىٰ السواء. فقد ظلّت شيونجنو ترفع السعر وتمارس النهب علىٰ أية حال، علىٰ ثقة من أنَّه ما دامت الخسائر أقل من تكاليف الحرب ومعاقبتهم، فإن أباطرة هان لن يفعلوا شيئًا.

واستمرت القرابة المتناغمة لمدة ستين سنة مكلِّفة علىٰ نحو متزايد، حتىٰ في عام ١٣٠ ق. م انقسم بلاط هان بشدة بشأنها. فتذكَّر بعضهم الكارثة التي حدثت في عام ٢٠٠ ق. م، وناشدهم التحلي بالصبر؛ بينما صوت آخرون علىٰ الدم. وفي عام ١٣٥ ق. م، عندما توفيت والدته الحذرة، انضم الإمبراطور الصغير وودي إلىٰ الحشد الدموي. وبعث سنويًا في الفترة ما بين (١٢٩ إلىٰ ١١٩) بالجيوش القوية المكونة من مئات الآلاف إلىٰ البرية، وبالكاد عاد نصف عددهم في كل سنة. كانت تكلفة الأرواح والمال مثبطة، وخلص نقَّاد وودي من النخبة المثقفة الذين كتبوا كتب التاريخ إلىٰ أنَّ حربه الاستباقية كانت كارثة.

ولكن حملات وودي -مثل حملات داريوس، التي تم شنّها ضد السكيثيين منذ أربعمائة سنة (والتي حُكم عليها أيضًا بالفشل من قِبل المؤرخين)- حوَّلت

مشكلة البدو. وكونهم محرومين من الهدايا والغنائم لمشاركتها مع المرؤوسين ومع المراعي التابعة لهم تحت تهديد مستمر، فقدَ حكَّام شيونجنو السيطرة علىٰ حلفائهم وبدؤوا في قتال بعضهم البعض. وفي عام ٥١ ق. م، أقروا حكم هان، وبعد نحو قرن انقسموا إلىٰ قبيلتين. تراجعت واحدة شمالًا، واستقرت الأخرىٰ داخل الإمبراطورية الصينية.

وبحلول القرن الأول أخذ كل من هان والرومان زمام المبادرة ضد البدو. بدأ الهان «باستخدام البرابرة لمحاربة البرابرة» كما أطلقوا عليهم، مانحين جنوب شيونجنو مكانًا للعيش (وهدايا دائمة) في مقابل الخدمة العسكرية ضد البدو الآخرين. وقد واجهت روما المحمية من معظم التحركات علىٰ طول السهوب بالغابات والجبال ومزارع أوروبا الشرقية فقط (أشباه) البدو في فارس، وحتىٰ هنا لم تواجههم روما علىٰ السهوب حتىٰ كان للبدو العديد من المزايا، ولكن واجهتهم بين المدن وقنوات بلاد ما بين النهرين. ومع واقعية أباطرة روما، كانت الفيالق العسكرية تتجاهل المقاومة الفارسية.

ومع ذلك، لم تهدأ جبهة روما الشرقية ولا جبهة الصين الشمالية أبدًا. وفي عام ١١٤ ق. م، طاردت روما الفرس خارج بلاد الرافدين مسيطرة بذلك علىٰ المركز الغربي كله، فقط لتتخلىٰ عن الأرض بين النهرين في عام (١١٧م). كما اجتاحت روما في القرن الثاني بلاد الرافدين أربع مرات، وتنازلت عنها أربع مرات أخرىٰ. وعلىٰ الرغم من ثروتها، فقد كانت بلاد الرافدين بعيدة جدًّا ومن الصعب السيطرة عليها. وقد وجدت الصين، علىٰ العكس من ذلك، أنَّ جلب شيونجنو داخل أراضيها قد حوَّل تدريجيًا خط الحدود علىٰ الخارطة إلىٰ منطقة ذات حدود سائلة، (شمال بري) حيث يأتي الناس ويذهبون علىٰ هواهم، ونادرًا ما يتم تنفيذ أوامر الحكومة، وكان السيف القوي هو ما يهم أكثر من التفاصيل القانونية.

وقد أدت تشابكات الإمبراطوريات البدوية والزراعية المتزايدة إلىٰ تغيير الوضع الجغرافي في أوروبا الشرقية، ممَّا جعل العالم ينكمش قليلًا. وكانت أبرز النتائج المرئية هي منطقة ضخمة من مواد الثقافة المشتركة تمتد من أوكرانيا إلىٰ

منغوليا ومن خلالها مرر التجّار والمحاربون الأفكار الشرقية والغربية والفن والأسلحة من يدٍ إلىٰ أخرىٰ. لكن أهم الشحنات المتحركة بين الشرق والغرب كانت تلك التي لم يتمكن أحد من رؤيتها علىٰ الإطلاق.

وعلىٰ مدىٰ آلاف السنين منذ بدأ مزارعو العالم القديم في الازدحام في القرىٰ، طوروا مجموعة كريهة من مسببات الأمراض. وكان معظمها شديد العدوىٰ، والكثير منها قد يكون قاتلًا. ونشر العدد الكبير من السكان الذين يتنفسون من بعضهم البعض ويتبادلون سوائل الجسد الأمراضَ بشكل سريع، لكنَّ الأرقام المجردة كانت تعني أيضًا أنَّ العديد من الأشخاص قد تصادف امتلاكهم للأجسام المضادة لمقاومتها. وعلىٰ مدىٰ آلاف السنين نشرت تلك الشعوب دفاعاتها من خلال تجميعة الچينات. واستطاعت الطفرات العشوائية تحويل الأمراض الخامدة إلىٰ أمراض قاتلة سوف تنتشر كالنار في الهشيم بين السكان، ولكن السكان المضيفين لهذه الأمراض والفيروسات قد يصلون عندئذ إلىٰ توازن جديد حيث يستطيع كلاهما البقاء.

عند تعرض الشعوب لأول مرة لمجموعة من الجراثيم غير مألوفة، فإنه تكون لديهم القليل من الدفاعات ضد هؤلاء القتلة الصامتين. ويُعدّ أشهر مثال علىٰ ذلك هو ما أسماه الجغرافي والمؤرخ ألفريد كروسبي بأنه «التبادل الكولومبي»، وهي التداعيات غير المقصودة للغزو الأوروبي للعالم الجديد منذ عام ١٤٩٢م. وقد تطورت تجميعة جينات منفصلة تمامًا في أوروبا والأمريكتين. وكان لدىٰ أمريكا أمراض مزعجة خاصة بها، مثل الزهري، لكنَّ الشعوب الأمريكية المنتشرة بقلة لم تستطع البدء في منافسة مجموعة أوروبا الواسعة من الميكروبات. فقد كانت الشعوب المستعمرة عذارىٰ من الناحية الوبائية. لقد اجتاح كل شيء بدءًا من الحصبة والتهاب السحايا ومرض الجدري والتيفوس أجسادهم عندما وصل الأوروبيون، مدمرة خلاياهم وقاتلة إياهم بطرق قبيحة. لا أحد يعرف بالضبط عدد القتلىٰ، ولكن ربما أنهىٰ التبادل الكولومبي حياة ما لا يقل عن ثلاثة من بين كل أربعة أشخاص في العالم الجديد. «يبدو جليًا أنَّ الله

يتمنىٰ أن يمنح [السكان الأصليون] أرضهم للسكان الجدد»، كما خلص أحد الرجال الفرنسيين في القرن السادس عشر.

ويبدو أنَّ «تبادلًا في العالم القديم» مشابهًا لكن متوازنًا بشكل متساوٍ، قد بدأ في القرن الثاني قبل الميلاد. لقد طوَّرت المراكز الغربية والجنوب آسيوية والشرقية مزيجها الفريد من الأمراض الفتاكة علىٰ مدىٰ آلاف السنين منذ بدأت الزراعة، وحتىٰ عام ٢٠٠ ق. م تطورت تلك الأمراض تقريبًا كما لو كانت علىٰ كواكب مختلفة. ولكن مع تزايد عدد التجَّار والبدو الذين تحركوا علىٰ طول السلاسل التي تربط المراكز، بدأت تجميعات الأمراض في الاندماج، ممَّا أطلق الرعب للجميع.

وتسجل وثيقة صينية أنَّ الأوبئة الغامضة قد انتشرت بين جيش يقاتل البدو علىٰ الحدود الشمالية الغربية في (١٦١ - ١٦٢ ق. م)، ممَّا أدىٰ إلىٰ مقتل ثلث القوات. وفي عام ١٦٥ تتحدث النصوص القديمة من جديد عن انتشار الأمراض في معسكرات الجيش، ولكن هذه المرة فإنَّ النصوص رومانية، واصفةً الوباء في القواعد العسكرية في سورية خلال حملة ضد فارس، علىٰ بُعد أربعة آلاف ميل من تفشي الأوبئة في الصين. ثمَّ عادت الأوبئة إلىٰ الصين خمس مرات بين أعوام (١٧١، و١٨٥) وانهارت الإمبراطورية الرومانية في كثير من الأحيان خلال هذه السنوات. وفي مصر، حيث بقيت سجلات تفصيلية، قتلت الأوبئة علىٰ ما يبدو أكثر من ربع السكان.

ومن الصعب تصور ماهية تلك الأمراض القديمة، ويعود ذلك جزئيًا إلىٰ التطور المستمر للفيروسات في الألفي سنة الماضية، ولكنَّه غالبًا بسبب وصف المؤلفين القدامىٰ لها بطرق غامضة بجنون. ومثلما يستطيع الكتاب الطموحون اليوم شراء كتب مثل (Screenwriting for Dummies) أو«كتابة السيناريو للحمقىٰ» ثم يصنّعون أفلامًا أو برامج تليفزيونية من تلك الصياغة، فإنَّ المؤلفين القدامىٰ علموا أنَّ التاريخ المكتوب بشكل جيِّد يحتاج إلىٰ سياسة، ومعارك، وأوبئة. وكان لدىٰ قرَّائهم -مثلنا عندما نذهب إلىٰ الأفلام- شعور قوي حيال كيف يجب أن تبدو عناصر الحبكة. وقد كانت الأوبئة بحاجة إلىٰ تنبؤات عن فهم ماهيتها وطريقة

تناولها، وأعراضها الشنيعة، والعدد المذهل من الوفيات، والجثث المتعفنة، وانهيار القانون والنظام، والأرامل المتحسرات، وكذلك الآباء، و/أو الأطفال.

وكانت أسهل طريقة لكتابة مشهد عن الطاعون هي أخذه من مؤرخ آخر مع تغيير الأسماء فحسب. وفي الغرب كان النموذج هو رواية ثوكيديدس باعتباره شاهد عيان لإحدىٰ الأوبئة التي ضربت أثينا في عام ٤٣٠ ق. م. وفي عام ٢٠٠٦م، أشارت دراسة للحمض النووي إلىٰ أنَّ ذلك المرض كان أحد أشكال حُمّىٰ التيفوئيد، رغم أنَّه ليس واضحًا تمامًا في سردية ثوكيديدس، وبعد إعادة تدوير المؤرخين الآخرين لنثره (الجذاب علىٰ نحو لا يمكن إنكاره)، فلا يُعدّ الكثير واضحًا علىٰ الإطلاق بشأن تلك الأوبئة التي وصفوها.

وعلىٰ الرغم من هذا الضباب من عدم اليقين، فإنَّ المصادر الرومانية والصينية تتناقض تناقضًا حادًا مع الأدبيات الهندية، التي لا تذكر أيّة أوبئة في القرن الثاني. وقد يعكس ذلك عدم اهتمام الطبقات المثقفة بشيء روتيني كموت الملايين من الفقراء، ولكن الغالب أنَّ الأوبئة بالفعل قد تجاوزت الهند، ممَّا يوحي بأنَّ التبادل التجاري في العالم القديم قد انتشر غالبًا عبر طريق الحرير والسهول بدلًا من طرق التجارة في المحيط الهندي. ومن المؤكد أنَّ ذلك يتوافق مع كيفية بدء الأوبئة في الصين وروما، في معسكرات الجيش علىٰ الحدود.

ومهما كانت آليات العدوىٰ الميكروبية، فقد تكررت الأوبئة بشكلٍ فظيع تقريبًا كل جيل منذ عام ١٨٠ ق. م فصاعدًا. وفي الغرب كانت أسوأ السنوات هي تلك الممتدة بين أعوام (٢٥١ - ٢٦٦)، عندما توفي خمسة آلاف شخص يوميًا في مدينة روما. وفي الشرق أتت أحلك الأيام في الفترة ما بين أعوام (٣١٠ و٣٢٢)، بادئة مجددًا في الشمال الغربي للبلاد حيث (وفقًا لما جاء في التقارير) توفي الجميع تقريبًا. وقد ذكر طبيب خاض غمار المرض أن تلك الأمراض كانت تبدو مثل الحصبة أو الجدري:

«في الآونة الأخيرة، كان هناك أشخاص يعانون من قُرح الوباء الذي يهاجم الرأس والوجه والأنف. وفي وقت قصير، انتشرت تلك القُرح في جميع أنحاء الجسم. وتأخذ مظهر البثور الملتهبة التي تحتوي علىٰ بعض من مادة بيضاء.

وبينما تجف بعض هذه البثور تظهر حويصلة غضة. وإذا لم يُعالج في وقت مبكر يتوفىٰ المريض عادة. أما الذين يتعافون فيبقون مشوهين بندبات أرجوانية اللون».

كان لتبادل العالم القديم آثاره المدمرة. لقد انكمشت المدن وتراجعت التجارة وانخفضت عائدات الضرائب وأُهملت الحقول. وكما لو أنَّ كل هذا لم يكن كافيًا، فإنَّ كل مصدر للأدلة (المستنقعات وترسبات البحيرات والعينات الجليدية الجوفية وحلقات الأشجار ونسب الإسترونشيوم إلىٰ الكاسيوم في الشعب المرجانية، بل وكيمياء الطحالب) يشير إلىٰ أنَّ الطقس قد انقلب أيضًا علىٰ الإنسانية، منهيًا الفترة الرومانية الدافئة. وقد انخفضت متوسطات درجات الحرارة حوالي (درجتين فهرنهايت) ما بين أعوام (٢٠٠ و٥٠٠م)، وفي ظل أنَّ مواسم الصيف الباردة التي أطلق عليها علماء المناخ الفترة الباردة في العصور المظلمة قلَّلت من التبخر من المحيطات وأضعفت الرياح الموسمية، فقد قلَّت الأمطار أيضًا.

وفي ظل ظروف أخرىٰ، كانت المراكز الشرقية والغربية لتستجيب لتلك التغيُّرات المناخية بكفاءة كما فعلوا عندما بدأت الفترة الدافئة الرومانية في القرن الثاني قبل الميلاد. ولكن في ذلك الوقت، اتحد المرض والتغيُّر المناخي -وهما اثنان من خمسة فرسان لهلاك العالم الذين ظهروا بوضوح في الفصل الرابع. ويعتمد ما سيعنيه ذلك، وما إذا كان الفرسان الثلاثة الآخرون (وهم المجاعة والهجرة وفشل الدولة) سيلحقون بهم أم لا- علىٰ رد الفعل الناس.

فقدان تفويض السماء

ومثل جميع التنظيمات، تطورت كل من إمبراطورية هان والإمبراطورية الرومانية لحل مشاكل محددة. وقد تعلما كيفية هزيمة كل المنافسين، والسيطرة علىٰ أراضٍ شاسعة وأعداد هائلة من السكان بتقنيات بسيطة، ونقل الغذاء والإيرادات من المقاطعات الغنية إلىٰ الجيوش علىٰ حدودهم والحشود في مدنهم الكبرىٰ. وقد فعلوا ذلك بطرق مختلفة قليلًا، وحدَّدت الاختلافات كيفية استجابتهم للتبادل التجاري للعالم القديم.

وكان الشيء الأهم هو كيف تعاملت كل إمبراطورية مع جيشها. ولمواجهة التشيونجنو من عام ١٢٠ ق. م فصاعدًا، طوَّرت الهان سرايا فرسان ضخمة معينة من البدو أنفسهم، ومع إتقان سياسة «استخدام البرابرة لمكافحة البرابرة» في القرن الأول بعد الميلاد وطّنوا العديد من هؤلاء البدو داخل الإمبراطورية. وكان لهذا نتيجة مزدوجة لعسكرة الحدود، حيث عاش مقاتلو تشيونجنو مع وصاية قليلة من قِبَل الهان، وتحويل الداخل إلىٰ منطقة غير عسكرية. وقد وُجد عدد قليل من الجيش في قلب الصين باستثناء العاصمة نفسها، وعدد أقل عُيّن هناك. ولم يرَ الأرستقراطيون الصينيون مكاسب كبيرة في خدمتهم باعتبارهم ضباطًا علىٰ (البرابرة) الموجودين بعيدًا عن العاصمة. وقد أصبحت الحرب أمرًا قام به الأجانب بالنيابة عن الإمبراطور.

وكانت الميزة بالنسبة إلىٰ الأباطرة هي أنهم لم يعودوا يخشون استخدام النبلاء للجيش ضدهم؛ أما الجانب السلبي، فهو أنه لم تعد هناك العصا التي يضربون بها النبلاء المزعجين. وبالتالىٰ، بينما ضعف احتكار الدولة للقوة، وجد

الأرستقراطيون أنَّ التنمر علىٰ الفلاحين المحليين قد صار أسهل، ملتهمين مزارع هؤلاء الفلاحين في أراضٍ ضخمة يديرها ملاك الأراضي باعتبارها إقطاعيات. هناك حدود للفائض الذي يمكن اعتصاره من الفلاحين، وعندما كان مالك الأراضي قريبًا والإمبراطور بعيدًا، تم تسليم مزيد من الفائض للأسياد المحليين باعتباره إيجارًا وأُرسل قدر أقل إلىٰ تشانجان باعتباره ضريبة.

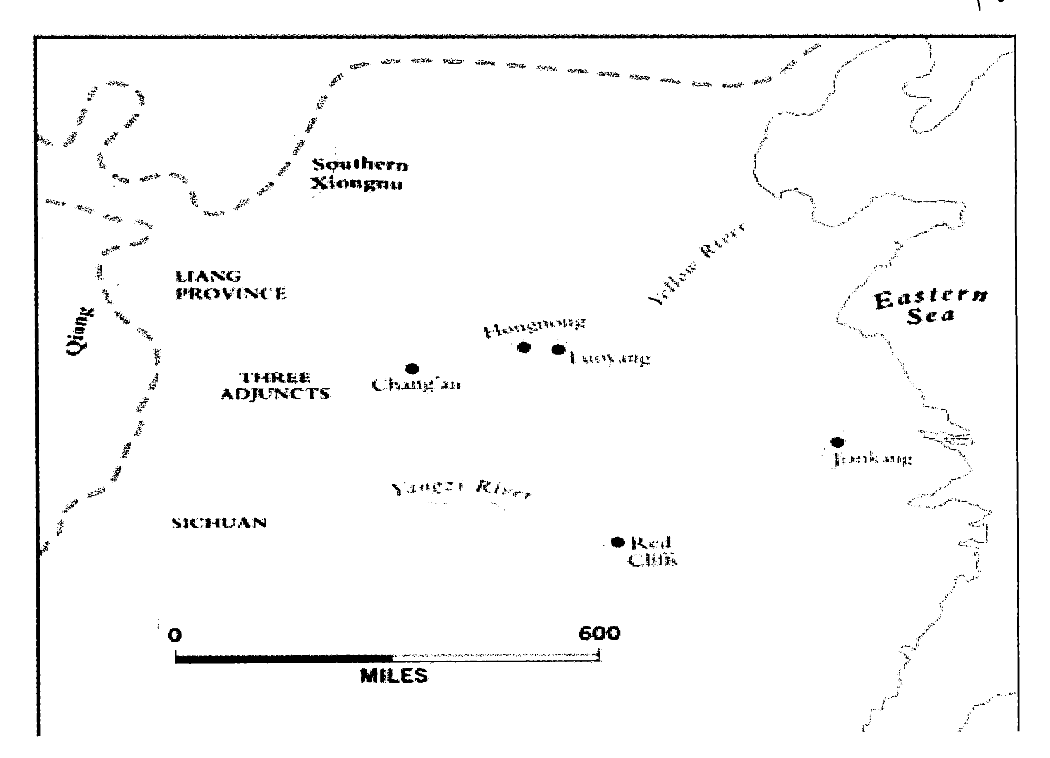
وردَّ الأباطرة بتقييد حجم الأملاك التي يمكن للأرستقراطيين الاحتفاظ بها وعدد الفلاحين القائمين عليها، بإعادة توزيع الأراضي مجانًا (خاضعة للضريبة) علىٰ صغار المزارعين، وجمع النقود من احتكارات الدولة للضروريات مثل الحديد والملح والكحول. ولكن في العام التاسع بعد الميلاد تفاقم صراع الإمبراطور مع مُلّاك الأراضي عندما استولىٰ مسؤول رفيع يدعىٰ وانغ تاي مانغ علىٰ العرش، وأمَّم جميع الأراضي، وألغىٰ العبودية والاسترقاق، وأعلن أنَّه من الآن فصاعدًا فإنَّ الدولة وحدها يمكنها أن تمتلك الذهب. وقد انهار تمركزه القريب من تمركز ماو علىٰ الفور، ولكنَّ انتفاضات الفلاحين هزَّت الإمبراطورية، وفي الوقت الذي عاد فيه النظام في الثلاثينيات بعد الميلاد مرَّت سياسة هان بتغيير كبير.

وقد أتىٰ الإمبراطور الذي حلّ محلّ وانغ مانغ، وهو جوانج وو (الذي حكم من ٢٥ - ٥٧م) من أسرة متملّكة، وليست أسرة تستمد قوتها من علاقة مع البلاط القديم. ولاستعادة سلطة الهان كان علىٰ جوانج وو العمل بشكل وثيق مع زملائه الأقطاب، وألقىٰ بحصته معهم، بادئًا عصرًا ذهبيًا لملاك الأراضي. ومع ازدياد النبلاء ثراءً كالملوك وحكمهم لآلاف الفلاحين، تجاهلوا الدولة ورجال ضرائبها المزعجين. وقد نقل أباطرة هان السابقون الملّاك المزعجين إلىٰ تشانغان، لكي يتمكنوا من مراقبتهم، ولكن جوانج وو نقل العاصمة بدلًا من ذلك إلىٰ لويانج (الشكل ٦ - ٤) حيث كان ملّاك الأراضي هم الأقوىٰ وتمكّن الأقطاب من مراقبة البلاط.

وقد بدأت النخبة في إعادة الدولة إلىٰ سابق عهدها والانفكاك باطراد من العنصر الأكبر في ميزانيتها؛ الجيش. وبحلول أواخر القرن الأول الميلادي،

وكون تشيونجتشو لم يعد يشكل تهديدًا رئيسًا، فقد تُرك جيش الفرسان الكبير الذي أُسِّس لمحاربتهم ليتدارك نفسه، ممَّا كان يعني نهب الفلاحين الذين من المفترض أنهم يحمونهم. وفي عام ١٥٠م تقريبًا كانت تشونغنو الجنوبية نظريًا أفراد الحاشية، مستقلة بدرجة أو بأخرىٰ.

ولم يُبذل جهد كبير لإعادة تشكيل الجيش لمواجهة التهديدات الجديدة التي توجهها تشيانغ، وهو اسم استخدمه الصينيون بشكل فضفاض للمزارعين والرعاة حول حدودهم الشمالية الغربية. وربما بفضل الطقس في الفترة الرومانية الدافئة تزايدت أعداد تشيانغ لأجيال عديدة، وانتقلت مجموعات صغيرة داخل المقاطعات الغربية، يحتلون الأرض كلما أمكنهم ذلك، يتحاربون ويسرقون عندما لا يستطيعون احتلال الأرض. ولإبقاء ذلك تحت السيطرة تطلبت الحدود حاميات عسكرية لا فرسان بدو، لكنَّ مُلّاك الأراضي في منطقة لويانغ لم يريدوا الدفع لهم.



(الشكل ٦ – ٤). نهاية عهد أسرة هان (٢٥ – ٢٢٠م): المواقع المذكورة في النص.

اقترح بعض المسؤولين التخلي عن المقاطعات الغربية بالكلية وترك تشيانغ لتتدبر أمورها وحدها، لكن آخرين خشوا من تأثير الدومينو. وجادل أحد رجال الحاشية: «إذا فقدت مقاطعة ليانغ، سوف تكون ثلاث مناطق تابعة هي الحدود. ولو انتقل الناس من المناطق الثلاث التابعة إلىٰ الداخل، فإنَّ هونغنونغ ستكون هي الحدود. ولو واصلت علىٰ ذلك النحو سوف تصل إلىٰ طرف البحر الشرقي، وسوف يصبح ذلك هو حدّك».

اقتنعت الحكومة وواصلت السير وأنفقت الثروات، لكنَّ عمليات التسلل استمرت. وفي عام ٩٤، ومجددًا في عام ١٠٨م سيطرت تشيانغ علىٰ مساحاتٍ شاسعة من المقاطعات الغربية. وفي عام ١١٠م، كان هناك انتفاضة تشيانغ، وبحلول عام ١٥٠ كانت تشيانغ خارجة عن سيطرة لويانغ بقدر ما كانت تشيونجنو. وعلىٰ كلٍ من الحدود الشمالية والجنوبية، توجَّب علىٰ الملَّاك المحليين أن ينظموا دفاعاتهم، فحوّلوا الفلاحين المستقلين إلىٰ مسلَّحين، أما الحكَّام المنسيون الذين أرسلتهم الدولة إلىٰ هناك فقد عملوا علىٰ زيادة جيوشهم (ونهبوا أقاليمهم كي يدفعوا إليهم).

ولذلك فمن الصعب عدم الاستنتاج أنَّ هان قد فقدت تفويض السماء، وفي عام ١٤٥م طالبت ثلاثة تمردات جديد بأسرة حاكمة جديدة. أما بالنسبة إلىٰ النخبة العظيمة المتملكة للأراضي، فقد كان هناك بصيص من الأمل. لقد كانت الإمبراطورية أصغر، ومن ثمَّ انخفضت إيرادات الضرائب، وكان الجيش إلىٰ حد ما تجري خصخصته، ولكن ممتلكاتهم كانت أكثر إنتاجية من أي وقت مضىٰ، وتركهم محصلو الضرائب وشأنهم، وكانت الحرب إشاعة صعبة المنال. كل شيء كان أفضل في النهاية.

واسيقظ أمثال بانجلوس في الصين علىٰ صحوة عنيفة عندما تفجر تبادل العالم القديم في هذا المشهد في عام ١٦٠. لقد دمَّرت الأوبئة الشمال الغربي، حيث انتقلت تشيانغ داخل الإمبراطورية، وانتشرت عبر الأرض. وبدلًا من الرد بقيادة قوية، تفجر البلاط الإمبراطوري داخليًا.

ومن الناحية النظرية، فقد عاش المئات من البيروقراطيين الذين يملؤون المكاتب في القصر الموجود في لويانغ لوضع رغبات الأباطرة موضع التنفيذ فحسب، ولكن من الناحية العملية (مثل موظفي الخدمة المدنية في عصور عديدة) كان لهم مصالحهم الخاصة أيضًا. فقد جاء معظمهم من أسر متملكة للأراضي، وكانوا يجيدون إيجاد الأسباب لعدم القيام بالأمور التي وجدها مُلّاك الأراضي كريهة (مثل جمع الأموال من أجل الحروب). وكان علىٰ أي إمبراطور لديه أفكاره الخاصة أن يتجاوزهم. وجلب بعض الأباطرة أقرباءهم معهم، خاصة أقارب زوجاتهم المتعددات لإنجاز الأمور، ولجأ البعض الآخر إلىٰ المخصيين، الذين ذكرت مزاياهم في الفصل الخامس. واستخدم الأباطرة الفطناء كليهما بقدر كبير، ولكن هؤلاء العملاء كان لهم أجنداتهم الخاصة أيضًا، وحاولوا التأكد من أنَّ الأباطرة لم يكونوا فطنين بالدرجة الكافية. وفي الحقيقة، لقد رتبوا الأمور لدرجة أنَّه بعد عام ٨٨م لم يعش أمير فوق سن الرابعة عشرة ليعتلي العرش. وانحدرت سياسة البلاط لتغدو مؤامرات سريّة بين كبار الوزراء والمخصيين والأباطرة الغلمان الأقارب بالمصاهرة.

وفي عام ١٦٨م، في الوقت الذي احتاجت فيه هان الصينية للقيادة، قام مخصيو القصر بانقلاب ضد أصهار الإمبراطور المُنصّب حديثًا (لينغدي) البالغ من العمر ١٢ عامًا. ولطيلة ما يقرُب من عشرين عامًا، عندما تفشّت الأوبئة وغار تشيونجنو وتشيانغ، أطلق البلاط حملة تطهير وحملة تطهير مضادة مما أودىٰ بحياة الآلاف وأصاب الحكومة بالشلل. وقد وصل الفساد وعدم الكفاءة إلىٰ ذُرىٰ جديدة. وفي النهاية، أشعل الظلم الثورات، ومع كونهم غير قادرين علىٰ استقطاب أو قيادة الجيش، فقد ولّىٰ مسؤولو لينغدي قادة محليين لزيادة عدد القوات وفعل ما يرونه مناسبًا.

وكان الناس بحاجة ماسة لمعرفة تفسيرات لهذا السقوط المفاجئ في الفوضىٰ، وعندما لم تمنحهم ذلك طقوس الكونفوشية ولا الروحانية الطاوية، فقد سدَّ تلك الفجوة مجموعة من المتنبئين. وفي وادي النهر الأصفر حظي طبيب بالكثير من الأتباع من خلال تعليمه بأنَّ الخطيئة تسبّب المرض والاعتراف بها

يجلب الصحة. وفي عام ١٧٠ ذهب خطوة أبعد من ذلك، وخلص إلىٰ أنَّ: الأسرة الحاكمة نفسها كانت هي المصدر الأكبر للمعصية والعدوىٰ. وكان يجب أن ترحل. وقال: «عندما تبدأ دورة جديدة من ستين عامًا، ستأتي ثروات هائلة إلىٰ العالم».

لكن الثروات لم تأتِ. وبدلًا من ذلك، عندما بدأت دورة تقويم جديدة في (٣ أبريل ١٨٤) أصبحت الأمور أسوأ. وعلىٰ الرغم من قمع الجيوش الموالية لمملكة هان للمتمردين (المعروفين باسم العمائم الصفراء من أغطية رؤوسهم، حيث كان الأصفر رمز العصر الجديد)، برز المقلِّدون في أنحاء الصين كافَّةً. وبدا أنَّ السماء نفسها تُظهر استياءها عندما فاض النهر الأصفر بكثافة ممَّا أدىٰ إلىٰ تشريد ثلاثة آلاف من الفلاحين. وقد حوّلت حركة «خمس مكاييل من الحبوب» (التي تعد بالتحرر من المرض لمن اعترف بذنبه ودفع خمسة مكاييل من الأرز)، حوّلت سيشوان إلىٰ ثيوقراطية طاوية مستقلة، واستغلت تشيانغ الفوضىٰ ونهبت غرب الصين مجددًا. وقد جعل ذلك من القادة مفوّضين لاحتواء هذه التهديدات وتحولوا إلىٰ أمراء حرب مُستقلّين. وعندما تدخل البلاط، جعل الأمور أكثر سوءًا.

وفي عام ١٨٩، استدعىٰ لينغدي الأمير الأقوىٰ دونغ زهو، لكن دونغ أرسل مكتوبًا إليه يقول فيه: «لقد أتىٰ الهان والقوات البربرية التي تحت قيادتي إليّ وقالوا ... ستنقطع إمداداتنا وستموت زوجاتنا وأطفالنا من الجوع والبرد، ولن يسمحوا لي بالذهاب إذا سحبت عربتي». وعندما أصرَّ لينغدي، كشف دونغ لعبته، وعاد إلىٰ لويانغ ولكن مع جيشه. وتوفي لينغدي في الوقت الذي اقترب فيه دونغ، وشرع كل من المستشارين حول أرملة لينغدي الكبرىٰ (الذين أيَّدوا صبيًا يبلغ ١٣ عامًا باعتباره حاكمًا جديدًا)، والمخصيين (الذين أيَّدوا صبيًا آخر في الثامنة)، شرعوا في قتال بعضهم البعض. واقتحم دونغ لويانغ، وأقام مذبحة للمخصيين، وقتل الصبي الأكبر، ونصَّب الأصغر بصفته إمبراطور زياندي. ثمَّ أضرم النار في لويانج، وتساءل عن الإجراء التالي.

ولم تعد هان تمسك بزمام الأمور، ولكن لم يكن دونغ كذلك أيضًا؛ لأنَّه في حين أخفقت السُلْطة الإدارية المتطورة للأباطرة، استمرت سلطتهم الصغيرة الإلهية علىٰ نحو غامض. ولم يكن أحد يجرؤ علىٰ إعلان نفسه باعتباره إمبراطورًا بينما زياندي لا يزال حيًّا، ولكن لم يجرؤ أحد علىٰ قتل الملك الصبي كذلك. (لكنَّ أمراء الحرب كانوا عادلين، وتم اغتيال دونغ في عام ١٩٢). وبينما تنازع وسطاء السلطة، مستخدمين الإمبراطور زياندي باعتباره رهينة، انهارت الإمبراطورية إلىٰ إقطاعيات، وسيطر كل من تشيانغ وتشيونجنو علىٰ الحدود، وتبخرت في الهواء المؤسسات المتطورة التي لطالما بدت قوية.

كتب أمير الحرب والشاعر غير المتفرغ تساو تساو في وقت ما بعد عام ١٩٧: «لوقت طويل ارتديت درعي لدرجة أنَّ القمل صار يتكاثر فيه».

«لقد هلك عدد ضخم من السلالات،
وتكشَّفت العظام البيضاء في الحقول،
وعلىٰ مدىٰ ألف لي [حوالي ثلاثمائة ميل] لم يُسمع حتىٰ صوت ديك،
كان واحد فقط من بين مائة ينجو،
مجرد التفكير في ذلك يُمزّق أحشائي».

واحتوىٰ تساو أساه لمدة طويلة بما يكفي للتخلص من زياندي والتلاعب بالصبي الإمبراطور كي يجعله اللاعب الرئيس في شمال الصين.

لم يكن تساو رجلًا سهلًا. وربما كان يحاول استعادة أسرة هان، ملقيًا نفسه في الدور القديم للمستشار الحكيم. وبعد أن رأىٰ كيف قوّض مُلّاك الأراضي الدولة المتطورة القديمة، حاول حل المشكلة العسكرية بتوطين جنوده في المستعمرات حيث قام البعض بزراعة الغذاء بينما تدرب آخرون علىٰ أعمال الحرب، وحل المشكلة السياسية بتصنيف طبقة النبلاء إلىٰ تسع رتب، ممَّا حدَّد موقفها في الجديروقراطية (meritocracy). ومثل تغلث فلاسر في آشور قبل ألف عام، كان يزيل الأقطاب من الصورة، وحتىٰ عام ٢٠٨ عندما أُبيد جيشه في معركة ريد كليفس (الجرف الأحمر)، بدا وكأن كاو يوحد الصين مجددًا.

وعلىٰ الرغم من هذه الجهود، تم تخليد اسم تساو (بفضل رواية عظيمة في القرن الرابع عشر تسمىٰ "The Romance of the Three Kingdoms" أو «رومانسية الممالك الثلاث») باعتباره الوحش الذي دمَّر هان. وفي أوبرا بكين في القرن العشرين، كان الممثلون الذين يرتدون قناع تساو بمسحوق التجميل الأبيض الكثيف والأعين المحددة باللون الأسود هم الأشرار الذين أحبَ المشاهدون كراهيتهم، وفي التسعينيات دخلت شخصية تساو عالم التكنولوجيا بقفزه إلىٰ شاشة الحاسوب بوصفه الفتىٰ السيئ في عدد لا يُحصىٰ من ألعاب الفيديو. وقد وصل إلىٰ شاشات أكبر بصفته الشخص الشرير في إصدار تلفزيوني يدعىٰ (The Romance) أو «الرومانسية» في ٨٤ حلقة، وإلىٰ أكبر الشاشات في الفيلم الآسيوي الأكثر تكلفة علىٰ الإطلاق (معركة الجرف الأحمر، "The Battle of the Red Cliffs" بتكلفة قدرها ٨٠ مليون دولار)، وتزامن إطلاق الجزء الأول منه مع دورة الألعاب الأوليمبية في بكين لعام ٢٠٠٨م.

وكانت علاقة سمعة تساو السيئة بالذي حدث بعد وفاته أكثر من آثامه الذاتية. بعد معركة ريد كليفس تطور توازن بين ثلاثة من أمراء الحرب الرئيسين، وبعد عام ٢٢٠ عندما أبلغ ابن تساو الإمبراطور زياندي أن يتنحىٰ، تحوَّلت البلاد إلىٰ ثلاث ممالك. وكانت تلك المملكة التي أسَّسها تساو دائمًا هي الأقوىٰ. لقد حطمت أحد منافسيها في عام ٢٦٤، وأعادت تسمية نفسها بأسرة جين، وفي عام ٢٨٠ كوّنت جيشًا ضخمًا، وأسطولًا أنهىٰ إعادة احتلال الصين.

وعلىٰ مدىٰ العقد التالىٰ، بدا انهيار ما بعد أسرة الهان انحرافًا لمدة وجيزة، يُشبه ربما ما قد حدث في المركز الغربي بعد أعوام (٢٢٠٠ أو ١٧٥٠) عندما أدىٰ تغيُّر المناخ والهجرات والمجاعات إلىٰ انهيار الدولة ولكن لم يكن لذلك أثر يُذكر علىٰ التطور الاجتماعي. ومع ذلك، سرعان ما تبيَّن أنَّ سقوط الهان كان في الواقع يُشبه كثيرًا الانهيار الغربي في عام (١٢٠٠ ق. م)، بتبعاته الهائلة طويلة الأمد.

تمكَّنت انتصارات المعارك من تقليل عدد أمراء الحرب إلىٰ واحد فقط، لكنَّها لم تتمكن من تغيير مشاكل الصين الأساسية. فقد ظلَّت الأرستقراطية قوية

كما كانت، وقوَّضت بسرعة مستعمرات تساو العسكرية وجديروقراطيته. وكانت الأوبئة ما تزال مستعرة، وجعلت فترة العصر المظلم الباردة الحياة أصعب ليس فقط بالنسبة إلىٰ المزارعين في وادي النهر الأصفر بل بالنسبة إلىٰ التشيونجنو وتشيانغ. وبين أعوام (٢٦٥ و٢٨٧) استقر ربع مليون من سكان آسيا الوسطىٰ داخل إمبراطورية جين. وقد رحَّبت جين أحيانا بالقوىٰ العاملة التي وفرها هؤلاء، وفي أحيان أخرىٰ لم تستطع السلطات مواجهتهم.

وفي هذا السياق، كانت الأشياء الصغيرة مثل حياة الإمبراطور الغرامية تحمل أهمية كبيرة. وبنوع من اللامبالاة، أصبح إمبراطور جين أبًا لـ (٢٧ ابنًا)، وعندما توفي في عام ٢٨٩ استأجر بعضهم أشرس البدو الذين عثروا عليهم لمحاربة بعضهم البعض. وسرعان ما أدرك البدو الذي لم يكونوا مجموعة من الحمقىٰ، أنَّه لم يكن عليهم الاستقرار مقابل الأجور التي دُفعت لهم: وكان بإمكانهم طلب أي ثمن يُريدونه. وعندما لم يحصل قائد تشيونجنو علىٰ أجره في عام ٣٠٤، زاد من الضغط بإعلانه أنه قد أسَّس مملكة جديدة. ولم تمنحه جين كل ما أراده؛ لذا فقد أحرق ابنه لويانغ في عام ٣١١، ودنَّس مقابر أسرة جين، وسجن إمبراطورهم جاعلًا إياه ساقيًا للنبيذ في الأعياد. ومع عدم حصولهم علىٰ الغنائم التي اعتقدوا أنهم يستحقونها، دمَّر تشيونجنو مملكة تشانغان في عام ٣١٦ أيضًا، وأسر إمبراطور جين الجديد، وكلَّف هذا السجين بغسل الكؤوس وكذلك بتقديم النبيذ. وبعد أن سئم من اللعبة بعد شهور قليلة، قتله شعب تشيونجنو وأقاربه.

وفي النهاية سقطت دولة جين. ونهبت عصابات تشيونجنو وتشيانغ كما شاؤوا عبر أرجاء شمال الصين، وهربت حاشية البلاط، مع مليون تابع في ركابهم إلىٰ جيانكانغ (نانجينغ الحديثة) علىٰ نهر اليانغتسي. وكانت الأراضي الشمالية التي تخلوا عنها موطنًا لبعض الدول الأكثر تقدمًا في العالم، ولكن تحت التأثير المركَّب لمعدلات الوفيّات المرتفعة (فالأوبئة قد أصابت الوطن)، وارتفاع معدل الهجرة - تراجع الكثير إلىٰ البرية. وكان ذلك يتلاءم بشكل جيِّد مع البدو الذين انتقلوا هناك من السهول، ولكن بالنسبة إلىٰ المجتمعات الزراعية

المتبقية كان ذلك يعني أنَّ المجاعة كانت تطل برأسها أيضًا. وفي الأيام الأفضل، ربما تدخلت طبقة النبلاء بالمعونة، لكن الآن لم يكن يوجد أحد للمساعدة. وحتىٰ يكتمل البؤس، التهمت آفات الجراد الفوائض التي ما زال القرويون يُنتجونها. وجلبت الأوبئة الجديدة، التي حملها المهاجرون من السهول، المزيدَ من الكوارث للسكان الضعفاء. وربما ظهر الجدري لأول مرة في الصين في عام ٣١٧، وهو العام التالي لإضرام النار في تشانغان.

وكانت الحروب التي شنَّها رؤساء تشيونجنو وتشيانغ عبر هذه الساحة الجرداء تُشبه غارات عملاقة للعبيد من الاشتباكات بين الدول المتطورة. وجمع الحكَّام الفلاحين، عشرات الآلاف منهم، وقادوهم إلىٰ الأقاليم المحيطة بالعواصم، حيث حرث الضامنون الحقول لتغذية جيوش من الفرسان المتفرغين. وفي هذه الأثناء استورد الفرسان أسلحة جديدة من السهول - سروجًا مناسبة، وحلقات السروج، وخيولًا أكبر بإمكانها الهجوم وهي ترتدي الدروع وتحمل فرسانًا مدرعين - ممَّا جعل المشاة شيئًا من الماضي. وأخذ الأرستقراطيون الذين لم يفروا فلاحيهم المستقلين إلىٰ الجنوب واحتشدوا عند الحواجز الهائلة التي وفرت الملجأ الوحيد من ميليشيات الفرسان.

كانت الدول الجديدة التي تتشكل في شمال الصين (الممالك الست عشرة للبربريين الخمسة)، كما أطلق عليها المؤرخون الصينيون في احتقار - غير مستقرة. وفي عام ٣٥٠م -علىٰ سبيل المثال- انفجرت إحدىٰ الدول داخليًا في موجة من التطهير العرقي، حيث أقام الصينيون الأصليون مذابح للآسيويين في الداخل. وتقول الرواية الرسمية للأسر المالكة: «كان عدد القتلىٰ أكثر من مائتي ألف. وتكومت الجثث خارج أسوار المدينة، حيث أكلها الضباع والذئاب والكلاب المتوحشة». ونتيجة لذلك، احتشد رؤساء آخرون داخل فراغ السلطة. وبحلول عام ٣٨٣، بدا أحد اللوردات للحظة وكأنه سيوحّد جميع الصين، ولكنَّه مع اقترابه من جيانكانغ، تحوَّلت هزيمة طفيفة ظاهريًا إلىٰ هزيمة مرعبة، وبحلول عام ٣٨٥ لم تعد دولته بأكملها موجودة.

وفي عام ٣١٧، أسَّس اللاجئون الذين هربوا إلىٰ الجنوب إثر تدمير تشانجهان دولة چين شرقية في چيانكانغ. وخلافًا لممالك قطَّاع الطرق في شمال الصين، فقد تباهت الدولة ببلاطٍ فاخر ومحنك وحافظت علىٰ المظاهر التي ينبغي أن تحيا بها الملكية الصينية. وقد أرسلت سفيرًا لدىٰ اليابان والهند الصينية، وأنتجت أدبًا وفنًا رائعًا، والأبرز علىٰ الإطلاق أنها عاشت لمدة قرن.

ولكن تحت هذا السطح اللامع، كانت مملكة جين الشرقية منقسمة بشدة كأي دولة شمالية. وكان لدىٰ النُبلاء الذين فروا إلىٰ الجنوب اهتمام ضئيل بإطاعة أوامر الإمبراطور. وتجمع بعض وجهاء اللاجئين في چيانكانغ، فأصبحوا طفيليين ونفعيين ومستفيدين من البلاط الملكي، واستعمر آخرون حوض اليانغتسي وأسَّسوا دولًا في هذا الموطن الرطب الجديد. وطردوا السكان الأصليين، وقطعوا الغابات، وجفَّفوا المستنقعات وقاموا بتوطين الفلاحين باعتبارهم عبيدًا.

كما انتشرت الصراعات علىٰ جميع المستويات. وتنازع النبلاء الجدد الذين فروا من الشمال مع العائلات الأكبر في الشمال، وناضل الأرستقراطيون من المشارب كافَّةً ضد الأقطاب المتوسطة، واعتصر كل من الأغنياء والنخب المتوسطة الفلاحين، ودفع الصينيون من جميع الفئات بالسكان الأصليين إلىٰ الجبال والغابات، وقاوم الجميع البلاط المحاصر في چيانكانغ. وعلىٰ الرغم من كل أشعارهم التي ينفطر لها القلب عن أراضي الشمال المفقودة، لم يكن مُلَّاك الأراضي في جنوب الصين متعجلين لدفع الضرائب أو التخلي عن القوىٰ التي ربما سمحت بإعادة الغزو. لقد فُقد تفويض السماء.

الثورة المروّعة

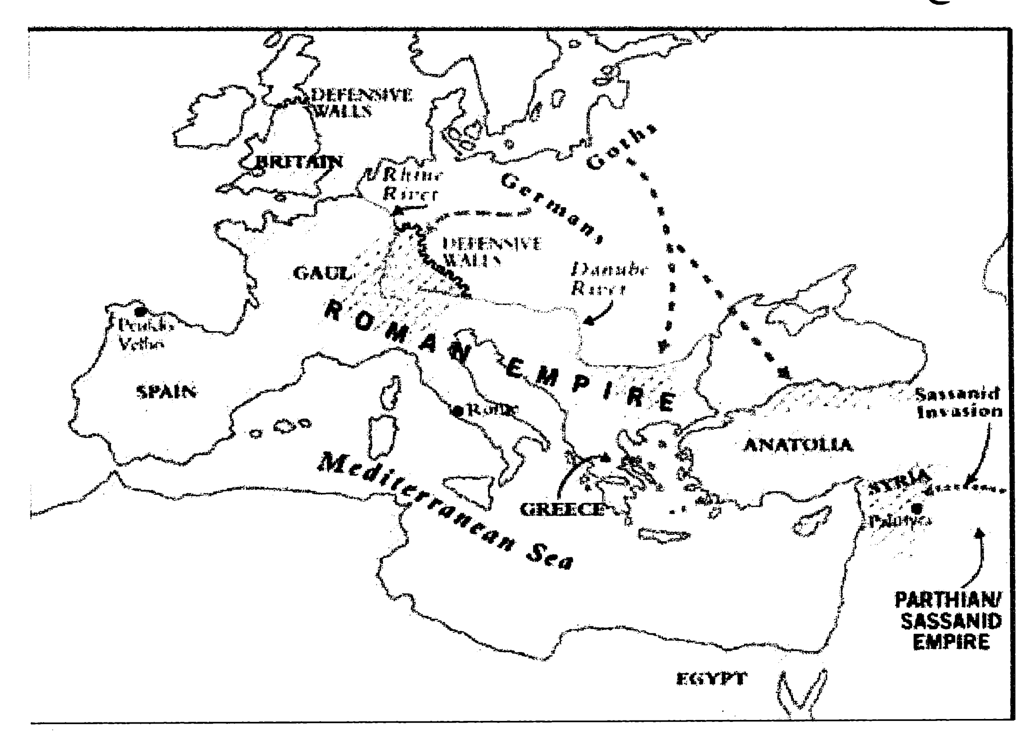
بخلاف أزمة القرن الثاني عشر قبل الميلاد، كانت الأزمة الناجمة عن التبادل التجاري للعالم القديم علىٰ نطاق أوروبا الآسيوية كلها، وألهم عنصرها الغربي ما يُعدّ أول تحفة فنية للكتابة التاريخية الحديثة، كتاب إدوارد جيبون «تاريخ انحدار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها». ذكر جيبون أنَّ موضوع الكتاب كان «الثورة الفظيعة، التي ستُذكر أبدًا، ولا تزال [في عام ١٧٧٠] تشعر بها أمم الأرض». وقد كان محقًا في ذلك؛ فطيلة حياته استعاد التطور الاجتماعي الغربي ارتفاعاته الشاهقة التي وصل إليها في ظل الإمبراطورية الرومانية.

لقد واجه الأباطرة الرومان وأباطرة هان مشاكل مماثلة ولكنَّهم جرَّبوا حلولًا مختلفة. وبخوفهم من الحرب الأهلية الصينية، حيَّد الحكَّام الصينيون الجيش، ولكنهم احتفظوا بأسلحة قليلة ضد الإقطاعيين الأقوياء، وسيطر الحكَّام الرومان بدلًا من ذلك علىٰ الجيش واضعين ذويهم في القيادة ومالئين صفوفه بالمواطنين. وقد جعل هذا من تحدي الأباطرة أمرًا صعبًا علىٰ المدنيين، ولكنَّه أسهل علىٰ الجنود.

وتطلب الأمر مهارات لإدارة هذ النظام، ونظرًا لأنَّ الكثير من الحكَّام في روما كانوا معاتيه، فقد كان الانهيار الدوري أمرًا لا مفر منه. لقد كانت عربدة كاليجولا (Caligula) وقراره بتعيين حصانه عضوًا في مجلس الشيوخ سيئًا بما فيه الكفاية، لكن ولع نيرو بإجبار أعضاء مجلس الشيوخ علىٰ الغناء علانية وقتل أي شخص يزعجه كان أكثر سوءًا. وفي عام ٦٨، أعلنت ثلاث فصائل مختلفة في الجيش جنرالاتها باعتبار كل منهم الإمبراطور واستغرق الأمر حربًا أهلية وحشية

لحل المسألة. ودوَّن المؤرخ تاكيتاس: «الآن تمَّ الكشف عن سر الإمبراطورية؛ وهو أنَّه يمكن صناعة الأباطرة خارج روما». أينما كان الجنود موجودين، كان يمكن أن يكون هناك إمبراطور.

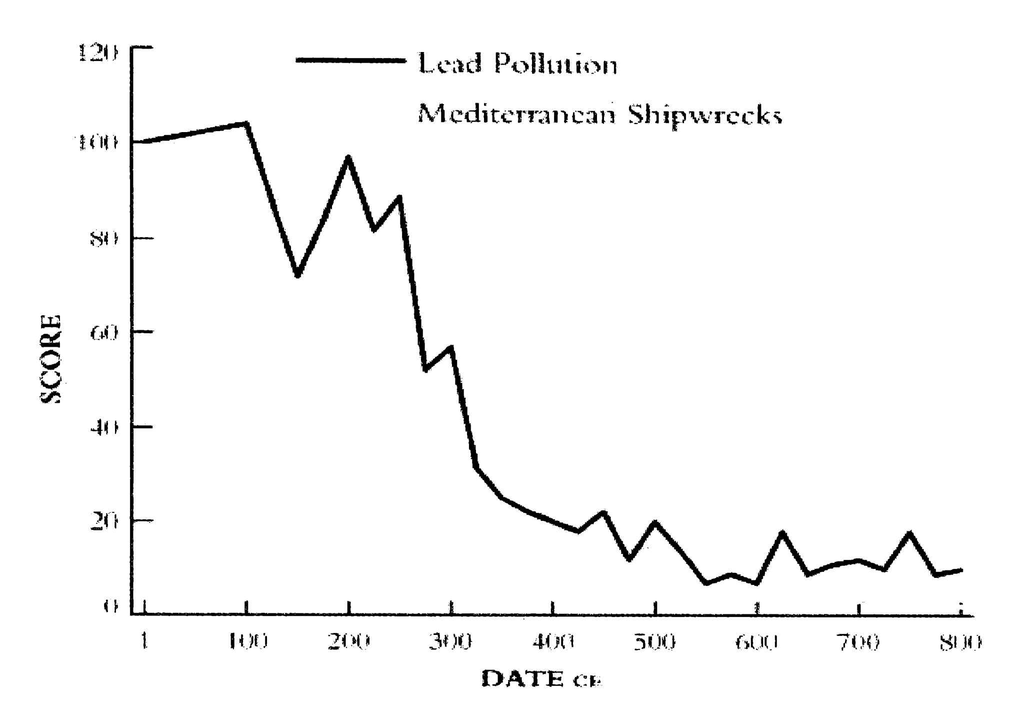
لقد حافظ الحل الروماني -رغم ذلك- علىٰ الحدود (الشكل ٦ - ٥). وشهد الألمان خارج الراين والدانوب، مثل تشيانغ علىٰ طول الحدود الغربية في الصين - نموًا سكانيًا في القرون الأولىٰ بعد الميلاد. وكانت استجابتهم عبر قتال بعضهم البعض، والمتاجرة مع المدن الرومانية، والانزلاق عبر الأنهار إلىٰ الإمبراطورية. ومع كل هذه الممارسات، كان من المنطقي التنظيم في مجموعات أكبر مع ملوك أقوىٰ. ومثل الهان، استجابت روما للثغرات المتزايدة في الحدود عن طريق بناء الجدران (وأشهرها هادريان في أنحاء بريطانيا) ومراقبة التجارة، والدفاع.



(الشكل ٦ - ٥). أزمة روما في القرن الثالث: تشير المساحة المنقطة إلىٰ أماكن انتشار الغارات الجرمانية والقوطية والفارسية.

في عام ١٦١ عندما أصبح ماركوس أوريليوس إمبراطور روما، كانت روما لا تزال بعافيتها، وتطلَّع ماركوس لتتبع شغفه في الفلسفة. لكن بدلًا من ذلك، كان عليه مواجهة التبادل التجاري للعالم القديم. وانتشر أول وباء في معسكرات الجيش في الحدود الشمالية الغربية في الصين في العام الذي اعتلىٰ فيه العرش، وفي العام ذاته دفع غزو فارسي لسورية ماركوس لتركيز قواته هناك. وقدَّمت مخيماتهم المكتظة العائل المثالي لانتشار المرض، وفي عام ١٦٥ دمرهم وباء (الجدري؟ الحصبة؟ الروايات الأدبية غامضة في ذلك كما هو الحال دومًا)، ووصل الوباء إلىٰ روما في عام ١٦٧، مثلما دفعت تحركات السكان بعيدًا إلىٰ الشمال والشرق بالاتحادات الجرمانية الجديدة والقوية عبر نهر الدانوب. لقد قضىٰ ماركوس بقية حياته -١٣سنة- في محاربتهم.

وعلىٰ عكس الصين انتصرت روما في حروبها الحدودية في القرن الثاني. ولو لم تنتصر، فلربما اندفعت روما -مثل الهان- إلىٰ أزمة في عام ١٨٠. لقد أثَّرت انتصارات ماركوس في سرعة التغيير فحسب، وليس نتائجه، ممَّا يشير إلىٰ أنَّ الجيوش وحدها لم تستطع وقف الانهيار. لقد ألقت حصيلة وفيات الأوبئة الاقتصاد إلىٰ حالة من الفوضىٰ. وارتفعت أسعار المواد الغذائية والأجور الزراعية، حتىٰ صارت الأوبئة نعمة للمزارعين الذين نجوا منها، والذين تخلوا عن الحقول الأقل إنتاجية وركَّزوا علىٰ أفضل الأراضي؛ ولكن -بينما تقلصت الزراعة وسقطت الضرائب والإيجارات- دخل الاقتصاد الأكبر في سقوط حرٍّ. وينخفض بشدة عدد السفن المتحطمة في البحر الأبيض المتوسط بعد عام ٢٠٠، كما يلحق التلوث بالبحيرات الجليدية الجوفية، ورواسب البحيرات، والمستنقعات بعد عام ٢٥٠، (الشكل ٦ - ٦). وفي ذلك الوقت كان الجميع يشعر بالأزمة؛ إذ أصبحت عظام الماشية والخراف والخنازير أصغر وأكثر ندرة في المستوطنات بعد عام ٢٠٠، ممَّا يشير إلىٰ تدهور مستويات المعيشة، وفي عام ٢٢٠ كان ساكنو المدينة الأغنياء يشيِّدون مباني ضخمة ونقوشًا أقل.



(الشكل ٦ - ٦). التدهور والسقوط: عدد السفن المتحطمة في البحر الأبيض المتوسط، ومستويات التلوث بالرصاص في قاع البحيرة في بينيدو فيلهو في أسبانيا، عبر الألفية الأولىٰ. ويعكس الميل المنخفض الميلَ الصاعد في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد كما هو موضح في (الشكل ٦-٢). وفي (الشكل ٦-٢)، تمَّ تنميط أعداد السفن المتحطمة وكميات الرصاص حتىٰ يمكن مقارنتها علىٰ المقياس الرأسي نفسه، حيث يتم عدّ كل كمية في عام واحد بعد الميلاد باعتبارها ١٠٠.

وبعد خمسين عامًا من انتصارات ماركوس، فقدت روما السيطرة علىٰ حدودها علىٰ أية حال. ومثلما جعلت مفارقة الانتصارات علىٰ تشيونجنو في القرن الأول من الصعب علىٰ هان السيطرة علىٰ حدودها، قوَّضت سلسلة من النجاحات الرومانية فارس علىٰ نحو سيئ للغاية، لدرجة انهيار النظام قبل الانتفاضة الفارسية في عام ٢٢٠. وقامت الأسرة الساسانية الجديدة التي برزت بتأسيس جيش أقوىٰ بكثير، وفي عام ٢٤٤ هزمت قوة رومانية وقتلت الإمبراطور الذي قادها.

وقد أدت القوات المندفعة والأموال لدعم الجبهة الشرقية المنهارة إلىٰ ترك روما غير قادرة علىٰ الدفاع عن حدود نهر الدانوب والراين بشكل مناسب. وبدلًا من التسلل في عصابات صغيرة لسرقة الماشية، اندفعت عصابات حربية من المئات أو الآلاف عبر الخطوط العارية، فحرقوا، ونهبوا، وحملوا معهم العبيد. كما أغار الجرمانيون الذين هاجروا إلىٰ البلقان مؤخرًا من شواطئ بحر البلطيق، علىٰ أماكن بعيدة مثل اليونان، وفي عام ٢٥١ هزموا وقتلوا آخر إمبراطور روماني. وفي ذلك الوقت انتشرت أوبئة أكثر، ربما تحملها هذه التحركات السكانية. وعندما حشدت روما جيشًا آخر ضد فارس في عام ٢٥٩، وصلت إلىٰ مستوىٰ قياسي جديد: فقد أُعتقل الإمبراطور فاليريان وأُلقي في قفص، حيث بقي لمدة عام، يرتدي أطمار الرقيق ويعاني من كروب فظيعة. وأصرَّ الرومان أنَّ جلد فاليريان أثار إعجاب آسريه، ولكن الواقع كان أنَّ الفرس -مثل تشيونجنو حين أسروا الأباطرة الصينيين- قد سئموا في النهاية. فسلخوا فاليريان وعلقوا جلده علىٰ جدران عاصمتهم.

لقد حوّلت تجارة العالم القديم وصعود الأسرة الساسانية في بلاد فارس وَضْعَ روما. ففي اللحظة التي كان عدد السكان فيها يقل والاقتصاد متعثرًا، كان الأباطرة بحاجة إلىٰ مزيد من الأموال والقوات أكثر من أي وقت مضىٰ. وقد جعلت أول فكرة (غير ذكية) لهم، وهي الدفع للجيوش الحديثة بعملات مغشوشة، الأموالَ بلا قيمة وسارعت من الانهيار الاقتصادي. ومع خوفهم من إخفاقات الحكومة المركزية، تولىٰ الجيش زمام الأمور، معلنين أباطرة جددًا بسرعة مذهلة. وعلىٰ عكس الأباطرة السابقين، لم يملك هؤلاء الرجال هبة الألوهية علىٰ الإطلاق. فقد كان معظمهم من الجنود الأقوياء، والبعض الآخر عساكر أمّيين. وقد استمر عدد قليل منهم أكثر من سنتين، وفي النهاية قُتلوا جميعًا بالسيف.

وبإضاعة فصائل الجيش المزيد من الوقت في قتال بعضها البعض أكثر من الدفاع عن المقاطعات المحلية، تتبع النبلاء المحليون نفس مسار نظرائهم الصينيين، فجعلوا الفلاحين مستقلين ونظموهم في ميليشيات. وتمكّنت مدينة بالميرا التجارية السورية من الرد علىٰ الفرس -نظريًا- بالنيابة عن روما، لكن

ملكتهم المحاربة زنوبيا (التي قادت جيوشها بنفسها وحضرت بشكل منتظم اجتماعات المدينة مرتدية الزيّ الحربي) انقلبت علىٰ روما أيضًا، واجتاحت مصر والأناضول. وفي الطرف الآخر من الإمبراطورية أعلن حاكم علىٰ نهر الراين قيام «مملكة الغال»، مستوليًا علىٰ الغال (فرنسا الحديثة) وبريطانيا وأسبانيا.

وبحلول عام ٢٧٠ بدت روما مثل الصين في عام ٢٢٠، منقسمةً إلىٰ ممالك ثلاث. ولكن بالرغم من كل هذه الفوضىٰ، كانت حالة روما في الواقع أقل سوءًا. فمن خلال السيطرة علىٰ بلاد فارس والألمان في عام ٢٦٠، منحت بالميرا والغال للإمبراطورية متنفسًا، وظلَّت المدن حول البحر الأبيض المتوسط -أي العمود الفقري المالي للإمبراطورية- آمنة. وفي ظل استمرار نقل البضائع عبر البحر، ظلَّت الأموال تأتي للخزائن الإمبريالية، واستطاع العسكريون المتصلبون الجدد الذين جلسوا علىٰ العرش التعافي وإعادة البناء. ومن خلال استبدال لحىٰ الفلاسفة الكثَّة والشعر الانسيابي للأباطرة الأوائل بالذقون الحليقة والشعر القصير، فقد رفعوا الضرائب في المناطق التي لا تزال تحت سيطرتهم، وبنوا قوة ضاربة حول الخيّالة المسلحين، ثم انقلبوا علىٰ أعدائهم. وقد حطموا مدينة تدمُر في عام ٢٧٢، والغال في عام ٢٧٤، ومعظم الفرق الحربية الجيرمانية بحلول عام ٢٨٢. وفي عام ٢٩٧ ثأرت روما من فاليريان بأسر الحريم الملكي الفارسي.

واستغل الإمبراطور دقلديانوس (حكم من عام ٢٨٤ وحتىٰ عام ٣٠٥) هذا التحول للقيام بإصلاحات إدارية ومالية ودفاعية للتعامل مع العالم الجديد. وتضاعف حجم الإمبراطورية تقريبًا. ولم تهدأ الحدود أبدًا، ولكن روما كانت في ذلك الوقت تنتصر في المزيد من المعارك أكثر ممَّا تخسر، ممَّا أحبط الغارات الجرمانية بالدفاع في العمق وأرهق الفرس بالحصار. ومن أجل التعامل مع كل هذا النشاط، قسَّم دقلديانوس العمل إلىٰ أربعة أجزاء، حيث تولىٰ حاكم واحد ونائب المقاطعات الغربية، وحاكم آخر المقاطعات الشرقية. وكما كان متوقعًا، دخل حكَّام الإمبراطورية المتعددون حربين أو ثلاثًا أو ربما أربع حروب أهلية كلما حاربوا أعداءً خارجيين، لكن بالمقارنة مع الحرب الأهلية بين (٢٧ طرفًا) في إمبراطورية جين الصينية في عام ٢٩٠، كان هذا يُعدّ استقرارًا بالتأكيد.

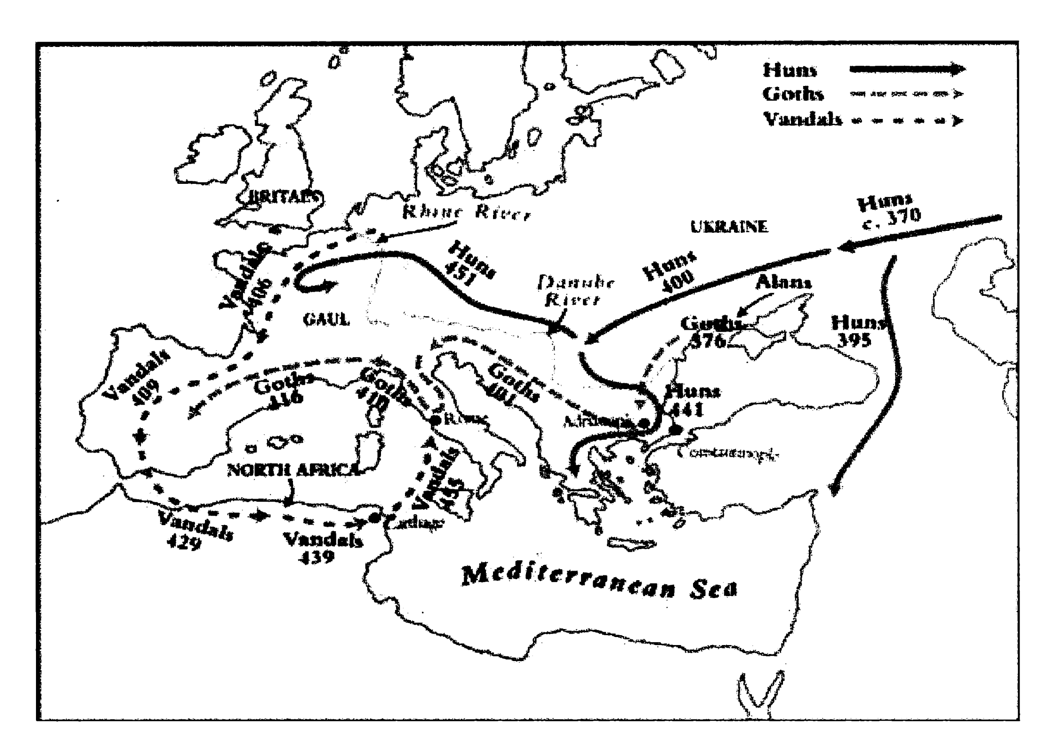
لقد كانت إمبراطورية جديدة تتشكَّل. روما نفسها لم تعد العاصمة، وتحوَّل صنع القرار في المقاطعات الغربية إلىٰ القواعد الأمامية بالقرب من الحدود، وفي المقاطعات الشرقية إلىٰ المدينة الجديدة الكبرىٰ في القسطنطينية. ولكن في النهاية، لم يستطع أي قدر من إعادة التنظيم أن يحل المشاكل الأساسية للإمبراطورية. لقد اهتز التكامل الاقتصادي الذي تمَّ بناؤه علىٰ مدار العديد من القرون. وانتعشت المقاطعات الشرقية في القرن الرابع، مع انتشار تجارة الحبوب والنبيذ وزيت الزيتون مجددًا في أسفل التسلسل الهرمي، ولكنَّ المقاطعات الغربية انساقت باطراد خارج هذه الدائرة. وتشبث الإقطاعيون الكبار في أوروبا الغربية بمعظم القوىٰ التي اكتسبوها خلال القرن الثالث، رابطين «فلاحيهم» بالأرض ومحصنين إياهم من ضرائب الدولة. ولمَّا أصبحت المقاطعات أكثر اكتفاء ذاتيًا، تضاءلت المدن حولها وتدهورت التجارة والصناعة أكثر، وكانت صعوبة المشاكل تتجاوز قدرة أي إمبراطور لمملكة تشين. واستمر انخفاض درجات الحرارة وهطول الأمطار، وأيًا كان ما قاله الحكام أو فعلوه، ظلت الأوبئة تقتل البشر، والشعوب علىٰ السهول تواصل تقدمها.

في وقت ما في عام ٣٥٠ تقريبًا، انتقلت مجموعة تطلق علىٰ نفسها اسم «الهون» إلىٰ الشرق عبر كازاخستان، فتسببوا في تساقط أحجار الدومينو في كل اتجاه (الشكل ٦ - ٧). ويظل سبب إثارة هذا الخوف محل نقاش. لقد لام الكُتّاب القدماء فظاعتهم المحضة، وأشار العلماء المتأخرون إلىٰ الأقواس القوية التي كانوا يستخدمونها. ومرة أخرىٰ، لا يسعنا إلَّا أن نلاحظ العواقب. فالبدو الذين فرّوا من الهون اقتحموا الهند وإيران أو تراجعوا غربًا إلىٰ هنغاريا الحديثة. وقد جعل ذلك الحياة جحيمًا للجرمانيين الذين استقروا باعتبارهم مزارعين في ما يُعرف الآن برومانيا بعد غارات القرن الثالث علىٰ الإمبراطورية. وبعد مناقشات داخلية ساخنة، طلب الجرمانيون من روما ملجأ داخل الإمبراطورية.

لم يكن ثمة جديد في هذا الوضع. فقد طوَّرت روما سياسة تشبه إلىٰ حد ما سياسة هان (استخدام البرابرة لمحاربة البرابرة)، والاعتراف بشكل روتيني بالمهاجرين، وتقسيمهم إلىٰ مجموعات صغيرة، ثم إلحاقهم بالجيش، أو توطينهم

في المزارع أو بيعهم كرقيق. وقد خفف ذلك بالتزامن من الضغط علىٰ الحدود، ورفع عدد الجيوش، وزاد من عدد السكان الخاضعين للضريبة. وقد كان للمهاجرين -بطبيعة الحال- في كثير من الأحيان أفكار مختلفة؛ إذ فضلوا الاستقرار في مجموعة داخل الإمبراطورية ومواصلة العيش كما كانوا من قبل. ولمنع حدوث ذلك، احتاجت روما دائمًا إلىٰ قوات كافية في متناول اليد لإخافة المهاجرين.

كان وصول الجرمانيين إلىٰ نهر الدانوب في صيف عام ٣٧٦ بمثابة نداء قوي للإمبراطور فالنس الذي حكم المقاطعات الشرقية من القسطنطينية. فمن جهة، كان الكثير من القوط مستقرين هناك. ومن جهة أخرىٰ، كانت المكاسب المحتملة من قبول مثل هؤلاء المهاجرين هائلة، وقد يصعب علىٰ أيّة حال إبقاؤهم خارجًا، لا سيما وأنَّ أفضل جنود فالنس كانوا يحاربون بلاد فارس. ولذلك قرر قبول الجرمانيين، ولكن بمجرد عبورهم النهر، خسر قادته علىٰ الأرض، الذين اهتموا بالتربح أكثر من تشتيت المهاجرين. فثار الجرمانيون الجوعىٰ ونهبوا ما يُعرف الآن ببلغاريا وطالبوا بوطن داخل الإمبراطورية. وفي ضربة قاسية، رفض فالنس التفاوض. وحرَّر جيشه من الجبهة الفارسية ثمَّ عاد مسرعًا إلىٰ البلقان فقط ليقرر قرارًا آخر سيئًا؛ فبدأ القتال بدلًا من انتظار حليفه إمبراطور أوروبا الغربية لجلب المزيد من المساعدة.



(الشكل ٦ - ٧). سياط الإله: قدوم الهون وانهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية (٣٧٦ - ٤٧٦). تظهر الخريطة ثلاث مجموعات رئيسة من الغزاة (الهون بالخطوط المصمتة، والقوط بالخطوط المتقطعة، والمخربون بالخطوط المنقطة) مع تواريخ تحركاتهم الرئيسة. كان هناك عدد لا يحصىٰ من الهجرات الأصغر أيضًا.

وقد حارب حوالي ١٥ ألفًا من الرومان (كثير منهم هم قوط مهاجرون) تقريبًا عشرين ألفًا من القوط في آب/أغسطس عام ٣٧٨. ولقي ثلثا الرومان -بما في ذلك فالنس- حتفهم في الهزيمة اللاحقة. وبالعودة إلىٰ أيام أغسطس، فإنَّ فقدان عشرة آلاف جندي لا يكاد يكون مسجلًا، وكانت روما لتدعو فيالق أكثر وتنتقم انتقامًا مروعًا. وبحلول عام ٣٧٨، أصبح علىٰ الإمبراطورية عبء كبير، حيث لم يكن ممكنًا استبدال هؤلاء الرجال. كان القوط داخل الإمبراطورية ولكن خارج السيطرة.

وتلىٰ ذلك أزمة غريبة. فلم يكن القوط بدوًا مثل تشيونجنو، يسرقون الأشياء ثمَّ يهربون إلىٰ السهول، ولم يكونوا مستعمرين مثل الفرس يجيئون لضم

المقاطعات. لقد أرادوا نحت منطقة خاصة بهم في الإمبراطورية. ولكن دون عربات حصار للاندفاع للمدن، أو الإدارة لتشغيلها، كانوا بحاجة إلىٰ التعاون الروماني وعندما لم يأتِ ذلك تجمَّعوا حول البلقان، محاولين ابتزاز القسطنطينية لمنحهم مملكة خاصة بهم. وبافتقاره للفيالق لطردهم، تذرَّع الإمبراطور الشرقي بالفقر وقام برشوة الجرمانيين، واشتبك معهم، حتىٰ عام ٤٠١م، وأقنعهم الإمبراطور بأنهم سيحصلون علىٰ صفقة أفضل بالهجرة غربًا، وعندئذٍ أصبحوا مشكلة حليفه إمبراطور الغرب.

لكن كل تلك الدبلوماسية الذكية لم تعد مهمة في عام ٤٠٥ عندما واصل الهون تقدمهم باتجاه الغرب. وسقطت المزيد من أحجار الدومينو وضغطت القبائل الجرمانية علىٰ الحدود في روما. وقامت الفيالق التي تكونت الآن بصورة رئيسة من المهاجرين الجرمان وكانت بقيادة جنرال نصف ألماني - بإرهاقهم في حملات دموية، وحاك الدبلوماسيون فخاخًا أكثر، ولكن عشية العام الجديد، في عام ٤٠٦، فقدت روما أخيرًا السيطرة عندما تدفق الآلاف من الجرمان عبر نهر الراين المتجمد. لم يكن هناك المزيد من الجيوش لإيقافهم. وانتشر المهاجرون، آخذين كل شيء. وقد وصف الشاعر سيدونيوس -الذي كان من أغنىٰ الأغنياء- الإساءات التي كان عليه معاناتها عندما قامت عصابة بالانتقال إلىٰ مقاطعته في الغال. وكتب إلىٰ نظير له يعيش في روما: «لماذا تسألني أغنية لفينوس، بينما أنا عالق وسط رعاع طويلي الشعر، ومجبر علىٰ سماع كلام جرمانيّ، محتفظ بوجه بلا ملامح بينما أمدح أغاني برغنديّ قبيح يضع زبدة نتنة في شعره؟ . . . أنت ليس لديك رائحة الثوم والبصل من عشر وجبات إفطار يتجشأ بها فوك في وقت مبكر كل صباح». ولربما حسد الكثيرون سيدونيوس رغم ذلك. وقد أوضح شاهد عيان آخر الأمور بفظاظة أكثر: «الغال مليئة بدخان إحراق جثة ميت».

وثار الجيش في بريطانيا، وتولىٰ مسؤولية الدفاع عن نفسه، وفي عام ٤٠٧ انضم إليه ما تبقىٰ من جيوش الراين. لكن كل شيء كان يتداعىٰ حينئذٍ. ومع المعاناة لكسب انتباه الإمبراطور الروماني وسط العديد من الكوارث، غزا القوط إيطاليا في عام ٤٠٨، وفي عام ٤١٠ سلبوا روما نفسها. وقد حصلوا علىٰ

صفقتهم أخيرًا في عام ٤١٦، عندما وافق الإمبراطور علىٰ إبقاء القوط علىٰ جزء من إقليمهم إذا ساعدوه علىٰ إخراج الجرمانيين وتنظيم المغتصبين خارج الغال وأسبانيا.

لقد أصبحت حدود روما مثل حدود الصين، أماكن استقر فيها البرابرة (كما كانت كل إمبراطورية تسمي الغرباء)، ثم دفع لهم أجرًا إمبرياليًا للدفاع عن الإمبراطورية ضد المزيد من البرابرة الذين حاولوا اقتحامها. لقد كان وضعًا خاسرًا من جميع النواحي بالنسبة إلىٰ الأباطرة. عندما هزم الجرمانيون (الذين يحاربون الآن في جانب روما) القوط المخربين (الذين يحاربون ضد روما) في أسبانيا عام ٤٢٩، عبر المخربون إلىٰ شمال أفريقيا. قد يبدو من الصعب تصديق ذلك، لكن ما يعرف اليوم بالصحراء التونسية كانت وقتها سلة غذاء روما، فيها عشرة آلاف ميل مربع من الحقول المرويّة، وتصدِّر نصف مليون طن من الحبوب إلىٰ إيطاليا سنويًا. ولولا هذا الغذاء لجاعت مدينة روما، ولولا الضرائب المفروضة عليها لما استطاعت الدفع للجرمانيين للقتال ضد الجرمانيين.

ولمدة عشر سنوات أخرىٰ تمكَّن جنرالات ودبلوماسيون رومانيون عباقرة (كانوا من سلالة ألمانية غالبًا) من الإبقاء علىٰ صد المخربين وعلىٰ إبقاء أجزاء من الغال وأسبانيا موالية لهم. ولكن في عام ٤٣٩ انهار كل شيء. واجتاح المخربون المنطقة الخلفية الزراعية في قرطاج وتجسَّدت أسوأ سيناريوهات روما فجأة.

كان الحكَّام في القسطنطينية في كثير من الأحيان سعداء جدًّا لرؤية منافسيهم المحتملين في روما يعانون، لكنَّ احتمال تفكّك الأجزاء الغربية من الإمبراطورية قد نبّه الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، فحشد قوة كبيرة للمساعدة في تحرير ما يُعرف الآن بتونس. ولكن بينما تجمعت قواته في عام ٤٤١، أتت ضربة أخرىٰ. ظهر ملك جديد للهون، أتيلا -«سوط الإله» كما أطلق عليه المؤلفون الرومان- في البلقان، قائدًا ليس فقط خيَّالة شرسة، وإنَّما قافلة حصار حديثة. (ربما جلب إليه اللاجئون من القسطنطينية هذه التقنية، وقد وصف سفير من قِبل ثيودوسيوس هذا الشعور بالاغتراب وكأنه في منفىٰ في بلاط أتيلا في عام ٤٤٩).

وفي ظلّ تفتت مدنه تحت المدقات القوطية والهانية، أوقف ثيودوسيوس الهجوم علىٰ المخربين. لقد أنقذ القسطنطينية، ولكن هذه الأيام كانت مظلمة بالنسبة إلىٰ روما. فلا يزال بالمدينة ربما ٨٠٠ ألف ساكن في عام ٤٠٠؛ وفي عام ٤٥٠ تقريبًا رحل ثلاثة أرباعهم. وجفت الإيرادات الضريبية وتبخر الجيش، وكلما أصبحت الأمور أكثر سوءًا حاول المغتصبون الاستيلاء علىٰ العرش. واختار أتيلا هذه اللحظة ليقرر أنَّه قد اعتصر البلقان، فتحوَّل إلىٰ الغرب. وتمكَّن القائد نصف القوطيِّ للجيوش الغربية لروما من إقناع الجرمانيين بأنَّ أتيلا كان عدوهم أيضًا، وبقيادة قوة جرمانية بالكامل تقريبًا، منح أتيلا الهزيمة الوحيدة في مسيرته. ومات أتيلا قبل أن يتمكن من الانتقام. وبسبب انفجار أحد أوعيته الدموية في أثناء مجلس شرب للاحتفال بعرسه الأخير، ذهب سوط الإله لمقابلة خالقه.

ومن دون أتيلا، تفكَّكت إمبراطورية الهون، تاركةً الحرية للأباطرة في القسطنطينية في محاولة جمع شمل الإمبراطورية الغربية مرة أخرىٰ، ولكن حتىٰ عام ٤٦٧ لم تتضح جميع المتطلبات المتمثلة في الأموال والسفن ورجل روماني قوي يستحق التأييد. وبإفراغ خزينة بلده، بعث الإمبراطور الشرقي أدميراله باسيليكوس بألف سفينة لاستعادة شمال أفريقيا ومداواة العمود الفقري المالي للمقاطعات الغربية.

وفي النهاية، أصبح مصير الإمبراطورية في مهب الريح. وفي صيف عام ٤٦٨، وبينما اقترب باسكيلوس من قرطاج، كان ينبغي أن يهب النسيم غربًا علىٰ طول شاطئ شمال أفريقيا، دافعًا بسفن باسكيلوس. ولكن في اللحظة الأخيرة جنحت الريح، ثمَّ حاصرتهم ضد الساحل. وأرسل المخربون مراكب كبيرة حارقة إلىٰ السفن الرومانية المكتظة، وهي نفس تكتيكات السفن الإنجليزية التي تمَّ استخدامها ضد الأرمادا الأسبانية في عام ١٥٨٨؛ إذ يمكن أن تتحول السفن القديمة مع الحبال الجافة سريعة الاشتعال والمنصات الخشبية والأشرعة القماشية إلىٰ جحيم مستعر في غضون ثوانٍ معدودة. خسر الرومان نظامهم وتوازنهم، حيث تكدسوا فوق بعضهم البعض وأصابهم الفزع وهم يدفعون السفن الحارقة

بعيدًا بالسواري، ولم يكن ثمة مجال للفرار. وجاء المخربون للقتال، وانتهىٰ كل شيء.

في الفصل الخامس تحدثت عن نظرية الرجل العظيم التاريخية التي تقوم علىٰ أنَّ العباقرة الأفذاذ مثل تغلث فلاسر إمبراطور مملكة آشور، وليس القوىٰ غير الشخصية الكبرىٰ مثل تجارة العالم القديم - هي التي تشكّل الأحداث. يُعدّ الجانب الآخر من العملة التي أحد وجهيها الرجل العظيم، هو نظرية الأحمق الأخرق التاريخية: علينا أن نسأل ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان باسيليكوس يتمتع بالفطنة كي لا يتم حصاره علىٰ الساحل؟ لربما استعاد قرطاج علىٰ الأرجح، ولكن هل كان ذلك ليُعيد المحور المالي لإيطاليا وشمال أفريقيا؟ ربما؛ لقد مكث المخربون في أفريقيا أقل من أربعين عامًا، وربما تمكّنت الإمبراطورية الرومانية من إعادة بناء الهياكل الاقتصادية بسرعة. أو ربما مجددًا، لا. لقد وضع أودواكر (Odoacer)، ملك القوط وأقوىٰ الرجال الأقوياء في أوروبا الغربية، عينيه علىٰ إيطاليا. وفي عام ٤٧٦، كتب إلىٰ زينو إمبراطور القسطنطينية، ملاحظًا أنَّ العالم لم يعد بحاجة إلىٰ إمبراطورين. وردَّ زينو بأنَّ مجد زينو كافٍ للجميع، وقال مقترحًا: إنَّه سيحكم إيطاليا -بإخلاص بالطبع- بالنيابة عنه. وتفهم زينو تمامًا أنَّ أودواكر يُعلن سيطرته علىٰ إيطاليا، ولكنَّه علم أنَّ الأمر لم يعد يستحق الجدل.

وبذلك جاءت نهاية روما، ليس بضربة قوية ولكن مع صرخة مريرة. هل كان زينو سيكون في وضع أفضل للدفاع عن إيطاليا لو استعاد باسيليكوس قرطاج ممَّا كان عليه في عام ٤٧٦؟ أشكّ في ذلك. في تلك المرحلة كان الحفاظ علىٰ إمبراطورية بامتداد البحر المتوسط يفوق طاقة أي أحد. ولم تستطع تكتيكات القرن الخامس المحمومة ولا التسييس أو القتل تغيير وقائع التدهور الاقتصادي والتفكُّك السياسي والهجرات. لقد انتهىٰ العالم الكلاسيكي.

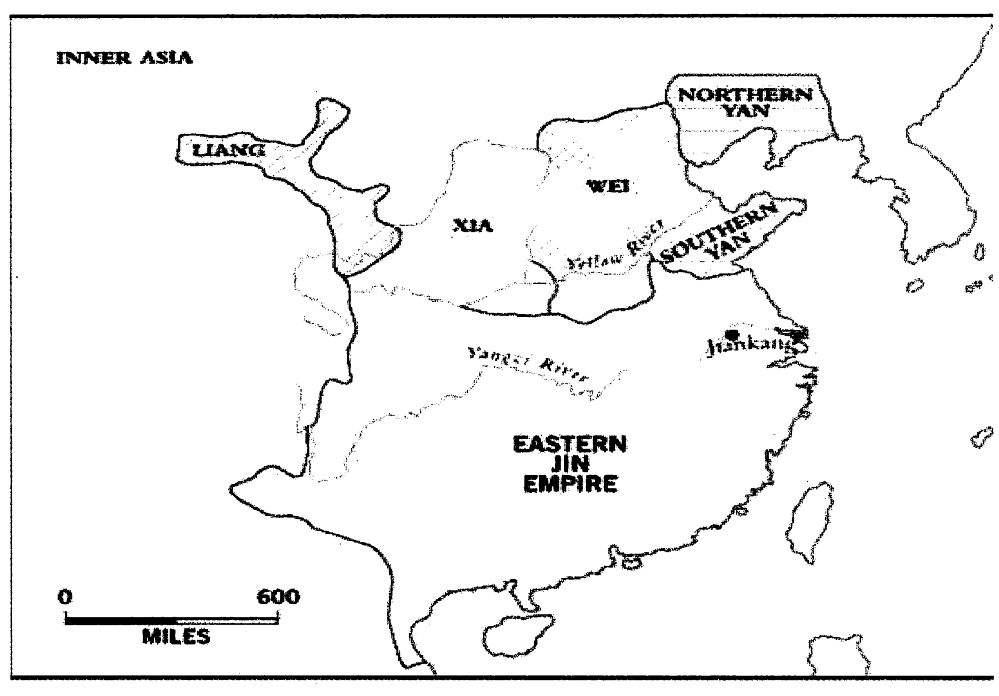
عوالم صغيرة

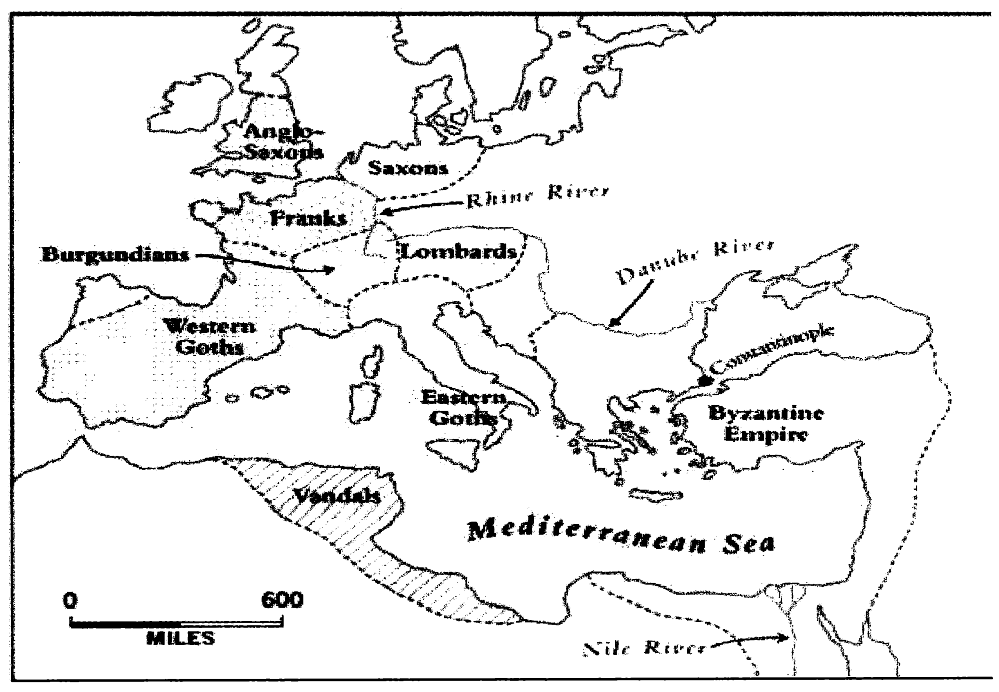
انقسم المركزان الشرقي والغربي إلىٰ نصفين. ففي الصين حكمت أسرة جين الشرقية الجزء الجنوبي من الإمبراطورية القديمة، ولكنَّهم رأوا أنفسهم الورثة الشرعيين للمملكة ككل. وبالمثل، في الغرب حكمت الإمبراطورية البيزنطية (وسميت كذلك لأن عاصمتها القسطنطينية قامت في موقع مدينة بيزنطة القديمة) الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية القديمة، ولكنَّها زعمت سيطرتها عليها بالكامل (الشكل ٦ - ٨).

وظلت إمبراطوريات جين الشرقية والبيزنطية دولًا متطورة لديها بيروقراطيون وضرائب وجيوش تحصل علىٰ رواتب. وشمل كل منهما مدنًا كبرىٰ، وعلماء واسعي المعرفة، وكانت مزارع وادي النيل واليانغتسي أغنىٰ من أي وقت مضىٰ. ولكن لا يمكن مقارنة أي منهما بالإمبراطورية الرومانية أو الهان في ذروتهما. لقد كانت عوالمهم تتقلص في الوقت الذي خرجت فيه شمال الصين وأوروبا الغربية من المركزين.

لقد أذاب كل من المرض والهجرة والحرب شبكات المديرين والتجَّار والأموال التي ربطت كلًا من الإمبراطوريات السابقة في وحدة متماسكة. وكان الملوك الجدد في القرن الرابع في شمال الصين والخامس في أوروبا الغربية أقل تطورًا، وكانوا يتناولون الولائم مع أمرائهم المحاربين طويلي الشعر في الأبهاء الكبيرة التي استولوا عليها. وكان هؤلاء الملوك سعداء بأخذ الضرائب من الفلاحين المغزوين، ولكن من دون جيوش تحصل علىٰ رواتب، لم يكونوا بحاجة علىٰ الإطلاق لهذه الإيرادات. لقد كانوا أغنياء بالفعل، وكانوا بالتأكيد

أقوياء؛ وقد بدت محاولة إدارة البيروقراطيات وانتزاع الضرائب من أتباعهم المتفلتين علىٰ ما يبدو في كثير من الأحيان مشكلة أكبر ممَّا تستحق.





الشكل (٦ – ٨) الشرق والغرب المنقسمان: (أ) جين الشرقية وممالك المهاجرين الصينية الرئيسة تقريبًا في عام ٤٠٠. (ب) بيزنطة وممالك المهاجرين الرئيسة في أوروبا نحو عام ٥٠٠.

هربت العديد من الأسر الأرستقراطية الغنية من شمال الصين والإمبراطورية الرومانية الغربية إلىٰ جيانكانغ أو القسطنطينية مع كنوزهم، لكن عددًا أكبر من الأسر بقي وسط أنقاض الإمبراطوريات القديمة، ربما علىٰ مضض كما فعل سيدونيوس، وعقدوا ما يمكنهم من اتفاقيات مع أسيادهم الجدد. لقد قايضوا أثوابهم الحريرية مقابل سراويل صوفية، وأشعارهم الكلاسيكية مقابل الصيد، وتماثلوا مع الواقع الجديد.

وتبيَّن أنَّ بعض هذه الحقائق جيدة إلىٰ حد ما. فقد اختفىٰ الأرستقراطيون فاحشو الثراء الذين تواجدوا في السابق، وتناثرت أملاكهم علىٰ مدىٰ إمبراطورية الهان بالكامل أو الإمبراطورية الرومانية، بل وحتىٰ مع اقتصار أملاكهم علىٰ مملكة واحدة، ظلَّ بعض الإقطاعيين أثرياء بشكل مذهل. وتزاوجت النخب الرومانية والصينية القديمة مع الغازين، وانتقلوا من المدن المزدحمة إلىٰ الضيع الإقطاعية الكبرىٰ في الريف.

وبينما تسارع النزوح تجاه الدول الأقل تطورًا في القرن الرابع الميلادي في شمال الصين وفي القرن الخامس في أوروبا الغربية، سمح الملوك للنبلاء بالاستحواذ علىٰ الفوائض التي كان يسلمها الفلاحون سابقًا إلىٰ مأمور الضرائب باعتبارها إيجارًا. وفي هذه الحالة، ربما زادت هذه الفوائض في حين قلَّ عدد السكان واستطاع الفلاحون تركيز جهودهم علىٰ أفضل الأراضي. كما خسر الفلاحون بعض المهارات التي تعلّموها عبر القرون بالفعل، لكنَّهم اكتسبوا مهارات جديدة. وتحسنت أساليب الصرف في وادي اليانغتسي وتطوَّر الري في وادي النيل بعد عام ٣٠٠، وتضاعفت المحاريث التي تجرها الثيران في شمال الصين، وانتشرت المحاريث المُقلّبة وآلات البذر والطواحين المائية عبر أوروبا الغربية.

ولكن رغم أُبّهة النبلاء ومهارة الفلاحين، كان التقلص المطرد في صفوف البيروقراطيين والتجّار والمديرين الذين ازدهروا كثيرًا في ظلّ إمبراطوريات الرومانية والهان يعني أنَّ الاقتصادات الأكبر واصلت انكماشها في كلا طرفي أوروبا الآسيوية. وكانت تلك الشخصيات في كثير من الأحيان مرتشية وغير مؤهلة، لكنَّها قدَّمت خدمة كبيرة: فمن خلال نقل البضائع استغلوا مزايا المناطق المختلفة، ومن دون تلك الوساطات لأصبحت الاقتصادات ذات طابع محلي وأكثر توجهًا نحو الكفاف.

كما انحسرت طرق التجارة وتقلصت المدن. وصُدم زوار الجنوب بتفكّك مدن شمال الصين، وفي بعض مناطق الإمبراطورية الرومانية القديمة كان التدهور حادًا جدًّا لدرجة أنَّ الشعراء تساءلوا عما إذا كانت أنقاض الأحجار العظيمة التي تتآكل حولهم قد بناها بشر علىٰ الإطلاق. ويقول بيت شعر إنجليزي في عام ٧٠٠ تقريبًا: «أسقف منهوشة، وأبراج تتداعىٰ، تلك هي أعمال العمالقة، لقد أصاب العفن بوابات الأبراج، ثمة عفن علىٰ المدافع، وحواجز الاستحمام محطمة، والأسقف مدمرة. لقد أكل الدهر عليها وشرب».

وفي القرن الأول تفاخر الإمبراطور أغسطس بأنَّه قد حوَّل مدينة روما من مدينة الطوب إلىٰ مدينة رخامية، ولكن بحلول القرن الخامس عادت أوروبا إلىٰ عالم الخشب بأكواخ خشبية بسيطة متناثرة في الأماكن المفتوحة بين هياكل الأبنية المفتتة للمنازل الرومانية القديمة. والآن أصبحنا نعرف الكثير عن هذه المنازل المتواضعة، ولكنني عندما بدأت الذهاب للحفر في إنجلترا في السبعينيات، كان الحفارون ما زالوا يكافحون من أجل تطوير تقنيات حريصة بما يكفي لاستعادة أي آثار لتلك المنازل.

في هذا العالم الأكثر بساطة، فقدت العملة والحساب والكتابة استخداماتهم. فلم يعد هناك تعدين للنحاس لإمداد دور سك العملة، وقد حاول ملوك شمال الصين في البداية التقليل من المحتوىٰ المعدني لعملاتهم، (لدرجة ما يدعيه البعض أنَّ العملات كانت خفيفة جدًّا بحيث يمكنها أن تطفو علىٰ الماء)، ثم أوقفت إصدار العملات المعدنية تمامًا. وتوقف حفظ الحسابات والتعداد

السكاني وتعفنت المكتبات. لقد كانت سيرورة متفاوتة، امتدت عبر قرون، ولكن في معظم الجزء الشمالي من الصين وأوروبا الغربية انخفض تعداد السكان واستحوذت من جديد النباتات الشوكية والغابات على الحقول، وصارت الحياة أقصر وأكثر وضاعة.

الصبر والجُبن

كيف حدث ذلك؟ بالنسبة إلىٰ معظم الشرقيين والغربيين كانت الإجابة واضحة: لقد أخفقت الطرق القديمة والآلهة القديمة.

في الصين، بمجرد انهيار الحدود، اتهم النقَّاد هان بفقدان تفويض السماء، وهزَّت العقائد الألفيّة الشافية الأرض، وبدأت أكثر العقول المبدعة داخل النخبة المثقفة بالشك في يقينيات الكونفوشية. وأصبح «حكماء بستان الخيزران السبعة»، وهي مجموعة من المفكرين الأحرار في القرن الثالث - رموزًا لوعي جديد، تمر أيامهم في المحادثة والشعر والموسيقىٰ والشرب والمخدرات بدلًا من دراسة الكلاسيكيات وخدمة الدولة. وحسب إحدىٰ الروايات، ضُبط الحكيم روان جي في انتهاك فاضح لآداب السلوك (التمشي مع شقيقة زوجته من دون ارتباط)، فضحك قائلًا: «بالتأكيد لا تعني الإشارة إلىٰ أنَّ تقاليد لي -مؤسس الكونفوشية- تنطبق عليّ؟»، واستفاض في الموضوع فقال:

«هل شاهدتم يومًا القمل الذي يسكن السراويل؟ إنَّه يقفز في أعماق الخياطة، ويخفي نفسه في حشوة القطن، ويعتقد أنَّ لديه مكانًا رغيدًا للسكنىٰ. عندما يمشون لا يخاطرون بالذهاب خارج حافة الخياطة، وعندما يتحركون يحرصون ألَّا يخرجوا من رجل السروال، وهم يعتقدون أنهم قد حافظوا علىٰ قواعد اللياقة. ولكن عندما يتم كيّ السراويل تغزو النيران التلال . . . ثمَّ لا يستطيع القمل الذي يسكن السراويل الفرار. فما هو الفرق بين رجل يعيش في نطاق عالم ضيق والقمل الذي يسكن السراويل؟».

وقد بدت الجديّة الأخلاقية لشعراء بلاط الهان الآن هزليّة؛ وقال الجيل الجديد إنَّه من الأفضل كثيرًا الانسحاب إلىٰ المراعي وكتابة أوصاف غنائية للحدائق والغابات، أو حتىٰ أن تصبح ناسكًا. وربما آثر الملحدون الذين كانوا مشغولين للغاية بالتراجع إلىٰ الجبال البعيدة لعب دور النسَّاك في حدائق بيوتهم، أو - مثل وانغ داو، رئيس الوزراء في بلاط جيانكانغ في حوالي عام ٣٠٠ - استطاعوا توظيف ناسكين بالنيابة عنهم. وقد بدأ الرسَّامون بالاحتفال بالجبال البرية، وفي القرن الرابع رفع غو كايزهي العظيم المناظر الطبيعية إلىٰ مكانة النموذج الفني الرائد. لقد أعلىٰ الحكماء السبعة وغيرهم من المنظِّرين من الشكل علىٰ حساب المضمون، دارسين تقنيات الرسم والكتابة بدلًا من رسالتهما الأخلاقية.

وكانت ثورة القرن الثالث ضد التقاليد سلبية بدرجة كبيرة، ساخرةً ورافضةً التقاليد دون تقديم بدائل إيجابية، ولكن تغيَّر كل ذلك بنهاية القرن. وقبل ذلك بثمانمائة عام عندما كانت الكونفوشية والطاوية قد بدأتا لتوهما في الصين، كانت البوذية تنتشر عبر جنوب آسيا. وجلب التبادل التجاري للعالم القديم الاهتمام الصيني بالبوذية، علىٰ الأرجح عندما اختلط تجَّار الشرق وجنوب آسيا في واحات آسيا الوسطىٰ، وذُكر ذلك للمرة الأولىٰ في نص صيني في عام ٦٥. واستغل بعض المثقفين الكوزموبوليتانيين هٰذا الأمر، ولكنَّه بقي طويلًا بين الكثير من الفلسفات الغريبة التي أتت من السهول.

وتغيَّر ذلك في أواخر القرن الثالث، ويرجع الفضل في ذلك إلىٰ حد كبير إلىٰ الراهب المترجم من آسيا الوسطىٰ دهارماراسكا، الذي كان يسافر بانتظام بين تشانغان وواحة دونهوانغ العظيمة، وقد جذب المثقفين الصينيين بالترجمات الجديدة للنصوص البوذية واضعًا المفاهيم الهندية في لغة ذات معنىٰ في الصين. ومثل معظم حكماء العصر المحوري، لم يدوِّن بوذا أي شيء، ممَّا ترك مجالًا للنقاش حول ماهية رسالته. وقد أكَّدت أقدم أشكال البوذية علىٰ التأمل المنضبط والوعي الذاتي، لكنَّ التفسير الذي طوَّره دهارماراسكا والمعروف باسم «الماهايانا» جعل الخلاص أقل مشقة. لقد قدَّم دهارماراسكا بوذا ليس باعتباره

ساعيًا روحيًا، بل باعتباره تجسيدًا لمبدأ التنوير الخالد. وأصرَّ دهارماراسكا أنَّ بوذا الأصلي كان الأول ضمن سلسلة من البوذيين في هذا العالم والعوالم الأخرىٰ. وكان أولئك البوذيون محاطين بمجموعة من الكيانات السماوية الأخرىٰ، ولا سيما البوداسف (Bodhisattvas)، وهم بشريون كانوا في طريقهم إلىٰ التنوير، ولكنَّهم أجَّلوا النيرفانا (السعادة القصوىٰ في البوذية) لمساعدة البشريين الأقل، كي يصبحوا أكثر مثالية ويهربوا من دورة إعادة الولادة والمعاناة.

وكان يمكن أن تصبح بوذية ماياهانا متطرفة. فمعظم الطوائف البوذية اعتقدت أنَّ هناك مستقبلًا حيث يقود بوذا الجماهير إلىٰ الحرية يومًا ما، إلَّا أنَّه ابتداء من عام ٤٠١ عرَّفت مجموعة من الصينيين المخلصين المتطرفين أنفسهم بأنهم من البوذيين، وكوَّنوا فريقًا مع العصابات والفلاحين المتمردين و/أو المسؤولين الغاضبين، وثاروا بهدف جلب الخلاص للجميع. وانتهىٰ كل ذلك بشكل دموي.

لكن أهم مساهمة للماهايانا كانت تبسيط المتطلبات المرهقة في الديانة البوذية التقليدية، وفتح باب الخلاص للجميع. وبحلول القرن السادس كان كل ما تطلبته «تعاليم رجل السماء» الشهيرة هو أن يطوف المتعبدون حول تماثيل بوذا والبوداسف، وعبادة الآثار (ولا سيما العديد من الأسنان والعظام وآنية التسول التي قيل إنها تعود إلىٰ بوذا)، وأن ينشدوا، ويتصرفوا بعطف ويتشبثوا بنكران الذات، ويتبعوا المبادئ الخمسة (يجب عليك ألَّا تقتل، أو تسرق، أو ترتكب الزنا، أو تشرب الخمر، أو تكذب). وأقرَّ معلموها بأنَّ ذلك لن يؤدي في الواقع إلىٰ النيرفانا، ولكنَّه سيجلب الصحة والنماء وولادة جديدة متصاعدة. وقد ذهبت «مدرسة الأرض الطاهرة» إلىٰ أبعد من ذلك، فزعمت أنَّه عندما يموت المؤمنون فإنَّ بوداسف الرحمة بالعمل مع أميد البوذي سيتدخلون في دورة إعادة الولادة ويرشدونهم إلىٰ جنة غربية، حيث يمكنهم مواصلة السعادة القصوىٰ بعيدًا عن هموم هذا العالم.

وشرع الساعون الهنود خلف النيرفانا في هذا الطريق بانتظام، متوسلين في أثناء سيرهم. وكان المسافر القديس (علىٰ عكس الشعراء الأثرياء النُسّاك) غريبًا

عن التقاليد الصينية، ولم يلحق بالركب، لكنَّ طريقًا هنديًا آخر تجاه التنوير -الرهبانية- قد حقق ذلك. وفي حوالي عام ٣٦٥، دوَّن طاوان -وهو بوذي صيني أصلي مدربٌ باعتباره كونفوشيوسيًا، بدلًا من مهاجر وسط آسيوي- قانونًا رهبانيًا لملاءمة المجتمع الصيني. سيحلق الرهبان شعرهم ويقطع كل من الرهبان والراهبات علىٰ نفسوهم عهدًا بالعفة والطاعة، ويكسبون معاشهم عن طريق العمل بينما يبحثون عن الخلاص من خلال الصلاة والتأمل والتعلم والمعرفة. كان من الممكن أن تصبح الرهبانية متطرفة مثل البوذية الألفية: فقد آذىٰ العديد من الرهبان والراهبات أنفسهم، مقلّدين -بشكل صغير- التضحية بالنفس عند البوداسف، كما أنَّ بعضهم حرق نفسه حيًّا، أحيانًا أمام الآلاف من الجماهير، للخلاص من آثام الآخرين. وبالرغم من ذلك، كانت مساهمة طاوان الكبيرة هي صياغة الرهبانية في مؤسسة دينية تستطيع جزئيًا ملء الفراغ التنظيمي الذي وُجد في الصين بانهيار مؤسسات الدولة في القرن الرابع الميلادي. لقد شيَّدت الأديرة الطواحين المائية، وجمعت الأموال، ونظَّمت الدفاعات. وفضلًا عن كونها مراكز للعبادة، فقد أصبحت واحات استقرار، بل وجزر ثروات حيث أعطاهم الأغنياء من الإخوة في الدين أراضي وسكنًا، وفرَّ الفلاحون المجردون من الممتلكات لمساعدتهم وحمايتهم. وقد ظهرت الآلاف من الأديرة في القرن الخامس، وكتب مسؤول في عام ٥٠٩: «اليوم لا يوجد أي مكان دون دير».

كان الغزو البوذي للصين ملحوظًا. لقد كان هناك بضع مئات من البوذيين في عام ٦٥، لكن بحلول القرن السادس غدا معظم الصينيين -ربما ٣٠ مليون شخص- مؤمنين. وما يثير الدهشة أكثر هو أنَّه علىٰ الطرف الآخر من أوروبا وآسيا الآسيوية كانت ديانة جديدة، هي الديانة المسيحية، تزداد بسرعة أكبر.

لم تنهَر التقاليد الكلاسيكية مبكرًا في الغرب مثل الشرق، ربما لأنَّ الحدود الرومانية قد صمدت لوقت أطول، وبالرغم من أنَّ العقائد الشفائية الغربية برزت بعد انتشار أوبئة عام ١٦٠، فإنها لم تحبذ أنواع الثورة العارمة المشهورة في الرؤىٰ الصينية. ولكنَّ الفوضىٰ في القرن الثالث زعزعت الطرق القديمة في الغرب. فالتماثيل المنحوتة في جميع أنحاء الإمبراطورية تشهد بصمت علىٰ مزاج

جديد، والتخلي عن مبادئ الفنون الكلاسيكية الفخمة لصالح أشكال ذات تناسق غريب بعيون ضخمة وشاخصة لأعلىٰ تحدق فيما يبدو في مكان آخر أفضل. لقد قدَّمت الأديان الجديدة في أطراف الإمبراطورية الشرقية - إيزيس في مصر، والشمس التي لا تهزم في سورية، وميثرا (الذي تمرّغ أتباعه في دماء الثيران في غرف تحت الأرض) في إيران، والمسيحية في فلسطين - قدَّم كل منها حياة أبديّة. لقد طالب الناس بالخلاص من هذا العالم المضطرب، وليس بتفسير منطقي له.

واستجاب بعض الفلاسفة لأزمة القيم بمحاولة إظهار أنَّ معرفة القرون الماضية كانت لا تزال ملائمة. في أيامهم، كان العلماء مثل فرفوريوس الصوري، وأفلوطين (ربما يُعدّ الأخير أعظم مفكر غربي منذ أرسطو) اللذين أعادا صياغة التقليد الأفلاطوني ليناسب العصور الحديثة، كانت أسماؤهم من بين الأسماء الكبيرة في الغرب، ولكنَّ المفكرين بحثوا بكثرة عن إجابات جديدة تمامًا.

لقد قدَّمت المسيحية شيئًا ما للجميع في هذا العصر المضطرب. فعلىٰ غرار بوذية ماياهانا، كانت المسيحية منحنىٰ جديدًا لفكرة قديمة في العصر المحوري، موفرة رؤية للفكر المحوري أكثر انسجامًا مع احتياجات اليوم. وقد حلَّت المسيحية محلّ الكتب اليهودية المقدسة، معلنةً أنَّ مؤسسها يسوع هو «الماشيح» المتنبأ به في اليهودية. يمكننا أن نسمي كلًّا من الماياهانا والمسيحية أديان «الموجة الثانية» المحورية، موفرة أنواعًا جديدة من الخلاص لأناس أكثر من أسلافهم في الموجة الأولىٰ. وبالقدر نفسه من الأهمية، كان كل من الدينين الجديدين مسكونيًا. فلم ينتمِ يسوع ولا بوذا إلىٰ شعب مختار، ولكنَّهم جاؤوا لإنقاذ الجميع.

ولم يدوِّن المسيح، علىٰ غرار بوذا، نصوصًا مقدسة، وفي أوائل الخمسينيات كان الحواري بولس (الذي لم يقابل المسيح) يكافح من أجل جعل المسيحيين يتفقون علىٰ نقاط أساسية قليلة عن ماهية المسيحية في الواقع. واتفق معظم الأتباع علىٰ وجوب تعميدهم، والصلاة للرب، ونبذ الآلهة الأخرىٰ،

والأكل سويًا يوم الأحد، وأداء الأعمال الصالحة، ولكن فيما وراء هذه المقدمات الأساسية، كان كل شيء ممكنًا تقريبًا. واعتقد البعض أنَّ الإله في العهد القديم لم يكن سوىٰ الأخير (والأدنىٰ) ضمن سلسلة من الآلهة السابقين. ورأىٰ آخرون أنَّ العالم شرير؛ ولذا وجب أن يكون الرب الخالق شريرًا أيضًا. أو ربما كان هناك إلهان، أحدهما يهودي حاقد، والآخر أب يسوع الطيب كليًّا (ولكنَّه مجهول). أو ربما هناك يسوعان، واحد روحانيّ فرَّ من الصلب، والثاني جسديّ مات علىٰ الصليب. واقترح بعضهم أنه ربما كان يسوع امرأة، وربما المرأة متساوية مع الرجل. وربما يهيمن وحي جديد علىٰ آخر قديم. وربما المجيء الثاني ليسوع كان وشيكًا، وفي هذه الحالة ينبغي ألَّا يمارس أي مسيحي الجنس؛ وربما قُرب مجيئه يعني أنَّه يجب علىٰ المسيحيين ممارسة الحب بحرية؛ أو ربما فقط الناس الذين استشهدوا بطرق بشعة سيذهبون إلىٰ الجنة، وفي هذه الحالة ليس للجنس صلة بالموضوع.

كان ثمة اعتقاد علىٰ نطاق واسع أنَّ بوذا كان براغماتيًا بشأن السمو، موصيًا الناس باستخدام أي من أفكاره التي تساعد علىٰ تجاهل البقية. لم تكن الإشكالية في المسارات المتعددة إلىٰ نيرفانا. ولكن بالنسبة إلىٰ المسيحيين، فإنَّ دخول الجنة قد توقف علىٰ معرفة الله والمسيح وفعل ما يريدونه، وبالتالي أجبرت فوضىٰ التفسيرات المؤمنين علىٰ الدخول في جنون تعريف الذات. وفي أواخر القرن الثاني الميلادي، اتفقت الأغلبية علىٰ أنه يجب أن يكون هناك عدد من الأساقفة الذين سيُعاملون علىٰ أنهم ينحدرون من جهة الحواريين الأصليين مع السلطة للحكم علىٰ ما عناه يسوع. أمَّا الدعاة ذوو الأفكار المتطرفة فقد لُعنوا وبقوا طي النسيان، وتبلور العهد الجديد، وأغلقت نافذة الوحي. ولم يستطع أحد أن يتلاعب بالكتاب المقدس، ولم يمكن لأحد أن يسمع من الروح القدس إلَّا إذا قال الأساقفة بذلك، ولم يحق لأحد أن يتخلىٰ عن الجنس في إطار الزواج أو الاستشهاد، إلا إذا أرادوا ذلك.

بقيت الكثير من نقاط الخلاف، ولكن بحلول عام ٢٠٠ أصبحت المسيحية عقيدة منضبطة لديها قواعد واضحة (بمنطقية) حول الخلاص. ومثل الماياهانا،

كانت مميَّزة بما يكفي لتنال الاهتمام، موفرةً مسارات عملية للخلاص في الأوقات العصيبة، ورغم ذلك مألوفة بما يكفي لتُفهم. بل واقترح اليونانيون المثقفون أنَّ الموجة الثانية من الديانة المسيحية لا تختلف كثيرًا عن الموجة الأولىٰ من الفلسفة المحورية في نهاية الأمر: فأفلاطون (موسىٰ الأثيني، كما دعاه البعض) قد تعقل طريقه إلىٰ الحقيقة، أمَّا المسيحيون فكُشفت لهم الحقيقة، ولكنَّها كانت هي ذات الحقيقة علىٰ السواء.

وعندما بدأت مؤسسات الدولة المتطورة في التفتت، كان الأساقفة في وضع جيد لملء الفجوة، وحشد أتباعهم لإعادة بناء أسوار المدينة وإصلاح الطرق والتفاوض مع المغيرين الجرمان. وفي الريف أصبح الرجال المقدسون البارزون والنابذون للعالم بشدة كأي بوذي، الزعماء المحليين. وقد حقق أحد المتقشفين شهرة علىٰ مستوىٰ الإمبراطورية بالعيش في قبر في الصحراء المصرية، فكان يصوم ويحارب الشيطان ويرتدي كل الوقت قميصًا من الشعر. وأصرَّ أكبر مروج له أنَّه « لم يستحم بالماء ليبرئ نفسه من القذارة، ولم يغسل قدميه أبدًا». وقد مكث رجل مقدس آخر علىٰ عمود بطول خمسين قدمًا في سورية لمدة أربعين عامًا بينما كان المهاجرون الآخرونِ يرتدون جلود الحيوانات ويأكلون الحشائش، ويعيشون (باختصار، وبافتراض) باعتبارهم «حمقىٰ المسيح».

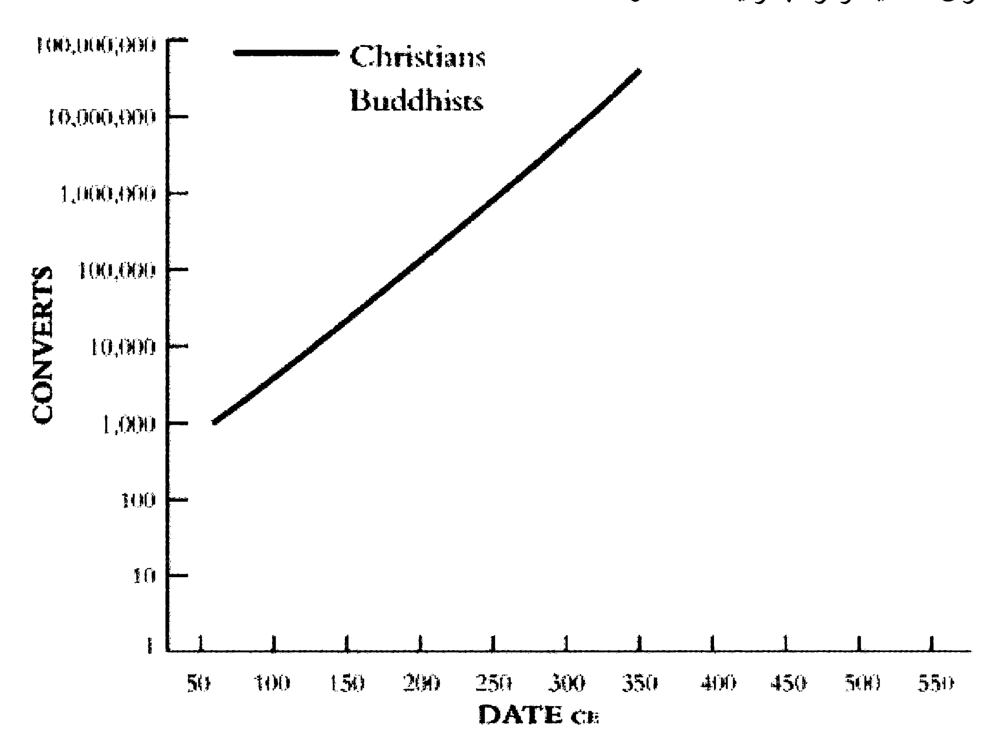
وقد أدهش كل ذلك النبلاء الرومان باعتباره غريبًا، وحتىٰ المسيحيون أنفسهم قد قلقوا بشأن رجال البرية الذين ألهموا الأتباع المتطرفين ولم يستجيبوا إلَّا للرب. وفي عام ٣٢٠، وجد قديس مصري يدعي باخوميوس حلًّا، فجمع الناسكين المحليين في أول دير مسيحي، حيث سعوا للخلاص من خلال العمل والصلاة تحت انضباط صارم. لم يعلم كل من باخوميوس وطاوان الصيني شيئًا عن بعضهما البعض، ولكن أديرتهما كانت متشابهة علىٰ نحو مدهش، وكان لهما العواقب الاجتماعية نفسها. وفي القرن الخامس الميلادي رسَّخت الأديرة المسيحية في كثير من الأحيان الاقتصادات المحلية عندما انهارت الهياكل الأكبر، وأصبحت مراكز التعلم عندما اضمحلت المعرفة الكلاسيكية، وقدَّمت ميليشيا رهبانية للحفاظ علىٰ السلام.

لقد انتشرت المسيحية أسرع من البوذية. وعندما مات المسيح، في حوالي عام ٣٢، كان لديه بضع مئات من الأتباع، وبحلول عام ٣٩١، عندما أعلن الإمبراطور ثيودوسيوس المسيحية باعتبارها الدين الشرعي الوحيد، تحوَّل للمسيحية أكثر من ٣٠ مليون روماني، علىٰ الرغم من أنَّ «التحول» هو بالضرورة كلمة فضفاضة. وبالرغم من أنَّ بعض النساء المتعلمات والرجال المتعلمين تعليمًا عاليًا كانوا يعانون من أهوال الريبة، وكانوا يعملون عبر التضمينات العقائدية بكثير من المنطق والصرامة قبل تقبُّل الدين الجديد، فمن حولهم حشود بقوة الآلاف يمكن استمالتها من قِبل الأعمال العجيبة المسيحية أو البوذية في مساء واحد. وبالتالي، فإنَّ جميع الإحصاءات تظل أوليّة. ونحن ببساطة لا نعرف، وربما لن نعرف أبدًا بالضبط الوقت والمكان اللذين تسارعت فيهما العجلة ومتىٰ تباطأت، ولكن لأننا نعلم أنَّ المسيحية والبوذية بدأتا ببضع مئات من الأتباع وفي النهاية ازدادوا بمقدار ٣٠ مليونًا، فإن (الشكل ٦ - ٩) يبيِّن لنا متوسط معدلات النمو لكل دين عبر القرون، ممهدةً في جميع أنحاء الصين والإمبراطورية الرومانية. وفي المتوسط، ازدادت البوذية الصينية بنسبة (٢,٣٪) سنويًا، وهو ما يعني أنَّها ضاعفت أتباعها كل ثلاثين عامًا ولكن المسيحية نمت بنسبة (٣,٤٪)، متضاعفة كل عشرين عامًا.

تسير الخطوط في (الشكل ٦ - ٩) لأعلىٰ، في حين أنَّ خطوط التطور الاجتماعي في (الشكل ٦ - ١) تنحدر باطراد. والسؤال الواضح -هل هناك علاقة بالفعل؟- فرض نفسه علىٰ إدوارد غيبون في عام ١٧٨١م. ولاحظ غيبون: «قد نسمع دون مفاجاة أو فضيحة أنَّ إدخال . . . المسيحية كان له بعض التأثير في تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها»، لكن ذلك التأثير -كما اعتقد غيبون- ليس من النوع الذي يحب المسيحيون أنفسهم تصديقه. وأشار بدلًا من ذلك إلىٰ أنَّ المسيحية أضعفت قوة الإمبراطورية:

«لقد بشَّر رجال الدين بتعاليم الصبر والجُبن، وتم تثبيط فضائل المجتمع الفعَّالة، ودُفنت البقايا الأخيرة للروح العسكرية في الدير: تمَّ تكريس جزء كبير من الثروة العامة والخاصة للمطالب الخادعة للأعمال الخيرية والإخلاص، وتم

تبديد مرتبات الجنود علىٰ الأغلبية غير المجدية من الجنسين، الذين لم يمكنهم سوىٰ أن يعترفوا بمزايا العفة والعفاف».



(الشكل ٦ - ٩). إحصاء الأرواح: نمو المسيحية والبوذية الصينية، بافتراض انتظام معدلات التغيير. المقياس الرأسي لوغاريتمي، كما في الأشكال (٣ - ٦، و٣ - ٧)؛ ولذا ينتج متوسط معدلات النمو المنتظم (٣,٤٪ سنويًا للمسيحية، و٢,٣٪ للبوذية) خطوطًا مستقيمة.

كان كل من الصبر والجُبن فضائل بوذية كما كانت مسيحية؛ لذا هل يمكننا أن نمُد جدال غيبون ونخلُص إلىٰ أنَّ الأفكار -انتصار الكهانة علىٰ السياسة، والوحي علىٰ المنطق- هي التي أنهت العالم الكلاسيكي، ممَّا أدىٰ إلىٰ انخفاض التطور الاجتماعي قرنًا بعد قرن، وأيضًا تضييق الفجوة بين الشرق والغرب؟

لا يمكن تجاهل السؤال بخفة، لكنني أعتقد أنَّ الإجابة هي: لا. فعلىٰ غرار الموجة الأولىٰ من الفكر المحوري، فإنَّ ديانات الموجة الثانية كانت نتيجة أكثر من كونها سببًا للتغييرات التي طرأت علىٰ التطور الاجتماعي. لقد برزت

اليهودية والفلسفة الإغريقية، والكونفوشية، والطاوية، والبوذية واليانية كلها ما بين أعوام (٦٠٠ و٣٠٠ ق. م)، عندما تخطىٰ التطور الاجتماعي المستوىٰ (حوالي ٢٤ نقطة)، والتي انهار فيها المركز الغربي حوالي عام ١٢٠٠ ق. م. لقد كانوا استجابات لإعادة تنظيم الدول المتطورة وتحرُّر العالم من الأوهام. لقد كانت موجة الأديان المحورية الثانية صورة انعكاسية لهذا الأمر: فبينما زعزعت تجارة العالم القديم الدول المتطورة، وجد الناس مبتغاهم في فكر الموجة الأولىٰ وقد سدَّت أديان الخلاص تلك الفجوة.

ولو لم يكن متوسط معدلات النمو في (الشكل ٦ - ٩) غير دقيق بشكل كبير، فقد كانت المسيحية والبوذية الصينية هامشية قبل تجارة العالم القديم. وبحلول عام ٢٥٠، كان هناك حوالي مليون مسيحي (حوالي روماني من بين كل ٤٠ شخصًا) ممَّا بدا كنوع من نقطة علىٰ حافة الهاوية. لقد بدأت المسيحية الآن إزعاج الأباطرة بجدية؛ فلم تكن تتنافس علىٰ الإيرادات في إحدىٰ أحلك اللحظات في روما، لكن إلهها الغيور استبعد تسوية الصيرورة للألوهية بعد الموت التي ساعدت الحكَّام علىٰ تسويغ سلطتهم لفترة طويلة. وبدأ الإمبراطور ديكيوس اضطهادات عظيمة في عام ٢٥٠، قبيل قتل الجرمانيين له. وفي عام ٢٥٧ بدأ فاليريان مذبحة أخرىٰ، ليقتله الفرس أيضًا.

وعلىٰ الرغم من هذه الأمثلة غير المشجعة والحقيقة الواضحة أنَّ استخدام القوة لترهيب أناس كانت أعظم أهدافهم هي الموت بفظاعة مع اقتراب السيد المسيح من الخسارة في معركته، حاول الأباطرة القضاء علىٰ المسيحية لمدة خمسين سنة أخرىٰ. ولكن مع تزايد متوسط الأبرشيات بنحو (٣,٤٪) سنويًا، أخذت معجزة المصلحة المركبة عضوية الكنائس إلىٰ حوالي ١٠ ملايين عضو، أي رُبع سكان الإمبراطورية في عام ٣١٠. وكانت تلك نقطة تحول ثانية: وفي عام ٣١٢، في خضم حرب أهلية، آمن الإمبراطور قسطنطين بالرب. وبدلًا من محاولة قمع المسيحية، عمل قسطنطين علىٰ تسوية جديدة، مثلما عمل أسلافه علىٰ تسويات مع فكر الموجة الأولىٰ المحوري المدمِّر بالقدر نفسه. ونقل

قسطنطين ثروة هائلة إلىٰ الكنيسة، وجعلها معفية من الضرائب، كما اعترف بتسلسلها الهرمي. وفي المقابل اعترفت الكنيسة بقسطنطين.

وعلىٰ مدىٰ الثمانين عامًا التالية تحوَّل بقية السكان للمسيحية واستعمر الأرستقراطيون قيادة الكنيسة، واستولت الكنيسة والدولة فيما بينهما علىٰ معابد الإمبراطورية الوثنية - ربما كانت تلك أكبر إعادة توزيع للثروة شهدها العالم. كانت المسيحية فكرة قد حان وقتها. وتحوَّل ملك أرمينيا للمسيحية في عام ٣١٠، كما فعل حاكم أثيوبيا في عام ٣٤٠. ولم يفعل ملوك الفرس، وربما كان ذلك لأنَّ الديانة الزارادشتية الإيرانية كانت تتطور علىٰ غرار المسيحية علىٰ أية حال.

ويبدو أنَّ البوذية الصينية قد مرت بنقاط تحول مماثلة. في (الشكل ٦ - ٩) وصلت لعلامة المليون في حوالي عام ٤٠٠، ولكن لأنَّ الظروف كانت مختلفة جدًّا في شمال الصين وجنوبها، كان لازدياد أتباع الدين آثار مختلفة في كل منطقة. ففي الشمال غير المستقر كان البوذيون يميلون إلىٰ التجمع للأمن، ممَّا جعلهم عُرضة للضغط الملكي. وبحلول عام ٤٠٠ أقامت مملكة وي الشمالية -أقوىٰ الممالك- إدارة حكومية للإشراف علىٰ البوذيين، وفي عام ٤٤٦ بدأت في اضطهادهم. وفي جنوب الصين، علىٰ العكس من ذلك، بدلًا من التمركز في العاصمة في جيانكانغ، انتشر الرهبان البوذيون في وادي يانجزي، حيث كان بوسعهم جعل الأرستقراطيين يحمونهم من البلاط وإجبار الأباطرة علىٰ تقديم تنازلات. وفي عام ٤٠٢ تقبَّل الإمبراطور أنَّ الرهبان ليس عليهم أن ينحنوا في حضوره.

يشير (الشكل ٦ - ٩) إلىٰ أنَّه ربما كان هناك ١٠ ملايين بوذي في الصين بحلول عام ٥٠٠، وعندما وصل الدين الجديد إلىٰ ثاني نقطة تحول، اتخذ الحكَّام (في شمال الصين وكذلك جنوبها) القرار نفسه الذي اتخذه قسطنطين ووزعوا الثروة، وقاموا بالإعفاءات الضريبية، وتكريم قادة الجماعات. وفي الجنوب دعم الإمبراطور المتدين بحق (وودي) المهرجانات البوذية الكبيرة، ومنع تقديم الحيوانات كقرابين (كان الناس يتناولون معجنات مقلدة بدلًا من ذلك)،

وبعثوا رسلًا إلىٰ الهند لجمع الكتب المقدسة. وفي المقابل اعترفت التراتبيّة البوذية بوودي باعتباره بوديساتفًا، مخلّصًا ومنقذًا لشعبه. وحصل ملوك وي الشمالية علىٰ صفقة أفضل، بتأكيد حق اختيار رؤسائهم الرهبان وجعل الرهبان يعلنون بأنَّ الملوك هم تجسد لبوذا. لربما جعل ذلك قسطنطين غيورًا.

لم يتسبب كل من الصبر والجُبن في تدهور وسقوط الشرق أو الغرب. لكن مفارقة التطور الاجتماعي قد فعلت ذلك. لقد اتبع التدهور والسقوط النص المكتوب في الغرب في عام ١٢٠٠ ق. م، عندما أطلق المركز المتوسِّع سلاسل من الأحداث لم يستطع أحد السيطرة عليها، ولكنَّ المقياس المنحدر للتطور الاجتماعي بحلول عام ١٦٠ أعاد كتابة النص، محولًا الجغرافيا بالربط بين الشرق والغرب معًا عبر آسيا الوسطىٰ وأنشأ تجارة للعالم القديم للميكروبات والمهاجرين.

وبحلول عام ١٦٠ كانت إمبراطوريات العالم الكلاسيكي أكبر وأقوىٰ من ممالك المركز الغربي في عام ١٢٠٠ ق. م، ولكن كذلك كانت الاضطرابات لدرجة أن نسختها البدائية من العولمة قد انطلقت. ولم تستطع الإمبراطوريات الكلاسيكية التعامل مع القوات التي أطلقتها. وقرنًا بعد قرن، انحدر التطور الاجتماعي. وفقدت الكتابة والمدن والضرائب والبيروقراطيون قيمتهم، فالثوابت القديمة أصبحت بلا معنىٰ، وبحث مائة مليون شخص عن الخلاص من عالم ذاهب في طريق خاطئ عن طريق الانعطافات الجديدة إلىٰ الحكمة القديمة. وعلىٰ غرار الموجة الأولىٰ من الفكر المحوري، كانت أفكار الموجة الثانية خطرة، متحدية سلطة الأزواج علىٰ الزوجات والأغنياء علىٰ الفقراء، والملوك علىٰ شعوبهم، ولكن -مرة أخرىٰ- عقد الأقوياء السلام مع المخربين، معيدين توزيع السلطة والثروة في أثناء هذه العملية. وبحلول عام ٥٠٠، كانت الدول أضعف، والكنائس أقوىٰ، لكن الحياة استمرت.

ولو كنت أكتب هذا الكتاب في عام ٥٠٠ لربما كنت من أنصار نظرية المدىٰ الطويل. كل ألفية أو نحو ذلك، كما لاحظت، كان التطور الاجتماعي يقوِّض نفسه، ولكل خطوتين أو ثلاث خطوات للأمام كان هناك خطوة إلىٰ

الوراء. لقد كانت الاضطرابات تتزايد، مؤثرة الآن في الغرب مثلما أثَّرت في الشرق، ولكنَّ النمط كان واضحًا. وخلال المضي إلىٰ الأمام، تباعد الغرب عن الشرق، وخلال العودة إلىٰ الوراء، ضاقت الفجوة، وسوف تمضي قُدمًا في سلسلة من الأمواج تبلغ كل منها ذروتها أعلىٰ من سابقتها، مع تباين وتيرة قيادة الغرب ولكن حتميتها بالنهاية.

لكنني إذا كنت أكتب هذا الكتاب بعد قرن، كانت الأمور ستبدو مختلفة تمامًا.

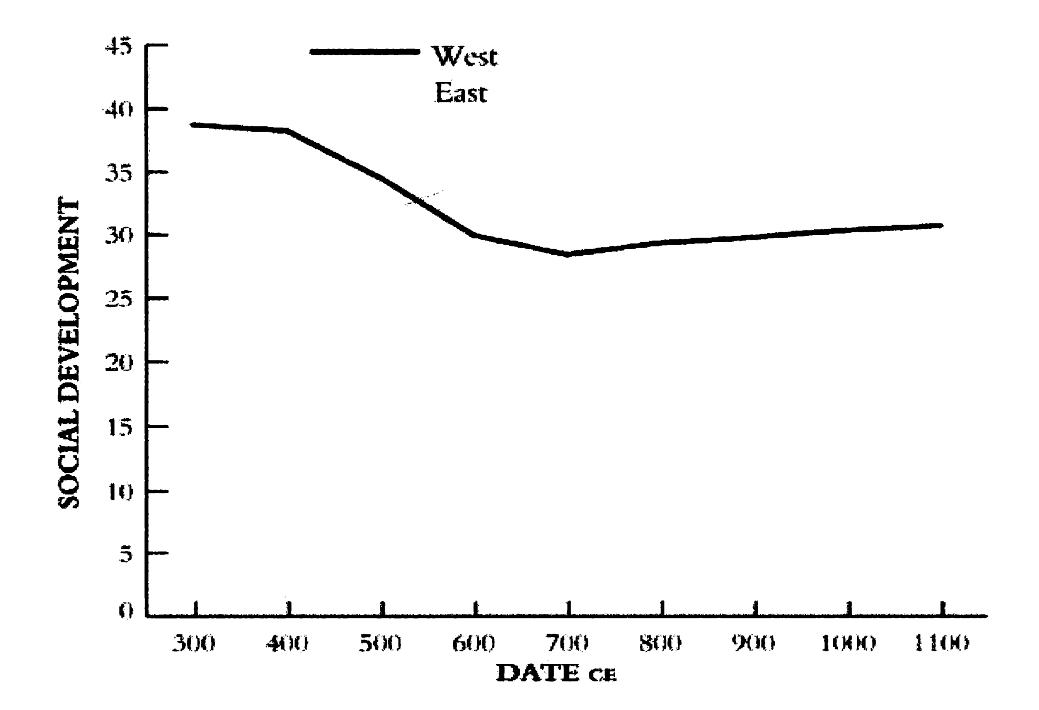
(٧)

عصر الشرق

الشرق يتخذ الصدارة

حسب الشكل (٧ - ١)، كان عام ٥٤١ هو أحد أشهر الأعوام في التاريخ. وفي هذا العام (أو في وقت ما في حوالي منتصف القرن السادس، علىٰ أية حال، بما يتيح قدرًا من هامش الخطأ في المؤشر) تجاوزت نتائج التطور الاجتماعي الشرقي نتائجَ الغرب، ممَّا أنهىٰ نمطًا امتد لمدة ١٤ ألف عام، ودحض بقوة أي نظرية بسيطة طويلة الأجل وحتمية عن أسباب هيمنة الغرب. وبحلول عام ٧٠٠، كانت نتائج الشرق تزيد بمقدار الثُلث عن نتائج الغرب، وبحلول عام ١١٠٠ كانت الفجوة -التي تبلغ نسبة ٤٠٪ تقريبًا- أكبر ممَّا كانت عليه منذ ٢,٥٠٠ سنة (عندما كان الغرب يمتلك الأفضلية).

لماذا تقدم الشرق في القرن السادس عشر؟ ولماذا ارتفعت نتائج تطوره الاجتماعي إلىٰ مستوىٰ عالٍ جدًّا علىٰ مدىٰ نصف الألفية التالي بينما تأخر الغرب باطراد؟ تُعدّ هذه الأسئلة جوهرية لشرح لماذا يُهيمن الغرب الآن، وبينما نحاول الإجابة عليها في هذا الفصل، سنواجه كثيرًا من الأبطال والأوغاد والعباقرة والأغبياء. وخلف تلك الدراما، سنجد الحقيقة البسيطة نفسها التي أدت إلىٰ الاختلافات بين الشرق والغرب علىٰ مدىٰ القصة كلها، وهي: الجغرافيا.

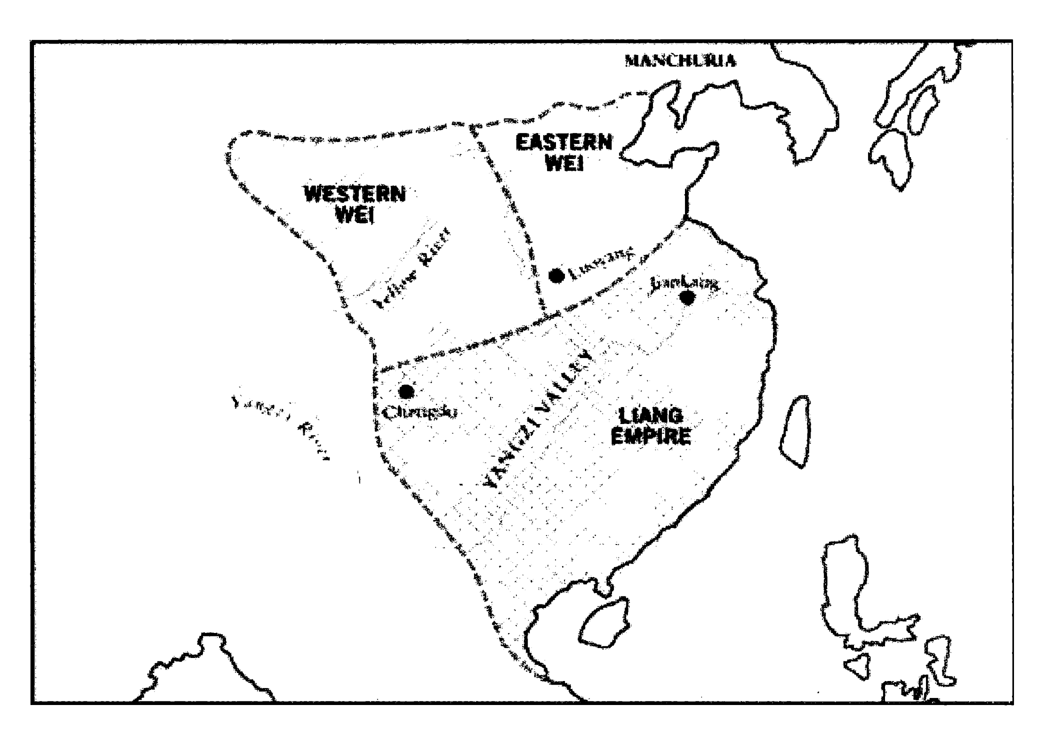


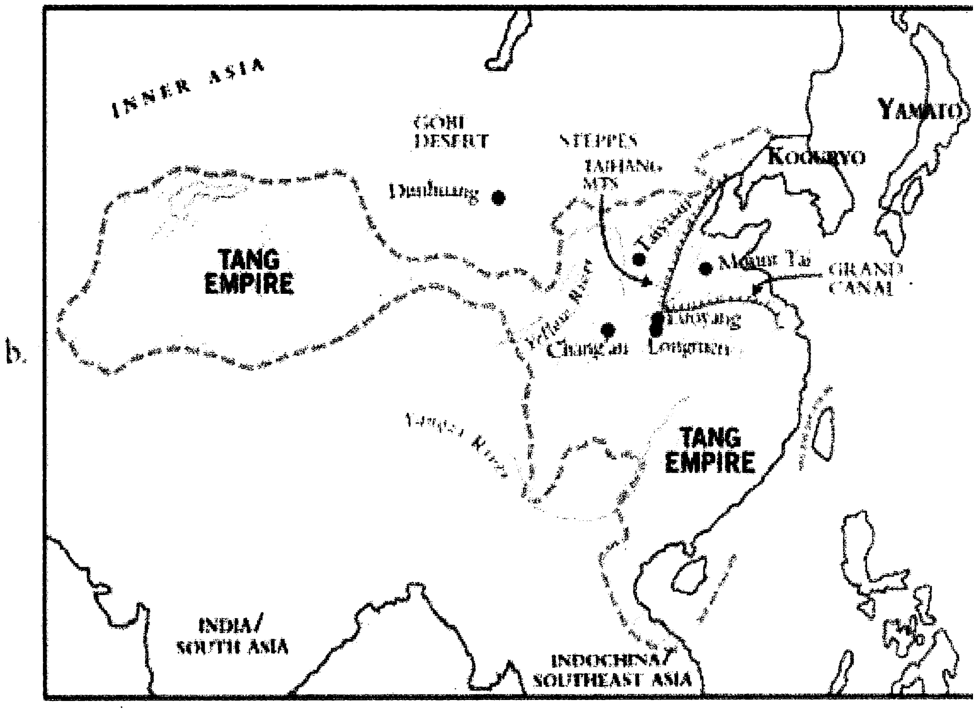
(الشكل ٧ - ١). التحوُّل الكبير: يحوِّل الشرق تدهوره، ولأول مرة في التاريخ يتفوق علىٰ الغرب.

الحرب والأرز

بدأ التطور الشرقي في السقوط قبل عام ١٠٠، واستمر ذلك حتىٰ عام ٤٠٠، وبحلول الوقت الذي وصل فيه إلىٰ القاع، فقد ظلَّ أقل ممَّا كان عليه منذ خمسة قرون. لقد أخفقت الدول وأُحرقت المدن، وهزَّت الهجرة -من آسيا الداخلية إلىٰ شمال الصين، ومن شمال الصين إلىٰ جنوبها- المركز الغربي كله. ولكن من قلب تلك الهجرات بدأ الإحياء الشرقي.

في الفصلين (٤ و٦) رأينا كيف حوّل ارتفاع التطور الاجتماعي الجغرافيا، ممَّا كشف عن مزايا التخلف وفتح طرقًا سريعة عبر المحيطات والسهول. ومنذ القرن الثالث، اتضح أنَّ هذه العلاقة قد عملت في اتجاه معاكس، وحوَّل هبوط التطور الاجتماعي الجغرافيا أيضًا. ومع انكماش المدن الرومانية والصينية، انخفضت معرفة القراءة والكتابة، وضعفت الجيوش وانخفضت مستويات المعيشة، وتقلصت المراكز جغرافيًا، وتفسر الاختلافات بين هذه التقلصات إلىٰ حد كبير لماذا تعافىٰ التطور الاجتماعي الشرقي بسرعة بينما ظلت التنمية الغربية تتساقط في القرن الثامن.





(الشكل ٧ - ٢). الشرق ينتعش (٤٠٠ - ٧٠٠)، يبيِّن (الشكل ٧ - ٢): (أ) دول غرب وي، وشرق وي، وأسرة ليانغ في الصين في عام ٥٤١. ووحدت

أسرة «سوي» الأمم الثلاث في عام ٥٨٩. ويبيِّن (الشكل ٧ - ٢): (ب) أقصىٰ حدّ لإمبراطورية تانغ في حوالي عام ٧٠٠.

ورأينا أيضًا في الفصل السادس أنَّ القلب القديم للمركز الشرقي في وادي النهر الأصفر قد تجزأ إلىٰ دول متحاربة بعد عام ٣٠٠، وفرَّ ملايين الشماليين إلىٰ الجنوب. وقد حوَّلت الهجرة الأراضي في جنوب نهر اليانغتسي من أطراف متخلفة كما كانت في أوقات الهان إلىٰ جبهة جديدة. ودخل اللاجئون في بيئة غريبة، رطبة ودافئة، حيث نمت سهول القمح والدخن بنسبة ضئيلة لكنَّ الأرز ازدهر. وكان جزء كبير من هذه الأراضي قليل التوطن، غالبًا من قِبل أشخاص تختلف عاداتهم ولغاتهم عن تلك التي جلبها المهاجرون الصينيون. ووسط هذا النوع من العنف وسوء التعامل اللذين يميزان معظم عمليات الاستيلاء الاستعمارية علىٰ الأراضي، دفع العدد الضخم من المهاجرين والتنظيم الشديد السكان السابقين للعودة.

وبين أعوام (٢٨٠ و٤٦٤) تضاعف عدد المسجلين باعتبارهم من دافعي الضرائب جنوب اليانغتسي إلىٰ خمس مرات، لكن الهجرة لم تجلب المزيد من الناس إلىٰ الجنوب فحسب؛ بل جلبت أيضًا تقنيات جديدة. ووفقًا لدليل زراعي يُعرف باسم «الأساليب الأساسية لعامة الناس»، اشتهر ما لا يقل عن ٣٧ نوعًا من الأرز، وأصبح الاستزراع (زراعة الشتلات في أحواض خاصة لمدة ستة أسابيع، ثم نقلها إلىٰ حقول مغمورة بالماء) هو القاعدة. وكان هذا عملًا مُرهقًا، ولكنَّه كفل زيادة المحاصيل. يشرح دليل «الأساليب الأساسية» كيف تسمح الأسمدة للمزارعين بالعمل في الحقول باستمرار بدلًا من تركها بلا فلاحة، وكيف جعلت الطواحين المائية -خصوصًا في الأديرة البوذية، التي كثيرًا ما بُنيت بجانب الأنهار الجبلية السريعة وكثيرًا ما كانت تمتلك رأس المال من أجل الاستثمارات الكبيرة- جعلت طحن الحبوب لعمل الدقيق وطحن الأرز واستخراج الزيت من الحبوب عمليات زهيدة التكلفة. وكانت النتيجة هي التطور التدريجي لحقل جديد من الفرص الزراعية، مثل الذي أنشأه الرومان عندما احتلوا أوروبا الغربية في

القرن الأول قبل الميلاد. وتدريجيًا، علىٰ مدىٰ قرون، تحوَّل تخلف الريف الشمالي إلىٰ ميزة.

وبدأ النقل الرخيص بإكمال الغذاء الرخيص. ولم تكن أنهار الصين بديلًا عن الممرات المائية التي منحها البحر المتوسط إلىٰ روما، لكن شيئًا فشيئًا عوّض الذكاء البشري هذا النقص. ولم يُقدّم علماء الآثار إحصاءات مثل تلك التي عن أعداد السفن الرومانية المتحطمة، لكنَّ تسجيلات مدوَّنة تشير إلىٰ أنَّ السفن قد صارت أكبر وأسرع. وظهرت سفن التجديف في اليانغتسي في عام ٤٩٠، ومن تشنجدو إلىٰ المدن المتنامية كان الأرز هو مصدر الغذاء الرئيس، حيث شجعت الأسواق الحضرية المحاصيل النقدية مثل الشاي (الذي ذُكر لأول مرة في الوثائق الباقية في حوالي عام ٢٧٠، وأصبح ترفًا منتشرًا بحلول عام٥٠٠). وأصبح النبلاء والتجَّار والأديرة جميعًا أغنياء من الإيجارات، والشحن، والطحن في وادي اليانغتسي.

لكنَّ البلاط الحاكم في جيانكانغ لم يصبح ثريًا. وفي هذا الصدد كانت حالته أقل تشابهًا بالإمبراطورية الرومانية من آشور في القرن الثامن، حينما استولىٰ الحكَّام والإقطاعيون، وليس الدولة، علىٰ ثمار النمو السكاني والتجارة - إلىٰ أن غيّر تغلث فلاسر الأمور. بيدَ أنَّ جنوب الصين لم يكن لديه أبدًا قائد مثل تغلث فلاسر. وكل حين حاول إمبراطور ما السيطرة علىٰ الأرستقراطية، بل وحاولوا استعادة الشمال، ولكن هذه الجهود انهارت دومًا في الحرب الأهلية. وبين أعوام (٣١٧ و٥٨٩) حكمت خمس أُسر متتابعة (بطراز مُعيّن) من جيانكانغ.

ويشير دليل «الأساليب الأساسية» إلىٰ بقاء زراعة متطورة في الشمال في عام ٥٣٠، لكن قبل ذلك بكثير اختفت التجارة لمسافات طويلة والعملة، في الوقت الذي ازداد فيه نهب اللصوص. في البداية أنتج هذا الانهيار فوضىٰ سياسية أكثر من الجنوب، ولكن بدأ الحكَّام الجدد تدريجيًا بفرض النظام علىٰ الشمال. وأهمهم كان «زيانبي» الذي قدم من أطراف السهول في منشوريا. وعلىٰ غرار الفرس الذين اجتاحوا إيران منذ ستة قرون مضت، فقد دمج زيانبي بين

التقاليد البدوية والزراعية، وحارب لأجيال من أجل نخبة خيَّالة في وقت انتزاع أموال الحماية من الفلاحين.

وفي أنقاض شمال الصين في عام ٣٨٠ أقام زيانبي دولتهم الخاصة، وأطلق عليها اسم «وي الشمالية». وبدلًا من مجرد سرقة طبقة النبلاء الصينية، توصلو إلىٰ صفقات معهم، محافظين علىٰ الأقل علىٰ بعض البيروقراطيين المأجورين وضرائب الدول القديمة المتطورة. وهذا منح «وي» الشمالية الهيمنة علىٰ الرعاع المتمردين والمتنازعين الذين حكموا دول شمال الصين الأخرىٰ، وهي هيمنة كافية في الواقع لجعل وي الشمالية توحِّد المنطقة بأكملها في عام ٤٣٩.

ومع ذلك، فإنَّ المعاهدات التي عقدتها وي الشمالية مع البقايا الناجية من الأرستقراطية الصينية لم تزل آيلة للسقوط. فقد فضّل معظم مقاتلي زيانبي رعي القطعان علىٰ الاختلاط بالطبقة المثقفة، وحتىٰ عندما استقرت القوافل فقد شيَّدوا القلاع الخاصة بهم لتجنب الاضطرار إلىٰ الاحتكاك بالمزارعين الصينيين. وظلَّت دولتهم متخلفة. وطالما أنهم كانوا يحاربون الدول الشمالية الناهبة الأخرىٰ فقط، فقد كان ذلك حسنًا، ولكن عندما اقترب فرسان زيانبي من ضواحي جيانكانغ في عام ٤٥٠ اكتشفوا أنَّه علىٰ الرغم من أنهم يستطيعون الفوز بالمعارك وسرقة كل شيء يُحدّدونه، فلم يستطيعوا حقًّا تهديد المدن الحقيقية. فقط دولة متطورة مناسبة لديها سفن وأسلحة حصار وقطارات إمدادات يمكنها القيام بذلك.

وبسبب تعذر الاستيلاء علىٰ جنوب الصين؛ لأنَّهم يفتقرون إلىٰ جيش متطور، ونفاد فرصهم للاستيلاء علىٰ شمال الصين لأنَّهم كانوا بالفعل يحكمونها، كان ملوك وي الشمالية يعانون من نقص شديد في الموارد لشراء ولاء أنصارهم - وهو ما يُعدّ ضعفًا قاتلًا في دولة متخلفة. وفي عام ٤٨٠ أدرك الإمبراطور تشياو ون أنَّ هناك حلًّا واحدًا قد تبقىٰ، وهو: التحرك جهة التطور. وقد فعل هذا بانتقام. فقد أمَّم جميع الأراضي، وأعاد توزيعها لكل من سيسجل اسمه في الضرائب وخدمة الدولة، ومن أجل جعل زيانبي يبدأ في التفكير والتصرف مثل شعوب الدول المتطورة؛ شنَّ هجومًا مباشرًا علىٰ التقاليد، فمنع زياو ون ارتداء الزي الخاص بزيانبي، واستبدل بزيانبي أسماء العائلات الصينية، وأجبر جميع المقربين

منه تحت سن الثلاثين علىٰ التحدث باللغة الصينية، ونقل مئات الآلاف من الأشخاص إلىٰ مدينة جديدة في الموقع المقدس في لويانج.

وتخلىٰ بعض أتباع زيانبي عن طرقهم القديمة واستقروا علىٰ الحكم مثل الأرستقراطيين الصينيين، ولكن الآخرين رفضوا ذلك. وتصاعدت الحروب الثقافية وتحوَّلت إلىٰ حروب أهلية، وفي عام ٥٣٤ انقسمت وي الشمالية إلىٰ دولتين شرقية (حديثة) وأخرىٰ غربية (تقليدية). وكان باستطاعة التقليديين الذين تمسكوا بأنماط الحياة البدوية، مواصلة جذب الفرسان من السهول. وسرعان ما بدا أنَّ عضلاتهم العسكرية ستغمر ثورة شياو ون. لكنَّ اليأس كان أبا الاختراع. فبينما حاول شياو ون تحويل مقاتلي شيان بي إلىٰ نبلاء صينيين، قام خلفاؤه بعكس ذلك، فأعطوا الجنود الصينيين إعفاءات ضريبية، وعيَّنوا طبقة النبلاء الصينية جنرالات، وسمحوا للمحاربين الصينيين باتخاذ أسماء شيان بي. وتعلَّم الفلاحون والأدباء القتال، وفي عام ٥٧٧ هزموا المعارضة. وكانت تلك عملية طويلة وفوضوية، ولكن نسخة من رؤية شياو ون قد انتصرت أخيرًا.

وكانت النتيجة: استقطابًا حادًا في الصين. ففي الشمال ثمة دولة متطورة (التي أعيد تسميتها بأسرة «سو» بعد انقلاب عسكري في عام ٥٨١) مع جيش قوي، تربعت علىٰ اقتصاد مرهق ومفتت، وفي الجنوب دولة مفتتة مع مؤسسات ضعيفة حاولت -ولكنَّها فشلت إلىٰ حد كبير- الاستفادة من اقتصاد مزدهر.

يبدو هذا مختلًا تمامًا، ولكنَّه كان في الواقع مثاليًا لبدء دوران التطور الاجتماعي. في عام ٥٨٩ بنىٰ ويندي، أول إمبراطور لمملكة سوي، أسطولًا ضخمًا وسيطر علىٰ وادي اليانغتسي، وألقىٰ بجيش ضخم (ربما نصف مليون رجل) في جيانكانغ. وبفضل عدم التوازن العسكري بين الشمال والجنوب، سقطت المدينة في غضون أسابيع. وعندما تبيَّن لهم أنَّ ويندي هدف بالفعل لفرض الضرائب عليهم، نهض نبلاء جنوب الصين جميعهم، حسبما ورد، ينزعون أحشاء -بل وحتىٰ يأكلون- حكام سوي، لكنَّهم هُزموا خلال العام. وقد غزت ويندي جنوب الصين دون حروب منهكة ترهق اقتصادها، وانطلق الإحياء الشرقي.

عالم وو

من خلال إعادة إنشاء إمبراطورية ضخمة موحَّدة، قامت أسرة سو بأمرين في آن واحد. أولًا: سمحت للدولة القوية في شمال الصين باستغلال الجبهة الاقتصادية الجديدة للجنوب. وثانيًا: سمحت لطفرة الجنوب الاقتصادية بالانتشار في جميع أنحاء الصين.

ولم يكن ذلك متعمدًا علىٰ الدوام. وعندما بنىٰ الحكَّام أكبر نصب إمبراطوري في ذلك العصر بطول (١٥٠٠ ميل)، وعرض (١٣٠ قدمًا)، وهي القناة الكبيرة التي ربطت نهر اليانغتسي بشمال الصين - أرادوا طريقًا سريعًا من أجل تحريك الجيوش. وخلال جيل واحد، أصبحت تلك القناة هي شريان الاقتصاد الصيني تنقل الأرز من الجنوب لتغذية المدن الشمالية. وقد أحب علماء القرن السابع التذمر حيال هذا الأمر، وقالوا: «لقد فرضت معاناة لا تطاق علىٰ الناس»؛ لكنَّ العلماء سلموا بأنَّ القناة «كانت لها فوائد لا حصر لها للشعب ... فالمزايا التي توفرها هائلة فعلًا!».

لقد عملت القناة الكبيرة كبحر أبيض متوسط من صنع الإنسان، مُغيرةً الجغرافيا الشرقية بإعطاء الصين أخيرًا نوع الممر المائي الذي تمتعت به روما القديمة. وقد غذَّىٰ الأرز الشمالي الرخيص انفجارًا حضريًا شماليًا. «مئات المنازل، وآلاف المنازل تشبه رقعة شطرنج كبيرة»، هذا ما كتبه الشاعر باي جوي عن تشانغان التي أصبحت مرة أخرىٰ العاصمة الصينية. إنها مبعثرة عبر ٣٠ ميلًا مربعًا، «مثل حقل ضخم مزروع بصفوف من الكرنب». واحتشد ملايين السكان في الشوارع المحفوفة بالأشجار التي يبلغ اتساعها خمس مرات اتساع الشارع

الخامس بنيويورك. ولم تكن تشانغان فريدة من نوعها، كانت لويانغ علىٰ الأرجح نصف حجمها، وكان لدىٰ ١٢ مدينة أخرىٰ سكان يبلغون مائة ألف.

كان إحياء الصين سلاحًا ذا حدين؛ لأنَّ اندماج قوة السلطة الشمالية وجبهة الأرز الجنوبية تقاطع بطريقتين. فمن جهة، نظَّم بيروقراطية مزدهرة وراقب الأسواق الحضرية التي أثرت الفلاحين والتجَّار ودفعت بالتطور الاجتماعي لأعلىٰ؛ ومن جهة أخرىٰ، قوَّضت الإدارة المفرطة التطور الاجتماعي من خلال تكبيل الفلاحين والتجَّار وتنظيم كل تفصيلة في عملية التجارة. وقد ثبَّت المسؤولون الأسعار، وأخبروا الناس متىٰ يبيعون ويشترون، بل وقرروا كيف يمكن أن يعيش التجَّار (فلا يمكنهم -علىٰ سبيل المثال- ركوب الخيل، فكان ذلك أمرًا جليلًا علىٰ الباعة الجائلين).

لقد وضع موظفو الخدمة المدنية السياسة قبل الاقتصاد. وبدلًا من السماح للناس بشراء الممتلكات وبيعها، حافظوا علىٰ نظام شياو ون، مدَّعين أنَّ الأرض كلها للدولة ويقرضونها فقط للمزارعين. وهو ما دفع الفلاحين للتسجيل في الضرائب وأبقىٰ علىٰ كبح جماح الإقطاعيين الأقوياء، ولكنَّه أدىٰ إلىٰ تشابك كل شيء بشريط أحمر. ولمدة سنوات عديدة شكك المؤرخون في أنَّ قوانين الأراضي تلك قد أخبرتنا عن الأيديولوجيا أكثر من الواقع؛ ومن المؤكد أنَّ العلماء فسَّروا أنه لا توجد دولة قادرة علىٰ التعامل مع كل تلك الأعمال الورقية. لكنَّ الوثائق المحفوظة بظروف قاحلة في دنهوانج علىٰ حافة صحراء غوبي تبيِّن لنا أنَّ قادة القرن الثامن قد اتبعوا تلك القواعد بالفعل.

وبطبيعة الحال، وجد المزارعون والإقطاعيون والمضاربون طرقًا للتهرب من اللوائح، ولكنَّ الخدمة المدنية تضخمت باطراد لتملأ أطنانًا من الوثائق، ومضت عبر ثورة خاصة بها. ومن الناحية النظرية، فقد جعلت امتحانات القبول من الإدارة حكرًا علىٰ أفضل وألمع ما في الصين منذ أوقات الهان، ولكن علىٰ مستوىٰ الممارسة، تمكَّنت الأسر الأرستقراطية دائمًا من تحويل المناصب الرفيعة إلىٰ أفضلية من حيث النشأة. وفي القرن السابع الميلادي، أصبحت نتائج الاختبارات المعيار الوحيد للنجاح. وطالما أننا نفترض (مثل معظم البشر) أنَّ

نظم الشعر، واقتباس الأدب الكلاسيكي هما أفضل دلائل علىٰ الموهبة الإدارية، فإنَّه يمكن القول بوجه عام إنَّ الصين قد طورت أكثر عمليات الاختيار الرشيدة لخدمة الدولة المعروفة في التاريخ.

وفي ظل تراخي القبضة الأرستقراطية القديمة علىٰ المناصب الرفيعة ببطء، أصبحت التعيينات الإدارية هي الطريق الأكيد للثروة والنفوذ بالنسبة إلىٰ طبقة النبلاء، واشتدَّ التنافس من أجل الوصول إلىٰ الخدمة المدنية. ففي بعض السنوات نجح أقل من مرشح واحد من ضمن مائة في الامتحانات، وكثُرت القصص المؤسفة والمضحكة عن رجال يعيدون الاختبارات علىٰ مدىٰ عقود. وقد استأجرت الأُسر الطموحة معلّمين، مثلما يفعلون تمامًا في الوقت الحاضر لمساعدة أبنائهم المراهقين علىٰ عبور الامتحانات التي تُغربل المتقدمين للجامعات المعروفة، وصنعت المطابع المستحدثة مؤخرًا الآلاف من كتب الأسئلة التدريبية. وارتدىٰ بعض المرشحين «أقمصة للغش» مع مقالات نموذجية مكتوبة في البطانة. ولأنَّ الدرجات اعتمدت اعتمادًا كبيرًا علىٰ التعبير الأدبي؛ فقد أصبح كل شاب شاعرًا علىٰ عجل، ومع الكثير من العقول الراقية الناظمة للشعر، فقد أصبح هذا هو العصر الذهبي للأدب الصيني.

وقد أنتجت تلك الاختبارات حراكًا اجتماعيًا لم يسبق له مثيل داخل النخبة المثقفة، ويتحدث بعض المؤرخين حتىٰ عن ظهور نوع من «النسوية البدائية»، حيث امتد الانفتاح الجديد ليشمل العلاقات بين الجنسين. لكن يجب عدم المبالغة في تلك النزعة؛ فالنصيحة المقدمة إلىٰ النساء في كتاب (The Family Instructions of the Grandfather) أو «التعليمات الأُسرية من الجدّ»، ضمن أحد أشهر الكتب الباقية منذ القرن الثامن - لم تكن لتصدم أحدًا قبل ألف عام:

- تخدم العروس زوجها كما خدمت والدها.
- صوتها لا يجب أن يُسمع ولا أن يُرىٰ جسدها ولا ظلّها.
- ولا يجب أن تتحدث مع والد زوجها والأشقاء الأكبر.

من جهة أخرىٰ، منحت أنماط المهر الحديثة والمواقف البوذية الليبرالية (مقارنة بالأفكار الكونفوشية) تجاه قدرات الإناث، النساءَ نطاقًا لتجاهل تعليمات

الجد. لنأخذ علىٰ سبيل المثال وو زيتيان، التي بعد الخدمة كراهبة بوذية، أصبحت محظية (في عمر الثالثة عشرة) ضمن حريم الإمبراطور، قبل أن تتزوج ابنه باعتبارها الزوجة الأصغر. وقد تفوقت علىٰ زوجها المائد والمطواع، فكانت تحكم خلف ستار من البامبو. وعندما توفي زوجها في عام ٦٨٣، سمَّمت وو ولي العهد الواضح ثمَّ خلعت اثنين من أبنائها (واحدًا بعد ستة أسابيع، والآخر بعد ست سنوات). وفي عام ٦٩٠ كشفت ستار الخيزران لتصبح المرأة الوحيدة التي جلست علىٰ عرش الصين بصفتها الشخصية.

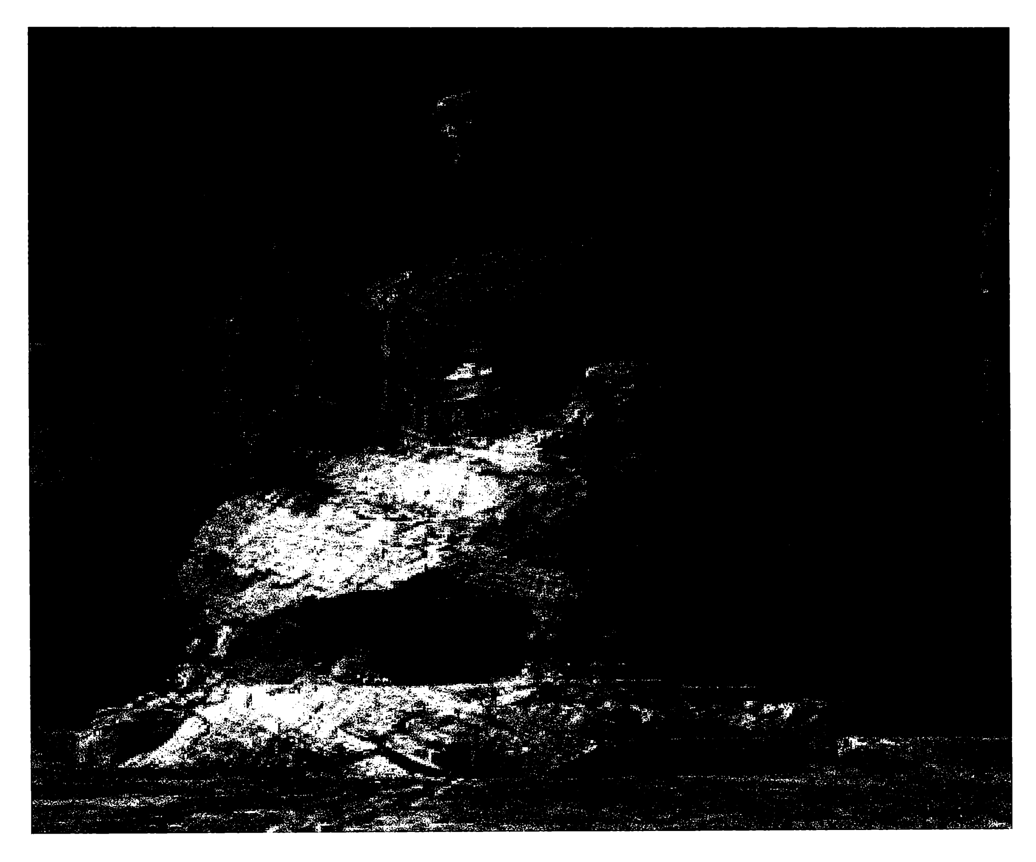
في بعض النواحي، كانت وو الحالة النماذجية الأعظم عن النسوية البدائية. وقد أسَّست معهد أبحاث لكتابة «مجموعة من سير النساء الشهيرات»، وفضحت المحافظين من خلال قيادة موكب من الإناث إلىٰ جبل تاي حيث تجري أكثر الطقوس المقدسة في الصين، الذي يُعرف باسم «قربان السماء». وكان للأختية حدودها، عندما أصبحت زوجة زوجها الأولىٰ تهديدًا بينما تشق وو طريقها إلىٰ القمة، قامت (مرة أخرىٰ، بادَّعاء) بخنق طفلها، واتهام منافسيها، ثمَّ معاقبتهم بتقطيع أذرعهم وأرجلهم وإغراقهم في حوض من النبيذ.

كانت بوذيّة وو متناقضة أيضًا كنسويتها البدائية. فقد كانت بالتأكيد ورعة، وفي مرحلة ما جرَّمت محلات الجزارة، وفي أخرىٰ تجاوزت شخصيًا حدود مدينة تشانغهان للقاء راهب عائد من جمع نصوص مقدسة في الهند، لكنَّها استغلت بشكل صارخ الدين لأغراض سياسية. ففي عام ٦٨٥ وجدَ حبيبها وهو راهب آخر نصًا يُسمىٰ «السحابة سوترا الكبرىٰ»، يتنبأ بصعود امراة ذات مزايا ستصبح معها حاكمة كونيّة. وقد أخذت وو اللقب مايتريا (بوذا المستقبلي) الذي لا مثيل له، وتقول الأسطورة إنَّ وجه تمثال بوذا مايتريا الجميل في لونجمن يعكس وجه وو (الشكل ٧ - ٣).

وكانت لدىٰ وو أيضًا علاقة معقدة بالخدمة المدنية. فقد عززت امتحانات القبول فوق الروابط العائلية، لكنَّ العلماء الكونفوشيين النبلاء كرهوا حاكمتهم الأنثىٰ بشدة، وقد بادلتهم المشاعر نفسها. كما طهَّرت وو العلماء الذين ردّوا

بكتابة تواريخ رسمية جاعلين منها نموذجًا من الخطأ الذي يحدث عندما تتولىٰ النساء القيادة.

لكنَّهم لم يتمكنوا من إخفاء روعة ملكها. لقد أمرت بإرسال جيش قوامه مليونا شخص والموارد إلىٰ عمق السهوب. وفيما يُشبه الجيش الروماني أكثر من الهان، كان معدل التجنيد أكبر داخل الإمبراطورية وجَذب ضباطًا من طبقة النبلاء. وتمكَّن من تخويف المنافسين الداخليين، لكن الاحتياطات المعقدة أبقت قادته موالين. فأي ضابط كان ينقل عشرة رجال من دون إذن، كان يواجه عقوبة السجن لمدة عام، وكل من حرَّك كتيبة خاطر بالتعرض للشنق.



(الشكل ٧ - ٣). وجه وو زيتيان، تقول الأسطورة: إنَّ هذا التمثال الضخم لبوذا المستقبلي، المنحوت في لونجمن حوالي في عام ٧٠٠، كان نموذجًا للمرأة الوحيدة التي حكمت الصين باسمها.

ومدَّ الجيش الحكم الصيني بعيدًا في الشمال الشرقي، والجنوب الشرقي ووسط آسيا أكثر من أي وقت مضىٰ، إلىٰ جانب التداخل في شمال الهند في عام ٦٤٨، ووصلت قوة الصين الناعمة إلىٰ أبعد من ذلك. فمن القرن الثاني إلىٰ الخامس الميلادي، حجبت الهند الصين باعتبارها مركزًا ثقافيًا ذا جاذبية، ينشر مبشروها وتجَّارها البوذية بعيدًا وعلىٰ نطاق واسع، وتبنّت النخبة في الدول الجنوب شرق آسيوية المتأسسة حديثًا الزي الهندي والنصوص وكذلك الدين. وبحلول القرن السابع، كان تأثير الصين محسوسًا أيضًا. لقد تطورت حضارة هندية-صينية مميزة في جنوب شرق آسيا، حيث شكَّلت المدارس الصينية البوذية الفكر في الهند، وتعلَّمت الطبقات الحاكمة في دول كوريا واليابان الناشئة البوذية بالكامل من الصين. وقد حاكوا الزي الصيني، وتخطيط المدن، والقوانين، والكتابة، وعززوا سلطتهم بادَّعاء الرضىٰ والنسب للحكام الصينيين.

وكان الانفتاح علىٰ الأفكار الخارجية والقدرة علىٰ مزجها بشيء جديد جزءًا من جاذبية الثقافة الصينية. لقد تمكَّن العديد من أكثر الشخصيات نفوذًا في عالم وو من تتبع أسلافهم وصولًا إلىٰ البدو الذين هاجروا إلىٰ الصين، وأبقوا علىٰ صلاتهم بطريق السهوب الذي يربط بين الشرق والغرب. واشتهر الراقصون من وسط آسيا والعزف علىٰ العود في تشانغهان، حيث ارتدىٰ محبو الأزياء الملابس الفارسية مع صدريات مشدودة بأربطة، وتنورات مطوية، وأوشحة طويلة. وكان رواد الأزياء يستخدمون أناسًا من شرق أفريقيا «عبدة الشيطان» باعتبارهم حرَّاسًا، ولاحظ أحد أصحاب المتاجر «إذا لم يموتوا، بإمكان المرء الإبقاء عليهم، وبعد وقت طويل من الإبقاء عليهم، فإنهم يبدؤون في فهم لغة البشر، بالرغم من أنهم لا يستطيعون التكلم بها».

لقد كسر سلائل البيوت العظيمة في الصين عظامهم وهم يلعبون البولو، وهي اللعبة المفضلة لدىٰ البدو، وتعلم الجميع أن يجلس، علىٰ الطريقة الوسط آسيوية، علىٰ كراسٍ بدلًا من الحُصُر، كما تسكعت السيدات الأنيقات في أضرحة الأديان الغريبة مثل الزرادشتية والمسيحية، والتي حُملت إلىٰ الشرق بواسطة التجَّار الشرق آسيوين والإيرانيين والهنود والعرب الذين توافدوا إلىٰ المدن

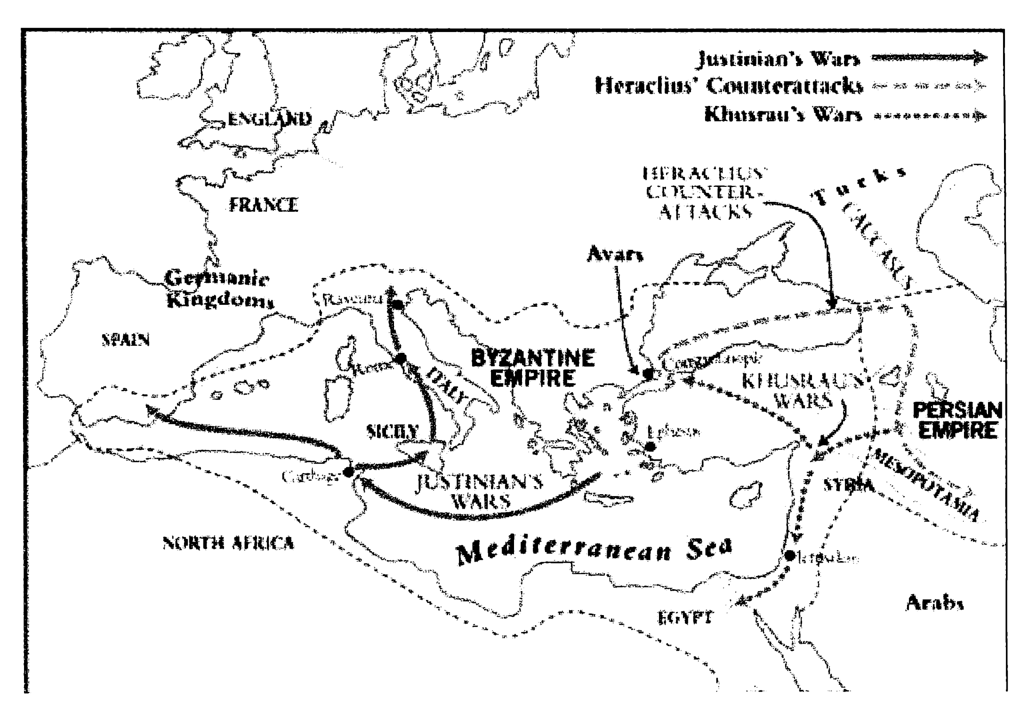
الصينية. وفي عام ٢٠٠٧، أشارت دراسة للحمض النووي أنَّ أحد أفراد يو هونغ، المدفون في تاي يوان في شمال الصين في عام ٥٩٢، كان في الواقع أوروبيًا (سواء ما إذا كان هو نفسه قد هاجر الطريق كله من الطرف الغربي إلىٰ الطرف الشرقي للسهول، أم أنَّ أسلافه هم الذين تحركوا، يظل ذلك غامضًا).

لقد كان عالم وو هو نتاج توحيد الصين في عام ٥٨٩ الذي فرض دولة قوية في الجنوب وفتح مجالًا واسعًا للتطور الاقتصادي في الجنوب. وهذا يفسّر لماذا ارتفع التطور الاجتماعي الشرقي بسرعة، إلَّا أنَّ ذلك ليس سوىٰ نصف تفسير لسبب تقاطع النتائج الشرقية والغربية في حوالي عام ٥٤١. ولكي نحصل علىٰ إجابة كاملة، فنحن بحاجة أيضًا إلىٰ معرفة لماذا استمر انخفاض التطور الاجتماعي في الغرب.

آخر سلالاتهم

ظاهريًا، بدا الانتعاش الغربي علىٰ الأقل شبيهًا بالانتعاش الشرقي في القرن السادس عشر. ففي كل مركز، انهارت إمبراطورية قديمة ضخمة، مُخلّفةً وراءها إمبراطورية أصغر تدَّعي الحكم الشرعي علىٰ المنطقة بأسرها، ومجموعة من الممالك «البربرية» التي تجاهلت تلك الادِّعاءات (الشكل ٧ - ٤). وبعد ويلات القرن الخامس، دعمت بيزنطة حدودها وتمتعت بهدوء نسبي، وبحلول عام ٥٢٧، عندما اعتلىٰ إمبراطور جديد يُدعىٰ جستينيان العرش، كانت كل المؤشرات إيجابية.

وأطلق المؤرخون علىٰ جستينيان آخر الرومانيين. لقد كان يحكم بطاقة شديدة، وإدراة إصلاحية، وعزَّز الضرائب، وأعاد بناء القسطنطينية، (وتُعدُّ كنيسة آيا صوفيا جزءًا من تراثه). لقد عمل مثل شيطان. وأصرَّ بعض النقَّاد علىٰ أنَّه كان شيطانًا - يشبه مصاص دماء في هوليود، وزعموا أنَّه لم يأكل أو يشرب أو ينام أبدًا، علىٰ الرغم من أنَّه كانت لديه شهوات جنسية نهمة. وهناك من قالوا إنهم رأوا رأسه تنفصل عن جسده وتطير بمفردها حينما كان يطوف بالممرات ليلًا.



(الشكل ٧-٤). آخر سلالاتهم: المحاولة الأولىٰ لجستينيان حاكم بيزنطة (٥٣٣-٥٦٥) ثمَّ محاولة خسرو الفارسي (٦٠٣ - ٦٢٧) لإعادة توحيد المركز الغربي؛ وبعدها يرد هرقل البيزنطي الضربة ضد خسرو (٦٢٤ - ٦٢٨).

وبحسب الشائعات، كانت زوجة جستينيان، ثيودورا، هي التي دفعته لذلك (الشكل ٧ - ٥)، وكانت تعاني من ضغوط أسوأ من من وو زيتيان. كانت ثيودورا ممثلة (في التراث، تُعدّ تورية عن المومس في كثير من الأحيان) قبل أن تتزوج جستينيان. وهناك إشاعة بأنَّ رغبتها الجنسية قد تجاوزت رغبته حتىٰ؛ لدرجة أنَّها مرة نامت مع جميع الضيوف في حفل عشاء، وعندما خارت قواهم، تعاملت مع خدمهم الثلاثين، وأنها اعتادت علىٰ التذمر لأن الله لم يعطها سوىٰ ثلاث فتحات في جسدها فقط. وأيًا كان الأمر، فلقد كانت إمبراطورة إلىٰ حد كبير. وعندما حاول الأرستقراطيون المعارضون لضرائب جستينيان استخدام محبي أعمال الشغب للإطاحة به في عام ٥٣٢، كانت ثيودورا هي التي منعته من الهرب. وقالت: «كل مولود لا بُدَّ أن يموت، لكنني لن أعيش لأرىٰ اليوم الذي لا يناديني فيه الرجال بـ«جلالتك»، فإذا كنت تسعىٰ للسلامة يا زوجي، فذلك سهل . . . ولكني أُفضّل المقولة القديمة - الأرجواني [لون الملوك] هو أفضل

(الشكل ٧ - ٥). أسوأ (أو أفضل من، حسب وجهة نظرك) من وو؟ فسيفساء تمثل الإمبراطورة ثيودورا في مدينة رافينا في إيطاليا، أُنهيت في عام ٥٤٧.

في العام التالي، أرسل جستينيان جنراله بيليساريوس لانتزاع شمال أفريقيا من أيدي المخربين. وقبل ٦٥ عامًا جعلت السفن النارية آمال بيزنطة في استعادة قرطاج هباءً منثورًا، أما الآن فقد أتىٰ دور المخربين للانهيار. اجتاح بيليساريوس شمال أفريقيا، ثمَّ عبر إلىٰ صقلية. وهناك تفكَّك الجرمانيون أيضًا، واحتفل جنرال جستينيان بعيد الميلاد عام ٥٣٦ في روما. كان كل شيء يجري علىٰ أكمل وجه. ولكن في الوقت الذي توفي فيه جستينيان في عام ٥٦٥ تباطأت وتيرة إعادة الغزو، وأفلست الإمبراطورية، وتخلف التطور الاجتماعي الغربي عن التطور الاجتماعي الشرقي. فما الخطأ الذي حدث؟

بحسب وزير بيليساريوس، بروكوبيوس، الذي ترك سردية بعنوان «التاريخ السري»، فقد كان ذلك كله نتيجة خطأ النساء. قدَّم بروكوبيوس نظرية مؤامرة مُلَفَّقَة ملائمة بموظفي الخدمة المدنية الكونفوشيين في عهد الإمبراطورة وو. كانت زوجة بيليساريوس، أنتونينا، علىٰ حدّ قول بروكوبيوس، صديقة الإمبراطورة

ثيودورا المفضلة وشريكتها في عربدتها الجنسية. ولصرف انتباه جستينيان عن كل الثرثرة الحقيقية عن أنتونينا (ونفسها)، أضعفت ثيودورا من مكانة بيليساريوس عند جستينيان. وعندما اقتنع أنَّ بيليساريوس يتآمر ضده، استدعاه جستنيان، وبفقد جنراله، هُزم الجيش البيزنطي. أرسل جستنيان بيلساريوس هناك مجددًا لإنقاذ الموقف، ثمَّ أصابه الشكّ مرة أخرىٰ، فأعاد تكرار العملية الحمقاء نفسها (عدة مرات).

أما عن مدىٰ الحقيقة في قصة بروكوبيوس، فذلك مجرد تخمين. لكن التفسير الحقيقي لفشل إعادة الغزو يبدو أنه بالرغم من أوجه التشابه بين المركزين الشرقي والغربي في القرن السادس عشر، فإنَّ الخلافات كانت أهم. من الناحية الاستراتيجية، كان موقف جستينيان علىٰ النقيض تقريبًا من موقف ويندي عندما وحَّد الصين. ففي الصين، شكّلت كل الممالك «البربرية» وحدة واحدة بحلول عام ٥٧٧، استغلها ويندي للتغلب علىٰ الجنوب الغني والضعيف. أمَّا جستينيان، علىٰ النقيض من ذلك، فكان يحاول التغلب علىٰ العديد من الممالك «البربرية» الفقيرة، ولكنَّها قوية، من موقعه في الإمبراطورية البيزنطية؛ لذلك كانت إعادة توحيد المركز في حملة واحدة مثلما فعل ويندي في عام ٥٨٩ - مستحيلةً.

كان علىٰ جستنيان أيضًا التعامل مع بلاد فارس. فلمدة قرن أبقت سلسلة من الحروب مع الهون، والصراعات علىٰ الضرائب، والاضطرابات الدينية جيش فارس هادئًا، لكن احتمالية أن تنبعث الإمبراطورية الرومانية من الرماد تطلبت إجراء ما. وفي عام ٥٤٠ اخترق جيش فارسي دفاعات بيزنطة الواهنة واستلب سورية، ممَّا أجبر جستينيان علىٰ القتال علىٰ جبهتين، (وربما ارتبط ذلك باستدعاء بيليساريوس من إيطاليا أكثر من مكائد أنتونينا).

ولم يقتصر الأمر علىٰ ذلك فحسب، فقد رُصد مرض جديد في مصر في عام ٥٤١. وشعر الناس بالحمىٰ، وانتفخت آباطهم وأفخاذهم. وفي غضون يوم أو نحو ذلك، أصبحت الانتفاخات سوداء وسقط المرضىٰ في غيبوبة وهذيان. وبعد يوم أو يومين مات معظم الضحايا، يهذون من الألم.

كان ذلك الطاعون الليمفاوي. ووصل المرض إلىٰ القسطنطينية، بعد سنة،

مؤديًا علىٰ الأرجح إلىٰ مقتل مائة ألف شخص. كان خطر الوفاة مرتفعًا جدًّا، كما ادَّعىٰ الأسقف جون، أسقف مدينة إفيسوس، لدرجة أنَّه «لم يكن أحد ليخرج من بابه من دون علامة تحمل اسمه معلقة في عنقه».

وقال سكان القسطنطينية إنَّ الطاعون قد قَدِم من أثيوبيا، ويتفق مع ذلك معظم المؤرخين. ومن المحتمل أن تكون البكتيريا العصوية قد ظهرت منذ زمن طويل قبل عام ٥٤١ حول منطقة البحيرات العظمىٰ في أفريقيا وأصبحت متوطنة بين البراغيث علىٰ الفئران السوداء في مرتفعات أثيوبيا. ولا بُدَّ أنَّ تجَّار البحر الأحمر قد حملوا الفئران الأثيوبية إلىٰ مصر علىٰ مر السنين، ولكن لأنَّ البراغيث الحاملة للطاعون تنشط فقط عندما تكون درجات الحرارة بين ٥٩ و٦٨ درجة فهرنهايت، فقد خلقت الحرارة مانعًا وبائيًا حتىٰ أواخر عام ٥٣٠ علىٰ ما يبدو.

ما حدث بعد ذلك هو محل نزاع. وتشير حلقات الشجر إلىٰ سنوات عديدة من البرد غير المألوف، وسجل مراقبو السماء البيزنطيون الأنكلوسكسونيون ظهور مذنَّب كبير. واعتقد بعض المؤرخين أنَّ ذيل المذنب أنشأ حُجبًا من التراب، ممَّا أدىٰ إلىٰ خفض درجات الحرارة وأخرج الطاعون من مخبئه. ويعتقد آخرون أنَّ الرماد البركاني كان هو المسؤول عن خفض درجات الحرارة. ولا يزال آخرون يظنون بأنَّ حُجب الغبار والبراكين لا علاقة لهما بأي شيء.

ومع كل ما قيل، فلا المذنبات ولا الاستراتيجية ولا الأخلاقيات المنحلة هي التي دفعت بالتطور الاجتماعي الغربي لأسفل في القرن السادس. إنَّ التباين الأساسي بين الشرق والغرب الذي حدَّد كيف أثّرت صدمات الحرب والمرض في التطور، كان متعلقًا بالخرائط لا الرجال. كان اقتصاد جستينيان مستمرًا بشكل جيد - فقد كان المزارعون المصريون والسوريون أكثر إنتاجية من أي وقت مضىٰ، وكان التجَّار لا يزالون يحملون الحبوب وزيت الزيتون إلىٰ القسطنطينية - ولكنَّ الغرب لم يمتلك مثل هذا الأفق الجديد المزدهر في الشرق من حقول الأرز. عندما احتل ويندي جنوب الصين قام بنشر ما لا يقل عن ٢٠٠ ألف جندي؛ أمَّا جستينيان، ففي ذروة حربه الإيطالية في عام ٥٥١، تمكَّن من إيجاد ٢٠,٠٠٠ جندي فقط. واستولت انتصارات ويندي علىٰ الثروة العظيمة لجنوب

الصين، لكن جستنيان في كثير من الأحيان لم يفز إلَّا بالأراضي الفقيرة التي مزقتها الحرب. وفي ظل أجيال عديدة، لربما حوّلت الإمبراطورية الرومانية التي أُعيد توحيدها البحر الأبيض المتوسط إلىٰ طريق سريع للتجارة مجددًا، وفتحت جبهات اقتصادية جديدة، ثمَّ لعكست وجهة التطور الاجتماعي؛ لكن جستنيان لم يتمتع بتلك الرفاهية.

وقد حكمت الجغرافيا علىٰ إعادة غزو جستينيان البطولي المختال بالفشل قبل أن يبدأ حتىٰ، وجعلت جهوده أسوأ علىٰ الأرجح. لقد حوّلت قوات جستينيان إيطاليا إلىٰ أرض خراب والتجَّار الذين أمدوهم بالطعام كانوا يحملون الفئران والبراغيث والموت حول البحر الأبيض المتوسط. لقد تباطأ الطاعون بعد عام ٥٤٦، ولكن البكتيريا العصوية ترسَّخت، وحتىٰ سنة ٧٥٠ لم يمر عام دون تفشي المرض في مكان ما. وانخفض عدد السكان، ربما بمقدار الثُلث. وكما حدث عندما أطلقت تجارة العالم القديم الأوبئة منذ أربعمائة سنة، فقد عادت الوفيات الجماعية علىٰ الناس بالنفع؛ فقلَّ عدد العمَّال، وارتفعت الأجور للذين بقوا علىٰ قيد الحياة. ولكن ذلك بالطبع جعل الأمور أسوأ للأثرياء، (وبشكل ملحوظ غير مسيحي، اشتكىٰ الأسقف جون في عام ٥٤٤م من أنَّ كل هذه الوفيات قد جعلت تكلفة خدمات التغسيل مرتفعة للغاية)، واستجاب جستنيان بتثبيت الأجور عند مستوياتها قبل الأوبئة. ويبدو أن ذلك لم يحقق شيئًا. فقد تم التخلي عن الأراضي وتقلصت المدن وتضاءلت الضرائب وتعطلت المؤسسات. وسرعان ما أصبح الجميع أسوأ حالًا.

وعلىٰ مدىٰ الجيلين التاليين انهارت بيزنطة داخليًا. وانسحبت بريطانيا ومعظم بلاد الغال من المركز الغربي في القرن الخامس، ومزقت الحرب إيطاليا وتبعتها أجزاء من أسبانيا في القرن السادس، ثمَّ ابتلعت موجة الانهيار القلب البيزنطي وهي تدور ببطء من الشمال الغربي إلىٰ الجنوب الشرقي. وانخفض عدد سكان القسطنطينية بمقدار ثلاثة أرباع، وانهارت فيها الزراعة، والتجارة، والإيرادات، وبدت النهاية قريبة. وبحلول عام ٦٠٠م كان ثمة رجل واحد فقط لا يزال يحلم بتجديد المركز الغربي: الملك خسرو الثاني، ملك بلاد الفرس.

ولـم تكن روما، في نهاية المطاف، هي الإمبراطورية الغربية الوحيدة التي أمكن إعادة إنشائها. وبالعودة إلىٰ حوالي عام ٥٠٠ ق. م، عندما كانت روما لا تزال في حالة كساد، كانت فارس قد وحَّدت معظم المركز الغربي. والآن وقد جثت بيزنطة علىٰ ركبتيها، فقد بدا أنَّه آن أوان بلاد فارس مرة أخرىٰ. وفي عام ٦٠٩ اقتحم خسرو الحصون الحدودية المتآكلة، وتلاشىٰ الجيش البيزنطي. واستولىٰ علىٰ القدس في عام ٦١٤، ومعها أقدس آثار المسيحية: أجزاء من الصليب الحقيقي الذي صُلب عليه يسوع، والحربة التي خرقت جانبه، والإسفنجة المقدسة التي أفاقته. وبعد خمس سنوات أخرىٰ حصل خسرو علىٰ مصر، وفي عام ٦٢٦ -بعد ٩٩ عامًا من مجيء جستنيان للسلطة- حدقت جيوش خسرو عبر مضيق البوسفور إلىٰ القسطنطينية نفسها. واجتاح الآفار (Avars) منطقة البلقان، وهم الحلفاء الرُّحّل الذين جنّدهم خسرو من السهول الغربية، وكانوا يتهيؤون لشنّ هجوم من الشاطئ الآخر.

ولكن أحلام خسرو تحطمت أسرع من أحلام جستنيان. وبحلول عام ٦٢٨ توفي خسرو وتحطمت إمبراطوريته. وبتجاهل الجيوش خارج أسوار القسطنطينية، اقترض الإمبراطور البيزنطي هرقل الذهب والفضة من الكنيسة وأبحر إلىٰ القوقاز، حيث استخدم الغنائم لاستئجار فرسانه البدو من القبائل التركية علىٰ السهول. لقد كان الفرسان -كما أدرك هرقل- هم الأهم، وبما أنَّ بيزنطة لم يعد لديها الكثير، فقد استأجر هرقل بعضهم. لقد دحر أتراكه المأجورون الفرس الذين أُرسلوا لصدهم واجتاحوا بلاد الرافدين.

وكان هذا هو كل ما تطلبه الأمر لتشمل موجة الانهيارات فارس أيضًا. وتفكَّكت الطبقة الحاكمة. وحبس ابن خسرو أباه وجوّعه، ثمَّ سلَّم خسرو الأراضي التي غزاها، وأعاد الآثار التي استولىٰ عليها، بل تقبل المسيحية. وغرقت فارس في حرب أهلية، وحكمها ثمانية ملوك في خمس سنوات، بينما اعتُبر هرقل أعظم الرجال العظماء. وكتب أحد المعاصرين بحماس: «لقد هيمن فرح عظيم وسعادة لا توصف علىٰ الكون برمته». وكتب آخر: «دعونا جميعًا بصوت متحد ننشد المدائح الملائكية. المجد لله في الأعالي، وعلىٰ الأرض السلام، وبالناس المسرة».

وتكمن التأرجحات المفرطة للأقدار في القرن اللاحق علىٰ عام ٥٣٣ في الموت المؤلم للإمبراطوريات الغربية العريقة. وبغياب جبهة اقتصادية جديدة مثل الصين، لم يتمكن خسرو من تغيير التطور الاجتماعي الغربي أكثر من جستنيان، وكلما حاول كل شخص، جعل الأمور أسوأ. لقد حفر آخر الرومان وآخر الفرس المركز الغربي بقرن يتسم بالعنف، والأوبئة والتدهور الاقتصادي. وبعد عقد من ذهاب هرقل للقدس في عام ٦٣٠ لاستعادة الصليب الحقيقي إلىٰ مكانه الصحيح، لم تعد تهم جميع انتصاراتهم ومآسيهم.

كلمة النبي

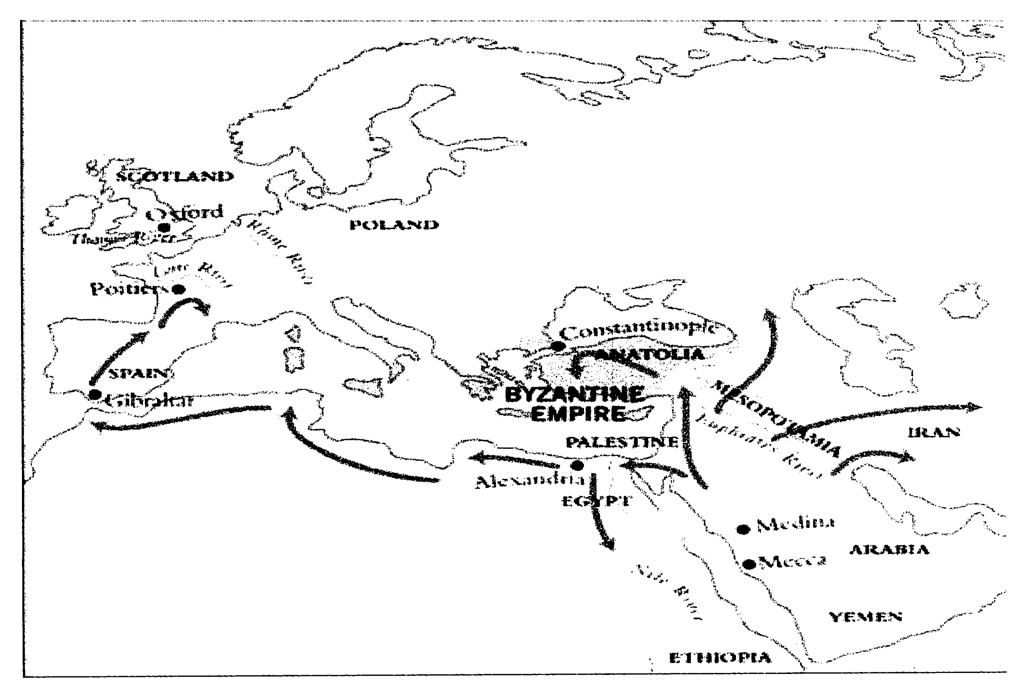
كان جستنيان وخسرو يتبعان كتبًا ذات أنماط قديمة دون دراية. لقد أدىٰ كفاحهم للسيطرة علىٰ المركز إلىٰ زعزعته، وجذب الناس من الأطراف مرة أخرىٰ. جلب خسرو الآفار إلىٰ القسطنطينية، وقاد هرقل الترك لبلاد الرافدين، واستأجرت كلتا الإمبراطوريتين قبائل عربية لحراسة حدودهم الصحراوية، حيث كان ذلك أقل تكلفة من تغطية نفقات حامياتهم العسكرية. وقد أدىٰ التفكير نفسه الذي أنتج ألمنة (Germanized) حدود روما وجعل حدود الصين تشيونجنوانية الآن إلىٰ تعريب (Arabized) حدود فارس وبيزنطة المشتركة، وعلىٰ مدار القرن السادس أصبحت كلتا الإمبراطوريتين أكثر تشابكًا مع الجزيرة العربية. وبنت كل منهما ممالك عربية تابعة، فاستوعبت فارس جنوب الجزيرة العربية في مملكتها، وقام حلفاء الإمبراطورية البيزنطية الأثيوبيون بغزو اليمن لتحقيق التوازن. كان يتم اجتذاب الجزيرة العربية إلىٰ المركز، وأنشأ العرب ممالكهم الخاصة في الصحراء، فبنوا المدن في الواحات علىٰ الطرق التجارية، وتحولوا إلىٰ المسيحية.

هزت الحروب الكبرىٰ الأطراف العربية، وعندما تداعت إمبراطوريتا فارس وبيزنطة، تحارب أقوياء العرب علىٰ الأطلال. وفي غرب الجزيرة العربية، تحاربت مكة والمدينة (الشكل ٧ - ٦) في عام ٦٢٠ علىٰ طرق التجارة، وانتشرت عصابات الحرب عبر الصحراء للبحث عن حلفاء ونصب كمائن لقوافل الآخرين. لقد كانت الحدود الإمبريالية القديمة تعني القليل في هذه اللعبة، وفي الوقت الذي استولىٰ فيه زعيم المدينة علىٰ مكة في عام ٦٣٠، كان المغيرون

التابعون له يقاتلون بالفعل في فلسطين. وهناك اشتبك العرب الموالون للمدينة مع العرب الموالين لمكة، بينما حارب العرب الآخرون الذين تدفع لهم القسطنطينية كلا الفريقين.

وبدا معظم ذلك مألوفًا لسيد القبيلة الآرامي الذي عمل في هذه الأطراف الصحراوية نفسها عندما تداعت كلتا الإمبراطوريتين البابلية والمصرية بعد عام ١٢٠٠ ق. م: لقد كان ذلك ببساطة ما حدث علىٰ الحدود عندما تداعت الدول. ولكن شيئًا واحدًا لم يكن ليبدو مألوفًا للآراميين، كان ذلك هو قائد المدينة محمد بن عبد الله.

في حوالي عام ٦١٠، عندما بدأت فارس في شنّ حرب عنيفة علىٰ بيزنطة، رأىٰ محمد رؤية. لقد ظهر الملاك جبريل، وقال: «اقرأ»، وارتبك محمد بشكل مفهوم، وأصرَّ أنَّه ليس بقارئ، لكنَّ جبريل أمره بذلك مرتين مجددًا. ثمَّ نزلت الكلمات مفاجأة علىٰ محمد:



(الشكل ٧ - ٦). الجهاد: وحّد العرب تقريبًا المركز الغربي (٦٣٢ - ٧٣٢). توضح الأسهم مسارات الغزو العربية الأساسية.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ **[سورة العلق: ١-٥]**.

ظنَّ محمد أنه أصابه الجنون أو مسته الشياطين، لكن زوجته أقنعته بخلاف ذلك. وخلال العشرين عامًا التي تلت، عاد جبريل مرات أخرىٰ جاعلًا محمد يرتجف، ويتعرق في نوبات وغيبوبات، ثمَّ يتحرر كلام الله من شفة النبي. وأيًا كانت هذه الكلمات، فإنَّ جمال تلك الكلمات، كما يقول الأثر، جعلت الناس يعتنقون الإسلام لحظة سماعها فورًا. وقال عمر أحد أهم الذين أسلموا: «لقد رق قلبي وبكيت، ودخل الإسلام فيّ».

كان الإسلام -ومعناه الخضوع لمشيئة الله- دينًا كلاسيكيًا محوريًا ضمن الموجة الثانية. وجاء مؤسسه من هامش النخبة (فقد كان شخصية بسيطة من قبيلة تجارية ثرية)، وهامش الإمبراطورية، ولم يُدوّن شيئًا (فقد جُمِع القرآن بعد وفاته)، وكان يؤمن بأنَّ الله غيب، وقد اعتمد علىٰ الفكر المحوري السابق. ودعا إلىٰ العدل والمساواة أمام الله والرحمة تجاه الضعفاء. واشترك في ذلك مع المفكرين السابقين للعصر المحوري. ولكنَّه كان بشكل مختلف مخلوقًا جديدًا تمامًا: محاربًا محوريًا.

وعلىٰ عكس البوذية والمسيحية والكونفوشيوسية، وُلد الإسلام علىٰ حافة إمبراطوريات تنهار، ونضج وسط حرب مستمرة. ولم يكن الإسلام دين عنف (فالقرآن يُعد أقل دموية من العهد القديم)، ولكنَّ المسلمين لم ينأوا بأنفسهم عن القتال. ويقول محمد عن الله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، أو كما قال الأمريكي مالكوم إكس في القرن العشرين: «إنَّ ديننا ليعلمنا أن نكون أذكياء، وأن نكون مسالمين وأن نكون صالحين، وأن نطيع القوانين، وأن نحترم كل الناس، ولكن إذا مسَّك أحدهم أرسله إلىٰ المقبرة». فلم يكن ثمة إكراهٌ في نشر الدين، لكنَّ المسلمين كان واجبًا عليهم الدفاع عن عقيدتهم متىٰ تعرضت للتهديد، وقد كانت معرَّضة بالفعل لذلك في كثير من الأحيان، وذلك في ظل اندفاع المسلمين وهم يشقون طريقهم نحو الإمبراطوريات المنهارة في الوقت نفسه الذي ينشرون فيه كلمة الإسلام.

وهكذا عثر المهاجرون العرب علىٰ ميزاتهم الخاصة للتخلف: مزيج من الخلاص والعسكرة منحهم التنظيم والغاية في عالم يفتقر لكليهما.

وعلىٰ غرار كثير من الناس في الأطراف الذين يبحثون عن موضع لهم في المركز، فقد ادَّعىٰ العرب أنَّهم أبناء المركز، حيث ينحدرون من إسماعيل بن إبراهيم. وادَّعىٰ المسلمون أنَّه بأيديهم، بنىٰ كل من إبراهيم وإسماعيل الكعبة، وهي مزار مكة المقدس، وأنَّ الإسلام هو الدين الأصلي لإبراهيم، الذي انحرفت عنه اليهودية. وعرض القرآن اليهودية بصفتها ابنة عم الإسلام. وتساءل القرآن: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؟، وأقر بجميع الأنبياء من إبراهيم حتىٰ المسيح، ومحمد هو ببساطة خاتم الأنبياء، خاتمًا رسالة الله ومصدقًا وعد اليهودية والمسيحية. ويؤكد محمد قول الله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾. فلم يكن ثمة ضرورة للصراع بين الأديان الكتابية: وفي الحقيقة، فقد كان الغرب بحاجة إلىٰ الإسلام.

وبعث محمد برسائل إلىٰ خسرو وهرقل شارحًا كل ذلك، لكنَّه لم يتلق أي رد أبدًا. وبغض النظر عن ذلك، فقد ظلَّ العرب يتحركون تجاه فلسطين وبلاد الرافدين. وقد أتوا في هيئة فرق حربية عوضًا عن جيوش، نادرًا ما زادت علىٰ خمسة آلاف، وربما لم تزد مطلقًا علىٰ الخمسة عشر ألف جندي، كانوا يوجِّهون ضربات أكثر من خوض معارك ضارية، لكن القوىٰ القليلة التي تصدت لهم كانت نادرًا ما تكون أكبر منهم بكثير. وكانت الإمبراطوريات في عام ٦٣٠م مُفلسة ومنقسمة وعاجزة عن مواجهة ذلك التهديد الجديد المربك.

في الواقع، لم يبدُ أنَّ معظم الناس في جنوب شرق آسيا قد اهتموا كثيرًا بشأن حلول العرب محل قادة فارس أو بيزنطة أم لا. ولمدة قرون، اضطهدت كلتا الإمبراطوريتين الكثير من رعاياها المسيحيين بشأن النصوص العقائدية. ففي الإمبراطورية البيزنطية -علىٰ سبيل المثال- منذ عام ٤٥١ كان الموقف الرسمي هو أنَّ يسوع كانت له طبيعتان، إحداهما إلهية والأخرىٰ إنسانية، وهما ممزوجتان في هيئة واحدة. لكنَّ بعض المنظِّرين المصريين ردّوا علىٰ ذلك بأنَّ يسوع كانت له طبيعة واحدة فقط (لاهوتية بشكل خالص)، وبحلول عام ٦٣٠م لقي أناس كثيرون

حتفهم حول هذه المسألة، لدرجة أنَّ الكثير من المسيحيين في سورية ومصر رحبوا بشكل إيجابي بالمسلمين. فمن الأفضل أن يكون لديك أسياد من الكفار لا يعني لهم ذلك السؤال شيئًا بدلًا من أن يكون لديك إخوان في الدين يطلقون العنان للإرهاب المقدس حيال ذلك الأمر.

في عام ٦٣٩م، غزا أربعة آلاف مسلم مصر، ولكنَّ الإسكندرية استسلمت دون قتال. وانهارت الإمبراطورية الفارسية العظيمة، كونها لا تزال تعاني من عقْد من الحروب الأهلية، مثل بيت من ورق، وتراجع البيزنطيون إلىٰ الأناضول، وقاموا بتسليم ثلاثة أرباع القاعدة الضريبية للإمبراطورية. وعبر الأعوام الخمسين التالية، تبخرت مؤسسات بيزنطة المتطورة. ونجحت الإمبراطورية في إيجاد حلول متوسطة الحال سريعًا، مُعوّلةً علىٰ الأعيان المحليين لحشد الجيوش وعلىٰ الجنود لزراعة غذائهم بأنفسهم بدلًا من تلقىٰ رواتبهم. وبحلول عام ٧٠٠م كان بالكاد خمسون ألف شخص يعيشون في القسطنطينية، يحرثون الضواحي لزراعة المحاصيل، دون استيراد، ويستخدمون المقايضة بدلًا من النقود.

وفي غضون قرن ابتلع العرب أغنىٰ المناطق في المركز الغربي. وفي عام ٦٧٤م عسكرت جيوشهم تحت أسوار القسطنطينية. وبعد أربعين عامًا كانوا يقفون علىٰ ضفاف نهر السند في باكستان وعبروا الحدود إلىٰ أسبانيا، وفي عام ٧٣٢م وصلت فرقة حربية إلىٰ بواتيه في وسط فرنسا. ثم تباطأت عمليات الترحيل من الصحراء إلىٰ قلب الإمبراطوريات. وبعد ألف عام من ذلك الزمن تَأمّل جيبون قائلًا:

«كان من غير المستبعد تكرار خط انتصار [المسلمين] الذي طوله ألف ميل من جبل طارق حتىٰ نهر اللوار، في مناطق أخرىٰ في قلب القارة الأوروبية حتىٰ يصل بالساراكنز [يقصد المسلمين من شمال أفريقيا] إلىٰ حدود بولندا ومرتفعات أسكتلندا؛ فالراين ليس من الصعب اجتيازه من النيل والفرات، وإن حصل ما قد ذكرت لرأينا اليوم الأساطيل الإسلامية تبحر في نهر التايمز من دون معارك بحرية ولكان القرآن يُدرَّس في أكسفورد، ولكان وعَّاظ الجامعة اليوم يشرحون للطلاب باستفاضه عن الوحي النازل علىٰ محمد».

وأضاف جيبون في لهجة ليست قليلة السخرية: «لقد ولدت المسيحية من تلك الكوراث». لقد رأت الحكمة التقليدية في بريطانيا في القرن الثامن عشر، مثل تلك التي في القسطنطينية، في المسيحية القيمةَ المُعرِّفة للغرب وعدّت الإسلام نقيضًا لها. ويُصوّر حكَّام المراكز هؤلاء الذين أتوا من الأطراف باعتبارهم برابرة، لكنَّ جيبون قد أدرك جيدًا أنَّ العرب هم جزء بالفعل من الموجة الثانية الأكبر للتحول المحوري للمركز الغربي التي بدأت بانتصار المسيحية. يمكننا، في الواقع، الكشف عن جيبون في وضعه العرب ضمن تقاليد تعود إلىٰ العموريين في بلاد الرافدين في عام ٢٢٠٠ ق. م، ورؤيتهم كما رأوا أنفسهم، كأناس تم جذبهم إلىٰ المركز بسبب صراعاته، وهم يطالبون الآن بوضعهم الصحيح الذي يستحقونه باعتلاء مقدمته. فهم لم يأتوا لدفن الغرب ولكن لجعله أفضل، وليس لإحباط طموحات كل من جستنيان وخسرو ولكن لتحقيقها.

ويجد الكثير من الخبراء السياسيين في عصرنا، مثل انتقادات جيبون في القرن الثامن عشر، أنَّه من الملائم تصوّر الحضارة الإسلامية بأنها خارجة عن نطاق الحضارة «الغربية» ومناهضة لها، (ويقصدون بها عمومًا شمال غرب أوروبا ومستعمراتها في الخارج). ولكن ذلك التصوُّر يتجاهل الحقائق التاريخية. فبحلول عام ٧٠٠ كان العالم الإسلامي تقريبًا هو المركز الغربي، وباتت المسيحية مجرد محيط بطول الحافة الشمالية للمركز. لقد أنتج العرب دولةً واحدةً بنفس حجم المركز الغربي تقريبًا مثلما فعلت روما.

وأخذت غزوات العرب زمنًا أطول من غزوات ويندي في الشرق، ولكن لأنَّ الجيوش العربية كانت صغيرة جدًّا والمقاومة الشعبية كانت محدودة، فنادرًا ما كانوا يخربون الأراضي التي غزوها، وفي القرن الثامن توقف التطور الاجتماعي الغربي عن التداعي أخيرًا. والآن، ربما يتحسن المركز الغربي كما فعل المركز الشرقي في القرن السادس، وتضيق الفجوة مجددًا بين الشرق والغرب.

المراكز لا تحتمل

لكن ذلك لم يحدث، كما يُبيِّن (الشكل ٧ – ١) بوضوح. وعلىٰ الرغم من جمع شمل المركزين بحلول عام ٧٠٠م، والاستمتاع أو المعاناة من مصائر سياسية مماثلة بين القرن الثامن والعاشر، ظلَّ التطور الاجتماعي الشرقي يرتفع بشكل أسرع من نظيره الغربي.

وأثبت كلا المركزين تزعزعهما سياسيًا. وكان علىٰ حكَّامهما إعادة تعلُّم درس عرفه الرومان والهان جيدًا؛ وهو أنَّ الإمبراطوريات تُحكم عبر الغش والمساومة، ولكن لم يكن أي من أسرة سوي ولا العرب جيدين في هذا الصدد. فعلىٰ غرار أسرة الهان، كان علىٰ أسرة سوي القلق بشأن الرُّحل (الآن الأتراك بدلًا من تشيونجنو)، ولكن بفضل نمو المركز الشرقي كان عليهم القلق بشأن تهديدات الدول المُشكّلة حديثًا. وعندما افتتحت كوغوريو فيما يُعرف الآن بكوريا مفاوضات سرية مع الأتراك للتعاون في مداهمة الصين، قرَّر إمبراطور سوي الرد. وفي عام ٦١٢م، أرسل جيشًا ضخمًا ضد كوجوريو، ولكن الطقس السيئ واللوجيستيات الأسوأ والقيادة السيئة، كل ذلك أدىٰ إلىٰ خرابها. وفي عام ٦١٣م، بعث بجيش آخر ثمَّ بجيش ثالث في عام ٦١٤م. وبينما كا يجهّز جيشًا رابعًا، مزقت حركات التمرد الإمبراطورية.

ولفترة من الوقت، بدا أنَّ فرسان الهلاك قد أفلتوا من جديد. لقد قسّم أمراء الحرب الصين، وحرَّضهم الزعماء الأتراك ضد بعضهم البعض ونهبوا حسبما شاؤوا، وانتشرت المجاعات والأمراض. وجاء أحد الأوبئة عبر السهول وجاء مرض آخر، بدا مثل الطاعون، عن طريق البحر. ولكن مثلما كانت الحماقة

كافيةً لبدء الأزمة، فقد كانت القيادة جيدة بما يكفي لإنهائها. وقد تحدث أمير حرب صيني، وهو دوق تانغ، للزعماء الأتراك لدعمه ضد أمراء الحرب الصينيين الآخرين، وفي الوقت الذي أدرك فيه الأتراك خطأهم، كان تانغ قد نصَّب نفسه حاكمًا لأسرة تانغ جديدة. وفي عام ٦٣٠م، استغل ابنه حربًا أهلية تركية لتمديد الحكم الصيني لمسافة أبعد في السهول أكثر من أي وقت مضىٰ (الشكل ٧ - ٢). وحينها عادت سيطرة الدولة مرة أخرىٰ، فهدأت تحركات السكان والمجاعات والأوبئة، ثمَّ جرت الزيادة في التطور الاجتماعي التي أنشأت عالم وو بشكل حقيقي.

وتطلب الأمر، أكثر ممَّا كان في زمن الهان، أيدي قوية للحفاظ علىٰ المركز موحدًا، لكن مع الحالة التي كان عليها البشر، لم تتوفر تلك الأيدي دائمًا. كانت المشاعر الإنسانية والحب هما اللذان حلّا إمبراطورية تانغ. ووفقًا للشاعر العظيم باي جويي فقد وقع الإمبراطور شوان جونغ -«ذو الجمال المُشتهىٰ الذي قد يزعزع إمبراطورية»- في غرام يانغ جويفي زوجة ابنه، في عام ٧٤٠م، واتخذها خليلته. وتبدو القصة مشابهة بريبة بقصة الحب بين الملك يو والمرأة الثعبان باو سي، التي من المفترض أنَّها أطاحت بأسرة جهو (Zhou) منذ ألف وخمسمائة سنة مضت، ولكن علىٰ أية حال، يقول الأثر إنَّ جوان زونغ كان علىٰ استعداد لفعل أي شيء لإرضاء يانغ جويفي. وكانت إحدىٰ أفكاره النيّرة هي مراكمة الامتيازات علىٰ المفضلين لديها، بما في ذلك جنرال تركي يُسمّىٰ آن لوشان، الذي كان يقاتل في الجانب الصيني. ومع تجاهل الحماية المألوفة حول القوة العسكرية، سمح شوان زونج لآن بحشد السيطرة علىٰ جيوش هائلة.

ونظرًا لتعقيدات مؤامرات القصر، كان من المحتم أن يفقد آن آجلًا أو عاجلًا امتيازاته، وعندما حدث ذلك في عام ٧٥٥م، قام آن بالحركة البديهية لتحويل الجيوش الهائلة ضد تشانغهان. وهرب شوان زونغ، ويانغ ولكن برفقة الجنود، الذين ألقوا باللوم علىٰ يانغ بسبب الحرب الأهلية، وطالبوا بقتلها. وبكىٰ شوانزونغ يائسًا من إبقاء حبيبته من أيدي الجنود - جاعلًا رئيس المخصيين

لديه يقوم بخنقها. وكتب باي جويي: «لقد سقطت دبابيس الشعر ذات الورود علىٰ الأرض، ولم يلتقطها أحد».

«ولم يستطع الإمبراطور إنقاذها، لم يتمكن إلَّا من تغطية وجهه.

ثم عندما التفت كي ينظر لاحقًا، كان مكان الدماء والدموع

مخبئًا بغبار أصفر قذفته رياح باردة»

وحسب الأسطورة، استأجرت شوانزونغ عرّافًا قام بتعقب روح يانغ إلىٰ جزيرة مسحورة. «أرواحنا تنتمي معًا» كما قالت للإمبراطور في قصيدة باي «في مكان ما وفي وقت ما، علىٰ الأرض أو في السماء، سنلتقي حتمًا».

ولكن في الوقت نفسه، قام ابن شوانزونغ بسحق التمرد، ولكن الطريقة التي فعل بها ذلك -مانحًا حكامًا عسكريين آخرين قوىٰ واسعة مثل قوىٰ آن ودعوة الأتراك من السهول- كانت وصفة لكوارث أخرىٰ. فقد انهارت الحدود وانكمشت عائدات الضرائب، ولمدة أجيال تعثرت الإمبراطورية ذهابًا وإيابًا بين إعادة النظام والانتفاضات والغزوات وحركات التمرد الجديدة. وأخيرًا في عام ٩٠٧م، أنهىٰ أحد أمراء الحرب معاناة أسرة تانغ بقتله إمبراطورها المراهق. ولمدة خمسة عشر عامًا بعد ذلك، سيطرت مملكة كبيرة علىٰ الصين الشمالية، بينما حكم الجنوب ثماني إلىٰ عشر ممالك صغيرة.

لقد كشف شوانزونغ المشكلة السياسية الأساسية للصين، وهي امتلاك الإمبراطور لسلطة كبيرة وقدرته علىٰ تجاوز بقية المؤسسات. لقد كان الأمر علىٰ ما يرام في حالة وجود أباطرة مهرة، إلَّا أنه مع التوزيع العشوائي للموهبة وقدر التحديات التي نشأت، كان يعني ذلك أنَّ الكوارث ستقع حتمًا عاجلًا أو آجلًا.

كان المركز الغربي، من منظور معين، يعاني من مشكلة مغايرة. القيادة كانت ضعيفة جدًّا. فالإمبراطورية العربية لم يكن لها إمبراطور. فمحمد كان نبيًا ولم يكن ملكًا، واتبعه الناس؛ لأنهم كانوا علىٰ ثقةٍ بأنه يعلم مراد الله. وعندما توفي عام ٦٣٢م لم يكن هناك سبب واضح يدعوهم لاتباع أي أحدٍ آخر، وبدأ التحالف العربي الذي بناه في التفكك. ولمنع ذلك، اجتمع بعضُ أصدقائه طوال الليل واختاروا واحدًا من بينهم خليفة (والتي يتم نقلها إلىٰ الإنجليزية عادةً

بلفظ caliph)، وهي كلمة مُلتبسة تحمل في وقت واحد معنىٰ «الممثل» (لله) و«الخَلَف» (لمحمد). ولذلك، أصبح الزعم الوحيد الذي يمنح الخليفةَ شرعيةَ الحكم هو مدىٰ قربه من النبي الراحل.

كان أداء الخلفاء القلائل الأوائل ناجحًا بشكل ملحوظ، نظرًا لما واجهوه من انقسام القادة العرب (فبعضهم أراد غنائم الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، وبعضهم أراد تقسيمها والاستيطان بها باعتبارهم ملاكًا للأراضي، واستمر بعضهم في تعيين أنبياء جدد). فقد استطاعوا إقناع معظم العرب بألَّا يُغيّروا نظام الإمبراطوريات البيزنطية والفارسية، ويتركوا الفلاحين المهزومين في حقولهم، وملَّاك الأراضي علىٰ ممتلكاتهم وأراضيهم ، والبيروقراطيين في دواوينهم. وكان التغيير الرئيس الذي قاموا به هو تحويل ضرائب الإمبراطوريات إلىٰ أيديهم، ليدفعوا جيدًا للعرب كي يتحولوا إلىٰ محاربين محترفين في سبيل الله، يعيشون في مدنٍ محصنة في مواقع استراتيجية في الأراضي المفتوحة.

ومع ذلك، لم يستطع الخلفاءُ فك الالتباس فيما يخص حقيقة الخليفة. هل كانوا ملوكًا يقومون بمركزة المداخيل وإصدار الأوامر، أم قادة دينيين تقتصر مهمتهم علىٰ مشورة الشيوخ المستقلين في الأراضي المفتوحة؟ هل يجب عليهم تمثيل نخب قبل الإسلام القَبَلية؟ أم يجب عليهم مساندة مسلم بايعه أتباع محمد الأوائل؟ أم يرأسون مجتمعًا من المؤمنين تسود فيه المساواة؟ لم يكن أي خليفة قادرًا علىٰ إرضاء الجميع، وعندما قُتل الخليفة الثالث عام ٦٥٦م، تحولت هذه الصعوبات إلىٰ أزمة. حينها كان القليل من أصحاب محمد الأوائل علىٰ قيد الحياة، فوقع الاختيار علىٰ عليٍّ، أصغر أبناء عمومة محمد، وصهره أيضًا.

أراد عليّ أن يستعيد ما رآه روح الإسلام الأولىٰ، لكنَّ سياسته المتمثلة في مناصرة الفقراء، وترك مداخيل الضرائب في يد الجنود، والمشاركة في الغنائم بشكل أكثر مساواة، أزعجت من كانوا من ذوي الامتيازات قبل ذلك. أُخمِدت الحرب الأهلية، لكن المسلمين (في هذه المرحلة) كانوا كارهين جدًّا لقتل بعضهم البعض. وفي عام ٦٦١م ابتعدوا عن حافة الهاوية، فبدلًا من إدخال العالم العربي بأكمله في حرب، قام جنودُ عليٍّ المُحبطون بقتله. وانتقلت الخلافة

بعدها إلىٰ رأس أكبر فرقة من المقاتلين العرب، والذي بنىٰ عاصمة جديدة في دمشق، وكافح لإنشاء إمبراطورية تقليدية لها بيروقراطيون وضرائب مركزية، إلَّا أنه نجح نجاحًا محدودًا.

في الصين كان الذي أشعل الأزمة السياسية هو حب شوانزونغ، أما في الغرب فكان الحب الأخوي -أو بالأحرىٰ فقدانه- هو الذي سبب الكارثة. فقد نقلت أسرة جديدة من الخلفاء العاصمةَ إلىٰ بغداد عام ٧٥٠م، واستمرت في سيرورة المركزة بشكل أكثر فعالية، لكن في عام ٨٠٩م حدث نزاعٌ علىٰ الخلافة بين الإخوة، خرج منه الخليفة المأمون ضعيفًا، حتىٰ بالمعايير العربية. فقرر بشجاعة التوجه إلىٰ صلب المشكلة، أي إلىٰ الله. فعلىٰ العكس من المسيحيين والبوذيين، لا يوجد لدىٰ المسلمين تراتبيّة كنسية ممأسسة، وعلىٰ الرغم مما كان للخلفاء من سلطة دنيوية كبيرة، لم يدّعِ أحدٌ منهم أنَّه يعرف مراد الله أكثر من أي شخص آخر. قرَّر المأمون تغيير هذا الأمر بفتح جرحٍ قديم في الإسلام.

ففي عام ٦٨٠م، وبعد أقل من عشرين عامًا علىٰ وفاة عليّ ابن عم محمد وصهره، رفع الحسين بن علي راية الثورة علىٰ الخلفاء، ولم يحرك أحدٌ ساكنًا عند هزيمته ومقتله إلَّا القليل. لكن علىٰ مر المئة عام التالية استمرت إحدىٰ الطوائف (الشيعة) في إقناع نفسها بأن الخلفاء الحاليين غير شرعيين؛ لأنهم حصلوا علىٰ سلطتهم بقتل عليّ. وجادلت هذه الطائفة -الشيعة- أنَّ دم الحسين وعليّ ومحمد قدَّم امتيازًا خاصًا في معرفة الله؛ ولذلك يحق فقط للأئمة، من هذه السلالة، قيادة الإسلام. ومع ذلك، رأىٰ معظم المسلمين (أي المسلمين السنَّة؛ لأنهم يتبعونها) أنَّ هذه القصة سخيفة، لكن الشيعة استمروا في بلورة مذهبهم الخاص. وبحلول القرن التاسع، آمن بعضهم بأنَّ سلالة الأئمة تقود إلىٰ مهديٍّ؛ مسيحٍ سوف يؤسس مملكة الله علىٰ الأرض.

لقد كانت فكرة المأمون الواضحة هي تنصيب الإمام المعاصر له ([عليّ الرضا] ابن حفيد حفيد الحسين) وليًا للعهد، وبذلك يصبح الشيعة طائفته الخاصة. لقد كانت حيلة ذكية، وإن كانت مخادعة، إلَّا أنها فشلت عندما مات الإمام في العام نفسه، ورفض ابنه حيلَ المأمون. وبلا خوف، أخرج المأمون

الخطة البديلة. فقد كان بعض المفكرين الدينيين الذين وضعهم في بغداد، متأثرين بالفلسفة اليونانية، مستعدين للقول بأن القرآنَ كتابٌ وضعه بشر، وليس جزءًا من ذاتِ الله (كما يعتقد معظم المسلمين). وعلىٰ هذا النحو، يصبح القرآن -وكل رجال الدين الذين فسروه- خاضعين لسلطة ممثل الله في الأرض، الخليفة. وقد أقام المأمون محاكم تفتيش عراقية ليهدد علماء آخرين كي يوافقوا، لكنَّ عددًا قليلًا من رجال الدين الصامدين تجاهلوا تهديداته وأصرّوا أنَّ القرآن -كلام الله-، فوق علىٰ كل شيء، بما في ذلك المأمون. وطال النضال حتىٰ عام ٨٤٨م، عندما اعترف الخلفاء في النهاية بالهزيمة.

أضعفت كلبيّة أو سينسزميّة (cynicism) خططي المأمون (أ) و(ب) من سلطة الخلافة لكنَّ خطته (ج) حطمتها. ومع تملص السلطة الدينية منه، قرَّر المأمون أن يكون أقل مكرًا وأن يشتري ببساطة قوة عسكرية، وذلك حرفيًا، من خلال شراء فرسان أتراك باعتبارهم جيشًا من العبيد. ومثل غيره من الحكَّام الذين سبقوه، أدرك المأمون وورثته أنَّ البدو غير قابلين للسيطرة. وبحلول عام ٨٦٠م، أصبح الخلفاء واقعيًا رهينة جيش العبيد الخاص بهم. ومن دون قوة عسكرية أو دعم ديني لم يعد بامكانهم توليد الضرائب، وانتهىٰ بهم الأمر ببيع الولايات للأمراء: وهم حكَّام عسكريون دفعوا مبلغًا من المال، ثمَّ احتفظوا بالضرائب التي استطاعوا انتزاعها. وفي عام ٩٤٥م، استولىٰ أحد الأمراء علىٰ بغداد لنفسه، وتفكَّكت الخلافة لاثنتي عشرة إمارة مستقلة.

وفي ذلك الوقت، تفكَّك المركزان الشرقي والغربي إلىٰ أكثر من عشر دول، وعلىٰ الرغم من أوجه تشابه التداعي في المركزين، فقد ظلَّ التطور الاجتماعي الشرقي يرتفع بشكل أكبر من الغربي. وتفسير ذلك مجددًا هو أنَّه ليس الأباطرة والمفكرون هم من يصنعون التاريخ، بل هم ملايين البشر الكسالىٰ، والجشعون، والمذعورون الذين يبحثون عن سُبل أسهل وأكثر ربحًا وأكثر أمانًا لإنجاز الأشياء. وبغض النظر عن الفوضىٰ التي فرضها الحكَّام عليهم، واصل البشر العاديون طريقهم، محققين أقصىٰ استفادة من الأشياء؛ ولأنَّ الوقائع

الجغرافية التي استمر فيها الشرقيون والغربيون اختلفت بشدة، فقد أدَّت الأزمات السياسية في كل مركز إلىٰ نتائج مختلفة تمامًا.

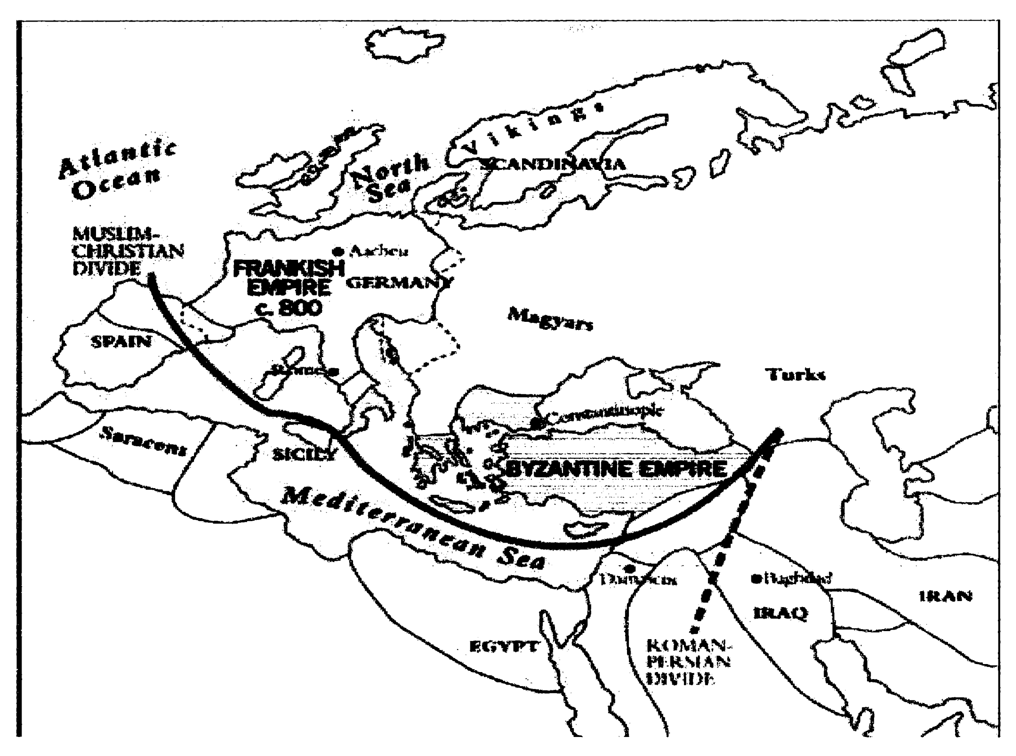
ففي الشرق، كانت الهجرة الداخلية التي أنشأت جبهة جديدة فيما وراء اليانغتسي منذ القرن الخامس هي المحرك الحقيقي وراء التطور الاجتماعي. وأدت استعادة توحيد الإمبراطورية في القرن السادس إلىٰ تسارع زيادة التطور، وبحلول القرن الثامن كان الاتجاه التصاعدي قويًا لدرجة أنَّه نجا من تداعيات حياة شوانزونغ الغرامية. لكنَّ الفوضىٰ السياسية كانت لها بالتأكيد نتائج سلبية؛ فالانخفاض الحاد في النتائج الشرقية في عام ٩٠٠م (الشكل ٧ - ١) -علىٰ سبيل المثال- كان إلىٰ حد كبير نتيجة الجيوش المتنافسة التي استأصلت مدينة شانغهان المليونية. ولكن معظم القتال ظلَّ بعيدًا عن حقول الأرز وقنوات المياه والمدن، وربما عجّل فعليًا بالتطور عن طريق إزالة المسؤولين الصغار في الحكومة الذين سبق لهم تعطيل التجارة. ومع العجز عن الإشراف علىٰ الأراضي المملوكة للدولة في هذه الأوقات العصيبة، فقد بدأ موظفو الخدمة المدنية بجمع الأموال من الاحتكارات والضرائب علىٰ التجارة وتوقفوا عن إخبار التجَّار كيفية التعامل التجاري. كما كان هناك انتقال للسلطة من المراكز السياسية لشمال الصين لتجَّار الجنوب، وبدورهم قام التجَّار، الذين تُركوا لألاعيبهم الخاصة، باكتشاف المزيد من السُبل لتسريع التجارة.

كان الكثير من تجارة شمال الصين الخارجية موجَّهة من قِبَل الدولة بين البلاط الإمبريالي وحكَّام اليابان وكوريا، لكنَّ انهيار السلطة السياسية لأسرة تانغ بعد عام ٧٥٥م أذاب هذه الروابط. وكانت بعض النتائج إيجابية، فمن خلال الانقطاع عن النماذج الصينية تحركت الثقافة النخبوية اليابانية في اتجاهات مميزة ومبتكرة، مع سلسلة كاملة من النساء اللاتي يكتبن روائع أدبية مثل: (The Tale of Genji) أو «حكاية الجني»، و(The Pillow Book) أو «كتاب الوسادة». ومع ذلك، فقد كانت معظم النتائج سلبية. ففي شمال الصين وكوريا واليابان، استمر كل من التباطؤ الاقتصادي وانهيار الدولة معًا في القرن التاسع.

وفي جنوب الصين، علىٰ العكس من ذلك، استغل التجَّار المستقلون حريتهم الجديدة من سلطة الدولة. فالسفن المتحطمة من القرن العاشر التي عُثر عليها في بحر جاوا منذ التسعينيات لا تتضمن وسائل ترف صينية فحسب، بل أيضًا الخزف والزجاج من جنوب آسيا والعالم الإسلامي، ممَّا يشير إلىٰ توسُّع الأسواق في هذه المنطقة. وفي حين أخذت النخب المحلية الضرائب من التجَّار المزدهرين، فقد ظهرت أول دولة في جنوب شرق آسيا فيما يعرف الآن بسومطرة بين الخمير في كمبوديا.

كانت الجغرافية المختلفة لغرب أوروبا الآسيوية، مع عدم وجود ما يعادل جبهة الأرز الشرقية تعني أنَّ الانهيار السياسي له نتائج مختلفة أيضًا. في القرن السابع الميلادي أزالت الفتوحات العربية الحدود القديمة التي فصلت العالمين الروماني والفارسي (الشكل ٧ - ٧)، ممَّا أدىٰ إلىٰ الازدهار في المركز الإسلامي. كما وسَّع الخلفاء الري في العراق ومصر، ونقل المسافرون المحاصيل والتقنيات من نهر السند إلىٰ المحيط الأطلنطي. وانتشر الأرز والسكر والقطن عبر البحر المتوسط الإسلامي، وبالتناوب بين المحاصيل، حصل المزارعون علىٰ اثنين أو ثلاثة مواسم حصاد من حقولهم. بل واخترع المسلمون الذين استعمروا صقلية الأطعمة الغربية الكلاسيكية مثل الباستا والآيس كريم.

ومع ذلك، فإنَّ المكاسب من التغلب علىٰ الحاجز القديم بين روما وبلاد فارس قابلها بصورة متزايدة خسائر سببها حاجز جديد عبر البحر المتوسط، فصل الإسلام عن المسيحية. وفي حين أصبح جنوب المتوسط وشرقه أكثر إسلامًا (في وقت متأخر مثل عام ٧٥٠م، كان ثمة مسلم واحد بالكاد من بين عشرة أشخاص تحت الحكم العربي، وبحلول عام ٩٥٠م، زادت النسبة لتصبح تسعة من بين عشرة)، وأصبحت اللغة العربية هي لغة التواصل وقلَّ الاتصال بالمسيحية، ثمَّ تجزأت الخلافة بعد عام ٨٠٠م، ونصَّب الأمراء حواجز داخل الإسلام أيضًا. كانت بعض المناطق داخل المركز الإسلامي مثل أسبانيا ومصر وإيران كبيرة بدرجة كافية للتعامل مع المطالب الداخلية وحدها، لكن دولًا أخرىٰ تدهورت.



(الشكل ٧ - ٧). تحولات خطوط التصدع: تمثِّل الشُرط الثقيلة خط التصدع الثقافي -السياسي- الاقتصادي بين أعوام (١٠٠ ق. م و٦٠٠ ق. م) الذي يفصل روما عن فارس، ويبيِّن الخط المتصل الخطَ الرئيس بعد عام ٦٥٠م الذي يفصل الإسلام عن المسيحية. وفي أعلىٰ اليسار إمبراطورية الفرنجة في ذروتها، حوالي عام ٨٠٠م، وفي الأسفل العالم الإسلامي، مظهرًا الانقسامات السياسية في عام ٩٤٥م.

في حين تفادت الصين المناطق الحيوية الاقتصادية في القرن التاسع، دُمِّرت شبكة الري العراقية الهشة بواسطة جيوش المماليك المتنافسة وانتفاضة العبيد في أفريقيا التي دامت لأربع عشرة سنة بزعامة قائد ادَّعىٰ في أوقات مختلفة كونه شاعرًا ونبيًا وأنَّه من أحفاد عليّ.

وفي الشرق انحدرت كل من كوريا واليابان نحو الانهيار السياسي عندما دخل مركز شمال الصين في أزمة. وبالمثل في الغرب تفكَّكت الأطراف المسيحية أكثر في الوقت الذي تفكَّك فيه مركز الإسلام. لقد ذبح البيزنطيون الآلاف من بعضهم البعض، وانفصلوا عن الكنيسة الرومانية بسبب أسئلة عقائدية جديدة (ولا

سيما بشأن ما إذا كان الله قد رضي بصور يسوع ومريم والقديسين)، وبدأت الممالك الجرمانية المنفصلة عن البحر المتوسط بتشكيل عالمهم الخاص.

وقد توقَّع بعض مَن هم علىٰ هذه الحافة الغربية البعيدة أن تصبح مركزًا في ذاتها. منذ القرن السادس أصبح الفرنجة قوة إقليمية، وظهرت الآن مدن تجارية صغيرة حول بحر الشمال لإرضاء مطالب الأرستقراطيين الشرهة المتمثلة في وسائل الترف. واستطاع الملوك البارعون في حشد أمرائهم المتنازعين أن يجمعوا ممالك كبيرة لكن مفكَّكة تضم جزءًا كبيرًا من أوروبا الغربية، ولكن تحت حكم ملوك ضعاف سرعان ما تدهورت أيضًا. كما انتهت الممالك التي يحكمها ملوك لديهم عدد كبير من الأبناء بتقسيم أراضيها فيما بينهم - وغالبًا ما أدىٰ ذلك إلىٰ اندلاع حروب لإعادة جمع التركة.

كان القرن الثامن اللاحق فترة جيدة للفرنجة. في عام ٧٥٠م، طلب بابا الفاتيكان حمايتهم ضد المضايقات المحلية، وصباح عيد الميلاد، عام ٨٠٠م، تمكَّن الملك شارلمان من جعل البابا ليو الثالث يجثو علىٰ ركبتيه ويقوم بتتويجه في ساحة القديس بطرس باعتباره إمبراطور روما.

حاول شارلمان بقوة بناء مملكة تستحق اللقب الذي ادَّعاه لنفسه. ولذا حملت جيوشه النار والسيف والمسيحية إلىٰ أوروبا الشرقية ودفعت المسلمين بالعودة إلىٰ أسبانيا، في الوقت الذي جمع فيه بيروقراطيوه بعض الضرائب وجمعوا العلماء في آخن "Aachen" (روما المستقبلية: كما دعاها أحد شعراء بلاطه)، وأنشأ عملة مستقرة، وأشرف علىٰ عملية الإحياء التجاري. ومن المغري مقارنة شارلمان بشياو ون، الذي نقل قبل ثلاثة قرون مملكة وي الشمالية علىٰ الحدود الوعرة للصين تجاه التطور، ممَّا أدىٰ إلىٰ البدء السريع للعملية التي أدت إلىٰ إعادة توحيد المركز الشرقي. لقد عبَّر تتويج شارلمان في روما بالتأكيد عن طموحات مثل طموحات شياو ون، وكذلك البعثات التي أرسلها إلىٰ بغداد طلبًا لصداقتها. وكان الخليفة مفتونًا لدرجة أنَّه أرسل لشارلمان فيلًا، بحسب ما جاء في نصوص الفرنجة.

لكنَّ المصادر العربية لا تذكر شيئًا عن الفرنجة أو الأفيال. ولم يكن شارلمان مثل شياو ون، ويبدو أنَّه كان ذا قدر قليل في مجالس الخليفة. كذلك لم يحرك ادَّعاء شارلمان كونه الإمبراطور الروماني إمبراطورة بيزنطة إيرين كي تتخلىٰ عن عرشها له. ولكن الواقع كان أنَّ مملكة الفرنجة لم تتحرك بعيدًا تجاه التطور. ومع جميع ادَّعاءات شارلمان، لم تكن لديه فرصة لإعادة توحيد أو حتىٰ تحويل الأطراف المسيحية إلىٰ دولة واحدة.

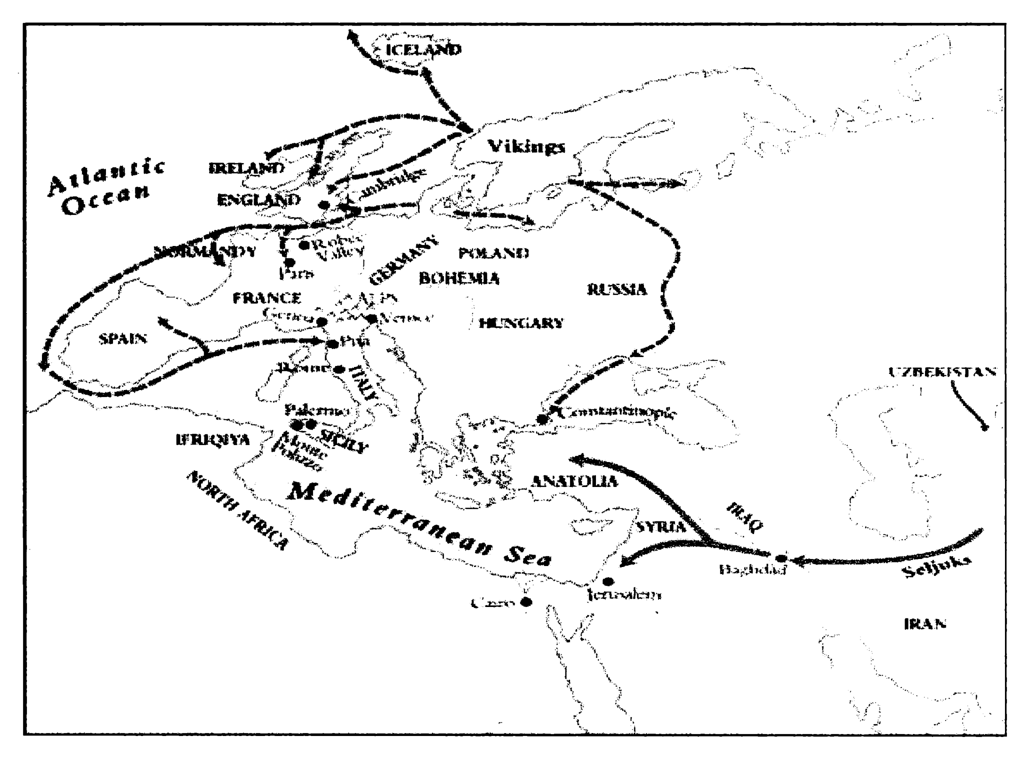
ولسوء الحظ، كان أحد الأشياء التي حققها شارلمان هو زيادة التطور الاجتماعي بما يكفي لإغراء الغزاة من أراضٍ غريبة خارج الأطراف المسيحية. وفي الوقت الذي توفي فيه في عام ٨١٤م، كانت سفن الفايكنج من الدول الإسكندنافية الطويلة تتقدم في الأنهار إلىٰ قلب الإمبراطورية، وكان المجريون علىٰ ظهور مهور السهول الصغيرة القاسية ينهبون ألمانيا، وكان قراصنة ساراكينوس من شمال أفريقيا علىٰ وشك سلب روما نفسها. وكانت آخن غير مجهزة للرد، وعندما رسا الفايكنغ بسفنهم، وأحرقوا القرىٰ جاءت الجيوش الملكية متأخرة جدًّا أو ربما لم تأتِ علىٰ الإطلاق. ولجأ الفلاحون بصورة متزايدة إلىٰ كبار الرجال المحليين للدفاع عنهم بينما لجأ سكان المدن إلىٰ أساقفتهم ورؤساء البلديات. وفي الوقت الذي قسَّم فيه أحفاد شارلمان الثلاثة الإمبراطورية فيما بينهم في عام ٨٤٣م، لم يعد الملوك يعنون الكثير بالنسبة إلىٰ معظم رعاياهم.

تحت الضغط

تعرضت أوروبا الآسيوية بعد عام ٩٠٠م لضغط من نوع جديد، وكما لو أنَّ هذه الضغوط كانت غير كافية. مع استمرار تغيُّر مدار الأرض، زاد الضغط الجوي علىٰ كتلة الأرض، ممَّا أضعف الرياح الغربية التي تهب من المحيط الأطلسي إلىٰ أوروبا، وغيَّر اتجاه الرياح الموسمية إلىٰ جنوب آسيا. وبالنظر إلىٰ النسبة المتوسطة عبر أنحاء أوروبا الآسيوية، ارتفعت درجات الحرارة علىٰ الأرجح من ١ إلىٰ ٢ درجة فهرينهايت، بين أعوام ٩٠٠ و١٣٠٠م، وانخفض سقوط الأمطار بنسبة ١٠٪ تقريبًا.

وكما هو الحال دائمًا، أجبر تغيُّر المناخ الناس علىٰ التكيُّف، لكنه ترك لهم تحديد كيفية القيام بذلك. في أوروبا الشمالية المطيرة الباردة كان مُرحّبًا بما يسمىٰ بفترة العصور الوسطىٰ الدافئة في كثير من الأحيان، وعلىٰ الأرجح تضاعف عدد السكان بين أعوام ١٠٠٠ و١٣٠٠. لكن في المركز الإسلامي الحار والجاف، لم يكن ذلك موضع ترحيب. لقد انخفض مجموع السكان في العالم الإسلامي بمقدار ١٠٪ علىٰ الأرجح، لكن بعض المناطق ازدهرت، ولا سيما في شمال أفريقيا. في أفريقيا عام ٩٠٨م انفصلت تونس الحديثة تقريبًا (الشكل ٧ – ٨)، عن الخلفاء في بغداد. وأقام الشيعة خطًا من الأئمة الخلفاء من المعصومين، وهم يعرفون رسميًا بالفاطميين؛ لأنَّهم ادَّعوا النسب (والإمامية) لابنة محمد، فاطمة. وفي عام ٩٦٩م، غزا هؤلاء الفاطميون مصر، حيث شيَّدوا مدينة جديدة رائعة في القاهرة، واستثمروا في الري. وبحلول عام ١٠٠٠م، امتلكت مصر

أعلىٰ تطور اجتماعي في الغرب، وكان التجَّار المصريون ينتشرون عبر البحر الأبيض المتوسط.



(الشكل ٧ - ٨). الهروب من البرد: هجرات الأتراك السلاجقة (الأسهم المصمتة)، والفايكنج/ النورمانديين (الأسهم المتقطعة) إلىٰ المركز الغربي في القرن الحادي عشر.

لم نكن لنعرف سوىٰ القليل عن هؤلاء لو لم تقرر الجالية اليهودية في القاهرة في عام ١٨٩٠م أن تعيد بناء معبدها البالغ من العمر تسعمائة سنة. ومثل العديد من المعابد، كان لذلك المعبد غرفة تخزين حيث يمكن للمتعبدين إيداع الوثائق غير المرغوب فيها تجنبًا للمخاطرة بالكفر بالتخلص من أوراق مكتوب عليها اسم الإله. وكان يتم عادة إفراغ تلك المخازن بصورة دورية، ولكن هذا المعبد كان يمتلئ بأوراق مهملة تعود لقرون. وفي الوقت الذي بدأ فيه إعادة البناء، بدأت الوثائق القديمة في الظهور في أسواق الأنتيكات بالقاهرة، وفي ربيع عام ١٨٩٦م، حملت شقيقتان إنجليزيتان حزمة من تلك الأوراق إلىٰ كامبردج. وهناك، عرضتا نصين علىٰ سولومون شكتر، قارئ التلمودية في الجامعة. كان

شكتر في البداية متشككًا قبل أن يمر بلحظة الانبهار: فإحدىٰ الوثائق كانت جزءًا من الكتاب الإنجيلي «سيراخ» (Ecclesiasticus)، والمعروف في السابق فقط من الترجمات اليونانية. وقد نزل الدكتور المثقف إلىٰ القاهرة في ديسمبر من العام نفسه، وحمل معه ١٤٠,٠٠٠ وثيقة.

وكان من بينها مئات الرسائل إلىٰ دور التجارة في القاهرة، أُرسلت بين أعوام ١٠٢٥ و١٢٥٠م من أماكن بعيدة مثل أسبانيا والهند. لقد تفتتت الانقسامات الأيديولوجية التي تشكَّلت في أعقاب الفتوح العربية بينما أدىٰ النمو السكاني إلىٰ زيادة الأسواق والأرباح، وكانت تعني القليل لهؤلاء الممثلين، الذين كانوا قلقين بشأن الطقس وعائلاتهم وأن يصبحوا أثرياء أكثر من قلقهم بشأن الدين والسياسة. وفي هذه المسألة، ربما كانوا متطابقين مع تجَّار البحر المتوسط؛ فيبدو أنَّ التجارة -بالرغم من أن ذلك أقل توثيقًا- كانت عالمية ومربحة في أفريقيا وصقلية بالقدر نفسه، حيث غدت باليرمو الإسلامية مدينة مزدهرة تتاجر مع شمال إيطاليا المسيحي.

وحتىٰ مونتي بوليزو، وهي قرية صقلية كنت قد نقبتُ فيها في السنوات القليلة، لعبت دورًا مهمًا كذلك. وكما ذكرت في الفصل الخامس، فقد ذهبتُ إلىٰ هناك لدراسة آثار الاستعمار الفينيقىٰ واليوناني في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، ولكن عندما بدأنا التنقيب في عام ٢٠٠٠م وجدنا قرية ثانية فوق المنازل العتيقة. أُقيمت هذه القرية الثانية عام ١٠٠٠م، ربما من قِبل المهاجرين المسلمين من أفريقيا، وأُحرقت في عام ١١٢٥م. وعندما قام عالم النبات في فريقنا بنخل البذور المتفحمة المنقب عنها في أنقاض القرية، اكتشف -لدهشة الجميع- أنَّ أحد المباني كان مخزنًا مليئًا بالقمح المطحون بعناية، وبالكاد يوجد عشب فيه. وشكَّل ذلك تناقضًا حادًا مع البذور التي وجدناها في سياقات القرن السادس قبل الميلاد، والتي كانت دائمًا مختلطة بالكثير من الأعشاب والتبن. وكان ذلك يستخدم في صنع خبز خشن بالتأكيد، وهو ما يمكن توقعه في قرية زراعية بسيطة، حيث يزرع الناس المحاصيل من أجل موائدهم ولا يقلقون من الحسوات الكريهة التي تأتي من حين لآخر. أما هذه الغربلة الإجبارية التي

خلَّصت دقيق القرن الثاني عشر من جميع الشوائب، فهي بالضبط ما يمكن توقعه من مزارعين تجاريين ينتجون من أجل أناس المدينة الذين يصعب إرضاؤهم.

كان من الممكن أن يزدهر اقتصاد البحر المتوسط حقًّا في حال ارتبطت مونتي بوليزو بالشبكات الدولية. ولكنَّ أقدم جزء من المركز الإسلامي، في جنوب غرب آسيا، لم يكن يبلي بلاءً حسنًا. كان الأمر سيئًا للغاية لدرجة أنَّه منذ عام ٨٦٠م ظلَّ المماليك الأتراك الذين اشتراهم خلفاء العراق لجيوشهم يشنّون انقلابات وينصَّبون أنفسهم سلاطين، ولكن الأسوأ كان لا يزال قادمًا. فمنذ القرن السابع ظلَّ التجَّار والدعاة المسلمون ينشرون دعوة محمد الخيّرة في القبائل التركمانية في السهول، وفي عام ٩٦٠م اعتنقت قبيلة كارلوك فيما يُعرف الآن بأوزباكستان -والمكونة كما يُعتقد من ٢٠٠٠٠٠ أسرة- الإسلام. لقد كان ذلك انتصارًا للإسلام، ولكن سرعان ما تحوَّل إلىٰ كابوس للسياسيين. أسَّس شعب كارلوك إمبراطورية قراخانات وأتبعت قبيلة تركمانية أخرىٰ، وهم السلاجقة، إسلامهم بالهجرة، فظلّوا يغنمون في طريقهم عبر إيران واستولوا علىٰ بغداد في عام ١٠٥٥م. وبحلول عام ١٠٧٩م دفعوا البيزنطيين خارج معظم الأناضول والفاطميين خارج سورية.

وسرعان ما تباين جنوب غرب آسيا الإسلامي عن مناطق البحر المتوسط الإسلامية المزدهرة. وقد ضمَّ السلاجقة التركمان إمبراطورية كبيرة، ولكنَّها كانت أكثر اختلالًا من الخلافة. وعندما توفي أول حكَّامها في عام ١٠٩٢م، اتبع أبناؤه تقاليد السهول بتقسيم الإمبراطورية إلىٰ تسعة أجزاء وقتال بعضهم البعض. وتمثّلت الذراع الحاسمة في حروبهم في الفرسان؛ ولذا منح الملوك السلاجقة ممتلكات عظيمة لأمراء الحرب الذين استطاعوا أن يقدموا أتباعًا لهم. وقد سمح هؤلاء الزعماء الرُّحَّل، كما هو متوقع، بتدهور الإدارة وتوقفوا حتىٰ عن سك العملات المعدنية. ونتيجة لذلك، انكمشت المدن وامتلأت قنوات الري بالطمي، وهُجرت القرىٰ الهامشية. وكان علىٰ المزارعين في فترة العصور الوسطىٰ الدافئة النضال باستمرار للحفاظ علىٰ حقولهم الثمينة من أن تتحول إلىٰ سهول وصحراء، لكنَّ سياسات السلاجقة جعلت عملهم أصعب. ورحّب العديد من الغزاة بتدهور

الزراعة، مفضلين أنماط الحياة البدوية علىٰ الحضرية، وبينما انقضىٰ القرن الثاني عشر غادر المزيد والمزيد من العرب حقولهم وانضموا إلىٰ التركمان في رعي القطعان.

وخشية من انتشار النظريات الشيعية المتطرفة في هذه السنوات المضطربة، أقام العلماء في شرق إيران مدارس لتطوير وتعليم استجابة سنية متسقة، دعمها أمراء السلاجقة بشدة في القرن الثاني عشر. وتظل معالم العلم فيها -مثل إحياء علوم الدين للغزالي، الذي استند إلىٰ المنطق اليوناني للتوفيق بين الفقه الإسلامي والصوفية والوحي المحمدي- هي أُسس الفكر السني حتىٰ يومنا هذا. وقد كان الإحياء السُني ناجحًا في الحقيقة لدرجة أنَّ بعض الشيعة قرروا أنَّ اغتيال قادة السُنة كان هو الحل العملي الوحيد. ومن خلال تراجعهم إلىٰ جبال إيران، شكَّلوا جمعية سرية معروفة لأعدائها باسم (assasin: الحشَّاشين) «القتلة» (بحسب الأسطورة، أُطلق عليهم هذا الاسم لأنَّ أعضاءها كانوا يدخنون الحشيش كي يضعهم في المزاج الملائم للقتل).

لم تستطع الاغتيالات صدَّ الإحياء السُني، ولكن لم تتمكن أي حركة فكرية -رغم نجاحها- من توحيد دولة السلاجقة، ومن دون نوع التنظيم السياسي الذي قدَّمته ممالك الفاطميين في شمال أفريقيا، اختنقت أراضي السلاجقة تحت ضغط فترة العصور الوسطىٰ الدافئة. كان التوقيت غير ملائم؛ لأنَّ الطقس الذي شكَّل هذه التحديات في جنوب غرب آسيا هو نفسه الذي أتاح فرصًا للمغيرين الفوضويين والتجَّار والغزاة علىٰ الأطراف الأوروبية للمركز الإسلامي. ومن المهم بالقدر نفسه أنَّ ارتفاع درجات الحرارة قد جلب لشمال أوروبا مواسم زراعة أطول ومحاصيل أكثر، جاعلًا من الأراضي الطرفية سابقًا ذات مكسب محتمل. وفي الوقت الذي هدأت فيه فترة العصور الوسطىٰ الدفيئة، كان المزارعون قد حرثوا مساحات شاسعة من الأراضي التي كانت غابات في السابق، وقطعوا ربما نصف الأشجار في أوروبا الغربية.

ومثل كل حلقات التوسُّع منذ انتشار الزراعة من التلال، ثمة سيرورتان اندمجتا معًا لجلب التقنيات الزراعية المتقدمة من غرب أوروبا إلىٰ شرقها. كانت

السيرورة الأولىٰ هي الاستعمار، تقودها الكنيسة غالبًا، وهي عادة المؤسسة الوحيدة المنظمة تنظيمًا جيدًا علىٰ الحدود. وقد كتب جيرالد الويلزي: «امنح هؤلاء الرهبان أرضًا خالية أو خشبًا بريًا، ثمَّ دع سنوات قليلة تمر، وستجد ليس فقط الكنائس الجميلة ولكن أيضًا مساكن لرجال بُنيت حولها». لقد كان التوسُّع عمل الرب، وبحسب إحدىٰ حملات التجنيد في عام ١١٨٠م، فإنَّ الوثنيين هم أسوأ الرجال لكن أراضيهم هي الأفضل، وبها اللحم والعسل والدقيق . . . «هنا ستتمكنون من إنقاذ أرواحكم [بإرغام الكفرة علىٰ التحول]، وإذا شئتم، اكتساب أرض جيدة جدًّا للاستقرار».

وقد هرب هؤلاء الوثنيون تارة، واستسلموا تارة أخرىٰ، وغالبًا ما انتهىٰ بهم الحال في مكانة أفضل قليلًا من الرقيق. ولكن مثل مواجهة مجتمعات الصيد والجمع للمزارعين أو مواجهة الصقليين للمستعمرين اليونانيين قبل ذلك بآلاف السنين، انتظموا أحيانًا وصمدوا في أراضيهم. وبينما تحرَّك المزارعون الفرنجة والجرمانيون إلىٰ الشرق، يقطعون الأشجار ويحرثون، استنسخ بعض القرويين في بوهيميا، وبولندا، وهنغاريا، وحتىٰ روسيا البعيدة تقنياتهم الخاصة، مستغلين تحسُّن الأحوال الجوية لزراعة أراضيهم بكثافة أكثر. وأقنعهم أو أجبرهم رؤساؤهم الذين تحوَّلوا إلىٰ المسيحية علىٰ أن يكونوا رعايا يدفعون الضرائب وأن يحاربوا المستعمرين (وبعضهم البعض).

كانت هناك أمور مشتركة كثيرة بين انتشار الدول والكنائس والزراعة الكثيفة عبر أوروبا والحدود الزراعية التي نشأت جنوب اليانغتسي منذ القرن الخامس، إلَّا أنهما اختلفا في مسألة جوهرية: لم ينتج انتشار الدول تدفقات تجارية رئيسة بين الحدود الريفية الجديدة والمركز الحضري القديم. وفي غياب مكافئ في أوروبا الوسطىٰ للقناة الكبرىٰ في الصين، لم تكن هناك طريقة رخيصة لنقل الحبوب البولندية للمدن الكبرىٰ مثل باليرمو والقاهرة. وكانت مدن أوروبا الغربية أقرب للحدود وكانت تكبر، لكنَّها ظلَّت قليلة جدًّا وصغيرة جدًّا لأن توفر ما يكفي للأسواق. وبدلًا من استيراد المواد الغذائية من أوروبا الشرقية، نمت هذه

المدن الأوروبية الغربية بوجه عام عن طريق تكثيف الإنتاج المحلي واستغلال مصادر الطاقة الجديدة.

وانتشرت الطواحين المائية المشهورة بالفعل في المركز الإسلامي في الأطراف المسيحية. فقد زاد عدد المطاحن في وادي روبيك في فرنسا إلىٰ خمسة أضعاف بين القرنين العاشر والثالث عشر، علىٰ سبيل المثال، ويقول كتاب (Domesday Book) أو «نهاية العالم»، وهو إحصاء عام صُنِّف في عام ١٠٨٦م - إنَّ إنجلترا ضمت ٥٦٢٤ طاحونة. كما عَلِمَ المزارعون مزايا الخيول التي تأكل أكثر من الثيران ولكنَّها تستطيع أن تجر المحاريث أسرع وتعمل فترات أطول. ورجحت كفة الميزان في صالح الخيول ببطء، بعد عام ١٠٠٠م، عندما تبنىٰ الأوروبيون -لأسباب سأعود إليها في الفصل الثامن- من المسلمين الحدوات المعدنية للخيول، ممَّا قلل الاحتكاك، واستبدلوا ألجمتهم الغليظة الخانقة التي تطوِّق الحلق بأطواق للرقبة زادت قوة جر الخيول بمعدل أربعة أضعاف. وفي عام ١٠٨٦م، كان هناك حصان واحد من بين ٢٠ حيوانًا مستخدمًا للجر علىٰ أراضي البارونات الإنجليز، وبحلول عام ١٣٠٠م أصبح الحصان واحدًا بين كل خمسة حيوانات. ومع هذه القوة الإضافية للحصان (ناهيك عن السماد الإضافي) استطاع المزارعون تقليل الأراضي البور سنويًا، معتصرين المزيد من خصائصها.

وظلَّت مزارع أوروبا أقل إنتاجية من مزارع مصر أو الصين، ولكنَّها كانت لديها فوائض كي تبيع إلىٰ المدن، ومن ثمَّ اتخذت المدن المتنامية أدوارًا جديدة. كان كثير من الأوروبيين الشماليين الغربيين عبيدًا، مرتبطين قانونيًا بالعمل في أراضي اللوردات الذين وفروا لهم الحماية من المعتدين، (ومن غيرهم من اللوردات). ومن الناحية النظرية علىٰ الأقل، احتفظ اللوردات بمناصبهم باعتبارهم أتباع الملوك، يسددون حق الملوك بالقتال بفرسان مسلَّحين، ودان الملوك بمناصبهم إلىٰ الكنيسة التي قامت بتوزيع رضا الإله. ولكنَّ اللوردات والملوك والكنيسة أرادوا الوصول إلىٰ الثروة التي تتراكم الآن في المدن، واستطاع سكَّان المدينة في كثير من الأحيان التفاوض علىٰ التحرر من الالتزامات الإقطاعية في مقابل التنازل عن قطعة منها.

ومثل الحكَّام الأقل تطورًا بالعودة إلىٰ مملكة آشور وچو، كان الملوك الأوروبيون يقومون بالابتزاز مقابل الحماية، ولكن نسختهم كانت أكثر فوضوية من نسخة معظم أسلافهم. وتدخل كل من الوجهاء والملوك ورجال الكنيسة باستمرار في شؤون بعضهم البعض، وفي غياب السلطات المركزية الحقيقية، كان الصراع حتميًا. ففي عام ١٠٧٥م -علىٰ سبيل المثال- زعم البابا جريجوري السابع أنَّ له الحق في تعيين جميع الأساقفة في ألمانيا. وكان هدفه إصلاح أخلاق زعماء الكنيسة، ولكن في ظل أنَّ الأساقفة قد سيطروا علىٰ شرائح واسعة من أراضي ألمانيا، فقد كان للحركة أيضًا الجانب الإيجابي لمنح جريجوري السيطرة علىٰ جزء كبير من قاعدة موارد ألمانيا. أصيب الإمبراطور الألماني هنري الرابع بالرعب، وردَّ علىٰ ذلك بدعوىٰ أنَّه بوصفه المدافع عن الدين، فإنَّ من حقه إقالة جريجوري - «هو ليس البابا الآن» كما أصرَّ هنري «لكنَّه راهب مزيف . . . أنا هنري، بتوفيق الرب، وجنبًا إلىٰ جنب مع جميع الأساقفة، أقول لك: تنازل! تنازل!».

وبدلًا من التنازل، طرد جريجوري هنري من الكنيسة، وطرده خارج العقيدة المسيحية. ومن الناحية العملية، كان ذلك يعني أنَّ إقطاعيي ألمانيا أصبح بإمكانهم تجاهل حاكمهم بشكل شرعي. وبعد أن أصبح هنري غير قادر علىٰ فعل شيء في أرضه، انحدر به الحال في غضون سنة إلىٰ الركوع حافيًا في الثلج لمدة ثلاثة أيام خارج دير في جبال الألب، يتسول عفو البابا. وقد حصل علىٰ ذلك، ثمَّ ذهب إلىٰ الحرب مع البابا. ولم ينتصر أي منهم. فالبابا جريجوري خسر تأييد الجميع بعد أن نهب المرتزقة التابعون له روما لأنَّه لم يدفع لهم، وأنهىٰ الإمبراطور حياته فارًا من ابنه، ولم يتم حل النزاع الديني إطلاقًا.

كانت أوروبا في القرن الحادي عشر مليئة بمثل هذه الصراعات المتشابكة، ولكن شيئًا فشيئًا جعل حل هذه الصراعات تدريجيًا المؤسسات أقوىٰ ومجالات مسؤولياتها أكثر وضوحًا. وتمكَّن الملوك من تنظيم الضرائب علىٰ الشعوب في أراضيها ونقلها وفرضها. ولقد أطلق أحد المؤرخين علىٰ هذه العملية «تشكيل مجتمع مستبد»: فقد أقنع المسؤولون الملكيون الناس بأن يروا أنفسهم كجزء من

دولة (إنجليزية، فرنسية، وهكذا)، معرَّفة ضد ما لم يكونوه هم - المنبوذون مثل اليهود والشواذ والمصابون بمرض الجذام والمهرطقون، الذين ولأول مرة جُرّدوا من الحماية وتمَّ ترهيبهم. وقد بزغت دول ذات فعالية متزايدة من هذه العملية الكريهة.

ويتحدث مؤرخون آخرون بنبرة أكثر سعادة عن «عصر الكاتدرائيات» في الوقت الذي انتشرت فيه الآثار الرائعة في أنحاء أوروبا. ففي فرنسا وحدها بُنيت ٨٠ كاتدرائية، و٥٠٠ دير، وعشرات الآلاف من الكنائس الأبرشية في الفترة بين أعوام (١١٨٠ و١٢٧٠م). لقد اقتُلع أكثر من ٤٠ مليون متر مكعب من الحجارة، أي أكثر من حجارة الهرم الأكبر في مصر.

وتدهور العلم في أوروبا الغربية مع تدهور الإمبراطورية الرومانية، وتعافىٰ جزئيًا فقط في فرنسا في عهد شارلمان، ولكن بعد عام ١٠٠٠م، بدأ المعلمون في التجمّع حول الكاتدرائيات الجديدة وأنشؤوا مدارس علىٰ غرار مدارس المفتين المستقلين في العالم الإسلامي. وقد أحضر المسيحيون الذين ذهبوا للدراسة في أسبانيا الإسلامية معهم ترجمات لأطروحات أرسطو في المنطق والتي حُفظت لقرون من قِبل علماء البلاط العربي. وعزز كل ذلك الحياة الفكرية المسيحية، ممَّا ساعد علىٰ التفكُّر في الله بالطرق المتطورة نفسها لمنظّري المأمون في بغداد في القرن التاسع، ولكنَّه خلق أيضًا صراعات جديدة داخل النخبة المثقفة.

لا يشرح هذا الأمر أفضل من بيتر آبيلارد، وهو شاب ذكي غارق في التعليم الجديد، ظهر في باريس في حوالي عام ١١٠٠م. انتقل آبيلارد من مدرسة لأخرىٰ يهين علنًا معلميه المتفلسفين ويُخطّئهم بمنطقه الأرسطوطاليسي. ورأىٰ الأساتذة الأمناء لكن المتثاقلون مهنتَهم تنهار عندما استخدم بضعة وعشرون رجلًا مثل آبيلارد مهارات النقاش الحادة لرمي التقاليد (وربما مصير أرواح الجميع) في شرك الالتباس والغموض. وقد أُعجب آبيلارد إلىٰ حد مُفرط بنفسه وأنشأ مدرسته الخاصة، وبسرعة أغرىٰ إحدىٰ طالباته، وهي المراهقة إلواز، وغشيها فحملت منه. لكن أسرتها، التي شعرت بالعار، ردت الضربة: حكىٰ آبيلارد خجلًا: «في

إحدىٰ الليالي، عندما كنت مستغرقًا في نوم عميق، قاموا بقطع الأعضاء التي ارتكبتُ بها الفعل الذي أبغضوه».

وانسحب كل من آبيلارد وإلواز إلىٰ بيوت الله، ولمدة عشرين عامًا حافظوا علىٰ المراسلات، مبررة ذاتيًا من جانبه، وشخصية بشكل مؤلم من جانبها. وفي أثناء هذا التقاعد القسري كتب آبيلارد كتاب (Sic et Non) أو «نعم ولا»، وهو دليل لتطبيق المنطق علىٰ متناقضات المسيحية؛ وإذا كان اسم آبيلارد قد أصبح عبرة لمخاطر العلم الجديد، فقد أجبر رغم ذلك منظّري المسيحية علىٰ التوفيق بين سلطة النص وعقلانية أرسطوطاليسية. وبحلول عام ١٢٧٠م، عندما أكمل ذلك توما الأكويني في مؤلفه (On Christian Theology) أو «في اللاهوت المسيحي»، كان العلم المسيحي متطورًا بقدر الإحياء السُني نفسه.

لكن أوروبيينٰ آخرين فعلوا عكس آبيلارد: وبدلًا من جلب الأفكار والمؤسسات من المراكز الإسلامية إلىٰ الأطراف المسيحية، انتقلوا بأنفسهم إلىٰ المركز الإسلامي. وتنافس تجَّار فينيسيا وجنوىٰ وبيزا مع تجَّار القاهرة وباليرمو لأجل تجارة مربحة، حيث اشتروا وباعوا وسرقوا وتقاتلوا. وفي أسبانيا ساعد المهاجرون من شمال غرب أوروبا المزدحم المسيحيين المحليين لدفع المسلمين للوراء، وحول كل أنحاء البحر الأبيض المتوسط أطلق النورمان (أو النرويجيون) عاصفة من النهب والغزو.

كان النورمانديون هم أحفاد فايكنج سكاندينافيا الوثنيين الذين ازدهروا بكونهم غازين علىٰ أقصىٰ هامش شمال غرب طرف أوروبا في القرن التاسع، ولكنَّهم تقدَّموا في القرن العاشر نحو أنماط أكبر من السرقة. ومع فتح فترة العصور الوسطىٰ الدفيئة مياه شمال الأطلسي، أخذوا مراكبهم الطويلة إلىٰ أيسلندا وجرينلاند، وحتىٰ فينلاند في أمريكا الشمالية. واستقروا بكثافة في أيرلندا وبريطانيا وفي شمال فرنسا، ونصَّب زعيمهم رولو نفسه ملكًا شرعيًا (علىٰ ما يعرف الآن بنورماندي) باعتناق المسيحية في عام ٩١٢م.

ظلَّ النورمانديون غامضين في تفاصيل عقائدهم، وقد قاموا بالتضحية بمائة أسير في جنازة رولو في عام ٩٣١م، ولكن عنفهم جعلهم مرغوبين باعتبارهم

مرتزقة في أماكن بعيدة مثل القسطنطينية. وعبر استئجارهم في عام ١٠١٦م للمحاربة علىٰ الجانبين في الحروب التي لا تنتهي في جنوب إيطاليا، شرعت عصابات النورمان في تأسيس دولتهم والضغط علىٰ صقلية في عام ١٠٦١م، وشنّوا حربًا شبه إبادية ضد السكّان المسلمين. وإذا قمتَ بزيارة جزيرة صقلية اليوم سيصعب عليك العثور علىٰ آثار تعود إلىٰ قرني الحكم الإسلامي هناك، وهي الفترة التي كانت فيها الجزيرة أعجوبة البحر المتوسط.

لم يكن للنورمانديين عداء خاص ضد الإسلام؛ فقد عاملوا الرفاق المسيحيين بالسوء نفسه. ووصفهم كاتب إيطالي بأنّهم «عِرقٌ وحشي همجي ومروِّع ذو نزعة لا إنسانية»، وكانت آنا كومنينا (Anna Comnena)، وهي أميرة بيزنطية، أكثر هلعًا منهم. فكتبت: «كلما وقعت حرب ومعركة، يكون هناك عواء في قلوب [النورمان]، ولا يمكن ردعهم. ليس فقط الجنود فحسب لكن قادتهم يرمون أنفسهم بلا مقاومة في صفوف الأعداء».

لقد تعلم البيزنطيون عن النورمان بالطريقة الصعبة. في القرنين التاسع والعاشر انتعشت القوة البيزنطية قليلًا في حين تحوَّل المسلمين إلىٰ قتال بعضهم البعض، وفي عام ٩٧٥م، أصبح الجيش البيزنطي علىٰ مرأىٰ من القدس (وقد أخفق في الاستيلاء علىٰ المدينة المقدسة لكنَّه حرَّر صندل يسوع وشعر المعمدان يوحنا). ولكن في غضون قرن، أصبح البيزنطيون يعتمدون بشكل خطير علىٰ المرتزقة النورمان الذين ساهمت عدم جدارتهم بالثقة (لأنَّه بالرغم من كل تلك الشراسة التي تميِّزهم، كانوا يهربون بانتظام) في الهزيمة الكارثية علىٰ أيدي الأتراك في عام ١٠٧١م. وبعد عشرين عامًا، بوجود القسطنطينية تحت الحصار التركي، كتب الإمبراطور البيزنطي رسالة إلىٰ البابا في روما، آملًا في المساعدة لاستئجار مزيد من المرتزقة. لكنَّ البابا، كانت لديه أفكار أخرىٰ. لقد كان يسعىٰ إلىٰ تعزيز موقعه في صراعاته مع ملوك أوروبا، فدعا إلىٰ انعقاد قمة في عام ١٠٩٥م، وطرح فكرة حملة -صليبية- لإلقاء الأتراك خارج القدس.

وكانت هناك حماسة جامحة أكثر بكثير في الحقيقة من التي تمناها البابا أو البيزنطيون. وشرع عشرات الآلاف من القرويين في السير إلىٰ الشرق، ينهبون

وسط أوروبا، ويذبحون اليهود في طريقهم. ووصلت قلة منهم فقط إلىٰ الأناضول، حيث ذبحهم الأتراك. ولم يصل أي منهم للأرض المقدسة إلَّا باعتبارهم عبيدًا.

لكنَّ الأكثر فائدة، كانت الجيوش الثلاثة التابعة لفرنسا والفرسان النورمانديين، المدعوميْن بتجَّار جنوىٰ، الذين اقتربوا من القدس في عام ١٠٩٩م. وكان التوقيت مثاليًا: فقد كان السلاجقة مشغولين بقتال بعضهم البعض علىٰ أن يقدموا الكثير من المقاومة، وبعد مفاخر التبجح، اخترق الصليبيون أسوار المدينة المقدسة. وطيلة ١٢ ساعة نهبوا وقتلوا علىٰ نطاق صدم حتىٰ النورمانديين فيما بينهم، وأحرقوا اليهود أحياء وقطَّعوا المسلمين إربًا (علىٰ الأقل، كما لاحظت امرأة يهودية، لم يتّبع المسيحيون ممارسة الأتراك في اغتصاب ضحاياهم أولًا). وفي النهاية، بحلول الفجر، نثر المنتصرون الدماء بأرجلهم التي غاصت فيها حتىٰ الركب وهم يسيرون نحو كنيسة القيامة كي يشكروا الرب.

ولكن رغم هذا الهجوم المثير، فإنه لم يشكِّل تهديدًا خطيرًا علىٰ الإسلام. فالمملكة المسيحية في القدس تراجعت باطراد حتىٰ استعاد المسلمون المدينة في عام ١١٨٧م. وتبع ذلك المزيد من الحروب الصليبية التي باء معظمها بالفشل الذريع، وفي عام ١٢٠٤م انتهىٰ الأمر بالحملة الرابعة، وبعد عدم القدرة علىٰ شراء السفن، قامت بتأجير نفسها باعتبارها قوة للممولين الفينيسيين، واجتاحت القسطنطينية لا القدس. ولم تتعاف الحركة الصليبية ولا الإمبراطورية البيزنطية من هذا العار.

لقد كان شكل الغرب يتغيَّر تحت ضغط فترة العصور الوسطىٰ الدافئة. وظلَّت أراضي المسلمين هي المركز، ولكنَّ التطور الاجتماعي شهد ركودًا في جنوب غرب آسيا، وانتقل مركز ثقل الإسلام في اتجاه البحر المتوسط، وحتىٰ داخل البحر الأبيض المتوسط كان هناك رابحون وخاسرون. وأصبحت مصر دُرة التاج الإسلامي، وسقطت بيزنطة آخر آثار روما في سقوط أخير، واتسع هامش الشمال الغربي الوحشي والمتخلف بشكل أسرع من الجميع.

لم تختلف الأمور كثيرًا في المركز الشرقي. فقد تفكَّكت إمبراطورية تانغ في عام ٩٠٧م، لكن بحلول ٩٦٠م، وُحّدت الصين مرة أخرىٰ. كان تاي سو - أول إمبراطور لأسرة سونغ الجديدة- جنديًا قويًا، ولكنَّه رأىٰ أنَّ نمو العلاقات الاقتصادية والثقافية بين مناطق الصين عبر القرون القليلة الماضية جعل الكثير من النخب تشعر بأنَّ الصين ينبغي أن تكون إمبراطورية واحدة. واعتقد تاي سو بأنَّه إذا امتلك الشروط الصحيحة، فسينضم هؤلاء إليه بدلًا من قتاله. وعندما تطلب الأمر القوة استخدمها تاي سو بسهولة ولكن علىٰ عكس المساعي السابقة الرامية إلىٰ توحيد المركزين، فقد خضعت معظم الدول سلميًا وتقبل معظمهم حكم السونغ.

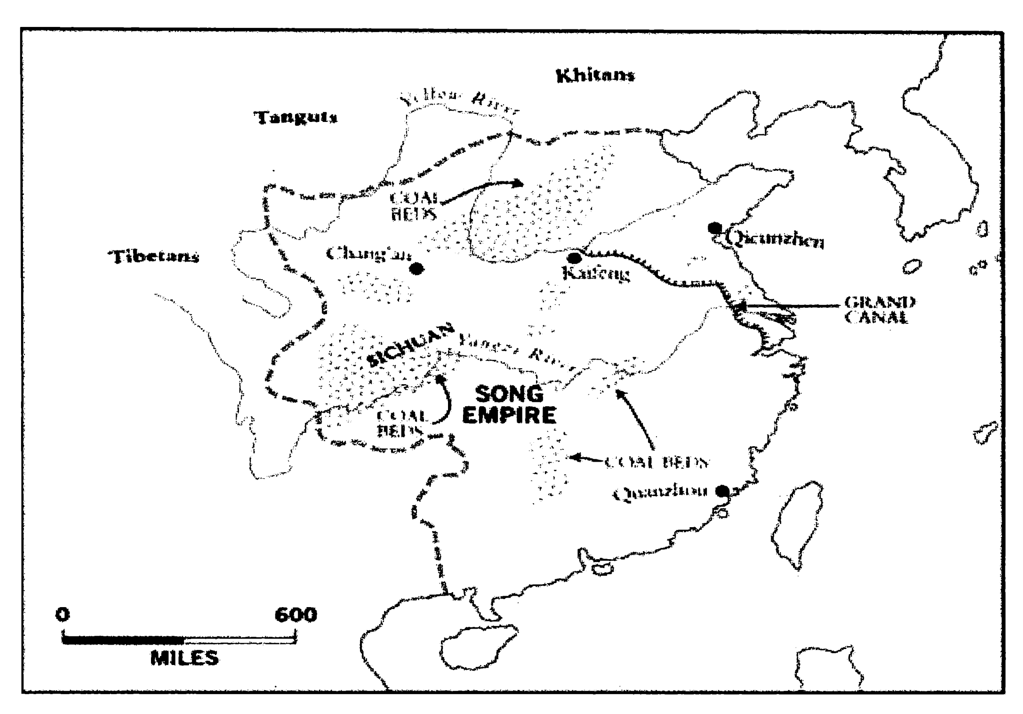
لقد أدرك تاي سو أنَّ القادة العسكريين أطاحوا بمعظم الأسر الحاكمة السابقة؛ ولذا تخلص منهم ببساطة. فمن خلال دعوة الجنرالات الذين وضعوه علىٰ العرش إلىٰ وليمة قام «بحل سلطة العسكريين بكأس من النبيذ»، كما جاء في السجلات التاريخية الرسمية. وشرب علنًا نخب الجنرالات لوصولهم لسن التقاعد (الأمر الذي كان بمثابة الأخبار الجديدة للجنرالات أنفسهم). ومن المفاجئ أن تاي سو نجا بانقلابه السلمي هذا، ومنذ ذلك الحين كان عندما يحشد الجيش، يقوده بنفسه.

كان الانتقال من الحكم العسكري إلىٰ حكومة مدنية طريقة ذكية للوصول إلىٰ الرغبة الواسعة في السلام والوحدة. لكنَّ العيب الوحيد في ذلك هو أنَّ الصين كانت لا تزال لديها أعداء، ولا سيما مجموعتين من الرُحَّل، وهما

الخيتان والتانجوت اللتان أقامتا إمبراطوريات تتجاوز الحدود الشمالية للصين (الشكل ٧ - ٩). وهذه الأمور لم يكن يمكن حلها بالنبيذ، وبعدما خسر جيشًا وكان الإمبراطور علىٰ وشك الأَسر، لجأ السونغ إلىٰ سياستهم القديمة في شراء السلام بالهدايا.

نجح هذا الأسلوب إلىٰ حد ما، ولم يكتسح لا الخيتان ولا التانجوت المركز الشرقي مثلما فعل السلاجقة في الغرب. لكنَّ الجانب السلبي هو أنَّ السونغ، مثل الأسر الحاكمة السابقة، سرعان ما كانوا يفلسون أنفسهم من أجل الهدايا والحاميات التي لم تحفظ السلام. وبحلول عام ١٠٤٠م، كانوا يدعمون جيشًا قوامه مليون رجل ويشترون آلاف الملابس المدرعة وملايين النصال كل شهر، وهو ما لم يكن يخطط له تاي سو.

وقد تمنىٰ بعض الجنرالات أن تنقذ الأسلحة العجيبة الصين من الانزلاق مجددًا في الدوامة القديمة مع السهوب. وقد اكتشف خيميائيو الطاوية نوعًا بدائيًا من البارود في حوالي عام ٨٥٠م، (ويا للسخرية، كان ذلك في أثناء بحثهم عن أكسير الحياة الأبدية)، وبحلول عام ٩٥٠م تُظهر اللوحات أناسًا يبخّون مسحوقًا محترقًا علىٰ بعضهم البعض من أنابيب من الخيزران، وفي عام ١٠٤٤م وصف كُتيب عسكري «دواء ناريًا» معبأ في ورق أو خيرزان ويلقىٰ به بواسطة منجنيق. لكنَّ البارود كان مثل الكلب الذي ينبح ولا يعضّ، وفي حين أنَّه روَّع الخيول كان من النادر أن يصيب أي شخص حتىٰ ذلك الحين.



(الشكل ٧ - ٩). الإمبراطورية المناهضة للنظام العسكري: انقسام الصين حوالي عام ١٠٠٠م بين دول السونغ، والخيتان، والتانجوت. تشير النقط إلىٰ حقول الفحم الحجري الرئيسة للصين.

وفي ظلّ غياب التقدم التكنولوجي، احتاج جيش السونغ ببساطة إلىٰ المزيد من الأموال. وجاءت المساعدة من اتجاهات غير متوقعة. واحد من تلك الاتجاهات كان عن طريق المفكرين الصينيين. بعد أن قلب تمرد آن لوشان البلاد إلىٰ حالة من الفوضىٰ في عام ٧٥٥م، شكَّ الكثير من العلماء في حماس كل ما هو أجنبي، الأمر الذي كما رأوه لم يمنح الصين سوىٰ الجنرالات التركمان والاضطراب. وبدأت فترة الخمسة قرون منذ سقوط الهان في مهاجمة الكثير من أفراد الطبقة الحاكمة المحبَطين باعتبارهم فصلًا إضافيًا جديدًا قد أفسد التقاليد الصينية. وأهم الواردات الخارجية الفاسدة -كما جادلوا- كانت البوذية.

في عام ٨١٩م، أرسل السيد المثقف هان يو «نصبًا تذكاريًا لعظام بوذا» إلىٰ الإمبراطور للتعبير عن صدمته إزاء حالة الهستيريا الجماعية التي اندلعت عندما نقل دير أحد العظام (العديدة) التي قيل إنها لبوذا. البوذية، كما أصرَّ هان «ليست أكثر من طائفة من البرابرة». وفي الأيام التي غوت فيها البوذية الصين -كما

جادل- «كان المسؤولون مع وضاعة قيمتهم وضحالة معرفتهم عاجزين كليًا عن فهم أساليب الملوك القدماء والحاجات الماسة للماضي والمستقبل، ولم يستطيعوا كذلك تنفيذ حكمة الإمبراطور وإنقاذ العصر من الفساد». ومع ذلك، كان العلم أفضل. وكان المفكرون يتعلمون كيف يفكرون ويرسمون وقبل كل شيء يكتبون مثل القدماء، وبالتالي استعادة الفضائل العتيقة وإنقاذ الأمة. وقال هان الذي صمَّم أسلوب كتابة جديدًا لاستنساخ النبرة الأخلاقية العالية للعصور القديمة: «يجب أن تكون الكتابة النثرية الوسيلة علىٰ الطريق».

كان رد الفعل العنيف ضد البوذية مثيرًا للجدل، ولكنَّه في محله. فقد راكمت الأديرة البوذية ثروة هائلة، عندما قام الإمبراطور بفرض قوانين صارمة علىٰ البوذية في عام ٨٤٠م -بتجريد الكهنة من صلاحياتهم وغلق الأديرة ونهب الكنوز- فربما دفعته لذلك الضغوط المالية أكثر من الاحتجاج العلمي. كما جعل الاضطهاد الرسمي آراءً مثل آراء هان معتبرة. وظلَّ الملايين من البوذيين كما هم، لكن الملايين من الصينيين، المتشككين في هذا الدين المستورد، حفزتهم احتمالية أنَّ الأجوبة علىٰ أسئلة بوذا العظيمة -ما هي حقيقتي؟ كيف أتلاءم مع هذا الكون؟- قد تكون كامنة في كلاسيكياتهم الكونفوشيوسية.

واجتاحت طبقة النبلاء حركة تُسمىٰ «النيو - كونفوشية»، ومع مرور الصين بأوقات عصيبة، إلىٰ جانب ضغط الخيتان والتانجوت، قلَّدت أرقىٰ العقول كونفوشيوس بالتقدم لنصح الحاكم. وأصروا علىٰ نسيان إعادة الميلاد والخلود، فهنا والآن هو كل شيء، وأنَّ الإنجاز يأتي من العمل في هذا العالم. وخلص أحدهم إلىٰ أنَّ «العالم الحقيقي يجب أن يكون أول من يقلق بشأن مشاكل العالم وآخر من يستمتع بمسراته».

لقد حوَّل النيوكونفوشيون الدراسات الكلاسيكية إلىٰ برنامج لتحسين المجتمع. وادَّعوا أنَّ الرجال الذين كانت لهم مهارات في اللغة والمهارات الفنية لفهم الثقافة القديمة بشكل صحيح، يستطيعون استخدام شرف التراث لإنقاذ العالم الحديث. وقد ابتدع أويانغ شيو -علىٰ سبيل المثال- الذي عثر علىٰ كتابات هان يو، طرازَه الخاص لـ «النثر القديم»، وصنع اسمه باعتباره شاعرًا

ومؤرخًا وجامعًا لبرونزيات يبلغ عمرها ألفي سنة، ثم ترقىٰ إلىٰ أعلىٰ المناصب في خدمة الإمبراطورية، داعمًا الإصلاحات المالية والعسكرية.

وقد عرض عشرات الرجال الموهوبين أيضًا تقديم مساعدتهم إلىٰ الدولة، ولكنَّ أبرزهم كان وانغ آنشي، المهتم بالكتب القديمة القيمة، وكاتب النثر ذا الأسلوب الراقي، ورئيس الوزراء. وأطلق أعداء وانغ الكثيرون (الذين يشملون أويانغ) عليه أنَّه وقح وقذر بشكل بغيض، وفي النهاية دفعوه إلىٰ المنفىٰ، وفقد مكانته، لكن سياساته الراديكالية الجديدة -وهي نسخة القرن الحادي عشر من «الصفقة الجديدة» والسياسات الاقتصادية التي تبناها الرئيس الأمريكي رونالد ريجان (Reaganomics)- قد جلبت بعض الارتياح الحقيقي. قام وانغ بتخفيض الضرائب، لكنَّه رفع الإيرادات بجعل التحصيل أكثر عدلًا. وقام بتمويل أعمال عامة ضخمة وحفز النمو بما عُرف باسم «قروض البراعم الخضراء» بإقراض رأس المال للمزارعين والتجَّار الصغار. كما حقق التوازن في الميزانية بالتحول من الجنود المحترفين المكلفين إلىٰ الميليشيات الأرخص تكلفة. وعندما اعترض المسؤولون المحافظون، عثر علىٰ مسؤولين جدد. ووضع الاقتصاد والجغرافيا والقانون في اختبارات الخدمة المدنية، وبنىٰ مدارس جديدة لتعليمهم، ورفع رواتب الأشخاص الذين يحققون النجاحات.

وبالرغم من كون إنجازات النيوكونفوشية غير عادية، فإنَّها لم تعد بالقدر نفسه من الأهمية بالمقارنة مع تطور آخر يحدث في الوقت نفسه؛ وهو انفجار اقتصادي من أجل منافسة التقدم الاقتصادي لروما القديمة. كانت فترة العصور الوسطىٰ الدافئة بمثابة نعمة في كل مكان تقريبًا في الصين: فالرواسب البحيرية وكيمياء الرواسب الكلسية والوثائق النصية كلها تشير إلىٰ أنَّ الشمال الجاف حظي بالمزيد من الأمطار، وهو ما احتاجه مزارعوه، في حين حصل الجنوب الرطب علىٰ كمية أقل، وهو ما لاءم مزارعي المنطقة أيضًا. ونما عدد سكان الصين إلىٰ ١٠٠ مليون بحلول ١١٠٠م.

وبحلول عام ١١٠٠م، استُبدلت كل أنواع الأرز السبعة والثلاثين المذكورة في كتاب «الأساليب الأساسية» بنوعيات أكثر إنتاجية، وقام المزارعون باعتصار

ثلاثة محاصيل خارج حقولها المروية والمسمّدة سنويًا بالتناوب بين الأرز والقمح. وقد جعلت شبكة الطرق المتنامية -التي كثيرًا ما تمَّ إكمالها بالحجارة في المدن وأحيانًا بالطوب حتىٰ في الريف- من الأسهل نقل المحاصيل إلىٰ المرافئ، وكان النقل المائي يتحسن بشكل مذهل وأكثر جذرية. وقلَّد بناؤو السفن الصينيون أفضل ميزات السفن الفارسية والعربية والجنوب شرق آسيوية، فبنوا سفن اليانك (سفنًا صينية شراعية) عابرة للمحيطات، مع غرف مضادة للماء، وخمسة أو ستة صواري، وأطقم يبلغ قوامها الألف. وانخفضت تكاليف الشحن وانتظم التجَّار في تجارة علىٰ نطاق واسع. وحسب كاتب في القرن الثاني عشر:

«ارتبطت الأنهار والبحيرات معًا حتىٰ إنَّه عن طريقها يمكن للمرء أن يذهب إلىٰ كل مكان. عندما يغادر قارب الميناء الأم، فليس هناك ما يعيق التخطيط لرحلة تبلغ عشرة آلاف لي [حوالي ثلاثة آلاف ميل]. فكل سنة يستخدم عامة الناس جميع الحبوب الفائضة عن احتياجاتهم للبذور والطعام. ويجمع كبار التجَّار ما تملكه الأسر المعيشية الأقل. وتصبح القوارب الصغيرة معتمدة علىٰ السفن الأكبر وتشارك في العمليات المشتركة، ذهابًا وإيابًا، تبيع القمح لتحصل علىٰ ربح ثابت».

وبنفس قدر أهمية كون الزوارق سماسرة شحن، فقد أقرض الوسطاء الذين كانوا يشترون ويخزنون الشحنات القروض، ونقلوا السفن في جميع الأنحاء بسرعة. وقد تطلب كل هذا الكثير من الأموال، وفي ظل نمو الاقتصاد جاهدت الحكومة لسك نقود برونزية كافية. ودفعت الجهود البطولية لإيجاد مصادر جديدة للنحاس (والأقل بطولية للخفض من قيمة النقود بواسطة الرصاص) الناتج من ٣٠٠ مليون عملة في عام ٩٨٣م إلىٰ ١٫٨٣ بليون في عام ١٠٠٧م، ولكن ما زال الطلب متفوقًا علىٰ العرض.

وقد أنقذ الجشع والكسل الموقف. ففي القرن التاسع، عندما بدأت تجارة الشاي تنتعش وتدهورت رقابة الدولة علىٰ التجارة، بدأ التجَّار من سيتشوان في إنشاء مكاتب في تشانغهان حيث يمكنهم مقايضة العملات التي تلقوها مقابل الشاي بما يُعرف باسم «النقود الطائرة»، وهي العملات الورقية ذات المكانة

العالية. وعندما عادوا إلىٰ سيتشوان استطاع التجَّار تحويل هذه العملات الورقية إلىٰ سيولة في مقر قيادة الشركات. ونظرًا لأن كمية من الأموال الطائرة كانت تساوي أربعين مرة من النقود البرونزية، فقد كانت المزايا واضحة وسرعان ما أصبح التجَّار يستخدمون تلك الأوراق المالية باعتبارها نقودًا مستقلة بذاتها. كما اخترعوا الأموال الائتمانية، وهي عملات رمزية اعتمدت قيمتها علىٰ الثقة بدلًا من محتواها المعدني. وفي عام ١٠٢٤م، اتخذت الدولة الخطوة المنطقية التالية، وطبعت العملات النقدية الورقية، وسرعان ما أصدرت المزيد من الأموال في هيئة عملات ورقية بدلًا من المعدنية.

ومع وصول الأموال الورقية والائتمان إلىٰ الريف ممَّا جعل البيع والشراء أكثر سهولة، زرع المزيد من الفلاحين أي شيء مثمر في أرضهم وباعوه نقدًا، ثم اشتروا ما لم يستطيعوا أن ينتجوه بسهولة. ووصف راهب بوذي العثور علىٰ أحد أسواق هؤلاء الفلاحين الصغيرة في قرية نائية:

لم تشرق شمس الصباح علىٰ البحيرة . . .
وبدت شجيرات العلّيق للحظة مثل ممرات الصنوبر . . .
وانحدرت الأشجار المعمرة علىٰ الجروف شديدة الانحدار في العتمة . . .
وطفت أصوات القرود البائسة . . .
ينحني الطريق، وينفتح وادٍ . . .
حيث توجد قرية في الأفق بالكاد مرئية . . .
وعلىٰ طول الطريق، يأتي المزارعون . . .
وهم يصيحون ويضحكون، يتجاوزون ويُتجاوزون بالتبادل . . .
لقد ذهبوا للتنافس في السوق . . .
المساكن والمتاجر لا تعد ولا تحصىٰ، مثل السحاب . . .
ويجلب المزارعون أقمشة الكتان وورق التوت . . .
يقودون الدجاج والخنازير الصغيرة أمامهم.
المقشّات والمجارف مكوّمة هنا وهناك . . .
- الكثير من الأشياء المنزلية الصغيرة.

ينظم رجل مسن التجارة المزدحمة . . .

ويحترم الجميع أبسط التعليمات.

ويقارن رجل بدقة . . .

المكاييل واحدًا تلو الآخر . . .

ويقلّبها ببطء في يديه.

لقد كانت الأسواق الحضرية بالطبع أكبر بكثير، معتمدةً علىٰ نصف القارة من الموردين. وقد ربط تجّار جنوب شرق آسيا ميناء جوانچو بجزر التوابل الإندونيسية وثروات المحيط الهندي، وشقَّت الواردات طريقها من هناك إلىٰ كل بلدة في الإمبراطورية. ولشرائها، أنتجت ورش العمل العائلية الحرير، والبورسلين، والورنيش والورق، وتحوَّلت الورش الناجحة منهم إلىٰ مصانع. وحتىٰ القرويون كان يمكنهم شراء ما كان في السابق من وسائل الترف مثل الكتب. وبحلول أربعينيات الألفية الثانية بعد الميلاد، كانت ملايين الكتب الرخيصة نسبيًا تُنسخ في المطابع الخشبية وتشق طريقها إلىٰ أيدي مشترين بسطاء للغاية. ونافست معدلات الإلمام بالقراءة والكتابة علىٰ الأرجح المعدلات الرومانية في إيطاليا قبل ألف عام.

أمَّا أهم التغييرات الهائلة -رغم ذلك- فكانت في المنسوجات والفحم، وهي مجالات النشاط التي ستقود الثورة الصناعية البريطانية في القرن الثامن عشر. فقد اخترع عمَّال النسيج في القرن الحادي عشر آلة لف الحرير التي تعمل بدواسة، وفي عام ١٣١٣م وصف كتاب وانغ چن (Treatise on Agriculture) أو «رسالة في الزراعة» نسخة كبيرة لغزل خيوط القنب، مُهيئة لاستخدام إما الحيوانات وإما قوة دفع الماء. وأشار وانغ إلىٰ أنها كانت «أرخص كثيرًا من النساء التي تحل محلهن، وكانت تُستخدم في كل أنحاء شمال الصين التي تُصنِّع القنب». وتأثر وانغ كثيرًا بهذه القوة السحرية لدرجة أن قاطع سرديته التقنية بسلسلة من الشعر:

قد تستغرق الغزّالة أيامًا عديدة لغزل مائة كاتي (catties مفردها (catty) وهي وحدة وزن شبيهة بالهر، م).

لكن مع قوة الماء قد يتم ذلك بسرعة خارقة! . . .
هناك حزام قيادة للعجلات، الكبيرة منها والصغيرة . . .
وعندما تدور واحدة، تدور بقية العجلات معها!
وتنتقل الدورانات بتساوٍ إلىٰ البكرات . . .
وتلتف الخيوط بنفسها علىٰ إطار البكرة!

شعر المؤرخ الاقتصادي مارك إلفين عند مقارنة خطط القرن الثامن عشر بماكينات غزل الكتان الفرنسية مع تصميم وانغ في القرن الرابع عشر - أنَّه مضطر إلىٰ استنتاج أنَّ «تشابه تلك الماكينات الفرنسية مع ماكينة وانغ چين هو أمر مذهل للغاية، ممَّا يجعل شبهة أنها من أصل صيني . . . يكاد يكون أمرًا لا يقاوم». لقد كانت ماكينة وانغ أقل كفاءة من الماكينة الفرنسية، «لكن إذا تتبعنا خط التقدم التي مثّلته لأبعد قليلًا، فإنَّ الصين في العصور الوسطىٰ كانت لتمتلك فعليًا ثورة صناعية في إنتاج المنسوجات قبل الغرب بأكثر من أربعمائة عام».

ولم تتبق لنا أيّة إحصاءات عن إنتاج المنسوجات وأسعارها في عصر السونغ؛ ولذا لا يمكننا بسهولة اختبار هذه النظرية، لكن لدينا معلومات عن الصناعات الأخرىٰ. وتشير الإقرارات الضريبية إلىٰ أنَّ إنتاج الحديد زاد في الفترة المتراوحة بين أعوام (٨٠٠ و١٠٧٨ ق. م)، إلىٰ حوالي ١٢٥ ألف طن - أي تقريبًا قدر ما ستنتجه أوروبا في عام ١٧٠٠م.

وقد تجمّعت المصنوعات الحديدية حول أسواقها الرئيسة، ومدينة كايفنج المليونية، حيث (ضمن استخدامات أخرىٰ) تمَّ صب الحديد وتحويله إلىٰ أسلحة لا تحصىٰ كان الجيش بحاجة لها. وباختيارها عاصمة لأنَّها كانت تقع بالقرب من جراند كانال بشكل ملائم، حققت كايفنج النجاح. لقد كانت تفتقر إلىٰ التاريخ، وإلىٰ الشوارع المصطفة بالأشجار، والقصور المترفة للعواصم السابقة، ولم تُوحِ بشعر عظيم، ولكنَّها في القرن الحادي عشر نمت لتصبح حاضرة مزدحمة وفوضوية ونابضة بالحياة. وكانت باراتها الصاخبة تقدم النبيذ حتىٰ الفجر، وكان هناك خمسون مسرحًا يجذب جمهورًا بالآلاف، بل وطغت المتاجر علىٰ شارع المدينة الموكبي الكبير. وخلف الأسوار، كانت المسابك تشتعل ليلًا ونهارًا؛ إذ

كانت الطواحين الشيطانية القاتمة تنفث النيران والدخان، وتبتلع عشرات الآلاف من الأشجار لإذابة المعادن إلىٰ حديد - الكثير من الأشجار، في الواقع، لدرجة أن صنّاع الحديد كانوا يشترون ويقطعون الأشجار من الجبال، ممَّا رفع أسعار الفحم فوق متناول أصحاب المنازل العاديين. وسُحق المئات من سكان كايفنج المتجمدين في أعمال الشغب بشأن الوقود في عام ١٠١٣م.

ويبدو أنَّ كايفنج كانت تدخل عنق زجاجة إيكولوجي. لم يكن هناك ببساطة خشب يكفي في شمال الصين لإطعام وتدفئة المليون ساكن بها والإبقاء علىٰ تصنيع المسابك لآلاف الأطنان من الحديد. وقد ترك ذلك خيارين فقط: بإمكان الناس و/أو الصناعات أن تنتقل بعيدًا، أو بإمكان أحدهم ابتكار وإيجاد مصدر وقود جديد.

لقد عاش الهومو سابينس دومًا علىٰ استغلال النباتات والحيوانات من أجل الغذاء والملابس والوقود والمأوىٰ. وعبر العصور أصبح البشر كائنات متطفلة أكثر كفاءة؛ فقد كان رعايا كل من إمبرطورية هان والإمبراطورية الرومانية في القرن الأول -علىٰ سبيل المثال- يستهلكون مقدار طاقة لكل فرد يبلغ سبعة أو ثمانية أضعاف ما استهلكه أسلافهم من العصر الجليدي منذ ١٤ ألف سنة. وقد تعلَّم كل من الهان والرومان أيضًا استغلال الرياح والأمواج لتسيير السفن، متجاوزين ما أمكن أن تفعله من أجلهم النباتات والحيوانات، وتعلّموا تطبيق قوة الماء علىٰ المطاحن. ومع ذلك، كان سكان كايفنج الذين قاموا بأعمال شغب في عام ١٠١٣م ما زالوا يستفيدون من الكائنات الأخرىٰ بالأساس، حيث كانوا يقفون في موضع أعلىٰ قليلًا في السلسلة العظمىٰ للطاقة أكثر من الصيادين جامعي الثمار في العصر الحجري.

وفي غضون عقود قليلة، بدأ ذلك في التغيّر، ممَّا حوّل صنّاع الحديد في كايفنج إلىٰ ثوار عن غير قصد. وقبل ألف سنة في أيام أسرة هان، تلاعب بعض الصينيين بالفحم والغاز، لكن مصادر الطاقة هذه كانت تطبيقاتها قليلة. والآن، مع تنافس الرعاة المنتصرين مع المواقد والمنازل من أجل الوقود، طرقَ الصناعيون بشدة علىٰ الباب الفاصل بين الاقتصاد العضوي القديم والعالم الجديد

من الوقود الأحفوري. وكانت كايفنج بالقرب من اثنين من أكبر رواسب الفحم في الصين (الشكل ٧ - ٩)، مع سهولة الوصول إليها عبر النهر الأصفر؛ لذا فلم يتطلب الأمر عبقرية -فقط الجشع واليأس والمحاولة والخطأ- للوصول إلىٰ كيفية استخدام الفحم بدلًا من الفحم النباتي لإذابة خام الحديد. كما تطلب الأمر رأس مال وعمالة من أجل العثور علىٰ الفحم واستخراجه ونقله، وهو ما يفسر لماذا تصدر رجال الأعمال (الذين امتلكوا الموارد) بدلًا من أصحاب البيوت (الذين لم يمتلكوا موارد).

وتمنح قصيدة كُتبت في حوالي عام ١٠٨٠م إحساسًا بهذا التحوُّل. في تلك القصيدة، يصف البيت الأول امرأة يائسة جدًّا من أجل الحصول علىٰ الوقود لدرجة أنها تبيع جسدها من أجل الحطب، ويصف البيت الثاني منجم فحم يأتي للإنقاذ، أما البيت الثالث فيصف فرن صهر كبيرًا، ويوضح البيت الرابع الإغاثة بأنَّ الناس الآن لديهم كعكتهم ويمكنهم تناولها: ومن الممكن أن تُصبّ السيوف الحديدية الكبيرة مع البقاء علىٰ الغابات.

ألم ترها؟

في الشتاء الماضي عندما أوقف المطر والثلج المسافرين . . .

وكسرت الرياح عظام قاطني المدن؟

مع نصف حزمة من الحطب الرطب «تحمل فراشها في الفجر».

وعند الغسق طرقت الباب، لكن لم يُرِد أحد بضاعتها.

فمن كان يظن أن في تلك الجبال يكمن كنز دفين . . .

في أكوام، مثل الجواهر السوداء، عشرة آلاف حمولة عربة من الفحم.

تتدفق بالزخرف والبهاء، وهي غير معروفة للجميع.

وتنتشر العاصفة المنتنة (چن چن) . . .

فما إن تنطلق البداية، يصبح [الإنتاج] واسعًا بلا حدود.

إذ يجهد عشرة آلاف رجل أنفسهم، ويُشرف ألف.

رَمْي خام الحديد إلىٰ داخل السائل العكر يجعله أكثر إشراقًا . . .

يتدفق باليشم والذهب . . .

وفي الجبال الجنوبية، تنفست الغابات الكستنائية الصعداء . . .
وفي الجبال الشمالية لم تعد هناك حاجة لطرق المعدن الخام الصلب.
سيصبون لك سيفًا مشحوذًا مائة مرة . . .
لقطع حوت عظيم إلىٰ لحم مفروم . . .

انطلق كل من الفحم والصلب معًا. وقد وظّف أحد مسابك المعادن في شيكونچين والتي جرىٰ توثيقها بشكل جيد، ثلاثة آلاف عامل لتجريف ٣٥ ألف طن من خام الحديد، و٤٢ ألف طن من الفحم سنويًا إلىٰ الأفران، فكانوا يحصدون ١٤ ألف طن من الحديد الخام المصبوب في قوالب في الطرف الآخر. وبحلول عام ١٠٥٠م كان الكثير من الفحم يُستخرج ويستخدمه أصحاب البيوت أيضًا، وعندما قامت الحكومة بالإصلاح بإغاثة الفقراء في عام ١٠٩٨م كان الفحم هو الوقود الوحيد الذي كلّفوا أنفسهم بذكره. وتم فتح عشرين سوقًا للفحم في كايفينج بين أعوام (١١٠٢ و١١٠٦م).

وعندئذٍ ارتفع التطور الاجتماعي الشرقي إلىٰ مستوىٰ مرتفع مثل الذروة التي وصلت إليها روما القديمة قبل ألف سنة. وكان الغرب -المنقسم بين مركز مسلم وطرف مسيحي- متأخرًا إلىٰ حد كبير، ولن يرقىٰ لهذا المستوىٰ من التطور الاجتماعي حتىٰ القرن الثامن عشر، عشية الثورة الصناعية في بريطانيا. لقد كانت كل الدلالات تشير في الواقع إلىٰ أنَّ ثورة صناعية صينية كانت تختمر في أسوار كايفينج شديدة السواد، وأنها ستحوِّل الصدارة الشرقية الضخمة في التطور الاجتماعي إلىٰ هيمنة شرقية. بيدَ أنَّ التاريخ يتحرك علىٰ الطريق الذي سيأخذ ألبرت إلىٰ بكين وليس لوتي إلىٰ بالمورال.

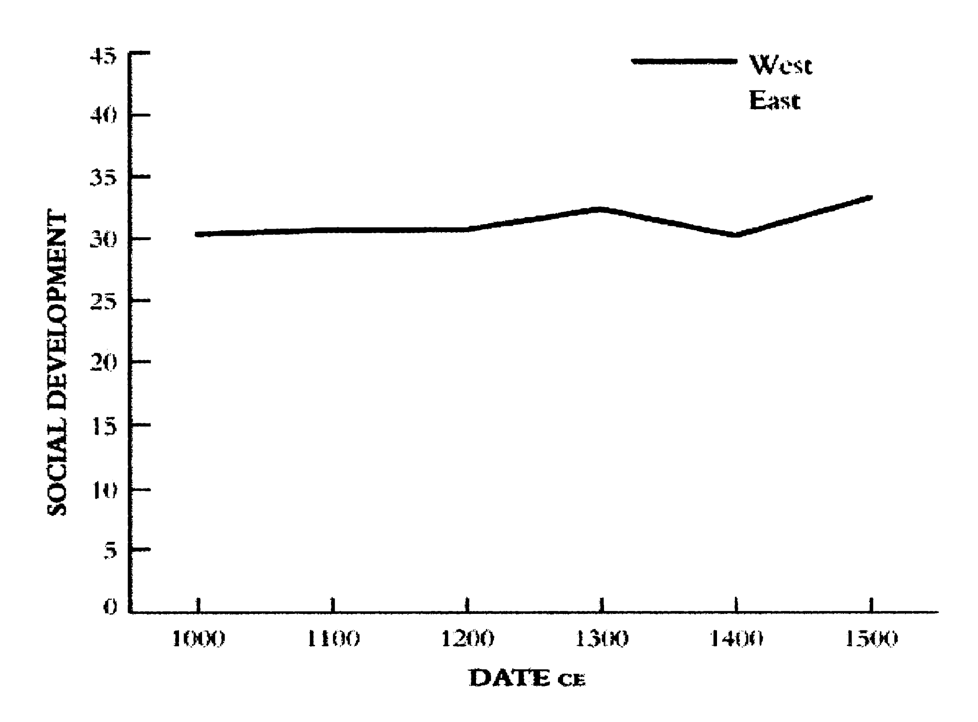
(٨)

نحو العالمية

ثلاثة أشياء كبيرة

لقد اندهش ماركو بولو من كل شيء عن الصين. كانت قصورها هي الأفضل في العالم وحكَّامها هم الأغنىٰ. ودعمت أنهارها العديد من السفن أكثر من جميع مياه العالم المسيحي مجتمعة، وكانت تحمل من الأغذية لمدنها أكثر ممَّا يتصور أوروبي أن يأكل أحدٌ كل ذلك. وأيًا كان الطعام، فقد كان متقنًا لدرجة لا يمكن تصديقها من قِبَل الأوروبيين. وتفوقت الخادمات الصينيات في التواضع واللياقة، وكانت الزوجات الصينيات ملائكيات، والأجانب الذين تمتعوا بضيافة محظيات هانغ تشو لم ينسهنَّ أبدًا. والأروع علىٰ الإطلاق كانت التجارة في الصين. قال ماركو: «أستطيع أن أقول لكم بكل صدق إنَّ التجارة تسير علىٰ مقياس هائل لدرجة أن مَن سمع بها دون أن يراها يمكنه أن يقدّرها».

واتضح أنَّ هذه الأمور هي المشكلة. فعندما عاد ماركو إلىٰ فينيسيا في عام ١٢٩٥م، لم يقدِّر العديد من الأشخاص قصصه رغم أنهم احتشدوا للاستماع إليها. ولكن علىٰ الرغم من الغرائب العرضية في قصصه، مثل الكمثرىٰ التي تزن عشرة باوندات، فإنَّ رواية ماركو تتفق تمامًا مع ما نراه في (الشكل ٨ - ١). فعندما ذهب إلىٰ الصين كان تطورها الاجتماعي متقدمًا كثيرًا عن تطور الغرب.



(الشكل ٨ - ١). تقلص الفجوة في عالم آخذ في الانكماش: جلبت التجارة والسفر والأوقات المضطربة الشرق والغرب معًا مرة أخرىٰ.

كانت هناك ثلاثة أشياء كبيرة -رغم ذلك- لم يعرفها ماركو عندما أعجب بالشرق. أولًا: أن ريادة الشرق كانت تنكمش، من حوالي ١٢ نقطة علىٰ مؤشر التطور الاجتماعي في عام ١١٠٠م إلىٰ أقل من ٦ نقاط في عام ١٥٠٠م. ثانيًا: السيناريو المتوقع في نهاية الفصل السابع - بأنَّ صنَّاع الحديد وأصحاب المطاحن سوف يبدؤون ثورة صناعية، محررين طاقة الوقود الأحفوري - لم يتحقق. لقد أعجب ماركو بالـ «الحجر الأسود» الذي اشتعل في المواقد الصينية ولكنَّه أُعجب بأسماك الصين الدهنية والخزف الشفاف بالقدر نفسه أيضًا. فالأرض التي وصفها، بجميع معجزاتها، ظلَّت مجرد اقتصاد تقليدي. وثالثًا: حقيقة أنَّ ماركو كان هناك من الأساس كانت إشارة لما سيأتي من الأمور. في عام ١٤٩٢م، وصل إيطالي آخر، اسمه كريستوفر كولومبوس، إلىٰ الأمريكتين، حتىٰ مع بقائه مقتنعًا حتىٰ الموت بأنَّه قد وصل إلىٰ الصين، وفي عام ١٥١٣م قام ابن عم كولومبوس، رافائيل بيريسترللو، بتصحيح التباس العائلة ليكون أول أوروبي يبحر فعلًا إلىٰ الصين.

وستمر ثلاثة قرون بين وصول كولومبوس واستعادة الغرب الصدارة في التطور الاجتماعي من الشرق. فالفترة الطويلة التي يغطيها هذا الفصل لم تكن نهاية العصر الشرقي؛ بل إنَّها لم تكن حتىٰ بداية النهاية، ولكنها كانت بلا شك نهاية البداية.

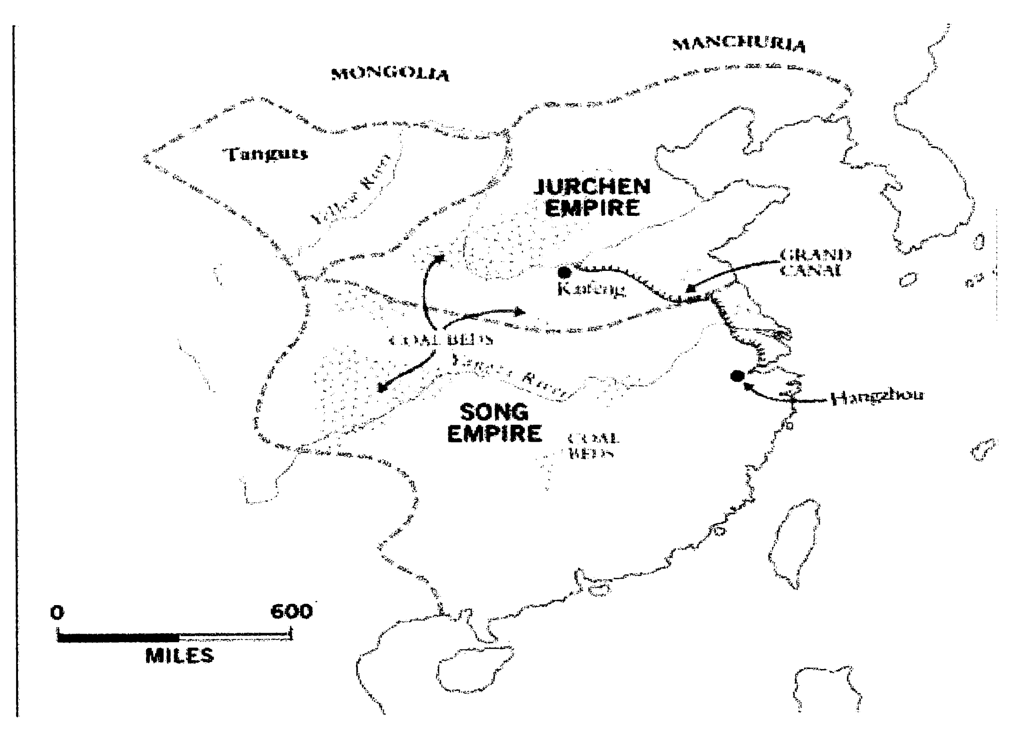
سباق الشيطان

كايفنغ، ٩ يناير ١١٢٧م. اهتزت أسوار المدينة تحت دك المدقات وتفجير القنابل. لم يتمكن أحد حقًّا من رؤية ما الذي كان يحدث وسط الثلج المتساقط، ولكنَّ المدافعين الصينيين علىٰ المتاريس أطلقوا سهامًا صغيرة من الحديد من أقواسهم العملاقة ورشوا البارود في الظلام، آملين في ضرب أبراج الحصار ذات الصرير المدوي الآتية نحوهم. وسقط ثلاثة آلاف رجل من إمبراطورية جورشن -آخر تهديد لحدود الصين الشمالية- في أول هجوم علىٰ الأسوار، واحترق بعضها، وحُطّم الآخر بالحجارة، واختُرق المزيد بالأسهم. ومع ذلك، استمر المهاجمين في جمع موتاهم والتجمع مرة أخرىٰ. لقد كانوا معتادين علىٰ ما هو أسوأ من ذلك.

وداخل الأسوار، حيث سقط مائة رجل تقريبًا، أوهنت الأجساد المتناثرة المدافعين. تلاشىٰ القادة وانتشرت الشائعات، وسرعان ما جاءت ضجة عودة أبراج الحصار مكتومة بالثلوج، وصوت المزيد من الأسهم القاتل. لا نعرف بالضبط كيف بدأ الذعر، إلَّا أنَّه فجأة كان عشرات الآلاف من الرجال يتدفقون من الحصون، يرغبون في الفرار. كان العدو في الداخل ينهب ويحرق ويغتصب ويقتل. ولذلك، أغرقت الكثير من نساء القصر أنفسهنَّ بدلًا من تحمّل ما ينتظرهن، ولكنَّ الإمبراطور انتظر كي يُقاد إلىٰ الأسر.

كان سقوط كايفنغ جرحًا ذاتيًا. وعلىٰ الرغم من الانتعاش الاقتصادي في القرن الحادي عشر، كانت حروب أسرة سونغ المستمرة ضد الخيتان علىٰ الحدود الشمالية بمثابة تصريف اقتصادي مستمر، وظلَّ الأباطرة يبحثون عن سُبل جديدة

لتوفير نفقاتهم. ولذلك، في ١١١٥م عندما عرض «الجورشن المتوحشون» في منشوريا المساعدة في مكافحة الخيتان، وافق الإمبراطور هويزونغ بلهفة (الشكل ٨ - ٢). كان يجب أن يشعر بالقلق من أنَّ هؤلاء الجورشن قد تحوَّلوا من مزارعين في الغابات الخلفية إلىٰ فرسان شجعان في غضون عشرين عامًا فقط، لكنَّ ذلك لم يقلقه. فقد كان هويزونغ خبيرًا في الموسيقىٰ، ورسَّامًا بارزًا وخطاطًا عبقريًا، ولكنَّه لم يكن رجل دولة، وقد فضَّل مستشاروه في الغالب السياسة المكتبية أكثر من مواجهة الحقائق الصعبة. وبدعم الجورشن، خلق هويزونغ وحشًا التهم الخيتان أولًا ثم التهمه في النهاية. وكان من الممكن أن يلتهم البقايا اليائسة في بلاط سونغ أيضًا لو لم يفرّوا علىٰ متن قوارب. وفي عام ١١٤١م، هدأت الجبهة بين الجورشن الذين أصبحوا الآن يحكمون شمال الصين، ودولة محدودة جدًّا لأسرة سانغ في هانغ زهو.



(الشكل ٨ - ٢). خلق الوحوش: إمبراطوريتا الجورشن والسونغ في عام ١١٤١م - تظهر المناطق المنقطة حقول الفحم الحجري الأساسية في الصين.

كان سقوط كايفنغ وتعطيل التجارة بين الشمال والجنوب الذي أعقب ذلك يعني أنَّ التطور الاجتماعي لم يشهد أي زيادة في القرن الثاني عشر. وعلىٰ الرغم من ركوده، فلم ينهَر التطور في الواقع؛ فقد تعافت كايفنغ بسرعة من النهب، حتىٰ إنها أصبحت العاصمة في مرحلة ما، ونمت هانغزو إلىٰ الحاضرة التي أعجبت ماركو بولو بشدة. لم تكن حقول الفحم الحجري في شمال الصين غنية مثل تلك التي في الشمال، ولكنَّها كانت وفيرة معظم الوقت، وتعلم صناعيو القرن الثاني عشر كيفية استخدام الفحم الأرخص والأقذر في إنتاج الحديد بل وكيفية استخراج النحاس من المنتجات الثانوية الملوثة لصناعة الحديد. واستمر نمو التجارة والنقود الورقية والوقود الأحفوري وإنتاج السلع الأساسية، وفي عام ١٢٠٠م بدت النهضة الصناعية الصينية ممكنة بقدر ما بدت منذ قرن مضىٰ.

ما غيَّر كل شيء كان شابًا شرسًا من السهول يدعىٰ تيموجين. وُلِدَ في عام ١١٦٢م، في منغوليا المتجمدة، لقد أتىٰ من الموطن المنكسر المثالي. اختطف والده، يسوجي، والدة تيموجين، هولوين، من عريسها الأصلي، وأحملها وأسمىٰ الطفل المولود علىٰ اسم رجل قتله. كان والداه بعيدين جدًّا عن ولدهما لدرجة أنهم نسوه مرة عند رحيلهم للتخييم ومرت سنة قبل أن يعودا مرة أخرىٰ للبحث عنه. وبعد أن زوّجا تيموجين وهو في الثامنة، قُتل يسوجي (وليس قبل ذلك علىٰ الأرجح)، وطارد رفاقه من رجال القبائل هولوين خارج القبيلة، ثمَّ سرقوا حيواناتها، وتركوها لتموت جوعًا. هرع تيموجين لقبيلته وساعد باصطياد الفئران. كما اغتال أخاه الأكبر غير الشقيق، الذي حسب القانون القبلي له الحق في الزواج من هولوين. ثم بيع تيموجين في سوق العبيد، وفي الوقت الذي هرب فيه اختطفت خطيبته وربما حملت طفل رجل آخر. وقتل تيموجين مختطفيها واستعادها.

كان تيموجين رجلًا صلبًا، ولكن لو لم يكن كذلك، لما منحه المغول لقب جنكيز خان -«الزعيم الشجاع»- ولما أصبح أعظم الغازين في التاريخ. ولا يحتاج الأمر لمعالج كي يشكّ في أنَّ طريقه إلىٰ السلطة (عبر تعقب أخيه في الدم (زاموها) وقتله، وتحويل حروب المغول من خلال تجاهل ادِّعاءات القرابة،

والوقوف ضد أبنائه المتشاحنين السكيرين في كل نزاع) يدين بشيء ما إلىٰ تجاربه الأسرية في وقت مبكر.

في بعض النواحي لم يحدث تغيير كبير في السهول طيلة ألفي سنة. ومثل الكثير من الزعماء قبله، تحكَّم الخوف (من الصين) جزئيًا في جنكيز خان، ومن جهة أخرىٰ الجشع (في ثرواتها). لقد دفعته هذه الحوافز إلىٰ مهاجمة مملكة الجورشن في شمال الصين واستخدام الغنائم لرشوة قادة المغول الآخرين من أجل اتباعه. ومن نواحٍ أخرىٰ، تغيَّر الكثير ولم يعلُ الخان نفسه علىٰ القانون التاريخي الذي يقول بأنَّه لا يمكنك أن تخطو في مياه النهر نفسه مرتين. ولأكثر من نصف ألفية، كان الصينيون والمسلمون والمسيحيون المستوطنون يدفعون المدن والري والحرث إلىٰ السهوب. وأخذ المزارعون الأرض من البدو الرُحَّل، ولكن ما أخذه البدو من المزارعين كان معرفة أسلحتهم وأساليبهم.

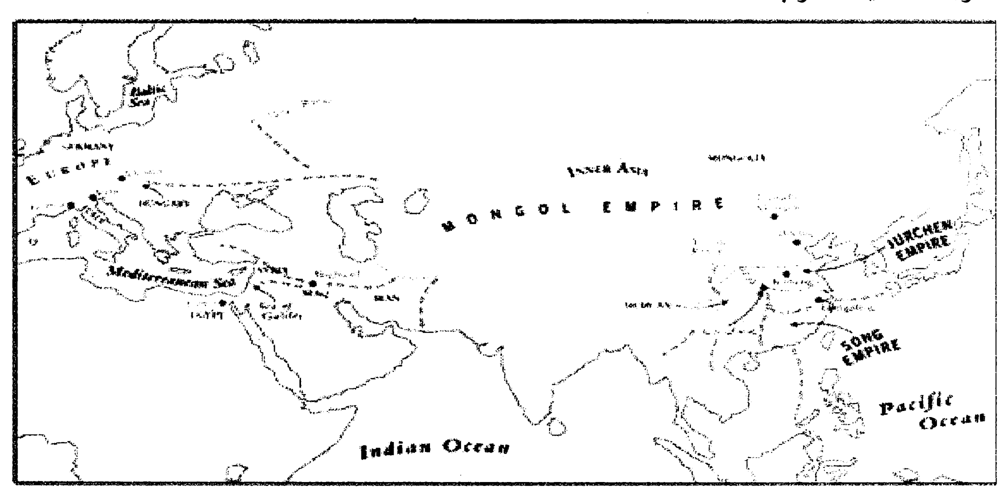
تبيَّن أنَّ البدو قد ربحوا أفضل ما في الصفقة. ومرة أخرىٰ، ظهرت مزايا التخلف في المشهد، وتعلَّم جنكيز خان -أذكىٰ زعماء البدو جميعًا- إلحاق المهندسين من قاطني المدن في جيوش الفرسان بشكل جيد للغاية لدرجة أنَّه كان بمقدوره أن يعصف بأي حصن بنفس سهولة هزيمة جيش. كما سلب ونهب كل ما في طريقه من المحيط الهادي إلىٰ نهر الفولجا قبل وفاته في عام ١٢٢٧م، (الشكل ٨ - ٣)، وأزال جمعه العقبات، وحسب شاهد عيان فارسي: «طُمِست خطوط الكتابة من الورق»، وبعد مرور المغول «أصبحت تلك المساكن مساكن البوم والغربان»، في تلك الأماكن يرد البوم الصارخ علىٰ صرخات بعضهم البعض، وفي تلك الأروقة تتأوه الرياح.

لم يحتج جنكيز خان إلىٰ مؤشر تطور اجتماعي ليخبره بأنَّ الصين هي الجزء الأهم في أعمال السلب والنهب. وبقدر ما يمكننا القول، لقد عزم علىٰ سرقة كل شيء، وأن يسوق الفلاحين خارج الأرض، وحوَّل كل شمال الصين إلىٰ مراعٍ شتوية لمهوره القوية من السهول. وفي عام ١٢١٥م، دمر جنكيز خان أكثر من ٩٠ مدينة، وترك بكين تحترق لمدة شهر. وبعد وفاته في عام ١٢٢٧م،

انتشر المستشارون الصينيون الحكماء، مصرِّين أنَّه من الأفضل ترك الفلاحين في أماكنهم، وأخذ الضرائب منهم.

وسرعان ما جاءت الفرصة لتجريب السياسة الجديدة. واقترح حاكم سونغ الجديد في عام ١٢٣٤م، غير عابئ بحقيقة أن تحالف هويزونغ مع الجورشن ضد الخيتان قد انتهىٰ باستيلاء الجورشن علىٰ كايفنغ واختطاف الإمبراطور - اقترح تحالفًا مشابهًا مع المغول ضد الجورشن. وكانت النتيجة أسوأ من ذلك: ابتلع المغول إمبراطورية الجورشن وجلبوا جيوش الصين إلىٰ حافة الانهيار.

كانت مميزات سياسة المغول هي التي منعت إمبراطورية سونغ من السقوط في عام ١٢٣٠م. وعندما توفي جنكيز في عام ١٢٢٧م، حلَّ ابنه أقطاي محله باعتباره الخان العظيم، ولكن سرعان ما بدأ أحفاد جنكيز علىٰ الفور بالتخطيط لمعرفة مَن سيخلف أقطاي. وشعر بعضهم بالقلق من أنَّ ترك أقطاي يحتل الصين سيضع كثيرًا من السلطة في يديه، وسوف يصب ذلك في مصحلة ابنه في صراع الخلافة، فضغطوا علىٰ قادة المغول الصغار لدعم غارة ضخمة في أقصىٰ الغرب بدلًا من ذلك. وفي عام ١٢٣٧م، حصلوا علىٰ غايتهم، واندفعت جحافل المغول سريعًا ناحية الغرب.



(الشكل ٨ - ٣). حيث يجوب البدو: حدود الإمبراطورية المنغولية عندما توفي جنكيز خان توفي في عام ١٢٢٧م (الخطوط الثقيلة المتقطعة)، والحروب التي نشبت بين أبنائه وأحفاده منذ ذلك الوقت وحتىٰ عام ١٢٩٤م.

لم يعرف الأوروبيون حرفيًا ما الذي ضربهم. وبحسب المؤرخ الإنجليزي ماثيو باريس، كان الغزاة لغزًا كاملًا. وقال: «لم تكن هناك أبدًا أي طريقة للوصول إليهم، ولم يتقدموا بأنفسهم، بحيث يسمحون باكتساب أي معرفة لتقاليدهم أو للأشخاص من خلال الاتصال المشترك مع رجال آخرين». وبترجمة غير صحيحة لاسم التتار (أحد المصطلحات المستخدمة لوصف المغول) في إشارة إلىٰ الاسم الإغريقي تارتاروس، وهو الاسم الإغريقي القديم للجحيم - تساءل ماثيو عما إذا كانوا «جحافل هائلة من ذلك النسل المقيت للشيطان». أو ربما -كما تكهن- كانوا قبائل إسرائيل المفقودة، التي عادت أخيرًا إلىٰ ديارها. وعلىٰ الرغم من التسليم بأنَّ المغول لم يتحدثوا العبرية، وبدوا غير واعين بقانون الفسيفساء، قرَّر ماثيو أنَّ ذلك يجب أن يكون صحيحًا: فمن خلال ضلالهم قبل أن يتلقىٰ موسىٰ الوصايا العشر، كان هؤلاء هم اليهود الذين «اتبعوا الآلهة الغريبة والتقاليد غير المعروفة، والآن في سلوك أكثر من رائع نظرًا لانتقام الله، لم يكونوا معروفين لكل الأمم الأخرىٰ، وكانت قلوبهم ولغتهم مضطربة، وتغَّيرت حياتهم لتصبح حياة وحش قاسية وغير عقلانية».

استنتج بعض المسيحيين أنَّ الدفاع المنطقي ضد قبائل إسرائيل المفقودة هو ذبح اليهود المحليين، ولكنَّ ذلك أدىٰ إلىٰ نتائج قليلة. لقد اكتسح المغول حشود فرسان ألمانيا والمجر، وساروا بعيدًا إلىٰ فيينا. ولكن فجأة -كما تخلوا فجأة عن الصين- رحلوا، وعكسوا وجهة مهورهم وهم يسوقون أسراهم ناحية آسيا الداخلية. كان الهدف من الغارة الأوروبية هو التأثير في خلافة منصب الخان؛ ولذا عندما توفي أقطاي في ١١ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٢٤١م، فقدت أوروبا كل أهميتها فجأة.

وعندما نظر المغول للغرب مرة أخرىٰ، اختاروا بتعقل هدفًا أغنىٰ، المركز الإسلامي. واستغرق الأمر أسبوعين فقط لخرق أسوار بغداد عام ١٢٥٨م. وتركوا آخر الخلفاء من دون طعام أو ماء لمدة ثلاثة أيام، ثمَّ ألقوا به في كومة من الذهب وأمروه أن يأكله. وعندما لم يفعل، تمَّ لفه هو وورثته في سجاد وسُحقوا بالأقدام حتىٰ الموت.

وفي النهاية، أوقف جيش مصري المغول علىٰ شواطئ بحيرة طبرية في عام ١٢٦٠م، ولكن بحلول ذلك الوقت كان هياجهم بمثابة الختام لقرنين من التدهور الاقتصادي للمعاقل الإسلامية القديمة في إيران والعراق وسورية. أما أثر المغول الأعظم في الغرب فكان ما لم يفعلوه. ولأنَّهم لم ينهبوا القاهرة، فقد ظلَّت أكبر وأغنىٰ مدينة في الغرب، ولأنَّهم لم يغزوا أوروبا الغربية، ظلَّت فينيسيا وجنوىٰ أكبر المراكز التجارية في الغرب. وانقلب التطور في المركز الإسلامي القديم، لكنَّه ظلَّ يرتفع في مصر وإيطاليا، وبحلول عام ١٢٧٠م، عندما انطلق ماركو بولو إلىٰ الصين، انتقل المركز الغربي بشكل حاسم إلىٰ أراضي البحر المتوسط التي تركها المغول.

لقد تخلىٰ المغول نهائيًا عن الحروب الغربية عندما توفي خان آخر وخليفته، وهو الإمبراطور قوبلاي، الذي خلّدته رؤية الشاعر الإنجليزي المدمن للمخدرات لقصر قوبلاي في زانادو (القبة المشمسة! تلك الكهوف الثلجية!)، وأخيرًا قرر المغول إنهاء الصين. كانت تلك أصعب حرب خاضها المغول، والأكثر تدميرًا. وقد استغرق الأمر خمس سنوات من حصار الحصن العظيم شيانغ يانغ لكسر المقاومة الصينية، وفي الوقت الذي طارد فيه قوبلاي آخر إمبراطور لأسرة سونغ وكان لا يزال طفلًا في البحر عام ١٢٧٩م، انهارت البنية التحتية المعقدة التي جلبت الصين إلىٰ حافة ثورة صناعية. ودخل التطور الاجتماعي الشرقي في سقوط حر.

وقد ساهمت الكوارث الطبيعية بالتأكيد في هذا السقوط. بعد التعافي من نهب الجورشن، بدأ السقوط الحقيقي لكايفنغ عندما فجَّر النهر الأصفر سدوده في عام ١١٩٤م، ممَّا أدىٰ إلىٰ تدمير القنوات التي تغذي المدينة وتجلب إليها الفحم وتحمل منتجاتها للخارج. ولكنَّ النهر الأصفر فاض عدة مرات من قبل، لكنَّ الاختلاف الكبير الآن هو أنَّ تدمير المغول أدىٰ إلىٰ تضخيم فظائع الطبيعة. وفي عام ١٢٣٠م، تبعت المجاعات والأوبئة جيوش المغول، جارفة مليون شخص حول كايفنغ وربما أكثر في سيشوان، وفي عام ١٢٧٠م كان عدد القتلىٰ أسوأ من ذلك. وبصفة عامة، فإنَّ فرسان الهلاك الأربعة الذين طاردوا الصين في القرن

الثالث عشر -الهجرة وانهيار الدولة والمجاعة والمرض- قلَّلوا من عدد السكان بمقدار الرُبع تقريبًا. وعلىٰ الرغم من ذهول ماركو بولو، لم تعد الصين علىٰ المسار نحو النهوض بالصناعة بحلول عام ١٢٩٠م. وفي الحقيقة، كانت الفجوة بين الشرق والغرب تنحسر.

المدافع والجراثيم والحديد المصبوب

عندما انخفض التطور الاجتماعي الشرقي قبل ذلك، من القرن الأول حتىٰ القرن الرابع، كان ذلك جزءًا من مفارقة أوروبا الآسيوية الواسعة. لقد قلّص الارتفاع الحاد في التطور الاجتماعي في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد المسافة بين المراكز، وأنتج حفنة من المسافرين والتجّار والغزاة مناطق متداخلة من الاتصال عبر السهول والمحيط الهندي. كان هذا التبادل التجاري للعالم القديم نتيجة تنامي التطور الاجتماعي، لكنَّه أيضًا أنتج القوىٰ التي من شأنها أن تقوّض التطور الاجتماعي، وعندما أخفق المركز الغربي في اختراق السقف الصلب عند ثلاث وأربعين نقطة، أعاق فرسان الهلاك كلا المركزين.

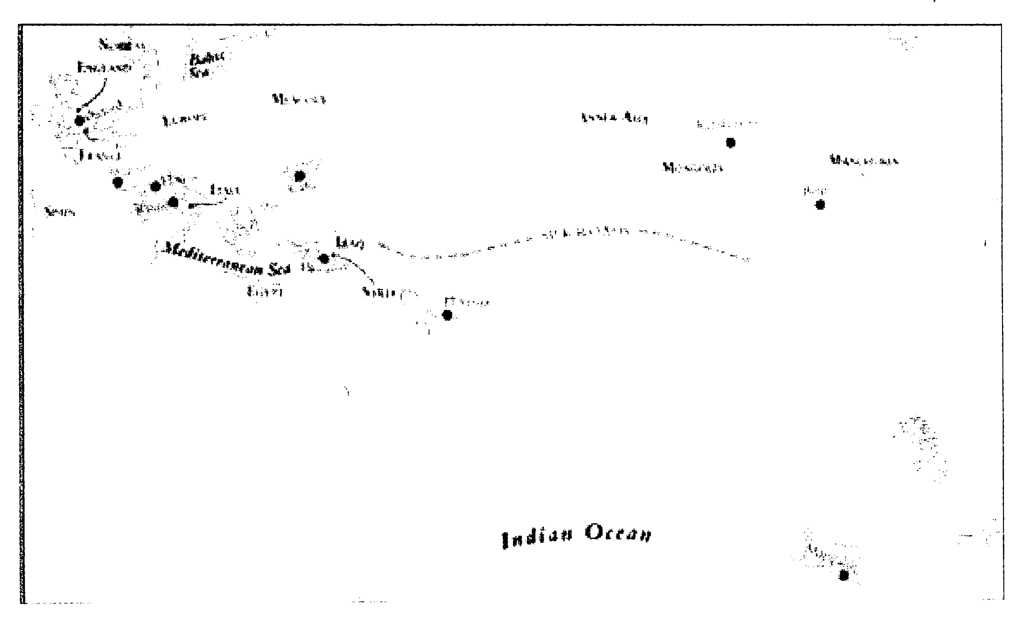
وبحلول القرن التاسع تعافىٰ التطور الاجتماعي بما يكفي لإطلاق تبادل تجاري ثانٍ للعالم القديم. عبَرَ التجار والمبشرون والمهاجرون السهول والمحيط الهندي، وهم يبنون مناطق متداخلة للاتصال (الشكل ٨ - ٤). وفي أعوام طفولة جنكيز خان حمل التجّار ليس فقط الحرير والتوابل ولكن أيضًا معظم الأغذية عبر المحيط الهندي بكميات كان الرومان ليغاروا منها، ومن مضيق هرمز في الخليج الفارسي إلىٰ ماجاباهيت في جاوة، ازدهرت المدن التجارية.

جلب غزو المغول للسهول الاستقرار لشريان ثانٍ بين الشرق والغرب، وقام أقطاي خان -الذي تاق إلىٰ تحويل العاصمة الجديدة التي بناها في كاراكوروم إلىٰ عاصمة إمبراطورية إمبريالية نفيسة- باستدراج التجّار إلىٰ هناك عن طريق دفع ١٠٪ فوق أي ثمن طلبوه لبضائعهم. وكتب العالم الفارسي رشيد الدين: «كان

يجلس كل يوم، بعدما ينتهي من وجبته علىٰ كرسي خارج بلاطه حيث تتكدس أمامه أكوام من كل أنواع السلع التي يمكن العثور عليها في العالم».

وجاء مع التجَّار رجال الدين الذي جذبهم موقف المغول المتساهل مع الدين، وأخبر خلفية أقطاي أحد المسيحيين: «مثلما خلق الله أصابع مختلفة في اليد، فقد جعل سبلًا مختلفة للناس». وقرَّر الخان في عام ١٢٥٤م -بفضول إزاء هذه الطرق- إطلاق مناقشة عامة بين البوذيين والمسيحيين والمسلمين. وفي كاراكوروم فقط كان يمكن لهذا أن يحدث.

وتجمَّع حشد كبير لمشاهدة العلماء الكبار، ولكن التجربة فشلت. فمن خلال اتباع تقاليد المغول، تم تقديم لبن فرس متخمر بين جولات النقاش، وبانقضاء اليوم، افتقدت نقاشاتهم إلىٰ التركيز. وبطمس مهاراتهم الجدلية بسبب الكحول، راح المسيحيون ينشدون الترانيم، وردَّ المسلمون بترديد آيات قرآنية، وانسحب البوذيون إلىٰ التأمل الصامت. وفي النهاية، بعد أن أصبحوا سكارىٰ لدرجة لا يمكنهم معها الاستمرار، اتبع المسيحيون والمسلمون عقائدهم الخاصة.



(الشكل ٨ - ٤) التبادل التجاري الثاني للعالم القديم: ثماني مناطق متداخلة للتجارة والسفر حملت التقدم والكوارث من أحد أطراف أوروبا الآسيوية إلىٰ الطرف الآخر.

رغم فشل حوار الأديان، استمر توافد الغربيين. حمل التجّار المسلمون البضائع الشرقية إلىٰ «كافا» في القرم وباعوها هناك للإيطاليين الذين لم يبيعوها بدورهم إلىٰ الأوروبيين الشماليين فحسب (ظهر الحرير الصيني للمرة الأولىٰ في الأسواق الفرنسية في عام ١٢٥٧م)، ولكن تتبعوا السلع إلىٰ مصدرها أيضًا. وغادر أعمام ماركو بولو مدينة «كافا» في عام ١٢٦٠م، وظلّوا يتقدَّمون حتىٰ وصلوا إلىٰ بكين، ثمَّ قاموا برحلة ثانية، مع ماركو الشاب، في عام ١٢٧٤م. ثمَّ تبعهم المبشِّرون، وفي عام ١٣٠٥م استطاع راهب مسيحي وصل لتوه إلىٰ بكين أن يتباهىٰ بأنَّ طريق السهول كان أسرع وأكثر أمانًا من الطريق البحري.

وقد نسج أول تبادل تجاري للعالم القديم خيوطًا رفيعة من طرف إلىٰ طرف عبر أوروبا الآسيوية، لكنَّ التبادل التجاري الثاني نسج شبكة حقيقية، مع ما يكفي من الأشخاص الذين يتنقلون عبر هذه الشبكة لجعل القرون بعد عام ١١٠٠م هي العصر الحقيقي الأول لانتقال التكنولوجيا. وقد نجحت هذه العملية لصالح الغرب المتخلف. ثمة شيء واضح، مثل العربة اليدوية التي تم اختراعها في الصين في القرن الأول، ووصلت إلىٰ أوروبا في حوالي عام ١٢٥٠م، كما وصلت أطواق الأحصنة، التي استخدمت في الصين منذ القرن الخامس هناك في الوقت نفسه.

لكن يظل أهم انتقال تكنولوجي حتىٰ الآن هي الأدوات الحديدية المصبوبة. ظهرت هذه الأدوات في الصين في القرن السادس قبل الميلاد، وأصبحت شائعة بحلول القرن الأول قبل الميلاد. عرف العرب الحديد المصبوب بحلول القرن الحادي عشر، لكنَّ الأوروبيين لم يعرفوه حتىٰ عام ١٣٨٠م. وإذا كنتَ قد حاولتَ حرث الأرض دون المعاول والجواريف فستعرف ما الفرق الذي أحدثه ذلك. عندما كنتُ طالبًا بالدراسات العليا وذهبتُ في عملية تنقيب في اليونان، ضاع مفتاح مخزننا وكان علينا أن نبدأ الحفر من دون مجموعتنا من الأدوات الحديدية. تبدو التربة جامدة وثقيلة بشكل ملحوظ، عندما تتعامل معها مثل رجل أوروبي قبل عام ١٣٨٠م. ولذلك، أستطيع أن أؤكد أنَّ التبادل التجاري الثاني للعالم القديم أدىٰ إلىٰ تثوير الامتلاك الغربي للطاقة.

والأمر نفسه ينطبق علىٰ تكنولوجيا المعلومات. لقد صنع الحرفيون الصينيون الورق لأول مرة من لحاء شجرة التوت في عام ١٠٥م، وأصبح الورق المصنوع من لباب الخشب شائعًا في عام ٧٠٠م. وعلم العرب عن الورق بحلول عام ٧٥٠م (عن طريق أسر صانعي الورق في آسيا الوسطىٰ)، ولكنَّ الإيطاليين لم يبدؤوا في شراء الورق إلَّا بعد عام ١١٥٠م، وصنعوا الورق الخاص بهم في عام ١٢٧٦م. وكان الناشرون الصينيون آنذاك يستخدمون قوالب خشبية منقوشة لطباعة الكتب الورقية منذ خمسة قرون، واستخدموا النوع المتحرك طيلة قرنين، لكنَّ الأوروبيين استعاروا أو أعادوا اختراع القوالب الخشبية في عام ١٣٧٥م. وانتقلت الابتكارات الصينية والهندية في التزوير والتلاعب إلىٰ الغرب، مرورًا بأيادي عربية إلىٰ البحر المتوسط في أواخر القرن الثاني عشر.

ومع التقنيات القديمة مثل العربة اليدوية، التقط الغربيون أيضًا أحدث التطورات. فقد وصلت البوصلة المغناطيسية، المذكورة لأول مرة في نص صيني في عام ١١١٩م، إلىٰ العرب والأوروبيين بحلول عام ١١٨٠م، وانتقلت المدافع بوتيرة أسرع. وخلال الغزو المنغولي للصين في القرن الثالث عشر، تعلَّم الحرفيون الشرقيون كيفية أكسدة البارود بسرعة كافية لينفجر، وليس فقط ليحترق، وبدؤوا في استخدام هذه الخدعة الجديدة لإطلاق الأسهم من أنابيب خيزرانية. ويعود تاريخ أقدم المدافع الحقيقية المعروفة -وهو أنبوب برونزي بطول قدم عُثر عليه في منشوريا ويمكنه إطلاق طلقات مصنوعة من مادة الرصاص- إلىٰ عام ١٢٨٨م. وفي عام ١٣٢٦م، أي بعد جيل تقريبًا، وصفت مخطوطة من فلورنسا مدفعًا نحاسيًا، ورسومات توضيحية مطلية في مخطوطة من أكسفورد بعد عام آخر تقريبًا، تُظهر مدفعين بدائيين. وجاء أول استخدام عربي معروف للمدافع بعد فترة وجيزة، في حرب في أسبانيا في عام ١٣٣١م. وقد عَلِمَ الأوروبيون علىٰ الأرجح عن المدافع مباشرة من المغول في السهول ثمَّ قاموا بتعليم المسلمين الأسبان. وتطلب الأمر جيلًا آخر، حتىٰ عام ١٣٦٠م، لكي تصل هذه الأسلحة إلىٰ مصر.

وعلىٰ مدىٰ القرون القليلة اللاحقة تغيَّرت المدافع كثيرًا في الغرب، لكن رغم ذلك؛ فإنَّ أهم السلع التي انتقلت في أثناء التبادل التجاري الثاني للعالم

القديم، كما في الأول، كانت الجراثيم. كتب المؤرخ العربي ابن خلدون «زار وباءٌ مدمّر حضارتي الشرق والغرب، دمَّر الأمم وتسبب في إبادة السكان. وابتلع الكثير من الأشياء الجيِّدة للحضارة واستأصلها». لقد وصل «الموت الأسود».

وربما ظهر الوباء في آسيا الداخلية وانتشر علىٰ طول طرق الحرير. وقال أحد علماء العرب (توفي جراء هذا المرض): لقد بدأ في السهول في حوالي عام ١٣٣١م، وفي ذلك العام نفسه اندلع وباء بطول وادي اليانغتسي المتوسط، ممَّا أدىٰ إلىٰ مقتل تسعة أشخاص من كل عشرة. ولا يمكننا أن نعرف ما إذا كانت تلك هي البكتيريا نفسها التي اجتاحت أوروبا الآسيوية خلال العقدين التاليين، ولكنَّ الوباء المذكور علىٰ المقابر المنغولية، في عامي (١٣٣٨ و١٣٣٩م) بالتأكيد كان بسبب تلك البكتيريا. وفي عام ١٣٤٠م، غاب الوباء عن أنظارنا لبضع سنوات، ثم فجاة، أصبح في كل مكان. واجتاح الساحل الشرقي للصين في عام ١٣٤٥م، وفي العام التالي جلب جيش منغولي الوباء إلىٰ كافا في القرم، أي: المدينة نفسها التي رحل منها أعمام ماركو بولو إلىٰ بكين منذ ما يقرب من قرن مضىٰ. وشكَّل التبادل التجاري الثاني للعالم القديم دائرة كاملة.

وفي عام ١٣٤٧م، حمل التجَّار الطاعون إلىٰ كل ميناء في البحر الأبيض المتوسط. ومن إنجلترا إلىٰ العراق، ظهرت الأعراض التقليدية للطاعون الدُمَّلي - وسجل مؤرخ فرنسي في عام ١٣٤٨م: «ظهرت فجأة انتفاخات في الإبط أو باطن الأفخاذ، وفي كثير من الحالات في كليهما، وكانت تلك علامات لا تخطئ للموت». وكان التحول المفاجئ إلىٰ الالتهاب الرئوي، الذي انتشر عن طريق السعال، أكثر خطورة. وعلَّق شاعر دمشقي بوضوح قائلًا: «كان الناس يبصقون دمًا وكان جسد أحدهم مغطىٰ بالطفح ثمَّ مات»، وتوفي الشاعر نفسه إثر هذا الوباء في عام ١٣٦٣م.

ويصف الكاتب تلو الآخر المقابر بأنَّها امتلأت أكثر من اللازم لاستيعاب المزيد من الجثث، حتىٰ إنَّ القساوسة كانوا يسقطون موتىٰ في أثناء قراءة الشعائر الأخيرة، وتم إخلاء قرىٰ بأكملها. «لقد أضحت أرواح الرجال رخيصة جدًّا»، كما لاحظ شاعر دمشقي آخر. «كل روح لم تكن تساوي سوىٰ حبة» في تورية مخيفة تعني «حبة قمح»، أو «بثرة» التي هي أول أعراض الطاعون الدُمَّلي.

وبحلول عام ١٣٥١م، قتل المرض ثُلث أو ربما نصف الغربيين، من البحر المتوسط إلىٰ أطراف موسكو، واندفع عائدًا إلىٰ الصين. وفي ذلك العام، جلب المسيحيون [أصحاب العيون الخضراء] الذين عيَّنهم الإمبراطور من آسيا الداخلية لمحاربة المتمردين، الوباءَ معهم. قتل الوباء نصف الجيش، ثمَّ اجتاح الصين في كل عام حتىٰ ١٣٦٠م. لا يمكننا حساب عدد القتلىٰ، لكنَّه من الواضح أنه كان مريعًا للغاية.

ربما لا يوجد وقت مناسب لشيء مثل زيارة الموت الأسود للإنسانية، ولكن يصعب تصور وقت أسوأ من عام ١٣٤٠م. لقد اقتربت فترة العصور الوسطىٰ الدافئة من نهايتها، معلنةً ما يسميه العلماء في أكثر الأحيان العصر الجليدي الصغير. وفي تلك الفترة ازداد الجليد من النرويج إلىٰ الصين. وتجمد مضيق الدنمارك الذي يفصل آيسلندا وغرينلاند بانتظام بعد عام ١٣٥٠م. وترك الإسكندنافيون مستوطناتهم في غرينلاند وجالت الدببة القطبية عبر جسر الجليد إلىٰ آيسلندا، التي أصبحت الآن باردة بما يكفي بالنسبة إليهم. وتجمَّد بحر البلطيق في عام ١٣٠٣م، ومرة أخرىٰ في عامي (١٣٠٦ - ١٣٠٧م)؛ وفي (١٣٠٩ - ١٣١٠م) تجمَّد نهر التايمز في إنجلترا المعتدلة أيضًا. وقد أمطرت كثيرًا بين أعوام (١٣١٥ و١٣١٧م) في شمال غرب أوروبا لدرجة أنَّ المحاصيل تعفنت في الأرض -تفصيلة مدهشة حقًا- وأصبحت الأرض موحلة علىٰ الفرسان كي يحاربوا.

ومع تراجع المحاصيل وموت الأحياء، كان من الصعب عدم استنتاج أنَّ الله يبعث برسالة. ففي الصين تحوَّل اللصوص المستوطنون إلىٰ ثوار دينيين، متوجهين بالأساس ضد المغول المحتلين. وفي حين كان الإمبراطور الأجنبي يُسلّي نفسه بقوارب السعادة والحفلات الماجنة، أعلن زعماء الطائفة المسيحانية أنَّ بوذا قد عاد ليصحح أخطاء العالم ويرشد الجميع إلىٰ الجنة. وبحلول عام ١٣٥٠م كانت الإمبراطورية تتمزق.

نحن نعرف القليل عن الأحداث في المركز الغربي القديم في العراق، الذي كان حكَّامه المغول غير أكفاء تمامًا مثل حكَّام الصين، ولكن ربما في مصر

وسورية عزَّز الطاعون الإسلام. من الواضح أنَّ الجميع لم يقتنع بالروايات الرسمية التي تقول إنَّ الوباء استهدف معاقبة الكفار فقط (بالنسبة إلىٰ المؤمنين كان الموت بالوباء رحمة واستشهادًا)، وفي هذا الصدد كتب المؤرخ الوردي، علىٰ سبيل المثال: «نسأل الله العفو علىٰ ميل نفوسنا للشر؛ الطاعون بالتأكيد جزء من عقابه»، واستغل ذلك مروجو الدفاعات السحرية - ولكن أكثر الردود شهرة كانت الصلوات الجماعية، والمواكب لمقابر الأولياء والقوانين الأشد صرامة ضد الكحول والانفلات الأخلاقي.

بدت الأشياء أكثر قتامة بالنسبة إلىٰ العديد من المسيحيين. فلم يبد لهم فقط أنَّ الرب يعاقبهم - تباكىٰ أحد الإيطاليين قائلًا: «يضطرب عقلي وأنا أستعد لكتابة جملة أنَّ العدالة الإلهية، برحمتها الواسعة، قد أنزلت بالبشر العقوبة» - ولكن بدا أنَّ الكنيسة نفسها تتفكَّك. في عام ١٣٠٣م، أمر ملك فرنسي بضرب البابا نفسه وإلقائه في السجن، وبعد ذلك بقليل انتقل البلاط البابوي إلىٰ أفيون في فرنسا، وهناك أصبحت مثالًا للفساد والانحلال؛ بل وجعل أحد الباباوات القول بأن يسوع كان فقيرًا أمرًا غير شرعي. وفي النهاية، رحل بعض الكرادلة إلىٰ روما وانتخبوا أبًا مناهضًا اختلف مع البابا في أفيون حول كل ما يمكن تصوره، ولبضع سنوات موهنة بعد عام ١٤٠٩م، بلغ العدد الفعلي للبابوات المتنافسين ثلاثة، جميعهم يدَّعي أنَّهم خلفاء الرب علىٰ الأرض.

وبما أنَّ الكنيسة قد خذلتهم جميعًا، فقد أخذ الناس في أيديهم زمام الأمور. وكان أكثرهم إبداعًا هي مجموعة مسيحية متطرفة تُعرف باسم «الجلادون»:

«احتشدوا عراة الصدور، في مجموعات وجماعات كبيرة وساروا في موكب عبر مفترقات الطرق وميادين المدن والبلدات. وهناك شكَّلوا دوائر وجلدوا ظهورهم بالسياط مبتهجين بأصوات عالية وهم يفعلون ذلك، ينشدون الترانيم . . . وينبغي إضافة أنَّ الكثير من النساء المحترمات والشيوخ، قد أدّوا تلك الكفارة بالسياط، يمشون ويغنون عبر المدن والكنائس مثل الرجال».

وفضَّل آخرون جزاءات أكثر تقليدية مثل ذبح اليهود، رغم أنَّ اليهود (كما أشار أحد البابوات في عام ١٣٤٨م) كانوا يموتون بالسرعة نفسها التي مات بها المسيحيون. ولكن لم يجدِ أي شيء نفعًا، وسقط التطورِ الاجتماعي سريعًا في غرب البحر الأبيض المتوسط في الوباء الذي أنتجه التبادل التجاري الثاني مثلما حدث في الأوبئة التي تسبب فيها التبادل التجاري الأول. ولا عجَب أنَّ النهاية تبدو وشيكة.

أنهار مختلفة

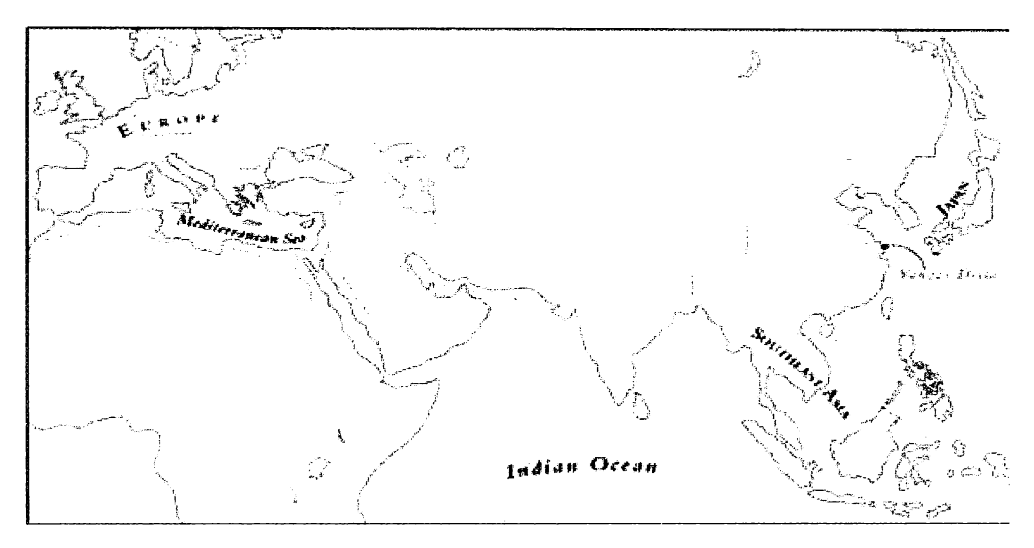
بيدَ أنَّ التاريخ يعيد نفسه. في القرن الأول الميلادي ارتفع التطور الاجتماعي إلىٰ سقف صلب عند حوالي ٤٣ نقطة، وأطلق انهيارًا قديمًا لقرون علىٰ نطاق العالم. وبعد ١١٠٠ سنة، ارتفع التطور الاجتماعي الشرقي إلىٰ المستوىٰ نفسه، وأطلق كوارث مماثلة. ولو كان فضائيو فون دانيكن من الفضاء الخارجي يدورون حول الأرض مجددًا في عام ١٣٥٠م لخلصوا إلىٰ أنَّ تاريخ البشرية قد قُيِّد في سلسلة من دورات الازدهار والكساد، وهو يقفز ضد سقف صلب لا ينكسر.

ولكن مثل كل رجال الفضاء الذين تخيلتهم حتىٰ الآن، كانوا سيخطئون؛ لأنَّه كان ثمة قانون تاريخي آخر يعمل أيضًا. وقد علّقتُ في وقت سابق أنَّ جنكيز خان استطاع ولوج النهر نفسه مرتين، ولم يفعل فرسان الهلاك. فقد كانت المراكز التي امتطاها الفرسان خلال تبادل العالم القديم الثاني مختلفة كثيرًا عن تلك التي دمروها خلال تبادل العالم القديم الأول، ممَّا يعني أنَّ التبادل الثاني كان له نتائج مختلفة جدًّا عن الأول.

ومن الواضح للغاية أنَّ المركزين كانا أكبر من الناحية الجغرافية عندما تكاثف التبادل الثاني في حوالي عام ١٢٠٠م عما كان عليه خلال التبادل الأول (الشكل ٨ - ٥) وقد كان الحجم مُهمًّا. ومن ناحية أخرىٰ، ولَّدت المراكز الأكبر اضطرابات أكبر: من الصعب قياس الفاجعة، لكن الأوبئة والمجاعات والهجرة التي بدأت في القرن الثالث عشر علىٰ ما يبدو كانت أسوأ من تلك التي بدأت في القرن الثاني. ومن ناحية أخرىٰ، كانت المراكز الأكبر تعني أيضًا عمقًا أكبر

لامتصاص الصدمات، واحتياطيات أضخم لتسريع الإنعاش. وقد أفلتت اليابان وجنوب شرق آسيا وحوض البحر المتوسط من الاجتياح المغولي في القرن الثالث عشر، وتجنبت اليابان وجنوب شرق آسيا الموت الأسود في القرن الرابع عشر أيضًا، بيدَ أنَّ منطقة دلتا اليانغتسي في قلب الصين قد تجاوزت الكوارث بصورة ملحوظة.

وقد تغيَّرت الجغرافيا الاقتصادية كذلك. فبحلول عام ١٠٠م، كان المركز الغربي أرقىٰ وأغنىٰ من الشرقي، ولكن بحلول عام ١٢٠٠م كان العكس هو الصحيح. لقد كان المركز الشرقي، وليس الغربي، هو الذي يجاهد ضد السقف الصلب، وقزَّمت الشبكات التجارية الشرقية (خاصة تلك التي تربط جنوب الصين وجنوب شرق آسيا والمحيط الهندي)، أي شيء في الغرب.



(الشكل ٨ – ٥). الحجم يهمّ: تمثّل الخطوط الأفقية المناطق في المركزين الشرقي والغربي التي تحكمها دول في حوالي عام ١٠٠م، عشية أزمة العالم القديم الأولىٰ، وتظهر الخطوط المائلة أين انتشرت الدول بحلول عام ١٢٠٠م قبيل تعزيز تغييرات الأزمة الثانية في الجغرافيا السياسية والاقتصاد.

بالعودة إلىٰ عام ١٠٠م، استمرت معظم التجارة في كل مركز داخل حدود إمبراطورية عظمىٰ واحدة، وبحلول عام ١٢٠٠م لم يعد ذلك صحيحًا. كان المركزان أكثر فوضوية سياسية ممَّا كانا عليه في العصور القديمة، وحتىٰ عندما

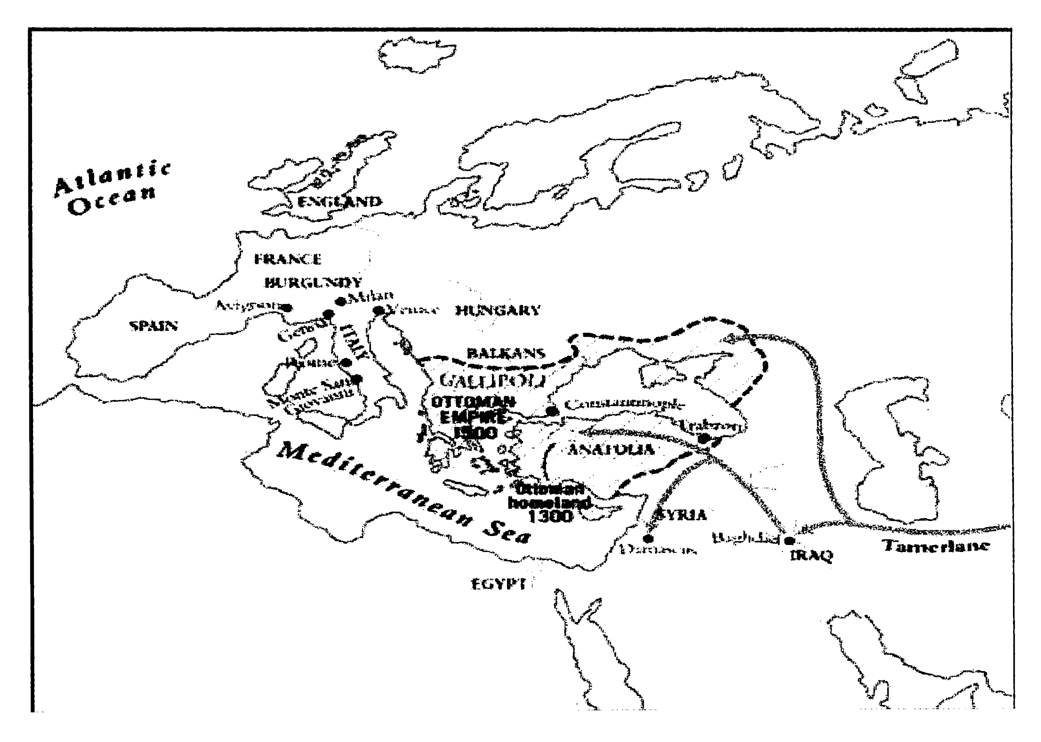
عززت الإمبراطوريات العظمىٰ مرة أخرىٰ المناطق الحيوية القديمة المهمَّة بعد وباء الموت الأسود، كانت العلاقات السياسية مختلفة تمامًا. كان علىٰ أيٍّ إمبراطورية عظمىٰ أن تتعامل مع حلقة من الدول الصغيرة المحيطة بها. ففي الشرق كانت العلاقات تجارية ودبلوماسية بالأساس؛ أمَّا في الغرب فقد اتسمت بالعنف في جوهرها.

وبجمعها معًا، عنت هذه التغييرات أنَّ المراكز لم تتعافَ من تبادل العالم القديم الثاني أسرع من الأول فحسب ولكنَّها أيضًا تعافت بطرق مختلفة.

في الغرب سرعان ما أعاد الأتراك العثمانيون بناء إمبراطورية في المنطقة المركزية القديمة في القرن الرابع عشر. وكان العثمانيون مجرد عشيرة ضمن عشرات العشائر التركمانية التي استقرت في الأناضول في حوالي عام ١٣٠٠م بعدما حطَّم المغول الممالك الإسلامية الأقدم (الشكل ٨ - ٦)، ولكن في غضون بضع سنوات من وباء الموت الأسود تفوقوا بالفعل علىٰ منافسيهم، وأنشؤوا نقطة عبور أوروبية. وبحلول عام ١٣٨٠م، كانوا يُرهبون بقايا الإمبراطورية البيزنطية المثيرة للشفقة، وفي عام ١٣٩٦م أرهبوا العالم المسيحي بشكل سيئ إلىٰ درجة أنَّ باباوات روما وأفيون المتشاحنين اتفقوا علىٰ توحيد قواهم في إرسال حملة صليبية ضدهم.

لقد كانت كارثة، ولكنَّ الأمل المسيحي انتعش عندما قاد تيمورلنك -وهو زعيم مغولي جعل جنكيز خان يبدو حسن التصرف- غزوة جديدة من السهول داخل العالم الإسلامي. وفي عام ١٤٠٠م، دمّر المغول دمشق، وفي عام ١٤٠١م اجتاحوا بغداد، حسبما ذُكر باستخدام جماجم تسعين ألف من سكانها باعتبارها أحجار سلسلة من الأبراج التي بنوها حول الحطام. وفي عام ١٤٠٢م هزم تيمورلنك العثمانيين، وألقىٰ بالسلطان في قفص، حيث قضىٰ نحبه إثر الخزي والفضيحة. ولكنَّ آمال المسيحية قد فشلت. وبدلًا من البقاء لتدمير ما تبقىٰ من أراضي المسلمين، قرَّر الإمبراطور تيمورلنك أنَّ إمبراطور الصين البعيدة قد أهانه ودار بفرسانه إلىٰ هناك. وتوفي في عام ١٤٠٥م في أثناء اتجاهه ناحية الشرق كي يثأر للإهانة.

وبكونهم أُنقذوا في آخر لحظة، عاد العثمانيون للتجارة في غضون عشرين عامًا، ولكن بينما تقدموا عبر البلقان كان عليهم تعلُّم بعض الدروس الصعبة. فعندما هزمهم المغول في عام ١٤٠٢م، حارب كلا الجيشين، كما فعل مقاتلو السهوب لمدة ألفي سنة، مع سُحُب من رماة السهام يحيطون ويُسقطون الأعداء المتحركين ببطء. لم تستطع الجيوش الأوروبية المنافسة وجهًا لوجه مع هذه الحشود من الفرسان خفيفي الحركة، ولكنَّهم حسَّنوا من مدافعهم الجديدة لدرجة أنه في عام ١٤٤٤م صدم جيش هنغاري العثمانيين صدمة بغيضة. فبوجود مدافع صغيرة مركبة علىٰ عربات مربوطة معًا كحصون متنقلة، أوقفت النيران الهنغارية سلاح الفرسان التركي في مساراته. ولو لم يعدُ الملك المجري بحصانه متقدمًا رجاله مما تسبب في قتله، فمن المرجح أنه كان سيفوز بالمعركة.



(الشكل ٨ - ٦). إحياء الغرب (١٣٥٠ - ١٥٠٠م): تُظهر المنطقة المظللة امتداد الإمبراطورية التركية العثمانية في عام ١٥٠٠م، وهو الوقت الذي كان المركز الغربي يتحرك فيه بشكل حاسم في اتجاه الشمال والغرب.

وتوصل الأتراك سريعو التعلم إلىٰ أفضل رد: شراء القوة النارية الأوروبية. كانت هذه التكنولوجيا الجديدة مُكلّفة ولكن حتىٰ أغنىٰ الدول في أوروبا، مثل البندقية وجنوىٰ، كانت فقيرة بجوار السلاطين. وسرعان ما تحرك العثمانيون مرة أخرىٰ، بتعيين إيطاليين في مناصب الأدميرالات ومهندسي الحصار وتدريب فتية مسيحيين من العبيد ليصبحوا من صفوة كتائب المشاة وتجنيد جنود مدفعية أوروبيين. وفي عام ١٤٥٣م عندما بدؤوا الهجوم علىٰ القسطنطينية التي ظلت أكبر حصن علىٰ الأرض والحاجز الرئيس أمام القوة التركية، استأجر الأتراك أفضل ضابط مدفعية، وكان مجريًا. وصنع هذا الضابط المجري للعثمانيين مدفعًا حديديًا كبيرًا بما يكفي لإلقاء كرة حجرية بوزن ألف رطل، مع صوت زئير مرتفع بما يكفي (كما قال المؤرخون) لإجهاض الحوامل. وقد تصدع المدفع في اليوم الثاني، وكان عديم الجدوىٰ بحلول اليوم الرابع أو الخامس، لكنَّ الهنغاريين قاموا بتشكيل مدفع أصغر وعملي أكثر نجح فيما فشل فيه الأكبر.

وللمرة الأولىٰ والأخيرة في التاريخ، انهارت أسوار القسطنطينية. واحتشد آلاف البيزنطيين المذعورين في كنيسة آيا صوفيا -التي أطلق عليها جيبون «الجنة الأرضية، السماء الثانية، مركبة الملاك، عرش مجد الرب»- وهم علىٰ ثقة في النبوءة بأنَّ الكفار عندما يهاجمون كنيسة فسينزل مَلَك، وفي يده السيف لاستعادة الإمبراطورية الرومانية. ولكنَّ الملك لم يأت، وسقطت القسطنطينية؛ وبذلك -كما استنتج جيبون- انتهت أخيرًا الإمبراطورية الرومانية.

وبينما تقدم الترك، كان الملوك الأوروبيون يحاربون بشراسة أكبر ضد بعضهم البعض وكذلك ضد الكفار، وانطلق سباق تسلُّح حقيقي. وتصدرت كل من فرنسا وبرغندي هذا السباق في عام ١٤٧٠م، حيث صنع ضباط المدفعية مدافع ذات مواسير أكثر سُمكًا وقاموا بتشكيل بودرة البارود في شكل حبوب اشتعلت بشكل أسرع، وتمَّ استخدام القذائف المدفعية الحديدية بدلًا من الحجرية. وكانت النتيجة هي مدافع أصغر وأقوىٰ والمزيد من المدافع المحمولة التي جعلت الأسلحة القديمة من الماضي. كانت المدافع الجديدة خفيفة بما يكفي ليتم تحميلها علىٰ السفن الحربية الحديثة المكلّفة، التي تسيّرها الأشرعة،

لا المجاديف، مع انخفاض الهياكل في منافذ المدفعية لدرجة أنَّ القذائف المدفعية الحديدية استطاعت ثقب سفن العدو عند خط الماء تمامًا.

لقد كان من الصعب علىٰ أي شخص فيما عدا الملك تحمّل تكاليف هذا النوع من التكنولوجيا، وببطء ولكن بشكل مؤكد اشترىٰ ملوك أوروبا الغربية ما يكفي من الأسلحة الجديدة لتخويف اللوردات والمدن المستقلة والأساقفة الذين جعلت تشريعاتهم الدول الأوروبية الأقدم ضعيفة جدًّا. وأنشأ الملوك علىٰ طول الساحل الأطلسي دولًا أكبر وأقوىٰ -فرنسا وأسبانيا وإنجلترا- حيث انتشرت الأوامر القضائية الملكية في كل مكان وكان للأمة، وليس للعشائر الأرستقراطية البعيدة أو البابوات في روما، المطالبة الأولىٰ بانتماء الشعوب. وبمجرد أن تفوقوا علىٰ لورداتهم، استطاع الملوك أن يبنوا البيروقراطيات وأن يفرضوا الضرائب علىٰ الشعب وأن يشتروا المزيد من الأسلحة - ممَّا أجبر بالطبع الملوك المجاورين علىٰ شراء المزيد من الأسلحة، ودفع الجميع إلىٰ جمع المزيد من المال.

ومرة أخرىٰ كانت هناك مزايا للتخلف، وجذب الصراع مركز ثقل الغرب باطراد باتجاه المحيط الأطلسي. ظلَّت مدن شمال إيطاليا لمدة طويلة الجزء الأكثر تقدمًا في أوروبا، لكنَّها الآن اكتشفت عيبًا للتقدم: فقد كانت المدن الرائعة المستقلة ذاتيًا مثل ميلانو وفينيسيا غنية وقوية جدًّا كي يتم إخضاعها لتكون دولة قومية إيطالية، لكنَّها ليس بهذا القدر من الغنىٰ والقوة بما يكفي لتقف بمفردها ضد الدول القومية الحقيقية مثل فرنسا وأسبانيا. وقد استمتع الكُتّاب مثل ماكيافيللي بهذه الحرية، ولكن تبيَّن لهم ثمن تلك الحرية عندما غزا الجيش الفرنسي إيطاليا في عام ١٤٩٤م. ونتيجة لذلك، تدهورت صناعة الحرب في إيطاليا، كما اعترف ميكيافيللي نفسه بذلك «في حالة تفسخ لدرجة أنَّ الحروب كانت تبدأ دون خوف، وتستمر دون أخطار، وتنتهي دون خسارة». وقامت بضعة مدافع فرنسية بتفجير كل شيء في طريقها. واستغرق الأمر ثماني ساعات فقط لسحق قلعة مونت سانت جيوفاني الحجرية الرائعة، متسببة في مقتل سبعمائة إيطالي مقابل فقدان عشرة فرنسيين. ولم تستطع المدن الإيطالية الدخول في

منافسة مع الإيرادات الضريبية للدول الكبرىٰ مثل فرنسا. وبحلول عام ١٥٠٠م، كان المركز الغربي يُعاد ترتيبه من حافته الأطلسية، وكانت الحرب تتصدر المسير.

وعلىٰ النقيض من ذلك، أُعيد تنظيم المركز الشرقي من مركزه القديم في الصين، وتصدرت أخيرًا التجارة والدبلوماسية المسير، علىٰ الرغم من أنَّ صعود الإمبراطوريات الجديدة قد بدأ بإراقة الدماء علىٰ نحو محبط ككل شيء في الغرب. كان تشو يوان تشانغ، مؤسس سلالة المينج الذي أعاد توحيد الصين، فقيرًا منذ مولده في عام ١٣٢٨م، بينما كانت سلطة المغول تتداعىٰ. وقد باع أبواه -وهم عمَّال مهاجرون هاربون من محصلي الضرائب- أربعة من إخوته وأخواته؛ لأنَّهم لم يستطيعوا إطعامهم، وتركوا يوان تشانغ، أصغر إخوته، مع جده البوذي. وقد ملأ الرجل العجوز رأس الصبي بالرؤىٰ المسيحانية للعمائم الحمراء، وهي إحدىٰ الحركات العديدة المقاومة للمغول. وأصرَّ الرجل علىٰ أنَّ النهاية كانت وشيكة، وأنَّ بوذا سيعود قريبًا من الجنة ليقتل الأشرار. وبدلًا من ذلك، في الصيف الذي أتلفه الجراد والجفاف لعام ١٣٤٤م، خطف المرض -علىٰ الأرجح الموت الأسود- عائلة يوان تشانغ بالكامل.

وربط المراهق نفسه بدير بوذي باعتباره خادمًا، ولكنَّ الرهبان كانوا بالكاد يستطيعون إطعام أنفسهم وأرسلوه خارجًا للتسول أو السرقة ليوفر احتياجاته الأساسية. وبعد التجول في الطرق الخلفية لجنوب الصين لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام عاد يوان تشانغ إلىٰ الدير في الوقت المناسب ليراه وقد احترق بالكامل خلال الحروب الأهلية الواسعة المكدّرة التي رافقت انهيار الحكم المغولي. ومع عدم وجود مكان آخر للذهاب إليه، التحق يوان تشانغ بالرهبان الآخرين الذين تسكعوا وسط الحطام، يتضورون جوعًا.

كان يوان تشانغ شابًا ذا مظهر مزعج، طويلًا، قبيحًا، ذا فك سفلي بارز تغطيه الندبات. لكنَّه كان أيضًا ذكيًا وقويًا ويجيد القراءة والكتابة (بفضل الرهبان)؛ لقد كان باختصار هو نوع الرجل الذي قد يرغب فيه أي قاطع طريق كي ينضم لمجموعته. وبتجنيده من قِبَل عصابة من العمائم الحُمر حين مرت

خلال الحي، فقد أذهل السفاحين والحالمين، وتزوج ابنة الزعيم وترأس العصابة في نهاية المطاف.

وخلال ١٢ سنة من الحروب الطاحنة، حوَّل يوان تشانغ جماعته من السفاحين إلىٰ جيش نظاميّ ودفع بالمتمردين الآخرين خارج وادي اليانغتسي. وبالقدر نفسه من الأهمية، فقد ابتعد عن نبوءات العمائم الحُمر البدائية ونظّم بيروقراطية تستطيع إدارة إمبراطورية. وفي يناير عام ١٣٦٨م، قبل أيام من عيد ميلاده الأربعين، قام بتسمية نفسه هونغ وو (القوة العسكرية العظمىٰ)، وأعلن إنشاء أسرة المينغ (الذكية).

تجعل قرارات هونغ وو الرسمية الأمر يبدو كما لو كانت حياته كلها ردة فعل ضد شبابه المروّع عديم الأصل والعنيف. وقد طوَّر صورة للصين باعتبارها جنة رعوية من القرىٰ المستقرة والسلمية، حيث يُشرف شيوخ القرىٰ الفُضلاء علىٰ المزارعين المُكتفين ذاتيًا، ويتاجر التجَّار في البضائع التي يتعذر توفيرها محليًا فقط، ولا يتنقل فيها أحد - بخلاف عائلة هونغ وو. وقد ادَّعىٰ هونغ وو أنَّ القليل من الناس كانوا بحاجة إلىٰ السفر أكثر من ثمانية أميال من المنزل، وأنَّ قطع مسافة أكثر من خمسة وثلاثين ميلًا من دون إذن هو أمر يستحق الجلد. وخشية من أنَّ العملة والتجارة قد تؤديان لتآكل العلاقات المستقرة، فقد شرَّع هونغ وو ثلاثة قوانين مقيدة للتجارة مع الأجانب بدلًا من التجَّار الذين تقرّهم الحكومة، ومنع العطور الأجنبية خشية إغراء الصينيين بالتبادلات غير المشروعة. وبحلول عام ١٤٥٢م، جدَّد خلفاؤه قوانينه ثلاث مرات إضافية وقاموا في أربع مناسبات بحظر الفضة خوفًا من أن يجعلوا التبادل التجاري غير الضروري سهلًا للغاية.

وزعم هونغ في وصيّته: «طوال واحد وثلاثين عامًا عملت لإنفاذ تفويض السماء، يُعذّبني القلق والمخاوف، دون راحة ليوم واحد». وعلينا أن نتساءل -رغم ذلك- عن قدر معاناة هونغ وو التي كانت موجودة فقط في ذهنه. لقد كان هونغ وو شغوفًا بأن يظهر -خلافًا لأسلافه المغول- باعتباره حاكمًا كونفوشوسيًا نموذجيًا، لكنَّه لم يحظر أبدًا التجارة الخارجية. بل إنَّ ابنه، يونجل، قام بتوسيع

نطاقها بالدأب علىٰ استيراد عذارىٰ كوريا الجنوبية لممارسة الجنس؛ لأنهن كما ادعىٰ كُنّ جيدات لصحته. لكنَّ ملوك مينغ أصرّوا علىٰ إبقاء التجارة في أيادٍ رسمية. وقد أعلنوا مرارًا أنَّ ذلك يحمي النظام الاجتماعي المستقر (نظريًا)، ويسمح للأجانب بإظهار الاحترام المُتوقّع. وقد أوضح أحد الحكّام: «أنا لا أهتم بالأشياء الخارجية. إنَّني أقبلهم لأنَّهم يأتون من أماكن بعيدة، ويُظهرون إخلاص الأناس البعيدين». لم تكن حقيقة أنَّ «الإتاوة» -كما أسمىٰ البلاط التجارة خارج الحدود- تملأ الخزائن الإمبراطورية جديرة بالذكر.

وبالرغم من كل ما قيل، فقد ازدهرت التجارة. وفي عام ١٤٨٨م، لاحظ كوري نجا من سفينة محطَّمة أنَّ السفن الأجنبية تقف بشكل كثيف كأسنان المشط، في ميناء هانغزهو. واكتشف علماء الآثار تحت الماء أنَّ السفن التجارية كانت تكبر، وتُشير حقيقة أنَّ الأباطرة شعروا بأنهم مجبرون علىٰ تجديد قوانينهم بشأن التجارة غير المشروعة بقدر كبير، إلىٰ أنَّ الشعب كان يتجاهلهم.

كانت آثار الطفرة التجارية بعيدة المدىٰ. وارتفعت عوائد الفلاحين مرة أخرىٰ، وازدادت الأسر وتدفق المُزارعون من قُراهم لفتح أراض جديدة أو للعمل في المدن. وقد أصلح الأثرياء المحليون الطرق والجسور والقنوات بعد عنف القرون السابقة، وحمل التجّار الأغذية معهم، وهرع الناس في كل مكان إلىٰ السوق لبيع ما استطاعوا أن ينتجوه بتكلفة رخيصة وشراء كل شيء آخر. وبحلول عام ١٤٨٧م لم يُقدّر أي مسؤول أنَّ الناس كانوا «يحوِّلون الحبوب إلىٰ أموال، ثمَّ يحوِّلون الأموال إلىٰ ثياب وطعام ولوازم يومية ... لا يوجد أي شخص في جميع أنحاء الإمبراطورية لا ينطبق عليه هذا».

لقد ربطت التجارة المركز الشرقي المتوسّع كما ربطت الحرب دول الغرب. وسرعان ما توسَّع كلٌ من السكان والزراعة والاقتصاد في اليابان في القرن الرابع عشر، وعلىٰ الرغم من قيود مينغ، ظلَّت التجارة مع الصين تتنامىٰ باطراد. وكانت التعاملات مع دول جنوب شرق آسيا أكثر أهمية: فقد موّلت عائدات التجارة قيام بعض الدول مثل ماجاباهيت في جاوة التي هيمنت علىٰ تجارة التوابل. وأصبح الكثير من الحكّام المحليين يعتمدون علىٰ الدعم الصيني لعروشهم.

ولم يتطلب أي من ذلك نوع العنف المتواصل الذي كان لعنة علىٰ الغرب، وبخلاف محاولة كارثية لدعم نظام مُوالٍ في فيتنام، فقد حدَّد ملوك مينغ قتالهم في حدود منطقة السهوب. وظلَّ المغول التهديد الوحيد الحقيقي للأسرة الحاكمة. ولو لم يتوفَّ تيمورلنك في عام ١٤٠٥م، فلربما أطاح بالمينغ، وفي عام ١٤٤٩م أسرت قبائل منغولية أخرىٰ إمبراطورًا. ولمتابعة حروبهم في السهول، شعر المينغ أنَّهم لم يكونوا بحاجة إلىٰ مدافع متطورة ولكن إلىٰ جيوش تقليدية مع قوافل إمدادات واسعة. وعندما غزا يونجل السهول في عام ١٤٢٢م - علىٰ سبيل المثال- أخذ ٣٤٠ ألفًا من الحمير و١١٧ ألف عربة و٢٣٥ ساحب عربة لجر ٢٠ ألف طن من الحبوب التي سيأكلها جيشه.

كان يونجل يسير بهدوء، ولكنَّه يحمل عصا كبيرة. في عام ١٤٠٥م، أعلن أنه سيرسل سفراء «لمختلف الدول الأجنبية في المحيط الغربي (الهندي) لإملاء الأوامر الإمبراطورية ومنح المكافآت» في ربط للتجارة في شبكة من الدبلوماسية، ولكنَّه أرسل معهم أيضًا أكبر أسطول رآه العالم علىٰ الإطلاق. ومن أجل بناء هذا الأسطول، استدعىٰ ٢٥ ألفًا من الحرفيين لإضافة أرصفة ميناء واسعة جديدة لعاصمته في مدينة نانجينغ. وانتشل الحطابون في سيتشوان أفضل أخشاب التنّوب للصواري وأخشاب الدردار والأرز لهياكل السفن والبلوط لأذرعة المقود، ثمَّ قطَّعوا غابات كاملة وأرسلوها طافية في نهر اليانغتسي إلىٰ بنَّائي السفن. كما بنىٰ العمال أرصفة جافة عملاقة بطول مئات الأقدام للعمل علىٰ السفن العظمىٰ. ولم يغفلوا عن أيَّة تفصيلة حتىٰ المسامير الحديدية غطوها بطبقة مضادة للماء.

لم يكن ذلك أسطولًا حربيًا، ولكنَّه قد صُمِّم ليكون مفاجئًا ومُبهرًا. وفي قلبه كانت هناك أكبر السفن الخشبية علىٰ مر العصور، ربما بطول ٢٥٠ قدمًا وتزيح ألفي طن من المحيط، وقيل إن قائدها أكبر أدميرال في التاريخ، المسلم المخصي «تشنغ خه»، كان طوله سبعة أقدام و٦٠ بوصة حول البطن، (في بعض الروايات، ٩ أقدام و٩٠ بوصة عند الخصر).

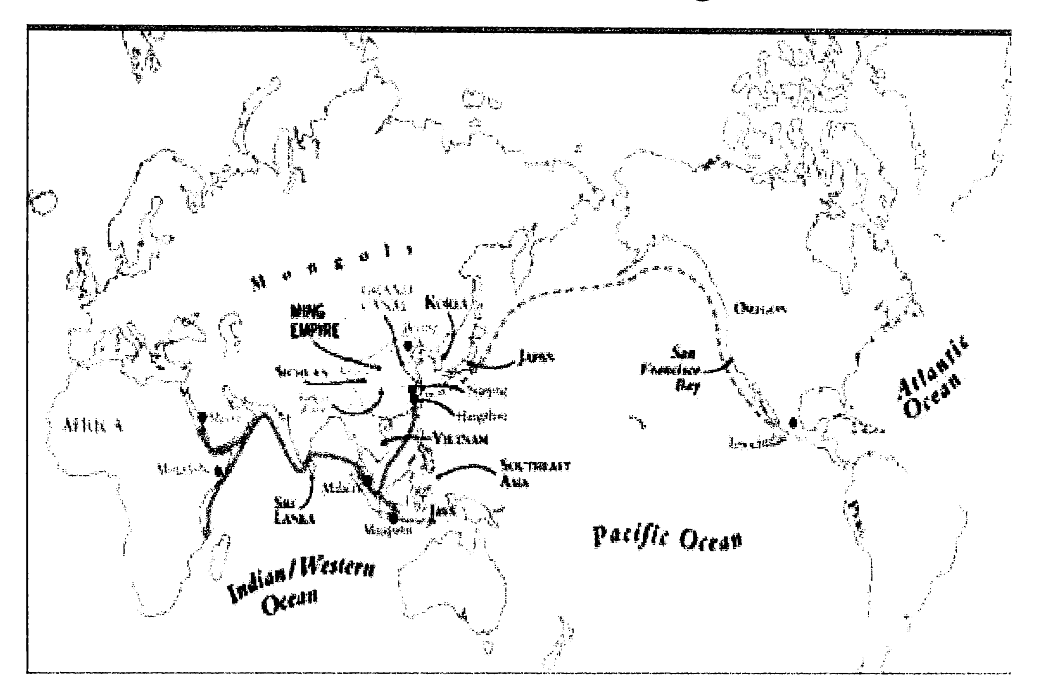
وأبحرت أكثر من ثلاثمائة سفينة تحمل ٢٧,٨٧٠ رجلًا. وكانت الخطة تقتضي الرسو في المدن الغنية حول المحيط الهندي التي حين سيستيقظ أمراؤها

ليجدوا أنَّ البحار خارج نوافذ قصورهم قد امتلأت بالأشرعة الصينية سيقومون بتسليم مبالغ «إتاوة» ضخمة، ومن ثمَّ تحويل التجارة عبر القنوات الرسمية. ولكنَّها كانت أيضًا مغامرة كبرىٰ، بيد أنَّ البحارة كانوا يشعرون بأنهم ينزلقون إلىٰ منطقة الشفق حيث كل شيء ممكن. ففي سريلانكا (الشكل ٨ - ٧) أراهم المسلمون المحليون آثار أقدام آدم المقدسة، بينما في فيتنام اعتقد البحارة أنَّ عليهم تفادي «البربريين ذوي الرؤوس الميتة»، وهو نوع من الأشباح الأسطورية «البانشي» كان في الحقيقة امرأة تنتمي إلىٰ أسرة بشرية، تكمن فرادتها في أنَّ عينيها من دون حدقات، وفي الليل عندما تنام، تطير رأسها وتأكل البراز المستدق لأطفال البشر؛ وبتأثر الطفل بتأثير الشر الذي يغزو بطنه فإنه يموت حتمًا، وتعود الرأس الطائرة وتتحد مع الجسد كما كانت. وإذا علم الناس بذلك وانتظروا إلىٰ اللحظة التي تطير فيها الرأس، ثم قاموا بإزالة الجسد إلىٰ مكان آخر، فلن تستطيع الرأس الطائرة أن تتحد مع الجسد ثم تموت المرأة.

وبخلاف التهديدات الكامنة في مخيلتهم، لم يواجه البحَّارة مخاطر كبيرة. كانت أساطيل الكنز السبعة التي أُرسلت في الفترة ما بين (١٤٠٥ و١٤٣٣م) أكبر إسقاطات لسلطة الدولة يشهدها العالم. كان عليها أن تقاتل ثلاث مرات لتأمين مضيق ملقا باعتباره حينئذ الممر المائي الأكثر ازدحامًا، والموبوء حينئذ كما الآن بأعداد كبيرة من القراصنة، ولكنَّها بخلاف ذلك استخدمت القوة فقط عندما غُرر بها لتنحاز في الحرب الأهلية في سريلانكا. وتجول البحارة الصينيون في شوارع مقديشو التي لم تبهرهم (إذا جالت أعين المرء فلن يقابل سوىٰ التنهيدات والنظرات الخاطفة المتجهمة (كتب أحد ضباط تشنغ)؛ خراب، ليست البلاد كلها سوىٰ جبال)، وفي شوارع مكة التي أبهرتهم (حتىٰ لو فكر ضابط آخر علىٰ نحو غير متوقع بأنَّ أقدس مزار في مكة يشبه معبدًا بوذيًا).

أبحرت «أساطيل الكنز» جنوبًا وغربًا تسعة آلاف ميل، لكن بعض الباحثين يعتقدون أنَّ هذه كانت مجرد البداية. فمع وجود بوصلاتهم وخرائطهم وخزاناتهم المليئة بمياه الشرب ومخازن الأغذية الضخمة، كان يمكن لسفن تشنغ الذهاب إلىٰ أي مكان أرادوه؛ وهذا كما يدّعي كابتن الغواصة السابق كافن منزيس في

كتابه الأكثر مبيعًا «١٤٢١: العام الذي اكتشفت فيه الصين أمريكا»، هو تمامًا ما فعلوه. يقول منزيس إنَّ من خلال غرقه في المحيط الهادئ، رسا تشو أحد ضباط تشنغ في أوريجون في صيف عام ١٤٢٣م، ثمَّ أبحر بطول ساحل أمريكا الغربي. ويشير مينزيس إلىٰ أنَّه رغم خسارته لسفينة في خليج سان فرانسيسكو، ثابر تشو ودخل ساحل المكسيك وواصل الطريق كله إلىٰ بيرو قبل أن يستغل الرياح ليعود عبر المحيط الهادي. وفي أكتوبر عام ١٤٢٣م، بعد تحويلة دامت أربعة أشهر، عاد تشو سالمًا إلىٰ نانجينغ.



الشكل ٨ - ٧. عالم القرن الخامس عشر كما يمكن رؤيته من الصين: يُظهر دبلوماسية مينغ العدوانية في المحيط الهندي (الخط المصمت)، والمسار الذي كانت السفن الصينية تستطيع أن تأخذه للوصول إلىٰ العالم الجديد (الخط المتقطع).

ويشير مينزيس إلىٰ أنَّ المؤرخين التقليديين قد تجاهلوا إنجازات تشو (بالإضافة إلىٰ الرحلات الأكثر إدهاشًا التي أخذت مرؤوسي تشنغ إلىٰ المحيط الأطلنطي والقطب الشمالي والقطب الجنوبي وأستراليا وإيطاليا)؛ لأن الوثائق الرسمية الخاصة بتشنغ اختفت في القرن الخامس عشر، ونظرًا لقلة المؤرخين

الذين يمتلكون معارف منزيس العملية في الملاحة، فقد أخفقوا في فهم الأدلة المخفية في خرائط القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

غير أنَّ المؤرخين يظلون هادئين حيال هذا الأمر. مينزيس -كما يعترفون- محق تمامًا في أنَّ سجلات تشنغ مفقودة، ولكنَّ المؤرخين يتساءلون: لماذا لا تذكر أبدًا الكمية الهائلة من أدبيات أسرة مينغ الباقية -التي تشمل ليس فقط رواية واحدة بل روايتين لشهود عيان علىٰ رحلات تشنغ- أيًا من هذه الاكتشافات؟ وكيف حافظت سفن القرن الخامس عشر علىٰ السرعات التي تتطلبها نظرية مينزيس؟ وكيف رسم بحارة تشنغ خرائط لسواحل العالم بالطريقة التي ادّعىٰ منزيس أنهم فعلوا ذلك بها؟ ولماذا تتماسك الأدلة التي جمعها مينزيس للهرولة الصينية في العالم علىٰ نحو رديء أمام فحص الباحثين؟

يجب أن أعترف أنني علىٰ جانب المتشككين، وفي رأيي فإنَّ كتاب منزيس «١٤٢١» يقع علىٰ قدم المساواة مع كتاب «العجلات الحربية للآلهة» لفون دانيكن، ولكن مثل تكهنات فون دانيكن -أو علىٰ وجه التحديد، مثل سيناريو ألبرت في بكين الذي ذكرته في مقدمة هذا الكتاب- يمتلك كتاب «١٤٢١» ميزة إجبارنا علىٰ أن نتساءل: لماذا لم تحدث الأشياء بهذه الطريقة؟ إنه سؤال جوهري؛ لأنَّها لو حدثت مثلما يقول مينزيس لما هيمن الغرب الآن.

تشنغ في تينوتشتيتلان

تينوتشتيتلان، أغسطس ١٤٣١م. أُصيب رأس تشنغ. فقد كان كبير السن علىٰ ذلك، وكبيرًا في الحجم كذلك. ظلَّ طوال اليوم يرسل رسلًا إلىٰ المدينة المحترقة، مطالبًا حلفاءه بوقف ذبح الأزتيك، ولكن مع غروب الشمس عبر الدخان كان قد فَقَد الأمل. ففي النهاية، كما حاول إخبار نفسه، لا يمكن إلقاء اللوم علىٰ نفسه حيال المذبحة. هؤلاء الأشخاص كانوا همجيين وبذيئين وجهلاء بالسبيل أو بالإله. لقد كانوا بالكاد يعرفون ما هو البرونز. بيد أنَّ كل ما اهتموا به هو اختراق صدور أعدائهم وفتحها بواسطة أحجار سوداء زجاجية وتمزيق قلوبهم التي ما زالت تنبض.

كان تشنغ ورجاله بالطبع يعرفون قصص أسرة شانغ الصينية القديمة، التي ضحىٰ حكَّامها الآثمون منذ آلاف السنين بالبشر، وقد ثارت تكهنات واسعة بأنَّ هنا فيما وراء المحيط الشرقي كان ثمة عالم موازٍ -أغرب حتىٰ من أرض البرابرة- حيث توقف الزمن وظلَّ الشانغ في الحُكم. لا بُدَّ وأن السماء -كما تكهن رجال تشنغ- قد كلَّفت حملتهم الدور الذي لعبته أسرة تشو الفاضلة بالتراث؛ فقد كان تشنغ هو ملك «وو» الجديد، الذي جاء لانتزاع تفويض السماء من الملوك الأشرار لهذه الأرض ويبشر باقتراب العصر الذهبي.

ولم يتوقع تشنغ أيًا من هذا عندما أمره الإمبراطور بالدخول في المحيط الشرقي. أبحر فيما وراء المحيط الشرقي إلىٰ جزر بنجالاي، كما قال «ابن السماء». ومنذ الإمبراطور الأول لمملكة تشين، بحث الرجال عن هذه الجزر، حيث يعيش الخالدون في قصور من الذهب والفضة، والطيور والوحوش البيضاء

النقية، والأعشاب السحرية. قبل عشر سنوات وضع الأدميرال تشو قدمه في هذا المكان السحري، والآن نحن نأمرك أن تجلب لنا أعشاب الخلود.

رأىٰ تشنغ من العالم أكثر من أي شخص آخر علىٰ الإطلاق. لم يعد شيء يدهشه، وإذا واجهته تنانين وأسماك قرش عملاقة -كما قالت القصص القديمة إنه واجه ذلك- كان ببساطة سيتعامل معها. ولكنَّ أكثر ما توقعه كان هو ما وجده في البداية - لا شيء. وبعد أن أبحر نحو الساحل الياباني، وهو يمنح الألقاب لأمراء الحرب الجامحين ويتلقىٰ ثناءهم، كان أسطوله قد جرىٰ مع الريح لمدة شهرين، يلاحق أفقًا أزرق ينحسر بلا نهاية حيث يندمج البحر والسماء. وعندما شاهد رجاله الثوريون الأرض أخيرًا، كانت كلها أشجارًا وأمطارًا وجبالًا، كانت أسوأ من أفريقيا.

استغرق الأمر المزيد من الأسابيع الطويلة من الانجراف أسفل الساحل قبل أن يجدوا السكان الأصليين الذين لم يهربوا - السكان الأصليون الذين في الحقيقة أبحروا لمقابلتهم، جالبين معهم أطعمة رائعة لم يذوقوها من قبل. ولم يكن لدىٰ هؤلاء البرابرة الكرماء شبه العراة أعشاب للخلود، علىٰ الرغم من أنَّه كان لديهم أعشاب مسكرة بشكل مبهج ليُدخّنوها. ولم يكن لديهم قصور من الذهب والفضة، رغم أنَّهم قالوا إنَّ هذه الأشياء تكمن في المناطق الداخلية. ولهذا مع بضع مئات من الرجال وبضع عشرات من الفرسان، والقليل من الكلمات الأصلية انطلق تشنغ لإيجاد الخالدين.

في بعض الأحيان اضطر إلىٰ القتال، لكنَّ القنابل كان لها أثر مفيد وقلما قاومها البرابرة. حتىٰ بعد انخفاض قوتها، كانت الخيول والسيوف الصلبة تكاد تكون بالفعالية نفسها. لكنَّ أفضل أسلحته، بالرغم من ذلك، كان أبناء الوطن أنفسهم. فقد عاملوا رجاله معاملة الآلهة يحملون إمداداتهم ويتدفقون للقتال من أجلهم. وكان بمقدور تشنغ اتباع التقاليد الحكيمة لاستخدام البرابرة لمحاربة أنفسهم، لمجرد مساعدة «بربربيه» الذين أطلقوا علىٰ أنفسهم اسم «بوريبيكا»، وتغذية الحقد القديم الذي حملوه للبرابرة المجاورين، الآزتيك. ولم يتمكن تشنغ

من التوصل لماهية الحقد، ولكن لا يهم؛ فخطوة بخطوة، جلبته الحرب الأهلية أكثر قربًا للخالدين.

وعندما انضم تشنغ لحلفائه خارج عاصمة الآزتيك، تينو تشتيتلان، اعترف أخيرًا أنَّه لا وجود للخالدين. وكانت تينو تشتيتلان كبيرة بما يكفي، مع شوارع عريضة ومستقيمة وأهرام مدرجة، لكن لم يكن هناك أيَّة حيوانات بيضاء نقية، ولا قصور فضية وذهبية وبالتأكيد لم يكن هناك أعشاب للحياة الأبدية. في الحقيقة، لقد كان الموت في كل مكان. جرَّفت البثور البشعة البرابرة بالآلاف، وتعفَّنت جثثهم حتىٰ قبل موتهم. وقد شهد تشنغ الكثير من الأوبئة، ولكن ليس مثل هذا الوباء. وبالكاد أُصيب واحد من بين مائة من رجاله، وهي بالتأكيد علامة علىٰ سرور الإله من مهمة تشنغ.

وحتىٰ آخر لحظة كان من غير الواضح ما سيفعله وباء الطاعون - تاركًا برابرة تشنغ ضعفاء جدًّا لمهاجمة تينو تشتيتلان أو البرابرة الأعداء ضعفاء جدًّا للدفاع عنها. ولكن، مرة أخرىٰ، وقفت السماء إلىٰ جانب تشنغ، وتحت غطاء القنابل الأخيرة وسهام الأقواس الصغيرة، تولىٰ فرسانه المسؤولية عبر الطرق المعبّدة إلىٰ تينو تشتيتلان. وبعد الصراع الشرس من جانب واحد في الشوارع -نصلات الآزتيك الحجرية وحشوات القطن ضد السيوف الصينية الصلبة والدروع المزردة- انهارت المقاومة وبدأت قبائل بوريبيتشا التعذيب والاغتصاب والسرقة. وأصابوا آخر ملك للآزتيك بسهام كثيرة وهو يقاتل عند بوابة قصره، ثمَّ ألقوا به في النار، وانتزعوا قلبه قبل وفاته، ويا للهول - قطَّعوا أجزاء من لحمه وأكلوها.

تمت الإجابة عن أسئلة تشنغ. لم يكن هؤلاء الأشخاص خالدين. وكذلك لم يكن الملك وو، بادئًا عصرًا جديدًا للفضيلة. والسؤال الوحيد المتبقي هو -في الحقيقة- كيف سيعيد كل غنائمه إلىٰ نانجينغ.

رجال عظماء وبلهاء حمقى

في الحقيقة، لم تحدث الأشياء بتلك الطريقة، أكثر من حدوث الأمور في عام ١٨٤٨م بالطريقة التي وصفتها في المقدمة. لقد نُهبت تينو تشتيتلان، وقام جيرانها من أمريكا الوسطىٰ بمعظم القتال، وقتلت الأمراض المستوردة معظم الناس في العالم الجديد. ولكن النهب جاء في عام ١٥٢١م، وليس عام ١٤٣١م، وكان بقيادة هيرنان كورتيه، وليس تشنغ، وقد أتىٰ هو والجراثيم القاتلة من أوروبا، وليس آسيا. إذا اكتشف رجل تشو الأمريكتين حقًا، كما يصرّ منزيس، وإذا كانت القصة قد حدثت فعلًا بالطريقة التي رويتها، وقد أصبحت المكسيك جزءًا من إمبراطورية مينغ، وليس الإمبراطورية الأسبانية؛ لبدا العالم الحديث مختلفًا تمامًا. ولربما تمَّ تقييد الأمريكتين باقتصاد المحيط الهادئ، وليس الاقتصاد الأطلسي، ولربما موَّلت مواردهما ثورة صناعية شرقية وليست غربية، ولربما انتهىٰ الأمر بألبرت في بكين وليسبلوتي في بالمورال، ولربما لم يكن الغرب ليحكم.

فلماذا -إذن- حدثت الأشياء بتلك الطريقة؟

كان بإمكان أسرة مينغ بالتأكيد الإبحار إلىٰ أمريكا إذا أراد ذلك ربَّان سفنهم. لقد تمكَّنت نسخة من سفينة اليانك في عصر تشنغ من القيام برحلة من الصين إلىٰ كاليفورنيا في عام ١٩٥٥م (رغم أنها لم تتمكن من العودة مجددًا)، وتمكنت أخرىٰ تُدعىٰ الأميرة تايبينغ من قطع عشرين ميلًا لإكمال رحلة من تايوان إلىٰ سان فرانسيسكو في عام ٢٠٠٩م ذهابًا وإيابًا قبل أن تقطعها سفينة شحن إلىٰ اثنتين. فإذا كانوا قد تمكَّنوا من فعل ذلك، فلماذا لم يتمكن تشنغ؟

تُعدّ أشهر إجابة عن هذا السؤال هي أنَّ الأشياء قد حدثت علىٰ هذا النحو لأنَّه في القرن الخامس عشر فقد أباطرة الصين اهتمامهم بإرسال سفن إلىٰ الخارج، بينما كان الملوك الأوروبيون (بعضهم علىٰ أيَّة حال) مهتمين للغاية بهذا الأمر. وحتىٰ مرحلة معينة، يُعدّ ذلك صحيحًا بوضوح. عندما مات يونغل في عام ١٤٢٤م، كان أول فعل لخليفته هو حظر رحلات المسافات الطويلة. وكما كان متوقعًا، توقَّف أمراء المحيط الهندي عن إرسال الإتاوات؛ ولذا أرسل الإمبراطور التالي تشنغ إلىٰ الخليج الفارسي في عام ١٤٣١م، إلىٰ خليفته زهنغتونغ، لكي يعكس السياسة مجددًا. وفي عام ١٤٣٦م رفض البلاط طلبات متكررة من الترسانات البحرية في نانجينغ بإرسال المزيد من الحرفيين، وخلال العقد أو العقدين التاليين تعفَّن الأسطول الكبير. وبحلول عام ١٥٠٠م لم يكن من الممكن لأي إمبراطور أن يكرر رحلات يونغل حتىٰ لو أراد ذلك.

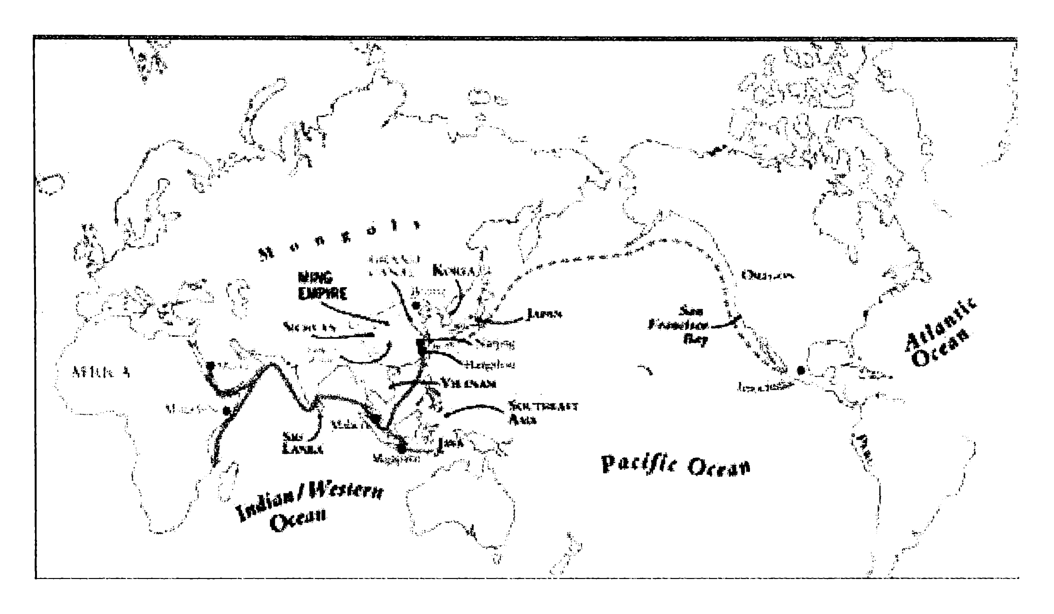
وفي الطرف الآخر من أوروبا الآسيوية كان الملوك يتصرفون بطريقة معكوسة تمامًا. كرَّس أمير البرتغال هنري «الملاح» الموارد من أجل الاستكشاف. كانت بعض دوافعه أنانية (مثل حب الذهب الإفريقي)، وبعضها أخروية (مثل الاعتقاد بأنَّه في مكان ما في أفريقيا كان هناك ملك خالد يُدعىٰ برستر جون، الذي كان يحرس بوابات الجنة وسينقذ أوروبا من الإسلام). ومع ذلك، موَّل هنري الحملات، واستأجر صانعي الخرائط، وساعد في تصميم سفن جديدة كانت مثالية لاستكشاف الساحل الغربي لأفريقيا.

لم يكن الاستكشاف البرتغالي بالتأكيد إبحارًا سلسًا بالكلية. فعند اكتشاف جزر ماديرا غير المأهولة (الشكل ٨ – ٨) في عام ١٤٢٠م، أطلق الكابتن المسؤول (حما كريستوفر كولومبوس المستقبلي) أرنبة وصغيرها في بورتو سانتو، أكثر قطعة واعدة من الأراضي. وبتكاثرها، أكلت الأرانب كل شيء ممَّا أجبر الناس علىٰ الانتقال إلىٰ الجزيرة الرئيسة لماديرا ذات الغابات الكثيفة (خشب: باللغة البرتغالية). أشعل المستعمرون النار في هذه الجزيرة، ممَّا أجبرهم، كما يخبرنا أحد المؤرخين، «مع كل الرجال والنساء والأطفال، يفرّون من ضراوة

[الحريق] ويلجؤون إلىٰ البحر، حيث بقوا في الماء حتىٰ وصلت أعناقهم، ودون طعام أو شراب لمدة يومين وليلتين».

لكن مع تدمير النظام الإيكولوجي الأصلي، اكتشف الأوروبيون أنَّ قصب السكر قد ازدهر في هذا العالم الجديد المتفحّم، ووفّر الأمير هنري الأموال لهم لبناء طاحونة. وعلىٰ مدار جيل كامل كانوا يستوردون العبيد الأفارقة للعمل في مزارعهم، وبنهاية القرن الخامس عشر، كان المستوطنون يصدّرون أكثر من ستمائة ألف طن من السكر سنويًا.

وبالخوض أبعد في المحيط الأطلنطي، وجد البحَّارة البرتغاليون الآزور، وبالاندفاع برفق أسفل الساحل الأفريقي، وصلوا إلىٰ نهر السنغال في عام ١٤٤٤م، وفي عام ١٤٧٣م عبرت أول سفنهم خط الاستواء، وفي عام ١٤٨٢م وصلوا إلىٰ نهر الكونغو. وهنا، ولبعض الوقت، جعلت الرياح المعاكسة من المستحيل الإبحار أبعد في الجنوب، ولكن في عام ١٤٨٧م توصَّل بارثولوميو دياز إلىٰ فكرة «فولتا دو مار» أو «العودة عن طريق البحر»، وبالتأرجح بعيدًا في المحيط الأطلسي، اغتنم الرياح التي حملته إلىٰ ما أسماه رأس العواصف (المعروفة اليوم، علىٰ نحو أكثر تفاؤلًا، باسم رأس الرجاء الصالح) في طرف أفريقيا الجنوبي، حيث تمرَّد بحارته المذعورون وأجبروه علىٰ العودة للوطن. لم يجد دياز برستر جون، لكنَّه أظهر أنه يمكن أن يكون هناك طريق بحري إلىٰ الشرق.



(الشكل ٨ – ٨). العالم من وجهة نظر أوروبا والمسارات التي اتخذها المستكشفون الأوروبيون في القرن الخامس عشر.

ووفقًا لمعايير يونغل، كانت الحملات البرتغالية صغيرة بشكل مضحك (تنطوي علىٰ عشرات الرجال لا عشرات الآلاف من الرجال)، ومتواضعة (تشمل الأرانب والسكر والعبيد وليست هبات من الأمراء العظام)، ولكن بالاستفادة من الإدراك المتأخر، فمن المغري اعتبار سنة ١٤٣٠م لحظةً حاسمة في تاريخ العالم، تلك اللحظة التي أصبحت فيها الهيمنة الغربية ممكنةً. وفي اللحظة التي بدأت فيها التكنولوجيا البحرية في تحويل المحيطات إلىٰ طرق سريعة تربط جميع أنحاء العالم، أدرك الأمير هنري تلك الإمكانات ورفضها الإمبراطور زهنغتونغ. وهنا تبدو نظرية الرجال العظماء/ البلهاء الحمقىٰ أنها تحقق الكثير: تأرجح مصير الكوكب علىٰ قرارات هذين الرجلين.

أو هل حدث ذلك حقًا؟ كانت بصيرة هنري مثيرة للإعجاب، ولكن بالتأكيد ليست فريدة من نوعها. كان هناك ملوك أوروبيون آخرون قريبون منه، وفي الحقيقة، قادت المؤسسات الخاصة للبحَّارة الإيطاليين الذين لا حصر لهم العملية بالقدر الكبير نفسه لنزوات الحكَّام. فلو باشر هنري جمع العملات بدلًا من الملاحة، لحلَّ محلَّه حكَّام آخرون. وعندما رفض ملك البرتغال المشروع

المجنون للمغامر الجنوي كريستوفر كولمبوس للوصول إلىٰ الهند بالإبحار غربًا، تدخلت الملكة إيزابيلا ملكة قشتالة (حتىٰ مع اضطراره إلىٰ طرح الفكرة عليها ثلاث مرات حتىٰ وافقت). وفي غضون سنة عاد كولومبوس، معلنًا -وفي حالة اضطراب شديدة- أنَّه قد وصل إلىٰ أرض الخان العظيم (كان أول أخطائه أن هذه كانت كوبا، والخطأ الثاني أن خانات المغول قد طُردوا من الصين منذ أكثر من قرن). وخوفًا من التقارير الواردة عن مسار القشتاليين الجديد إلىٰ آسيا، أرسل هنري السابع ملك إنجلترا التاجر الفلورنسي جيوفاني كابوتو لإيجاد بديل شمال أطلسي في عام ١٤٩٧م. وبالفعل وصل كابوتو إلىٰ أرض جديدة ثلجية، أصرَّ بنفس اضطراب كولومبوس الحماسيّ علىٰ أنَّ هذه أيضًا هي أرض الخان العظيم.

وعلىٰ المنوال نفسه، كما يبدو خطأ زهنغتونغ مثيرًا الآن، ينبغي لنا أن نضع في الاعتبار أنَّه عندما «قرر» عدم إرسال بنائي سفن إلىٰ نانجينغ عام ١٤٣٦م كان عمره تسع سنوات فحسب. فقد اتخذ مستشاروه هذا القرار عوضًا عنه، وكرَّر ذلك خلفاؤهم خلال القرن الخامس عشر. وحسب إحدىٰ الروايات، عندما أحيا رجال الحاشية فكرة أساطيل الكنز في عام ١٤٧٧م، دمَّرت جمعية سرية من موظفي الخدمة المدنية سجلات رحلات تشنغ. وشرح زعيم العصابة ليو داشيا -كما قيل لنا- لوزير الحرب أنَّ «رحلات [تشنغ] إلىٰ المحيط الغربي قد أهدرت ملايين الأموال والحبوب علاوة علىٰ الأشخاص الذين لقوا حتفهم والذين يُقدّرون بعشرات الآلاف . . . كان ذلك مجرد فعل للحكومة السيئة الذي يجب أن يرفضه الوزراء بشدة. وحتىٰ لو ظلَّت الأرشيفات القديمة محفوظة، فإنَّه يجب تدميرها».

وباستيعاب المغزىٰ -بأنَّ ليو قد «فقد» الوثائق عمدًا- نهض الوزير من كرسيه. وهتف: «فضائلك الخفية يا سيدي، ليست بسيطة. ومن المؤكد أن هذا المقعد سيكون لك قريبًا!».

إذا كان هنري وزهنغتونغ شخصيْن مختلفين، يتخذان قرارات مختلفة؛ لأصبح التاريخ نفسه تقريبًا. ربما بدلًا من التساؤل لماذا اتخذ بعض الأمراء

والأباطرة خيارًا واحدًا بدلًا من آخر، علينا أن نسأل لماذا اعتنق الأوروبيون الغربيون المخاطرة مثلما هبطت النزعة المحافظة علىٰ الصين؟ ربما كانت الثقافة، وليس الرجال العظماء أو البلهاء الحمقىٰ، هي التي أرسلت كورتيس وليس تشنغ إلىٰ تينو تشتيتلان.

الولادة من جديد

«في الوقت الحاضر أكاد أتمنىٰ أن أكون شابًا من جديد»، هكذا كتب عالم هولندي يُدعىٰ إيراسموس لصديقة في عام ١٥١٧م؛ «لا لسبب إلَّا هذا: أنَّني أتوقع اقتراب عصر ذهبي». واليوم نحن نعرف هذا «العصر الذهبي» من خلال الاسم الذي أطلقه الفرنسيون عليه، النهضة (la renaissance)، «إعادة الميلاد»: وكما يراها البعض فقد كانت إعادة الميلاد هذه هي القوة الثقافية التي فصلت فجأة وبلا رجعة الأوروبيين عن بقية العالم، جاعلة رجالًا مثل كولومبوس وكابوتو يفعلون ما فعلوه. لقد وضع العباقرة المبدعون من نخبة ثقافية إيطالية كبيرة - «المولودون الأوائل بين أبناء أوروبا الحديثة»، كما أطلق عليهم أحد مؤرخي القرن التاسع عشر واشتهروا بذلك - كورتيه علىٰ الطريق إلىٰ تينو تشتيتلان.

يتتبع المؤرخون عادة جذور إعادة الميلاد إلىٰ القرن الثاني عشر، عندما تخلَّصت مدن شمال إيطاليا من ألمانيا والهيمنة البابوية وظهرت باعتبارها مراكز نفوذ اقتصادية. وبرفض تاريخهم الحديث من الخضوع إلىٰ حكَّام أجانب، بدأ قادتها يتساءلون كيف يحكمون أنفسهم بأنفسهم باعتبارهم جمهوريات مستقلة، وخلصوا بشكل متزايد إلىٰ أنَّهم يستطيعون العثور علىٰ أجوبة في الأدب الروماني الكلاسيكي. وبحلول القرن الرابع عشر، عندما قوّض كل من تغيُّر المناخ والمجاعات والأمراض الكثير من المسلَّمات القديمة، قام بعض المفكرين بتوسعة تأويلهم للكلاسيكيات القديمة إلىٰ رؤية عامة لإعادة ميلاد اجتماعي.

كانت العصور القديمة، كما ادَّعىٰ هؤلاء العلماء، بلدًا أجنبيًا. فقد كانت روما القديمة أرضًا للحكمة والفضيلة غير العاديتين، لكنَّ «العصور الوسطىٰ» البربرية قد تدخلت بين تلك الحقبة والأزمنة الحديثة، فخرّبت كل شيء. وكان السبيل الوحيد للمضي قُدمًا أمام مدن إيطاليا المستقلة ذاتيًا والمحررة حديثًا، كما أشار المفكرون، هو النظر إلىٰ الوراء: يجب عليهم بناء جسر إلىٰ الماضي بحيث يمكن إعادة بعث حكمة الأولين وإصلاح الإنسانية.

كان العلم والفن هما الجسر. فمن خلال البحث في الأديرة عن المخطوطات المفقودة وتعلُّم اللاتينية بدقة مثل الرومان، استطاع العلماء أن يفكّروا كما فكّر الرومان وأن يتكلموا كما تكلموا؛ وعندئذٍ استعاد الإنسانيون الحقيقيون (كما أطلق المبعوثون من جديد علىٰ أنفسهم) حكمة الأولين. وبالمثل، فمن خلال فحص الأطلال الرومانية، استطاع المعماريون تعلم إعادة إنشاء العالم المادي للعصور القديمة؛ فبنوا الكنائس والقصور التي ستشكِّل الحيوات ذات الفضيلة العليا. وخمّن الرسامون والموسيقيون، الذين لم تكن لديهم وثائق رومانية لدراستها، أفضل تخميناتهم عن النماذج القديمة والحكَّام الذين يتوقون إلىٰ رؤيتهم باعتبارهم يصلحون العالم، واستأجروا الإنسانيين باعتبارهم مستشارين لهم، وكلّفوا الفنانين بتخليدهم، وجمعوا الآثار الرومانية.

الشيء الغريب بشأن النهضة هو أنَّ هذا النضال المتطرف من أجل إعادة إنشاء التراث أنتج في الحقيقة ثقافة غير تقليدية بجموح من الاختراعات والتساؤلات المفتوحة. كان هناك بالتأكيد أصوات معتدلة تنفي بعض المفكرين الأكثر تطرفًا (مثل ميكيافيللي) ليتجرعوا كأس المنفىٰ المُرّة، وترويع الآخرين (مثل جاليليو) كي يصمتوا، ولكنَّهم بالكاد كسروا حدّة الأفكار الجديدة.

كانت ثمار ذلك كله مبهرة. فمن خلال ربط كل فرع من فروع العلوم والفنون والحِرَف ببعضها البعض وتقييمهم كافة في ضوء التراث، قام «رجال النهضة» مثل مايكل أنجلو بتثويرها دفعة واحدة. وقام بعض تلك الشخصيات الرائعة مثل ليون باتيستا ألبرتي، بالتنظير بنفس براعة أعمالهم، وتفوَّق الأعظم منهم مثل ليوناردو دافنشي في كل شيء من فن الرسم وحتىٰ الرياضيات. وانتقلت

عقولهم المبدعة دون عناء بين المراسم وأروقة السلطة، يستريحون من التنظير ليتحولوا إلىٰ قيادة الجيوش، ويشغلوا المناصب القيادية، ويقدموا المشورة إلىٰ الحكَّام. (إضافة إلىٰ كتابة «الأمير»، كتبَ مكيافيلي أيضًا أفضل الأعمال الكوميدية في عصره). كما نشر الزوَّار والمهاجرون الأفكار الجديدة من مركز النهضة في فلورنس في أماكن بعيدة كالبرتغال وبولندا وإنجلترا، حيث ازدهرت نهضات محلية متميزة.

وكان هذا بلا شك أحد أهم المشاهد المذهلة في التاريخ. لم يُعِد النهضويون الإيطاليون بناء روما، وحتىٰ في عام ١٥٠٠م كان التطور الاجتماعي الغربي لا يزال أقل بعشر نقاط كاملة من الذروة الرومانية منذ ألفية ونصف. واستطاع المزيد من الإيطاليين القراءة أكثر ممَّا كانوا في أوج الإمبراطورية الرومانية، ولكنَّ أكبر مدينة في أوروبا كانت تبلغ فقط واحدًا علىٰ عشرة من حجم روما القديمة، وكان جنود أوروبا رغم أنهم مسلَّحون بالبنادق، يعانون لجعل فيالق القيصر أفضل، وظلَّت أغنىٰ الدول الأوروبية أقل إنتاجية من أغنىٰ المقاطعات في روما. غير أنَّ أيًّا من هذه الاختلافات الكميّة لا تهُمّ بالضرورة حالة أنَّ النهضويين الإيطاليين قد قاموا فعلًا بتثوير الثقافة الغربية تمامًا لدرجة أنَّهم قد فصلوا أوروبا عن بقية العالم، وألهموا مغامري الغرب بغزو الأمريكتين بينما جلس الشرقيون المحافظون في منازلهم.

أعتقد أنَّ المفكرين الصينيين كانوا سيندهشون لسماع هذه الفكرة. أستطيع تخيّلهم وهم يتخلّون عن هاونات الحبر والفُرَش، يشرحون بصبر كبير لمؤرخي القرن التاسع عشر الأوروبيين الذين تخيَّلوا هذه النظرية القائلة بأنَّ الايطاليين في القرن الثاني عشر لم يكونوا أول من شعر بخيبة أمل حيال تاريخهم الحديث وتطلعوا إلىٰ التراث من أجل طرق تحسين الحداثة. قام المفكرون الصينيون، كما رأينا في الفصل السابع، بشيء مماثل للغاية منذ أربعمائة سنة حيث نظروا للوراء متجاوزين البوذية لإيجاد حكمة فائقة في آداب أسرة هان وفنونها. لقد حوّل الإيطاليون التراث إلىٰ برنامج للإحياء الاجتماعي في القرن الخامس عشر، ولكنَّ الصينيين قد فعلوا ذلك بالفعل في القرن الحادي عشر. وفي عام ١٥٠٠م عجَّت

فلورنسا بالعباقرة، الذين يتجولون بسهولة بين الفن والأدب والسياسة، ولكن كايفنغ كانت كذلك في عام ١١٠٠م. هل كانت سعة أفق تفكير ليوناردو أكثر إثارة للدهشة حقًّا من سعة أفق تفكير شين كو الذي كتب عن الزراعة وعلم الآثار وعلم رسم الخرائط وتغيُّر المناخ والكلاسيكيات والإثنوغرافيا والجيولوجيا والرياضيات والطب والتعدين والأرصاد الجوية والموسيقىٰ والرسم وعلم الحيوان؟ وبالقدر نفسه من اطلاع أي مخترع فلورنسي علىٰ الفنون الميكانيكية، شرح شين طريقة عمل سدود القنوات والنوع القابل للنقل من الطابعات، وقام بتصميم نوع جديد من الساعات المائية وبناء مضخات قامت بتصريف مساحة مائة ألف فدان من المستنقعات. وكونه متنوع القدرات مثل ميكيافيللي، خدم الدولة باعتباره مدير مكتب الفلك وأجرىٰ التفاوض بشأن المعاهدات مع البدو. كان ليوناردو لينبهر به بالتأكيد.

تبدو نظرية القرن التاسع عشر التي تقول بأنَّ النهضة قد أرسلت أوروبا في مسار فريد أقل إلحاحًا إذا كان لدىٰ الصين نهضتها الخاصة المشابهة إلىٰ حد كبير منذ أربعة قرون قبل ذلك. وربما يبدو أكثر منطقية استنتاج أنَّ الصين وأوروبا كلتيهما امتلكت نهضات للسبب نفسه؛ وهو أنَّ كلتيهما قد امتلكت موجتي الفكر المحوري الأولىٰ والثانية؛ لأنَّ كل عصر يحصل علىٰ الفكر الذي يريد. ويفكر الأشخاص الأذكياء المثقفون في المشاكل التي تواجههم، وإذا واجهتهم مشاكل مماثلة فسيبتكرون نطاقات مماثلة من ردود الفعل، بغض النظر عن متىٰ وأين يعيشون.

وقد واجه صينيو القرن الحادي عشر وأوروبيو القرن الخامس عشر قضايا مماثلة. لقد عاش كلا الفريقين في أوقات تزايد التطور الاجتماعي، وكلاهما كان لديه شعور بأنَّ الموجة الثانية من الفكر المحوري قد انتهت بشكل سيئ (انهيار أسرة التانغ ونبذ البوذية في الشرق، وتغيُّر المناخ والموت الأسود وأزمة الكنيسة في الغرب). وكلاهما نظر نظرة تتجاوز ماضيهم الحديث «الهمجي» إلىٰ التراث المجيد للموجة الأولىٰ من الفكر المحوري (كونفوشيوس وإمبراطورية هان في الشرق، وشيشرون والإمبراطورية الرومانية في الغرب). وكان رد فعل الفريقين

متماثلًا أيضًا، مُطبّقين أكثر العلوم تقدّمًا علىٰ الآداب والفنون القديمة ومستخدمين النتائج لتفسير العالم بطرق جديدة.

إنَّ سؤال لماذا دفعت ثقافة عصر النهضة في أوروبا المتهورين إلىٰ تينو تشتيتلان بينما بقي محافظو الصين في منازلهم يبدو فاقدًا للمقصد بالقدر السيئ نفسه لسؤال لماذا كان الحكَّام الغربيون رجالًا عظماء بينما كان الشرقيون بلهاء أغبياء. من الواضح أنَّنا بحاجة إلىٰ إعادة صياغة السؤال مرة أخرىٰ. إذا حث عصر النهضة في القرن الخامس عشر فعلًا علىٰ الاستكشاف الجريء، فلماذا - كما يجب أن نسأل- لم تفعل النهضة الصينية في القرن الحادي عشر الشيء نفسه؟ لماذا لم يكتشف المستكشفون الصينيون الأمريكتين في أيام أسرة سونغ حتىٰ قبل تصور منزيس ذهابهم إلىٰ هناك؟

الإجابة السريعة هي أنَّه لم يكن أي قدر من روح النهضة ليأخذ المغامرين إلىٰ الأمريكتين إلَّا إذا استطاعت السفن القيام بهذه الرحلة، وسفن القرن الحادي عشر لم تكن تستطيع القيام بذلك علىٰ الأرجح. ويختلف بعض المؤرخين حيال هذا الأمر، ويشيرون إلىٰ أنَّ الفايكنج قد وصلوا إلىٰ أمريكا عام ١٠٠٠م في مراكب طويلة أبسط بكثير من سفن اليانك الصينية. ولكنَّ إلقاء نظرة سريعة علىٰ الكرة الأرضية (أو الشكل ٨ - ١٠) يكشف فارقًا كبيرًا. عن طريق الإبحار عبر فارو وآيسلندا وغرينلاند، لم يتحتم علىٰ الفايكنج عبور أكثر من ٥٠٠ ميل من البحر المفتوح كي يصلوا إلىٰ أمريكا. ولا بُدَّ أنَّ ذلك كان مُريعًا، لكنه لم يكن شيئًا بالمقارنة بالخمسة آلاف ميل التي كان علىٰ المستكشفين الصينيين عبورها عن طريق الإبحار مع تيار كوروشيو من اليابان، مرورًا بجزر ألوتيان، للرسو في شمال كاليفورنيا (باتباع التيار العكسي الاستوائي من الفلبين إلىٰ نيكاراغوا سيعني عبور ما يعادل ضعفي البحر المفتوح).

جعلت الجغرافيا الطبيعية -كما سنرىٰ لاحقًا في هذا الفصل أيضًا أنواعًا أخرىٰ من الجغرافيا- عبور المحيط الأطلسي للأوروبين الغربيين أسهل من عبور المحيط الهادئ للشرقيين. وعلىٰ الرغم من أنَّ العواصف ربما دفعت السفينة الصينية الموسمية بعيدًا إلىٰ أمريكا -وأنَّ تيار الشمال الاستوائي كان من الممكن

أن يعود بهم مجددًا- فلم يكن من المحتمل أبدًا أنَّ مستكشفي القرن الحادي عشر، بدافع من روح النهضة، سيعثرون علىٰ الأمريكتين ثم يعودون ليحكوا القصة.

في القرن الثاني عشر تطور بناء السفن والملاحة لدرجة أنَّ السفن الصينية كان باستطاعتها القيام برحلة تبلغ ١٢ ألف ميل ذهابًا وإيابًا من نانجينغ إلىٰ كاليفورنيا؛ إلَّا أنَّ ذلك كان لا يزال حوالي أربعمائة عام قبل كولومبوس وكورتيه. فلماذا لم يكن هناك غزاة صينيون في القرن الثاني عشر مثل الغزاة الأسبان في القرن السادس عشر؟

ربما كان ذلك بسبب أنَّ روح نهضة الصين، أيًا كان بالضبط ما نعنيه بهذا المصطلح، كانت في تراجع في القرن الثاني عشر. ركد التطور الاجتماعي، ثم تعثّر في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ومع اختفاء الظروف المُهيّئة لثقافة عصر النهضة، غدا فكر النخبة بصورة متزايدة محافظًا. يعتقد بعض المؤرخين أنَّ فشل سياسات وانغ آنشي الجديدة في سبعينيات القرن الأول قد حوّلت المفكرين النيوكونفوشيين ضد التعامل مع العالم الأوسع، ويشير البعض إلىٰ سقوط كايفنج في عام ١١٢٧م، في حين يرىٰ آخرون الأسباب في أماكن مختلفة تمامًا. ولكن يتفق الجميع تقريبًا أنَّه بينما استمر المفكرون في التفكير بمنظور عالمي، فقد بدؤوا بالتصرف علىٰ نحو محلّي للغاية. وبدلًا من تعريض حياتهم للخطر في التناحر السياسي في العاصمة، ظلَّ أكثرهم قابعين في منازلهم. حيث أسس البعض أكاديميات محلية، ونظَّموا المحاضرات ومجموعات القراءة لكنَّهم رفضوا تدريب المتعلمين لامتحانات الدولة. وكتب آخرون القواعد للقرىٰ المنظَّمة جيدًا وطقوس العائلة، بينما ما زال آخرون يركّزون علىٰ أنفسهم، يبنون بمثالية حياة واحدة خلال «الجلوس الهادئ» والتأمل. ووفقًا لمنظر القرن الثاني عشر تشو شي:

«إذا حاولنا بناء عقولنا في دولة خالية من الشكّ، سيكون من السهل تقدمنا باعتبارنا قوة محطمة لنهر عظيم . . . لذا دعونا الآن نطلق عنان عقولنا علىٰ احترام طبائعنا الفضلىٰ وتتبع معارفنا. دعونا نبحث كل يوم لنعثر في أنفسنا عما

إذا كنا قد تراخينا عن فعل أي شيء في معارفنا، وما إذا كان قد أصابنا الكسل في أي شيء في طبائعنا الفضلىٰ . . . إذا شجَّعنا أنفسنا في هذا الطريق لمدة سنة، فكيف لا يمكننا أن نتطور؟».

كان تشو رجل عصره. رفض المكاتب الإمبراطورية وعاش بشكل متواضع وأسَّس سمعته عن طريق التدريس في أكاديمية محلية، يؤلف الكتب، ويبعث بالرسائل موضحًا أفكاره. وقد انتهت مغامرته الوحيدة في السياسة الوطنية بالنفي وإدانة أعمال حياته باعتبارها «علمًا كاذبًا». ولكن في ظل تراكم التهديدات الخارجية في القرن الثالث عشر، بحث موظفو الخدمة المدنية بعيدًا عن طرق لربط طبقة النبلاء بقضيتهم، فبدأت ثمار تفسير تشو المثالي فلسفيًا وغير المهدَّد سياسيًا. لقد أُعيدت معالجة نظرياته أولًا، ثمَّ أُدرجت في امتحانات الدولة، وأخيرًا أصبحت الأساس الحصري للتقدم الإداري. وأصبح فكر تشو شي معتقدًا تقليديًا. وأعلن أحد العلماء بسعادة في عام ١٤٠٠م: «منذ عصر تشو شي أصبح الطريق معروفًا بوضوح، ليس هناك حاجة إلىٰ الكتابة، فما تبقىٰ هو الممارسة».

وغالبًا ما يطلق علىٰ تشو أنَّه ثاني أهم مفكر مؤثر في تاريخ الصين (بعد كونفوشيوس ولكن قبل ماو) مسؤول، حسب وجهة نظر مَن يحكم، عن إصلاح الكلاسيكيات أو الحكم علىٰ الصين بالركود واللامبالاة والقمع. لكن هذا يُثني علىٰ تشو أو يُلقي عليه باللوم؛ مثل جميع أفضل المنظرين، فقد أعطىٰ ببساطة العصر الأفكار التي يحتاج إليها، واستخدمها الناس كما رأوها ملائمة.

وهذا أوضح ما يكون في أفكار تشو عن قيم العائلة. فبحلول القرن الثاني عشر، حوَّلت البوذية وبدايات النسوية والنمو الاقتصادي الأدوار الجندرية القديمة. فأصبحت الأسر الثرية غالبًا ما تقوم الآن بتعليم بناتها ومنحها مهورًا أكبر عند الزواج، الأمر الذي تُرجِم إلىٰ نفوذ أكبر للزوجات. ومع تحسن المكانة المالية للمرأة، أسسوا قاعدة أنَّ البنات يجب أن يرثن مثل الأبناء. وحتىٰ بين الأسر الفقيرة، منح إنتاج المنسوجات التجارية النساء قوة أكبر للكسب، تُرجمت مجددًا إلىٰ حقوق ملكية أقوىٰ.

وقد بدأت ردة فعل قوية من جانب الذكور بين الأغنياء في القرن الثاني عشر، في حين كان تشو لا يزال شابًا. عزَّزت ردة الفعل هذه العفة النسائية واعتماد الزوجة علىٰ زوجها، وضرورة بقاء النساء في ربوع المنزل الداخلية، (أو إذا كان عليهم أن يخرجن حقًا، فإنَّهن يتحجبن أو يُحملن علىٰ كراسٍ ذات ستائر). وقد هاجم النقَّاد الأرامل اللاتي يتزوجن ويأخذن ممتلكاتهن إلىٰ أسر أخرىٰ. وفي الوقت الذي تمت فيه معالجة فكر تشو شي في القرن الثالث عشر، أصبح نموذجه الديني لإعادة خلق عائلات كونفوشيوسية مثالية أداة مفيدة لإعطاء أشكال فلسفية لهذه الأفكار، وعندما بدأ البيروقراطيون إعادة قوانين الملكية إلىٰ سابق عهدها التي كانت لصالح المرأة في القرن الرابع عشر، أعلنوا بسعادة أنَّها كانت جميعًا باسم فكر تشو شي.

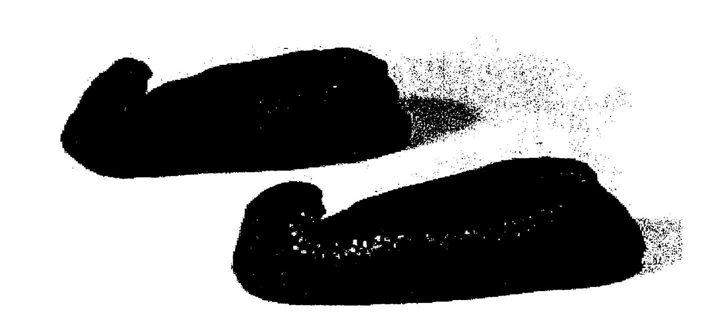
لم تتسبب كتابات تشو في هذه التغييرات في حياة النساء. فقد كانت مجرد اتجاه من مزاج رجعيّ أوسع نطاقًا لم يجرف فقط موظفي الخدمة المدنية المتعلمين، ولكن أيضًا الأشخاص الذين من المحتمل أنهم لم يقرؤوا أعمال تشو. لقد تغيَّر، علىٰ سبيل المثال، تعبير الحرفيين عن الجمال الأنثوي تغيُّرًا جذريًا في هذه السنوات. وبالعودة إلىٰ القرن الثامن، في أوج ازدهار البوذية والنسوية البدائية، كان أحد أشهر طراز التماثيل الخزفية ما يسميه مؤرخو الفنون بشكل غير أنيق: «السيدات البدينات». وبإلهام من يانج جويفي حسب ما ذُكر، وهي المحظية التي أشعل سحرها ثورة آن لوشان في عام ٧٥٥م، فإنَّهم يظهرون امرأة قوية بما يكفي بالنسبة إلىٰ رسَّام الفلمنكية (بيتر بول روبينز) من أجل القيام بأي شيء بدءًا من الرقص وحتىٰ ممارسة لعبة البولو. وعندما صوَّر فنانو القرن الثاني عشر النساء، علىٰ النقيض، كانت النساء مثل الأشياء البالية؛ شاحبات الوجه، يخدمن الرجال أو يجلسن في كسل منتظرات قدوم أزواجهن للمنزل.

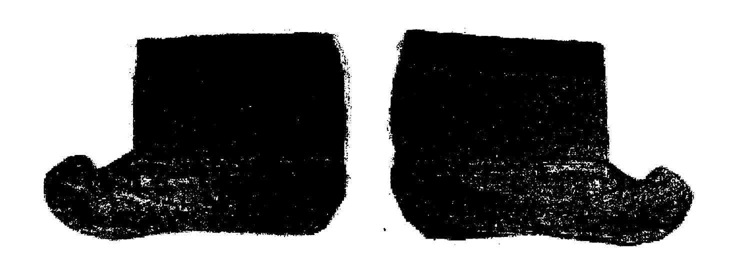
وربما كانت النساء الجميلات ذوات الجسد الضعيف يجلسن بسبب تأذي أقدامهن. بدأت ممارسة طي الأقدام سيئة السمعة -تشويه أرجل الفتيات الصغيرات بربطها بإحكام بضمادات، ممَّا يؤدي إلىٰ التواء أصابع أقدامهن وكسرها من أجل الأناقة- في حوالي عام ١١٠٠م، أي قبل ثلاثين عامًا من مولد

تشو. وتشير بعض القصائد إلىٰ تلك الممارسة في ذلك الوقت، وسريعًا بعد عام ١١٤٨م، لاحظ أحد العلماء «أنَّ طي أقدام النساء قد بدأ مؤخرًا، ولم يُذكر في أي كتب من العصور السابقة».

تأتي أقدم الأدلة الأثرية علىٰ طي الأقدام من مقابر هوانغ شنغ ومدام زهو، وهما المرأتان اللتان انتقلتا إلىٰ جوار ربهما في عامي (١٢٤٣م و١٢٧٤م) علىٰ التوالي. ودُفنت كل منهما وقدمها ملفوفة بضمادات بطول ٦ أقدام ومصحوبة بحذاء حريري وشرابات ذات أطراف مقلوبة بشدة (الشكل ٨ - ٩). حُفظ الهيكل العظمي لمدام زهو بشكل كافٍ لإظهار أنَّ قدمها المشوهة مطابقة للجوراب والصنادل: وقد التوت أصابع قدمها الثمانية الصغيرة قليلًا تحت باطن قدميها والتوىٰ إصباعاها الكبيران للأعلىٰ، ممَّا أنتج قدمًا رفيعة بما يكفي لتناسب نعلها الضيق المدبب.

لم تخترع الصين في القرن الثاني عشر تعديل أقدام الإناث. ويبدو تحسين طريقة سير النساء هاجسًا عالميًا تقريبًا (بين الرجال، علىٰ أيّة حال). لقد كانت العذابات التي زارت هوانغ وزهو، أكبر بمراحل من تلك التي في الثقافات الأخرىٰ. ارتداء أحذية ذات كعب عالٍ ستمنحك ورمًا مفصليًا في الإصبع الأكبر، أما تضميد قدمك فسيضعك علىٰ كرسي متحرك. إنَّ الألم الذي تسببت فيه هذه الممارسة، يومًا بعد يوم، من المهد إلىٰ اللحد - هو أمر صعب التصور. في العام نفسه الذي دُفنت فيه مدام زهو، نشر أحد الباحثين أول انتقاد لممارسة طي الأقدام: «إنَّ الفتيات الصغيرات اللاتي لم تبلغن بعد الرابعة أو الخامسة، واللاتي لم يقترفن شيئًا، ومع ذلك يعانين آلامًا غير محدودة لجعل [أقدامهن] صغيرة. لا أعرف ما الفائدة من هذا».





(الشكل ٨ - ٩). القدم الصغيرة: نعال حريرية وجوارب من قبر هوانغ شنغ، وهي فتاة في السابعة عشرة دُفنت في عام ١٢٤٣م، وتُعدّ أول من قامت بطي الأقدام بطريقة مقنعة في التاريخ.

ما الفائدة حقًّا؟ ومع ذلك ازدادت ممارسة طي الأقدام شيوعًا ورعبًا. جعلت تلك الممارسة في القرن الثالث عشر الأقدام أنحل؛ وجعلتها في القرن السابع عشر أقصر، عن طريق طي أصابع الأقدام للوراء تحت باطن القدم إلىٰ جعلها كرة ملتهبة من الأربطة العضلية معروفة باسم «اللوتس الذهبي». لذلك، فمن الصعب النظر إلىٰ صور الأقدام المشوهة لضحايا القرن العشرين الماضي.

ومع ذلك من المبالغة إلقاء اللوم في كل ذلك علىٰ تشو شي. ففلسفته لم تتسبب في أن تتحول ثقافة النخبة الصينية بتزايد إلىٰ ثقافة رجعية؛ بل إنَّ الرجعية الثقافية هي التي تسببت بنجاح أفكاره. كان فكر تشو شي أبرز عنصر ضمن استجابة أوسع للهزيمة العسكرية، والتشقف، وتدهور التطور الاجتماعي. وبينما أصبح العالم أقل بهجة في القرن الثاني عشر، أصبح التراث مصدرًا للجوء أكثر

من كونه مصدرًا للتجديد، وفي الوقت الذي توفيت فيه مدام زهو في عام ١٢٧٤م كان نوع روح النهضة الذي قد يدفع لاستكشاف العالم مفتقدًا للغاية.

يفسر ركود التطور الاجتماعي ثمَّ تدهوره بعد عام ١١٠٠م لماذا ذهب كورتيه وليس تشنغ إلىٰ تينو تشتيتلان. حسنًا، ربما يسفر ذلك جزئيًا. وربما يفسر لماذا لم تكن هناك رحلات عظيمة للاستكشاف في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ولكن بحلول عام ١٤٠٥م، عندما أبحر أول أسطول من أساطيل الكنزر التابعة لتشنغ من نانجينغ، كان التطور الاجتماعي الشرقي يرتفع سريعًا مرة أخرىٰ. وتبيِّن حقيقة كون يونغل ظلَّ يرسل تشنغ عبر المحيط الهندي تفكيرًا توسعيًا. فمع ارتفاع التطور الاجتماعي مرة أخرىٰ، بدأ مفكرو القرن الخامس عشر البحث عن بدائل لفكر تشو شي.

وقد حاول الاستثنائي وانغ يانغ مينغ، علىٰ سبيل المثال، جاهدًا اتباع قواعد تشو. وفي تسعينيات القرن الخامس عشر، قضىٰ وانغ أسبوعًا كاملًا يتأمل عود خيزران، كما نصح تشو، ولكن بدلًا من إعطائه البصيرة جعله ذلك مريضًا. ثمَّ حصل وانغ علىٰ نوع الإلهام المناسب لمجتمع ناجح توسعيّ: فقد أدرك أنَّ الجميع يعلم الحقيقة بداهةً دون سنوات من الجلوس الهادئ ودراسة التعليقات علىٰ كونفوشيوس. ويمكننا جميعًا بلوغ الحكمة إذا خرجنا وفعلنا شيئًا. أصبح وانغ -محققًا وعده- رجل نهضة جديدًا، يُصنّف ضمن كبار جنرالات النصوص القديمة وحكَّامها ومحرريها وشعراء العصر. وأعلن أتباعه الذين تمردوا أكثر علىٰ فكر تشو شي أنَّ الشوارع قد امتلات بالحكماء، وأنَّ بإمكان الجميع الحكم بالصواب والخطأ بأنفسهم، وأنَّ الثراء أمر جيِّد؛ بل إنَّهم دعوا إلىٰ المساواة بين المرأة والرجل.

في الحقيقة لم يتم اتخاذ قرار إنهاء رحلات تشنغ ضد خلفية من التقشف الرجعي ولكن ضد التوسُّع والابتكار، والتحديات التي تمت مواجهتها والتغلب عليها. هناك القليل ممَّا يشير إلىٰ أنَّ عقلية صارمة ذات توجه داخلي تسببت في الحدِّ من الاستكشاف الصيني في القرن الخامس عشر، في حين دفعت ثقافة نهضوية ديناميكية بالأوروبيين عبر البحار. ماذا الذي فعل ذلك إذن؟

مزايا العزلة

لقد شهدنا الإجابة بالفعل: مرة أخرىٰ، كانت الخرائط وليس الرجال هي التي أخذت الشرق والغرب في مسارات مختلفة. لقد جعلت الجغرافيا من الأسهل علىٰ الغربيين أن يصلوا إلىٰ الأمريكتين من الشرقيين (الشكل ٨ - ١٠).

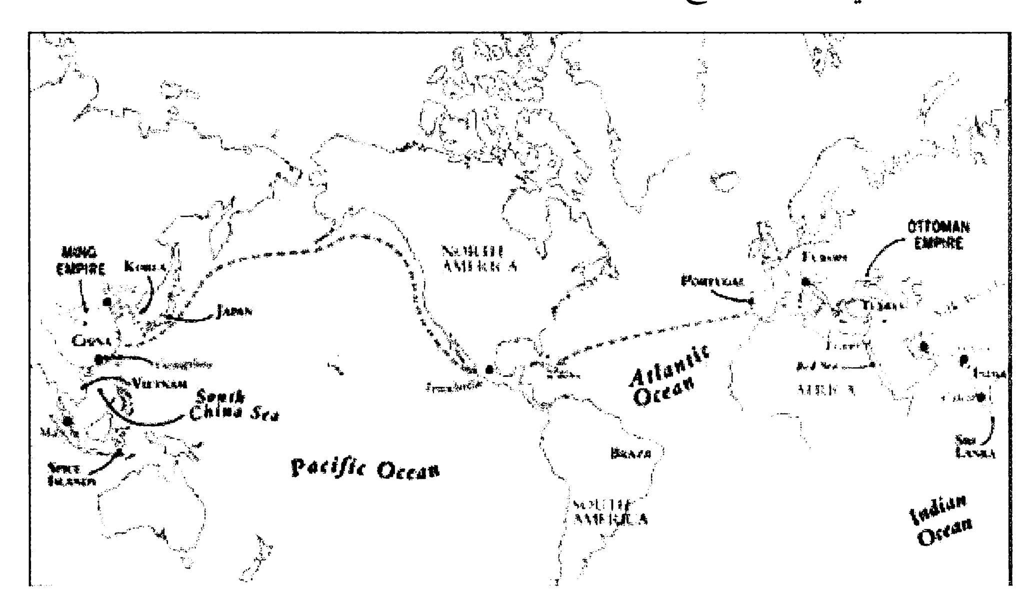
كانت الميزة الجغرافية الأكثر وضوحًا للأوروبيين ميزة طبيعية: الرياح السائدة، وضعية الجزر، وضخامة حجم المحيطين الأطلسي والهادئ؛ كل ذلك جعل الأمور أسهل بالنسبة إليهم. وإذا مُنحوا الوقت، لعبَرَ مستكشفو شرق آسيا بالتأكيد المحيط الهادئ في النهاية، لكن في حالة تساوي العوامل الأخرىٰ؛ لصار دائمًا الأمر أسهل علىٰ البحارة الفايكنغ أو البرتغاليين للوصول إلىٰ العالم الجديد من الصينيين أو اليابانيين.

في الواقع، بطبيعة الحال، قلما تتساوىٰ العوامل الأخرىٰ، وفي القرن الخامس عشر تآمرت كل من الجغرافيا الاقتصادية والسياسية علىٰ مضاعفة المزايا التي منحتها الجغرافيا الطبيعية لأوروبا الغربية. كان التطور الاجتماعي الشرقي أعلىٰ بكثير من أوروبا الغربية، وبفضل رجال مثل ماركو بولو أدرك الغربيون ذلك. وهذا أعطىٰ الغربيين الحوافز الاقتصادية للوصول إلىٰ الشرق، والوصول لأغنىٰ الأسواق علىٰ الأرض. لكنَّ الشرقيين، علىٰ العكس من ذلك، كان لديهم حوافز قليلة للذهاب إلىٰ الغرب. فقد كان بإمكانهم الاعتماد علىٰ الآخرين للقدوم إليهم.

كان وضع العرب ملائمًا للهيمنة علىٰ الامتدادات الغربية لطريق الحرير وطرق التجارة في المحيط الهندي، ولقرون عديدة ظلَّ معظم الأوروبيين في

أقصىٰ نهاية الطرق الرئيسة الواصلة بين الشرق والغرب في منازلهم، وقنعوا بالفتات الذي جمعه الفينيسيون من الموائد العربية. ثمَّ بدأت الحملات الصليبية وغزوات المغول في تغيير الخريطة السياسية، ممَّا سهّل الوصول الأوروبي للشرق. وبدأ الجشع يتفوق علىٰ الكسل والخوف، جاذبًا التجَّار (ولا سيما التجَّار الفينيسيين) في البحر الأحمر إلىٰ المحيط الهندي أو مثل بولو عبر السهول.

عندما بدأت دول أوروبا الغربية في التحرك صوب التطور وتكثيف حروبهم بعد الموت الأسود، منحت الجغرافيا السياسية دفعة للتراجع الاقتصادي. كان الحكَّام علىٰ حافة الأطلسي يتوقون إلىٰ شراء المزيد من المدافع، وكانوا يستنفدون السُبل المعتادة للثراء (إنعاش البيروقراطية لفرض الضرائب علىٰ رعاياهم وسرقة اليهود ونهب الجيران وما إلىٰ ذلك). وكانوا مستعدين للتحدث إلىٰ أي شخص يمكن أن يوفر لهم مصادر جديدة للإيرادات، حتىٰ الشخصيات الغامضة والطماعة التي كانت تتسكع حول الموانئ.



(الشكل ٨ - ١٠). طريقة ثالثة لرؤية العالم: كيف ضاعفت الجغرافيا الطبيعية الاحتمالات لصالح أوروبا الغربية واضعة إياها علىٰ بُعد ثلاثة آلاف ميل من أمريكا، بينما كان لدىٰ الصين الحظ السيئ لتقع علىٰ ضعف هذا البُعد من العالم الجديد.

وقعت الممالك الأطلسية في أبعد ما يكون من البحر الأحمر وطريق الحرير، لكنَّ القباطنة بأنواعهم كافَّةً واثقين في سفنهم الجديدة الرائعة عرضوا - في مقابل هبات وقروض واحتكارات تجارية- أن يحولوا ما سبق وإن كان عزلة جغرافية إلىٰ ميزة. كانوا سيعثرون علىٰ مسار أطلسي إلىٰ الشرق. وتعهد البعض بالإبحار حول الطرف الجنوبي لأفريقيا إلىٰ المحيط الهندي، متجنبين غرابة التعامل مع الفينيسيين والمسلمين. وأصرَّ آخرون أنهم ببساطة سيُبحرون غربًا حتىٰ يزوروا العالم ويظهروا في الشرق. (وكان هناك نهج ثالث؛ وهو الإبحار في القطب الشمالي، لأسباب واضحة أقل جاذبية).

فضَّل معظم الأوروبيين التوجه جنوبًا علىٰ التوجه للغرب؛ لأنَّهم حسبوا بطريقة صحيحة أنَّ عليهم الإبحار في طريق طويل غربًا للوصول إلىٰ الشرق. وإذا كان هناك أي مكان للبلهاء الأغبياء في هذه القصة، فمن المؤكد أنه ينتمي إلىٰ كولومبوس، الذي فتح الطريق إلىٰ تينوتشتيتلان بالاستخفاف بشدة من المسافة حول العالم ورفض الاعتقاد أنَّه أخطأ في حساب المسافات وتقديرها. وعلىٰ النقيض من ذلك، إذا كان هناك مكان لرجال عظماء، فيجب أن يكون لمستشاري إمبراطور مينغ ذوي العقول القوية، الذين بعد حساب التكاليف والفوائد، قاموا بإيقاف رحلات تشنغ الخيالية في ثلاثينيات القرن الخامس عشر، و«فقدوا» وثائقهم في سبعينيات القرن نفسه.

أحيانًا ما يكون القليل من الفشل أمرًا جيدًا، ولكن في الواقع لم تحدث البلاهة ولا المنطق أي تغيير يُذكر؛ لأن الخرائط لم تتح مجالًا للرجال لفعل أي شيء عدا الذي يفعلونه بالفعل. عندما اعتلىٰ يونغل العرش في عام ١٤٠٣م، كان بحاجة إلىٰ إصلاح مكانة دولته في جنوب آسيا. وكان إرسال أساطيل تشنغ إلىٰ كوريكود وهرمز طريقة مكلِّفة للقيام بذلك، لكنَّها نجحت في النهاية، ومع ذلك كان من المستحيل إرسال تشنغ شرقًا إلىٰ محيط فارغ، مهما كان عدد أعشاب الخلود التي تكمن هناك. لقد كان من المحتمل دائمًا أن حكَّام الصين في القرن الخامس عشر سيوقفون الرحلات المُكلفة إلىٰ المحيط الهندي في نهاية المطاف، ولم يكن من المحتمل أبدًا أنَّهم سيرسلون أساطيل إلىٰ المحيط الهادئ.

فالجغرافيا الاقتصادية جعلت الاستكشاف غير عقلاني.

كما أنه كان من الصعب أيضًا تصوُّر كيف لن يتمكن البحارة الأوروبون من الاصطدام بالأمريكتين بسرعة بمجرد الانطلاق عبر المحيط الأطلنطي بحثًا عن طريق لثروات الشرق. احتاج كولومبوس ورجاله إلىٰ قلوب من البلوط وأمعاء من الحديد للغوص في المجهول، والرياح في ظهورهم، من دون أي ضمانات لأن يجدوا رياحًا أخرىٰ لإعادتهم إلىٰ وطنهم، ولكنَّهم إذا أحجموا عن ذلك، فقد كان هناك الكثير من الرجال والنساء الشجعان في الموانئ الأوروبية للمحاولة مرة أخرىٰ. ولو كانت الملكة إيزابيلا قد رفضت عرض كولومبوس الثالث في عام ١٤٩٢م، لم يكن الأوروبيون ليتوقفوا عن الإبحار غربًا. وحينها كان كولومبوس سيعثر علىٰ داعم آخر أو سيتذكر ملاحًا آخر -كابوتو، ربما، أو البرتغالي بيدرو الفاريس كابرال، الذي اكتشف أنَّ البرازيل تعيق طريقه إلىٰ الهند في عام ١٥٠٠م- باعتباره المكتشف الكبير.

لقد جعلت الخرائط الأمر حتميًا -بالحتمية نفسها التي كانت موجودة عندما حلّ المزارعون محلّ الصيادين والجامعين، أو عندما حلَّت الدول محل القرىٰ- لدرجة أنَّ البحارة المغامرين علىٰ حافة المحيط الأطلسي كانوا سيجدون الأمريكتين عاجلًا وليس آجلًا، أسرع من البحارة المغامرين المتهورين بالقدر نفسه في بحر الصين الجنوبي.

وبمجرد حدوث ذلك، كانت الآثار مقدَّرة سلفًا إلىٰ حد كبير. لقد كانت الجراثيم والأسلحة والمؤسسات الأوروبية أقوىٰ بكثير من الأمريكية الأصلية التي حطمها السكَّان الأصليون والدول. ولو قام مونتي زوما أو كورتيه بخيارات أخرىٰ لمات أول الغزاة الأسبان في مذابح كنائس تينو تشتيتلان الغارقة في الدماء، ولانخلعت قلوبهم من أجسادهم الصارخة وقُدِّمت للآلهة، ولكن كان سيكون هناك المزيد من الغزاة خلفهم، جالبين مزيدًا من الجدري والمدافع والفسائل الزراعية. ولن يكون بوسع الهنود الحُمر مقاومة المستعمرين الأوروبيين أكثر ممَّا استطاع الصيادون الجامعون الأوروبيون الأصليون مقاومة المزارعين منذ سبعة أو ثمانية آلاف سنة مضت.

كانت الجغرافيا مهمة بقدر ما كانت عندما التف الأوروبيون حول جنوب أفريقيا وأبحروا إلىٰ المحيط الهندي، ولكن بطرق مختلفة. فهنا، دخل الأوروبيون عالمًا ذا تطور اجتماعي أعلىٰ، حيث توجد الإمبراطوريات القديمة، والبيوت التجارية المؤسَّسة من القدم والأمراض الخبيثة الخاصة بهم. لقد جعلت المسافة والتكلفة -الجغرافيا الطبيعية والاقتصادية- الغارات الأوروبية ضئيلة مثل الغارات علىٰ الأمريكتين. وشملت المهمة البرتغالية الأولىٰ للإبحار حول أفريقيا وإلىٰ الهند في عام ١٤٩٨م أربع سفن فقط. لم يكن قائدها فاسكو دا جاما شخصًا مهمًا، وقد اختير علىٰ أمل أنه سيفشل.

كان دا جاما قبطانًا عظيمًا، قطع ستة آلاف ميل من البحر المفتوح لإيجاد رياح تأخذه إلىٰ جنوب أفريقيا، لكنَّه لم يكن سياسيًا جيدًا. لقد فعل تقريبًا كل شيء ممكن يسوِّغ عدم ثقة الآخرين به. وكادت عادته في اختطاف أرباب السفن المحليين وجلدهم أن تؤدي إلىٰ كارثة حتىٰ قبل أن يغادر دا جاما أفريقيا، وعندما أوصله مرشدوه الذين أساء معاملتهم إلىٰ الهند، أساء أيضًا إلىٰ الحكَّام الهندوس في كاليكات مفترضًا أنهم كانوا مسيحيين. وزاد في الإساءة إليهم بتقديم هدايا رديئة لهم، وعندما استخرج أخيرًا شحنة من التوابل والأحجار الكريمة تجاهل كل النصائح وأبحر عكس اتجاه الريح. وقد توفي ما يقرب من نصف طاقمه في المحيط الهندي وشلَّ داء الأسقربوط الناجين.

ولكن لأنَّ هوامش الربح علىٰ التوابل الآسيوية تجاوزت ١٠٠٪، ظلَّ دا جاما يجمع ثروات لنفسه رغم كل أخطائه. وسارت عشرات السفن البرتغالية في أعقاب يقظة دا جاما، مستغلين الميزة الوحيدة التي كانت لديهم: القوة النارية. وبانزلاقهم، كما تطلبت المناسبة في التجارة والتنمّر وإطلاق النار، وجدَ البرتغاليون أن لا شيء ينهي صفقة تمامًا مثل السلاح. ومن ثمَّ استولوا علىٰ الموانئ علىٰ طول الساحل الهندي باعتبارها مناطق تجارية معزولة (أو مخابئ القراصنة)، وشحنوا الفلفل الأسود إلىٰ البرتغال.

كانت أعدادهم الصغيرة تعني أنَّ السفن البرتغالية كانت أشبه ببعوض يصدر طنينًا حول الممالك العظمىٰ للمحيط الهندي أكثر من مشابهتها للغزاة، ولكن بعد

مُضي ما يقرب من عقْد من هذا البعوض، قرر سلاطين وملوك تركيا ومصر وجوجارات وكاليكات -بتشجيع من فينيسيا- أن ذلك يكفي. فحشدوا أكثر من مائة سفينة في عام ١٥٠٩م، وحاصروا ١٨ سفينة حربية برتغالية في الساحل الهندي واقتربوا لقذفها ثم اعتلائها. لكنَّ البرتغاليين فجروهم إلىٰ شظايا. ومثل العثمانيين عندما تقدموا إلىٰ البلقان منذ قرن، اندفع الحكَّام حول المحيط الهندي لتقليد المدافع الأوروبية، ليعلموا أنَّ الأمر يتطلب أكثر من مجرد المدافع كي يتفوقوا علىٰ البرتغال. لقد احتاجوا إلىٰ استيراد نظام عسكري كامل وتحويل النظام الاجتماعي لإفساح المجال أمام أنواع جديدة من المقاتلين، وهو الأمر الذي ثبتت صعوبته في جنوب آسيا في القرن السادس عشر كما كان منذ ثلاثة آلاف سنة مضت، عندما كافح ملوك المركز الغربي لتكييف جيوشهم علىٰ العجلات الحربية. ولذا كان علىٰ الحكَّام الذين انتقلوا ببطء فتح الميناء تلو الآخر للمتسللين الشرسين، وفي عام ١٥١٠م أخاف البرتغاليون سلطان ملقا الذي كان يسيطر علىٰ المضيق المؤدي إلىٰ جزر التوابل، كي يمنحهم حقوق التجارة. وعندما أعاد السلطان اكتشاف قوته وألقىٰ بهم في الخارج، استولىٰ البرتغاليون علىٰ مدينته بالكامل. وقال توميه بيريس، أول حاكم برتغالي لملقا: «أيًّا كان لورد ملقا، فإنَّ يده علىٰ حنجرة مدينة البندقية». وليس فقط البندقية.

وكتب بيريس:

«تعد الصين بلدًا مهمًّا وجيدًا وغنيًّا جدًّا، ولن يحتاج حاكم ملقا إلىٰ مثل تلك القوة الكبيرة كما يقولون لجعلها تحت حكمنا؛ لأنَّ شعبها ضعيف جدًّا ويمكن التغلب عليه بسهولة. ويؤكد أهم الأشخاص الذين كانوا هناك أنَّ عشر سفن لحاكم الهند الذي استولىٰ علىٰ ملقا يمكن أن تستولي علىٰ الصين كلها علىٰ طول الساحل».

في السنوات المضطربة بعد عام ١٥٠٠م، بدا كل شيء تقريبًا ممكنًا للمغامرين الذين عبروا الأطلسي وداروا حول أفريقيا. فلماذا لا يسيطرون علىٰ الشرق بما أنهم قد وصلوا هناك؟ ولذلك في عام ١٥١٧م قرَّر الملك البرتغالي أن يختبر نظرية بيريس، وأرسله إلىٰ جوانزو لعرض السلام والتجارة مع المملكة

السماوية. ولسوء الحظ كانت دبلوماسية بيريس مثل دبلوماسية دا جاما، وظهرت ثلاث سنوات من المواجهة، حيث طالب بيريس مقابلة الإمبراطور بينما ماطل المسؤولون المحليون. ووجد بيريس طريقه أخيرًا في عام ١٥٢١م، وهو العام نفسه الذي دخل فيه كورتيه تينوتشتيلان.

لكنَّ قصة بيريس انتهت بشكل مختلف تمامًا عن قصة كورتيه. فعند الوصول إلىٰ بكين كان علىٰ بيريس أن ينتظر أسابيع أكثر من أجل أن يجد حشدًا من الناس، لكن الأمور سارت بشكل خاطئ علىٰ نحو كارثي. فبينما كان بيريس يتفاوض، وصلت رسالة من سلطان ملقا تدين المبعوث البرتغالي بسرقة عرشه. وتدفقت المزيد من الرسائل من المسؤولين الذين أساء إليهم بيريس في جوانزو، متهمة إياه بأكل لحوم البشر والتجسس. ثمَّ -في أسوأ لحظة ممكنة- سقط الإمبراطور الصيني ميتًا. وفي دوامة من الاتهامات والاتهامات المضادة كُبّل بيريس بالحديد.

ويظلّ ما حدث لبيريس غير واضح. تقول إحدىٰ الرسائل من بحَّار مسجون معه إنَّه مات في السجن، لكنَّ رواية أخرىٰ تقول إنَّه نُفي إلىٰ قرية، وبعد عشرين عامًا التقىٰ قسٌّ برتغالي بابنته. وأصرَّ القس أنَّ تثبت الفتاة هويتها بتلاوة صلاة الرب باللغة البرتغالية، ثمَّ أخبرته بأنَّ والدها قد كبر في السن مع زوجة صينية غنية وتوفي مؤخرًا. ولكن في المجمل، من الأرجح أن بيريس قد تشارك مصير بقية الوفد. فبعد أن عُذّبوا وسُخر منهم علنًا، أُعدموا وقُطّعوا. تم تقطيع العضو الذكري لكل رجل وحُشر في فمه قبل أن يعرض جسمه علىٰ قضبان حديدية حول مدينة جوانزو.

وأيًا كان مصيره، فقد تعلّم بيريس بالطريقة الصعبة أنه بالرغم من مدافعهم، فهنا في قلب العالم الحقيقي كانت قيمة الأوروبيين وأهميتهم لا تزال قليلة. لقد دمروا الآزتيك وواصلوا طريقهم بالمدافع نحو أسواق المحيط الهندي، لكنَّ الأمر تطلب أكثر من ذلك لإبهار حرَّاس العالم. ظلَّ التطور الاجتماعي الشرقي متقدمًا علىٰ التطور الغربي، ورغم نهضة أوروبا والبحَّارة والمدافع، ففي عام ١٥٢١م

كان لا يزال هناك القليل من الأمور التي تشير إلىٰ أنَّ الغرب سوف يضيق الفجوة بشكل كبير. ومرَّت ثلاثة قرون قبل أن يتبين ما الفارق الذي جعل كورتيه، وليس تشنغ، يحرق تينو تشتيتلان.

(٩)

الغرب يلحق بالركب

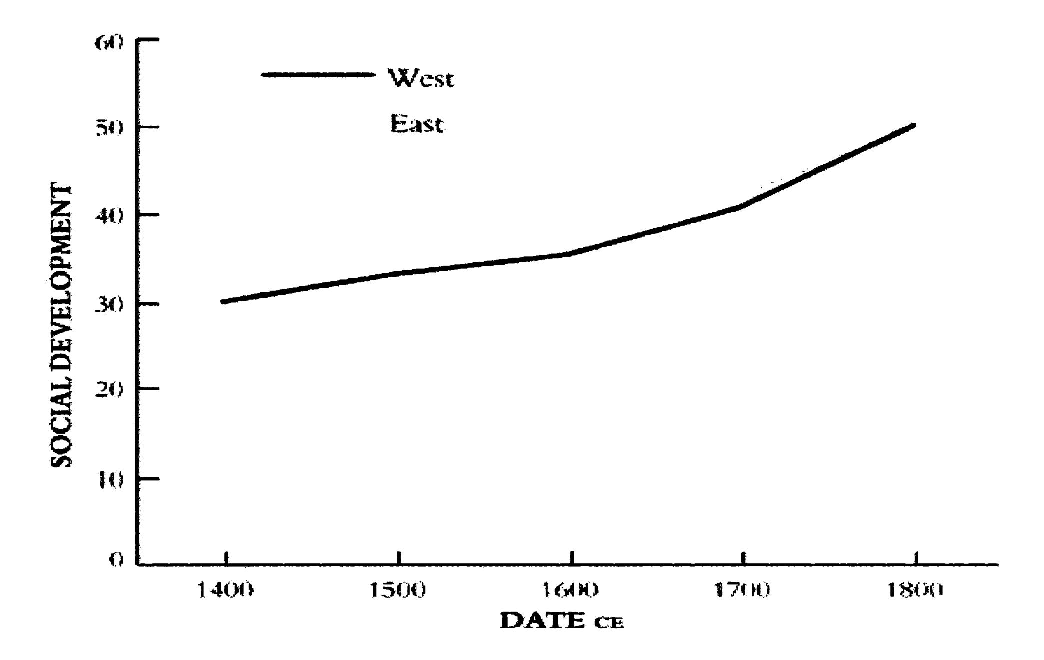
المد الصاعد

«المد الصاعد يرفع كل القوارب» هكذا قال الرئيس الأمريكي چون كينيدي. لم يصدق هذا بقدر ما صدق بين أعوام (١٥٠٠ و١٨٠٠م)، عندما ارتفع التطور الاجتماعي الشرقي والغربي مدة ثلاثة قرون (الشكل ٩ - ١). وبحلول عام ١٧٠٠م، كان كلاهما يدفع السقف الصلب عند ٤٣ نقطة، وبحلول عام ١٧٥٠م كان كلاهما تجاوز هذا السقف.

قال كيندي كلمته الشهيرة في ينابيع هيبير، بمدينة أركانساس، في كلمة للاحتفال بافتتاح سد جديد. وقد صدم المشروع منتقديه بأنَّه أسوأ أنواع طرق الحصول علىٰ الدعم في الانتخابات: لقد لاحظوا بالتأكيد أنَّ المد الصاعد يرفع جميع الزوارق، لكنَّه يرفع البعض أسرع من البعض الآخر. وهذا أيضًا لم يصدق مثلما صدق بين أعوام (١٥٠٠ و١٨٠٠م). لقد ارتفع التطور الاجتماعي بنسبة الرُبع، لكن تطور الغرب ارتفع بمقدار الضعف. وفي عام ١٧٧٣م (أو بالسماح لهامش خطأ معقول في وقت ما بين أعوام ١٧٥٠ و١٨٠٠م)، تفوق تطور الغرب علىٰ تطور الشرق، منهيًا العصر الشرقي الذي استمرة لمدة ١٢٠٠ سنة.

ويجادل المؤرخون بحماس شديد حيال سبب ارتفاع المد العالمي بشكل كبير بعد عام ١٥٠٠م، ولماذا أثبت القارب الغربي أنه قابل للطفو. في هذا

الفصل أقترح أنَّ السؤالين مترابطان، وأنَّه بمجرد وضعهما في إطارهما الصحيح، في القصة طويلة الأجل للتطور الاجتماعي، فلن تكون الإجابات غامضة.

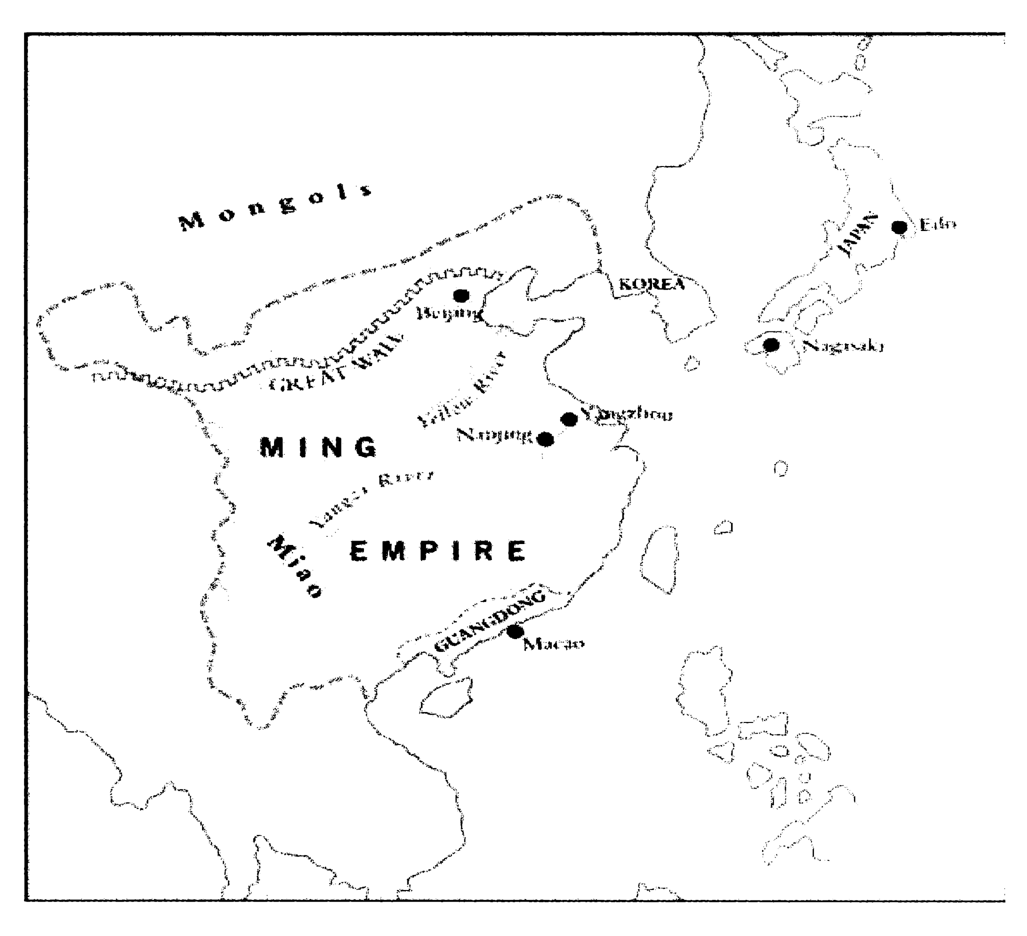


(الشكل ٩ - ١). بعض القوارب تطفو أفضل من غيرها: في القرن الثامن عشر دفع المد الصاعد للتطور الاجتماعي الشرق والغرب عبر السقف الذي طالما قيَّد الاقتصادات العضوية، لكنَّه دفع الغرب أقوىٰ، وأبعد وأسرع. وفي عام ١٧٧٣م، وفقًا للمؤشر، استعاد الغرب الريادة.

الفئران في الحظيرة

استغرق الأمر بعض الوقت لتجاوز توميه بيريس. حتىٰ عام ١٥٥٧م لم يبدأ المسؤولون الصينيون غض النظر عن التجَّار البرتغاليين الذين استقروا في ماكاو (الشكل ٩ - ٢)، وبالرغم من أنَّه بحلول عام ١٥٧٠م أقام التجَّار البرتغاليون متجرًا بعيدًا علىٰ سواحل آسيا مثل ناجازاكي في اليابان، ظلَّت أعدادهم في حالة يرثىٰ لها. وبالنسبة إلىٰ معظم الغربيين ظلَّت أراضي الشرق مجرد أسماء سحرية، أما لمعظم الشرقيين فلم تكن البرتغال تعني ذلك.

كان التأثير الرئيس للمغامرين الأوروبيين في حيوات الشرقيين العاديين في القرن السادس عشر متمثلًا في النباتات الاستثنائية -الذرة والبطاطس والبطاطا الحلوة والفول السوداني- التي جلبوها من العالم الجديد. فقد نمت هذه النباتات حيث لم ينمُ أي شيء آخر، ونجت من الجو السيئ، وغذَّت المزارعين وحيواناتهم بشكل رائع. وعبر القرن السادس عشر زُرعت ملايين الأفدنة منها من أيرلندا إلىٰ النهر الأصفر.



(الشكل ٩ - ٢). عالم مزدحم: الشرق في عصر المدود الصاعدة (١٥٠٠ - ١٧٠٠م).

لقد جاؤوا في الوقت المناسب. كان القرن السادس عشر عصرًا ذهبيًا للثقافتين الشرقية والغربية. وفي تسعينيات القرن السادس عشر (من المسلم أنَّه عقد جيد) استطاع اللندنيون مشاهدة المسرحيات مثل «هنري الخامس» لشاكسبير، و«يوليوس قيصر»، و«هاملت»، أو قراءة منشورات دينية رخيصة مثل كتاب جون فوكس المثير (Book of Martyrs) أو «كتاب الشهداء»، الذي طُبعت منه آلاف النسخ بواسطة المطابع الجديدة والمليئة بالمؤمنين الحقيقيين. وفي الطرف الآخر من أوراسيا، استطاع البكينيون مشاهدة «بيني بافيليون» لتانغ زيانزو التي استمرت لمدة ٢٠ ساعة، والتي تظلّ الأوبرا الصينية التقليدية الأكثر مشاهدة، أو قراءة كتاب (The Journey to the West) أو «الرحلة إلىٰ الغرب» (حكاية ذات مائة فصل عن القرد، والخنزير والغول الشبيه بشريك المسمىٰ فريار ساند، الذي تبع راهبًا

من القرن السابع إلىٰ الهند لإيجاد سوترا البوذي، منقذًا إياه علىٰ طول الطريق من عدد لا يحصىٰ من الأشياء المثيرة).

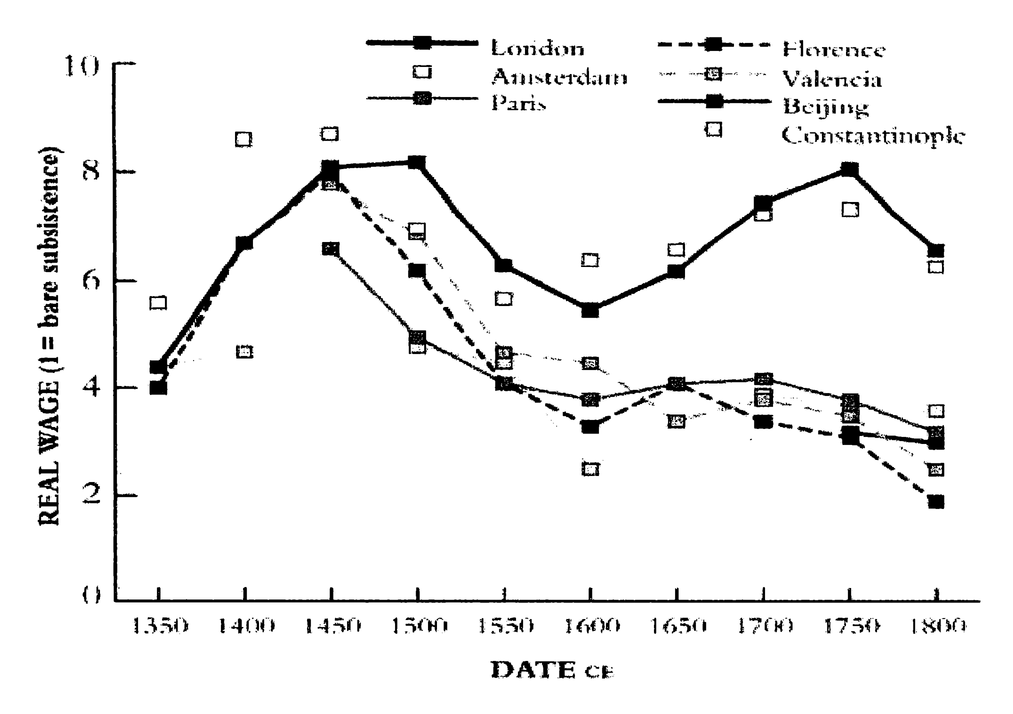
ولكن خلف الواجهة البراقة لم يكن كل شيء جيدًا. لقد قتل الموت الأسود ثُلث البشر أو أكثر في المركزين الشرقي والغربي، ولمدة ما يقرب من قرن بعد عام ١٣٥٠ أبقت حالات تفشي الأمراض المتكررة تعداد السكان منخفضًا. وبين أعوام (١٤٥٠م و١٦٠٠م)، تضاعف عدد الأفواه الجائعة تقريبًا في كل منطقة. «ازداد عدد السكان لدرجة لا مثيل لها في التاريخ»، كما سجل باحث صيني في عام ١٦٠٨م. وفي فرنسا البعيدة وافق بعض الشاهدين علىٰ الأحداث أنَّ «الناس يتكاثرون مثل الفئران في الحظيرة»، كما يقول المثل.

كان الخوف هو المحرك للتطور الاجتماعي. وعنت كثرة الأطفال مزيدًا من تقسيم الحقول أو مزيدًا من الورثة المتروكين في البرد دائمًا، ومزيدًا من المتاعب. أزال المزارعون العشب وقاموا بالتسميد بوتيرة أكبر، وبنوا السدود علىٰ الجداول وحفروا الآبار، أو حاكوا وحاولوا بيع المزيد من الملابس. واستقر بعضهم في الأراضي الطرفية، يعتصرون حياة ضئيلة بين الهضاب والأحجار والرمال التي لم تكن لتهم آباءهم أبدًا. وهجر آخرون المراكز ذات الكثافة السكانية إلىٰ الحدود البرية قليلة السكان، ولكن حتىٰ عندما زرعوا النباتات العجيبة للعالم الجديد لم يبدُ أنهم قد اكتفوا أبدًا من التجوال.

وأصبح القرن الخامس عشر، عندما شحت العمالة وغدت الأرض وفيرة، مجرد ذاكرة متزايدة الغموض: الأيام السعيدة، لحم البقر والجعة، ولحم الخنزير والنبيذ. وحينئذٍ كان كل شيء أفضل، كما قال محافظ مقاطعة بالقرب من نانجينغ في عام ١٦٠٩م: «كانت كل عائلة تتمتع بالاكتفاء الذاتي مع منزل تعيش فيه، وأرض تزرعها وتلال تقطع منها الحطب، وحدائق لزراعة الخضروات». لكن الآن، تسعة من كل عشرة هم من الفقراء . . . لا حد للأطماع، اللحم يصيب العظام . . . وأسفاه. كان مسافر ألماني في عام ١٥٥٠م أقل حدة حين قال: «في الماضي كانوا يأكلون بشكل مختلف في منازل الفلاحين. حينئذٍ، كانت اللحوم والأغذية وفيرة». أما اليوم، فقد تغيَّر كل شيء حقًّا . . . غذاء أكثر

الفلاحين راحة يكاد يكون أسوأ من غذاء العمَّال باليومية والخدم في الأيام الخوالي.

في القصة الخيالية الإنجليزية التي كتبها ديك ويتينجتون، والتي تعود مثل العديد من هذه القصص إلىٰ القرن السادس عشر، ينزح ولد فقير وقطته من الريف إلىٰ لندن وينجح في ذلك، ولكن في الواقع، فإن العديد من الملايين من الجياع الذين فروا إلىٰ مدن قد قفزوا فقط من طاسة قلي إلىٰ النار. ويبيِّن (الشكل ٩ - ٣) كيف تغيَّرت الأجور المدنية الحقيقية (أي: قدرة المستهلكين علىٰ شراء السلع الأساسية، تم تصحيحها لمراعاة التضخم)، بعد عام ١٣٥٠م. يعتمد الرسم البياني علىٰ سنوات من عمل الاستقصاء المضني بواسطة المؤرخين الاقتصاديين، يفكّون طلاسم الوثائق البالية، التي سُجِلت بألسنة بابلية وقيست في وحدات أكثر التباسًا. وحتىٰ القرن الرابع عشر، لم تبدأ السجلات الأوروبية في توفير بيانات جيدة بما يكفي لحساب الدخل بهذه الدقة، بينما في الصين سيكون علينا الانتظار حتىٰ بعد عام ١٧٠٠م. ولكن علىٰ الرغم من الفجوات في البيانات وكمية الخطوط المتقاطعة، فإنَّ الاتجاه الغربي واضح علىٰ الأقل. لقد تضاعفت الأجور في كل مكان لدينا فيه أدلة في القرن الذي تلا الموت الأسود، وبينما تعافىٰ السكان سقط معظمهم إلىٰ مستويات ما قبل الموت الأسود. وتناول الفلورنسيون الذين جرّوا الطوب وبنوا قبة كاتدرائية برونيليشي في عشرينيات القرن الخامس، اللحوم والجبن والزيتون؛ أمَّا الذين أقحموا مايكل أنجلو في عام ١٥٠٤م، فقد قنعوا بالخبز. وبعد قرن كان أحفاد أحفادهم سعداء بالحصول علىٰ ذلك فقط.



(الشكل ٩ - ٣). للغني وللفقير: الأجور الحقيقية للعمَّال الحضريين غير المهرة في ست مدن غربية بالإضافة إلىٰ بكين (١٣٥٠ - ١٨٠٠م). كان لكل مدينة ولكل صناعة قصتها الخاصة بها، ولكن في كل مكان تقريبًا يمكن أن نقيسها، بعد التضاعف تقريبًا بين أعوام (١٣٥٠ و١٤٥٠م)، انخفضت القوة الشرائية للعمَّال إلىٰ مستويات ما قبل عام ١٣٥٠م، بحلول عام ١٥٥٠، أو عام ١٦٠٠م. ولأسباب ستتضح في هذا الفصل لاحقًا، بعد عام ١٦٠٠م انسحبت مدن أوروبا الشمالية الغربية علىٰ نحو متزايد بعيدًا عن البقية. (تبدأ البيانات في باريس وفالنسيا فقط في حوالي عام ١٤٥٠م، وفي بكين في عام ١٧٥٠م، ولا عجب أن هناك فجوة في الأرقام من القسطنطينية في عام ١٤٥٣م، عندما اجتاح العثمانيون المدينة)، البيانات من آلين عام ٢٠٠٦م، (الشكل ٢).

في تلك الفترة طارد الجوع أوروبا الآسيوية من طرف إلىٰ الآخر. كان بإمكان حصاد محبط أو قرار غير مدروس، أو مجرد سوء الحظ أن يدفع الأسر الفقيرة إلىٰ أكل الجيف (في الصين، التبن وقشر الفول ولحاء الأشجار والأعشاب، وفي أوروبا الكرنب والأعشاب، والعشب). كان يمكن لسلسلة من الكوارث أن تدفع بالآلاف علىٰ الطرقات بحثًا عن الطعام، وبالأضعف إلىٰ

الموت جوعًا. وربما لا يكون من قبيل المصادفة أنَّه في النسخ الأصلية للقصص الشعبية الأوروبية الأقدم (مثل قصة ديك ويتينجتون) لم يحلم الرواة الفلاحون ببيضات ذهبية وجذوع فول سحرية ولكن ببيض وبقول حقيقية. كان كل ما طلبوه من العرابات الجنّيات معدة ممتلئة فحسب.

في كل من الشرق والغرب قوَّت الطبقات المتوسطة قلوبهم ضد المتشردين والمتسولين، وقادوهم إلىٰ الملاجئ والسجون، وشحنوهم إلىٰ الحدود، أو باعوهم باعتبارهم عبيدًا. كان ذلك قاسيًا بالتأكيد، ورغم ذلك شعر أولئك الذين كانوا في وضع أفضل قليلًا أن لديهم ما يكفيهم من المشكلات التي تمنعهم من القلق بشأن مشاكل الآخرين. وكما لاحظ أحد النبلاء في دلتا اليانغتسي في عام ١٥٤٥م، في الأوقات العصيبة: «تمَّ إعفاء المنكوبين [أي الفقراء] من دفع الضرائب». ولكنَّ الأثرياء تعرضوا للضغط أيضًا لدرجة أنهم أصبحوا فقراء. وأفزع الحراك الاجتماعي المتراجع الأطفال ذوي العائلات المحترمة.

وجد أبناء طبقة النبلاء وسائل جديدة للتنافس علىٰ الثروة والسلطة في هذا العالم الصعب، ممَّا أخاف المحافظين بسبب ازدرائهم للتقاليد. ولاحظ مسؤول صيني: « أصبحت الطرز النادرة للملابس والقبعات يتم ارتداؤها تدريجيًا، وهناك أيضًا هؤلاء الذين أصبحوا تجارًا!». والأسوأ من ذلك، كما كتب أحد زملائه، أنَّه حتىٰ العائلات المحترمة سابقًا أصابها الجنون من أجل الثروة والوجاهة . . . وفي ظل استمتاعهم بتوجيه الاتهامات، فهم يستخدمون سلطتهم للتأكيد علىٰ قضاياهم لدرجة أنك لا تستطيع أن تميز بين المعوج والمستقيم. وبتفضيل الترف ونمط الحياة الراقية، فإنَّهم يجرون أثوابهم الحريرية البيضاء بينما يتجولون بحيث لا يمكنك أن تميِّز بين الشريف والصعلوك.

في الصين أصبحت الخدمة المدنية هي نقطة الوميض. لقد تضخمت صفوف طبقة النبلاء ولكن لم يتضخم عدد المناصب الإدارية، وفي حين ضاقت بوابات التعلم الشائكة، عثر الأغنياء علىٰ سُبل لجعل الثروة أهم من العلم. واشتكىٰ أحد مسؤولي البلاد من أنَّه: «تمَّ فصل المتعلمين الفقراء الذين رغبوا في

الحصول علىٰ مكان [في الامتحانات] بواسطة المسؤولين كما لو كانوا لاجئي مجاعة».

وحتىٰ بالنسبة إلىٰ الملوك في أعلىٰ الكومة، كانت هذه فترات متوترة. ومن الناحية النظرية، كان تزايد عدد السكان أمرًا جيدًا بالنسبة إلىٰ الحكّام -أناس أكثر لفرض الضرائب عليهم وتجنيد المزيد من الجنود- ولكن من الناحية العملية لم تكن الأمور بتلك البساطة. ففي حال عجزهم، ربما يثور الفلاحون بدلًا من دفع الضرائب، وقد اتفق معهم النبلاء المتخاصمون سريعو الغضب. (لقد أحدث مرشحو الخدمة المدنية الصينية الفاشلون عادة معينة بالعودة إلىٰ السطح مجددًا باعتبارهم من الثوار).

كانت المشكلة قديمة قدم الملكية نفسها، واختار معظم ملوك القرن السادس عشر حلولًا قديمة: التمركز والتمدد. ربما كانت اليابان هي الحالة القصوىٰ لذلك. هنا، انهارت السلطة السياسية تمامًا في القرن الخامس عشر، حيث أنشأت القرىٰ والمعابد البوذية وحتىٰ المباني الفردية حكوماتها الخاصة واستأجرت الأقوياء لحمايتهم أو سرقة جيرانهم. وفي القرن السادس عشر، أطلق النمو السكاني منافسة شرسة علىٰ الموارد، وبين الكثير من اللوردات الصغار بزغ تدريجيًا القليل من اللوردات الكبار. كما وصلت المدافع البرتغالية الأولىٰ إلىٰ اليابان في عام ١٥٤٣م (جيل متطور عن البرتغاليين أنفسهم)، وبحلول ستينيات القرن السادس عشر كان الحرفيون يصنعون بنادقهم الخاصة الاستثنائية، لمساعدة اللوردات الكبار الذين كانوا يستطيعون تحمل تكلفة تسليح أتباعهم ليصبحوا حتىٰ أكبر من ذلك. وفي عام ١٥٨٢م، نصَّب تويوتومي هيديوشي نفسه حاكمًا عسكريًا علىٰ الأرخبيل بأسره تقريبًا.

وتحدث هيديوشي إلىٰ أبناء بلده المتنازعين من أجل تسليم أسلحتهم، متعهدًا أن يذيبهم جاعلًا إياهم مسامير وصواميل في أكبر تمثال لبوذا، الذي يبلغ طوله ضعف طول تمثال الحرية. فهذا، كما فسَّر هيديوشي، لن ينفع الناس فقط في هذه الحياة ولكن في الحياة الآخرة أيضًا. (ولم يتأثر أحد المبشرين

المسيحيين بذلك، وقال بأنَّ: «هيديوشي إنسان ماهر وماكر فوق التصور، يحرم الشعب من أسلحتهم بحجة الإخلاص للدين»).

وأيًّا كانت نوايا هيديوشي الروحية، فقد كان نزع سلاح الشعب بالتأكيد خطوة كبيرة نحو مركزة الدولة، ممَّا يسهِّل إلىٰ حد كبير مهمة تعداد السكان وقياس الأراضي وتكليف الالتزامات الضريبية العسكرية. وبحلول عام ١٥٨٧م، وفقًا لرسالة بعث بها إلىٰ زوجته، رأىٰ هيديوشي التوسُّع باعتباره حلًّا لكل مشاكله وقرَّر غزو الصين. وبعد ذلك بخمس سنوات نزل جيشه -ربما رُبع مليون جندي مسلَّح بأحدث البنادق- في كوريا واكتسح كل شيء أمامه.

وقد واجه هيديوشي إمبراطورًا صينيًّا مشتتًا بشدة بشأن مزايا التوسُّع. وأصرَّ بعض أباطرة مينغ، مثل هيديوشي في اليابان، علىٰ إصلاح الاقتصاديات المتداعية لإمبراطوريتهم والتوسُّع كذلك. وقد أمروا بتعدادات جديدة للسكان، وحاولو التوصل لمن أُدين بدفع الضرائب لأي شيء، وحوّلوا مستحقات العمَّال المعقدة وتبرعات الحبوب إلىٰ مدفوعات فضية بسيطة. بيد أنَّ موظفي الخدمة المدنية قد تجنبوا بشكل كبير كل هذا الضجيج والغضب. وأشاروا إلىٰ أنَّ قرونًا من التقاليد أظهرت أنَّ الحكَّام المثاليين كانوا يجلسون في هدوء (وبتكلفة زهيدة) ويقودون من خلال النموذج الأخلاقي. فهم لم يشنّوا الحرب وبالتأكيد لم يعتصروا الأموال من الأشراف أصحاب الأرض، وهي نفس عائلات البيروقراطيين أنفسهم. كان من الممكن تجاهل تعدادات السكان وسجلات الضرائب وفخر هيديوشي ومتعته بكل سهولة. والسؤال إذن: ماذا إذا وثَّقت إحدىٰ مقاطعات وادي اليانغتسي عدد السكان بالضبط في عام ١٤٩٢م بالرقم نفسه الذي وثَّقته قبل ثمانين عامًا؟ لقد كانت الأسرة الحاكمة، كما أصرَّ العلماء، ستبقىٰ عشرة آلاف سنة سواء كانت تحصي الناس أم لا.

لقد تخبط الأباطرة الناشطون في مستنقع البيروقراطية. وفي بعض الأحيان كانت النتائج مثيرة للضحك، فعندما أصرَّ الإمبراطور تشنغ خه علىٰ قيادة جيش ضد المغول في عام ١٥١٧م، رفض المسؤول عن سور الصين العظيم فتح الأبواب للسماح له بالمرور؛ لأنَّ الأباطرة يجب أن يكونوا في بكين. وفي بعض

الأحيان كانت الأمور مسلية علىٰ نحو أقل، فعندما أمر تشنغ خه بجلد المسؤولين بسبب عنادهم، تسبب في مقتل بعضهم في هذه العملية.

كان لعدد قليل من الأباطرة طاقة مثل تشنغ خه، وبدلًا من تولي مصالح البيروقراطيين والنبلاء أصحاب الأراضي، ترك معظمهم ملفات الضرائب تتعفن. وبافتقارهم إلىٰ المال توقفوا عن الدفع إلىٰ الجيش (في عام ١٥٦٩م اعترف نائب الوزير لشؤون الحرب أنَّه لا يرىٰ سوىٰ رُبع القوات في كتبه). كانت رشوة المغول أرخص من محاربتهم.

وتوقف الأباطرة أيضًا عن دفع رواتب القوات البحرية، رغم أنها كانت من المفترض أنها تقمع السوق السوداء الضخمة التي ازدهرت منذ أن منع هونغ وو التجارة البحرية الخاصة في القرن الرابع عشر. وقام المهربون الصينيون واليابانيون والبرتغاليون بعمليات مربحة علىٰ الساحل، بشراء أحدث البنادق، والتحوّل إلىٰ القرصنة، والتفوق في السلاح علىٰ الذين اعترضوا طريقهم. ليس لأنَّ خفر السواحل قد حاولوا بالفعل؛ فقد كانت رشاوىٰ المهربين بين مميزاتهم الرئيسة.

أصبح ساحل الصين بشكل متزايد يشبه عروض التلفزيون عن الشرطة مثل برنامج «ذا واير»، حيث تزيل الأموال القذرة الحواجز بين المجرمين العنيفين والأثرياء المحليين والسياسيين المتخفين. تعلَّم أحد الحكَّام المستقلين والساذجين أيضًا هذا الأمر بالطريق الصعبة عندما تتبع القواعد بالفعل، متهمًا عصابة مهربين، رغم أنَّ أحد أفرادها كان عمَّ أحد القضاة أو خاله. تمَّت السيطرة علىٰ الأمور بإحكام واستغلال النفوذ. ومن ثمَّ إقالة الحاكم لينتحر في النهاية عندما أصدر الإمبراطور مذكرة لاعتقاله.

فقدت الحكومة السيطرة عمليًا علىٰ الساحل في خمسينيات القرن السادس عشر. وتحوَّل المهربون إلىٰ ملوك قراصنة، يسيطرون علىٰ عشرين مدينة، بل وهدَّدوا بنهب المقابر الملكية في نانجينغ. وفي النهاية تطلبت هزيمتهم فريقًا كاملًا من المسؤولين ذوي الفهم السياسي وغير القابلين للرشوة والفساد. ومع قوة سريّة (تعرف باسم «جيش تشي» علىٰ اسم تشي جيغوانغ، أشهر هؤلاء المحصَّنين)

تتألف من ثلاثة آلاف من الفرسان، حارب المصلحون حرب ظلّ أحيانًا بدعم رسمي، وأحيانًا لا، بتمويل من يانغتشو الذي وزَّع الأموال تحت الطاولة باعتصار الضرائب من النخب المحلية. وأظهر جيش تشي أنه عندما تتواجد الإرادة فلا يزال بإمكان الإمبراطورية سحق منافسيها، وشجَّع نجاحها علىٰ ظهور حقبة (وجيزة) من الإصلاح. وبالانتقال إلىٰ الشمال، قام تشي بتثوير دفاعات سور الصين العظيم، مشيدًا أبراجًا حجرية، ومعبئًا إياها بالفرسان المدربين، ونصب المدافع علىٰ العربات مثل حصون العربات التي استخدمها الهنغاريون ضد العثمانيين قبل قرن مضىٰ.

وفي سبعينيات القرن السادس عشر قام الوزير الأعظم تشانغ تشو تشنغ - وهو أكفأ المسؤولين في التاريخ الصيني- بوضع قانون الضرائب، وجمع السدادات المتأخرة، وتحديث الجيش. وشجَّع الشباب الأذكياء مثل تشي، وأشرف شخصيًا علىٰ تعليم الإمبراطور الشاب وانلي. ونتيجة لذلك، امتلأت الخزانة من جديد وانتعش الجيش، ولكن عندما توفي تشانغ في عام ١٥٨٢م بدأ هجوم البيروقراطيين. تمَّ التشهير بتشانغ وإقالة أنصاره. ومات تشي الثري وحده مفلسًا وتخلىٰ عنه الجميع حتىٰ زوجته.

فقدَ الإمبراطور وانلي كل صبره، بعد أن أصبح محبطًا من رحيل وزيره الأعظم، وفي عام ١٥٨٩م قام بإضراب. انسحب وانلي إلىٰ عالم من الرفاهية، فبدَّد أموالًا طائلة علىٰ الملابس وأصبح بدينًا جدًّا لدرجة أنه أصبح في حاجة إلىٰ المساعدة للوقوف. ولمدة خمسة وعشرين عامًا، رفض الظهور علىٰ الملأ، تاركًا الوزراء والسفراء يركعون أمام عرش فارغ. ولم يحدث أي شيء. لم يتم تعيين أي من المسؤولين أو تتم ترقيتهم. وبحلول عام ١٦١٢م كانت نصف الوظائف في الإمبراطورية شاغرة وتراكمت قوانين المحاكم لسنوات.

لا عجب أنَّ هيديوشي توقع فوزًا سهلًا في عام ١٥٩٢م. وقد تعثر الهجوم الياباني سواء بسبب أخطاء هيديوشي أو بسبب الابتكارات البحرية الكورية، أو لأنَّ أداء الجيش الصيني (وخاصة المدفعية التي بناها تشي)، كان جيدًا علىٰ نحو مدهش. ويعتقد بعض المؤرخين أنَّ هيديوشي كان سيغزو الصين لولا موته في

عام ١٥٩٨م، ولكن مثلما حدث، أعاد جنرالات هيديوشي التفكير في التوسُّع. وبالتخلي عن كوريا، اندفعوا إلىٰ الوطن لمواصلة مقاتلة بعضهم البعض، وعاد وانلي وبيروقراطيوه إلىٰ شأنهم المهمّ الخاص بهم بعدم فعل أي شيء علىٰ الإطلاق.

بعد عام ١٦٠٠م، اتفقت الدول الكبرىٰ في المركز الشرقي ضمنيًا علىٰ أنَّ البيروقراطيين كانوا محقين: لم تكن المركزية والتوسُّع هي الحلول لمشاكلهم. ظلَّت جبهة السهوب تشكِّل تحديًا بالنسبة إلىٰ الصين، وظلَّ القراصنة/التجَّار يثيرون مشاكل في جنوب شرق آسيا، لكنَّ اليابان واجهت تهديدات قليلة جدًّا لدرجة أنها -وحدها في تاريخ العالم- توقفت فعليًا عن استخدام الأسلحة النارية، وعاد حدادو المدافع مجددًا لصناعة السيوف (وليس شفرات المحاريث للأسف). في الغرب -رغم ذلك- لم ينل أحد ذلك الترف.

التاج الإمبراطوري

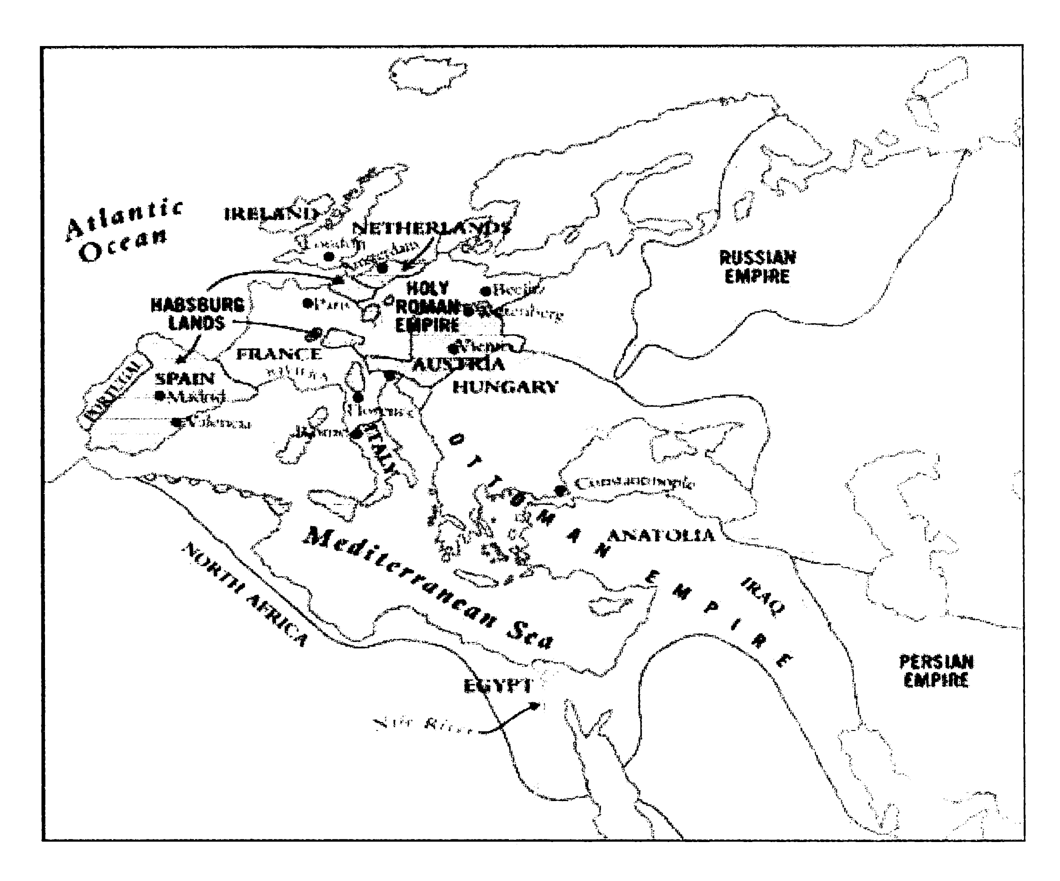
بطريقة ما، بدا المركزان الشرقي والغربي متماثلين كثيرًا في القرن السادس عشر. في كل منهما، سيطرت إمبراطورية عظمىٰ علىٰ المركز التقليدي (مينغ في الصين في أودية نهري اليانغتسي والنهر الأصفر في الشرق، وتركيا العثمانية في شرق البحر الأبيض المتوسط في الغرب) في حين ازدهرت الدول الأصغر النشطة تجاريًا حول أطرافها (في اليابان ودول جنوب شرق آسيا في الشرق، وفي أوروبا الغربية في الغرب). ولكنَّ التشابه انتهىٰ عند هذا الحد. فعلىٰ النقيض من مشاحنات مينغ الصينية لم يشكّ السلاطين العثمانيون ولا بيروقراطيوهم أبدًا في أنَّ التوسُّع هو الحل لجميع مشاكلهم. انخفض عدد سكان القسطنطينية إلىٰ خمسين ألف شخص بعد نهب العثمانيين في عام ١٤٥٣م، ولكنَّها انتعشت حيث أصبحت مجددًا عاصمة إمبراطورية عظمىٰ. وعاش أربعمائة ألف حضري هناك بحلول عام ١٦٠٠م، ومثل روما -منذ العديد من القرون السابقة- فقد احتاجوا ثمار منطقة البحر المتوسط كلها لإطعام أنفسهم. ومثل أعضاء مجلس الشيوخ في روما القديمة، قرَّر سلاطين تركيا أنَّ الغزو هو أفضل طريقة لضمان امتلاك الغذاء.

واصل السلاطين تلك الرقصة المعقدة، واضعين قدمًا في المركز الغربي وقدمًا أخرىٰ في السهوب. وكان هذا هو سر نجاحهم. في عام ١٥٢٧م تفاخر السلطان سليمان بامتلاك جيش يضم ٧٥ ألف فارس، معظمهم من الرماة الأرستقراطيين من البدو التقليديين، و٢٨ ألفًا من الإنكشاريين، وعبيد مسيحيين مدربين باعتبارهم جنودًا مسلَّحين تدعمهم المدفعية. ولإبقاء الفرسان سعداء، وزَّع

السلطان الأراضي التي تم احتلالها باعتبارها إقطاعيات، ولإبقاء الإنكشاريين سعداء -أي الدفع لهم بالكامل وفي الوقت المناسب- قاموا بتدوين مسح الأراضي، الأمر الذي كان سيبهر هيديوشي، وإدارة التدفقات النقدية حتىٰ آخر عملة.

تطلب كل هذا إدارة جيدة، وقد جذبت البيروقراطية الممتدة باطراد أفضل وأذكىٰ مَن في الإمبراطورية، بينما لعب السلاطين بمهارة بالجماعات ذات المصالح المتنافسة ضد بعضهم البعض. وفي القرن الخامس عشر، فضَّلوا الإنكشاريين دائمًا، وقاموا بمركزة الحكومة ودعم الثقافة العالمية. وفي القرن السادس عشر مالوا تجاه الأرستقراطية، فنقلوا السلطة ودعموا الإسلام. لكن الأكثر أهمية من أساليب الراحة السريعة هذه، كانت أعمال النهب، التي موَّلت كل شيء. احتاج العثمانيون إلىٰ الحرب، وكانوا عادة ما ينتصرون.

وجاءت أصعب اختباراتهم علىٰ الجبهة الشرقية. طيلة سنوات عديدة واجهوا أعمال تمرد بدرجة منخفضة في الأناضول (الشكل ٩ - ٤)، حيث اتهمهم مقاتلو الشيعة المعروفون باسم الرؤوس الحمر بأنَّهم سنيون فاسدون دكتاتوريون، ولكنَّ الأمور ازدادت سوءًا عندما أعلن الشاه الفارسي نفسه باعتباره سليل «علي بن أبي طالب» في عام ١٥٠١م. لقد ركَّز التحدي الشيعي علىٰ الجياع والمشردين والمضطهدين في الإمبراطورية الذين صدم غضبهم العارم حتىٰ الجنود القساة: «لقد دمروا كل شيء - الرجال والنساء والأطفال»، كما سجَّل رقيب من المتمردين. «حتىٰ إنَّهم قتلوا القطط والدجاج». وضغط السلطان التركي علىٰ علماء الدين لإعلان هرطقة الشيعة، كما قلَّت أعداد الجهاديين في القرن السادس عشر.



(الشكل ٩ - ٤). الإمبراطوريات الغربية: إمبراطورية هابسبورغ، والإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الروسية في عام ١٥٥٠م تقريبًا.

منحت الأسلحة النارية المتقدمة الغلبة للعثمانيين، وعلىٰ الرغم من أنهم لم يهزموا فارس بالكامل، فقد كانوا قادرين علىٰ القتال لإيقافها، ثمَّ الاتجاه إلىٰ الجنوب الغربي للفوز بالجائزة الكبرىٰ، مصر، في عام ١٥١٧م. وللمرة الأولىٰ منذ الفتوحات العربية منذ تسعة قرون، ضمن القسطنطينيون الجائعون الوصول إلىٰ سلة خبز النيل.

ولكن مثل كل القوىٰ التوسعية منذ الآشوريين، وجد العثمانيون أنَّ الفوز بالحرب لم يطلق إلَّا حربًا أخرىٰ. ولاسترجاع تجارة الحبوب بين مصر والقسطنطينية كان عليهم بناء أسطول لحماية سفنهم، ولكن انتصاراتهم علىٰ قراصنة البحر المتوسط الشرسين (مسلمين ومسيحيين) جرَّت الأسطول نحو الغرب بشكل أكبر. وبحلول ستينيات القرن السادس عشر، سيطرت تركيا علىٰ ساحل

شمال أفريقيا بالكامل، وكانت تقاتل أسطول أوروبا الغربية. واندفعت الجيوش التركية أيضًا بعمق داخل أوروبا، فاكتسحوا الهنغاريين الوحشيين في عام ١٥٢٦م وقتلوا ملكهم ومعظم أرستقراطييهم.

وفي عام ١٥٢٩م، عسكر السلطان سليمان خارج فيينا. ولم يكن قادرًا علىٰ الاستيلاء علىٰ المدينة ولكنَّ الحصار ملأ المسيحيين بالرعب خشية أنَّ العثمانيين سيبتلعون أوروبا كلها قريبًا. «إنَّني أقشعر عندما أفكر ماذا يمكن أن تكون نتائج حرب كبرىٰ»، كما كتب سفير إلىٰ القسطنطينية مخاطبًا الوطن:

« بجانبهم، توجد الثروة الهائلة لإمبراطوريتهم، والموارد المكتملة، والخبرات والتجارب في مجال الأسلحة، والعسكرية المخضرمة، وسلسلة انتصارات متواصلة . . . أمَّا بجانبنا، فتوجد خزانة فارغة وعادات مولعة بالترف، وموارد مستنزفة، ومعنويات محطمة . . . والأسوأ بين ذلك كله، هو العدو الذي اعتاد علىٰ الانتصار، ونحن اعتدنا علىٰ الهزيمة. هل نستطيع التشكك في نتيجة تلك الحرب؟».

ومع ذلك، تشكك بعض الأوروبيين في نتيجة الحرب، ولا سيما شارل الخامس، بطريارك أسرة هابسبورغ، إحدىٰ العشائر فاحشة الثراء التي ظلَّت تناضل للسيطرة علىٰ وسط أوروبا منذ الموت الأسود. وبفضل الزواج الذكي والتوقيت الجيِّد لوفاة أصهارهم، ثبَّتت أسرة هابسبورغ نفسها علىٰ العروش من نهر الدانوب إلىٰ المحيط الأطلسي، وفي عام ١٥١٦م سقط الإرث بالكامل - النمسا وأجزاء من ألمانيا وما يُعرف الآن بجمهورية التشيك وجنوب إيطاليا وأسبانيا وبلجيكا الحديثة وهولندا- في قبضة تشارلز. لقد أتاحت له سلطاته الملكية الكثيرة الوصول إلىٰ أفضل محاربي أوروبا وأغنىٰ المدن والأسواق المالية الرائدة، وفي عام ١٥١٨م انتخبه أمراء ألمانيا باعتباره الإمبراطور الروماني المقدس. كان هذا التاج علىٰ وجه الخصوص -الأثر العجيب من العصور الوسطىٰ الفوضوية في أوروبا- نعمة متضاربة، كما أشار فولتير دومًا في خمسينيات القرن الثامن عشر، لم تكن الإمبراطورية الرومانية المقدسة «مقدسة ولا رومانية ولا إمبراطورية». وعادة ما كلَّفت قيادة أمرائها المتشاحنين أكثر ممَّا

كلَّف العرش، لكن رغم ذلك كان كل مَن جلس علىٰ العرش الإمبراطوري -من حيث المبدأ- هو ولي عهد شارلمان - الأمر الذي لم يكن هينًا لحشد أوروبا ضد الأتراك.

وتوقع كثير من المراقبين بديلين فقط لأوروبا الغربية: غزو إسلامي أو استعباد من آل هابسبورغ، الوحيدين الأقوياء بما يكفي لإيقاف الأتراك. وقد لخص هذا الأمر مستشار تشارلز في رسالة إلىٰ الإمبراطور في عام ١٥١٩م: «لقد كان الرب رحيمًا جدًّا بك. فقد أعلاك فوق جميع ملوك العالم المسيحي وأمرائه حتىٰ بلغت قوة لم يتمتع بها أي ملك منذ وفاة سلفك شارلمان. لقد وضعك علىٰ الطريق نحو ملك العالم، ونحو توحيد العالم المسيحي تحت راعٍ واحد».

وإذا كان السفير أو المستشار محقًا، لكانت أوروبا الغربية تشبه بقية مناطق مراكز العالم، التي تهيمن عليها إمبراطورية عظمىٰ. ولكن فكرة الرعي أثارت ملوك العالم المسيحي وأمراءه لدرجة أنَّ البعض قد شنَّ حروبًا استباقية ضد تشارلز لتغيير هذا الاتجاه. حتىٰ فرنسا عقدت معاهدة مع العثمانيين ضد آل هابسبورغ، وقصف أسطول فرنسي تركي مشترك الريفييرا الفرنسية (التي كانت آنذاك تحت سيطرة تشارلز) في عام ١٥٤٢م، وكل ذلك بالطبع أجبر تشارلز للمحاولة بجهد أكبر لرعي العالم المسيحي وحراسته.

وقضىٰ تشارلز وابنه فيليب الثاني معظم قتالهم الطويل وهم يحاربون المسيحيين الآخرين، وليس المسلمين، ولكن بدلًا من تحويل أوروبا الغربية إلىٰ إمبراطورية برية، مزق صراعهم أوروبا، وعمّق الانقسامات القديمة وخلق انقسامات جديدة. عندما سمَّر الراهب الألماني مارتن لوثر ٩٥ معارضًا للممارسات المسيحية علىٰ باب كنيسة قلعة فيتنبرغ في عيد القديسين في عام ١٥١٧م، علىٰ سبيل المثال، فإنَّه لم يكن يفعل شيئًا غير عادي؛ لقد كان هذا أسلوبًا تقليديًا لنشر المناقشات اللاهوتية، (وبالمقارنة مع العديد من منتقدي الكنيسة منذ الموت الأسود، فقد كان لوثر معتدلًا علىٰ نحو إيجابي). لكنَّ الأجواء المشحونة حوَّلت احتجاجه الديني إلىٰ زلزال سياسي واجتماعي لدرجة أنَّ معاصريه كانوا يشبهون هذه الاحتجاج بالانقسام بين السُنة والشيعة في تركيا.

كان لوثر يأمل في دعم تشارلز له، ولكن تشارلز كان يعتقد أنَّ رعاية العالم المسيحي تستوجب كنيسة واحدة غير منقسمة. «يخطئ الراهب إذا عارض رأي العالم المسيحي»، كما أخبر لوثر: «إنَّني عازم علىٰ تقديم ممالكي وسلطاني وأصدقائي وجسدي ودمي وحياتي وروحي من أجل ذلك». وقد فعل ذلك، ولكن مع كون كل أوروبا مسلَّحة مع آل هابسبورغ أو ضدهم، أثبت نفي وجود اختلافات في العالم المسيحي أنَّه كارثي. ولأسباب تتعلق بالمبدأ أحيانًا، وبالمزايا المحدودة أحيانًا أخرىٰ، أو حتىٰ لمجرد الغموض والالتباس؛ أدان ملايين المسيحيين الكنيسة الرومانية. قتل البروتستانت والكاثوليك بعضهم بعضًا، وقتل البروتستانت بروتستانت آخرين وتضاعفت تبريرات الاحتجاج. وأعلن بعض البروتستانت المجيء الثاني للمسيح، والحب الحر أو الشيوعية. ووصل الكثيرون إلىٰ نهاية دموية وقاسية. وجعل الجميع عمل آل هابسبورغ أصعب وأكثر تكلفة.

نادرًا ما يريد الناس الذين يؤمنون بأنَّ أعداءهم عملاء للمسيح الدجال التسوية؛ ولهذا تحوَّلت الصراعات الصغيرة إلىٰ صراعات كبيرة، وأبت الصرعات الكبيرة أن تنتهي، وارتفعت التكاليف. وفي النهاية، كانت المحصلة لآل هابسبورغ هي المحصلة نفسها: لم يستطيعوا ببساطة أن يوحدوا أوروبا الغربية.

تخلىٰ تشارلز، الذي حطمه نضاله، عن عروشه العديدة في (١٥٥٥ – ٥٦م)، واقتسمها بين ابن عم له حصل علىٰ النمسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وفيليب الذي حصل علىٰ أسبانيا والأراضي الغربية الأخرىٰ. وكانت تلك حركة ذكية: فمن خلال جعل أملاك هابسبورغ مشتركة مع الأملاك الأسبانية، استطاع فيليب أن ينظِّم فعالية الإدارة وأن يركز علىٰ المسألة الحقيقية، الأموال.

لمدة أربعين عامًا عمل فيليب مثل هرقل لإصلاح اقتصاديات هابسبورغ. لقد كان رجلًا غريبًا، يعمل لعدد مذهل من الساعات في مكاتب مبنية خصيصًا خارج مدريد، ولكنَّه دائمًا مشغول جدًّا لإيجاد الوقت لزيارة أملاكه. ولكن علىٰ الرغم من أنَّه أحصىٰ الضرائب وفرضها علىٰ رعاياه بنفس نشاط هيديوشي، بالإضافة إلىٰ أنَّه رفع الإيرادات وهزم فرنسا وتركيا، فإنَّ النصر النهائي الذي كان

سيوحِّد أوروبا الغربية لم يقترب أبدًا. وكلما قام رجال الضرائب بزيادة الخناق علىٰ الشعب، تراكمت المشاكل. ونتيجة لذلك، ازداد رد فعل ومقاومة رعايا فيليب - الذين كانوا يتكاثرون مثل الفئران في الحظيرة، والذين حُوصروا بين الموت جوعًا ورؤية مساهماتهم تُنفق علىٰ صراعات مع بلدان نائية ومع شعوب لا يعرفون شيئًا عنها.

وفي ستينيات القرن السادس عشر، تمكن فيليب من الدفع بالرب والثروة في المعسكر نفسه. وقام ساكنو المدينة الهولنديون متبلدو الحس الذين اتهمهم آل هابسبورغ بأنَّهم بروتستانت وفرضوا عليهم المزيد من الضرائب الثقيلة، قاموا بثورة حطَّموا فيها مذبح الكنيسة ودنّسوها. كانت خسارة هولندا الغنية أمام وكر كالفيني غير متصورة؛ لذا أرسل فيليب الجيش، كي يحشد هؤلاء الهولنديون جيشًا خاصًا بهم. وظلَّ فيليب يفوز بالمعارك، ولكنَّه لم يستطع الفوز في الحرب. لم يكن الهولنديون ليستجيبوا إلىٰ دفع ضرائب جديدة لآل هابسبورغ، ولكن عندما يتعرض دينهم للخطر، فإنَّهم سينفقون أي مبلغ من المال ويسلّمون بأي عدد من الأرواح للدفاع عنه. وبحلول ثمانينيات القرن السادس عشر كبَّدت الحرب فيليب أكثر من دخل الإمبراطورية بالكامل، ومع عدم قدرته علىٰ تحمل تكاليف النصر أو الهزيمة، قام بالاستدانة بشكل ضخم من الممولين الإيطاليين. وعندما وصل إلىٰ المرحلة التي لم يتمكن فيها من الدفع لجيوشه أو للدائنين، أعلن إفلاسه، ثمَّ فعل ذلك مرات عديدة. ونتيجة لذلك، تمردت جيوشه التي لم تحصل علىٰ رواتبها، وأخذوا يسرقون من أجل معاشهم، وانهارت سُمعته. لم تُهزم أسبانيا هزيمة حاسمة حتىٰ عام ١٦٣٩م (في البحر) وعام ١٦٤٣م (في البر)، ولكن عندما توفي فيليب في عام ١٥٩٨م، كانت الإمبراطورية مدمَّرة بالفعل، حيث بلغ دينها ١٥ ضعف دخلها السنوي.

مرَّ قرنان قبل أن تعود إمبراطورية في أوروبا الغربية كما كانت، وحينئذ قام أوروبيون غربيون آخرون بتفجير ثورة صناعية غيَّرت العالم. إذا قام آل هابسبورغ أو الأتراك بتوحيد أوروبا في القرن السادس عشر، ربما لم تكن لتحدث تلك الثورة الصناعية، وربما لوجدنا في تشارلز وفيليب اللذين فشلا في توحيد أوروبا

الغربية أو سليمان العثماني الذي فشل في قهر أوروبا الغربية أخيرًا البلهاءَ الأغبياء الذين غيَّروا مجرىٰ التاريخ.

ومرة أخرىٰ، من المبالغة إلقاء اللوم علىٰ رجل واحد فحسب. لقد أشار السفير الأوروبي الذي قلق كثيرًا من سيطرة تركيا إلىٰ أنَّ «العائق الوحيد هو بلاد فارس، التي يجبر وضعها بالنسبة إلىٰ قواتها الخلفية الغزاة [الأتراك] علىٰ أخذ الاحتياطات اللازمة». لقد كان الأمر ببساطة متجاوزًا لقوة الأتراك أن يهزموا الفرس والشيعة والأوروبيين. وبالمثل، أخفق كل من تشارلز وفيليب في أن يصبحوا رعاة العالم المسيحي، ليس لأنَّهم خسروا بعض المعارك الحاسمة (في الحقيقة، كانوا ينتصرون دائمًا حتىٰ عام ١٥٨٠م)، أو لافتقارهم إلىٰ بعض الموارد الجوهرية (في الواقع، كان لديهم أكثر بكثير من نصيبهم العادل من الحظ والموهبة والسمعة)؛ ولكن لأنَّ هزيمة الأتراك والمسيحيين الانفصاليين ودول أوروبا الغربية الأخرىٰ كانت تفوق تنظيمهم وثروتهم. وإذا لم يستطع آل هابسبورغ بكل مزاياهم أن يوحدوا أوروبا الغربية، فلن يتمكن أحد من ذلك. لقد كان قَدَر أوروبا الغربية أن تظلّ متميزة عن مجموعة الإمبراطوريات التي امتدت من تركيا إلىٰ الصين.

بالرغم من تنوع هذه التجارب الإمبراطورية، ظلَّ التطور الاجتماعي يرتفع في كلا المركزين، وفي أثناء العقود التي تلت وفاة هيديوشي وفيليب في عام ١٥٩٨م كانت هناك جميع الدلائل علىٰ أنَّ مفارقة التطور قد بدأ مفعولها مجددًا. ومثلما حدث كثيرًا في الماضي، ساهم الطقس في الأزمة المتصاعدة. وظلَّ العالم باردًا منذ عام ١٣٠٠م، لكنَّه تحول الآن إلىٰ برودة أشد. ويلقي بعض علماء المناخ اللوم في ذلك علىٰ انفجار بركاني في بيرو عام ١٦٠٠م، بينما يلوم آخرون نشاط البقعة الشمسية الذي غدا أضعف. ولكنَّ معظمهم يتفق علىٰ أنَّ السنوات الممتدة بين (١٦٤٥ - ١٧١٥م)، كانت ذات برد قارص في أنحاء كثيرة من العالم القديم. من لندن إلىٰ غوانغدونغ، اشتكىٰ كاتبو اليوميات والمسؤولون من الجليد والثلج ومواسم الصيف الباردة.

وعمل ساكنو المدن الباردة ومزارعو الأرض الجوعىٰ معًا لجعل القرن السابع عشر كارثة للذين لا حول لهم ولا قوة، سواء كان ذلك يعني أناس الغابات أو الأراضي الرطبة أو الحياة البرية أو الشعوب المستعمرة. في بعض الأحيان شعرت الحكومات بوخز في الضمير لتقوم بتشريع من أجل حماية جميع هؤلاء الضحايا، لكنَّ المستعمرين المتدافعين علىٰ حدود المراكز نادرًا ما شعروا بأي شيء علىٰ الإطلاق. في الصين، علىٰ سبيل المثال، غزا ما يُطلق عليهم «شعوب الأكواخ» الجبال والغابات، ودمَّروا الإيكولوجيات الهشة بالبطاطا الحلوة والذرة. وقادوا السكان الأصليين مثل مياو إلىٰ حافة الجوع، ولكن عندما تمردت قبائل مياو، أرسلت الدولة الصينية الجيوش لسحقهم. كان بإمكان قبائل الآينو في

شمال اليابان والأيرلنديين في أقدم مستعمرة لإنجلترا والسكان الأصليين لأمريكا الشمالية الشرقية أن يحكوا جميعًا القصة المحزنة نفسها.

لقد جاء المستعمرون لأنَّ المراكز كانت تستنزف مواردها. وقد أكَّد مسؤول صيني علىٰ أنَّه: «سيكون هناك بعض الإيرادات الزهيدة من كل شبر من الأرض». وفي كلا طرفي أوروبا الآسيوية تعاونت الحكومات مع المتعهدين لتحويل الأراضي المشجرة والرطبة إلىٰ مراعٍ وأراضٍ زراعية. وذكر مسؤول صيني آخر السبب المنطقي لذلك في عشرينيات القرن السابع عشر:

«أوقفوا الأرباح الزهيدة لأراضي الذرة والمراعي! . . . فإنَّ بعض الكسالىٰ دون النظر إلىٰ المستقبل، يلاحقون الأرباح الصغيرة من القصب ويردون الكنز العظيم من زراعة المحاصيل. وهم لا يسعون لاستصلاح الأراضي بأنفسهم، ولكنَّهم أيضًا يكرهون الآخرين لقيامهم بذلك . . . وبالتالي تصبح السوق مهجورة بتزايد يوميًا، وتقتصر عائدات الحكومة علىٰ الحصة المعتادة. كيف يمكننا أن نسمح بهذا في ظل هذه الظروف!».

هاجم رواد الأعمال الهولنديون والإنجليز الأراضي الرطبة بالحماس نفسه. وأطلقت برامج التصريف العملاقة المدعومة من قِبل الدولة كميات ضخمة من التربة الخصبة، ولكن الناس الذين يعيشون هناك قاوموا ذلك سواء في المحاكم أو في الشوارع. وتُعدّ أغاني احتجاجاتهم (التي كتبها في الغالب مجهولون) موجعة للقلب:

«انظروا إلىٰ هذا المشروع الضخم، الذي يقوّضه المصرّفون الآن
سيجعل أجسادنا نحيلة، فريسةً للغربان والهوام
لأنَّ كل ما يهدف إليه هو تصريف المستنقعات [الأراضي الرطبة]، والتحكم بالمياه؛
يجب أن يكون كل شيء جافًا وأن نموت جميعًا، فعجول إسكس تحتاج إلىٰ المراعي
إن لدىٰ الطيور المكسوة بالريش أجنحة لتطير بها إلىٰ الدول الأخرىٰ
ولكننا لا نملك أجنحة لنطير

وعلينا أن نوفر مكانًا (يا للوضع المؤسف!) للحيوانات ذوات القرون والقطعان

لكننا نتفق جميعًا علىٰ إخراجهم من خلال القتال».

وبذلك حلَّ البشر الغزاة، الذين جلبوا نباتات وحيوانات غزوية بالمثل، محلَّ الأنواع الأصلية أو قاموا باصطيادها حتىٰ انقرضت، وقاموا بحرث الأراضي وقطع الغابات. واشتكىٰ أحد المفكرين في ستينيات القرن السابع عشر من أنَّ أربعة أخماس جبال اليابان تم قطع الغابات فيها. كما كان ١٠٪ فقط من إنجلترا وأسكتلندا ما يزال مليئًا بالأشجار في عام ١٥٥٠م تقريبًا، وبحلول خمسينيات القرن الثامن عشر اختفىٰ أكثر من نصف تلك الأشجار أيضًا. بينما في أيرلندا، علىٰ النقيض من ذلك، كان لا يزال ١٢٪ منها غابات في عام ١٦٠٠م، ولكن المستعمرين قطعوا ٥ من أصل كل ٦ أشجار بحلول عام ١٧٠٠م.

لقد شهدت أسعار الخشب ارتفاعًا حادًا حول المدن الكبرىٰ، وانصرف الناس إلىٰ البدائل. بالقرب من إيدو (Edo)، بدأ صانعو الملح والسكر وصانعو الفخار وأصحاب المنازل اليابانيون في حرق الفحم. واستبدل الأوروبيون الذين تمكَّنوا من فعل ذلك الفحم والخث بالفحم الحجري والنباتي. وعلىٰ غرار الكايفنغيين منذ خمسمائة عام قبل ذلك، تبنىٰ سكان لندن الوقود الأحفوري حيث أصبحوا غير قادرين علىٰ تحمل أسعار الخشب في السوق. وكانت معظم الأسر الإنجليزية خارج العاصمة لا يزال بإمكانها العثور علىٰ الحطب، ولكن بحلول عام ١٥٥٠م كان الفرد اللندني المتوسط يحرق بالفعل رُبع طن من الفحم سنويًا. وبحلول عام ١٦١٠م وصلت هذه الكمية إلىٰ ثلاثة أضعاف، وبحلول عام ١٦٥٠م كان أكثر من نصف وقود البريطانيين يأتي من الفحم. «كانت لندن مغلفة بسحابة من فحم البحر»، كما اشتكىٰ أحد السكان في عام ١٦٥٩م، مضيفًا أنَّه «إذا كان ثمة تشابه للجحيم علىٰ الأرض، فإنَّه كامنٌ في هذا البركان في يوم ضبابي».

ومن المحزن أنه كان مخطئًا؛ لأنَّ الأوروبيين الآسيويين الآخرين كانوا يصنعون جحيمًا أسوأ لأنفسهم. كان تغيُّر المناخ أول فرسان الهلاك المتحررين، كما أدىٰ ازدياد الضغط علىٰ الموارد إلىٰ فشل الدولة في ظلّ تمزق الأنظمة تحت

الضغوط. وعندما خفض الملوك التكاليف، قاموا باستبعاد موظفي الخدمة المدنية والجنود، وعندما اعتصروا المزيد من دافعي الضرائب، قاموا باستبعاد التجَّار والمزارعين. وأصبحت الاحتجاجات العنيفة للفقراء حقيقة حياتية منذ اختراع الدول، لكنَّها الآن أصبحت أكثر قوة عندما انضم إليها التجَّار المفلسون والجيوش التي لا تُدفع رواتبها والمسؤولون الفاشلون.

وعندما غدت الأوقات أكثر شدة، حاول الحكَّام الغربيون رفع تكاليف الثورة عن طريق الإصرار بحزم أكبر علىٰ أنَّهم يمثِّلون إرادة الله في الأرض. وقاضىٰ السلاطين العثمانيون العلماء المتدينيين بعنف متزايد وطوَّر المفكرون الأوروبيون الغربيون نظريات «الاستبدادية». وادَّعوا أنَّ سلطة الملوك أتت من عطاء الرب وحده، ولا تستطيع البرلمانات ولا القساوسة ولا إرادة الشعب تقليصها. وبحسب التعبير الفرنسي الجاري كان الأمر بمثابة «ملك واحد، ودين واحد، وقانون واحد»، وكان تحدي أي جزء من هذه الحزمة المتكاملة يعني تحدي كل شيء جيِّد ونقي.

ولكنَّ الكثير من الرعايا الساخطين كانوا علىٰ استعداد للقيام بذلك. في عام ١٦٢٢م حاول عثمان الثاني سلطان تركيا وخليفة محمد وخليفة الله في الأرض، تقليص الإنكشاريين ذوي التكلفة المرتفعة، لكنَّهم ردّوا بجره من قصره وشنقه والتمثيل بجثته المقدسة. وحاول شقيق عثمان إنقاذ الموقف بالتحالف مع رجال الدين المتشددين، لدرجة أنَّه حظر القهوة وفرض عقوبة الإعدام علىٰ التدخين لإرضائهم، ولكن في أربعينيات القرن السابع عشر سقطت شرعية السلاطين تمامًا. وفي عام ١٦٤٨م، أعدم الانكشاريون الذين أصبحوا الآن متحالفين مع رجال الدين، السلطان إبراهيم المجنون (ربما استحق لقبه عن جدارة تامة قبل ذلك)، وبدأت الحروب الأهلية التي استمرت لخمسين عامًا.

كانت أربعينيات القرن السابع عشر كابوسًا ملكيًا في كل مكان تقريبًا. لقد شلّ الثوار المعادون للاستبدادية فرنسا، وفي إنجلترا دخل البرلمان في حرب مع ملكها العدواني وقطعوا رأسه. وقد أخرج ذلك الجني من القمقم؛ فإذا كان من الممكن محاكمة الملوك الآلهة وإعدامهم، فما الذي لم يعد ممكنًا؟ وربما تكون

هذه هي المرة الأولىٰ منذ عهد أثينا القديمة التي تفجرت فيها الأفكار الديمقراطية. وأكَّد ذلك كولونيل في الجيش البرلماني قائلًا: «أصبحت حياة الفقير في إنجلترا مثل حياة الغني. لقد تحتم علىٰ كل مَن يعيش في ظل الحكومة أن يضع نفسه في ظل تلك الحكومة بموافقته أولًا».

كانت تلك مرحلة صعبة في القرن السابع عشر، لكنَّ الجماعات المنشقة من الراديكاليين الإنجليز كانوا أكثر جموحًا. رفض فصيل يسمي نفسه «المساواتيين» كل أشكال التمييز الاجتماعي. وقد أشاروا إلىٰ أنَّه «لا أحد يأتي إلىٰ العالم وهناك سرج علىٰ ظهره، ليمتطيه أحدهم بنعله». وإذا كانت التراتبيّة غير طبيعية، فمن المؤكد أنَّ الممتلكات كانت كذلك. وفي غضون سنة من إعدام الملك، انشقت جماعة تطلق علي نفسها اسم «المساواتيين الحقيقيين» وأقامت عشر كوميونات. ووسمت مجموعة أخرىٰ منشقة، تسمىٰ «المتشدقين» الرب بأنه «المساواتي العظيم» ودعوا إلىٰ ثورة دائمة «انقلاب، انقلاب، انقلاب . . . اجعلوا كل الأشياء مشتركة، وإلَّا فإنَّ وباء الرب سيتعفن ويبتلع كل ما لديكم».

كانت المساواة فكرة قد حان وقتها. ولنأخذ علىٰ سبيل المثال تقرير عام ١٦٤٤م عن المساواتيين الذين قاموا «بشحذ معازقهم لتغدوا سيوفًا، واتخذوا لأنفسهم اسم «ملوك المساواة»، معلنين أنهم يسوّون بين السادة والعبيد، ذوي الألقاب والوضيعين، الأغنياء والفقراء. وقد استولىٰ المستأجرون علىٰ أفضل ملابس أسيادهم . . . وكانوا ليأمروا السادة بالركوع وصب الخمر لهم. وكانوا يصفعونهم علىٰ الخدين ويقولون: نحن جميعًا علىٰ قدم المساواة. ما الحق الذي امتلكتموه لتنعتوننا بالخدم؟».

لكن أمراء الحرب المساواتيين هؤلاء لم يكونوا إنجليزًا، لقد كانوا في الحقيقة يتمردون حول الساحل الشرقي للصين. في الشرق والغرب علىٰ السواء، اندمجت التحديات الجذرية للتراتبيّة القائمة التي نوقشت آنفًا - مثل تحديات وانغ يانغمينغ لفكر تشو شي في تسعينيات القرن الخامس عشر، وتحديات مارتن لوثر للكاثوليكية في العقد الأول من القرن السادس عشر - مع فشل الدولة في تقديم

أفكار جديدة بشأن المساواة بين البشر. وكما سنرىٰ، فإنَّ مصائر هذه الأفكار كانت مختلفة جدًّا في القرن الثامن عشر.

في الصين، شُلّت سلالة مينغ، بسبب الإفلاس والحزبية وعندما تفشت المجاعة -الفارس الثالث للهلاك- في عام ١٦٢٨م، بدا أنَّ الأباطرة قد فقدوا تفويض السماء. وشعر الثوار علىٰ نحو متزايد أنَّه لم يعد أي فعل متطرفًا بعد الآن. ودخلت البلاد تحت سيطرة أمراء الحرب في ثلاثينيات القرن السابع عشر، وفي عام ١٦٤٤م سقطت بكين. وشنق آخر إمبراطور مينغ نفسه علىٰ شجرة وحيدة خلف القصر. وكتب علىٰ ثوبه: «إنَّني أموت وأنا أشعر بالخجل من مواجهة أجدادي، ها أنا أزيل غطاء رأسي الإمبراطوري وشعري أشعث، إنَّني أترك للمتمردين حق تمزيق جسدي. ولكن دعوهم لا يضروا شعبي!». لقد كان يلفظ كلماته الأخيرة.

لم يعد لدىٰ أمراء الحرب المال للدفع لجيوشهم المتضخمة أكثر ممَّا كان لدىٰ ملوك أوروبا وسلاطين تركيا أو الإمبراطور مينغ نفسه؛ ولذلك أطلقوا رجالهم لانتزاع المدفوعات من المدنيين. لقد نهبت الجيوش الأبرياء منذ بداية الحرب، وربما توصلوا إلىٰ جميع البدائل الممكنة للوحشية مبكرًا، ليكرروها في تعارض صارخ خلال عصور متعاقبة من الرعب. ولكن في كل أنحاء أوروبا الآسيوية، بدا أنَّ الجنود الغاضبين والجشعين يستكشفون أعماقًا جديدة للقسوة في ظل الظروف القاسية للقرن السابع عشر. لقد امتلأت مصادرنا بالتعذيب والإعدامات الجماعية، والاغتصاب الجماعي. وعندما سقطت بكين «تعرض المدنيون للضرب المبرح لانتزاع أي فضة قد تكون لديهم. وتعرض بعضهم للتعذيب بالضغط علىٰ أصابعه أو أطرافه أكثر من ثلاث أو أربع مرات. وقام البعض بتوريط الآخرين حتىٰ إن آلاف الأسر قد تضررت . . . وبدأ الناس يفقدون الاهتمام بالحياة».

وعلىٰ أية حال، فإنَّ أعمال العنف التي أطلقها فشل الدولة كانت أسوأ في الغرب. وبلغت الحروب الدينية في أوروبا ذروتها في ألمانيا بين أعوام (١٦١٨ و١٦٤٨م). ومن كل ركن من أركان العالم المسيحي جاءت الجيوش الهائلة التي

يُدفع إليها بشكل غير منتظم، إذا كان يُدفع لهم بالأساس، وقد عاشوا خارج الأرض، يغتصبون كل ما في وسعهم. وقد امتلأت المصادر الباقية بالفظائع والأعمال الوحشية. وتُعدّ بلدة «بيليتس» -التي لسوء حظها كانت في طريق الإمبراطور الروماني المقدس في عام ١٦٣٧م- أفضل (أو أسوأ) الأمثلة علىٰ ذلك. وكتب موظف جمارك أنه بعد القبض علىٰ السكان المحليين «أخذ اللصوص والقتلة قطعة خشب وغرزوها في حناجر هؤلاء الفقراء البؤساء وقاموا بتحريكها وصبوا الماء في الداخل، مضيفين الرمال أو حتىٰ البراز البشري، وعذَّبوا الناس من أجل المال علىٰ نحو مثير للشفقة، كما حدث مع مواطن يُدعىٰ ديفيد أورتيل الذي توفي بعد ذلك بقليل».

وقامت مجموعة أخرىٰ من الجنود بتعليق أحد سكان بيليتس فوق النار وقاموا بشويه حتىٰ دلّهم علىٰ مدخراته، لتقوم عصابة أخرىٰ عند سماعهم بأنَّ رفاقهم قد أخذوا نقوده بحرقه بإعادته إلىٰ النار وإبقاء وجهه فيها «لمدة طويلة جدًّا لدرجة أنه مات إثر ذلك وانفصل جلده عنه مثل أوزة مذبوحة».

افترض المؤرخون لفترة طويلة أنَّ مثل هذه القصص هي بروباجندا دينية، وأنَّها مروعة جدًّا لتكون حقيقية، ولكنَّ الأبحاث الأخيرة تشير إلىٰ خلاف ذلك. لقد مات أكثر من مليوني شخص بسبب العنف (وهي أرقام لا نظير لها حتىٰ اندلاع الحربين العالميتين في القرن العشرين)، وربما مات عشرة أضعاف ذلك إثر المجاعات والأمراض (فارس الهلاك الثالث وفارس الهلاك الرابع) في أعقاب الجيوش. لقد شهدت الصين وأوروبا الوسطىٰ انخفاض السكان بمقدار الثُلث، وكأنه موت أسود من صنع الإنسان.

لقد لعب الطاعون نفسه، بعد أن عاد بأشكال جديدة عنيفة، دوره الخاص. كتب دانيال ديفو رواية (Journal of the Plague Year) أو «يوميات عام الطاعون»، جامعًا خمسين عامًا بعد أن وصفت الحقائق بوضوح الشائعات والذعر والمعاناة التي اجتاحت لندن في عام ١٦٦٥م، إلىٰ جانب تقارير الأطباء الصينيين التي توضح المسألة بالقدرِ نفسه. في بعض الأحيان «عانىٰ الجميع من غدد منتفخة في الرقبة وأحيانًا من انتفاخ الوجه والرأس»، كما سجَّل أحدهم في دلتا اليانغتسي

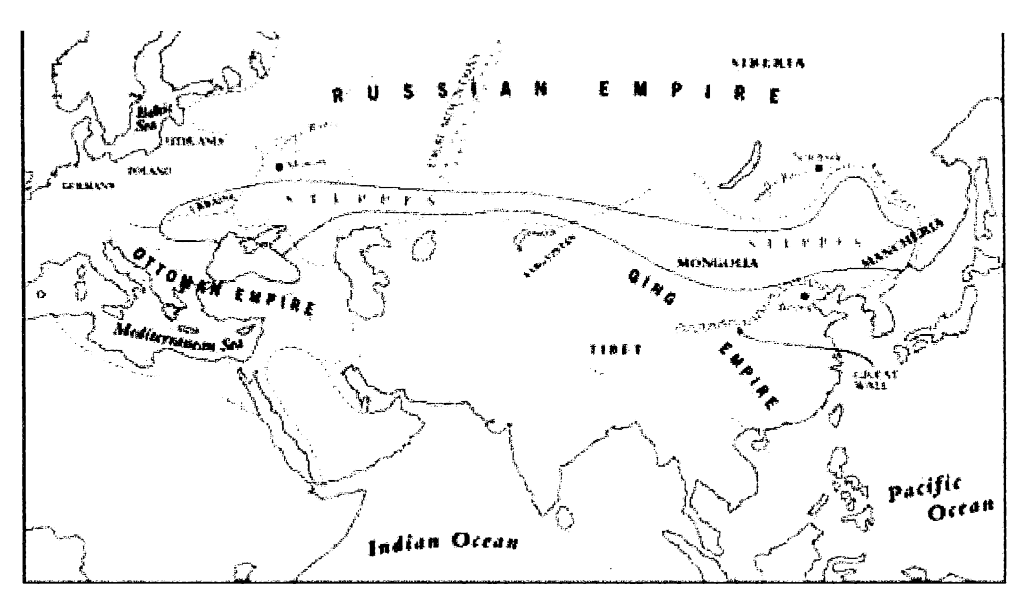
عام ١٦٤٢م، أو «عانوا من الإسهال والحمىٰ المتقطعة. أو ربما من تشنجات أو دمامل أو طفح جلدي أو قشور مثيرة للحكة أو بثور».

كان أربعة من فرسان الهلاك الخمسة يسيطرون بقوة، إلا أنَّه كما يبيِّن (الجدول ٩ - ١) لم يكن هناك انهيار في القرن السابع عشر. لقد ظلَّ التطور الاجتماعي يتحرك لأعلىٰ، متجاوزًا (٤٣ نقطة)، وهي المرحلة التي بلغ فيها كل من الرومان والسونغ الذروة، في الشرق في عام ١٧١٠م (اجمع أو اطرح ٢٥ سنة حسب دقة المؤشر)، وفي الغرب في عام ١٧٢٣م (مرة أخرىٰ، اجمع أو اطرح ٢٥ سنة حسب دقة المؤشر). وفي عام ١٨٠٠م كان كل من الشرق والغرب يقترب من الوصول إلىٰ (٥٠ نقطة). ويجب علينا أن نتساءل: لماذا تباين التطور مع الاتجاه التاريخي؟

إغلاق السهول

نركينسك، ٢٢ أغسطس ١٦٨٩م. يمكن أن يكون صيف سيبيريا القصير جميلًا علىٰ نحو غريب. في كل عام عندما تذوب الأرض، تغطي جذوع العشب التلال الناعمة باللون الأخضر، مزينة بزهور وفراشات حمراء وصفراء وزرقاء. ولكن هذا الصيف كان مختلفًا: فعلىٰ ضفاف نهر شيلكا (الشكل ٩ - ٥) ظهرت مدينة من الخيام وجلس مئات المفاوضين الصينيين، مستعينين بالمبشرين المسيحيين لعرض عباراتهم باللاتينية، مع الروس للتوصل إلىٰ حدود مشتركة.

كان الروس بعيدين عن الوطن. وفي عام ١٥٠٠م كانت موسكو إمارة واحدة فقط من بين العديد من الإمارات في الشرق البري في أوروبا، تسعىٰ جاهدة لإيجاد مساحة بين المغول الذين يُداهمون من السهول والفرسان الذين يتدافعون من ألمانيا وبولندا وليتوانيا. وقد أطلق أمراؤها الوحشيون والجهلاء علىٰ أنفسهم اسم القياصرة، في إشارة لغرور البيزنطيين وحتىٰ الرومان، ولكنَّهم بدوا في كثير من الأحيان غير متأكدين ما إذا كانوا يريدون أن يكونوا ملوكًا علىٰ الطراز الأوروبي أو خانات علىٰ الطراز المنغولي. لم تكن موسكو ذات أهمية كبيرة حتىٰ أيام إيفان الرهيب -الذي كان ساديًا حتىٰ وفقًا للمعايير المربكة للحكَّام الروس- في خمسينيات القرن السادس عشر، ولكنَّ إيفان سرعان ما عوّض الوقت الضائع. عبر المغامرون حاملو البنادق جبال الأورال، وفي عام ١٥٩٨م هزموا خان قوات المغول المحلية، الأمر الذي فتح لهم الطريق إلىٰ سيبيريا.



(الشكل ٩ – ٥). نهاية السهول: الإمبراطورية ترد الضربة. بحلول عام ١٧٥٠م أغلقت كل من روسيا والصين الطريق السريع للسهوب.

وقد ضربت سيبيريا -المعروفة الآن بموقع حكايات ألكسندر سولجنيتسين من الغولاغ- الروس من أجل الشراء. وأصابتهم حُمّىٰ الفرو: وحيث إن الأوروبيين قد اصطادوا حيوانات الدلق والسمور والفاقم إلىٰ أن انقرضت، فقد أصبح علىٰ الأوروبيين أن يدفعوا الآن من أجل معاطفهم. وفي غضون أربعين عامًا، وقف رجال الفرو الروس وهم يتسابقون عبر سهول التندرا لتغذية هذه السوق المربحة، علىٰ شواطئ المحيط الهادئ. وقد ربطوا خطًا رفيعًا من الحواجز عبر طرف غابات سيبيريا المتجمدة، ومن هناك غامروا لاصطياد حيوان المنك أو انتزاع الجلود من صيادي العصر الحجري المحليين. وعلىٰ الرغم من أنَّ هذه الأرض الخراب الفارغة كانت إمبراطورية بمعايير سليمان أو هيديوشي، فقد أنقذت الضرائب علىٰ الفرو الكثير من القياصرة من وقوع كارثة.

وسرعان ما اشتبك صائدو الحيوانات الروس مع الفرسان الصينيين علىٰ طول نهر آمور، ولكن بحلول ثمانينيات القرن السابع عشر كان كلا الطرفين علىٰ استعداد للحوار. وقد خشي كل منهم أنَّ الآخر قد يدعو المغول باعتبارهم حلفاء ومن ثمَّ يطلقون فارس الهلاك الخامس، الهجرة من السهول؛ ولذا فقد جاؤوا إلىٰ نركينسك.

وقد شكَّل اتفاقهما في هذا الصيف السيبيري أحد التحولات الكبرىٰ في تاريخ العالم. لمدة ألفي عام ظلَّت السهوب طريقًا سريعًا بين الشرق والغرب إلىٰ حد كبير خارج سيطرة الإمبراطوريات الزراعية الكبيرة. واندفع كل من المهاجرين والميكروبات والأفكار والاختراعات عبرها، ممَّا ربط بين الشرق والغرب بإيقاعات التطور والانهيار. وفي حالات نادرة، وبتكلفة كبيرة، فرض الملوك مثل داريوس ملك فارس، وإمبراطور الهان، وودي، أو إمبراطور تانغ، تايزونغ - إرادتهم علىٰ السهول، لكنَّ هذه كانت مجرد استثناءات. وكانت القاعدة هي أن الإمبراطوريات الزراعية تدفع للبدو مهما طلبوا، ثمَّ يأملون في حدوث الأفضل.

لكن المدافع غيَّرت كل ذلك. استخدم الرُحَّل الأسلحة النارية بانتظام (أقدم سلاح معروف من عام ١٢٨٨م، وُجد في بلد للرُحّل في منشوريا)، وربما كان المغول هم الذين جلبوا المدافع من الصين إلىٰ الغرب. ولكن في حين أصبحت المدافع أفضل (تطلق لمدىٰ أبعد وأسرع) والإمبراطوريات أكثر تنظيمًا، بدأ الجنرالات الذين استطاعوا تجنيد عشرات الآلاف من الجنود المشاة وتسليحهم بالبنادق والمدافع وتدريبهم لإطلاق القذائف تلو الأخرىٰ - هزيمة الفرسان الرُّحل. وفي عام ١٥٠٠م، استمر رماة الأسهم من السهول في هزيمة المشاة من الممالك الزراعية. وبحلول عام ١٦٠٠م، فعلوا ذلك أحيانًا. ولكن في عام ١٧٠٠م تلاشىٰ ذلك.

وفي النهاية، تولىٰ الروس الريادة. في خمسينيات القرن السادس عشر اكتسحت مدفعية إيفان الخانات المنغولية الضعيفة خارج حوض الفولجا، وطيلة مئات السنين التالية حاصر الروس والأتراك والقطبيون السهول الأوكرانية الجافة بالحاميات والخنادق والسياج. وقد وجّه القرويون المسلَّحون بالبنادق لأول مرة تحركات البدو، وأخيرًا قطعوها تمامًا، وفي نركينسك اتفقت كل من روسيا والصين علىٰ أنَّه لن يتحرك أحد -لاجئين وتجَّارًا وهاربين، وقبل كل شيء، البدو المهاجرين- عبر السهول من دون إذنهم. ونتيجة لذلك، أصبح الجميع الآن رعايا الإمبراطوريات الزراعية.

وتكشف صيحة الابتهاج الأخيرة لسكان آسيا الداخلية في عام ١٦٤٤م، عن كمية التغيير الكبير في تلك الفترة. لقد انهارت سلالة مينغ الصينية في هذا العام عندما استولىٰ أمير حرب علىٰ بكين، وعندما خرجت الحرب الأهلية عن السيطرة، قرَّر جنرال سابق لمينغ أنَّ دعوة المانشو -وهم أشباه بدو من منشوريا- لعبور سور الصين العظيم وإعادة النظام سيكون أقل الشرور. وكان للقادة الصينيين تقليد قديم يتضمن جلب سكان آسيا الوسطىٰ داخل الحروب الأهلية الإمبراطورية، وكان لذلك نتائج كارثية في العموم. ولكن علىٰ عكس الغزاة السابقين، لم يأتِ المانشو في شكل فرسان من البدو ولكنَّهم جاؤوا بجيش لا يمكن تمييزه عن جيش الصين، يعتمد علىٰ المشاة الذين يستعملون البنادق والمدافع التي قلَّدوها من البرتغاليين.

واستولىٰ المانشو علىٰ بكين دون مقاومة، وأعلنوا أنفسهم باعتبارهم سلالة تشين جديدة، ثمَّ أمضوا قرابة أربعين عامًا في قتال مستمر لتعزيز سلطتهم. واختلفت هذه الصراعات أيضًا عن التوابع السابقة لغزو السهول. فبدلًا من فتح الباب علىٰ مصراعيه لمجيء مزيد من البدو من البرد، شكّل الصراع الطويل جيش تشين جديدًا قادرًا علىٰ التراجع إلىٰ وسط آسيا. وفي عام ١٦٩٧م دمَّر جيش تشين قوة بدوية كبيرة في عمق منغوليا، وفي عام ١٧٢٠م قاموا بمد النفوذ الصيني للمرة الأولىٰ في المناطق الجبلية في التبت. وفي خمسينيات القرن الثامن عشر فرض تشين حلًا نهائيًا لمشكلة البدو؛ إذ تم سحب أسلحتهم وبارودهم وأطلقوا النار عليهم حتىٰ حدود قرغيزستان الحديثة، حيث حطموا هناك آخر مقاومة للبدو.

في القرنين السابع عشر والثامن عشر علىٰ وجه الخصوص، قتل رومانوف روسيا وتشين الصين أحد فرسان الهلاك. ولهذا السبب، فإنَّ ضغط التطور الاجتماعي علىٰ السقف الصلب لم يؤدِ إلىٰ حدوث موجات من الهجرة من السهول مثلما فعل في القرنين الثاني والثاني عشر؛ وبسبب ذلك فإنَّ العبء المشترك لفشل الدولة والمجاعات والمرض وتغيُّر المناخ لم يكن يكفي لانهيار

المركز. وقد أُغلق طريق السهول الرئيس، وبإغلاقه انتهىٰ فصل كامل من تاريخ العالم القديم.

بالنسبة إلىٰ البدو، كان هذا بمثابة كارثة محققة. وصار الذين نجوا من الحروب محاصرين علىٰ نحو متزايد. وأصبحت حرية الحركة، وهي أساس أسلوب حياتهم، تعتمد علىٰ نزوات الأباطرة البعيدين، وابتداءً من القرن الثامن عشر فصاعدًا تم اختزال المقاتلين المتفاخرين علىٰ نحو متزايد إلىٰ أياد مأجورة، وسفاحين مثل «القوزاق» الذين ينتشرون لإبقاء الفلاحين المتمردين تحت السيطرة.

ولكن بالنسبة إلىٰ الإمبراطوريات، كان إغلاق طريق السهول نصرًا كبيرًا. فآسيا الداخلية التي طالما ظلَّت مصدر خطر، أصبحت جبهة جديدة. وفي حين انخفضت غارات البدو، نزح مليون أو مليونان من الروس وخمسة أو عشرة ملايين صيني من المراكز المزدحمة للأراضي الجديدة علىٰ طول حواف حدود السهول. وفور وصولهم إلىٰ هناك، هيؤوا الطبيعة للزراعة والتعدين وقطع ونقل الأخشاب والمواد الخام والضرائب إلىٰ أراضي إمبراطورياتهم الرئيسة. لم يؤدِ إغلاق طريق السهول إلىٰ تجنب الانهيار فحسب، لكنَّه أدىٰ إلىٰ ثراء واسع في السهول، مما أدىٰ إلىٰ تصدع السقف الصلب الذي أبقىٰ لآلاف السنين التطور الاجتماعي في بداية درجات الأربعينيات علىٰ المؤشر.

فتح المُحيطات

بينما كان الروس والصينيون يغلقون طريق السهول القديم، كان الأوروبيون الغربيون يفتحون طريقًا مُحيطيًا جديدًا سيغيِّر التاريخ بشكل جذري.

ولمدة قرن بعدما عبر الأوروبيون الغربيون المحيط الأطلسي لأول مرة ودخلوا المحيط الهندي، لم تبدُ إمبراطورياتهم البحرية غير اعتيادية. فقد أضحىٰ الفينيسيون يثرون أنفسهم باستغلال المحيط الهندي منذ القرن الثالث عشر من خلال الإبحار حول طرف أفريقيا الجنوبي بدلًا من المساومة في طريقهم عبر الإمبراطورية التركية، وقد فعل البحَّارة البرتغاليون ببساطة الشيء نفسه بشكل أسرع وأرخص. وفي الأمريكتين دخل الأسبان عالمًا جديدًا تمامًا، ولكن ما فعلوه هناك كان مثل الذي فعله الروس في وقت لاحق في سيبيريا.

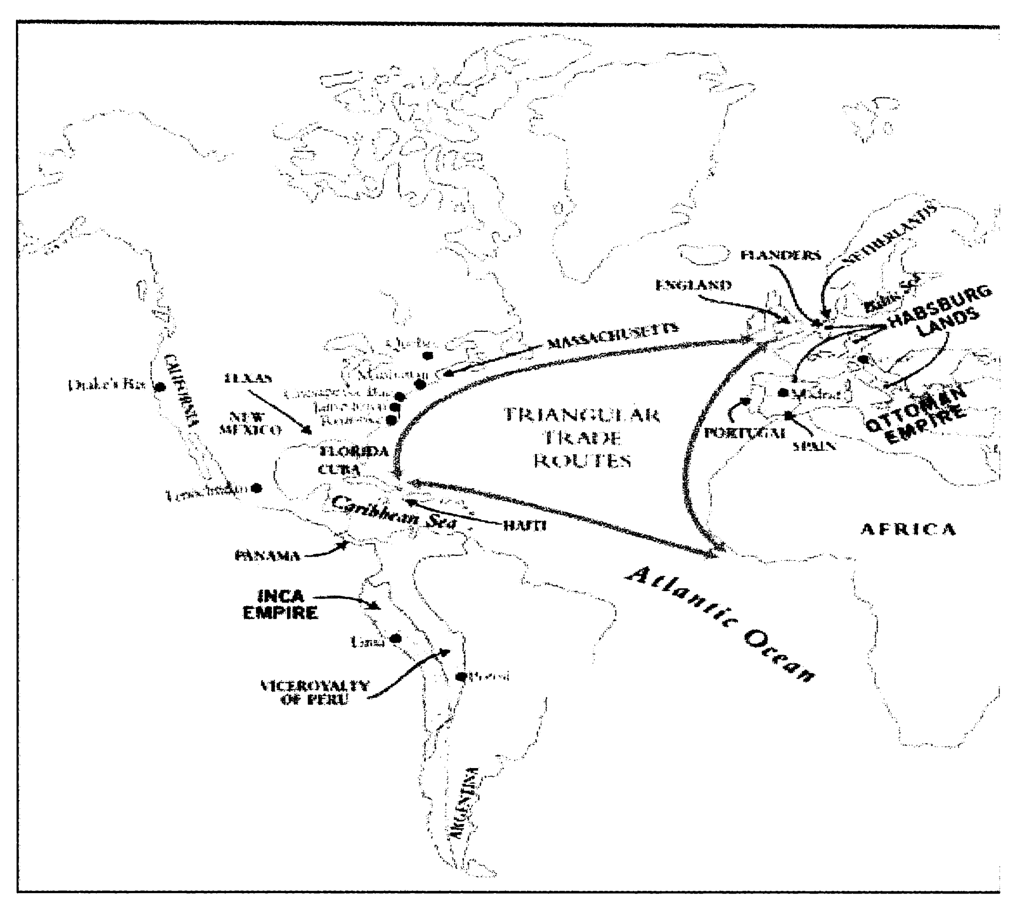
لقد استعان الأسبان والروس بكل المصادر الخارجية الممكنة. ومنح إيفان الرهيب عائلة استروجانوف احتكارًا لكل ما يوجد في شرق الأورال مقابل نصيب من الغنائم، وأعطىٰ ملوك أسبانيا الحق في الاحتفاظ بكل ما يجدونه في الأمريكتين طالما أنَّ آل هابسبورغ يحصلون علىٰ ٢٠٪. وفي سيبيريا وأمريكا، انتشرت عصابات صغيرة من الخارجين علىٰ القانون، يبنون الحواجز علىٰ نفقتهم الخاصة عبر مساحات شاسعة ومذهلة من الأراضي غير المخططة، ويرسلون للوطن باستمرار لطلب المزيد من الأموال والنساء الأوروبيات.

وقد قادت حُمّىٰ السبائك الذهبية الأسبان إلىٰ المكان نفسه الذي قادت فيه حُمّىٰ الفرو الروس. وضع كورتيه أسبانيا علىٰ هذا الدرب بنهب تينو تشتيتلان في عام ١٥٢١م، وزاد فرانسيسكو بيزارو من سرعة سيرهم فيه. وفي عام ١٥٣٣م،

اختطف بيزارو ملك الإنكا، أتاوالبا، وطلب كفدية من رعاياه ملء غرفة بطول ٢٢ قدمًا، وعرض ١٧ قدمًا، وارتفاع ٩ أقدام بالكنوز. وأذاب بيزارو الانتصارات الفنية المكوّمة للحضارة الإندية إلىٰ سبائك -١٣,٤٢٠ رطلًا من الذهب، و٢٦ ألف رطل من الفضة- ثمَّ شنق أتاوالبا.

ونفدت نسبيًا الخيارات السهلة بحلول عام ١٥٣٥م، لكن أحلام إل دورادو -الملك الذهبي لمملكة تمتلئ بالكنوز- أبقت علىٰ مجيء السفاحين. وتحسَّر أحد المؤرخين قائلًا: «لم يفعلوا شيئًا كل يوم سوىٰ التفكير في الذهب والفضة وثروات الإنديز في بيرو، لقد كانوا مثل رجل يائس، مجانين وحمقىٰ غشيهم الطمع في الذهب والفضة».

وقد وجد الجنون منفذًا جديدًا في عام ١٥٥٥م عندما جعلت التقنيات المُحسَّنة لاستخراج الفضة من التعدين في العالم الجديد تجارة مربحة فجأة. كان الناتج ضخمًا للغاية: وصل ما يقرب من خمسين ألف طن من الفضة الأمريكية إلىٰ أوروبا بين أعوام (١٥٤٠ و١٧٠٠م)، ثُلثها من بوتوسي، وهو جبل يقع فيما يُعرف الآن بدولة بوليفيا، تبيَّن أنه كتلة من المعدن الخام. وبحلول ثمانينيات القرن السادس عشر، تضاعف مخزون أوروبا من الفضة وازداد نصيب آل هابسبورغ بمقدار عشرة أضعاف رغم ذلك. وادَّعىٰ زائر أسباني لمدينة بوتوسي في عام ١٦٣٨م، أنَّ «كل عملة بيسو تمَّ سكها في بوتوسي كان ثمنها حياة عشرة هنود». وبشكل موازٍ مع روسيا، رأىٰ آل هابسبورغ أنَّ غزواتهم للأطراف البريّة وسيلة مناسبة لتمويل الحروب لبناء إمبراطورية في أوروبا. وكتب أحد الزوَّار: «تعيش بوتوسي لتخدم تطلعات أسبانيا الكبيرة. إنَّها تعمل علىٰ معاقبة الأتراك وإهانة المسلمين المورسكيين، وإرهاب الفلاندر، وترهيب إنجلترا».



(موضع الشكل ٩ - ٦). الإمبراطوريات المحيطيّة (١٥٠٠ - ١٧٥٠م): تظهر الأسهم «مثلث التبادل التجاري» للعبيد والسكّر والخمر والغذاء والسلع المصنَّعة في المحيط الأطلسي.

استخدم آل هابسبورغ معظم الفضة التي يمتلكونها لتسديد ديونهم للمموّلين الإيطاليين، الذين عن طريقهم وصلت الكثير من السبائك إلىٰ الصين، حيث احتاج الاقتصاد المزدهر إلىٰ كل عملات الفضة التي يمكن الحصول عليها. واعتقد أحد التجَّار أنَّه «بإمكان ملك الصين أن يبني قصرًا بسبائك الفضة التي حُملت إلىٰ بلاده من بيرو». وبالرغم من أنَّ إمبراطورية آل هابسبورغ صدَّرت الفضة بينما استوردتها إمبراطورية مينغ، فإنَّه ما عدا ذلك كانت بينهما الكثير من الأمور المشتركة، مثل القلق بشكل أكبر من زيادة شريحتهم الخاصة من الكعكة الاقتصادية أكثر من زيادة الكعكة نفسها. وقد حصرت الإمبراطوريتان التجارة

الخارجية علىٰ نخبة قليلة من الذين امتلكوا احتكارات ذات ضرائب بسيطة ومدعومة من قِبَل الدولة.

من الناحية النظرية، سمحت أسبانيا لسفينة شراعية كبيرة مليئة بالفضة بعبور المحيط الأطلسي كل عام، ونظّمت (نظريًا، مرة أخرىٰ) التجارة في السلع الأخرىٰ بالصرامة نفسها. أما في الواقع، فقد كانت النتيجة مثل تلك التي كانت في سواحل الصين المضطربة: فهؤلاء المستبعدون من صفقات المقربين أنشؤوا سوقًا سوداء ضخمة. وباع هؤلاء «المتطفلون» السلع، مثل قراصنة التهريب في الصين، بأسعار أقل من الأسعار الرسمية للتجَّار، بتجاهل الضرائب وإطلاق النار علىٰ كل من يعترض.

وكان الفرنسيون الذين تحملوا وطأة حروب آل هابسبورغ الأوروبية في عشرينيات القرن السادس عشر وثلاثينياته، هم أول مَن دخل في القتال. وكان أقدم هجوم موثَّق للقراصنة في عام ١٥٣٦م، وبحلول خمسينيات القرن السادس عشر أصبحت مثل هذه الهجمات مألوفة. واشتكىٰ أحد المسؤولين في عام ١٥٥٥م قائلًا: «علىٰ طول ساحل [هايتي] لا توجد قرية واحدة لم ينهبها الفرنسيون». وفي ستينيات القرن السادس عشر، بدأ المهربون الإنجليز في بيع العبيد المعفيين من رسوم الجمارك أو تفريغ القطارات الناقلة للفضة وسرقتها، كلما سنحت الفرصة. كان الحصاد جيدًا، وفي غضون عشرين عامًا كان أكثر رجال أوروبا يأسًا وجموحًا (والقليل من النساء) يتدفقون للانضمام إليهم.

وقد استجابت أسبانيا، مثل الصين، ببطء وتراخٍ. لقد وجدت كلتا الإمبراطوريتان أنَّ تجاهل القراصنة كان أقل تكلفة من قتالهم، وفي ستينيات القرن السادس عشر تصدَّت أسبانيا لهم، مثلما فعلت الصين. واندلعت حرب عالمية لعقود علىٰ القراصنة، بالسيوف والمدافع من الصين إلىٰ كوبا (والعثمانيين في البحر الأبيض المتوسط أيضًا)، وفي عام ١٥٧٥م تعاونت السفن الأسبانية والصينية ضد القراصنة قبالة الفلبين.

وحينئذٍ انتصر المينغ والعثمانيون في حروبهم ضد القراصنة، لكن أسبانيا كانت تعاني من التهديد الأكثر خطورة إجمالًا للقرصنة - القرصنة المدعومة من

الدولة. وكان القراصنة قباطنة منحهم حكَّامهم التراخيص وأحيانًا السفن لنهب الأسبان، ولم تكن لجرأتهم أي حدود. وفي خمسينيات القرن السادس عشر، نهب القرصان الفرنسي لو كليرك ذو الرجل الخشبية مدن كوبا الرئيسة، وفي عام ١٥٧٥م أبحر چون أوكسينهام الإنجليزي إلىٰ البحر الكاريبي، ورسا بسفينته قرب بنما، وسحب اثنين من مدافعها عبر البرزخ. وعندما وصل إلىٰ جهة المحيط الهادئ قطع الأشجار وبنىٰ سفينة جديدة وحمل علىٰ متنها طاقمًا من العبيد الهاربين، ولمدة أسبوعين، أرهب ساحل بيرو الأعزل.

وكانت نهاية أوكسنهام التدلي من حبل في ليما، ولكن بعد أربع سنوات لاحقة عاد زميله الملاح فرانسيس دريك -الكاذب واللص والدجال بالقدر نفسه، وباختصار، القرصان المتكامل- بخطة أكثر جموحًا للإبحار حول الجزء السفلي من أمريكا الجنوبية ونهب بيرو بشكل صحيح. ووصلت واحدة من سفنه الست حول كيب هورن، ولكنَّها كانت مدججة بالسلاح لدرجة أنها رسَّخت سيطرة البحرية الإنجليزية في المحيط الهادئ. وشرع دريك في الاستيلاء علىٰ أكبر كمية من الفضة والذهب (أكثر من ٢٥ طنًا) تم نهبها علىٰ الإطلاق من سفينة أسبانية، ثمَّ أدرك أنَّه لا يستطيع العودة من الطريق الذي أتىٰ منه، ومن ثمَّ أبحر حول العالم بغنائمه. وعلىٰ حساب القراصنة: حقق داعمو دريك عائدات بنسبة (٤٧٠٠٪) علىٰ استثماراتهم، وباستخدام ثلاثة أرباع حصتها سدَّدت الملكة إليزابيث إجمالي الدين الخارجي لإنجلترا.

وبتشجيع هذا النجاح لهم، أرسل منافسو أسبانيا غُزاتهم إلىٰ العالم الجديد. وجرىٰ ذلك علىٰ نحو أسوأ. وفي انتصار استثنائي للأمل علىٰ الخبرة، زرعت فرنسا مستعمرة في كيبيك في عام ١٥٤١م علىٰ أمل العثور علىٰ الذهب والتوابل. وبكون كيبيك تفتقر إلىٰ الذهب والتوابل، فشلت المستعمرة. ولم يزدهر كذلك جهد فرنسا التالي: من خلال تقليد الأسبان بشكل وثيق، استقر المستعمرون تقريبًا بجوار حصن أسباني في فلوريدا وذُبحوا علىٰ الفور.

وقد كانت أول المغامرات الإنجليزية لاواقعية بالقدر نفسه. بعد إرهاب بيرو في عام ١٥٧٩م، أبحر فرانسيس دريك علىٰ ساحل أمريكا الغربي ورسا في

كاليفورنيا (وربما رسا في ذلك المدخل ذي المنظر الجميل بالقرب من سان فرانسيسكو المعروف الآن باسم خليج دريك). وهناك أبلغ الأهالي الذين قابلوه علىٰ الشاطئ أنَّ وطنهم الآن أصبح يسمىٰ نوڤا ألبيون -نيو إنجلاند- وأنهم ينتمون إلىٰ الملكة إليزابيث، وعندئذ أبحر مرة أخرىٰ إلىٰ غير رجعة.

وفي عام ١٥٨٥م، أنشأ أكبر منافسي دريك، والتر رالي (أو والتر راو لاي، كما اعتاد منافسوه تسميته)، مستعمرته الخاصة، رونوك، فيما يُعرف الآن بولاية نورث كارولينا. وكان رالي أكثر واقعية من دريك، وقام بتوطين المستوطنين الأصليين علىٰ الأقل، ولكن خطته الفعلية لاستخدام رونوك باعتبارها ملجئًا للقراصنة للإغارة علىٰ النقل البحري الأسباني كانت كارثية. فقد كان موقع رونوك سيئًا، وعندما أبحر دريك طيلة العام التالي، ركب معه مستعمروه الذين كادوا يموتون جوعًا عائدين إلىٰ الوطن. أنزل أحد ضباط رالي مجموعة ثانية في رونوك (كان من المفترض أن يأخذهم إلىٰ موقع أفضل في خليج تشيسابيك، لكنَّهم ضلوا طريقهم). ولا أحد يعرف ماذا حدث لهم، وعندما عاد حاكمهم عام ١٥٩٠م وجد الجميع قد اختفىٰ، ووجد كلمة واحدة فقط -كروتون، وهو الاسم الذي أطلقوه علىٰ رونوك- منحوتة علىٰ شجرة.

كانت الحياة رخيصة علىٰ هذه الجبهة الجديدة، وكذلك كانت حياة الهنود علىٰ وجه الخصوص. أحب الأسبان أن يتندّروا بأنَّ حكامهم الإمبراطوريين في مدريد كانوا غير أكفاء تمامًا لدرجة أنه «لو جاء الموت من أسبانيا، فإننا سوف نعيش إلىٰ الأبد»، لكن الهنود علىٰ الأرجح لم يعتبروا ذلك مُضحكًا. فهم يرون أنَّ الموت جاء من أسبانيا. وفي ظل شعورهم بالحماية بواسطة المحيطين الأطلسي والهادئ، لم يُطوّروا أية دفاعات ضد جراثيم العالم القديم، وفي غضون بضعة أجيال من رسو كولومبوس قلّت أعدادهم بمقدار ما لا يقل عن الثلاثة أرباع. وكان ذلك هو «التبادل الكولومبي» المذكور في الفصل السادس: حصل الأوروبيون علىٰ قارة جديدة، وحصل الهنود الحُمر علىٰ الجدري. وبالرغم من أنَّ المستعمرين الأوروبيين قد فرضوا قسوة رهيبة علىٰ الناس الذين لاقوهم، فقد أتىٰ الموت للهنود الحُمر في شكل غير مرئي، علىٰ هيأة ميكروبات في

الأنفاس أو في سوائل الجسم. وقد سبق المرض الأوروبيين أنفسهم، فانتقل من المستعمرين إلىٰ السكان الأصليين، ثمَّ امتد إلىٰ الداخل في كل مرة تقابل فيها مُصاب بأحد الأصحاء. وبالتالي عندما أظهر البيض وجوههم الحقيقية، نادرًا ما واجهوا كثيرًا من المصاعب في تشريد الشعوب الأصلية المتقلصة.

كلما كانت الأرض جيدة، أنشأ المستعمرون ما يسمّيه المؤرخ والجغرافي آل كروسبي المستعمرات «النيو أوروبية» -وهي نسخ مزروعة (transplanted) من بلدانهم الأصلية، مكتملة بالمحاصيل المألوفة والأعشاب والحيوانات. وعندما لم يرغب المستعمرون في الأرض- مثلما حدث في نيوميكسيكو، تلك الأرض التي لم تشتمل علىٰ شيء سوىٰ «أناس عُراة» حسب ادَّعاء حاكم أسباني، وقطع زائفة من المرجان وأربع حصوات - كانت إمبرياليتهم الإيكولوجية (عبارة أخرىٰ من عبارات كروسبي الدقيقة) تقوم بتحويل الأرض علىٰ أية حال. ومن الأرجنتين إلىٰ تكساس، هربت المواشي والخنازير والأغنام وأصبحت جامحة وتكاثرت إلىٰ قطعان قوامها ملايين، ثمَّ سيطرت علىٰ السهول.

والأفضل من ذلك أنَّ المستعمرين أنشؤوا أماكن علىٰ غرار أوروبا لكنَّها أكثر تطورًا، فبدلًا من اعتصار الإيجارات من الفلاحين الكالحين استطاعوا اختزال السكان الأصليين الناجين إلىٰ العبودية أو -في حالة عدم توفر السكان الأصليين- إلىٰ شحن العبيد الأفارقة إلىٰ هناك (وُثّقت الحالة الأولىٰ في عام ١٥١٠م، وبحلول عام ١٦٥٠م تجاوز عددهم عدد الأوروبيين في أمريكا الأسبانية). وكتب أحد المستوطنين من المكسيك إلىٰ أبناء وطنه: «حتىٰ إذا كنت فقيرًا فأنت أفضل حالًا هنا من أن تكون في أسبانيا؛ لأنك هنا أنت مسؤول علىٰ الدوام وليس عليك العمل من أجلك، فأنت دائمًا علىٰ ظهر حصان».

ومن خلال بناء تلك المستعمرات التي تشبه الطراز الأوروبي، بدأ المستعمرون ثورة أخرىٰ في معنىٰ الجغرافيا. وفي القرن السادس عشر، عندما عامل المستعمرون الأوروبيون العالم الجديد في المقام الأول باعتباره مصدرًا لتمويل النضال من أجل إمبراطورية بريّة في أوروبا، لم تكن المحيطات التي تفصل أمريكا عن العالم القديم سوىٰ مصدر إزعاج لهم. وفي القرن السابع عشر

-رغم ذلك- بدا الفصل الجغرافي أمرًا إيجابيًا. فالمستعمرون بوسعهم استغلال الاختلافات الإيكولوجية بين العالم الجديد والقديم لإنتاج السلع التي إما لا توجد في أوروبا وإما كان أداؤها أفضل في الأمريكتين من الوطن، ثمَّ بيعها إلىٰ الأسواق الأوروبية. لقد بدأ المحيط الأطلسي يبدو مثل طريق رئيس يسمح للتجَّار بدمج عالمين مختلفين، بدلًا من كونه حاجزًا.

في عام ١٦٠٨م، عاد المستوطنون إلىٰ كيبيك، هذه المرة باعتبارهم تجَّار فرو، وليسوا باحثين عن الكنز. وقد ازدهروا في ذلك. وكاد المستوطنون الإنجليز في جيمس تاون يموتون جوعًا إلىٰ أن اكتشفوا في عام ١٦١٢م أن التبغ كان مزدهرًا في فيرجينيا. ولم تكن ورقة النبات جيدة مثل تلك التي زرعها الأسبان في الكاريبي، ولكنَّها كانت رخيصة. وفي عام ١٦١٣م، استقر تجَّار الفرو الهولنديون في مانهاتن، ثمَّ اشتروا الجزيرة كلها. وفي عشرينيات القرن السابع عشر شارك اللاجئون الدينيون الذين فروا من إنجلترا إلىٰ ماساتشوسيتس في المشهد أيضًا، فكانوا يرسلون الخشب من أجل صناعة سواري السفن إلىٰ الوطن. وبحلول خمسينيات القرن السابع عشر كانوا يرسلون الماشية والسمك المجفف إلىٰ منطقة البحر الكاريبي حين أطلق السكر -الذهب الأبيض- جنونًا جديدًا. وجاء المستوطنون والعبيد بمقدار ضئيل ثمَّ فاضوا غربًا عبر المحيط الأطلسي وعادت السلع الغريبة والضرائب شرقًا.

وحتىٰ مرحلة معينة، فعل المستوطنون علىٰ الجبهات الجديدة دائمًا شيئًا من هذا القبيل. أرسل الإغريق القمح إلىٰ الوطن من غرب البحر الأبيض المتوسط، وشحن المستوطنون الصينيون في وادي اليانغتسي الأرز عبر القنال الكبير، وكان المستعمرون علىٰ طول حافة السهول يرسلون الأخشاب والفراء والمعادن إلىٰ موسكو وبكين. ولكن التنوع الكبير للبيئات الإيكولوجية حول المحيط الأطلسي بالإضافة إلىٰ حجم المحيط -الكبير ولكن الذي لا يزال تحت السيطرة، نظرًا لتطور الصناعة الحديثة للسفن- أتاح للأوروبيين الغربيين إنشاء شيء جديد، وهو: اقتصاد متضامن متداخل بين القارات، مرتبط عبر الشبكات المثلثية المتداخلة للتجارة (الشكل ٩ - ٦).

وبدلًا من مجرد نقل السلع من النقطة (أ) إلىٰ النقطة (ب)، كان بإمكان التجَّار أخذ السلع المصنعة في أوروبا الغربية (النسيج، والبنادق، وما إلىٰ ذلك) إلىٰ غرب أفريقيا ومقايضتها بالأرباح، أو بالعبيد. ثمَّ يمكنهم شحن العبيد إلىٰ الكاريبي واستبدالهم (بالأرباح مرة أخرىٰ) بالسكر. وأخيرًا يمكنهم جلب السكر إلىٰ أوروبا، وبيعه هناك بمزيد من الأرباح، قبل شراء شحنة جديدة من السلع المصنَّعة والانطلاق إلىٰ أفريقيا مرة أخرىٰ. وبدلًا من ذلك، استطاع الأوروبيون الذين استقروا في أمريكا الشمالية أخذ الخمور إلىٰ أفريقيا ومبادلتها بالعبيد، ثمَّ نقل العبيد إلىٰ الكاريبي ومبادلة العسل الأسود بهم، ثمَّ جلب العسل إلىٰ أمريكا الشمالية لصناعة المزيد من الخمور. وحمل آخرون الطعام من أمريكا الشمالية إلىٰ البحر الكاريبي (حيث كانت الأرض المنتجة للسكر قيّمة جدًّا كي يتم إهدارها علىٰ زراعة المواد الغذائية للعبيد)، واشتروا السكر هناك ونقلوه إلىٰ أوروبا الغربية، وكانوا يعودون في النهاية بالسلع المصنَّعة لأمريكا الشمالية.

لقد ساهمت مزايا التخلف في الأمر أيضًا. كان لدىٰ أسبانيا -وهي أعظم قوة إمبرالية في القرن السادس عشر في أوروبا- النظام الملكي الاستبدادي الأكثر تطورًا، الذي عامل تجاره مثل آلات صرف النقود التي تدفع عند الطلب عندما يتم تهديدها، وعامل مستعمراته باعتبارها مصدرًا للنهب. لو نجح آل هابسبورغ في الدفع بمنافسيهم الأوروبيين إلىٰ إمبراطورية بريّة، لاستمر الاقتصاد الأطلسي بالتأكيد في هذا الأسلوب في القرن السابع عشر. ولكن بدلًا من ذلك، أخذ التجَّار من طرف أوروبا الشمالي الغربي المتخلف نسبيًا الأمور في اتجاه جديد.

وكان الهولنديون هم الأكثر تقدمًا بينهم. وفي القرن الرابع عشر كانت هولندا طرفًا مشبعًا بالرطوبة مقسَّمةً بين المدن التي تأخذ شكل الدول. من الناحية النظرية، دان الهولنديون بالولاء إلىٰ آل هابسبورغ، ولكن في الواقع وجد هؤلاء الحكَّام المشغولون البعيدون أنَّ فرض إرادتهم علىٰ الشمال الغربي البعيد سيمثّل مشكلة بسيطة، وتركوا الحكومة للأثرياء المدنيين المحليين. ومن أجل البقاء، كان علىٰ المدن الهولندية أن تبتكر. وبافتقارها إلىٰ الخشب طوّروا الجفت باعتباره مصدرًا للطاقة، وبافتقارهم إلىٰ المواد الغذائية قاموا بالصيد في بحر

الشمال وتاجروا بصيدهم مقابل الحبوب حول بحر البلطيق، وبافتقارهم إلىٰ الملوك والنبلاء المتدخلين أبقىٰ السكان علىٰ مدنهم صديقة للأعمال التجارية. وجذبت العملة القوية والسياسة المعتدلة المزيد من الأموال، إلىٰ أن أصبحت هولندا المتخلفة في السابق هي مركز أوروبا المصرفي. وبقدرتهم علىٰ الاقتراض بمعدلات منخفضة، استطاع الهولنديون تمويل حرب استنزاف طاحنة لانهائية حطَّمت ببطء قوة الأسبان.

وتحركت إنجلترا باطراد في اتجاه الهولنديين. وقبل الموت الأسود، كانت إنجلترا بالفعل مملكة حقيقية، لكن تجارة الصوف المزدهرة فيها جعلت تجَّارها أكثر تأثيرًا من أولئك الموجودين في أي مكان خارج هولندا. وتولىٰ التجَّار الريادة في القرن السابع عشر في معارضة ومحاربة وأخيرًا قطع رأس حاكمهم الضعيف نسبيًا، ثمَّ الدفع بالحكومة نحو بناء أساطيل كبيرة علىٰ أحدث طراز. وعندما وضع انقلاب سلمي أميرًا هولنديًا علىٰ العرش في عام ١٦٨٨م، كان التجار ضمن المستفيدين الرئيسين.

ضعفت قبضة أسبانيا بعد عام ١٦٠٠م، ودفع التجَّار الهولنديون والإنجليز بعنف إلىٰ المحيط الأطلنطي. وكما يُظهر (الشكل ٩ - ٣)، في عام ١٣٥٠م كانت أجور الناس العاديين أعلىٰ قليلًا في طرف أوروبا الشمالي الغربي الإنجليزي الهولندي من مدن إيطاليا الغنية ولكن الأكثر ازدحامًا. وبعد عام ١٦٠٠م، ازدادت الفجوة اتساعًا. وفي الأماكن الأخرىٰ دفع ضغط الأفواه الجائعة بالأجور إلىٰ مستويات ما قبل الموت الأسود، ولكن في الشمال الغربي كانت الأجور علىٰ وشك العودة إلىٰ حيث كانت في العصر الذهبي للقرن الخامس عشر.

ولم يكن ذلك نتيجة استخراج الثروة من الأمريكتين ببساطة، كما فعلت أسبانيا، وشحنها إلىٰ أوروبا. في حين يجادل الخبراء في مقدار الثروة الجديدة للشمال الغربي التي جاءت مباشرة من الاستعمار والتجارة، فإنَّ أعلىٰ التقديرات تضعه في أقل من ١٥٪، (وتضعه أقل التقديرات عند معدل ٥%). لقد كانت السِمة الثورية في الاقتصاد الأطلسي هي أنَّه غيَّر الطريقة التي يعمل بها الأشخاص.

وقد أشرت عدة مرات في هذا الكتاب إلىٰ أنَّ محركات التاريخ هي الخوف والكسل والجشع. ويميل الخوف إلىٰ التفوق علىٰ الكسل؛ ولذلك فعندما زاد عدد السكان بعد عام ١٤٥٠م، قفز الناس للعمل في جميع أنحاء أوروبا الآسيوية إثر القلق من فقدان المركز أو الجوع أو حتىٰ الموت جوعًا. ولكن بعد عام ١٦٠٠م، بدأ الجشع يتفوق علىٰ الكسل عندما أحضر كل من التنوع الإيكولوجي لاقتصاد الأطلسي والنقل الرخيص والأسواق المفتوحة عالمًا من الرفاهيات الصغيرة في متناول الشخص العادي في شمال غرب أوروبا. وبحلول القرن الثامن عشر، كان بمقدور رجل يمتلك القليل من الأموال الإضافية في جيبه أن يقوم بأكثر من مجرد شراء رغيف خبز آخر؛ فكان يستطيع الحصول علىٰ بعض الواردات مثل الشاي والقهوة والتبغ والسكر أو الروائع محلية الصنع مثل البايب المصنوعة من الطمي والمظلات والصحف. وقد أنتج المحيط الأطلسي نفسه الذي أنتج هذا السخاء أيضًا أشخاصًا مستعدين لإعطاء مثل هذا الرجل النقدية التي يحتاجها؛ لأنَّ التجَّار كانوا يشترون كل قبعة أو سلاح أو بطانية يمكنهم الحصول عليها لشحنها إلىٰ أفريقيا أو أمريكا؛ ولذلك سيدفع المصنّعون للناس كي يصنعوا هذه الأشياء. وقد جعل بعض المزارعين أسرهم يعملون في صناعة الغزل والنسيج، وانضم آخرون إلىٰ ورش العمل الصناعية. وبعضهم تخلىٰ عن الزراعة بالكلية، ووفر آخرون أسواقًا ثابتة بما يكفي لتسويغ تطويق الأراضي واستنزافها وتسميدها بكثافة أكبر وشراء المزيد من المواشي.

لقد تنوعت التفاصيل، لكن أوروبيي الشمال الغربي باعوا عمالتهم بتزايد وعملوا لساعات أطول. وكلما فعلوا ذلك، استطاعوا شراء المزيد من السكر والشاي والجرائد، الأمر الذي عنىٰ مزيدًا من العبيد يُسحبون عبر المحيط الأطلسي، ومزيدًا من الأفدنة التي أُخليت من أجل المزارع، ومزيدًا من المصانع والمحلات. ونتيجة لذلك، ارتفعت المبيعات، وتحققت وفورات الحجم، وانخفضت الأسعار ممَّا فتح عالمًا من السلع أمام المزيد من الأوروبيين.

وسواء كان ذلك جيدًا أو سيئًا، فبحلول عام ١٧٥٠م تبلورت أول ثقافة استهلاكية حول شواطئ شمال المحيط الأطلسي وغيّرت حيوات الملايين.

وأصبح الرجال الذين لم يجرؤوا علىٰ إظهار وجوههم في مقهىٰ إلَّا إذا انتعلوا أحذية جلدية وساعة جيب فضلًا عن إخبار زوجاتهم أنَّهم لا يمكنهم وضع السكر في الشاي عندما يطلب الزائرون ذلك، أصبحوا أقل نزوعًا لأخذ عشرات الأيام المقدسة باعتبارها إجازات أو احترام التقليد القديم لـ «قداس يوم الاثنين» باستخدام ذلك اليوم للنقاهة من أثر الخمور التي تناولوها يوم الأحد. لقد كان الوقت كالمال عندما كان هناك الكثير لشرائه، ولم يعد الأمر كما قال الروائي توماس هاردي آسفًا: «لقد قسَّمت الساعات ذات العقرب الواحد اليومَ بكفاءة».

كآلية الساعة

في الواقع، كانت الساعات ذات العقربين أقل متطلبات هذا العصر الجديد. لقد أراد الغربيون المعرفة عن مخططات البذور والمحاريث المثلّثية والمكانس والمراجل والساعات التي لم يكن لها عقربان فحسب وإنما كانت تحافظ علىٰ ضبط الوقت عندما تُحمل إلىٰ الجانب الآخر من العالم، ممَّا أتاح لقباطنة البحر حساب خط الطول. وطيلة ألفي عام -منذ آخر مرة ضغط فيها التطور الاجتماعي علىٰ السقف الصلب في درجات بداية الأربعينيات علىٰ المؤشر- منحت الأصوات الحكيمة للقدماء الإرشاد والتوجيه لمعظم أسئلة الحياة المُلحّة. ولكن الآن أصبح واضحًا أنَّ الكلاسيكيات لا يمكن أن تخبر الناس عن الأشياء التي احتاجوا إلىٰ معرفتها.

ويُلخّص عنوان كتاب فرانسيس بيكون عام ١٦٢٠م، (Novum Organum)، أو «الأسلوب الجديد» - الأمر كله. كانت كلمة "rganum" هي التسمية التي استخدمها الفلاسفة لكتب أرسطو الستة عن المنطق، وقد عزم بيكون علىٰ استبدالها. وأصرَّ قائلًا: «إنَّ التكريم والتبجيل الذي يستحقه القدماء يظل نقيًا ولا يمكن انتقاصه»، لكنَّ هدفه كما قال كان: «الظهور فقط باعتباره مرشدًا ليدلنا علىٰ الطريق». ولكن ما إن نبدأ في هذا الطريق، كما أشار بيكون، سنجد أنَّ ثمة اتجاهًا واحدًا باقيًا . . . لبدء إعادة البناء الكلي للعلوم والفنون وجميع المعارف البشرية، ورفعها علىٰ أسس سليمة.

ولكن ما الذي يوفر مثل هذه الأسس؟ قال بيكون ببساطة (بالإضافة إلىٰ أعداد متزايدة من أقرانه): الملاحظة. ينبغي علىٰ الفلاسفة إخراج أنوفهم من

الكتب والنظر بدلًا من ذلك إلىٰ الأشياء حولهم - النجوم والحشرات، والمدافع والمجاديف، التفاحات المتساقطة والثريّات المتأرجحة. وينبغي عليهم التحدث إلىٰ الحدَّادين وصانعي الساعات والميكانيكيين؛ أي الناس الذين يعرفون كيف تعمل الأشياء.

وعندما فعلوا ذلك، كما اعتقد بيكون، لم يستطع جاليليو والفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت بالإضافة إلىٰ سيل من العلماء الأقل شهرة، تجنب الوصول إلىٰ النتيجة نفسها: وهي أنَّه خلافًا لما ذكره معظم القدماء، فإنَّ الطبيعة لم تكن كائنًا حيًا يتنفس له رغبات ونوايا. لقد كانت ميكانيكية بالفعل. وفي الحقيقة، كانت تشبه الساعة كثيرًا. وكان الإله هو صانع الساعة، الذي يشغّل التروس المتشابكة التي تحرك الطبيعة، ثمَّ يتراجع. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بُدَّ أنَّ الإنسان كان قادرًا علىٰ تفكيك أعمال الطبيعة بنفس سهولة تفكيك أي آلية أخرىٰ. ففي النهاية كما تأمل ديكارت، «ليست الساعة المصنوعة من العدد المطلوب من التروس كي تشير إلىٰ الوقت، أقل طبيعية من شجرة نبتت من هذه البذرو أو تلك، لتنتج فاكهة معينة».

كان لنموذج الطبيعة المبني علىٰ عمل الساعة -بالإضافة إلىٰ بعض التجارب والاستدلالات الذكية بشكل معقد- مردودات استثنائية. ونتيجة لذلك، تكشفت الأسرار المخفية منذ فجر التاريخ بشكل مفاجئ ومذهل. فاتضح أنَّ الهواء هو مادة وليس عدمًا، والقلب يضخ الدم حول الجسم مثل منفاخ ماء، والأكثر التباسًا، أنَّ الأرض لم تكن مركز الكون.

لقد أنتجت كل هذه الاكتشافات التي تناقض القدماء وحتىٰ النصوص، ردات فعل عاصفة من النقد. فكانت مكافأة جاليليو لمشاهدة السماء هي جرّه أمام محكمة بابويّة في عام ١٦٣٣م وإكراهه عن التراجع عما اعتقده صحيحًا. ولكن كان كل ما حققه ذلك التسلط هو التعجيل بهجرة الفكر الجديد من مركز البحر المتوسط القديم إلىٰ الشمال الغربي، حيث وجد الارتفاع الأسرع للتطور الاجتماعي وبدا قصور التفكير القديم علىٰ النحو الأوضح، وكان القلق إزاء تحدي السلطة هو الأضعف.

وبدأ الشماليون في قلب النهضة رأسًا علىٰ عقب، رافضين التراث بدلًا من البحث عن إجابات فيه، وفي تسعينيات القرن السابع عشر، بينما اندفع التطور الاجتماعي علىٰ بُعد شعرة من ذروته في ظلِّ الإمبراطورية الرومانية، كان السادة رسميًا يتناقشون فيما إذا كان الحديثون الآن متفوقين علىٰ القدماء. وحينئذٍ كانت الإجابة واضحة لأي شخص له عينان كي يراها. وظهرت «مبادئ الرياضيات» لإسحاق نيوتن في عام ١٦٨٧م باستخدام الأداة الجديدة للتفاضل التي طوّرها نيوتن بنفسه للتعبير عن نموذجه الميكانيكي السماوي حسابيًا. وكانت غير مفهومة (حتىٰ للقرَّاء المثقفين) مثلما كانت نظرية النسبية العامة لأينشتاين عندما نُشرت في عام ١٩٠٥م، لكن في غضون ذلك اتفق الجميع (مثلما اتفقوا حول النسبية) أنها تمثل عصرًا جديدًا.

وبدت المبالغة غير ملائمة لمثل هذه الآثار الذهنية والفكرية. فعندما دُعي إلىٰ تخليد نيوتون، تعجب أبرز شاعر إنجليزي، ألكسندر بوب قائلًا:

«بقيت الطبيعة وقوانينها مختبئة في الظلام

ثم قال الإله لنيوتن: كُن! فأضاء كل شيء».

في الواقع كان الانتقال من الظلمة إلىٰ النور أقل سرعة بقليل. فقد ظهرت مبادئ نيوتن بعد خمس سنوات من شنق آخر ساحرات إنجلترا وقبل خمس سنوات من بدء محاكمات ساحرات سالم في ماساتشوسيتس. لقد كان نيوتن نفسه، كما اتضح عندما عُرضت الآلاف من أوراقه الشخصية بالمزاد العلني في عام ١٩٣٦م - متحمسًا تجاه الخيمياء مثلما كان متحمسًا تجاه الجاذبية، وظلَّ مقتنعًا بأنَّه سيحول الرصاص إلىٰ ذهب. كما أنه لم يكن العالِم الوحيد في القرن السابع عشر الذي يتبنىٰ آراء تبدو اليوم غريبة علىٰ نحو مميز. ولكن غدا الغربيون يحررون العالم من السحر والوهم تدريجيًا، ويبددون أرواحه وشياطينه بالرياضيات. وأصبحت الأعداد هي القياس للواقع.

ويرىٰ جاليليو أنَّ:

«الفلسفة مكتوبة في هذا الكتاب الكبير، الكون، الذي يظل دائمًا مفتوحًا أمام أنظارنا . . . وهو مكتوب بلغة الرياضيات، وشخصياته هي المثلثات

والدوائر وغيرها من الأشكال الهندسية التي من دونها من المستحيل إنسانيًا فهم كلمة واحدة منه، ومن دونها يتجول المرء في متاهة مظلمة».

وتأمل بعض العلماء أنَّ ما ينطبق علىٰ الطبيعة، قد يكون صحيحًا أيضًا بالنسبة إلىٰ المجتمع. وحتىٰ مرحلة معينة، رحّب المسؤولون الحكوميون، خاصة المموّلين بهذا الفكر. فالدولة أيضًا يمكن اعتبارها آلة، ويمكن لخبراء الإحصاء حساب تدفقات إيراداتها ويمكن للوزراء معايرة أدواتها المعقدة. ولكنَّ طرق التفكير الجديدة كانت مثيرة للقلق أيضًا. فقد اتخذت العلوم الطبيعية منعطفًا جديدًا بالكشف عن كَون السلطة القديمة استبداديّة، فهل ستفعل العلوم الاجتماعية الشيء نفسه مع الملوك والكنيسة؟

إذا كان العلماء محقّين وكانت الملاحظة والمنطق هما أفضل الأدوات لفهم إرادة الله، فمن المعقول إذن أن تكون أيضًا هي أفضل الوسائل لإدارة الحكومات. وكان من المعقول بالقدر نفسه كذلك، كما جادل المنظّر الإنجليزي چون لوك، أنَّه في البداية أنعم الله علىٰ البشر بحقوق طبيعية معيّنة، واستنتج لوك أنَّ «الإنسان لديه قوة بواسطة الطبيعة . . . للحفاظ علىٰ ممتلكاته -التي تتمثل في حياته وحريته وممتلكاته- ضد الإصابات ومحاولات الأناس الآخرين». لذلك كما خلص لوك، «فإنَّ الغاية العظمىٰ والرئيسة . . . المتمثلة في اتحاد البشر تحت حكم ذاتي، ووضع أنفسهم في إطار الحكومة، هي الحماية لممتلكاتهم». وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان البشر «بطبيعتهم أحرارًا ومتساوين، ومستقلين، فلا يمكن [إذن] إخراج أحدهم من هذه المنزلة، والخضوع للسلطة السياسية لشخص آخر، دون موافقته الشخصية».

كانت هذه الأفكار لتكون مزعجة بما يكفي لو أنها اقتصرت علىٰ المفكرين الذين يتجادلون باللاتينية في الكليات المغطاة بشجر اللبلاب. ولكنَّها لم تكن كذلك. فلأول مرة في باريس، ثم علىٰ نطاق أوسع، كانت النساء الثريّات ترعىٰ الصالونات التي تَعامل فيها العلماء مع الأقوياء وتم تبادل الفكر الجديد. وأنشأ الهواة نوادي للمناقشة، وكانوا يدعون المحاضرين لشرح الأفكار الجديدة وبرهنة التجارب. وأتاحت الطباعة الأقل تكلفة والتوزيع الأفضل وارتفاع القدرة علىٰ

القراءة والكتابة، للصحف الجديدة التي تجمع التقارير بالنقد الاجتماعي ورسائل القراء بنشر الاضطراب لعشرات الآلاف من القراء. وقبل ثلاثة قرون من ظهور مقهىٰ ستاربكس، أدرك أصحاب المقاهي المبادرون أنَّهم إذا قدَّموا صحفًا مجانية ومقاعد مريحة، فسيجلس الباترونات في تلك المقاهي -يقرؤون ويتجادلون ويشترون القهوة- طوال اليوم. كان ثمة شيء جديد في طور التشكُّل، هو: الرأي العام.

أحبَ صنَّاع الرأي القول بأنَّ التنوير كان ينتشر عبر أوروبا، مشعلًا النور في الدروب المظلمة التي حجبتها قرون من الخرافات. ولكن ماذا كان يعني التنوير؟ كان المفكر الألماني إيمانويل كانط صريحًا في ذلك: «الجرأة علىٰ المعرفة! الشجاعة لاستعمال فهمك الخاص»!

كان التحدي للسلطة الراسخة جليًا، ولكن بدلًا من ذلك، لجأ معظم ملوك القرن الثامن عشر إلىٰ المساومة. وأصرّوا علىٰ أنَّهم لطالما كانوا مستنيرين منذ البداية، وأنهم يحكِّمون العقل من أجل الصالح العام. وكتب ملك بروسيا: «ينبغي أن يكون الفلاسفة هم مُعلمي العالم ومُعلمي الأمراء، وينبغي أن يفكروا بطريقة منطقية، وينبغي علينا التصرف بطريقة منطقية».

ولكن من الناحية العملية، وجد الأمراء منطق رعاياهم مزعجًا. في بريطانيا علىٰ سبيل المثال، كان علىٰ الملوك احتمال هذا الأمر فحسب، وفي أسبانيا استطاعوا إخماده، لكن فرنسا كانت رياديّة بما يكفي كي تعجّ بالنقَّاد المستنيرين ولكن أيضًا بالمستبدين بما يكفي لحبس هؤلاء المستنيرين ومنع كتبهم من وقت لآخر. وكان الأمر كما يقول المؤرخ توماس كارليل «استبدادًا تخففه الحكمة» - ممَّا جعلها حديقة مثالية يمكن للتنوير أن يزدهر فيها.

ومن بين جميع الكتب والشعارات الجيدة التي أثارت الفوضىٰ في باريس في خمسينيات القرن الثامن عشر، لم يضاه أي شيء «الموسوعة» المستنيرة أو «قاموس العلوم والفنون والحرف اليدوية». وقد كتب أحد محرريه: «يجب علىٰ المرء فحص وإثارة كل شيء، دون استثناء أو حذر». وأضاف: «يجب أن ندوس بالأقدام كل هذا الحُمْق القديم، ونزيل الحواجز التي لم توضع مكانها بالمنطق،

ونعيد الحرية الغالية للعلوم والفنون». وأصرَّ الثائر تلو الآخر علىٰ أنَّ الرِق والكولونيالية والدونية القانونية للنساء واليهود تتعارض مع الطبيعة والمنطق. ومن منفاه في سويسرا في ستينيات القرن الثامن عشر، تحدىٰ ڤولتير ما وصفه بـ «الشيء المشين» - أي امتيازات الكنيسة والتاج.

وعرف ڤولتير بالضبط أين يجب علىٰ الأوروبيين أن يبحثوا عن نماذج أكثر استنارة: في الصين. وأصرَّ علىٰ أنَّهم سيجدون هناك الحُكم الحكيم، الذي يحكم بالتشاور مع خدمة مدنية عقلانية، ممسكًا عن الحروب التي لا جدوىٰ منها والاضطهاد الديني. كما أنهم سيجدون الكونفوشية التي (علىٰ عكس المسيحية) كانت عقيدة للعقل، خالية من الخرافات والأساطير الخرقاء.

ولم يكن ڤولتير مخطئًا بالكامل؛ فقد ظلَّ المفكرون الصينيون بالفعل يتحدون الاستبدادية لمدة قرن قبل أن يُولَد ڤولتير. وأدَّت الطباعة إلىٰ تأسيس جمهور قرَّاء للأفكار الجديدة أكثر اتساعًا من أوروبا الغربية، كما انتعشت المعاهد العلمية الخاصة. وكان أشهرها أكاديمية دونغلين، التي تصدت لـ «الشيء المشين» بشكل مباشر أكثر من ڤولتير. وفي ثلاثينيات القرن السابع عشر شجّع مديرها الاعتماد علىٰ الذات، داعيًا العلماء للحصول علىٰ إجابات من خلال حكمهم الخاص، لا في النصوص القديمة. وقد حُبس وعُذّب أو أعُدم علماء دونغلين الواحد تلو الآخر لانتقادهم بلاط سلالة مينغ.

اشتد النقد الفكري عندما سيطرت سلالة تشين الغازية في عام ١٦٤٤م. حيث رفض مئات العلماء العمل لصالح المانشو. ومن بين هؤلاء جو يانوو، وهو موظف مدني بسيط لم ينجح أبدًا في الامتحانات العُليا. وأخذ جو بنفسه إلىٰ الحدود البعيدة، بعيدًا عن دنس الطغاة. وهناك أدار ظهره للهفوات الميتافيزيقية التي هيمنت علىٰ الحياة الفكرية منذ القرن الثاني عشر، ومثل فرانسيس بيكون في إنجلترا، حاول جو بدلًا من ذلك فهم العالم بملاحظة الأمور المادية التي فعلها البشر الحقيقيون.

ولمدة أربعين سنة تقريبًا سافر جو، وهو يملأ المذكرات بالأوصاف التفصيلية للزراعة والتعدين والأعمال المصرفية. وأصبح مشهورًا وقلَّده آخرون،

خاصة الأطباء الذين تملكهم الرعب إثر عجزهم في مواجهة أوبئة أربعينيات القرن السابع عشر. وبجمع السجلات المَرَضية للمَرْضىٰ الفعليين، أصرّوا علىٰ اختبار النظريات في مقابل النتائج الحقيقية. وبحلول تسعينيات القرن السابع عشر، أعلن الإمبراطور نفسه عن مزايا «دراسة جذور المشكلة، ومناقشتها مع الناس العاديين، ثم حلّها».

وأطلق مفكرو القرن الثامن عشر علىٰ هذا النهج اسم "kaozheng" أو «البحث الاستدلالي». وقد أكَّد البحث الاستدلالي علىٰ أنَّ الحقائق تفوق التنظير، وجلب أساليب بحث شديدة الدقة إلىٰ مجالات متنوعة مثل الرياضيات والفلك والجغرافيا واللسانيات والتاريخ، وطوّر باستمرار قواعد لتقييم الأدلة. وكانت "aozheng" توازي ثورة أوروبا الغربية العلمية في جميع الأوجه، ما عدا أنها لم تطوّر نموذجًا ميكانيكيًا للطبيعة.

ومثل الغربيين، خاب أمل العلماء الشرقيين في العلم الذي ورثوه منذ آخر مرة اقترب فيها التطور الاجتماعي من السقف الصلب عند حوالي ثلاث وأربعين نقطة علىٰ المؤشر (وفي حالتهم، تحت حكم سلالة سونغ في القرنين الحادي والثاني عشر). ولكن بدلًا من رفض الفرضية التقليدية لذلك العلم عن كون العالم تحركه الروح «تشي» (qi) وتخيّل بدلًا من ذلك أنَّ المرء يعمل كآلة، اختار الشرقيون في الغالب النظر إلىٰ الوراء، إلىٰ المزيد من المراجع الرصينة، وهي نصوص سلالة هان القديمة. وحتىٰ جو يانوو كان متحمسًا بشأن النقوشات القديمة مثلما كان متحمسًا بشأن التعدين أو الزراعة، واستمتع الكثير من الأطباء الذين يجمعون السجلات المَرَضية بالقدر نفسه في استخدام هذه السجلات لتوضيح نصوص هان الطبية عن علاج الناس. وبدلًا من قلب عصر النهضة رأسًا علىٰ عقب، اختار المفكرون الصينيون نهضة ثانية. فكثير منهم كانوا علماء بارعين، ولكن بسبب هذا الاختيار لم يصبح أي منهم جاليليو أو نيوتن.

وهنا أخطأ فولتير. فقد كان يدعم الصين باعتبارها نموذجًا في اللحظة نفسها التي توقفت فيها الصين عن تقديم هذا النموذج، وفي اللحظة نفسها تحديدًا لدرجة أنَّ بعضًا من منافسيه في صالونات أوروبا بدؤوا في تكوين استنتاجات

متعارضة تمامًا عن الصين. ورغم أنه لم يكن لديهم موشر ليخبرهم أنَّ التطور الاجتماعي الغربي قد محا صدارة الشرق، قرر هؤلاء الرجال أنَّ الصين لم تكن الإمبراطورية النموذجية المستنيرة علىٰ الإطلاق؛ بل كانت نقيض كل شيء أوروبيّ. ففي حين تعلَّم الأوروبيون الديناميّة والمنطق والإبداع من اليونان القديمة وتجاوزوا معلمهم في ذلك الوقت، كان الزمن لا يحرك ساكنًا في الصين.

وهكذا تولَّدت نظرية المدىٰ الطويل الحتمية عن التفوق الغربي. وقرَّر بارون مونتسيكيو أنَّ المناخ هو التفسير النهائي: فقد منح الطقس المنعش الأوروبيين (ولا سيما الفرنسيين) «حيوية معينة للجسم والعقل تجعلهم صبورين وجسورين، وتؤهلهم للتحديات الشاقة»، بينما «جعلت الخنوثة في الأجواء الحارة منهم عبيدًا ... تسود في آسيا روح استرقاق لم تستطع أبدًا التخلص منها».

وذهب أوروبيون آخرون لأبعد من ذلك. فالصينيون ليسوا خانعين ومستسلمين للعبودية، كما جادلوا، بل إنَّهم نوع مختلف من البشر. فقد ادَّعىٰ كارولوس لينيوس، الأب المؤسس لعلم الوراثة، التعرف إلىٰ أربعة أعراق من البشر: الأوروبيين البيض، والآسيويين الصفر، والأمريكيين الحمر، والأفارقة السود. وفي سبعينيات القرن الثامن عشر، قرَّر الفيلسوف دافيد هيوم أنَّ العِرق الأبيض فحسب هو القادر علىٰ بناء الحضارة الحقيقية. وحتىٰ كانط تساءل عما إذا كان العِرق الأصفر عِرقًا مقبولًا بالأساس. ربما كانوا -برأيه- مجرد سلالة حقيرة نتجت عن التزاوج بين الهنود والمغول.

يبدو أنَّ الجرأة علىٰ المعرفة كانت حكرًا علىٰ الأوروبيين فحسب.

محاكمة بالتيليسكوب

في عام ١٩٣٧م أخذ ثلاثة علماء شبان تحت التدريب سفينة من نانجينغ عاصمة الصين، إلىٰ إنجلترا. وكان من الصعب، تحت أي ظرف من الظروف، أن يستبدلوا بلدتهم الأم الفوضوية المكتظة (المعروفة بأنها أحد «الأفران الأربعة» للصين بسبب رطوبتها الشديدة) بالكنائس الهادئة والمطر المتواصل والرياح الشديدة في كامبردج، ولكنَّ الظروف في أثناء ذلك الصيف كانت قاسية بشكل خاص. لم يعرف الثلاثة ما إذا كانوا سيرون أسرهم وأصدقاءهم مجددًا. وكان الجيش الياباني يقترب من نانجينغ، وسيذبح في ديسمبر الآلاف من إخوانهم المواطنين بصورة وحشية تصدم حتىٰ مسؤولًا نازيًا متورطًا في الكارثة.

لم يستطع اللاجئون الثلاثة توقُّع الكثير من الترحيب لدىٰ وصولهم. في تلك الأيام امتلأت مختبرات كامبريدج العلمية بالطلبة الصينيين، ولكن في عام ١٩٣٧م كان إرث هيوم وكانط لا يزال قويًا. لقد أثار الثلاثة ضجة شديدة، وكان جوزيف نيدهام، النجم الصاعد في معهد الكيمياء الحيوية أكثر إثارة من أي شخص. وكتبت إحدىٰ الطالبات، تدعىٰ لو غوي جين، أنَّه «كلما عَرَفنا أكثر وجدَ أننا مثله تمامًا في الإدراك العلمي ونفاذ الفكر، وقاد هذا عقله الفضولي للتساءل لماذا -إذن- نشأت العلوم الحديثة في العالم الغربي؟».

لم يتلق نيدهام أي تدريب في اللغات أو التاريخ، ولكنَّ عقله كان من أذكىٰ وأكثر العقول هوسًا في جامعة مشهورة بكليهما. أصبحت لو غوي محبوبته وساعدته علىٰ احتراف اللغة الصينية وتاريخ الصين، ووقع نيدهام باستماته في غرام وطن لو، في حقيقة الأمر، لدرجة أنَّه في عام ١٩٤٢م تخلىٰ عن أمان كليته

في سبيل بعثة لوزارة الخارجية إلىٰ تشونغتشينغ لمساعدة الجامعات الصينية في النجاة من الحرب الكارثية مع اليابان. وكتبت إليه محطة «بي بي سي» تطلب منه تسجيل انطباعاته، ولكنه فعل ما هو أكثر. وعلىٰ هامش رسالتهم دوَّن نيدهام باختصار استفسارًا غيَّر حياته: «لماذا لا يتطور العلم بصفة عامة في الصين؟».

يُعرف هذا السؤال -لماذا بعد قرون عديدة من التميُّز العلمي الصيني، كان الأوروبيون الغربيون هم الذين أنشؤوا العلم الحديث في القرن السابع عشر- حالياً بـ «معضلة نيدهام». كان نيدهام يعاني من تلك المعضلة عندما تعرفت إليه، وبعد أربعين عامًا (كانت زوجتي تدرس الأنثروبولوجيا في كلية كامبردج، حيث حصلت لو غوي جين -التي كانت لا تزال حبيبة نيدهام- علىٰ زمالة، واستأجرنا الطابق العلوي من منزل الدكتورة لو). ولم يحسم نيدهام معضلته أبدًا، ولكن وبفضل عقود عمله في فهرسة الإنجازات العلمية الصينية، نحن الآن في وضع أفضل بكثير لفهم ما حدث أكثر مما كنّا عليه في الثلاثينيات من القرن الماضي.

وكما رأينا في الفصل السابع، فقد حققت الصين بوجه خاص تقدمًا علميًا وتكنولوجيًا سريعًا عندما ضغط تطورها الاجتماعي في مواجهة السقف الصلب في القرن الحادىٰ عشر، إلَّا أنَّ هذا التقدم تعرقل عندما تدهور التطور. والسؤال الحقيقىٰ هو: لماذا عندما ضغط التطور مرة أخرىٰ في مواجهة السقف الصلب في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم يبتدع المثقفون الصينيون، مثل الأوروبيين، نماذج ميكانيكية للطبيعة ويكشفوا عن أسرارها.

الجواب، مرة أخرىٰ، هو أنَّ المفكرين يطرحون الأسئلة التي يدفعهم التطور الاجتماعي إلىٰ طرحها: كل عصر يحصل علىٰ الفكر الذي يحتاجه. لقد احتاج الأوروبيون الغربيون، بجبهتهم الجديدة عبر المحيطات، إلىٰ قياسات دقيقة للمكان والمال والوقت، وبحلول المرحلة التي أصبحت فيها الساعات ذات العقربين شيئًا عاديًا، كان الأوروبيون ليكونوا متبلدين بشكل إيجابي ألَّا يتساءلوا عما إذا كانت الطبيعة ذاتها آلية. وبالمثل، فإنَّ الطبقات الحاكمة في الغرب كانت لتحتاج أن تكون أكثر تبلدًا في عدم رؤيتها ما يكفي من المزايا في التفكير العلمي لانتهاز فرصة للتصالح مع مفكريها غريبي الأطوار الذين لا يمكن التنبؤ بهم.

ومثل الموجتين الأولىٰ والثانية من الفكر المحوري وعصر النهضة، فقد كان كل من التنوير والثورة العلمية نتائج حتمية من البداية، بدلًا من كونهما أسبابًا لارتفاع التطور الاجتماعي الغربي.

وكان للشرق أيضًا جبهته في السهوب، إلَّا أنها كانت ذلك النوع من الجبهات التقليدية أكثر من كون الجبهة الأطلسية كذلك، وكانت الحاجة إلىٰ فكر جديد بالمثل أقل إلحاحًا. وقد سأل الفلاسفة الطبيعيون والاجتماعيون بعض الأسئلة ذاتها كما سألها الأوروبيون الغربيون، لكن الحاجة إلىٰ إعادة هيكلة الفكر فيما يتعلق بالنماذج الميكانيكية للكون ظلَّت أقل وضوحًا، وبالنسبة إلىٰ حكام تشينغ الذين كانوا في حاجة ماسة لكسب مفكري الصين لحساب نظامهم الجديد، فقد فاقمت مخاطر الفكر المتطرف المترف أي فوائد محتملة.

بذل بلاط تشينغ كل ما في وسعه لجذب العلماء للعودة إلىٰ خدمة الدولة من أكاديمياتهم الخاصة وجولات تقصي الحقائق في الحدود. ولذا أنشأ الفحوصات الخاصة، وأنفق بسخاء، وتزلف بشدة. وقدَّم الإمبراطور الشاب كانغشي نفسه باعتباره كونفوشيوسيًا، فعقد اجتماعًا لمجموعة من العلماء المميَّزين لدراسة الكلاسيكيات معه، وفي عام ١٦٧٠م أصدر كتاب «المرسوم المقدس» يوضح مدىٰ جديته. كما موَّل الموسوعات الضخمة (بلغت مجموعته الكاملة من الرسوم التوضيحية والكتابات منذ أقدم تاريخ إلىٰ العصر الحاضر، التي نشرت بعد وفاته بقليل - ٨٠٠ ألف صفحة)، ولكن بدلًا من إثارة كل شيء مثل الموسوعات الفرنسية المعاصرة، فلم تهدف هذه الكتب إلىٰ إثارة أي شيء علىٰ الإطلاق، إلَّا الحفاظ بإخلاص علىٰ النصوص القديمة وتوفير مناصب للعلماء الموالين.

وحققت هذه الاستراتيجية نجاحًا مذهلًا، وفي حين رجع المفكرون إلىٰ خدمة الدولة، فقد حوَّلوا المنح الدراسية (kaozheng) نفسها إلىٰ مستقبل مهني. وكان علىٰ المتقدمين للامتحانات عرض الأبحاث المدعومة بالأدلة، لكن لم يحترف ذلك سوىٰ العلماء الذين توافرت لهم المكتبات، الأمر الذي منع كل من هم خارج تلك النخبة الضيقة من تحصيل الإحرازات العالية. وكان إغراء البيئات المربحة للعمل في وظائف الدولة حافزًا قويًا للفكر التقليدي.

وسوف أؤجل للفصل العاشر أهم سؤال وهو: إذا أتيح لهم المزيد من الوقت، هل كان سيصبح للمفكرين الصينيين ثورتهم العلمية الخاصة؟ وكما اتضح بالفعل، فإنَّ الغربيين لم يتيحوا لهم الوقت؛ فقد كانت الإرساليات اليسوعية التبشيرية تغزو الصين من ماكاو منذ سبعينيات القرن السادس عشر، ورغم أنها أتت لخلاص الأرواح وليس للعلم، فقد علمت أنَّ الهدايا تجعل من الضيوف موضع ترحيب. كانت الساعات الغربية شائعة ورائجة للغاية، وكذلك النظارات الشمسية. ووصف أحد كبار شعراء الصين، الذي ضعف بصره لفترة طويلة، فرحته قائلًا:

أتىٰ زجاج شفاف عبر البحار الغربية
مستوردًا من ماكاو
وشُكّل إلىٰ عدسات كبيرة كقطع النقود،
تحيط بعين المرء في إطار مزدوج،
عندما أرتديها، تتضح الأشياء فجأة.
وأستطيع أن أرىٰ تفاصيل الأشياء!
وأقرأ الطباعة الصغيرة علىٰ ضوء نافذة خافتة الإضاءة،
كما كنت أفعل في شبابي.

لكن أكبر هدية جلبها اليسوعيون كانت علم الفلك. لقد علم المبشرون أنَّ التقاويم كانت أمرًا له وزنه في الصين، فيمكن أن يؤدىٰ الإعلان الخاطئ لأقصر يوم في الشتاء إلىٰ خلل كوني بقدر ما يؤدىٰ حصول خطأ في تقدير يوم عيد الفصح في المسيحية. فقد اهتم المسؤولون الصينيون بالفلك بشدة لدرجة أنَّهم وظَّفوا الأجانب في إدارة الفلك (أغلبهم من العرب والفرس) في حال فاقت معرفتهم بالنجوم معرفة الصينيين.

ورأىٰ اليسوعيون -بعقلانية- في ذلك أفضل مسار للوصول إلىٰ حكَّام الصين. تعمَّق علماء الرياضيات اليسوعيون في إصلاح التقويم الكاثوليكي في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وعلىٰ الرغم من أنَّ طريقتهم في علم الفلك كانت عتيقة الطراز وفقًا لمعايير شمال غرب أوروبا (فقد كانوا متمسكين بالنماذج

المعرفية المبنية في رؤيتها للكون علىٰ محورية الأرض) لكنها كانت أفضل من أي شيء في الصين.

في البداية مرت الأمور بسلاسة، وبحلول عام ١٦١٠م اعتنق العديد من كبار موظفي الخدمة المدنية الديانة المسيحية سرًا، إثر إعجابهم بالرياضيات اليسوعية، وأعلنوا صراحةً تفوق العلوم الغربية علىٰ العلوم الصينية، وترجموا الكتب المدرسية الأوروبية. وفي المقابل استاء علماء تقليديون من هذه الحالة غير الوطنية؛ ولذا خفتت مساندة الداعم الرئيس لليسوعيين في ثلاثينيات القرن السابع عشر، وطمأن رفاقه قائلًا: «بإذابة مادة المعارف الغربية وموضوعها، سنصبها في النظام التوافقي الكبير [النظام الصيني التقليدي]». وأشار قائلًا: «ربما العلم الغربي في الواقع مشتق من الحكمة الصينية القديمة».

عندما استولىٰ المانشو علىٰ بكين عام ١٦٤٤م، اقترح اليسوعيون إقامة مسابقة عامة للتنبؤ بكسوف الشمس، وفازوا بها. وكانت هيبتهم في أوجّها حينئذ، وبدا لبضعة أشهر قادمة في عام ١٦٥٦م كما لو أنَّ الإمبراطور ربما يعتنق المسيحية، وبدا النصر قريبًا، إلىٰ أن أدرك الملك المراهق أنَّ المسيحيين لا يمكنهم الاحتفاظ بعشيقات، فاعتنق البوذية بدلًا من المسيحية. وهنا حانت ضربة التقليديين، فاتهموا زعيم اليسوعيين بالجاسوسية.

وفي عام ١٦٦٤م صدر أمر بإعادة محاكمة بالتيليسكوب، بين اليسوعيين وإدارة الفلك وعالم فلك مسلم، كلٌ يتنبأ بموعد الكسوف الشمسي القادم؛ فقالت الإدارة إنَّه في الثانية والربع، وقال العالم المسلم إنَّه في الثانية والنصف، وقال اليسوعيون إنَّه في الثالثة. تمَّ وضع عدسات لعرض صورة الشمس في غرفة مظلمة. ومرت الثانية والربع دون كسوف، فالثانية والنصف ولم يحدث شيء، ولكن عند الثالثة تقريبًا بدأ ظل يزحف عبر القرص الناري.

لكنَّ الحكَّام قرروا بأنَّ هذا ليس جيدًا بما فيه الكفاية، وحظروا المسيحية.

وبدا أنه لم يكن هناك المزيد، باستثناء الحقيقة السخيفة أنَّ التقويم الصيني خطأ. لذا بمجرد توليه العرش في عام ١٦٦٨م، أمر الإمبراطور كانغ شي بتنظيم مسابقة أخرىٰ، لكنَّ اليسوعيين فازوا مجددًا.

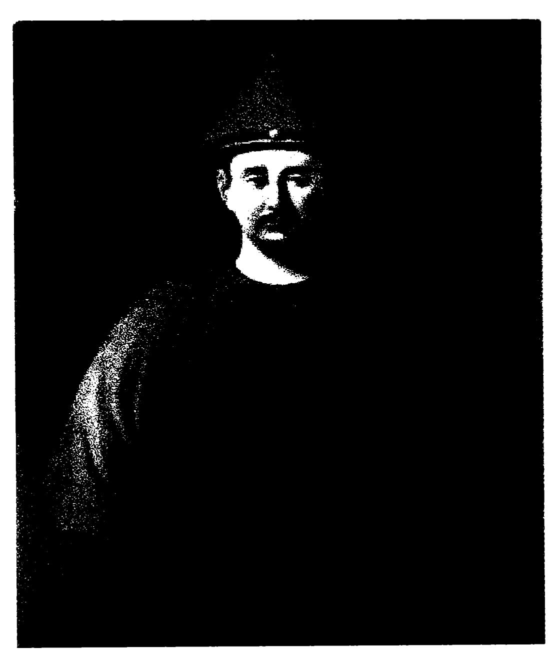
واقتناعًا بتفوق اليسوعيين، ألقىٰ كانغ شِي بنفسه في علومهم، ماكثًا لساعات في حضرة رجال الدين يتعلم علوم الحساب والهندسة والميكانيكا، بل والعزف علىٰ القيثارة. وكتب الإمبراطور: «أدركتُ أنَّ الرياضيات الغربية لها استخداماتها. وفي جولات الاستكشاف لاحقًا استخدمتُ هذه الطرق الغربية لكي أوضح للمسؤولين كيفية الحساب بشكل أكثر دقة عند تخطيطهم لأعمال النهر».

أدرك كانغ شي أنَّ «الأساليب الجديدة للحساب تجعل الأخطاء الأساسية مستحيلة»، وأنَّ «المبادئ العامة لعلوم التقاويم الغربية تخلو من الأخطاء»، ولكنَّه ظلَّ يقاوم مطالبات اليسوعيين الأكبر حول علومهم وإلههم. «وعلىٰ الرغم من أنَّ بعض الطرق الغربية تختلف عن طرقنا، بل وربما تُعدّ أكثر تقدمًا، لكنَّ القليل منها يُعدّ جديدًا بالفعل» هكذا استنتج كانغ شي، «إنَّ مبادئ الرياضيات كلها مشتقة من كتاب «التغييرات»، والطرق الغربية هي بالأصل صينية... في النهاية»، وأضاف: «إنهم لا يعرفون سوىٰ جزء بسيط مما أعرفه أنا».

وفي عام ١٧٠٤م أرسل البابا، إثر قلقه من أنَّ اليسوعيين كانوا يروّجون لعلم الفلك بشكل أكثر نشاطًا من نشرهم للمسيحية - مبعوثًا إلىٰ بكين لملاحظتهم عن كثب، وقلق كانغ شي معتبرًا هذا معارضة للسلطة، فقام بتنحية المبشرين. وأنشأ الأكاديميات العلمية الجديدة (وكانت نموذجًا أكثر حرية لأكاديمية العلوم في باريس) حيث يمكن للعلماء الصينيين مواصلة دراسة علم الفلك والرياضيات في حرية من نفوذ اليسوعيين. لقد كانت الرياضيات التي يُدرّسها اليسوعيون مع القليل من الجبر وقدر أقل من التفاضل والتكامل متخلفة عقودًا عن شمال أوروبا، ولكن بمجرد أن قطع كانغ شي هذه الصلة مع العلم الغربي اتسعت الفجوة العلمية بين الشرق والغرب وأصبحت هوة سحيقة.

ومن المغري اعتبار أنَّ كانغ شي (الشكل ٩ - ٧) هو الحل لمعضلة نيدهام، باعتباره الأحمق الأخرق الذي كان يمكن أن يجلب العلوم الصينية إلىٰ القرن الثامن عشر ولكنه اختار عدم فعل ذلك. ولكن من بين جميع الرجال (والمرأة الوحيدة) الذين اعتلوا العرش السماوي، فإنَّ كانغ شي بالتأكيد يُعدّ بين أقل مَن يستحقون هذ الوصف. صحيح أنَّ القول بأنَّ اليسوعيين لا يعرفون سوىٰ

جزء مما يعرفه هو لم يكن متواضعًا، ولكنه ليس خطأ بالكلية، فقد كان كانغ شي مفكرًا حقيقيًا، وزعيمًا قويًا، ورجل أفعال لا أقوال (بما في ذلك كونه أبًا لـ ٥٦ طفلًا)، كان ينظر للغربيين في إطار سياق أوسع. وطيلة ألفي سنة أدرك الأباطرة الصينيون أنَّ البدو أفضل منهم في القدرة الحربية، وأنَّ شراء الفرسان أقل خطورة من محاربتهم. وعندما تغيَّر هذا الوضع، كان كانغ شي أول مَن علم به، وقاد بنفسه الحملات التي بدأت في إغلاق طريق السهوب السريع في تسعينيات القرن السابع عشر. ومع وجود الغربيين، أتت الأمور بنتائج عكسية. فقد اشترك كانغ شي مع الغربيين منذ ستينيات القرن السابع عشر، ولكن بعد عام ١٧٠٤م بدا أنَّ تجاهلهم أقل خطورة. وتوصَّل بعض الحكَّام في جنوب شرق آسيا إلىٰ النتيجة ذاتها في القرن السادس عشر، وسار علىٰ خطاهم «الشوغون» اليابانيون بحلول عام ١٦١٣م. وأدت انتفاضة بصبغة مسيحية في اليابان في عام ١٦٣٧م -علىٰ ما يبدو- إلىٰ تأكيد الحكمة في اتخاذ القرار بقطع العلاقات مع الغرب. وفي هذا السياق، لا يبدو أن قرار كانغ شي كان أخرقَ.



(الشكل ٩ - ٧). الأخرق الكبير: لوحة لكانغ شي إمبراطور الصين رسمها الفنان الإيطالي جيوفاني في عام ١٧٠٠م.

وعلىٰ أي حال، ثمة سؤال آخر يجب أن نطرحه: حتىٰ لو لم يكن كانغ شي يتوقع مآل العلوم الغربية ويدعمه، فهل كان بإمكانه أن يُبقي التطور الاجتماعي الشرقي متصدرًا علىٰ مثيله الغربي في القرن الثامن عشر؟

الجواب بالتأكيد: لا. لقد واجهت الصين المشاكل نفسها التي واجهها شمال غرب أوروبا، وتحرك بعض مفكريها في اتجاهات مماثلة. في خمسينيات القرن الثامن عشر، علىٰ سبيل المثال، اقترح داي تشن (وهو مثل غو يان وو، موظف عام منخفض المستوىٰ لم يحز أبدًا أعلىٰ الدرجات) شيئًا يشبه الرؤية الغربية ذات الطابع الميكانيكي لكن دون مقاصد أو أهداف، ومع كونه متاحًا للتحليل التجريبي. ولكن داي، العالم المتميِّز باللغات القديمة، كان يؤسس جدلياته دائمًا علىٰ النصوص القديمة؛ ففي نهاية المطاف، بدا الحفاظ علىٰ أمجاد الماضي أكثر أهمية في الصين من التعامل مع نوع الأسئلة التي دفعها التوسُّع العالمي إلىٰ بؤرة اهتمام الغربيين.

أنتجت تحديات الجبهة الأطلسية نوعًا من الغربيين يطلبون إجابات لأنواع جديدة من الأسئلة. وحاز أمثال نيوتن ولايبنتس الذين استجابوا لذلك الشهرة والثروة فوق أي شيء تصوره العلماء من قبل، وتتبع أنواع جدد من المفكرين أمثال لوك وفولتير الآثار المترتبة علىٰ هذا التقدم من أجل النظام الاجتماعي. أما جبهة السهوب الصينية الجديدة، في المقابل، فقد أنتجت تحديات أخف بكثير، فلم يشعر العلماء في معاهد كانغ شي العلمية أنهم بحاجة إلىٰ اختراع حساب التفاضل والتكامل الخاص بهم أو التوصُّل إلىٰ أنَّ الأرض تدور حول الشمس. بيد أنَّ هناك الكثير من المكاسب في تحويل الرياضيات -مثل الطب- إلىٰ فرع من الدراسات الكلاسيكية.

وفي النهاية، حصل كل من الشرق والغرب علىٰ الفكر الذي احتاجه كل منهما.

القانون الحديدي

عندما توفي كانغ شي في عام ١٧٢٢م، كان التطور الاجتماعي يرتفع بصورة أكبر من أي وقت مضىٰ. لقد بلغ التطور الاجتماعي لمرتين في الماضي ٤٣ نقطة في الإمبراطورية الرومانية في حوالي عام ١٠٠م وفي سلالة سونغ الصين بعد ألف سنة لاحقة، وأدىٰ ذلك إلىٰ وقوع الكوارث التي دفعت التطور لأسفل مرة أخرىٰ. وبحلول عام ١٧٢٢م، أُغلق طريق السهوب السريع. هلك أحد فرسان الهلاك ولم يتدهور التطور الاجتماعي عندما اصطدم بالسقف الصلب. وبدلًا من ذلك، سمحت الجبهة الجديدة علىٰ طول حافة السهوب للتطور الاجتماعي الشرقي بأن يستمر في النمو، بينما افتتح الأوروبيون الشماليون الذين كانوا بمنأىٰ عن هجرات السهوب من قِبَل الإمبراطوريات الصينية والروسية جبهتَهم الجديدة الخاصة علىٰ المحيط الأطلسي. وارتفع التطور الاجتماعي الغربي بشكل أسرع من مثيله الشرقي، وتخطاه في عام ١٧٧٣م، (أو نحو ذلك). وكان عصرًا جديدًا من كلا الطرفين في أوروبا الآسيوية.

لكن هل كان عصرًا جديدًا حقًا؟ إذا انتقل شخص ما من روما أو سونغ الصينية إلىٰ لندن أو بكين في القرن الثامن عشر فمن المؤكد أنَّه سيواجه الكثير من المفاجآت، مثل المسدسات، أو أمريكا، أو التبغ والقهوة والشوكولاتة. أما بالنسبة إلىٰ الموضة فسيتفاجأ بالشعر المستعار المجفف؟ ضفيرة المانشو؟ طي الأقدام؟ «يا حسرة علىٰ الزمن والتقاليد!»، كما قال شيشرون.

بيدَ أنَّ الكثير من الأشياء كانت ستبدو مألوفة. صحيح أنَّ جيوش العالم الحديث التي تمتلك البارود أقوىٰ بالتأكيد من الجيوش الأقدم، وأنَّ عددًا أكبر

من الناس كان يمكنه القراءة والكتابة أكثر من أي وقت مضىٰ، لكن لا الشرق ولا حتىٰ الغرب استطاع أن يزدهر بمدينة قوامها مليونا شخص مثل روما القديمة أو كايفنغ التي تعود إلىٰ العصور الوسطىٰ. والأهم من ذلك كله، أنَّ الزوار من الماضي كانوا سيلاحظون أنه بالرغم من أنَّ التطور الاجتماعي كان يرتفع بصورة أكبر من أي وقت مضىٰ، فإنَّ الطرق التي انتهجها الناس في زيادة التطور لم تختلف إلَّا قليلًا عن طريقة الرومان والسونغ الصينية في ذلك. لقد أصبح المزارعون يستخدمون المزيد من السماد، ويحفرون المزيد من القنوات، ويناوبون المحاصيل، ويقلِّلون من ترك الأراضي راكدة غير محروثة. وأصبح الحرفيون يحرقون المزيد من الخشب لصب المزيد من المعادن، وعندما أضحىٰ الخشب نادرًا، تحوَّلوا إلىٰ الفحم. وتم تربية حيوانات أكثر وأكبر لتدوير السواقىٰ، وحمل الأثقال، وجرّ عربات أفضل علىٰ طرق أكثر تمهيدًا. وتمَّ تسخير الرياح والمياه بشكل أكثر فعالية لسحق المعادن الخام، وطحن الحبوب، وتحريك القوارب في الأنهار المقوّمة والقنوات الصناعية. ولكن مع كون الزوار الرومان والسونغ سيعترفون علىٰ الأرجح بأنَّ أشياء كثيرة أصبحت أكبر وأفضل في القرن الثامن عشر منها في القرن الحادىٰ عشر أو الأول، فإنهم لن يعترفوا بأنَّ الأشياء تختلف اختلافًا جذريًا.

وهنا مكمن الصعوبة؛ فغزو السهوب والمحيطات لم يحطم السقف الصلب الذي واجهه الرومان والسونغ عند الثلاث وأربعين نقطة تقريبًا، وإنما دفعه لأعلىٰ قليلًا، وبحلول عام ١٧٥٠م كانت هناك بوادر مقلقة أنَّ التطور كان يحاول بقوة مواجهة السقف. الجانب الأيمن من الشكل (٩ - ٣) الذي يبيِّن الأجور الحقيقية، ليس مشهدًا جميلًا. وبحلول عام ١٧٥٠م كانت مستويات المعيشة تنحفض في كل مكان، حتىٰ في شمال غرب أوروبا الذي كان يتسم بالديناميّة. وبينما كان المركزان الشرقي والغربي يجتهدان لدفع السقف الصلب لأعلىٰ، كانت الأزمنة تزداد صعوبة.

فما الذي كان ينبغي عمله؟ اقترح بيروقراطيو بكين ومرتادو صالونات باريس وكل مفكر يحترم نفسه: النظريات. فجادل البعض بأنَّ جميع الثروات تأتي من

الزراعة، وبدؤوا بإقناع الحكَّام بتخفيض الضرائب كإعانة حكومية علىٰ المزارعين الذين كانوا يجففون المستنقعات أو يصطبون التلال. ومن اليونان حتىٰ تينسي، زحفت الأكواخ والكبائن الخشبية إلىٰ مناطق أبعد داخل الغابات حيث كانت المجتمعات الأقل تقدمًا تقوم بالصيد. بينما أصرّ منظرون آخرون علىٰ أنَّ الثروة تأتي من التجارة؛ لذا صبَّ الحكّام (غالبًا الحكَّام نفسهم) المزيد من الموارد تجاه تفقير جيرانهم وذلك بالاستيلاء علىٰ تجارتهم.

كان هناك اختلاف هائل، ولكن في المجمل اعتقد الحكَّام الغربيون (الذين ظلوا يقاتلون بشراسة منذ القرن الخامس عشر) أنَّ الحرب ستحل مشاكلهم، بينما اعتقد الحكَّام الشرقيون (الذين كانوا يقاتلون بشراسة أقل) أنها لن تفعل. وكانت اليابان الحالة النموذجية؛ فبعد الانسحاب من كوريا في عام ١٥٩٨م قرَّر زعماؤها أنه لم يكن ثمة أرباح جرّاء الاحتلال، بل وخلصوا بحلول ثلاثينيات القرن السابع عشر إلىٰ أنَّ التجارة الخارجية لم تفعل سوىٰ إفقادهم السلع القيّمة مثل الفضة والنحاس. وطُوِّق التجار الصينيون والهولنديون (وهم الأوروبيون الوحيدون الذين سُمح لهم بدخول اليابان بحلول عام ١٦٤٠م) في جيتوهات صغيرة جدًّا في ناغازاكي، حيث لم يسمح للنساء بالانضمام إليهم سوىٰ البغايا اليابانيات. وليس من المستغرب أنَّ التجارة الخارجية قد تضاءلت.

وبحمايتها من العدوان من جهة البحر الأزرق الواسع، ازدهرت اليابان حتىٰ عام ١٧٢٠م تقريبًا. تضاعف عدد سكانها ونمت «إيدو» لتصبح علىٰ الأرجح أكبر مدينة في العالم. وحلَّ كل من الأرز والسمك والصويا محل الأطعمة الأرخص في معظم الأنظمة الغذائية. وهيمن السلام؛ فمع تسليم أسلحتهم لهيديوشي في عام ١٥٨٧م في الماضي، لم يتسلح اليابانيون العاديون مجددًا أبدًا. وحتىٰ مقاتلو الساموراي اتفقوا علىٰ إنهاء معاركهم بالسيف فقط، الأمر الذي أذهل الغربيين الذين شقوا طريقهم عنوة داخل اليابان في خمسينيات القرن التاسع عشر. «بالكاد عرف هؤلاء القوم كيف يستعملون الأسلحة النارية»، كما قال أحدهم. «إنَّ شخصًا أمريكيًا رأىٰ منذ طفولته الأطفال وهم يطلقون النار ليشعر بالصدمة من أنَّ الجهل بالأسلحة هو بمثابة شذوذ دال علىٰ السذاجة البدائية والبساطة الطبيعية».

ومع ذلك، فبعد عام ١٧٢٠م، أعتمت الصورة باطراد؛ فقد ازدحمت اليابان، ومع غياب انطلاقة تكنولوجية لم يكن ثمة سبيل إلىٰ استخراج المزيد من الأغذية والوقود والملابس والسكن من البيئة المزدحمة، ومن دون التجارة لم يكن هناك سبيل إلىٰ استيراد المزيد منها. أظهر المزارعون اليابانيون عبقرية مذهلة، وأدرك المسؤولون اليابانيون الضرر الذي أحدثه التعطش للوقود لغاباتهم، فنشطوا لحمايتها. واتجهت ثقافة النخبة اليابانية نحو نزعة تقليلية تقشفية أدنويّة حافظت علىٰ الموارد. ولكنَّ أسعار المواد الغذائية واصلت الارتفاع، وازدادت المجاعات وتظاهرت الجموع الجائعة في الشوارع. ولم يكن في ذلك أي نزعة طبيعية.

وكان السبب الوحيد الذي مكَّن اليابان من أن تتخذ هذا الطريق هو أنَّ الصين -التي مثَّلت التهديد الوحيد لأمنها- قد سلكت الطريق نفسه؛ فحدود الصين الواسعة المفتوحة كانت تعني أن بإمكان السكان مواصلة النمو في القرن الثامن عشر، ولكن التشينغ أيضًا قاموا باستبعاد العالم الخطير عبر المسطحات المائية. وكانت التجارة الخارجية في عام ١٧٦٠م محصورة في جوانزو، وعندما أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية اللورد ماكارتني ليشكو بشأن القيود في عام ١٧٩٣م، ردَّ الإمبراطور تشيان لونغ بغطرسة: «نحن لم نقدّر أبدًا المواد المبتكرة، وليس لدينا أدنىٰ حاجة لصناعات بلدكم». فالمزيد من الاتصال كما خلص الإمبراطور «لا ينسجم مع أنظمة الإمبراطورية السماوية [وو] . . . وليس له مزايا لبلادكم».

وتشارك القليل من الحكَّام الغربيين إيمان تشيان لونغ بالعزلة، ولم يكن العالم الذي يعيشون فيه تهيمن عليه إمبراطورية عظمىٰ واحدة مثل تشينغ الصينية؛ بل كان مكانًا للنزاعات وموازين القوىٰ المتغيِّرة باستمرار. وكما رأىٰ معظم الحكَّام الغربيين الأمور، فحتىٰ لو كانت ثروات العالم ثابتة، فبإمكان أي أمة الحصول علىٰ شريحة أكبر من الكعكة. فكل فلورين أو فرنك أو جنيه يُنفق علىٰ الحرب سيأتي بمثله، وطالما كان ذلك شعور بعض الحكَّام، كان علىٰ كل الحكَّام أن يكونوا علىٰ استعداد للقتال. ولم يتوقف سباق التسلُّح في أوروبا الغربية أبدًا.

أجرىٰ تجار الموت في أوروبا تحسينات مستمرة علىٰ أدوات تجارتهم (حراب أفضل، خراطيش بارود معبأة مسبقًا، وآليات إطلاق أسرع)، لكن انطلاقات التقدم الحقيقية أتت جراء تنظيم العنف بشكل أكثر علمية. لقد صنع الانضباط -أشياء مثل الأزياء، والرتب الرسمية المتفق عليها، وإطلاق المرفقعات للضباط الذين فعلوا ما يحلو لهم (علىٰ عكس الجنود العاديين، الذين كانوا ينالون دائما العقاب بوحشية)- المعجزات، وخلقت إضافة التدريب علىٰ مدار العام آلات مقاتلة قامت بمناورات معقدة وانتظمت في إطلاق نيران أسلحتهم.

قاتلت كلاب الحرب المنظمة هذه أكثر مقابل الحصول علىٰ الجيلدر (عملة هولندا، م). في البداية ألغىٰ الهولنديون ثمَّ منافسوهم التقليد المروّع بتوريد الحرب لمتعهدين سريين كانوا يؤجرون رويبضة من القتلة، ويدفعون لهم من دون انتظام أو لا يدفعون مطلقًا، ثمَّ يطلقونهم لانتزاع الإيرادات من المدنيين. ظلَّت الحرب جحيمًا، لكنها كسبت علىٰ الأقل قيودًا قليلة.

وانطبق الشيء نفسه علىٰ البحر، حيث أُسدلت الستائر علىٰ عصر جولي روجر، والمشي علىٰ اللوح الخشبي (طريقة إعدام استخدمها القراصنة، حيث يسير الأسير علىٰ لوح خشبي ممتد من السفينة وهو مقيد بأثقال فيدفعونه للقفز للماء، م)، والكنوز المدفونة، فقد قادت إنجلترا حربًا جديدة ضد القرصنة، التي كانت -مثل القرصنة في الصين في القرن السادس عشر- تدور حول الفساد بنفس قدر دورانها حول المحاربة بالسيوف. وعندما تجاهل الكابتن مورغان سيئ السمعة معاهدة سلام إنجليزية مع أسبانيا ونهب المستعمرات الأسبانية في البحر الكاريبي في عام ١٦٧١م، ساعده داعموه ذوو المناصب المميَّزة في الحصول علىٰ رتبة الفروسية، وحكم جامايكا. وبحلول عام ١٧٠١م، وجد الكابتن «كيد» نفسه أيضًا وهو يُزج به إلىٰ لندن لمجرد سرقة سفينة إنجليزية، ولدىٰ وصوله علم أن داعميه (بما في ذلك الملك) لن يساعدوه أو لم يكن ذلك في استطاعتهم. وبإنفاق آخر شلن لديه علىٰ الخمر، جُر الكابتن كيد إلىٰ المشنقة، وهو يصرخ «أنا أبرأ شخص بين الجميع!» فقط لينقطع الحبل. كان من الممكن أن ينقذه ذلك ذات مرة، ولكن ليس الآن. وأتىٰ إعدام آخر بالنتيجة المطلوبة. فبحلول عام

١٧١٨م، عندما اقترب الأسطول من بلاكبيرد (وهو لقب القرصان إدوارد تيتش) لم يحاول أي أحد حتىٰ أن يساعده. وقد قُتل بلاكبيرد بوحشية أكبر من كيد - خمس كُرات ماسكت وخمس وعشرون طعنة سيف- لكن البحارة هم من قتلوه. في ذلك العام كانت هناك ٥٠ غارة قرصنة في البحر الكاريبي، وبحلول عام ١٧٢٦م لم تكن هناك سوىٰ ست غارات فقط. وانتهىٰ عصر الفوضىٰ.

وقد تطلب كل ما سبق المال، واعتمدت إنجازات التنظيم علىٰ تطورات أكبر في التمويل. ولم يكن بمقدور أي حكومة أن تتحمل نفقات الإطعام والأجور وإمدادات الجنود والبحارة علىٰ مدار السنة، ولكن مرة أخرىٰ وجد الهولنديون الحل: الائتمان. تتطلب صناعة الأموال إنفاق الأموال، ولأنَّ هولندا كان لديها دخل ثابت من التجارة وبنوك قوية للتصرف في سيولتها النقدية، استطاع حكَّامها التجَّار أن يقترضوا مبالغ أكبر بسرعة أكبر وبفوائد أقل، وتسديدها علىٰ مدار فترات أطول من منافسيها المبذرين.

ومرة أخرىٰ، اتبعت إنجلترا الريادة الهولندية. وبحلول عام ١٧٠٠م امتلك البلدان المصارف الوطنية التي كانت تدير الدين العام عن طريق بيع سندات طويلة الأجل في سوق أوراق مالية، مع تهدئة حكوماتهم لقلق المُقرضين عن طريق إلزام ضرائب محددة لدفع الفوائد علىٰ السندات. وكانت النتائج رائعة. فكما فسر دانيال ديفوي (صاحب رواية «روبنسون كروزو» ملحمة الطرق السريعة المحيطية الجديدة):

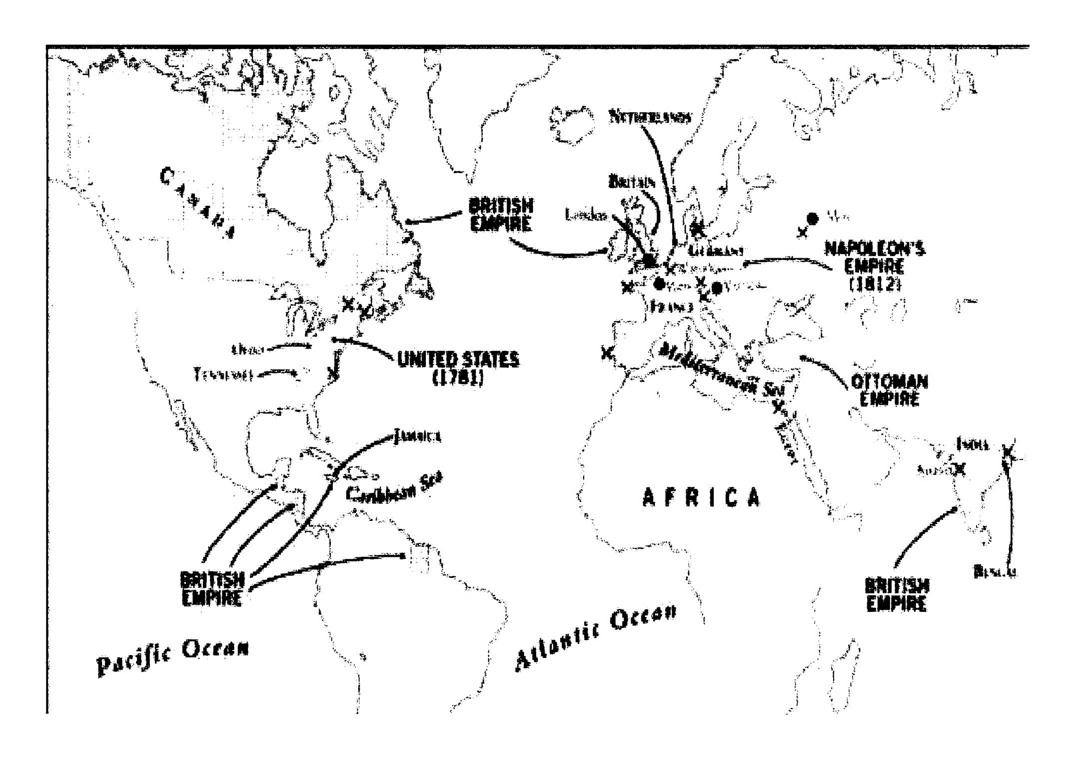
«إن الائتمان يصنع الحرب ويصنع السلام أيضًا ويزيد أعداد الجيوش ويجهِّز الأساطيل ويقاتل في المعارك ويحاصر البلدات؛ وباختصار، إنه بشكل أكثر عدلًا عصب الحرب أكثر من المال نفسه ... الائتمان يجعل الجندي يقاتل دون أجر والجيوش تسير دون مؤن ... ويملأ وزارات المالية والبنوك بما يحلو لها من الملايين عند الطلب».

كان الائتمان بلا حدود يعني حربًا لا نهاية لها. وكان علىٰ بريطانيا أن تحارب لعشرين عامًا للفوز بأكبر شريحة من كعكة التجارة من الهولنديين، لكن ذلك النصر لم يفعل سوىٰ التمهيد لصراع أكبر. فقد نزع حكَّام فرنسا إلىٰ إقامة

إمبراطورية من ذلك النوع الذي أضاع الهابسبرج، وخشاه الساسة البريطانيون، وقال رئيس وزراء بريطانيا ويليام بيت (الأب): «سوف تدمّرنا فرنسا في البحر عندما لا يكون لديهم ما يخشونه علىٰ الأرض». والحل الوحيد -كما أصرَّ- هو احتلال أمريكا عبر ألمانيا»، بتمويل تحالفات قارية لإبقاء فرنسا مقيَّدة في أوروبا بينما تندفع بريطانيا للاستيلاء علىٰ مستعمراتها في الخارج.

وشغلت الحروب الإنجليزية الفرنسية أكثر من نصف السنوات بين عام ١٦٨٩م، عندما فشلت أول محاولة لغزو إنجلترا من قِبَل فرنسا، وعام ١٨١٥م عندما هزم ولنجتون نابليون أخيرًا في معركة واترلوو. كان هذا الصراع الملحمي علىٰ أقل تقدير حربًا للغرب من أجل الهيمنة علىٰ المركز الأوروبي. ضربت الجيوش الضخمة وهجمت في ألمانيا وحفرت الخنادق في فلندرة، وهاجم رجال الحرب بعضهم بعضًا خارج الساحل الفرنسي وفي البحر المتوسط، وفي غابات كندا وأوهايو ومزارع منطقة البحر الكاريبي وغابات غرب أفريقيا والبنغال، خاض الحلفاء الأوروبيون والمحليون (خاصة) عشرات الحروب الصغيرة المريرة المستقلة التي أدت إلىٰ جعل حرب الغرب أول صراع عالمي.

كان هناك ما يكفي من الجرأة والخيانة لملء أكثر من كتاب، لكنَّ القصة الحقيقية حُكيت بالجنيه والشلن والبنس. فقد أعاد الائتمان باستمرار تعبئة جيوش بريطانيا أو أساطيلها، لكنَّ فرنسا لم تتمكن من سداد فواتيرها. «لقد بُليت أجراسنا برنين الانتصارات» كما تفاخر أحد البريطانيين في عام ١٧٥٩م، وفي عام ١٧٦٣م لم يكن لفرنسا أي خيار سوىٰ أن تتنازل عن معظم إمبراطورياتها في الخارج (الشكل ٩ - ٨).



الشكل (٩ - ٨). العالم مسرح كبير: الموقع العالمي لحرب الغرب بين بريطانيا وحلفائها ضد فرنسا بين أعوام ١٦٨٩ و١٨١٥م. تمثِّل السيوف المتقاطعة بعض المعارك الكبرىٰ، والإمبراطورية البريطانية كما كانت في عام ١٨١٥م محدَّدة بنقاط.

لم تنتهِ حرب الغرب. وحتىٰ بريطانيا شعرت بالضائقة المالية، وعندما أدت حيلة سيئة التخطيط بهدف جعل الكولونياليين الأمريكيين يتحملون جزءًا من فاتورة الحرب، إلىٰ ثورة في عام ١٧٧٦م، كانت فرنسا جاهزة بالنقدية والسفن التي صنعت فرقًا كبيرًا للثوار. ولم يستطع حتىٰ ائتمان بريطانيا السيطرة علىٰ الثوار العازمين علىٰ بُعد ثلاثة آلاف ميل من الوطن، ولا أي قوة عظمىٰ أخرىٰ.

ومع ذلك، فقد أمكن للتمويل أن ينزع شوكة الهزيمة. ففي أي عالم منطقي، كان لزامًا أن تؤدي خسارة أمريكا لصالح الثوار الذين احتفلوا بطريقهم للسعادة في صيغة مستوحاة من التنوير الفرنسي إلىٰ إفلاس اقتصاد بريطانيا الأطلسي والتبشير باقتراب ظهور إمبراطورية فرنسية في أوروبا. خاف «بيت» من مثل هذا، محذرًا من أنه إذا خسرت بريطانيا فإنه يتوقع أن يبيع كل رجل نبيل ما يملك وفاءً لديونه وأن يُبحر إلىٰ أمريكا، ولكن التجارة والائتمان أنقذا الموقف

مرة أخرىٰ؛ فسددت بريطانيا ديونها، وأبقت علىٰ دوريات أساطيلها في الطرق البحرية، واستمرت في حمل البضائع التي ظل الأمريكيون يحتاجونها. وبحلول عام ١٧٨٩م عادت التجارة الإنجليزية الأمريكية إلىٰ مستوياتها قبل الثورة.

ولكن بالنسبة إلىٰ فرنسا كان عام ١٧٨٩م بمثابة كارثة. فمن أجل الانتصار في الحرب الأمريكية كان لويس السادس عشر يدين بديون متزايدة لم يتمكن من سدادها، فجمع النبلاء والكهنة وأثرياء مجلس العموم للمطالبة بفرض ضرائب جديدة، فقط ليجعل هذا التصرف أعضاء مجلس العموم يحرضون التنويريين ضده. وبإعلان حقوق الإنسان (وبعد عامين حقوق المرأة)، وجد أثرياء مجلس العموم أنفسهم، من ناحية، يقومون بإدارة إعصار غير متوقع من التمرد والحرب الأهلية، ومن ناحية أخرىٰ، يحاولون تجنبه. «اجعلوا الإرهاب النظام السائد!» هكذا صاح الراديكاليون، ثمَّ أعدموا الملك وعائلته والآلاف من رفاقهم الثوار.

ومرة أخرىٰ، خابت التوقعات المعقولة. فبدلًا من ترك بريطانيا زعيمة للغرب، فتحت الثورة الطريق أمام أشكال جديدة من الحروب الشاملة، ولبضع سنوات عنيفة بدا وكأن نابليون -الجنرال العبقري- سيؤسس أخيرًا إمبراطورية أوروبية. وفي عام ١٨٠٥م حشد جيشه العظيم في رابع محاولة فرنسية لغزو بريطانيا منذ عام ١٦٨٩م: «لنكن سادة القناة لمدة ست ساعات»، هكذا أخبر نابليون الجيوش، و«سنكون سادة العالم!».

لكن لم يحصل نابليون أبدًا علىٰ هذه الساعات الست، وعلىٰ الرغم من أنه جعل أسوأ كوابيس التجَّار البريطانيين تتحقق من خلال منعهم من دخول جميع موانئ أوروبا، فإنَّه لم يستطع كسر قوتهم المالية. وفي عام ١٨١٢م سيطر نابليون علىٰ ربع سكان أوروبا وأصبح هناك جيش فرنسي في موسكو، وبعد عامين خرج نابليون من السلطة، وكان هناك جيش روسي (علىٰ قائمة رواتب إنجليزية) في باريس، وفي عام ١٨١٥م تدارس الدبلوماسيون في مؤتمر فيينا المصطلحات التي ستخفف من حرب الغرب علىٰ مدار تسع وتسعين سنة قادمة.

هل أحدثت كل هذه الحروب الفارق في النهاية؟ بطريقة ما، نعم. ففي عام ١٦٨٣م، عشية الحرب الإنجليزية الفرنسية، كانت فيينا من جديد تحت حصار

الجيش التركي، ولكن بحلول الوقت الذي اجتمعت فيه النخبة هناك في عام ١٨١٥م دفعت حرب الغرب قوة أوروبا الغربية ونظامها واقتصادها ليتصدر كل ذلك أي شيء آخر في العالم، وتوقف اندفاع الجيوش التركية. وعندما غزا نابليون مصر في عام ١٧٩٨م اضطر العثمانيون إلىٰ الاعتماد علىٰ بريطانيا للإطاحة به، وفي عام ١٨٠٣م انتشر أقل من خمسة آلاف جندي بريطاني (نصفهم من المعينين محليًا ومدربين في الجيوش الأوروبية) إلىٰ عشرة أضعاف أعداد الآسيويين الجنوبيين في أساي. وتغيَّر ميزان القوة العسكرية بشكل مدهش، نحو أوروبا الغربية.

ولكن بطريقة أخرىٰ، لا. فبالرغم من كل المعارك وعمليات القصف، ظلَّت الأجور الحقيقية تنخفض بعد عام ١٧٥٠م. وفي بداية سبعينيات القرن الثامن عشر، جلب جيل جديد من العلماء يطلقون علىٰ أنفسهم «علماء الاقتصاد السياسي»، كلَّ أدوات العلم والتنوير في مواجهة المشكلة. ولم تكن النتائج التي حصلوا عليها من أبحاثهم جيدة: فقد كانت -كما ادَّعوا- قوانين حديدية تحكم الإنسانية. أولًا، علىٰ الرغم من أنَّ الإمبراطورية والغزو قد يزيدان الإنتاجية والدخل، فإنَّ الناس سيحوِّلون دومًا ثرواتهم الإضافية إلىٰ إنجاب مزيد من الأطفال. وسوف تستهلك بطون الأطفال الفارغة جميع الثروات، والأسوأ من ذلك أنهم عندما يكبرون سيحتاجون إلىٰ أعمال خاصة بهم، وستدفع المنافسة بينهم الأجور إلىٰ حافة المجاعة.

لقد بدا أنَّه لا يوجد مخرج من هذه الدائرة البشعة. ولو علم علماء الاقتصاد السياسي عن مؤشر التطور الاجتماعي، لربما أشاروا إلىٰ أنه علىٰ الرغم من دفع السقف الصلب لأعلىٰ قليلًا، فقد ظل صلبًا أكثر من أي وقت مضىٰ. ولربما انبهروا لمعرفة أنَّ إحراز الغرب قد واكب إحراز الشرق في عام ١٧٧٣م، ولكنهم كانوا سيقولون بالتأكيد إنَّ هذا ليس مهمًا؛ لأنَّ قوانينهم الحديدية كانت تحظر أيًا من الإحرازين من الارتفاع أكثر من ذلك بكثير. فقد أثبت الاقتصاد السياسي إثباتًا علميًا أنَّ لا شيء سيتغيَّر حقًا.

لكنَّ الأشياء تغيَّرت بعد ذلك.

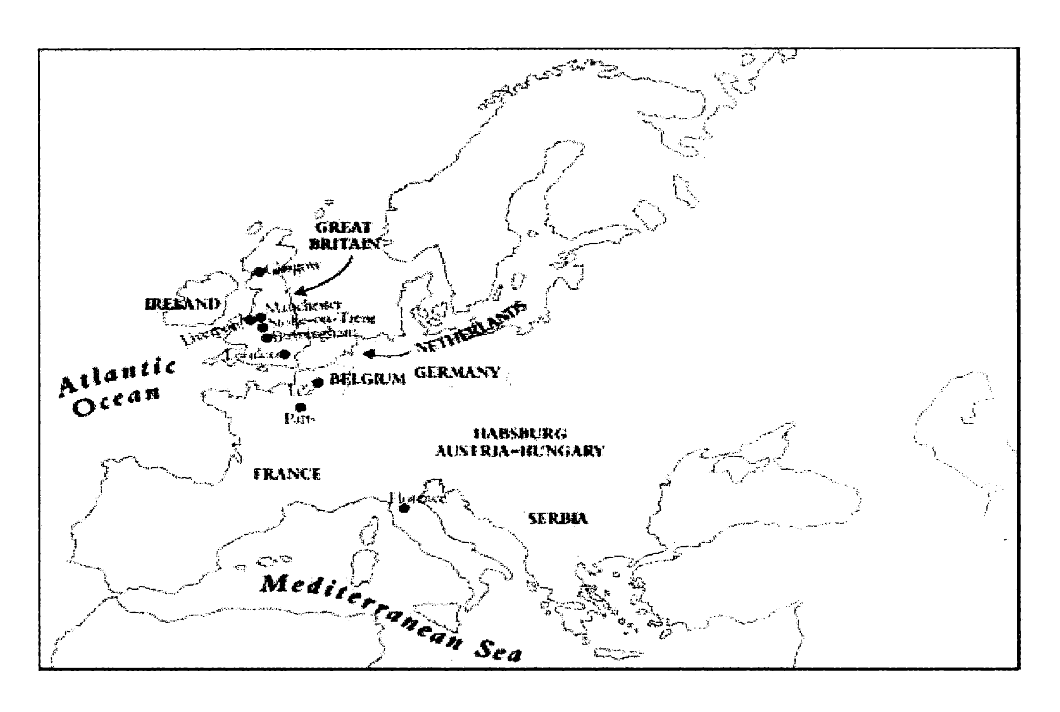
(١٠)

العصر الغربي

ما يُريده العالـم بأسره

من حين لآخر يكون هناك عام واحد يحوِّل الأرض من تحت أقدامنا. وفي الغرب، كان عام ١٧٧٦م هو هذه اللحظة. لقد تحوَّل عصيان ضريبي في أمريكا إلىٰ ثورة؛ ففي جلاسجو أنهىٰ آدم سميث كتاب «ثروة الأمم»، أول وأضخم عمل في الاقتصاد السياسي، وفي لندن وصل كتاب «تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» لإدوارد جيبون إلىٰ المكتبات واشتهر بين عشية وضحاها. كان الرجال العُظماء يقومون بأشياء عظيمة. ولكن في ٢٢ مارس لم يتواجد جيمس بوزويل - اللورد الأسكتلندي التاسع لمدينة أوكنلك، المؤلف الفاشل والمُرافق الطموح للأغنياء والمشاهير بغرض الانتفاع منهم- في أحد الصالونات المليئة بالأذكياء، ولكنَّه تواجد في حافلة تسير وسط طريق طيني تتجه نحو سوهو، وهي إقطاعية خارج برمنغهام في المقاطعات الوسطىٰ في إنجلترا (الشكل ١٠ - ١).

ومن بعيد، هناك برج الساعة في سوهو وطريق المركبات وواجهات المباني ذات الفن المعماري علىٰ طراز بالاديو، التي تجعل المدينة تبدو مثل المنزل الريفي الذي قد يرغب بوزويل في زيارته من أجل تناول الشاي وقضاء وقت ممتع، ولكن بالاقتراب أكثر، بدّد ضجيج المطارق، وهدير المخارط، ولعنات العمَّال كل هذه الأوهام. فلم تكن هذه أجواء رواية لچين أوستن؛ بل كان ذلك مصنعًا. وأراد جيمس بوزويل رغم امتيازاته وادَّعاءاته أن يشاهدها؛ إذ لم يكن ثمة شيء مشابه لسوهو في أي مكان آخر في العالم.



(موضع الشكل ١٠ - ١). طاقة للبيع: مهد الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر.

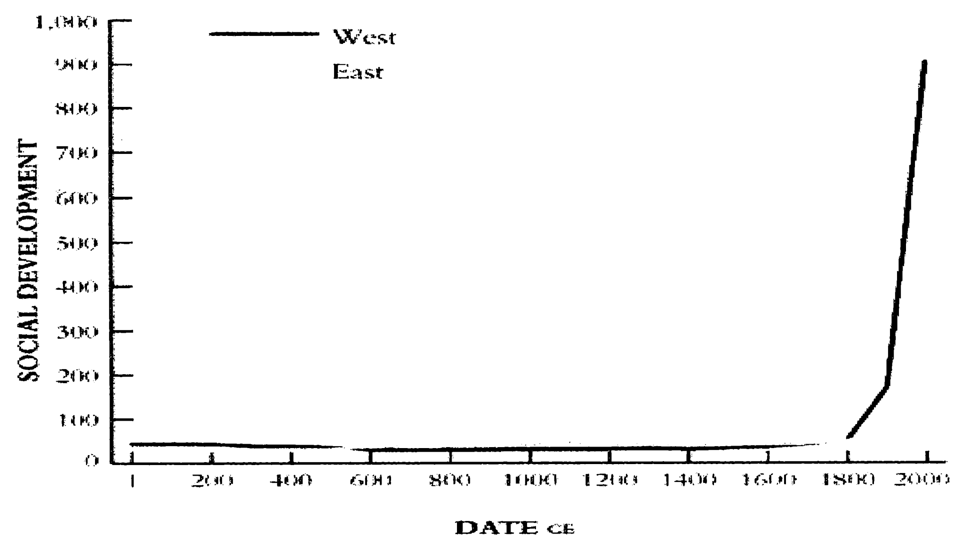
لقد ارتقىٰ كل شيء في سوهو لتطلعات بوزويل - مثل مئات العمَّال، و«ضخامة بعض الآلات وإبداعها»، وفوق كل شيء، مالك سوهو، ماثيو بولتون (الزعيم الحديدي، كما أطلق عليه بوزويل). وقد وثَّق بوزويل في مذكّراته ما يلي: «لن أنسىٰ أبدًا تعبير السيد بولتون [كما جاء] في حديثه لي: أنا أبيع هنا، يا سيدي، ما يرغب فيه العالم بأسره - الطاقة».

كان الرجال أمثال بولتون هم الذين أظهروا زيف التكهنات السوداوية لعلماء الاقتصاد السياسي. عندما تقابل بوزويل وبولتون في عام ١٧٧٦م، كان التطور الاجتماعي الغربي قد ارتفع إلىٰ خمس وأربعين نقطة منذ جال الصيادون وجامعو الثمار في العصر الجليدي في التندرا بحثًا عن الطعام، وفي المائة عام التالية ارتفع التطور بمقدار مائة نقطة أخرىٰ. وكان ذلك تحولًا لا يُصدَّق، قلب العالم رأسًا علىٰ عقب. وفي عام ١٧٧٦م كان الشرق والغرب لا يزالان متعادلين، بالكاد فوق الثلاث وأربعين نقطة عند السقف الصلب. وبعد قرن، حوَّل بيع الطاقة صدراة الغرب إلىٰ هيمنة غربية، وكما قال الشاعر وردزورث سنة ١٨٠٥م:

كانت تلك، في الحقيقة، ساعة للحراك العالمي

جنَّ جنون الرجال المتسامحين
وملأت الفوضىٰ، وصراع المشاعر والفكر، جدران المنازل
الآمنة بالأصوات المضطربة،
وكانت تربة الحياة المشتركة ساخنة جدًّا في ذلك الزمن للمشي عليها
وكثيرًا ما قلت حينئذٍ، وليس حينئذٍ فقط،
«يا لسخرية التاريخ؛ سخرية الماضي وما سيأتي!».

يا للسخرية حقًّا، علىٰ الأقل سخرية الماضي؛ ولكن ليس -في الحقيقة- سخرية ما سيأتي. لم يكد الحراك العالمي يبدأ، حتىٰ انطلق علىٰ مدىٰ القرن التالي التطور الغربي متجاوزًا المعدلات الطبيعية. إنَّ أي رسم بياني (مثل الشكل ١٠ - ٢) يمكن أن يتناسب مع نتائج الغرب المعاصر البالغة (٩٠٦ نقاط)، علىٰ محوره العمودي، يختزل كل التقلُّبات، والتقدمات والتأخرات، والانتصارات والمآسي التي ملأت أول تسعة فصول من هذا الكتاب إلىٰ شيء عديم الأهمية. وكل هذا بفضل ما كان يبيعه بولتون.



(موضع الشكل ١٠ - ٢). الحراك العالمي: التطور الاجتماعي عبر الألفي سنة الأخيرة، مُبيِّنًا انطلاقة الصدارة الغربية منذ عام ١٨٠٠م، التي سخرت من كل دراما تاريخ العالم الأول.

بهجة البخار

كان لدىٰ العالم طاقة قبل بولتون بالطبع. لكن بولوتون كان يبيع طاقة أفضل. طيلة ملايين السنين، كانت كل الطاقة لتحريك الأشياء تقريبًا تأتي من العضلات، وفي حين أنَّ قوة العضلات قد تكون مهمة -فهي التي بنت الأهرامات، وحفرت القناة الكبرىٰ، وقامت بطلاء كنيسة السيستين- فإنَّ لقوة العضلات حدودًا. أهمها: أنَّ العضلات هي أجزاء من الحيوانات، والحيوانات تحتاج للغذاء والمأوىٰ وفي كثير من الأحيان إلىٰ الوقود والملابس. وكل هذه الأشياء تأتي من النباتات أو الحيوانات الأخرىٰ، التي تتطلب أيضًا الغذاء والمأوىٰ، وهكذا دواليك. وكل هذه السلسلة في نهاية المطاف تحتاج إلىٰ الأرض. ولذا فبينما غدت الأرض شحيحة في القرن الثامن عشر، زادت تكلفة قوة العضلات.

ولعدة قرون، عزَّزت طاقتا الرياح والمياه من قوة العضلات عن طريق دفع السفن وتشغيل أحجار الرحىٰ. ولكن الرياح والمياه لهما حدود أيضًا. فهما متاحان فقط في أماكن معينة، ويمكن للجداول المائية أن تتجمد في الشتاء أو تجف في الصيف، وحينما يسكن الهواء تتوقف طواحين الهواء.

كان المطلوب هو طاقة محمولة، بحيث يستطيع البشر جلبها إلىٰ عملهم بدلًا من جلب أعمالهم إليها، وموثوقة بحيث لا تعتمد علىٰ الأحوال الجوية، ومحايدة بالنسبة إلىٰ المساحة، بحيث لا تستهلك ملايين الأفدنة من الأشجار والحقول. وقد رأىٰ صنَّاع الحديد في كايفنغ في القرن الحادي عشر أنَّ الإجابة

تكمن في الفحم، ولكن هذا كان له حدٌّ أيضًا. فالفحم يحرّر الطاقة في شكل حرارة فقط.

وقد أتىٰ الإنجاز -تحويل الحرارة إلىٰ حركة- في القرن الثامن عشر بدءًا من مناجم الفحم نفسها. كانت الفيضانات مشكلة مستمرة، وفي حين تمكنت قوة العضلات والدِّلاء من تجفيف الممرات العمودية للمناجم من الماء (قام صاحب منجم إنجليزي عبقري بربط خمسمائة حصان بسلسلة من الدِّلاء)، كانت عملية مكلفة للغاية. ولكن بعد إمعان النظر، يبدو الحل جليًّا: إخراج الماء من المنجم بالمحركات التي تأكل الفحم، وليس بالحيوانات التي تأكل الطعام. ولكن ذلك كان قوله أسهل من فعله.

لقد احتاج المركزان الشرقي والغربي إلىٰ الفحم في القرن الثامن عشر، وكلاهما واجه المناجم المغمورة بالمياه، ولكن صُنّاع المحرّكات الإنجليز هم الذين وجدوا الإجابة. وكما رأينا في الفصل التاسع، فهنا في أبعد طرف لأوروبا في الشمال الغربي، كافأ اقتصاد المحيط الأطلسي تلاعب البشر شبه العلمي بالأشياء. وقد أنتج هذا نوعية الرجال الذين تطلبتهم المشكلة، حيث جمع هؤلاء الرجال بين فطنة التجارة والخبرة العملية بالمعادن وبعض الإدراك الأساسي بالفيزياء. وكان مثل هؤلاء الرجال موجودين بالفعل في الصين واليابان، لكنَّهم كانوا نادرين، وبقدر ما نعلم، فلم يُحاول أحد منهم تعديل المحركات التي تعمل بالفحم.

وقد حصلت أول مضخَّة غربية معروفة باسم «صديقة عامل المنجم» علىٰ براءة الاختراع في إنجلترا في عام ١٦٩٨م. وكانت تحرق الفحم لغلي الماء، ثم تكثّف البخار وتدخله إلىٰ فراغ، وعندئذٍ يفتح المُشغّلون أحد الصمّامات، ثم يبتلع الفراغ المياه من المنجم. وبعد إغلاق الصمام، يُشعل العمَّال النيران لغلي هذا الماء وتحويله إلىٰ بخار، ثمَّ تتكرر العملية، المتحدية للجاذبية، لغليان الماء وتكثيفه مرارًا وتكرارًا.

وكانت آلة «صديقة عامل المنجم» بطيئة، وترفع ٤٠ قدمًا من المياه فقط، وكانت ذات نزوع غير ودِّي للانفجار، لكنَّها كانت (عادة) أرخص من إطعام

مئات الخيول. كما أنَّها أوحت بمزيد من التعديل، ولكن حتىٰ المحرّكات المُحسّنة ظلَّت مكلِّفة بشكل مخيف. ولأنهم كانوا يستخدمون الأسطوانة نفسها لغلي الماء، ثم تبريدها لصنع فراغ؛ فكان عليهم إعادة تسخين الأسطوانة لكل شوط للمضخة. وحتىٰ أفضل المحركات كانت تحوّل أقل من (١٪) من طاقة الفحم إلىٰ قوة لضخ المياه.

ولعقود طويلة، أدىٰ انعدام الكفاءة إلىٰ اقتصار قوة البخار علىٰ عمل واحد فقط؛ وهو ضخ المياه خارج مناجم الفحم، وحتىٰ هذا الأمر اشتكىٰ منه أحد أصحاب المناجم قائلًا: «إنَّ استهلاك هذه المحركات الضخم للوقود هو عيب هائل مقابل أرباح مناجمنا ... ستؤدي هذه الضرائب الثقيلة -غالبًا- إلىٰ حظر المحركات». وبالنسبة إلىٰ أي عمل يشمل شحن الفحم من المناجم إلىٰ المصانع، كانت المحركات البخارية باهظة الثمن.

لكن المحركات كانت مصدر متعة لأساتذة الجامعات. فقد اشترت جامعة جلاسجو نموذجًا مصغرًا لمحرك، ولكن عندما لم يستطع أي من العلماء تشغيله، شقَّ المحرك طريقه في عام ١٧٦٥م إلىٰ ورشة چيمس وات، وهو عالم رياضيات وصانع أدوات للجامعة. وتمكَّن وات من تشغيل المحرك، ولكن عدم كفاءة المحرك أهانت روحه الحِرَفية. ومن بين المهام الأخرىٰ كان وات شغوفًا بالتوصل إلىٰ طرق أفضل لتبخير المياه وتكثيفها، إلىٰ أن - كما قال:

«ذهبتُ للتنزه بعد ظهر يوم سبت رائع ... حينما دارت برأسي فكرة أنَّه إذا كان البخار جسمًا مطاطيًّا فسيندفع إلىٰ الفراغ، وإذا تمَّ الربط بين الأسطوانة [المُسخّنة] ووعاء مُفرّغ، فسيندفع البخار داخل الوعاء، وسيتكثف هناك من دون الحاجة إلىٰ تبريد الأسطوانة ... لم أكن قد تخطيت ملعب الجولف عندما أصبح كل شيء مُرتّبًا في ذهني».

وعندما أتىٰ يوم الأحد، لم يفعل وات التقيّ شيئًا، ولكن في صباح يوم الاثنين قام وات ببناء نموذج جديد تمَّ فيه الفصل بين المُكثّف وأسطوانة التبخير. وبدلًا من تسخين الأسطوانة وتبريدها بالتناوب، بقي الآن المبخر ساخنًا والمكثف باردًا، ممَّا وفَّر في استخدام الفحم بمقدار أربعة أخماس تقريبًا.

وقد أنتج ذلك مجموعة من المشاكل الجديدة، ولكن وات كدح في معالجتها علىٰ مدىٰ العام تلو الآخر. وماتت زوجته، وأفلس داعمه، ولكنَّه لم يتمكن بعد من جعل المحرّك يعمل بشكل جدير بالثقة. ولكن في عام ١٧٧٤م، عندما كان وات علىٰ وشك التخلي عن تعديلاته من أجل أن يعمل المحرك بشكل أكثر ثباتًا، أنقذ ماثيو بولتون الوضع، واشترىٰ دَيْن داعم وات، ونقل صانع المحركات إلىٰ برمنغهام. ألقىٰ بولتون بالأموال والحدّاد ويلينكسون (المجنون بالحديد) في قلب المشكلة. (اعتقد ويلينكسون أنَّ كل شيء يحب أن يكون مصنوعًا من الحديد، بما في ذلك تابوته).

وبعد ستة أشهر كتب وات إلىٰ والده أنَّ محرّكه الآن «ناجح إلىٰ حد ما»، وهو ما يدهشني باعتباره ثاني أعظم قلة تقدير في التاريخ، (وسأشير إلىٰ أعظم قلة تقدير لاحقًا في هذا الفصل). وفي معرض عمومي كبير في مارس عام ١٧٧٦م كان مُحرّك وات وبولتون يضخ ٦٠ قدمًا من المياه في منجم في ٦٠ دقيقة، وكان المحرك يحرق ربع مقدار الفحم الذي تحرقه الماكينات الأقدم.

ولا عجب أنَّ بولتون كان يشعر بالعظمة عندما زار بوزويل سوهو في ذلك الشهر. فمع محركات أصبحت ذات تكلفة فعَّالة خارج المناجم نفسها، كانت السماء هي الحد الأقصىٰ. وكتب بولتون إلىٰ وات: «إذا أنجزنا ... مائة وعشرين محركًا صغيرًا ... وعشرين محركًا كبيرًا، فسنتمكن من بيعها بسهولة. لنغتنم الفرصة ما دامت سانحة».

وقد فعلا ذلك، وإن كانا في دهشة من بعض العملاء الذين أتوا إلىٰ بابهم. فقد كان أول المُصنِّعين الذين استولوا علىٰ قوة البخار هم صُنَّاع الملابس القطنية. لم يكن القطن يُزرع في أوروبا الغربية حتىٰ أصبح بريطانيو القرن السابع عشر يرتدون عادة الصوف الخشن الذي تفوح منه رائحة العرق طوال العام، واستغنوا -عمومًا- عن الملابس الداخلية تمامًا. وكما كان متوقعًا، عندما بدأ التجَّار يستوردون القماش القطني الخفيف والمطبوع بألوان زاهية من الهند، كان ذلك بمثابة ضربة كبرىٰ. كتب دانيال ديفو عن هذا الأمر في عام ١٧٠٨م قائلًا: «لقد تسلل ذلك القماش إلىٰ منازلنا، وخزائننا، وغُرف نومنا. لم تكن الستائر

والوسائد والكراسي وأخيرًا الأسرَّة نفسها سوىٰ قماش كاليكو القطني أو مواد هندية».

جمع المستوردون ثروات طائلة، لكن الأموال التي أُنفِقت علىٰ القطن الهندي كانت بالطبع لا تُنفق علىٰ الصوف الإنجليزي. ولذلك سعىٰ أقطاب الصوف للضغط علىٰ البرلمان لحظر القماش القطني، وعندئذٍ استورد بريطانيون آخرون القطن الخام (الأمر الذي كان لا يزال قانونيًّا)، وحاكوا ملابسهم الخاصة. ولكن للأسف لم يكونوا جيِّدين في ذلك مثل الهنود، وفي أواخر ستينيات القرن الثامن عشر كان سوق القطن الإنجليزي يعدل واحدًا علىٰ الثلاثين من سوق الصوف الإنجليزي.

لكن القطن يمتلك شيئًا واحدًا يساعد علىٰ تفضيله وهو: أنَّ المهمة المُرهقة لغزل خيوطه كانت قابلة للميكنة. لمدة عشرات آلاف من السنين اعتمد إنتاج المنسوجات علىٰ النساء رشيقات الأصابع (ونادرًا الرجال) لبرم خيوط الصوف أو الألياف إلىٰ خيوط مغزولة. وقد رأينا في الفصل السابع أنَّه بحلول عام ١٣٠٠م كان الصينيون الذي يقومون بالغزل يستخدمون آلات تُدار بواسطة كل من الماء والحيوانات لزيادة الإنتاجية. وشاعت هذه الآلات عبر القرون التالية، وزادت من الإنتاج بشكل مطرد، لكنَّ التحرك البريطاني نحو الميكنة جعل كل هذه المهارات القديمة زائدة عن الحاجة. وفي عام ١٧٠٠م كان الشخص الذي يغزل باستخدام عجلة تعمل بدوّاسة يحتاج إلىٰ مائتي ساعة لإنتاج رطل من الخيط المغزول، وبحلول عام ١٨٠٠م كانت ثمة أجهزة غير عادية ذات أسماء غير عادية بشكل أكبر -هارغريفز چيني، مغزل آركرايت، مغزل كرومبتون الآلي- تقوم بالعمل نفسه في ثلاث ساعات فقط، (وكان مغزل روبرتس الآلي، الذي تمَّ اختراعه في عام ١٨٢٤م، يقوم بالعمل خلال ساعة وعشرين دقيقة). وكانت حركة الآلات المتكررة تجعلها أيضًا مثالية للقوة البخارية وللتركّز في المصانع الكبيرة، وهكذا تمَّ افتتاح أول مصنع غزل يعمل بالمحركات البخارية (والمُجهّز بالطبع بواسطة بولتون ووات) في عام ١٧٨٥م.

لقد جعلت الآلات القطن البريطاني أرخص وأرقىٰ وأقوىٰ وأكثر اتساقًا حتىٰ من القطن الهندي، وزادت الصادرات البريطانية للأقمشة المشغولة بمقدار مائة ضعف بين أعوام (١٧٦٠ و١٨١٥م)، ممَّا حوّل صناعة القطن من صناعة صغيرة إلىٰ مصدر ما يقرب من جزء من اثني عشر جزءًا من الدخل القومي. كان مائة ألف من الرجال والنساء والأطفال (خاصة) يعملون لمدة ١٢ ساعة أو أكثر يوميًا لمدة ستة أيام في الأسبوع في المصانع، وأغرقوا الأسواق بالقطن لدرجة انخفاض سعر خيط الغزل من ٣٨ شلنًا للرطل الواحد في عام ١٧٨٦م إلىٰ ما يقل عن سبعة شلنات في عام ١٨٠٧م. وفي حين هبطت الأسعار، اتسعت الأسواق. وظلَّت الأرباح تزدهر.

جعلت الجغرافيا من القطن الصناعة المثالية لبريطانيا، ولأنَّ المواد الخام لصناعة القطن كانت تُزرع في الخارج، فلم تُشكِّل أي منافسة علىٰ أرض الوطن. وقد حوّل الأمريكيون الذين كانوا متلهفين للأموال البريطانية، ملايين الأفدنة إلىٰ مزارع للقطن ووضعوا مئات الآلاف من العبيد للعمل فيها، وارتفع الإنتاج من (٣ آلاف بالة قطن) في عام ١٧٩٠م إلىٰ (١٧٨ ألف بالة) في عام ١٨١٠م، ثمَّ إلىٰ (٤,٥ ملايين بالة) في عام ١٨٦٠م. كما حفَّزت الابتكارات البريطانية في مجال الغزل الابتكارات الأمريكية في المزارع، مثل محرك إيلي ويتني، الذي كان يفصل ألياف القطن عن البذور اللزجة بتكلفة أرخص من فصله بأيادي العبيد، وارتفع توريد القطن الأمريكي ليُلبِّي الطلب البريطاني، ممَّا أبقىٰ علىٰ انخفاض الأسعار، وأدىٰ إلىٰ إثراء أصحاب المصانع والمزارع، وخلق جيوشًا ضخمة جديدة من العمالة علىٰ طرفي المحيط الأطلسي.

وفي بريطانيا، قفزت التكنولوچيا من صناعة إلىٰ صناعة، ممَّا شجَّع علىٰ مزيد من التكنولوجيا. وكانت أهم قفزة نحو المصنوعات الحديدية، وهي الصناعة التي أنتجت المواد التي تطلبتها الصناعات الجديدة الأخرىٰ. وقد عرف صُنَّاع الحديد في بريطانيا كيفية إذابة الحديد بواسطة الفحم منذ عام ١٧٠٩م (متأخرين بمقدار سبعة قرون عن علماء الفلزات الصينيين)، ولكن كانت لديهم مشكلة الإبقاء علىٰ أفرانهم ساخنة بما يكفي لإذابة الفحم، وبعد عام ١٧٧٦م حلّت

محركات بولتون ووات المشكلة عن طريق توفير نفخات منتظمة من الهواء، وخلال عقد من الزمان ذلَّلت عملية كورت لتسويط الحديد وتسويته (والتي سُميّت بنفس قدر روعة التسميات في صناعة الغزل) الصعوبات التقنية المتبقية. وباتباع نفس مسار القطن، شهد صُنّاع الحديد انخفاض تكاليف الأيدي العاملة بينما تفجَّرت كل من العمالة والإنتاجية والأرباح.

لقد كشف بولتون ومنافسوه الغطاء عن أسر الطاقة، وعلىٰ الرغم من أن ثورتهم استغرقت عدة عقود لتنكشف (في عام ١٨٠٠م، كان المُصنّعون البريطانيون لا يزالون ينتجون قوة من السواقي المائية تعدل ثلاثة أضعاف قوة المحرّكات البخارية)، لكنها كانت بمثابة أكبر وأسرع تحوُّل في تاريخ العالم بأسره. وعلىٰ مدىٰ ثلاثة أجيال حطَّم التغيُّر التكنولوچي السقف الصلب. وبحلول عام ١٨٧٠م، كانت محركات بريطانيا البخارية تنتج قوة بمقدار (٤ ملايين حصان)، أي ما يعادل عمل (٤٠ مليون رجل)، الذين كانوا سيستهلكون -إذا ظلَّت الصناعة تعتمد علىٰ قوة العضلات- أكثر من ثلاثة أضعاف ناتج بريطانيا الكلي من محصول القمح. لقد جعل الوقود الأحفوري المستحيل ممكنًا.

التباين الكبير

يُحب المحليون إطلاق اسم مهد الثورة الصناعية علىٰ مسقط رأسي، ستوك أون ترينت، في المقاطعات الوسطىٰ في إنجلترا. وتأتي شهرة المدينة من كونها قلب صناعة الخزفيات، حيث قام يوشيا ودچوود بميكنة صناعة المزهريات في ستينيات القرن الثامن عشر. وقد اجتاحت صناعة المزهريات كل شيء في مدينة ستوك. وحتىٰ في أقدم تجاربي الأثرية الخاصة وأنا مراهق، بعد مرور قرنين تقريبًا في ظلّ أثر ودچوود، كنتُ أعمل علىٰ المزهريات التي لم تُحرق عن طريق الخطأ في مستودع كبير خلف مصنع ويلدون، وهو المكان الذي تعلّم فيه ودچوود حرفته.

تأسست ستوك علىٰ الفحم والحديد والطمي، عندما كنت صغيرًا كان معظم عُمّالها لا يزالون يستيقظون قبل الفجر ويتوجهون إلىٰ المقلع أو مصنع الفولاذ أو مصنع الخزف. وكان جدِّي صانع فولاذ، وقد ترك والدي المدرسة للعمل في المناجم قبل بلوغه سن ١٤ سنة. وفي أيام دراستي في المدرسة كان يتم إخبارنا دومًا كيف جعلت شجاعة أجدادنا وحزمهم وعبقريتهم بريطانيا عظيمة وكيف غيَّرت العالم. ولكن بقدر ما أتذكر، لم يخبرنا أحد لماذا كانت تلالنا ووديانا، بدلًا من تلال أشخاص آخرين ووديانهم في مكان آخر، هي مهد الصناعة الوليدة.

يُعدُّ هذا السؤال هو مقدمة الجدل حول التباين الكبير بين الغرب والشرق. هل كان من الحتمي حدوث الثورة الصناعية في بريطانيا (في وحول ستوك أون ترينت، في الحقيقة) بدلًا من مكان آخر في الغرب؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك،

هل كان من الحتمي حدوثها في الغرب وليس في مكان آخر؟ أو بمعنىٰ أصح، هل كان من الحتمي أن تحدث علىٰ الإطلاق؟

تذمّرتُ في مقدمة هذا الكتاب أنَّه علىٰ الرغم من أنَّ هذه الأسئلة تتعلق بما إذا كانت الهيمنة الغربية حتمية منذ الماضي البعيد أم لا، فإنَّ الخبراء الذين يُقدّمون أجوبة نادرًا ما ينظرون إلىٰ الوراء بقدر أكبر من أربعمائة أو خمسمائة عام. وآمل أن أكون قد قدَّمتُ وجهة نظري الآن عن أنَّ وضع الثورة الصناعية داخل المنظور التاريخي الطويل الموضَّح في أول تسعة فصول لهذا الكتاب سيقدِّم إجابات أفضل.

لقد كانت الثورة الصناعية فريدة بشأن مدىٰ زيادتها للتطور الاجتماعي، ومدىٰ سرعة تلك الزيادة، ولكنَّها فيما عدا ذلك كانت مماثلة جدًّا لجميع الطفرات في التاريخ القديم. ومثل كل تلك المشاهد السابقة للتطور الاجتماعي المرتفع سريعًا (نسبيًّا)، فقد حدثت الثورة الصناعية في منطقة ظلَّت حتىٰ وقت قريب هامشية بالنسبة إلىٰ القصة الرئيسة. ومنذ نشأة الزراعة، توسَّعت المراكز الرئيسة من خلال الجمع المتنوع بين الاستعمار والمحاكاة، مع تبنِّي السكان علىٰ أطرافها للأمور التي أثبتت فعاليتها في المركز، وأحيانًا تكييفها مع بيئات مختلفة في الأطراف. وكشفت هذه السيرورة أحيانًا عن مزايا التخلف، مثلما عندما وجد مزارعو الألفية الخامسة قبل الميلاد أنَّ السبيل الوحيد لكسب العيش في بلاد الرافدين كان عن طريق الري، في عملية تحويل بلاد الرافدين إلىٰ مركز جديد، أو عندما توسَّعت المدن والدول في حوض البحر المتوسط في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد، ممَّا أدىٰ إلىٰ تطوير أنماط جديدة من التجارة البحرية، أو عندما فرَّ مزارعو شمال الصين جنوبًا وحوّلوا المنطقة التي تلي نهر اليانغتسي إلىٰ جبهة جديدة للأرز بعد عام ٤٠٠م.

عندما توسَّع المركز الغربي شمالًا وغربًا من منطقته المركزية المتوسطية في الألفية الثانية بعد الميلاد، اكتشف الأوروبيون الغربيون أخيرًا أنَّ التكنولوجيا البحرية الجديدة بإمكانها تحويل عزلتهم الجغرافية، التي طالما كانت مصدرًا للتخلف، إلىٰ ميزة. وبشكل عَرَضي أكثر من كونه تخطيطيًّا، أنشأ الأوروبيون

الغربيون أنواعًا جديدة من الإمبراطوريات المُحيطية، وفي ظلّ رفع اقتصادهم الأطلسي الجديد التطور الاجتماعي، قدّم تحديات جديدة تمامًا.

لم تكن ثمة ضمانة علىٰ أنَّ الأوروبيين سيواجهون هذه التحديات، ولم يجد الرومان (في القرن الأول)، ولا السونغ الصينيون (في القرن الحادي عشر) طريقة عبر السقف الصلب. وكانت كل الدلائل تشير إلىٰ أنَّ قوة العضلات هي المصدر النهائي للقوة، وأنَّه لن يزيد عدد الذين يستطيعون القراءة عن (١٠٪) إلىٰ (١٥٪) من الأشخاص علىٰ الإطلاق، وأنَّ المدن والجيوش لن تتمكن أبدًا من تخطِّي مليون فرد، وأنَّ التطور الاجتماعي -نتيجة لذلك- لن يتمكن أبدًا من تخطِّي بداية الأربعينيات علىٰ المؤشر. ولكن في القرن الثامن عشر نحَّىٰ الغربيون هذه الحدود جانبًا، وعن طريق بيع الطاقة التي صنعوها سخروا من كل ما سبق.

وقد نجح الأوروبيون الغربيون، حيث أخفق الرومان والسونغ؛ لأنَّ ثلاثة أمور قد تغيَّرت؛ أولًا: استمرار تراكم التكنولوچيا. كانت بعض المهارات تُفقد في كل مرة ينهار فيها التطور الاجتماعي، لكن أغلبها لم يكن يُفقد، وعبر القرون كانت تُضاف مهارات جديدة. فقد ظلَّ مبدأ «النهر نفسه مرتين» مُجديًا، فكل مجتمع كان يضغط علىٰ السقف الصلب بين القرنين الأول والثامن عشر، كان مختلفًا بالأساس عن المجتمعات التي سبقته. وكل مجتمع يعرف أكثر ويستطيع أن يفعل أكثر من تلك المجتمعات التي سبقته.

وثانيًا: وإلىٰ حد كبير بسبب تراكم التكنولوچيا، أصبح لدىٰ الإمبراطوريات الزراعية الآن مدافع فعّالة ممَّا سمح لأسرة رومانوف وسلالة تشين بإغلاق طريق السهول الرئيس. وبالتالي عندما ضغط التطور الاجتماعي علىٰ السقف الصلب في القرن السابع عشر، لم يمتطِ الفارس الخامس من فرسان الهلاك -الهجرة- فرسه. كان ذلك صراعًا كبيرًا، لكنَّ المراكز تمكَّنت من مواجهة الفرسان الأربعة الآخرين، وتجنبت حدوث الانهيار. ومن دون هذا التغيير، كان من المحتمل أن يكون القرن الثامن عشر كارثيًا مثل القرنيْن الثالث والثالث عشر.

وثالثًا: ومرة أخرىٰ بسبب تراكم التكنولوچيا إلىٰ حدٍّ كبير، تمكَّنت السفن عندئذٍ من الإبحار إلىٰ كل مكان تريده تقريبًا، ممَّا سمح للأوروبيين الغربيين بخلق

اقتصاد أطلسي جديد لم يُر له مثيل من قبل. لم يكن الرومان ولا السونغ في وضع يسمح لهم ببناء مثل ذلك المحرك الضخم للنمو التجاري، ولم يكن عليهم التصدي للمشاكل التي فرضت نفسها علىٰ اهتمام الأوروبيين الغربيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولم يكن نيوتن ووات وأقرانهما أكثر براعة من شيشرو وشين كو وأقرانهم؛ بل كانوا يفكّرون في أشياء مختلفة، فحسب.

لقد كانت أوروبا الغربية في القرن الثامن عشر في وضع أفضل من أي مجتمع أقدم كي تخترق السقف الصلب؛ ففي داخل أوروبا الغربية كان الشمال الغربي -بملوكه الضعاف وتُجّاره الأكثر حرية- في وضع أفضل من الجنوب الغربي، وفي الشمال الغربي كانت بريطانيا في أفضل وضع بين الجميع. وبحلول عام ١٧٧٠م لم تمتلك بريطانيا أجورًا أعلىٰ، وكميات أكبر من الفحم، واقتصادًا أقوىٰ، ومؤسسات أكثر انفتاحًا (في وجه رجال الطبقة الوسطىٰ والعُليا علىٰ أية حال) من أي أحد آخر فحسب، ولكن بفضل انتصارها في حروبها مع الهولنديين والفرنسيين، امتلكت أيضًا مستعمرات وسفنًا حربية أكثر وتجارة أكبر.

كان قيام الثورة الصناعية في بريطانيا أسهل من قيامها في أي مكان آخر، ولكن بريطانيا لم تكن تمتلك حتمية للتصنيع. إذا كانت الأجراس الفرنسية هي التي بَلِيت من رنين الانتصارات بدلًا من الأجراس البريطانية في عام ١٧٥٩م، وإذا جرَّدت فرنسا بريطانيا من قوّاتها البحرية، ومُستعمراتها بدلًا من تجريد بريطانيا لفرنسا؛ لم يكن أجدادي ليُربّوني علىٰ القصص التي تحكي كيف ولَّدت (ستوك أون ترنت) الثورة الصناعية. ولربما كان الأجداد في إحدىٰ المدن الفرنسية التي أظلمها الدخان هم الذين يغزلون القطن بدلًا من البريطانيين. كان لدىٰ فرنسا، في النهاية، الكثير من المخترعين ورُوّاد الأعمال، وحتىٰ التغيّر البسيط في الأوقاف القومية أو قرارات الملوك والجنرالات كان يمكن أن يؤدي إلىٰ فرق كبير.

الرجال العُظماء، والأغبياء الحمقىٰ، والمحظوظون كلها أمور كانت مرتبطة بشكل كبير بسبب كون الثورة الصناعية بريطانيةً وليست فرنسية، وبشكل أقل بكثير بسبب حدوث الثورة الصناعية في الغرب في المقام الأول. ولتوضيح هذا، علينا

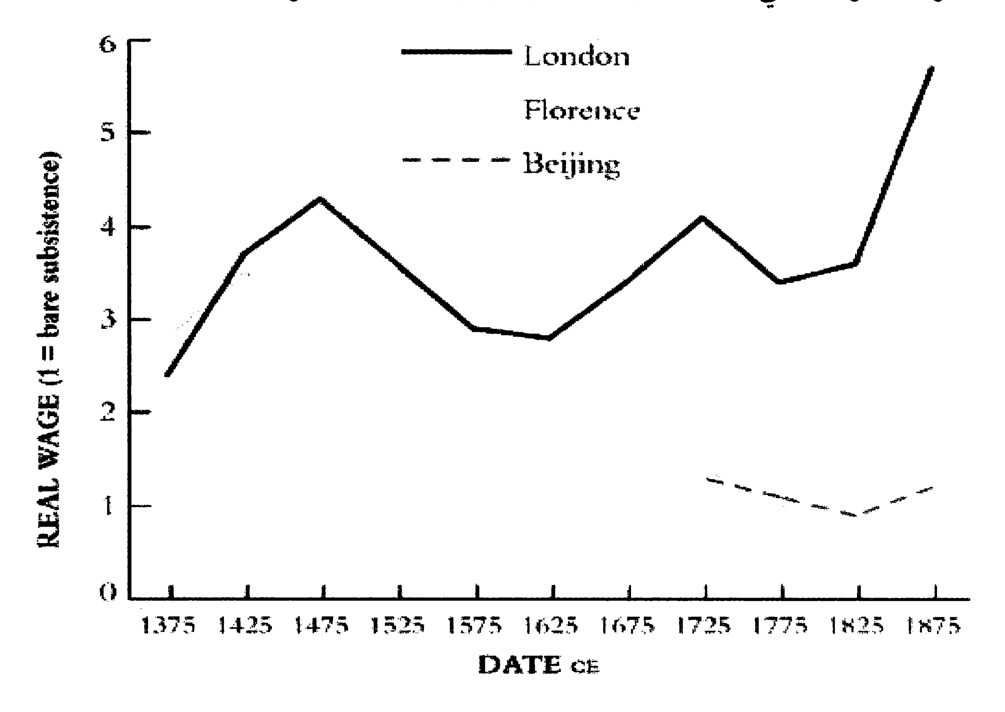
أن ننظر إلىٰ القوىٰ الأكبر؛ لأنَّه ما إن تراكم ما يكفي من التكنولوچيا، وإغلاق طريق السهول، وفتح الطرق المُحيطية الرئيسة -بحلول عام ١٦٥٠م أو ١٧٠٠م- فمن الصعب تصوّر ما الذي كان يمكن أن يُوقف حدوث ثورة صناعية في مكان ما في أوروبا الغربية. لو كانت فرنسا أو البلدان المنخفضة هي التي أصبحت مصنع العالم بدلًا من بريطانيا، لبزغت الثورة الصناعية ببطء أكثر، ربما بدءًا من سبعينيات القرن التاسع عشر بدلًا من سبعينيات القرن الثامن عشر، ولكان العالم الذي نعيش فيه اليوم مختلفًا. ولكنَّ أوروبا الغربية كانت ستظل تملك الثورة الصناعية الأصلية، وكان الغرب سيظل مهيمنًا. وسأكون لا أزال أكتبُ هذا الكتاب، ولكنَّه ربما كان سيكون بالفرنسية بدلًا من الإنجليزية.

كل ذلك ما لم يكن الشرق قد بدأ التصنيع أولًا وبشكل مستقل. هل كان ذلك ليحدث لو كان التصنيع الغربي أبطأ؟ وهنا -بالطبع- أنا أجمع أسئلة (ماذا لو) فوق بعضها، لكنني أعتقد أنَّ الإجابة لا تزال واضحة إلىٰ حد ما: علىٰ الأرجح، لا. فعلىٰ الرغم من أنَّ إحرازات التطور الاجتماعي الشرقي والغربي كانت متعادلة حتىٰ عام ١٨٠٠م، فهناك دلائل قليلة علىٰ أنَّ الشرق لو تُرك وحيدًا كان سيتحرك نحو التصنيع بسرعة كافية ليبدأ انطلاقته الخاصة في أثناء القرن التاسع عشر.

كان الشرق يمتلك أسواقًا كبيرة وتجارة قوية، ولكنَّها لم تكن ناجحة مثل الاقتصاد الأطلسي للغرب، وفي حين لم يكن الناس العاديون في الشرق فقيرين كما زعم آدم سميث في كتابه «ثروة الأمم» «والفقر الذي تُعاني منه طبقات الشعب الدنيا في الصين يتجاوز بكثير كل ما يُعرف عن أكثر أمم أوروبا تسوّلًا»، يبيِّن (الشكل ٣ - ١٠) أنَّهم لم يكونوا أغنياء علىٰ السواء. لم يكن سكان بكين أسوأ من الفلورنسيين، ولكنَّهم كانوا أسوأ بكثير من سكان لندن. ومع كون العمالة رخيصةً جدًّا في الصين واليابان (وجنوب أوروبا)، كانت الحوافز علىٰ البدائل المحلّية بالنسبة إلىٰ بولتون كي يستثمر في الآلات ضعيفةً. ففي وقت متأخر حتىٰ عام ١٨٨٠م كانت التكاليف المُقدّمة لفتح منجم يضم ستمائة عامل صيني تُقدّر بمبلغ ٤٢٧٢ دولارًا، وهو ما يبلغ تقريبًا ثمن مضخّة بخارية واحدة. وحتىٰ عندما

كان لديهم الخيار، فضّل المستثمرون الصينيون الأذكياء العضلات الرخيصة علىٰ البخار المُكلّف.

ومع وجود القليل ليكسبوه من إجراء التعديلات، لم يُبدِ روّاد الأعمال ولا العلماء في الأكاديميات الإمبراطورية أي اهتمام بالغلّايات والمُكثّفات، فضلًا عن آلات الغزل. وكي يمتلك ثورته الصناعية الخاصة، كان الشرق بحاجة إلىٰ خلق بديل موازٍ للاقتصاد الأطلسي، بإمكانه توليد زيادة في الأجور وتحديات جديدة، محفّزًا الفكر العلمي، والتحسينات الميكانيكية، والطاقة الرخيصة.



(موضع الشكل ١٠ - ٣). انقسام عُمّال العالم: بالرغم من معاناتهم، كان العُمّال البريطانيون يكسبون أكثر بكثير من العمَّال غير البريطانيين بين أعوام (١٧٨٠ و١٨٣٠م)، وكان وضعهم أفضل بعد عام ١٨٣٠م. يقارن الرسم البياني بين الأجور الحقيقية للعُمّال غير المهرة في لندن، وفلورنس (وهي تتطابق نوعًا ما مع أجور جنوب أوروبا المنخفضة)، وبكين (ممثلةً الأجور الصينية واليابانية).

ومرة أخرىٰ، ربما كان بمقدور الشرق تجاوز ذلك إذا توفر الوقت، ففي القرن الثامن عشر كان هناك شتات صيني مزدهر في جنوب شرق آسيا، وفي حالة

تساوي العوامل الأخرىٰ، لبزغ هناك نوع الارتباط الجغرافي الذي اتسم به الاقتصاد الأطلسي في القرن التاسع عشر. لكنَّ العوامل الأخرىٰ لم تكن متساوية. وقد استغرق الأمر مائتي سنة لانتقال الغربيين من چيمس تاون إلىٰ چيمس وات. لو تُرك الشرق في عُزلة مترفة، ولو تحرك في طريق الغرب نفسه خلال القرنين التاسع عشر والعشرين نحو إقامة اقتصاد متنوع جغرافيًا، ولو تحرك بوتيرة الغرب نفسها تقريبًا، كان من الممكن أن يكتشف وات صيني أو بولتون ياباني في هذه اللحظة أول محرك بخاري في شانغهاي أو طوكيو. ولكن لم تحدث أي من هذه الاحتمالات؛ لأنَّه بمجرد أن بدأت الثورة الصناعية في الغرب، ابتلعت العالم.

الجراد جرايندون

حتىٰ وقت متأخر مثل عام ١٧٥٠م، كانت أوجه التشابه بين الشرق والغرب لا تزال مذهلة. فقد كان كلاهما اقتصاديات زراعية متقدمة مع تقسيمات معقدة للعمل، وشبكات تجارية ممتدة وقطاعات تصنيع متنامية. وفي كلا طرفي أوروبا الآسيوية كانت النخب الثرية المتملّكة للأراضي، من خلال ثقتها في استقرار نظامها وتقاليده وقيمته، تمتلك كل شيء. وقد دافعت كل نخبة عن مكانتها بقواعد تفصيلية للاحترام وآداب السلوك، واستهلكت كل نخبة وأنتجت ثقافة ذات كياسة ولباقة. وخلف كل الاختلافات الواضحة في الطراز والسرد، يصعُب ألَّا نرىٰ قرابة محددة بين روايات القرن الثامن عشر المنتشرة عن السلوك مثل رواية «كلاريسا» لصمويل ريتشاردسون، ورواية «حلم الحُجرة الحمراء» لتساو شيويه تشين.

وبحلول عام ١٨٥٠م، جُرفت جميع هذه التشابهات بواسطة اختلاف واحد كبير: نهوض طبقة جديدة من زعماء الحديد بعد اكتشاف قوة البخار، الذين -كما يصفهم أبرز منتقديهم- «دمروا كل العلاقات الإقطاعية المتنوعة التي كانت تربط الإنسان بسادته الطبيعيين». هذه الطبقة الجديدة -كما قال ماركس وإنجلز- «أغرقت الرعشة القدسية للورع الديني، والحماسة الفروسية، وعاطفة البرجوازية الصغيرة، في أغراضها الأنانية المجردة من العاطفة».

واختلفت الآراء -بشدّة- حول ما تقوم به هذه الطبقة الجديدة، ولكن الكثيرين اتفقوا علىٰ أنَّه أيًّا كانت ماهية تلك الطبقة، فقد كانت تغيِّر كل شيء. وبالنسبة إلىٰ البعض، مثل صامويل سمايلز صاحب الكتاب الڤيكتوري الكلاسيكي

«مساعدة الذات»، فقد كان المليونيرات الذين استغلوا الطاقة وباعوها أبطالًا «ضمن لهم عزمهم ومثابرتهم، بإرشاد من حُكْم رشيد، جزاءهم الطبيعي». وفسّر سمايلز قائلًا: «في الأزمنة القديمة، كانت منتجات الصناعة الماهرة في معظمها كماليات مُخصّصة للقلّة، بينما الآن» -بفضل قباطنة الصناعة- «فإنَّ أفضل الأدوات والمحركات تُستخدم في إنتاج مواد الاستهلاك العادي للسواد الأعظم من المجتمع».

ولكن بالنسبة إلىٰ آخرين، كان رجال الصناعة وحوشًا قُساة يرتدون معاطف طويلة، مثل مستر جراد جرايند في راوية «أوقات عصيبة» لتشارلز ديكنز. «أريد حقائق مادية . . . لقد ربيت أولادي علىٰ الحقائق وأريدك أن تربي هؤلاء الأطفال عليها، فلا شيء أنفع لهم من الحقائق . . .». لقد تعلَّم ديكنز عن الثورة الصناعية بطريقة قاسية، فكان يعمل في مصنع لصباغة الأحذية بينما يعاني والده في السجن بسبب الدَّيْن، وكانت لديه آراء قوية ضد أسرة جراد جرايند. وكان يرىٰ أنَّهم يُصفّون الجمال من الحياة، ويحشدون العمّال داخل مدن قاتلة للروح مثل مدينة كوكتاون الخيالية، «إنَّ أقبح حقائق الواقع والمتعلقة بكوكتاون هي كوكتاون نفسها . . . مدينة آلات ضخمة ومداخن مرتفعة وسحب كثيفة لا متناهية من الدخان الأسود».

لقد كان هناك بالتأكيد الكثير من الجراد جرايندِيين في الحياة الحقيقية. ووصف الشاب فردريك إنجلز لقاءه بأحدهم في مانشستر في أربعينيات القرن التاسع عشر، ومحاضرته إياه عن محنة عُمّاله كعمَّال كوكتاون. وقال إنجلز: «كان يستمع بصبر كبير، وعند زاوية الشارع الذي افترقنا فيه، علّق قائلًا: ومع ذلك، فهناك الكثير من المال الذي نجنيه هنا. صباح الخير يا سيدي!».

وقد كان رجل الأعمال مُحقًّا، فمن خلال استغلال الطاقة المأسورة في الوقود الأحفوري، أطلق بولتون ووات عاصفة من كسب الأموال. ومع ذلك كان إنجلز مُحقًّا أيضًا، فالعمَّال الذين تسببوا في كسب تلك الأموال لم يروا إلَّا قليلًا منها. بين أعوام (١٧٨٠ و١٨٣٠م) ازداد الناتج لكل عامل بنسبة تزيد علىٰ (٢٥٪)، ولكنَّ الأجور ارتفعت بالكاد بنسبة (٥٪). والباقي استُخلص كأرباح.

وتصاعد الغضب في الأحياء الفقيرة. وشكَّل العمَّال اتحادات وطالبوا بميثاق الشعب، وتآمر الراديكاليون لسحق الحكومة. وقام العمّال الذين هُدّدت أرزاقهم من قِبَل المدارس الميكانيكية بتحطيم الآلات وإحراق بالات القش في عام ١٨٣٠م، ووقّعوا خطابات تهديد إلىٰ طبقة النبلاء تحت اسم «كابتن سوينج» الذي يبدو قرصانيًا. وفي كل مكان التقط القضاة ورجال الدين رائحة اليعقوبيّة (Jacobinism)، وهو مصطلحهم العام للعصيان علىٰ الطراز الفرنسي، الذي انقض عليه أصحاب الأراضي مع كل ثقل الدولة. وسحق الفرسانُ المتظاهرين، وتم اعتقال النقابيين، وأُرسل مُحطّمو الآلات إلىٰ مستعمرات عقابية في أقصىٰ أطراف الإمبراطورية البريطانية.

بحسب ماركس وإنجلز بدت العملية واضحة وضوح الشمس: كان التصنيع الغربي يقود التطور الاجتماعي لأعلىٰ بصورة أسرع من أي وقت مضىٰ، لكنَّه كان يدفع أيضًا بمفارقة التطور إلىٰ أقصىٰ سرعة. فمن خلال تحويل الرجال إلىٰ مجرد «أيْدي»، مجرد تروس من لحم ودم في المصانع والورش، منحهم الرأسماليون قضية مشتركة وجعلوهم ثوارًا. وخلُص ماركس وإنجلز إلىٰ أنَّ «الأسلحة، التي صرعت بها البرجوازية الإقطاع، ترتد الآن علىٰ البرجوازية نفسها ... فلترتعد الطبقات السائدة خوفًا من ثورة شيوعية. فليس للبروليتاريين ما يفقدونه فيها سوىٰ أغلالهم وأمامهم عالم يكسبونه. أيُّها البروليتاريون، في جميع البلدان، اتحدوا».

اعتقد ماركس وإنجلز أنَّ الرأسماليين هم الذين جلبوا هذا لأنفسهم بتسييج الريف والدفع بالمحرومين إلىٰ المدن كي يصبحوا عبيدًا للأجور، ولكنَّهم أدركوا الحقائق بشكل خاطئ. لم يدفع مُلّاك الأراضي بأناس الريف من الأرض، وإنما الجنس هو الذي دفعهم. فقد احتاجت الزراعة الكثيفة في القرن التاسع عشر بالفعل إلىٰ مزيد من الأيدي العاملة في الحقل، وكان السبب الحقيقي لاستبدال الناس المدن بالمزارع هو التكاثر. وزاد متوسط العمر المتوقع بنحو ثلاث سنوات بين أعوام (١٧٥٠ و١٨٥٠م)، وعلىٰ الرغم من عدم اتفاق المؤرخين علىٰ سبب حدوث هذا (تفشي وباء؟ المزيد من الطعام المغذي؟ تحسين إمدادات المياه

والمجاري؟ ممارسات أذكىٰ لتربية الأطفال؟ ملابس داخلية من القطن؟ أو شيء آخر تمامًا؟)، فقد كانت سنوات إنجاب الأطفال الإضافية تعني أنَّه ما لم تتزوج النساء في سن متأخرة، أو تمارسن الجنس بطرق مختلفة، أو تجهضن/أو تجوعن أطفالهن حتىٰ الموت، فسوف تُربّين المزيد من الأطفال. وقد غيّرت النساء في الحقيقة من سلوكهن، ولكن ليس بما يكفي لإلغاء حيواتهم الأطول، ومن ثمَّ تضاعف عدد سكان بريطانيا إلىٰ ١٤ مليونًا تقريبًا بين أعوام (١٧٨٠ و١٨٣٠م). وبقي ما يقرب من مليون من هؤلاء الأشخاص الإضافيين علىٰ أراضيهم، بينما بحث ٦ ملايين آخرون عن فرص عمل في المدن.

هذه الحقائق الصعبة عن التكاثر تجعل كوب الثورة الصناعية يبدو نصف ممتلئ وليس نصف فارغ: لقد كان التصنيع مؤلمًا لكنَّ البدائل كانت أسوأ. في القرن السادس عشر، انهارت الأجور في جميع أنحاء الغرب عندما ازداد تعداد السكان، ولكنَّ الأجور البريطانية ارتفعت بالفعل بعد عام ١٧٧٥م، وسبقت جميع الأجور الأخرىٰ (الشكل ١٠ - ٣). وعندما مات البريطانيون جماعيًّا بسبب المجاعة الأيرلندية المروّعة في أربعينيات القرن التاسع عشر، كان الأمر مرتبطًا بمُلّاك الأراضي الجشعين والسياسيين الأغبياء أكثر من ارتباطه بالصناعة (التي كانت نادرة بشكل مدهش في أيرلندا).

تكمن المفارقة في أنَّ التيار قد انقلب لصالح العمَّال في السنوات نفسها التي وضع فيها ماركس وإنجلز مذاهبهما. فمنذ عام ١٧٨٠م، كان الرأسماليون يُنفقون الكثير من أرباحهم علىٰ المنازل الريفية والألقاب، وغير ذلك من مظاهر زخارف حديثي العهد بالغنىٰ، لكنَّهم أعادوا استثمار أموالهم أكثر في الآلات والمصانع الجديدة. وبحلول عام ١٨٣٠م تقريبًا جعلت هذه الاستثمارات العمالة المُعززة ميكانيكيًا بأيادٍ قذرة تعاني من سوء التغذية وسوء التعليم مربحةً جدًّا لدرجة أنَّ رؤساء العمل كانوا يفضّلون التفاوض مع المُضربين للوصول إلىٰ اتفاق بدلًا من طردهم، وكانوا يُفضّلون التنافس مع الرؤساء الآخرين لإيجاد أيادٍ جديدة. وخلال الخمسين سنة التالية ارتفعت الأجور بنفس سرعة معدل الأرباح، وفي عام ١٨٤٨م عندما نشر ماركس وإنجلز «بيان الحزب الشيوعي»، كان أجر

العمَّال البريطانيين يستعيد أخيرًا المستويات المرتفعة التي وصل إليها بعد الموت الأسود.

ومثل كل عصر آخر، حصلت ثلاثينيات القرن التاسع عشر علىٰ الفكر الذي تحتاجه، وفي حين أصبح العمَّال أكثر قيمة، اكتشفت الطبقات الوسطىٰ تعاطفًا - نوعًا ما- تجاه المظلومين. فمن ناحية، أصبحت البطالة تبدو مزعجة بالتأكيد، وتمَّ اقتياد الفقراء (من أجل مصلحتهم كما قالت الطبقات الوسطىٰ) إلىٰ الملاجئ، ومن ناحية أخرىٰ، جعلت صورة ديكنز لهذه الملاجئ نفسها من رواية «أوليفر تويست» الكتاب الأكثر مبيعًا وأصبح الإصلاح شعار الساعة. وأدانت اللجان الرسمية قذارة المدن، ومنع البرلمان الأطفال تحت سن التاسعة من العمل في المصانع، وحدّ من ساعات عمل من هم تحت الثالثة عشرة إلىٰ ثمان وأربعين ساعة عمل في الأسبوع، واتُخذت خطوات أولىٰ متعثرة نحو التعليم الجماعي.

قد يبدو الإصلاحيون الڤيكتوريون الأوائل منافقين اليوم، لكنَّ فكرة اتخاذ خطوات عملية لتحسين حياة الفقراء كانت فكرة ثوريّة. وقد كان التباين مع المركز الشرقي قويًّا للغاية: حيث ظلَّ كل من الجراد جريندييين ومدن كوكتاون وعُمّال المصانع نادرين بوضوح في الشرق، واستمر السادة المثقّفون في التقليد القديم منذ قرون الذي يتضمن إرسال اللفائف الورقية المكتوبة بخط اليد عن خطط الإصلاح الطوباوي إلىٰ البيروقراطيين الإمبراطوريين، الذين حافظوا علىٰ تقليد تجاهلها القديم بالمثل. واستمر مجيء الإصلاحيين المستقبليين من هوامش النخبة. وقد فشل كل من هونغ ليانچي (حُكم عليه بالإعدام بتهمة «الابتذال الشديد» بعد انتقاده لقصور الحكومة حول القضايا الاجتماعية)، وجونج زيزهان (وهو شخص غريب الأطوار كان يرتدي ملابس غريبة ويستعمل خطًا جامحًا ويُقامر بجنون)، وهما كما يزعم البعض أشد النقَّاد الاجتماعيين البنيويين - فشلا في أعلىٰ اختبار عدة مرات ولم يكن لأي منهما أثر كبير. كما فشلت المخططات العملية المميزة مثل برنامج عشرينيات القرن التاسع عشر للشحن البحري للأرز إلىٰ بكين لتفادي الخراب والفساد علىٰ طول القناة الكبرىٰ.

أمَّا في الغرب، وليس في أي مكان آخر، فكان يولد عالـم جديد شجاع من الفحم والحديد، ولأول مرة في التاريخ بدت الاحتمالات بلا حدود حقًّا. «إنَّنا نرىٰ أنَّه من السعادة والتميُّز أن نحصل علىٰ حظنا في أول خمسين عامًا من هذا القرن»، وقد تحمست الصحيفة البريطانية «ذي إيكونوميست» في عام ١٨٥١م، وكتبت: «لقد شهدت فترة الخمسين سنة الماضية . . . تقدمًا أسرع وأكثر إذهالًا من كل القرون التي سبقته. وفي عدة مراحل حيوية، فإنَّ الفرق بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أكبر من الفرق بين القرن الأول والقرن الثامن عشر، بقدر ما يهمّ أوروبا المتحضرة». كان الزمن يتسارع في الغرب، تاركًا بقية العالـم وراءه.

عالم واحد

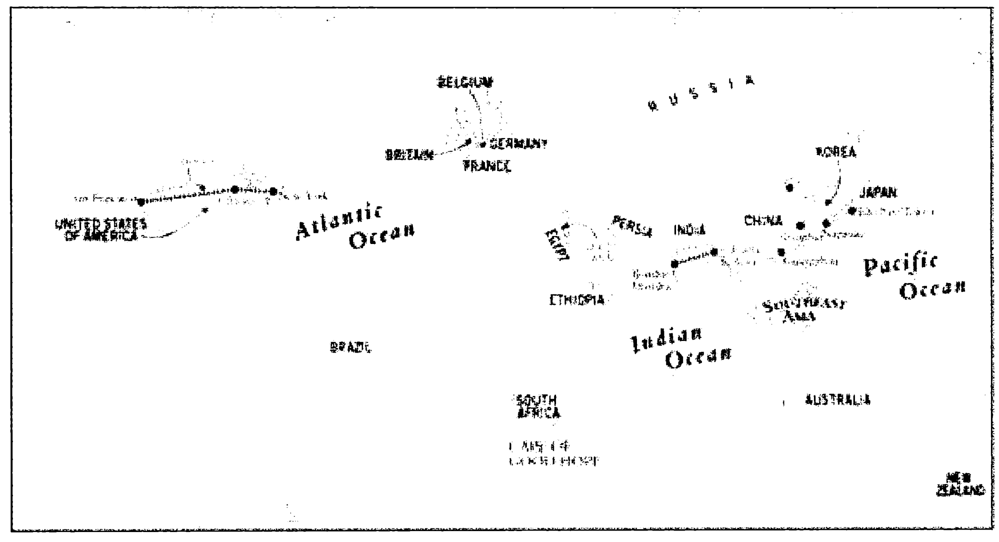
لندن، ٢ أكتوبر ١٨٧٢م، الساعة ٧:٤٥ مساء. في مشهد شهير أعلن فيلياس فوج وهو يخطو داخل ناديه: «هأنذا يا سادة!». وبالرغم من الاعتقاد الخاطئ بأنَّه لص بنوك عندما كان في مصر، ومهاجمته من قِبَل أحد الهنود الحمر من قبيلة «سيوكس» في نبراسكا، وتورطه في إنقاذ أرملة جميلة من الانتحار الإجباري في الهند (الشكل ١٠ - ٤)، فعل فوج ما قال إنه سيفعله. لقد سافر حول العالم في ثمانين يومًا، وعاد في الوقت المحدد تمامًا.

وبالرغم من أنَّ هذا مشهد خيالي، ولكن مثل كل قصص چول ڤيرن، كان كتاب «حول العالم في ثمانين يومًا» قائمًا علىٰ أساس راسخ في الحقيقة. فقد سافر چورچ ترين، وهو اسم علىٰ مسمًّىٰ (حيث تعني كلمة ترين القطار، م)، حول العالم في ثمانين يومًا في عام ١٨٧٠م، وبالرغم من أنَّ شخصية فوج الخيالية اعتمدت علىٰ الأفيال، والزلّاجات والقوارب الشراعية عندما خذلته التكنولوچيا، فلم يكن هو ولا ترين ليتمكنا من القيام برحلاتهما دون انتصارات الهندسة الجديدة -قناة السويس (التي أُفتتحت عام ١٨٦٩م)، وسكة حديد سان فرانسيسكو- نيويورك (التي اكتملت في العام نفسه)، وخطّ القطار من بومباي إلىٰ كلكتا (تم الانتهاء منه في عام ١٨٧٠م). لم يعد العالم كما لاحظه فوج قبل أن يغادر كبيرًا كما اعتاد أن يكون.

لقد سار التطور الاجتماعي المرتفع والمراكز المتوسّعة حذو النعل بالنعل عندما حمل المستعمرون معهم أساليب الحياة الجديدة إلىٰ الخارج، وحينما قلَّد الناس في الأطراف تلك الأساليب أو قاوموها أو حتىٰ تملصوا منها. لقد اختلف

القرن التاسع عشر فقط من حيث المدىٰ والسرعة، ولكنَّ هذه الاختلافات غيَّرت مجرىٰ التاريخ. فقبل القرن التاسع عشر، سيطرت الإمبراطوريات العظمىٰ علىٰ هذا الجزء أو ذاك من العالم، مخضعين إياه لإرادتهم، غير أنَّ التكنولوچيات الجديدة أزالت كل الحدود. ولأول مرة أمكن أن تتحول الصدارة في التطور إلىٰ هيمنة عالمية.

لقد قضىٰ تحويل طاقة الوقود الأحفوري إلىٰ طاقة حركية علىٰ جميع المسافات. وفي وقت مبكر مثل عام ١٨٠٤م، أظهر مهندس بريطاني أنَّ محركات ذات وزن خفيف وضغط عالٍ يمكن أن تدفع عربات علىٰ قضبان حديدية، وبحلول العقْد الأول من القرن التاسع عشر كانت محركات مماثلة تقود الزوارق ذات المجاديف. وبعد جيل آخر من التعديلات والتحسينات المُلهمة، كان قطار «الصاروخ» الشهير الذي صنعه چورچ ستيفنسون ينفث الدخان علىٰ طول سكة حديد ليڤربول - مانشستر بسرعة تسعة وعشرين ميلًا في الساعة، وكانت السفن تُجدِّف عبر المحيط الأطلسي. لقد حوَّل التطور الاجتماعي الجغرافيا أسرع من أي وقت مضىٰ: فمن خلال تحررها من الرياح والأمواج، استطاعت السفن الإبحار حيثما أرادت، ومتىٰ أرادت، وطالما أنَّ أحدهم يضع القضبان كان بإمكان السلع الانتقال علىٰ الأرض بالتكلفة الرخيصة نفسها لانتقالها فوق الماء.



(موضع الشكل ١٠ - ٤). حول العالم: الهيمنة الغربية تُقلّص العالم.

لقد حوّلت التكنولوچيا الاستعمار. وهاجر أكثر من ٥ ملايين بريطاني (من إجمالي عدد السكان البالغ ٢٧ مليون نسمة)، بين أعوام (١٨٥١ و١٨٨٠م)، معظمهم إلىٰ الأفق الجديد المثالي في أمريكا الشمالية. وبين أعوام (١٨٥٠ و١٩٠٠م)، نزل هذا «الطاعون الأبيض» كما يسمّيه المؤرخ نيال فيرغسون، بنحو ١٦٨ مليون فدان من الغابات الأمريكية، وهو ما يعدل أكثر من عشرة أضعاف المنطقة الصالحة للزراعة في بريطانيا. وفي عام ١٧٩٩م سجَّل أحد المسافرين أنَّ الرواد الأمريكيين «لديهم جفاء شديد تجاه الأشجار . . . فهم يقطعون كل ما هو أمامهم دون رحمة . . . والجميع يتشاطرون المصير نفسه وهم متورطون في الفوضىٰ نفسها». وبعد مرور مائة سنة، ازداد ذلك الجفاء، وفاقمته كل من الآلات المستأصلة للجذور، وقاذفات اللهب، والديناميت.

وقد غذَّت طفرة زراعية غير مسبوقة مدنًا مذهلة بالقدر نفسه. في عام ١٨٠٠م كان هناك ٧٩٠٠ من النيويوركيين، وفي عام ١٨٩٠م بلغ عددهم مليونين ونصف المليون. وفي تلك الأثناء أصبحت شيكاغو من عجائب الدنيا. فقد كانت مدينة مراعٍ يسكنها ثلاثون ألفًا في عام ١٨٥٠م، وبحلول عام ١٨٩٠م أصبحت سادس أكبر مدينة علىٰ الأرض يسكنها أكثر من مليون شخص. جعلت شيكاغو مدينة كوكتاون تبدو أرستقراطية. وقد كتب أحد النقَّاد المندهشين: «من أجلها، ضجّت كل الدول المركزية والشمال الغربي العظيم بأسره بالزحام والصناعة، وصاحت معامل نشارة الخشب، وجلجلت المصانع واشتعلت فيها النيران، وسوَّد دخانها السماء، ودارت العجلات، واهتزت المضخات في طنابيرها، وتشبّث الترس بالترس، وقبضت السيور علىٰ العجلات ذات الصوت الطبولي، وتجشأ الحدادون أنفاس الفولاذ المصهور العاصفية في الهواء المملوء بالغمام. لقد كانت شيكاجو إمبراطورية تامة الأركان».

كان للمحاكاة دور أكبر بكثير من دور الاستعمار في نشر التصنيع شرقًا عبر أوروبا. في عام ١٨٦٠م كانت بريطانيا لا تزال هي الدولة الوحيدة ذات الاقتصاد الصناعي بالكامل، تنتج نصف حديد العالم ومنسوجاته، ثمَّ انطلق عصر البخار والفحم أولًا في بلچيكا (التي امتلكت كمية جيدة من الفحم والحديد)، ثم عبر

قوس يمتد من شمال فرنسا عبر ألمانيا والنمسا. وبحلول عام ١٩١٠م اكتشفت الأطراف، مثل ألمانيا والولايات المتحدة، مزايا تخلفها وتجاوزت معلمتهما بريطانيا.

وتعلَّم الألمان الذين امتلكوا كمية فحم أقل من بريطانيا، استخدام الوقود بكفاءة أكبر، وبافتقارها إلىٰ العمّال ذوي الحاسة السادسة -التي تربيهم سنوات من التدريب علىٰ العمل- لمعرفة وقت إغلاق صمام ما أو إحكام بَكَرة ما، غيَّرت ألمانيا تعليمها التقني. واكتشف الأمريكيون الذين كانوا يفتقرون إلىٰ الشركات العائلية القديمة ذات رأس المال المتراكم ميزةً مختلفة. لقد فصل بيع الأسهم لجمع الأموال من أجل المشاريع الضخمة الحديثة، بين المالكين والمُديرين المستأجرين، الذين شعروا بحرية لتجريب دراسات الوقت والحركة، وخطوط التجميع، وعلم الإدارة الجديد. وقد صدم كل هذا العلم النظري البريطانيين باعتباره سخيفًا، ولكن في الصناعات الحديثة عالية التقنية مثل البصريات والكيمياء، أنتجت معرفة القليل من نظريات العلوم والإدارة نتائج أفضل من نتائج العمل وفق الخبرة والحس فقط. وبحلول عام ١٩٠٠م كانت بريطانيا، مع إيمانها بالارتجالية، واستمرارها دون خطة واضحة، وإلهامها للمبتدئين، هي التي شرعت في أن تبدو سخيفة.

وقادت كل من ألمانيا والولايات المتحدة ما يسميه المؤرخون بالثورة الصناعية الثانية؛ وهي ثورة تطبِّق العلم والتكنولوچيا بشكل أكثر انتظامًا. وسرعان ما جعلتا إنجازات فيلياس فوج تبدو عتيقة، حيث حوّلتا القرن العشرين إلىٰ عصر النفط والسيارات والطائرات. وفي عام ١٨٨٥م اكتشف كل من جوتليب دايلمر وكارل بنز طريقة حرق البنزين (حتىٰ الآن، هو ناتج ثانوي منخفض القيمة يستخدم في المصابيح) بكفاءة في محرك احتراق داخلي، وفي العام نفسه أتقنت الميكانيكا البريطانية صناعة الدراجة. وقد أسفر الجمع بين المحركات الجديدة الخفيفة مع الهياكل المعدنية القوية الجديدة عن ظهور السيارات والطائرات. وفي عام ١٨٩٦م كانت السيارات بطيئة جدًّا لدرجة أنَّ المعارضين كانوا يصيحون قائلين: «استدعوا حصانًا!»، في أول سباق سيارات في أمريكا، ولكن في عام

١٩١٣م أكملت مصانع أمريكا إنتاج مليون سيارة. وفي ذلك الوقت، ثبَّت الأخوان رايت، وهما مهندسان ميكانيكيان من كارولينا الشمالية، جناحين في محرك جاسولين وجعلوه يطير.

كان النفط يحوّل الجغرافيا كذلك. تحمّس أحد العاملين في مصانع النفط في عام ١٩١١م قائلًا: «إنَّ تطوير محرك الاحتراق الداخلي هو أعظم ما شهده العالم علىٰ الإطلاق، وسيحلّ ذلك محلّ البخار بسرعة كبيرة علىٰ الأغلب». ولأنَّ النفط كان أخف من الفحم، وينتج طاقة أكبر، ويمنح قوة أسرع للأشياء؛ فقد خسر أولئك الذين تمسّكوا بقوة البخار مقابل أولئك الذين استثمروا في المحركات الجديدة. وقد أصرَّ أكبر المستشارين البحريين لبريطانيا في عام ١٩١١م علىٰ أنَّ «أولىٰ الضروريات هي السرعة»، وبالخضوع للحتمي، حوّل أول لورد شاب للقوات البحرية -ونستون تشرشيل- البحرية الملكية من استخدام الفحم إلىٰ النفط. وأصبح احتياطي الفحم البريطاني الذي لا حصر له أقل أهمية من الوصول إلىٰ حقول النفط في روسيا وبلاد فارس، وجنوب شرق آسيا، وقبل كل شيء أمريكا.

وكانت الاتصالات تتغيَّر بالسرعة نفسها؛ ففي عام ١٨٠٠م كانت أسرع طريقة لإرسال رسالة حول العالم هي إرسالها علىٰ متن سفينة، ولكن بحلول عام ١٨٥١م تمكَّن البريطانيون والفرنسيون من تبادل الرسائل باستخدام إشارات كهربية مرسلة عبر أسلاك تحت الماء. وفي عام ١٨٥٨م، تراسلت ملكة بريطانيا والرئيس الأمريكي عبر المحيط الأطلنطي عن طريق التلجراف، وتوقَّف كل شيء لأكثر من مرة في كتاب «حول العالم في ثمانين يومًا» علىٰ برقية تصل في الوقت المناسب. وبين أعوام (١٨٦٦ و١٩١١م) انخفضت تكلفة البرقيات عبر المحيط الأطلنطي بنسبة ٩٩,٥%، ولكن في ذلك الوقت كانت هذه الوفورات أمرًا مفروغًا منه. وبدأت أول هواتف ترن في عام ١٨٧٦م، أي: بعد ثلاثة أعوام فقط من ظهور كتاب ڤيرن، وفي عام ١٨٩٥م ظهر الإرسال اللَّاسلكي، وفي عام ١٩٠٦م ظهر الراديو.

وقادت حركة النقل والاتصالات السريعة نموًا هائلًا في الأسواق. بالعودة إلىٰ سبعينيات القرن الثامن عشر، أدرك آدم سميث أنَّ الثروة تعتمد علىٰ حجم الأسواق، وتقسيم العمل. فإذا كانت الأسواق كبيرة، فبإمكان الجميع إنتاج أرخص وأفضل ما يستطيعون، ثمَّ بيعه، مستخدمين الأرباح لشراء ما يحتاجون إليه. وسيجعل ذلك، كما جادل سميث، الجميع أغنىٰ ممَّا إذا حاولوا أن يصنعوا كل شيء لأنفسهم، فقد كان المفتاح هو التحرريّة: يتطلب المنطق الاقتصادي هدم الجدران التي تفصل البشر وتركهم لينغمسوا في «النزوع إلىٰ المعاوضة ومقايضة شيء ما نظير شيء آخر والمبادلة به».

لكنَّ قول ذلك كان أسهل من فعله. فأولئك الذين أنتجوا أرخص السلع في العالم مثل الصناعيين البريطانيين، كانوا يدعمون الأسواق الحرة، أمَّا الذين كانوا يصنعون سلعًا غير تنافسية وباهظة الثمن -مثل الفلاحين البريطانيين- فقد كانوا يعتقدون أنَّ الضغط علىٰ البرلمان لفرض تعريفات علىٰ منافسيهم الأكثر كفاءة كان أفضل من التحوُّل إلىٰ أنماط جديدة من العمل. وقد تطلب الأمر إراقة الدماء، وسقوط الحكومة، واقتراب شبح المجاعة لإقناع حكَّام بريطانيا بالتخلي عن الحمائية، لكنَّهم عندما فعلوا ذلك (وانخفض متوسط الرسوم الجمركية علىٰ الواردات من ٥٠٪ سنة ١٨٢٥م إلىٰ ١٠٪ بعد مرور خمسين سنة لاحقة)، كانت الأسواق العالمية قد ظهرت.

وبالنسبة إلىٰ البعض، فقد بدا الهوس بالأسواق الحرة وكأنه جنون. كان المصنّعون البريطانيون يُصدّرون القطارات والسفن والآلات، وكان المموّلون البريطانيون يقرضون الأجانب المال لشرائها. وكانت بريطانيا فعليًا تؤسس للصناعات الأجنبية التي سوف تتحدىٰ هيمنتها الاقتصادية. أما بالنسبة إلىٰ التجَّار الأحرار، فكان ثمة هدف من هذا الجنون. ومن خلال البيع والإقراض في كل مكان، حتىٰ للمنافسين، خلقت بريطانيا سوقًا كبيرًا لدرجة جعلتها تركز علىٰ المهارات الصناعية (والمالية بشكل متزايد) التي تؤدي إلىٰ تحقيق أرباح أكبر. وليس هذا فحسب، فقد ساعدت الآلات البريطانية الأمريكيين والأوروبيين في إنتاج الغذاء الذي احتاج البريطانيون لشرائه، وسمحت الأرباح التي جناها

الأجانب من خلال بيع الغذاء لبريطانيا بشراء المزيد من البضائع البريطانية.

أدرك التجَّار الأحرار أنَّ الجميع - كل مَن يرغب في إدراك منطق جراد جرايند عن التحررية، علىٰ أية حال - سيفوز. كان لدىٰ عدد قليل من الدول الحماس نفسه الذي كان لدىٰ بريطانيا (حصّنت كل من ألمانيا والولايات المتحدة بصورة خاصة صناعاتها الوليدة من المنافسة البريطانية)، ولكن بحلول سبعينيات القرن التاسع عشر كان المركز الغربي مرتبطًا بفعالية ضمن نظام مالي واحد. وكانت مختلف عملاته مثبَّتة عند معدّلات ثابتة مقابل الذهب، ممَّا جعل التجارة أكثر قابلية للتنبؤ وألزم الحكومات باللعب وفق قواعد السوق.

بيد أنَّ هذه كانت مجرد بداية. فلم تتوقف التحررية عند الحدود، مزيلةً الحواجز بين الأمم بينما تركت الحواجز داخلها سليمة. كانت التحررية صفقة شاملة، كما رآها ماركس وإنجلز بوضوح: «هذا التثوير المتواصل للإنتاج، والاضطراب المستمر لكل الظروف الاجتماعية، وعدم اليقين الدائم والتحريض يميِّز حقبة البرجوازية عن كل الحقب السابقة. فالعلاقات الجامدة الصدئة مع ما يستتبعها من تصورات وأفكار قديمة وتحيّزات، تتفكك كلها، وكل أفكار جديدة تظهر تصبح قديمة قبل أن يشتد عودها. وكل ما هو صلب يذوب في الهواء، وكل ما هو مقدس يصبح مدنسًا، والإنسان مجبر علىٰ مواجهة كل ذلك بإدراك حكيم ووعي متزن للظروف الواقعية للحياة وعلاقاته مع غيره من البشر».

فإذا تدخلت القواعد التقليدية والأنظمة المتعلقة بكيف يمكن أن يلبس البشر، ومَن الذي ينبغي أن يعبدوه، وما هي الوظائف التي قد يمتهنونها، في الإنتاجية ونمو السوق، فلا بُدَّ من تلاشي هذه القواعد. «إنَّ الغاية الوحيدة المكفولة للبشر، بشكل فردي أو جماعي، من التداخل مع حرية التصرف لأي عدد منهم هي حماية الذات». هكذا خَلُص المُنظّر الليبرالي چون ستيورات ميل، وأردف: «للإنسان أن يكون كامل السيادة علىٰ نفسه وجسده وروحه. الإنسان سيّد علىٰ نفسه». وكل شيء عدا ذلك متاح للجميع.

ومن ثمَّ تفتت الاسترقاق والروابط العمَّالية والقيود القانونية الأخرىٰ علىٰ الحركة والمهن. واستغرق الأمر حربًا لإنهاء الاسترقاق الأمريكي في عام

١٨٦٥م، ولكن علىٰ مدار جيل كامل شرَّعت دول الغرب الأخرىٰ الممتلكة للرقيق نهايات سلمية (وغالبًا مربحة) لتلك المؤسسة القديمة. وازداد تفاوض أصحاب العمل مع العمّال، وبعد عام ١٨٧٠م قنّنت معظم البلدان النقابات العمَّالية والأحزاب الاشتراكية، ومنحت حق التصويت العام للذكور، ووفرت تعليمًا ابتدائيًا مجانيًا إلزاميًّا للجميع. وفي حين ارتفعت الأجور، قدَّمت بعض الحكومات خطط توفير للتقاعد، وبرامج للصحة العامة، وتأمينًا ضد البطالة، وفي المقابل وافق العمَّال علىٰ الخدمة الوطنية في القوات البرية والبحرية. وفي النهاية، مع وجود الكثير لحمايته، فمَن الذي لم يكن مستعدًا للقتال؟

لقد نخرت التحرريّة حتىٰ في أعتق التحيزات. طيلة ألفي سنة ظلَّ المسيحيون يضطهدون كلًا من اليهود وهؤلاء الذين اتبعو المسيح بشكل غير لائق، ولكن فجأة أصبحت ديانات الآخرين من شؤونهم الخاصة، وبالتأكيد ليست سببًا لمنع أصحابها من حيازة الممتلكات أو التصويت. وفي الحقيقة، ولأعداد متزايدة، بدا الدين أقل من أن يشكِّل قضية بالكلية، حيث شغلت العقائد الجديدة مثل الاشتراكية، والتطوريّة، والقومية المكان الذي احتله الدين لمدة طويلة. وكما لو كان إنزال الإله عن عرشه ليس كافيًا، فقد أصبحت أقوىٰ التحيزات علىٰ الإطلاق -دونية المرأة- معرّضة للهجوم أيضًا. كتب چون ستيوارت ميل: «إنَّ المبدأ الذي ينظم العلاقات الاجتماعية بين الجنسين (الذكور والإناث) -خضوع أحد الجنسين للآخر- هو مبدأ فاسد من جذوره، كما أنَّه يمثِّل عقبة رئيسة أمام التقدم البشري . . . لم يبلغ عبدٌ نفس قدر عبد آخر، وبالمعنىٰ الحرفي للكلمة، ليس هناك مثل عبودية الزوجة».

غالبًا ما تقدم الأفلام والأدب العصر الفيكتوري باعتباره عالمًا مستكينًا من الشموع، والمدفئات المتقدة، وأناس يعرفون إلىٰ أين ينتمون، لكنَّ معاصريه اختبروه بشكل مختلف تمامًا. كان الغرب في القرن التاسع عشر مثلما رأىٰ ماركس وإنجلز: «يشبه المشعوذ الذي فقد سيطرته علىٰ التحكُّم بالقوىٰ الجهنمية التي استحضرها». وقد استمتع الفنانون والمفكرون فيه، بينما تراجع المحافظون. واتخذت الكنائس مواقف مختلفة (بعضها فظ وبعضها ذكي) ضد الاشتراكية،

والمادية، والعلوم، ودافع النبلاء الإقطاعيون عن امتيازات طبقاتهم، وأطلت معاداة السامية والعبودية بوجهيهما من جديد، وأحيانًا خلف أقنعة جديدة. وكان من الممكن أن تكون المواجهات عنيفة. ولقد جمع كل من ماركس وإنجلز أفكارهما في «بيان الحزب الشيوعي» في عام ١٨٤٨م؛ لأنَّ الثورات كانت تهز كل عاصمة أوروبية في تلك السنة، وبدت نهاية العالم وشيكة.

كان المجتمع الغربي يتخلص بسرعة من الخصائص التي جعلته يبدو في وقت متأخر مثل عام ١٧٥٠م مثل الشرق. وكالعادة لا يكشف أي شيء عن ذلك بوضوح مثل الأدب. لن تجد في الأدب الصيني في أوائل القرن التاسع نوع البطلات الحازمات اللاتي تملأن صفحات الروايات الأوروبية. وقد يكون أقرب شيء إلىٰ الاحتجاج ضد إخضاع المرأة هي الكوميديا الساخرة الغريبة «الزهور في المرآة» للكاتب لي روزان، وفيها يُكرَه تاجر علىٰ التأنّث، لدرجة إجباره علىٰ ممارسة طي الأقدام. كتب لي: «فقدت قدماه الكثير من شكليهما الأصلي، وضُغط دمه ولحمه في تجويف . . . ولم يتبقَ من قدمه سوىٰ القليل، مجرد عظم وجلد جافّين، وانكمشت قدمه إلىٰ حجم دقيق». ومن الصعب العثور علىٰ شخصيات ديكنز المتحركة والفعّالة، فضلًا عن رجال صامويل سمايلز العصاميين في الأدب الشرقي. والأكثر نموذجية في الأدب الشرقي هو مزاج شين فو المأساوي في روايته (Six Records of a Floating Life) أو «ستة سجلات لحياة طافية»، وهي رومانسية ومؤثرة، لكن تعيبها تراتبيّة جامدة.

إنَّ الشيء الجديد حقًّا بشأن الغرب، هو أنَّه كلما تسارع وتسابق في المسارات التي لا تشبه المسارات التي يسير فيها العالم، تزايد إجباره لبقية العالم علىٰ اتباع مساره وخطاه المحمومة. لم يستطع السوق الراحة، فلا بُدَّ أن يتوسَّع، وأن يدمج نشاطًا أكثر من أي وقت مضىٰ، وإلَّا فسيموت وحش الصناعة. لقد التهم حامض الغرب الليبرالي الأكّال الحواجز داخل المجتمعات والحواجز بينها، ولم يستطع أي قدر من العادات، أو التقاليد، أو المراسيم الإمبراطورية الحفاظ علىٰ نوع النظام القديم الذي اضطهد شين فو كثيرًا. لقد كان العالم عالمًا واحدًا، سواء كنت مستعدًا أم لا.

نيميسيس

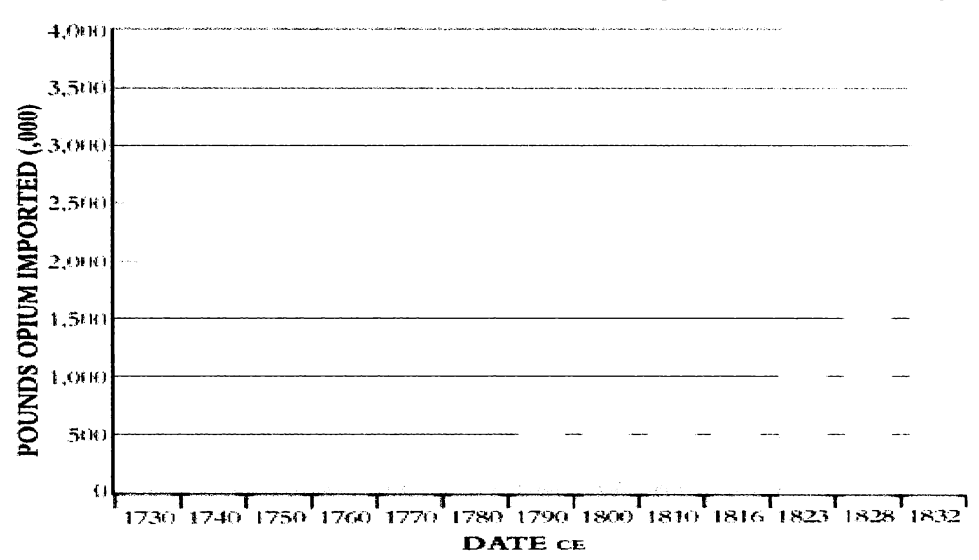
كشفت العولمة عن سر العصر - وهو أنَّ في هذا العالم الجديد، يُعد الحديث عن أنَّ الغرب يقود العالم في التطور الاجتماعي محض هراء. طيلة آلاف السنين توسَّعت المراكز الزراعية الأصلية إلىٰ حدٍّ بعيد بشكل مستقل في العديد من أنحاء العالم، غير أنَّ ارتفاع حركة التطور الاجتماعي حوَّل الجغرافيا بصورة مطردة، ممَّا ربط بين مراكز في العالم معًا.

في القرن السادس، مكَّنت أنواع جديدة من السفن الأوروبيين بالفعل من اجتياح الأزتيك والإنكا، ممَّا حوّل مراكز العالم القديم المستقلة سابقًا إلىٰ طرف ناءٍ من غرب متضخم. وفي القرن الثامن عشر، بدأ الأوروبيون تحويل المركز الجنوب آسيوي إلىٰ طرف آخر، وفي القرن التاسع عشر سهَّلت البواخر والسكك الحديدية والتلغرافات الوصول إلىٰ جميع أنحاء العالم، الأمر الذي حوّل الجغرافيا مرة أخرىٰ. وتمكَّنت بريطانيا، وهي قوة الغرب العظمىٰ، من بسط إرادتها في أي مكان في العالم تقريبًا، وفي حين استخرج الغربيون المزيد من الطاقة من البيئة، ارتفعت نسبة هذه الطاقة المستخدمة في الحرب. وازداد أسر الطاقة الغربي بمقدار مرتين ونصف بين أعوام (١٨٠٠ و١٩٠٠م)، بيد أنَّ قدرة الغرب العسكرية ازدادات بمقدار عشرة أضعاف. لقد حوّلت الثورة الصناعية الصدارة الغربية في التطور الاجتماعي إلىٰ هيمنة غربية.

وكان ذلك مزعجًا جدًّا؛ لذلك اختارت القوىٰ العظمىٰ في الشرق أن تتجاهل الأمر، فقصروا التجَّار الغربيين علىٰ الجيوب الصغيرة في جوانزو وناجازاكي. وعندما سافر اللورد البريطاني ماكارتني إلىٰ بكين عام ١٧٩٣م للمطالبة بفتح الأسواق -كما أشرتُ في الفصل التاسع- صدّه بشدة الإمبراطور

تشيان لونج، رغم أنَّ الصينيين العاديين -كما كتب ماكارتني في مذكراته بشكل لاذع- «يقومون بالتهريب، وبدا في الموانئ البحرية التي توقفنا فيها أن لا شيء سيكون أكثر استحبابًا لهم من رؤية سفننا تأتي كثيرًا إلىٰ مرافئهم».

وفي عام ١٨٣٠م، بلغ السيل الزّبىٰ. طيلة ثلاثة قرون ظلَّ التجّار الغربيون يبحرون إلىٰ جوانزو، ويقايضون الفضة، وهي الشيء الوحيد الذي بدا أنَّ المسؤولين الصينيين يريدونه مقابل الشاي والحرير. وبحلول ثمانينيات القرن الثامن عشر، تدفق حوالي سبعمائة طن من الفضة الغربية إلىٰ جوانزو كل عام. لكنَّ شركة الهند الشرقية البريطانية، اكتشفت أنَّه أيًّا كان ما قد يقوله البيروقراطيون، فقد كان الكثير من الشعب الصيني مهتمًا أيضًا بالأفيون، المخدر الرائع الذي يُزرع في الهند. وعمل التجّار الغربيون (لا سيما البريطانيين) علىٰ رواج هذا المخدر، وبحلول عام ١٨٣٢م كانت كمية كافية من المخدرات تتدفق إلىٰ جوانزو -حوالي ١٢ طنًا- لإبقاء اثنين أو ثلاثة ملايين مدمنين في حالة نشوة علىٰ مدار العام (الشكل ١٠ - ٥). وقد حوَّل الدفع للمخدرات تدفق الفضة داخل الصين إلىٰ تدفق صافٍ بمقدار حوالي ٤٠٠ طن. وكان الأمر بمثابة الكثير من المخدرات والكثير من المال.



(موضع الشكل ١٠ - ٥). قُل نعم فحسب: ارتفاع مبيعات الأفيون من شركة الهند الشرقية البريطانية في جوانزو (١٧٣٠م - ١٨٣٢م).

وأصرَّ التجَّار علىٰ أنَّ الأفيون «كان يفعل بالطبقات العليا للمجتمع الصيني ما يفعله البراندي والشمبانيا بالطبقات نفسها في إنجلترا»؛ إلَّا أنَّ ذلك لم يكن صحيحًا، وكانوا يعرفون ذلك. فقد خلّف الأفيون دربًا من الحيوات المحطَّمة المحبطة بنفس قدر كل ما هو محبط في وسط المدن اليوم. كما أضرَّ بالفلاحين الذين لم يروا أبدًا غليون الأفيون؛ لأنَّ تدفق الفضة إلىٰ أباطرة المخدرات زاد من قيمة المعدن، ممَّا أجبر المزارعين علىٰ بيع المزيد من المحاصيل لجمع الفضة التي احتاجوها لتسديد ضرائبهم. وبحلول عام ١٨٣٢م بلغت الضرائب مقدار الضعف أكثر مما كانت عليه قبل خمسين عامًا.

واقترح بعض مستشاري الإمبراطور حلًّا ساخرًا: تقنين الأفيون بحيث يقِّلل الخشخاش المزروع محليًا من الواردات البريطانية، الأمر الذي سيوقف تدفق الفضة ويزيد من الإيرادات الضريبية. ولكن ديوجوانغ كان رجلًا كونفوشيًّا جيدًا، وبدلًا من الإذعان لإلحاحات رعاياه الأساسية، أراد أن ينقذهم من أنفسهم. وفي عام (١٨٣٩م) أعلن الحرب علىٰ المخدرات.

وقد ذكرْتُ بضع كلمات عن الحرب علىٰ المخدرات في المقدمة. في البداية سارت الأمور علىٰ ما يرام، وصادر مسؤول ديوجوانغ عن المخدرات أطنانًا من الأفيون، وأحرقوها، وألقوها في المحيط (بعد كتابة قصيدة كلاسيكية بشكل مناسب تتضمن اعتذارًا لإله البحر علىٰ تلويث مملكته). ولكن بعد ذلك ساءت الأمور؛ إذ جرّ المفوض التجاري البريطاني بلاده إلىٰ حرب شديدة مع الصين، مع إدراكه بأنَّه حيثما لا ينجح سحر السوق فسينجح سحر البندقية.

وما أعقب ذلك كان دليلًا مروعًا علىٰ القوة الحربية للعصر الصناعي. لقد كان سلاح بريطانيا السري هو «نيميسيس»، وهي سفينة بخارية جديدة مصنوعة من الحديد. كان لدىٰ البحرية الملكية تحفظات علىٰ استخدام مثل هذا السلاح المتطرف، وقد أقرَّ قبطان السفينة قائلًا: «مثل خاصية الطفو في الخشب -بغض النظر عن شكله أو طرازه- التي جعلته أكثر المواد اعتيادية لبناء السفن، فكذلك جعلت خاصية الغرق في الحديد يبدو -للوهلة الأولىٰ- غير ملائم تمامًا لغرض مماثل».

وبدا هذا القلق وجيهًا. فقد تسبب الهيكل الحديدي للسفينة في اختلال وظيفة البوصلة، واصطدمت السفينة «نيميسيس» في صخرة حتىٰ قبل مغادرتها إنجلترا، وأوشكت علىٰ الانقسام إلىٰ نصفين عند رأس الرجاء الصالح. ولم يتمكن القبطان من إبقائها طافية سوىٰ بالتشبث علىٰ سطحها في أثناء ريح عاتية، وتثبيت أجزاء غريبة من الخشب والحديد علىٰ جانبيها. وبالوصول إلىٰ جوانزو أصبحت تلك المشكلات من الماضي. وكانت السفينة نيميسيس علىٰ مستوىٰ التوقعات، ونفثت بخارها في الممرات الضحلة حيث لم تصل السفن الخشبية، وفجّرت كل المقاومة إلىٰ أشلاء.

وفي عام ١٨٤٢م أغلقت السفن البريطانية القناة الكبرىٰ، ممَّا جعل بكين علىٰ حافة المجاعة. وأكّد تشي ينغ المكلَّف بمفاوضات السلام، للإمبراطور أنَّه لا يزال يستطيع «تجاوز هذه الأمور الصغيرة وتحقيق مخططنا الأكبر»، ولكنَّه في الحقيقة أتاح للبريطانيين -ثمَّ الأمريكيين، ثمَّ الفرنسيين، ثمَّ الغربيين الآخرين- الوصول الذي طالبوا به إلىٰ الموانئ الصينية. وعندما جعلت المقاومة الصينية تجاه هؤلاء الشياطين الأجانب (الشكل ٦) التنازلاتِ الصينية أقلَّ فائدة من المتوقع، طالب الغربيون بالمزيد.

كما دفع الغربيون بعضهم بعضًا أيضًا، إثر رعبهم من أن تكسب بعض المنافسة التجارية امتيازًا قد يستبعد تجّارهم من الأسواق الجديدة، وفي عام ١٨٥٣م امتد تنافسهم إلىٰ اليابان. حيث أبحر الكومودور ماثيو بيري في خليج إيدو، وطالب بحق البواخر الأمريكية المتوجهة إلىٰ الصين في التزود بالوقود هناك. وقد أحضر معه أربع سفن حديثة، ولكنَّها كانت تحمل قوة نارية أكثر من كل المدافع في اليابان مجتمعة. وكانت سفنه «قلاعًا بحرية تتحرك في المياه»، كما قال أحد الشهود المندهشين، «وما ظنناه حريقًا في البحر كان دخانًا أسود يتصاعد من مداخنها». ونتيجة لذلك، منحت اليابان الأمريكيين حق التجارة في ميناءين، وطالبت كل من بريطانيا وروسيا علىٰ الفور بالمثل وحصلتا علىٰ ما أرادتاه.



(الشكل ١٠ - ٦) حالة التنافر الثقافي: رسم صيني لبحَّار بريطاني ينفث النار في عام ١٨٣٩م.

ولم يتوقف السباق نحو المناصب عند هذا الحد. ففي تذييل في معاهدة لهم مع الصين في عام ١٨٤٢م، ابتكر المحامون البريطانيون وضعًا جديدًا، وهو «الدولة الأكثر تفضيلًا»، ما يعني أنَّ أي امتياز ستمنحه الصين لقوة غربية أخرىٰ، فعليها أن تمنحه إلىٰ بريطانيا أيضًا. وقد تضمنت المعاهدة التي وقَّعتها الولايات المتحدة مع الصين في عام ١٨٤٣م بندًا يسمح بإعادة التفاوض بعد ١٢ عامًا؛ ولذا في عام ١٨٥٤م ادَّعىٰ الدبلوماسيون البريطانيون الحق نفسه. وماطلت سلالة تشين، فعادت بريطانيا إلىٰ الحرب.

وحتىٰ البرلمان البريطاني كان يعتقد أنَّ هذا مبالغ فيه قليلًا. وأدان البرلمان رئيس الوزراء بالمرستون، وسقطت حكومته، لكنَّ الناخبين أعادوه بغالبية متزايدة. وفي عام ١٨٦٠م احتلت كل من بريطانيا وفرنسا بكين، وأحرقتا القصر الصيفي، وأرسلتا لوتي إلىٰ بالمورال. وكي لا يتفوق عليه أحد في إعادة التفاوض، أجبر القنصل العام لأمريكا اليابان علىٰ معاهدة جديدة عبر تهديدها

بأنَّ البديل سيكون فتح السفن البريطانية للبلاد في وجه الأفيون.

كان الغرب يمشي بخطوات واسعة في العالم مثل عملاق ضخم في عام ١٨٦٠م، وبدا امتداده غير محدود. وأصبح المركز الشرقي القديم الذي تباهىٰ قبل قرن من الزمان بأعلىٰ تطور اجتماعي في العالم، طرفًا جديدًا للمركز الغربي، بينما اندفعت المراكز السابقة في جنوب آسيا والأمريكتين، واندفعت أمريكا الشمالية التي أصبحت مُستوطنة بشدة من قِبل الأوروبيين - داخل المركز الغربي. وفي استجابة لهذه السيرورة الضخمة لإعادة تنظيم الجغرافيا، ظلَّ الأوروبيون يفتحون جبهات جديدة، فحملت بواخرهم الطاعون الأبيض من المستوطنين إلىٰ جنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا، وعادوا يحملون الحبوب والأغنام. وأصبحت أفريقيا، التي ظلَّت مساحة فارغة علىٰ الخرائط الغربية حتىٰ وقت متأخر مثل عام ١٨٧٠م، تحت الحكم الأوروبي بحلول عام ١٩٠٠م.

وباستعراض هذه السنوات في عام ١٩١٩م، تذكَّرها الاقتصادي چون ماينارد كينز باعتبارها عصرًا ذهبيًّا: «بالنسبة إلىٰ الطبقتين الوسطىٰ والعليا في [الغرب]، قدّمت الحياة -بتكلفة زهيدة وبأقل عناء- وسائل الراحة والنعيم والمتعة، خارج بوصلة أغنىٰ وأقوىٰ ملوك العصور الأخرىٰ. كان ساكن لندن يستطيع أن يشترىٰ هاتفيًّا مختلف منتجات الأرض بأسرها، وهو يحتسي شاي الصباح في السرير ... وأن يتوقع بصورة معقولة وصولها المبكر عند باب منزله، وكان يستطيع في الوقت نفسه وبالوسائل نفسها، المغامرة بثروته في الموارد الطبيعية والمؤسسات الجديدة في أي مكان في العالم ... وكان يستطيع الحصول علىٰ وسائل نقل مريحة ورخيصة لأي بلد أو مناخ دون جواز سفر أو أي إجراء شكلي آخر، متىٰ رغب في ذلك ... وكان يستطيع حينئذٍ أن يواصل الانتقال في الخارج إلىٰ أماكن أجنبية، دون معرفة أديانها أو لغاتها أو عاداتها، وهو يحمل ثروته المسكوكة في حيازته، وأن يعتبر نفسه متضررًا ومتفاجئًا إلىٰ حد كبير عند أقل تدخل ممكن في شؤونه».

لكنَّ الأمور بدت مختلفة بعض الشيء بالنسبة إلىٰ الروائي چوزيف كونراد بعد أن أمضىٰ معظم عام ١٨٩٠م في حوض نهر الكونغو. وفي كلاسيكيته

المناهضة للاستعمار «قلب الظلام»، كتب كونراد: «إنَّ احتلال الأرض، الذي يعني سلبها من أيدي الذين يختلفون عنَّا في البشرة، أو الذين يملكون أنوفًا أكثر انبساطًا من أنوفنا - لن يكون عملًا لائقًا عندما تتمعن فيه».

كانت الكونغو الديمقراطية هي الحالة النماذجية علىٰ ذلك: فقد استولىٰ عليها الملك ليوبولد ملك بلچيكا باعتبارها ممتلكات شخصية، وجعل نفسه مليارديرًا بتعذيبه وقتله وتمثيله بجثث خمسة ملايين كنغولي لتشجيع الآخرين علىٰ تزويده بالمطاط والعاج. كانت تلك حالة استثنائية. وفي أمريكا الشمالية وأستراليا أباد المستوطنون البيض السكان الأصليين، ويلقي بعض المؤرخين باللوم علىٰ الإمبريالية الأوروبية لتحويل الرياح الموسمية الضعيفة من عام ١٨٧٦م إلىٰ ١٨٧٩م، ومن عام ١٨٩٦م إلىٰ ١٩٠٢م - إلىٰ كوارث. وبالرغم من تلف المحاصيل واصل مُلّاك الأراضي تصدير الغذاء إلىٰ الأسواق الغربية، ومن ثَمَّ تحوَّل الجوع إلىٰ مجاعات من الصين إلىٰ الهند ومن أثيوبيا إلىٰ البرازيل. وأتىٰ مرض الزحار والجدري والكوليرا والموت الأسود نفسه في أعقاب تلك المجاعات، مما أدىٰ إلىٰ موت خمسين مليونًا من الضعفاء. وجمع بعض الغربيين مساعدات للجوعىٰ، وتظاهر البعض بأنَّ شيئًا لم يحدث، وتذمَّر البعض الآخر، مثل مجلة «ذي إيكونوميست»، من أنَّ أعمال الإغاثة في المجاعات لم تفعل سوىٰ أنَّها علّمت الجوعىٰ أنَّ «بقاءهم أحياء هو واجب الحكومة». فلا عجب أن أصبحت الهمسة المحتضرة للسيد كورتز، الشرير العبقري الذين صوّره كونراد وهو يؤسس مملكة شخصية في الأدغال، بمثابة مرثية الإمبريالية الأوروبية: «الرعب! الرعب!».

تجنّب الشرق أسوأ الأمور، ولكنَّه ظلَّ يعاني الهزيمة والإذلال والاستغلال علىٰ أيدي الغربيين. وتفكَّكت كل من الصين واليابان عندما حملت الأسحلة جماعات متنوعة من الوطنيين، والمعارضين، والمجرمين، يلومون حكوماتهم علىٰ كل شيء. وقام متعصّبون دينيون وميليشيات بقتل الغربيين المشردين خارج منشآتهم المحصنة، والبيروقراطيين الذي استرضوا هؤلاء الدخلاء، وقصفت القوات البحرية الغربية المدن الساحلية في رد انتقامي، وسببت الفصائل المتنافسة

نزاعًا بين الغربيين. وغمرت الأسلحة الأوروبية اليابان، حيث أطاح فصيل تدعمه بريطانيا بالحكومة الشرعية في عام ١٨٦٨م. وتكلّفت الحرب الأهلية في الصين حياة ٢٠ مليون شخص قبل أن يقرر المموّلون الغربيون أنَّ تغيير النظام سيضر بالعائدات، وعندئذٍ ساعد «جيش لا يُهزم» فيه ضباط أمريكيون وبريطانيون وسفن مدفعية علىٰ إنقاذ سلالة تشين.

وكان الغربيون يملون علىٰ الحكومات الشرقية ما تفعله، ويصادرون أموالهم، ويملؤون قاعات مجالسهم بالمستشارين. وليس من الغريب أنَّ هذه الأمور أدت إلىٰ انخفاض الرسوم المفروضة علىٰ الواردات الغربية وأسعار السلع التي أراد الغربيون شراءها. وفي بعض الأحيان، لم ترق الأمور للغربيين أنفسهم. وفي هذا الصدد، أخبر يوليسيس س. جرانت الإمبراطور الياباني في عام ١٨٧٩م: «لقد شاهدت أمورًا جعلت دمي يغلي من الأسلوب الذي تحاول به القوىٰ الأوروبية إهانة الأمم الآسيوية».

بيدَ أنَّ معظم الغربيين قد خلصوا إلىٰ أنَّ الأمور هي كما ينبغي أن تكون عليه، وإزاء هذه الخلفية من انهيار الشرق، ترسَّخت نظريات المدىٰ الطويل الحتمية عن هيمنة الغرب. فالشرق، مع الأباطرة الفسدة، والكونفوشيوسيين المنبطحين، ونحو مليار خادم يعاني من سوء التغذية - بدا مُقدَّرًا له الخضوع للغرب الدينامي. وبدا أنَّ العالم قد بلغ شكله النهائي المُقدَّر سلفًا.

حرب الشرق

لكنَّ أبطال نظريات المدىٰ الطويل المغرورين الفرحين بأنفسهم في القرن التاسع عشر قد غفلوا عن أمر كبير - وهو منطق إمبرياليتهم التي يحركها السوق. فكما أنَّ السوق دفع بالرأسماليين البريطانيين لبناء الهياكل الأساسية الصناعية لأسوأ منافسيهم في ألمانيا والولايات المتحدة، فقد كافأ السوق الآن الغربيين الذين أداروا رأس المال، والاختراعات، والخبرات في الشرق. لقد رتّب الغربيون الأمور لصالحهم متىٰ استطاعوا ذلك، لكنَّ سعي رأس المال الحثيث لأرباح جديدة قدّم أيضًا فُرَصًا للشرقيين الذين كانوا مستعدين للاستفادة منها.

وكانت السرعة التي فعل بها الشرقيون ذلك مدهشةً. في ستينيات القرن التاسع عشر انطلقت حركتا «تعزيز الذات» الصينية و«الحضارة والتنوير» اليابانية، تنسخان ما تريانه أفضل ما في الغرب؛ فترجمتا الكتب الغربية، عن العلوم، والحكم، والقانون، والطب إلىٰ اللغتين الصينية واليابانية، وأرسلتا الوفود إلىٰ الغرب للبحث عن أنفسهم. وهرع الغربيون إلىٰ بيع أحدث الأدوات للشرقيين، ولوّث الجراد جرينديون الصينيون واليابانيون الريف بالمصانع.

من ناحية، لم يكن هذا بالأمر المفاجئ. فعندما انتزع الشرقيون الأدوات التي دفعت بالتطور الاجتماعي الغربي عاليًا، كانوا يفعلون الشيء نفسه الذي فعله الغربيون قبل ستة قرون مع الأدوات الشرقية مثل البوصلات، والحديد المصبوب، والمدافع. ولكن من ناحية أخرىٰ، كان ذلك مفاجئًا للغاية، حيث اختلف التفاعل الشرقي بشدة عن التفاعلات في المراكز السابقة في العالم القديم

وفي جنوب آسيا، التي أصبحت مُتضمنة باعتبارها أطرافًا غربية خلال الثلاثة قرون السابقة.

فلم يُطوّر الهنود الحمر أيَّة صناعات محلية، وكان الجنوب آسيويون أبطأ بكثير من الشرق آسيويين في فعل ذلك. ويعتقد بعض المؤرخين أنَّ الثقافة تفسِّر ذلك؛ إذ يجادلون (بصراحة إلىٰ حدٍّ ما) أنَّه بينما تُشجّع الحضارة الغربية بقوة علىٰ العمل الشاق والعقلانية، فإنَّ الثقافة الشرقية لا تفعل ذلك إلَّا علىٰ نحو ضعيف، وأكثر ضعفًا في الثقافة الجنوب آسيوية، وثمة ثقافات أخرىٰ لا تفعل ذلك علىٰ الإطلاق. لكنَّ هذا الإرث من طرق التفكير الاستعمارية لا يمكن أن يكون صحيحًا.

عندما ننظر إلىٰ ردود الأفعال تجاه الهيمنة الغربية ضمن إطار زمني أطول، سنرىٰ في الحقيقة ارتباطين لافتين. الارتباط الأول هو أنَّ تلك المناطق التي امتلكت تطورًا اجتماعيًّا مرتفعًا نسبيًّا قبل الهيمنة الغربية، مثل المركز الشرقي، كانت تميل إلىٰ تصنيع أنفسها بشكل أسرع من المناطق التي امتلكت إحرازات تطور اجتماعي منخفضة نسبيًا؛ أما الارتباط الثاني، فهو أنَّ المناطق التي تجنّبت الاستعمار الأوروبي المباشر كانت تميل إلىٰ التصنيع بشكل أسرع من تلك التي لم تتحول إلىٰ مستعمرات. وقد امتلكت اليابان تطورًا اجتماعيًا مرتفعًا قبل عام ١٨٥٣م، ولم تكن مستعمرة، وبدأ تحديثها في سبعينيات القرن التاسع عشر. وامتلكت الصين تطورًا مرتفعًا واستُعمِرت جزئيًا، وبدأ تحديثها في خمسينيات القرن العشرين. وامتلكت الهند تطورًا متوسطًا واستُعمِرت بالكامل، ولم يبدأ تحديثها حتىٰ تسعينيات القرن العشرين. وامتلكت الدول الأفريقية جنوب الصحراء الكبرىٰ تطورًا منخفضًا واستُعمِرت بالكامل، وهي تبدأ الآن اللحاق بالركب فحسب.

ولأنَّ الشرق في القرن التاسع عشر (وفقًا لمعايير ما قبل الصناعة) كان عالمًا من الزراعة المتقدمة، والمدن الكبرىٰ، والتعليم المنتشر، والجيوش القوية؛ فقد وجد الكثير من سكانه سُبلًا لتكييف الوسائل الغربية في بيئة جديدة. وتبنىٰ الشرقيون جدالات الغرب حول التصنيع. ومقابل كل رأسمالي شرقي كان هناك

ساموراي مُسنّ يشتكي، «كان للجمال عديم النفع مكان في الحياة القديمة، لكن الحياة الجديدة لا تطلب سوىٰ النفع القبيح»، وبالرغم من أنَّ الأجور الحقيقية كانت ترتفع في المدن بحلول عام ١٩٠٠م، شكّل المنشقون الصينيون واليابانيون الأحزاب الاشتراكية. وبحلول عام ١٩٢٠م شمل أعضاؤها الشاب ماو تسي تونغ.

تعددت الجدالات الشرقية حول التصنيع من بلد إلىٰ آخر. ومثلما حدث في الغرب، لم يكن هناك الكثير الذي يمكن أن يفعله الرجال العظماء، أو الأغبياء الحمقىٰ، أو الثقافة، أو الحظ المحض لمنع النهضة الصناعية ما إن ظهرت الإمكانية لذلك، ولكن -مرة أخرىٰ علىٰ شاكلة الغرب- كانت هذه القوىٰ مرتبطة بتقرير أي بلد سيقود المسيرة.

عندما قدّم كل من و. س. جيلبرت وآرثر سوليفان الأوبرا الكوميدية «الميكادو»، في لندن في عام ١٨٨٥م، اتخذوا اليابان باعتبارها النموذج المثالي للشرق الغريب، ذلك النوع من المكان الذي تموت فيه الطيور الصغيرة من أجل الحُب، ويضطر فيه جلادو اللورد أن يقطعوا رؤوسهم. وفي الحقيقة -رغم ذلك- كانت اليابان تتجه نحو التصنيع بشكل أسرع من أي مجتمع سابق في التاريخ. فالإمبراطور الجديد الشاب أدار المشهد ببراعة في عام ١٨٦٨م بعد الحرب الأهلية، وفي طوكيو تمكَّن المسؤولون عن الإدراة من إبقاء بلدهم خارج الحروب مع القوىٰ الغربية، ومن تمويل التصنيع من رأس المال المحلي، ومن إثناء الناس الغاضبين عن الهجمات الاستفزازية علىٰ الأجانب. وعلىٰ العكس من ذلك، سمح مسؤولو الإدراة الحمقىٰ في بكين بانتشار العنف، بل حرَّضوا عليه ضد المبشِّرين، وأخطؤوا بدخولهم الحرب مع فرنسا في عام ١٨٨٤م (حيث فقدوا معظم أسطولهم الجديد المكلّف في ساعة واحدة فقط)، وكانوا يقترضون ويختلسون علىٰ نطاق مدمِّر.

واجهت نخبة اليابان حقيقة أنَّ التحرريّة كانت صفقة شاملة. فارتدوا القبعات أو القرينول، وتناقش بعضهم بشأن استعمال الكتابة اللاتينية، بينما أراد آخرون أنَّ تتحدث اليابان بالإنجليزية. وكانوا علىٰ استعداد للنظر في أي شيء

يمكن أن ينجح. لكنَّ حكَّام تشين كانوا يجسِّدون معنىٰ الانقسام. ولمدة ستة وأربعين عامًا حكمت الإمبراطورة الأرملة تسيشي من وراء ستار الخيزران، مُعارضةً أي تحديث قد يهدد بقاء الأسرة الحاكمة. وكانت مغازلتها الوحيدة للأفكار الغربية هي تحويل أموال مخصصة لإعادة بناء الأسطول البحري إلىٰ نسخة رخامية من زورق ميسيسبي من أجل قصرها الصيفي، (لا يزال موجودًا، ويستحق المشاهدة). وعندما حاول ابن أخيها جوانغ شو الاستعجال في برنامجه الإصلاحي ذي المائة يوم في عام ١٨٩٨م (يشمل تنظيم الخدمة المدنية، وتحديث الاختبارات، وإنشاء مدارس وكليات حديثة، وتنسيق إنتاج الشاي والحرير لأغراض التصدير، وتعزيز التعدين والسكك الحديدية، وغربنة الجيش والبحرية) أعلنت تسيشي أنَّ جوانغ شو قد طلب منها أنَّ تعود وصية علىٰ العرش، ثم حبسته في القصر، وأعدمت وزراءه التحديثيين. وظلَّ جوانغ شو مُصلحًا حتىٰ النهاية، وسُمِّم بالزرنيخ في الوقت الذي استلقت فيه تسيشي علىٰ فراش الموت في عام ١٩٠٨م.

وفي حين تعثرت الصين في طريقها نحو الحداثة، تسابقت اليابان نحوها. وفي عام ١٨٨٩م نشرت اليابان دستورًا يمنح الأثرياء حق التصويت، ممَّا سمح بالأحزاب السياسية علىٰ الطراز الغربي، وأنشأ الوزارات الحكومية الحديثة. وقد وافقت الصين علىٰ الدستور في أيام احتضار تسيشي فقط، ممَّا سمح بتصويت محدود للذكور في عام ١٩٠٩م، ولكنَّ اليابان جعلت التعليم الجماعي أولوية. وبحلول عام ١٨٩٠م تلقىٰ ثُلثا الفتيان اليابانيين وثُلث الفتيات اليابانيات تعليمًا ابتدائيًّا بالمجان، بينما لم تفعل الصين تقريبًا أي شيء لتعليم شعبها. وأسَّس كلا البلدين أول خطوط السكك الحديدية في عام ١٨٧٦م، ولكنَّ حاكم شانغهاي أزال خطوط السكة الحديدية في عام ١٨٧٧م، خوفًا من أن يستخدمها المتمردون. وفي عام ١٨٩٦م امتلكت اليابان خطوط سكك حديدية بطول ٢٣٠٠ ميل، بينما امتلكت الصين خطوط سكك حديدية بطول ٣٧٠ ميلًا فقط. والقصة نفسها يمكن حكيها عن الحديد أو الفحم أو البخار أو خطوط البرق (التليجراف).

عبر التاريخ كله، أدىٰ توسُّع المراكز إلىٰ حروب شرسة علىٰ الأطراف لتحديد أي جزء منها سيتصدر مقاومة (أو محاكاة) القوىٰ الكبرىٰ. في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد، علىٰ سبيل المثال، تحاربت كل من أثينا وأسبرطة ومقدونيا لقرن ونصف علىٰ أطراف الإمبراطورية الفارسية، وفعلت كل من مملكة (شو) ومملكة (وو) ومملكة (يو) الشيء نفسه في جنوب الصين في الوقت الذي نما فيه المركز في وادي النهر الأصفر. وفي القرن التاسع عشر كرَّرت العملية نفسها عندما أصبح الشرق طرفًا للغرب.

ومنذ فشل جهد اليابان لاحتلال الصين في تسعينيات القرن السادس عشر، افترض الحكَّام في المركز الشرقي أنَّ تكاليف الحرب بين الدول قد تفوق فوائدها، ولكنَّ قدوم الغرب قلب هذا الافتراض رأسًا علىٰ عقب. فأي دولة شرقية اتجهت نحو التصنيع، وأعادت تنظيم نفسها، وأعادت تسليح نفسها بشكل أسرع - لم تتمكن من صد الإمبرياليين الغربيين فحسب، ولكن أيضًا الحفاظ علىٰ بقية الشرق من الضياع.

كان التصنيع الياباني في النهاية، وليس سفن بريطانيا الحربية، هو الذي كانت بمثابة نيميسيس بالنسبة إلىٰ الصين. فقد كانت اليابان تفتقر إلىٰ الموارد، بينما كان لدىٰ الصين الكثير من الموارد. واحتاجت اليابان إلىٰ الأسواق، بينما امتلأت الصين بها. وكانت الجدالات في طوكيو حول ما يجب فعله محتدة بل وقاتلة، ولكن خلال جيلين تعهدت اليابان تدريجيًا بشق طريقها بالقوة نحو مواد الصين وأسواقها. وبحلول ثلاثينيات القرن العشرين عزم معظم المسؤولين العسكريين اليابانيين علىٰ السيطرة علىٰ المركز الشرقي بأسره، وتحويل الصين وجنوب شرق آسيا إلىٰ مستعمرات، وطرد الإمبرياليين الغربيين. وبدأت حرب الشرق.

إنَّ الفارق الكبير بين حرب الشرق هذه وحرب الغرب في القرن الثامن عشر، هو أنَّ حرب الشرق حدثت في عالم كان الغرب يحكمه بالفعل. وأدىٰ ذلك إلىٰ تعقيد كل شيء. ولذلك في عام ١٨٩٥م عندما نحّت اليابان جانبًا المقاومة الصينية لتقدمها في كوريا، ردَّ قيصر ألمانيا فيلهلم الثاني بإرسال لوحة

بغيضة لابن عمه القيصر نيكولاس الثاني، قيصر روسيا، تُسمىٰ «الخطر الأصفر»، (الشكل ١٠ - ٧)، داعيًا إيَّاه إلىٰ «التعهد برعاية القارة الآسيوية، والدفاع عن أوروبا من اعتداء العِرق الأصفر الكبير». واستجاب نيكولاس بمصادرة الكثير من الأراضي التي استولت عليها اليابان من الصين.



(موضع الشكل ١٠ - ٧). «الخطر الأصفر»: لوحة في عام ١٨٩٥م رُسِمت بناءً علىٰ رسم تخطيطي لقيصر فيلهلم الثاني يهدف لتشجيع الأوروبيين علىٰ «الاتحاد في مقاومة اعتداء البوذية والوثنية والهمجية للدفاع عن الصليب».

ومع ذلك، ثمة غربيون آخرون وجدوا مزايا في العمل مع اليابان، باستخدام قوتها المتزايدة لحراسة الشرق لهم. وأتت الفرصة الأولىٰ في عام ١٩٠٠م عندما ثارت جمعية صينية سرية تُسمىٰ «جمعية الحق والقبضات المتآلفة» ضد الإمبريالية الغربية (مُدّعية -ضمن ادَّعاءات أخرىٰ- أنَّ مائة يوم من التدريب علىٰ الفنون القتالية ستجعل أعضاءها مضادين للرصاص). وتطلب قمعهم عشرين ألف جندي أجنبي، وكان معظم الجنود - علىٰ الرغم من أنك لن تعرف ذلك من الروايات الغربية (وخاصة الفيلم الهوليودي الشهير في عام ١٩٦٣م: ٥٥ يومًا في بكين) - من اليابانيين. فرحت بريطانيا كثيرًا بهذه النتيجة لدرجة أنها وقّعت في

عام ١٩٠٢م تحالفًا بحريًّا يُقرّ بقوة اليابان العظمىٰ في الشرق. ومع الثقة في حياد البريطانيين، انتقمت اليابان في عام ١٩٠٤م من روسيا، فأغرقت أسطولها الشرقي البعيد واكتسحت جيشها في أكبر معركة بريّة حدثت علىٰ الإطلاق. وعندما أرسل القيصر نيكولاس أسطوله الأساسي بمقدار عشرين ألف ميل حول العالم القديم لإعادة وضع الأمور في نصابها، أغرقته البوارج الحربية اليابانية أيضًا.

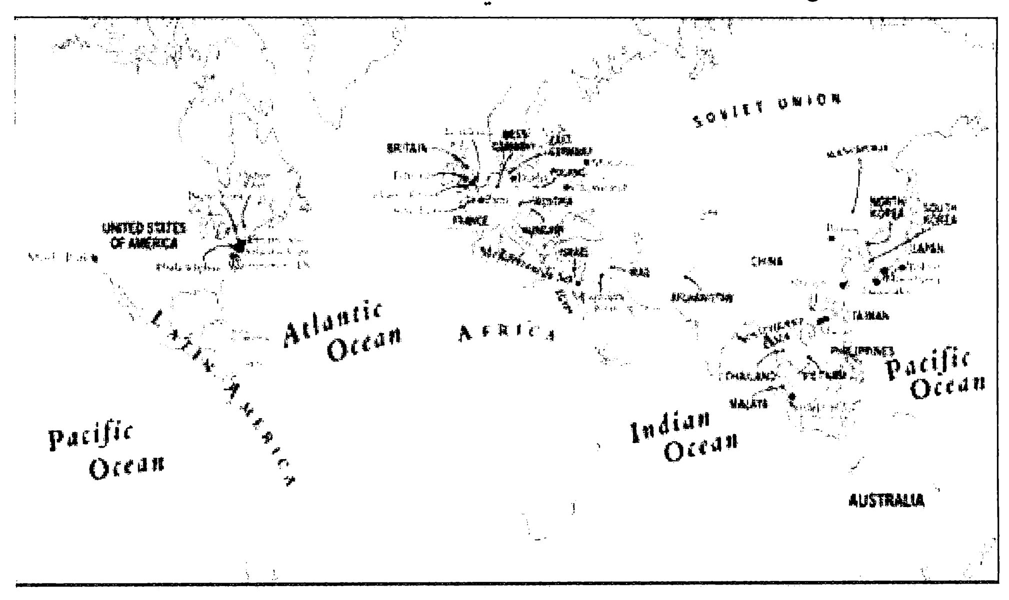
مرَّ أقل من خمسين عامًا منذ رحيل لوتي إلىٰ لندن، إلَّا أنَّ المركز الشرقي القديم استجاب بشكل ديناميكي جدًّا لدرجة أنه أصبح متمكنًا من هزيمة إمبراطورية غربية. وخلص قائد القوات الروسي أليسكي نيكولايفيتش كوروباتكين المُهان إلىٰ أنَّ «ما حدث . . . في الفترة من ١٩٠٤ إلىٰ ١٩٠٥م لم يكن أكثر من مناوشات مع طلائع الجيش . . . مع الاعتراف بأنَّ حفظ السلام في آسيا هو أمر مهم لأوروبا بأسرها . . . في حال استطعنا السيطرة علىٰ «الخطر الأصفر» ». لكنَّ أوروبا تجاهلت نصيحته.

حروب العالـم

في الفترة بين عام ١٩١٤ و١٩٩١م خاض المركز الغربي أكبر الحروب في التاريخ: الحرب العالمية الأولىٰ بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨م، لتحديد ما إذا كانت ألمانيا سوف تنشئ إمبراطورية أوروبية موحدة؛ والحرب العالمية الثانية بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٥م حول المسألة نفسها؛ والحرب الباردة بين عامي ١٩٤٧ و١٩٩١م، بهدف إيجاد حل لمشكلة كيفية تقسيم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي للغنائم، (الشكل ١٠ – ٨). وأنتجت هذه الحروب حربًا جديدة للغرب قزّمت نسخة الحرب في القرن الثامن عشر. وشملت هذه الحرب حرب الشرق، وخلّفت مائة مليون قتيل، وهدَّدت بقاء البشرية ذاتها. وفي عام ١٩٩١م، كان الغرب لا يزال يهيمن، ولكن بدا للكثيرين أنَّ مخاوف كوروباكتين كانت تتحقق أخيرًا: فقد كان الشرق مستعدًا للحاق بالغرب.

لقد حُكيت قصة كيفية بدء حرب الغرب الجديدة كثيرًا - كيف أدىٰ تدهور الإمبراطورية العثمانية لفترة طويلة إلىٰ ملء البلقان بالإرهابيين/المقاتلين من أجل الحرية، وكيف أنَّه من خلال عمل أخرق وسوء حظ، اغتالت عصابة تدعىٰ «اليد السوداء» وريث عرش هابسبورغ في النمسا في يونيو ١٩١٤م (حيث ارتدت القنبلة التي ألقاها القاتل بعد ارتطامها بسيارة الأرشيدوق، فقط ليأخذ السائق منعطفًا خاطئًا، ثمَّ يرجع للوراء، ويقف بالضبط أمام قاتل آخر لم يخطئ تلك المرة)، وكيف جرّت شبكة المعاهدات المُصمّمة للمحافظة علىٰ السلام في أوروبا الجميع نحو حافة الهاوية.

أمَّا ما يتبع ذلك فهو معروف جيدًا بالمثل - كيف جنّدت دول أوروبا المُحدَّثة شبابها بأعداد غير مسبوقة، وكيف قامت بتسليحهم بأسلحة غير مسبوقة، وكيف أخضعت طاقاتها الهائلة من أجل قتل لم يسبق له مثيل. قبل عام ١٩١٤م، جادل بعض المفكرين بأنَّ الحرب الكبرىٰ قد أصبحت مستحيلة؛ لأنَّ اقتصادات العالم الآن أصبحت متشابكة حتىٰ إنَّها ستنهار كلها في اللحظة التي ستندلع فيها الحرب، ممَّا سينهي الصراع. لكن بحلول عام ١٩١٨م، فإنَّ الدرس هو: أنَّ الدول التي تمكَّنت بفعالية من تسخير اقتصاداتها الضخمة والمعقدة، هي التي استطاعت تحمّل ضغوط الحرب الشاملة في القرن العشرين.



(موضع الشكل ١٠ - ٨). العالم في حالة حرب (١٩١٤م - ١٩٩١م): يُظهر التظليل الرمادي الولايات المتحدة وحلفاءها الرئيسين في عام ١٩٨٠م، وتظهر الخطوط المائلة الاتحاد السوفيتي وحلفاءه الرئيسين).

بيدَ أنَّ الحرب أظهرت أنَّ المكاسب من نصيب الدول الديمقراطية الليبرالية، التي كان مواطنوها أكثر تعهدًا بالنضال. وبالعودة للألفية الأولىٰ قبل الميلاد، تعلَّم الشرقيون والغربيون أنَّ الإمبراطوريات التي تحكمها سلالات كانت هي المنظمات الأكثر فعالية لشنّ الحرب، ولكنهم الآن تعلَّموا في غضون عشر سنوات أنَّ هذه الإمبراطوريات السلالية - وهي الشكل الأكثر ثباتًا في التاريخ

للحكومة، مع إرث متواصل من ممالك آشور، وفارس، وتشين - لم تعد ملائمة في حالة الحرب.

كانت سلالة تشين هي أول السلالات البائدة. لقد غرقوا في الديون والهزيمة والفوضىٰ، وفقد وزراء الإمبراطور الصبي بوئي السيطرة علىٰ الجيش مبكرًا في عام ١٩١١م، ولكن عندما رقَّىٰ جنرال المتمردين يوان شيكاي نفسه إلىٰ إمبراطور في عام ١٩١٦م -كما كان الجنرالات المتمردون يفعلون منذ ألفي عام- وجد أنَّه لم يتمكن من توحيد البلاد أيضًا. وأعادت زمرة عسكرية أخرىٰ بوئي إلىٰ الحكم في عام ١٩١٧م، دون تحقيق نتائج أفضل. وانتهىٰ تاريخ الصين الإمبراطوري بعد ذلك بأيام قليلة، إن لم يكن بنشيج، فبانفجار صغير جدًّا: حيث ألقت طائرة قنبلة علىٰ المدينة المحرَّمة في بكين، وعُزل بوئي مجددًا، وسقطت البلاد في الفوضىٰ.

ثم كانت سلالة رومانوف في روسيا هي التالية. كادت هزيمة اليابان أن تطيح بالقيصر نيكولاس في عام ١٩٠٥م، غير أنَّ الحرب العالمية الأولىٰ أنهت المهمة. وفي عام ١٩١٧م أزال الليبراليون عائلته من السلطة، وفي عام ١٩١٨م أطلق البلاشفة النار عليهم. ثمَّ سرعان ما تبعهم كل من الهوهنزوليين في ألمانيا والهابسبورغيين في النمسا، لكنهم فرّوا من مصير آل رومانوف بفرارهم من وطنهم. واستمر العثمانيون في تركيا بصعوبة، ولكن صمدوا حتىٰ عام ١٩٢٢م فقط.

وبالرغم من الدمار، عززت الحرب العالمية الأولىٰ من الهيمنة الغربية بالتخلص من إمبراطوريات أوروبا السلالية العتيقة، وبجعلها الصين أكثر ضعفًا من أي وقت مضىٰ. وبدا أنَّ أكبر الرابحين هي فرنسا وقبل كل شيء بريطانيا، اللتان التهمتا المستعمرات الألمانية ودفعتا بإمبراطورياتهما المُحيطية الضخمة لأماكن أبعد داخل أفريقيا، والمحيط الهادئ، وحقول نفط الإمبراطورية العثمانية القديمة، ولكنهما أيضًا تنمرتا علىٰ حليفهتما الشرقية اليابان بإجبارها علىٰ تسليم معظم المستعمرات الألمانية التي استولت عليها. وبحلول عام ١٩١٩م كان أكثر من ثُلث الكتلة الأرضية وقرابة ثُلث سكان العالم خاضعين للندن أو باريس.

ومع ذلك، كانت المساحات الملونة الضخمة التي تمثِّل هذه الإمبراطوريات في الأطالس القديمة، عندما كنت لا أزال تلميذًا - مضللة. بالإضافة إلىٰ تعزيز القوة الغربية، أعادت الحرب توزيع تلك القوة. لقد حاربت أوروبا بما يفوق وسائلها، وغمرت الديون أرصدة بريطانيا نفسها. ووصل التضخم إلىٰ ٢٢٪ في عام ١٩٢٠م، وفي السنة التالية تخطت البطالة معدل ١١%. وتبدد ٨٦ مليون يوم عمل في الإضرابات. وظلَّت الشمس لا تغرب أبدًا عن الإمبراطورية البريطانية، ولكنَّ الإمبراطورية البريطانية كانت تجاهد للبقاء منفتحة للتجارة.

ومن أجل سداد ديونها خسرت بريطانيا رأس مالها، حيث تدفق معظمه عبر المحيط الأطلسي. كانت الحرب جحيمًا تام الأركان، ولكنَّ الولايات المتحدة خاضت تلك الحرب ببراعة ودهاء، حيث بزغت باعتبارها المصنع والمصرف للعالم. وبالعودة إلىٰ القرن الخامس عشر، انتقل المركز الغربي من البحر المتوسط نحو أوروبا الغربية، وفي القرن السابع عشر انتقل مرة أخرىٰ نحو الإمبراطوريات المحيطية الضخمة في الشمال الغربي. والآن، في القرن العشرين، انتقل المركز مجددًا عندما خسرت إمبراطوريات شمال غرب أوروبا المُحيطية المفلسة أمام إمبراطورية أمريكا الشمالية.

لقد حوَّلت الولايات المتحدة نفسها إلىٰ منظَّمة من نوع جديد، وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم «إمبراطورية شبه قارية». وبخلاف الإمبراطوريات السلالية التقليدية، لم يكن لديها أرستقراطية قديمة تحكم فلاحين مضطهدين، وبخلاف إمبراطوريات أوروبا المحيطية، لم يكن لديها وطن ليبرالي وصناعي صغير، يسيطر علىٰ النخيل والصنوبر. ولكن بدلًا من ذلك، بعد إبادة السكان الأصليين، والدخول في حرب أهلية وحشية، والدفع بملايين العبيد السابقين للعودة إلىٰ العبودية الفعلية، نشر الأوروبيون الأمريكيون المواطنة الديمقراطية من ساحل إلىٰ ساحل، مع تغذية المزارعين المزدهرين لمنطقة صناعية حيوية في الشمال الشرقي وأعلىٰ منطقة الغرب الأوسط وشراء بضائعها. وبحلول عام ١٩١٤م كانت الإمبراطورية الأمريكية شبه القارية تنافس إمبراطوريات أوروبا المحيطية، وبعد عام ١٩١٨م اتجه رجال أعمالها للعالمية.

لقد اندهش المعاصرون من الصوت العملاق لاندفاع الثروة الأوروبية إلىٰ داخل الولايات المتحدة. وعلَّق أحد وزراء الخارجية الأمريكية: «يبدو أنَّ المركز المالي للعالم، الذي استغرق آلاف السنين للانتقال من ضفاف نهر الفرات إلىٰ نهري التايمز والسين، قد انتقل إلىٰ هدسون بين عشية وضحاها». وفي عام ١٩٢٩م احتفظ الأمريكيون بأكثر من ١٥ مليار دولار في الاستثمارات الخارجية، وهو قرابة ما امتلكه البريطانيون في عام ١٩١٣م، وزادت قيمة حجم تجارتهم العالمية بنحو ٥٠٪.

بدأ العصر الذهبي للرأسمالية العالمية يولد من جديد تحت القيادة الأمريكية، ولكن كان ثمة فارق جوهري. قبل عام ١٩١٤م، رأىٰ جون ماينارد كينز أن: «تأثير لندن في شروط الاقتراض كان مهمًا جدًّا لدرجة أنَّ بنك إنجلترا كان من الممكن أن يدعي كونه قائد الأوركسترا الدولية»، لكن بعد عام ١٩١٨م لم تكن الولايات المتحدة راغبة في تولي ذلك المنصب. فمن خلال الهروب من تنافسات أوروبا وحروبها المُعدية، ترك الساسة الأمريكيون منصة المايسترو فارغة، مُنسحبين في عُزلة سياسية مماثلة لعُزلة الصين أو اليابان في القرن الثامن عشر. وعندما كانت الأوقات جيدة، ارتجلت الأوركسترا واستمرت بلا مخطط، ولكن عندما تغيَّرت الأوقات وأصبحت سيئة، أصبحت موسيقىٰ الأوركسترا نشازًا.

وفي أكتوبر عام ١٩٢٩م، حوَّل القليل من العمل الأخرق والكثير من سوء الحظ وغياب المايسترو فقاعة البورصة الأمريكية إلىٰ كارثة مالية عالمية. وانتشرت العدوىٰ بسرعة عبر العالم الرأسمالي: تعطلت البنوك، وتبخرت الأرصدة، وانهارت العملات. وجاع القليل من الناس، ولكن بحلول كريسماس عام ١٩٣٢م كان عامل أمريكي واحد من كل أربعة بلا عمل. وفي ألمانيا كانت النسبة أقرب من واحد كل اثنين. وامتدت صفوف العاطلين المُتعبين، «يحدّقون في مصيرهم بنفس نوع الدهشة الحمقاء لحيوانات في مصيدة»، كما رأىٰ الصحافي جورج أورويل. «كانوا ببساطة لا يفهمون ما يحدث لهم».

وحتىٰ منتصف الثلاثينيات علىٰ الأقل كان كل شيء تفعله الديمقراطيات الليبرالية يزيد الأمور سوءًا. لم يبد أنَّ مفارقة التطور قد أنهكت المركز الغربي فحسب، ولكن بدا أيضًا أنَّ مزايا التخلف ظهرت في مكان آخر. أُعيد تكوين روسيا، التي ظلت لقرون طرفًا متخلفًا، باعتبارها اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. ومثل الولايات المتحدة، ضمَّت روسيا مركزًا صناعيًّا مزدهرًا إلىٰ منطقة خلفية زراعية واسعة، ولكن علىٰ عكس الولايات المتحدة، عزَّزت الملكية العامة، والزراعة الجماعية، والتخطيط المركزي. وحشد الاتحاد السوفيتي شعبه بما يشبه دولة غربية حديثة أكثر من إمبراطورية سلالية قديمة؛ إلَّا أنَّ أوتوقراطييها لينين وستالين كانوا يحكمون مثل القياصرة أكثر من كونهم رؤساء ديمقراطيين.

كان الاتحاد السوفيتي يشبه إمبراطورية شبه قارية مُعادية لأمريكا، ولكنها بالتأكيد غير ليبرالية. لقد بشَّر ستالين بالمساواة، ولكنَّه بنىٰ اقتصادًا مركزيًا بالنقل الإجباري لملايين من رفاقه حول إمبراطوريته وحبس آخرين في معسكرات العمل السوفيتي. وتمَّ التخلص من المجموعات العِرقية المشبوهة أيديولوجيًّا ومن أعداء الشعب. وعلىٰ النقيض من الاقتصادات الرأسمالية الفاشلة، ترك الاتحاد السوفيتي ١٠ ملايين من رعاياه يموتون جوعًا. لكنَّ ستالين كان يفعل شيئًا صحيحًا؛ لأنَّه في حين انهارت الصناعة الرأسمالية بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣٧م، تضاعف الناتج السوفيتي بمقدار أربعة أضعاف. «لقد رأيت المستقبل، وهو مشرق»، كما أخبر الصحافي لينكولن ستفنز زملاءه الأمريكيين بعد زيارته للاتحاد السوفيتي.

وبحلول عام ١٩٣٠م بدا للكثيرين أنَّ الدرس الحقيقي للحرب العالمية الأولىٰ لم يكن أنَّ الديمقراطية الليبرالية كانت هي شكل المستقبل؛ ولكن أنَّ التحالف الأنجلو فرانكو أمريكي هو الذي فاز بالنهاية، علىٰ الرغم من ليبراليته، وليس بسببها. وكانت الإجابة الحقيقية هي الإمبراطورية شبه القارية، وكلما قلَّت الليبرالية كان ذلك أفضل. أمَّا اليابان التي استفادت كثيرًا من اتباع النماذج الليبرالية، فتخلَّت عن تلك النماذج عندما اضطربت الأسواق العالمية واضطرب اقتصادها الموجَّه نحو التجارة. ومع الارتفاع الكبير في البطالة، وتخبط

الديمقراطية، وتنامي هياج الشيوعية، تدخّل العسكريون مطالبين بإمبراطورية يابانية تتمكن من البقاء. وأُصيب الجيش بخبل، لا سيما الضباط الصغار الراديكاليين، مستغلًا اضطراب الديمقراطيات الغربية والحروب الأهلية الصينية لاحتلال منشوريا والاندفاع باتجاه بكين.

وفسَّر كولونيل بالجيش قائلًا: « من خلال تحقيق التعاون الياباني -المنشوري والصداقة اليابانية- الصينية يمكن أن يصبح الشعب الياباني حاكم آسيا وأن يستعدوا لشنّ الحرب الأخيرة والحاسمة ضد مختلف الأجناس البيضاء».

وقد أتت النزعة العسكرية بثمارها إلىٰ حد ما. فقد نما اقتصاد اليابان بنسبة ٧٢٪ في ثلاثينيات القرن العشرين، وارتفع إنتاج الصلب بمقدار ١٨ ضعفًا، ولكن مرة أخرىٰ كانت التكلفة باهظة. فقد كان كل من «التعاون» و«الصداقة» كثيرًا ما يعنيان الاستعباد والذبح، حتىٰ بالمعايير السيئة والتضليلية لثلاثينيات القرن العشرين كانت الوحشية اليابانية مروعة. وعلاوة علىٰ ذلك، بحلول عام ١٩٤٠م كان من الواضح أنَّ الاحتلال لم يحلّ مشاكل اليابان؛ إذ استهلكت الحرب الموارد بشكل أسرع من الاستيلاء عليها. ومن بين كل خمسة جالونات من البترول كانت تحرقها البوارج والقاذفات، كان أربعة منها يُشترىٰ من الغربيين. ولم تجلب خطة الجيش -استمرار الاحتلال- أي إغاثة، ومع تحوُّل الصين إلىٰ معضلة، لقيت خطة بحرية أكثر ترويعًا رواجًا كبيرًا: ضرب جنوب شرق آسيا وتحرير نفطها ومطاطها من المستعمرين الغربيين، حتىٰ لو كان ذلك يعني الحرب مع أمريكا.

بيد أنَّ الأكثر ترويعًا علىٰ الإطلاق كانت الخطة التي ظهرت في ألمانيا. لقد أرعبت كل من الهزيمة والبطالة والانهيار المالي ورثة جوته وكانط بشدة لدرجة أنَّهم كانوا مستعدين للاستماع إلىٰ رجل مجنون، يلقي اللوم علىٰ اليهود ويروّج كذبًا للاحتلال باعتباره الدواء الشافي. «إنَّ السبب الأول لاستقرار عُملتنا هو معسكرات الاعتقال»، كما أكَّد أدولف هتلر علىٰ وزير ماليته في حين كان يمارس وحشيته ضد الطبقة التجارية اليهودية في ألمانيا وقام بنفيهم، وألقىٰ بأعضاء النقابات العمَّالية في السجن؛ إلَّا أنَّه كان ثمة نسق في جنون هتلر:

فالإنفاق بالاستدانة، وملكية الدولة، وإعادة التسليح، كل ذلك أزال البطالة وضاعف الإنتاج الصناعي خلال ثلاثينيات القرن العشرين.

وأعلن هتلر خطته لتأمين الجانب الغربي لألمانيا بهزيمة الإمبراطوريات المُحيطية، ثمَّ استبدال أوروبا الشرقية واليهود بالمزارعين الآريين الأقوياء. وتجاوزت رؤيته لإمبراطورية شبه قارية مركزها ألمانيا كونها غير ليبرالية لتصبح إبادة شاملة، ولم يصدق الكثير من الغربيين أنَّه كان يعني ذلك حقًا. وقد تسبب خداع النفس الذي فعلوه في الشيء الوحيد الذي رغبوا كثيرًا في تجنبه، أي في حرب شاملة أخرىٰ. وبدا لبضعة أشهر -للمرة الأولىٰ منذ ١٨١٢م- إمبراطورية موحَّدة قد توحِّد أوروبا في نهاية المطاف، ولكن في تكرار خارق لنابليون، اضطر هتلر للتراجع في القنال الإنجليزي، وفي ثلوج موسكو، وفي صحراء مصر. وفي توسُّع فاشل، حاول دمج حرب اليابان في الشرق ضمن حربه في الغرب، ولكن بدلًا من إخراج بريطانيا من الحرب، أدىٰ ذلك إلىٰ دخول الولايات المتحدة فيها. كما جعلت الحرب الإمبراطوريتين الأمريكية الليبرالية والسوفيتية اللاليبرالية رفيقين، وبالرغم من نهب معادن وعمَّال أوروبا والشرق، لم تستطع ألمانيا ولا اليابان مقاومة أموال وعمالة ومصنعي هذه الإمبراطوريات مجتمعة.

في أبريل ١٩٤٥م، اتحدت القوات الأمريكية والسوفيتية في ألمانيا، يتعانقون، ويشربون النخوب، ويرقصون معًا، وبعدها بأيام قتل هتلر نفسه واستسلمت ألمانيا. وفي أغسطس، بينما انهمرت طلقات الرصاص من السماء وحوّلت القنابل الذرية هيروشيما وناجازاكي إلىٰ رماد، كسر الملك الإله الياباني كل التقاليد وخاطب شعبه مباشرة، وتحدث بما أعتبرهُ أكبر استهانة في التاريخ، قائلًا: «لقد تطورت حالة الحرب لكن ليس بالضرورة لصالح اليابان». وحتىٰ عندئذٍ، حاول الجنرالات التقليديون القيام بانقلاب علىٰ أمل مواصلة القتال، ولكن في يوم ٢ سبتمبر استسلمت اليابان أيضًا.

لقد أنهىٰ عام ١٩٤٥م محاولة اليابان للانتصار في حرب الشرق وطرد الإمبرياليين الغربيين، ومحاولة ألمانيا لإنشاء إمبراطورية شبه قارّية في أوروبا،

ولكنَّه أنهىٰ أيضًا الإمبراطوريات الغربية المُحيطية. ومع إنهاكهم الشديد إثر الحرب الشاملة لمقاومة الثورات القومية لفترة أطول، تلاشت هذه الثورات خلال جيل واحد. وكانت أوروبا محطمة. وتأمل أحد المسؤولين الأمريكيين في عام ١٩٤٥م قائلًا: «لقد بدا انهيارها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي غير مسبوق في التاريخ إلَّا إذا عاد المرء إلىٰ سقوط الإمبراطورية الرومانية».

ولم يَنهر التطور الاجتماعي الغربي في عام ١٩٤٥م، رغم ذلك؛ لأنَّ المركز أصبح الآن كبيرًا جدًّا لدرجة أن حتىٰ أكبر حرب لم تكن لتستطع تقويضه بالكامل. وأعاد السوفيت بناء صناعاتهم بما كان بعيد المنال عن ألمانيا، ولم تمس القنابل الولايات المتحدة. ولكن علىٰ النقيض من ذلك، أهلك الدمار الذي جلبته اليابان علىٰ الصين والولايات المتحدة علىٰ اليابان المركز الشرقي، مع ما ترتب علىٰ ذلك من ترسيخ الحرب العالمية الثانية -مثل الأولىٰ- للهيمنة الغربية. وبدا ثمة شكٌّ قليل في أنَّ الهيمنة الغربية باقية، وأصبح السؤال: هل ستكون قيادتها سوفيتية أم أمريكية؟

وقسَّمت الإمبراطوريتان المركز الأوروبي القديم فيما بينهما، وألمانيا إلىٰ نصفين. وتفاوض عندئذٍ رجال المال الأمريكيون حول نظام مالي دولي جديد للرأسمالية، وصاغوا «خطة المارشال»، التي ربما تكون الجزء الأكثر استنارة من النفعية في التاريخ. لقد أدرك الأمريكيون أنه إذا كان لدىٰ الأوروبيين نقود في جيوبهم، فيمكنهم شراء الغذاء الأمريكي، واستيراد الأجهزة الأمريكية لإعادة بناء صناعتهم، والأهم من ذلك كله: كبح أنفسهم من التصويت للحزب الشيوعي؛ ولذا أعطتهم أمريكا ببساطة ١٣,٥ مليار دولار، وهو ما يعادل واحدًا من عشرين جزءًا من ناتجها الكلي في عام ١٩٤٨م.

وانتزع الأوروبيون الغربيون أموال أمريكا، وقبلوا قيادتها العسكرية، وانضموا إلىٰ اتحاد أوروبي ديمقراطي مؤيد للتجارة، أو نزحوا نحوه. (وفهم الجميع السخرية في دفع الولايات المتحدة للأوروبيين نحو نسخة ضعيفة من الإمبراطورية الموحَّدة تحت الهيمنة الصناعية لألمانيا الغربية)، وتقبَّل الأوروبيون الشرقيون القيادة العسكرية السوفيتية ومجلسًا شيوعيًا ذا اتجاه داخلي للدعم

الاقتصادي المتبادل. وبدلًا من ضخ الموارد إلىٰ أوروبا الشرقية وتعزيز الديمقراطية، ضخ السوفيت الموارد للخارج وسجنوا أو قتلوا خصومهم، ومع ذلك استعاد ناتج أوروبا الشرقية مستويات ما قبل الحرب بحلول عام ١٩٤٩م. وفي المجال الأمريكي سارت الأمور علىٰ نحو أفضل، مع عدد قليل من حالات الحبس أو القتل بشكل ملحوظ، وتضاعف الإنتاج بين عامي ١٩٤٨ و١٩٦٤م.

لم تكن الإمبراطوريتان الأمريكية والسوفيتية أول من يتشارك المركز الغربي، ولكن الأسلحة النووية جعلتهما يختلفان عن كل من سبقتهما. اختبر السوفيت قنبلة في عام ١٩٤٩م، وبحلول عام ١٩٥٤م امتلك كلا الجانبين قنابل هيدروجينية أعنف ألف مرة من السلاح الذي استأصل هيروشيما - وهي تتجاوز القنبلة النووية التي استأصلت هيروشيما «مثل القنبلة النووية نفسها بالنسبة إلىٰ القوس والسهم»، كما كتب تشرشل في مذكراته. وخلص تقرير للكرملين إلىٰ أنَّ الحرب قد تخلق ظروفًا عالمية يستحيل العيش فيها.

ولكن رُبَّ ضارة نافعة: فكما أخبر تشرشل البرلمان الإنجليزي «قد يبدو ذلك غريبًا، ولكن بسبب كون إمكانية التدمير عالمية، فأعتقد أننا نستطيع أن ننظر إلىٰ الأمور بأمل بل وبثقة». ونشأت عقيدة التدمير المتبادل المؤكد، وعلىٰ الرغم من أنَّ سلسلة من الأخطاء المروعة قد جلبت العالم عدة مرات إلىٰ حافة الحرب الفانية، فلم يحارب الغرب حربًا عالمية ثالثة.

وبدلًا من ذلك، فقد خاض حربًا في العالم الثالث علىٰ أنقاض الإمبراطوريات الأوروبية واليابانية، شنّها وكلاء في الغالب (عادة ثوريون ريفيون يعملون لصالح السوفيت، ودكتاتوريون وحشيون لصالح الأمريكيين). وظاهريًا، كان يجب أن تكون هذه الحرب انتصارًا سهلًا لصالح الولايات المتحدة، التي كانت تسير بخطىٰ واسعة في العالم مثل عملاق أضخم من عملاق إنجلترا منذ قرن مضىٰ. أمَّا في الشرق، فقد امتلكت واشنطن جميع أوراق اللعب. فمن خلال ضخ نصف مليار دولار داخل اليابان، خلقت حليفًا مخلصًا ومزدهرًا، وبدعم المساعدات الأمريكية السخية بدا جيش قومي مستعدًا لهزيمة شيوعيي ماو تسي تونج وإنهاء الحرب الأهلية الصينية أخيرًا.

وقد غيّر انهيار القوميين المفاجئ في عام ١٩٤٩م كل شيء، ممَّا حوّل الشرق إلىٰ أكثر المناطق سخونة في الحرب الباردة للغرب. حرَّض ستالين كوريا الشمالية ضد كوريا الجنوبية الموالية لأمريكا، وعندما ساءت الأمور انضم ماو إلىٰ الحرب أيضًا. وفي الوقت الذي توقف فيه القتال في عام ١٩٥٣م، كان هناك ٤ ملايين شخص قد ماتوا بالفعل (من بينهم أحد أبناء ماو)، وكانت حرب العصابات في الفلبين وماليزيا والهند الصينية علىٰ أشدها. وانتصر وكلاء الأمريكان في أول حربين، فضلًا عن الصراع في إندونيسيا، ولكن بحلول عام ١٩٦٨م كان هناك نصف مليون أمريكي علىٰ أراضي ڤيتنام، يخسرون الحرب.

لقد كانت هذه الصراعات بمثابة جبهات في حرب الغرب السوفيتية الأمريكية، وحروب الليبرالية القومية، لكنَّها لم تكن بالتأكيد حربًا جديدة في الشرق. ورأت كل من الصين واليابان، وهما قوىٰ الشرق الكبرىٰ، القليل من الفائدة في التوسُّع بعد عام ١٩٤٥م. وكان لدىٰ الصين مشاكل كافية في الداخل، في حين انشغلت اليابان -في سخرية غريبة بقدر سخرية نجاحات ألمانيا الغربية في أوروبا- بتحقيق العديد من الأهداف التي سعت وراءها بعنف في عام ١٩٤١م. وباستغلال الدعم الأمريكي ببراعة، استغلت اليابان تدمير صناعاتها القديمة لإعادة تنظيم وميكنة وإيجاد بيئات مربحة. وبحلول عام ١٩٦٩م تفوق اقتصاد اليابان علىٰ اقتصاد ألمانيا الغربية، وفي سبعينيات القرن العشرين اقتربت باطراد من الولايات المتحدة.

عندئذٍ كانت الولايات المتحدة تشعر بالإجهاد من الحرب الباردة متعددة الجبهات. وبالرغم من إسقاطها قنابل أكثر علىٰ ڤيتنام، عانت أمريكا من هزيمة مخزية، ومن انقسام الرأي في الداخل، وإصابة نفوذها في الخارج. وبدأ وكلاء الاتحاد السوفيتي في الانتصار في حروبهم في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وحتىٰ انتصارات أمريكا تحوَّلت إلىٰ رماد. وكان وكلاء الولايات المتحدة الذين خلقتهم بدأب يقومون بعمل جيد للغاية حتىٰ إنَّهم كانوا يغزون الأسواق الأمريكية، بينما أصبح الحلفاء الأوروبيون الذين دافعت عنهم أمريكا يتحدثون الآن عن نزع السلاح والتحول إلىٰ عدم الانحياز. وبجعل إسرائيل من وكلائها،

دفعت واشنطن الحكومات العربية نحو الاتحاد السوفيتي، وعندما صدَّت إسرائيل الغزوات العربية في عام ١٩٧٣م، أطلقت كل من المقاطعات العربية وزيادات الأسعار الوحش الطليق الجديد للكساد التضخمي - وهو كساد وتضخم متزامنان.

عندما كنتُ مراهقًا في سبعينيات القرن العشرين، كنتُ وأصدقائي نتحدث عن الانهيار الأمريكي المقبل بينما كنا نجلس ونحن نرتدي بناطيل الچينز الأمريكية ونشاهد الأفلام الأمريكية ونعزف علىٰ الجيتارات الأمريكية. وبقدر ما أتذكر، لم يرَ أحد منا علىٰ الإطلاق تناقضًا في ذلك، وأنا متأكد من أنه لم يخطر ببالنا أبدًا أنَّه بعيدًا عن مشاهدتنا لنهاية الإمبراطورية الأمريكية، فقد كنا نقوم بدورنا لكسب حرب الغرب لصالح واشنطن. ولن تكون الجبهة الحاسمة التي سرعان ما ستبزغ، لا في ڤيتنام ولا أنغولا. لقد كانت تلك الجبهة في مراكز التسوق.

عصر كل شيء

أخبر رئيس الوزراء البريطاني الناخبين في عام ١٩٥٧م: « لنكن صرحاء، لم تكن الأمور جيدة لشعبنا». ربما فقد البريطانيون إمبراطورية وأخفقوا في إيجاد دور لهم، ولكن مثل العديد من الشعوب في جميع أنحاء العالم، كان لديهم علىٰ الأقل الكثير من الأشياء. وبحلول ستينيات القرن العشرين، أصبحت وسائل الترف التي لم تكن موجودة قبل قرن مضىٰ -مثل الراديو والتلفاز والمسجلات والسيارات والثلاجات والهواتف والمصابيح الكهربائية، (وما أتذكره أفضل من أي شيء، الألعاب البلاستيكية)- أدوات يومية في المركز الغربي (الشكل ١٠-٩).

وقد صدم هذا العصر البعض باعتباره عصر الابتذال، وهو ما وصفه أحد الشعراء بأنَّه عالم حيث «قلَّل سكان الأراضي الريفية الأميال المباشرة بسرقة القطارات ذات الأوجه المسطحة، والاندفاع عبر الأبواب الزجاجية الدوراة تجاه رغباتهم - البذلات الرخيصة، وأدوات المطبخ الحمراء، والأحذية الحادة، والمصاصات المثلجة، والخلاطات الكهربائية، وأجهزة تحميص الخبز، والغسالات والمجففات - ومجموعة من التخفيضات، ومنزل مدني لكنَّه بسيط، يزوره فقط رجال المبيعات والأقرباء».



(الشكل ١٠ - ٩). لم يكن الأمر أفضل من ذلك أبدًا: المؤلف وألعابه، يوم الكريسماس لعام ١٩٦٤م.

وظهرت الضواحي والمدن التابعة حول كل مخرج منحدر وطريق فرعي، من ليڤيتاون في أمريكا إلىٰ تيلفوردِ في بريطانيا، تؤذي ذواقة الجمال بكونها تشبه الصناديق وبرتابتها، ولكنَّها أعطت الناس ما أرادوه - مساحة صغيرة، ومواسير داخلية، وجراچات لسيارات الفورد اللامعة.

لقد كان القرن العشرون هو عصر كل شيء، كان عصر وفرة المواد بما يتجاوز أحلام الجشعين. لقد ولَّد كل من الفحم والنفط الرخيصين الكهرباء للجميع، مما أدىٰ إلىٰ تشغيل المحركات وإضاءة المنازل بمجرد ضغطة واحدة علىٰ المفتاح. وقد لاحظ أرسطو منذ ألفي سنة أنَّ العبيد سيظلون دائمًا معنا، ما لم يمتلك البشر «الأوتوماتا» وهي آلات تتحرك من تلقاء نفسها - للقيام بالعمل من أجلهم. والآن أصبح حلمه حقيقة، وأصبحت الكهرباء تمنح أكثرنا تواضعًا ما يعادل عشرات العبيد للقيام بكل مطالبنا للتسلية والدفء وخاصة الغذاء.

حوّلت ثورة الطاقة هذه الأساطير الخيالية في الأعياد اللانهائية إلىٰ واقع. وبين أعوام (١٥٠٠ و١٩٠٠م) تضاعفت محاصيل القمح في المركز الغربي،

بفضل الزراعة الأكثر تنظيمًا والحيوانات التي تقوم بالجر والتسميد، ولكن بحلول عام ١٨٩٠م بلغ المزارعون حدود الإبداع. فإضافة المزيد من الحيوانات يمكن أن يرفع الإنتاجية إلىٰ حد معين فقط، وبحلول عام ١٩٠٠م كان رُبع الأراضي الزراعية في أمريكا الشمالية يُستخدم لإطعام الخيول. ثمَّ جاء الجازولين لإنقاذ الوضع. وافتُتح أول مصانع الجرارات في أمريكا في عام ١٩٠٥م، وبحلول عام ١٩٢٧م كانت الجرارات تمنح الطاقة للمزارع الأمريكية بنفس قدر طاقة الخيول.

ولكن كل شيء له ثمن. فقد كان نصف الأمريكيين يقلبون التربة في عام ١٨٧٥م، ولكن بعد قرن أصبح واحد فقط من بين كل خمسين شخصًا يفعل ذلك. لقد التهمت الآلات الرجال، ودفعت بمجتمعات بأسرها خارج الأرض التي أصبح تقليبها ممكنًا بشكل أكثر ربحًا بواسطة عدد قليل من الأيدي الأجيرة ومحركات الديزل. «وحوش فُطْس الأنوف» هكذا وصف الروائي چون شتاينبك الجرارات «تثير الغبار وتلصق خراطيمها به، تمتد حتىٰ الريف، وعبر الريف، وخلال الأسوار، وعبر فناءات البيوت، وداخل الوديان وخارجها في خطوط مستقيمة».

توقَّع شتاينبك أن يثور البؤساء في الأرض، ولكن عندما تراجعت موجات مد انتزاع الملكية التي اجتاحت الفائض في الأوكيز (المهاجرين من أوكلاهوما، م) غربًا، وجامعي القطن الأسود شمالًا، عثر معظم المهاجرين علىٰ وظائف في المدينة حصلوا من خلالها علىٰ رواتب أفضل من العمل الروتيني الريفي الذي هربوا منه. وباع لهم رجال الأعمال الزراعيون الذين حلّوا محلّهم الآن طعامًا رخيصًا، واستثمروا الأرباح في الأسمدة الكيميائية ومبيدات الأعشاب، والمحركات الكهربائية لضخ المياه لتجفيف الحقول، وأخيرًا في المحاصيل المعدلة وراثيًا التي يمكن أن تصمد أمام أي شيء تقريبًا. وبحلول عام ٢٠٠٠م كان كل فدان من الأراضي الزراعية الأمريكية يستهلك طاقة بمقدار ٨٠ ضعف استهلاكه لها عام ١٩٠٠م، وينتج المزيد من الغذاء بمقدار أربعة أضعاف.

وأينما ذهبت أمريكا اليوم، تبعها العالم غدًا. وزادت «الثورة الخضراء» من الإنتاج الغذائي العالمي بين أعوام (١٩٥٠ و٢٠٠٠م) بمقدار أربعة أضعاف.

وانخفضت الأسعار باطراد، وحلَّت اللحوم محلّ الحبوب في النظم الغذائية، واختفىٰ الجوع - إلَّا عند تدخل كارثة، أو حماقة أو عمل وحشي.

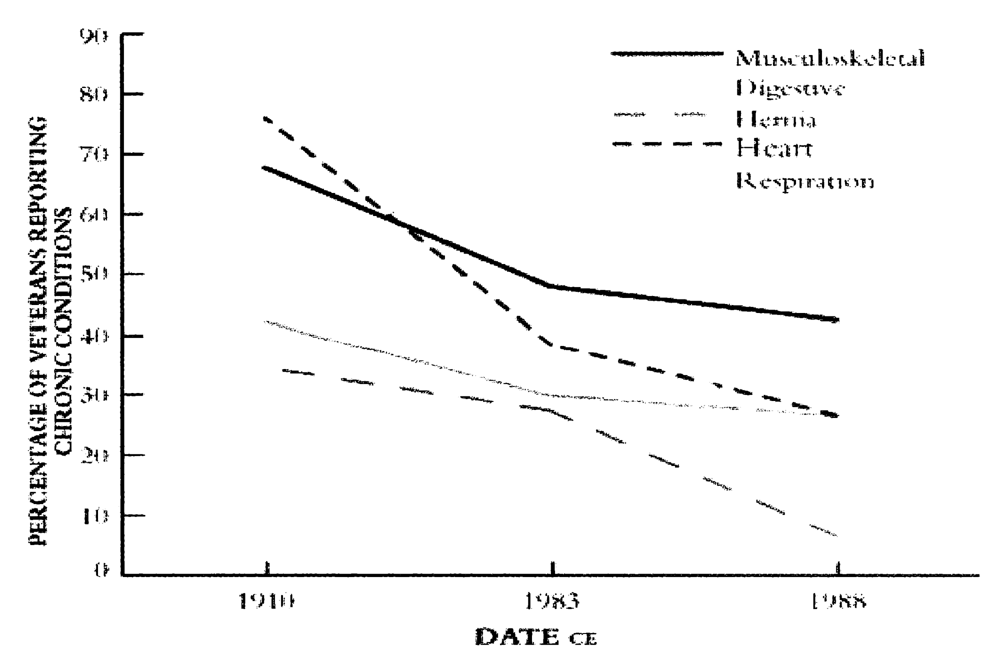
ومثل كل الكائنات الحية، حوَّل البشر الطاقة الزائدة إلىٰ نسل جديد، وتضاعف سكان العالم بمقدار أربع مرات تقريبًا بالتوازي مع الإمدادات الغذائية في القرن العشرين. ولكن بطرق أخرىٰ، ابتعد البشر عن القواعد النموذجية؛ فبدلًا من تحويل كسبهم غير المتوقع للطاقة إلىٰ أجسام جديدة، كنزوا بعضًا منها في أجسامهم. وفي المتوسط أصبح البالغون أكبر بنسبة ٥٠٪ بحلول عام ٢٠٠٠م ممَّا كانوا عليه في عام ١٩٠٠م. وازداد طولهم بمقدار ٤ بوصات، وأصبحوا أضخم، وأصبح لديهم المزيد من الطاقة للعمل. وبامتلاكهم أعضاء أكثر قوة والمزيد من الدهون (وفي البلدان الغنية، الكثير من الدهون)، استطاع هؤلاء البشر الأكبر حجمًا مقاومة الأمراض والإصابات. ويعيش الأمريكيون والأوروبيون الحديثون أطول من آباء أجدادهم بمقدار ثلاثين عامًا، ويستمتعون بعقْد أو عقديْن إضافيين قبل أن تضعف أعينهم وآذانهم وأعضاؤهم الأخرىٰ ويجمِّد التهاب المفاصل مفاصلهم. وفي الكثير من بقية دول العالم بما في ذلك الصين واليابان، طال المدىٰ العمري بما يقرب الأربعين عامًا. وحتىٰ في أفريقيا الموبوءة بالإيدز والمالاريا، ارتفع متوسط العمر المتوقع بمقدار عشرين سنة في عام ٢٠٠٩م أكثر مما كان عليه في عام ١٩٠٠م.

لقد تغيّر جسم الإنسان في السنوات المائة الأخيرة أكثر ممَّا تغيَّر في الخمسين ألف سنة الأخيرة، وتعلَّم البشر -لا سيما في البلدان الغنية- التدخل لتصحيح أوجه القصور المتبقية. استخدم الأوروبيون النظّارات منذ عام ١٣٠٠م، لكنَّها أصبحت الآن منتشرة في جميع أنحاء العالم. وابتكر الأطباء تقنيات جديدة لإنقاذ السمع، وإبقاء ضخ الدم في القلوب، وإعادة ربط الأطراف، وحتىٰ التدخل في الخلايا. وقضت برامج الصحة العامة علىٰ الجدري والحصبة باعتبارهما أمراضًا قاتلة، وأدىٰ جمع القمامة ومياه الشرب النقية إلىٰ أكثر من ذلك.

يعطي (الشكل ١٠ - ١٠) الذي يبيِّن أنواع الحالات المزمنة التي أثَّرت في الجنود السابقين بجيش الولايات المتحدة، إحساسًا بمدىٰ تحسن الصحة. وقد لا

يكون الجنود السابقون هم المجموعة الفرعية البشرية النموذجية للدراسة، بالنظر إلىٰ عنف نوع عملهم، ولكن بفضل الاحتفاظ العسكري المفرط بالسجلات، فهم أفضل مجموعة فرعية لدينا، والتحسنات مذهلة حقًا.

كان معظم الجنود السابقين من الرجال، ولكن حيوات النساء تغيَّرت بشكل أكبر. فعلىٰ مرِّ التاريخ، كانت النساء ماكينات لصناعة الأطفال. ولأنَّ نصف أطفالهم لقوا مصرعهم في السنة الأولىٰ (معظمهم في الأسبوع الأول في الحقيقة)، ووصل نصف الذين عاشوا إلىٰ أعياد ميلادهم الأربعين، فإنَّ الحفاظ علىٰ استقرار السكان (بتربية طفلين حتىٰ سن البلوغ ليحلَّا محل الأم وزوجها) تطلب أن تلد المرأة المتوسطة حوالي خمس مرات، ومن ثَّم فهي تقضي معظم حياتها البالغة، وهي حامل/أو تقوم بالرعاية. ولكن في القرن العشرين انهار ذلك العالم ذو الوفيات المرتفعة والتكنولوجيا المتدنية المستوىٰ.



(الشكل ١٠ - ١٠). كن كل ما يمكنك أن تكونه: صحة الجنود السابقين في جيش الولايات المتحدة (١٩١٠ - ١٩٨٨م).

وحتىٰ قبل عام ١٩٠٠م كانت نساء أكبر حجمًا وأفضل تغذية وأقوىٰ تحملن أطفالًا أقوىٰ، وتطعمهن أكثر، وتبقيهم أنظف. وغدا عدد أقل من صغارهن

يموت؛ ولذا فقد نما تعداد السكان بشكل انفجاري - إلىٰ أن سيطرت النساء علىٰ خصوبتهن. لقد امتلك البشر دومًا وسائل لمنع الحمل (وتقول الأسطورة إنَّ عاشق القرن الثامن عشر كازانوڤا كان يصنع واقياته الذكرية بنفسه بقطع الليمون إلىٰ نصفين)، وكانت معدلات المواليد تنخفض في أغنىٰ البلدان بحلول عام ١٩٠٠م، ولكن في القرن العشرين ارتقت التكنولوجيا الأمريكية إلىٰ مستوىٰ هذا التحدي أيضًا. وفي عام ١٩٢٠م ظهرت الواقيات الذكرية المصنوعة من اللاتكس، وفي عام ١٩٦٠م ظهرت حبوب منع الحمل، وفي البلدان الغنية انخفض معدل المواليد إلىٰ ما دون مستوىٰ الإحلال الذي يبلغ فردين لكل زوجين.

ومثلما حرَّر الأطفال الأصح والحبوب الطبية النساء من حيوات الولادة، فقد حرَّرت لفائف التسخين في المكاوي، وأجهزة تحميص الخبز والمحركات الصغيرة للغسالات والمكانس النساء أيضًا من كدّ الأعمال المنزلية. مجرد الضغط علىٰ مفتاح كان يقوم بالمهام التي تطلبت سابقًا ساعات من العمل المُضني. ولم ينتهِ عمل المرأة أبدًا، ولكن بحلول عام ١٩٦٠م كان بإمكانها ركوب السيارة (امتلكت كل أسرة أمريكية سيارة)، والقيادة إلىٰ السوبر ماركت (حيث يُباع ثُلثا غذاء البلاد)، وتخزين مشترواتها في الثلاجة (امتلكت ٩٨% من المنازل ثلاجات)، وتشغيل الغسالة قبل أن يعود الطفلان أو الثلاثة أطفال من المدرسة ويجلسوا أمام التلفاز.

وقد حرَّرت التغييرات النساء كي يعملن في الخارج في اقتصاد يتبدل سريعًا من التصنيع نحو الخدمات، ويتم فيه الاستغناء عن العمَّال ذوي الياقات الزرقاء (يقصد الرجال، م)، ويصبح بحاجة ماسة إلىٰ ذوات الياقات الزهرية (النساء، م). وفي أغنىٰ البلدان ارتفعت نسبة النساء في الوظائف مدفوعة الأجر والتعليم العالي باطراد بعد عام ١٩٦٠م، ومثل كل عصر قبله، حصل هذا العصر علىٰ الفكر الذي يحتاجه. وحثّت كتب مثل «اللغز الأنثوي» و«السياسات الجنسية» النساء الأمريكيات من الطبقة الوسطىٰ علىٰ السعي نحو تحقيق ذواتهن خارج الأدوار التقليدية. وفي عام ١٩٦٨م فضّت مئات المتظاهرات موكب ملكة جمال أمريكا في مدينة أتلانتا. وبحلول التسعينيات كان الرجال بالفعل يشاركون في

الأعمال المنزلية وفي تربية الأطفال (حتىٰ ولو ظلَّت زوجاتهم وصديقاتهم يقمن بعمل أكبر).

وفي وقت مبكر مثل عام ١٩٥١م رأىٰ عالم الاجتماع الأمريكي داڤيد رايسمان إلىٰ أين تتجه الأشياء. وفي قصة بعنوان «حروب النايلون»، تحتفي بالاستهلاكية الأمريكية وتسخر منها، تخيَّل داڤيد الخبراء الاستراتيجيين وهم ينصحون الرئيس بأنَّه «لو أتيح للروس تجربة ثروات أمريكا، فإنَّهم لن يعودوا يتحملون حكَّامهم الذين كانوا يعطونهم الدبابات والجواسيس بدلًا من المكانس الكهربائية»، يكفي أن تُلقي الولايات المتحدة جوارب وسجائر علىٰ الاتحاد السوڤيتي لتنهار الشيوعية في الحال.

كان الواقع غريبًا كالخيال. ففي عام ١٩٥٨م وافق الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، وكل منهما علىٰ ثقة بترهيبه للآخر بقوته الصناعية، علىٰ إقامة معارض التصنيع في بلد كل منهما. وأرسل السوفيت إلىٰ نيويورك الجرارات واللواري ونماذج مضغرة للصواريخ لإقناع الرأسماليين بأنَّ المقاومة لا طائل من ورائها. وفي عام ١٩٥٩م ردَّت الولايات المتحدة الضربة ببراعة، بإرسال ريتشارد نيكسون (نائب الرئيس عندئذٍ) إلىٰ موسكو للإشراف علىٰ معرض بمساحة خمسين ألف قدم مربع للأجهزة المنزلية الأمريكية، يتضمن نسخة طبق الأصل من المنزل الجديد علىٰ الطراز الشائع في لونج آيلاند. وبينما كان سكان موسكو يشاهدون في حيرة، كان نيكسون وخروتشوف يتشاجران بجانب غسالة شركة ويستنغهاوس.

«إن كل ما يجعل النساء يعملن أقل هو أمر جيد»، هكذا افتتح نيكسون حديثه، لكنَّ خروتشوف كان مستعدًا له. وواصل معلقًا: «أنتم تريدون الاحتفاظ بنسائكم في المطبخ، ونحن لا نفكر في النساء بتلك الطريقة. إنَّنا نفكر فيهن بشكل أفضل». ولذلك، ربما عملت النساء خارج المنزل في الاتحاد السوفيتي أكثر من النساء في الولايات المتحدة. ومن جهة أخرىٰ، لم يمر سوىٰ عقْد آخر حتىٰ امتلكت نصف المنازل السوفيتية غسالة كهربائية. وبعد ركوب الأتوبيس للعودة من عملها في المصنع، كانت الزوجة السوفيتية النموذجية تقوم بثمان وعشرين ساعة إضافية من العمل المنزلي أسبوعيًا. وامتلكت شقة واحدة من بين

كل ثماني شقق مكنسة كهربائية، إلَّا أنَّه ربما تشاركها الرفاق الشيوعيون كلهم.

وقد ردَّ نيكسون بأنشودة شكر للمبادرات الحرة. «ليس لدينا قرار واحد يُصنع في الجهات العليا بواسطة مكتب حكومي واحد» هكذا قال مفسرًا. «نحن نمتلك العديد من المصنّعين المختلفين وأنواعًا عديدة مختلفة من الغسالات حتىٰ يكون لربات البيوت الاختيار . . . أليس من الأفضل التنافس في المزايا النسبية للغسالات بدلًا من قوة الصواريخ؟ . . . إنَّنا لا نفرضه عليكم [أسلوب حياتنا]، لكن أحفادكم سيروه».

وقد كان نيكسون محقًّا. في عام ١٩٥٩م نفىٰ خروتشوف ببساطة أنَّ العمَّال الأمريكيين يعيشون في مثل هذه المنازل، ولكن بحلول الثمانينيات رأىٰ أحفاده أنَّهم قد خُدعوا. ومن جهة، كان يجب إلقاء اللوم علىٰ مفارقة التطور مجددًا: فمعظم المواطنين السوفيت كان لديهم غسالات ومكانس كهربائية، ولكنَّهم امتلكوا أيضًا أجهزة راديو وتلفاز وأشرطة لموسيقىٰ الروك من السوق السوداء. وشاهدوا بأنفسهم كيف كان الأمريكيون يتقدمون نحو الأمام. وبدأت نكتة بالانتقال بين الأفراد، تقول بأنَّ قطارًا ما كان يحمل قادة الاتحاد السوفيتي السابقين عبر السهوب. وفجأة توقف القطار. وقفز ستالين، كما هو متوقع، وصاح: (اجلدوا السائق!). وبالفعل تم جلد السائق ولكنَّ القطار لم يتحرك. ثمَّ أمر خروتشوف: (أعد تأهيل السائق!). تم ذلك، ولكن لم يحدث شيء. ثمَّ ابتسم بريجنيف مقترحًا: «دعونا نتخيَّل أنَّ القطار يتحرك».

لقد كان أمرًا مؤسفًا أنَّ رعايا الإمبراطورية السوفيتية كان بإمكانهم تشغيل أجهزة التلفاز ومشاهدة أناس مثلي معهم جيتارات ويرتدون سراويل من الچينز، ولكن الأمر الكارثي هو أنَّهم تمكنوا من إدراك أنَّ مرحلة جديدة من الثورة الصناعية كانت في بدايتها، تقودها تكنولوچيا المعلومات، وتولِّد ثروة أكبر لأولئك الموجودين علىٰ الجانب الأيمن من الستار الحديدي. وتمَّ الكشف عن أول حاسوب أمريكي (ENIAC) في عام ١٩٤٦م. وبلغ وزنه ٣٠ طنًا، وكان يستهلك الكثير من الكهرباء لدرجة أنَّه عندما كان يتم تشغيله، كانت الأضواء في جميع أنحاء فيلادلفيا تنطفئ. وخلال الثلاثين عامًا التالية، كانت شركة

إنترناشيونال بيزنيس ماشينز (IBM) تبيع أجهزة أصغر، ولكنَّها لا تزال ضخمة للشركات الغربية، لكنَّ التحول الحقيقي أعقب اختراع المعالج الدقيق (microprocessor) في عام ١٩٧١م.

وكما هو الحال غالبًا، يأتي المخترعون من هامش النخبة، وفي هذه الحالة، ليس من الشركات العملاقة مثل (IBM) ولكن -مثل ستيف فوزنياك- من مرائب السيارات الموجودة في أماكن مثل ضاحية مينلو بارك في كاليفورنيا. وبدءًا من رأس مال يبلغ ٩١ ألف دولار وبضعة أصدقاء مولعين بالتكنولوجيا، أطلق فوزنياك وشريكه ستيف چوبز حاسوبهم الشخصي (Apple I) إلىٰ العالم في عام ١٩٧٦م. وبحلول عام ١٩٨٢م، وصلت مبيعات شركة «آبل» إلىٰ ٥٨٣ مليون دولار، واخترعت شركة (IBM) الحاسوب الشخصي من أجل المنافسة. وفي ذلك الوقت، أسَّس بيل جيتس وبول ألين اللذان تركا الدراسة في هارڤارد شركة «مايكروسوفت» وانتقلا إلىٰ الساحل الغربي. ودخلت الحوسبة إلىٰ كل مكتب ومنزل، وأصبحت أرخص وأسهل كل عام. بل أصبحت أمرًا مرحًا.

لقد غيَّرت الحواسيب من طريقة ترفيه المركز الغربي لنفسه، ومن طريقة القيام بالأعمال وشنّ الحروب. وبحلول عام ١٩٨٥م لم يكن هناك مسار للحياة الغربية لم تتطرق إليه الحواسيب - ما عدا في الإمبراطورية السوفيتية. ولم يعد التظاهر بأنَّ القطار يسير خيارًا متاحًا.

جنة الشعب

ولم يكن التظاهر بأنَّ القطار يسير خيارًا أيضًا في الشرق، حيث كانت الدول العميلة لأمريكا تبتعد سريعًا عن الصين الشيوعية. انتقلت اليابان تليها تايوان وكوريا الجنوبية سريعًا إلىٰ أعلىٰ السلسلة الاقتصادية الغذائية، من الألعاب البلاستيكية التي كنت أقدّرها كثيرًا في الستينيات إلىٰ الصناعات الثقيلة والإلكترونيات، وبينما كانت تقوم بذلك، أخذت مكانها دول أخرىٰ (سنغافورة وماليزيا وتايلاند) في أسفل السُلم. وارتفعت الأجور في جميع أنحاء الشرق. وأصبحت الحيوات أطول، والأطفال أكبر حجمًا، وامتلأت الشقق الكبيرة بالأدوات. وكانت أجهزة التلفاز في الصين أقل بكثير من الاتحاد السوفيتي، ولكنَّ صانعي السياسة في بكين كانوا يرون بشكل واضح الخطر الذي تشكِّله مواقع الازدهار حول ساحلهم الشرقي. وكانت هذه «النمور الآسيوية»، كما أصبحوا يُعرفون بعد ذلك، مصدر مهانة وإذلال. لقد امتلكت جميع هذه النمور الآسيوية إلىٰ حد ما حكم الحزب الواحد، وتشاركت كلها الخلفية الصينية الكونفوشسية والبوذية؛ ولذلك إذا لم يكن الاستبداد ولا التقاليد الثقافية الشرقية هي التي منعت النمو السريع، فأين يمكن أن تكمن المشكلة إلَّا في الشيوعية نفسها؟

لقد منع قرن من الحرب الأهلية والقتال الطائفي بين أربعينيات القرن التاسع عشر وأربعينيات القرن العشرين الصين من اتباع تحول اليابان السريع نحو التصنيع، ولكن بعد انتصاره في عام ١٩٤٩م، سرعان ما تبنىٰ ماو تسي تونغ نموذج لينين، وأعاد تنظيم مملكته باعتبارها إمبراطورية شبه قارية. وجلب السلام

أرباحًا ضخمة، تمامًا مثلما حدث عندما أعادت أسرة سوي توحيد الصين في القرن السادس، وسلالة السونغ في القرن العاشر، وسلالة مينج في القرن الرابع عشر. لقد انتعش الاقتصاد. كانت الخطة الخمسية علىٰ الطراز السوفيتي التي أطلقها ماو عند انتهاء الحرب الكورية أقلَّ فعالية بكثير من رأسمالية النمور الآسيوية، لكنَّها رغم ذلك ضاعفت الناتج الصناعي ورفعت الأجور الحقيقية بنسبة الثُلث. وارتفع متوسط العمر المتوقع عند الولادة من ٣٦ سنة في عام ١٩٥٠م إلىٰ ٥٧ سنة في عام ١٩٥٧م.

وهناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأنَّ الاقتصاد الصيني كان سيواصل النمو بقوة خلال الستينيات والسبعينيات إذا أتاح له ماو ذلك، ولكن مثل العديد من أباطرة الصين السابقين، كان ماو لا يثق في بيروقراطييه. فقد أصرَّ علىٰ أنَّ قوانين الاقتصاد الباطلة لا بُدَّ أنَّها ستنتج قوانين الماركسية الحقيقية؛ إلَّا أنَّ مخططيه - بمساطرهم الحاسبة ورسومهم البيانية- بدوا برجوازيين بشكل يثير الريبة. وعندما أُطلق العنان لإرادة الجماهير التي لا تقهر -كما أصرَّ ماو- تأسست جنة الشعب.

لقد أتىٰ ماو من عصر فكري في العقد الأول من القرن العشرين، وبقراءته لماركس (وسبنسر)، فقد كان ماو منظِّرًا لنظريات المدىٰ الطويل، مقتنعًا بأنَّ دونية الشرق قد نُقشت علىٰ الصخور منذ قرون مضت. وقد كان الحل -كما قرَّر ماو- هو التخلص من «الأربعة القديمة» - الأعراف القديمة، والعادات القديمة، والثقافة القديمة، والفكر القديم. بل كان علىٰ الأسرة الصينية أن تقول: «إنَّ أعز الناس في العالم هم آباؤنا، كما ذكرت جريدة الشباب الصيني (China Youth Journal)، ولكن لا يمكن مقارنتهم بالزعيم ماو والحزب الشيوعي . . . اللذين أعطيانا كل شيء». وبالإعلان عن «قفزة كبرىٰ إلىٰ الأمام» ستجعل الصين تلحق بالغرب، جمع ماو ٩٩٪ من السكان في المزارع الجماعية مع آلاف الأعضاء. وفي بعض الأماكن، تحوَّلت الطوباوية إلىٰ شغب:

«أعلن أمين الحزب لمدينة باوما في أكتوبر ١٩٥٨م أنَّ الاشتراكية سوف تنتهي في السابع من نوفمبر والشيوعية ستبدأ في الثامن من نوفمبر. وبعد الاجتماع، خرج الجميع علىٰ الفور إلىٰ الشوارع وبدؤوا في انتزاع السلع من

المتاجر. وعندما أصبحت رفوف المتاجر فارغة، ذهبوا إلىٰ بيوت الآخرين وأخذوا دجاجهم وخضرواتهم معهم إلىٰ المنزل لتناولها. لقد توقف الناس حتىٰ عن تمييز أي الأطفال ينتمون لأي عائلات. وسلمت الزوجات من هذا التشارك؛ لأنَّ أمين الحزب لم يكن متأكدًا بشأن ذلك».

وفي أماكن أخرىٰ، انتشرت الكلبية. فقد أطلق البعض علىٰ تلك الفترة فترة «التهام كل شيء»: حيث اختفىٰ كل حافز للعمل والتوفير، ولم يقم الكثير من الناس بأي منهما.

وبالضغط عليهم من أعلىٰ من أجل الإقرار بمحاصيل أكبر رغم أنَّ المحاصيل كانت تقل، فقد فعل مسؤولو الحزب ذلك، ثمَّ صادروا شرائح أكبر من الإنتاج لتبرير أرقامهم. «لا يتعلق الأمر بعدم وجود غذاء»، كما أصرَّ أحد المفوضين «فهناك الكثير من الحبوب؛ إلَّا أنَّ ٩٠٪ من الناس لديهم مشاكل أيديولوجية».

وممَّا زاد الطين بلة أنَّ ماو قد تخاصم مع خروتشوف. وبقطع المساعدات السوفيتية عنه، حاول ماو أن يصل إلىٰ المستوىٰ الغربي لإنتاج الصلب عن طريق سحب ٤٠ مليون فلاح من الأرض لبناء مسابك خاصة، تقوم بصهر أية معادن خام يمكن العثور عليها محليًا، بل وحتىٰ صهر أوانيهم ومقلاتهم لصناعة الصلب المحلي. وكان القليل ممَّا ينتجونه قابلًا للاستخدام، ولكن لم يجرؤ أحد علىٰ قول ذلك.

وأصبح الريف سرياليًا علىٰ نحو متزايد. وذكر أحد الصحافيين: «الهواء مملوء بالأنغام عالية النبرة للأوبرات المحلية التي تتدفق عبر مكبر صوت فوق الموقع وتصحبها دندنة النافخين، ولهثات محركات البنزين، وصوت أبواق اللوريات ذات الأحمال الثقيلة وجعجعة الثيران التي تجر المعادن الخام والفحم».

«الشيوعية هي الجنة» هكذا كان متوقعًا أن يغني الفلاحون، «وكوميونات الشعب هي الجسر إليها». ولكن كان ثمة مشكلة في تلك الجنة. فعندما لم يكن هناك غناء، كان الناس يموتون جوعًا. وتُعدّ الذكرىٰ التالية غير معتادة في نغمتها الفاترة:

«لم يمت أحد من عائلتنا. وبحلول شهر فبراير لعام ١٩٦٠م، كانت أرجل جدي قد تورمت بالكامل. وتساقط شعره، وامتلأ جسده بالقروح، وكان أضعف من أن يقوىٰ علىٰ فتح فمه. وجاء صديق وأزال بعض القروح، وقد كان ذلك مفيدًا. كان لا يزال لدينا ثلاثة من الماعز، وقد قتلت إحدىٰ الخالات اثنين منهم سرًا لمساعدة جدي. ولسوء الحظ، اكتشفت القيادات ذلك وأخذوا منَّا الذبائح».

وعلىٰ الرغم من ذلك، فقد كان هذا الجد محظوظًا. ووفقًا لراوٍ آخر:

«كان أسوأ ما حدث في أثناء المجاعة هو: أنَّ الآباء قرروا السماح بموت المسنين والصغار . . . كانت الأم تقول لابنتها: «يجب أن تذهبي لتري جدتك في الجنة»، وتوقفوا عن إطعام الفتيات والأطفال. كانوا يعطونهم الماء فقط . . . وتمَّ الإبلاغ عن امرأة واعتقلها مكتب الأمن العام. ولم ينتقدها أحد في القرية عند عودتها من معسكر عمل بعد سنوات قليلة».

مات حوالي ٢٠ مليونًا جوعًا بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٢م. وبعد وفاة ماو، خلصت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني رسميًا إلىٰ أنَّ الزعيم الكبير ماو تسي تونج كان محقًا في ٧٠٪ من الوقت وكان مخطئًا في ٣٠%، إلَّا أنَّه بحلول ١٩٦٠م كان الحزب أقل اقتناعًا بذلك. ونحّت زمرة تكنوقراطية ماو وأعادت تقديم بعض الممتلكات الخاصة. وفي عام ١٩٦٥م عاد الحصاد إلىٰ مستويات عام ١٩٥٧م.

لكن ماو، لم يُهزم. وقد مرَّت الصين، علىٰ غرار الغرب، بطفرة إنجاب بعد الحرب، منتجين أفواجًا ضخمة من المراهقين غير الصبورين. واستغل الشباب الأغنياء في المركز الغربي الليبرالي قوتهم الشرائية في إعادة توجيه ذوقهم حول موسيقاهم، وملابسهم، وأعراف الجنس، ولكن في الصين وجَّه ماو أذواق الشباب الغاضبين حول نفسه. ومن خلال وعظه الدائم «بالثورة الثقافية البروليتارية العظمىٰ» في عام ١٩٦٦م كان يحثّ الشباب علىٰ مهاجمة كل شيء.

وبتخليهم عن المدارس والجامعات، أصبح ملايين من المراهقين الحرس الأحمر الثائر، فكانوا يضربون ويهينون مدرسيهم أولًا ثمَّ أي شخص آخر بدا رجعيًا. وبينما كان الشباب الغربي يغني عن الثورة كان الشباب الصيني يعيشها.

«الكراهية هي التي جعلتني أشي بـ[زميلي] لي چيان بينغ» هكذا كتب طالب في كلية الآداب بفخر علىٰ ملصق، «وقد دفع ذلك الجماهير إلىٰ حالة غضب شعبي. لقد ضربوها -وهي أحد عناصر الثورة المضادة التي ظلَّت تحميها لجنة الحزب المحلي القديم لسنوات- حتىٰ الموت ببلاطيهم. لقد كان ذلك حدثًا مُرضيًا بشكل ضخم، الانتقام للشعب الثوري، والانتقام للشهداء الموتىٰ. والشيء التالي هو أنَّني سأصفي الحسابات مع هؤلاء الأوغاد الذين يؤون الخونة».

حاول ماو توجيه هذا الغضب ضد منافسيه، ولكنَّه لم يسيطر عليه أبدًا. ومع عدم أمان أي أحد من الاتهام باعتباره ضد الثورة، اندفع الناس للانتقاد أولًا. وبالنسبة إلىٰ الكثيرين كان الأمر محيرًا: فقد تذمر أحد القائمين بالخدمة في المراحيض بأنَّه ترك عمله؛ لأنَّ أساتذة كثيرين كانوا يُجبرون علىٰ تنظيف المراحيض باعتبار ذلك إعادة تأهيل. لكنَّ الكثيرين وجدوا الأمر مُبهجًا. فقد احتشد العمَّال الشباب للانضمام إلىٰ الطلاب وتوقفت المصانع عن العمل. وقد دعا الحراس الحُمر بعض المصورين ليصوروهم وهم يحطمون التماثيل البوذية والمعابد الكونفوشيوسية وآثار أسرة هان، بل واحتلت إحدىٰ العصابات وزارة الخارجية وعيَّنوا بروليتارييها باعتبارهم دبلوماسيين.

وفي عام ١٩٦٩م، مع ميل الأحداث نحو كارثة علىٰ مستوىٰ القفزة الكبرىٰ إلىٰ الأمام، فَقَد ماو أعصابه. لقد مات الآلاف، وتحطَّمت حيوات الملايين. وكانت النمور الآسيوية تبتعد باطراد عن جمهورية الصين الشعبية. وكانت العلاقات مع السوفيت سيئة جدًّا لدرجة أنَّ ثمانمائة صيني قد قُتلوا في اشتباكات حدودية. وقد أبعد ماو نفسه عن الراديكاليين، باحثًا عن طوق النجاة.

وقد رُمي إليه طوق نجاة من قِبَل الشخص الأقل احتمالًا لفعل ذلك علىٰ وجه الأرض - رئيس الولايات المتحدة المعادية للشيوعية، ريتشارد نيكسون. لقد اعتبر نيكسون الصفقة مع الصين طريقة للتفوق العسكري علىٰ السوفيت في الحرب الباردة، وفي عام ١٩٧٢م، بعد الكثير من الدبلوماسية غير الرسمية، سافر نيكسون إلىٰ بكين وصافح ماو. «كان هذا هو الأسبوع الذي غيَّر العالم» هكذا صاح نيكسون، وقد كان محقًّا في بعض النواحي. وقد أرعب احتمال محور

واشنطن وبكين بريجنيف كثيرًا لدرجة أنَّه في غضون ثلاثة أشهر من ذهابه إلىٰ الصين، كان نيكسون يجلس في موسكو يعقد الصفقات.

في الغالب، ربح ماو بالقدر نفسه من تلك الصفقة. فمن خلال لقائه نيكسون، أظهر ماو دعمًا للبراجماتيين الذين جاءوا بعد التكنولوجيا الغربية، وللمعارضة ضد الراديكاليين الذين دمَّروا الطبقات المثقفة في الصين. ففي حالة مشهورة، فاز أحد الطلاب بمنصب جامعي يُحسد عليه بعد تسليم ورقة امتحانات فارغة مع ملاحظة تزعم أنَّ النقاء الثوري أثمن من «مدمني الكتب الذين ظلوا يستهينون بالأمر طوال سنوات عديدة، ولم يفعلوا شيئًا مفيدًا». وفي نجاح ربما كان ليقدّره المازحون السوفيت، جادلت الشخصيات البارزة الراديكالية (ظاهريًا) بأنَّ «قطارًا اشتراكيًّا متأخرًا خير من قطار تنقيحي في الموعد».

بعد عام ١٩٧٢م قاوم البراجماتيون، رغم أن المد تحول بالتأكيد لصالحهم بعد وفاة ماو في عام ١٩٧٦م. أزاح دينج شياوبينج، الذي تعرض مرتين للتطهير باعتباره منحرفًا يمينيًا تحت حكم ماو وأُعيد تأهيله مرتين - أعداءه بالقوة وأظهر وجهه الحقيقي. وباتخاذ عبارة ماو المكررة «أُنشد الحقيقة في الحقائق» باعتبارها شعارًا له، واجه دينج بوضوح أكثر حقيقة مزعجة في الصين: وهي أنَّ السكان يتزايدون بمعدل أسرع من معدل نمو الاقتصاد. فمن أجل إطعام جميع الأمعاء الخاوية التي أتت داخل سوق العمل كل عام، كان اقتصاد الصين بحاجة إلىٰ النمو بمعدل ٧٪ سنويًا لمدة جيل علىٰ الأقل. وقد يكون البديل لذلك مجاعات ستُقزّم القفزة الكبرىٰ إلىٰ الأمام.

وكانت كل التجارب تشير إلىٰ أنَّه بوجود السلام وحكومة متحدة -وهما غائبان إلىٰ حد كبير منذ أربعينيات القرن التاسع عشر- فبإمكان الصين أن تزدهر داخل اقتصاد عالمي يهيمن عليه الغرب، ولكنَّ دينج ذهب إلىٰ ما هو أبعد من ذلك، ودفع بالصين نحو التكامل. ولتخفيف الضغط علىٰ الموارد، شجَّع سياسة الطفل الواحد ذات السمعة السيئة، التي تطلبت (نظريًا) تعقيم النساء اللائي أنجبن طفلين، ولزيادة الموارد المتاحة تبنىٰ سياسة الاقتصاد العالمي. وانضمت الصين إلىٰ البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وافتتحت مناطق اقتصادية خاصة لجذب

الرأسماليين من ماكاو وهونج كونج وتايوان، وسمحت حتىٰ بوجود مصنع كوكاكولا في شانغهاي.

وبحلول عام ١٩٨٣م كان دينج قد قتل بالفعل مجتمعات ماو. كان الفلاحون يسعون وراء الأنشطة «الهامشية» من أجل مكاسب شخصية، وكان رجال الأعمال يبقون علىٰ جزء من أرباحها. وقد ظلَّت الأراضي الزراعية تنتمي إلىٰ الاشتراكيات، لكنَّ العائلات تمكَّنت من تأجير قطع أرض لثلاثين عامًا وزراعتها سرًا. وأصبح من الممكن حتىٰ رهن الممتلكات الحضرية التي تقع ضمن عقود إيجار طويلة. ونتيجة لذلك ارتفع الإنتاج، وعلىٰ الرغم من أنَّ التحرير كان يُرعب المحافظين، فلم يكن هناك تراجع. وأعلن دينج:

«في أثناء الثورة الثقافية، كان هناك رأي يقول بأنَّ الشيوعية الفقيرة خير من الرأسمالية الغنية . . . ولأني أنكرت ذلك الرأي تمَّ إسقاطي . . . [ولكن] المهمّة الرئيسة للاشتراكية هي تطوير القوىٰ المنتجة، وتحسين حياة الناس بشكل مطرد، والحفاظ علىٰ زيادة الثروة المادية للمجتمع . . . الثراء ليس إثمًا».

وكانت هناك أفكار مماثلة تزعج الشيوعيين علىٰ بُعد أربعة آلاف ميل في موسكو. فبعد صدمة رحلة نيكسون للصين مضت حقبة السبعينيات علىٰ ما يرام إلىٰ حد ما بالنسبة إلىٰ الاتحاد السوفيتي. وعندما رفعت الدول العربية أسعار النفط، انتفع الاتحاد السوفيتي، وهو مُصدِّر ضخم للنفط أيضًا، ومع امتلاك الأموال بوفرة، موّلت موسكو وانتصرت في سلسلة من الحروب بالوكالة وتفوقت علىٰ أمريكا في الأسلحة النووية في عام ١٩٧٨م. ولكن ذلك كان مدّ الشيوعية العالي. فقد تحوَّل التدخل لدعم نظام عميل في أفغانستان إلىٰ حرب استنزاف امتدت طوال فترة الثمانينيات. وانخفضت أسعار النفط بمقدار الثُلثين، وزادت الولايات المتحدة بحدّة في الإنفاق العسكري، وخاصة علىٰ الأسلحة ذات التكنولوچيا العالية.

وقد شعر المكتب السياسي بالقلق من أن يرىٰ الروس العاديون قطارهم وهو لا يزال ساكنًا. فاقتصادها الذي تديره الدولة يمكن أن يصنّع الدبابات والأسلحة من طراز كلاشنيكوف، ولكن ليس أجهزة الحاسوب أو السيارات (وثمة

نكتة سوفيتية أخرىٰ: «كيف تضاعف من سعر سيارة اللادا؟»، الجواب: املأ الخزّان). وكانت المعارضة علىٰ أشدها في كل مكان. وقد أفزعت فكرة سباق جديد للتسلّح حكّام الإمبراطورية السوفيتية.

«لا يمكننا الاستمرار في العيش علىٰ هذا المنوال» هكذا اعترف ميخائيل جورباتشوف لزوجته رايسا، بينما كانا يتمشّيان في حديقتهما في عام ١٩٨٥م. وسيصبح جورباتشوف، خلال ساعات قليلة رئيس الاتحاد السوفيتي، لكنَّ الحديقة كانت هي المكان الوحيد للهرب من جواسيسه المتطفلين. ومثل دينج، علم جورباتشوف أنَّ عليه مواجهة الواقع. لقد كشف انفجار مفاعل نووي عتيق في تشيرنوبيل في عام ١٩٨٦م عن أنَّ الاتحاد السوفيتي ليس متأخرًا ولكنَّه في الواقع يتصدع، وكثّف جورباتشوف من إعادة الهيكلة (perestroika) والشفافية (glasnost') ليعيد اكتشاف ما علمه كل من ماركس وإنجلز منذ قرن ونصف، وهو أنَّ: التحرر يزيل كل العلاقات الثابتة سريعة التجمد، وليس فقط تلك التي لا نحبّها.

لقد تبخر كل ما كان صلبًا في الهواء، وتعلّم كل من دينج وجورباتشوف أنَّ الحرّيات الاقتصادية تثير الشهيّة من أجل الحرّيات السياسية. وأحيانًا وجد دينج في المحتجين حلفاء مفيدين ضد الشيوعيين المتشددين، وأحيانًا أخرىٰ فرض قوانين صارمة ضدهم. لكنَّ جورباتشوف، شكَّ في أنَّ محاولة استخدام القوة يمكن أن تتسبب في انهيار النظام بأكمله. وعندما سمح بإجراء انتخابات مفتوحة في مؤتمر نواب الشعب في ربيع عام ١٩٨٩م، وردَّ النواب علىٰ ذلك بالسخرية منه علىٰ التلفاز مباشرة، رفض إيقاف المؤتمر. وبدلًا من ذلك، توجَّه إلىٰ بكين حيث هتف المتظاهرون ضد حكم الحزب الواحد له. وكان مكتوبًا علىٰ أحد الملصقات الطلابية: «في الاتحاد السوفيتي لديهم جورباتشوف، أما في الصين فمَن لدينا؟».

وأعلن دينج، المنزعج، الأحكام العرفية بعد مغادرة جورباتشوف بيوم. وفي مطلع يونيو عام ١٩٨٩م احتشد حوالي مليون متظاهر في ساحة تيانانمن، بعضهم يرقص، والبعض يغني، والبعض يموت إثر الإضراب عن الطعام. وقد

وسمهم دينج بأنهم «حثالة المجتمع»، وهم أناس عازمون علىٰ «تأسيس جمهورية برجوازية بالاعتماد الكُلّي علىٰ الغرب»، وأرسل دينج جنوده إليهم. وبُثّت الصور حول العالم لجثث ممزقة، ودراجات محطّمة، ومحتج وحيد يقف في طريق الدبابات المتقدمة.

وانتصر القمع في الصين، ولكن حتىٰ عندما أعلنت كل من المجر وبولندا عن الانتخابات متعددة الأحزاب، كان جورباتشوف لا يزال يقاوم قيادة دينج. ومن خلال اتباع ما أطلق عليه أحد الوزراء «مبدأ سيناترا» ترك جورباتشوف الأقمار الصناعية السوفيتية تقوم بالأمر علىٰ طريقتها. وقد تفاجأ رئيس الوزراء البولندي المنتخب حديثًا لدرجة أنَّه أصيب بإغماء في أثناء تنصيبه. وباختبار حدودها، كانت القوات المجرية تطوي الأسلاك الشائكة علىٰ طول الحدود مع النمسا. وتخلىٰ الآلاف من الألمان «الذين كانوا في عطلة» في هنغاريا عن سياراتهم عبر الحدود من أجل الحرية.

ولم يفعل جورباتشوف أي شيء. وعندما زار برلين في شهر أكتوبر، هتفت الجموع له مرة أخرىٰ وتوسلت إليه أن يبقىٰ. وبعد أسابيع قليلة بدأ الألمان الشرقيون في الرقص أعلىٰ حائط برلين وتكسيره بالمطارق والأزاميل. وعندما لم يطلق عليهم أحد النيران، عبر الآلاف الحدود إلىٰ غرب برلين. وتفكك النظام الألماني الشرقي بسبب الاضطراب والعجز. وبعد ذلك بأشهر قليلة مضىٰ الدكتاتوريون الشيوعيون عبر أوروبا الشرقية بالطريقة نفسها وبدأت البلدان المتحدة داخل الاتحاد السوفيتي تعلن استقلالها. وعندما أعلن الرئيس الجديد للفيدرالية الروسية عن نيّته لترك الاتحاد، تُرك جورباتشوف باعتباره أمين عام إمبراطورية لم يعد لها وجود. وفي يوم عيد الميلاد لعام ١٩٩١م استسلم جورباتشوف للضغوط ليوقع علىٰ مرسوم يحل الإمبراطورية رسميًا. كانت النهاية مثالية: فلم يكن قلم جورباتشيوف السوفيتي صالحًا للكتابة، وكان عليه أن يستعير قلمًا من أحد مصوري قناة (CNN).

وانتصرت الولايات المتحدة في حرب الغرب.

عندما أثبتت الإمبراطوريات السلالية أنها غير قادرة علىٰ التعامل مع حرب شاملة، متلاشية من الأرض تقريبًا بين عامي (١٩١٧م و١٩٢٢م)، أظهرت الولايات المتحدة نفسها باعتبارها ليفياثانًا صامدًا، ولكن عندما أثبتت الشيوعية عدم كفايتها أيضًا بين عامي (١٩٨٩م و١٩٩١م)، كان الأمريكيون مستعدين لملء الفراغ. وكل سنتين، كانت وزارة الدفاع تستعرض استراتيجيتها الكبرىٰ في تقرير «دليل التخطيط الدفاعي». وقد وضعت المسودة الأولىٰ للتقرير في مارس عام ١٩٩٢م، أي بعد ثلاثة أشهر من سقوط الاتحاد السوفيتي - رؤيةً جريئة جديدة:

«هدفنا الأول هو منع ظهور منافس جديد، سواء في أراضي الاتحاد السوفيتي السابق أو في أي مكان آخر، يُشكّل خطرًا علىٰ النظام الذي أسَّسه الاتحاد السوفيتي سابقًا. وهذا . . . يتطلب أن نحاول منع أي قوة معادية من الهيمنة علىٰ منطقةٍ ستكون مواردها تحت رقابةٍ راسخة كافيةً لتوليد قوىٰ عالمية. وتشمل هذه المناطق أوروبا الغربية وشرق آسيا وأراضي الاتحاد السوفيتي السابق، وجنوب غرب آسيا».

وعندما تم تسريب المسودة من قِبل «مسؤول يؤمن أنَّ هذا الجدال الاستراتيجي لحقبة ما بعد الحرب ينبغي أن يحدث علىٰ المشاع» (كما ذكرت صحيفة نيويورك تايمز)، سارعت الحكومة بتخفيف لهجتها، وبالرغم من ذلك تم تمرير شيء يشبه الرؤية الأصلية لعالم تكون فيه الولايات المتحدة هي القوة العظمىٰ الوحيدة.

وانفجر الاتحاد السوفيتي القديم في تدافع لنهب ممتلكاته الخاصة. ولم يكن تفكّكه بنفس سوء الحرب الأهلية التي أعقبت سقوط الرومانوف، لكنَّ روسيا، وهي الدولة الخليفة الرئيسة، شهدت انخفاض الإنتاج بنسبة ٤٠٪ في التسعينيات وفي الأجور الحقيقية بنسبة ٤٥%. وفي عام ١٩٧٠م كان المواطن السوفيتي المتوسط يتوفىٰ في سن الثامنة والستين، أي أقل بأربعة أعوام عن الفرد الأوروبي الغربي المتوسط. وبحلول عام ٢٠٠٠م أصبح الفرد الروسي المتوسط يتوفىٰ في سن السادسة والستين، أي متأخرًا بمقدار ١٢ عامًا عن سكان الاتحاد الأوروبي. وكانت روسيا لا تزال ضخمة وغنية بالموارد، وأكبر قوة نووية في العالم، وبحلول عام ٢٠٠٨م شجّعت عودة حكومة قوية وارتفاع أسعار الطاقة روسيا علىٰ التنمّر علىٰ الجمهوريات السوفيتية السابقة وابتزاز الاتحاد الأوروبي. ولكن كما كان دليل التخطيط الدفاعي يأمل، لم تشكِّل روسيا تهديدًا مثل الاتحاد السوفيتي السابق.

ولم يتحدَ الاتحاد الأوروبي الهيمنةَ الأمريكية الغربية كذلك. وبالنسبة إلىٰ بعض المراقبين، بدا نزوع أوروبا ناحية (ثم بعيدًا عن) التكامل الاقتصادي والسياسي أشبه بخطوات تجاه إمبراطورية شبه قارية ضخمة، تحقق أخيرًا ما أخفق كل آل هابسبورج والبوربون ونابليون وهتلر في تحقيقه من خلال العنف، ولكن في الواقع خلّف كل من استمرار الانقسامات في أوروبا، وتباطؤ النمو الاقتصادي والسكان المسنّين، والضعف العسكري، خلّف كل ذلك أوروبا بعيدة عن حالة القوة العظمىٰ.

وقد برز جنوب غرب آسيا في عقول مخططي عام ١٩٩٢م إلىٰ حد كبير؛ لأنَّهم كانوا يخافون من وجود دولة معادية تستولي علىٰ حقول النفط في المنطقة، مثلما حاولت فعل ذلك العراق في عام ١٩٩٠م. وقد تجاهلوا التطرف الإسلامي الذي ظلَّ ينمو منذ فترة السبعينيات، وتفاجؤوا (مثل الجميع تقريبًا) من هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١م علىٰ الولايات المتحدة. ولكن الشرق هو الذي أثبت خطأ افتراضات المخططين عنه. ففي غضون أسابيع من تسرب دليل التخطيط الدفاعي

إلىٰ الصحافة، غرق حليف أمريكا الرئيس، اليابان، في ركود اقتصادي بينما انطلقت منافستها الشرقية الرئيسة، الصين.

مرَّت مائة وخمسون عامًا منذ بدأ الغرب في تحول المركز الشرقي القديم إلىٰ طرف، وكانت الدروس واضحة لجميع الذين امتلكوا أعينًا للرؤية. ومع وجود السلام، والحكومة المسؤولة، والاستعداد للخضوع للقوىٰ الغربية، استطاع الشرقيون تحويل الاقتصاد العالمي الرأسمالي لمصلحتهم، فحوّلوا العدد الهائل من السكان والنخب المتعلمة التي فاجأت غربيي القرن التاسع عشر باعتبارها دليلًا علىٰ التخلف الشرقي إلىٰ محركات للنمو الاقتصادي. ومنذ أربعينيات القرن التاسع عشر امتلكت الصين قدرًا بسيطًا من السلام الثمين، أو من المسؤولية والمرونة، ولكن في تسعينيات القرن العشرين بدأت في اتخاذ مكانها الصحيح في النظام العالمي.

ومن علىٰ المنصة غير المحتملة خلف عربة جولف في وسط أحد المنتزهات، أعلن دينج أنَّ الإصلاح الاقتصادي لن «يتقدم بعد ذلك ببطء مثل النساء ذوات الأقدام المربوطة، ولكنه . . . [سوف] يقوم بعمل رائد ويندفع للأمام بجسارة». وتحطمت العقبات التي واجهت الرأسمالية الحمراء. وعندما التقىٰ ماو ونيكسون في أوائل السبعينيات كان إنتاج العامل الأمريكي النموذجي يعادل تقريبًا ٢٠ ضعفًا من إنتاج العامل الصيني المفتقر إلىٰ رأس المال الكافي، وكانت الولايات المتحدة تصدّر ٢٢٪ من سلع العالم مقارنة بالصين التي صدّرت ٥٪ فقط. وعلىٰ مدىٰ ثلاثين عامًا واصلت الإنتاجية الأمريكية ارتفاعها، لكنَّ الاستثمار دفع بإنتاجية الصين بما يعدل ثلاثة أضعاف ارتفاع الإنتاجية الأمريكية. لم تتغيَّر حصة الولايات المتحدة من الإنتاج العالمي، وظلَّت ثابتة عند ٢١٪، لكنَّ حصة الصين قد تضاعفت ثلاث مرات تقريبًا، لتصل إلىٰ ١٤٪.

دفعت الصين ثمنًا باهظًا إثر هذا النمو. فقد ألقت المصانع غير المنظمة فعليًا النفايات كيفما شاءت، فسمَّمت الأنهار الرئيسة. وبلغت معدلات الإصابة بالسرطان علىٰ امتداد هذه المجاري المائية في كثير من الأحيان ضعف المتوسط الوطني. وجفَّت أنهار أخرىٰ، كانت تُستغل للزراعة غير المنظمة بالمثل. وزاد

قطع الأشجار بجنون، وتمدَّدت الصحاري بمعدل أسرع بمقدار ضعفي المعدل قبل فترة السبعينيات. وغدت الاحتجاجات ضد عدم كفاءة الحكومة والفساد المستشري في البلاد عنيفةً بتزايد، وطيلة السنوات منذ عام ٢٠٠٠م سجَّلت الشرطة حوالي ٢٥ ألف حادثة جماعية، وأعمال شغب صغيرة أكثر بكثير.

وفي المقابل، منع برنامج دينج المجاعات وحقق مكاسب كبيرة في الدخل. وشهد أهل الريف، الذين كانوا لا يزالون يشكِّلون ثُلثي سكان الصين ارتفاعًا حقيقيًا في الأجور بنسبة ٦٪ سنويًا. بيدَ أنَّ المكاسب تركَّزت علىٰ طول الساحل الشرقي، وغالبًا في القرىٰ الترابية الداخلية الفقيرة، وأدىٰ انخفاض التعليم والرعاية الصحية البدائية ولكن المجانية لنظام ماو، إلىٰ إلغاء هذه المكاسب. وكانت إحدىٰ هذه النتائج هي حدوث أكبر هجرة في التاريخ: فمنذ فترة التسعينيات انتقل ١٥٠ مليون شخص إلىٰ المدن، ممَّا أنشأ ما يعادل شيكاجو جديدة كل عام. وقد رفع الانتقال إلىٰ المدينة عادة دخل المزارع بنسبة ٥٠٪، وفي الوقت نفسه وفّر للمصنّعين العمالة بجزء من تكلفتهم في البلدان الغنية.

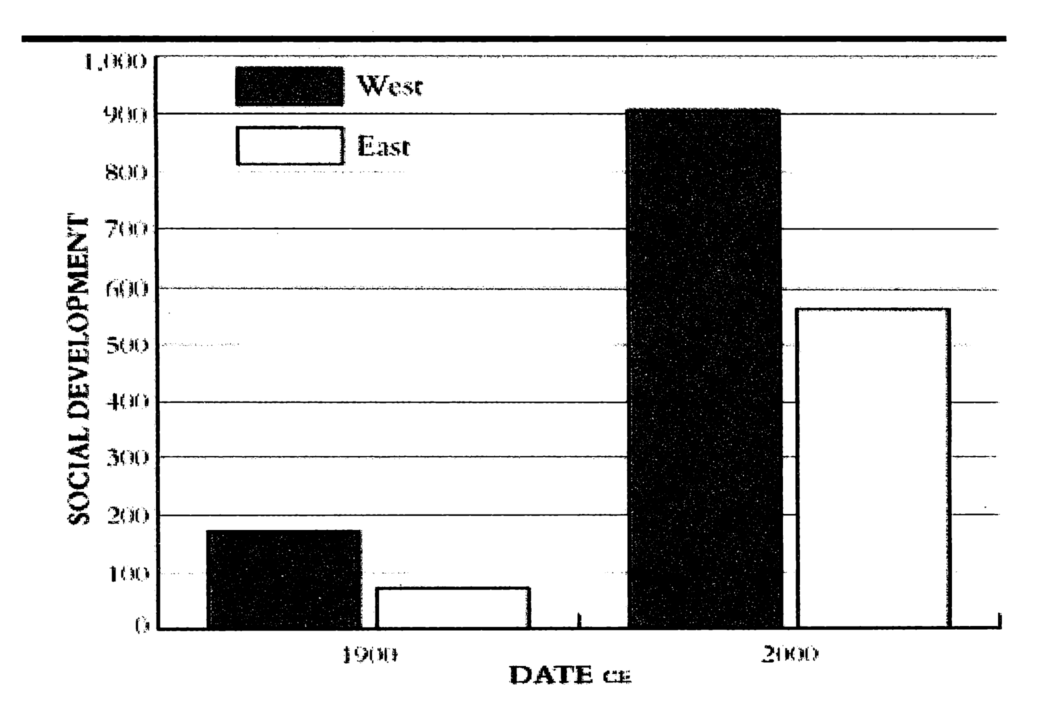
وبين عامي (١٩٩٢ و٢٠٠٧م) ارتفعت صادرات الصين بنحو ١٢ ضعفًا، وارتفع فائضها التجاري مع الولايات المتحدة من ١٨ مليار دولار إلىٰ ٢٣٣ مليار دولار. وفي محلات الخصومات الأمريكية مثل «وول مارت»، كانت السلع الصينية عادة تشغل ٩٠٪ من مساحة الرفوف بحلول عام ٢٠٠٨م، وكان من النادر وجود أمريكي لا يرتدي علىٰ الأقل قطعة ملابس واحدة صُنعت في الصين كل صباح. وعلّقت مجلة «بيزنيس ويك» بأنَّ عبارة «السعر الصيني» باتت تمثل العبارة الأكثر رعبًا في الصناعة الأمريكية. والشركات التي لم تستطع مجاراتها، أفلست.

ومثل بريطانيا في القرن التاسع عشر وأمريكا في القرن العشرين، أصبحت الصين مصنع العالم. ويصف الصحافي الاقتصادي جيمس كينج سماعه مصادفةً محادثة علىٰ قطار في إيطاليا بين رجلَي أعمال صينيين، يبدوان تمامًا مثل زوجين من الجراد جريندين انتزِعا من صفحات رواية ديكنز:

«لاحظ الرئيس أنَّهم ظلوا مسافرين لمدة ساعة ونصف، وبالكاد رأوا مصنعًا واحدًا. ردَّ الشاب «يحب الأجانب مشاهدة المناظر الطبيعية». صمت الرئيس

ليفكر، ثمَّ سأل «المناظر الطبيعية أم الإنتاج، ما هو الأهم؟» . . . شمل فضول الرئيس مواضيع كثيرة . . . لماذا الأجانب كسالىٰ جدًّا؟ ماذا ستفعل أوروبا عندما لن يبقىٰ لديها الكثير من الصناعة؟ هل يمكنك حقًّا إدارة اقتصاد اعتمادًا علىٰ الخدمات وحدها؟ هل تستهلك الأبقار الأوروبية فعلًا دولارين يوميًا في الإعانات الزراعية؟».

قبل نصف قرن، ادَّعىٰ ماو «لقد تغيَّر اتجاه الرياح في العالم . . . وفي الوقت الحاضر ليست رياح الغرب هي التي تغلب علىٰ رياح الشرق، لكن رياح الشرق تسود علىٰ الغرب». وكان في ذلك الوقت يخدع نفسه؛ ففي الخمسينيات كان الشرق تحت جناح الغرب بشكل كبير، منقسمًا بين دائرتي الاتحاد السوفيتي وأمريكا. ولكن بحلول عام ٢٠٠٠م بدأت كلمات ماو تصبح صحيحة، وإن لم تكن بالطرق التي قصدها. لقد كان التطور الاجتماعي الغربي متقدمًا بكثير علىٰ نظيره الشرقي -ما يزيد علىٰ ٣٠٠ نقطة- أكثر من أي وقت مضىٰ، ولكن بينما كانت النسبة بين الإحرازات الشرقية والغربية تقريبًا (٢,٤ : ١) في عام ١٩٠٠م، فبحلول عام ٢٠٠٠م كانت الإحرازات تزيد قليلًا عن (١,٦ : ١). كان القرن العشرون هو لحظة السعادة للعصر الغربي وبداية نهايته.



(موضع الشكل ١٠ - ١١). معرفة اتجاه الرياح: هل كان القرن العشرون يمثِّل كلًا من لحظة الأوج ولحظة النهاية للهيمنة الغربية؟ لقد زادت ريادة الغرب في التطور الاجتماعي من (١٠١ نقطة) في عام ١٩٠٠م إلىٰ (٣٣٦ نقطة) في عام ٢٠٠٠م، ولكن النسبة بين الإحرازات الشرقية والغربية تقلصت بمقدار الثُلث، من (٢,٤ : ١) في عام ١٩٠٠م إلىٰ (١,٦ : ١) في عام ٢٠٠٠م.

الجزء الثالث

(١١)

لماذا يُهيمن الغرب؟

لماذا يُهيمن الغرب؟

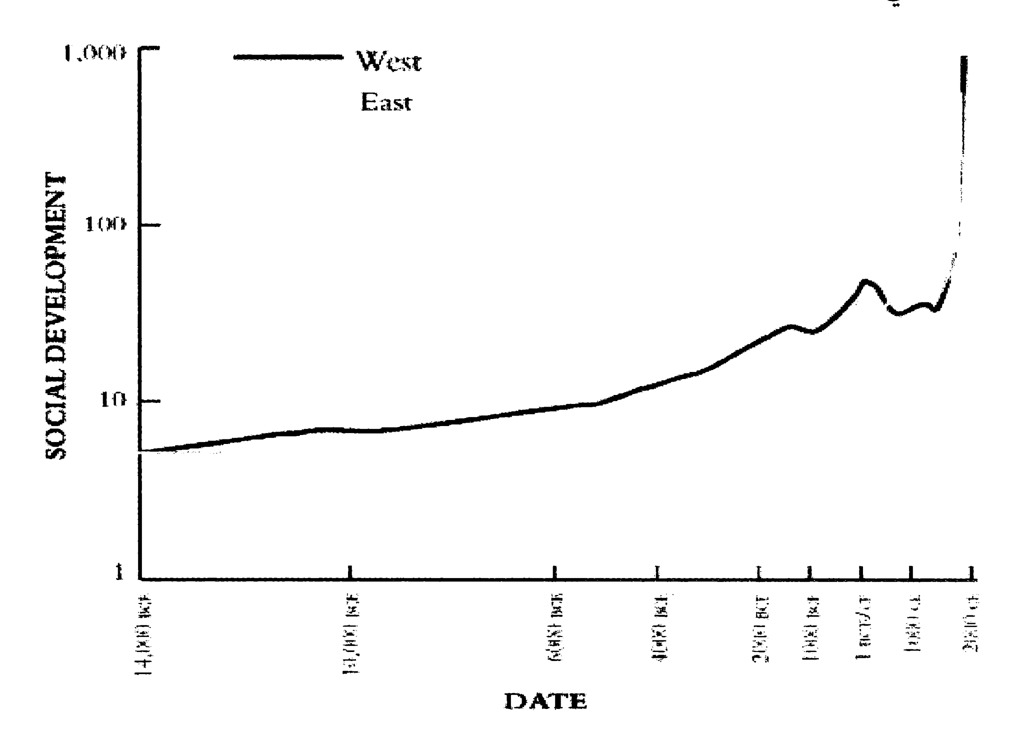
يُهيمن الغرب بسبب الجغرافيا. تخبرنا البيولوجيا لماذا يدفع البشر التطور الاجتماعي لأعلىٰ، ويخبرنا علم الاجتماع كيف يفعلون ذلك (ما عدا في الحالات التي لا يفعلون فيها ذلك)، وتخبرنا الجغرافيا لماذا الغرب، وليس أي منطقة أخرىٰ منذ مائتي عام، هو الذي هيمن علىٰ العالـم. يُقدّم كل من علم الأحياء وعلم الاجتماع القوانين العالمية التي تنطبق علىٰ جميع البشر في كل زمان ومكان، لكنَّ الجغرافيا تفسِّر الاختلافات.

تخبرنا البيولوجيا أنَّنا حيوانات ومثل جميع الكائنات الحية فنحن نعيش فقط لأنَّنا نحصل علىٰ الطاقة من محيطنا. وعندما نعاني نقصًا في الطاقة، نصبح راكدين ونموت، وعندما نمتلئ بها نتكاثر وننتشر. ومثل الحيوانات الأخرىٰ، نحن فضوليون لكننا أيضًا جشعون وكسالىٰ وخائفون، لكننا نختلف عن الحيوانات في الوسائل التي نمتلكها لمتابعة هذه الأمزجة فحسب - العقول الأسرع، والحناجر الأكثر مرونة، والذكاء الذي منحه إيانا التطوُّر. وباستخدام تلك الوسائل فنحن البشر، قد فرضنا إرادتنا علىٰ بيئاتنا بطرق تختلف كثيرًا عن الحيوانات الأخرىٰ، نمتلك وننظِّم الطاقة أكثر من أي وقت مضىٰ ونقيم القرىٰ والمدن والدول والإمبراطوريات عبر الكوكب.

في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظنَّ الكثير من الغربيين أنَّ البيولوجيا هي الإجابة علىٰ سؤال لماذا يُهيمن الغرب. وأصروا أنَّ العرق الأبيض الأوروبي تطوَّر بدرجة أكبر من غيره. لكنَّهم أخطؤوا في ذلك. فمن ناحية، تُعدّ الدلائل الوراثية والعظمية التي ناقشتها في الفصل الأول واضحة: هناك نوع واحد

من البشر، تطوَّر تدريجيًا في أفريقيا منذ حوالي مائة ألف سنة ثمَّ انتشر في جميع أنحاء العالم، ممَّا جعل الأنواع الأقدم من البشر تنقرض. ولذلك، فإنَّ الاختلافات الجينية بين البشر الحديثين في أنحاء العالم المختلفة صغيرة جدًّا.

ومن ناحية أخرىٰ، لو كان الغربيون متفوقين جينيًا علىٰ الجميع، لبدت الرسوم البيانية للتطور الاجتماعي التي تملأ الفصول من ٤ إلىٰ ١٠ مختلفة جدًّا. وبعد الريادة المبكرة للغرب، كان الغرب ليبقىٰ في المقدمة، إلَّا أنَّ ذلك لم يحدث (الشكل ١١ - ١). حصل الغرب علىٰ السبق في نهاية العصر الجليدي، ولكنَّ ريادته زادت في بعض الأحيان، وتقلَّصت في أحيان أخرىٰ. وفي عام ٥٥٠ تلاشت تمامًا، وعلىٰ مدىٰ الاثنتي عشرة سنة التالية قاد الشرق العالم في التطور الاجتماعي.



(الشكل ١١ - ١). إعادة النظر في شكل التاريخ: التطور الاجتماعي الشرقي والغربي والسقف الصلب، في الفترة من ١٤٠٠٠ ق. م وحتىٰ ٢٠٠٠ ق. م، علىٰ مقياس لوجارثمي خطي.

يروج عدد قليل من العلماء اليوم النظريات العنصرية التي تقول بأنَّ الغربيين متفوقون علىٰ غيرهم، لكن أي شخص يريد أن ينتهج هذا الاتجاه سوف يحتاج إلىٰ إظهار أنَّ كل تلك الحَمية أنتجها الغربيون في القرن السادس، ثمَّ ظهرت مجددًا في القرن الثامن عشر، أو أنَّ الشرقيين قد تفوقوا في القرن السادس، ثمَّ خسروا هذا التفوق في القرن الثامن عشر. وهذه ستكون -علىٰ أقل تقدير- مهمة صعبة. كل شيء يدل علىٰ أنَّه حيثما ننظر، سنجد أنَّ البشر -في مجموعات كبيرة منهم- متشابهون كثيرًا.

ونحن لا نستطيع أن نفسِّر لماذا يُهيمن الغرب دون البدء من البيولوجيا التي توضح لماذا ظلَّ التطور الاجتماعي يتحرك لأعلىٰ، ولكن البيولوجيا وحدها ليست الإجابة. الخطوة التالية هي إحضار علم الاجتماع، الذي يخبرنا عن كيفية زيادة التطور الاجتماعي بدرجة كبيرة.

وكما في (الشكل ١١ - ١)، لم تكن تلك عملية سلسة. في المقدمة، اقترحتُ «نظرية موريس» (في بسطٍ لفكرة كاتب الخيال العلمي العظيم روبرت هينلين)، لتفسير مسار التاريخ بأكمله - وهو أنَّ التغيير يتسبب فيه أناس كسالىٰ، جشعون، وخائفون، (وهم نادرًا يعون ما يفعلون)، يبحثون عن سُبل أكثر سهولة، وربح أكثر أمانًا لإنجاز الأشياء. وآمُل أنَّ تكون الأدلة المقدمة في الفصول (٢ - ١٠) قد أكَّدت علىٰ صحة ذلك.

لقد رأينا البشر يبدعون باستمرار، يجعلون حياتهم أسهل أو أغنىٰ أو يكافحون للحفاظ علىٰ ما لديهم بالفعل في ظل تغيُّر الظروف، وفي أثناء تلك السيرورة يدفعون التطور الاجتماعي لأعلىٰ، إلَّا أنَّ أيًّا من هذه التحولات الكبرىٰ في التطور الاجتماعي - نشأة الزراعة، وقيام المدن والدول، وتأسيس مختلف أنواع الإمبراطوريات، والثورة الصناعية - لم تكن نتيجة الإبداع فحسب؛ فكل منها كان نتيجة أوقات يائسة تدعو إلىٰ تدابير يائسة. وفي نهاية العصر الجليدي، أصبح الصيادون الرُحَّل ناجحين لدرجة أنهم فرضوا ضغوطًا علىٰ الموارد التي كانوا يعيشون عليها. وقد أدت المزيد من الجهود من أجل الحصول علىٰ الغذاء إلىٰ تحوّل بعض النباتات والحيوانات التي كانوا يصطادونها إلىٰ أشكال مدجنة

وحوَّلت بعض الرعاة إلىٰ مزارعين. ونجح بعض المزارعين بشكل جيد للغاية إلىٰ درجة أنَّهم جددوا الضغط علىٰ الموارد، ولكي يبقوا أحياء -خاصة عندما يكون الطقس ضدهم- حوَّلوا قُراهم إلىٰ مدن ودول. ونجحت بعض المدن والدول بشكل جيد إلىٰ حدٍّ أنَّهم أيضًا واجهوا مشاكل الموارد، وحوَّلوا أنفسهم إلىٰ إمبراطوريات (كانت في البدء علىٰ الأراضي، ثم امتدت إلىٰ حكم السهول والمحيطات). وكرَّرت بعض هذه الإمبراطوريات الدورة نفسها، بتشكيل ضغط علىٰ مواردها والتحُّول إلىٰ اقتصادات صناعية.

ليس التاريخ مجرد حدث يتبعه آخر. في الحقيقة التاريخ يعيد نفسه، مجرد سيرورة كبرىٰ بلا هوادة من التكيُّفات مع العالم الذي دائمًا ما يولِّد مشاكل جديدة تستدعي مزيدًا من التكيُّفات. وطوال هذا الكتاب أطلقت علىٰ هذه السيرورة اسم «مفارقة التطور»: التطور الاجتماعي الصاعد يخلق القوىٰ نفسها التي تقوضه.

يواجه البشر هذه المفارقات كل يوم ويتوصلون إلىٰ حلول، ولكن كل حين تخلق المفارقة سقوفًا صلبة تؤدي إلىٰ إحداث تغيير تحويلي حقًّا. ومن النادر حينئذٍ أن يكون الواجب فعله واضحًا، ناهيك عن كيفية القيام به، وعندما يقترب المجتمع من أحد هذه السقوف يبدأ نوع من السباق بين التطور والانهيار. نادرًا ما تعلقت المجتمعات بسقف ما ثم ظلَّت راكدة، ليظل تطورهم الاجتماعي دون تغيير لقرون عديدة. وبدلًا من ذلك، إذا لم يجدوا طريقة لتحطيم السقف، ستخرج مشاكلهم عن السيطرة. وسيتحرر بعض أو كل ما أطلقت عليه فرسان الهلاك الخمسة -المجاعة والمرض والهجرة وانهيار الدولة- وخصوصًا إذا ما تطابقوا مع حلقة من حلقات تغيُّر المناخ - وتدفع التطور إلىٰ أسفل، وأحيانًا لمدة قرون، بل وحتىٰ إلىٰ عصر مظلم.

ويأتي أحد هذه السقوف عند حوالي أربع وعشرين نقطة في مؤشر التطور الاجتماعي. وهذا هو المستوىٰ الذي توقف عنده التطور الاجتماعي الغربي ثمَّ انهار بعد عام ١٢٠٠ ق. م. ويأتي أهم سقف، والذي أطلقت عليه «السقف الصلب»، عند ٤٣ نقطة. لقد وصل التطور الاجتماعي الغربي لهذه النقطة في القرن الأول الميلادي، ثمَّ انهار، والشيء نفسه حدث مع التطور الشرقي بعد

ألف سنة لاحقة تقريبًا. ويضع هذا السقف حدًّا صارمًا علىٰ ما تستطيع الإمبراطوريات الزراعية القيام به. والطريقة الوحيدة لكسر هذا السقف هي الوصول إلىٰ الطاقة المخزونة للوقود الأحفوري، كما فعل الغربيون بعد عام ١٧٥٠م.

وإضافة علم الاجتماع إلىٰ البيولوجيا يفسِّر الكثير عن شكل التاريخ ويخبرنا كيف دفع الناس بالتطور الاجتماعي لأعلىٰ، ولماذا يرتفع بسرعة في بعض الأحيان وببطء أحيانًا أخرىٰ. ولكن حتىٰ عندما نضع البيولوجيا وعلم الاجتماع معًا، فإنَّ ذلك لا يوضح لنا لماذا يهيمن الغرب. ولتفسير ذلك، نحتاج إلىٰ الجغرافيا.

لقد أكَّدت علىٰ وجود علاقة متبادلة بين الجغرافيا والتطور الاجتماعي: تشكِّل البيئة الطبيعية كيفية تغيُّر التطور الاجتماعي، ولكنَّ التغييرات في التطور الاجتماعي تجسِّد معنىٰ البيئة الطبيعية. فالعيش فوق حقل فحم لم يعنِ الكثير قبل ألفي سنة، ولكن منذ مائتي عام بدأ يعني الكثير. لقد قاد الوصول للفحم التطور الاجتماعي أسرع من أي وقت مضىٰ، لدرجة أنَّه سريعًا بعد عام ١٩٠٠م حلَّت أنواع جديدة من الوقود محلّ الفحم. كل شيء يتغيَّر، بما في ذلك معنىٰ الجغرافيا.

وهذه أمور كثيرة بالنسبة إلىٰ أطروحتي. أريد أن أقضي معظم هذا الفصل في التصدي لبعض الاعتراضات الأكثر وضوحًا، لكن قبل أن ننتقل إلىٰ ذلك قد يكون من المفيد التذكير بالتفاصيل الرئيسة للقصة التي ملأت الفصول من (٢ - ١٠).

في نهاية العصر الجليدي منذ حوالي ١٥ ألف سنة، حدَّد الاحترار العالمي نطاقًا من خطوط العرض المحظوظة (حوالي ٢٠ - ٣٥ درجة شمالًا في العالم القديم، و١٥ درجة جنوبًا إلىٰ ٢٠ درجة شمالًا في العالم الجديد)، حيث تطورت في تلك المنطقة نباتات وحيوانات ذات قابلية للتدجين. وفي ذلك النطاق الواسع، كانت منطقة ما تسمىٰ بمنطقة «هيلي فلانكس» أو أرض السواد الواقعة جنوب غرب آسيا، هي الأوفر حظًا. ولأنها امتلكت أكثف تجمع من المدجنات المحتملة، فكان من الأسهل بالنسبة إلىٰ الأشخاص الذين يعيشون هناك أن

يصبحوا مزارعين أكثر من أي مكان آخر. لذا، في ظل أنَّ البشر (في مجموعات كبيرة) جميعًا متشابهون كثيرًا، فقد كان سكان منطقة «هيلي فلانكس» هم أول من استقر في القرىٰ وقاموا بتدجين النباتات والحيوانات، قبل عام ٩٠٠٠ ق. م. وانحدر الغرب من تلك المجتمعات. وبعد حوالي ألفي سنة في ما يعرف الآن بالصين -حيث المدجنات المحتملة وفيرة أيضًا، وإن لم تكن وفيرة جدًّا مثل منطقة هيلي فلانكس- تحركوا في الطريق نفسه، ومنهم انحدرت مجتمعات الشرق. وعلىٰ مدىٰ آلاف السنوات التي تلت ذلك بدأ البشر تدجين النباتات و/ أو الحيوانات في ستة أجزاء أخرىٰ من العالم، وفي كل مرة يبدؤون تقليدًا إقليميًا آخر.

ولأن الغربيين كانوا أول مَن زرع، ولأنَّ البشر (في مجموعات كبيرة) متشابهون كثيرًا؛ كان الغربيون هم أول مَن شعر بمفارقة التطور بشكل جديّ، وأول مَن تعلم ما أسميته مزايا التخلف. كان التطور الاجتماعي المرتفع يعني عدد سكان أكبر وأنماط حياة أكثر تعقيدًا وثروة أكبر وقوة عسكرية أضخم. ومن خلال الجمع المتنوع بين الاستعمار والمحاكاة، توسَّعت المجتمعات ذات التطور الاجتماعي المرتفع نسبيًا علىٰ حساب أصحاب التطور الاجتماعي الأقل، وانتشرت الزراعة علىٰ نطاق أبعد وأوسع. ولإنجاح عملية الزراعة في الأراضي الجديدة مثل أودية الأنهار الحارة لبلاد ما بين النهرين، أُجبر المزارعون عمليًا علىٰ البدء من نقطة الصفر، وفي أثناء عملية إنشاء الري اكتشفت الزراعة مزايا جعلت من ذلك الأفق المتخلف أكثر فائدة من مركز الزراعة الأصلية في المنطقة الجبلية. وفي فترة ما بعد عام ٤٠٠٠ ق. م، مع معاناة أكبر القرىٰ الزراعية في منطقة هيلي فلانكس المزدحمة من أجل الإدارة، فقد كان سكان بلاد ما بين الرافدين هم الذين اكتشفوا كيفية تنظيم أنفسهم في مدن ودول. وبعد حوالي ألفي سنة حدثت السيرورة نفسها في الشرق أيضًا، وكشفت مفارقة التطور عن مزايا متشابهة للتخلف في الوديان التي صبت في حوض النهر الأصفر.

وكان علىٰ الدول الجديدة أن تتفاعل مع جيرانها بطرق جديدة، ممَّا أوجد المزيد من المفارقات الفوضوية علىٰ طول حدودها. وكان عليهم تعلُّم كيفية إدارة

هذه الأمور، وعندما أدركوا الأمور علىٰ نحو خاطئ - كما حدث في أوروك في بلاد الرافدين حوالي عام ٣١٠٠ ق. م، وتاوسي في الصين حوالي عام ٢٣٠٠ ق. م، وبالطبع حدث في الغرب بعد عام ٢٢٠٠ و١٧٥٠ ق. م - سقطوا في فوضىٰ تامة الأركان. وتزامن كل انهيار مع فترة من تغيُّر المناخ، الذي كما أشرت أضاف فارسًا خامسًا لفرسان الهلاك الأربعة التي كانت من صنع الإنسان.

لقد أنتج التطور الاجتماعي المرتفع اضطرابات وانهيارات أكثر سوءًا، لكنَّه أنتج أيضًا مرونة أكثر وقوىٰ أكبر للتعافي. بعد عام ١٥٥٠ ق. م تعافت المدن والدول الغربية من الكوارث وتوسَّعت حول الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. ثمَّ أتىٰ دور تناقض جغرافي عظيم بين الشرق والغرب؛ إذ لم يكن لدىٰ الشرق مثل هذا البحر الداخلي المميز، الذي وفَّر وسيلة نقل رخيصة وسهلة. ولكن مثل أي شيء آخر، كان البحر الأبيض المتوسط من المفارقات التي توفر فرصًا وتحديات علىٰ السواء. وعندما بلغ التطور الاجتماعي نحو ٢٤ نقطة خرجت القوىٰ المعطلة علىٰ هذه الحدود المفتوحة علىٰ مصراعيها عن نطاق السيطرة، وفي حوالي عام ١٢٠٠ ق. م انطلق فرسان الهلاك مرة أخرىٰ. وانهار المركز الغربي بشكل مذهل أكثر من ذي قبل، داخلًا لقرون في عصر ظلام طويل.

وبفضل مفارقة التطور الاجتماعي، كانت الريادة في التطور الاجتماعي التي منحتها الجغرافيا للغرب في نهاية العصر الجليدي طويلة الأمد، ولكن ليست حتمية. فالانهيارات هي حوادث لا يمكن التنبؤ بها. أحيانًا يمكن لاتخاذ قرارات قليلة مختلفة أو لقليل من الحظ أن يؤجل أو يقلِّل من أو حتىٰ يمنع حدوث كارثة؛ فخياراتنا يمكن أن تُحدث الفارق. ومن أجل التغلب علىٰ سقف الأربع وعشرين نقطة، كان علىٰ الدول إعادة تنظيم نفسها وتطوير سُبل جديدة للتفكير في العالم، ممَّا أدىٰ إلىٰ ما يمكن أن نسميه الموجة الأولىٰ للفكر المحوري. ولأنَّ الغربيين فشلوا في إعادة تنظيم وإعادة النظر في العالم في عالم ١٢٠٠ ق. م، ضاقت ريادتهم علىٰ الشرق في التطور الاجتماعي؛ ولأنَّ الغربيين والشرقيين

نجحوا في القيام بالتعديلات اللازمة وقت ارتفاع التطور الاجتماعي في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد، فقد ظلا متقاربين لمدة ألف سنة.

لقد أنشأ الغربيون والشرقيون دولًا أكثر مركزية ثمَّ إمبراطوريات كاملة، وبعد عام ٢٠٠ ق. م وصلوا إلىٰ مستوىٰ بدأ في تغيير معاني الجغرافيا مرة أخرىٰ. ففي الغرب تمكَّنت الإمبراطورية الرومانية من جلب البحر الأبيض المتوسط الجامح تحت السيطرة، وقفز التطور الاجتماعي إلىٰ أربعين نقطة. وبحلول القرن الأول كان التطور يضغط علىٰ السقف الصلب. وفي الوقت نفسه، فإنَّ قيام الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية هان غيَّر معنىٰ المساحات الشاسعة التي تفصل بين الشرق والغرب. ومع كل هذه الثروة في كل طرف من أوروبا الآسيوية، وجدَ التجَّار والرُحَّل في السهول أسبابًا جديدة للترحال، ممَّا ربط مبدئيًا المراكز ببعضها وبدأ أول تبادل تجاري في العالم القديم. ودفعت الاتصالات بالتطور الاجتماعي الشرقي والغربي إلىٰ أعلىٰ من ذلك، ولكنَّها أطلقت أيضًا اختلالات غير مسبوقة. وللمرة الأولىٰ، ربط الفرسان الخمسة للهلاك بين المراكز عبر تبادل الميكروبات فضلًا عن البضائع والأفكار. وبدلًا من اختراق السقف الصلب، تفكَّكت الإمبراطوريتان الرومانية والهان بعد عام ١٥٠م.

وانزلق كل من الشرق والغرب إلىٰ عصور مظلمة جديدة حلَّ فيها فكر الموجة الثانية (المسيحية والإسلام وأنماط من البوذية) محل الأفكار القديمة للموجة الأولىٰ، لكن بطرق أخرىٰ كان انهيار كل منهما مختلفًا تمامًا عن الآخر. ففي الغرب، انفصل الغزاة الجرمانيون بالجزء الأقل تطورًا من الإمبراطورية الرومانية حول غرب المتوسط، وتراجع المركز إلىٰ قلبه الأقدم والأكثر تطورًا في شرق البحر المتوسط. وفي الشرق، انفصل غزاة وسط آسيا بالجزء الأقدم والأكثر تطورًا من إمبراطورية هان السابقة حول النهر الأصفر، وتراجع المركز إلىٰ الأراضي الأقل تطورًا فيما وراء نهر اليانغستي.

خلق هذا التباين الجغرافي عالمًا من الاختلاف. بحلول عام ٤٥٠م ازدهر أفق جديد لزراعة الأرز حول نهر اليانجتسي، وبحلول عام ٦٠٠م أُعيد توحيد الصين، وعلىٰ مدىٰ القرن التالي، منحت القناة الكبرىٰ التي تربط بين نهر

اليانجتسي والنهر الأصفر الصين منظومة من الممرات المائية الداخلية التي أدت ما يشبه وظيفة البحر الأبيض المتوسط بالنسبة إلىٰ روما القديمة. أمَّا في الغرب، حيث كان الغزاة العرب أقوياء بما يكفي لتفكيك مركز البحر المتوسط القديم لكنَّهم لم يكونوا أقوياء بما يكفي لإعادة صنعه، فظلَّ التطور الاجتماعي ينخفض حتىٰ عام ٧٠٠م.

وفي حوالي عام ٥٤١م ارتفع التطور الشرقي فوق التطور الغربي (ممَّا أثبت من دون أي شك أنَّ الهيمنة الغربية لم تكن أبدًا حتمية)، وبحلول عام ١١٠٠م كان يضغط علىٰ السقف الصلب. وبينما استنفد النمو الاقتصادي الموارد، توصل عمَّال الحدادة إلىٰ الوقود الأحفوري واخترع المخترعون آلات جديدة وانغمس مفكرو أسرة سونغ في نهضة صينية حقيقية. ولكن مثل روما قبل ألف سنة، لم تستطع سونغ الصينية اختراق السقف الصلب.

تشابهت الأحداث إلىٰ حد ما في أوائل الألفية الثانية مع الأحداث في الألفية الأولىٰ، ولكن مع اختلاف الشرق والغرب. وأطلق التطور المرتفع تبادلًا تجاريًا ثانيًا للعالم القديم وحرَّر فرسان الهلاك مرة أخرىٰ. وتداعىٰ التطور الاجتماعي في كلا المركزين، ولكنَّه تداعىٰ لمدة أطول وأبعد في الشرق. وفي الغرب عانىٰ المعقل الإسلامي الأكثر تطورًا في شرق البحر المتوسط، وبحلول عام ١٤٠٠م كان مركز جديد يتشكَّل ولديه نهضته الخاصة في أوروبا الغربية.

لقد اكتشفت هذه الأراضي الأوروبية، التي كانت متطرفة في السابق، مزايا تخلفها. وسُمِح لهم ببناء السفن والمدفعية، وهي التقنيات التي تعلمها الأوروبيون الغربيون من الشرق خلال التبادل التجاري الثاني للعالم القديم، بتحويل المحيط الأطلنطي إلىٰ طريق سريع ممَّا أدىٰ مرة أخرىٰ إلىٰ تغيير معاني الجغرافيا. وفي حرص كبير علىٰ الاستفادة من ثروة الشرق، انتشر البحَّارة الغربيون - ولمفاجئتهم اصطدموا بالأمريكتين.

كان من الممكن أن يكتشف الشرقيون أمريكا في القرن الخامس عشر (ويعتقد البعض أنهم قاموا بذلك)، لكنَّ الجغرافيا جعلت الأكثر احتمالًا أن يصل الغربيون هناك أولًا. وكسب الشرقيون أكثر بكثير من خلال الإبحار في اتجاه

ثروات المحيط الهندي بدلًا من المحيط الهادئ الفارغ والاندفاع داخل السهول التي كانت أكبر تهديد لأمنهم لقرابة ألفي سنة.

في القرن السابع عشر أدىٰ توسُّع المراكز إلىٰ تغيير معاني الجغرافيا بصورة أكبر من أي وقت مضىٰ. أغلقت الإمبراطوريات المتمركزة التي تمتلك البنادق والمدافع الطريق السريع في سهول آسيا الداخلية الذي كان يربط بين الشرق والغرب، ممَّا أنهىٰ هجرة الرُحَّل وقضىٰ بفاعلية علىٰ أحد فرسان الهلاك. وعلىٰ المحيط الأطلسي، علىٰ النقيض من ذلك، غذّىٰ الطريق السريع المحيطي الذي فتحه تجَّار أوروبا الغربيون ظهور أنواع جديدة من الأسواق، وأثار أسئلة جديدة عن كيفية عمل العالم الطبيعي. وبحلول عام ١٧٠٠م كان التطور الاجتماعي يضغط مرة أخرىٰ علىٰ السقف الصلب، ولكن هذه المرة، مع عدم تمكّن فرسان الهلاك من التحرر، لم تحدث أيَّة كوارث لمدة كافية، ليقوم رواد الأعمال الأوروبيون بالرد علىٰ تأثير الطريق السريع المحيطي من خلال إطلاق القوىٰ الهائلة للفحم والبخار.

وبمنحهم وقتًا كافيًا، كان من المحتمل أن يقوم الشرقيون بالاكتشافات نفسها وأن يكون لهم ثورتهم الصناعية الخاصة، لكنَّ الجغرافيا جعلت الأمر أسهل للغربيين، ممَّا يعني أنَّه بسبب أنَّ البشر (في مجموعات كبيرة) متشابهون كثيرًا، حصل الغربيون علىٰ ثورتهم الصناعية أولًا. لقد كانت الجغرافيا هي التي أخذت لوتي إلىٰ بالمورال بدلًا من ألبرت إلىٰ بكين.

لا يتعلق الأمر بسؤال لماذا يهيمن الغرب

ربما نتساءل، وماذا عن البشر؟ امتلأت صفحات هذا الكتاب بالرجال العظماء والنساء العظيمات والبلهاء الحمقىٰ، والمعتقدات التي طرحوها، وصراعاتهم المتواصلة، ألا يهمّ أيّ من هذا في نهاية المطاف؟

سواء كانت الإجابة نعم ولا، نحن جميعًا لدينا الإرادة الحرة، وكما قلتُ مرارًا وتكرارًا، خياراتنا تغيِّر العالم. لكنَّ غاية ما في الأمر أنَّها لا تغيِّر العالم كثيرًا. أستطيع -مثلًا- الآن أن أقرر التوقف عن كتابة هذا الكتاب، وترك عملي، أو حتىٰ أن أصبح صيادًا راعيًا. وذلك سوف يُحدث فرقًا بكل تأكيد. إنَّني سأخسر منزلي، وفي ظل أنني أعلم القليل عن الصيد والرعي، فمن المحتمل أن أسمِّم نفسي أو أموت جوعًا. قلة من الناس من حولي ستتأثر بشدة، وعدد أكثر من الناس سيتأثر بشكل طفيف. وربما كان القارئ ليقرأ شيئًا آخر. فيما عدا ذلك سيستمر العالم بالمضي. لا يمكن لأي قرار من الممكن أن أتخذه أن يغيِّر ما إذا كان الغرب يهيمن أم لا.

وبالطبع لو قرر أيضًا ملايين الأمريكيين ترك أعمالهم والعمل بالرعي، سيتحول قراري الشاذ من شذوذ شخصي مجنون إلىٰ جزء من حركة جماعية (ولكنَّها لا تزال شاذة) سوف تُحدث الفارق بكل تأكيد. هناك الكثير من الأمثلة علىٰ مثل هذه القرارات الجماعية. في نهاية الحرب العالمية الثانية -علىٰ سبيل المثال- قررت نصف مليار امرأة الزواج في سن أصغر من سن أمهاتهم، وإنجاب المزيد من الأطفال. وبالتالي، ارتفع عدد السكان. ثمَّ بعد ثلاثين سنة قررت

مليار فتاة بالكامل من نسلهن عكس ذلك، وتباطأ النمو السكاني. وبصفة عامة، غيَّرت هذه الخيارات مجرىٰ التاريخ الحديث.

بيدَ أنَّ تلك لم تكن مجرد نزوات. دخل كارل ماركس في جوهر الموضوع منذ قرن ونصف القرن: وأصرَّ علىٰ أنَّ «الرجال [والنساء] يصنعون تاريخهم، ولكنَّهم لا يصنعونه علىٰ النحو الذي اختاروه بأنفسهم. فهم لا يصنعونه تحت ظروف اختاروها بأنفسهم». كان لدىٰ النساء في القرن العشرين أسباب وجيهة لتقرير أن يحصلوا علىٰ المزيد من الأطفال (ثم القليل منهم)، لدرجة أنهن كثيرًا ما شعرن بأنهن في الواقع لا خيار لهن في تلك المسألة علىٰ الإطلاق، تمامًا مثل أنَّ البشر الذين شرعوا في الزراعة قبل عشرة آلاف سنة أو انتقلوا للمدن قبل خمسة آلاف سنة، أو حصلوا علىٰ وظائف في المصانع منذ مائتي عام، لا بُدَّ وأنهم شعروا معظم الوقت أنَّه ليس ثمة بديل حقيقي.

هناك ضغوط قوية علىٰ كل منّا كي نتخذ قرارات تتلاءم مع الواقع. ونحن نعلم جميعًا أشخاصًا يتجاهلون تلك الضغوط ويتخذون قرارات متطرفة علىٰ أية حال. وكثيرًا ما نعجب بهؤلاء الراديكاليين والمتمردين والرومانسيين، ولكن نادرًا ما نحذو حذوهم. ومعظمنا يعلم جيدًا أنَّ المتوافقين يميلون إلىٰ كونهم أفضل حالًا (وأعني بذلك الظفر بالحصول علىٰ الغذاء، والمأوىٰ، والرفقاء) من أمثال آنا كارنينا. يختار التطور ما نسميه بالحس السليم.

ومع ذلك، يمكن أن يكون للاختيارات الشاذة بوضوح عواقب استثنائية. خذ محمدًا -علىٰ سبيل المثال- الذي ربما يُعدّ الحالة القصوىٰ. ربما اختار ذلك التاجر العربي أن يكون متعقلًا، ملقيًا باللوم علىٰ لقائه مع الملاك جبريل حوالي عام ٦١٠م بسبب اضطراب في المعدة، أو أي سبب آخر من ألف سبب منطقي. ولكنَّه بدلًا من ذلك اختار الاستماع إلىٰ زوجته التي أصرَّت علىٰ أنَّ الزيارة كانت حقيقية. ولسنوات عديدة بيدَ أنَّ محمدًا سوف يسلك طريق معظم الأنبياء من قبله حيث التعرُّض للسخرية والازدراء ثمَّ الاندثار والنسيان، ولكنَّه بدلًا من ذلك، وحَّد العرب. ودمَّر الخلفاء الذي خلفوه فارس، وحطَّموا الإمبراطورية البيزنطية، وقسَّموا الغرب إلىٰ قسمين.

يتفق الجميع علىٰ أنَّ محمدًا كان رجلًا عظيمًا. لقد كان لعدد قليل من البشر أثر أكبر علىٰ التاريخ. ولكن حتىٰ في هذه الحالة، لا يمكن أن يعزىٰ التحول الأساسي في الغرب بعد القرن السابع إلىٰ فرادة محمد فحسب. فقد كان العرب يبتكرون صيغًا جديدة للتوحيد ويشكّلون دولهم الخاصة في الصحراء لبعض الوقت قبل نزول جبريل علىٰ محمد. وكانت كل من بيزنطة وبلاد فارس في اضطراب يائس قبل بدء المسلمين عبور حدودهم، وكان البحر المتوسط يتفكَّك منذ القرن الثالث الميلادي.

لو اختار محمد خيارات مختلفة، ربما لما وجدَ مسيحيو القرن السابع إلَّا بعضهم البعض للقتال بدلًا من غزو المسلمين. ربما كان من الممكن أن يتعافىٰ التطور الاجتماعي الغربي دون محمد بشكل أسرع بعد عام ٧٥٠م، وربما لا، ولكنَّه كان سيستغرق قرونًا للحاق بالشرق. وكان من الممكن أن يبقىٰ المركز الغربي في شرق المتوسط أيًّا كان ما فعله محمد، ولغزاه الأتراك أيضًا في القرن الحادي عشر والمغول في القرن الثالث عشر (مجددًا في حوالي عام ١٤٠٠م)، ولظلَّ المركز ينزاح غربًا باتجاه إيطاليا، ثمَّ المحيط الأطلسي في أثناء القرن الخامس عشر وبعده. لو كان محمد رجلًا عاديًا، لكان الصليب وليس الهلال، هو الذي يُلهم المؤمنين من المغرب إلىٰ ماليزيا -وهو ليس بالأمر الهين- ولكن ليس هناك ما يدعو إلىٰ الشكِّ في أنَّ الأوروبيين كانوا سيغزون الأمريكتين، أو أن يهيمن الغرب الآن.

وما يصدق علىٰ محمد يصدق علىٰ الأرجح علىٰ الرجال العظماء الآخرين الذين قابلناهم. لقد أنشأ كل من تغلث فلاسر الثالث إمبراطور آشور وإمبراطور تشين الأول إمبراطوريات مركزية متطورة قديمة، وأخفق هابسبورج في أوروبا وهيديوشي في اليابان في إنشاء إمبراطوريات ذات أراضٍ كبيرة في القرن السادس عشر، ووضعت ثورة إنجلترا المجيدة في عام ١٦٨٨م ووفاة ماو في عام ١٩٧٦م زمرة الإصلاحيين في السلطة. ولكن أكثر ما فعله أي من هؤلاء الرجال العظماء/ البلهاء الأغبياء هو تسريع أو إبطاء السيرورات الجارية بالفعل. لم يصارع أحد حقًّا التاريخ علىٰ مسار جديد. حتىٰ ماو الذي ربما كان الأكثر هوسًا بالعظمة بين

الجميع تمكَّن فقط من تأجيل انطلاقة الصين الصناعية مانحًا الفرصة لدينج شياو بينغ كي يُذكر باعتباره رجلًا عظيمًا حوَّل الصين. وإذا تمكنَّا من إعادة الماضي مثل تجربة، وتركنا كل شيء آخر علىٰ حاله وبدَّلنا البلهاء الأغبياء برجال عظماء (والعكس بالعكس)، لآلت الأمور إلىٰ ما آلت إليه إلىٰ حد كبير، حتىٰ وإن تحركت بسرعة مختلفة قليلًا. يحب الرجال العظماء (والنساء العظيمات) التفكير بأنَّه من خلال قوة الإرادة وحدها يمكنهم تغيير العالم، لكنَّهم مخطئون.

وينطبق ذلك خارج المجال السياسي فضلًا عن داخله. ماثيو بولتون وجيمس وات، علىٰ سبيل المثال، من المؤكد أنهم رجال عظماء، فالأول اخترع والأخير قام بتسويق الآلات التي غيَّرت العالم بالفعل. لكنهما لم يكونا رجالًا عظماء أفذاذًا أكثر من كَون ألكسندر غراهام فذًا عندما قدَّم براءة اختراع الهاتف في ١٤ شباط/ فبراير ١٨٧٦م، في اليوم نفسه الذي قدَّم فيه أليشا جراي براءة اختراع هاتفه المخترع حديثًا. ولم يكن بولتون ووات أكثر تفردًا من جوزيف بريستلي الذي اكتشف الأكسجين في عام ١٧٧٤م بعد عام واحد من اكتشاف عالم كيمياء سويدي له. أو أكثر استثنائية من الأوروبيين الأربعة الذين اكتشفوا البقع الشمسية في ١٦١١م كل علىٰ حدة.

يتعجب المؤرخون في كثير من الأحيان من نزوع الاختراعات إلىٰ الظهور بشكل متعدد، فالمصباح الكهربائي ظهر في أدمغة عدة أشخاص في اللحظة نفسها تقريبًا. في كثير من الأحيان تبدو الأفكار العظيمة نتيجة المحصلة المنطقية لوجود مجموعة من المفكرين يتقاسمون الأسئلة والأساليب نفسها. كذلك كان الأمر مع المفكرين الأوروبيين في أوائل القرن السابع عشر، عندما اخترع شخص التيليسكوب (ادَّعىٰ تسعة رجال أنَّهم فعلوا ذلك) كان الأمر ليكون مميزًا لو لم يكتشف عدة علماء في الفلك البقع الشمسية فجأة.

وقد أُخترع عدد استثنائي من الاختراعات الحديثة أكثر من مرة، واقترح الإحصائي ستيفن ستيغلر قانونًا جديدًا بأنَّه لا يوجد اكتشاف يسمَّىٰ باسم المكتشف الحقيقي (حيث لاحظ أنَّ قانون ستيغلر أُكتشف بالفعل من قِبل عالم الاجتماع روبرت ميرتون قبل خمس وعشرين سنة). كان بولتون ووات في مقدمة

المجموعة، ولكن كانت هناك مجموعة بالفعل، ولو لم يسوِّق بولتون ووات المحرك البخاري بفعالية الوقود في سبعينيات القرن الثامن عشر، كان أحد منافسيهم الكثر ليفعل ذلك بالتأكيد. وفي الحقيقة، كانت المجموعة لتصل أسرع لو لم يلفق وات براءة استثنائية تستبعد كل المتنافسين من الميدان.

الرجال العظماء/ النساء العظيمات والبلهاء الأغبياء هم مخلوقات عصورهم. لذا يجب أن نستخلص أنَّ روح العصر، وليس أفرادًا بعينهم، هي التي حدَّدت نمط التاريخ أحيانًا من خلال تهيئة مناخ يؤدي إلىٰ العظمة وتارة يولِّد ثقافة الفشل. يعتقد بعض المؤرخين ذلك ويشيرون -علىٰ سبيل المثال- إلىٰ أنَّ السبب الحقيقي في هيمنة الغرب هو أنَّ الحضارة الصينية توجَّهت نحو الداخل في القرن الرابع عشر، متخليةً عن العالم، بينما توجَّهت الحضارة الأوروبية للخارج ودفعت بالمستكشفين عبر المحيطات حتىٰ وصلوا إلىٰ الأمريكتين.

تحدثت عن هذه الفكرة في الفصل الثامن، مشيرًا إلىٰ أنَّها لا تفسِّر الكثير من الحقائق. إنَّ الثقافة ليست مجرد صوت في رؤوسنا يخبرنا ماذا نفعل، بل إنها بمثابة مجلس المدينة حيث نحاجج فيه عن خياراتنا. فكل عصر يحصل علىٰ الفكر الذي يحتاجه والذي تمليه عليه نوعية المشاكل التي تفرضها عليه الجغرافيا والتطور الاجتماعي.

وهذا يفسر لماذا تشابه إلىٰ حدٍّ بعيد تاريخ الفكر الغربي والشرقي علىٰ مدىٰ القرون الخمسة الأخيرة. في كلا المركزين، أطلق قيام الدول الأولىٰ في حوالي عام ٣٥٠٠ ق. م في الغرب وبعد عام ٢٠٠٠ ق. م في الشرق، الجدل حول طبيعة الملك الإله وحدوده. وعندما أصبحت الدول في كلا المركزين أكثر بيروقراطية، بعد عام ٧٥٠ ق. م في الغرب، وعام ٥٠٠ ق. م في الشرق، أنتجت هذه الجدالات فكر الموجة الأولىٰ المحوري، الذي يناقش طبيعة الترانسندنتالية الشخصية وعلاقتها بالسلطة العلمانيّة. وبحلول عام ٢٠٠م عندما تداعت إمبراطورية هان والإمبراطورية الرومانية أفسحت هذه الأسئلة بدورها المجال لفكر الموجة الثانية المحوري، الذي يناقش كيف يمكن للكنائس المنظَّمة أن تنقذ المؤمن في عالم فوضوي خطير. وعندما انتعش التطور الاجتماعي بحلول

عام ١٠٠٠م في الصين، وعام ١٤٠٠م في إيطاليا، أصبحت أسئلة النهضة -كيفية تخطي الماضي الأخير المخيب للآمال لاستعادة الحكمة المفقودة للعصر المحوري الأول- أكثر إثارة للاهتمام.

لقد تطور الفكر الشرقي والغربي بشكل مماثل جدًّا -كما أعتقد- لوجود مسار واحد فقط يمكن للتطور الاجتماعي الارتفاع من خلاله. وللتغلب علىٰ سقف الأربع وعشرين نقطة، كان علىٰ الشرقيين والغربيين إضفاء الطابع المركزي علىٰ دولهم التي أدت حتميًا لفكر الموجة الأولىٰ المحوري. ودفع تراجع هذه الدول الناس إلىٰ فكر الموجة الثانية المحوري، وأدىٰ إحياؤهم إلىٰ النهضة. لقد دفع كل تغيير كبير الناس للتفكير في الأفكار التي تطلبها العصر.

ولكن ماذا عن الانحراف الكبير في حوالي عام ١٦٠٠م عندما تحرك الأوروبيون الغربيون تجاه الفكر العلمي بينما لم يفعل الشرقيون (بالإضافة إلىٰ الغربيين الذين عاشوا خارج المركز حول شواطئ المحيط الأطلسي)؟ هل هذا التحوُّل العصري في التفكير يعكس عمق الفوارق الثقافية بين الشرقيين والغربيين بدلًا من مجرد حصول العصر علىٰ الفكر الذي يتطلبه؟

يعتقد بعض علماء الاجتماع (الغربيين) ذلك. عندما يصوِّر علماء النفس الأشخاص بالرنين المغناطيسي ويطلبون منهم حل بعض المشكلات، يشير هؤلاء الباحثون إلىٰ توهج المناطق الأمامية والجدارية من المخ بشكل أكبر (ممَّا يشير إلىٰ أنَّهم يعملون بجد أكثر للحفاظ علىٰ الانتباه) إذا كان السؤال يستوجب وضع المعلومات داخل سياق واسع أكثر ممَّا إذا كان يستدعي عزل الوقائع عن خلفيتها ومعالجتها بشكل مستقل. بالنسبة إلىٰ الشرقيين، فالعكس هو الصحيح.

ماذا يعني هذا الفارق؟ إنَّ عزل الوقائع ومعالجتها بشكل مستقل عن سياقها هي سِمة العلوم الحديثة (مثل التنبيه الأثير: ومع تساوي العوامل الأخرىٰ . . .)؛ وتُشير إحدىٰ النظريات إلىٰ أنَّه ربما التباين في وظيفة المخ يعني ببساطة أنَّ الغربيين أكثر منطقية وعلمية من الشرقيين.

ولكن ربما لا. فالتجارب لا تُظهر أنَّ الشرقيين لا يمكنهم فصل الحقائق عن خلفيتها، أو أنَّ الغربيين لا يمكنهم وضع الأمور في منظورها الصحيح،

ولكن أنَّ كل مجموعة أقل اعتيادًا للتفكير بهذه الطريقة، وأنَّ عليهم القيام بمزيد من العمل كي ينجحوا في ذلك. فكلتا المجموعتين تستطيع -بانتظام- تنفيذ كلا النوعين من المهام.

في كل عصر وكل أرض نجد العقلانيين والصوفيين، وهؤلاء الذين يتجردون من التفاصيل والذين يستمتعون بالتعقيدات، بل وحتىٰ القلائل الذين يفعلون كل هذه الأشياء في الوقت نفسه. أمَّا الاختلاف، فهو في التحديات التي تواجههم. عندما بدأ الأوروبيون إنشاء الاقتصاد الأطلسي عام ١٦٠٠م، خلقوا مشكلات جديدة لأنفسهم، وحضرت النماذج العلمية والميكانيكية للواقع لحلها بشكل أفضل. وطيلة الأربعمائة سنة التي تلك ذلك أصبحت طرائق التفكير هذه مترسخة في التعليم الغربي وتحوَّلت بصورة متزايدة إلىٰ الوضع الافتراضي. وفي الشرق، حيث بدأ نوع التحديات التي أوجدها الاقتصاد الأطلسي أقل إلحاحًا حتىٰ وقت متأخر من القرن التاسع عشر، لم تصل هذه السيرورة إلىٰ هذا الحدِّ.

في ستينيات القرن العشرين جادل بعض علماء الاجتماع الغربيين بأنَّ الثقافة الشرقية، ولا سيما الكونفوشيوسية، منعت الذين دخلوا فيها من تطوير الروح التنظيمية للمنافسة والابتكار الضرورين لتحقيق النجاح الاقتصادي. وفي الثمانينيات، حينما واجهوا حقيقة نجاح الاقتصادي الياباني، خلص جيل جديد من علماء الاجتماع إلىٰ أنَّ القيم الكونفوشية عن احترام السلطة والتضحية بالذات لصالح المجموعة لم تمنع الرأسمالية؛ بل إنَّها في الواقع تفسِّر نجاح اليابان. وثمة استنتاج أكثر معقولية؛ وهو أنَّ الأشخاص يوائمون ثقافتهم بمتطلبات التطور الاجتماعي الذي أنتج في أواخر القرن العشرين الرأسماليين الكونفوشيين والشيوعيين، وكذلك الرأسماليين الليبراليين.

ونتيجة أنَّنا نحصل علىٰ الفكر الذي نحتاجه قد تعني أيضًا ظاهرة غريبة أخرىٰ، يسميها علماء النفس «أثر فلين». منذ بدء اختبارات الذكاء، ارتفع متوسط الإحرازات باطراد (حوالي ثلاث نقاط في العقْد الواحد). وسيكون من المبهج الاعتقاد بأنَّنا جميعًا نصبح أكثر ذكاءً، لكن المرجح أنَّنا نصبح أكثر قدرة علىٰ التفكير بالطرق التحليلية الحديثة التي تقيسها هذه الاختبارات. فقراءة الكتب

جعلتنا أكثر حداثة من سرد الحكايات، و(لفزع الكثير من المدرسين)؛ وألعاب الكمبيوتر تجعلنا ظاهريًّا أكثر حداثة.

ومن المؤكد أنَّ كل الثقافات لا تتساوىٰ في استجابتها للظروف المتغيِّرة، فالأراضي الإسلامية -علىٰ سبيل المثال- أنتجت عددًا قليلًا من الديمقراطيات والعلماء الحائزين علىٰ جائزة نوبل، أو عملت علىٰ تنويع الاقتصادات الحديثة. ويخلص بعض غير المسلمين إلىٰ أنَّ الإسلام عقيدة مُضلِّلة تورط الملايين في الخرافات. ولكن إذا كان هذا صحيحًا، سوف يكون من الصعب تفسير لماذا قبل آلاف السنين كان العديد من أفضل علماء العالم والفلاسفة والمهندسين من المسلمين، أو لماذا تفوق علماء الفلك المسلمون علىٰ كل العلماء حتىٰ القرن السادس عشر.

التفسير الحقيقي، كما أظن أنه منذ عام ١٧٠٠م انغلق الكثير من المسلمين علىٰ أنفسهم، استجابة للهزيمة السياسية والعسكرية، مثلما فعل الكثير من الصينيين الكونفوشيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. ولا يزال الإسلام فسطاطًا واسعًا ورحبًا. فمن جهة، تركيا التي جرىٰ تحديثها بفعالية كبيرة لدرجة أنها مرشح معقول للانضمام إلىٰ الاتحاد الأوروبي، ومن جهة أخرىٰ نجد أشخاصًا مثل البعض من حركة طالبان يقتلون النساء اللاتي تظهرن وجوههن في الأماكن العامة. وبصفة عامة، في ظلّ تدهور العالم الإسلامي من كونه مركز الغرب إلىٰ كونه هامشًا مستغَلًا، ركد تطوره الاجتماعي في شعور بدور الضحية. وإنهاء هذا الركود هو العبء الكبير الذي يحمله الإسلام اليوم، ومَن يدري ما المزايا التي قد يكتشفها العالم الإسلامي في تخلفه.

إنَّ الثقافة والإرادة الحرة بطاقات جامحة، تزيد من تعقيد نظرية موريس عن أنَّ التغيير يسببه أشخاص كسالىٰ وجشعون وخائفون (نادرًا ما يدركون ما يفعلونه) يبحثون عن طرق أسهل وأكثر ربحًا وأمانًا لإنجاز الأشياء. كما تعمل الثقافة والإرادة الحرة علىٰ تسريع أو إبطاء ردود فعلنا تجاه الظروف المتغيِّرة. ويحرِّفان ويشوشان أية نظرية بسيطة. ولكن مثلما أظهرت القصة التي ملأت الفصول من (١ - ١٠) بوضوح، فإنَّ الثقافة والإرادة الحرة لن تفوقا أبدًا البيولوجيا وعلم الاجتماع والجغرافيا لمدة طويلة.

العودة إلى المستقبل

إنَّ أسباب الهيمنة الغربية هي أسباب طويلة المدىٰ وقصيرة المدىٰ علىٰ حد سواء، وتكمن في التفاعل المتغيِّر بانتظام بين الجغرافيا والتطور الاجتماعي، ولكنَّ الهيمنة الغربية نفسها لم تكن حتمية أو عَرَضية. ومن المنطقي تسميتها بأنها هيمنة محتملة، أو أنها النتيجة الأكثر احتمالًا، عبر معظم التاريخ، في لعبة قامت فيها الجغرافيا بترجيح الموازين لصالح الغرب. ولذا يمكننا القول بأنَّ الهيمنة الغربية كانت رهانًا رابحًا.

ولتفسير هذه التعليقات الغامضة نوعًا ما، أريد استعارة طريقة من طرائق روبرت زيميكس في الفيلم الكوميدي عام (١٩٨٥م)، «العودة إلىٰ المستقبل». في بداية الفيلم، دمج بروفيسور مجنون بين مكبر جيتار عملاق، وبلوتونيوم مسروق، وسيارة ديلورين كي يصنع آلة الزمن. وعندما قتل الإرهابيون البروفيسور، طاردهم فتىٰ اسمه مارتي ماكفلاي (يلعب دوره مايكل جي. فوكس)، وتنقله آلة الزمن إلىٰ عام ١٩٥٥م. وهناك يلتقي أبويه المستقبليين عندما كانا في عمره نفسه. وتقع الكارثة، فبدلًا من أن تقع والدة مارتي في حب والده تقع في حب مارتي نفسه. يمكن القول إنَّها غرزة صغيرة في نسيج التاريخ، ولكنَّ الأمر كان يهمّ مارتي كثيرًا: فما لم يتمكن من تعديل الماضي قبل نهاية الفيلم، فلن يولد أبدًا.

وبدلًا من اتباع الطريقة المعتادة للمؤرخين في بدء قصة من البداية وسردها حتىٰ نصل إلىٰ عصرنا، فإنَّني أظن أنَّه قد يكون من المفيد القفز إلىٰ الماضي علىٰ غرار ماكفلاي، ثمَّ -كما فعل الفيلم- التوقف للسؤال عما يمكن أن يكون قد حدث لمنع المستقبل -دعنا نقول العام ٢٠٠٠م- من أن يصبح كما هو عليه الآن.

سأبدأ منذ قرنين من الزمان في عام ١٨٠٠م. سنهبط في عصر جين أوستن وسنجد أنَّه كان من المرجح فعليًا الاعتقاد بأنَّ الغرب سوف يهيمن بحلول عام ٢٠٠٠م. كانت الثورة الصناعية في بريطانيا علىٰ قدم وساق، والعلم يزدهر والقوة العسكرية الأوروبية تقزِّم قوىٰ غيرها. وبالطبع، كان كل شيء قابلًا للتغيير؛ فمع مزيد من الحظ لربما انتصر نابليون في حروبه أو مع القليل من الحظ لربما أخفق حكَّام بريطانيا في تحديات التصنيع. وفي كلتا الحالتين كانت الانطلاقة البريطانية ستكون أبطأ، أو كما أشرت في الفصل العاشر، لربما انتقلت الثورة الصناعية إلىٰ شمال فرنسا. كل الاحتمالات قائمة. لكن من الصعب تصوُّر ماذا كان يمكن أن يحدث بعد عام ١٨٠٠م ليحول دون قيام الثورة الصناعية الغربية تمامًا. ومع بدء التصنيع، فمن الصعب تصوُّر ما الذي كان يمكن أن يوقف أسواقه الشرهة من أن تصبح عالمية. «لا جدوىٰ من محاولة وقف تقدم المعرفة الإنسانية»، هكذا حصر اللورد ماكارتني الأمر عندما رفضت الحكومة الصينية سفارته التجارية في عام ١٧٩٣م، ربما في مبالغة منه، لكنه كان لديه وجهة نظر في الأمر.

ومهما وقفنا ضد الغرب، مثل تصوُّر مائة سنة من التأخير في التصنيع وتوسُّع إمبريالية أوروبية حتىٰ القرن العشرين، فلا يوجد سبب للاعتقاد بأنَّ ثورة صناعية شرقية مستقلة كانت ستتواجد قبل ذلك. كانت مثل تلك الانطلاقة لتتطلب صعودًا اقتصاديًا إقليميًا متنوعًا مثل الذي أنشأه الغربيون حول شواطئ المحيط الأطلسي، ولتطلب ذلك عدة قرون لبنائه. لم تكن هيمنة الغرب بحلول عام ٢٠٠٠م حتمية في عام ١٨٠٠م، بمعنىٰ أنَّ ذلك مؤكد بنسبة ١٠٠%، ولكن أظن أنَّه أمر محتمل بنسبة ٩٥٪ علىٰ الأقل.

وإذا قفزنا مرة أخرىٰ مائة وخمسين عامًا أخرىٰ من عام ١٨٠٠ إلىٰ عام ١٦٥٠م عندما كان لا يزال نيوتن صبيًا، كانت الهيمنة الغربية بحلول عام ٢٠٠٠م لتبدو أقل تأكيدًا لكنها لا تزال محتملة. كانت البنادق تغلق السهول والسفن تنشئ الاقتصاد الأطلسي. وظلَّ التصنيع أمرًا بعيد المنال، ولكنَّ شروطه كانت موجودة في أوروبا الغربية. ولو فاز الهولنديون في حروبهم ضد إنجلترا في خمسينيات القرن السابع عشر، ولو فشل الانقلاب المدعوم من الهولنديين في إنجلترا في

عام ١٦٨٨م، أو نجح الفرنسيون في غزو إنجلترا في عام ١٦٨٩م؛ لربما لم تتشكَّل المؤسسات الخاصة التي رعت بولتون ووات، وفي تلك الحالة لربما اتخذت الثورة الصناعية -كما أشرت في وقت سابق- عقودًا أطول لتحدث أو لربما حدثت في مكان آخر في أوروبا الغربية. ولكن مرة أخرىٰ، من الصعب معرفة ما الذي كان يمكن أن يحدث بعد عام ١٦٥٠م لمنعه تمامًا. وربما لو تباطأ التصنيع الغربي وسلك حكَّام تشينغ مسلكًا مختلفًا، للحقت الصين في القرن السابع عشر والثامن بشكل أسرع بالعِلم الأوروبي، ولكن كما رأينا في الفصل التاسع، كان الشرق سيستغرق وقتًا أطول للتحول نحو التصنيع أولًا. لقد كانت الهيمنة الغربية بحلول عام ٢٠٠٠م أقل حتمية عمَّا كانت عليه في عام ١٦٥٠م منها في عام ١٨٠٠م، ولكنَّها كانت النتيجة الأكثر ترجيحًا - ربما محتملة بنسبة ٨٠٪؟

وبالرجوع مائة وخمسين عامًا أخرىٰ، في عام ١٥٠٠م، كانت المآلات لا تزال ظلامية. كان لدىٰ الأوروبيين الغربيين السفن التي تستطيع الإبحار إلىٰ العالم الجديد، لكن دوافعهم الأولية كانت النهب. لو كان آل هابسبورغ أوفر حظًا ممَّا كانوا عليه فعليًا (لو لم يولد لوثر أبدًا، أو لو انضم إليه تشارلز الخامس، أو لو نجح الأسطول ضد إنجلترا في عام ١٥٨٨م، وتوقف التمرد الهولندي) لربما أصبحوا حقًّا رعاة المسيحية - وفي هذه الحالة لأسكتت محاكم التفتيش الأسبانية الأصوات المتطرفة مثل أصوات نيوتن وديكارت، ولدمَّر فرض الضرائب التعسفي التجارة الهولندية والإنجليزية والفرنسية بنفس طريقة تدمير التجارة الأسبانية في الواقع التاريخي. هذه افتراضات كثيرة، وفي النهاية كان من الممكن أن يكون لإمبراطورية هابسبورغ أثر عكسي تمامًا، وأن تدفع المزيد من البروتستانت لعبور المحيط الأطلسي وبناء المدن علىٰ التلال، وبدء اقتصاد أطلسي وثورة علمية من الجانب البعيد.

وبدلًا من ذلك، كان يمكن بسهولة أن يكون آل هابسبورغ أسوأ حالًا ممَّا كانوا عليه في الواقع. لو هزم العثمانيون شيعة فارس بشكل أكثر شمولًا، لربما استولىٰ الأتراك علىٰ فيينا في عام ١٥٢٩م، ولاخترقت أصوات المؤذنين علىٰ

المنابر سماء إنجلترا، وكما لخَّص غيبون الأمر، لكان القرآن يُدرَّس الآن في جامعة أكسفورد. وكان الانتصار التركي ليجعل الغرب مركز الثقل في منطقة البحر المتوسط، تاركًا الاقتصاد الأطلسي في حالة ركود، ولكن من ناحية أخرىٰ، مثل انتصار هابسبورغ الذي تخيلته قبل برهة، لربما حفَّز ذلك أيضًا قيام عالم أطلسي أقوىٰ. وثمة احتمال آخر: لو حارب العثمانيون والروس بعضهم بعضًا بحدة أكثر في القرن السابع عشر، فلربما أصبحوا ضعفاء لإغلاق السهول الغربية للرُحَّل. وفي هذه الحالة ربما دفعت الانتصارات في القرنين السابع عشر والثامن عشر المغول إلىٰ أوروبا، وحوَّلت أزمة الغرب في القرن السابع عشر إلىٰ شيء مزعج علىٰ غرار أيام روما الأخيرة. ومع عصر ظلام جديد في الغرب، فلربما أصبح لدىٰ الصين، بعد مرور قرون كافية، ثوراتها العلمية والصناعية الخاصة في ظل ضغط تطورها الاجتماعي علىٰ السقف الصلب. مَن يدري؟ ومع ذلك، ثمة أمر واحد واضح: في عام ١٥٠٠م، كانت احتمالات الهيمنة الغربية بحلول عام ٢٠٠٠م أقل بكثير ممَّا كانت عام ١٦٥٠م، ربما ليس أكثر بكثير من خمسين بالمائة.

تعيدنا مائة وخمسون عامًا إلىٰ سنة ١٣٥٠م، في الأيام المظلمة للموت الأسود، ومن تلك النقطة المرتفعة لربما بدت الهيمنة الغربية بحلول عام ٢٠٠٠م واقعية أكثر من كونها بعيدة الاحتمال. كانت أكثر الشخصيات المؤثرة في المستقبل القريب هي تيمورلنك، الفاتح المغولي الذي انطلق خارج وسط آسيا لإبادة الهند وبلاد فارس، ثمَّ تحطيم الإمبراطورية العثمانية في عام ١٤٠٢م. وفي تلك المرحلة قرَّر تيمورلنك أن يتجه شرقًا ليأخذ بثأره من الإمبراطور الصيني بسبب أمر تافه متخيَّل، ولكنَّه توفي قبل الوصول إلىٰ هدفه. لو ظلَّ، بدلًا من ذلك، متجهًا نحو الغرب بعد عام ١٤٠٢م، فلربما أباد إيطاليا الأمر الذي كان سيحبط نهضتها ويعود بالتطور الغربي لقرون إلىٰ الوراء. من جهة أخرىٰ: لو لم يمت تيمورلنك في عام ١٤٠٥م في رحلته تجاه الشرق، وبقي بضع سنوات أطول، فلربما كرَّر الغزو الوحشي للصين علىٰ يد قوبلاي خان، وأعاق التطور الشرقي، وليس الغربي لقرون.

ثمة سُبل أخرىٰ لاحتمالات جريان الأمور. لربما فشل مؤسس أسرة مينغ، هونغ وو، بسهولة في إعادة توحيد الصين بعد الحروب الأهلية، تاركًا مجموعة من الدول المتحاربة بدلًا من إمبراطورية عظمىٰ في المركز الشرقي في القرن الخامس عشر. مَن يستطيع أن يخمن كيف كانت ستكون النتائج عندئذٍ؟ لربما حدثت فوضىٰ، ولكن ربما إزالة يد الأوتوقراطية الثقيلة لمينغ كانت ستحفز قيام تجارة بحرية أكثر حيوية. وقد أشرت في الفصل الثامن إلىٰ أنَّ الصين في عهد مينغ لم يكن من المحتمل علىٰ الإطلاق أن تُنشئ نسخة شرقية من الاقتصاد الأطلسي اللاحق للغرب -كانت الجغرافيا ضد ذلك بشدة- ولكن من دون أسرة مينغ لربما أنشأ المستعمرون الشرقيون والتجَّار اقتصادًا علىٰ طراز الاقتصاد الأطلسي أقرب للوطن في جنوب شرق آسيا وجزر التوابل. خلاصة القول هي أنَّ الخيارات كانت أكثر انفتاحًا في عام ١٣٥٠م أكثر منها في عام ١٥٠٠م. كانت هيمنة الغرب بحلول عام ٢٠٠٠م واحدة من بين احتمالات عديدة، وربما لا تتعدىٰ ٢٥٪.

يمكنني الاستمرار علىٰ هذا النحو، فمن الممتع لعب لعبة «ماذا لو». ولكن الأمر قد اتضح علىٰ الأرجح. سواء كانت هيمنة الغرب بحلول عام ٢٠٠٠م مسألة احتمالات وليست أمورًا حتمية أو عَرَضية، وكلما عدنا للوراء، نجد المزيد من العوامل المؤثرة أو البطاقات الجامحة. في عام ١٨٠٠م بدا من المستبعد جدًّا أن تعطل القرارات المختلفة، والاتجاهات الثقافية، أو الحوادث من الهيمنة الغربية إلىٰ بعد عام ٢٠٠٠م، وفي عام ١٣٥٠م كانت هذه النتيجة معقولة تمامًا. ومع ذلك، يصعب تصوُّر حدوث أي شيء بعد عام ١٣٥٠م كان من شأنه أن يؤدي إلىٰ تحول الشرق نحو التصنيع قبل الغرب أو منع التصنيع تمامًا.

ولإيجاد ماضٍ كان من الممكن منطقيًّا أن يؤدي إلىٰ هيمنة الشرق بحلول عام ٢٠٠٠م، علينا أن نعود بالزمن تسعة قرون كاملة للوراء، إلىٰ عام ١١٠٠م. لو عامل الإمبراطور هوي تسونغ من أسرة سونغ بدو جورشن بشكل أفضل وأنقذ مدينة كايفنغ في عام ١١٢٧م، أو لو نسي والدا الطفل تيموجين طفلهما علىٰ السهول ومات بدلًا من أن يكبر ليصبح جنكيز خان، مَن يدري ما الذي كان

يمكن أن يحدث؟ ولربما استبعدت المسافة والتكنولوجيا البحرية النسخة الباسيفيكية من مسار التصنيع الذي تبعته أوروبا في القرن الثامن عشر، عبر اقتصاد أطلسي، ولكن ربما كان من الممكن إنشاء اقتصاد مماثل بوسائل أخرىٰ. ولو هربت الصين من تخريب المغول والجورشن، لربما ازدهرت ثقافتها النهضوية وتحولت إلىٰ ثورة علمية بدلًا من السقوط في اللامبالاة وممارسات طي الأقدام. ولكان الطلب الداخلي من مائة مليون صيني من الرعايا والتجارة بين الجنوب الزراعي والشمال الصناعي والاستعمار في جنوب شرق آسيا كافيًا لكي يقلب الموازين. من جهة أخرىٰ، ربما لما حدث ذلك، فقد ظلت الصين مفتوحة في وجه الهجرات المخربة إلىٰ أن امتلكت أنواع الأسلحة والجيوش التي قد تغلق السهول. وربما يكون من التفاؤل التفكير في أنَّ المندارين (البيروقراطيين الصينيين) كان بمقدورهم القيام بالكثير من الأعمال في الوقت نفسه. كانت الاحتمالات ضد انطلاقة شرقية في القرن الثاني عشر -كما أظن- طويلة جدًا.

إذا قمنا برحلة أخيرة في آلة الزمن لنعود مجددًا آلاف السنوات الأخرىٰ قبل أسرة سونغ، سوف يتغيَّر سؤالنا الأساسي مجددًا. فالآن يجب علينا ألَّا نسأل ما إذا كان يمكن أن ينتهي الأمر بهيمنة الشرق بحلول عام ٢٠٠٠م، ولكن ما إذا كانت الإمبراطورية الرومانية ستخترق السقف الصلب قبل ١٧ سنة من قيام الغرب بذلك بالفعل. بصراحة، لا أرىٰ أية وسيلة يمكن أن يكون قد حدث ذلك من خلالها. ومثل سونغ، لم تكن روما بحاجة لطريق عبر السقف الصلب من دون فوائد اقتصاد أطلسي فحسب، ولكنها أرادت أيضًا أن يكون لديها حظ مذهل في التهرب من الفرسان الخمسة للهلاك. وعندما سقطت إمبراطورية هان الصينية في القرن الثالث، عانت روما في دولة ضعيفة، لتنهار في القرن الخامس. بالتأكيد كانت هناك وسائل لتنتصر روما علىٰ الجرمانيين وعشائرهم، وتستمر في كفاحها، ولكن هل كان يمكن للإمبراطورية أن تتعامل مع أزمة القرن السابع؟ وحتىٰ لو نجت الإمبراطورية الرومانية، كيف كان ذلك سينقذ السقوط الطويل للتطور الاجتماعي الغربي؟ ولذلك، تبدو ثورة صناعية رومانية بعد عام ١٠٠م أقل احتمالًا من ازدهار عائلة سونغ بعد عام ١١٠٠م.

ما يضيفه هذا كله هي النتيجة بأنَّ الهيمنة الغربية بحلول عام ٢٠٠٠م لم تكن طويلة المدىٰ وحتمية ولا قصيرة المدىٰ وعَرَضية. كانت علىٰ الأغلب طويلة المدىٰ ومحتملة. ولم يكن من المحتمل، حتىٰ في عام ١١٠٠م، أن يبدأ الشرق التصنيع أولًا وأن يحصل علىٰ القدرة لنشر قوته علىٰ الصعيد العالمي، وأن يحوِّل ريادته في التطور الاجتماعي إلىٰ هيمنة كما سيفعل الغرب في وقت لاحق. وكان من المحتمل دائمًا أن أحدًا سوف يطوِّر في نهاية المطاف المدافع والإمبراطوريات القادرة علىٰ إغلاق السهول، والسفن والأسواق القادرة علىٰ فتح المحيطات. وبمجرد حدوث ذلك، أصبح محتملًا بشكل متزايد أن تقود مزايا الجغرافية الجديدة الغربيين إلىٰ ثورة صناعية قبل الشرقيين. الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يحول دونها -كما أعتقد- هو لحظة غسق حقيقية، نوع الكارثة التي وصفها إسحاق أزيموف في القصة التي تحمل الاسم نفسه والتي تحدثت عنها في الفصل الثاني: الكارثة التي تغشىٰ جميع الاستجابات، وتدمِّر الحضارة وتقذف بالإنسانية إلىٰ المربع الأول.

الغسق

ولكن هذا لم يكن محتملًا كذلك. أكثر مرة اقترب فيها العالم إلىٰ الغسق قبل عصر الهيمنة الغربية كان حوالي عام ١٠٨٠٠ ق. م، عندما ذابت بحيرة شاسعة متجمدة في شمال الأطلسي وخفضت من درجة الحرارة بدرجة كافية لإيقاف تيار الخليج. فالعصر الجليدي الصغير الذي أعقب ذلك وامتد لما يقرب من ١٢٠٠ سنة، والمعروف باسم «يانغر درياس» أوقف التطور الاجتماعي وأخمد التجارب الأولىٰ لحياة القرىٰ المتوطنة والزراعة المبكرة في منطقة هيلي فلانكس. كما جعل عصر «يانغر درياس» كل حلقة من حلقات البرودة العالمية منذ ذلك الوقت تستلزم ارتداء ملابس ثقيلة.

تُعدّ آثار حادث ما علىٰ مقياس «ينغر دریاس» في أي وقت في الألف سنة القليلة الأخيرة أفظع من التفكير فيها لفترة طويلة. كان من الممكن أن تنخفض محاصيل العالم العام تلو الآخر. ولمَات مئات الملايين من الجوع. ولأفرغت الهجرة الجماعية الكثير من دول أوروبا وأمريكا الشمالية وآسيا الوسطىٰ. ولقلَّصت الحروب الناتجة، وإخفاقات الدولة، والأوبئة أي شيء معروف. كان الأمر ليبدو لو أنَّ الفرسان الخمسة للهلاك قد استبدلوا جيادهم بالدبابات. كان الأمر سينتهي بتجمع السكان المرتجفين والمنكمشين في القرىٰ القريبة من خط الاستواء، يصلّون من أجل نزول الأمطار ويحصلون علىٰ كفافهم من التربة الجافة. كانت آلاف السنين من التطور الاجتماعي لتُحذف من الرسم البياني.

هناك مسارات أخرىٰ أيضًا للغسق يمكن تخيلها. لقد اعتقد بعض علماء الفلك أنَّه لو ضرب الأرض نيزك بقطر ميل تقريبًا، سيعادل الانفجار ١٠٠ مليار

طن من مادة « ثلاثي نيترو التولوين» تنفجر مرة واحدة. وتختلف الآراء بشأن مدىٰ عنف ذلك الانفجار. بالتأكيد سيملأ مؤقتًا الغلاف الجوي العلوي بالغبار ممَّا سيحجب الشمس ويسبّب موت الملايين جوعًا. وقد ينشر ما يكفي من أكسيد النتروجين ليثقب طبقة الأوزون ويُعرِّض الناجين إلىٰ إشعاع شمسي فتَّاك. وعلىٰ النقيض من ذلك، من السهل نمذجة تأثير ارتطام نيزك باتساع ميلين، سيكون مثل إطلاق ٢ تريليون طن من مادة « ثلاثي نيترو التولوين»، الأمر الذي من المحتمل أن يقتل الجميع.

الأنباء السارة هي أنَّ هذه الصخور لا تقع في طريقنا، وبالتالي لا توجد فائدة من إحباط أنفسنا بتخمين مدىٰ سوء ما كانت ستكون عليه الأمور. تصادمات الكويكبات والعصور الجليدية ليست مثل الحروب أو الثقافة، فهي أشياء (أو ربما يتعين علينا قول إنها كانت حتىٰ وقت قريب) خارج نطاق سيطرة البشر. لن يكون ممكنًا لشخص أحمق ولا اتجاه ثقافي أو أي حادث تصوُّر هيئة أخرىٰ من الماء الجليدي كبيرة بما يكفي لإيقاف تيار الخليج، ممَّا يعني أنَّ «اليانغر درياس» مستحيلة، وحتىٰ الأكثر تشاؤمًا من علماء الفلك اعتقدوا أنَّنا سنصطدم بكويكبات قطرها أميال مرة كل بضع مئات الآلاف من السنين.

والواقع أنه لا يوجد شيء تقريبًا كان يمكن للبلهاء الأغبياء فعله في أي وقت في تاريخ البشرية من شأنه أن يجلب لحظة الغسق. وحتىٰ الحروب الدموية التي تكبدناها، الحروب العالمية في القرن العشرين، أكَّدت الاتجاهات الجارية بالفعل. في عام ١٩٠٠م كانت الولايات المتحدة باعتبارها نوعًا جديدًا من إمبراطورية شبه قارية ذات مركز صناعي، تتحدىٰ الإمبراطوريات المُحيطية في أوروبا الغربية. وكانت حروب العالم إلىٰ حد كبير معاناة لمعرفة مَن سيحلّ محلّ الأوروبيين الغربيين. هل الولايات المتحدة نفسها؟ أم الاتحاد السوفيتي، الذي يتجه نحو التصنيع بشكل متسارع في ثلاثينيات القرن العشرين؟ أم ألمانيا التي تحاول غزو إمبراطوريتها شبه القارية في الأربعينيات؟ في الشرق، حاولت اليابان غزو إمبراطورية شبه قارية وتحويلها إلىٰ التصنيع وطرد الغرب في الثلاثينيات والأربعينيات، وعندما فشلت في ذلك قامت الصين بتحويل الإمبراطورية شبه

القارية التي كانت لديها بالفعل إلىٰ التصنيع علىٰ نحو كارثي في الخمسينيات والستينيات وبصورة مشهودة منذ الثمانينيات. ومن الصعب تصوُّر كيف كان من الممكن أن تنجو أوروبا في مثل هذه المنافسة، ولا سيما عندما نضيف المد الصاعد للقومية من أفريقيا وحتىٰ الهند الصينية والتدهور المطرد لسكان أوروبا الغربية والصناعة في علاقتها بالمنافسين.

لو لم تلقَ قوىٰ أوروبا العظمىٰ بأنفسها في منحدر صعب بين أعوام ١٩١٤ و١٩٣٩م، فمن المؤكد أنَّ إمبراطورياتها المحيطية كانت ستدوم وقتًا أطول، ولو لم تتملص الولايات المتحدة من مسؤولياتها العالمية في عام ١٩١٩م، فلربما انهارت الإمبراطوريات المحيطية بشكل أسرع. ولو هزم هتلر تشرشل وستالين، فربما سارت الأمور علىٰ نحو مختلف، أو مجددًا ربما لم تحدث من الأساس. وفي هذا الصدد، تقدِّم رواية روبرت هاريس «الوطن» تفسيرًا رائعًا. تحكي الرواية عن جريمة قتل تقع في عام ١٩٦٤م في ألمانيا، ولكن -كما يتضح بسرعة- هذه هي ألمانيا التي فازت بالحرب العالمية الثانية. ويبدو كل شيء مختلفًا بشكل مخيف. قتل هتلر كل اليهود في أوروبا، وليس فقط معظمهم. وجعل مهندسه المعماري ألبرت سبير من أحلام هتلر حقيقة مادية، حيث أعاد بناء برلين مع شارع النصر طوله يعادل مرتين طول الشانزليزيه في باريس ويؤدي إلىٰ أكبر مبنىٰ في العالم، حيث يلقي الفوهرر خطابات تحت قبة عالية جدًّا لدرجة أنَّ السحب الممطرة تتشكَّل داخلها. ومع ذلك، بينما تتطور أحداث القصة، تبدأ البيئة في التحول إلىٰ درجة مخيفة من الأُلفة. وهناك حرب باردة في طريقها بين الولايات المتحدة وإمبراطورية ضخمة متهالكة شمولية في أوروبا الشرقية. لقد عبست كلتا الإمبراطوريتين في وجه الأخرىٰ من خلف أسوار الصواريخ النووية ودخلتا حروبًا بالوكالة، وتلاعبتا بالدول العميلة في العالم الثالث، وهما تقتربان نحو الانفراج في العلاقات. في بعض النواحي الأمور لا تختلف كثيرًا عن الواقع.

لقد كانت الطريقة الوحيدة كي تقدِّم حروب القرن العشرين نتيجة مختلفة تمامًا علىٰ نحو منطقي هي الانزلاق إلىٰ حرب نووية شاملة. لو طوّر هتلر قنابل ذرية كان من المؤكد أنَّه سيستخدمها، لكن بما أنَّه ألغىٰ عمليًّا برنامجه النووي في

عام ١٩٤٢م، فلم يكن ذلك ممكنًا علىٰ الإطلاق. وهذا ترك الحرية للولايات المتحدة لإسقاط قنبلتين علىٰ اليابان دون مواجهة أي عقوبة. ولكن بمجرد أن اختبر السوفيت أول سلاح نووي لهم في عام ١٩٤٩م، أصبح الغسق ممكنًا علىٰ نحو متزايد. وحتىٰ في ذروة مستوياتها في عام ١٩٨٦م، كان لجميع الرؤوس الحربية في العالم مجتمعة ثُمْن القوة التدميرية لتأثير نيزك يصل عرضه إلىٰ ميلين، ولكنَّ ذلك كان أكثر من كافٍ للقضاء علىٰ الحضارة الحديثة.

من الصعب فهم أولئك الذين يستطيعون التفكير في حرب نووية بكل هدوء - مثل ماو. «دعونا نتكهن»، كما قال لقادة العالم الشيوعي في عام ١٩٥٧م:

«إذا اندلعت الحرب، كم شخصًا سيموت؟ هناك ٢,٧ مليار شخص في العالم بأسره . . . إذا ما ازداد الأمر سوءًا، ربما سيموت النصف. ولكن سيظل هناك نصف آخر متبقٍ، ستنهار الإمبريالية، وسيصبح العالم كله اشتراكيًّا. وبعد عدة سنوات سيصل تعداد سكان العالم مرة أخرىٰ إلىٰ ٢,٧ مليار، وبالتأكيد سيصبح أكبر».

ولحسن الحظ بالنسبة إلينا جميعًا، فقد أدرك الرجال الذين كانوا يتخذون القرارات في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة في خمسينيات القرن الماضي، أنَّ السبيل الوحيد للتعامل مع الأسلحة النووية كان من خلال مبدأ التدمير المتبادل المؤكد، وهو مبدأ متطرف لا يقبل الحلول الوسط حيث تعني حركة خاطئة واحدة الإبادة في كل مكان. لقد ظلَّت التفاصيل حول كيفية لعب هذه اللعبة غامضة للغاية، وكانت هناك بعض الاتصالات الوثيقة، وخاصة عندما حاول كل من جون ف.كينيدي ونيكيتا خروتشوف التوصل إلىٰ وضع القواعد في خريف عام ١٩٦٢م. وضع خروتشوف، منتبهًا للتهديد الأمريكي بشنّ حرب، صواريخ سوفياتية في كوبا، وفرض كينيدي، بعد شعوره بالقلق، حصارًا علىٰ الجزيرة. كما أبحرت السفن الحربية السوفيتية علىٰ بُعد بضعة أميال من الخط الأمريكي في البحر، وأرسل كينيدي حاملة طائرات لإقصائهم. وفي هذه المرحلة، شكَّ كينيدي أنَّ احتمالات حدوث كارثة وصلت إلىٰ الثُلث أو حتىٰ النصف. وفي حوالي العاشرة صباح يوم الأربعاء، ٢٤ أكتوبر، ساءت الأمور بشكل كبير. فبينما يجلس كينيدي

وأقرب مستشاريه في صمت وتوتر، وردت الأنباء بأنَّ غواصة سوفيتية قد اعترضت طريق حاملة الطائرات الأمريكية. فماذا كان هدفها إذا لم تكن تهدف إلىٰ الهجوم؟ رفع كينيدي يده إلىٰ وجهه وغطىٰ فمه، كما يتذكره شقيقه. وأضاف: «كان يفتح قبضته ويغلقها. وبدا وجهه مشدودًا، وعيناه متألمتان وتحولت إلىٰ اللون الرمادي». كان يجب أن تكون خطوته التالية هي إطلاق أربعة آلاف طوربيد. لكنَّ الغواصة السوفياتية لم تطلق النار. ودقت الساعة، وفي العاشرة والربع أبطأت السفن السوفيتية من حركتها، ثمَّ عادت إلىٰ الوراء. ولم يأتِ الغسق.

علىٰ مدىٰ ثلاثين عامًا أنتجت سياسة حافة الهاوية والأخطاء تسلسلًا مؤلمًا من لمحات الظلام الخارجي، ولكن الأسوأ لم يصبح الأسوأ أبدًا. منذ عام ١٩٨٦م انخفض عدد الرؤوس الحربية في العالم بمقدار الثُلثين، مع مزيد من التخفيضات الكبيرة التي تمَّ الاتفاق عليها في عام ٢٠١٠م. كان بإمكان آلاف الأسلحة لدىٰ الروس والأمريكيين قتل جميع البشر علىٰ سطح الأرض، ولكن يبدو الغسق الآن أقل احتمالًا بكثير ممَّا كان عليه خلال الأربعين عامًا لمبدأ التدمير المتبادل المؤكد. ويستمر علم الأحياء وعلم الاجتماع والجغرافيا في نسج شبكاتهم، وتستمر سيرورة التاريخ.

المؤسسة

لـم تقدم قصة «الغسق» لأسيموف، حتىٰ الآن علىٰ الأقل، مثالًا جيدًا لتفسير مسيرة التاريخ، لكن ربما روايات «المؤسسة» التي أنشأها يمكن أن تفعل ما هو أفضل. يقول أسيموف: بعيدًا بعيدًا في المستقبل، يستقل شاب متخصص في الرياضيات يُدعىٰ هاري سيلدون مركبة فضائية إلىٰ ترانتور، العاصمة الكبرىٰ لإمبراطورية مجريّة استمرت لمدة ١٢ ألف سنة. وهناك يلقي فيها ورقة علمية في مؤتمر الرياضيات العقدية، شارحًا الأساس النظري لعلم جديد يُطلق عليه علم التاريخ النفسي. من حيث المبدأ، يدَّعي سيلدون أنَّنا إذا جمعنا بين التاريخ العادي وعلم النفس الجماعي والإحصاء المتقدمة فيمكننا تحديد القوىٰ التي تقود الإنسانية، ثمَّ عرضها للتنبؤ بالمستقبل.

ومع ترقيته من كوكبه الأم إلىٰ كرسي الأستاذية بجامعة ترانتور، يتوصل سيلدون إلىٰ طرائق التاريخ النفسي. وخلاصته الرئيسة هي أنَّ الإمبراطورية المجريّة علىٰ وشك السقوط، ممَّا سيؤدي إلىٰ عصر مظلم يمتد إلىٰ ٣٥ ألف عام قبل قيام إمبراطورية ثانية. ويرقي الإمبراطور سيلدون إلىٰ منصب الوزير الأول، ومن منصبه الرفيع يؤسِّس مركزًا بحثيًا يسمىٰ «المؤسسة». وفي الوقت الذي قام فيه العلماء بتجميع جميع المعارف في موسوعة «جالاكتيكا»، قاموا بتدبير خطة سرية لاستعادة الإمبراطورية بعد ألف عام.

لقد أبهجت روايات «المؤسسة» معجبي الخيال العلمي لمدة نصف قرن، ولكن هاري سيلدون هو أضحوكة دائمة بين المؤرخين الذين سمعوا عنه. فهم يزعمون أنَّه في خيال أسيموف المحموم فقط، يمكن لمعرفة ما قد حدث بالفعل

أن تخبرك ما سيحدث. ينكر مؤرخون عديدون وجود أي أنماط كبيرة في الماضي، في حين أنَّ أولئك الذين يؤمنون بإمكانية وجود مثل هذه الأنماط يميلون إلىٰ الاعتقاد بأنَّ التنبؤ بها خارج حدود قدراتنا. ربما تحدَّث جيفري التون -مثلًا- الذي تولىٰ الكرسي الملكي في التاريخ الحديث في جامعة كامبردج وتشبث بآراء شديدة بشأن جميع المسائل التاريخية، تحدَّث بالنيابة عن الأكثرية مُصرًّا أنَّ: «التاريخ الموثَّق لا يمثِّل أكثر من مائتي جيل. وحتىٰ إذا كان هناك غرض أكبر في التاريخ، لا بُدَّ من القول بأنَّنا لا نستطيع أن نتوقع حقًا حتىٰ الآن أن نستخرجه من القدر الضئيل من التاريخ الذي لدينا».

حاولتُ أن أبيِّن في هذا الكتاب أنَّ المؤرخين يقللون من قدر أنفسهم. لا ينبغي أن نقصر أنفسنا علىٰ المائتي جيل الذين كتب فيهم البشر الوثائق. وإذا قمنا بتوسعة رؤيتنا لتشمل علم الآثار وعلم الوراثة واللسانيات -وهي أنواع الأدلة التي سيطرت علىٰ الفصول الأولىٰ في هذا الكتاب- سنحصل علىٰ المزيد من التاريخ. وهو ما يكفي -في الحقيقة- لإعادتنا خمسمائة جيل للوراء. وقد جادلتُ كثيرًا بأنَّنا يمكننا حقًا أن نستخرج بعض الأنماط، والآن -علىٰ غرار سيلدون- أريدُ أن أقترح أنَّه بمجرد فعلنا لذلك، يمكننا حقًا استخدام الماضي للتنبؤ بالمستقبل.

(١٢)

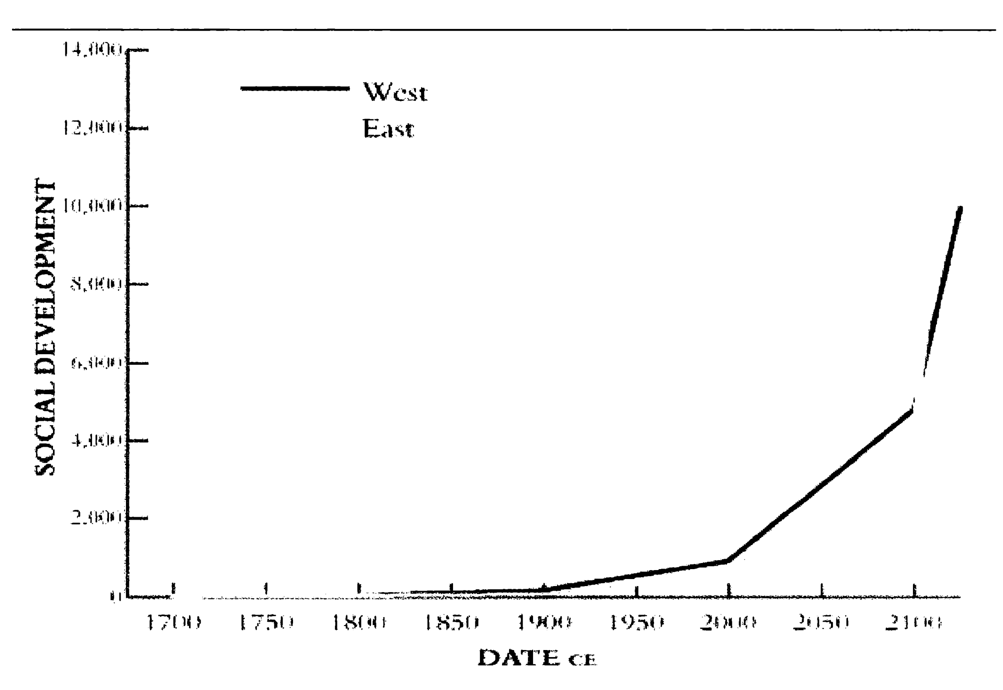
... حتى الآن في مقبرة التاريخ

في نهاية الفصل الثالث تركْنا إبينيزر سكرودج يحدق في رعب في قبره المُهمَل. وقبل أن يمسك بيد شبح عيد الميلاد، صرخ «هل هذه هي ظلال الأشياء التي ستكون، أم أنها ظلال الأشياء التي ربما تكون، فحسب؟».

اقترحتُ أننا يجب أن نطرح السؤال حول (الشكل ١٢ - ١)، الذي يبيِّن أنَّه إذا ظلَّ التطور الاجتماعي الشرقي والغربي في ارتفاع بالسرعة نفسها كما كان في القرن العشرين، سوف يستعيد الشرق الريادة في عام ٢١٠٣م. ولكن نظرًا لأنَّ المعدل الذي ارتفع به التطور الاجتماعي كان بالفعل يتسارع منذ القرن السابع عشر، فإنَّ (الشكل ١٢ - ١) هو حقًّا تقدير متحفظ، وقد يكون أفضل تفسير للرسم البياني هو القول بأنَّ سنة ٢١٠٣م ربما هي آخر مرحلة ينتهي فيها العصر الغربي.

المدن الشرقية كبيرة بالفعل مثل المدن الغربية، والفجوة بين إجمالي الناتج الاقتصادي للصين والولايات المتحدة (وهو ما يُعدّ أسهل متغيِّر للتنبؤ) تضيق بسرعة. ويعتقد الخبراء الاستراتيجيون في مجلس الاستخبارات القومي الأمريكي أنَّ ناتج الصين سيلحق بالولايات المتحدة في عام ٢٠٣٦م، ويعتقد المصرفيون في جولدمان ساكس أنَّ ذلك سيحدث في عام ٢٠٢٧م، ويعتقد المحاسبون في مؤسسة برايس ووتر هاوس كوبرز أنَّ ذلك سيحدث في عام ٢٠٢٥م، وذهب

بعض الاقتصاديين مثل آنغوس ماديسون التابع لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، وروبرت فوغل الفائز بجائزة نوبل - إلىٰ تواريخ أقرب (٢٠٢٠ و٢٠١٦م، علىٰ التوالي). ونتيجة لذلك، فإنَّ قدرة الشرق علىٰ شنّ الحروب وإطلاق تكنولوجيا المعلومات وامتلاك الطاقة لكل فرد سوف تستغرق وقتًا أطول لتجاوز الغرب، ولكن يبدو من المعقول تصوُّر أنَّه بعد عام ٢٠٥٠م سيلحق التطور الاجتماعي الشرقي بنظيره الغربي بشكل أسرع.



(الشكل ١٢ - ١). نقش علىٰ الحجر: لو ظلَّت إحرازات التطور الاجتماعي الشرقي والغربي في ارتفاع بالسرعة نفسها كما في القرن العشرين، ستنتهي الهيمنة الغربية في عام ٢١٠٣م.

ومع ذلك، لا تزال هناك شكوك مزعجة. فجميع تكهنات الخبراء المذكورة أعلاه قُدِّمت في عام ٢٠٠٦ وعام ٢٠٠٧، عشية أزمة مالية لم يتمكن هؤلاء المصرفيون والمحاسبون الاقتصاديون أنفسهم من التنبؤ بها، وينبغي ألَّا يغيب عن بالنا أنَّ المغزىٰ من رواية «أنشودة عيد الميلاد» هو أنَّ مصير سكرودج ليس منقوشًا علىٰ الحجر. فقد أكَّد سكرودج للشبح أنَّه: «إذا ابتعدنا عن المسارات،

ستتغيَّر النهايات»، وبثقة كافية هبَّ سكرودج من سريره صباح عيد الميلاد رجلًا جديدًا. يقول ديكنز: «لقد أصبح صديقًا جيدًا، وسيدًا صالحًا ورجلًا نبيلًا، مثلما عرفته المدينة القديمة الصالحة، أو أية مدينة قديمة أخرىٰ جيدة أو إقليم، في العالم القديم الجيِّد».

فهل سيجدد الغرب، كما فعل سكرودج، نفسَه في القرن الحادي والعشرين ويبقىٰ في القمة؟ في هذا الفصل الأخير، أودُّ اقتراح إجابة مثيرة للدهشة علىٰ هذا السؤال.

لقد جادلتُ في جميع أنحاء هذا الكتاب أنَّ الضعف الكبير في معظم محاولات تفسير لماذا يهيمن الغرب، والتنبؤ بما سيحدث هو أنَّ المتكهنين عادة ما ينظرون من منظور قصير، فينظرون إلىٰ الوراء بمقدار بضع مئات من السنين (إذا كان الأمر كذلك) قبل أن يخبرونا ما معنىٰ التاريخ. إنَّ الأمر يشبه كما لو أنَّ سكرودج حاول تعلُّم دروسه فقط بالتحدث مع شبح عيد الميلاد الحاضر.

ولذلك، فمن الأفضل اتباع طريقة سكرودج الفعلية، معتمدين علىٰ كلمات شبح عيد الميلاد الماضي، أو تقليد هاري سيلدون الذي استنطق آلاف السنين من التاريخ قبل النظر في مستقبل الإمبراطورية المجريّة. ومثل سكرودج وسيلدون، نحن بحاجة إلىٰ تحديد ليس فقط إلىٰ أين تأخذنا الاتجاهات الحالية، ولكن أيضًا ما إذا كانت هذه الاتجاهات تولِّد القوىٰ التي تقوِّضها. نحن بحاجة إلىٰ إدخال عنصر مفارقة التطور، وتحديد مزايا التخلف وأن نتنبأ ليس فقط بكيفية تشكيل الجغرافيا للتطور الاجتماعي، ولكن أيضًا كيفية تغيير التطور الاجتماعي لمعاني الجغرافيا. وعندما نفعل كل هذه الأشياء، سنجد أنَّ القصة لا تزال تحتوي علىٰ الكثير من الأمور غير المتوقعة.

بعد صيمريكا (الصين - أمريكا)

لقد كُتِبَ علينا العيش في أوقات مثيرة.

منذ نحو عام ٢٠٠٠م تطورت علاقة غريبة بين مركز العالم الغربي وطرفه الشرقي. وبالعودة إلىٰ أربعينيات القرن التاسع عشر، اتجه المركز الغربي نحو العالمية، ناشرًا قواه في كل صغيرة وكبيرة في العالم ومحولًا ما كان في السابق مركزًا شرقيًا مستقلًا إلىٰ طرف للغرب. وكشفت العلاقة بين المركز والطرف بالتبعية عن الخطوط نفسها الموجودة بين المراكز والأطراف عبر التاريخ (وإن كان هنا علىٰ نطاق أوسع)، حيث يستخدم الشرقيون عمالتهم الرخيصة ومواردهم الطبيعية للتجارة مع المركز الغربي الأكثر ثراءً. وكما يحدث غالبًا في الأطراف، وجد البعض مزايا في التخلف، وأعادت اليابان صناعة نفسها. وفي الستينيات تبعتها عدة بلدان شرق آسيوية إلىٰ السوق العالمية ذات الهيمنة الأمريكية وازدهرت، وبعد عام ١٩٧٨م، عندما استقرت اليابان أخيرًا في سلام، ومسؤولية، ومرونة، فعلت الصين الشيء نفسه. وقد بدأ سكان الشرق الشاسع والفقير وأهل الفكر الأصليون الذين صدموا المراقبين الغربيين السابقين باعتبارهم قوىٰ التخلف في أن يتحولوا إلىٰ مزايا ضخمة. وانتشرت الثورة الصناعية أخيرًا في أنحاء الشرق، وكان روَّاد الأعمال الشرقيون يبنون المصانع ويبيعون السلع المنخفضة التكلفة إلىٰ الغرب (وخاصة الولايات المتحدة).

ليس هناك جديد في هذا السيناريو، وعلىٰ مدىٰ عقد من الزمان -أو أكثر- مضىٰ كل شيء علىٰ ما يرام (باستثناء الغربيين الذين حاولوا منافسة السلع الشرق آسيوية منخفضة التكلفة). لكن بحلول التسعينيات، كان المصنِّعون في الصين

يكتشفون -كما اكتشفت الشعوب في الكثير من الأطراف- أنَّه ليس حتىٰ أغنىٰ المراكز يمكن أن يتحمل نفقات شراء كل ما يمكن لأحد الأطراف تصديره.

إنَّ ما جعل العلاقة بين الشرق والغرب غريبة هو الحل لهذه المشكلة التي ظهرت بعد عام ٢٠٠٠م. فعلىٰ الرغم من أنَّ دخل الفرد الأمريكي المتوسط يصل إلىٰ عشرة أضعاف دخل العامل الصيني المتوسط، فقد أقرضت الصين الغربيين الأموال لمواصلة شراء السلع الشرقية. وقد فعلت ذلك من خلال استثمار بعض فائض الحساب الجاري الضخم في السندات المالية المقوّمة بالدولار، مثل سندات خزانة الولايات المتحدة. وقد أبقىٰ شراء مئات المليارات من الدولارات أيضًا عُملة الصين رخيصة بشكل مصطنع بالنسبة إلىٰ عُملة الولايات المتحدة، ممَّا جعل السلع الصينية أقل تكلفة حتىٰ للغربيين.

وأدرك الاقتصاديون أنَّ العلاقة تُشبه الزواج، حيث يقوم أحد الزوجين بالادخار والاستثمار، ويقوم الآخر بالإنفاق ولا يملك أي منهما نفقات الطلاق. إذا توقفت الصين عن شراء الدولارات، ربما تنهار العملة الأمريكية ومن ثمَّ تفقد الـ ٨٠٠ مليار دولار أمريكي التي احتفظت بها الصين قيمتَها. ومن ناحية أخرىٰ، إذا توقف الأمريكيون عن شراء البضائع الصينية ستنخفض مستويات معيشتهم، وينخفض ائتمانهم المُيسَّر. إنَّ أي مقاطعة أمريكية قد تلقي بالصين في فوضىٰ صناعية، لكنَّ الصين قد تثأر ببيع ما لديها من دولارات وتخريب الاقتصاد الأمريكي.

صكَّ كل من المؤرخ نيال فيرغسون والخبير الاقتصادي موريتز شولاريك هذا المصطلح الغريب «صيمريكا» (Chimerica)، وهو مزيج من الصين والولايات المتحدة أدىٰ إلىٰ نمو اقتصادي، لكنه كان أيضًا بمثابة الكيميرا (الوهم) - وهو حلم كان علىٰ العالم الاستيقاظ منه في نهاية المطاف. لم يستطع الأمريكيون الاستمرار في اقتراض الأموال الصينية لشراء البضائع الصينية إلىٰ الأبد. وأدت محيطات صيمريكا من الائتمان الرخيص إلىٰ تضخيم أسعار كل أنواع الأصول من خيول السباق إلىٰ العقارات، وفي عام ٢٠٠٧م بدأت الفقاعات تنفجر. في عام ٢٠٠٨م دخلت الاقتصاديات الغربية في سقوط حر، ممَّا أدىٰ إلىٰ جرّ بقية العالم

علىٰ إثرهم. وبحلول عام ٢٠٠٩م، تبخر ما قيمته ١٣ تريليون دولار من ثروة المستهلك. لقد سقطت صيمريكا.

في مطلع عام ٢٠١٠م، منعت تدخلات الحكومة الواضحة تكرار الكساد في الثلاثينيات من القرن الماضي، ولكن نتائج انهيار صيمريكا كانت هائلة. ارتفعت البطالة في الشرق، وانخفضت أسواق الأسهم الصينية وتوسَّع اقتصاد الصين بالكاد بنصف سرعته في ٢٠٠٩م كما فعل في عام ٢٠٠٧م. ومع ذلك، ظلَّ نمو الصين بنسبة ٧,٥٪ في عام ٢٠٠٩م أعلىٰ بقدر جيد ممَّا تطمح إليه الاقتصاديات في المركز الغربي حتىٰ في أفضل السنوات. كان علىٰ بكين أن تجد ٥٨٦ بليون دولار من أجل حزمة الحوافز، ولكنها علىٰ الأقل كانت تمتلك الاحتياطي لتغطية ذلك.

في الغرب، كانت الأضرار أسوأ كثيرًا. كدست الولايات المتحدة ٧٨٧ مليار دولار لتحفيز الاقتصاد علىٰ رأس جبل ديونها القائم، وما زالت ترىٰ اقتصادها ينكمش بنسبة أكثر من ٢٪ في عام ٢٠٠٩م. وأعلن صندوق النقد الدولي في صيف عام ٢٠٠٩ أنَّه توقع أن ينتعش نمو الاقتصاد الصيني إلىٰ ٨,٥٪ في عام ٢٠١٠م، في حين أنَّ الولايات المتحدة ستكتفي فقط بـ ٠,٨٪. والأكثر إثارة للقلق أنَّ مكتب الميزانية في الكونغرس الأمريكي توقع أنَّ الولايات المتحدة لن تدفع الاقتراض لحزمة تحفيز الاقتصاد الخاصة بها حتىٰ عام ٢٠١٩م، وهو الوقت الذي ستعيق فيه استحقاقات السكان المُسنين تقدُّم الاقتصاد علىٰ نحو أعمق.

عندما اجتمع زعماء أكبر ٢٠ دولة اقتصادية في العالم في نيسان/أبريل ٢٠٠٩م لصياغة استجابتهم للأزمة، انتشرت نكتة جديدة: «بعد مظاهرات ساحة تيانانمن عام ١٩٨٩م أنقذت الرأسمالية الصين. وبعد عام ٢٠٠٩م أنقذت الصين الرأسمالية». هناك الكثير من الصواب في ذلك، ولكن ثمة مماثلة أفضل لعام ٢٠٠٩م تكمن في عام ١٩١٨م؛ فقد كان هذا هو العام الذي أصبح فيه صوت السلطة المتلاشي واستنزاف الثروة عبر المتوسط من المركز القديم المفلس في أوروبا إلىٰ المركز الجديد المزدهر في الولايات المتحدة، لا يمكن إنكاره. قد

تبرهن سنة ٢٠٠٩م علىٰ أنَّها السنة التي أصبح فيها صوت الاستنزاف عبر المحيط الهادئ من أمريكا المفلسة إلىٰ الصين المزدهرة، مسموعًا بالتساوي. قد تكون صيمريكا مجرد توقف مؤقت علىٰ الطريق المؤدي إلىٰ الهيمنة الشرقية.

وغني عن القول إنَّ الجميع لا يتفقون مع هذا التنبؤ. يشير بعض الخبراء إلىٰ أنَّ الولايات المتحدة أعادت بناء نفسها علىٰ نحو متكامل مثل سكرودج مرات عديدة بالفعل. وسجَّل كثيرٌ من النقَّاد خسارة الولايات المتحدة في الكساد الكبير في فترة الثلاثينيات، والكساد التضخمي في فترة السبعينيات، ليروها تنهض مرة أخرىٰ وتهزم النازيين في الأربعينيات والسوفيت في الثمانينيات. سيتوصل رواد الأعمال والعلماء الأمريكيون، كما يصر المتفائلون، إلىٰ شيء ما، وحتىٰ إذا انزلقت الولايات المتحدة إلىٰ أزمة في العقد الأول من الألفية الثانية فإنها سوف تتفوق علىٰ الصين في العقد التالي.

ويؤكِّد آخرون علىٰ أنَّ الصين لديها مشاكل أيضًا. فمن الواضح للغاية أنَّه بينما يرفع النجاح الاقتصادي الأجور في الصين، تخسر الصين بعض مزايا تخلفها. في تسعينيات القرن العشرين بدأت الوظائف الصناعية الأقل تطورًا النزوح من السواحل الصينية إلىٰ الداخل، وهي الآن تغادر الصين متجهةً إلىٰ دول ذات أجور أقل مثل فيتنام. ويرىٰ معظم الاقتصاديين أنَّ هذا يعتبر المسار الطبيعي لاندماج الصين في الاقتصاد العالمي، ولكن بالنسبة إلىٰ البعض فإنَّها الإشارة الأولىٰ إلىٰ أنَّ الصين تفقد ميزتها.

ويرىٰ منتقدون آخرون للصين الديموغرافيا باعتبارها تحديًا أكبر. وبفضل انخفاض معدلات المواليد والهجرة، يرتفع متوسط الأعمار بسرعة أكبر في الصين عن أمريكا، وبحلول عام ٢٠٤٠م قد تؤثر استحقاقات المُسنين بشكل أكبر في الاقتصاد الصيني أكثر من اقتصاد الولايات المتحدة. وقد يبطئ أيضًا نقص الموارد الطبيعية من النمو الاقتصادي، وربما يزداد التوتر بين المدن المزدهرة والريف الفقير. وإذا حدث أي من هذه الأشياء، فقد تخرج الاضطرابات الشعبية (التي تتصاعد بالفعل) عن نطاق السيطرة. فقد ساعدت التمردات العِرقية والاحتجاجات ضد الفساد والكوارث البيئية في إسقاط العديد من الأسر الحاكمة

الصينية في الماضي، وربما سيفعلون ذلك مرة أخرىٰ في المستقبل القريب. وإذا سقط الحزب الشيوعي، ربما تتفكَّك البلاد، كما حدث في نهاية أُسر الهان وتانغ ويوان وتشينغ. وربما لا تكون أفضل مماثلة للصين عام ٢٠٢٠م هي الولايات المتحدة في عام ١٩٢٠م، التي تمتص ثروات المركز القديم؛ ولكن الصين نفسها في عام ١٩٢٠م، التي كانت تنزلق إلىٰ حرب أهلية.

ومرة أخرىٰ، كما تصرّ مجموعة دول مؤثرة من المتفائلين الغربيين، أنَّه ربما لا تهمّ أي من هذه التخمينات حقًّا؛ لأنَّ جميع الأمور ستكون أفضل علىٰ أية حال. وعلىٰ الرغم من رؤية استنزاف الثروة والسلطة عبر المحيط الأطلنطي في القرن العشرين، فإنَّ الفرد الأوروبي الغربي في عام ٢٠٠٠م هو أغنىٰ من أسلافه في أوج عظمة إمبريالية أوروبا؛ لأنَّ المد الرأسمالي المرتفع عاد بالفائدة علىٰ الجميع. في القرن الحادي والعشرين ربما عاد الاستنزاف عبر المحيط الهادئ بالنفع علىٰ الجميع. ويتوقع آنغوس ماديسون، المذكور أعلاه لاعتقاده بأنَّ إجمالي الناتج المحلي الصيني سوف يتفوق علىٰ نظيره الأمريكي في عام ٢٠٢٠م، يتوقع وصول عائدات الصين إلىٰ ثلاثة أضعاف (١٨٩٠٠ دولار في المتوسط لكل فرد) بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٣٠م. ويتوقع أن ترتفع العائدات الأمريكية بمقدار ٥٠٪ فقط، ولكن لأنَّهم بدؤوا من هذا المستوىٰ العالي، فسيكون دخل الفرد الأمريكي النموذجي في عام ٢٠٣٠م هو (٥٨,٧٢٢ دولارًا)، وهو ما يعادل أكثر من ثلاثة أضعاف دخل الفرد الصيني. وعلىٰ نحو أكثر تفاؤلًا، اعتقد روبرت فوغل أنَّ الاقتصاد الصيني سيفوق اقتصاد الولايات المتحدة في عام ٢٠١٦م. ويقول إنَّه بحلول عام ٢٠٤٠م، سيصل دخل الفرد الصيني إلىٰ (٨٥,٠٠٠ دولار) علىٰ نحو مذهل، ولكن في ذلك الوقت سوف يحصل الفرد الأمريكي المتوسط علىٰ (١٠٧٠٠ دولار).

لكنَّ الأكثر تفاؤلًا بين الجميع هو ما يُطلق عليه الصحافي جيمس مان «السيناريو المهدئ» وهو الادّعاء بأنَّه مهما حدث، سيؤدي الرخاء إلىٰ غربنة الشرق. وسيكون التساؤل عما إذا كان الغرب ما زال يهيمن أم لا سؤالًا لا معنىٰ له؛ لأنَّ العالم كله سيكون غربيًا حينها. «تاجر بحرية مع الصين»، هكذا حثَّ

الرئيس الأمريكي بوش في عام ١٩٩٩م، «والوقت في صالحنا».

إنَّ السبيل الوحيد للازدهار في الاقتصاد العالمي الحديث، كما تسير هذه المحاججة، هو أن تكون ليبراليًّا وديمقراطيًّا؛ أي التشبه بالمركز الغربي. انتقلت كل من اليابان وتايوان وكوريا الجنوبية وسنغافورة من الحزب الواحد نحو الحكم الديمقراطي في الوقت الذي أصبحوا فيه أكثر ثراءً في أواخر القرن العشرين، وإذا استطاع الحزب الشيوعي الصيني أن يتبنىٰ الرأسمالية، ربما يستطيع أن يتبنىٰ الديمقراطية أيضًا. فالمناطق الأكثر تورطًا في التجارة العالمية ربما تقوم بذلك بالفعل. في مقاطعتي جوانغدونغ وفوجيان، علىٰ سبيل المثال، كثير من المسؤولين المحليين يأتون بالانتخاب المباشر في الوقت الحاضر. ولا تزال السياسة الوطنية استبدادية، ولكنَّ الحكَّام في بكين أصبحوا أكثر استجابة لشواغل الجمهور حول الكوارث الطبيعية، وأزمات الصحة العامة، والفساد.

مع ذلك، فالكثير من الغربيين الذين أمضوا بعض الوقت في الشرق هم أقل إعجابًا بالفكرة القائلة بأنَّ الشرق سيتعرض لتغريب ثقافي في الوقت نفسه الذي سيمتلك فيه السلطة للسيطرة علىٰ العالم. فالأمريكيون، بالرغم من كل شيء، لم يبدؤوا التصرف مثل الأوروبيين بعد أن حلّوا محلّ أوروبا باعتبارها المنطقة المهيمنة في المركز الغربي، وبدلًا من ذلك بدأ الأوروبيون يتذمرون من أمركة ثقافتهم.

وجدت النخب الحضرية في الصين الكثير من الأمور المحببة في الثقافة الغربية عندما دخلوا الاقتصاد العالمي الخاضع للهيمنة الأمريكية في فترة الثمانينيات. لقد خرجوا من عباءة ماو، وفتحوا المدارس الإنجليزية، وحتىٰ (لفترة قصيرة) شربوا كؤوسًا من القهوة باللبن في ستاربكس في المدينة المحرَّمة. وتُعدّ البارات الغالية في حي البحيرات الخلفية في بكين مليئة ببعض المتحمسين الذين يفحصون أسعار الأسهم علىٰ هواتفهم المحمولة مثل هؤلاء في نيويورك أو في لندن. والسؤال هو ما إذا كانت «الغربنة» ستتواصل إذا ظلَّت السلطة والثروة في حالة استنزاف عبر المحيط الهادئ.

لا يشير الصحافي مارتن جاك إلىٰ ذلك. ويجادل بأنَّنا نرىٰ بالفعل ارتفاع ما يسميه «الحداثات المتنازعة»، حيث يُكيِّف الشرقيون والجنوب آسيويون الاتجاه نحو الصناعة والرأسمالية والليبرالية التي أُخترعت في القرن التاسع عشر في المركز الغربي من أجل احتياجاتهم الأساسية. وفي النصف الأول من القرن الحادي والعشرين، كما يخمن جاك، سوف تفسح الهيمنة الغربية الطريق أمام نظام عالمي متشظٍ، مع مناطق للعُملات المتعددة (مع هيمنة الدولار، واليورو، والرنمينبي) ومجالات التأثير العسكري/الاقتصادي (مجال في أوروبا وجنوب غرب آسيا وربما جنوب آسيا ومجال صيني في شرق آسيا وأفريقيا)، كل منها تسيطر عليها تقاليدهم الثقافية (الأوروأمريكية والكونفوشيوسية، وغيرها). ولكنَّه يتوقع في النصف الثاني من القرن، أن الأرقام ستكون معبِّرة، وستهيمن الصين وتتم «شرقنة» العالم.

وباستقراء كيف استخدمت الصين سلطتها منذ التسعينيات، يجادل جاك بأنَّ العالم ذا المركزية الصينية في أواخر القرن الحادي والعشرين سيكون مختلفًا تمامًا عن العالم الغربي في القرنين التاسع عشر والعشرين. وسوف يكون أكثر تراتبيّة، مع الفكرة الصينية القديمة القائلة بأنَّ الأجانب يجب أن يقتربوا من المملكة الوسطىٰ حيث يحلّ عملاء أسواق المضاربة محلّ النظريات الغربية عن المساواة الصورية للدول والمؤسسات. وسيكون إسقاط الخطاب الغربي عن القيم الإنسانية العالمية عملًا غير ليبرالي، وسيكون عدم السماح بأي معارضة لسلطة الحكام السياسيين عملًا دوليًّا. في جميع أنحاء العالم، سوف ينسىٰ الناس أمجاد الماضي الأوروأمريكي وسيتعلمون الماندارين وليس الإنجليزية ويحتفلون بتشينغ لا بكولومبوس، ويقرؤون كونفوشيوس بدلًا من أفلاطون، ويندهشون برجال النهضة الصينية مثل شين كو بدلًا من الإيطاليين مثل ليوناردو.

ويعتقد بعض الاستراتيجيين أنَّ الهيمنة الصينية العالمية سوف تتبع التقاليد الكونفوشيوسية لفن الحكم السلمي، وستكون أقل عدوانية عسكرية من الغرب، بينما يختلف معهم آخرون. فالتاريخ الصيني لا يعطي إرشادًا واضحًا. بالتأكيد، كان هناك زعماء صينيون عارضوا الحرب باعتبارها أداة سياسية (لا سيما بين

طبقة النبلاء والبيروقراطية)، ولكن كان هناك الكثير من الأشخاص الآخرين الذين استخدموا القوة بسهولة، بما في ذلك الأباطرة الأوائل لكل أسرة باستثناء السونغ تقريبًا. ويجادل أولئك المنظِّرون للعلاقات الدولية الذين يؤطرون أنفسهم باعتبارهم «واقعيين» أنَّ الحذر الصيني منذ الحرب الكورية يدين بشكل أكبر إلىٰ الضعف وليس إلىٰ كونفوشيوس. لقد زاد حجم الإنفاق العسكري لبكين إلىٰ أكثر من ١٦٪ سنويًا منذ عام ٢٠٠٦م، ويهدف إلىٰ أن يصبح مثل الإنفاق الأمريكي في عشرينيات الألفية الثانية. وحسب قرارات قادة المستقبل، قد يكون صعود الشرق إلىٰ الهيمنة العالمية في القرن الحادي والعشرين أكثر دموية من صعود الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وهكذا أصبحنا نعرف الآن. ربما سيأتي أفضل الرجال والنساء لمساعدة أمريكا، فيحافظون علىٰ الهيمنة الغربية لبضعة أجيال أخرىٰ، وربما سيتدخل البلهاء الأغبياء في نهوض الصين لفترة. وربما ستتم غربنة الشرق، أو شرقنة الغرب. وربما نصبح جميعًا يدًا واحدة في قرية عالمية. أو ربما نذوب في صراع حضارات. وربما سيصبح الجميع أكثر ثراءً، وربما سنحرق أنفسنا في حرب عالمية ثالثة.

هذه الفوضىٰ من التكهنات المتناقضة لا تثير شيئًا يشبه كثيرًا القصة التي ذكرتها في الفصل الرابع عن الرجال الضريرين والفيل، فكل منهم يتصوَّر أنَّه لمس شيئًا مختلفًا تمامًا. والسبيل الوحيد لتفسير لماذا يهيمن الغرب، كما اقترحتُ في تلك المرحلة من الكتاب، هو استخدام مؤشر التطور الاجتماعي لإلقاء قليل من الضوء علىٰ المشهد. وأريد الآن أن أقترح أنَّ النهج نفسه يمكن أن يساعدنا لنرىٰ ما سيكون عليه شكل الفيل بعد مائة سنة من الآن.

عام ٢١٠٣م

دعونا ننظر مرة أخرىٰ في (الشكل ١٢ - ١)، لا سيما عند نقطة التقاء الخطوط الشرقية والغربية في عام ٢١٠٣م. يبيِّن المحور الرأسي أنَّ التطور الاجتماعي حينئذٍ سيقف عند أكثر من خمسة آلاف نقطة.

وهذا عدد هائل. ففي الأربعة عشر ألف عام بين نهاية العصر الجليدي وعام ٢٠٠٠ ق. م، ارتفع التطور الاجتماعي إلىٰ ٩٠٠ نقطة. وعلىٰ مدىٰ مئات السنين التالية، كما يشير (الشكل ١٢ - ١)، سيرتفع أربعة آلاف نقطة أخرىٰ. لقد أخذتنا تسعمائة نقطة من اللوحات الكهفية لألتاميرا إلىٰ العصر الذري، فإلىٰ أين ستأخذنا أربعة آلاف نقطة أخرىٰ؟ يبدو هذا بالنسبة إليّ السؤال الحقيقي، فلا نستطيع أن نفهم ما الذي سيأتي بعد «صيمريكا» ما لم ننجح أولًا في فهم ما سيبدو عليه العالم عند الوصول إلىٰ خمسة آلاف نقطة.

في مقابلة في عام ٢٠٠٠م اقترح الخبير الاقتصادي جيريمي ريفكين: «من المرجح أن يتحول أسلوب حياتنا بشكل جذري في العقود القليلة القادمة أكثر من الألف سنة الماضية»، ويبدو ذلك متطرفًا، ولكن إذا كان (الشكل ١٢ - ١) يُظهر بالفعل شكل المستقبل، فإنَّ تصوَّر ريفكين هو في الحقيقة تلطف في القول. بين عامي (٢٠٠٠ و٢٠٥٠م)، حسب الرسم البياني، سيرتفع التطور الاجتماعي ضعف ارتفاعه في الخمسة عشر ألف سنة السابقة، وبحلول عام ٢١٠٣م سيكون قد تضاعف مرة أخرىٰ. يا لسخرية التاريخ!

وهنا تنهار كل التنبؤات التي ناقشتها في القسم السابق. فكل الاستقراءات من الحاضر إلىٰ المستقبل القريب، علىٰ نحو مفاجئ، تخلص إلىٰ أنَّ المستقبل سوف يشبه الحاضر كثيرًا، ولكن مع كون الصين أكثر ثراءً. وإذا أحضرنا بدلًا من ذلك ثقل التاريخ كله كي يتم تحميله علىٰ السؤال، أي إذا تحدثنا مع شبح عيد الميلاد الماضي، فإنَّنا مضطرون للاعتراف بمدىٰ كون الزيادة القادمة في التطور الاجتماعي لم يسبق لها مثيل.

إن الآثار المترتبة علىٰ إحرازات التطور لخمسة آلاف نقطة مذهلةٌ. إذا افترضنا جدلًا أنَّ السمات الأربع لامتلاك الطاقة، والتحضر، وتكنولوجيا المعلومات والقدرة علىٰ صناعة الحرب كل منها مسؤول بالنسب نفسها تقريبًا عن مجموع إحراز التطور الاجتماعي في عام ٢١٠٣م، كما فعلوا في عام ٢٠٠٠، فإنَّ بعد قرن من الآن ستكون هناك مدن يعيش فيها ١٤٠ مليون شخص (تخيَّل طوكيو، ومكسيكو سيتي، ونيويورك، وساو باولو، ومومباي، دلهي، وشانغهاي

مدمجة في مدينة واحدة) يستهلك فيها الشخص العادي ١,٣ مليون كيلو سعر حراري يوميًا من الطاقة.

ولذلك، فإنَّ الزيادة بمقدار خمسة أضعاف في القدرة علىٰ صناعة الحرب يصعب تصورها. لدينا أسلحة كافية لتدمير العالم عدة مرات، وبدلًا من مجرد مضاعفة الرؤوس الحربية والقنابل والرشاشات، سيرىٰ القرن الحادي والعشرون التقنيات التي ستجعل أسلحة القرن العشرين باليةً مثلما فعل الرشاش مع بنادق المسكيت. وسيصبح شيء مثل «حرب النجوم»، والدرع المضاد للصواريخ البالستية الذي عمل عليه الأمريكان منذ الثمانينيات، ستصبح بالتأكيد حقيقة واقعة. وستقوم الروبوتات بالقتال. وستصبح الحرب المعلوماتية جوهرية. وسوف تحوِّل تكنولوجيا النانو المواد اليومية إلىٰ درع منيع أو أسلحة فتاكة. وسوف يستدعي كل شكل جديد من العدوان دفاعات لا تقل تطورًا.

الأكثر رعبًا بين الجميع، رغم ذلك، هي التغييرات في تكنولوجيا المعلومات الواردة في (الشكل ١٢ - ١). لقد أخذنا القرن العشرين من أجهزة الراديو البدائية والتليفون إلىٰ الإنترنت، وليس مستبعدًا الإشارة إلىٰ أنَّ القرن الحادي والعشرين سيعطي الجميع في المراكز المتطورة الوصول الفوري إلىٰ كل المعلومات في العالم والاستدعاء الكلي لها. لقد عملت عقولهم مثل أجهزة كمبيوتر عملاقة، مع قوة حسابية تبلغ تريليونات المرات أمثال مجموع كل العقول والآلات في عصرنا.

كل هذه الأشياء -بالطبع- تبدو مستحيلة. فالمدن التي يعيش فيها ١٤٠ مليون شخص لا يمكنها أن تعمل بالتأكيد. فلا يوجد ما يكفي من النفط والفحم والغاز واليورانيوم في العالم لإمداد البلايين من الناس بنحو ١,٣ مليون كيلو سعر حراري يوميًا. وسوف تقضي حروب النانو والمعلومات والروبوتية علينا جميعًا. ومن خلال دمج عقولنا بالآلات سوف نتوقف عن كوننا بشريين.

وهذا كما أعتقد هو أهم الآثار المزعجة للشكل (١٢ - ١).

لقد قدَّمتُ ادّعاءين عامين في هذا الكتاب. الأول هو أنَّ كلًا من علم الأحياء وعلم الاجتماع والجغرافيا معًا يفسرون تاريخ التطور الاجتماعي، مع

كون علم الأحياء يقود التطور لأعلىٰ، وعلم الاجتماع يُشكّل كيفية ارتفاع التطور، وعلم الجغرافيا يقرر أين يرتفع التطور (أو ينخفض) بشكل أسرع. والادّعاء الثاني أنَّه بينما تحدِّد الجغرافيا أين يرتفع أو ينخفض التطور الاجتماعي، يحدِّد التطور الاجتماعي أيضًا معنىٰ الجغرافيا. والآن أودُّ التوسُّع في هذه المناقشة. في القرن الحادي والعشرين يَعِد التطور الاجتماعي أو -يهدِّد- بالارتفاع عاليًا جدًّا لدرجة أنه سيغيِّر معاني البيولوجيا وعلم الاجتماع أيضًا. إنَّنا نقترب من أعظم فجوة في التاريخ.

يسمِّي المخترع والمستقبلي راي كيرزويل هذا بالوحدانية - «فترة مستقبلية تكون فيها وتيرة التغيير التكنولوجي سريعةً وتأثيرها عميقًا للغاية . . . يبدو أنَّ هذه التكنولوجيا تتوسع بسرعة لا نهائية». يُعدّ أحد أسس حجته هو قانون مور، الملاحظة الشهيرة التي أبداها المهندس (والرئيس المستقبلي لشركة إنتل) جوردون مور في عام ١٩٦٥م بأنَّه مع مرور كل عام ضاعف تصغير رقائق الكمبيوتر سرعتها، وخفض تكلفتها إلىٰ النصف. قبل أربعين عامًا أجرت الحواسيب العملاقة مئات الآلاف من العمليات الحسابية في الثانية وكلَّفت عدة ملايين من الدولارات، لكن الحاسوب المحمول الذي أنقر عليه الآن يستطيع معالجة بضعة بلايين من العمليات الحسابية في الثانية وهو ما يعادل عشرة ملايين ضعف للتحسن في السعر والأداء، أو تضاعف كل ١٨ شهرًا، مثلما توقَّع مور إلىٰ حد كبير.

وإذا ما استمر هذا الاتجاه، كما يقول كيرزويل، فإنَّه بحلول عام ٢٠٣٠م سوف تصبح أجهزة الحاسوب قوية بدرجة كافية لتشغيل برامج تستنسخ ١٠٠٠٠ تريليون إشارة كهربية تومض كل ثانية بين ٢٢ مليار خلية عصبية داخل الجمجمة البشرية. سيكون لديها أيضًا ذاكرة لتخزين بحجم ١٠ تريليونات ذاكرة مثل الذي يحويها المخ المنوذجي. وبحلول ذلك التاريخ ستكون تقنية المسح دقيقة بما فيه الكفاية لصنع خريطة لمخ الإنسان مبيِّنة كل نيرون، كما يقول مطورو التكنولوجيا، وأنَّنا سنكون قادرين علىٰ تحميل عقول البشر الفعلية علىٰ الأجهزة. ويعتقد كيرزويل أنَّه في حوالي عام ٢٠٤٥م ستتمكن الحواسيب من استضافة جميع

العقول في العالم، دامجة بفعالية ذكاء السليكون والكربون إلىٰ وعي عالمي واحد. وسيكون هذا هو التفرُّد. وسوف نتجاوز البيولوجيا ونتطور إلىٰ كينونة مندمجة جديدة أكثر تقدمًا من الهومو سابينس، مثل تقدُّم الإنسان المعاصر علىٰ الخلايا التي تندمج لخلق جسده.

تثير رؤية كيرزويل الحماسية السخرية بقدر ما تثير الإعجاب (نشوة المهووسين، كما يسميها البعض)، ولكن الاحتمالات -مثل جميع المتنبئين قبله- هي أنَّه سيكون علىٰ خطأ أكثر بكثير من كونه علىٰ صواب. ولكنَّ أحد الأشياء التي يعتبر كيرزويل محقًا بشأنها هو ما يسميه «النقد من أجل التشكُّك»، وهو عدم اعتقاد بسيط بأن أي شيء غريب جدًّا يمكن أن يحدث، وهو شيء لا يمثِّل حجة مضادة. كما يحب ريتشارد سمولي الحائز علىٰ جائزة نوبل أن يقول: «عندما يقول العلماء بأنَّ شيئًا ما ممكن الحدوث، فإنَّهم عادة يقلِّلون من المدة التي سيستغرقها. ولكن إذا قالوا بأنَّه مستحيل، فمن المحتمل أنهم خاطئون». يتخذ البشر بالفعل خطوات نحو نوع من التفرُّد، وتأخذ الحكومات والعسكريون احتمال التفرُّد بجدية كافية لبدء التخطيط له.

وربما نستطيع أنَّ نرىٰ بالفعل بعض هذه الخطوات داخل حيِّز التنفيذ. أشرت في الفصل العاشر إلىٰ أنَّ الثورة الصناعية أطلقت تغييرات أكبر في ما يعنيه أن تكون إنسانًا أكثر ممَّا فعلته الثورة الزراعية. في معظم أنحاء العالم، تسمح النظم الغذائية للبشر بالعيش مرتين أطول والنمو ٦ بوصات أطول من أجدادهم. وينفق عدد قليل من النساء أكثر من جزء صغير من حياتهم لحمل الأطفال وتنشئتهم، ومقارنة مع أي عصر سابق يموت عدد قليل من الأطفال في مرحلة الطفولة. وفي أغنىٰ البلدان، يبدو الأطباء قادرين علىٰ صنع المعجزات - فبإمكانهم الإبقاء علىٰ مظهرنا كشباب (في عام ٢٠٠٨م، أُجريت خمسة ملايين عملية بوتوكس في الولايات المتحدة)، والتحكم في حالاتنا المزاجية (واحد من بين كل عشرة أمريكيين استخدم عقار بروزاك)، وتقوية كل شيء من الغضروف إلىٰ الانتصاب (في عام ٢٠٠٥م كتب الأطباء الأمريكيون ١٧ مليون وصفة فياجرا وسياليس وليفيترا). وأظن أنَّ الأباطرة الشيوخ من العصور القديمة كانوا

سيعتقدون أنَّ هذه الحبوب الصغيرة الأرجوانية رائعة بقدر أي شيء في التفرُّد الذي تنبأ به كيرزويل.

وتَعِد أبحاث القرن الحادي والعشرين بتغيير البشرية أكثر من ذلك، بتصحيح الأخطاء في نسخ خلايانا وصناعة أعضاء جديدة عندما تخذلنا تلك التي نولد بها. ويعتقد بعض العلماء أننا نقترب من «الخلود الجزئي»: مثل فأس إبراهام لينكولن الشهير (الذي تمَّ استبدال مقبضها ثلاث مرات، ونصلها مرتين) فكل جزء منّا ربما يتعرض للتجديد بينما نحن أنفسنا نواصل الحياة بلا نهاية.

ولماذا نتوقف عند إصلاح ما انكسر فحسب؟ لعلكم تتذكرون المسلسل التلفزيوني في السبعينيات (The Six Million Dollar Man) أو «رجل الستة ملايين دولار»، الذي بدأ بطيار يدعىٰ ستيف أوستن (لعب دوره: لي ماجورز) فقد ذراعًا، وعينًا، وكلا رجليه في حادث تحطم طائرة. «يمكننا إعادة بنائه - فلدينا التكنولوجيا»، كما يقول التعليق الصوتي، ويظهر أوستن سريعًا باعتباره رجلًا خارقًا تفوق سرعته سرعة السيارات، ولديه عداد جيجر في ذراعه، وعدسة مكبرة في عينه، وأخيرًا صديقة خارقة (ليندسي فاجنر) أيضًا.

وبعد ثلاثين عامًا أصبح الرياضيون خارقين. عندما احتاج لاعب الجولف تايجر وودز إلىٰ جراحة في العين في عام ٢٠٠٥م، طوَّر نفسه إلىٰ الأفضل من الرؤية المثالية أي ٢٠/١٥، وفي عام ٢٠٠٨م فرضت الرابطة الدولية لاتحادات ألعاب القوىٰ حظرًا مؤقتًا علىٰ العدَّاء أوسكار بيستوريوس من الأولمبياد؛ لأنَّ سيقانه الصناعية بدت أنها تعطيه تفوقًا علىٰ العدَّائين الذين يعيقهم وجود أرجل حقيقية.

في عشرينيات القرن الحادي والعشرين، ربما يرىٰ الأشخاص في منتصف العمر في البلدان المتقدمة بمدىٰ أبعد، ويبدون أجمل مما كانوا عليه في فترة الشباب. ولكن لن تكون لهم أعين حادة وسريعة وجميلة كالصقر مثل الجيل الجديد. تعطي الاختبارات الجينية الآباء بالفعل العديد من الفرص لإسقاط الأجنّة ذوي العيوب غير المرغوب فيها، وفي حين أنَّنا نصبح أفضل في تبديل جينات معينة، ربما يصبح ما يسمَّىٰ « الطفل المُبتكر» المصمَّم من أجل السمات

التي يفضلها الآباء خيارًا متاحًا. فلماذا نجازف في اليانصيب الجينية للطبيعة، كما يتساءل البعض، طالما أنَّ قليلًا من التلاعب يعطيك الرضيع الذي تريد؟

ويجيب آخرون: لأن تحسين النسل، سواء مدفوعًا بمهووسين مثل هتلر أو خيار المستهلك، هو خيار غير أخلاقي. وقد يكون خطيرًا كذلك: يحب البيولوجيون القول بأنَّ «التطور أذكىٰ منك»، وربما يومًا ما ندفع ثمن محاولتنا أن نكون أكثر مهارة من الطبيعة بغربلة مجموعة من صفاتنا مثل الغباء والقُبح والسِمنة والكسل. فكل هذا الحديث عن بيولوجيا ترانسنتدالية، كما يدين النقَّاد، هو مجرد لعب لدور الإله، وهو ما يرد عليه كريغ فنتر، أحد العلماء الأوائل الذين رتبوا الجينوم البشري، بقوله: «نحن لا نلعب».

لا يزال الجدل محتدمًا، ولكنني أظن بأنَّ عصرنا، مثل الكثير من العصور قبله سيحصل في نهاية المطاف علىٰ الفكر الذي يريده. قبل عشرة آلاف سنة ربما قلق بعض الأشخاص من أنَّ القمح المدجن والأغنام المدجنة كانت غير طبيعية، ومنذ مائتي سنة مضت ربما شعر البعض بالتأكيد بالشيء نفسه نحو المحركات البخارية. لكنَّ الذين سيطروا علىٰ وساوسهم ازدهروا في النهاية، بينما لم يزدهر أولئك الذين لم يسيطروا عليها. إنَّ محاولة تحريم الاستنساخ العلاجي، والجمال للجميع، والحيوات الأطول لا تبدو قابلة للتنفيذ بشكل كبير، والأمر نفسه بدرجة أقل بالنسبة إلىٰ حظر الاستخدامات العسكرية للتلاعب بأصوات الطبيعة.

تُعدّ هيئة أبحاث المشروعات الدفاعية المتطورة بوزارة الدفاع الأمريكية (DARPA) أحد أكبر ممولي بحوث تعديل البشر. كانت هذه الهيئة هي التي أحضرت إلينا الإنترنت (كان اسمه «أربانت» آنذاك) في فترة السبعينيات، ويبحث مشروع الربط الدماغي في الحواسيب علىٰ النطاق الجزيئي، المبنية من الإنزيمات وجزيئات الحمض النووي بدلًا من السليكون، التي يمكن زراعتها في رؤوس الجنود. وقد تمَّ كشف الغطاء عن أول أجهزة كمبيوتر جزيئية في عام ٢٠٠٢م، وفي عام ٢٠٠٤م ساعدت النسخ الأفضل في مكافحة السرطان. وتأمل هيئة (DARPA) في أنَّ المزيد من النماذج المتطورة سوف تمنح الجنود بعض مزايا الآلات بتسريع صلاتها المتشابكة، وإضافة ذاكرة جديدة، وحتىٰ توفير خدمة

الاتصال اللاسلكي بالإنترنت. وعلىٰ المنوال نفسه، يعمل «مشروع الكلام الصامت» علىٰ أدوات مزروعة سوف تفكّ ترميز الإشارات الكهربائية داخل الدماغ وترسلها عبر الإنترنت حتىٰ تتمكن القوات من الاتصال دون راديو أو بريد إلكتروني. ويشير تقرير مؤسسة العلوم الوطنية إلىٰ أنَّ «التخاطر الشبكي» سيصبح حقيقة واقعة في عام ٢٠٢٠م.

العنصر الأخير من التفرُّد الذي تنبأ به كيرزويل، المتمثِّل في حواسيب تستطيع استنساخ أعمال الأدمغة البيولوجية، يسير بخطىٰ أسرع. وفي نيسان/أبريل ٢٠٠٧م حوَّل باحثو شركة "BM" حواسيب الجين الأزرق (Gene/L) إلىٰ محاكٍ قشري موازٍ يمكن أن يدير برنامجًا يحاكي وظائف مخ الفأر. كان البرنامج معقدًا بقدر نصف تعقيد مخ فأر حقيقي، ودار بُعشر سرعة الفأر، ولكن بحلول شهر نوفمبر من العام نفسه تمَّ تحديث المعمل بالفعل مقلدًا أمخاخ قوارض أكبر وأكثر تعقيدًا من عقول الفئران.

نصف قدرة فأر بطيء هو طريق طويل من إنسان كامل السرعة، وقدَّر فريق المعمل أنَّ محاكاة الإنسان ستتطلب حاسوبًا بقوة تعادل أربعمائة مرة قوة ذلك الحاسوب الذي مع تقنية عام ٢٠٠٧م سيكون لديه طاقة غير متصورة، ونظام تبريد، واحتياجات حيزية. وبالفعل في عام ٢٠٠٨م، انخفضت التكاليف بحدة وتوقعت شركة (IBM) أنَّ حواسيب الجين الأزرق (Gene/Q)، التي ينبغي أن تعمل في عام ٢٠١١م، سوف تقطع علىٰ الأقل ربع الطريق. كما أنَّ المشروع الأكثر طموحًا «كيتيهوك»، الذي يربط آلاف الجينات الزرقاء، لا يزال يقترب في عام ٢٠٢٠م.

من التسرع الإصرار علىٰ أنَّ ذلك سوف يضيف إلىٰ التفرُّد الذي تنبأ به كيرزويل بحلول عام ٢٠٤٥م. وقد يكون الأكثر تسرعًا إنكار أنَّنا نقترب من فجوة ضخمة. فأينما نظرنا نجد العلماء يتجاوزون حدود البيولوجيا. وقد أكسب طموح كريغ فنتر المشهور لتخليق الحياة لقب «د. فرانكينسيل»، ولكن في عام ٢٠١٠م نجح فريقه في تصنيع جينوم بكتيريا بسيطة تمامًا من الكيماويات وزراعتها في جدران الخلايا لخلق (JCVI - syn1,0)، أول كائنات صناعية متكاثرة ذاتيًا. يمتلك

علم الوراثة نسخته الخاصة من قانون مور، فيما يُعرف باسم «منحنىٰ كارلسون»: بين عامي (١٩٩٥ و٢٠٠٩م)، انخفضت تكلفة تخليق الحمض النووي من دولار لكل زوج إلىٰ أقل من ١,٠٪. وبحلول عام ٢٠٢٠م، كما يعتقد بعض علماء الجينات الجزيئية، فإنَّ بناء كائنات جديدة بالكلية سيصبح أمرًا مألوفًا. وكما هو من الصعب علىٰ أذهاننا تقبل الفكرة، فإنَّ الاتجاهات في القرنين الأخيرين تؤدي إلىٰ تغيير في ما يعنيه أن تكون إنسانًا، ممَّا يجعل من الممكن بناء المدن الضخمة، ومستويات الطاقة المذهلة، وأسلحة الهلاك، والخيال العلمي وأنواع تكنولوجيا المعلومات التي تفرضها إحرازات التطور الاجتماعي لخمسة آلاف نقطة.

لقد كان هذا الكتاب حافلًا بالاضطرابات التي قفز فيها التطور الاجتماعي لأعلىٰ، ممَّا جعل المشاكل التي سادت حياة الأجيال السابقة عَرَضية. محا تطور الإنسان الماهر «هومو سابينيس» جميع الرجال - القرود، وجعل اختراع الزراعة الكثير من القضايا المثيرة لحياة الصيد والجمع غير مهمة، وفعل ارتفاع المدن والدول الشيء نفسه مع شواغل قرويٍّ ما قبل التاريخ. كما أنهىٰ إغلاق طريق السهول السريع والانفتاح علىٰ المحيطات الوقائع التي قيَّدت تطور العالم القديم لمدة ألفي سنة، وسخرت الثورة الصناعية من كل ما سبق.

كانت هذه الثورات تتسارع، وتعتمد علىٰ بعضها البعض لرفع التطور الاجتماعي أبعد وأسرع في كل مرة. فإذا قفز التطور الاجتماعي بمقدار أربعة آلاف نقطة في القرن الحادي والعشرين، كما يتوقع (الشكل ١٢ - ١)، ستكون هذه الثورة المستمرة هي الأكبر والأسرع بين الجميع. ويتفق الكثير من علماء المستقبليات أنَّ جوهر تلك الثورة يكمن في التحولات المرتبطة بعلم الوراثة، والروبوتات والنانوتكنولوجي والحوسبة، وأنَّ نتائجها ستؤدي إلىٰ تغيير كل ما نعرفه.

ولكن في حين يبيِّن (الشكل ١٢ - ١) بوضوح لحاق إحراز التطور الشرقي بإحراز التطور الغربي، لعلك لاحظت أنَّ كل الأمثلة الواردة في هذا القسم - هيئة «داربا». وشركة "BM" وفيلم «رجل الستة ملايين دولار» - كانت أمريكية.

لقد قدَّم علماء الشرق الكثير من المساهمات في التكنولوجيات الجديدة، (الروبوتات -علىٰ سبيل المثال- متقدمة في اليابان وكوريا الجنوبية، أكثر من أي مكان آخر في العالم)، لكنَّ الثورة ظلَّت غربية علىٰ نحو كبير. وربما يعني هذا أنَّ المفكرين الذين يشيرون إلىٰ تدهور أمريكا وإلىٰ عصر صيني قادم سيثبت خطؤهم في النهاية: فلو أنَّ الولايات المتحدة تسيطر علىٰ التكنولوجيات الجديدة بالدقة التي سيطرت بها بريطانيا علىٰ التكنولوجيات الصناعية منذ قرنين، فربما تنقل الثورة الوراثية/ النانوتكنولوجية/ الروبوتية الثروة والسلطة غربًا بصورة أكثر جذرية عما فعلت الثورة الصناعية.

من جهة أخرىٰ: فإنَّ تحوُّل الثروة من الغرب إلىٰ الشرق قد يعني أنَّ الهيمنة الأمريكية الحالية متأخرة عن القرن العشرين، وأنَّه بحلول عام ٢٠٢٠م ستحدث تطورات كبيرة في المختبرات الشرقية. فالصين تستخدم بالفعل التمويل السخي لجذب أفضل علمائها في الولايات المتحدة للعودة، وربما ستوفر شركة (Lenovo) وليس شركة (IBM) الأطر الأساسية التي ستضيف وعيًا عالميًا في أربعينيات القرن الحالي، وسيكون (الشكل ١٢ - ١) محقًا إلىٰ حد ما في نهاية الأمر.

أو ربما سيجعل التفرُّد فئات العشرة آلاف سنة مثل: «الشرق»، و«الغرب» - غير ذات صلة. وبدلًا من تحويل الجغرافيا، فربما تلغيها. وسيعني دمج البشر والآلات وسائل جديدة لاستخدام الطاقة والسيطرة عليها، ووسائل جديدة للعيش معًا ووسائل جديدة للقتال والاتصال. وسيعني أيضًا وسائل جديدة للتفكير والمحبة والضحك، ووسائل جديدة للولادة والشيخوخة والموت. بل وربما يعني نهاية كل هذه الأشياء وخلق عالم خارج نطاق تصوُّر عقولنا غير المحسَّنة والبيولوجية فقط.

ربما يتحقق بعض أو كل هذه الأمور؛ إلَّا -بالطبع- إذا ما اعترضها شيء ما.

أسوأ سيناريو

في نهاية عام ٢٠٠٦م دُعيت أنا وزوجتي لحضور مؤتمر في جامعة ستانفورد بعنوان: «عالم في خطر». وقع هذا الحدث الذي يزخر بالنجوم، ويضم بعض أبرز صانعي السياسة في العالم في يوم شتوي مشرق. أشرقت الشمس بدفء من السماء الزرقاء الصافية، بينما تابعنا طريقنا إلىٰ المكان. كانت البورصة وأسعار المنازل والعمالة وثقة المستهلكين عند أو قرب أعلىٰ مستويات لها. وكان الوقت صباحًا في أمريكا.

وفي أثناء وجبة الإفطار سمعنا من وزراء الخارجية والدفاع السابقين عن التهديدات النووية والبيولوجية والإرهابية التي تواجهنا. وقبل الغداء علمنا بالنطاق الواسع للتدهور البيئي، والخطر الكبير بأنَّ الأمن الدولي سينهار، وفي أثناء الأكل قيل لنا بأنَّ الأوبئة العالمية تكاد تكون حتمية. ثمَّ ازدادت الأمور سوءًا. وانتقلنا من جلسة إلىٰ أخرىٰ في كآبة تامة، في حالة ذهول من تقارير الخبراء بشأن تصاعد مدّ الكارثة. لقد كان المؤتمر حدثًا استثنائيًا، ولكن في الوقت الذي أعلن فيه المتحدث بعد العشاء أننا نخسر الحرب علىٰ الإرهاب، لم يُبدِ الجمهور أي ردة فعل.

وقد جعلني هذا اليوم اليائس أفكر (وهذا أقل ما يمكن قوله). في القرن الأول الميلادي، ومرة أخرىٰ بعد آلاف السنين، اصطدم التطور الاجتماعي بسقف صلب وأطلقت قوىٰ الإعاقة التي أنشأها التطور نفسه انهيارات في جميع أنحاء العالم. هل نحن الآن نكتشف سقفًا صلبًا جديدًا في مكان ما يقترب من نحو ألف نقطة علىٰ المؤشر؟ هل تتجاوز أصوات حوافر فرسان الهلاك خطواتنا

الطفولية نحو التفرُّد، حتىٰ في الوقت الذي تقرؤون فيه هذا الكلام؟

يبدو أنَّ فرسان الهلاك الخمسة المألوفة -تغيُّر المناخ، والمجاعة، وإخفاق الدولة، والهجرة، والأوبئة- قد عادت مرة أخرىٰ. ويُعدّ أولها، وهو الاحتباس الحراري، مثالًا صارخًا علىٰ مفارقة التطور؛ لأنَّ أنواع الوقود الأحفوري نفسها التي دفعت الطفرة في التطور الاجتماعي منذ عام ١٨٠٠م ملأت الجو بالكربون أيضًا، ممَّا أدىٰ إلىٰ احتباس الحرارة. لقد حوَّلت ألعابنا البلاستيكية وثلاجاتنا العالم إلىٰ بيت زجاجي. وقد ارتفعت درجات الحرارة بمقدار ١ درجة فهرنهايت، منذ عام ١٨٥٠م، ومعظم هذه الزيادة كانت في السنوات الثلاثين الأخيرة، ويواصل الزئبق في الترمومتر الارتفاع.

في الماضي كان ارتفاع درجات الحرارة يعني في كثير من الأحيان تحسُّن المحاصيل الزراعية وارتفاع التطور (كما في الفترات الرومانية والعصور الوسطىٰ الدافئة)، ولكن هذه المرة قد تكون مختلفة. أشارت الهيئة الحكومية الدولية المعنيّة بتغيُّر المناخ (IPCC) التابعة للأمم المتحدة في عام ٢٠٠٧م إلىٰ أنَّ «تغيُّر الترددات وكثافة الأجواء المناخية القاسية مع ارتفاع مستوىٰ سطح البحر، من المتوقع أن يكون لها آثار سلبية علىٰ النظم الطبيعية والبشرية . . . وقد يؤدي الاحتباس الحراري إلىٰ بعض الآثار المفاجئة أو التي لا رجعة فيها»، ويُعدّ ذلك أقل ما يمكن قوله عن الأمر، فالحروف الصغيرة في تقريرهم أكثر مدعاة للقلق.

تشير الفقاعات الهوائية في الغطاءات الجليدية إلىٰ أنَّ مستويات ثاني أكسيد الكربون قد تفاوتت عبر الـ ٦٥٠ ألف سنة الأخيرة من ١٨٠ جزيء ثاني أكسيد الكربون لكل مليون جزيء من الهواء في العصور الجليدية إلىٰ ٢٩٠ جزءًا من المليون في الفترات الدافئة بين العصور الجليدية. لم يصل أبدًا ثاني أكسيد الكربون إلىٰ ٣٠٠ جزيء في المليون حتىٰ عام ١٩٥٨م. وبحلول أيار/مايو عام ٢٠١٠م أحرز ٣٩٣ جزيئًا في المليون، وتقدِّر الهيئة الحكوية الدولية المعنية بتغيُّر المناخ أنَّه إذا ما استمرت الاتجاهات الحالية دون فحص، فإن مستويات ثاني أكسيد الكربون ستصل إلىٰ ٥٥٠ جزيئًا في المليون بحلول عام ٢٠٥٠م -أعلىٰ ممَّا كانت عليه لمدة ٢٤ مليون سنة- وسيقفز متوسط درجات الحرارة بمقدار ٥

درجات فهرنهايت أخرىٰ. وإذا واصلت سيرورة احتجاز الطاقة صعودها كما يبيِّن (الشكل ١٢ - ١)، فإنَّ العالم يمكن أن يصبح أكثر سخونة وأسرع بكثير.

وحتىٰ إذا أوقفنا ضخ الغازات الدفيئة غدًا فهناك بالفعل الكثير من الكربون في الجو لدرجة تجعل الاحتباس يستمر. لقد غيَّرنا كيمياء الجو. وأيًّا ما نقوم به الآن فالقطب الشمالي سيذوب حتمًا. وتشير التقديرات المتحفظة، مثل تقديرات الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغيُّر المناخ، إلىٰ أنَّ الثلج سيختفي بحلول عام ٢١٠٠م، أمَّا التقديرات الأكثر تطرفًا فأشارت إلىٰ أنَّ الصيف القطبي سيكون خاليًا من الجليد بحلول عام ٢٠١٣م. ويتفق معظم العلماء علىٰ حدوث ذلك حوالي عام ٢٠٤٠م.

وبينما يذوب القطبان سيرتفع مستوىٰ البحر. فالمياه بالفعل أعلىٰ بمقدار خمس بوصات ممَّا كانت عليه في عام ١٩٠٠م، وتتوقع الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغيُّر المناخ تصاعدها إلىٰ قدمين بحلول عام ٢١٠٠م. وتضيف التوقعات المريعة لانهيار القطبين ٥٠ قدمًا أخرىٰ إلىٰ مستوىٰ سطح البحر، ممَّا سيغرق الملايين من الأميال المربعة من أفضل الأراضي الزراعية في العالم وأغنىٰ المدن. العالم آخذ في التقلص بطرق أكثر ممَّا ندرك.

ولكن رغم كل ذوبان البحار الجليدية، فوسف تستمر البحار في أن تصبح أكثر دفئًا حيث تمتص الحرارة من الجو، ولأنَّ المحيطات الآن أقل برودة في الشتاء ممَّا مضىٰ، ستصبح مواسم الإعصار والعواصف أطول وأكثر شراسة. وستصبح الأماكن الرطبة أكثر تعرضًا للأمطار مع عواصف وفيضانات أشد عنفًا، وستصبح المناطق الجافة أكثر جفافًا وتكثر الحرائق البرية والعواصف الترابية.

والكثير منا بالفعل قد حصل علىٰ صيحات التنبيه التي جعلت الاحتباس الحراري أمرًا شخصيًا. وجاءتني صيحة التنبيه الخاصة بي في عام ٢٠٠٨م. قبل وقوع موسم الحرائق في كاليفورنيا، أثقل الرماد الهواء، بينما احترقت الغابات حول منزلنا. تحوَّل لون السماء إلىٰ برتقالي سماوي، وأخفض صوت دوران مروحيات الإطفاء ضجيج أصواتنا. لقد أنهينا اندلاع حريق واسع الانتشار حول منزلنا ضد الحرائق المستقبلية وفي النهاية كانت لدينا صيحة وشيكة قبل أن تأتي

الأمطار. أو ربما يجب أن أقول قبل أن تهطل الأمطار أخيرًا: لقد أصبح موسم الحرائق النشط في غرب الولايات المتحدة حاليًا أطول بمقدار ٧٨ يومًا عمَّا كان عليه في فترة السبعينيات. ويشتعل الحريق النموذجي خمس مرات أطول من وقت احتراقه قبل ثلاثين عامًا. ويتنبأ رجال الإطفاء بحدوث الأسوأ.

كل هذا يأتي في إطار ما أسماه الصحافي توماس ل. فريدمان «الشيء المرعب حقًا الذي نعرفه». والأسوأ من ذلك هو ما يسميه «الأشياء الأكثر رعبًا التي لا نعرفها». ويشرح فريدمان أنَّ المشكلة تكمن في أنَّ ما نواجهه ليس احتباسًا حراريًا عالميًا ولكن «غرابة عالمية». فالتغيُّر المناخي هو تغيير غير خطيّ: كل شيء مرتبط بكل شيء آخر، ويستجيب بطرق معقدة جدًّا يصعب نمذجتها. ستكون هناك نقاط تحوُّل عندما تتغيَّر البيئة فجأة وبشكل لا رجعة فيه، لكننا لا نعرف أين توجد تلك النقاط أو ماذا سيحدث عندما نصل إليها.

وأكثر الأشياء التي لا نعرفها رعبًا هو كيف سيكون رد فعل البشر. فمثل كل حلقات تغيُّر المناخ في الماضي، لن تتسبب هذه الحلقة في الانهيار بشكل مباشر. في عام ٢٠٠٦م، قدَّر تقرير "tern Review" وهو دراسة بريطانية، أنَّه إذا استمر الوضع علىٰ ما هو عليه حتىٰ عام ٢١٠٠م، سيؤدي تغيُّر المناخ إلىٰ تراجع الناتج الاقتصادي بنسبة ٢٠٪ عن المستويات الحالية - نبوءة شؤم، لكنَّها ليست نهاية العالم كما نعرفه، وحتىٰ إذا أصبحت التنبؤات المباشرة صحيحة، مع ارتفاع درجات الحرارة بمقدار ١٠ درجات مئوية، ستضطرب البشرية. إنَّ مصدر القلق الحقيقي ليس الطقس ذاته، ولكن هو أنه قبل عام ٢١٠٠م سوف تحرر ردود فعل البشر المزيد من فرسان الهلاك.

وفارس الهلاك الأكثر وضوحًا هو المجاعة. ربما تُعدّ الثورة الخضراء أهم منجزات القرن العشرين، حيث أدت إلىٰ زيادة الإنتاج الغذائي بأسرع من النمو السكاني. وفي عام ٢٠٠٠م بدا أنَّه إذا تمكَّنا من احتواء شر الدكتاتوريين والعسكريين وغبائهم، فربما يمكن منع حدوث المجاعة. ولكن بعد مرور عقْد من الزمن، يبدو ذلك أقل احتمالًا. ومرة أخرىٰ، تتجلىٰ هنا مفارقة التطور. فبينما ترتفع الثروات، يُطعم المزارعون حيواناتهم الحبوب الرخيصة أكثر وأكثر حتىٰ

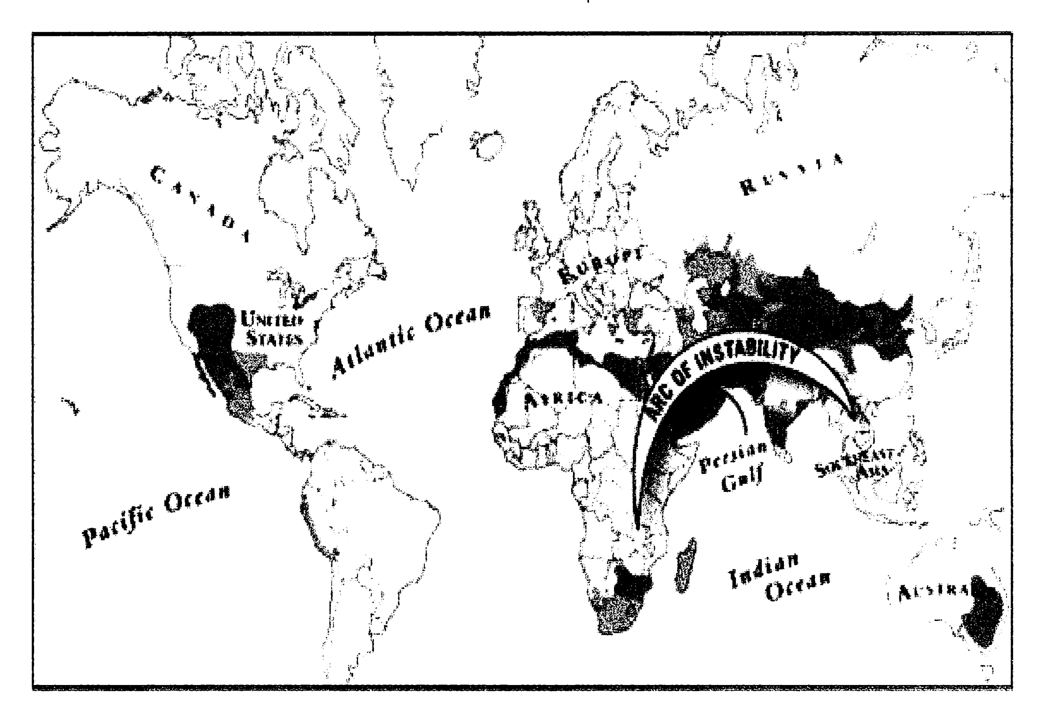
نتمكن من أكل اللحوم الغالية، أو أنهم يحوِّلون المزيد من الأفدنة إلىٰ وقود حيوي حتىٰ نتمكن من قيادة السيارات من دون حرق النفط. والنتيجة: ارتفاع أسعار الأغذية الأساسية بمقدار ضعفين أو ثلاثة أضعاف في الفترة ما بين عامي (٢٠٠٦ و٢٠٠٨م)، وقيام الحشود الجائعة بأعمال شغب في أفريقيا وآسيا. كما أدىٰ الجمع بين أكبر محصول للحبوب في التاريخ (٢,٣ مليار طن) والأزمة المالية إلىٰ ارتفاع الأسعار في ٢٠٠٩م، ولكن مع توقع وصول سكان العالم إلىٰ ٩ مليارات نسمة بحلول عام ٢٠٥٠م، تتوقع منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة أن يزيد كل من تقلُّب الأسعار ونقص الأغذية.

سوف تستمر الجغرافيا في كونها غير عادلة في القرن الحادي والعشرين. وسيزيد الاحتباس الحراري من إنتاج المحاصيل في الدول الباردة الغنية مثل روسيا وكندا، ولكن سيكون له تأثير عكسي فيما أسماه مجلس الاستخبارات الوطنية الأمريكي «قوس عدم الاستقرار» يمتد من أفريقيا وعبر آسيا (الشكل ١٢ - ٢). يعيش أفقر الناس في العالم في هذا القوس، ويمكن أن يطلق انخفاض المحاصيل الفرسان الثلاثة الأخيرة للهلاك.

يقدِّر مجلس الاستخبارات الوطنية الأمريكي أنَّه بين عامي (٢٠٠٨ و٢٠٢٥م) سيقفز عدد الأشخاص الذين يواجهون نقصًا في الغذاء أو المياه من ٦٠٠ مليون إلىٰ ١,٤ بليون نسمة، معظمهم داخل القوس، وخلص تقرير "tern Review" إلىٰ أنَّه بحلول عام ٢٠٥٠م سوف يطلق الجوع والجفاف انتقال ٢٠٠ مليون من «مهاجري المناخ» - وهو ما يعادل خمسة أضعاف عدد اللاجئين في العالم كله في عام ٢٠٠٨م.

يرىٰ الكثير من الأشخاص في المركز الغربي الهجرةَ بمثابة التهديد، بالرغم أنه منذ إغلاق طريق السهول السريع منذ ثلاثة قرون، مثَّلت الهجرة في كثير من الأحيان محرك التطور أكثر من كونها خطرًا عليه. وفي عام ٢٠٠٦م سجَّل استطلاع للرأي أجرته مؤسسة «غالوب» أنَّ الأمريكيين يعتقدون أنَّ الهجرة هي ثاني أسوأ مشكلة للبلاد (بعد حرب العراق). وبالنسبة إلىٰ العديد من الأمريكيين، يبدو خطر تهريب المكسيكيين للمخدرات وحصولهم علىٰ الوظائف أنَّه يفوق كل

الفوائد، وبالنسبة إلىٰ العديد من الأوروبيين تلوح المخاوف من الإرهاب الإسلامي بالقدر الكبير نفسه. وفي كلتا المنطقتين، تجادل اللوبيات الأصلية بأن المستوطنين الجدد يصعب استيعابهم.



(الشكل ١٢ - ٢). الظمأ الكبير: «قوس عدم الاستقرار» لمجلس الاستخبارات الوطنية الأمريكي (يمتد من أفريقيا عبر آسيا)، محددًا المناطق التي يحتمل أن تواجه نقصًا في المياه بحلول عام ٢٠٢٥م. ستواجه المناطق المظلَّلة «الندرة الطبيعية» التي تُعرَّف بتخصيص أكثر من ٧٥٪ من مياههم لأعمال الزراعة والصناعة و/أو الاستخدام المنزلي. وسوف تقترب المناطق المتوسطة الداكنة من «الندرة الطبيعية» مع أخذ ما يقرب من ٦٠٪ من مياههم لهذه الأغراض، وستواجه المناطق الفاتحة «الندرة الاقتصادية»، مع التعهد بأكثر من ٢٥٪ من مياههم. وتستطيع الدول الغنية مثل الولايات المتحدة وأستراليا والصين ضخ المياه من المناطق الرطبة إلىٰ المناطق الجافة، لكنَّ الدول الفقيرة لا تستطيع فعل ذلك.

يهدد الاحتباس الحراري بتحقق المخاوف الأكثر بشاعة للنشطاء المناهضين للمهاجرين بحلول عام ٢٠٢٠م. وربما سيفرّ عشرات الملايين من سكان العالم

الأكثر جوعًا وفقرًا والأكثر غضبًا ويأسًا من العالم الإسلامي إلىٰ أوروبا ومن أمريكا اللاتينية إلىٰ الولايات المتحدة. ويمكن أن تقزّم التحركات السكانية أي شيء في التاريخ، ممَّا سيعيد إحياء نوعية المشاكل التي اعتادت السهول أن تقدمها.

ربما يكون المرض، وهو رابع فرسان الهلاك، إحدىٰ هذه المشاكل. نشرت الهجرة عبر السهول أوبئة القرنين الثاني والرابع عشر، وأكبر وباء في القرن العشرين، أنفلونزا "1N1" عام ١٩١٨م، انتشر بواسطة فيضان من الشبان المسلَّحين بين أمريكا وأوروبا. وقد أودىٰ هذا الوباء بحياة الكثير من الناس في عام واحد -ربما ٥٠ مليونًا- أكثر مما فعل الموت الأسود في قرن واحد، ويعادل ضعفين أو ثلاثة أضعاف ما فعله الأيدز في الثلاثين سنة الماضية.

وقد جعل السفر بالطائرات من الصعب احتواء المرض. فبعد تطور الأيدز في أفريقيا منذ عام ١٩٥٩م علىٰ الأقل، انفجر هذا الوباء عبر أربع قارات في فترة الثمانينيات، وانتقل مرض الالتهاب الرئوي الحاد (السارس) إلىٰ ٣٧ دولة في عام ٢٠٠٣م في غضون أسابيع من ظهوره في جنوب الصين. ورتَّب علماء الجينات الحمض النووي للمتلازمة خلال واحد وثلاثين يومًا (مقارنة بفترة ١٥ سنة لفيروس نقص المناعة المكتسبة)، وتمَّ وأد العمل الدولي النضالىٰ في مهده. وفي الوقت الذي عرَّف فيه علماء الأوبئة أنفلونزا الخنازير (المعروفة باسم "1N1" الجديدة لتمييزها عن أنفلونزا عام ١٩١٨م)، في عام ٢٠٠٩م، كانت قد انتشرت علىٰ نطاق واسع جدًّا لدرجة يصعب احتواؤها.

وإذا بدأت أنفلونزا الخنازير أو إحدىٰ سلالات أنفلونزا الطيور الخطيرة بالتصرف مثل فيروس (H2N2) الذي أسفر عن مقتل ١ - ٢ مليون شخص في عام ١٩٥٧م، فإنَّ منظمة الصحة العالمية تقدّر أنها ستقتل ٢ - ٧,٤ ملايين نسمة، وإذا تصرفت مثل أنفلونزا عام ١٩١٨م سقتل ٢٠٠ مليون شخص. إنَّ العالم أفضل ممَّا كان عليه في عام ١٩١٨م، ولكن عدد الوفيات حتىٰ بمقدار عُشر هذا الحجم قد يسبب أزمة اقتصادية قصيرة الأجل قد تجعل الأزمة المالية في ٢٠٠٧ - ٢٠٠٩م تبدو تافهة. ويتوقع البنك الدولي بأنَّ وباء ما سيضرب ٥٪ من الناتج

الاقتصادي العالمي، كما أنَّ الـ «عشرة أشياء يجب أن تعرفها عن وباء الأنفلونزا» المدرجة في موقع منظمة الصحة العالمية علىٰ الإنترنت هي أكثر مدعاة للقلق:

* ربما يكون العالم علىٰ حافة وباء آخر.
* ستتأثر جميع البلدان.
* ستكون الإمدادات الطبية غير كافية.
* ستحدث أعداد كبيرة من الوفيات.
* سيكون الاضطراب الاقتصادي والاجتماعي كبيرًا.

ومثلما اجتاح فرسان الهلاك العالم في الماضي، فإنَّ تغيُّر المناخ والمجاعات والهجرة والمرض ربما ستعود بتأثيرها في بعضها البعض، ثمَّ تطلق الفارس الخامس، وهو إخفاقِ الدولة. إنَّ قوس عدم الاستقرار هو الموطن لمعظم الأنظمة المتهالكة، وفي الوقت الذي تتصاعد فيه الضغوط فقد ينهار عدد منها تمامًا مثل أفغانستان أو الصومال، ممَّا سيزيد المعاناة ويوفر ملاذات أكثر للإرهابيين. وإذا ورط عدم الاستقرار المراكز التي ترتبط اقتصاداتها بشكل تام بموارد القوس، فربما ننزلق إلىٰ أسوأ السيناريوهات.

في عام ١٩٤٣م حدَّدت مهمة أمريكية في الخليج المشكلة الرئيسة. وذكرت أنَّ «النفط في هذه المنطقة هو أكبر جائزة في التاريخ». وسرعان ما أعادت الدول الغنية توجيه استراتيجياتها الضخمة تجاه نفط الخليج. وعندما انخفضت الطاقة في أوروبا الغربية في خمسينيات القرن الماضي، تدخلت الولايات المتحدة سرًا أو علنًا لمساعدة الأصدقاء وإلحاق الضرر بالأعداء والحفاظ علىٰ الوصول إلىٰ القوس. وعلىٰ الرغم من أنَّ الاتحاد السوفيتي أقل اعتمادًا علىٰ نفط الخليج، فقد تدخل تقريبًا بالقوة نفسها لعرقلة المصالح الأمريكية، وعندما تراجعت روسيا في فترة التسعينيات، أدىٰ إدمان الصين للنفط (الذي يمثِّل ٤٠٪ من الزيادة في الطلب العالمي منذ عام ٢٠٠٠م)، إلىٰ انضمامها إلىٰ هذه اللعبة الكبرىٰ.

ويَعِد النهم الصيني للموارد (فول الصويا والحديد والنحاس والكوبالت والخشب والغاز الطبيعي وكذلك النفط) بصدامات مستمرة مع المصالح الغربية في قوس عدم الاستقرار في ٢٠١٠م. ويؤكِّد الدبلوماسيون الصينيون علىٰ «النهضة

السلميّة» لبلادهم، (ويتلطف بعضهم ويطلق عليها «التطور السلمي»)، ولكنَّ القلق الغربي زاد باطراد منذ فترة التسعينيات. في عام ٢٠٠٤م، علىٰ سبيل المثال، أطلق بحث الصين عن الحديد ما لقبته الصحف بسرعة بـ «السرقة الكبرىٰ لأغطية الصرف الصحي»، حيث انتزع لصوص العالم أغطية البلاعات وشحنوها إلىٰ الشرق لتذويبها. فقدت شيكاغو وحدها ١٥٠ غطاء في شهر واحد. متىٰ سينتهي هذا؟ هكذا تساءل الغربيون. اليوم أغطية البلاعات وغدًا العالم نفسه. وحسب استطلاع للرأي أجري في عام ٢٠٠٥م، فإنَّ ٥٤٪ من الأمريكيين وافقوا علىٰ أنَّ نهوض الصين يشكِّل «تهديدًا للسلام العالمي»، وفي استفتاء في عام ٢٠٠٧م أطلق الأمريكيون علىٰ الصين ثاني أكبر تهديد للاستقرار العالمي بعد إيران.

وترد الصين علىٰ تلك المجاملة. عندما قصفت طائرات الناتو سفارة الصين في بلغراد عام ١٩٩٩م، ممَّا أدىٰ إلىٰ مقتل ثلاثة صحافيين، ألقت الجموع الغاضبة الحجارة علىٰ السفارات الغربية في بكين وألقوا قنابل حارقة علىٰ قنصلية في تشنغدو. وذاع عنوان صحيفة (تشاينا ديلي): «ألم شعبي جرَّاء الأفعال الإجرامية». وفي عام ٢٠٠٤م أصرَّ الحزب الشيوعي علىٰ واقعية «المؤامرة الاستراتيجية للقوىٰ المعادية من أجل غربنة الصين والتسبب في انهيارها».

وفي عام ١٩١٤م، عندما واجهت قوىٰ أوروبا الكبرىٰ أنقاض الإمبراطورية العثمانية في البلقان، احتاجت «عصابة اليد السوداء» الإرهابية في صربيا إلىٰ مسدس فقط لإطلاق الحرب العالمية الأولىٰ. وفي عام ٢٠٠٨م، خلصت لجنة تابعة للولايات المتحدة إلىٰ أنَّه «من المرجح استخدام سلاح من أسلحة الدمار الشامل في شنِّ هجوم إرهابي في أي مكان في العالم بنهاية عام ٢٠١٣م»، ومع مواجهات القوىٰ العظمىٰ الآن علىٰ أنقاض إمبراطوريات أوروبا في قوس عدم الاستقرار، لا يستطيع المرء التفكير في الدمار الذي قد يسببه تنظيم القاعدة أو حزب الله بهذه الأسلحة.

إنَّ التعقيدات الكامنة في القوس مخيفة أكثر من مثيلاتها في البلقان منذ قرن مضىٰ؛ لأنَّها كانت يمكن بسهولة أن تتحوَّل لتصبح نووية. لقد أسَّست إسرائيل ترسانة كبيرة منذ عام ١٩٧٠م، وفي عام ١٩٩٨م اختبرت كل من الهند وباكستان

قنابل ذرية، ومنذ عام ٢٠٠٥م اتَّهم كل من الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة إيران بالسعي إلىٰ تحقيق الهدف نفسه. وتوقَّع معظم المراقبين أن تصبح لدىٰ إيران قدرات نووية في وقت ما في عام ٢٠١٠م، الأمر الذي قد يدفع ما يصل إلىٰ ست من الدول الإسلامية للسعي نحو روادع نووية مماثلة. كما توقَّعت إسرائيل أن تصبح إيران مسلَّحة نوويًا بحلول عام ٢٠١١م، ولكنَّها ربما لن تنتظر الأمور كي تصل إلىٰ هذه النقطة. وكان الطيران الإسرائيلي قد دمَّر بالفعل المفاعلات النووية في العراق وسورية، وربما تتوالىٰ هجمات جديدة في حال المُضي قُدمًا في تنفيذ برنامج إيران.

لا يمكن للإدارة الأمريكية أن تبقىٰ علىٰ الحياد في مواجهة نووية في قوس عدم الاستقرار بين أقرب أصدقائها وألدّ أعدائها. بل وربما الأمر نفسه بالنسبة إلىٰ روسيا أو الصين، فكلتاهما قد عارضت الطموحات النووية الإيرانية، ولكنهما لم يسمحا لإيران بالانضمام إلىٰ منظمة شانغهاي للتعاون، وهو كيان يعمل إلىٰ حد كبير علىٰ معارضة المصالح الأمريكية في آسيا الوسطىٰ.

بالطبع ستكون حرب شاملة بين الشرق والغرب كارثيةً. وبالنسبة إلىٰ الصين ستكون عملًا انتحاريًا: فالولايات المتحدة تفوقها بنسبة (٢٠ إلىٰ ١) في الرؤوس الحربية النووية وربما (١٠٠ إلىٰ ١) في الرؤوس الحربية التي يمكن الاعتماد عليها للوصول إلىٰ أرض العدو. وقد اختبرت الصين صاروخًا مضادًا للصواريخ في يناير عام ٢٠١٠م، لكنَّه يتخلف عن القدرات الأمريكية بفارق كبير. وتمتلك الولايات المتحدة ١١ حاملة طائرات مقاتلة مقارنة بالصين التي لا تمتلك أيًا منها (علىٰ الرغم من أنَّ الصين بدأت في بناء أول حاملة خاصة بها في عام ٢٠٠٩م)، وريادة لا يمكن التغلب عليها في التكنولوجيا العسكرية. لم تستطع الولايات المتحدة، ولا ترغب في غزو الصين واحتلالها، ولكن أي حرب متخيَّلة ستنتهي بهزيمة مُنكرة للصين وسقوط الحزب الشيوعي، وربما انقسام البلاد.

ورغم ذلك، فإنَّ الانتصار في الحرب قد يكون قاسيًا بالنسبة إلىٰ الولايات المتحدة بنفس قدر قسوة خسارتها أمام الصين. وحتىٰ الصراع منخفض الشدة ستكون له تكاليف باهظة. فإذا انقسمت صيمريكا فجأة وبشكل انتقامي، سوف

يعني ذلك كارثة مالية لكلا الشريكين. وسيكون التراشق النووي هو الأسوأ، محولًا الساحل الغربي لأمريكا الشمالية وجزءًا كبيرًا من الصين إلىٰ أنقاض، ومؤديًا إلىٰ مقتل مئات الملايين، وإلقاء الاقتصاد العالمي إلىٰ الركود. والأسوأ من ذلك كله، فإن حربًا صينية أمريكية ستجذب روسيا بسهولة، التي ما زالت تمتلك أكبر ترسانة نووية.

وأيًّا كانت الطريقة التي ننظر بها إلىٰ هذه المسألة، فإنَّ الحرب الشاملة تُعدّ جنونًا. ولحسن الحظ، يطمئننا عدد ضخم من كتابات الخبراء أنه في عالم يتسم بالعولمة فمثل هذا الجنون مستحيل. «لا تستطيع أي قوة مادية أن تستخف بقوة المال»، كما يقول أحد المصادر الموثوقة. ووفقًا لرأي آخر: «حركة رأس المال هي أكبر ضامن للسلام في العالم». ويضيف مصدر ثالث أنَّ القتال «يجب أن يشمل إنفاق مبلغ ضخم من المال وتدخلًا كبيرًا في التجارة، لدرجة أنَّ الحرب سيصحبها أو يتبعها انهيار كامل . . . للمال والصناعة»، وسيعني هذا: «استنزافًا تامًا وفقرًا، وتدمير الصناعة والتجارة، وتدمير قوة رأس المال».

وهذا مريح - فيما عدا حقيقة أنَّ هؤلاء الخبراء كانوا لا يتحدثون عن خطر الصراع الصيني الأمريكي في العقد الأول في الألفية الثانية. فكلهم كانوا يكتبون بين عامي (١٩١٠ و١٩١٤م)، مؤكِّدين علىٰ أنَّ شبكة العالم الحديث المعقدة من التجارة والاقتصاد تستبعد أي احتمال لحرب قوىٰ كبرىٰ في أوروبا. ونعرف جميعًا كيف تغيَّر كل ذلك.

ولعلَّ رجال الدولة في العالم سوف يسحبوننا من حافة هاوية إلىٰ حافة هاوية أخرىٰ. ربما يمكننا تفادي حرب نووية مثل عام ١٩١٤م لجيل آخر، وربما طوال خمسين عامًا. ولكن هل من الواقعي أنَّه يمكننا أن نبقي القنبلة بعيدًا عن أيدي الإرهابيين والدول المارقة إلىٰ الأبد؟ أو ردع كل زعيم، بغض النظر عن المصلحة الوطنية، من اتخاذ قرار بأنَّ الحرب النووية هي أفضل خيار؟ وحتىٰ إذا قمنا بحدِّ الانتشار لمعدله الحالي، فبحلول عام ٢٠٦٠م سيكون هناك ما يقرب من عشرين قوىٰ نووية، العديد منها في قوس عدم الاستقرار.

في كل عام نتجنب فيه وقوع حرب نووية شاملة، تتزايد تهديدات فرسان الهلاك. وسيتصاعد الضغط علىٰ الموارد، وستنشأ أمراض جديدة وتنتشر الأسلحة النووية وستحوِّل -أخبث الأشياء بين الجميع- الغرابة العالمية المتغيِّرات بشكل يصعب التنبؤ به. ويبدو متفائلًا بجنون الاعتقاد بأنَّنا يمكننا أن نتحايل علىٰ جميع هذه المخاطر إلىٰ أجل غير مسمىٰ.

ويبدو أنَّنا نقترب من سقف صلب جديد. عندما واجه الرومان صعوبات مع السقف الصلب الأصلي في القرن الحادي والعشرين، واجهوا نتيجتين محتملتين: ربما يجدون مخرجًا، وفي هذه الحالة سيقفز التطور الاجتماعي لأعلىٰ، وربما لا يجدون مخرجًا، وفي هذه الحالة سيعيق فرسان الهلاك تقدمهم. وقد بدأ إخفاقهم فترة تدهور لمدة ستة قرون، ممَّا هبط بأكثر من ثُلث التطور الاجتماعي. وفي القرن الحادي عشر، عندما بلغت سونغ الصينية السقف الصلب نفسه، فشلت هي الأخرىٰ في اختراقه وسقط التطور بمقدار حوالي السُدس بين عامي ١٢٠٠ و١٤٠٠م.

وبينما نضغط ضد سقف صلب جديد في القرن الحادي والعشرين، نواجه الخيارات نفسها ولكن بشكل أكثر صرامة. عندما فشل الرومان والسونغ في إيجاد حلول، كان لديهم الرفاهية النسبية المتمثلة في التدهور البطيء علىٰ مدىٰ عدة قرون، ولكننا لن نكون محظوظين جدًّا مثلهم. هناك العديد من المسارات الممكنة التي قد يتبعها مستقبلنا، ولكن مهما اتجهت يبدو أن معظمها يؤدي في نهاية المطاف إلىٰ المكان نفسه: الغسق.

إنَّ ما سيعنيه التفرُّد للهيمنة الغربية هو محل جدال، ولكن ما سيعنيه الغسق يبدو أكثر وضوحًا. في عام ١٩٤٩م، قال أينشتاين لصحافي: «أنا لا أعرف كيف سيكون القتال في الحرب العالمية الثالثة، ولكن يمكنني أن أخبرك ما الذي سيستخدمونه في الحرب العالمية الرابعة - الصخور». بعد حلول الغسق، لن يهيمن أحد.

السباق الكبير

إنَّ التحدث إلىٰ شبح عيد الميلاد الماضي يؤدي إلىٰ استنتاج مثير للخوف: سيكون القرن الحادي والعشرين بمثابة سباق. يكمن في حارة واحدة نوع من التفرُّد، وفي أخرىٰ يكمن الغسق. أحدهما سيفوز وسيخسر الآخر. لن تكون هناك ميدالية فضية. فإما أن نبدأ تحولًا أعمق من الثورة الصناعية (ربما قبل عام ٢٠٥٠م)، الأمر الذي قد يجعل معظم مشاكلنا الحالية غير ذات صلة، وإما أن نتعثر في انهيار لا مثيل له. ومن الصعب أن نتصوَّر كيف يمكن أن يتجلىٰ أي مآل -حل وسط- علىٰ سبيل المثال، يحصل فيه الجميع علىٰ صين أكثر ثراءً تتفوّق تدريجيًّا علىٰ الغرب، مع استمرار الأشياء فيما عدا ذلك كما كانت عليه من قبل.

وهذا يعني أنَّ الأربعين عامًا القادمة ستكون هي الأهمّ في التاريخ.

إنَّ ما يحتاجه العالم لتجنب الغسق ليس لغزًا حقًّا. وتتمثَّل الأولوية القصوىٰ في تجنب اندلاع حرب نووية شاملة، والسبيل لتحقيق ذلك هو تقليل الدول العظمىٰ لترساناتها النووية. ومن المفارقات أنَّ السعي إلىٰ نزع السلاح بالكامل قد يكون أخطر؛ لأنَّ الأسلحة النووية لا يمكن قفل باب الاختراع فيها. فالدول الكبرىٰ تستطيع دائمًا بناء قنابل جديدة علىٰ عجل، وسيتجاهل الأشرار -الإرهابيون وحكَّام الدول المارقة- جميع الاتفاقيات في كل الأحوال. وسيزيد الانتشار من خطر أن تصبح الحروب نووية عبر الثلاثين إلىٰ الأربعين سنة القادمة، لكن أكثر الأوضاع استقرارًا سيكون حيث تمتلك الدول الكبرىٰ ما يكفي من الأسلحة لردع العدوان لكن ليس بما يكفي لقتلنا جميعًا.

تتحرك القوىٰ النووية القديمة -الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا وفرنسا والصين- في هذا الاتجاه منذ فترة الثمانينيات. وفي أثناء الحرب الباردة، قام عالم الرياضيات الشهير وداعية السلام وخبير الأرصاد الجوية (إلىٰ أن ترك بحوث الجو بعد أن أدرك مدىٰ مساعدتها للقوات الجوية) لويس فراي ريتشاردسون بحسابات انتشرت علىٰ نطاق واسع ذكرت أنَّ هناك احتمالية بمقدار ١٥ - ٢٠٪ لنشوب حرب نووية قبل عام ٢٠٠٠م. وفي عام ٢٠٠٨م، استطاع عالم الطاقة فاتسلاف سميل تقديم تقدير إيجابي يقدِّر بأنَّ فرصة اندلاع صراع علىٰ نفس نطاق الحرب العالمية الثانية (قتل ٥٠ مليون شخص) قبل عام ٢٠٥٠م كانت أقل بكثير من ١٪، وفي يناير ٢٠١٠م حرَّكت نشرة علماء الذرة عقرب الدقائق في «ساعة الهلاك» المشهورة -مشيرة إلىٰ مدىٰ اقترابنا من الغسق- من خمس دقائق إلىٰ ست دقائق قبل منتصف الليل.

والأولوية الثانية هي إبطاء الغرابة العالمية. وهنا لا تسير الأمور علىٰ ما يرام. في عام ١٩٩٧م تجمعت النماذج التي يحتذىٰ بها في مدينة كيوتو للتوصل إلىٰ حل، واتفقوا علىٰ أنَّه في عام ٢٠١٢م يجب خفض انبعاثات الغازات الدفيئة إلىٰ ٥,٢٪ أقل من معدلاتها في عام ١٩٩٠م. لكنَّ التخفيضات المقترحة، وقعت -غالبًا- علىٰ الدول الغربية الغنية، ورفضت الولايات المتحدة -أكبر ملوث في العالم في فترة التسعينيات- المصادقة علىٰ بروتوكول كيوتو. وبدا ذلك للعديد من النقَّاد (كما صاغه مسؤول هندي) مثل: «رجال ذوي سِمنة جسيمة يطلبون من الآخرين الذين خرجوا لتوهم من حالات هُزال البدء في حمية قاسية»، لكنَّ صانعي السياسة الأمريكية ردّوا بأنَّ الانبعاثات لا يمكن السيطرة عليها إلَّا إذا لم تقم الهند والصين (اللتان حلّتا في عام ٢٠٠٦م محلّ الولايات المتحدة باعتبارهما أكبر ملوثتين في العالم) بخفض الانبعاثات أيضًا.

وفي عام ٢٠٠٨م، كانت كل من الولايات المتحدة والصين مهتمتين بالتغيير، ولكنَّ الإرادة السياسية اللازمة للتوصل إلىٰ اتفاقات شاملة بدت منعدمة. ويقدِّر مؤلفو تقرير "tern Review" أنَّ نوع التقنيات منخفضة الكربون، وحفظ الغابات وكفاءة الطاقة التي يمكنها تفادي الكارثة بالإبقاء علىٰ مستويات الكربون

عند ٤٥٠ جزءًا في المليون بحلول عام ٢٠٥٠م - ستبلغ حوالي تريليون دولار. وبالمقارنة بأسعار عدم فعل شيء تبدو هذه التكلفة زهيدة، ولكن مع كون إيراداتهم في مهب الريح بعد الأزمة الاقتصادية عامي ٢٠٠٧ - ٢٠٠٩م؛ فإنَّ الكثير من الحكومات أحجمت عن الخطط المكلِّفة لخفض الانبعاثات ولم يسفر مؤتمر قمة كوبنهاغن في ديسمبر عام ٢٠٠٩م عن أي اتفاق مُلزِم.

وعلىٰ الرغم من الاختلافات الواضحة، تمثِّل كل من الحرب النووية والغرابة العالمية المشكلة نفسها. فعلىٰ مدىٰ خمسة آلاف سنة، ظلَّت الدول والإمبراطوريات هي التنظيمات الأكثر فعالية علىٰ الأرض، لكنَّ التطور الاجتماعي قد غيَّر معنىٰ الجغرافيا، ومن ثمَّ أصبحت هذه التنظيمات أقل فعالية. وقد لخّص ذلك توماس فريدمان في عام ١٩٩٩م: «لقد قلص أول عصر للعولمة [حوالي ١٨٧٠ - ١٩١٤م] العالم من الحجم «الكبير» إلىٰ الحجم «المتوسط»، ولكنَّ عصر العولمة هذا [منذ عام ١٩٨٩م] قلَّص العالم من الحجم «المتوسط» إلىٰ الحجم «الصغير»». وبعد ست سنوات تمادىٰ التقلص إلىٰ حد بعيد لدرجة أن عرَّف فريدمان مرحلة جديدة باسم «العولمة ٣,٠»، واقترح أنَّ «هذه العولمة تقلِّص العالم من الحجم الصغير إلىٰ الحجم الدقيق وتمهِّد الساحة في الوقت نفسه».

في هذا العالم الدقيق والمنسحق لم يعد هناك مكان للاختباء. إنَّ الأسلحة النووية وتغيُّر المناخ (ناهيك عن الإرهاب والمرض والهجرة والاقتصاد والأغذية وإمدادات المياه)، هي مشاكل عالمية تتطلب حلولًا عالمية. ولا تستطيع الدول والإمبراطوريات التي لها السيادة داخل حدودها فقط التصدي لها بفعالية.

وأشار أينشتاين إلىٰ الحل البديهي بعد أقل من شهر من تدمير القنابل الذرية لهيروشيما وناغازاكي في عام ١٩٤٥م، فقد أخبر صحيفة نيويورك تايمز: «يكمن الخلاص الوحيد للحضارة والجنس البشري في إنشاء حكومة عالمية»، ومع السخرية منه علنًا باعتباره عالمًا ساذجًا يتدخل في شؤون لا يفهمها، فقد أوضح أينشتاين وجهة نظره بوضوح أكثر: «إذا كانت فكرة حكومة عالمية غير واقعية، فهناك رؤية واحدة واقعية لمستقبلنا: دمار شامل من قِبل الإنسان لأخيه الإنسان».

وبالنظر إلىٰ الوراء عبر الخمسة عشر ألف سنة الأخيرة، سيبدو أنَّ أينشتاين

قد حكم علىٰ مسار التاريخ بشكل صحيح. فمنذ قرىٰ العصر الحجري وعبر الدول المبكرة مثل أوروك وشانغ، والإمبراطوريات مثل آشور وتشين، والإمبراطوريات المحيطية مثل الإمبراطورية البريطانية، كان هناك اتجاه واضح نحو وحدات سياسية أكبر. وتبدو النتيجة المنطقية لذلك هي قيام إمبراطورية عالمية أمريكية في مطلع القرن الحادي والعشرين، أو -في الوقت الذي يميل فيه التوازن الاقتصادي ضد الغرب- إمبراطورية صينية عالمية في منتصف أو أواخر القرن الحادي والعشرين.

المشكلة مع هذا المنطق، هي أنَّ هٰذه الوحدات السياسية الأكبر نشأت دائمًا من خلال الحرب، وهذا بالتحديد ما يُفترض أن تمنعه الحكومة العالمية التي اقترحها أينشتاين. وإذا كانت الطريقة الوحيدة لتفادي نشوب حرب نووية عالمية، وإذا كانت الطريقة الوحيدة لإنشاء حكومة عالمية هي من خلال حرب نووية صينية أمريكية؛ فإنَّ التوقعات غير مبشرة.

وفي الحقيقة، فإنَّ أيًا من هذه المقترحات حقيقي تمامًا. فمنذ عام ١٩٤٥م، اتخذت المنظمات غير الدولية مزيدًا من المهام. وتتراوح هذه المنظمات من الجمعيات الخيرية والشركات المتعددة الجنسيات الخاصة التي تعمل تحت مظلة الدول والفيدراليات مثل الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة ومنظمة التجارة العالمية التي تؤثر في سيادة الدول. ولا تزال الدول بالتأكيد هي الضامن للأمن (لم تفعل الأمم المتحدة أفضل من عصبة الأمم في وقف الحروب)، والاقتصاد (في عامي ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩م تطلب الأمر ضمانات لإنقاذ الرأسمالية)، وهي لن تختفي قريبًا؛ ولكن أنجع وسيلة لإيقاف الغسق لمدة أربعين عامًا أخرىٰ ربما تكون بإيقاع الدول بشكل أعمق مع المنظمات غير الدولية ممَّا سيجبر الحكومات علىٰ تسليم جزء من سيادتها مقابل حلول قد لا تتمكن من الوصول إليها بشكل مستقل.

سيكون ذلك عملًا فوضويًا، ومثلما حدث كثيرًا في الماضي، سوف تستدعي تحديات جديدة فكرًا جديدًا. ولكن حتىٰ إذا نجحنا في نصف القرن

القادم في إنشاء مؤسسات يمكن أن تجد حلولًا عالمية للمشاكل العالمية، فسيكون ذلك ظرفًا ضروريًا أكثر من كونه شرطًا كافيًا لكي يفوز التفرُّد بالسباق.

وربما نقارن موقفنا مع ما حدث في كل من القرن الأول والحادي عشر والسابع عشر، عندما ضغط التطور الاجتماعي علىٰ السقف الصلب عند (٤٣ نقطة) علىٰ المؤشر. وأشرت في الفصل الحادي عشر إلىٰ أنَّ السبيل الوحيد لاختراق الرومانيين أو السونغ لهذا السقف في القرن الأول والحادي عشر هو بفعل ما فعلته أوروبا والصين في القرن السابع عشر: أي إعادة تشكيل الجغرافيا بإغلاق طريق السهول السريع وإنشاء طريق سريع عبر المحيط. وعندئذ فقط حققوا لأنفسهم الأمان من الهجرات، وأثاروا أنواع الأسئلة التي استدعت ثورة علمية، وبدؤوا في إنشاء أنواع الحوافز التي أدت إلىٰ ثورة صناعية. وبطبيعة الحال، لم يستطع الرومان ولا السونغ فعل ذلك، وفي غضون بضعة أجيال من الهجرة والمرض والمجاعة وفشل الدولة اتحدت جميعًا مع تغيُّر المناخ لتطلق انهيارات أوروبا الآسيوية واسعة النطاق.

عندما قام الأوروبيون والصينيون بإعادة هيكلة الجغرافيا في القرن السابع عشر قاموا بدفع السقف الصلب لأعلىٰ، رغم أنهم -كما رأينا في الفصل التاسع- لم يحطموه. وبحلول (١٧٥٠م) كانت المشاكل تتزايد مرة أخرىٰ، ولكن في ذلك الوقت استخدم رواد الأعمال البريطانيون الوقت الذي وفرته إعادة الهيكلة الجغرافية لبدء ثورة في الحصول علىٰ الطاقة.

في القرن الحادي والعشرين نحن بحاجة لاتباع مسار مشابه. يجب أولًا إعادة تشكيل الجغرافيا السياسية لإفساح المجال أمام المؤسسات العالمية التي قد تبطئ الحرب والغرابة العالمية، كما يجب علينا استغلال الوقت الذي اكتسبناه للقيام بثورة جديدة في مجال الحصول علىٰ الطاقة، ممَّا سيؤدي إلىٰ تحطيم سقف الوقود الأحفوري. لكنَّ مواصلة حرق النفط والفحم كما فعلنا في القرن العشرين ستجلب الغسق حتىٰ قبل نفاد الهيدروكربونات.

ويوصي بعض علماء البيئة بنهج مختلف، ويحثوننا علىٰ العودة إلىٰ أبسط أنماط الحياة التي تقلل استخدام الطاقة لفترة كافية لوقف الغرابة العالمية، ولكن

من الصعب أن نتصوَّر كيف يمكن القيام بذلك. من المحتمل أن يرتفع سكان العالم لثلاثة مليارات أخرىٰ قبل أن يرتفع إلىٰ ٩ مليارات بحلول عام ٢٠٥٠م، ومن المرجح أنَّ مئات الملايين من هؤلاء سيكبرون في فقر مدقع، مستخدمين المزيد من الطاقة في أثناء ذلك. ويشير ديفيد دوغلاس، رئيس شؤون الاستدامة في شركة «صن مايكروسيستمز»، إلىٰ أنَّه إذا امتلك كل هؤلاء الأشخاص الجدد مصباحًا كهربائيًا بقوة ٦٠ واطًا، وإذا استخدمه كل منهم أربع ساعات فقط يوميًا، سيظل العالم بحاجة إلىٰ تشغيل ٦٠ محطة كهرباء بقوة ٥٠٠ ميغاواط. وتتوقع وكالة الطاقة الدولية زيادة الطلب العالمي علىٰ النفط من ٨٦ مليون برميل يوميًا في عام ٢٠٠٧ م إلىٰ ١١٦ مليون برميل في عام ٢٠٣٠م، وحتىٰ حينئذٍ سيظل هناك ١,٤ مليار نسمة دون كهرباء، حسب تقديراتهم.

إنَّ الأزمة المزدوجة المتمثلة في تضاعف فقراء العالم والسعي نحو الثراء في أثناء تضاعفهم تجعل من غير المرجح أن ينخفض الحصول علىٰ الطاقة علىٰ مدىٰ الخمسين عامًا المقبلة. وإذا استخدمنا طاقة أقل للأسمدة أو للوقود لنقل المواد الغذائية، سيموت مئات الملايين من الفقراء جوعًا، الأمر الذي ربما يجلب الغسق أسرع من أي شيء. لكن إذا لم يمت الناس جوعًا، سيطالبون بالمزيد والمزيد من الطاقة. وفي الصين وحدها، تنطلق ١٤ ألف سيارة جديدة علىٰ الطرق يوميًا، وسوف يهرب ما يقدر بنحو ٤٠٠ مليون شخص (أكثر من مجموع سكان الولايات المتحدة) من مزارع الطاقة المنخفضة للمدن ذات الطاقة العالية بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٣٠م، وسيزيد عدد المسافرين الذين يقضون عطلاتهم في الخارج، ممَّا سيؤدي إلىٰ احتراق وقود الطائرات والإقامة في الفنادق، من ٣٤ مليونًا عام ٢٠٠٦م إلىٰ ١١٥ مليونًا في عام ٢٠٢٠م علىٰ الأرجح.

نحن لن نخفض استهلاك الطاقة إلا إذا أجبرتنا كارثة علىٰ ذلك - ما يعني أنَّ السبيل الوحيد لتجنب نفاد الموارد، وتسمُّم الكوكب، أو كليهما، سيكون بالاستفادة من مصادر الطاقة المتجددة، أي الطاقة النظيفة.

ربما تكون الطاقة الذرية جزءًا كبيرًا من تلك السيرورة. لقد أعاقت مخاوف الإشعاع البرامج النووية منذ فترة السبعينيات، لكنَّ تلك المخاوف قد تتلاشىٰ

عندما يمتلك العصر الجديد الفكر الجديد. أو ربما ستكون الطاقة الشمسية أكثر أهمية: نصف مليار من الطاقة التي تنبعث من الشمس تأتي إلىٰ الأرض، وثُلث ذلك ينعكس مرة أخرىٰ. وعلىٰ الرغم من ذلك، يصلنا ما يكفي من الطاقة الشمسية كل ساعة لتشغيل الاحتياجات البشرية الحالية كافَّةً لمدة عام - إذا استطعنا استغلالها بفعالية. أو بدلًا من ذلك، قد تحرِّر تكنولوجيا النانو وعلم الوراثة مصادر جديدة للطاقة جذريًا. يبدو معظم ذلك بالطبع خيالًا علميًا، ومن المؤكَّد أنَّ الأمر سيتطلب قفزات تقنية هائلة ليبشِّر بعصر وافر بالطاقة النظيفة. ولكن إذا لم نقم بمثل هذه القفزات، وفي أسرع وقت، سوف يفوز الغسق بالسباق.

ولكي ينتصر التفرُّد، نحتاج إلىٰ الإبقاء علىٰ كلاب الحرب مقيَّدة، وأن نتدبر أمر الغرابة العالمية، وأن نقوم بثورة للحصول علىٰ الطاقة. ويجب أن يسير كل شيء بشكل صحيح. ولكي يفوز الغسق يجب أن يسير شيء ما بشكل خاطئ. إنَّ الاحتمالات تبدو سيئة.

شكل الأشياء القادمة

يعتقد بعض العلماء أنَّهم علىٰ دراية بمن سيفوز في السباق؛ لأنّ النتيجة حتميةٌ. في يوم ما في حوالي عام ١٩٥٠م (لا أحد يتذكر متىٰ بالضبط) تقابل الفيزيائي إنريكو فيرمي وثلاثة من زملائه لتناول الغداء في مختبر لوس ألاموس الوطني في نيو مكسيكو. بعد الضحك علىٰ رسوم كاريكاتورية في صحيفة نيويركر تُظهر طبقًا طائرًا، انتقلوا إلىٰ الحديث عن الكائنات الفضائية عمومًا قبل انتقالهم إلىٰ المواضيع العلمية الأكثر تقليدية. انفجر فيرمي فجأة قائلًا: «ولكن أين هم؟».

استغرق زملاء فيرمي لحظة أو لحظتين لإدراك أنه كان لا يزال قلقًا بشأن رجال الفضاء. وبتمرير أعداد قليلة في رأسه أثناء الأكل، صدمه أنه حتىٰ إذا كانت نسبة صغيرة من الـ ٢٥٠ مليار نجم في مجرتنا لديها كواكب صالحة للسكن فحتمًا أنَّ الفضاء يعجّ بالأجانب. إنَّ الأرض حديثة نسبيًا، بعمر أقل من خمسة مليارات سنة؛ لذا فإنَّ بعض هذه الأنواع يجب أن يكون أقدم وأكثر تطورًا. وحتىٰ لو كانت سفنهم الفضائية أبطأ من سفننا، فلا بُدَّ أنَّ الأمر استغرق علىٰ الأكثر ٥٠ مليون سنة لاستكشاف المجرة بالكامل. فأين كانوا؟ ولماذا لم يتصلوا بنا؟

في عام ١٩٦٧م، قدَّم عالما الفلك لوسيف شيكلوفسكي وكارل ساغان حلًا واضحًا لمفارقة فيرمي. إذا كان ثمة كوكب مأهول يدور حول نجمة واحدة بين كل ربع مليون نجمة، فقد حسبوا أنَّه ستكون هناك مليون حضارة أجنبية محتملة في درب التبانة. وحقيقة أننا لم نسمع عن أي منهم، كما استنتج شيكلوفسكي وساغان، تعني بالضرورة أنَّ الحضارات الأكثر تقدمًا دائمًا ما تدمر نفسها. وأشار

علماء الفلك أنَّهم يجب أن يفعلوا ذلك في غضون قرن من اختراع الأسلحة النووية، وإلَّا سيكون لدىٰ الفضائيين متسع من الوقت لملء الكون بالإشارات التي سنلتقطها. إذن، تشير جميع الأدلة (أو -علىٰ وجه الدقة- قلّتها) إلىٰ حدوث الغسق بحلول عام ٢٠٤٥م، الذكرىٰ المئوية لهيروشيما وناغازاكي. (ومن خلال مصادفة مقلقة، فإنَّ عام ٢٠٤٥م هو العام الذي رُشّح لجائزة فيه كيرزويل من أجل التفرُّد).

إنَّها حُجة ذكية، ولكن وكما هو الحال دائمًا، هناك أكثر من طريقة لحساب الأرقام. فاندفاع مليون حضارة نحو الغسق هو مجرد تخمين، وحلول معادلة دريك (المتخيلة بواسطة عالم الفلك فرانك دريك في عام ١٩٦١م، باعتبارها طريقة معقدة لحساب عدد الحضارات في المجرة) تولِّد في الحقيقة إحرازات أقل بكثير. لقد حسب دريك أنَّ مجرتنا أنتجت حوالي ١٠ حضارات متطورة علىٰ مدىٰ تاريخها كله، وفي هذه الحالة يمكن أن يكون الفضائيون متواجدين دون أن نعرف.

وفي النهاية، فإنَّ مفارقة فيرمي ليست مفيدة جدًّا؛ لأنَّ الإجابة عن كيفية انتهاء السباق الكبير لا تكمن في النجوم وإنَّما في ماضينا. وحتىٰ لو أنَّ التاريخ لا يستطيع أن يمنحنا الأدوات الدقيقة للتنبؤ التي تصورها أسيموف في روايات «المؤسسة»، فإنَّه يوفر إرشادات قوية إلىٰ حد ما. وأظن أنَّ هذا هو الأساس الحقيقي الوحيد للنظر نحو المستقبل.

وعلىٰ المدىٰ القصير، فإنَّ الأنماط المتحققة في الماضي تشير إلىٰ أنَّ تحوُّل الثروة والسلطة من الغرب إلىٰ الشرق هو أمر متعذر. لقد أتاح تحول المركز الشرقي القديم إلىٰ طرف غربي في القرن التاسع عشر اكتشاف المزايا في تخلفه، ويُعدّ آخرها -اندماج القوة العاملة الفقيرة الكبيرة للصين في الاقتصاد الرأسمالي- لا يزال جاريًا. وربما يعيق كل من الفساد والانقسامات الداخلية والحروب الخارجية الصين، كما فعلت تلك الأشياء في كثير من الأحيان بين أربعينيات القرن التاسع عشر وسبعينيات القرن العشرين، ولكن عاجلًا أم آجلًا -علىٰ الأرجح بحلول عام ٢٠٣٠م، وبالتأكيد عام ٢٠٤٠م- سوف يتفوق إجمالي

الناتج المحلي للصين علىٰ ناتج الولايات المتحدة. وفي مرحلة ما من القرن الحادي والعشرين ستستخدم الصين مزايا تخلفها، ولكن عندما يحدث ذلك سيظلّ مركز الثقل الاقتصادي للعالم في الشرق علىٰ الأرجح، متوسعًا ليشمل جنوب وجنوب شرق آسيا. إنَّ تحوُّل السلطة والثروة من الغرب إلىٰ الشرق في القرن الحادي والعشرين هو علىٰ الأرجح أمر حتمي بنفس قدر التحوُّل من الشرق إلىٰ الغرب الذي حدث في القرن التاسع عشر.

وسيكون التحول من الغرب إلىٰ الشرق بالتأكيد أسرع من أي تحول في التاريخ، ولكن المركز الغربي القديم لديه حاليًا تقدم كبير في الحصول علىٰ الطاقة لكل فرد، والتكنولوجيا والقدرات العسكرية، ويكاد يكون من المؤكد أنه سيحافظ علىٰ هيمنته بشكل ما خلال النصف الأول من هذا القرن. وطالما أنَّ الولايات المتحدة قوية بما فيه الكفاية لتمثِّل دور الشرطي العالمي، فستكون الحروب الضخمة نادرة كما كانت عندما كانت بريطانيا هي الشرطي العالمي في القرن التاسع عشر. ولكن بداية من مكان ما بين عامي ٢٠٢٥ و٢٠٥٠م، ستتضاءل هيمنة أمريكا علىٰ بقية العالم، كما تضاءلت هيمنة بريطانيا بعد عام ١٨٧٠م، وستزداد مخاطر نشوب حرب عالمية جديدة.

وربما تضيف سرعة التغيُّر التكنولوجي من حالة عدم الاستقرار عن طريق إتاحة الوصول إلىٰ الأسلحة المتطورة بشكل أكثر سهولة. ووفقًا لستيفن ميتز، أستاذ في الكلية الحربية الأمريكية: «إن لم نرَ تقنيات متطابقة، فسنرىٰ تقنيات متشابهة [خارج الولايات المتحدة]، خاصة بسبب الطبيعة الجاهزة لكل شيء. لقد وصلنا إلىٰ المرحلة التي لا يحتاج فيها الأشرار لتطوير أسلحتهم؛ وإنما يمكنهم شراؤها فحسب». وأشار تقرير مؤسسة «راند» في عام ٢٠٠١م إلىٰ أنَّه «يجب أن تأخذ الولايات المتحدة وجيشها في الحسبان في تخطيطها لصراع عسكري محتمل إمكانية أنَّ الصين قد تكون متقدمة تكنولوجيًا وعسكريًا أكثر بحلول عام ٢٠٢٠م».

وستكون الولايات المتحدة علىٰ الأرجح أول دولة تطوِّر درعًا وظيفيًا مضادًا للصواريخ بالإضافة إلىٰ الروبوتات وأسلحة النانو التي تجعل المقاتلين البشريين

شيئًا من الماضي، وتكنولوجيا المعلومات التي تستطيع تحييد العدو أو السيطرة علىٰ الحواسيب والروبوتات، والأقمار الصناعية التي ستؤدي إلىٰ عسكرة الفضاء. وتتمثّل إحدىٰ المخاطر في ما إذا -كما يبدو محتملًا- استطاعت الولايات المتحدة نشر بعض أو جميع هذه الأسلحة قبل عام ٢٠٤٠م، فإنَّ قادتها ربما يغريهم استغلال التكنولوجيا المؤقتة والهائلة لعكس اتجاه تدهورهم الاستراتيجي طويل المدىٰ؛ لكنني أظن أنَّ ذلك أمر مستبعد. فحتىٰ في الأجواء العصيبة أوائل الخمسينيات قاومت الولايات المتحدة إغراء ضرب الاتحاد السوفيتي قبل أن تتمكَّن من بناء ترسانة نووية. ربما يكمن الخطر الحقيقي في أنَّ الدول الأخرىٰ، خوفًا من الإنجازات العسكرية الأمريكية في العقود القليلة القادمة، قد تفضل أن تكون لها الضربة الأولىٰ علىٰ أن تتخلف أكثر من ذلك. وقد لعب هذا النوع من التفكير دورًا كبيرًا في جرّ ألمانيا إلىٰ الحرب في عام ١٩١٤م.

يتطلب الأمر حنكةً فائقة لحفظ السلام في القرن الحادي والعشرين المحيِّر. ولقد جادلتُ في جميع فصول هذا الكتاب أنَّ الرجال العظماء والنساء العظيمات، والأغبياء البلهاء لم يلعبوا أبدًا دورًا كبيرًا في تشكيل التاريخ مثلما اعتقدوا أنهم فعلوا ذلك. وأشرتُ إلىٰ أنَّه بدلًا من تغيير مسار التاريخ، فإنَّ أقصىٰ ما استطاعوا فعله هو تسريع أو إبطاء السيرورات الأعمق التي قادتها الخرائط. وحتىٰ أكثر القرارات كارثية، مثل الحروب التي شنَّها جستنيان إمبراطور بيزنطة وخسرو ملك فارس بين عام ٥٣٠ و٦٣٠ ق. م، فقد سارعت فقط من انهيار كان قد بدأ بالفعل. ومن دون حروب جستنيان وخسرو، لبدأ التطور الاجتماعي في التعافي في أسرع وقت ممكن، لكن حتىٰ مع تلك الحروب، لم ينتعش التطور في النهاية.

ومنذ عام ١٩٤٥م، كان للزعماء حقًا القدرة علىٰ تغيير التاريخ. وقد اقترب كل من خروتشوف وكينيدي من القيام بذلك في عام ١٩٦٢م. لا تترك لنا الأسلحة النووية هامش خطأ؛ إذ لا توجد فرصة ثانية. كانت الأخطاء في الماضي تؤدي إلىٰ تدهور وسقوط، أما الآن فهي تسبب الغسق. ولأول مرة في التاريخ تكون القيادات حاسمة هنا. ولا يسعنا إلَّا أن نأمل أن يحصل عصرنا، شأنه في ذلك شأن معظم العصور قبله، علىٰ الفكر الذي يحتاجه.

لقد استنتجتُ في الفصل الحادي عشر أن تفسيرات لماذا يهيمن الغرب يجب تحديدها من ناحية الاحتمالات لا الثوابت، وذلك أصح في سباق القرن الحادي والعشرين الكبير. والآن، تبدو الاحتمالات ضدنا، ولكن يبدو لي أنَّ عصرنا قادر علىٰ الحصول علىٰ الفكر الذي يحتاجه، وأنَّ الاحتمالات سوف تنتقل باطراد لصالح التفرُّد.

وإذا حلَّت مصادر الطاقة المتجددة والنظيفة محلّ المواد الهيدروكربونية خلال الخمسين سنة المقبلة، فمن شأنها أن تخفض (ولو أنها لن تقضي عليها بالتأكيد) خطر دخول الدول الكبرىٰ في حروب علىٰ الموارد أو الانجرار إلىٰ عداوات في قوس عدم الاستقرار. ومن شأنها أيضًا أن تؤدي إلىٰ إبطاء عملية الغرابة العالمية، ممَّا سيخفض الضغوط داخل القوس، وقد يعزز إنتاج الأغذية بشكل جذري أكثر ممَّا فعلت الثورة الصناعية. وإذا قامت الروبوتات بالتقدم الذي يتوقعه كثير من العلماء، فربما تنقذ الآلات الذكية أوروبا واليابان الثريتين من كارثة ديموغرافية، ممَّا سيوفر العمالة والرعاية الرخيصتين اللتين سيحتاجهما سكانهما المسنون. وبالمثل، إذا حققت تكنولوجيا النانو رواجًا، فربما نبدأ في تنظيف الهواء والمحيطات بحلول أربعينيات القرن الحالىٰ.

غير أنَّه -في نهاية المطاف- ثمة تنبؤ واحد فقط يمكننا أن نعوّل عليه: لن يفوز الغسق ولا التفرُّد في السباق الكبير؛ لأنَّ السباق لن يكون له خطٌّ نهاية. عندما نصل إلىٰ عام ٢٠٤٥م (وهو الوقت التقريبي للوصول إلىٰ التفرُّد، بحسب كيرزويل، وآخر وقت للغسق بحسب شكلوفسكي وساغان، بعد قرن من هيروشيما وناغازاكي)، فلن نصل إلىٰ إعلان نهاية التاريخ وإعلان الفائز. إذا واصلنا -كما أظن أنَّه سيحدث- منع حدوث الغسق في منتصف القرن الحادي والعشرين وكان التطور الاجتماعي آخذًا في الارتفاع متجاوزًا الألفي نقطة، فلن يُنهي التفرُّد الناشئ السباق بقدر تحويله للسباق، وقبل كل شيء تحويل الجنس البشري.

بالنظر إليها من منظور طويل حقًا، فإنَّ التهديدات التي تخيفنا اليوم تبدو متشابهة كثيرًا مع أنواع القوىٰ التي دفعت مرارًا التطور بسرعة كبيرة في الماضي. فالمرة تلو الأخرىٰ، هيأت التغييرات المفاجئة في البيئة ظروفًا تزدهر فيها

الطفرات محولةً البركة الجينية. فقبل حوالي ١,٨ مليون سنة، أتاح جفاف الغابات في شرق أفريقيا لأشخاص غريبي المنظر ذوي أدمغة كبيرة أن يتفوقوا علىٰ هومو هابيليس. وربما منحت مرحلة وحشية في العصر الجليدي منذ نحو مائة ألف عام الهومو سابينيس فرصة مكافئة ليتألقوا. والآن، في القرن الحادي والعشرين، فإن شيئًا مماثلًا يحدث مرة أخرىٰ.

فالانقراض الجماعي يسير علىٰ قدم وساق عن طريق اختفاء أحد أنواع النباتات أو الحيوانات البرية كل عشرين دقيقة تقريبًا. وقدَّرت دراسة أُجريت عام ٢٠٠٤م بأنَّ النتيجة المحتملة الأكثر بهجة هي أنَّ ٩٪ من ١٠ ملايين نوع من أنواع النباتات والحيوانات البرية سوف تواجه الانقراض بحلول عام ٢٠٥٠م، ويتوقع الكثير من البيولوجيين انكماش التنوع الحيوي بنسبة تصل إلىٰ الثُلث أو النصف. بل إنَّ بعضهم يتحدث عن سادس انقراض جماعي، بانقراض ثُلثي الأنواع الأرضية بحلول عام ٢١٠٠م. وقد يكون الإنسان من بينها؛ ولكن بدلًا من مجرد تجريف الهومو خارج الكوكب، ربما تلعب الظروف القاسية للقرن الحادي والعشرين دورًا مثل الذي لعبته الظروف منذ ١,٨ مليون أو مائة ألف سنة مضت، الأمر الذي سيخلق فرصة لكائنات حية ذات أنواع جديدة من العقول -وفي هذه الحالة، ستكون عقولًا تدمج الإنسان والآلة- لتحل محل الكائنات الأقدم. وبعيدًا عن سحقنا، ربما يساهم صوت حوافر خيول فرسان الهلاك في تحويل خطواتنا الطفولية نحو التفرُّد إلىٰ قفزة كبيرة.

بيدَ أن التفرُّد يمكن أن يكون مخيفًا بنفس قدر الغسق. في رؤية كيرزويل يبلغ التفرُّد أوجه باندماج ذكاء الإنسان والآلة في أربعينيات القرن الحالي، والذين سيعيشون منا حتىٰ هذه اللحظة قد يعيشون إلىٰ الأبد؛ لكنَّ بعض الأشخاص الذين يملكون خبرة في هذا الأمر -خبراء التقنية في جيش الولايات المتحدة- يشكّون في أنَّ الأمور ستتوقف عند هذه النقطة. يعتقد العقيد السابق توماس آدامز، علىٰ سبيل المثال، أنَّ الحرب تتجاوز «الفضاء الإنساني بالفعل»؛ نظرًا لأنَّ الأسلحة أصبحت «سريعة جدًّا، وصغيرة جدًّا وكثيرة جدًّا . . . وتهيئ بيئة معقدة لا يستطيع الإنسان السيطرة عليها»، ويشير إلىٰ أنَّ: «التكنولوجيا تأخذنا

سريعًا إلىٰ مكان قد لا نرغب في الذهاب إليه، ولكن ربما لا نستطع تجنبه». وقد يكون دمج البشر والحواسيب مرحلة قصيرة قبل أن يحل ما نسميه «الذكاء الاصطناعي» محل هومو سابينيس علىٰ نحو شامل كما حل الهومو سابينيس محل أشباه القرود قبلهم.

إذا كان هذا هو ما سيأخذنا إليه التفرُّد في القرن الحادي والعشرين، سوف يعني ذلك نهاية البيولوجيا كما عرفناها، ومعها ستكون نهاية الكسل والخوف والطمع باعتبارها محركات للتاريخ. وفي هذه الحالة، ستبلغ نظرية موريس -أنَّ التغيير ناجم عن أشخاص كسالىٰ وجشعين وخائفين (الذين نادرًا ما يعرفون ما يفعلونه) يبحثون عن طرق أسهل وأكثر ربحية وأكثر أمنًا للقيام بالأشياء- حدودها القصوىٰ في النهاية.

وسوف يسلك علم الاجتماع كما نعلمه المسار نفسه، رغم أنَّه لا يستطيع أحد التكهن بأنواع الحكَّام الذين سيحكمون مجتمعًا روبوتيًا؛ ويالتأكيد سيمحو التفرُّد الجغرافيا القديمة. ولن تكون الفروق القديمة بين الشرق والغرب ذات صلة بالروبوتات.

وحينما ينظر المؤرخون (إذا ظلوا موجودين) إلىٰ الوراء من عام ٢١٠٣م علىٰ التحول من ذكاء الكربون إلىٰ الذكاء القائم علىٰ السيليكون فربما يصدمهم ذلك كونه حتميًا، وفي الحقيقة هو حتمي مثلما كانت التحولات السابقة من الرعي إلىٰ الزراعة، ومن القرىٰ إلىٰ المدن، ومن الزراعة إلىٰ الصناعة حتميةً. وقد يبدو بمثل الوضوح أنَّ العادات والتقاليد الإقليمية التي تطورت من المراكز الزراعية الأصلية منذ نهاية العصر الجليدي كان مقدرًا لها الاندماج في حضارة عالمية ما بعد بشرية. لذلك، ربما بدا القلق في مطلع القرن الحادي والعشرين بشأن لماذا هيمن الغرب وما إذا كان سيستمر في الهيمنة - سخيفًا.

التقاء الشرق والغرب

ثمة مفارقة في كل ذلك. لقد بدأتُ هذا الكتاب بقصة «ماذا لو» عن أخذ الإمبراطورية الصينية الأمير ألبرت إلىٰ بكين باعتباره رهينة في عام ١٨٤٨م، ثمَّ قضيتُ أحد عشر فصلًا أشرح لماذا لم يحدث ذلك. وخلصت إلىٰ أنَّ الإجابة عن السؤال الرئيس للكتاب، هي الجغرافيا؛ فالخرائط لا الرجال، هي التي أرسلت الكلب الصغير لوتي إلىٰ بالمورال بدلًا من إرسال ألبرت إلىٰ بكين.

وفي هذا الفصل، أخذتُ الجدال إلىٰ حد أبعد مشيرًا إلىٰ أنَّ الإجابة عن سؤال لماذا يهيمن الغرب تجيب أيضًا بشكل كبير عن سؤال ماذا سيحدث بعد ذلك. وبالثقة نفسها التي فرضت بها الجغرافيا هيمنة الغرب، فإنَّها تفرض أيضًا لحاق الشرق بالركب، مستغلًا مزايا تخلفه إلىٰ أن يتفوق تطوره الاجتماعي علىٰ الغرب. لكن هنا نصطدم بمفارقة أخرىٰ. لطالما غيَّر التطور الاجتماعي من معنىٰ الجغرافيا، وفي القرن الحادي والعشرين سيرتفع التطور الاجتماعي عاليًا جدًّا لدرجة أنَّ الجغرافيا لن تعود تعني شيئًا علىٰ الإطلاق. والشيء الوحيد الذي سيصنع الفارق هو السباق بين التفرُّد والغسق. ولمنع حدوث الغسق ينبغي علينا عولمة اهتماماتنا بشكل أكبر، ومن ثمَّ ستصبح جدالاتنا حول أي جزء من العالم لديه التطور الاجتماعي الأعلىٰ أقل أهمية أكثر فأكثر.

ولذا، فإنَّ المفارقة الكبرىٰ: الإجابة عن السؤال الأول للكتاب (لماذا يهيمن الغرب؟) تجيب إلىٰ حدٍّ كبير أيضًا عن السؤال الثاني (ماذا سيحدث بعد ذلك؟)، لكنَّ الإجابة عن السؤال الثاني تُجرِّد الإجابة الأولىٰ من قدر كبير من أهميتها. إن استشراف ما هو قادم يكشف عما كان واضحًا منذ البداية؛ أنَّ

التاريخ المهمّ حقًا ليس التاريخ المعنيّ بالشرق أو الغرب، أو أي فرع آخر للبشرية. إنَّ التاريخ المهمّ هو تاريخ عالمي وتطوري، يحكي قصة تطورنا من كائنات وحيدة الخلية إلىٰ التفرُّد.

وقد جادلتُ طوال الكتاب أنَّه لا النظريات الطويلة المدىٰ الحتمية ولا النظريات قصيرة المدىٰ العَرَضية تفسِّر التاريخ جيدًا، ولكن الآن -مرة أخرىٰ- أريدُ الذهاب إلىٰ ما هو أبعد من ذلك. فعلىٰ المدىٰ الطويل، وعلىٰ النطاق الزمني لتاريخ التطور، لا تهمّ حقًّا النظريات طويلة المدىٰ ولا قصيرة المدىٰ. فمنذ خمسة عشر ألف سنة قبل انتهاء العصر الجليدي، كان كل من الشرق والغرب يعنيان القليل. وبعد قرن من الآن سيعني كل منهما القليل أيضًا. لقد كانت أهميتهما في الحقبة الفاصلة مجرد أثر جانبي للجغرافيا في العصر الذي دفع فيه المزارعون الأوائل التطور الاجتماعي ليتجاوز ست نقاط، ودفعت أول كائنات ما بعد بيولوجية مدعومة آليًا التطور الاجتماعي ليتجاوز الخمسة آلاف نقطة. وفي الوقت الذي سيحدث فيه ذلك -كما أظن- بين عامي (٢٠٤٥ و٢١٠٣م)، لن تعني الجغرافيا الكثير علىٰ الإطلاق. وسيظهر الشرق والغرب باعتبارهما مرحلة مررنا بها فحسب.

وحتىٰ لو سار كل شيء في هذه المرحلة علىٰ أكثر نحو مختلف يمكن تخيله - علىٰ سبيل المثال، إذا ذهب تشنغ فعلًا إلىٰ تينوتشتيتلان، أو إذا كان هناك نوع جديد من اقتصاد المحيط الهادئ بدلًا من الاقتصاد الأطلسي، أو إذا كان هناك ثورة صينية بدلًا من الثورة الصناعية البريطانية، أو إذا توجَّه ألبرت إلىٰ بكين بدلًا من توجُّه لوتي إلىٰ بالمورال - فإن القوىٰ العميقة للبيولوجيا وعلم الاجتماع والجغرافيا كانت لتظل تدفع التاريخ بالاتجاه نفسه. وكانت أمريكا (أو أرض الصين، كما يمكن أن نسميها)، لتصبح جزءًا من المركز الشرقي بدلًا من المركز الغربي، ولكان الغرب الآن في طريقه إلىٰ اللحاق بالشرق وليس العكس، ولكنَّ العالم كان ليتقلص من حجم كبير إلىٰ حجم صغير. وكانت صيمريكا سوف تهيمن علىٰ مطلع القرن الحادي والعشرين، وسواء سقطت أم لا، كان السباق بين الغسق والتفرُّد سيظل مستمرًا، ولظلَّ الشرق والغرب يفقدان أهميتهما.

ولا ينبغي أن تبعث هذه النتيجة علىٰ الصدمة. فمنذ عام ١٨٨٩م، بينما كان العالـم ما يزال يتقلص من حجم كبير إلىٰ حجم متوسط، كان باستطاعة شاعر شاب يدعىٰ روديارد كيبلنج رؤية جزء من الحقيقة نفسها. فمع عودته إلىٰ لندن من خط القتال البعيد، حصل كيبلينج علىٰ فرصته بقصة مدهشة عن بطولة إمبريالية تُعرف باسم «قصيدة الشرق والغرب». إنها قصة عن كمال، أحد الغزاة الحدوديين الذي يسرق فرس كولونيل إنجليزي. ويقفز نجل الكولونيل علىٰ فرسه ويتبع كمال عبر الصحراء في مطاردة ذات أبعاد ملحمية (لقد امتطوا خيولهم في أثناء انخفاض القمر في الأفق، وجلب الصهيل الفجر، وانطلق الفرس مثل الثور الجريح، ولكن مثل غزال وُلِد من جديد). وأخيرًا: هُزم الإنجليزي. أطلق كمال الرصاص عليه بعد أن رفع بندقيته. ولكن كل شيء انتهىٰ بشكل جيد: «نظر الرجلان إلىٰ أعين بعضهما البعض، وهنا لـم يجدَا أي خطأ/ أقسما علىٰ أنهما إخوة في الدم علىٰ خبز مختمر وملح».

إنها كلمات مثيرة للمشاعر، لكنَّ افتتاحية القصيدة -الشرق هو الشرق والغرب هو الغرب ولن يلتقيا أبدًا- هي الأكثر إثارة للاهتمام خاصة من الناس الذين يقتبسونها بوصفها مثالًا علىٰ الرضا الذاتي الذي لا يُحتمل في القرن التاسع عشر. ومع ذلك، لـم يكن ذلك بالتأكيد هو الأثر الذي كان يأمله كيبلينج. فما كتبه في الواقع هو:

«الشرق هو الشرق والغرب هو الغرب ولن يلتقيا أبدًا،

إلىٰ أن تقف السماء والأرض في حضرة يوم الحساب،

ولكن لا يوجد لا شرق ولا غرب ولا حدود ولا نسل ولا ميلاد،

عندما يقف رجلان قويان وجهًا لوجه،

ولو أنهما يأتيان من طرفي الأرض!».

كما رأىٰ كيبلينج الأمر، فإنَّ الناس (الرجال الحقيقيين، علىٰ أية حال) كلهم متشابهون؛ إنَّها الجغرافيا التي تحجب الحقيقة وتتطلب منَّا القيام برحلة إلىٰ أطراف الأرض لاكتشاف الأشياء. ولكن في القرن الحادي والعشرين، فإنَّ التطور الاجتماعي المرتفع والعالم المتقلص يجعلان من هذه الرحلات أشياء غير

ضرورية. لن يكون هناك شرق ولا غرب ولا حدود ولا نسل، ولا ميلاد عندما نتجاوز البيولوجيا. وقد يلتقي الشرق والغرب أخيرًا إذا استطعنا تأجيل الغسق لفترة طويلة.

فهل نستطيع أن نفعل ذلك؟ أعتقد أنَّ الاجابة هي: نعم. إنَّ الفارق الكبير بين التحديات التي نواجهها اليوم وتلك التي هزمت السونغ في الصين عندما ضغطت علىٰ السقف الصلب قبل ألف سنة، والإمبراطورية الرومانية قبل ألف سنة أخرىٰ - هو أنَّنا الآن نعرف الكثير عن المسائل المطروحة. وعلىٰ عكس السونغ والرومان، فإنَّ عصرنا قد يحصل علىٰ الفكر الذي يريده.

في الصفحة الأخيرة من كتابه «الانهيار»، أشار البيولوجي والجغرافي جاريد دياموند إلىٰ أنَّ هناك قوتين ربما تنقذان العالم من الكارثة: علماء الآثار (الذين يكشفون تفاصيل أخطاء المجتمعات السابقة)، والتلفاز (الذي يبث نتائجهم). وباعتباري عالم آثار يُشاهد الكثير من برامج التلفاز، فإنَّني أتفق تمامًا، ولكني أودُّ أيضًا أن أضيف منقذًا ثالثًا: التاريخ. فالمؤرخون فقط هم من بوسعهم جمع السرديات الكبرىٰ للتطور الاجتماعي، وهم فقط من بمقدورهم توضيح الاختلافات التي تُقسِّم البشرية وكيف يمكننا منعها من أن تدمرنا.

وآمل أن يُساعد هذا الكتاب قليلًا في هذه السيرورة.

تذييل: حول التطور الاجتماعي

يُعدّ مؤشر التطور الاجتماعي هو العمود الفقري لهذا الكتاب، حيث يجمع مجموعة الحقائق التي جمعها علماء الآثار والمؤرخون. والمؤشر نفسه لا يفسِّر لماذا يهيمن الغرب، ولكنَّه يوضح لنا نمط التاريخ الذي يحتاج إلىٰ تفسير. وأقدِّم سردًا كاملًا عن المؤشر، للمهتمين بالأساليب والأدلة المفصلة وراء السرديات - علىٰ موقع (www.ianmorris.org)، وهذا التذييل هو مجرد موجز سريع للتحديات التقنية الرئيسة والنتائج الأساسية.

أربعة اعتراضات

أرىٰ أربعة اعتراضات واضحة علىٰ مؤشر التطور الاجتماعي:

(١) إنَّ قياس التطور الاجتماعي ومقارنته في أزمنة وأماكن مختلفة يجرِّد البشر من إنسانيتهم؛ ولذلك لا يجب أن نفعل ذلك.

(٢) قياس المجتمعات ومقارنتها هو إجراء منطقي، ولكنَّ التطور الاجتماعي بالمعنىٰ الذي عرَّفته (قدرات المجتمعات علىٰ إنجاز الأشياء) هو الشيء الخطأ لقياسه.

(٣) يُعدّ التطور الاجتماعي بالمعنىٰ الذي عرَّفته طريقة مفيدة لمقارنة الشرق والغرب، لكنَّ السمات الأربع التي استخدمتها لقياسه (أسر الطاقة، التنظيم/التمدن، القدرة علىٰ صناعة الحرب، والتكنولوجيا) ليست هي الأفضل.

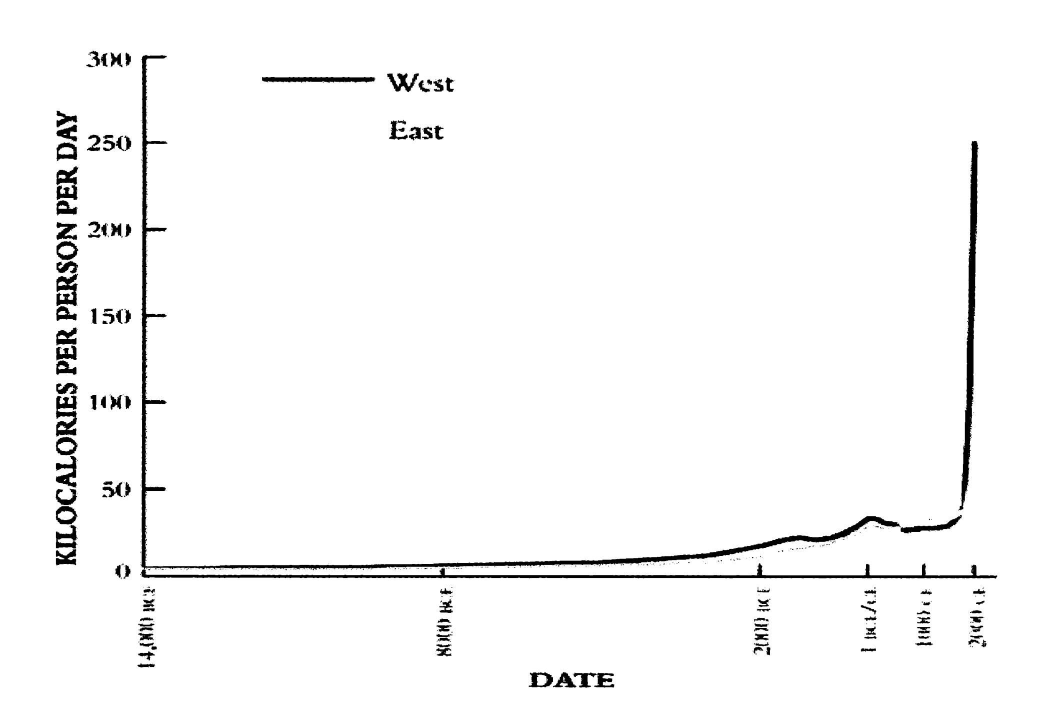
(٤) هذه السمات الأربع هي وسيلة جيدة لقياس التطور الاجتماعي، ولكنني ارتكبتُ أخطاء وقائعية وحصلت علىٰ قياسات خاطئة.

لقد عالجتُ الاعتراض الأول في الفصل الثالث. وهناك الكثير من الأسئلة التاريخية والأنثروبولوجية التي لا يفيد فيها قياس التطور الاجتماعي ومقارنته علىٰ الإطلاق، ولكن سؤال لماذا يهيمن الغرب هو بطبيعته سؤال مبني علىٰ المقارنة والقياس. وإذا أردنا الإجابة عنه، فيجب علينا القياس والمقارنة.

وتحدثتُ أيضًا عن الاعتراض الثاني في الفصل الثالث. ربما تكون هناك أشياء أخرىٰ يمكننا قياسها ومقارنتها بشكل أنجح من التطور الاجتماعي، ولكني لا أعرف ما هي تلك الأشياء. ولذا أترك الأمر للمؤرخين والأنثروبولوجيين الآخرين لتحديد الأشياء التي يمكن قياسها وإظهار أنها تحقق نتائج أفضل.

أمَّا الاعتراض الثالث، فيتخذ ثلاثة أشكال - وهي أنَّنا يجب علينا إضافة المزيد من السمات إلىٰ السمات الأربع التي اخترتها، أو أنَّنا يجب علينا استخدام سمات مختلفة، أو أنَّه يجب علينا أن ننظر في عدد أقل من هذه السمات. بينما كنت أكتب هذا الكتاب اكتشفت سمات عديدة أخرىٰ (علىٰ سبيل المثال: مساحة أكبر لوحدة سياسية، أو مستويات المعيشة [المُقاسة من خلال مكانة البالغين]، أو سرعة الانتقال، أو حجم أكبر الآثار)، ولكن كل هذه المعايير كان لديها مشاكل كبيرة فيما يتعلق بالأدلة، أو أنها فشلت في اختبار استقلالها عن بعضها البعض. ومعظم السمات، علىٰ أيّة حال، تبيِّن ارتفاع مستويات التكرار خلال معظم فترات التاريخ، ومن ثمَّ سوف تميل أية مجموعة من السمات المقبولة إلىٰ أن تؤدي للنتائج نفسها.

يوجد العديد من الاستثناءات الصغيرة واستثناءان كبيران لقاعدة التكرار. أول استثناء كبير هو ما يمكن أن نسميه «شذوذ البدو» - وهي حقيقة أنَّ مجتمعات السهوب عادة ما ينخفض إحرازها في أسر الطاقة، والتنظيم، والتكنولوجيا، ولكن يرتفع إحرازها في صناعة الحرب. وهذا الوضع الشاذ يساعد علىٰ تفسير لماذا كانت المجتمعات البدوية الحقيقية جيدة جدًّا في هزيمة الإمبراطوريات ولكنَّها سيئة في إدارتها، والأمر يستحق دراسة مستفيضة، لكنَّه لا يؤثر مباشرة في المقارنات بين المركزين الزراعيين الراسخين الشرقي والغربي في هذا الكتاب.



(موضع الشكل أ – ١). الطاقة وحدها: كيف يُقارن الشرق والغرب إذا اعتبرنا أسر الطاقة لكل شخص.

وقد تُسقط رؤية أخرىٰ من الاعتراض الثالث التنظيمَ وصناعة الحرب والتكنولوجيا من التحليل، وتركِّز فقط علىٰ أسر الطاقة، علىٰ أساس أنَّ التنظيم وصناعة الحرب والتكنولوجيا هي مجرد وسائل لاستخدام الطاقة. ويظهر (الشكل أ – ١) كيف سيبدو مؤشر للطاقة وحدها. وهو يختلف عن الرسم البياني مع المؤشر الكامل في (الشكل ٣ – ٣)، ولكن ليس بدرجة كبيرة. في الرسم البياني للطاقة وحدها، تمامًا مثل الرسم البياني للمؤشر الكامل للتطور الاجتماعي، يتفوق الغرب علىٰ الشرق بنحو ٩٠٪ من الوقت، ويتفوق الشرق بين حوالي عامي (٥٥٠ و١٧٥٠م)، وهناك سقف صلب يعيق التطور في حوالي عامي ١٠٠ و١١٠٠م (عند ٣٠ ألف سعر حراري للفرد الواحد في اليوم) ولا تزال إحرازات ما بعد الثورة الصناعية تُقزِّم إحرازات العصور السابقة، وفي عام ٢٠٠٠م يظل الغرب مهيمنًا.

إنَّ التركيز علىٰ الطاقة وحدها يتميَّز بكونه أكثر إحكامًا من نهجي في الأربع سمات للتطور الاجتماعي، ولكنَّه أيضًا لديه عيب كبير. وهذا العيب هو ثاني

استثناء لقاعدة التكرار: وهو حقيقة أنه منذ الثورة الصناعية، غدت العلاقة بين السمات غير خطيّة. وبفضل التكنولوجيات الجديدة تضاعف حجم المدينة بمقدار أربع مرات عبر القرن العشرين، وازدادت القدرة علىٰ صناعة الحرب بمقدار خمسين مرة، وارتفعت التكنولوجيا إلىٰ ثمانين ضعفًا، في حين تضاعف أسر الطاقة لكل فرد. ويُعدّ النظر إلىٰ الطاقة وحدها أمرًا بسيطًا للغاية، ويشوِّه نمط التاريخ.

أمَّا الاعتراض الرابع فهو يثير مسائل مختلفة؛ لأنَّ الطريقة الوحيدة لتقييم ما إذا كنت قد أسأت فهم الأدلة أو استخدمت أساليب غير مناسبة هي من خلال إعادة فحص جميع مصادر المعلومات التي استخدمتها لحساب الإحرازات الشرقية والغربية علىٰ مدىٰ الـ ١٦ ألف سنة الأخيرة. والقيام بذلك في هذا التذييل سيكون افتراضًا مكلِّفًا، ممَّا سيجعل هذا الكتاب الطويل بالفعل أطول بكثير؛ ولذلك تحتم عليَّ وضع المعلومات علىٰ الموقع الإلكتروني المذكور أعلاه. ويستطيع القرَّاء الذين لديهم الوقت الكافي والرغبة أن يجدوا هناك بالضبط ما هي المصادر التي استخدمتها وآرائي بشأن أوجه الغموض في الأدلة.

وفي ما تبقىٰ من هذا التذييل سألخص البيانات، وأضع مخططًا حول كيف قمتُ بحساب الإحرازات، وأتحدثُ قليلًا عن هوامش الخطأ.

أسر الطاقة

إنني أناقش أسر الطاقة أولًا وبالتفصيل الأكبر؛ لأنَّه يُعدّ من أهم السمات الأربع كمًّا ونوعًا. وإذا عدنا إلىٰ الوراء لفترات سابقة، سنجد أنَّ إحرازات التمدن، أو صناعة الحرب أو التكنولوجيا كلها تسقط إلىٰ الصفر؛ لأنَّ الأنشطة البشرية كانت علىٰ نطاق صغير جدًّا لدرجة أنَّها تولِّد قيمًا أقل من (٠,٠١ نقطة) علىٰ المؤشر. وعلىٰ النقيض من ذلك، لا تنخفض إحرازات أسر الطاقة إلىٰ الصفر أبدًا؛ لأنَّ البشر الذين يأسرون صفرًا من الطاقة يموتون. ويتطلب إبقاء الجسد والروح معًا ٢٠٠٠ سعر حراري تقريبًا للفرد الواحد يوميًا، وبما أنَّ أسر الطاقة الغربي الحديث يبلغ حوالي ٢٢٨ ألف كيلو سعر حراري يوميًا (=٢٥٠ نقطة)، فإنَّ أدنىٰ إحراز ممكن نظريًا هو (٢,١٩). وفي الواقع، لقد ظل أسر الطاقة يحرز أعلىٰ من (٤ نقاط) منذ نهاية العصر الجليدي؛ لأنَّ الكثير من الطاقة التي يستخدمها الإنسان تكون في أشكال غير الغذاء (الملبس والمأوىٰ والوقود والمصنوعات وما إلىٰ ذلك). وحتىٰ وقت الثورة الصناعية، كان إحراز أسر الطاقة مسؤولًا عن ٧٥ - ٩٠٪ من إجمالي إحرازات التطور الاجتماعي. وفي عام ٢٠٠٠م، كان إحراز أسر الطاقة لا يزال يمثِّل ٢٨٪ من الإحرازات الغربية، و٢٠٪ من الإحرازات الشرقية.

وتتراوح الأدلة علىٰ أسر الطاقة من الملخصات الإحصائية المعاصرة إلىٰ السرديات الأدبية عن الزراعة والصناعة، وأساليب الحياة، إلىٰ الأدلة الأثرية عن الأنظمة الغذائية، والحِرَف، وطبيعة الحياة. والجمع بين مثل هذه المواد المتنوعة يمثِّل تحديًا، ولكن هنا -كما هو الحال في أي مكان آخر- فقد اعتمدتُ علىٰ

مساهمات الباحثين السابقين. وكما شرحتُ في الفصل الثالث، فإنَّ دراسة إيرل كوك في عام ١٩٧١م عن تدفقات الطاقة توفر لنا نقطة انطلاق مناسبة يمكن مقارنتها باستمرار مع تقديرات أخرىٰ. وتلتقي كل هذه العناصر علىٰ المستويات المعاصرة في المركز الغربي التي تبلغ (٢٣٠,٠٠٠ كيلو سعر حراري) يوميًا، والتي يقسِّمها كوك إلىٰ فئات تقريبية من توفير غذاء/إطعام (الحيوانات المدجنة، بالإضافة للبشر)، الوطن/التجارة، الصناعة/الزراعة، والنقل.

ويحلِّل فاسلاف سميل (١٩٩١، ١٩٩٤م)، علىٰ نحو مفيد، الاستهلاك غير الغذائي إلىٰ كتلة إحيائية ووقود أحفوري، ويقوم بالتمثيل البياني لتطورها في المركز الغربي علىٰ مرِّ الزمان. وهناك حاجة للقيام بعدة خطوات لتحويل بياناته إلىٰ إحرازات خاصة بأسر الطاقة في الغرب، ولكن النتائج بلغت حوالي (٩٣ ألف كيلو سعر حراري) يوميًا في عام ١٩٠٠م، و(٣٨ ألف سعر حراري) في عام ١٨٠٠م، واضعةً بين قوسين تقدير كوك البالغ (٧٧ ألف سعر حراري) لأوروبا الصناعية في عام ١٨٦٠م.

وكلما عدنا للوراء قبل عام ١٨٠٠م كان عدد إحصائيات الحكومات المتوفرة أقلَّ، ولكن كلما اعتمدت الاقتصاديات علىٰ وقود الكتلة الإحيائية، استطعنا أن نستبدل الوثائق الرسمية بالمعلومات المقارنة التي جمعها المؤرخون الاقتصاديون وعلماء الأنثروبولوجيا. في عام ١٧٠٠م، علىٰ سبيل المثال، لا بُدَّ وأنَّ الشخص العادي في المركز الغربي كان يستهلك ما بين (٣٠,٠٠٠، و٣٥,٠٠٠ كيلو سعر حراري) في اليوم. وتُبيِّن أدلتنا عما كانت المجتمعات الغربية تفعله بوضوح أننا كلما عدنا للوراء إلىٰ آلاف السنين السابقة ينخفض ذلك العدد، رغم أنَّ الأدلة المقارنة توضح أيضًا أنَّ استهلاك الطاقة الغربي لم يكن من الممكن أن ينخفض كثيرًا إلىٰ أقل من (٣٠,٠٠٠ سعر حراري) للفرد يوميًا. بالطبع هناك مجال للنقاش، لكنني أشك في أنَّ أسر الطاقة الغربي في العصور الوسطىٰ قد انخفض علىٰ الإطلاق عن (٢٥,٠٠٠ كيلو سعر حراري) في اليوم، حتىٰ في القرن الثامن الميلادي. ولأسباب سأعود إليها أدناه، فإنني لا أرىٰ كيف يمكن أن تكون هذه التخمينات أكبر من ٥ إلىٰ ١٠٪ من حيث عدم الدقة.

DATE	WEST	EAST
2000 CE	230	104
1900	92	49
1800	38	36
1700	32	33
1600	29	31
1500	27	30
1400	26	29
1200	26	30.5
1000	26	29.5
800	25	28
600	26	27
400	28	26
200 CE	30	26
1 BCE/CE	31	27
200 BCE	27	24
400	24	22
600	22	20
800	21	18
1000	20	17
1200	21	17
1500	20.5	15
2000	17	11
2500	14	9.5
3000	12	8
3500	11	7.5
4000	10	7
5000	8	6.5
6000	7	6
8000	6	5
10,000	5.5	4
12,000	4.5	4
14,000 BCE	4	4

(موضع الجدول أ - ١). أسر الطاقة: السعرات الحرارية للفرد الواحد يوميًا (تواريخ مُختارة).

تجعل الأطلال المبهرة للمنازل والآثار في الحقبة الرومانية، وأعداد السفن المُحطَّمة، وحجم السلع المُصنَّعة، ومستوىٰ التلوث الصناعي في المراكز الجليدية، والأعداد الضخمة من عظام الحيوانات من المستوطنات، يجعل كل ذلك من الواضح أنَّ أسر الطاقة كان أعلىٰ في القرن الأول من القرن الثامن أو حتىٰ الثالث عشر، ولكن أعلىٰ بمقدار كم؟ تشير حسابات المؤرخين الاقتصاديين العبقرية تجاه الإجابة. لقد بيَّن روبرت ألين (٢٠٠٧م) أنَّه في عام ٣٠٠م كانت الأجور الحقيقية (التي عكست، بالنسبة إلىٰ معظم الفقراء في الأزمنة ما قبل الحديثة، استهلاك الطاقة) في المركز الغربي مشابهة للأجور في جنوب أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي، وأشار والتر شيدل (٢٠٠٨م) إلىٰ أنَّ أجور العصر الروماني كانت أعلىٰ بشكل مريح من الأجور في معظم أوروبا في العصور الوسطىٰ. وتُبيِّن البيانات التي جمعها كل من جيوف كرون (٢٠٠٥م) ونيكولا كيبكي وچورج باتين (٢٠٠٥، ٢٠٠٨م) إلىٰ أنَّ المكانة الاجتماعية تغيَّرت قليلًا بين القرنين الأول والثامن عشر، ويشير كرون (سيصدر كتابه قريبًا) إلىٰ أنَّ المساكن القديمة كانت أفضل من المساكن الموجودة في أغنىٰ بقاع أوروبا في القرن الثامن عشر. وقد قدَّرتُ أسر الطاقة بحوالي (٣١,٠٠٠ كيلو سعر حراري) للفرد الواحد يوميًا في كل من السنة الأولىٰ قبل الميلاد والسنة الأولىٰ بعد الميلاد، والانخفاض ببطء حتىٰ عام ٥٠٠م، ثم بشكل أسرع حتىٰ عام ٧٠٠م.

لا بُدَّ وأنَّ أسر الطاقة كان أقل في المركز الغربي في حوالي عام ١٠٠٠ ق. م، ليس فقط أقل من العصر الروماني، ولكن أيضًا أقل من القرن الثامن. وقد أتت أشد فترة في الزيادة بعد عام ٣٠٠ ق. م، في الوقت الذي دُمجت فيه منطقة البحر الأبيض المتوسط داخل وحدات سياسية واقتصادية أكبر وازداد فيه إنتاج الفترة الدافئة الرومانية، ولكنَّ كتلة البيانات الأثرية تُبيّن أيضًا فترة سابقة من التسارع بعد عام ٦٠٠ ق. م. وقد اقترحتُ مبدئيًا أنَّه في عام ١٠٠٠ ق. م، ربما كان أسر الطاقة منخفضًا إلىٰ (٢٠ ألف كيلو سعر حراري) يوميًا، وهو انخفاض طفيف في مستويات أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد، ولكنَّه لا يزال فوق إحرازات الألفية الثالثة.

وفي وقت سابق في ما قبل التاريخ كانت الإحرازات أقل من ذلك. وفي نهاية حقبة «يانجر دریاس» كان الرعاة على الأرجح يُدبّرون أمورهم اعتمادًا على حوالي (٥٠٠٠ كيلو سعر حراري) للفرد يوميًا، لكنَّ ذلك المعدل كان ليرتفع ارتفاعًا حادًا (مقارنة بما حدث قبل ذلك) وفي ظل دفء المناخ، تمَّ تدجين النباتات والحيوانات من أجل توفير الغذاء، وسُخّرت الحيوانات من أجل قوة الجر. وبحلول عام ٣٠٠٠ ق. م، لا بُدَّ وأن البشر في القرى القائمة في منطقة «هيلي فلانكس» كانوا يستهلكون (١٢٠٠٠ كيلو سعر حراري) للفرد يوميًا من أجل ملابسهم والوقود وحيوانات المزارع والبيوت والأدوات المنزلية، والآثار، حتى ولو لم تكن أغذيتهم أفضل ممَّا كانت عليه قبل أربعة آلاف عام.

ويُعدّ حساب الإحرازات الشرقية أصعب؛ جزئيًا لأنَّ العلماء مثل كوك وسميل كانوا مُهتمين فقط بالمنطقة من العالم التي لديها أعلى أسر للطاقة وليس بالمقارنات الإقليمية. ويمكننا أن نبدأ -رغم ذلك- من تقدير الأمم المتحدة (٢٠٠٦م) بأنَّه في عام ٢٠٠٠م كان الشخص الياباني المتوسط يستهلك (١٠٤٠٠٠ كيلو سعر حراري) يوميًا (أي أقل من نصف المستوى الغربي). وفي عام ١٩٠٠م كان المركز الشرقي لا يزال زراعيًا إلى حد كبير، في ظل أنَّ استخدام النفط الياباني وحتى الصناعة التي تعمل بالفحم كانت في مراحلها الأولى. وربما بلغ أسر الطاقة الياباني حوالي (٤٩٠٠٠ كيلو سعر حراري) يوميًا (مرة أخرى أقل من نصف الاستهلاك الغربي). وعبر القرون الخمسة الماضية، ارتفع استخدام الفحم والإنتاج الزراعي باطراد. وفي عام ١٦٠٠م، كانت الإنتاجية أعلى في دلتا اليانجتسي أكثر من أي مكان في الغرب، ولكن بحلول عام ١٧٥٠م لحقت الزراعة الهولندية والإنجليزية بالركب وكانت الأجور الشرقية الحقيقية مشابهة للأجور في جنوب أوروبا، وليست بأجور أوروبا الشمالية الغنية. لقد قدَّرْتُ أسر الطاقة في المركز الشرقي بنحو (٢٩٠٠٠ كيلو سعر حراري) للفرد يوميًا في عام ١٤٠٠م، و(٣٦٠٠٠ سعر حراري) في عام ١٨٠٠م، وتركَّزت معظم الزيادة في القرن الثامن عشر.

وهناك أيضًا جدل واسع حول كيف أثّرت الأزمة بعد عام ١٢٠٠م بشكل سيئ في استخدام الطاقة الصينية، ولكن ربما كان هناك انخفاض طفيف علىٰ الأقل عن ذروة عهد سلالة سونغ، عندما تجاوز الاستهلاك علىٰ الأرجح (٣٠٠٠٠ كيلو سعر حراري) للفرد يوميًا.

وكما في الغرب، توضح الأدلة الأثرية أنَّ أسر الطاقة مرَّ بفترة انخفاض حاد في منتصف الألفية الأولىٰ بعد الميلاد، ولكن مجددًا من الصعب تحديد مدىٰ حدة ذلك الانخفاض. وتشير الأدلة التي استعرضتها في الفصل الخامس إلىٰ أنَّ استهلاك أسرة هان للطاقة كان أعلىٰ من أي شيء تمت رؤيته سابقًا في الشرق، ولكنَّه أقل من المستويات الرومانية المعاصرة أو مستويات السونغ اللاحقة. وقد قدّرْتُ معدل (٢٧٠٠٠ كيلو سعر حراري) للفرد يوميًا في كل من السنتين الأولىٰ قبل الميلاد والسنة الأولىٰ بعد الميلاد، بالعودة إلىٰ المستوىٰ نفسه بحلول عام ٧٠٠م بعد هبوط طفيف.

وفي مقارنة مع الغرب مرة أخرىٰ، شهد أسر الطاقة الشرقي في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد زيادات مطردة، تسارعت بعد حوالي عام ٥٠٠ ق. م، وبشكل أكبر بعد عام ٣٠٠ ق. م، مع انتشار شبكات القنوات المائية والتجارة والأدوات المعدنية. وبالعودة إلىٰ عام ١٠٠٠ ق. م، ربما كان متوسط أسر الطاقة حوالي (١٧٠٠٠ كيلو سعر حراري) للفرد يوميًا، وبحلول زمن أول إمبراطور لأسرة تشين أصبح معدل الاستهلاك أكثر من (٢٦٠٠٠ سعر حراري).

بيدَ أنَّ أسر الطاقة الشرقي -في عصور ما قبل التاريخ- قد تجاوز العتبات الغربية نفسها، ولكنَّه بدأ في التحرك لأعلىٰ في وقت لاحق، وكان متخلفًا بمقدار ألفية إلىٰ ألفيتين.

التـنـظـيـم

علىٰ مدار تاريخ ما قبل الصناعة كان التنظيم هو ثاني أكبر عنصر في إحرازات التطور الاجتماعي. وقد استخدمتُ هذه السمة باعتبارها المثال الرئيس في الفصل الثالث، مفسرًا لماذا أستخدم أكبر حجم مدينة باعتباره بديلًا عن التنظيم الاجتماعي. وهناك ما يكفي من الغموض في البيانات والمرونة في التعاريف لجعل الخبراء يختلفون بشأن أحجام المدن في كل فترة، ومن ثَمَّ أفسر قراراتي علىٰ الموقع الإلكتروني. وفي الجدول (أ - ٢) أوجز بعض حساباتي الرئيسة.

صناعة الحرب

منذ بدأتِ الكتابة، سجَّل البشر حروبهم، ومنذ ما قبل التاريخ كانوا كثيرًا ما يدفنون أمواتهم مع الأسلحة. ونتيجة لذلك، فنحن نعرف كمية مذهلة عن حروب ما قبل الحداثة. إنَّ التحدي الرئيس في إحراز القدرة علىٰ صناعة الحرب ليس إمبريقيًا وإنما مفاهيمي - كيف نقارن بطريقة راديكالية الأنظمة القتالية المختلفة التي غالبًا ما يُقصد بها أن تكون غير مشابهة للأنظمة السابقة. وأشهر مثال علىٰ ذلك، عندما أطلقت بريطانيا البوارج الحربية دريدنوت (Dreadnought) في عام ١٩٠٦م، وكانت الفكرة من وراء ذلك هي أن مدافعها الضخمة ومدرعاتها الثقيلة كانت تعني أنه لا يوجد عدد من سفن عصر عام ١٨٩٠م يمكن أن يُعزز سفينة واحدة بعد عام ١٩٠٦م.

والواقع هو أنَّ الأشياء لا تعمل بمثل هذه البساطة. فالأجهزة المتفجرة المُحسّنة من الممكن -في الظروف المناسبة- أن تكون جيدة مثل جيش يمتلك تكنولوجيا فائقة. ومن حيث المبدأ، يمكننا تعيين الإحرازات علىٰ مؤشر واحد لأنظمة عسكرية مختلفة بشدة، حتىٰ ولو تجادل الخبراء حول ماهية تلك الإحرازات.

وفي عام ٢٠٠٠م أحرزت قوة الغرب العسكرية غير المسبوقة ٢٥٠ نقطة، وهي بوضوح أكبر بكثير من قوة الشرق. وتُعدّ بعض الجيوش الشرقية كبيرة، ولكن منظومات الأسلحة تهمّ أكثر بكثير من الأرقام المجردة. وتتفوق الولايات المتحدة علىٰ الصين في الإنفاق العسكري بنسبة (١٠ : ١)، وفي عدد الحاملات بنسبة (١١ : ٠)، وبنسبة (٢٦ : ١) في الرؤوس الحربية النووية. ولا تزال

الاختلافات النوعية بين دبابات أمريكا من نوع (M1)، والأسلحة الدقيقة والأنظمة القديمة في الصين أكبر من ذلك. ويبدو ضبط نسبة النقاط بين الغرب والشرق عند مستوىً منخفض مثل (١٠ : ١)، أو عند مستوىً مرتفع مثل (٥٠ : ١) - متطرفًا، وقد خمنتُ النسبة (٢٠ : ١)، ممَّا يعني أنَّ الشرق سجَّل (١٢,٥ نقطة) في عام ٢٠٠٠م مقابل (٢٥٠ نقطة) للغرب.

DATE	WEST	EAST
2000 CE	16,700 (New York)	26,700 (Tokyo)
1900	6,600 (London)	1,750 (Tokyo)
1800	900 (London)	1,100 (Beijing)
1700	600 (London, Constantinople)	650 (Beijing)
1600	400 (Constantinople)	700 (Beijing)
1500	100 (Constantinople)	600 (Beijing)
1400	125 (Cairo)	500 (Nanjing)
1200	250 (Baghdad, Cairo, Constantinople)	800 (Hangzhou)
1000	200 (Cordoba)	1,000 (Kaifeng)
800	175 (Damascus)	1,000 (Chang'an)
600	125 (Constantinople)	250 (Daxingcheng)*
400	500 (Rome)	150 (Luoyang)
200 CE	800 (Rome)	120 (Luoyang)
1 BCE/CE	1,000 (Rome)	500 (Chang'an)
200 BCE	300 (Alexandria)	125 (Linzi)
500	150 (Babylon)	80 (Luoyang, Linzi)
1000	25 (Susa)	35 (Qi)
1200	80 (Babylon, Thebes)	50 (Anyang)
1500	75 (Uruk, Thebes)	35 (Zhengzhou, Yanshi)
2000	60 (Memphis)	15 (Erlitou)
3000	45+ (Uruk)	2 (Dadiwan)
4000	5 (Uruk, Tell Brak)	<1 (Xipo? Dadiwan?)
6500	3 (Çatalhöyük)	
7500 BCE	1 (Beidha, Basta, Çatalhöyük)	

*Renamed Chang'an in the seventh century.

(موضع الجدول أ - ٢). سكان أكبر مستوطنة في كل مركز، بالآلاف (تواريخ مُختارة).

وتُعدّ مقارنة الإحرازات في عام ٢٠٠٠م مع تلك التي في الفترات السابقة أمرًا أكثر صعوبة، ولكن بالنظر إلىٰ التغييرات في حجم القوات، وسرعة انتقالها، وقدراتها اللوجستية، وكل من مدىٰ قوتها الضاربة ودمارها، والمدرعات والتحصينات - يمكننا أن نقوم بتقديرات تقريبية. ووفقًا لأحد الحسابات، فقد زادت فعالية نيران المدفعية بمقدار عشرين مرة بين عامي ١٩٠٠ و٢٠٠٠م، والقذائف المضادة للدبابات بمقدار ستين مرة، وبتضمين جميع التغييرات الأخرىٰ عبر القرن العشرين، حدَّدتُ النسبة بين القدرة الغربية علىٰ صناعة الحرب في عامي ١٩٠٠ و٢٠٠٠م، عند (٥٠: ١)، ممَّا يعني أنَّ الغرب أحرز (٥ نقاط) في عام ١٩٠٠م بالمقارنة مع الـ (٢٥٠ نقطة) التي أحرزها عام ٢٠٠٠م.

وقد كانت القوة العسكرية الغربية في عام ١٩٠٠م أكبر بكثير من القوة العسكرية الشرقية، رغم أنَّ الفجوة لم تكن بالتأكيد واسعة كما كانت في عام ٢٠٠٠م. فقد امتلكت البحرية البريطانية ما يعادل حوالي ستة أضعاف وزن البحرية اليابانية بالأطنان في عام ١٩٠٢م، وامتلكت أي قوة أوروبية عظمىٰ تعداد جيش أكبر من اليابان، وقد حددتُ نسبة الغرب: الشرق في عام ١٩٠٠م، عند (٥: ١)، ممَّا يعني أنَّ الشرق سجَّل نقطة واحدة فقط في عام ١٩٠٠م، مقارنة بخمس نقاط للغرب في عام ١٩٠٠م، و(١٢,٥ نقطة) للشرق في عام ٢٠٠٠م.

بالطبع، لن يشعر الجميع بالارتياح من مستوىٰ الذاتية في مثل هذه الحسابات، لكن المهمّ هو أنَّ قدرة الغرب العسكرية في عام ٢٠٠٠م كانت ضخمة جدًّا لدرجة أنَّ جميع الإحرازات الأخرىٰ -بما في ذلك إحرازات الغرب في عام ١٩٠٠م، أو حتىٰ إحرازات الشرق في عام ٢٠٠٠م- كانت بالضرورة صغيرة جدًّا، ونتيجة لذلك فإنَّ الأخطاء المتضمنة في التقدير ضئيلة للغاية. ويمكننا أن نُضاعف أو نقسم إلىٰ النصف أيًا من أو جميع إحرازات صناعة الحرب لجميع الفترات حتىٰ عام ١٩٠٠م دون إحداث أثر ملحوظ في إحرازات التطور الشاملة.

كان التباين بين صناعة الحرب الغربية في عام ١٨٠٠م، وصناعة الحرب في عام ١٩٠٠م أقلَّ من التباين بين عامي ١٩٠٠ و٢٠٠٠م، ولكنَّه لا يزال هائلًا،

حيث أخذنا من عصر الإبحار وهجوم الفرسان وبنادق المسكيت الناعمة محشوة الفوّهة إلىٰ عصر القذائف المتفجرة والسفن المسلَّحة التي تعمل بالنفط والمدافع الرشاشة مع اقتراب ظهور الدبابات والطائرات. لقد رفع القرن التاسع عشر القدرة الغربية علىٰ صناعة الحرب من حيث الحجم، وقد حدَّدتُ قدرة الغرب علىٰ صناعة الحرب عند (٠,٥ نقطة) فقط في عام ١٨٠٠م. وكانت الحرب الغربية في تلك المرحلة أكثر فعالية من القدرة الشرقية إلىٰ حدٍّ كبير، التي ربما كانت عند (٠,١ نقطة) في عام ١٨٠٠م.

بين عامي ١٥٠٠ و١٨٠٠م، خاضت أوروبا ما يسميه المؤرخون بشكل شائع «ثورة عسكرية»، ممَّا قد أدىٰ إلىٰ تضاعف فعالية صناعة الحرب بمقدار أربع مرات. أمَّا صناعة الحرب الشرقية، علىٰ النقيض من ذلك، فقد انتكست بين عام ١٧٠٠م (عندما بدأ كانجشي في غزو السهوب)، وعام ١٨٠٠م. وفي ظل غياب التهديدات الوجودية، سعىٰ الحكام الصينيون بانتظام نحو عوائد السلام بخفض قواتهم المسلَّحة وتجاهل التقدمات التكنولوچية المكلِّفة. ولم تكن صناعة الحرب الشرقية أكثر فعالية بشكل ملحوظ في عام ١٨٠٠م عمَّا كانت عليه عام ١٥٠٠م، وكانت أقل فعالية بكثير ممَّا كانت عليه في عام ١٧٠٠م - وهو الأمر الذي يرتبط إلىٰ حدٍّ كبير بأسباب هزيمة القوات البريطانية لقوات الصين بسهولة في أربعينيات القرن التاسع عشر.

لقد أدىٰ ظهور البارود في القرن الرابع عشر إلىٰ زيادة القدرة علىٰ صناعة الحرب في كل من الشرق والغرب، علىٰ الرغم من كون ذلك أقل بكثير ممَّا ستفعله اختراعات القرنين التاسع عشر والعشرين. وفي أوروبا، كانت أفضل الجيوش في حوالي عام ١٥٠٠م، (خاصة العثمانيين) ربما تبلغ فعاليتها ضعف فعالية الجيوش منذ خمسة قرون، رغم أنَّ ذلك كان له علاقة بحجم القوة النارية ولوچيستياتها.

ومن الصعب حساب العلاقة بين صناعة الحرب الغربية في حوالي عام ١٥٠٠م، والقوىٰ الضخمة شديدة التنظيم التي سبقت ظهور البارود للإمبراطورية الرومانية. وقد قدَّرتْ إحدىٰ الدراسات أنَّ قاذفة نفاثة في حوالي عام ٢٠٠٠م

امتلكت نصف مليون ضعف القدرة القتالية للفيلقية الرومانية، وهو ما قد نتخذه باعتباره مُتضمِّنًا أنَّ الإحراز الغربي في العامين الأول قبل الميلاد، والأول بعد الميلاد كان (٠,٠٠٠٥ نقطة)، ولكن بالطبع كان لدىٰ روما فيالق أكثر بكثير ممَّا امتلكت الولايات المتحدة قاذفات نفاثة؛ ولذا أقدّرُ النسبة بين صناعة الحرب الغربية الحديثة وصناعة الحرب الرومانية عند (٢٠٠٠: ١)، ممَّا يضع إحراز العامين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد عند (٠,١٢ نقطة). وهذا يجعل آلة الحرب الرومانية في أوجها منافسًا خطيرًا بالنسبة إلىٰ الجيوش والأساطيل الأوروبية في القرن الخامس عشر، رغم مسدساتهم ومدافعهم، ولكن ليس بالنسبة إلىٰ قوات عصر «الثورة العسكرية». وهو يعني أيضًا أنَّ صناعة الحرب الرومانية في أوجها ربما كانت تنافس صناعة الحرب عند المغول، وكانت تعلو علىٰ صناعة الحرب عند سلالة تانج الصينية.

وفي الشرق، حيث كانت الأسلحة البرونزية هي القاعدة حتىٰ عام ٢٠٠ ق. م، يبدو أنَّ قوات أسرة هان (٢٠٠ ق. م - ٢٠٠م) كانت أقل فعالية من الرومان، علىٰ الرغم من تدهور القوة العسكرية الصينية إلىٰ أقل بكثير من القوة العسكرية الغربية بعد التبادل التجاري للعالم القديم. وقد كانت الجيوش والأساطيل التي استخدمها «سوِي» لإعادة توحيد الصين في القرن السادس أقوىٰ بكثير من أي شيء في الغرب، وبحلول زمن الإمبراطورة «وو» في حوالي عام ٧٠٠م كانت الفجوة هائلة.

لقد كانت جيوش قرون ما قبل الميلاد أضعف بكثير من جيوش الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية هان. وفي الشرق لا أعتقد أنَّ أي قوة قبل زمن إيرلتو في حوالي عام ١٩٠٠ ق. م كانت فعَّالة بشكل كافٍ لتحرز (٠,٠١ نقطة)، وفي الغرب أحرزت كل من الجيوش المصرية وجيوش بلاد الرافدين علىٰ الأرجح (٠,٠١ نقطة) بحلول عام ٣٠٠٠ ق. م تقريبًا.

DATE	WEST	EAST
2000 CE	250.0	12.5
1900	5.0	1.0
1800	0.50	0.10
1700	0.35	0.15
1600	0.18	0.12
1500	0.13	0.10
1400	0.11	0.11
1200	0.08	0.09
1000	0.06	0.08
800	0.04	0.07
600	0.04	0.09
400	0.09	0.07
200 CE	0.11	0.07
1 BCE/CE	0.12	0.08
200 BCE	0.10	0.07
400	0.09	0.05
600	0.07	0.03
800	0.05	0.02
1000	0.03	0.03
1200	0.04	0.02
1500	0.02	0.01
2000	0.01	0
2500	0.01	0
3000 BCE	0.01	0

(الجدول أ - ٣) القدرة علىٰ صناعة الحرب، ممثلة في نقاط علىٰ مؤشر التطور الاجتماعي (تواريخ مُختارة).

تكنولوجيا المعلومات

تُظهر لنا المصادر الأثرية والنصوص المكتوبة ما هي أنواع تكنولوچيا المعلومات التي تواجدت في الفترات المختلفة، وليس من الصعب تقدير كمية المعلومات التي استطاعت هذه الوسائط أن تنقلها، وبأي سرعات، وعلىٰ مدىٰ أي مسافات. وتكمن المشكلة الحقيقية في تقدير مدىٰ استخدام التكنولوچيات المختلفة، التي كانت تعني خلال معظم فترات التاريخ كم عدد الأشخاص الذين استطاعوا القراءة والكتابة، وعند أية مستويات من الكفاءة.

يبدو أنَّ قانون مور -الذي ينص علىٰ أنَّ فعالية تكلفة تكنولوچيا المعلومات قد تضاعفت كل ١٨ شهرًا، أو نحو ذلك منذ حوالي عام ١٩٥٠م- يفترض ضمنًا بأنَّ الإحراز في عام ٢٠٠٠م يجب أن يكون مليار ضعف أعلىٰ من إحراز عام ١٩٠٠م، مما يتيح لنا إحرازًا غربيًا في عام ١٩٠٠م يبلغ (٠,٠٠٠٠٠٠٢٥ نقطة). ولكن ذلك بالطبع سيتجاهل مرونة الأنماط قديمة الطراز في تخزين المعلومات مثل الكتب المطبوعة (التي بدأت الوسائط الرسمية في تحديها الآن)، والتغييرات التي حدثت علىٰ مرِّ الزمن في الوصول إلىٰ أكثر التقنيات تطورًا.

وتُعدّ النسبة الصحيحة بين تكنولوچيا المعلومات الحديثة والأقدم أقل بكثير من بليون إلىٰ واحد، رغم أنَّها هائلة بوضوح، مع ما يترتب علىٰ ذلك من أنَّ إحرازات عام ١٩٠٠م (وحتىٰ هوامش الخطأ قبل عام ١٩٠٠م)، هي أقل من حالة صناعة الحرب. وعلىٰ الناحية الأخرىٰ، فإنَّ الأدلة الخاصة بعدد الأشخاص الذين يمكنهم القراءة والكتابة والحساب علىٰ مختلف مستويات المهارة هي أكثر غموضًا من الأدلة الخاصة بالحرب، وتُعدّ تخميناتي أكثر انطباعية.

في الجدول (أ - ٤) اتخذت نهجًا متعدد الخطوات لقياس تكنولوچيا المعلومات. أولًا: عبر اتباع الممارسة الشائعة بين المؤرخين، قسَّمتُ المهارات إلىٰ مهارات متكاملة ومتوسطة وأساسية. ووضعت سقفَ توقعاتٍ منخفضًا نسبيًا لكل فئة - من حيث الإلمام بالقراءة والكتابة، فالمهارة الأساسية تعني القدرة علىٰ قراءة اسم وكتابته، والمتوسطة تعني القدرة علىٰ قراءة أو كتابة جملة بسيطة، أما المتكاملة فتعني القدرة علىٰ قراءة نثر أكثر ترابطًا وكتابته. وقد كانت تعريفات الحزب الشيوعي الصيني في حملته لتعليم القراءة والكتابة عام ١٩٥٠م مماثلة (محو الأمية بالكامل، وهي القدرة علىٰ التعرف إلىٰ ١٠٠٠ رمز، وشبه محو الأمية، وهي القدرة علىٰ التعرف إلىٰ ٥٠٠ - ١٠٠٠ رمز، والمستوىٰ الأساسي، من ٣٠٠ - ٥٠٠ رمز).

ثانيًا: باستخدام المعرفة المتاحة، فإنني أُقسِّم السكان الذكور البالغين في فترات مختلفة عبر هذه الفئات الثلاث. ولكل ١٪ من الرجال داخل فئة محو الأمية بالكامل، أحدِّد معدل (٠,٥ نقطة)، ولكل نسبة في الفئة المتوسطة (٠,٢٥ نقطة)، ولكل نسبة في الفئة الأساسية (٠,١٥ نقطة). ثمَّ أحدِّد الإحرازات نفسها للنساء. وتُعدّ الأدلة علىٰ محو أمية الإناث أضعف من الذكور، رغم أنَّه من الواضح أنَّه حتىٰ القرن العشرين كان عدد النساء أقل (عادة أقل بكثير) من عدد الرجال الذين كانوا يستطيعون القراءة والكتابة. وعلىٰ الرغم من أنَّني أقوم بالتقدير في الأساس قبل الأزمنة الحديثة، فإنَّني أقدِّر تقريبيًّا استخدام الإناث لتكنولوچيا المعلومات باعتبارها نسبة مئوية من استخدام الذكور. ثمَّ أحدِّد نقاطًا لكل فترة علىٰ أساس كمية استخدام تكنولوچيا المعلومات ومستواه.

في عام ٢٠٠٠م، كان ١٠٠٪ من الرجال والنساء في الفئة المتكاملة في كلا المركزين الغربي والشرقي، مسجلين (١٠٠ نقطة) في تكنولوجيا المعلومات لكلتا المنطقتين. وفي عام ١٩٠٠م كان لدىٰ كل الرجال في المركز الغربي تقريبًا دراية بالقراءة والكتابة (٥٠٪ مهارة متكاملة، ٤٠٪ مهارة متوسطة، و٧٪ مهارة أساسية)، وكانت النساء في الغالب علىٰ القدر نفسه من التعليم، ممَّا أدىٰ إلىٰ إنتاج إحراز غربي بلغ (٦٣,٨ نقطة) في تكنولوچيا المعلومات. وفي الشرق كانت

المعرفة بالقراءة والكتابة منتشرة بين الرجال أيضًا، علىٰ الرغم من أنها لم تكن بمثل هذه المستويات العالية (في تقديري ١٥٪ مهارة متكاملة، ٦٠٪ مهارة متوسطة، و١٠٪ مهارة أساسية) علىٰ الرغم من أنَّ معدل النساء المتعلمات ربما وصل إلىٰ الرُبع. وكانت النتيجة إحرازًا شرقيًا بلغ (٣٠ نقطة) في تكنولوچيا المعلومات. وفي الوقت الذي أكرر فيه هذه الحسابات في زمن أقدم في التاريخ، فإنَّ هامش الخطأ المحتمل في تخميناتي يزداد بشكل مطرد، علىٰ الرغم من أنَّ الأعداد الصغيرة من الذين يعرفون القراءة والكتابة تجعل أثر هذه الأخطاء صغيرًا في المقابل.

والخطوة الثالثة هي تطبيق عامل مضاعف علىٰ السرعة المتغيِّرة والوصول إلىٰ تكنولوجيات الاتصال. وقد قسَّمتُ أحدث أدوات معالجة المعلومات إلىٰ ثلاث فئات شاملة: إلكترونية (مستخدمة في كل من الشرق والغرب بحلول في ٢٠٠٠م)، وكهربائية (مستخدمة في الغرب في عام ١٩٠٠م)، وما قبل كهربائية (مستخدمة في الغرب ربما منذ أحد عشر ألف سنة وفي الشرق ربما منذ تسعة آلاف سنة).

وعلىٰ عكس معظم المؤرخين، فإنَّني لا أضع تمييزًا قويًا بين عصري الطباعة وما قبل الطباعة؛ فالمساهمة الرئيسة للطباعة كانت إنتاج مواد أكثر وأرخص بدلًا من تحويل الاتصالات بالطريقة التي قد يفعلها التلغراف أو الإنترنت، وهذه التغييرات الكمية قد أُخذت بالفعل في عين الاعتبار. وبالنسبة إلىٰ التكنولوچيات الإلكترونية، فإنَّني أستخدم عاملًا مُضاعفًا يبلغ (٢,٥ للغرب)، و(١,٨٩ للشرق)، ممَّا يعكس التوافر النسبي للحواسيب والاتصالات الواسعة النطاق في كل من الغرب والشرق في عام ٢٠٠٠م. وبالنسبة إلىٰ التقنيات الكهربائية، التي كان لها بعض الأثر في الغرب بحلول عام ١٩٠٠م، فإنَّني أستخدم عاملًا مُضاعفًا يبلغ (٠,٠٥)، وبالنسبة إلىٰ تكنولوچيات الفئة ما قبل الكهربائية المستخدمة في كل الفترات الأخرىٰ، فإنَّني أستخدم عاملًا مُضاعفًا يبلغ (٠,٠١) في كل من الشرق والغرب. وبناءً علىٰ ذلك، في عام ٢٠٠٠م يحرز الغرب ٢٥٠ نقطة في التطور الاجتماعي وهي أعلىٰ نقطة ممكنة (١٠٠ نقطة

لتكنولوچيا المعلومات ط ٢,٥)، ويحصل الشرق علىٰ ١٨٩ نقطة (١٠٠ نقطة لتكنولوچيا المعلومات ط ١,٨٩)، وفي عام ١٩٠٠م يحرز الغرب (٣,١٩ نقطة)، (٦٣,٨ ط ٠,٠٥)، ويحرز الشرق (٠,٣)، (٣٠ ط ٠,٠١). ويصل الإحراز الغربي لأدنىٰ مستوىٰ لازم للتسجيل علىٰ مؤشر التطور الاجتماعي (أي: ٠,٠١ نقطة) في حوالي عام ٣٣٠٠ ق. م، والشرقي في حوالي عام ١٣٠٠ ق. م.

WESTERN CORE

Dates	MALE CATEGORIES (PERCENTAGES) Full (@0.5 pts)	Medium (@0.25 pts)	Basic (@0.15 pts)	Male points	Female (%M)	Literacy points	Multiplier	Total points
2000 CE	100 (50)	0	0	50	100% = 50	100.0	× 2.5	250.0
1900	40 (20)	50 (12.5)	7 (1.05)	33.6	90% = 30.2	63.8	× 0.05	3.19
1800	20 (10)	25 (6.25)	20 (3)	19.3	50% = 9.65	28.95	× 0.01	0.29
1700	10 (5)	15 (3.75)	25 (3.75)	12.5	10% = 1.25	13.75	× 0.01	0.14
1600	5 (2.5)	10 (2.5)	10 (1.5)	6.5	2% = 0.13	6.63	× 0.01	0.07
1500	4 (2)	8 (2)	6 (0.9)	4.9	2% = 0.10	5.0	× 0.01	0.05
1400	3 (1.5)	6 (1.5)	4 (0.6)	3.6	1% = 0.04	3.64	× 0.01	0.04
1300	3 (1.5)	6 (1.5)	4 (0.6)	3.6	1% = 0.04	3.64	× 0.01	0.04
1200	3 (1.5)	6 (1.5)	4 (0.6)	3.6	1% = 0.04	3.64	× 0.01	0.04
1100	2 (1)	4 (1)	2 (0.3)	2.3	1% = 0.02	2.32	× 0.01	0.02
1000	2 (1)	4 (1)	2 (0.3)	2.3	1% = 0.02	2.32	× 0.01	0.02
600–900	2 (1)	2 (0.5)	1 (0.15)	1.65	1% = 0.02	1.67	× 0.01	0.02
300–500 CE	3 (1.5)	4 (1)	3 (0.45)	2.95	1% = 0.03	2.98	× 0.01	0.03
100 BCE–200 CE	4 (2)	6 (1.5)	5 (0.75)	4.25	1% = 0.04	4.29	× 0.01	0.04
500–200 BCE	2 (1)	3 (0.75)	2 (0.3)	2.05	1% = 0.02	2.07	× 0.01	0.02
900–600 BCE	1 (1)	2 (0.5)	1 (0.15)	1.65	1% = 0.02	1.67	× 0.01	0.02
1100–1000 BCE	1 (1)	1 (0.25)	1 (0.15)	1.4	1% = 0.01	1.41	× 0.01	0.01
2200–1200 BCE	1 (1)	2 (0.5)	1 (0.15)	1.65	1% = 0.02	1.67	× 0.01	0.02
2700–2300 BCE	1 (1)	1 (0.25)	1 (0.15)	1.4	1% = 0.01	1.41	× 0.01	0.01
3300–2800 BCE	0 (1)	1 (0.25)	2 (0.3)	0.55	1% = 0.01	0.56	× 0.01	0.01
4000–3400 BCE	0	0	1 (0.15)	0.15	1% = 0	0.15	× 0.01	
9000–6100 BCE	0	0	0	0	0	0	× 0.01	0
9300–9000 BCE	0	0	1 (0.15)	0.15	1% = 0	0.15	× 0.01	0

EASTERN CORE

Dates	MALE CATEGORIES (PERCENTAGES) Full (@0.5 pts)	Medium (@0.25 pts)	Basic (@0.15 pts)	Male points	Female (%M)	Literacy points	Multiplier	Total points
2000	100 (50)	0	0	50.0	100% = 50	100.0	× 1.89	189.0
1900	15 (7.5)	60 (15)	10 (1.5)	24.0	25% = 6	30.0	× 0.01	0.3
1800	5 (2.5)	35 (8.75)	10 (1.5)	12.75	5% = 0.64	13.39	× 0.01	0.13
1700	5 (2.5)	20 (5)	10 (1.5)	9	2% = 0.18	9.18	× 0.01	0.09
1600	4 (2)	15 (3.75)	10 (1.5)	7.25	2% = 0.15	7.4	× 0.01	0.07
1500	3 (1.5)	10 (2.5)	10 (1.5)	5.5	2% = 0.11	5.61	× 0.01	0.06
1400	3 (1.5)	10 (2.5)	10 (1.5)	5.5	2% = 0.11	5.61	× 0.01	0.06
1300	3 (1.5)	5 (1.25)	5 (0.75)	3.5	1% = 0.04	3.54	× 0.01	0.04
1200	3 (1.5)	5 (1.25)	5 (0.75)	3.5	1% = 0.04	3.54	× 0.01	0.04
1100	2 (1)	2 (0.5)	3 (0.45)	1.95	1% = 0.02	1.97	× 0.01	0.02
600 BCE–1000 CE	2 (1)	2 (0.5)	2 (0.3)	1.8	1% = 0.02	1.82	× 0.01	0.02
1000–750 BCE	2 (1)	1 (0.25)	1 (0.15)	1.4	1% = 0.01	1.41	× 0.01	0.01
1300–1100 BCE	1 (0.5)	1 (0.25)	1 (0.15)	0.9	1% = 0.01	0.91	× 0.01	0.01
5500–1400 BCE	0	0	1 (0.15)	0.15	1% = 0	0.15	× 0.01	

الجدول (أ – ٤). إحرازات تكنولوچيا المعلومات.

هوامش الخطأ

تحدثتُ بشكل متكرر عن التقديرات والتخمينات في القسم السابق؛ لأنَّه لا توجد طريقة لبناء مؤشر تطور اجتماعي من دونها. ومن نتائج ذلك أنَّه لن يوجد مؤشر «صحيح» علىٰ الإطلاق، سواء أخذنا تلك الكلمة بالحد الأقصىٰ لمعناها وهو أنَّ كل تفصيلة دقيقة، أو بالحد الأدنىٰ لمعناها وهو أنَّ كل الخبراء سيقومون بالتقديرات نفسها. ونتيجة لذلك، فلا يوجد مغزىٰ في التساؤل عما إذا كانت إحرازات التطور الاجتماعي التي حسبتها كانت خاطئة. إنَّها -بالطبع- خاطئة. والسؤال الحقيقي هو: إلىٰ أي مدىٰ هي خاطئة؟ وهل هي خاطئة جدًّا لدرجة أنَّ النمط الأساسي لتاريخ التطور الاجتماعي كما هو ممثَّل في الرسوم البيانية في الفصول (٤ - ١٠) مضلِّلٌ؛ بمعنىٰ أنَّ هذا الكتاب بأكمله خاطئ علىٰ نحو خطير؟ أم أنَّ الأخطاء في الحقيقة تافهة نسبيًا؟

هذه الأسئلة يمكن الإجابة عنها من حيث المبدأ بسهولة كافية، ونحن بحاجة إلىٰ أن نسأل (١) كم سنكون في حاجة إلىٰ تغيير الإحرازات لجعل الماضي يبدو مختلفًا لدرجة أنَّ الحجج المقدمة في هذا الكتاب سوف تتوقف عن أن تكون صحيحة؟ (٢) وما إذا كانت هذه التغييرات معقولة.

في نهاية المطاف، فإنَّ الطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك هي من خلال فحص الأدلة الواردة علىٰ موقع (www.ianmorris.org) لكل حساب مستقل أشرت إليه، ولكن هنا أريد أن أعالج بإيجاز احتمالية أنَّ الأخطاء المنهجية تقوِّض ادِّعاءاتي عن نمط التاريخ الكليِّ. وبحسب مؤشري (المُبيَّن علىٰ نطاق لوجاريثمي - خطيّ في الشكل ٣ - ٧)، فإنَّ الغرب أخذ الصدراة بعد عام ١٤٠٠٠ ق. م. وقد لحق

الشرق بالركب ببطء، وخلال معظم الألفية الأولىٰ قبل الميلاد كانت صدارة الغرب ضيقة. وفي حوالي عام ١٠٠ ق. م، زاد الغرب من صدارته، ولكن في عام ٥٤١م تقدَّم الشرق خطوةً للأمام. وظلَّ هناك حتىٰ عام ١٧٧٣م، ثمَّ استعاد الغرب الصدارة، وإذا استمرت اتجاهات القرن العشرين، سوف تستمر صدارة الغرب حتىٰ عام ٢١٠٣م. وقد كان التطور الغربي أعلىٰ من الشرقي طيلة ٩٢,٥٪ من الزمن منذ نهاية العصر الجليدي.

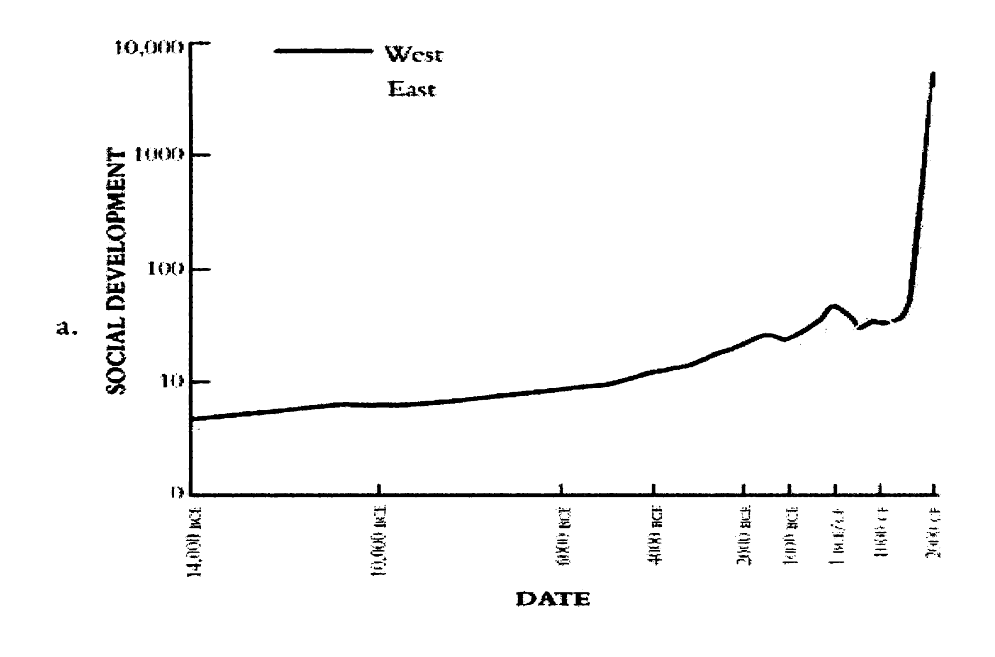
وقد اقترحتُ في الفصل الثالث أنَّه من الممكن أن تُخطئ إحرازاتي بنسبة تصل إلىٰ ١٠% دون تغيير هذا النمط كثيرًا. ويُبيِّن الرسم البياني (أ - ٢أ) كيف ستكون الاتجاهات إذا قلَّلتُ بانتظام من تقدير إحرازات التطور الاجتماعي بنسبة ١٠%، وبالغتُ في تقدير الإحرازات الشرقية بالمقدار نفسه. ويبيِّن (الشكل أ - ٢ب) النتيجة إذا قلَّلت من تقدير إحرازات التطور الشرقي بنسبة ١٠%، وبالغتُ في تقدير الإحرازات الغربية بالقدر نفسه.

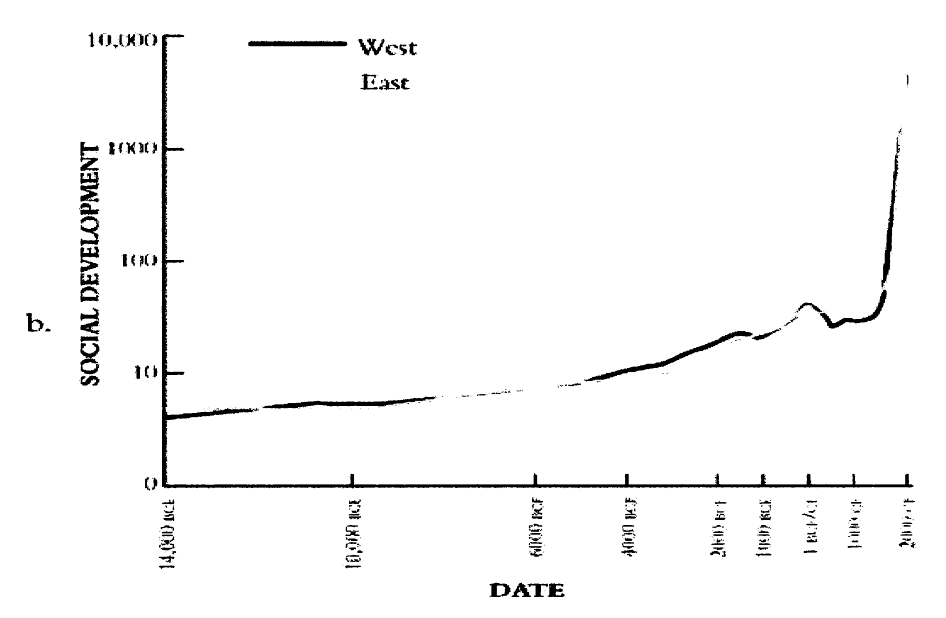
وأول نقطة نلاحظها هي أنَّ هذه الإحرازات سوف تُضعف المصداقية بشدة. ويتطلب منَّا الرسم البياني (أ - ٢أ)، الذي يمثِّل ارتفاع الإحرازات الغربية وانخفاض الإحرازات الشرقية بنسبة (١٠%)، يتطلب منا أن نقبل بأنَّ الغرب كان أكثر تطورًا من الشرق في عام ١٤٠٠م، قبل أن يبحر «چنج هي» علىٰ ساحل المحيط الهندي، ويعني أيضًا أنَّه عندما قام هانيبال بقيادة فيلته للهجوم علىٰ روما في عام ٢١٨ ق. م كان التطور الاجتماعي بالفعل أعلىٰ عمَّا سيكون عليه التطور الاجتماعي الشرقي في زمن «چنج». وكما لو أنَّ ذلك لم يكن غريبًا بما فيه الكفاية، فإنَّ الرسم البياني يخبرنا علاوة علىٰ ذلك بأنَّ الغرب كان أكثر تطورًا، عندما اُغتيل يوليوس قيصر في عام ٤٤ ق. م، من الشرق عندما رفض إمبراطور الصين تشيان لونغ سفارة اللورد ماكارتني التجارية في عام ١٧٩٣م.

وربما الرسم البياني (أ - ٢ب) أكثر غرابة. فإحراز التطور الذي يمنحه للغرب في عام ٧٠٠م، علىٰ سبيل المثال، عندما كان العرب يحكمون خلافة ضخمة من دمشق - هو أقل من إحراز الشرق في عصر كونفوشيوس، وهو ما لا يمكن أن يكون صحيحًا، وسيجعل الإحراز الغربي في عام ١٨٠٠م، عندما كانت

الثورة الصناعية علىٰ قدمٍ وساق، أقلَّ من الإحرازات الشرقية في عهد أسرة سونغ في الفترة ما بين عام ١٠٠٠ - ١٢٠٠م، وهو ما يبدو أقل احتمالًا.

وحتىٰ لو استطاع المؤرخون استيعاب مثل تلك الاستنتاجات الغريبة، فإنَّ الأنماط التاريخية كما هي مُمثَّلة في (الشكل أ - ٢) لا تختلف بما يكفي عن تلك الأنماط في (الشكل ٣ - ٧) لتغير النمط الأساسي الذي يحتاج إلىٰ تفسير. وتظلّ نظريات المدىٰ القصير العرضية غير كافية؛ لأنَّه حتىٰ في (الشكل أ - ٢ب) فإنَّ إحراز الغرب لا يزال أعلىٰ معظم الوقت (علىٰ الرغم من أنَّ كلمة «معظم» الآن تعني ٥٦٪ بدلًا من ٩٢,٥%)، وكذلك الحال أيضًا بالنسبة إلىٰ نظريات المدىٰ الطويل الحتمية؛ لأنَّه حتىٰ في (الشكل أ - ٢أ) فإنَّ الشرق يأخذ الصدارة طيلة سبعة قرون. ويظل كل من علم الأحياء وعلم الاجتماع التفسيرات الأكثر ترجيحًا لحركة التطور لأعلىٰ ولكن بشكل متقطع، بينما تظلّ الجغرافيا هي أكثر تفسير معقول لهيمنة الغرب.





(الشكل أ - ٢). كشف الأخطاء: آثار الأخطاء المنهجية في إحرازات التطور الاجتماعي؛ (أ) ترفع كل الإحرازات الغربية بنسبة ١٠٪، وتقلِّل كل الإحرازات الشرقية بالمقدار نفسه، (ب) ترفع كل الإحرازات الشرقية بنسبة ١٠٪، وتقلِّل كل الإحرازات الغربية بالمقدار نفسه .

ولتغيير الأنماط الأساسية فإن تقديراتي ستكون غير صحيحة بنسبة ٢٠٪.

ويبيِّن (الشكل أ - ٣أ) كيف سيبدو التاريخ إذا كنت دائمًا أُقلِّل من تقدير إحرازات التطور الاجتماعي بنسبة ٢٠٪، وأبالغ في تقدير الإحرازات الشرقية بالمقدار نفسه؛ (الشكل أ - ٣ب)، يمثِّل النتيجة إذا قلَّلت من تقدير إحرازات التطور الشرقي بنسبة ٢٠٪، وبالغت في تقدير الإحرازات الغربية بالقدر نفسه.

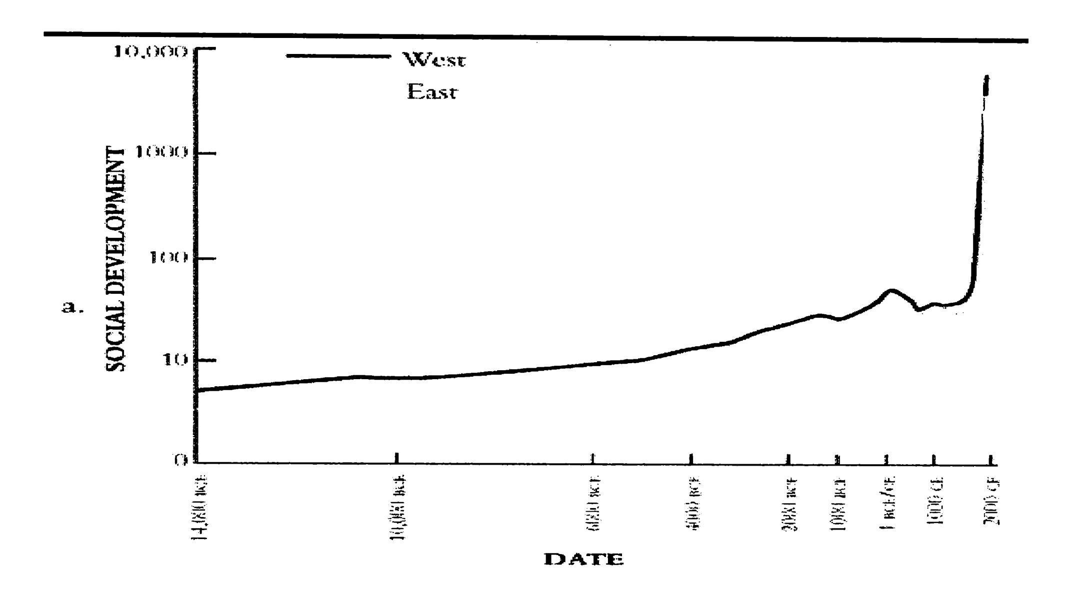
وهذه المرة تبدو الأنماط مختلفة تمامًا. في (الشكل أ - ٣أ)، الإحراز الغربي دائمًا أعلىٰ من الإحراز الشرقي، ممَّا يجعل نظريات المدىٰ الطويل الحتمية تبدو معقولة جدًّا، كما يبطل ادعائي بأنَّ التطور الاجتماعي يغيِّر معنىٰ الجغرافيا. يعكس (الشكل أ - ٣ب)، علىٰ النقيض من ذلك، نتائج مؤشري الفعلي بشكل مؤثر، مع صدارة الشرق بنسبة ٩٠٪ من الوقت منذ العصر الجليدي.

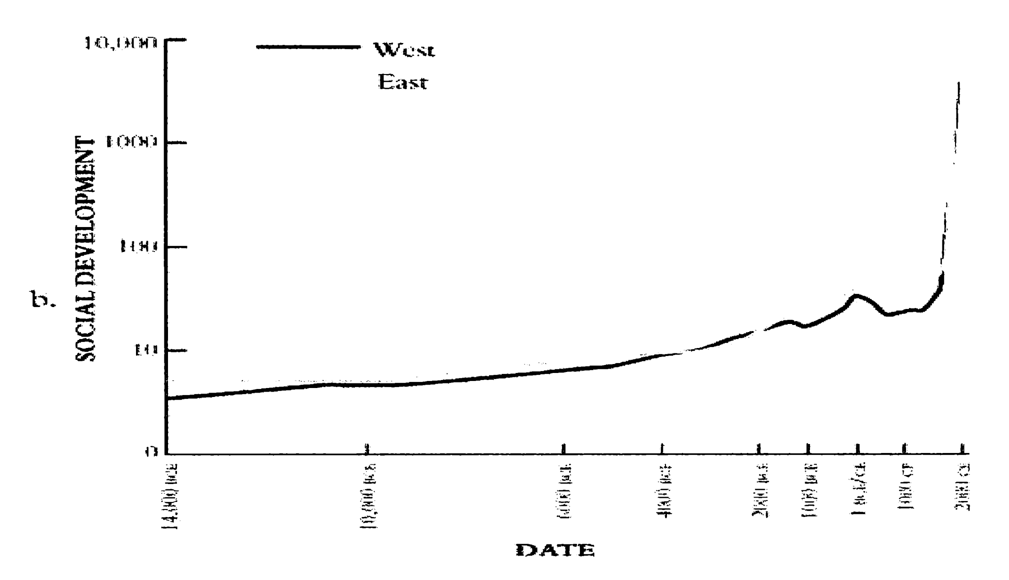
وإذا كان أي من الشكليْن (أ - ٣أ)، أو (أ - ٣ب) صحيحًا، فإنَّ كل ما قرأته في هذا الكتاب محض خطأ. ولكننا علىٰ ثقة بأنَّهما غير صحيحين. يخبرنا (الشكل أ - ٣أ)، الذي يمثل ارتفاع الإحرازات الغربية وانخفاض الإحرازات الشرقية بنسبة ٢٠٪، بأنَّ تطور روما الإمبراطوري في عامي ١ ق. م /١م لم يكن متأخرًا عن تطور اليابان في عام ١٩٠٠م سوىٰ بخمس نقاط فقط، وهو ما لا يمكن أن يكون صحيحًا، بينما (الشكل أ - ٣ب)، الذي يمثِّل ارتفاع الإحرازات الشرقية والغربية بنسبة ٢٠٪، يعني أنَّ التطور الشرقي كان أعلىٰ في أوقات ما قبل سلالة شانج ممَّا سيكون عليه التطور الغربي تحت حكم الإمبراطورية الفارسية، وأنَّ الغرب قد لحق بالشرق في عام ١٨٢٨م، عشية حرب الأفيون، وأنَّ الهيمنة الغربية انتهت بالفعل في عام ٢٠٠٣م. ولا يبدو أي من هذا جديرًا بالثقة.

ولذلك، فإنَّ اقتراحاتي في الفصل الثالث هي: (أ) أنَّ هامش الخطأ في تقديراتي علىٰ الأرجح أقل من ١٠٪، وبالتأكيد أقل من ٢٠٪؛ (ب) حتىٰ إذا ارتفع هامش الخطأ إلىٰ نسبة ١٠٪، فإنَّ الأنماط التاريخية الأساسية التي أحاول شرحها ما زالت صحيحة.

الخـتـام

علَّقتُ عدة مرات في الفصل الثالث بأنَّ صناعة مؤشر للتطور الاجتماعي هو مثل فن نحت الخشب بالمنشار. وأفضل ما يفعله مؤشر ما هو أن يعطينا تقريبًا جيدًا بما يكفي لجعل افتراضات مصمِّم المؤشر واضحةً. ولقد جادلتُ أنَّ السبب الرئيس في أنَّنا أخفقنا لفترة طويلة في تفسير لماذا يهيمن الغرب؛ هو أنَّ الرواد قد عرَّفوا مصطلحاتهم بطرائق مختلفة، وركَّزوا علىٰ جوانب مختلفة من المشكلة. ولذا فإنَّ الفعل البسيط لتصميم مؤشر ينبغي أن يدفع الجدال قُدمًا. وسيضطر منتقدو هذا الكتاب الذين يثيرون أول الاعتراضات التي عدَّدتها في بداية هذا التذييل -أنَّ المقارنات الكمية غير مقبولة؛ لأنَّها تجرِّدنا من إنسانيتنا- إما أن يجدوا طريقة أخرىٰ لتفسير لماذا يهيمن الغرب، وإما أن يُبيِّنوا لماذا لا يجب علينا أن نسأل هذا السؤال علىٰ الإطلاق، في حين سيضطر النقَّاد الذين يثيرون الاعتراضات (من ٢ إلىٰ ٤) -وهي أنَّني عرَّفت التطور الاجتماعي علىٰ نحو سيئ، واستخدمت السمات الخاطئة أو أسأت فهم الأدلة- إلىٰ أن يأتوا بمؤشرات أفضل. وعندها ربما سنرىٰ بعض التقدم الحقيقي.





(موضع الشكل أ - ٣). خطأ أكبر: (أ) يرفع كل الإحرازات الغربية ويقلّل كل الإحرازات الشرقية بنسبة ٢٠%؛ (ب) يرفع كل النقاط الشرقية ويقلّل كل الإحرازات الغربية بنسبة ٢٠%.

مركز نماء للبحوث والدراسات

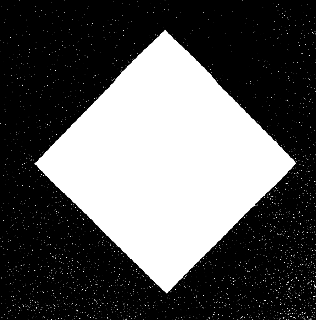
مركز بحثي، يُعنى بتنمية العقل الشرعي والفكري، وتطوير خطابه وأدواته المعرفية بما يُمكِّنه من حُسن التعامل مع تراثه الإسلامي، والانفتاح الواعي على المعارف والتجارب العالمية المعاصرة.

ويسعى إلى بناء خطاب إسلامي معتدل، متصل بحركة التنمية، حسن الفهم لمحكمات الشريعة، قوي الانتماء لها، قادر على الإقناع بها، ويمتلك في المساحات الاجتهادية: المرونة والمهارة والآداب الكافية، خطاب حسن الفهم للأطروحات الفكرية المعاصرة، قادر على فهمها وفحصها ونقدها.

ويُشارك المركز في صناعة القيادات الشرعية والفكرية التي تمتلك إلى جانب رصيدها الشرعي؛ أدوات المعرفة المعاصرة، ومهارات التواصل التي تُمكنها من القدرة على إيصال رسالتها على أكمل وجه ممكن.

يستهدف الباحثين وطلبة الدراسات العليا، والنخب والشباب المثقف وصناع القرار في المجال الشرعي والفكري.

يشتغل لتوصيل رسالته عبر إصدار البحوث والدراسات، والنشر الإلكتروني، وإقامة الندوات وحلقات النقاش، والتدريب، والاستشارات، والبرامج الإعلامية والإعلام الجديد.



سلسلة ترجمات:

سلسلة تعتني بانتقاء المتميز من البحوث والدراسات غير العربية، والتي تلتقي مع المركز في خطوط مشاريعه المختلفة، وذلك إثراء لمضامين مشاريع المركز بعرض وجهات نظر متعددة وأطروحات مختلفة لكتاب من بلدان متنوعة، ولغات شتى.

وعلى الرغم من التحديات التي يثيرها مجال الترجمة سواء على المستوى التقني لعملية الترجمة وصعوباتها، أو على مستوى احتواء الكتب المترجمة على وجهات نظر قد تكون مثاراً للنقاش والجدل وليست بالضرورة معبرة عن رأي المركز؛ إلا أننا اخترنا خوض التحدي في هذا المجال واضعين في الاعتبار القيمة الموضوعية للكتب المختارة والإضافة التي يقدمها الكتاب في مجاله، ولو من حيث أهمية اطلاع القارئ العربي عليه، وقيام الباحثين بمناقشة أفكاره بعد كسر حاجز اللغة وتوفرها لهم باللغة العربية.



مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

nama-center.com
info@nama-center.com

لماذا هذا الكتاب ؟

كثيرًا ما تمثل عملية قراءة التاريخ والربط بين أحداثه ومواقفه المفصلية عقبة في القدرة على إنجاز قراءة تفسيرية لما آل إليه الواقع الذي نعيشه. بينما تصبح قراءة التاريخ وفق العدسات الأيديولوجية المختلفة عقبة أخرى يحتاج القارىء لتاريخ الأمم الممتد من آلاف السنين لتجاوز إشكالياتها ليُكوِّن رؤية موضوعية تفسيرية مقبولة.

تأتي هذه الدراسة، في نسختها العربية عن مركز نماء، سعى من خلالها المؤلف لتشكيل نظرية حقلية موحدة للتاريخ، ولبلورة إجابات حقيقية لأحد أهم الأسئلة التاريخية الراهنة: لماذا وصلت الحضارة الغربية إلى موقع السيطرة الحالي؟ وما هي السياقات التاريخية التي أدت إلى ذلك؟ وذلك من خلال سرد تاريخي متجانس يشرح من خلاله كيف حدث الانقسام بين الشرق والغرب، ومدى أهمية الإجابة عن ذلك أصلًا، وكيف يمكن أن نقرأ مستقبل هذا الانقسام وسيرورة هذه الهيمنة الغربية، وذلك وفق النسيج التاريخي الذي يسير وفقه في البحث.

إن استيعاب المؤلف للتاريخ القديم والآثار الكلاسيكية، بوصفه أستاذًا متخصصا فيهما، سهل عليه إلقاء الضوء على مساحة تاريخية واسعة منذ آلاف السنين قبل الميلاد وحتى القرن الواحد والعشرين الميلادي، وذلك في طريق سعيه لتحقيق قراءة شمولية ومثيرة للعلاقات بين الشرق والغرب، مستنطقًا منها أسباب ومآلات الهيمنة الغربية ومصيرها.

المؤلف:

إيان موريس

Ian Morris

أستاذ التاريخ والآثار بجامعة ستانفورد، تخرج في جامعة بيرمنجهام عام ١٩٨١م، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة كامبريدج عام ١٩٨٥م. له أربعة عشر كتابا يركز العديد منها على الأنماط الكبيرة في تاريخ العالم والاتجاهات المستقبلية المحتملة.

المترجمة:

روان القصاص

طبيبة أسنان ومترجمة مصرية.

المراجع:

محمد كمال

مترجم وباحث مصري مهتم بالفلسفة والعلوم الاجتماعية ودراسات الترجمة.

الثمن: 30 $
أو ما يعادلها





ISBN 978-614-431-661-0
9 786144 316610